



د. حسن حنفي

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

من النقل إلى العقل

الجزء الثالث

علم السيرة

(من الرسول إلى الرسالة)

"من الرسول إلى الرسالة" هو الجزء الثالث من
"من النقل إلى الصقل" محاولة لإعادة بناء
علم السيرة.

يعرض أولا لتصريف علم السيرة، وتدوين
السيرة، ثم ينتقل ثانيا إلى تأسيس الرسالة:
جذورها، ونشأتها. ثم يعرض ثالثا بداية
الرسالة: الإعلان عنها، وانتشارها. ثم يعرض
رابعا نهاية الرسالة: اكتمالها، ومصيرها. ثم
ينتقل خامسا إلى تشخيص الرسالة: انصرافها،
شخص الرسول.



ISBN# 9789774486777



6 221149 031579

المكتبة العامة للكتاب



د. حسن حنفي

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

الأعمال الكاملة

رئيس مجلس الإدارة

ورئيس التحرير

د. أحمد مجاهد

مدير التحرير

جودة رفاعي

تصميم الغلاف

أحمد أغا

الأعمال الكاملة، سلسلة تعنى بنشر

الثقافة الأدبية الرفيعة لكبار مبدعينا

تصدر عن الهيئة المصرية العامة

للكتاب - وزارة الثقافة

التنفيذ والطباعة :

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر السلسلة وإنما تعبر عن رأي كاتبها

المراسلات باسم السيد رئيس التحرير - الهيئة المصرية العامة للكتاب - كورنيش النيل - القاهرة

Email: info@gebo.gov.eg

ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ - ٢٥٧٧٥٢٢٨

حنفى، حسن.
الأعمال الكاملة/ حسن حنفى. - القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.
مج ٢٤: ٢ سم. - (الأعمال الكاملة)
المحتويات: ج ٢. من النقل إلى العقل. (القسم الثالث)
علم السيرة (من الرسول إلى الرسالة)
تدمك ٧ ٦٧٧ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإسلام - مجموعات.
أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٤٠٥ / ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 677 - 7

ديوى ٢١٠.٨

حقوق الطبع محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب

يحظر إعادة الطبع أو الاقتباس من المادة المنشورة دون إذن كتابى مسبق

د. حسن حنفي

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

من النقل إلى العقل

الجزء الثالث

علم التفسير

من الرسول إلى الرسالة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

الإهداء..

إلى كل من يسهم في القضاء

على عبادة الأشخاص

حسن حنفى

القاهرة ١١ فبراير ٢٠١١

تصدير

نهاية المطاف للجبهة الأولى

«من النقل إلى العقل» هى محاولة لإعادة بناء العلوم العقلية الخمسة بعد أن تركها القدماء والمحدثون كما وضعها الأوائل مكتفين بوضعها تاركين للزمن تطويرها. وهى: علوم القرآن، علوم الحديث، علم التفسير، علم السيرة، علم الفقه بصرف النظر عن الترتيب. وهى العلوم السائدة فى الكليات الأزهرية والكليات الدينية والتى تخشى كليات الآداب عامة وأقسام الفلسفة خاصة الاقتراب منها. وهى الأقدر على دراستها خاصة وأنها كليات الآداب والعلوم الإنسانية.

وهى أكثر العلوم تأثيراً فى الحياة العامة والخاصة استشهاداً بحجة القول «قال الله» و«قال الرسول» القائم على منهج الانتقاء، والانتزاع من السياق والاختيار وفقاً للأهواء اعتماداً على سلطة النص منفصلاً عن سلطة العقل. فيتحول النص إلى مقدس، يدخل فى معارك التفسير والتأويل والتى تصل إلى حد التكفير. وتقوى جذور السلفية منذ أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب.

والسؤال بالنسبة لنا: لماذا تبقى هذه العلوم عقلية خالصة ولا تنضم على الأقل إلى مجموعة العلوم العقلية مثل الكلام والفلسفة وأصول الفقه والتصوف؟ لماذا لا يتم تحويلها إلى علوم إنسانية، فالقرآن علم النص، والحديث علم الرواية، والتفسير علم الهرمنيوطيقا، والسيرة علم التاريخ، والفقه علم القانون؟ إن العقل أساس النقل. ومن قدح فى العقل فقد قدح فى النقل. النقل دون عقل يبقى ظنياً خالصاً فى حين أنه بتأسيسه على العقل يصبح أقرب إلى اليقين. ولماذا ندافع عن العقلانية ولا نقضى على جذور اللاعقلانية من تراثنا القديم أى من ثقافتنا الشعبية بعد أن تحولت أجزاء فيه إلى أمثال عامية؟ وهل تنجح المشاريع العربية المعاصرة مثل «نقد العقل العربى» فى إرساء قواعد العقلانية فى أرض ثقافتها عقلية؟ وهل تنجح عقلانية عربية مستمدة من العقلانية الغربية العلمية أو الرياضية ومقلدة لها والعقلية العربية مغرورة فى العلوم العقلية؟

ولماذا تظل العلوم الإسلامية القديمة ثابتة فى لحظة تاريخية واحدة، لا تتطور والزمن يتغير؟ إن العلوم جزء من الثقافة. والثقافة تتغير بتغير العصور والأزمان. العلوم مثل الفلسفات والفنون جزء من تصورات العالم التى تعبر عن تطور الوعى الإنسانى.

إن أخطر ما يهدد العلم نزعتان متناقضتان: القطعية والشك. الأولى تجزم باليقين المطلق الثابت الذي لا يتغير حتى لو عارضت اليقين العقلي أو اليقين الحسي. والثانية الشك في كل شيء وعدم التسليم بشيء حتى لو كان البدهة العقلية أو الحسية. وهما النزعتان اللتان تؤديان إلى الإثبات المطلق أو الرفض المطلق. وقد تكون مرحلتين متتاليتين. البداية بالقطعية والنهاية أو البداية الثانية بالشك. هكذا كان الحال في الغرب عندما بدأ بالقطعية عند بوسويه وليبستز، وكانت البداية الثانية بالشك عند ديكرت في القرن السابع عشر. ويكفي نحن أن نتساءل دون إصدار حكم. ونترك إصدار الأحكام إلى الأجيال القادمة. والتساؤل جزء من ثقافتنا داخل في قلب النص ويسألونك عن..... سباه ياسبرز الفلسفة «التساؤلية». وكانت الأسئلة قديما من وحى عصرها: المحيض، الإنفاق، الخمر والميسر، الأهله، الشهر الحرام، اليتامى، الجبال، الروح، ماذا ينفقون. ونسأل نحن في هذا العصر عن الاستبداد، والقهر، وحقوق الإنسان، والفقر، والظلم، والاستعمار، والصهيونية، والعولمة، والأحكام تتغير وتبدل فيها عرف باسم الناسخ والمنسوخ طبقا لتغير الأزمان. فالأحكام الشرعية تسير وفقا للمصالح العامة.

لقد آن الأوان أن نبدأ الإصلاح من الجذور بدلا من أن نبدأ منذ قرنين من الزمان ويكبو جيلا وراء جيل حتى نحصل على ثورة دائمة بدلا من مجرد الطموح إليها ولا تأتي بل تكبو. إذ أنها تبدأ عاجزة. لذلك أصبح التقدم لدينا دائريا أو متجها إلى الخلف وليس متجها إلى الأمام. ونؤجل معركته خوفا من الصدام مع معوقاته. وفي نفس الوقت نعجب بمفهوم التقدم المستمر إلى الأمام في الغرب الذي دخل معاركه وانتصر فيها.

لقد ظهر الجزء الأول من «النقل إلى العقل» عن «علوم القرآن»، والجزء الثاني عن «علم الحديث» في بيروت ٢٠١٠ لما عرفت عنه من شجاعة فكرية وحرية رأى. ويبدو أنه لا عاصمة عربية تعلو على القاهرة التي احتضنت الأجزاء الخمسة: القرآن، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه كمقدمة للطبعة الثمانية لأحد مفكريها. تتلوها «من النص إلى الواقع» في علم أصول الفقه ثم «من الفناء إلى البقاء» في علوم التصوف ثم «محمد إقبال». وعسى أن يطول الأجل لإتمام باقى الأجزاء وآخرها الجبهة الثالثة «الموقف من الواقع» أو «نظرية التفسير». وتظل الهيئة العامة للكتاب الأمانة على حرية الرأى منذ بولاق حتى الضفة الأخرى كورنيش النيل. وحاضنة لمفكريها الأحرار بالرغم مما يبدو عليها من كبوات وقتية سرعان ما تنهض بعدها لتستأنف تاريخها.

حسن حنفى

مدينة نصر ٢٠١٣/٦/٣٠

مقدمة^(١)

من نقد السند والمتن إلى الرسول والرسالة

وكما جرت العادة في النقد الذاتي، من مؤلف إلى آخر، من أجل التعلم المستمر، ولزيد من الإحكام وطلب الكمال فإنه يمكن الإشارة إلى النقاط الآتية في النقد الذاتي لعلوم الحديث:

١ - بالرغم من أهمية الكشف عن نصوص القدماء وبنية العلم القديمة إلا أن تحليلها كان في صلب الصفحة وليس في الهامش. لذلك تجاوز هذا الجزء تحليل المؤلفات في الموضوع الكلي أو في الموضوعات الجزئية والاستغراق في عرضها، بنية وشواهد ولغة، كما وكيفا. وتجاوز العرض إلى التأليف كمقدمة للإبداع^(٢). فالغوص في مؤلفات القدماء يطغى على تقدمهم وتجاوزهم إلى تحليل المحدثين. ويبدو عليه الطابع المدرسي التجميعي وليس طابع الأستاذ المبدع. وبالتالي تم استبعاد «التأليف في الموضوع»، وترتيب المؤلفات زمانيا لمعرفة تطور التأليف في العلم ومساره، وأنه لم يبق على نمط واحد، وكيف يغير هذا التأليف الجديد مسار العلم^(٣). وحتى لا تبدو السيرة قافزة من الأهواء فقد تم تخصيص الفصل الثاني من الباب الأول «علم السيرة» للموضوع «تدوين السيرة»، والفصل الأول من الباب الخامس «تشخيص الرسالة» لموضوع «انحراف الرسالة».

(١) هذا هو الجزء الثالث من «النقل إلى العقل» بعد الجزء الأول «علوم القرآن»، والجزء الثاني «علوم الحديث» اللذين صدرا في دار الأمير في بيروت ٢٠٠٩-٢٠١٠.

(٢) من النقل إلى الإبداع مج ٢، ٣.

(٣) استعمل هوسرل هذه الطريقة في «المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي»، تأويل الظاهريات ص ٦٩-

٧٦، علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، حصار الزمن ج ٣، الماضي والمستقبل (علوم) ص ٥٣-

٢- عدم استعمال آليات التخفي إلا بحساب ومن ضمنها الغوص في تحليلات القدماء وظهور الجديد بين الحين والآخر ثم العودة من جديد إلى القديم كي يشرأب الجديد برأسه بين الحين والآخر وهو غاطس في الماء أو كمن يسير مغطيا وجهه ثم يزيح النقاب عنه بين الحين والآخر ثم يعود إليه. فالطريقة القديمة تجعل التحليل أقرب إلى القديم منه إلى الجديد. وقد تبعد القارئ غير المتخصص عنه لأنه لا يجد فيه ما ينشده في عصر طغى فيه الإعلام على البحث العلمي، وأصبح منبرا لنشر الأفكار الجديدة وإثارة الرأي العام وليس لتقدم البحث العلمي. صحيح أن مشروع «التراث والتجديد» له حضوره في الأوساط العلمية ولكن ليس له تأثيره على الجمهور. وصحيح أيضا أن المقالات الأسبوعية في الثقافة السياسية حاولت إكمال هذا النقص ولكنها في النهاية لقطات وقتية على الواقع مثل عشرات اللقطات الأخرى من اتجاهات مختلفة^(١). ولم يحن الوقت بعد للكشف عن القناع والتخلي عن آليات التخفي نظرا لطغيان محاكم التفتيش وموجات التكفير بعد انحسار العصر الليبرالي والفكر الحر. وما زال الذكاء الديكارتي في حالتنا الراهنة أفضل من الصراحة الاسينوزية. فلم يكن جاليليو بعيدا عن الأذهان. وما زال حيا في الذاكرة.

٣- لما كانت العلوم النقلية في حاجة إلى إعادة بناء جذري، وهز من الأساس فإن مزيدا من الإعلان وقليلًا من التخفي قد يؤدي هذا الغرض. وإذا كانت علوم القرآن وعلوم الحديث تتعلق بمصدرري الوحي الأساسيين، «الكتاب والسنة»، فإن علوم السيرة أقل لأنها تتعامل مع الحامل دون المحمول، مع الرسول وليس الرسالة، مع التاريخ وليس الوحي. ويسلم الجميع الآن بأن كثيرا من الأساطير قد دخلت فيها من الإسرائيليات ومن غيرها، ومن الخيال الشعبي ونظم الحكم التي أخرجت الاحتفال بالمولد النبوي منذ الدولة الفاطمية لأسباب دينية، التحول إلى المذهب الشيعي، وأسباب سياسية، الطاعة لأولى الأمر، وكثيرا من الأساطير حول حياة الرسول قبل

(١) من ذلك في الآونة الأخيرة: نظرية الدوائر الثلاث (جزءان)، دار العين، القاهرة ٢٠٠٨، وطن بلا صاحب، عرب هذا الزمان، المركز الثقافي، دمشق ٢٠٠٨، الوحي والواقع (تحليل المضمون)، المركز الثقافي، دمشق ٢٠١٠.

الرسالة وبعدها حتى لا يقل روعة وحضوراً عن أنبياء بني إسرائيل، خاصة موسى وعيسى. وقد حاولت بعض السير المعاصرة ذلك بحياء شديد. ونسيها الناس، ولم تؤثر في مسار العلم لغلبة طابعها الأدبي أو السياسي أو الإنساني^(١). ومع ذلك نظراً لتحول الرسول في الدين الشعبي إلى مقدس لا يمكن التعامل معه إلا تحت مقولة المقدس فإنه يصعب إخراجه منها إلا عن طريق نقد الروايات: فالروايات عمل إنساني حتى ولو كان الموضوع مقدساً. فالمقدس يُنقل من خلال الدنيوي.

٤- مشروع «التراث والتجديد» هو جمع بين الماضي والحاضر، بين القديم والجديد، بين الأصالة والمعاصرة. يبين كيف يخرج الجديد من القديم بهمّ العصر وفعل الزمن. ولا توجد معادلة حسابية مثالية للجمع بين الاثنين. لا يوجد ميزان من ذهب. قد يأتي البحث أقرب إلى القديم منه إلى الجديد، وذلك للحفر في الجذور. وكلما كان الحفر عميقاً كانت إمكانية ظهور الماء بلغة القدماء أو النفط بلغة المحدثين أكبر^(٢). التراث وحده لا يفيد، وتكرار لما قام به القدماء، وعرض لإنجازاتهم واجتهاداتهم في عصرهم. والتجديد وحده مكانه مقال يعتمد على الفكر وحده دون ما حاجة إلى غرز، ولتوسيع قاعدة القراء غير المتخصصين^(٣). واللغة الأدبية الشعرية لا تكفي؛ لأنها تجديد في

(١) الأدبي عند محمد حسين هيكل وطه حسين في «على هامش السيرة» و«في منزل الوحي»، والعقادي «عبقريّة محمد»، والسياسي عند عبد الرحمن الشراوي في «محمد رسول الحرية»، والإنساني عند نظمي لوقا في «محمد، الرسالة والرسول». وقد حاول أحد المستشرقين الهولنديين أنتوني فيسلز Anthony Wessels تتبع صور أربعة منها في أربع سير معاصرة.

(٢) تضخم التراث حتى أصبح جزءاً من جزأين في «من النص إلى الواقع»، الجزء الأول «تكوين النص» كما تضخم في «من الفناء إلى البقاء» حتى شمل الجزء الأول «الوعي الموضوعي» وكان مجرد مقدمة في «من العقيدة إلى الثورة» في المقدمات النظرية، الفصل الثاني «تطور العلم». وأصبح طاغياً غاماً في «من النقل إلى الإبداع» في أجزائه التسعة لبيان كيفية خروج الإبداع من النقل عن طريق تحليل المضمون.

(٣) وقد تم ذلك في «قضايا معاصرة» الجزء الأول في فكرنا المعاصر، «دراسات إسلامية»، «دراسات فلسفية»، «مهوم الفكر والوطن»، جزءان: الأول «التراث والعصر والحدائق»، والثاني «في الفكر العربي المعاصر»، حصار الزمن، ثلاثة أجزاء الأول إشكالات، والثاني «الحاضر»، والثالث «علوم الماضي والمستقبل». وكذلك دراستنا بالإنجليزية:

Islam in the modern world (2 vols) I- Religion Ideology and Development، II- Religion، Revolution and Cultures and Civilizations، in Conflict or Dialogue? (2 Vols) I- The Meridian Thought II- Cultural Creativity and Religious Dialogue.

الأسلوب وليس في التصورات كما تفعل بعض السير الأدبية المعاصرة بالرغم من ذبوع مناهج النقد التاريخي إما من آثار القدماء، علم الرواية، وإما عن المحدثين، النقد التاريخي للكتب المقدسة^(١).

وكما تمت صياغة الحدس الأول في «علوم القرآن» من المحمول إلى الحامل في «الوحي والواقع»، دراسة في أسباب النزول^(٢)، وتمت صياغة الحدس الأول في علوم الحديث في «من نقد السند إلى نقد المتن»^(٣)، كذلك تمت صياغة الحدس الأول في «علم السيرة، من الرسول إلى الرسالة» في «محمد» الشخص أم المبدأ؟^(٤). فهم إعادة بناء العلوم الثقيلة هم قديم مواز لهم بناء العلوم الثقيلة العقلية الأربعة، الكلام والفلسفة والتصوف والأصول. وهو ما قد تم من قبل^(٥). وكل شيء في أوانه^(٦). والباعث على بقاء هذا المهم هو عبادة الأشخاص في حياتنا السياسية والاجتماعية، المجتمع البطريركي، مجتمع «سي السيد». وهي طريقة التعامل مع الرسول بعد أن طغى على الرسالة في «علوم السيرة» وتحول محور السيرة من الرسالة إلى الرسول.

الجزء الثالث من النقل إلى العقل «علوم السيرة، من الرسول إلى الرسالة»، يدخل ضمن سير الإصلاحيين والمجددين في العصر الحديث، واستكمالاً لجهود جبران وطه حسين وهيكل والعقاد ونظمي لوقا والشرقاوي وخلف الله وغيرهم. وليست بدعا بين السير، ولا هرطقة بالنسبة للقدماء. فالمحدثون مع القدماء يكونون التراث الإسلامي. وما زالت هموم العصر مطردة منذ قرنين من الزمان حتى الآن.

(١) انظر دراستنا: على هامش السيرة (لطف حسين)، حصار الزمن، ج٢ الحاضر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤ ص ١٩٧-٢٢١.

(٢) هموم الفكر والوطن ج١، التراث والعصر والحدائق ص ١٧-٥٦.

(٣) حصار الزمن ج٣ الماضي والمستقبل (علوم) ص ٥٣-١٦٥.

(٤) الدين والثورة في مصر ج٧ اليمين واليسار في الفكر الديني ص ١٦٣-١٦٧.

(٥) أ- «من العقيدة إلى الثورة» (خمس أجزاء) ج١، مديبولي، القاهرة ١٩٨٧-١٩٨٨ ب- من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء) ط١، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠-٢٠٠٢، ج- من النص إلى الواقع (جزءان) ط١، مركز الكتاب للنشر القاهرة ٢٠٠٥، د- من الفناء إلى البقاء (جزءان) ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٩.

(٦) صدر من قبل أ- «علوم القرآن»، من المحمول إلى الحامل، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩. ب- علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

الباب الأول

علم السيرة

الفصل الأول

تعريف السيرة

١ - السيرة كعلم نقلي

علوم السيرة هو الجزء الرابع من العلوم التقليدية طبقا لترتيبها المنطقي. أولا علوم القرآن باعتبار أن الرحي هو المصدر الأول للعلم من المحمول إلى الحامل. ثانيا علوم الحديث باعتبار أن الحديث هو المصدر الثاني للعلم وكيفية تحويله من نقد السند إلى نقد المتن. ثالثا علوم التفسير وكيفية فهمه من التفسير الطولي إلى التفسير العرضي، رابعا علوم السيرة عودا إلى المصدر الثاني وكيفية تصحيح مساره من الرسول إلى الرسالة. خامسا علوم الفقه باعتبارها تقنيًا للسلوك اعتمادا على المصدرين الأولين، وكيفية قلب الأولوية من العبادات إلى المعاملات. ومع ذلك هو الجزء الثالث أيضا باعتبارها أول تشخيص للحديث وتركيزه حول مصدره وهو الرسول^(١).

وعلوم السيرة أصغر العلوم من حيث الكم. كما أن علوم التفسير أكبرها، وعلوم الفقه بينهما، أكبر من السيرة وأصغر من التفسير. وعلوم القرآن أكبر من علم السيرة وأقرب إليها. وعلوم الفقه أقرب إلى علم التفسير من حيث الكم. علوم السيرة أصغر لأنها تدور حول موضوع واحد هو سيرة الرسول وإن تم تشعبها بعد ذلك في أخلاقه

(١) بالإضافة إلى ذلك خرجت علوم السيرة، الجزء الرابع قبل علوم التفسير، الجزء الثالث، لأنني بدأتها في ألمانيا، أستاذًا زائرًا بجامعة فرانكفورت في الفصل الصيفي ٢٠٠٩، ولم أستطع حل مصادر علوم التفسير لأنها ضخمة لا يتحملها وزن الطائرة. فأحضرت بعض مصادر علوم السيرة، ابن هشام والبستي وابن خلدون التي يسهل حملها.

وشمائله ومعجزاته وصحابه وخلفائه. في حين أن علم الحديث يتضمن موضوعين نقد السند ونقد المتن، وعلوم القرآن تتضمن ثلاثة موضوعات الحوامل الموضوعية وهي المكان والزمان والبيئة الاجتماعية، والحوامل الموضوعية الذاتية وهي الرواية أي التاريخ، والحوامل الذاتية وهي اللغة، القراءة والتفسير والفهم. وقد تضخمت علوم التفسير نظرا لأنها تفسر لكل سور القرآن وآياته من الفاتحة إلى الناس. كما تضخم الفقه لأنه عبادات ومعاملات ومذاهب في أدق التفاصيل والخلافات حولها. يمكن السيطرة إذن على علم السيرة من حيث الكم وإن تعددت المؤلفات حول محوريه الرئيسيين، الرسالة والرسول.

وتأرجح السيرة بين تسميتها علما بالمفرد أم علوما بالجمع مثل الحديث والتفسير والفقه. إنما القرآن فقط هو العلوم بالجمع، علم القراءة وعلم التدوين على الأقل. ونظرا لأن السيرة مركبة من عدة علوم، التاريخ والقرآن والحديث واللغة، فإنها ظلت علوما بالجمع مثل علوم القرآن وعلوم الحديث مع أنها يمكن أن تكون مفردا، علم السيرة. بل يمكن إسقاط اللفظ كلية مفردا أو جمعا ويظل موضوع العلم، الحديث، التفسير، السيرة، الفقه باستثناء القرآن الذي وصفه القدماء بأنه علوم. ونظرا لاعتماد السيرة على علوم القرآن والحديث والفقه بل والتفسير فإنه يمكن أن يُطلق عليها لفظ «علوم» بالجمع. وقد دخلت فيها علوم فرعية أخرى مثل علم الأخلاق وعلم الكلام، أو التصوف والأخلاق للفضائل، والكلام للعقائد.

وهي علوم قديمة نشأت منذ القرن الثاني الهجري. فأقدمها سيرة ابن إسحق (١٥٢هـ)، وسيرة ابن هشام (٢١٣/٢١٨هـ). ومازال التأليف فيها مستمرا من القدماء حتى ابن كثير (٧٧٤هـ) أو المحدثين «حياة محمد» و«في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م) و«على هامش السيرة» لطف حسين (١٩٧٣م) و«محمد رسول الحرية» لعبد الرحمن الشراوي (١٩٨٧م). ومازال التأليف في السيرة مستمرا حبا في الرسول وإعجابا به، وتعبيرا عن صدق إيمان المؤلف والمغلاة في معجزاته. بل قد ساهم المسيحيون في ذلك، فالرسول قائد وزعيم أمة بصرف النظر عما يدعو إليه مثل «محمد، الرسالة والرسول» لنظمي لوقا (١٩٨٧م).

وقد تم التأليف في السيرة في نفس الوقت الذي تم التأليف فيه في القرآن ثم أتى الحديث بعد ذلك خوفا من اختلاطه بالقرآن. وكان الدافع عليه هو التاريخ. لذلك

عكست مناهج المؤرخين في الرصد والتسجيل والإخبار وإعطاء المعلومات، ومناهج المحدثين في السند والرواية. فالتخوم بين العلوم النقلية الخمسة غير واضحة، بل متداخلة يصعب التمييز بينها إلا من حيث القلب دون الأطراف.

٢- السيرة وعلم التاريخ

السيرة جزء من علم التاريخ^(١). ساهم فيها المؤرخون أولاً قبل أن يتخصص فيها علماء السيرة. لذلك يغلب عليها رصد الحوادث والأسماء. وأحياناً يتحول التاريخ إلى مجرد رصد دون دلالات لا على التاريخ العام ولا على تاريخ السيرة. أحياناً يتحول التاريخ إلى تاريخ صرف دون أي دلالة على حياة محمد. وتعود السيرة إلى أصلها في علم التاريخ. ويتحول التاريخ إلى نزعة تاريخية^(٢). لذلك يطغى التاريخ على السيرة. وتتوه السيرة داخل التاريخ. ولا تتركز على شخص الرسول بل على الأحداث التي عاشها الرسول، والسيرة وسطها. وأحياناً تترك السيرة إلى التاريخ، ويترك الفرع إلى الأصل. ويتم التذكير بذلك^(٣).

وأحياناً تنفصل أجزاء السيرة عن كتب التاريخ^(٤). مثل «الثقات» للبستي (٣٥٤هـ) و«المعتبر» لابن خلدون (٨٠٨هـ) وخلاصة ابن كثير (٧٧٤هـ). ليس المقصود السيرة في حد ذاتها. فالسيرة جزء من تاريخ العرب. أصبحت تاريخاً أكثر منها سيرة. ليس لها أول محدد بل أول مقطوع مثل البداية بالأوس والخزرج في سيرة ابن خلدون^(٥). له مصادره التاريخية مثل المسعودي والطبري والسهيلي ويأخذ اقتباسات منهم^(٦). فالتاريخ مصدر

(١) ابن هشام ج١/٥٨٦، شهداء بدر، البستي ج١/١٨٥-٢٠٩، رصد أسماء الأوس والخزرج، ابن خلدون ص ٢٠-٢١.

(٢) نزعة تاريخية Historicism، ابن هشام ج١ ص ٣٩-٥٥/٦٣/٩٤/١٠٣/١٦١.

(٣) رصد الأسماء، السابق ج٢/٥-٩، أولاد عبد المطلب بن هاشم ج١/١١٩، رصد أسماء من هاجر إلى الحبيشة/ ج١/٣٠١-٣٠٨ أول مرة، رصد الأنساب، السابق ج٢/١٠٣-١١٨، رصد حفر الآبار ج١/١٥٢-١٥٥.

(٤) «حديث الفجار أطول مما ذكرت وإنما منعتني من استقصائه قطعه حديث رسول الله»، السابق ج١/٨٦.

(٥) ابن خلدون، البستي ج١.

(٦) ابن خلدون ص ١٥-١٦/٦٤-٦٥/٧١/٨٦.

للسيرة. ولفظ «السيرة» من لفظ السير في «السير والمغازي». فسيرة الرسول جزء من علم السيرة. وأسماء كتب السيرة هي أسماء كتاب التاريخ^(١). وكثير من أخبار وروايات كتب التاريخ لا مصادر لها^(٢).

وترصد أسماء المسلمين والشهداء والمهاجرين والمقاتلين والأنصار والمبايعين والمستهزئين بالرسول ومن وزع عليهم الغنائم، وأسماء الأنساب والأولاد وأسماء الوفود والنقباء، كما ترصد أسماء أفراس المسلمين وخيلهم. وترصد أسماء الأسرى من قريش يوم بدر وقتلاهم، ومقاسم خيبر وأموالها والمطعمون من قريش، وتذكر مساجد الرسول كما تُذكر أسماء الآبار. ويختلط الأحياء بالأموات، المنتصرون بالمنهزمين، المؤمنون بالكفار، المهاجرون بالأنصار، المقاتلون بالآبار، البشر والحيوان^(٣). فتتحول السيرة إلى أرشيف وسجلات. والكل معلومات. والمعلومات للتدوين والحفظ. ومنها دونت الدواوين^(٤).

(١) السابق ص ١٤٨.

(٢) السابق ص ١٦.

(٣) ابن هشام ج ٢/ ٥-١٠ (٣) مقاسم خيبر وأموالها ج ٢/ ٢٩٦-٢٩٩، مهاجرة الحبشة الذين قدم بها عمرو ابن أمية ج ٢/ ٣٠٤-٣١٣، شهداء مؤنة ج ٢/ ٣٢٩-٣٣٠، أسماء من أمر الرسول بقتلهم وسبب ذلك ج ٢/ ٣٤٧-٣٤٨، أسماء من ثبت مع الرسول في هوزان ج ٢/ ٣٧٥، تسمية من استشهد يوم حنين، ج ٢/ ٣٨٨-٣٨٩. شهداء المسلمين يوم الطائف ٤١٢-٤١٣، المبايعون الذين وزعت عليهم غنائم حنين ج ٢/ ٤١٩-٤٢٠. أسماء بناته، مسجد الضراء، ج ٢/ ٤٤٩. أسماء مساجد الرسول فيما بين المدينة وتبوك، ج ٢/ ٤٤٩-٤٥٠ (٢) قدوم الوفود، ج ٢/ ٤٧٣-٥٠٦.

(٤) رصد من عاد من أرض الحبشة كما بلغهم إسلام أهل مكة، ابن هشام ج ١/ ٣٣٦-٣٤١، أسماء المستهزئين بالرسول، ج ١/ ٣٧٤-٣٧٥، أسماء الرهط الخزرجيين الذين التقوا بالرسول عند العقبة ج ١/ ٣٩١-٣٩٢، رجال العقبة الأولى ج ١/ ٣٩٢-٣٩٤، أسماء النقباء الاثنى عشر في العقبة الثانية ج ١/ ٤٠٣-٤٠٤، أسماء من شهد العقبة ج ١/ ٤١٢-٤٢٣، أسماء المهاجرين إلى المدينة ج ١/ ٤٢٤-٤٢٧، المطعمون من المهاجرين بالمدينة ج ١/ ٤٣٢-٤٣٤، الأعداء اليهود ج ١/ ٤٦٢-٤٦٤، ٤٦٧-٤٧٥، المطعمون من قريش، أسماء خيل المسلمين يوم بدر، ج ١/ ٥٨٥-٥٨٧، من حضر بدرا من المسلمين ج ١/ ٥٩٦-٦٠٣، الأنصار ومن معهم ج ١/ ٦٠٣-٦٢١، من استشهد من المسلمين يوم بدر ج ١/ ٦٢١-٦٢٣، من قتل بدر من المشركين ج ١/ ٦٢٣-٦٢٩، ج ١/ ٦٢٨، أسرى قريش يوم بدر ج ٢/ ٥-٩، من استشهد بأحد من المهاجرين ج ٢/ ١٠٤-١٤٦، شهداء يوم الخندق ج ٢/ ٢١٥-٢١٦ (١)، شهداء المسلمين ج ٢/ ٢١٦-٢١٧، أسماء أفراس المسلمين ج ٢/ ٢٤٣ (٣)، القتل من المشركين ج ٢/ ٢٤٣، شهداء خيبر من بني أمية ج ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

وهو تاريخ يعتمد على الروايات، روايات ابن إسحق وروايات ابن هشام. هو تاريخ من خلال الرواية وليس من خلال المشاهدة العيانية أو من خلال تحليل الروايات واستنباط مضمونها. هو تاريخ رؤية الرواة دون نقدها من أجل الوصول إلى الوقائع التاريخية الموضوعية. وهو التاريخ الذي حاول ابن خلدون الخروج عنه، والكشف فيه عن أغلاط المؤرخين الذين يعتمدون في مصادرهم على الروايات غير المحققة، والاتجاه إلى المشاهدة والواقع العياني، ومحاولة التنظير المباشر. هو التاريخ المرئي وليس المروي. في كل فقرة: «قال ابن إسحق» أو «قال ابن هشام». لا يوجد تاريخ خارج القول. فهو تاريخ ذاتي وليس تاريخاً موضوعياً. التاريخ ليس مشاهدة أو رصد بل روايات وأخبار. ولفظ «أخبار» هو المستعمل في علم الحديث وأصول الفقه للدلالة على نقل الحديث وروايته. وتبدأ معظم الفقرات بعبارتي «يقول ابن هشام»، «يقول ابن إسحق»^(١). والتاريخ المروي ليس هو التاريخ المرئي الموضوعي بل هو التاريخ الحي الشعوري كما يعيشه الناس عبر تراثهم الطويل، تاريخ إبراهيم وإسماعيل في مكة. ولا يوجد عند المؤرخين جهد للتحقق من صدق الروايات خاصة من المؤرخين الذين يبدأون كتبهم بالكشف عن أغلاط المؤرخين كابن خلدون. وتصبح السيرة أسطورية طالما أن مصادرها التاريخية أسطورية^(٢).

وتتعدد الروايات في الخبر الواحد دون محاولة التوفيق بينها، وذكرها على ما هي عليه مثل رواية حفر زمزم. فهناك روايتان. كلتاهما مملوءتان بالأساطير، الشيطان في الأولى، والغزالان من ذهب في الحفرة في الثانية^(٣). ولكل رواية مصدرها. والروايتان

(١) «فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم»، ابن هشام ج١/ ٣٢٢، ج١/ ٧١، البستي ج١/ ٢٧-٣٢.

(٢) ابن خلدون: السيرة النبوية ص ٥٧.

(٣) الأولى: رأي عبد المطلب أن يؤمر بحفر طيبة ثم ذهب. ثم عاد مرة ثانية بأمره بحفر برة وذهب. ثم عاد مرة ثالثة وأمر بحفر المزنونة وذهب. ثم عاد مرة رابعة وأمره بحفر زمزم. واختصمته قريش في ولاية البئر. واحتكم الطرفان إلى كاهنة بني سعد في الطريق إلى الشام. فنقد الماء. واقترح عبد المطلب أن يحفر كل رجل بئراً يشرب منها. وإن هلك قبل ظهور الماء يُؤارى فيه. ولم يظهر الماء فارتحل الركب. ثم انبتق الماء من تحت راحلة عبد المطلب فأنقذوا بعد أن شرب منها الجميع. والثانية اقترأ قريش أن تكون الرؤية من الشيطان إن لم تعين مكان الحفر. فلما عُين البئر عن قرية النمل، ابن هشام ج١/ ١٤٨-١٥٠.

عن علي بن أبي طالب. ويستحيل أن يروي علي روايتين مختلفتين. إنما القصد هو إسناد الرواية إلى مصدر موثوق وهو علي. وكل رواية بها إخراج مسرحي. الأولى الأمر بحفرها أربع مرات متتالية مع تغيير اسم البئر. وكان اسم زمزم في المرة الرابعة. والثانية افتراض قريش أن تكون الرؤية من الشيطان لأن المكان لم يُعين. وعينه الغراب بنقره. فلما خاصمته قريش ضرب بالقداح. وللكعبة قرطان أصفران ولعبد المطلب قرطان أسودان، ولقريش قرطان أبيضان. وضربت القداح فخرجت على علي.

وتتعدد الروايات في حمل أمانة ومنها ما لا يليق بأب الرسول^(١). وكذلك تتعدد الروايات في إسلام عمر. وكان إسلامه فاتحة خير على المسلمين. فبفضله تحولت الدعوة من سرية إلى علنية، من الفترة المكية إلى الفترة المدنية. وكان الرسول دائماً يدعو أن يُنصر الإسلام بإسلام عمر أو بإسلام حمزة. وكلاهما كان ذا شكيمة في قريش. وبفضل إسلام عمر بدأ المسلمون يصلون عند الكعبة. كان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً. وكان معروفاً بشدته وأنه لن يسلم حتى يسلم حمارة^(٢).

وهناك أحداث مباشرة دون رواية أو ذكر أو قصة أو خبر وكأن الحدث يتحدث عن نفسه دون رؤية أو إدراك ذاتي^(٣). وليسير المؤرخين أسلوب واضح. فالسيرة ليست

(١) تعرضت امرأة لعبد الله وطلبت لنفسها وتعطيه مائة ناقة كتلك التي دفعها فداء لنفسه، فأبى لوجوده مع أبيه. وفي رواية أخرى دخل عبد الله على امرأة كانت عند أمنة بعد أن غسل نفسه وتوضأ من الطين ودعاها إلى نفسه فلما تباطأت ذهب إلى أمنة فأصابها فحملت بمحمد. ثم مر بالمرأة الأولى ودعاها لنفسه فأبت قائلة «لا، مررت بي وبين عيتيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت علي ودخلت على أمنة فذهبت معها»، ابن هشام ج١/ ١٦٠.

(٢) وفي إسلامه روايتان: الأولى خرج عمر متوشحاً سيفه قاصداً الرسول. وكانت أخته فاطمة وزوجها سعيد قد أسلما من قبل مع رجال من قومه لأن محمداً صبا «فرق أمر قريش وسفه أحلامها. وعاب دينها، وسب أهنتها». فاعترضه أحدهم بأن الأولى به أن يمنع الإسلام من بيته. فعاد عمر إلى أخته وزوجها وسمع قراءة للقرآن فضرى بها. ثم رقى لأخته وطلب قراءة ما في الصحيفة بعد أن تطهر فقرأ سورة «طه» وعاد إلى الرسول وخشى من في الدار، وأذن له الرسول بالدخول، وأسلم، وكبر الرسول. ورواية أخرى بها الصلاة في الكعبة، وتجار الخمر في مكة، وصلاة الرسول بالكعبة، ومتابعة عمر له بالسيف، وهداية الله له «لقد هدانا الله يا عمر»، ابن هشام ج١/ ٣١٨-٣٢٥.

(٣) وذلك مثل استيلاء أبي كرب تبار أسعد على ملك اليمن وغزوه إلى يثرب، ابن هشام ج١/ ٤٠-٤٩، وثوب خثينة ذي شنتر على ملك اليمن ج١/ ٤٩-٥١، غلب أبرهة الأشرم على أمر اليمن وقتل أرباط ج١/ ٦٠-٦١. خروج سيف بن ذي يزن وملك وهرز على اليمن ج١/ ٧٨-٨٣. أولاد عبد المطلب بن

عملا لاهوتيا ولا فلسفيا ولا صوفيا ولا فقها بل هي تاريخ إخباري خالص، خال من التأويل والتنظير والتوجيه الفكري.

٣- السيرة وعلوم القرآن والحديث

والسيرة مصدر كبير لعلوم القرآن خاصة «أسباب النزول». فالحوارات التي جرت في حياة الرسول هي أسباب النزول، والآيات نزلت في مواقف في حياة الرسول. والسؤال يدور حول: هل السيرة مصدر للقرآن أم القرآن مصدر للسيرة؟ فالسيرة مملوءة بالآيات القرآنية. هل تعتمد عليها كمصدر للتاريخ أو أن التاريخ مصدر لها؟^(١). ولا تكاد تخلو صفحة من آية قرآنية خاصة بعد نزول الوحي. وهذا يدل على تداخل العلوم العقلية مع بعضها البعض. فالحديث مصدر لعلوم القرآن في أسباب النزول. والقرآن مصدر للحديث في اعتماده عليه. والسيرة مصدر للقرآن في أسباب النزول وللحديث في أقوال الرسول.

وأحيانا تخرج السيرة عن موضوعها وتصبح أقرب إلى علوم القرآن مثل موضوع «أسباب النزول»^(٢). والسؤال هو: هل أسباب النزول حقيقة تاريخية أم مجرد روايات وتأليف في السيرة؟ وأيهما أكثر تصديقا أسباب النزول في علوم القرآن أم في علوم الحديث أم في علوم السيرة؟ ألم يكتف كل علم «أسباب النزول» طبقا لأهدافه وحاجاته؟ وربما أسباب النزول في العلوم العقلية التقليدية مثل علم الكلام أو علم أصول الفقه لها أهداف خاصة في التربية أو في التشريع.

وتبدو بعض آيات القرآن وكأنها إعادة صياغة لبعض عبارات من قریش. فعندما قالت قریش متعجبة لدعوة الرسول للتوحيد «أجعل الآلهة إنها واحدا إن هذا لشيء

هاشم، ج١/ ١١٨-١٢٠، استيلاء قوم كنانة وخزاعة على البيت وفي جرحهم ج١/ ١٢٢-١٢٥، استيلاء قوم من خزاعة بولاية البيت ج١/ ١٢٥-١٢٦، تزوج قصي بن كلاب حيي بنت مليل ج١/ ١٢٦-١٢٧. غلب قصي بن كلاب على أمر مكة ج١/ ١٣١-١٣٧، حلف الفضول ج١/ ١٣٩-١٤٨، ولادة رسول الله ورضاعته ج١/ ١٦١-١٧٠... الخ.

(١) السابق ج١/ ٢٨٩/ ٣٦٣/ ٤٧٥/ ٥٣٣/ ٥٦٦/ ٥٨٧/ ج٣/ ٣٦/ ٥٥/ ٦١/ ٧١/ ٩١-٩٢ ج٣/ ٩١.

(٢) السابق ج١/ ٤٧٥-٤٧٦.

عجاب» نزلت كآية. فلا فرق بين كلام البشر وكلام الله، بين النزول من السماء إلى الأرض والصعود من الأرض إلى السماء. فليس عمر وحده محدث هذه الأمة في الأحكام بل بعض العرب أيضا. محدثوها في الصياغات كما سأل الوليد المغيرة فاركا عظمة بإصبعه. «من يحجي العظام وهي رميم؟» فنزلت ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(١). بل إن القرآن يستعمل أسماء العرب ومسمياتها للحيوان مثل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. ويصيغها في آية ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾^(٢). فالقرآن حوار مع الثقافة العربية بألفاظها وبيئتها. ويدخل في المعارك كالشعر. فالقرآن في جدل مع الواقع مثل الشعر. دخل القرآن في معارك بدر وأحد وحنين مع المنافقين والكفار والمشركين^(٣).

والسيرة تحول طبيعي من علم الحديث، من الكلام إلى الشخص، ومن القول إلى القائل. أسهم في تدوينها المحدثون كما ساهم المؤرخون. فالسيرة تعليق على الحديث. والسؤال هو: هل الحديث مصدر للسيرة أم أن السيرة مصدر للحديث؟ ألا يوجد دور في الصلة بين الحديث والسيرة كل منهما مصدر للآخر؟ فالسيرة كلام الرسول مع شخص، وأقواله مع أفعاله. الحديث في كتب السيرة، والسيرة في كتب الحديث^(٤). فإثبات أن العرب من نسل إسماعيل وأن الرسول من نسبه يعتمد في ذلك على حديثه^(٥). والتوصية بأهل مصر خيرا لأنهم من نسب إسماعيل يعتمد أيضا على حديث للرسول^(٦). فهل تُعتبر أقوال الرسول في كتب السيرة أحاديث أم هي من عمل المؤرخين ونقل الرواة؟ وإذا كانت أحاديث فلماذا لم تدخل جميعها في كتب الأحاديث وعلى رأسها البخاري؟

(١) السابق ج١/ ٩٦.

(٢) البحيرة بنت السائبة. والسائبة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهما ذكر سُبيت. لم يُركب ظهرها، ولم يُجر وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف. والوصيلة الشاة إذا اتامت عشر إناث متابعات في خمسة أبطن ليس بينهما ذكر. والحام الفحل إذا نتج له عشر إناث متابعات ليس بينهما ذكر حمى ظهره، لم يُركب، ولم يجز وبره، وخلي في إبله، السابق ج١/ ١٠١-١٠٢.

(٣) السابق ج٢/ ٥٤.

(٤) السابق ج١/ ٦-٧/ ٢٩-٣٠.

(٥) السابق ج١/ ٢٩.

(٦) «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم أمة ورحما»، السابق ج١/ ٣٠.

ربما الفرق بين الحديث والسيرة أن الحديث أقوال مباشرة أكثر منها روايات، والسيرة روايات أكثر منها أقوال مباشرة. الحديث يركز على الرسالة أكثر من الرسول، والسيرة تركز على الرسول أكثر من الرسالة، لذلك يحال في هذه السيرة إلى أقوال الرسول أكثر من كتب التاريخ حتى تبدو السيرة وكأنها بقول الرسول وليست رواية عنه^(١). وبعض الأحاديث انتقائية في سيرة ابن خلدون مقارنة بسيرة ابن هشام. وتتوقف السيرة على أي نوع من الأحاديث يُستند إليها.

ويؤخذ بعض القدماء بين النبي والرسول. فكلاهما صاحب رسالة^(٢). وفرق آخرون بأن كليهما نبي أي مطلع على الغيب والإعلام ولكن الرسول يزيد عليه بأنه صاحب رسالة. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا. وهما ليسا وصفين ذاتيين بل وظيفتين خلافا للكرامية. وليست النبوة خبرا وإعلاما وإيهاما وإلهاما بل هي تبليغ لعقائد وليست استنباطا منها لشرائع. وقد انتهت الوظيفتان ليس فقط بنهاية النبي والرسول ولكن بانتهاء دورهما في التاريخ. الفرق بين الرسالة والنبوة، وبين الرسول والنبي، هو أن الرسالة والرسول موضوع علم السيرة في حين أن النبوة والنبي موضوع علم أصول الدين. الرسالة تبليغ من المبلغ إلى المبلغ إليهم في حين أن النبوة علاقة بين الله والنبي عن طريق الوحي^(٣). الرسالة محور أفقي في التاريخ، والنبوة محور رأسي خارج التاريخ. والقرآن يخاطب النبي ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أكثر مما يخاطب الرسول لأن النبوة في علاقة مع الله في حين أن الرسالة في علاقة مع الناس. ويمكن التعرف على صورة الرسول في القرآن بتحليل الألفاظ الدالة عليه مثل «الرسول»، «النبي»، «محمد»، «أحمد» لمعرفة هل تضخم على حساب الرسالة أم أنه مجرد مبلغ لها؟ ويتبادل لفظا «النبي والرسول» دون فصل حاسم بينهما. ويخاطب القرآن ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾. النبي هو اللفظ السامي الذي يتنبأ بالمستقبل، والرسول هو صاحب الرسالة، حاملها ومبلغها. النبي يدل على العلاقة الرأسية في النبوة بين النبي والله، والرسول على العلاقة الأفقية

(١) هذا الذي يسمى في السير الذاتية الغربية Par lui-même.

(٢) اعتمادا على ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ المواهب اللدنية ج ٢ / ٤٧-٤٩.

(٣) من العقيدة إلى الثورة ج ٤ النبوة والمعاد ص ٥-٣٢٠.

بين الرسول والمرسل إليهم. فالنبوة عامة، والرسالة خاصة. ويفرق المحدثون بين النبي المرسل والزعيم السياسي^(١). كلاهما صاحب دعوة، من السماء عند النبي المرسل، ومن الواقع وحياة الناس عند الزعيم السياسي. ولما كان الوحي والواقع نظيرين فالفرق بينهما في المصدر وليس في الهدف أو الغاية.

ويفرق القدماء بين الوحي والنبوة والرسالة. الوحي لغة الإعلام في الخفاء، وشرعا الإعلام علنا. والنبوة والوحي بمعرفة الله وصفاته مقصورة على النبي. ولغة من الرفعة أي الارتفاع أو النبأ وهو المخبر. والرسالة سفارة بين الله وذوي الألباب من الخلق، أفضل من النبوة لأنها ثمر هدايتها. الرسالة أخص من النبوة، والنبوة أعم من الرسالة. الرسالة هو الإعلان العام، والنبوة الإعلان الخاص في زمن ومكان معينين. الرسالة ما يبلغه الرسول للناس. والوحي الكشف والإعلان بالذات. النبوة علاقة رأسية بين الوحي والنبي، والرسالة علاقة أفقية بين الرسول والناس^(٢).

٤- السيرة والشعر العربي

وكان للشعر دور كبير في تدوين السيرة هجاء أو مدحا من الطرفين. الشعر لمعارك الهجاء والمديح^(٣). وبرز منهم حسان بن ثابت شاعر الرسول. وتعتبر السيرة مصدرا للشعر العربي في عصر الرسول. وتطول القصائد أحيانا بحيث تصبح سجلا لتاريخ العرب^(٤). ويسبق الشعر القرآن كما يسبق القرآن الحديث في تدوين السيرة^(٥). الشعر

(١) السيرة النبوية ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) محمد رسول الله ج ١/ ١٦٠، الأسوة الحسنة ج ١/ ١٦٠-١٦١.

(٣) السابق ج ٢/ ٤٨-٥٢/ ٦٧-٦٨.

(٤) ابن هشام، رثاء عبد المطلب، ج ١/ ١٧٥-١٧٨/ ٣٤٨-٣٥٠، شعر أبي قيس بن أبي أنس ج ١/ ٤٥٩-٤٦٢ ج ٢/ ١٠-٤٠/ ٣٨٩-٤٠٥، قصيدة أبي طالب ج ١/ ٢٥٩-٢٦٦، شعر ابن الاسلت في الرضاع عن الرسول ج ١/ ٢٦٨-٢٧٠، ما قيل من الشعر في بني قريظة والجنديق ج ٢/ ٢١٧-٢٣٤، شعر حسان في بني قرد ج ٢/ ٢٤٤-٢٤٧، في غزوة حنين ج ٢/ ٣٨٩-٤٠٥، في غزوة الطائف ج ٢/ ٤٠٦-٤٠٩، كعب بن زهير ج ٢/ ٤٢٦-٤٣٧، حسان وعد المغازي ج ٢/ ٤٦٨-٤٧٢، حسان والرد على الزريقان ج ٢/ ٤٧٦-٤٧٨، لبدي في بكاء أريد ج ٢/ ٤٨١-٤٨٤، مرثية حسان ج ٢/ ٥٥٨-٥٦٣، شعر كعب ابن زهير بعد الانصراف عن الطائف ج ٢/ ٤٢٤-٤٢٦.

(٥) السابق ج ١/ ٢٥٨-٢٦٦/ ٢٦٨-٢٧٠، ما قيل في الشعر يوم بدر ج ٢/ ١٠-٤٠/ ٥٥٩-٥١٣.

جزء من المعركة. وتدخل النساء في معارك الشعر. فهناك النساء الشاعرات^(١). دخل الشعر في معركة أحد، وتطول القصائد أحيانا بحيث يصبح الشعر هدفا في ذاته وليس أداة للسيرة. ويمكن عمل دراسة مستقلة عن الشعر في سيرة ابن هشام. فالسيرة مرجع للشعر، والشعر مرجع للسيرة^(٢).

وكثير من الحوارات يرويها القرآن والشعر على حد سواء مثل قصة الفيل^(٣). فالشعر هو ديوان العرب قبل الإسلام، والقرآن تاريخهم بعده^(٤). وتتحول الآية القرآنية إلى شعر. فالآية تمس وجدان الشاعر. فيعيد نظمها شعرا في أرجوزة أو في أحد بحوره^(٥).

ولم يكن كل الشعراء معاصرين للرسول مثل حسان بن ثابت بل كان هناك شعراء لاحقون يستعمل شعرهم لتصوير أحداث السيرة مثل كعب بن زهير والفرزدق^(٦).

ولا يروي ابن هشام فقط الشعر بل ينقله ويبين مدى صحته. ويصبح ناقدا للشعر عندما يفترض انتحال بعض شعر حسان. فقد كان المؤرخون والمحدثون والمفسرون شعراء. كان الشعر هو ما يلتقي عليه العرب جميعا بصرف النظر عن عقائدهم قبل الإسلام. وكانت المعلقة السبع فوق الكعبة بصرف النظر عن إله كل قبيلة. كان الشعر هو الطريق لفهم بلاغة القرآن. فالقرآن نزل متحديا الشعر العربي في البلاغة^(٧). وتذكر السيرة شعراء الجن الذين يقرضون الشعر فرحا بقتل شهداء المسلمين^(٨).

يوم جـ ١١١/٢ - ١٤٨ جـ ١٥٢/٢، في بني النضير جـ ١٦٨ - ١٧٦، في غزوة بدر الثانية جـ ١٨١ - ١٨٤.

(١) السابق جـ ٣٨ - ٤٠.

(٢) السابق جـ ١١١/٢ - ١٤٦.

(٣) ابن خلدون ص ١٦/٢١/٢٤/٣٧/٥٨/٦١/٨٢/١٠٤.

(٤) ابن هشام جـ ١/٧٤.

(٥) السابق جـ ١/٢٨٦.

(٦) السابق جـ ٢/٥٢٣ - ٥٢٤.

(٧) «وبين أضعاف هذا الحديث رجز لم يصح عندنا عند أحد من أهل العلم بالشعر» السابق ج ١٥٨/٢.

(٨) قتل الجن سعد بن عباد وأنشدوا فيه شعرا:

نحن قتلنا سعيد الخزرج سعد بن عبادة
فرميناه بسهمين فلم تخط فؤاده.

ابن خلدون ص ٣٦ - ٣٧.

والسؤال هو: هل الشعر الدعائي شعر؟ وهل المديح والهجاء لونا من ألوان الشعر؟ ألا يصبح الشاعر مأجورا إذا كان موظفا عند هذا الخليفة أو ذلك السلطان؟ وهل القتل يُصاغ شعرا سواء من جانب القاتل أو المقتول أم أن القتل هو القتل؟ القتل شيء تمججه النفس، بصرف النظر عن دوافعه وأسبابه. كان الشعر مؤثرا في حياة الرسول. وكان قد حكم على أحد المشركين بالقتل فرثته أخته فأثر الرثاء فيه فقال «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»^(١). والرسول ناقد للشعر. فقد أصلح لشاعر بيتا حتى يتفق مع الرسالة. فقد أوتي جوامع الكلم. وهو أفصح العرب^(٢).

٥- السيرة وقصص الأنبياء

والسيرة جزء مطول من قصص الأنبياء منافسة مع قصص العهد القديم والأنبياء السابقين والإسرائيليات التي كانت شائعة في شبه الجزيرة العربية حول المدينة وفي اليمن والتي غلب عليها نقص المصادر، والخيال الشعبي، والجو القصصي، والملاحم العربية. وكان العرب على علم بها من اليهود والنصارى في شبه الجزيرة العربية وامتدادها في الشام.

والسؤال هو: ما هي مصادر معلومات الرسول عن الأنبياء السابقين؟ الوحي أو القرآن أو رحلاته وثقافته العربية، رحلتي الشتاء والصيف، نصارى نجران ويهود الطائف وخيبر وبصرى بالشام؟ وكان الرسول على علم بها قبل لقائه بورقة بن نوفل ابن عم خديجة النصراfi بعد أن أتاه الوحي. كان قصص الأنبياء هو القصص «النمطي» أو «النموذجي» الذي طبقا له تمت صياغة قصص للرسول منذ ميلاده حتى وفاته. والأمثلة على ذلك كثيرة. في مولده يمتد نسبه إلى آدم كما هو الحال في مقدمة إنجيل

(١) هي قتيبة أخت النضر بن الحارث تبيكه، ومنها:

أحمد يا خير صنّ كريمة. في قولها، والفحل فحل معرق

ابن هشام جـ٢، ٤٠/٤١.

(٢) قال كعب بن مالك: مجادلنا عن كل خدمنا منا كل فخمة. فسأل الرسول «أصلح أن تقول مجادلنا عن

ديتنا فهو أحسن»، السابق جـ٢/١١٦-١١٧.

متى بالنسبة لنسب المسيح^(١). فقد تكون المادة من الإسرائيليات ثم ذكر نسبه من أولاد إسماعيل لإثبات أنه من العرب. وتأصيل النبي جزء من مصداقيته^(٢). وإبراهيم أبو العرب جميعا الذي ينتسب إليه كل المؤمنين، مشركين ويهود ونصارى ومسلمين.

وكثير من الروايات في السيرة على نمط روايات العهد القديم مثل رواية ذبح عبد المطلب وليده عبد الله مثل ذبح إبراهيم ولده إسماعيل^(٣). والبداية بإسماعيل لأنه جد العرب^(٤). وضربت الأقداح في جوف هبل في الكعبة وفاء لنذر عبد المطلب فجاءت على أصغر أبنائه عبد الله. وأشارت عرافة الحجاز بضرب الأقداح ونجاة عبد الله من الذبح بمائة إبل. فعاش أبو النبي بمعجزة كما أن السيد المسيح بلا أب معجزة سابقة.

وهناك معجزات في الولادة كما هو الحال في ولادة موسى وإلقائه في اليم وولادة عيسى من غير أب. فقد رفض عبد الله طلب المرأة التي عرضت نفسها عليه أن يقع عليها في التو واللحظة عما يدل على تحرر المرأة وطلبها الرجل أن يقع عليها بعقد أو بدون عقد. ثم تزوج آمنة بنت وهب أفضل امرأة من قريش نسبا وموضعا. وعندما قابل المرأة التي عرضت عليه نفسها لماذا لا تعرض الآن أجابت «فاركك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة». وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل النصراني أنه سيكون في هذه الأمة نبي^(٥).

وعرضه على المراضع وهو رضيع مثل عرض موسى عليهن. رضي الرسول بحليمة ورفض موسى إلا ثدي أمه. فقصة موسى أكثر إعجازا من قصة الرسول^(٦). وفي المقابل امتلأ ثديا حليمة حتى شرب منه إخوة كثير في الرضاعة. عادت أم موسى إلى الطفل وعاد الطفل إلى أمه. أما الرسول فقد ماتت أمه بمجرد ولادته فنشأ يتيم الأب والأم. حياة كل منها تبدأ بمأساة النشأة مقارنة باكمال الفتح. وانتهت حياة المسيح بمأساة أخرى عند النصارى وبفتح عند محمد وإكمال الدين.

(١) السابق ج١/ ٢٥-٢٧.

(٢) السابق ص ٢٨.

(٣) السابق ج١/ ١٥٥-١٥٩.

(٤) السابق ص ١٧.

(٥) السابق ج١/ ١٥٩-١٦٠ «لك مثل الإبل التي نحررت لك وقع علي الآن».

(٦) السابق ج١/ ١٦٣-١٦٥.

وافتقدته حليلة ويبحث عنه جده عبد المطلب فوجده في الكعبة مع ورقة بن نوفل. وطاف به يعوزه ويرقيه ويدعو له. ثم أرسله إلى أمه آمنة كما افتقدت مريم المسيح وهو ابن اثنتي عشر عاما ووجدته في المعبد يصلي، قائلا «ألا تعلمين أني عند أبي الذي في السموات»^(١).

والمعراج شبيه بصعود عيسى إلى السماء لا فرق بين صعوده قبل موته أو بعده. وزاد عليه الرسول الإسراء، الانتقال من مكة إلى القدس. وهو شبيه أيضا بصعود أخنوخ إلى السماء في العهد القديم سواء كان الكتاب صحيحا تاريخيا أم متحلا. وكل نبي له تعامل مع السماء بالحركة أو بالتأمل، في ديانات إبراهيم أو في ديانات الشرق القديم.

وركوب الرسول البعير مع أبي بكر في الهجرة من مكة إلى المدينة مثل ركوب المسيح البعير ودخوله إلى القدس وفي يده غصن زيتون. الرسول متخفيا حتى لا تناله قریش، والناس تهلل حول المسيح ووراءه. الرسول مضطهد وهارب من مكة، والمسيح متصر ومستبشر بدخوله القدس.

وقد حذر الرسول المسلمين من الاختلاف حوله بعد موته كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم. فقد دعاهم إلى مثل ما دعا إليه الرسول. آمن به البعض وكفروا به البعض الآخر. وأصبح كل واحد يتكلم باسم الأمة التي بعث إليها. وقد شكى عيسى إلى الله ذلك^(٢). اختلف صحابة الرسول سياسيا وليس عقائديا. واختلف حواريو المسيح عقائديا وليس سياسيا. اختلف صحابة الرسول حول رسالته خلافة أو ملكا. واختلف حواريو المسيح حول طبيعته إله أم إنسانا، والأمثلة عديدة سواء في صياغة روايات العهد الجديد طبقا لأنهاطها في العهد القديم أو صياغة روايات السيرة النبوية طبقا للعهدين القديم والجديد. كانت البيئة التي خرجت منها روايات العهد الجديد بيئة يهودية، وكانت البيئة التي خرجت منها روايات السيرة بيئة يهودية نصرانية.

٦ - تعدد السير

والسيرة تعبير عن كل عصر. ولا توجد سيرة واحدة لكل العصور. لا توجد سيرة

(١) السابق ج١/١٦٨-١٦٩.

(٢) السابق ج٢/٥١١-٥١٢.

موضوعية لكل العصور. بل تعكس كل سيرة روح عصرها. لا توجد سيرة موضوعية بل توجد سير ذاتية طبقاً لرؤى وإدراكات كتاب السير. والعلوم النقلية كلها كذلك، القرآن والحديث والتفسير والفقه. والعيب في العلماء الذين أوقفوا التاريخ، وثبتوا الزمن، وتنازلوا عن دورهم في استئناف هذه العلوم وتطويرها. وجعلوا أنفسهم نقلة ورواة لما أبدعه القدماء. فقد غلب على القدماء علوم اللغة والتاريخ. وقد يغلب على المحدثين باقي العلوم الإنسانية، النفس والاجتماع والسياسة. فلا توجد سيرة أصح من سيرة بل هناك قراءات متعددة للسيرة طبقاً لروح كل عصر. لا يوجد خطأ وصواب في السيرة بل فقط قراءات متعددة ووجهات نظر مختلفة منذ ابن إسحق حتى طه حسين ومحمد حسين هيكل وعبد الرحمن الشرقاوي ومحمد أحمد خلف الله وعلي شريعتي وخليل عبد الكريم.

وتقدم كل سيرة صورة للرسول. فصورة الرسول في سيرة ابن هشام أنه كان قائداً أمة وزعيم قبيلة، قریش، وفتح البلدان عن طريق المغازي. وهو في «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م)، فيلسوف الطبيعة والبعد الاجتماعي مثل «جان جاك روسو». محمد هو جان جاك روسو العرب، وجان جاك روسو هو محمد فرنسا. وهو ما قاله الطهطاوي إن ابن خلدون هو مونتسكيو العرب وأن مونتسكيو هو ابن خلدون فرنسا. وهو عند طه حسين تنويري ليبرالي في «على هامش السيرة» وهيكل «في منزل الوحي». وهو عند القوميين مؤسس القومية العربية والذي جعل الإسلام حاملاً لها وأحد مراحلها^(١). وهو عند الاشتراكيين نبي الحرية والعدالة الاجتماعية^(٢). وهو عند أنصار النزعة الإنسانية إنساني لمن يدافع عن الإيمان العقلاني الإنساني بصرف النظر عن اليهودية أو المسيحية أو الإسلام^(٣). وعند الأخلاقيين محمد مؤسس سلوك أخلاقي ونسق للفضيلة وعبقري. لشخصيته مفتاح مثل باقي الخلفاء^(٤).

(١) خلف الله أحمد خلف الله: محمد والقوى المضادة.

(٢) عبد الرحمن الشرقاوي (١٩٨٧): محمد رسول الحرية.

(٣) نظمي لوقا (١٩٨٧): محمد رسول الله.

(٤) عباس محمود العقاد (١٩٦٤): عبقرية محمد.

وأحيانا تظهر بعض الألفاظ في السيرة عند القدماء التي يمكن البناء عليها في كتابة السيرة عند المحدثين مثل «المستهزئين»، «المستضعفين»^(١)، في عصر كثر فيه المستهزون من الغربيين عامة والمستشرقون خاصة، وكثر فيه المستضعفون في الأمة الإسلامية بحيث أصبحوا غالبيتها باستثناء المسلمين في إيران وتركيا وماليزيا ولبنان، وبعض جماعات الرفض الإسلامية في مصر وتونس والجزائر والمغرب والأردن وباكستان وأفغانستان، بصرف النظر عن اتجاهها المحافظ في الداخل. فالمستضعفون في الآية الإسلامية ضد المستكبرين في الغرب. وهو مصطلح قرآني^(٢). أصبح شعارا للثورة الإسلامية الحديثة في إيران منذ ١٩٧٩ م.

ويغيب النقد من معظم السير المعاصرة؛ لأن نقد القديم مازال محفوقاً بالمخاطر. إنما تكتب سير موازية، تختفي وراء الأسلوب والنزعة الرومانسية في الإعجاب بالرسول وتقديس المثال بالرغم من ادعاء العقلانية والتنوير والعصرية والحداثة. فنقد القديم أصعب من مجاورة الحديث له. وبناء الحديث مجاورا للقديم أسهل من هدم القديم والبناء على أسس جديدة. والرومانسية والبلاغة نوع من المدح الحديث وتحويل التقريظ الديني إلى تقريظ أدبي.

وقد يكون الدفاع عن إنسانية الرسول في سيرته أكثر مدحا له من إثبات معجزاته. فالإنسان العادي الآن قيمة وليس الإنسان غير العادي. بل إن الإنسان الضعيف الذي يصفه القرآن ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أكثر إغراء للناس من الإنسان القوي. وهو ما أكدته الفلسفات الغربية الوجودية المعاصرة. فالإنسان هش. وتلك عظمتة. يحول هذه الهشاشة إلى صلابة. وهو ضعيف يحول هذا الضعف إلى قوة. فعظمة الإنسان في بؤسه، وكماله في نقصه، وخلوده في فثائه، ووجوده في عدمه. وواقعية الرسول كإنسان تدل على مثاليته كنبي مثل عبوسه في وجه الأعمى حرصا على الأشراف^(٣). وعظمة الرسول

(١) ابن هشام ج ٢/ ٢٧٥ / ٣٦٣ / ٣٦٧.

(٢) ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

(٣) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزَكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى، فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يُخْشَى، فَانْتَ عَنْهُ تَلَكَّى﴾.

ليست في عصمته بل في إنسانيته التي قد تخطئ وتصيب. العصمة تعظيم وتقديس وتأليه كما تقول الشيعة في الإمام وكما يقول الإعلام الرسمي في رؤساء الدول.

وأهمية هذه السيرة «من الرسول إلى الرسالة» أنها تذهب من الواقع إلى الدلالة، ومن الحوادث إلى مغازيها. فالحوادث حاملة للمعاني. وهي ليست المقصودة من التاريخ وإلا تم الوقوع في النزعة التاريخية. الواقع ليس للرصد بل هو حامل للدلالة. وهو ليس المقصود في السيرة بل دلالتها في التاريخ. فالسيرة تحقق للدلالات في التاريخ، وللمعاني في الأشخاص، وللحقائق في الواقع. السيرة هي دلالات الأحداث ومعاني الوقائع وليست الأحداث والوقائع ذاتها التي قد تخطئ روايتها أو تصيب. فالرواية رؤية للحدث وليست الحدث نفسه، لقطة أو صورة. فالأحداث لا تتحدث عن نفسها، والوقائع لا تختبر بذاتها. وليس هذا تطبيقاً لمنهج غربي ظاهراتي بل هو نتيجة للتحويل من الرسول إلى الرسالة، ومن الشخص إلى الدلالة، ومن الحدث إلى المعنى. وحتى لا تبدو الدلالات معلقة في الهواء وضعت بعض أسماء الأعلام والأحداث في الهوامش أسفل الصفحة مع احتمال الخطأ في رصدها بمعنى عدم المطابقة. وهو خطأ في تصور الحقيقة التاريخية التي لا تُعرف إلا من خلال الرواية. فالمطابقة أو عدمها ادعاء وليست واقعا. ففي الرواية تختلط الرؤية الذاتية بالواقع التاريخي.

والصعوبة في كتابة السيرة هو الجمع بين الوقائع والدلالات، بين ما هو معروف وما يدعو للتأمل والقراءة والتأويل. الوقائع بمفردها تكرر ممل. والدلالات وحدها إثارة إعلامية. الوقائع وحدها سيرة مثل سير القدماء. والدلالة الجديدة وحدها أشبه بمقال صحفي أو يبحث في إحدى المجالات العلمية، يركز على الجديد أكثر مما يستعرض القديم.

ليست هذه سيرة شخص بل وصف للتجارب الإنسانية وراءها بصرف النظر عن الحق والباطل، والصواب والخطأ. التجارب الإنسانية هي أكبر مصداق للسيرة وللوحي وللحديث على حد سواء. هي الفطرة التي كان يلجأ إليها عمر. السيرة كشف عن هذه التجارب الإنسانية الحية ودلالاتها. فالأشخاص والوقائع ما هي إلا حوامل للمعاني وليست المعاني ذاتها^(١).

(١) انظر كتابنا: تأويل الظاهريات، محاولة لتأويل المنهج الظاهراتي، ظاهريات التأويل، محاولة لتفسير وجودي للمعهد الجديد، دار النافذة، القاهرة ٢٠٠٦، (ترجمة عن الأصل الفرنسي ١٩٦٥-١٩٦٦).

وسيرته أو دلالاتها قد تصح لرواية أو فيلم سينمائي أو تمثيلية أو مسرحية لعمل أدبي لا يجوز لأي سلطة دينية أو سياسية منعه. فهي مادة درامية بالأصالة. وقد تم ذلك من قبل في موسى والمسيح. ربما هالة التقديس حول الرسول هي التي تمنع من ذلك. بل يمتد الحظر إلى الخلفاء، وهم بشر وقادة سياسيون. وقد يمتد إلى باقي الصحابة. وما الفرق بين الصحابة والتابعين؟ ولدى الشيعة هذا الحظر غير موجود. فالفنون المرئية قادرة على التعبير عن سيرة الأشخاص وكما فعل النصارى في المسيح والحواريين. وقد يستطيع الفن أن يعبر عن دلالات السيرة أكثر من التاريخ. الفن معبر، والتاريخ مصمت، الفن كاشف للغطاء، والتاريخ واضح له. الفن حدس داخلي، والتاريخ رواية خارجية.

٧- مراحل السيرة

والتقسيم الطبيعي للسيرة هو ما وضعه ابن إسحق وسار فيه معظم كتاب السير، التقسيم الثلاثي، البداية والوسط والنهاية، مولد الرسول، بعثته في مكة ثم انتشارها في المدينة. ويتضمن مولده حياة العرب قبل الإسلام. كما يتضمن الانتشار في المدينة وفاته وربما بداية الخلافة بعد النبوة. وهي قسمة طبيعية زادت أو قلت. تتفق مع المنهج التاريخي لكتابة أي سيرة: العصر، والمولد، والنشأة، والتطور، والنهاية.

كان منهج ابن إسحق تاريخياً خالصاً، سيرة للرسول من الميلاد إلى الوفاة مثل التفسير من الفاتحة إلى الناس. فكانت السيرة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازي^(١). يشمل المبتدأ أربعة فصول: تاريخ الرسالات قبل الإسلام، تاريخ اليمن في الجاهلية، تاريخ القبائل العربية ودياناتها، تاريخ مكة وأجداد الرسول دون ذكر أسانيد الروايات. يعتمد على قدر كبير من الأساطير والإسرائيليات. ويشمل المبعث حياة النبي في مكة والمهجرة. وتتناول المغازي حياة النبي في المدينة.

ويصعب فصل هذه المراحل الست وتحديد بدايتها ونهايتها تحديداً حاسماً لأن بعض

(١) ابن هشام ج ١/ ١١-١٢.

أوصاف المرحلتين الأوليين من المراحل التالية بعد نزول الوحي. المرحلة الأولى تأسيس الرسالة بفصليتها: جذور الرسالة العرب قبل الإسلام، ونشأة الرسالة مولد الرسول. والمرحلة الثانية بداية الرسالة بفصليتها: إعلان الرسالة، وانتشار الرسالة (المدينة). والمرحلة الثالثة نهاية الرسالة بفصليتها: اكتمال الرسالة (الفتح) ومصير الرسالة (الخلافة). ويسبق المرحلة الأولى باب عن علم السيرة بفصليه الأول عن تعريفه، والثاني عن تدوينه. ولما انحرف تدوين السيرة من الرسالة إلى الرسول خصص باب خامس لتدوين هذا الانحراف. فقد كثر فيه التأليف. وتم تشخيص الرسالة في الرسول فيما يعرف باسم الشئال والخصائص الجسدية والنفسية بفصلين. الأول عن انحراف الرسالة، والثاني عن تشخيص الرسالة.

لذلك يدور علم السيرة الآن حول محورين، الرسالة والرسول. كان الرسول في البداية جزءا من الرسالة فأصبحت الرسالة في النهاية جزءا من الرسول. فحدث انحراف في علم السيرة من الرسالة إلى الرسول. وتحاول هذه السيرة الحديثة تصحيح هذا الانحراف بالعودة من الرسول إلى الرسالة للقضاء على عبادة الأشخاص في الدين والسياسة.

وتختلف المراحل الست طولا من حيث الزمان. فبينما المرحلة الأولى أطولها لأنها تشتمل حياة العرب منذ إبراهيم حتى ميلاد الرسول. تتلوها السادسة لأنها مصير الرسالة منذ وفاة الرسول حتى الآن. تتلوها الثانية لأنها منذ ميلاد الرسول حتى بداية البعثة، أربعين عاما، ثم الخامسة انتشار الرسالة وهي الفترة المدنية ثلاثة عشر عاما. وأقصرها الرابعة بداية الرسالة، الفترة المكية عشرة أعوام أما تشخيص الرسالة في الرسول فهو خارج التاريخ. يبدأ صغيرا في حياته ثم يصبح كل شيء بعد وفاته.

وهذه القسمة السداسية بالرغم من أنها تتفق مع حياة الرسول، قبل الميلاد، قبل البعثة، بعد البعثة، بعد الهجرة، بعد الفتح، وبعد الموت إلا أنها تعبر أيضا عن مراحل الرسالة وبالتالي تبقى مرتبطة بالرسول والإسلام، الرسالات السابقة، الرسالة قبل البعثة، الرسالة بعد البعثة في مكة، الرسالة بعد البعثة في المدينة، الرسالة بعد الفتح، مصير الرسالة، أما الباب الأخير تشخيص الرسالة فيتعلق بانحراف التأليف في علم السيرة، من الرسالة إلى الرسول.

وقد جرت العادة مسبقا على كتابة السيرة خاصة الغزوات واحدة تلو الأخرى في تتابع تاريخي وهو ما يسمى في المناهج الحديثة التابع الزمني. وهذه المرة تكتب السيرة بطريقة المعية الزمانية أي كل الغزوات في وقت واحد كبنية مشتركة لمعرفة دوافعها، وكيفية إتمامها، ونتائجها، وأسباب الانتصار أو الهزيمة فيها، والدروس المستفادة منها. ويكتب مصير الرسالة كله في وقت واحد وليس تتبعاً للخلفاء الراشدين أو الملوك واحدا تلو الآخر. فهذا تاريخ للنظم السياسية، من أجل اكتشاف فلسفة في التاريخ وقانون لمساره وراء هذا التابع الزمني من القرن الأول حتى القرن الخامس عشر وكما يحدث في كتب التاريخ الإسلامي أو تاريخ الشعوب الإسلامية أو تاريخ الحضارة الإسلامية^(١).

وبالرغم من التاريخانية فإن المؤرخ أحيانا قد يقع في الاضطراب الزمني، ويذكر اللاحق قبل السابق لأن السيرة تقتضي أحيانا منهجا لا تاريخيا يربط وقائعها^(٢). وتحليل السيرة إلى ذاتها لربط أجزائها بعضها ببعض الآخر مما يدل على أن التوالي الزمني تربطه بنية لا زمانية^(٣).

٨- الكم والكيف

وموضوع السيرة ليس مقدسا مثل القرآن والحديث. فالرسول وسيلة توصيل الوحي من المبلغ إلى المبلغ إليهم. الرسالة أهم من الرسول. وإذا أصبحت موضوعا مقدسا بفعل التاريخ فإن المقدس موضوع للدراسة في علم الاجتماع الديني. ولا يوجد موضوع شريف أقل شرفا أو أكثر، الموضوعات كلها على مستوى واحد في البحث العلمي، موضوعا ومنهجيا^(٤). وهناك فرق بين الباحث والداعية، بين العالم والواعظ،

(١) حدث ذلك من قبل في ثلاثة أحمد أمين «فجر الإسلام»، «ضحى الإسلام»، «ظهر الإسلام»، وفي عشرة محمود إسماعيل، «سوسيولوجيا الفكر الإسلامي».

(٢) يذكر ابن خلدون الهجرة قبل بداية الدعوة، ابن خلدون ص ٣٠.

(٣) السابق ص ٣١.

(٤) «الكلام في العلوم النبوية والصفات المحمدية لصورتها من المصدر الذي انبعثت عنه العلوم كلها جملة وتفصيلا، فروعاً وأصولاً. فشرّف العلم بشرف المعلوم عنه»، بهجة المحافل ص ٣٧.

بين الباحث عن الحقيقة ومن يعرفها من قبل. وهو ما حاوله بعض كتاب السيرة المحدثين من قبل مثل هيكل وطه حسين.

وهذه المحاولة في علم السيرة «من الرسول إلى الرسالة» مثل المحاولتين السابقتين في علوم القرآن «من المحمول إلى الحامل»، وفي الحديث «من نقد السند إلى نقد المتن». هي مساهمة للباحثين العرب في علم النقد التاريخي للكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والقرآن وحتى لا يقتصر هذا العلم الحديث على الغربيين وحدهم ونحن نعتمد عليها بالمخالفة وهو الأغلب أو بالموافقة وهو الأقل. صحيح أن الغرب تعود على هذا العلم منذ نشأته في بدايات العصور الحديثة في القرن السابع عشر خاصة عند اسبينوزا وريتشارد سيمون وجان أوستريك على مدى أربعة قرون. ونحن مازلنا في البداية منذ جيل أو جيلين. نكفر من ساهم فيه دفاعا عن قدسية النص وتعبيرا عن الإيمان به وكأن النص في السماء لم يهبط على الأرض، لا مكان ولا زمان ولا بشر له، يستقبلونه ويفهمونه ويفسرونه.

وتحليل المادة العلمية لا ينتهي. وسير القدماء والمحدثين في كل الوطن العربي والعالم الإسلامي بالعربية وبقية اللغات الإسلامية والأجنبية لا تنتهي. العينة المثلثة تكفي نظرا لتكرارها ولصعوبة عمل إحصائية شاملة لها، ومراجعتها كلها. يتوقف التحليل يتوقف عندما تتوقف دلالاته ويتوه، ويتحول إلى معارف وليس إلى علوم. يصعب تحليل كل السير لكثرتها. إنما تحليل عينة مختارة بما هو متاح فعليا. قد يؤثر على التحول من الرسالة إلى الرسول. كثير من المادة العلمية مكررة. فهل تتكرر الإحالات فتضخم الهوامش بلا داع؟ إنما تدل فقط على سعة اطلاع الباحث وكثرة إحالاته. والناقص يدخل في العينات المثلى. ولا داعي لضرورة إحصاء شامل لها. فهذا عمل الموسوعات والفهارس العامة للعلوم^(١).

تتكرر المادة العلمية. يكرر اللاحقون السابقون. ويصل التكرار إلى حد الملل وانتقاء

(١) «وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في ذلك كتباً كثيرة، ما بين تاريخ وشئنا، وأقوال وأفعال وأحكام وغير ذلك. ومنهم القل والمكثر وليس فيهم مقصر، كل على مبلغ علمه ومقدار فهمه، بهجة المحافل ص ٣٧.

الدلالات بالرغم من عدم اكتمالها من الناحية الكمية. ومع ذلك يتوقف جمع المادة بعد التعرف على بنية العلم، ومعرفة مراحل تطوره. فالمادة تحكمها الروح. والبدن تسيطر عليه النفس. مهما كبر أو صغر فالنفس واحدة.

والرجاء من القارئ أن يتعامل مع هذه السيرة بحسن نية وألا يجعل أحكامه المسبقة الموروثة وما تعود عليه من مدح وإطراء للرسول من خلال دور العبادة وأجهزة الأعلام والثقافة الشعبية من أن يفكر ويتساءل، وألا يسرع بالرفض والاستبعاد والاستهجان والذي قد يصل إلى حد التكفير. ففي الحديث لو كان هناك تسعة وتسعون وجهًا للكفر ووجه واحد للإيمان يُحمل على الإيمان. وغلق الباب كلية عن التساؤل حول العلوم النقلية جعلها ثابتة في مكانها لا تتغير منذ اثني عشر قرنًا، منذ ابن هشام حتى السير الإصلاحية الحديثة.

الفصل الثاني

تدوين السيرة

الأدبيات في علم السيرة كثيرة ومتنوعة. تتفرع في محورين الرسالة والرسول. تتبع الأدبيات في الرسول نموذج ابن إسحق وابن هشام، النموذج التاريخي، قسمة الرسالة من خلال حياة الرسول إلى بداية ووسط ونهاية. وهي أقل مما ألف في المحور الثاني، الرسول، عندما تشخصت الرسالة في الشئائل والخصائص، عند القدماء والمحدثين^(١).

تشعبت علوم السيرة إلى جوانب تفصيلية من حياة الرسول: أخلاقه وشئائله، مغازيه، معجزاته، خلفائه وصحابته. وتم التأليف في كل موضوع على حدة. تشعبت السيرة وتضخمت الأجزاء بحيث أصبح كل جزء هو الكل: يتم التأليف فيه كموضوع مستقل مثل المغازي والسير والمعجزات، والموت، والمقابر، وفتن آخر الزمان، وختم الأنبياء.

١ - نموذج ابن هشام:

أ- سيرة ابن هشام (٢١٨هـ)

وأقدم السير وأكثرها حضوراً «سيرة ابن هشام». وهي تهذيب وتطوير ونقد لسيرة ابن إسحق من القرن الثاني الهجري واستبعاد لكثير من الجوانب الأسطورية فيها. فتطور السيرة الطبيعي من الأسطورة إلى الواقع، ومن الخيال إلى العقل، ومن الوهم إلى

(١) أدبيات تشخيص الرسالة في الفصل الأول «انحراف الرسالة»، من الباب الخامس «تشخيص الرسالة».

الحقيقة، ومن التقديس إلى التاريخ^(١). ومع ذلك فأتت عليه بعض روايات المعجزات: دعوة الرسول الشجرة لتأتيه فأتته ووردها إلى مكانها دليلاً على النبوة. واستمرت السيرة في مسارها التاريخي من الواقع إلى الأسطورة، ومن التاريخ إلى الخيال، كما هو حادث في بعض السير الحالية المختلطة بعلوم التصوف.

واستمر التأليف في السيرة في نوعين إما شرح وتلخيص سيرة ابن هشام نثرًا شعراً أو التأليف النقدي في السيرة كما فعل ابن هشام مع ابن إسحق^(٢). وهذه السيرة تأليف في السيرة من هذا النوع الثاني، التيار النقدي مع كل السير السابقة.

«سيرة ابن هشام» سيرة نموذجية في علم السيرة مثل «الإتقان» للسيوطي أو «البرهان» للزركشي في علوم القرآن، و«البخاري» في علم الحديث أو «الباعث الحثيث» لابن كثير أو مقدمة ابن الصلاح. وكما دخلت سيرة ابن إسحق في سيرة ابن هشام دخلت سيرة ابن هشام في معظم السير اللاحقة. مع الاعتماد على نصوص منها، يكفي وصفها بأنها نموذج ابن هشام دون وصف آخر بأنها السيرة الأصلية أو السيرة الأولى.

وتخلو السيرة من قسمة إلى أبواب وفصول. هي مجرد روايات متتالية قبل الرسول وأثناء حياته ووفاته. هناك لفظ «ذكر» الذي يتكرر ويعني مجرد رواية، ثم «غزوة» مما يدل على أن صورة الرسول أنه قائد وزعيم أمة. أما «أمر» و«قصة» و«حديث» و«خبر» فتدل على غلبة الرواية كمصدر للسيرة. وقد تكون القسمة إلى أربعة أجزاء أو إلى جزأين من الناشرين، وكذلك العناوين الجانبية من وضع المحققين^(٣). وتحيل أجزاء السيرة بعضها إلى بعض مما يبين وحدتها^(٤). ونظراً لاستعمال المنهج التاريخي في السيرة

(١) «ألّفها أبو عبد الله محمد بن إسحق بن يسار المظلي المتوفى سنة ١٥١ من الهجرة، وهذبها أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى في سنة ٢١٨ من الهجرة، سيرة النبي لابن هشام، تحقيق محمد عيسى الدين عبد الحميد، ج١/ ١/ ٢٠٦.

(٢) السابق ج١ ص ١٢/ ١٤. من شراح ابن هشام السبيلي (٥٨١هـ) في «الروض الأنف» والعيني في «كشف اللثام» والخشني. ومن اختصره محمد المرحل في «الذخيرة في مختصر السيرة» حوالي ٦١١هـ، والواسطي في مختصر سيرة ابن هشام حوالي سنة ٧١١هـ ومن الناظمين الدميري (٦٠٧هـ)، والخضراوي (٦٦٣هـ)، والناقلي (٧٩٣هـ)، في «الفتح القريب»، السابق ص ٣٥٩.

(٣) ذكر (٣٩)، غزوة (٣٤)، أمر (٢٦)، قصد (٨)، حديث (٦)، سرية (٣)، أخبار (١).

(٤) «سأذكر حديثه إن شاء الله في موضعه، ابن هشام ج١/ ٩٥» وسنذكرها ونقيضها إن شاء الله في موضعها

يضطر المؤرخ إلى إحالة الأجزاء بعضها إلى بعض ليبين بنيتها. ويكتب التاريخ بأهمية الحدث مثل عام الفيل والمهجرة^(١).

وتبدأ كثير من روايات ابن هشام بالسند كما يفعل المحدثون. فقد كان هذا هو المنهج المتبع لصحة الرواية عند القدماء مع أنه قد يصح السند ولا يصح المتن^(٢). وأحيانا تكون الرواية موثوقة بها بتعبير «وحدثني ما لا أتهم من أصحابنا». وأحيانا تكون روايات مشكوك فيها مما يدفع إلى نقدها^(٣)، عند القدماء أكثر مما عند المحدثين^(٤). وكان ابن هشام يشك في بعض الروايات مثل رواية وصف تاج كسرى كالقنفل «فيما يزعمون» أو «فيما يذكرون»، «فيما بلغني»^(٥). ويظل السؤال قائما ما مدى الصحة التاريخية للمخطب الطوال شفاها؟ وكيف تعيها الذاكرة؟^(٦). وابن هشام ليس فقط راويا بل مفسرا ومؤولا وصاحب رأي فيما يُروى^(٧). وهو مفسر لبعض الآيات والمفردات. فهو لغوي بالإضافة إلى كونه مؤرخا. يشرح الألفاظ لغويا ويبين معانيها^(٨). ويبحث أصلها العربي

ج ٤٧/٢. «وسأذكر قتل سلام بن أبي الحقيق في موضعه إن شاء الله»، ج ٥٢/٢. «وقد ذكرنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب»، ج ٧٨/٢.

(١) ولد الرسول يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل، ج ١٦١/١.

(٢) انظر الجزء الثاني من العقل إلى النقل: علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن.

(٣) «فحدثني ما أئق به من أهل العلم»، ج ٣٨٧/٢، وحدثني من لا أتهم ج ٥٢٩/٥٠٦/٤٨٨/٤٨٦/٤١١/٢.

(٤) «ويزعمون فيما يتحدث الناس والله أعلم...»، السابق ج ١٦٠/١، فيما يذكرون ج ١٤٥/١٤٥.

(٥) السابق ج ٧٨/٤٥، اعتناق ثيان النصرانية، وصف تاج كسرى، خروج قلب أبرهة «فيما يزعمون»، شق

صدر الرسول ج ٧٠-٧١/١ كفالة أبي طالب/١٧٩، شل يد كاتب الصحيفة التي تقاطع الرسول وبني

عبد المطلب وابن هشام ج ٣٤٧/١، قصة بحيري وخروج الغلام مع عمه إلى الشام للتجارة ج ١٨٠/١،

الراهب بحيري وعلمه بالكتاب ج ١٨١/١، ظل ملكين محمد ومسيرة من الشمس وهما في الطريق إلى

الشام للتجارة في أموال خديجة ج ١٨٧/١، فيما بلغني ج ٢٥١/١، وحدثني من لا أتهم ج ٢٨٨/٢.

(٦) السابق ج ٤٥١-٤٥٣.

(٧) «رأي ابن هشام فيها» ج ١٠٢/١٠٢-٤٧٧/٤٨٦-٤٩٥/٤٩٧-٥٠٠/٥٠١-٥٠٧/٥٠٨-٥١٥-

٥١٧/٥٩٣-٥٩١/٢-٩٦-٩٧. تفسير ابن هشام لبعض الغريب ج ٤٧٧-٤٨٦.

(٨) الأخدود ج ٥٥/١، النشأة، الموطأ ج ٦١-٦٢، السنج أي الحجر، العصف ورق الزرع ج ٧٢/١،

الابل من الأبل أو البقرة ج ٧٣/١، البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي لغة ج ١٠٣/١. مكة أو بكة

ج ١٢٣-١٢٥، التحنث ج ٢٢٧-٢٢٨. تفسير سورة الضحى ج ٢٣٢-٢٣٣، تفسير ابن

هشام لبعض المفردات ج ٢٥٠-٢٥١. يافع أي مهلك، الصعيد أي الأرض ج ٨٥/١، الشطط

أو الفارسي. واستمر هذا التقلب عند كثير من المؤرخين^(١).

ب- «مختصر سيرة الرسول» لمحمد عبد الوهاب (١٢٠٦هـ)^(٢)

ويستمر نموذج ابن هشام حتى الحركة الإصلاحية الحديثة، ولا يعني مختصر هنا اختصار نص سابق بل يعني سيرة مختصرة دون تطويل. ومع ذلك هناك إحساس بالاستطراد وضرورة العودة إلى موضوع السيرة. لا يضم أبوابا ولا فصولا. توجد فقط علامات تدل على بداية فصل مثل «ذكر» أو «قول» أو «حديث» أو «فصل» دون عنوان، مما يحتاج إلى بنية عقلية لا تتوافر عند السلفيين. ولا يحتوي على مقدمة تبين منهج السيرة وسبب تأليفها مع أنه شيخ الإسلام ويعتبر «الإمام مجدد القرن الثاني عشر»، وصورته في الثقافة الشعبية أنه أول المصلحين. لا ينعكس اتجاهه الإصلاحية في السيرة إلا نادرا. فالسيرة مجرد تجميع من كتابات القدماء إلا ما ندر. لا هدف لها ولا غاية إلا التأليف في العلوم القديمة وعلى طريقة القدماء. ولا يتساءل حول ما طرحه المحدثون حول العنف والقتل وضرب العنق وانتشار الإسلام بالسيف^(٣).

ويظل السلفي في كتابته للسيرة تقليدا نصيا مثل سير المؤرخين السلفيين وإن كان في الممارسات العملية ضد الموالد والأدعية النبوية وزيارة القبور، وتوسط الرسول بين الخالق والخلق. فالوهابية حركة ثورية على مستوى شبه الجزيرة العربية في تغيير العادات والتقاليد والممارسات الدينية الوثنية التي تراكمت منذ انتهاء الرسالة. ويرجع ذلك إلى قوة نموذج السيرة التاريخية منذ ابن إسحق وابن هشام أولا، وإلى عادة النقل عند القدماء وضعف النقد، نقد الروايات أو نقد العقل ثانيا.

مجازة الحق، تراور أي تميل جـ ١/ ٢٨٦، الوصيد الباب جـ ١/ ٢٨٧، قبلا عيانا جـ ١/ ٢٩١، لنسفنا لنجذب جـ ١/ ٢٩٢، المجل كل شيء ذاب جـ ١/ ٣٣٥، الجيد العنق جـ ١/ ٣٢٩، القوقلة ضرب من المشي جـ ١/ ٣٩٣. الجيت والطاغوت أي السحر والشيطان جـ ١/ ٥٠١، الخفي البالغ في الطلب جـ ١/ ٥٠٧. الأكمه الذي يولد أعمى جـ ١/ ٥١٦. مكاء التصغير، تصدية التصفيق، جـ ١/ ٥٩٠... الخ.

(١) ابن خلدون ص ٦٨.

(٢) محمد بن عبد الوهاب (١٢٠٦هـ) شيخ الإسلام، مختصر سيرة الرسول، الفيصلية (د.ت) مطبعة السنة المحمدية القاهرة جـ ١/ ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

(٣) السابق ص ٢٨/ ٣٦-١٣٣-١٣٤/ ١٦٢.

لذلك ساد المنهج التاريخي أسوة بالمؤرخين القدماء، تتبع الحوادث سنة بسنة منذ الهجرة حتى الوفاة بعنوان حوادث كل سنة دون تقسيم السنوات إلى مراحل بداية ووسط ونهاية مثل ابن إسحق وابن هشام^(١). وتذكر حوادث التاريخ كرسد دون دلالة على الرسالة^(٢). ويذكر إسلام الصحابة كجزء من التاريخ، بداية الرسالة وانتشارها^(٣). ولا تُستثمر بعض الملاحظات التاريخية من أجل اكتشاف دلالاتها مثل استمرار شعائر الحج. قبل الإسلام وبعده مثل السعي والطواف^(٤). كما تبدو أهمية مصر في التاريخ الإسلامي وتأليف القدماء فيه^(٥). ويحال إلى قدماء المؤرخين، ابن إسحق وابن سعد والواقدي والزهري وابن القيم^(٦).

كما يظهر المنهج النصي من الكتاب والسنة والشعر والمؤرخين القدماء، الآيات أكثر من الأحاديث لدرجة الضعف، والأحاديث أكثر بقليل من الأشعار^(٧). في الآيات تظهر أسباب النزول^(٨). وتذكر الآيات والأحاديث والأذكار مثل أي شيخ مصلح أو غير مصلح. ولا يستثمر بعضها مثل أحاديث آخر الزمان للتنبيؤ بالمستقبل ومعرفة مصير الرسالة^(٩).

وتظهر بين الحين والآخر دعوات الإصلاح ومخاطبة الجمهور خاصة في بداية الكتاب، والدعوة إلى التذكر والاعتبار في معاني القصص لأن القصص جنود الله كما قال بعض السلف. معرفة الدين والعمل به تؤدي إلى الجنة. والجهل به وإضاعته إلى

(١) رصد الحوادث سنة بسنة من السنة الثانية عشرة حتى الستين، السابق ص ٢٠٥-٢٢٧.

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٢٠٣.

(٣) السابق ص ٧٨/٦٠-٨٤.

(٤) السابق ص ٤٣.

(٥) مثل ابن الجوزي: النصر على مصر، السابق ص ٣٠.

(٦) ابن إسحق، السابق ص ٤٣/٦٧-١٤١-١٤٣/١٤٧/١٥١/١٥٥/١٥٧/١٦٥/١٦٨، ابن سعد

ص ٤٦، الواقدي ص ٩٤، الزهري ص ٥٤/٦٦/٩١/١٦٦، ابن القيم ص ٥١/٥٤.

(٧) الآيات (١٥٣)، الأشعار (٧٧)، الأحاديث (٧٤).

(٨) مختصر سيرة الرسول ص ١٢/٤٩-٥٣-٥٦/٥٩/١٠٥/١١١/١٢٣/١٥٣-١٥٨-١٥٩.

(٩) السابق ص ١٢.

النار^(١). والتفرقة بين السنة والبدعة أحد مقاييس الإصلاح^(٢). وكذلك الموالاة للأئصار والمعاداة لغيرهم^(٣). هذه القصص هي أدلة مرتبة متتابعة وليست أدلة وحججا منطقية متتالية^(٤).

وقد يُعبر عن دلالات القصص في ترتيب مثل أهمية العلم والعمل^(٥). وهي حجج الله على الخلق يوم القيامة^(٦). وقد يكون الإسلام بريثا عما يمارسه البدو باسمه^(٧). وهو نفس حال التار الذين يقولون «لا إله إلا الله» دون أن يعملوا بحق التوحيد^(٨).

وتظهر خصائص الرسول حيثما في أضيق حجم ممكن. وتخص موضوعا واحدا

(١) السابق ص ٣، «فاحرص يا عبد الله على معرفة هذا الحبل الذي بين الله وبين عبادته الذي من استمسك به سلم ومن ضيعه عطب، السابق ص ٤ «إذا فهمت ذلك» ص ٦، «فهذه المسألة أجل المسائل»، فمن فقهها فهو الفقيه ومن عمل بها فهو المسلم» ص ٢١.

(٢) «ثم ابتدعوا في ذلك أمورا»، السابق ص ٧١.

(٣) «فمن فهم هذا عرف أن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه وعيب دينه وإلا لو كان لأولئك المعذنين رخصة لفعلوا»، السابق ص ٩١. «فيا لها من عبرة ما أيتها، ومن عظة ما أبلغها، ومن بيان ما أوضحه. لما يظن النبي كثير من يدعي اتباع الحق وأهله، من غير اتباع للحق لأجل غرض من أغراض الدنيا»، السابق ص ٩١.

(٤) «فمن عرف هذه القصة وعرف ما عليه المشركون اليوم وما قاله ويقولوه علماءهم ولم يميز بين الإسلام الذي أتى به النبي وبين دين قريش الذي أرسل الله رسوله ينذرهم عنه، وهو الشرك الأكبر فأبعده الله فإن هذه القصة في غاية الوضوح إلا من طبع الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فذلك لا حيلة فيه ولو كان من أفهم الناس»، السابق ص ٥٢.

(٥) «إذا فهمت ما أنزل الله فيها جيدا. وفهمت ما عند من يدعي الدين اليوم تبين لك أمور: منها أن الإنسان لا يستغنى عن طلب العلم... ومنها أنك تعرف أن الإيمان ليس كما يظن غالب الناس اليوم بل ما ذكر في القلب وصدق العمل»، السابق ص ٢٢.

(٦) «فمن أهم ما على المسلم اليوم تأمل هذه القصة التي جعلها الله من حججه على خلقه إلى يوم القيامة»، السابق ص ٤٢.

(٧) «فانظر ما بين هذا وبين ديننا، أن البدو إسلام، مع معرفتنا بما هم عليه من البراءة من الإسلام كله إلا قول «لا إله إلا الله». ولا تظن بأن أحدا منهم يكفر إلا أن انتقل يهوديا أو نصرانيا»، السابق ص ٥٣.

(٨) «وذلك أنهم بعد ما فعلوا بالمسلمين ما فعلوا وسكنوا بلاد المسلمين وعرفوا دين الإسلام استحسوه وأسلموا ولكن لم يعملوا بما يجب عليهم من شرائعه. وأضهروا أشياء من الخروج على الشريعة لكنهم كانوا يتلفظون بالشهادتين، ويصلون الصلوات الخمس والجمعة والجماعة وليس كالبدو، ومع هذا كفرهم العلماء وقتلوهم وغزوه حتى أزالهم الله عن بلاد المسلمين»، السابق ص ٥٣.

وهو الغزوات: مبايعة أصحابه في الحرب، الاستنصار بالله، مشاوره أصحابه، ترتيب الجيش، المبارزة بأمره، الأولوية، توقيت الخروج، الخيلاء في الحرب^(١).

جـ- «خلاصة سيرة الرسول» لعبد الله ابن الشيخ محمد عبد الوهاب (١٢٤٢هـ)^(٢)

وتستمر السيرة الإصلاحية مع زيادة في السلفية وقلة في النزعة الإصلاحية. ولقبه الإمام بدر الإعلام. وهو ضعف كتاب الأب من حيث الحجم ونفس العنوان. توفي الأب بالدرعية والابن بمصر التي حاربت الأب دفاعاً من محمد علي عن وحدة الخلافة وبأمر السلطان. ويحال إلى إمام السلفيين ابن تيمية^(٣). يغيب أي موقف إصلاحٍ أو أي دلالة عصرية عن الإصلاح. يكتفي بتكرار ما قاله القدماء. وتكرر أساليب الدعوة التقليدية، البشارة بالجنة تشجيعاً، والتخويف بالنار تحذيراً. فإزال الإصلاح يدور في إطار المذاهب الفقهية الأربعة^(٤).

وهو مثل سيرة الأب بلا أبواب ولا فصول. إنها فقط «فصل» و «ذكر» و «قصة» وغيرها من المقولات العامة^(٥). فتغيب البنية. ويحال إلى سيرة الأب^(٦). ويستعمل المنهج التاريخي كذلك. وتستمر النبوة في الخلافة، عند الخلفاء الأربعة، وخلافة الحسين وصلحه مع معاوية^(٧). ويتحول أحياناً إلى مجرد رصد^(٨). وتسجل الحوادث عامّاً بعد عام منذ الهجرة^(٩). ويختلط مفهوم الطبقة بين التابع الزماني والأولوية في الفضل في طبقات الصحابة^(١٠).

(١) السابق ص ٩٦-٩٧.

(٢) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (١٢٤٢هـ): خلاصة سيرة الرسول، الفيصلية (د.ت)، المطبعة السلفية ومكبتها، الروضة بمصر ١٣٧٩هـ.

(٣) السابق ص ١٣١.

(٤) السابق ص ٣٧٧.

(٥) فصل (٦١)، ذكر (١٤)، غزوة (٢٢)، قصة (٣)، خلافة (٤).

(٦) خلاصة (٢)، ص ٧٩.

(٧) السابق ص ٤٦٥-٥٠٦.

(٨) مثل رصد أوائل المسلمين، السابق ص ٩٣-٩٦ / ٢٢١-٢٣٠، شهداء أحد ص ٢٥٤-٢٥٦، السرايا ٣٢٢-٣٢٤، الغزوات ص ٢٣٦-٢٧٣.

(٩) السابق ص ٤٠٨-٤٠٩.

(١٠) السابق ص ٥٠٢.

وتعتمد السيرة على القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ^(١). والقرآن أكثر من الحديث، والحديث أكثر من الشعر. ومن الآيات توضيح أسباب النزول^(٢). ويظهر من بعض الآيات تداخل كلام الله مع البشر في الصياغة، واتفاق الوحي مع عمر في الحكم أربع مرات^(٣). وتؤخذ روايات متأخرة لوصف التاريخ السابق. وتؤول بعض الأحاديث كي تنطبق على حوادث وقعت بعد وفاة الرسول مثل الخوارج باعتبارهم المنافقين الذين أشار إليهم الحديث^(٤)، ويحال إلى عديد من المؤرخين القدماء مثل ابن إسحق وابن هشام والواقدي والزهري^(٥). وابن إسحق الأكثر إحالة^(٦). ويعتمد على اقتباسات منهم بعلامة «انتهى»^(٧). وتشرح بعض الألفاظ لغويا^(٨). وتظهر بعض الأحاديث مركبة في طريقة صياغتها النمطية^(٩). وأحيانا تتناقض بعض الروايات مثل انشقاق القمر وانجbas الشمس مع آيات أو أحاديث تجعلها آيتين. لا ينكسفان ولا يتخسفان لموت أحد^(١٠). كما تتناقض الأحاديث مع بعض الممارسات مثل زيارة قبور الأنبياء^(١١).

-
- (١) الآيات (٣٣٥)، الأحاديث (٢٥٠)، الأشعار (١٣٩).
- (٢) خلاصة سيرة الرسول (الابن) ص ١١٢/٩٢-١٢٢-١٢٢.
- (٣) مثل «سبحانك هذا إفاك عظيم» عبارة أبي أيوب، خلاصة سيرة الرسول (الابن) ص ٢٧٥.
- (٤) السابق ص ٣٣٥/٤٠٨-٤٠٩، ومثل «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».
- (٥) السابق ص ٣٦٥/٤٩٧.
- (٦) ابن إسحق، السابق ص ٢١٨/٢١٩ / ٢٧١ / ٣٣٢ / ٣٣٣ / ٣٣٦ / ٣٤٧ / ٣٧١ / ٣٨٩ / ٣٩٠ / ٣٩٥ / ٣٩٦ / ٤٠١ / ٤١١ / ٤١٥ / ٤١٨ / ٤٢١ / ٤٢٣ / ٤٢٨ / ٤٥٨ / ٤٥٩ / ٤٦١ / ٤٩١ / ابن هشام ص ٢٥٠/٢٦١ / ٢٩٠ / ٣٤٨، الواقدي ص ٣١٧ / ٣٣٤ / ٤٣٢ / ٤٩١، الزهري ص ٤٦١-٤٦٢ / ٤٧٢ / ٤٩٢.
- (٧) السابق ص ٧٨ / ١٤٣ / ٢٤٢ / ٢٤٨ / ١٧٨ / ٣٠١ / ٣٠٨ / ٣١٠ / ٣١١ / ٣١٤ / ٣١٨ / ٣٢١ / ٣٣٢ / ٣٢٦ / ٣٣٦ / ٣٣٧ / ٣٤٨ / ٤٠٧ / ٤١١ / ٤٤١ / ٤٥٤ / ٤٦٠ / ٤٦٢.
- (٨) السابق ص ٧٨ / ١٠٥ / ١٤٢ / ٤٣٧ - ٤٣٩ / ٤٤٣.
- (٩) السابق ص ٤٣٦ - ٤٣٧.
- (١٠) «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»، السابق ص ٤٤٢.
- (١١) «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، السابق ص ٤٦١.

كان يمكن للإصلاح أن يكون أكثر بروزاً ووضوحاً. وهو ما حاوله المصطلح الابن في الدروس المستفادة من الغزوات^(١). وهو ما يحدث بين الحين والآخر بتنبية القارئ عليها^(٢). فالتوكل ليس هو التواكل بل الاستعداد والأخذ بالأسباب أولاً. والإيمان قول وعمل^(٣). والغلو هو التطرف^(٤). ومن أحيا أرضاً ميتة فهي له^(٥). ولا يحدد قصر السفر بمسافة^(٦). ولا يطبق حد الرجم إلا اختياراً بعد أن أرجع الرسول الزانية ثلاث مرات حتى تضع حملها وحتى تقطع رضيعها وحتى يكبر ويستقل عن أمه^(٧).

د- «القبس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء» لمحمد طيب النجار (١٩٢٦م)^(٨)

وبالرغم من السير الإصلاحية إلا أن التأليف في علم السيرة بطريقة القدماء التي

(١) وفي الإشارة إلى بعض ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف، خلاصة سيرة الرسول (٢) ص ٣٤٩-٣٥٨.

(٢) فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم إذا خرج للجهاد ويعقد لذلك بجمع الصحابة واتخاذ الخيل والسلاح وما يحتاج إليه من آلات السفر فإذا رجع يتعري عن ذلك ويرد الأمر كله إلى مولاه لا غيره... وهذا هو التوكل على الله حقاً، السابق ص ٣٦٣.

(٣) وفي هذه القصة أن الإيمان بالله مجموع هذه الخصال من القول والعمل، السابق ص ٤١٦.

(٤) «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من قبلكم»، السابق ص ٣٧٧.

(٥) السابق ص ٣٧٨.

(٦) وفي هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يحدد بمسافة معلومة ولا بأيام. ولا تأثير للشك في قصر الصلاة البتة، السابق ص ٤٥٣.

(٧) «مهلاً يا خالد لا تسبها، فوالذي نفس محمد بيده لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»، السابق ص ٤٠٨.

(٨) محمد الطيب النجار: القبس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م. وينقسم الكتاب إلى أحد عشر فصلاً: الأول على هامش السيرة أي الدين في شبه الجزيرة العربية، الثاني: حياة الرسول قبل البعثة، الثالث: من البعثة إلى الهجرة، الرابع الهجرة النبوية وتأسيس الدولة الإسلامية، الخامس القتال في الإسلام وغزوة بدر الكبرى. السادس غزوة أحد، السابع غزوة الأحزاب (الختنق). الثامن عمرة الحديبية وعمرة القضاء. التاسع من صلح الحديبية إلى فتح مكة. العاشر يوم الفتح ويوم حنين. الحادي عشر حجة الوداع ووفاء الرسول. الاتجاه الليبرالي عند طه حسين، محمد حسين هيكل، العقاد، نظمي لوقا.

دشنها ابن إسحق وابن هشام، الطريقة الزمانية التاريخية، مازالت مستمرة^(١). وهو التسلسل الطبيعي في حياة الرسول من الميلاد حتى الوفاة^(٢). والشئائل مجرد خاتمة^(٣). وقل حجم العرب قبل الإسلام في مقدمة وليس فصلاً^(٤). وأضيفت طريقة التأليف الحديثة، الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية^(٥). تظهر الرسالة من خلال الرسول وليس الرسول من خلال الرسالة. وتركز على المعاني أكثر مما تركز على الوقائع. ويخصص جزء إلى «الدروس المستفادة من السير» حتى ولو كانت دروساً تقليدية مثل النصر بعد الصبر، والفرج بعد الشدة، وانتصار الخير على الشر، والصدق على الغرور. وتظهر بعض الألفاظ الحديثة مثل «الكفاح»^(٦).

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر وبعض السير الحديثة^(٧). فالقرآن مصدر للتاريخ، المصدر الأول، وأحياناً يظهر فيه كيف أعاد بناء الوحي قول البشر ورده عليهم^(٨). والحديث والشعر مصدر ثاني. والمصادر الحديثة أقلها. وفي القرآن تظهر أسباب نزول الآيات طبقاً للحوادث^(٩). وتذكر متون الأحاديث دون أسانيدھا. فالمهم هو المعنى وليس الرواية بعد أن استقر علم الحديث وتم تدوينه. وهو وقوع في الدور، القرآن والحديث مصدران للسيرة، والرسول هو المبلغ بها. فالرسول مصدر لنفسه. أما

(١) «وراعينا في التسلسل الطبيعي الذي تقتضيه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ فجر حياته إلى أن انتهى

يومه الذي قدر الله له في هذه الدنيا ولحق بالرفيق الأعلى»، السابق ص ٣.

(٢) ذكر طرف من أخلاقه صلى الله عليه وسلم، السابق ص ٢٤٢-٢٤٧.

(٣) السابق ص ٣-١٤.

(٤) السابق ص ٦-١٤.

(٥) السابق ص ١٦٤-١٦٥.

(٦) «وقد رجع الرسول بعد ذلك إلى مكة، فوجد قومه يقفون بالمرصاد لكي يمنعه من الدخول. فاستجار بالمطعم بن عدي فأجاره المطعم، وتسليح هو وبنوه لحمايته حتى دخل مكة، وطاف بالبيت. ثم انصرف إلى منزله في حراسة المطعم وأولاده ليعود إلى الكفاح من جديد وليستأنف تبليغ الدعوة في هذا الجو العاصف الملئ بالأخطاء والمخاوف»، السابق ص ٦٩.

(٧) القرآن (١٢٠)، الشعر (٣٤)، الحديث (٣٣).

(٨) قول الرسول لأبي بكر في الغار أثناء الهجرة «لا تخزن إن الله معنا»، القيس الرضاء ص ٨٩.

(٩) السابق ص ٤٦.

المصادر الحديثة فهي قليلة سواء من العرب أو من المستشرقين^(١). ولا توجد هوامش في الكتاب أسوة بالتأليف الحديث. ويكتفي بالمصادر والمراجع في آخره.

وتظهر بعض الجوانب الإصلاحية في المدرسة الأزهرية المستنيرة. فالمعجزات التي تحول البعض منها إلى خرافات في الثقافة الشعبية قليلة مع بقاء البعض منها مثل رواية شق الصدر، وتدخل الملائكة في بدر^(٢).

وهناك بعض ما تبقى من تشخيص الرسالة في الرسول مثل أزواج النبي دون بوله وشعره ونعاله. صحيح أن عائشة شاركت في الفتنة الصغرى ضد علي ولكن باقي أزواجه عشن في الخفاء^(٣). وقد يكون الدافع على ذلك الدفاع عن الرسول ضد الشبهات^(٤). والحجة أنه كان زواجا للمصلحة العامة، ونسيان الجوانب البشرية في حياة الرسول، حاجته إلى حنان الأم في شخصية خديجة وإلى الطفلة في شخصية عائشة وإلى أنوثتها في شخصية زينب بنت جحش وجورية بنت الحارث وصفية بنت أمية^(٥).

وما زال «الإشراق» الذي ساد السيرة المتأخرة، والتوحيد بين محمد والنور والجاهلية والظلام كما هو الحال في المذاهب النبوية «البردة» ونهجها. ويدل على ذلك العنوان «القبس الوضاء».

وبالرغم من الوضوح والتركيز دون التشعيب والدخول في تفاصيل إلا أن الأسلوب الخطابي هو الذي ساد طبقا لوسائل التعبير الإصلاحية مثل: «ما أشبه الليلة بالبارحة»،

(١) من العرب: محمود شيت خطاب: الرسول القائد. ومن المستشرقين إسرائيل ولفسون، تاريخ اليهود في جزيرة العرب، السابق ص ١٣٢/١٤٣.

(٢) السابق ص ٢٤٨-٢٥٠.

(٣) السابق ص ٣٣-٣٥/٧٢/١١٨/١٥١.

(٤) السابق، أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ص ٢٣٢-٢٤٢.

(٥) «وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يملوا أغواش الشك في مثل هذه النقطة الغامضة حتى لا تضل فيها الأنبياء، وتزل بها الأقدام. وقد نشطوا لذلك، والحمد لله، على توالي العصور والأزمنة، وبينوا الدوافع القوية التي كانت تحيط بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من كل واحدة من زوجاته الكثرات والتي كانت تجعل هذا الزواج هادفا إلى المصلحة العامة دون سواها»، السابق ص ٢٣٢-٢٣٣.

التاريخ يعيد نفسه، وما النصر إلا من عند الله، تبذرت أحلامهم»^(١).

هـ - «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري (١٩٥٦)^(٢)

وتستمر السير التقليدية نموذج ابن هشام حتى الحركات الإصلاحية الحديثة دون قراءة للسيرة في أحوال العصر أو قراءة لأحوال العصر في السيرة. العنوان الرئيسي صوفي. والعنوان الفرعي به صفة من الشائيل «سيد المرسلين» بالرغم من تقلص هذا المحور إلى الحد الأدنى في آخر حوادث السنة الحادية عشرة مع معجزاته إلى مقدار التسع^(٣). وقد يكون ذلك أحد أوجه الإصلاح على نحو لا شعوري، تقليص الرسول إلى الحد الأدنى لحساب الرسالة. لذلك لا تظهر ألقاب التفخيم والتعظيم مثل «النسب الشريف» إلا نادرا^(٤). لا تظهر دلالة ولا حكمة ولا يبرز معنى. إنما هي سيرة من شيخ بالرغم من عقلانيته وانتسابه إلى تيار الإصلاح في الأزهر. كان الدافع على كتابة السيرة أمنية التأليف في سير القواد العظام بطريقة تخلو من الحشو والتطويل والتعقيد. وهي أمنية الكثير^(٥). وقد تكون الغاية اتباع الرسول^(٦). لذلك أتى تعليماً مدرسياً واضحاً إلى درجة التسطيح. تظهر فقط بعض المصطلحات الحديثة مثل حركة الأفكار والمستضعفين، والسياسة الدينية^(٧).

وتتبع السيرة المنهج التاريخي، رصد الحوادث عاماً بعد عام من السنة الأولى حتى السنة الحادية عشرة دون أبواب أو فصول. تبدأ أحداث السنة الأولى من الهجرة. قبلها

(١) السابق ص ١٦٢-١٦٥ «فيا باغي الشر أقصي، فعلى الباغي تدور الدوائر، ويا ساعيا إلى الظلم حسبك، فإنك تظلم نفسك قبل أن تظلم غيرك وإن عدل القضاء يتعقبك في الدنيا والآخرة... ويا أيها المكروب الذي أظلمت أمامه السبل وأحاطت به الحيرة إن الصبر والإيمان والثقة بالله ذلكم هو المنارة الهادية التي تؤنس المستوحش، وترشد الخائر، وتهدي الضال في دياجير الحياة»، السابق ص ١٦٤-١٦٥. «ونعود فتقول هؤلاء المرجعين الذين يهتمون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رجل شهواني: رويدكم أيها المضللون وحسبكم...»، السابق ص ٢٣٦.

(٢) محمد الخضري (الشيخ): نور اليقين في سيرة سيد المرسلين تحقيق وشرح نواف الجراح، دار صادر، بيروت ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

(٣) شائله معجزاته، السابق ص ١٩٨-٢٢٥.

(٤) السابق ص ٨-٩.

(٥) السابق ص ٩.

(٦) «ونسأله أن يوفق قارئه السيرة إلى اتباع رسول الله وأصحابه وأنصاه آمين»، السابق ص ٢٢٥.

(٧) السابق ص ٢٥/٧٢/١٧١.

حياة الرسول قبل الهجرة^(١). والحوادث الغالبة على هذه السنوات هي السرايا ثم الغزوات ثم الوفود ثم الرسائل^(٢). وهي حوادث مصمتة أشبه برصد تاريخي كما يفعل قدماء المؤرخين. وكتبت سيرة أخرى للخلفاء استكمالاً للمنهج التاريخي^(٣).

وتقل الشواهد النقلية إلى الحد الأدنى، القرآن والحديث والشعر اعتماداً على التطور الطبيعي للسيرة وحياة الرسول^(٤). شواهدا داخلية وليست خارجية، من طبيعة الأشياء وليست من النصوص^(٥). وتعتمد على الكتب المقدسة السابقة لبيان التطور الطبيعي للوحي من اليهودية إلى المسيحية إلى الإسلام، من مصادرها الأصلية وهو الأقل أو من رواية القرآن لها وهو الأكثر. كما يعتمد على بعض جوانب التراث الصوفي مثل «الإحياء» للغزالي^(٦). وتظل الروايات الطويلة والمتعددة للصياغات كما هي دون تساؤل مثل روايات الإسراء والمعراج وخطبة حجة الوداع^(٧). والسؤال: من الذي كان يكتب الرسائل للملوك والقيصرة والكياسرة وكيف، إملاء أو تأليف؟ وأحياناً تبدو القسمة العقلية للموضوع مثل شروط صلح الحديبية؟^(٨).

و- «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي (١٩٩٩م)^(٩)

وقد تصل الحركة الإصلاحية إلى أعلى مداها في مصر والهند، والأفغاني وإقبال والندوي يربط بينهما. والمودودي وسيد قطب في هذا العصر حلقتان متصلتان^(١٠).

(١) السابق ٩-٧٢.

(٢) هو «إتمام الوفا بسيرة الخلفاء»، السابق ص ١٩٦.

(٣) السرايا (٣١)، الغزوات (٢٨)، الوفود (٢٤)، الرسائل (٤).

(٤) القرآن (٢١٦)، الحديث (١٥٠)، الشعر (١٨).

(٥) تبشير التوراة والإنجيل به، نور اليقين ص ٢٢-٢٥.

(٦) السابق ص ١٢٨.

(٧) السابق ص ٥٧-٥٨ / ١٨٥-١٨٦.

(٨) السابق ص ١٣٩.

(٩) أثر أبي الأعلى المودودي على الجبايات الدينية المعاصرة، الإمام الشهيد أثر سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١ ج٥، الحركات الدينية المعاصرة، ص ١٢٣-٣٠٠.

(١٠) العلامة الداعية الحكيم أبو الحسن علي الحسيني الندوي، السيرة النبوية، دار القلم. دمشق ط ٤/ ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧ م. والمؤلف حاصل على جائزة الملك فيصل عام ١٩٩٨.

ويوصف الندوي بأنه العلامة الداعية الحكيم. ومن قدّم الكتاب العلامة الداعية. والأصل عربي غير مترجم. وهو بلا أبواب ولا فصول بل اثنان وثلاثون موضوعاً موزعة على سبعة عناوين كبيرة بلا ترقيم. الأول العصر الجاهلي، نظرة إجمالية على الوضع الديني وإطلالة على البلاد والأمم في القرن السادس المسيحي وجزيرة العرب قبل البعثة^(١). والثاني من الولادة الكريمة إلى البعثة العظيمة. وتبدو ألفاظ التعظيم والتمجيد^(٢). ولا يوجد نقد إلا لقصة الراهب بحيري^(٣). والثالث العهد المكي من البعثة إلى الهجرة مع الإسرائء والمعراج^(٤). والرابع الهجرة إلى المدينة^(٥). والخامس العهد المدني وهو أكبر الأقسام. يشمل الحياة في المدينة والإذن بالقتال، ومعركة بدر الحاسمة وغزوات وسرايا بين بدر وأحد، وإجلاء بني النضير، وغزوة الخندق أو الأحزاب، وغزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق، وحديث الإفك، وصلاح الحديبية، ودعوة الملوك والأمراء، وغزوة خيبر وغزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين والطائف وتبوك، وعام الوفود وحجة الوداع، والوفاة وأزواجه وأولاده وأسباطه^(٦). ونسبه وكأنهم جزء من السيرة. ويبين التركيز على الغزوات أن الانطلاقة كانت من الحجاز بعد فتح مكة إلى الجنوب مع الاتجاه من المدينة إلى مكة. وقبل فتح مكة كان إلى الشمال. والسادس الأخلاق والشئال^(٧). والسابع فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ورسالتها العالمية الخالدة مع ولادة عالم جديد وإنسان جديد^(٨). وهو التبويب التاريخي، البداية والوسط والنهاية الذي أسسه ابن إسحاق وابن هشام.

وكعادة التأليف الحديث، السيرة مزودة باثنتين وثلاثين خريطة لشبه الجزيرة العربية لبيان الغزوات وموقعها الجغرافي وإدارة المعارك. كما بآخرها ملحقان، الصحيفة

(١) السابق ص ٢١-٩٥.

(٢) السابق ص ٩٧-١١٣.

(٣) السابق ص ١٠٤-١٠٥.

(٤) السابق ص ١١٥-١٥١.

(٥) السابق ص ١٥٥-١٧٠.

(٦) السابق ص ١٧١-٤٢٢ / ص ٤٢٣-٤٥٦.

(٧) السابق ص ٤٥٩-٤٨٧.

(٨) السابق ص ٩٦ / ٤١٥-٤٢٢.

والغزوات، وتفاصيل أسماؤها، وقوة الطرفين، ومكانها وتاريخها وأهدافها^(١).

والمصادر نصية من القرآن والحديث والشعر^(٢). والحديث أكبرها. تعتمد على السير المعاصرة. كما تعتمد على الموروث والوافد معا، تختار منهما ما يفيد السيرة. والمؤلف صاحب ثقافة إنجليزية مستنيرة وواضحة كما كان كتاب السير في مصر مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل أصحاب ثقافة فرنسية. ويستعمل الإحالات إلى المراجع والهوامش أسوة بالتأليف الحديث مع نصوص عربية أو مترجمة أو في أصلها الإنجليزي^(٣). وهذا لا يمنع من الهجوم على المستشرقين واقترائهم على الإسلام مثل استمداد القرآن من بحيرا الراهب^(٤).

والسيرة سهلة واضحة مؤثرة تعليمية تحاطب العقل والوجدان. المعجزات فيها أقل. أثرت أعمال المؤلف السابقة مثل «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين في الجليل الحالي؟» ومع ذلك المعجزات موجودة ساعة الولادة والإسراء والمعراج على الأقل^(٥). ويظهر الأسلوب الخطابي في العنوانين الأخيرين «فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة» و«ولادة عالم جديد وإنسان جديد»^(٦). والواقع الإسلامي في السودان والصومال وفلسطين والعراق مناقض تماما.

(١) السيرة النبوية الخرافات والرسوم والمخطوطات، ص ٣٠ / ٦٢-٦١ / ٨٢-٨١ / ٩٦ / ١٥٢ / ١٩٢ / ٢١٠ - ٢١١ / ٢٢٦ / ٢٢٩ - ٢٣٠ / ٢٤٤ / ٢٤٨ / ٢٥٨ / ٢٦٧ / ٢٨٦ / ٢٧٤ / ٢٨٥ - ٢٨٦ / ٢٨٩ - ٢٩١ / ٢٩٣ / ٣١٣ - ٣١٤ / ٣٢٦ / ٣٣٣ - ٣٣٤ / ٣٥٢ / ٣٦٦ / ٣٨١ - ٣٨٢ / ٣٨٩ - ٣٩٢، الملحقان: الصحيفة ص ٤٨٨-٤٩١. الغزوات ص ٤٩٢-٥٠٢.

(٢) الأحاديث (٣٥٦)، الآيات (١٨٧)، الأشعار (٢٢).

(٣) السيرة النبوية ص ٢٤.

(٤) السابق ص ١٠٦.

(٥) السابق ص ١٠٠.

(٦) مثل «إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات، قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمدية كما وكيفا، البعثة المحمدية أنقذت النوع البشري من الشقاء والهلاك، مهمة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسماع وطبيعة عمل الأنبياء، تصوير العصر وتبؤه للانهايار والانتحار. وللبعثة المحمدية آثار ستة في تاريخ الإنسان: التوحيد النقي الواضح، الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، إعلان كرامة الإنسان وسموه، محاربة اليأس والتشاؤم وبعثة الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان، الجمع بين الدين والدنيا، وتوحيد الصفوف المتنافرة والمسكرات المتحاربة، تعيين الأهداف والغايات في ميادين العمل والكفاح»، السابق ص ٤٥٩-٤٨٧.

ز- «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي

والتأليف في السيرة مستمر بمفردها أو هي جزء من مشروع كلي^(١). وله رواج كثير^(٢). ومع ذلك لا يضيف جديدا. ولا يعيد قراءتها من منظور العصر. تتبع نموذج ابن هشام وتعود إليه، نموذج البداية والوسط والنهاية. البداية ما قبل البعثة والبعثة. والوسط الهجرة والمدينة، والنهاية حجة الوداع والوفاة. لذلك أتت في ستة أبواب، وكل باب من عدة فصول أكبرها المدينة، أحد عشر فصلا عن الغزوات^(٣). وكل فصل مكون من عدة بحوث. والبابان الأخيران بلا فصول.

وهناك مقدمة منهجية عن مصادر السيرة، وقواعدها، ومنهج الجمع والتصنيف. فمصادر السيرة: القرآن والحديث وكتب المغازي والسير، والدلائل والشبائل، وكتب الأدب واللغة والشعر. ومن القواعد تقديم ما جاء في كتب الحديث الصحيحة من روايات على ما جاء في كتب المغازي، وضرورة الإسناد في قبول الرواية التاريخية خاصة في روايات السيرة. أما منهج الجمع والتصنيف فيقوم على عدة خطوات: ترتيب الأحداث التاريخية للسيرة النبوية ووضعها تحت عناوين جانبية، متن الحديث الأكثر فائدة، والأجمع للمعاني، تخريج الأحاديث، تقديم الصحيحين، تقديم كتب السنة على كتب المغازي، الحكم على صحة المرسل، ذكر الفوائد المستنبطة من بعض الأحاديث، شرح غريب الألفاظ^(٤).

ونظرا لاعتماد السيرة على الحديث، والحديث رواية، والرواية رؤية، تتعدد الرؤى بتعدد الروايات. لذلك شملت خمسا وثلاثين قصة. والقصة أقرب إلى الخيال من الرواية. والرواية حادثة مرئية مدركة من خلال الذات. فقد أثرت بعض السير الحديثة

(١) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، مؤلف جامع للسيرة النبوية المشرفة مرتب حسب الوقائع والأحداث، اقتصر فيه مؤلفه على الأحاديث الصحيحة. تقديم د. عمر سليمان الأشقر، راجعه د. همام سعيد، دار الفرائس للنشر والتوزيع، الأردن ج١/ ٨. ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٧ م.

(٢) صحيح السيرة النبوية وصل إلى الطبعة الثامنة.

(٣) أ- ما قبل البعثة (٤٠)، ب- البعثة (٩٤)، ج- الهجرة (٢٤)، د- المدينة (٤٧٤)، هـ- حجة الوداع (٣٤)، و- الوفاة (٤٣).

(٤) صحيح السيرة النبوية ص ١٣-٢٠.

الاعتماد فقط على صحيح الحديث من أجل استنباط صحيح السيرة. وهو ما يدل عليه العنوان الرئيسي «صحيح السيرة النبوية» والعنوان الفرعي «مؤلف جامع للسيرة النبوية المشرفة، مرتب حسب الوقائع والأحداث، اقتصر فيه مؤلفه على الأحاديث الصحيحة». تسقط الشكائيل والخصائص. وتعود إلى الرسالة دون الرسول. وتقل المعجزات، ولا يوجد باب أو فصل خاص بها.

تعتمد على الحديث أكثر مما تعتمد على القرآن والشعر^(١). وما زالت بعض الأحاديث تعارض العقل وروح الإسلام مثل التفاخر بالأنساب^(٢). وأحاديث الاصطفاء كلها في مواجهة اليهود، شعب الله المختار^(٣). وهي أحاديث منها ما يبدأ بالأنا وهو ما يرفضه الرسول. تفرق بين القبائل والبيوت وتفاضل بينها وهو يعارض المساواة بين البشر جميعا. أما خير القرون ففي الزمان والعصور، الأخلاق والنظم السياسية وليس الأنساب^(٤). ومن بعض آيات القرآن تبدو أسباب نزولها^(٥). ويبدو القرآن مواكبا للحوادث. وبعضها تكشف بلاغته وقدرة الآية على إعادة صياغة قول الرسول^(٦). كما يتم الاعتماد على السابقين^(٧). وتؤخذ منها الاقتباسات^(٨). كما يتم استعمال بعض

(١) الحديث (٣١٢)، القرآن (١٧٢)، الشعر (١٦)، ولقد اعتمدت في جمع هذه الدراسة على المصدر الثاني كمصدر رئيسي وأصيل في كل الأحداث، وعلى المصدر الثالث حين يتعذر علي أن أجد في كتب الحديث ومصنفاته ما يسد ثغرة الحديث الذي أبحث عنه، السابق ص ١٣.

(٢) مثل «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركوهن، الفخر في الأحساب، والظعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنيابة» السابق ص ٣٤-٣٥.

(٣) «إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، «أيا الناس من أنا؟... أنا محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب... إلا أن الله خلق خلقه فجعلني من خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين. ثم جعلهم قبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم جعلهم بيوتا فجعلني من خير بيت، أنا خيركم بيتا وخيركم نسبا»، السابق ص ٢٧.

(٤) «بُعث من خير قرون بني آدم قرنا فرقنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»، السابق ص ٢٦.

(٥) السابق ص ١١٧-١١٨، ص ٤٢٨.

(٦) «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»، السابق ص ١٧٥، ﴿سَيَبْرَزُ الْبَلْعُ وَيَكُونُ الذُّبُرُ﴾، ص ٢٣٤، «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، ص ٤٤١.

(٧) مثل ابن حجر، والماوردي، السابق ص ٣٠٩-٣١٠.

(٨) بعلامة «انتهى».

نصوص الكتب المقدسة السابقة لبيان التواصل بينها، وتنبؤ السابق باللاحق^(١).

وبالرغم من الاعتماد على النقل إلا أن بعض القسمة العقلية تظهر أحيانا مثل أنواع النكاح في الجاهلية، بنود وثيقة الخلف بين المهاجرين والأنصار، أسباب خطأ بعض الباحثين، الفوائد المأخوذة من بعض الأحاديث. كما تستنبط بعض الفوائد من القصص أو الدروس المستفادة^(٢). ومع ذلك بعض آثار السير القديمة مازالت قائمة مثل بعض المعجزات مثل اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ^(٣).

٢- السيرة والتاريخ:

أ- تاريخ آل البيت للأئمة الأربعة^(٤)

والسيرة جزء من آل البيت. فلا فرق بين الرسول والإمام، بين النبوة والإمامة. الرسول واحد والأئمة سبعة عند الإسماعيلية واثنا عشر عند الإمامية. فالسيرة تخضع للفرق. لم يكتبها مؤرخ أو محدث بل نقلت عن الأئمة الأربعة الباقر والصادق والرضا والعسكري الذين نقلوها بدورهم عن آبائهم وبرواية كبار المحدثين والمؤرخين، أحد عشر راوية وآخرون^(٥). فهي رواية شفاهية. وآل البيت هم الرسول وفاطمة وعلي وأولاده الأحد عشر. فالسيرة سيرة الأئمة أكثر منها سيرة الرسول^(٦). وهي تواريخ

(١) السابق ص ٢٩.

(٢) السابق ص ٣٥ / ٢٠٤ - ٢٠٧ / ٣٣٣ / ٣٨٥ - ٣٨٧.

(٣) السابق ص ٣٧٩.

(٤) تاريخ آل البيت، نقلا عن الأئمة الباقر والصادق والرضا والعسكري عن آبائهم عليهم السلام، وبرواية كبار المحدثين والمؤرخين، نصر الجهمضي والفريابي وابن أبي الثلج والعمي وابن همام والخصيبي والذاريع وابن الخشاب وابن النجار وابن طاوس والأربلي وغيرهم، تحقيق السيد محمد رضا الحسيني، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لوفاء العلامة المجلسي (قدس سره ١١١٠هـ)، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، سلسلة مصادر بحار الأنوار (١٠) ط ١ / بيروت (د.ت).

(٥) وفي رأي آخرين المؤلفون خمسة فقط: نصر بن علي الجهمضي، الإمام الرضا، أحمد بن محمد الفريابي، ابن أبي الثلج البغدادي، ابن الخشاب، السابق ص ٥١.

(٦) السابق ص ١٥ - ٢٧، «عن نصر بن علي الجهمضي قال: سألت أبا الحسن، علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أعمار الأئمة صلوات الله عليهم قال: حدثني أبي موسى بن جعفر. قال: حدثني أبي جعفر بن

أشخاص دون دلالة على الرسالة إلا فيما ندر. هو أقرب إلى التاريخ الشيعي وأئمة التشيع خارج عن موضوع السيرة. تاريخ صرف كما يدل على العنوان. هو نص صغير إخباري باستثناء عبارتين عن الاضطهاد والصمت^(١). وتوصف فاطمة بأنها «المجهولة قبرا، المدفونة سرا، المغصوبة جهرا»^(٢). ومع الأئمة تأتي أمهاتهم مع أم النبي. وتظهر ألقاب التعظيم عند الشيعة مثل الباب والقائم^(٣). كما تظهر عبارات المديح المعروفة للنبي «صلى الله عليه وآله» بدلا من «وسلم»، والأئمة «عليهم السلام» سواء في الأصل أو عند الراوي أو المحقق^(٤). هي مجرد رصد أسماء ذرية واحدة. يعتمد على القرآن والحديث. والحديث هو حديث الأئمة وليس حديث الرسول. ويخلو من الأشعار. مع أن الشعر ديوان العرب^(٥).

ويتكون من سبعة فصول: الأول أعمار النبي والأئمة مجرد عدد سنوات حياتهم. وتراوح أسماؤهم بين علي والحسن والحسين ومحمد وجعفر وموسى. ويأتي القائم والمهدي في النهاية^(٦). والثاني أولاد النبي والأئمة تركيزا على الذرية والوراثية وهم ستة عشر نسلا^(٧). لأمير المؤمنين على أربعة أولاد. وتظل فاطمة هي الأم. وهما أكبر

محمد، عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قال: السابق ص ٦٧، قال الفرياني حدثني أبي قال الفرياني، قال أخي السابق ص ٨٧. قال الفرياني حدثني أخي عبد الله بن محمد... حدثني أبي، حدثني ابن سنان عن أبي بصير، السابق ص ٨٤/٨٦. السابق ص ٩١.

(١) «لو أذن الله لنا في الكلام لزال الشكوك، يفعل الله ما يشاء»، السابق ص ١١٦.

(٢) السابق ص ١٤٣.

(٣) السابق ص ٢٥١/١٤٧.

(٤) السابق ص ٦٥.

(٥) الحديث (١٢)، الآيات (٣).

(٦) هم: الرسول أمير المؤمنين، فاطمة الزهراء، الحسن، الحسين، علي بن الحسين، محمد بن علي، جعفر بن محمد الصادق، موسى بن جعفر، علي بن موسى، محمد بن علي، علي بن محمد، الحسن بن علي، القائم، المهدي، السابق ص ٦٥-٨٨.

(٧) هم: ولد النبي، ولد أمير المؤمنين من فاطمة، من أعقب من ولد أمير المؤمنين من خلف أمير المؤمنين من أزواجه، ولد أمير المؤمنين من غير فاطمة، ولد الحسن، ولد الحسين، ولد علي بن الحسين، ولد محمد بن علي الباقر، ولد جعفر بن محمد الصادق، ولد موسى بن جعفر، ولد علي بن موسى الرضا، ولد محمد بن علي،

الفصول. والثالث أسماء أمهات النبي والأئمة^(١). فالأمهات لهن دورهن في الذرية مثل الآباء. والرابع ألقاب النبي والأئمة^(٢). وتدل كلها على التفخيم والتعظيم. ويتكرر بعضها لوصف مختلف الأئمة مثل الوصي والوفي والمادي والصابر والمرضي والنقي. وهي ستة، أربعة دون تكرار^(٣). والخامس كني النبي والأئمة^(٤). والسادس قبور النبي^(٥). والسابع أبواب النبي^(٦). وهي أقرب إلى الخصائص والشئائل، المحور الثاني في السيرة. هنا تخرج السيرة من الرسالة إلى الرسول، ومن المحور الأول إلى المحور الثاني كلية بولادة قيصرية وليس بولادة طبيعية كما حدث من الترمذي في الشئائل من قبل.

ويمكن تصنيفها من حيث الأشكال الأدبية في نوعين. ألقاب مزدوجة. ويكون الازدواج إما بالإضافة، مضاف ومضاف إليه^(٧). وتكون بالوصف، موصوف وصفة^(٨). وتكون بالجر، جار ومجرور^(٩). والألقاب الفردية ذات صلة بالله أو بالرسول والأنبياء أو

ولد علي بن محمد، ولد الحسن بن علي، ولد محمد بن الحسن القائم المهدي، السابق ص ٨٩-١١٧.
(١) السابق ص ١١٩-١٢٥.

(٢) السابق ص ١٢٧-١٣٣.

(٣) ألقاب النبي مثل: حبيب الله، خاتم النبيين، سيد المرسلين. ألقاب فاطمة: البتول، الزهراء، الحصان، السيدة، أم الأئمة. ألقاب علي: سيد الأوصياء، قائد الغر المحجلين، الصديق الأكبر، الفاروق الأعظم، قسيم الجنة والنار، الوحي. ألقاب الحسن والحسين: سبطا رسول الله، سيدا شباب أهل الجنة. ألقاب الحسن: الأمير، الحجة، الكفي، السبط، الولي. ألقاب الحسين: السيد، الطيب، الوفي، المبارك، الناقع، الدليل على ذات الله. ألقاب علي بن الحسين: زين العابدين، سيد الساجدين، سيد العابدين، ذو الشئئات. ألقاب محمد بن علي: الشاكر، المادي، الأمين. ألقاب جعفر بن محمد: الفاضل، الطاهر. ألقاب موسى بن جعفر: الكاظم، الصابر، الصالح. ألقاب علي بن موسى: الرضا، الصابر، الوفي. ألقاب محمد بن علي: المرتضي القانع، الوصي. ألقاب علي بن محمد: المرتضي، النقي. وألقاب الفاتح: المادي، المهدي، السابق ص ١٢٩-١٣٣.

(٤) السابق ص ١٣٥-١٣٩.

(٥) السابق ص ١٤١-١٤٤.

(٦) السابق ص ١٤٥-١٥١.

(٧) مثل: حبيب الله، خاتم النبيين، سيد المرسلين، أم الأئمة، سيد الأوصياء، قائد الغر المحجلين، قسيم الجنة، سبط رسول الله، سيد شباب أهل الجنة، زين العابدين، سيد العابدين، ذو الشئئات (١٢).

(٨) مثل: الصديق، الأكبر، الفاروق الأعظم (٢).

(٩) الدليل على ذات الله عز وجل (١).

بالأئمة^(١). وقد تفيد الإمارة والسيادة والقيادة^(٢). وقد تفيد الإخلاص للجماعة^(٣). كما تفيد الأخلاق والطهارة^(٤). وأخيراً قد تفيد القهر والصبر^(٥). وقد يفيد بعضها القدرة على الحكم في الآخرة على الناس بالجنة أو النار^(٦). ويمكن إضافة الصورة الفنية^(٧).

أما كني النبي والأئمة فإنها لا تتجاوز «أبو فلان»^(٨). وهو الابن، الأكبر أو الأصغر أو الوحيد. هناك صورة واحدة لعلي هي «أبو تراب» التي أعطاهها له الرسول عندما وجده نائماً ونفض عنه التراب. ويسمى الناس باسم النبي ولا يكونوا بكنيته. الاسم عام، والكنية خاصة. ومع ذلك فكنية المهدي عند الشيعة أبو القاسم^(٩).

وتخصيص فصل لقبور النبي والأئمة هو بداية تقديس الأمكنة وزيارة القبور التي عارضها الوهابيون وأهل السلف عامة^(١٠). أكبر القبور وأربعة منها بالبقيع، قبور الشهداء والتي زارها الرسول في أيامه الأخيرة. وثلاثة بالمدينة، واثنان ببغداد مقابر قريش، واثنان بسر من رأى، وواحد بكربلاء، وواحد بطوس. أما القائم المنتظر وهو المهدي فلا يعلمه إلا الله لأنه لم يظهر بعد.

(١) مثل: حبيب الله، الدليل على ذات الله، خاتم النبيين، سيد المرسلين، أم الأئمة، سبط رسول الله، الوحي، الولي، المبارك، المتوكل (١٠).

(٢) مثل: سيد الأوصياء، قائد الفر المحجلين، الصديق الأكبر، الفاروق الأعظم، الأمير، الحجة، الكفي، السيد، زين العابدين، سيد الساجدين، سيد العابدين، الهادي، السيد (١٣).

(٣) مثل: الوفي، النافع، الأمين (٣).

(٤) مثل: الطيب، الشاكر، الفاضل، الطاهر، المرتضي، النقي، التقى، المهدي (٨).

(٥) مثل: الكاظم، الصابر، القانع، الرضا (٤).

(٦) مثل: قسيم الجنة والنار، سيد شباب أهل الجنة (٢).

(٧) مثل: الحصان، البتول، الزهراء (٣٠).

(٨) الرسول: أبو القاسم، أبو إبراهيم. علي: أبو الحسن، أبو الحسين. الحسن بن علي: أبو محمد. الحسين بن علي:

أبو عبد الله علي بن الحسين: أبو الحسن، أبو محمد، أبو بكر، أبو الحسين. محمد بن علي: أبو جعفر. جعفر

ابن محمد: أبو عبد الله، أبو إسحاق. موسى بن جعفر: أبو الحسن، أبو إبراهيم. علي بن موسى: أبو الحسن.

محمد بن علي: أبو جعفر علي بن محمد. أبو الحسن: الحسن بن علي: أبو محمد القائم: أبو القاسم.

(٩) تاريخ آل البيت ص ١٣٧-١٣٩.

(١٠) النبي بالمدينة، علي بالغري، فاطمة بالمدينة في بيتها الروضة أو بالبقيع، الحسن بالبقيع، الحسين بكربلاء.

علي بن الحسين بالبقيع، محمد بن علي بالبقيع، جعفر بن محمد بالبقيع، موسى بن جعفر ببغداد أو في مقابر قريش،

علي بن موسى بطوس، محمد بن علي ببغداد، علي بن محمد بسر من رأى، الحسن بن علي العسكري، بسر من

رأى، القائم المنتظر لا يعلم قبره إلا الله، السابق ص ١٤٣-١٤٤.

ولما كانت للخلافة إمامة أو ولاية أو وصاية وكان للنبي خليفة أو إمام أو وصي أو ولي فإنه يسمى الباب أي مودع أسرارهِ ومفسر قرآنهِ وحديثهِ^(١). وقد يكون الباب لإمامين^(٢).

ب- «الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء» لابن قليج (٧٦٢هـ)^(٣)

وتستمر السيرة بضم سيرة الرسول وسيرة الخلفاء حتى القرن الثامن. وهو معنى العنوان. لذلك تنقسم السيرة إلى قسمين أولاً السيرة النبوية^(٤)، ثانياً «تاريخ الخلفاء»^(٥). والأول أكبر من الثاني أربع مرات، والثاني حوالي ربع الأول. فهازلت النبوة لها الأولوية كما على الخلافة. ولا يتكون كل قسم من أبواب أو فصول بل من عدة موضوعات غير مرقمة. تتكون السيرة النبوية من واحد وثلاثين موضوعاً. أكبرها غزوة الخندق ثم غزوة بدر الكبرى. وأصغرها أسماؤه، وابتداء الوحي الشريف، والجهار بالدعوة^(٦).

(١) على باب النبي، وسلمان الفارسي باب علي، وسفينة وقيس بن عبد الرحمن باب الحسن بن علي، ورشيد المهجري باب الحسين بن علي، وخالد الكايلي ويحيى بن أم الطويل الذي قتله الحجاج بواسطي، باب علي بن الحسين، وجابر بن يزيد باب محمد بن علي، والمفضل بن عمر باب جعفر بن محمد، ومحمد بن المفضل باب موسى بن جعفر، ومحمد بن الفرات باب علي بن موسى، وعمر بن الفرات، باب محمد بن علي، وعثمان بن سعيد ومحمد بن نصير، الأول باب علي بن محمد والثاني للعصم، وعثمان بن سعيد، ومحمد بن نصير باب الحسن بن علي، وعثمان بن سعيد باب القائم^(٣)، ص ١٤٧-١٥١.

(٢) مثل عثمان بن سعيد باب علي بن محمد والحسن بن علي والقائم، السابق ص ١٤٩، ولما حضرته الوفاة أوحى إلى ابنه أبي جعفر محمد بن عثمان بعهد عهده إليه أبو محمد الحسن بن علي قائلاً «هذا وكيل وابنه وكيل ابني». ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أبي القاسم الحسين بن روح النميري الذي عقد إلى أبي الحسن السمرى ثم أغلق الباب، السابق ص ١٥٠-١٥١.

(٣) الحافظ مغلطاي بن قليج (٧٦٢هـ): الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء، حقق نصوصها وخرجها وعلق عليها محمد نظام الدين الفتنيح، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

(٤) السابق ص ٤١٣-٤٦١= (٤٩).

(٥) السابق ص ٤٦٥-٥٦٥= (١٠١).

(٦) ١- أسماؤه ٢(٤)- النسب الشريف (٨) ٣- مولده (١٨) ٤- أهم الأحداث التي وقعت قبل البعثة (١٥) ٥- ابتداء الوحي الشريف (٤) ٦- أولاده (١٨) ٧- الجهر بالدعوة (٤)، ٨- الهجرة إلى الحبشة (١٢)، - بعض الأحداث قبل الهجرة إلى المدينة (٧)، ١٠- الأسراء والمعراج (٧)، ١١- دعوته القبائل إلى الإسلام (٩)، ١٢- الهجرة إلى المدينة (٢٥)، ١٣- أحداث ما بعد الهجرة (١٠)، ١٤- الغزوات والسرايا والبعوث (١١)،

وفي السيرة النبوية، الرسالة واحد وعشرون موضوعاً، والرسول عشرة موضوعات صغيرة لا تزيد على الثلث^(١). ويتحول المنهج التاريخي أحياناً إلى مجرد رصد وتسجيل بلا دلالات^(٢). وهناك موضوعات خارج موضوع السيرة مثل أولاده والموضوعات العشرة الأخيرة: خدامه ومواليده، دوابه من الخيل والإبل والغنم، آلاته الحربية، ما كان له من الخفاف والجباب، كتابه، الزوجات التي لم يدخل بهن، أخلاقه، فضائله، معجزاته، خصائصه.

والسيرة تلخيص لسيرة أخرى «الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم» قام به أفضل العرب والعجم اليوم. وهو تلخيص كثير الفوائد، عار من الشواهد، منتخب بغير النار، حاو لمقاصد الكتب الكبار^(٣). يلجأ إليه العامة والخاصة^(٤). ويظل الاختصار كبيراً فما بال الأصل؟^(٥). هو مجرد «إشارة» كما يدل عليه الاسم فما بال المشار إليه؟

وتعتمد على القرآن والحديث والشعر^(٦). والحديث أكثر لارتباط علم السيرة بعلم الحديث. وتبدو أسباب النزول وراء ذكر الآيات^(٧). وقد تحولت بعض الأقوال المباشرة في الحديث لبلاغتها وتركيزها وقوة تشبيهها إلى أمثال عربية مثل «لا يلدغ المؤمن من

١٥ - غزوة بدر الكبرى (٣٣)، ١٦ - غزوة أحد (٢٩)، ١٧ - غزوة الخندق (٤٧)، ١٨ - غزوة فتح مكة (١١)، ١٩ - غزوة حنين (١٧)، ٢٠ - غزوة تبوك (١٥)، ٢١ - وفاته (١٢)، ٢٢ - خدمه ومواليه (١٢)، ٢٣ - دوابه وما كان له من الخيل والإبل والغنم (٧)، ٢٥ - ما كان له من الخفاف والجباب (٧)، ٢٤ - آلاته الحربية (٥)، ٢٥ - كتابه (١)، ٢٦ - الزوجات التي لم يدخل بهن (٩)، ٢٧ - أخلاقه (١٠)، ٢٨ - فضائله (٨)، ٢٩ - معجزاته (١٢)، ٣٠ - خصائصه (١٨). ٥ - السيرة النبوية ص ٤١ - ٣٦٠ (٣١٠ ص)، الرسول ص ٣٥٩ - ٤٦١ = (١٠٣ ص).

(١) السابق ص ١١٧ - ١٢١ / ١٨٣ - ٢٠٢ / ٣٠٩ - ٣١٢ / ٣٦١ - ٤١٣ / ٥٦٠.

(٢) السابق ص ٩٤ - ١١١ / ٣٦١ - ٤٦١.

(٣) «فقدت الاستخارة، ولخصت معظم هذه الإشارة من كتابي المسمى «الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم» إلا المأثر فإنني من غيرها لها ذاكر. مقدماً المشهور في كل باب، ليستغنى بذلك عن تكرره في الكتاب»، الإشارة ص ٤٢.

(٤) «فقد نذب أفضل العجم اليوم والعرب، سيدنا قاضي القضاة جلال الدين نفع الله ببركته المسلمين إلى تلخيص سيرة المصطفى وأثار من بعده من الخلفاء كثيرة الفوائد، عارية من الشواهد، متخبة بغير النار، حاوية لمقاصد الكتب الكبار. يلجأ إليها المسلمون، ولا يستغنى عنها العالمون»، السابق ص ٤١ - ٤٢.

(٥) الكتاب ص ٥٦٥.

(٦) الأحاديث (١٣٣)، الأشعار (٤٧)، الآيات (٢٦).

(٧) الإشارة ص ١٠٢ - ١٠٣ / ٢٥٢ - ٢٥٣ / ٢٧٥ / ٣٢٩ / ٣٣٣ / ٣٣٥ / ٣٤٤.

جحر مرتين» و«الحرب خدعة»، «ليس الخبر كالمعاينة»، «الناس كأسنان المشط»، «الأعمال بالنيات»، «سيد القوم خادهم»، «استعينوا على قضاء حاجتكم بالكتمان»، «من غشنا فليس منا»، «اليد العليا خير من يد السفلي»^(١). وتستعمل بعض المصادر التاريخية مثل الواقدي^(٢).

وهي سيرة واضحة، سهلة الفهم، مرتبة ترتيباً زمنياً، معقولة. لذلك جاءت المعجزات فيها أقل باستثناء البعض منها مثل شق الصدر، خاتم النبوة بالشعر على ظهر الكتف^(٣). والمعجزات روايات يخصص لها قسم في آخر السيرة في الأقسام الخاصة بالرسول ليس فقط القرآن ببلاغته وفكره وتشريعاته لدرجه إيمان بعض الجن وإسلامه عند سماعه الرسول وهو يقرأ سورة الجن^(٤). بل أيضاً المعجزات الحسية، وهي إحدى وثلاثون معجزة، في الجهاد والنبات والحيوان والإنسان والمستقبل^(٥). وتختلف الروايات

(١) وهي قرابة سبعة وأربعين قولاً مأثوراً منها: «لا يتطع فيها عزان»، «حمى الوطيس»، «مات حتم أنفه»، «يا خيل الله أركبي»، «الولد للفراس، وللعاقر الحجر»، «ياكم وخضراء الدمن»، «الخليل في نواصيها الخير»، «إن من الشعر لحكمة»، «ليس المستول بأعلم من السائل»، السابق ص ٢٠٢-٢١٧.

(٢) السابق ص ١٤٢.

(٣) ومنها إرسال الله ريح حملت شعور الحجاج بعد الحلق فألقته في الحرم، الإشارة ص ٢٧٧/٦٧-٢٨٤-٢٨٢/١٧٦/٧٢.

(٤) معجزاته، السابق ٤٣٢-٤٤٣.

(٥) أ- معجزات الجهاد: تسبيح الحصى في كفه والطعام وهو يأكل، دعاء سقوط المطر وهو على المنبر بكثرة، ب- معجزات النبات: تسليم الشجر والحجر عليه ليالي بعثته، قدمت له الشجرة تشق الأرض إليه وهو نائم وسلمت عليه. أمره شجرتين بالقدوم إليه حتى قضى حاجته خلفهما ثم تفرقتا، دعا غدقا حتى أتاه منتزعا نفسه من التربة ورجع مكانه، اتخذ المنبر وحنين الجزع. ج- معجزات الحيوان: شهادة الذئب بنبوته، شكاية بعير «أنه يشكي كثرة العمل وقلة العلف» وهو مقياس إنساني، وبعير آخر «شكى أنك نجيعه وتدببه»، سجود بعيرين له عجز صاحبهما عنهما، أمره بنحر ست بدنان وهن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ، الشاة المسمومة. د- معجزات الإنسان: تكثير الماء والطعام، نبع الماء بين أصابعه، وشرب وتوضأ ثلاثمائة أو السبعين إلى الثمانين أو خمس عشرة مائة. مزايدات لم تنقص مع شرب أربعين منها، إصابة عيني قتادة يوم أحد أو حنين أو الخندق حتي وقعت على وجته وردما مكانها لا ترمد، ثقل في عين علي التي بها رمد فبرأ من ساعته وما رمدت بعد ذلك، شفاؤه له من وجعه ولم يشك بعد ذلك، مسح رجل عبد الله بن عتيك فبرأت بمسحه لها، إطعام أهل الخندق وهم ألف من صاع شعير وازداد الطعام، إطعام من تمر يسير نفر كثير، إطعام أربعائة من حفنة تمر، إطعام ثمانين من قرصة شعير وزادت، إطعام جيش بأكمله ولم ينقص الطعام بل زاد، إطعام المدعوين ليلة زفافه على زينب ولم ينقص الطعام. هـ- معجزات التاريخ: «أن الله زوي لي الأرض فראيت مشارقها ومغاربها وسيلبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»، أمر بقتل أبي بن

نما يدل على تدخل عامل الخيال في الرواية زيادة في التخميم والتعظيم والتقدیس الذي يصل إلى حد التألیف عند الصوفية في الحقيقة المحمدية في الادعية النبوية المعاصرة. وأقلها أقوال مباشرة.

ج- «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (٧٧٤هـ)^(١)

وقد ساهم المؤرخون في كتابة السيرة باعتبارها جزءاً من تاريخ العرب والمسلمين. وقد يكون إما جزءاً من كتاب كبير في السيرة مثل سيرة ابن خلدون وهي جزء من تاريخه «العبر» أو سيرة مستقلة عن التاريخ كما هو الحال في «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير. والهدف معرفة السيرة النبوية والتواريخ الإسلامية بالاعتماد على علوم أخرى^(٢).

ويضم ثمانية وسبعين فصلاً غير مرقمة. وبعضها بلا عناوين^(٣). ويمكن ضم أكثر من فصل واحد فتقل الموضوعات. وفي هذه الحالة يكون فصل الغزوات أكبرها مع فصول تشخيص الرسول^(٤). فصول الغزوات حوالي أربعة وعشرين. وفصول تشخيص الرسول حوالي عشرة. منها فصل خصائص الرسول الذي يعادل وحده

خلف، أخبر بمصارع المشركين في بدر، غزو طوائف من أمته البحر كالمملوك على الأسرة، ومنهم خالة أنس بن مالك، إصابة عثمان بيلوى شديدة فليصبر، أخبر بأن الحسن سيد يصلح الله به بين فتيين، مقتل عبيله، ومقتل كسرى، بانتحار أحد وأنه من أهل النار.

(١) الإمام الحافظ المحدث المفسر المؤرخ الفقيه الأصولي أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٧٤هـ) رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى بمنه وكرمه: «الفصول في سيرة الرسول، حققه وضبط أصوله وخرج أحاديثه وآثاره وعلق عليه أبو أسامة سليم بن عبد الهلال السلفي (كان الله له، وعفا عنه بمنه وكرمه)، الطبعة العلمية الكاملة المحققة على ثلاث نسخ خطية إحداها منقولة عن نسخة المصنف رحمه الله (جزءان في مجلد واحد)، غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان ج١/ الكويت ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.

(٢) «لأنه لا يجعل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية وهي مشتملة على علوم جمة، وفوائد مهمة لا يستغنى عالم عنها ولا يقدر في العدو منها. وقد أحبيت أن أعلق على تذكرة في ذلك لتكون مدخلا إليه وأنموذجا وعونا له وعليه»، السابق ص ٢٣-٢٤.

(٣) السابق ص ٦٩/١٤٤.

(٤) فصول الغزوات: الأبواء، بواط، العشيرة، بدر الأولى، بدر الكبرى، بني سليم، السوق، ذي أمر، بحران، بني قينقاع، حمراء الأسد، بني النضير، ذات الرقاع، دومة الجندل، الخندق، بنو قريظة، بنو لحيان، ذو الفرد، بنو المصطلق، الحديبية، خيبر، فتح مكة، حنين، الطائف، تبوك.

فصول الغزوات كلها. بعضها أشهر من الأخرى مثل بدر وأحد والخندق وبنو قريظة. وهي تعادل ثلث الفصول. وباقي الموضوعات يمكن ضمها في السيرة التاريخية، البداية والوسط والنهاية^(١). افتقدت البنية للحركة الواضحة المقسمة إلى أبواب وفصول. هناك جزءان فقط دون بيان سبب التمييز بينهما^(٢). بل يقسم موضوع شخص الرسول، وتأتي القسمة بين زوجاته ومواليه^(٣).

ويعتمد كالعادة على القرآن والحديث والشعر. والحديث أكثر^(٤). وتبين بعض الآيات أسباب نزولها^(٥). وتختلف روايات الحديث في الصياغات، الإجمال والتفصيل، الزيادة والنقصان أو في الإخبار بالتاريخ في ولادته ورضاعته ونشأته أو في بعض الحوادث مثل الإسراء والمعراج^(٦). ويقوم المؤرخ بنقد الروايات للوصول إلى حقيقة الحدث. ويضيف بعض الأحاديث. وما قالته الروايات في الطب النبوي أقرب إلى العادات الشعبية. وبعض الأحاديث عن فضل علي وفاطمة من رواية الشيعة^(٧). ويتأثر الرسول بالشعر فالإحساس الشعري واحد في القرآن والشعر^(٨). ويعترف الرسول بخطئه لأنه بشر مثل باقي البشر^(٩). كما يعتمد المؤرخ على الفرق الإسلامية، الخوارج والمعتزلة،

(١) في البداية النسب والولادة والرضاعة والنشأة والبعثة وعدوان المشركين وفتنة المعذنين، والهجرة إلى الحبشة، ومقاطعة قريش، والخروج إلى الطائف، والإسراء والمعراج، وعرض النبي نفسه على القبائل، وبيعة العقبة الأولى والثانية. وتنتهي بالهجرة ودخوله المدينة واستقراره فيها والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. والوسط فرض الجهاد والغزوات والفتوحات والبعوث والسرائيا وتحويل القبلة وحديث الإفك، وفتح مكة. والثالثة استقبال الوفود، وحجة الوداع وإخباره بالمستقبل وجهنم ووفاته.

(٢) الفصول ص ٢١/٣١٩.

(٣) السابق ص ٣٠٢-٣١٩.

(٤) الأحاديث (٢٨٧)، الآيات (٩٧)، الأشعار (٨).

(٥) الفصول ص ١٠١/١٩٢/٣٠٣.

(٦) السابق، ص ٤١-٤٣/٦٥-٦٩.

(٧) السابق ص ٥٢١.

(٨) ندم الرسول على قتل من هجاه بعد أن سمع رثاء أخته له «لو سمعتها قبل لم أقتله»، السابق ص ١٠٦.

(٩) «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفه. إني أنا بشر. فأني المؤمنين أذيتهم أو شتمتهم أو جلدتهم أو لعتهم فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تفر به إليك يوم القيامة»، السابق ص ٤٩٧.

وجوانب أخرى من التراث. فالسيرة جزء من علوم التراث^(١).

ثم تبدأ فصول التحول من الرسالة إلى الرسول: أولاده، وزوجاته، ومواليه، وخدمه، وكتابه، ومؤذنه، ورسائله، وأماكنه، وسماعاته، والسمع منه، وعدد المسلمين حين وفاته^(٢). وهي ما يخرج عن إطار النبوة والرسالة.

ثم تأتي خصائصه كنبى رسول وقائد وبطل، صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة التي لا تخلو من مدح وتعظيم^(٣). ثم يخصص أطول الفصول لتصنيف خصائصه إلى أربعة أقسام^(٤). الأول ما اختص به دون غيره من الأنبياء^(٥). والثاني خصائصه في العبادات: الإيمان والطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والأطعمة والهبة والفرائض ثم تفصيل خاص للنكاح، ما وجب عليه دون غيره، وما حرم عليه من النكاح دون غيره طبقاً لاثنتين من أحكام التكليف، الواجب والمحرم. والثالث ما أتيح له من النكاح دون غيره. والرابع ما اختص من الفضائل دون غيره، ثم الجهاد والأحكام^(٦). وتنتهي الخصائص بفصل الشفاعة وأنواعها^(٧). فالمادة مستعارة من الفقه. والفقه خارج موضوع السيرة مثل باقي العلوم النقلية القرآن والحديث والتفسير. والمسائل المتفرقة بعد الخصائص وقبل الجهاد والأحكام مسائل فقهية، أحكام الفروع^(٨). وهو ما يتعرض مع عموم الأحكام. والتأسي بالرسول كقدوة يمنع من أن يكون له فقه خاص.

(١) السابق ص ٤٥٧ / ٥٢٨.

(٢) السابق ص ٢٩٨ - ٣٦٥.

(٣) السابق ص ٣٣١ - ٣٣٨.

(٤) السابق ص ٣٦٦ - ٥٢٣.

(٥) السابق ص ٣٦٨ - ٣٩٩.

(٦) السابق ص ٤٠٠ - ٥٢٣.

(٧) السابق ص ٥٢٤ - ٥٣٠.

(٨) السابق ص ٤٩١ - ٤٩٨.

د- «صحيح السيرة النبوية» للألباني (١٤٢٠هـ)^(١)

ونظرا لأهمية «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير أصبح موضوعا للدراسات والتلخيصات. فقد كتبها الألباني لتصحيح بعض روايات ابن كثير أو للدفاع عنه ضد بعض القراءات الحديثة للسيرة وتضعيف روايتها عند المحدثين مثل أبي زهرة وما في كتابه من «الطامات»^(٢). وإذا كان علم السيرة قائما على الروايات ويتم تضعيف الروايات فإن علم الحديث ليس علما مقدسا، ولا توجد سيرة موضوعية تاريخية في علم السيرة لأنها كلها تتوقف على روايات ذاتية. وشارك في ذلك العرب وغير العرب من المسلمين. كما شارك فيه المستشرقون. والمؤلف صاحب مشروع لم يكتمل. لذلك تتوقف السيرة على فصل الإسراء والمعراج. والحقيقة أن تصحيح ابن كثير والرد على أبي زهرة ليس كثيرا. يذكر أن في الهامش وليس في صلب الصفحة ومرات قليلة^(٣). وقد اتهم المؤلف أبي زهرة لمجرد تشككه في بعض روايات المعجزات بالاعتزال وكان الاعتزال تهمة^(٤). فبالرغم

(١) محمد ناصر الدين الألباني (رحمه الله): صحيح السيرة النبوية، ما صح من سيرة رسول الله وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه للمحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد، الرياض ج١/ ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٢) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين.

(٣) صحيح السيرة النبوية ص ١٠/ ١٦/ ١٨/ ٢٤/ ٢٥. وأما ما ذكره الشيخ أبو زهرة (ج١/ ١٢١) أن قوية كانت أول من أعلم أبا هب بولادة ابن أخيه محمد فأعتقها لهذه البشري الكريمة فهما لا أصل له في الرواية، وإنما علقه المؤلف تعليقا بدون سند، السابق ص ١٦. ونحن نرى أن الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب. وعلى فرض أنها صحيحة لا نقول إنها غير مقبولة «بل أن نقبلها إن صحت، ولكن الاضطراب في خبرها يجعلنا غير رادين ولا مصدقين» (أبو زهرة ج١/ ١٢٧). وقد رد أبو زهرة حديث أن والذي الرسول في النار وقال إنه خبر غريب في معناه كما هو غريب في سنده لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَقَّ بَعَثَ رَسُولًا﴾ وكان أبو محمد وأمه على فترة من الرسل فكيف يعذبون؟ ... وفي الحق أني خرس في سمعي وفهمي عندما تصورت أن عبد الله وأمنة يتصور أن يدخل النار... ويرد الألباني أليس موقف (أبي زهرة) هذا هو سبيل أهل الأهواء كالمعتزلة وغيرهم الذين قالوا بالتحسين والتفويض العقلين بما رده عليهم أهل السنة. والشيخ يزعم أنه منهم. فما باله خالفهم وسلك سبيل المعتزلة في تحكيم العقل وردهم للأحاديث الصحيحة لمجرد مخالفتها لأهوائهم إما أصلا وإما تأويلا إذا لم يستطيعوا رده من أصله؟ وهذا عين ما فعله الشيخ. فإنه رد هذا الحديث لظنه أنه حديث غريب. فرد وتأول أحاديث الزيارة بقوله «ولعل نبي النبي عن الاستغفار لأنه لا الاستغفار لا موضع له إذ أنه لم يكن خطابا بالتكليف من نبي مبعوث». السابق ص ٢٤-٢٥، «زعم أبو زهرة أن أهل الفترة الذين كانوا قبل بعثة النبي لا يعذبون» ص ٢٥ «فهم ليسوا من أهل الفترة فسقط استدلال (أبي زهرة) بالآية جملة وتفصيلا»، ص ٢٦.

(٤) السابق ص ٢٥.

من أن المؤلف يصحح روايات ابن كثير إلا أنه يمثل الاتجاه المحافظ تجاه المحدثين. هو محدث مع القدماء، قديم مع المحدثين. ويعتمد على كثير من الكتاب المحافظين في الهوامش^(١). وترك بعض الروايات بلا نقد مثل أربعين عاما بين بناء الحرم والأقصى^(٢). والروايات عن الجن^(٣). ويوجد استطراد شائع عن إسلام الأفراد^(٤).

ويتضمن «صحيح السيرة» عدة أبواب وفصول دون بنية محكمة أو انتقال وتسلسل منطقي بينها. وموضوعات أخرى خارج الأبواب والفصول. فهناك ستة أبواب: الأول مولد الرسول^(٥). وهو ثاني أكبر الأبواب مع الهجرة إلى الحبشة. والثاني هواتف الجن وهو ما ألقته الجن على السنة الكهان ومسموعا من الأوثان^(٦). والثالث كيفية بدء الوحي وأول ما أنزل عليه^(٧). والرابع الأمر بإبلاغ الرسالة للخاص والعام وبالصبر والاحتمال والإعراض عن الجاهلين المعاندين المكذبين بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسول لهم وما لاقاه الرسول وأصحابه من آذاهم^(٨). والخامس محاولة المشركين إقامة الحجة عليهم واعترافهم في أنفسهم بالحق وإن أظهروا المخالفة عنادا^(٩). والسادس الهجرة إلى الحبشة^(١٠).

ويستعمل منهج النص وليس منهج العقل. ويأتي النص كالعادة من القرآن والحديث

(١) مثل جلال الدين السيوطي ومحمد الغزالي.

(٢) صحيح السيرة النبوية ص ٣٩.

(٣) السابق ص ١٠٠-١٠٥.

(٤) السابق ص ١٢٥-١٣٣/١٨٨-١٩٤.

(٥) ويشمل ما وقع من الآيات ليلة مولده، وموت أبويه على الكفر، ومنشئه وترتيبه وكفاية الله له ويتمه، وتزويجه خديجة، وتحميد قريش بناء الكعبة وما ابتدعته قريش في الخمس طبقا لابن إسحق، وعلم أهل الكتاب بمبعثه، السابق ص ٨١-٨١.

(٦) السابق ص ٨٢-٨٣.

(٧) ويشمل أول ما أنزل من القرآن، ومنع الجن ومردة الشياطين من استراق السمع لئلا يختطف أحدهم منه حرفا واحدا فيلقه على لسان وليه فيلبس الأمر ويختلط الحق، وكيفية إتيان الوحي، وسبق الوحي في التلاوة حرصا على سماعه، والتصديق بالوحي وتحمل أثقال النبوة، وإسلام المتقدمين، السابق ص ٨٤-١٣٣.

(٨) ويضم تأليب قريش على الرسول وأصحابه واجتماعهم بعمه وطلبهم تسليمه ورفضهم، اعتراض المشركين على الرسول وأسئلتهم له عن الآيات عنادا وليس طلبا للهدى، السابق ص ١٣٤-١٥٧.

(٩) السابق ص ١٥٨-١٦٣.

(١٠) ويتضمن مخالفة القبائل للرسول، دعاء الرسول على قريش، ذكر حرب فارس والروم، الإسراء والمعراج، السابق ص ١٦٤-٢٣٣.

بالإضافة إلى الشواهد الشعرية^(١). ويُستخدم القرآن للجدال بين الموقفين، وليس حجة بحجة ولكن نصا بجوار نص. وتظهر أسباب النزول وراء الآيات أكثر مما يظهر علم السيرة^(٢). ويعود إلى ابن إسحق قبل ابن هشام، المصدران الأولان للعلم.

هـ- «السيرة النبوية والمعجزات، خلاصة تاريخ ابن كثير» لكنعان^(٣)

وتتحول سيرة ابن كثير في البداية والنهاية بعيدا عن نقد الروايات إلى تلخيصها فقط في المعجزات في «السيرة النبوية والمعجزات، خلاصة تاريخ ابن كثير». بدلا من أن تكون المعجزات جزءا من السيرة تصبح السيرة جزءا من المعجزات عند أحد المحدثين الأحياء، وهو الجزء الثاني من خلاصة أكبر في ثمانية مجلدات^(٤). فما زالت دوافع التأليف القديمة هي هي دون تغيير ودون تجديد في علم السيرة، مجرد تلخيص واقتباس واستخراج أقسام السيرة من كتب التاريخ مع تغيير المحور من الرسالة إلى الرسول، من السيرة إلى المعجزات والشئال كجامع بينهما. ويظل السؤال: ماذا يعني الاختصار وكيف تم؟ هل هو اختصار البداية والنهاية، وإخراج جزء السيرة منه أم اختصار جزء السيرة في البداية والنهاية إلى جزء أصغر. والمختصر حديث مازال حيا يرزق في حين أن فن الاختصار قديم. وهل منهج ابن كثير في «بداية ونهاية» هو نفس منهجه في كتابه «جزء السيرة»، المنهج التاريخي الذي ظهر في القسم الأول منها؟ هل كتب السيرة كمؤرخ أم ككاتب سيرة، إضافة المقدس إلى التاريخ؟ تعتمد السيرة على المؤرخين السابقين مثل الواقدي والبيهقي. والأرجح أنه نفس المنهج لأن السيرة جزء من «بداية ونهاية». ويتم الاقتباس بلفظ «انتهى»^(٥). ويُعاد إلى ابن إسحق وابن هشام

(١) الأحاديث الصحيحة (٣٠٥)، الآيات (١٤٤)، الضعيفة (١٥)، الأشعار (٧).

(٢) صحيح السيرة ص ٢٢٤.

(٣) القاضي الشيخ محمد بن أحمد كنعان: السيرة النبوية والمعجزات، خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، بيروت ج١/ ١٤١٧هـ - ١٩٩٦.

(٤) «فهذا قسم السيرة والمعجزات النبوية. لسيدنا محمد ملخصا من تاريخ الحافظ ابن كثير «البداية والنهاية» وضعناه مستقلا بهذا العنوان... وسيكون بعونه تعالى الجزء الثاني من كتابنا «خلاصة البداية والنهاية» في ثمانية مجلدات»، السابق ص ٣.

(٥) السابق ص ٥٤.

وإلى ابن إسحق أكثر^(١). كانت السيرة وقتئذ أقرب إلى الواقع وأبعد عن الخيال الشعبي للرواة. وبنية «الخلاصة» ثلاثية: السيرة والشئائل والمعجزات، والسيرة أكبرها^(٢). والشئائل أصغرهما، والمعجزات أقرب إلى الشئائل كما من السيرة. فهازلت السيرة هي الغالبة. وقد وصفت بالشريعة إمعانا في التعظيم والتبجيل والتقديس ثم التأليه فيما بعد. وتشمل السيرة ستة فصول طبقا للتتابع الزمني لها: ما قبل البعثة العهد المكّي وهو أكبرها، العهد المدني، حجة الوداع، الوفاة، أمور متعلقة به وهي أقرب إلى الكبر منها إلى الصغر^(٣). والصفات قسم واحد^(٤). أما المعجزات ففصلان: المعنوية وهي القرآن والأخلاق وكثرة المؤمنين ونصره بالملائكة والريح والريح ثم الحسية وهي أكبر، تسع عشرة معجزة في الطبيعة، والنبات والحيوان والإنسان والطعام والشراب، والتاريخ، والإخبار بالماضي والمستقبل^(٥).

والمصادر كالعادة ثلاثة: القرآن والحديث والشعر^(٦). والآيات أكثر. أقوال الرسول والقرآن الذي بلغه الرسول مصدر سيرته وهو دور أي أن الإنسان يكتب سيرته بنفسه. وفي الآيات تظهر أسباب نزولها^(٧). وتتضارب الروايات في يوم مولده^(٨). وهناك عدة روايات في الحج والعمرة^(٩). والاعتماد في الرواية على النقل دون العقل، وعلى الرواية دون الدراية.

٣- المغازي والسير:

بدأت السيرة بالمغازي والسير باعتبارها أهم جزء منها. ومازلت أكبر باب فيها

(١) السابق ص ٦٥.

(٢) السيرة النبوية الشريفة ص ٧-٤٠٦ = (٤٠٠) ص، الشئائل والصفات النبوية ص ٤٠٧-٤٣٨ = (٣٢).

ص ٣- دلائل النبوة والمعجزات ص ٤٣٩-٤٩٦ = (٥٨ ص).

(٣) ١- ما قبل البعثة ص ٩-٣٩ (٣١) ٢- العهد المكّي ص ٤١-١٥٦ (١١٦) ٣- العهد المدني ص ١٥٧-

٢١٦ (٦٠) ٤- حجة الوداع ص ٢١٧-٢٨٣ (٦٧) ٥- وفاة النبي ص ٢٨٥-٣٢٩ (٤٥) ٦- أمور تتعلق

به ص ٣٣١-٤٠٦ (٧٦).

(٤) السابق ص ٤٠٧-٤٣٨.

(٥) السابق ص ٤٣٩-٤٩٦. المعجزات المعنوية ص ٤٤١-٤٥٧. المعجزات الحسية ص ٤٥٩-٤٩٦.

(٦) الآيات (٢٩٠)، الحديث (٢٨١)، الأشعار (٥٢).

(٧) خلاصة ابن كثير ص ٤٨/٨٢/١١٣/١٢١/١٢٥/١٦٥.

(٨) السابق ص ١٥-١٦.

(٩) السابق ص ٢٢٦-٢٤٠.

بعد اكتمال علم السيرة. فالرسول قائد ومجاهد، غازي وفاتح. وقد بدأ هذا الصنف من التأليف في نفس الفترة التي دُون فيها الحديث، ومصنفات السيرة والحديث أي منذ القرن الثالث الهجري حتى الآن، نثرا وشعرا. كتبت المغازي مثل الأحاديث الخاصة بالرسول قبل السير وبالتالي غلبة الفترة المدنية على الفترة المكية.

أ- «كتاب المغازي» لابن أبي شيبة (٢٣٥هـ)^(١)

ويضم حوالي ستمائة حديث^(٢). لا تتظمها أبواب أو فصول بل سبعة وأربعين موضوعا حول موضوعين رئيسيين الغزوات وإسلام الصحابة^(٣). والتبويب للأخبار. فالخبر هو وحدة التقسيم وليس موضوعاتها. وأسقطت بعض الموضوعات أو المجاور الأخرى مثل الشرائع آخر السيرة. ولا توجد مقدماتها في أحوال العرب قبل الإسلام. وتدل أولى الفقرات على أن السيرة، المغازي، من العلوم النقلية مثل «ما جاء»، «ما ذكر»، «ما حفظ»، «حديث»، «ما قال»^(٤). فالمؤلف حافظ أي ناقل وليس مؤلفا. ويضم إليها الخلفاء الأربعة كما فعل ابن خلدون. فالخلافة استمرار للنبوّة عند السنة كما أن الإمامة استمرار لها عند الشيعة^(٥).

ب- «سيرة الرسول المسمى الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر (٤٦٣هـ)^(٦)

وتضم المغازي السير أي الغزوات والسرائيا. وتذكر على نحو مختصر دون إطالة. وتضم تسعة أبواب بلا ترقيم هي: مبعثه، الدعوة، الهجرة إلى الحبشة، دخول بني هاشم وبني عبد المطلب، إسلام الجن، الهجرة من مكة إلى المدينة. وفي الباب السادس باب الغزوات فصل بلا عنوان، وهو أكبر الأبواب لأنه باب الغزوات. وهي سبعة وعشرون،

(١) ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد): كتاب المغازي، درسه وحققه وخرج آثاره د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، دار اشبيليا ١٤٢١هـ.

(٢) يضم (٥٧٦) حديثا.

(٣) إسلام الصحابة (١١)، الغزوات (٧)، الخلفاء (٤).

(٤) إسلام الصحابة ص ١٢٥-١٤٣، الغزوات ص ١٦٩-٤٠٣، الخلفاء ص ٤٢١-٤٦٢.

(٥) ما جاء (١٠)، ما ذكر، ما حفظ (٥)، حديث (٢)، ما قال (١).

(٦) ابن عبد البر النمري (الإمام الحافظ يوسف بن عبد الله): سيرة الرسول المسمى الدرر في اختصار المغازي والسير، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ.

وهي الجزء الأكبر^(١). ويسقط موضوع العرب قبل الإسلام والمولد والرضاعة. ولفظ «اختصار» يدل على الرغبة في التركيز. ويأتي حديث الإسرائيليين مختصراً^(٢). ولا يحتوي الكتاب على أي مقدمة منهجية تبرر سبب التأليف. وبعض المواضيع يسبقها لفظ «ذكر» أي خبر وليس موضوعات، والعهد على الراوي^(٣). والمقدمة الوحيدة هي الاختصار^(٤). وحديث الإسرائيليين مختصر^(٥). وما زالت تروى بغض الوقائع التي ليس عليها دليل مثل إسلام الجن^(٦). والشواهد النقلية كثيرة. الحديث أولاً ثم القرآن ثانياً. ولا توجد شواهد شعرية. وتكشف سيرة الرسول عن الوعي بالرسالة.

ج- «السيرة النبوية، عيون الأثر في فنون المغازي والسير» لابن سيد الناس (٧٣٤هـ)^(٧)

واستمرت السيرة التاريخية التي وضع أسسها ابن إسحق وابن هشام حتى القرن الثامن الهجري دون بنيتها، البداية والوسط والنهاية^(٨). تغيب الأقسام والأبواب والفصول بل مجرد ذكر ستة عشر موضوعاً تغطي مجمل السيرة ودون ترقيم^(٩). أكبرها الأول عن النسب، لا تذكر العرب قبل الإسلام ولا دياناتهم. بل تركز على الغزوات كما يدل على ذلك العنوان «عيون المغازي»، بدر، أحد، الخندق، الحديبية، خيبر، حنين، الطائف، تبوك، ثمان غزوات أي نصف الموضوعات. ووفود العرب وبعثته إلى الملوك

(١) الغزوات (٢٧).

(٢) الدرر ص ٤٦.

(٣) السابق ص ١٠٤-١١٣.

(٤) السابق ص ٥.

(٥) السابق ص ٤٦.

(٦) السابق ص ٣٨-٤١.

(٧) ابن سيد الناس اليعمري الحافظ أبو الفتح محمد بن عمر بن محمد (٧٣٤هـ): السيرة النبوية، عيون الأثر في فنون المغازي والشهائل والسير، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه د. محمد العيد الخطراوي، محي الدين ميتو، مكتبة دار التراث، دار ابن كثير، المدينة المنورة، دمشق ج ١ / ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م (مجلدان).

(٨) الدفاع عن ابن إسحق ج ١ / ٥٤-٦٧.

(٩) هي: ١- النسب (٢١٣ ص) ٢- الهجرة إلى المدينة (٩٢) ٣- غزوة بدر الكبرى (٨١) ٤- غزوة أحد (٧٩) ٥- غزوة الخندق (٧٦) ٦- غزوة الحديبية (٢١) ٧- غزوة خيبر (٤٢) ٨- فتح مكة (٣٠) ٩- غزوة حنين (١٧) ١٠- غزو الطائف (٢٢) ١١- غزوات تبوك (٢٠) ١٢- وفود العرب (٣٢) ١٣- بعثته إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام (١٥) ١٤- حجة الوداع (١٥) ١٥- صفته (١٥) ١٦- جل من أخلاقه (١٦).

موضوعان، وصفته وأخلاقه التي ستتضخم فيما بعد عندما يتحول محور السيرة من الرسالة إلى الرسول، موضوعان، وحجة الوداع. وقد تم تفصيل السيرة في عدة فنون المغازي والشئائل والسير. الغزوات أولاً، والشئائل ثانياً، والسير ثالثاً. وهو ما يتفق مع تصنيف الموضوعات الستة عشر. تاريخ الرسول هو تاريخ الرسالة. والحقيقة أنه لا جديد عن سيرة ابن هشام. ولا هدف من سيرة على نفس المنوال.

والمؤلف على وعي بالمنهج والمصادر في المقدمة^(١). المنهج هو التركيز دون الإطالة المملة ولا الاختصار المخل^(٢). فالإطالة في الأسماء والأنساب والأشعار والآداب. وهو الرصد التاريخي أو جمع الروايات بصرف النظر عن نقدها. والاختصار هو نمطية المنهج وترك كثير من الفوائد أي المعاني والدلالات. ومع ذلك يقع في المنهج التاريخي.

وعيوب المنهج التاريخي هو الوقوع في التسجيل والرصد كما يفعل المؤرخون وليس كتاب السيرة، رصد شهداء بدر، تسجيل أسماء المهاجرين والأنصار^(٣). وأحياناً يتحول التاريخ إلى أسطورة أو أفكار شائعة لا يمكن التحقق من صحتها مثل نسب الرسول إلى آدم كما هو الحال في مقدمة الأناجيل لتتبع نسب المسيح^(٤). كما تثار عدة مسائل لا تهم الرسالة في شيء مثل ذكر أول من آمن به^(٥). كما لم يتم استثمار التقارب اللفظي بين اسم محمد في العربية والسريانية والرومية^(٦).

أما المصادر فيعترف المؤلف بأن القدماء هم القدوة. فيقتبس من كلامهم، ويدخل في نظامهم. فالكتابة عشرة أنواع اختار المؤلف منها نوعاً هو جمع المتفرقات^(٧). وألحق

(١) السابق ج١/ ٥١-٧٢.

(٢) «فلما وقفت على ما جمعه الناس قديماً وحديثاً من المجاميع في سير النبي ومغازيه وأيامه إلى غير ذلك مما يتصل به، لم أر مطيلاً مملاً أو مقصراً بأكثر المقاصد مخلصاً»، السابق ص ٥٢.

(٣) السابق ج١/ ٤١٧-٤٣٢ ج٢/ ٤٢-٥٦/ ١٠١-١٠٢/ ١٩٥-١٩٦/ ٢١١-٢١٢.

(٤) النسب إلى آدم، السابق ص ٧٣-٧٤.

(٥) السابق ص ١٧٨-١٨٨.

(٦) السابق ص ١٤٣.

(٧) «لا يؤلف أحد إلا في أحد أقسام سبعة، ولا يمكن التأليف في غيرها، وهي إما أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه يختره أو شيء ناقص يتممه أو شيء مستغلق يشرحه أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه أو شيء مختلط يرتبه أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه أو شيء مفرق يجمعه» قول أبي عبد الله شمس الدين البابلي، القاهرة (١٠٧٧هـ)، السابق ٥٢ هامش ٢.

به طرفا من الأشعار. وتجنب التكرار من كتب الأحاديث والسنن والمصنفات على الأبواب والمسانيد وكتب المغازي والسير^(١).

والمصدران الرئيسيان ابن إسحق والواقدي^(٢). وابن إسحق هو المصدر الأول لكل المؤرخين إلا أن أسانيده مرسلة. وهي عنده غير مسندة، ويرجح محل الإسناد دون تتبع إسناد المراسيل. ثم يعرف بابن إسحق ويذكر الأحكام المتضاربة عليه بين الصدق والكذب. ويدافع عنه ويدحض اتهامه بالكذب والضعف والتقديرية والتشيع والدجل والخبث والتدليس والتجريح^(٣). أما الواقدي الذي لا ينقل منه مباشرة مثل ابن إسحق فقد كان موضوع الجرح والتعديل مع أنه كان يعتمد على المشاهدة ويزور الأماكن التي كان يروى عنها^(٤). ومع ذلك لم يسلم من التجريح بأنه ضعيف الحديث، ليس بثقة، متروك الحديث، ضعيف، أحاديثه غير محفوظة، روى عشرين ألف حديث غريب^(٥). كما يعتمد على البلاذري^(٦).

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر^(٧). مثل باقي كتاب السيرة من المؤرخين والمحدثين. وبعض الأحاديث مناسبات لأسباب النزول^(٨). والحديث ودرجة صحته هو المسئول عن السير، صحتها أو اختراعها. واختلافات روايات الإسراء والمعراج

(١) السابق ص ٥٣.

(٢) «وعمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن إسحق إذ هو العودة في هذا الباب لنا ولغيرنا. غير أني قد أجد الخبر عنده مرسلا وهو عنده غير مسند»، السابق ج ١ / ٥٤.

(٣) السابق ص ٥٤-٦٧ «أما ما رمى به من التدليس والقدر والتشيع فلا يوجب رد روايته ولا يوقع فيها كبير وهن. أما التدليس فمنه القادح في العدالة وغيره ولا يحمل ما وقع ها هنا من مطلق التدليس على التدليس المقيد بالقادح في العدالة، وكذلك القدر والتشيع لا يقتضي الرد إلا بضميمة أخرى ولم نجدها ها هنا»، السابق ص ٦٣. «وأما مع التوثيق والتعديل فالحمل فيها على المجهولين المشار إليهم لا عليه»، السابق ص ٦٣.

(٤) «وكثيرا ما أنقل عن الواقدي من طريق محمد بن سعد وغيره أخبارا لعل كثيرا منها لا يوجد عند غيره»، السابق ص ٥٤ / ٣٤١ / ٣٥٥.

(٥) السابق ص ٦٧-٧٢.

(٦) السابق ص ١٩٨.

(٧) الآيات (٢٤٠)، الأحاديث (١٨٤)، الأشعار (١٧٤).

(٨) عيون الأثر ج ٢٠٠-٢٠١.

وصياغاتها المختلفة تدل على تدخل الخيال الشعبي في الرواية طبقاً لعملية الإبداع الفني^(١). ويظل الشعر العربي حافظاً في السيرة المتأخرة بالإضافة إلى الوعي الشعري. ويشرح الغريب من الألفاظ^(٢). كما تذكر بعض فوائد الأخبار، وهي تفصيلات عن الموضوع وشواهد نقلية عليها^(٣). ونقد الروايات ضروري قبل كتابة السيرة، والحديث مصدرها الثاني بعد القرآن. فكيف يجب الرسول جبل أحد وهو يثير ذكريات أليمة؟^(٤). والفوائد هي شروح لغوية للأشعار وليست الدلالات أو الدروس المستفادة من السيرة^(٥).

د- «إنارة الدجى في مغازي خير الورى» للشنيطي (١٢٢٠هـ)^(٦) شرح المشاط (١٣٩٩هـ).

وهي منظومة مكونة من أربعمائة وثلاثة وستين بيتاً في الرسول وسيرة الرسول. وتتغير القافية كل شطرين. قسمها الشارح في عدة موضوعات، ثلاثين موضوعاً. يظل التأليف في هذا النوع إلى وقت متأخر، خاصة من الاتجاه السلفي. ويشارك فيه علماء المملكة العربية السعودية. يسود الشرح النزعة التاريخية إلى حد عدد السيوف وعدد الخيول بكل غزوة بالإضافة إلى موقعها وعدد أفرادها وتاريخها وحامل لوائها. فالتقسيم بالغزوات، والشرح تفصيلي، فالعلم هي المعلومات. وهي في مدح الرسول ولعنة أعدائه أسوة بالقصائد المتأخرة ونموذجها «البردة». ومع ذلك يتم تجاوز النزعة التاريخية إلى المعنى أو الدروس المستفادة أو العظة أو العبرة أو الحكمة أو الدلالة أو الفوائد أو النتائج أو استنباط بعض الأحكام^(٧).

(١) السابق جـ ١/ ٢٤٥-٢٥٦.

(٢) السابق جـ ١/ ٩٥/ ٣٢٠.

(٣) السابق جـ ١/ ١٧٤/ ٢٨٢/ ٣٠٩/ ٤١٥-٤١٦.

(٤) «إن أحداً هذا جبل يحبنا ونحبه»، عيون الأثر جـ ٢/ ٥.

(٥) فوائد، السابق جـ ٢/ ٣٨/ ٥٥/ ١١٤/ ١٤٤/ ١٧٣/ ٢٠٢/ ٢١٣-٢٤٦/ ٢٤٨-٢٥٢/ ٢٦٧-٢٦٨/ ٢٧٨-٢٧٩/ ٢٩٠/ ٣٩٢/ ٤١٩/ ٤٢٨/ ٤٣١.

(٦) الشنيطي (أحمد البدوي المجلس): «إنارة الدجى في مغازي خير الورى، شرح العلامة المحدث الأصولي الفقيه القاضي حسن بن محمد المشاط، قدم له بدراسة أد. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، دار المنهاج، جدة، بيروت ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

(٧) المعنى، الدرس، السابق ١٥٩-١٦١، لعظة، لعبرة، الحكمة ص ٣١٧-٥١٠، دلالة ٣٩٦/ ٣٩٧/ ٤٠٩، مدلولات ص ٤٦١، فوائد ص ٤٧٦/ ٥١٦/ ٥٤٣/ ٧٣٩/ ٧٥٢، نتائج ص ٥١٢، أحكام ص ٤١٥، استدلال ص ٤٤٥.

والسيرة رواية وخبر. وليست سيرة موضوعية عن مشاهدة عيانية بل عن السماع. كذلك ذكر في كل موضوع لفظ «خبر» «أو ذكر» وبعض الفقرات «قصة»^(١). ويلاحظ الشارح اختلاف الروايات وتضاربها فيضطر إلى الجمع بين الروايات المختلفة^(٢). فهناك خلاف في قتال الملائكة مع المسلمين^(٣). ومن ثم تأتي ضرورة التحقق من صدق الروايات^(٤). ويكشف عن الدس على المفسرين بفضل هذه النزعة النقدية^(٥). ومع ذلك لا تنقد روايات المعجزات. وتذكر وكأنها وقائع تاريخية وليست روايات، وذلك مثل نزول المطر نعمة على المسلمين ونقمة على الكافرين^(٦). والرسول قادر على تأويل الرؤيا^(٧).

وما زال الشرح يعتمد على النص، القرآن، الحديث، والشعر كالعادة. وتتضح أسباب النزول في استعمال الآيات كشواهد^(٨). كما يعتمد على الفقه^(٩). ويحال إلى الشافعي^(١٠). وتثار المعارك الكلامية عند الشيعة والمعتزلة^(١١). وتؤول نصوص التوراة بحيث تشير إلى طيبة^(١٢).

-
- (١) «خبر»، إنارة الدجى ص ٤٨٥ / ٥٥٥ / ٦٠٢ / ٧٣٨. «ذكر»، ص ٢٢٩ / ١٩٤.
 - (٢) الجمع بين الأقوال المختلفة، السابق ص ١٠١، «قصة» ص ١٣٠ / ١٣٩ / ٣٤٤ / ٤٢٩ / ٤٤٥ / ٤٥٣ / ٤٩ / ٤٩٢ / ٥١٦ / ٥٨٧ / ٦١١ / ٦١٩ / ٦٣٠ / ٦٣٢ / ٦٧٣ / ٦٩١ / ٧٤٠ / ٧٥٣.
 - (٣) السابق ص ١٣٥ / ٦٧٤. تدخل الملائكة ص ٣٠٧ / ١٣٢ / ١٣٥ / ١٣٦ / ٤٠٦ - ٤٠٧ / ٤٢٧.
 - (٤) السابق ص ١٦٨ / ١٥٢ / ١٣٨ / ١٣٦ - ١٦٩ / ١٩٦ / ٣٤٤ / ٣٦٧ / ٣٥١ / ٣٩٥ / ٤١٧ - ٤١٨ / ٤٢٨ / ٥٠٠ / ٥٤٧ / ٥٧٢ / ٧٤٧.
 - (٥) الدس على المفسرين، السابق ص ١٨١.
 - (٦) السابق ص ١١٨ / ٣٥٨ - ٣٥٩ / ٤٣٢ - ٤٣٣ / ٤٨٨ / ٤٩١ / ٥٤٠ / ٦٤٤ / ٦٧٦ / ٧٦٤ / ٧٥٥ / ٧٥٨.
 - (٧) السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٧ / ٥٣٥.
 - (٨) السابق، ص ٢٧٧ / ٢٣٢ / ٣٩٦ - ٣٩٥ / ٤٧٤ / ٤٨٠ / ٥٢٩ - ٥٢٨ / ٦٠٨ / ٥١٥ / ٤٥٣ / ٤٣٢ / ٤٢٤ / ٤١٠ / ٣٥٤ / ٣٥٢ / ٣٤٠ / ٣٣٥ / ٣٣٢ / ٣٢٨ / ٢٣٣ / ٢٢٨ / ٢١٩ / ١٨٢ / ١٦٦ / ١١٥ / ١٠٤ / ٦٠٠ / ٦٠٧ / ٦٦٢ / ٧١٦ / ٧٢٣ / ٧٤٧ / ٧٣٦.
 - (٩) السابق ص ٣٨٩ / ٣٨٥ / ٤٣١ / ٤٦٠ / ٤٨٠ - ٤٨٢ / ٦٠٥ / ٦٥٨ / ٦٧٨.
 - (١٠) السابق ص ٦٤٦ - ٦٤٧.
 - (١١) السابق، المعتزلة ص ٨٤، نقد الشيعة ص ٧٤٨ - ٧٥٠.
 - (١٢) السابق ص ٢٢٩.

وتظهر بعض الألفاظ القرآنية التي كان يمكن استثمارها للعصر الحاضر مثل «المستضعفين». والشارح يهدف إلى مخاطبة العصر الحاضر كما يهدف إلى التحديث^(١). ومع ذلك هناك وقائع ضد التحديث وتثير الغضب مثل «أول رأس حمل في الإسلام على رمح»، واستعطاف من يقتل^(٢).

٤ - السيرة والحديث

خرجت السيرة من علم الحديث. فالسيرة أول تشخيص له. هي الروايات حول شخص الرسول المروية عنه مع أن علم الحديث كله روايات عنه أيضا. علم السيرة كالجنين من رحم الحديث خرج منه ثم انفصل عنه. وظهر في فترة موازية لعلم الحديث في القرن الثالث الهجري، وانتهى التأليف فيه حوالي القرن السادس لما انفصل علم السيرة عن علم الحديث.

أ - «سنن النبي وأيامه» للحافظ ابن سعد (٢٣٠هـ)^(٣)

والعنوان يكشف عن خروج أيام النبي أي سيرته من سنته أي أحاديثه. ومع ذلك هو أقرب إلى الحديث منه إلى السيرة. والحديث محبوب طبقا لأبواب الفقه أسوة بكتب الأحاديث وفي مقدمتها «الإصحاحات». هي مجرد مادة خام لعلم السيرة، هي مجرد جمع لأحاديث دون نقد للرواية ودون تعليق أو رأي. بل إن الغزوات وهي صلب السيرة مجرد روايات لأحاديث فيها. السيرة والمغازي أحد كتب السنن^(٤). والتفسير جزء من السيرة كما هو الحال في كتب الحديث مثل البخاري^(٥). وبعض الكتب خاصة

(١) السابق ص ١٩٩/٢٠٦/٥٠١/٣٨٥/٥٤.

(٢) السابق ص ٣٢٧/٣٢٦/٦٨٨.

(٣) ابن سعد (الحافظ): سنن النبي وأيامه. استخرجها ورتبها وترجم لها وضبط متنها عبد السلام بن محمد بن عمر علوش، (جزءان)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق عمان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٤) السابق ج١ - ١٩٨ - ٥٧٢.

(٥) السابق ج٢ - ٣٦٣ - ٣٩٤.

بتاريخ الأنبياء^(١). وبعضها في الرقاق أي الزهد في الدنيا^(٢). وكثير منها عادات أكثر منها سنن خاصة في الطعام والشراب واللباس والنوم واليقظة والمشي. ويبدأ التقديس باستعمال تعبير نسبة الشريف^(٣).

تروى ما يزيد على أربعة آلاف من الأحاديث، مبوبة في ستة وعشرين «كتاباً». تبدأ بالعبادات، أركان الإسلام الخمسة، وفي مقدمتها «الطهارة». ويضم كتاب الصلاة أبواباً عديدة مثل: الأذان وأعمال الصلاة والإمامة وصلاة الجماعة والجمعة والتقديم والتأخير والوتر وأحكام المساجد. والجناز جزء من الصلاة وليست مستقلة. وتشمل الزكاة الصدقة. ثم تبدأ المعاملات بالنكاح. وتضم الرضاعة، والطلاق، والاختلاع. والسيرة والمغازي أحد الكتب وهي أكبرها. ويضم كتاب اللباس والزينة أنواع الثياب، وأقمشتها وما يحل منها وما يحرم، وألوانها، وخاتمها والشعر وخضابه وهي أدخل في الشمائل. ويشمل كتاب الشمائل صفاته الخلقية والخلقية والفعلية وأدواته. ويتراوح كتاب الفضائل بين الأعمال والأمكنة والأزمنة والصحابة. وتعني علامات النبوة المعجزات. أكبرها السيرة والمغازي، وأصغرها الزكاة والصدقة، مع أن الزكاة لا تقل أهمية عن الجهاد^(٤).

ب- من عوالي المختصر السند الصحيح من أمور رسول الله وسننه وأيامه للبخاري (٢٥٦هـ)، انتقاء ابن تيمية (٧٢٨هـ)^(٥)

وهو يكشف أيضاً عن خروج السيرة من الحديث. ولما كان الحديث متفاوت

(١) السابق ج٢/ ٨٢-١٠٢.

(٢) السابق ج٢/ ٦٦-٨١.

(٣) السابق ج٢/ ١٩٨-٢٠٠.

(٤) ٤١٦٤ حديثاً. والكتب هي: الطهارة، الصلاة والجناز، الزكاة والصدقة، الصوم، الحج، النكاح، القصاص والحدود، السيرة والمغازي، المؤاخاة، الإقطاع، الجهاد، الرسائل، الوفود، الأطعمة والأشربة، اللباس والزينة، الطب، الألقاظ، الأسماء، الأدب، الرقاق، الأنبياء، الشمائل، علامات النبوة، التفسير، الفضائل.

(٥) البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفي مولا هم). انتقاء ابن تيمية (أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام الحراني الحنبلي): المتقى من عوالي المختصر المسند الصحيح من أمور رسول الله وسننه وأيامه، تحقيق عبد العزيز بن فيصل الراجحي، أصول السلف، الرياض ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

الدرجات في الصحة والنقل والرواية وأن أي خطأ في النقل يسبب خطأ في الحديث وأن أي خطأ في الحديث يسبب خطأ نما تلاقي السيرة كان من الضروري التيقن أولاً من صحة الحديث التي تستنبط منه السيرة وأن يكون «السند الصحيح». ولما كانت المسانيد كبيرة وآخرها مسند ابن حنبل كان من الضروري اختصاره وأخذ زبدته في «عوالي المختصر». ولما كانت السيرة خاصة بشخص الرسول مستمدة من أقواله كان جمع الحديث حول «أمور الرسول وأيامه» أي حياته وحده. فمؤلفو الحديث هم مؤلفو السيرة مثل البخاري. والأحاديث المنقولة قولية وعملية، قصيرة وطويلة، والطويلة لا يمكن حفظها.

والأحاديث فوق المائة^(١). وهي مبوبة دون ترقيم. ويمكن أن يدخل أكثر من موضوع في باب أو فصل واحد. والأبواب فقهية حوالي ثلاثة وأربعين. وكان يمكن تصنيفها في عدد أقل طبقاً لأبواب الفقه المعروفة: عبادات، معاملات. أكبرها الصلاة كالعادة، وتبدأ الأبواب بباب أول عن العلم. وتضاف أبواب أدخل في علم أصول الدين مثل أحاديث الأنبياء. وتبدأ السيرة بالمغازي^(٢). ويضاف التفسير كما هو الحال في صحيح البخاري^(٣). ثم تظهر أبواب سميت فيما بعد الشرائع^(٤). وأخيراً يظهر كتاب التوحيد في علم العقائد^(٥).

جـ- «المستصفى في سنن المصطفى» للقريظي اللحجي (٥٧٦هـ)^(٦)

ويدل العنوان على أنه أقرب إلى الحديث منه إلى السيرة. وقد استمر الربط بين الاثنين إلى وقت متأخر حتى القرن السادس عندما انفصلت السيرة نسبياً عن الحديث.

(١) الأحاديث (١٠٥)، الأبواب (٤٣)، وتضم العبادات: الطهارة، العيذان، الزكاة، الصلاة، الجنائز، الحج، الصيام، الاعتكاف، المعاملات: البيع، الإجارة، الكفالة، المزارعة، الغصب، الهبة، الصلح، الجهاد، الجزية. الأنبياء: أحاديث الأنبياء، في ذكر بني إسرائيل، مناقب قريش، صفة النبي. المغازي: فضل أبي طلحة والمغازي، علامات النبوة. التفسير.

(٢) المتقى ص ٥٩-٦٢.

(٣) السابق ص ٦٣-٦٩.

(٤) وهي: الأطعمة، الذبائح، الأصاحي، الأشربة، الطب، اللباس، الترجل، الأدب، الاستئذان، الرقاق، الحدود، الديات، الفتن، الأحكام، السابق ص ٧٢-١٠٢.

(٥) السابق ص ١٠٣-١٠٥.

(٦) القريظي اللحجي (الشيخ الإمام العلامة الفقيه محمد بن سعيد بن معن، المستصفى في سنن المصطفى، دار المنهاج، جدة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م).

ويضم سبعة وثلاثين كتاباً مرتبة طبقاً لأبواب الفقه بداية بالإيمان والعلم مثل الأركان الخمسة. والجنايز منفصلة عن الصلاة مع أنها جزء منها. والصلاة كالعادة أكبرها. ويسمى الحج المناسك. ويدخل النكاح والطلاق والفرائض والوصايا والحدود والقضاء والأحكام في المعاملات^(١). وتظهر السيرة في الكتاب السابع عشر، الجهاد والمغازي والسير^(٢). ثم تعود أبواب الفقه سواء في الحديث أم في السيرة^(٣). وتدخل بعض الكتب في التفسير والتأويل مثل الرؤيا والأمثال^(٤). وتظهر بعض الكتب الصوفية مثل الزهد، البر والصلة. ثم تظهر بعض كتب الشياغل مثل كتاب الطب. وتتعدد موضوعات الحديث مثل فضائل القرآن، المناقب وفضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت والصحابة. ثم تعود موضوعات التصوف من جديد مثل الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. والمناقب هي معجزات الرسول. وتنتهي الكتب بموضوعات علم أصول الدين مثل القدر والعلم، والفتن وأشرار الساعة، والقيامة والنار والجنة.

٥- الرسالة والرسول:

أ- «سيرة خير العباد» لابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)^(٥)

ويتضح في بعض مؤلفات السيرة التقابل بين محورها الرسالة والرسول ولكن الرسالة أكبر حتى القرن الثامن. ففي هذه الرسالة بابان. الأول الرسالة، والثاني الرسول. والرسالة تسعة أضعاف الرسول. الأول ثمانية وأربعون موضوعاً. والثاني

(١) وهي: الإيمان، العلم، الطهارة، الصلاة، الجنايز، الزكاة، الصيام، المناسك، النكاح، الطلاق والطهارة والإيلاء واللعان وحكم المطلقة والمتوفى عنها زوجها، العتق والتدبير، البيوع، الفرائض، الوصايا والنذر والإيمان، القسامة والحدود والديات، القضاء والأحكام، الجهاد والمغازي والسير، الذبائح والصيد، الأطعمة والأشربة، اللباس، الآداب، شرح النية، الملاحم، الرؤيا والأمثال، الزهد، البر والصلة، الطب، فضائل القرآن، المناقب، فضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت والصحابة، والذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، والقدر والقلم، الفتن وأشرار الساعة، صفة القيامة والنار والجنة

(٢) المستقصى ص ٤٥٨-٥١٩.

(٣) مثل الذبائح والصيد، الأطعمة والأشربة، اللباس، والآداب.

(٤) السابق ص ٦٠٩-٦٢٢.

(٥) ابن قيم الجوزية (الإمام)، إعداد صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان ١٤٢١هـ-

٢٠٠٠م.

ثمانية موضوعات. والكل غير مرقم بل موضوعات تفصيلية متتالية^(١). وتبدأ أوصاف التعظيم: السيرة النبوية الشريفة، الشئائل النبوية الشريفة، نسبه الطاهر^(٢).

وبالرغم من أولوية الأدلة النقلية، القرآن والحديث والشعر إلا أنه يتسم بالوضوح والترتيب والتقسيم العقلي. وتقل فيه المعجزات والغيبيات بالرغم من أن المؤلف من المدرسة السلفية يميل إلى شيخه «شيخ الإسلام» ابن تيمية^(٣). ويتم الاعتماد على المتن دون السند. والتراث قليل مع بعض الآيات بمناسبة أسباب النزول^(٤).

وبالرغم من سيادة المنهج التاريخي التقليدي تتبع حياة الرسول من المولد حتى الوفاة إلا أنه يرصد الدروس المستفاد منها بعدة تعبيرات متشابهة. وهي أحكام فقهية أو مجرد حكمة أو فقه القصة أو تخريج حديث وشرحه. والوقائع هي أحد والحديثية حير وحين والفتح والطائف وتبوك^(٥). ويظهر في القرآن تداخل كلام الله وكلام الرسول^(٦). وأحياناً يظهر التناقض بين القول والفعل في أحاديث الأنبا. يجرمها الرسول ويستعملها^(٧). وبعض السنن الفعلية عادات أو رد فعل على عادات للتمييز مثل إطالة اللحي وقص الشوارب على غير عادة اليهود. والآن بعض الأوربيين يطيلون

(١) الباب الأول: السيرة النبوية الشريفة (٦٠٦ ص). الباب الثاني: الشئائل النبوية الشريفة وما يلحق بها (٦٨ ص).

(٢) خير العباد ص ١٥ / ١٧ / ٦٢.

(٣) السابق ص ٤٦ / ٢٨.

(٤) السابق ص ١٢٢.

(٥) الأحكام الفقهية المستفادة، السابق ص ١٤٦ / ٢٧٤ - ٢٨٨. بعض الحكم المستفادة، ص ١٥٠ / ٢٣٧، خلاصة الحكمة من أحد ١٧١. الأحكام والحكم في قصة الحديبية ٢٣٠ - ٢٤٤ / ٣٩٢ - ٤٠٨، الفوائد الفقهية من القصة ص ٢٣٠. الأحكام واللفظ المستفادة ص ٣٩٢ - ٤٠٨، الفقه في قصة هذا الوافد ٥٠٢ - ٥١٤ / ٥٢٢ - ٥٢٥ / ٥٣٣ - ٥٣٥ / ٥٥٧ - ٥٥٩. من فقه هذه القصة ص ٥٥٠ - ٥٥٢. بيان تخريج حديث هذا الوفد ص ٥٦٦ - ٥٦٧. شرح الحديث وبيان فوائده ص ٥٦٧ - ٥٧٤.

(٦) قول الرسول ﷺ: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن فإن الله معا. ودخل بعضها في القرآن ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، السابق ص ٦٠.

(٧) «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، السابق، ص ٦٣٠ «أنا خير من تسلف»، ص ٦٧٢.

اللقى. ومن مشاهيرهم نيتشه وماركس وفيروبرودرن وتشايكوفسكي وتولستوي وسولزنيشن^(١).

ب- «ألفية السيرة النبوية» للعراقي (٨٠٦هـ)^(٢)

وهي قصيدة طويلة في مدح الرسول. تجمع بين محوري الرسالة والرسول. القافية بين الشطرين. وتتغير من بيت إلى آخر. فالمدح أقرب إلى التعبير عنه شعرا لأنه عمل وجداني خالص. وقد حول الشارح القصيدة إلى موضوعات السيرة. تبدأ معظمها بلفظ «ذكر»، و«قصه» مرة واحدة. والموضوع نفسه خمس مرات مما يدل على أنها رؤية ورواية. والمجموع خمسة وخمسون موضوعا. أكبرها في الشمائل^(٣). والشعر التاريخي التعليمي ليس شعرا إنما هو إخضاع الشعر لشيء آخر يقضي على حرية الشاعر. والمديح مثل الهجاء ليس شعرا. وقد بدأت ألفاظ التعظيم والتفخيم منذ البداية، المدينة «الشريفة» لمكان الشرح، والناظم «الإمام الكبير»، الحافظ المجدد، أساؤه الشريفة، أخلاقه الشريفة، نسبه الزكي الطيب الطاهر، صلى الله عليه وسلم، والصحابي رضي الله عنه^(٤). وما زالت المعجزات موضوعا أثير للمدح لأنها تطلق الخيال^(٥).

وموضوعات السيرة تبدأ من الميلاد حتى الوفاة^(٦). وتضم نزول الوحي والمسلمين الأوائل، واستقبال الوفود، وأذى الرسول والهجرتين إلى الحبشة، والزواج من خديجة، والهجرة إلى المدينة، الحج والعمرة، المغازي، البعوث والسرايا، المرض والوفاة. أما

(١) السابق ص ٦٨١.

(٢) العراقي (زين الدين عبد الرحيم بن الحسين): ألفية السيرة النبوية المسماة نظم الدرر السنية في السير الزكية، تحقيق وتعليق السيد محمد بن علوي المالكي الحسيني رحمه الله تعالى المتوفي سنة ١٤٢٥هـ.

(٣) السيرة ص ٢٩-٧٤ (ص ٥٠)، الشمائل ص ٧٥-١٥٢ (ص ٧٧).

(٤) السابق ص ٣٠-٣٤ / ٤٨ / ٨٢-٨٥.

(٥) مثل: انشقاق القمر، وفد الجن، قصة الإسراء، مسح ضريح الشاة، السابق ص ٥٩-٦٠ / ٦٤-٦٥ / ٦٨، وباقي المعجزات في الشمائل ص ٩٢-٩٦.

(٦) وهي: المولد، الكفالة، بناء الكعبة، بدء الوحي، مكة بعد البعثة، السابقون إلى الإسلام، التأييد بالقرآن، أذى قريش، الهجرة إلى الحبشة، وفاة العم والزوجة، بيعة الأنصار، الهجرة إلى المدينة، المرض والوفاة.

الخصائص فتتداخل مع السيرة قبل أن تنتهي بها مثل أسمائه ونسبه قبل الميلاد^(١). ثم يأتي وصفه موضوعيا بجسده^(٢). ثم تأتي صفاته المعنوية، أخلاقه^(٣). ثم يأتي التركيز كله على خلقه أي جسده وعاداته. ثم تظهر أشياءه حتى بغاله وحميره وديكه وأفراسه وأقداحه وآتيته^(٤). ثم يظهر محيطه الاجتماعي^(٥).

جـ - «بهجة المحافل وبغية الأمان» للعامري الحضري (٨٩٣هـ)^(٦)

وفيه تشعب الرسالة إلى الرسول ثم الرسول إلى شعب أخرى، خصائصه وشيئله. تصبح بنية علم السيرة ثلاثية: السيرة والخصائص والشائيل. وتظل السيرة لها الأولوية من حيث الحجم، تمثل الثلاثة أخماس في حين أن الخصائص والشائيل تمثل الخمسين^(٧). السيرة في الرسالة، والخصائص والشائيل في الرسول من حيث القسم. تشعب الرسول في موضوعين. ومع ذلك ظل أقل من الرسالة. والعنوان نفسه بداية التفخيم والتعظيم «بهجة المحافل وبغية الأمان» فمحفل الرسول أعظم بهجة وبغية المشاهيرين له. هذه هي الصورة الخيالية. أما الواقع التاريخي ففي العنوان الفرعي «في تلخيص السير والمعجزات والشائيل». وتدلل على السيرة عندما تشعب إلى فرعين كالشجرة.

وتتضم السيرة ستة أبواب: النسب، المولد، النبوة، الهجرة، الأقارب، الدواب. الموضوعان الأخيران الأقارب والدواب خارج الرسالة وبداية التحول من الرسالة إلى الرسول^(٨). أكبرها وأصغرها الدواب. ويظهر محمد الكوني السابق في وجوده

(١) ألفية السيرة ص ٣٠-٣٤.

(٢) وصف أم معبد له، وصف هند بن أبي هالة، السابق ص ٧٨-٨١.

(٣) السابق ص ٨٢-٨٥.

(٤) خلقه في الطعام والشراب، خلقه في اللباس، الخاتم، الفراش، الطيب والكحل، أفراسه، بغاله وحميره، لقاحه وجاله، منائمه وديكه، سلاحه، أقداحه وآتيته، وركلته، وريخته وسريه.

(٥) وهم: كتابه، رسله، أولاده، أعمامه، أزواجه، خدامه، مواليه، السابق ص ١٢٣-١٣٩.

(٦) العامري الحضري الشافعي (الإمام العلامة المحدث يحيى بن أبي بكر بن محمد): بهجة المحافل وبغية الأمان، دار المنهاج، بيروت، جدة ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

(٧) القسم الأول تلخيص سيرته، السابق ص ٤٣-٤٢٥ (٣٨٣). القسم الثاني في أسمائه الكريمة وخلقته الوسيمة وخصائصه ومعجزاته وباهر آياته ص ٤٢٩-٤٨٣ (٥٥). القسم الثالث: في شائيله وفضائله وأقواله وأفعاله في جميع أحواله ص ٤٨٧-٦٣٧ (١٥١ ص).

(٨) أ- شرف نسبه ومحتده، وما مهد الله له من الفضائل قبل وجوده وفضل يلدي وفاته ومولده، وعدد آياته

على وجود الخلق القديم كما تقول النصارى في المسيح. ويضم الرسول أربعة أبواب: الأسماء والخلقة والخصائص والمعجزات مع الآيات^(١). وخصائصه نوعان: ما اختص به هو وأمه من الفضائل وأنواع الكرامات. والثاني فيما اختص به دون أمته من الواجبات والمباحات والمحرمات. ويضم القسم الثالث، الشرائع والفضائل والأقوال والأفعال أربعة أبواب كذلك. العادات والسجدة في المباحات والمعتادات الضروريات، والأخلاق المعنوية والعبادات المتكررات، وهي أدخل في الفقه^(٢).

ويبدأ التعظيم والتفخيم بالألقاب مثل شرفه ونسبه وصحته، المدينة الشريفة، نسبه الشريف، مولده الشريف، المسجد النبوي الشريف، أسمائه الكريمة، خلقة الوسيمة، باهر آياته، جسده الشريف، يده الشريفة^(٣). تتلوها الفضائل والبركات لقبره ورقبته عند النوم^(٤).

وهناك مقدمة منهجية صغيرة تدل على الوعي بالتاريخ، بنية وتطورا^(٥). ويشاد

-
- من لدن آدم، بهجة المحافل ص ٤٣-٦٠ (١٨)
 ب- في تاريخ مولده إلى ثبوته وما جرى في تضاعف ذلك من الحوادث، الخلاف في تاريخ مولده الشريف وأصح الأقوال في ذلك ص ٦١-٧٢ (١٢)
 ج- في ذكر نبوته وما بعدها إلى هجرته ص ٧٣-١٢٧ (٥٥)
 د- في هجرته وما بعدها إلى وفاته ص ١٢٨-٣٩٦ (٢٦٩)
 هـ- في ذكر بنه وبناته وأزواجه وأعمامه وعماته ومرضعاته وإخوته من الرضاعة وأخواته، وذكر مواليه وخدمه من الأحرار ومن كان يجرسه ورسله إلى الملوك، وكتابه، ورفقائه العشرة النجباء وأصحابه النقباء، وأهل الفتوى في حياته ص ٣٩٧-٤١٧ (٢١)
 و- في ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير ونعمه وغنمه وسلاحه وبيوته وملبوساته وغير ذلك من أنواع آياته وفيه عدد سراياه وغزواته ص ٤١٨-٤٢٦ (٩).
 (١) أ- في الأسماء وما تضمنت من المناسبات، السابق ص ٤٢٩-٤٣٤ (٦)
 ب- في خلقه الوسيم وتناسب أعضائه واستواء أجزائه وما جمع الله فيه من الكليات ص ٤٣٥-٤٣٩ (٥)
 ج- في خصائصه ص ٤٤٠-٤٤٦ (٧)
 د- فيما أبداه الله من المعجزات وخرق العادات ص ٤٤٧-٤٨٤ (٣٨).
 (٢) أ- في عاداته وسجته في المباحات والمعتقدات الضروريات، السابق ص ٢٨٧-٥١٣ (٢٢٧).
 ب- في الأخلاق المعنويات ص ٥١٤-٥٣٠ (١٧).
 ج- في شئانه في العبادات المتكررات ص ٥٣٠-٦١٢ (٨٣)
 د- في فضل أهل البيت رسول الله وصحابته ومن يعظم لأجله وفضله حديثه ومحدثه وختانه من فضل الصلاة عليه ص ٦١٣-٦٣٥ (٢٣).
 (٣) السابق ص ٤٣/٥٥/٥٦/٦١/١٣٥/٤٢٧/٤٣٩/٤٧٦.
 (٤) السابق ص ٣٩١/٣٩٤-٣٩٦.
 (٥) السابق ص ٣٧-٤٠.

بنموذج ابن إسحق وابن هشام^(١). ويتجلى المنهج التاريخي في ذكر أول من هاجر وبعض مشاهير المهاجرين، ومنازل المهاجرين في الأنصار، وأول مولود للمهاجرين بالمدينة^(٢). كما يتجلى في ذكر الحوادث عاما بعد عام منذ السنة الأولى^(٣). وبالرغم من المنهج التاريخي إلا أن الدلالات والفوائد تظهر بين الحين والآخر، فوائد بناء الكعبة والمسجد الحرام، والهجرة^(٤). وقد تكون الفائدة في صيغة تحذير^(٥).

والمصادر كالعادة، القرآن والحديث والشعر. والشعر تجربة يتطابق معها القرآن والحديث. يتعادل الثلاثة من حيث الكثرة تقريبا أو يتجاوز الشعر باعتباره التجربة الأصلية. والسيرة مناسبة لمعرفة أسباب النزول^(٦). وهي أيضا مصدر لعلم التفسير^(٧). وهي مناسبة لحسم الخلاف في مختلف التفسيرات^(٨). وهي أيضا مناسبة لبيان أعاجيب القرآن^(٩).

وتغيب التساؤلات حول احتمال تناقض الروايات مثل فضائل قريش ومثالب قريش، مدح قريش وذم قريش^(١٠). وتروى المعجزات دون نقد الروايات التي ترك

(١) يضاف إليها «خلاصة السير» للطبري، وفي الشبائل كتاب الترمذي وابن حبان. ونموذج آخر «الشفاء» للقاضي عياض، السابق ص ٣٨.

(٢) السابق ص ١٣٦-١٣٧، أعيان الشهداء ص ١٧٠-١٧٤.

(٣) السابق ص ١٤٤-٣٧١. أزواجه ص ٣٩٨-٢٤٢، الأعيام والعمات ص ٤٠٢-٤٠٥، المروضات والأخوة من الرضاعة ص ٤٠٥-٤٠٦، مواليد من الرجال والنساء ص ٤٠٦-٤٠٩، خدمه الأحرار ص ٤٠٩-٤٤١، من كان يحرسه في غزواته ص ٤١١-٤١٢، وسله إلى الملوك ص ٤١٢-٤١٥، كتابه ص ٤١٥، رفاقه العشرة النجباء في الجنة وأنصاره الاثنى عشر النقباء ص ٤١٦، دوابه من الخيل البغال والحمير ص ٤١٨-٤٢٠، سلاحه ص ٤٢١-٤٢٢.

(٤) فائدة فيمن بنى الكعبة والمسجد الحرام، السابق ص ٦٩، فائدة حسنة في أقسام الذهب في الأرض ص ٩٥، فوائد حديث كعب بن مالك ص ٣٤٠-٣٤٥، فائدة في مشروعية القنوت، فائدة أخرى فيما يسن قوله بعد الوتر، ص ٥٦٧ فائدة في أوقات الإجابة وأماكنها ص ٥٦٩.

(٥) في التحذير من فاحشة الزنا وبيان حدها، السابق ص ٣٤٨-٣٥٢. التحذير من الغلو في حب آل البيت ص ٦١٦.

(٦) السابق ص ٨٧/١٥٦/١٨٦/١٩٥/٢٣٨/٣٢١/٣٥٩/٣٦٨/٤١٢.

(٧) السابق ص ٤٣/٥١/٥٤/١٠٧/١٩٤/٢٢١/٢٥٣.

(٨) السابق ص ٢٤٦.

(٩) السابق ص ٣٥٧.

(١٠) السابق ص ٥٥.

العقل يتساءل عن صدقها^(١). وتظهر بين الحين والآخر القسمة العقلية لمحاولة الخروج من العلوم الثقيلة إلى العلوم العقلية^(٢).

د- «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للقسطلاني (٩٢٣هـ)^(٣)

تم تضخيم الرسول على حساب الرسالة في السير المتأخرة. فإذا كانت السيرة عشرة مقاصد، فالمقصد الأول فقط في السيرة منذ الولادة حتى الوفاة، والمقاصد التسعة الباقية في الرسول: أسماؤه وأولاده وأزواجه، كمال خلخته وعظيم أخلاقه، معجزاته وحقايقه، الإسراء والمعراج، آيات التنزيل لتعظيم قدره، وجوب حجتين واتباع سنته، طبه وتعبيره الرؤيا وإنباؤه بالمغيبات، عبادته ثم وفاته^(٤). أكبرها الأول عن السيرة ثم التاسع عن العبادات. ولا ينقسم كل مقصد إلى فصول وأنواع.

(١) مثل تسليم الحجر عليه، السابق ص ٧٢، نطق الجادات له ص ٤٦٤-٤٦٧، كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره ص ٤٧٥-٤٧٧، المعجزات في ضروب الحيوانات ص ٤٦٧-٤٧٠، ملازمة إسرائيل وجبريل للنبي قبل البعثة ص ٧٢. جبريل إلى جنب النبي عند مبايعة النقباء، إبليس يحرض قريشا على الخروج ص ١٢٥. أفضل الملائكة الذين شهدوا بدرا ص ١٥٨، معجزات في الآيات السابوية، انشقاق القمر، احتباس الشمس ص ٤٥٨، معجزاته في تكثير القليل من الطعام ونبع الماء بين أصابعه ص ٤٥٩-٤٦٣، كلام المونى والصبيان ص ٤٧٠-٤٧١، المرضى ذوي العاهات ص ٤٧١-٤٧٣، إجابة دعائه ص ٤٧٢-٤٧٥، ملك الجبال يستأذن في عذاب قريش، مجيء نفر من الجن إلى الرسول، أسماء جن نصيين، وقت وموضوع استئاع الجن، مجيء داعي الجن مرة أخرى بمكة، عدد الجن من جزيرة الموصل ص ١١٢-١١٣، فصل في أصل الجن وأصنافهم، الخلاف في أصل الجن، الجن ثلاثة أصناف، شمول البعثة للجن، عجيبة في تعمير الجن أعمارا طويلة، الجن قبائل متكاثرة ص ١١٣-١١٤.

(٢) السابق ص ٩٥-٩٧/١٧٣-١٧٤.

(٣) القسطلاني (العلامة أحمد بن محمد): المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، تحقيق صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م (أربعة أجزاء).

(٤) أ- أحداث السيرة منذ الولادة حتى الوفاة ج ١ ٥٥-٦٥٠ (٥٩٥ ص).

ب- في ذكر أسماؤه وأولاده وأزواجه ج ٢ ٩-٢١١ (٢٠٣).

ج- في كمال خلخته وعظيم أخلاقه ج ٢ ٢١٧-٤٩١ (٢٧٥).

د- في المعجزات والخصائص ج ٢ ٧٣٥-٤٩٥ (٢٤١).

هـ- الإسراء والمعراج ج ٣ ٧-١١٥ (١٠٩).

و- آيات من التنزيل في تعظيم قدره ج ٣ ١١٩-٢٦٤ (١٤٦).

ز- في وجوب محبته واتباع سنته ج ٣ ٢٦٧-٣٩٦ (١٣٠).

ح- في طبه لذوي الأمراض والعاهات وتعبيره الرؤيا وإنباؤه بالأنباء والمغيبات ج ٣.

ط- في عبادته ج ٤ ٧-٥٠٥ (٤٩٩)، ج ٣ ٣٩٩-٥٧٥ (١٧٧).

ي- وفاته ج ٤ ٥١١-٦٩٦ (١٨٦).

تنقسم السيرة، المقصد الأول إلى ثلاثة وخمسين موضوعاً دون ترقيم أو تصنيف إلى أبواب وفصول^(١). ومع ذلك تتبع نموذج ابن هشام من البداية إلى النهاية مع التركيز على الغزوات والسير^(٢). وتبرز حياة الرسول قبل البعثة والمهجرتين إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة وتحويل القبلة وصلاح الحديبية وفتح مكة. وهناك وعي بالبنية في المقدمة المنهجية الأولى^(٣).

والعنوان صوفي «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» مما يدل على أولوية الرسول على الرسالة. وتظهر بعض التعبيرات الصوفية في مقاصد السيرة^(٤). ويُحال إلى التراث الصوفي عند الغزالي، والفقهية عند السبكي^(٥). وتؤخذ اقتباسات بعلامة «انتهى»^(٦). وتستعمل مصطلحات التفسير الصوفية مثل «إشاري» لوصف الكلام والتعليل^(٧). ويتعمق في المحبة ووجوبها مثل الصوفية في المقصد السابع كله^(٨). وتتزايد ألقاب

(١) النسب، قصة الفيل، حفر زمزم، زواج عبد الله، ختانه، زمن الولادة ووقتها، رضاعه، وفاة أمته، قضية نجاة والديه، حياته قبل البعثة، مبعث النبي، أول من آمن، الجهر بالدعوة، قصة الغرانيق، الهجرة الثانية إلى الحبشة، عام الحزن، الخروج إلى الطائف، وقت الإسراء، العرض على القبائل، الهجرة إلى المدينة، بناء المسجد، خبر الأذان، المغازي، تحويل إلى القبلة، غزوة بدر، بين بدر وأحد، غزوة أحد، بعد أحد، يوم الرجيع، بئر معونة، غزوة بني النضير، غزوة ذات الرقاع، غزوة بني المصطلق، غزوة الخندق، غزوة بني قريظة، فرض الحج، بين قريظة والحديبية، صلح الحديبية، من أحداث العام السادس، غزوة خيبر، سرايا بعد خيبر، عمرة القضاء، سرايا بعد الهجرة، غزوة مؤتة، سرايا قبل الفتح، فتح مكة، سرايا بين الفتح وحنين، غزوة حنين، غزوة الطائف، بين خيبر وتبوك، غزوة تبوك، بعد حج أبي بكر.

(٢) الغزوات اثنا عشر موضوعاً، والسرايا أربعة.

(٣) المواهب اللدنية ج١/٤٧-٥٠.

(٤) «فهذه لطيفة من لطائف نفحات العواطف الرحمانية، ومنحة من منح مواهب العطايا الربانية وسبق نبوته في الأزمان الأزلية، وثبوت رسالته في الغايات الأحدية، والتبشير بأحمديته في الأعصر الخالية، والتذكير بمحمديته في الأمم الماضية، وإشراق بوارق لوازم أنوار آيات ولادته التي سار في ضوء فجرها في سائر بريته، ودار بدر فجرها في أقطار ملته، وعواطف لطائف رضاعه وحضائنه، وبتأنيب أسرار سر مساره وبعثته وهجرته، وعوارف معارف عبوديته الساري في عرف شذاها في أفاق قلوب ولايته، ونفائس أنفاس أحواله الذكية ودقائق حقائق سيرته العلية إلى حين نقلته لروضة قدسه الأحدية..»، السابق ج١/٤٤-٤٥.

(٥) السابق ج١/٦٢-٦٣.

(٦) السابق ج١/٨١.

(٧) كلام إشاري، السابق ج٣/٩٥، تعليل إشاري لموقف موسى، السابق ج٣/١١٠-١١٢.

(٨) السابق ج٣/٢٦٧-٣٩٨ وجوب محبته.

التعظيم والتفخيم مثل نسبة الشريف، أسمائه الشريفة، أو لاده الكرام، الروضة الشريفة، الخوض الشريف، المقام المحمود^(١). وبالرغم من سيادة المنهج التاريخي إلا أن الحكم والمواظ هي الهدف مثل حكمة نزول آدم^(٢).

وتعتمد على القرآن والحديث والشعر. والشعر مصداق المصدرين الأولين. والآيات أجوبة لأحداث، وكذلك الأحاديث لأحداث أكثر تفصيلاً^(٣). وتستعمل السيرة لتفسير الآيات إما اعتماداً على علم الحديث أو اعتماد علم الحديث عليها^(٤). وتكثر الآيات في المقصد السادس^(٥). وتقوم السيرة بإيضاح بعض نقاط النص^(٦). كما يتم البحث عن معنى الآيات^(٧).

وهناك رفض لقول «أنا» لأنه يشعر بالعظمة. وأول من قال أنا هو إبليس^(٨). ومع ذلك هناك أحاديث تبدأ بلفظ «أنا» مثل «أنا سيد أولاد بني آدم ولا فخر». والجمع بين الروايات إحدى وسائل رفع التناقض بينها^(٩). وتعدد الروايات في الرؤية، رؤية الله في الدنيا أو في الآخرة^(١٠). كما تتعدد في المسائل الفقهية مثل قراءة البسملة ومحاولة الجمع بينها بعد التحقيق فيها. وتعرض أدلة كل فريق، وتروى الأحاديث في بعض

(١) السابق ج١/ ٩٠، ٨٥، ٩٨، ج٢/ ٩-٥٧، ج٢/ ٥٨-٧٢، ج٤/ ٥٩٦-٦٠٠، ٦٣٤-٦٣٩.
(٢) السابق ج١/ ٧٨-٧٩، الحكمة في قتال الملائكة ج١/ ٣٦٣، حكمة شق الصدر ج٣/ ٣٣، حكمة كون الإسراء به ليلاً ج٣/ ١٣، حكمة انفراج سقف البيت ج٣/ ٢٣، حكمة الإسراء به راكباً ج٣/ ٣٦، حكمة كون بعض الأنبياء في السماء ج٣/ ٦٥، حكمة الفرض ليلة الإسراء ج٣/ ١٠٩، حكمة الإسراء ج٣/ ١١٥.

(٣) السابق ج١/ ٣٤٦.

(٤) السابق ج١/ ٢٢٢-٤٠٦، ج٣/ ١٥.

(٥) آيات من التنزيل في تعظيم قدره، السابق ج٣/ ١١٩-٢٦٤.

(٦) السابق ج٣/ ٢٤.

(٧) السابق ج٤/ ٨/ ٣٥.

(٨) لم يقل جبريل أنا، السابق ج٣/ ٥٤.

(٩) الجمع بين الروايات بشأن مكان الأنبياء، السابق ج٣/ ٥٩.

(١٠) رأي أم المؤمنين عائشة، رأي ابن عباس، آراء في ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، الآراء في رؤيته ربه تعالى، رأي في الجمع بين الروايات، رأي الإمام أحمد القول بالموقف، السابق ج٣/ ٩٧-١٠٧، روايات في قراءة البسملة، روايات حديث أمي، الجمع بين الروايات، أدلة القائلين بالجهر بها، تحقيق المسألة، ج٤/ ٧٦-٨٤، أحاديث في الموضوع ج٤/ ٨٦.

الموضوعات الفقهية. ويحدد سبب اختلاف الروايات^(١). وتُعرض آراء العلماء والمذاهب في الموضوع^(٢).

وهي سيرة تفصيلية واضحة. تحاول الانتقال من النقل إلى العقل عن طريق رصد الخلاف في الرأي وتعدد الروايات والحكم على متنها وسندها بالضعف أو الإنكار^(٣). وتكثر التقسيات من أجل التحليل. كما تعتمد أحيانا التحليل العقلي للموضوع بالإضافة إلى المصدر النصي مثل تحليل مقاصد النكاح^(٤). ويمكن أيضا إرجاع النص إلى مصدره التاريخي كرد فعل على داود وسليمان واستمرار له في تعدد الزوجات. بل تنسب أقوال لموسى إلى محمد^(٥). وتثار بعض التساؤلات، والتساؤل بداية التحول من النقل إلى العقل^(٦). ويمتد التساؤل من السيرة إلى الفقه، قد تخصص إجراء إلى طرح الأسئلة^(٧). والمناقشة أيضا أحد مظاهر التأسيس العقلي^(٨). فتعرض أدلة كل رأي^(٩). والبحث عن العلة أحد مظاهر التحول من النقل إلى العقل^(١٠).

(١) سبب اختلاف الروايات، السابق، ج٤/ ٤١٤-٤١٥.

(٢) آراء العلماء في القنوت، السابق ج٤/ ١٢٧، آراء المذاهب في السجود بعد التسليم، ج٤/ ١٤٦.
(٣) الخلاف في ختانه، السابق، ج١/ ١٣٣-١٣٤، قصة الغرائق والخلاف حولها ج١/ ٢٤٨-٢٥٨
الاختلاف حول الإبراء والمعراج ج٣/ ٧-١٧، رأي خاص ج١/ ١٣٦-١٧٧-١٨٣، تعدد الروايات، في بدء الوحي ج١/ ٢٠٠-٢٠١، تعدد الأقوال في أول من أسلم ج١/ ٢١٦-٢١٨، روايات أخرى عن الملائكة، روايات أخرى في الإبراء ج٣/ ٧٨-٧٩، حديث غريب المتن والإسناد ج١/ ١٥٤.
القول بأنه ولد مختونا والقول بغير ذلك، بحث في فقه الختان ج١/ ١٣٣-١٣٨، ضعف حديث تسبيح الحصى ج٢/ ٥٣١، رد الشمس لم يثبت ج٢/ ٥٢٨، منكر واشتقاق القمر ج٢/ ٥٢٥، أحاديث ضعيفة ج٣/ ٧٨-٧٥، حديث ضعيف ج٣/ ٩٣، حديثان موضوعان ج٣/ ٧٥-٨٤-٨٧، حديثان ضعيفان ج٣/ ٥١٨، حديث ضعيف جدا ج٣/ ٥٤٦، قصته باطلة ج٤/ ٣١٥، حديث ضعيف ج٤/ ٥٣٢، حديث واه جدا ج٤/ ٥٣٤، أحاديث ضعيفة ج٤/ ٥٤١-٥٤٢.

(٤) السابق ج٢/ ٤٧٤.

(٥) مثل «انكحوا فاني مكاثركم الأمم»، السابق ج٢/ ٤٨٣-٤٨٥.

(٦) هل ركب الأنبياء البراق؟ السابق، ج٣/ ٣٩، هل ركب جبريل البراق؟ ص ٤١/ ٣، هل كان إدريس جدا له؟ ج٣/ ٦٥، هل الوضوء لكل صلاة؟ ج٤/ ٢٢، هل يتكرر مسح الرأس؟ ج٤/ ٣٣، الغسل أفضل أم المسح؟ ج٤/ ٤٢، هل يترحم عليه؟ ج٤/ ١١١. هل يفسخ الحج إلى العمرة؟ ج٤/ ٤٣٢، أيها أفضل، مكة أم المدينة؟ ج٤/ ٦٠٠-٦٠٦.

(٧) أسئلة السابق، ج٤/ ٥٣.

(٨) مناقشة ربط البراق، السابق ج٣/ ٤٨، مناقشة القائلين بالتمتع وغيره ج٤/ ٤١٢.

(٩) أدلة القائلية بالأفراد، أدلة القائلية بالقرآن، السابق ج٤/ ٤٠٧-٤١٠.

(١٠) تحليل استصعاب البراق، السابق ج٣/ ٤٠.

هـ- «السيرة الحلبية» للحلبي الشافعي (١٠٤٤هـ)^(١)

وتتضخم السيرة وتجمع بين السيرة والرسول. تقل السيرة تدريجياً وتتضخم الرسول حتى يصبح سيرة مستقلة عن الخصائص والشائكل كما تضخمت الرسالة من قبل في المغازي والسير وكانت السيرة مجرد فتوحات. و«السيرة الحلبية» نموذج التحول التدريجي من الرسالة إلى الرسول. بها خمسة وستون باباً. ثلثها في الرسالة والثلث الأخير في الرسول. والأبواب غير مرقمة. والغزوات والسرائيا داخل الأبواب غير مرقمة أيضاً. ومعظم الأبواب «ذكر» لأخبار أو وقائع والباقي أبواب في الموضوعات مباشرة وأقلها كتباً^(٢). ويبدأ التحول من الرسالة إلى الرسول في تفخيم العنوان وتضخيمه «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون». «إنسان العيون» صورة فنية أي جوهرة العين ولبها. و«الأمين المأمون» لقب الرسول قبل البعثة وسمتان من سماته. ويستمر التفخيم في باقي الألقاب مثل «نسبه الشريف»^(٣).

وتكثر الأدلة النقلية، القرآن والحديث والشعر دون أي أدلة عقلية أو دلالات نظرية. ويحال إلى التراث الصوفي والفقهية^(٤). ويكثر الموروث كما تكثر النصوص والاقتراسات بعلامة «أو» أو لفظ «انتهى»^(٥). لا يوجد سؤال أو تساؤل أو نفي أو إثبات لرواية إلا نادراً. ويبدأ النقد حينئذ بالشك في صحة بعض الروايات «وهذا غريب جداً» فيما يتعلق بتاريخ ولادة الرسول وبداية النبوة وتاريخ الهجرة ونزول البقرة وتاريخ الوفاة^(٦). وتعتمد السير على الصحيح والسقيم والضعيف والبلاغ والمرسل والمنقطع والمعضل دون الموضوع^(٧). ويشار إلى الأحاديث الموضوعات الخاصة بالمعجزات^(٨).

(١) الحلبي الشافعي (العلامة أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد): السيرة الحلبية. وهو الكتاب المسمى «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» (ثلاثة مجلدات)، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٨.

(٢) الغزوات سبعة وعشرون، والسرائيا ست وخمسون، والكتب ثمانية.

(٣) السيرة الحلبية ج١/٩.

(٤) ابن عربي ج١/٣٦-٣٧، الشعراي ج١/٣٧، ابن الجوزي، ج١/٣٧.

(٥) السيرة الحلبية ج١/١٢/٥٩.

(٦) السابق ج١/٨٥.

(٧) السابق ج١/٣.

(٨) «وقد ذكر بعضهم أن حديث الغزاة موضوع»، السابق ج٣/٣٩٩.

وتحيل إلى ابن إسحق^(١). وتجمع بين سيرتين «عيون الأثر» لابن سيد الناس وتتجنب إطالة الإسناد، وسيرة «الشمس الشامي» وتتجنب المكررات والمعادات. تضاف ضميمة وأبيات بعض القصائد للبوصيري والسبكي^(٢). تدخل في أدق التفاصيل. وتدون أدق الحوادث بروح المؤرخ من أجل الرصد دون أي توجه فكري ودون أي هدف إلا التسجيل. ويتم الرصد في الباب الأخير عاما بعد عام^(٣).

و- الرحيق المختوم «للمباركفوري»

وتستمر السيرة بلا بنية بل مجرد موضوعات متراسة بلا تبويب في أبواب وفصول بلا ترقيم^(٤). إنما العنوان يدل في البداية على التعظيم والتفخيم «الرحيق المختوم»، وفي آخر موضوعين «البيت النبوي» و«الصفات والأخلاق» عندما تتحول السيرة إلى الرسول^(٥). والمؤلف «فضيلة الشيخ» من الجامعة السلفية بالهند الحاصل على الجائزة الأعلى من رابطة العالم الإسلامي والذي صدر أمينها العام السيرة بكلمة منه. وهو من نفس نوع «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي. كلمة المؤلف مدح في الرسول، وكلمة الناشر كذلك. وهو يدل على أثر النظم التقليدية في تقوية الاتجاه السلفي ونشر أفكاره. تكرر ما هو معروف وقيل عشرات المرات من قبل. فما الفائدة في كتابة سيرة جديدة دون هدف جديد؟ ويتم تضخيم بعض الأسماء بالألقاب مثل «عائشة الصديقة» قياسا على أبيها «أبو بكر الصديق» مما يمنع من النقد والتحليل^(٦).

وتقوم السيرة على الرؤية التاريخية لحياة الرسول، منذ نشأة الرسالة حتى اكتمالها، هذه الرؤية التي أسسها ابن إسحق. وابن هشام. تضم سبعة وخمسين موضوعا يمكن إعادة تصنيفها في سبعة أقسام: الأول العرب في الجاهلية، موقع العرب وأقوامها، الحكم

(١) السابق جـ ١/ ٣١٢.

(٢) السابق جـ ١/ ٣.

(٣) السابق جـ ٣/ ٥١٩-٥٢٥.

(٤) المباركفوري (فضيلة الشيخ صفى الرحمن): الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار المؤيد، الرياض، جدة، أبها، الطائف، ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤ م.

(٥) السابق ص ٤٧٥-٤٨٨.

(٦) السابق ص ١٣٦.

والإمارات، الديانات، المجتمع. الثاني النسب والمولد. الثالث البعثة والنبوة والرسالة والدعوة، واستقبال القبائل والوفود، والإسراء والمعراج، وبيعة العقبة الأولى والثانية. والرابع الهجرة. والخامس المدينة والحياة فيها والمعاهدات مع اليهود والغزوات والسرايا والبعوث ورسائل الملوك وفتح مكة وحجة الوداع والوفاء، والسابع البيت النبوي والصفات والأخلاق^(١). وأكبرها الخامس. ويظهر المنهج التاريخي في تتبع المراحل، مراحل الدعوة السرية والعلنية. الإسلام في مكة^(٢). ومراحل الحياة في المدينة، الغزوات الأولى ورسائل الملوك، والغزوات الثانية. وتكشف المراحل عن أهمية التطور في التاريخ. ومع ذلك يتحول المنهج التاريخي أحيانا إلى مجرد تسجيل ورصد^(٣). والفوائد هي شروح لغوية للأشعار وليست الدلالات أو الدروس المستفادة من السيرة^(٤).

وتعتمد على منهج النص من القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ^(٥). والقرآن أكثر باعتباره المصدر الرئيسي للسيرة. وتظهر في الآيات بعض أسباب النزول^(٦). وتتعارض روايات الإسراء والمعراج دون محاولة لنقدها لمحل هذا التعارض^(٧). كما أن أقوال الرسول قبل البعثة قد لا تكون ملزمة مثل أقواله بعدها إلا إذا كان الدين الطبيعي أساس دين الوحي. وتتم الإحالة إلى ابن إسحاق والواقدي وغيرهما من كتاب السيرة والمؤرخين^(٨). ويقتبس من المصادر مع علامة إنهاء الاقتباس «انتهى» أو «أه»^(٩). ويُستشهد ببعض كتابات الدعاة المحدثين^(١٠).

(١) ١- العرب في الجاهلية (عدد الموضوعات) (١-٤) ٢- النسب والمولد (١-٥) ٣- البعثة (٧-١٢) ٤- الهجرة (٢٣) ٥- المدينة (٢٤-٥٣) ٦- حجة الوداع (٥٤-٥٥) ٧- البيت النبوي والأخلاق (٥٦-٥٧).

(٢) الرحيق المختوم ص ٧٤-١٧٤، الحياة في المدينة ص ١٧٧-٤٣٩.

(٣) ستة من أهل يثرب، السابق ص ١٣٥، أساء العقبة الأولى ص ١٤٣. نقياء الأوس والخزرج ص ١٥١.

١٥٢، نواب قريش ص ١٥٩، أساء من طوق منزل الرسول ص ١٦٢، السرايا ص ١٩٧-١٩٩/٣٢٢-٣٢٤.

٣٢٤/٣٨٢-٣٨٣/٤٢٤-٤٢٧، وقائع السنة ص ٤٣٩، أساء الوفود، ص ٤٤٥-٤٥٤، أزواج الرسول ص ٤٧٣-٤٧٤.

(٤) فرائد ج ٢/ ٣٨/ ٥٥/ ١١٤/ ١٤٤/ ١٧٣/ ٢٠٢/ ٢١٢-٢١٣/ ٢٤٦-٢٤٨/ ٢٥٢/ ٢٦٧-٢٦٨/ ٢٧٦-٢٧٧/ ٢٧٨/ ٢٨٧/ ٢٩٠/ ٣٩٢/ ٤١٩/ ٤٢٨/ ٤٣١.

(٥) الآيات (١٦٩)، الأحاديث (١١٢)، الأشعار (٤٤).

(٦) الرحيق المختوم ص ٢١٧/ ٢٢٨/ ٢٣٢/ ٢٣٩/ ٢٥٤/ ٣١١/ ٣٣٠/ ٣٤١.

(٧) السابق ص ١٣٧-١٤٢.

(٨) ابن إسحق، السابق ص ١٥٠/ ١٦٢/ ٢٢٢.

(٩) السابق ص ١٠٠/ ١٨٥/ ٣٠٧.

(١٠) مثل الشيخ محمد الغزالي، السابق ص ٤٢٢.

وتستعمل بعض الألفاظ والتعبيرات الحديثة من اللغة الشائعة مثل إعدام. وتشفع السيرة بالرسوم التوضيحية^(١). وأحيانا تحاول السيرة إبراز الدروس المستفادة من الأحداث مثل «من روائع الإيمان في هذه المعركة»، «غزوة بدر»، وكذلك الدروس المستفادة من كل الغزوات^(٢). ومع ذلك هي سيرة تقليدية تخلو من أي دلالة على محاولات المحدثين للإصلاح^(٣). وكان يمكن تطوير بعض الأقوال للرسول في طريق إصلاحي مثل استدلال الرسول على عدد جيش قريش بعدد ما ينحر من إبل^(٤).

ز- «الأسوة الحسنة» للصاغرجي^(٥)

وفي كتب السيرة المعاصرة يتضح المحوران في علم السيرة: الرسالة والرسول، ولكن مازالت الرسالة أكبر من الرسول، ويتضح المحور الثاني بالتفخيم والتعظيم في لقب «سيدنا» وفي «صلى الله عليه وسلم»، وفي العنوان الفرعي «الأسوة الحسنة»، ولقب المؤلف «الشيخ»، ووظيفة خادم السنة النبوية والعلم الشريف، وتفخيم الذات، وتفخيم الموضوع. والعلوم علوم ليس بها واحد أشرف من الآخر. ويكثر من استعمال صفة الشريف: ذكره الشريف، أسماؤه الشريفة، مسقط رأسه الشريف، الكعبة المشرفة، الهجرة النبوية الشريفة، يده الشريفة. وتتكون من ثمانية أبواب: الأول ذكره في الكتب الشريفة السابقة، التوراة والإنجيل والزيور وأخبار الأخبار والكهان، وأسماءه الشريفة والدلالة عليها، وفضل مسقط رأسه وطهارة أصله ونسبه الزكي، وآبائه وولادته وما وقع فيها من الآيات، ونشأته وكفالة جده ثم عمه وسفره إلى الشام وزواجه من خديجة، وبناء الكعبة^(٦). والثاني من البعثة إلى الهجرة، وهي الفترة المكية التي وقع فيها الإسراء

(١) السابق ص ٩٦/٩٨، الظلم والعدوان ص ١٠٩، برلمان قريش، النقاش البرلماني ص ١٥٨-١٦٠، تعبئة الجيش ص ٢١٣، ساعة الصفر ص ٢١٦، مؤامرة لاغتيال النبي ص ٢٣٥، الاستخبارات النبوية ص ٢٥٠، الطوارئ ص ٢٥٠، مناورات ص ٢٥٧، البطولات ص ٢٧١، شهامة ص ٢٧٨.

(٢) السابق ص ٢٧٤/٣٠٨.

(٣) السابق ص ٢٢٢، نظرة على الغزوات ص ٤٤١-٤٤٣.

(٤) السابق ص ٢١١.

(٥) الصاغرجي (الشيخ أسعد محمد سعيد): سيدنا محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، الأسوة الحسنة (جزءان)، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ج ٤/ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

(٦) السابق ج ١/ ص ١١-١٤٢ (١٣٢ ص).

والمعراج، والمهجرة^(١). والثالث أحوال النبي في المدينة، خطبه وبناء مسجده، وظهور المنافقين^(٢). والرابع مراحل الإذن بالجهاد وغزواته، بدر وأحد وما بينهما وما بعد أحد وما قبل صلح الحديبية، ومن الحديبية حتى تبوك وحجة الوداع^(٣). والخامس معجزاته وهي أقرب إلى الشخص منها إلى الرسالة. وتضم المنعة والعصمة والحماية وردة على قريش، والإخبار عن الأمم السابقة كما يفعل المؤرخون، والمعجزات وخوارق العادات تثبتنا لأصحابه، وأخرى لم يطلع عليها أصحابه مثل الإسراء والمعراج، وتكثير الطعام والشراب، وإبراء المرضى وبركات يده، والقرآن المعجزة الكبرى^(٤). والسادس معاملاته مع الآخرين في بيته وخارجة. والموضوعات أقرب إلى الفقه، بيعه وشراؤه وإجارته واستنجاره، واستئذانه ووافؤه ومشاركته ومضاربه وحوالته ووكالته ورهنه وهبته وهديته وعريته. ومنها نكاحه وطلاقه وآدابه^(٥). والسابع شئله، الأسوة الحسنة: أعقل الخلق، وطهارته ووضوؤه وصلاته وزكاته وصيامه وحجه وسفره^(٦). والثامن بعوثة وسراياه ووفوده. وهي أقرب إلى الرسالة منها إلى الرسول^(٧).

والمصادر كالعادة ثلاثة: القرآن، والحديث، والشعر^(٨). يضاف إليها كتب التاريخ. وفي الآيات تظهر أسباب النزول^(٩). كلها منقولات، آيات أو أحاديث، لا تحليل ولا نقد للروايات ولا تساؤل. ويتداخل كلام الله مع كلام البشر^(١٠). والحديث أكثر من القرآن.

(١) السابق جـ ١/ ١٤٣-١٤٨ (٦ ص).

(٢) السابق جـ ١/ ٢٥١-٢٧٨ (٢٨ ص).

(٣) السابق جـ ١/ ٢٧٩-٥١٨ (٢٤٠ ص).

(٤) السابق جـ ٢/ ٥-٢٤٠ (٢٣٦ ص).

(٥) السابق جـ ٢/ ٢٤١-٤١٢ (١٧٢ ص).

(٦) السابق جـ ٢/ ٤١٣-٤٨٧ (٧٥ ص).

(٧) السابق جـ ٢/ ٥٨٨-٦٢٠ (٣٣ ص).

(٨) الأحاديث (٦٢٠)، الآيات (٤٨٥)، الأشعار (٤٨).

(٩) محمد رسول الله جـ ١/ ١٨٨/ ١٧٩/ ٣٣١/ ٣٣٥/ ٣٤٠/ ٣٥٤/ ٣٥٨/ ٣٦٣/ ٣٨٢/ ٣٨٥/ ٤١٢-٤١١/ ٤٥٥/ ٤٧٤/ ٤٩٨/ ٥١٦/ ٥١٧/ ١٥/ ١٧/ ٢١/ ١٠٣-١٠٤/ ١٢٠/ ٣٩١.

(١٠) ﴿أَنفَقْتُمْ لِرَبِّكُمْ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، هي عبارة أبي بكر دفاعاً عن الرسول، السابق ص ١٨١. «لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً» عبارة أحد اليهود وشرطه للإيمان بالرسول، ص ١٨٦-١٨٧، وكذلك «فأسقط الساء علينا كسفا»، «لا تحزن إن الله معنا» عبارة أبي بكر وهو يواسيه في الغار أثناء الهجرة إلى المدينة ص ٢٣٩. «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» حديث وآية ص ٤٨١، قصة موسى والخضر جـ ٢/ ٣٢-٣٣.

والشعر أقل لانقضاء عهده عند المحدثين. ويلاحظ التناقض بين روايات الأحاديث الخاصة بالعنكبوت، خير لنسجه على الغار أم شيطان فيقتل؟^(١).

وأحيانا يتعارض الحديث والقرآن مثل حديثه الرسول مع من في القبور وتنبية القرآن له أن ذلك مستحيل^(٢). ويطغى الحديث فتحول السيرة وتعود إلى مصدرها في علم الحديث، وتصبح السيرة وكأنها صحيح أو مسند^(٣). تغطي المادة على الموضوع. ويطول الحديث ويتضح فيه التركيب والإخراج والتأليف الروائي والحوار القصصي وإعلان الحقائق على لسان الآخر بالطريقة السقراطية^(٤). ويقوم علم السيرة على علم الحديث. فهو مصدره الأول، وعلى علوم القرآن في أسباب النزول أو في الأخبار، وعلى علم الفقه في شخص النبي وعبادته ومعاملاته. فعلم الحديث هو أساس العلوم الثقيلة القرآن والسيرة والفقه.

والفرق بين كلام الرسول وكلام البشر ليس بعيدا. ليس فقط من الناحية البلاغية ولكن أيضا من ناحية المضمون. ففي الصلاة رفع الرسول رأسه وقال «سمع الله لمن حمده»، فأجاب أحد المصلين وراءه «ربنا لك الحمد»، فأخبر الرسول أن الملائكة أسرع بكتابتها^(٥). والفرق بين كلام الله وكلام الرسول ليس كبيرا^(٦). إذ يتداخل القرآن مع الحديث. وهي إحدى أوجه البلاغة كما هو الحال في قصة موسى والخضر.

ويبدو تفخيم الرسول وتعظيمه إلى درجة الرسول الكوني منذ البداية في مقدمة المؤلف. فالله وملائكته والمؤمنون به يصلون عليه. وهو أول من تنشق عنه الأرض،

(١) «جزى الله العنكبوت عنا خيرا فإنها نسجت على الغار»، «العنكبوت شيطان فاقتلوه»، السابق جـ ٣٣٩/١.

(٢) «وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ» ردا على مخاطبة الرسول قتل المشركين في بدر «أيسركم أنكم أطعم الله ورسوله؟ هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا؟»، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا. بش عشرة النبي كتم لنييكم. كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس. وقاتلتُموني ونصرني الناس، فجزاكم الله عني من عصابة شرا، خوتُموني أمتنا، وكذبتُموني صادقا»، محمد رسول الله جـ ٣١٢-٣١٣.

(٣) «أيهم أكثر أخذنا للقرآن»، السابق جـ ٣٦٦.

(٤) السابق جـ ١٠٩/٦١-١١١/١٤٣-١٤٣.

(٥) «أريت بضعة وثلاثين ملكا يبتدونها أيها يكتبها أول»، السابق جـ ٢٥٧.

(٦) مثل «وجهت وجهي للذي فطر السموات... إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»، السابق جـ ٥٦٦/٢.

ويجلس على يمين العرش. وأول الناس خروجاً إذا بعثوا، وخطيبهم إذا وفدوا، ومبشرهم إذا يشسوا. بيده لواء الحمد. هو أكرم ولد آدم^(١). خلق وآدم بين الروح والجسد^(٢). اسمه مكتوب على ساق العرش وعلى أوراق الجنة وقباها وخيامها^(٣). واستشفع به آدم بعد غوايته^(٤). والأحاديث كلها تبدأ بضمير المتكلم الفرد «أنا» الذي لا تجبذه أحاديث أخرى ضد «الأنانية» والإطراء^(٥). وهو الذي جمع أخلاق الأنبياء^(٦). يجمع بين إبراهيم وموسى وعيسى. وينعكس التفضيم والتعظيم للموضوع في طريقة الطباعة، الآيات في الصفحات الأولى بالأحمر وبالبنط الكبير. وعلى نقيض هذا التعظيم والإجلال لا يوجد كشاف تمثيلي للآيات والأحاديث والأشعار والاقتباسات من المؤرخين والمفسرين والأعلام والأماكن والقبائل وغيرها من آليات البحث العلمي الحديث.

وفي الرسالة يستعمل المنهج التاريخي بلا دلالة ولا قراءة. بل أحياناً يتحول إلى مجرد رصد وتسجيل^(٧). فهو مثل السير القديمة دون تحديث لها أو إعادة قراءتها بروح العصر^(٨). ونادراً ما يركز على الدروس المستفادة من بعض وقائع السيرة. يتحول المنهج

(١) «أنا أول من تشق عنه الأرض، فأكسي الحلة من حلل الجنة. ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»، «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا»، «لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»، محمد رسول الله هما، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع»، السابق جـ ١/ ٨-٩.

(٢) «كتب نيا وآدم بين الروح والجسد»، السابق جـ ١/ ٦.

(٣) «لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمي على الأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد. فلما أحياء الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله تعالى أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه»، السابق جـ ١/ ٧.

(٤) «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم».

(٥) «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم»، «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»، «محمد رسول الله» جـ ١/ ٧-٦، «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بشر بي عيسى ابن مريم»، السابق جـ ١/ ١٤.

(٦) السابق جـ ١/ ٥-١٤، جـ ٢/ ٧-٣٢.

(٧) ترجمة عبد المطلب بن هاشم، محمد رسول الله جـ ١/ ١١٣، عدد القتلى يوم أحد ص ٣٧٤-٣٧٨، أسماء المهاجرين والأنصار في المؤاخاة بعد الهجرة، جـ ١/ ٢٦٤-٢٦٦، أسماء الغزوات ص ٢٨٥-٣٢١/ ٣٢٨.

(٨) فوائد على هامش الإسراء والمعراج، السابق جـ ١/ ٢١٦-٢٢١، الحكم الناتجة عن الغزوة (أحد)، السابق ص ٣٧٥-٣٨٢، فائدة ص ٢٦٦، الحكمة ص ٢٦٦.

التاريخي إلى مجرد رصد وتسجيل لأسماء السرايا والبحوث^(١). ويتم الاقتباس من بعض المؤرخين مع وضع علامة التنصيص القديمة «أه»^(٢).

ح- «محمد رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام» للشنقيطي

وتكشف بعض السير المعاصرة عن محوري السيرة، الرسالة والرسول، وأن محور الرسالة في سيرة الرسول^(٣). وتشتمل على ستة أبواب: السيرة والدعوة، محور الدعوة الإسلامية، الهجرة وأكبرها الغزوات^(٤). تظهر الشرائع في الباب الخامس ولكنها تظل محدودة ومضغوطة بين الغزوات والوفاة. وتركز على كبار الغزوات وهي ثمانية دون السرايا أو الغزوات الصغرى^(٥). وكلها في الفترة المدنية. ومع ذلك مازالت تستعمل بعض ألفاظ التفخيم والتعظيم مثل «نسبه الشريف»^(٦). لا تقدم جديدا بالنسبة للسير السابقة بالرغم من نية التحديث والربط بين الماضي والحاضر والجانب الذاتي في الإيوان. معظم ما فيه مكررات من السير السابقة.

وتعتمد السيرة كالعادة على القرآن أولا والشعر ثانيا والحديث ثالثا^(٧). فالقرآن هو المصدر الأول. ونظرا لأهمية الشواهد النقلية فقد طبعت كلها باللون الأحمر. لذلك تغلب على السيرة الحجج النقلية أكثر من الحجج العقلية. والشعر أكثر من الحديث. فالمؤلف بدوي ابن الصحراء من شبه الجزيرة العربية، والبوصيري نموذج. ويستشهد بقصائد طويلة في الشرائع للمدح^(٨). والرسول نفسه يرفض الإطراء والمدح كما فعلت

(١) السابق ج ٢/ ٥٨٩-٦٢٠.

(٢) السابق ج ١/ ٢٥٦، ج ٢/ ١٣٠.

(٣) الشنقيطي (الشيخ عبد الله محمد بابا): محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام. محمد صلى الله عليه وسلم، دار عبد الله الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(٤) أ- السير والدعوة (٧١) ب- محور الدعوة الإسلامية (٤٣) ج- الهجرة (٢٦) د- غزوات الرسول (٩٩) هـ- شملته (٧٠)، رحيله (١٩).

(٥) هي: بدر الكبرى، أحد، الأحزاب أو الخندق، الحديبية، مؤته، الفتح، حنين، تبوك.

(٦) محور رسالة الإسلام، ص ٥٠-٥٨.

(٧) القرآن (١٠١٠)، الشعر (٢٢٥)، الحديث (١٣٥).

(٨) محور رسالة الإسلام ص ٢٨٤-٢٨٧.

النصارى مع عيسى ابن مريم^(١). كما تعتمد السيرة على مصادر قديمة^(٢). والفقهاء مثل الشافعي أحد المصادر^(٣). ويظهر قطب «في ظلال القرآن» كإحدى نقاط الإحالة. وهو رد فعل على النزعات العلمانية^(٤). ويوضع لفظ «انتهى» بعد كل اقتباس^(٥). ويصدر وسط المنهج التاريخي حكم على الجوهر مثل «محور الدعوة الإسلامية» و«الإيمان الذي يقود للاستقامة على منهج الله»^(٦). وتظهر عالمية الرسالة في الشرائع^(٧). ومحور الدعوة الإسلامية مثل محاولة التعرف على جوهر الرسالة في باقي السير^(٨). يخلو من أي مقدمة منهجية إلا الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه في الداخل والخارج. ومع ذلك تتسم السيرة بالوضوح وحسن التقسيم وبحسن النية على التجديد حتى ولو بدأ خطايا دفاعيا ضد الغرب ومثليه. وهو تعليمي بسيط دون حشر أو إحالة. لذلك تظهر أحيانا القسمة العقلية لضبط الموضوع، قسمة أصحاب الفترة، تصنيف القول في آيات القرآن، بنود الصلح مع اليهود، الطوائف التي كان لها دور في هزيمة أحد، عقائد أهل الكتاب، خصائص الرسول، آثار الرسول قبل الوفاة^(٩).

كان الدافع على كتابة السيرة هو الرد على الملحدين والكفرة والزنادقة والشيوعيين واليهود والنصارى والمستشرقين حملة الفكر الصليبي الذين سخرؤا من الرسول كما فعلت الرسوم الدانمركية أعداء الإسلام في الداخل والخارج الذين ادعوا أن الإسلام انتشر بالسيف وأن الرسول مزواج^(١٠). وعند جوليان هكسلي أن الإنسان يخضع لله

(١) «يا أيها الناس قولوا بقلوبكم ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله»، السابق ص ٢٩٠ / ٣٢٠.

(٢) مثل «كتاب الأصنام»، السابق ص ٧٤.

(٣) السابق ص ٢٢٦-٢٣٥.

(٤) السابق ص ٢٩٩.

(٥) السابق ص ٣٦١.

(٦) محور سيرة الإسلام، الباب الثاني ص ١١١-١٥٣، الباب السادس، الفصل الثاني ص ٣٥٨-٣٦٧.

(٧) السابق ص ٣٠٤-٣٠٩.

(٨) السابق ص ١١١-١٥٣. انظر أيضا الباب الرابع: اكتمال الرسالة، الفصل الثاني: جوهر الرسالة.

(٩) محور رسالة الإسلام ص ٥٢ / ١٤٤-١٤٥ / ١٦٩ / ٢٠٥-٢٠٦ / ٢٦٠-٢٦١ / ٢٩٨-٣٠٥ / ٣٤٩.

(١٠) «ومن أولئك رسام الكاريكاتير في جريدة الأهرام صلاح جاهين الذي رسم فيها رجلا بدويا يرمز إلى رسول الله وهو يركب حمارا في وضع مقلوب أي رأس الحمار في اتجاه وجه الرجل في الاتجاه الآخر

بسبب الجهل والعجز. والآن أصبح الإنسان إلها بعلمه وقدرته. وعند فولتير أن كل العقائد أو هام بتبتها البشرية في غيبة العقل. والدين قيد يغفل الفكر عن الانطلاق. وعند آخر بمناسبة السد العالي أن الصحراء ظلت في يد الله آلاف السنين صحراء جرداء فلما استلمها الإنسان حولها إلى مروج خضراء. وقد طرد آدم من الجنة لأنه لم يدفع الإيجار.

وعلى عكس «حياة محمد» لمحمد حسين هيكمل حيث يظهر الغرب فيها نموذجا للتحديث باستثناء الاستشراق تأتي المقدمة والخاتمة في «محمد ورسالة الإسلام» للشنقيطي تكفيرية. فالمستول عن ذلك كله الغرب ونزعاته، الإلحاد والزندقة والفجور واستغراقه في الملذات والفجور. وقد خطط المستعمر الصليبي للقضاء على المجتمع الإسلامي ودمج المجتمع العلماني في الإلحاد مع الأقليات اليهودية والنصرانية الموجودة والمتعايشة مع المسلمين في إخاء وتعاون. ونشأت أحزاب تحارب الإسلام مثل البعثيين والقوميين والشيوعيين المتأثرة بالحركات المادية الحديثة والأفكار الإلحادية الهدامة. ومن أهداف الخطة إفساد أخلاق المسلمين وتسليط الغرائز والشهوات عليهم وإثارة الفتن بينهم وذلك من خلال أجهزة الإعلام الحديثة^(١). وهو ما يسمى بالعملة أي يكون العالم على شكل واحد تقوده الحضارة الغربية^(٢). ويقدر ما يرفض النزعات الغربية وينقد ادعاءها فإنه يعتمد على المؤلفين الموالين المحافظين^(٣). الهه هو هذا العصر. وقد كانت النية

ثم يعقب في أرضية الصورة بصورة الديك وتسع دجاجات ويقول في عنوان الرسم «محمد أفندي جوز التسعة»، وهو هجوم سافر على شخص رسول الله وزوجاته، السابق ص ١٧٦/٢١ - ١٧٩.

(١) كما نتطرق في ثنايا فصول الكتاب إلى جوانب تعالج أوضاعا وشبهات أخرى حلت في حياة الناس اليوم بسبب انجرافهم وسقوطهم في أوحال المدينة الحديثة لعل في ذلك وسيلة توقظ ضمير أبناء المسلمين على الواقع الأليم الذي فرض عليهم أن يعيشوا فيه اليوم والذي تتحكم في إفرازات أملتتها الحضارة الغربية التي قوامها الإلحاد والزندقة والفجور حيث اجتالتهم المدنية الغربية عن دينهم وورثتهم مكانة ثقافة وحضارة أهل الغرب وعاداتهم وتقاليدهم. وهي عبادة الدنيا والاستغراق في شهواتها ومتاعها وملذاتها ونسيان الإله المعبود وتعاليمه نسيانا مطلقا والدعوة السافرة إلى الانحلال بالنعري الجسدي للمرأة باسم الزينة والحضارة والحرية، محور رسالة الإسلام، سيد الأنام ص ١٣. وقد كرس المستشرقون وهم حملة الفكر الصليبي جهودهم بتحطيم الإسلام ومبادئه، وتدمير القيم الأخلاقية التي جاء بها، وتحويل المسلمين عن منهجهم القرآني الذي عمل خلال ثلاثة عشر قرنا على تهذيب أخلاق أهله وصياتهم من كل رجس. وأول هذه الشبهات والمكائد التي نرد عليها قولهم بأن الإسلام انتشر بالسيف بدلا من حجة الإقناع..، السابق ص ١٤.

(٢) السابق ص ٢٦-٢٧.

(٣) والذي تهدف إليه الحضارة الغربية التي تقوم على الإلحاد والزندقة والفجور وهدم الأخلاق الفاضلة

معقودة على تخصيص باب سابع عن حالة المسلمين في العصر الحاضر^(١). وهي خاتمة الكتاب «بصور حالة الانحطاط والتردي التي أصابت المسلمين من ضعف وذل وهوان وغلبة الأعداء في تاريخهم الحديث»^(٢). فقد كان هدف الأمة الإسلامية إقامة مجتمع يقوم على الإخاء الإسلامي بدلا من القرابة والنسب والعصبية والوطن والدعوات الجاهلية تحت شعار التوحيد حتى جاءت نكبة الأندلس المستمرة حتى العصر الحالي بفقد المسلمين وحدتهم وتربطهم. ثم استبدل به الخاتمة لربط الحاضر بالماضي، ومقارنة حال المسلمين في الماضي بأحوالهم اليوم في التردي والانحطاط والضعف والخذلان والتخلف وغلبة الأعداء. امتدت الأمة الإسلامية في الحاضر من الصين حتى المغرب. ثم جاءت الغزوات من الشرق، التتار والمغول، ومن الغرب، الصليبية والصهيونية. وخرج قواد المسلمين صلاح الدين لقهر الصليبيين وتحرير القدس وسيف الدين قطز المملوكي قاهر التتار في عين جالوت ومعه العزيز عبد السلام. ثم فتح مصطفى كمال الأمة لأعدائها. ألغى الخلافة وأدخل الأيديولوجيات العلمانية ووقعت الأمة تحت براثن الاستعمار الغربي.

والسيرة في نفس الوقت دفاع عن المملكة العربية السعودية والأسرة الحاكمة. تظهر من ثناياها العداء لمصر التي أصبحت مهد الوطنية والقومية والاشتراكية وكل النزعات الغربية^(٣). ومصر مذكورة في القرآن وموصى عليها في الحديث^(٤). تدافع عن الملك عبد العزيز. فالحجاز هي الأرض التي يحكم فيها شرع الله. هي دار الإسلام في مقابل دار الكفر^(٥). في حين أن النظام في الحجاز موال للغرب ويعيش في حياة الاستهلاك.

والذي حذر منه الشرع هو ما حل في حياة الناس اليوم بسبب انجرافهم وسقوطهم في أحوال المدنية الحديثة»، السابق ص ٢٧-٢٨.

(١) مثل مصطفى صادق الرافعي وتحليل حكمة الأذان خمس مرات يوميا، السابق ص ١٤.

(٢) السابق ص ٢٤-٢٥.

(٣) السابق ص ٣٦٨-٣٨٢.

(٤) «إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يسمى فيها القبراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمة»، السابق ص ٣٥١.

(٥) «وقد عمت هذه الظاهرة جميع الأقطار الإسلامية من مشرق الأرض إلى مغربها باستثناء المملكة العربية السعودية من بلاد جزيرة العرب التي تضم بلاد الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة وذلك

وصاحب السيرة من عائلة مثقفة عالمة، ولكن دون وعي سياسي^(١).

٦- السيرة الحضارية الشاملة:

أ- «دائرة معارف سيرة النبي» لشليبي النعماني (١٩١٤م) وسليمان الندوي (١٩٥٣م)^(٢)

وقد تحولت سيرة الرسول عند بعض المعاصرين من الحركة الإصلاحية في الهند إلى دوائر معارف تجمع حوله كل شيء، الرسول والرسالة معتمدة على التراث الإسلامي الطويل بعلومه المختلفة، لا توجد أبواب وفصول. والعناوين غير مرقمة لمعرفة تفصيلات الموضوع وبنيته، لا أصلية ولا فرعية. لذلك قد تبدو الأقسام مضطربة أحيانا. تخلو من البنية والرؤية. هو تجميع لأكبر قدر ممكن من المعلومات في الموروث والوافد على حد سواء، مترجمة عن الأردية. تتبع المنهج التاريخي: سنة بسنة وليست على مراحل النبوة الثلاث المعروفة منذ ابن إسحق، البداية والوسط والنهاية. وتصبح التفصيلات أحيانا موضوعات بذاتها خارج موضوع السيرة، فالسيرة ما هي إلا مجرد مناسبة لتجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الرسالة وحوها. تصبح بحوثا مستقلة بذاتها، تفصيلية أكثر من اللازم. تعني دائرة المعارف أن الرسول مجرد مناسبة للرسالة. وهو نموذج للعمل الجماعي في التأليف والترجمة والنشر.

وتضم الموسوعة سبعة موضوعات رئيسية. الأول السيرة، بدايتها ووسطها^(٣).

بفضل الله سبحانه وتعالى النبي حمها من دخول المستعمر الصليبي ثم بفضل إخلاص مؤسس تلك الدولة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي أسسها على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، السابق ص ٢٥.

(١) السابق ص ٥٢-٥٣.

(٢) العلامة شليبي النعماني (١٩١٤م)، أكمله العلامة سيد سليمان الندوي (١٩٥٣م): دائرة معارف سيرة النبي (سبعة أجزاء) ترجمه وكتب حواشيه الدكتور يوسف عامر، قسم اللغة الأردية، جامعة الأزهر، قدم له أ.د علي جمعة مفتي الديار المصرية، طبع على نفقة د. حسن عباس زكي، القاهرة ٢٠٠٥. وابتداء من الجزء الثالث قام بالترجمة د. أحمد محمد أحمد، د. إبراهيم محمد إبراهيم. وفي الرابع شارك في الترجمة مع د. يوسف عامر د. عبد المجيد الندوي. وفي الخامس شارك مع د. يوسف عامر، د. محمد السيد. وترجم السادس د. إبراهيم محمد، وترجم السابع د. يوسف عامر. ويستمر عنوان المقدم في الأجزاء السبعة للدعاية والإعلان. ولا يوجد دار نشر ولا سنة.

(٣) ويضم: العرب أولاد إسحاق، مكة المكرمة، نسب النبي، مولده، مبعثه، أنصاره بالمدينة، سنوات الهجرة

والثاني الرسالة، النهاية وشخص الرسول^(١). والثالث المعجزات والنبوة والخصائص المحمدية انتقالاتاً من جديد من الرسالة إلى الرسول^(٢). والرابع النبوات^(٣). والخامس العمل الصالح. وتندرج تحته العبادات. وهو أدخل في الفقه والأخلاق. بل أدخل في التصوف، جمعاً بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب^(٤). والسادس المعاملات وكلها الفضائل الخلقية، حوالي مائة منها حقوق وآداب^(٥). والسابع السياسة الشرعية. وهو تحول من الرسول إلى الرسالة وأسس النظام الإسلامي والدولة الإسلامية^(٦). السيرة قليلة فقط البداية والوسط بتعبير ابن إسحق في الجزء الأول. وشخص الرسول في الجزء الثالث. وباقي الأجزاء الأربعة في الرسالة وهو بهذا المعنى تصحيح للانحراف القديم، من الرسالة إلى الرسول.

والفقه هو السائد على السيرة، عبادات ومعاملات وسياسة شرعية، ثلاثة أجزاء من سبعة، ثم الكلام جزءان من أربعة، نبوات ومعجزات. ولم يبق للسيرة إلا جزءان، البداية والوسط والنهاية، نشأة البعثة والغزوات ثم شخص الرسول. والفقه صوفي النزعة. ففي الهند يتحد الفقه بالتصوف. السيرة هي الرسالة في صورة فقهية قديمة. وفي النزعة الإصلاحية في الهند ونزعتها الدفاعية تضعف البنية والتحليل العقلي. ولا ترقم العناوين في كل جزء لمعرفة تسلسلها وأقسامها الرئيسية والفرعية نظراً لضعف

الأولى، غزواته، معاهداته مع اليهود ومخاربتهم، الحديبية، بيعة الرضوان، دعوة الملوك والأمراء. نشر الإسلام، وفود العرب، السابق جـ ١/ ٢/ ٤-٤٤.

(١) وتضم: تأسيس الدولة الإلهية، الشئون الدينية، تأسيس وإتمام الشريعة، الإيمان والأركان، العبادات، المعاملات، الحلال والحرام، السنة الأخيرة وحجة الوداع واختتام البعثة، الوفاة والتركة، شئله، مجالسه، خطابه، عباداته، أخلاقه، حياته مع أزواجه وأولاده، السابق جـ ٣/ ٤٥-٣٤١.

(٢) وتشمل: دلالتها، إمكانيتها وبقينها وغايتها، الوحي والمجاهدة، خصائص النبوة، الإسراء والمعراج، إعجاز القرآن، الخصائص المحمدية، السابق جـ ٣/ ٦-٥٨٢.

(٣) وتضم: استنباط الشرائع، أحوال العرب عند ظهور الإسلام وتغييرها وبظهور الإسلام، السابق جـ ٤/ ١-٧٢٧.

(٤) وهي: الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، والجهاد والعبادات القلبية، السابق جـ ٥/ ١٥-٤٣٥.

(٥) السابق جـ ٦.

(٦) وتشمل: مكانة وأهمية الحكم في الإسلام، نظام الحكم في عهد النبوة، العلاقة بين الدين والدولة، بعثة الأمة الإسلامية، القوة العاملة أو القوة الأمرة. المبدأ الثاني للحكم في الإسلام، أن الحاكم الحقيقي هو الله، السابق جـ ٧/ ١٥٥-٢٢٢.

البنية الداخلية لكل جزء^(١). ومعظم المادة الفقهية والصوفية معروفة تتكرر بمناسبة السيرة. لذلك بدت الموسوعة تعليمية مدرسية مشيخة لا عمق فيها. وكذلك لا جديد في النبوات ولا في المعاد كما هو معروف في علم الكلام. الموسوعة تجميع واع لمصلح هندي.

وهناك مقدمة نظرية صغيرة لتبرير الموسوعة عن فن السيرة ومراحل تدوينها وأشكاله والاهتمام بالمغازي وأمر الخلافة^(٢). وهناك وعي بنقد المصادر وصحتها والجمع بين الدراية والرواية. فهناك قواعد لضبط الرواية فصل في ذكرها القدمات^(٣). وتختار الموسوعة منهجا نقديا يعلن عنه بصرف النظر عن مدى تطبيقه^(٤). هذه المصادر الأولى دون نقد تظل مصدر كل التصورات للسيرة لا تترجح.

وتعتمد الموسوعة على القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ القديمة والحديثة^(٥). وتظهر أسباب النزول وراء بعض الآيات^(٦). والقرآن أكثر من الحديث، والحديث أكثر من الشعر، والشعر عربي وفارسي وأردي^(٧). والآية، قرآنا أو إنجيليا. والشعر

(١) كان المؤلف أعلن تأليف الكتاب في خمسة أجزاء: العرب قبل الإسلام، النبوة، القرآن، المعجزات، مؤلفات الأوروبيين، السابق ج١/ ٩٧-٩٨.

(٢) السابق ج١/ ٣٤-٩٨، قال ابن الجوزي: وكل حديث رأيته يخالف العقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع، السابق ص ٦٢.

ونظم العراقي: وليعلم الطالب أن السيرة: تجمع ما صح وما قد أنكر، السابق ص ٦٦.

(٣) منها: مخالفة العقل، مناقضة الأصول، مخالفة الحس والمشاهدة، مباينة القرآن والحديث المتواتر أو الإجماع القطعي، الإفراط في الوعيد، ركافة المعنى، عدم مشاهدة الراوي، الرواية الواحدة لواقعة مهمة. ومنها: اللغو، مخالفة الأنبياء، تحديد تواريخ للمستقبل، الطب النبوي، التكذيب بالأدلة، روايات الخضر، السابق ص ٦٢-٦٤.

(٤) يقوم على التوجيهات الآتية: القرآن والحديث المتواتر معيار الصدق في باقي الروايات، حاجة كتب السيرة إلى تنقيح ونقد روايتها وأسانيدها، روايات الأحاديث أصل روايات السيرة، ترجيح روايات الحديث والفقه، البحث عن التعليل، اعتبار الشهادة، نقد الروايات داخليا وخارجيا، الاتفاق مع الشواهد العقلية والحسية وأصول المعرفة على الروايات، ترتيبها حسب أهمية الموضوع وقرائن الحال، السابق ص ٨٦.

(٥) السابق ج١/ ١٣٦.

(٦) السابق ج٢/ ٩٥/ ١١٥/ ٣٠٨، ج٣/ ١٩٢، ج٥/ ٨٥، ج٦/ ٨٧/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٧) شعر فارسي مترجم، السابق ج٤/ ١٤٩.

تجربة واحدة. ويعتمد القرآن والحديث على التشبيهات البلاغية المؤثرة^(١). وأحيانا يصعب التفرقة بين القرآن والحديث نظرا للتداخل بين كلام الله وكلام البشر، وقدرة الوحي على أخذ ما يصدر عن البشر وإعادة صياغته بطريقة بلاغية لبيان عظمة الوحي وإعجازه. فالشعر العربي رصيد للدين^(٢). وتظهر عائشة راوية بل من أكثر الرواة رواية مع أبي هريرة^(٣). وأحيانا يتناقض الحديث مع التجربة فأبيها يصحح الآخر خاصة إذا تعلق الأمر بالطب. وقد يكون السبب درجة التركيز أو الكمية أو النوع أو عدد الجرعات^(٤).

وكان من عادة خالة الرسول بعد أن يأكل الرسول وينام أن تستخرج القمل من شعره وهو ما يتناقض مع قواعد النظافة^(٥). ويأتي الحديث على لسان جبريل فيما عرف فيما بعد باسم الحديث القدسي ليكون أكثر تأثيرا وفاعلية^(٦). وتذكر الأحاديث الطويلة التي لا تستطيع الذاكرة الحفاظ عليها دون نقلها مثل حديث الإسراء والمعراج^(٧).

وتتأرجح الموسوعة بين عدة مناهج، العقلي والنقلي والتاريخي. ففي المنهج العقلي تظهر الفلسفة والكلام في الوحي والنبوة. وتظهر أسماء فرق المعتزلة والأشاعرة. كما يظهر ابن تيمية في «الرد على المنطقيين». وهنا يبرز الدور الرئيسي للعقل. وتختفي

(١) مثل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، ﴿وَلَا يَجْتَسَرُوا وَلَا يَنْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، السابق ج٢/ ٣١٨، «إن من يعطي شخصا شيئا ثم يأخذه كمن يتقيأ شيئا ثم يلعقه مرة أخرى»، ج٢/ ١٠٢.

(٢) مثل ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، السابق ج٢/ ٢٩٢/ ٣٠٥، ج٢/ ٢١٧ ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، السابق ص ٣٧٧، «أسقنا كأسا دهاقا»، ج٤/ ٢١١، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو أيضا حديث للرسول، ج٢/ ٢٢٤، ﴿وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ إِلَيْهِ كَبِيرُونَ﴾، هو أيضا حديث للرسول، ج٢/ ٤٤٠، القرآن والشعر والمسيح، ج٢/ ٩٣.

(٣) رويت ٢٢١٠ أحاديث منها ١٧٤ فقط اتفق عليها الشيخان. وروى عنها البخاري ٥٤ حديثا، ومسلم ٦٨ حديثا. وفي رأي البعض ربع الأحكام الشرعية مروية عنها، السابق ج٢/ ٣١٨.

(٤) مثل طلب الرسول أن يشرب الأخ عسلا ليذهب الإسهال فزاد، فقال «صدق الله وكذب بطن أخيك». والقول هو للرسول «إن العسل شفاء»، السابق ج٢/ ٣١٠.

(٥) السابق ج٢/ ٣٠٢.

(٦) السابق ج٣/ ٢١٤.

(٧) السابق ج٤/ ٥٥١-٥٥٢.

الحجج النقلية، القرآن والحديث. كما يتجلى الحجاج مع الخصوم. وتظهر موضوعات الحداثة والعقلانيات الحديثة^(١). وتظهر دلالات الموضوع في «الخلاصة»^(٢). ويحال إلى فلاسفة اليونان. ويتم التعامل مع أسماء الله عن طريق تصنيفها في مجموعات طبقا لمعانيها في صفات جمالية وجلالية وحكيمة وكهالية ووحداية ووجودية وعلمية وقدرية وتنزيهية^(٣). ويبلغ التنظير للمذاهب الخلقية مداه بإيداع مصطلحات جديدة مثل اللذنية، والضميرية، والإفادية، والاعتماد على فلاسفة اليونان^(٤). وأحيانا يتوقف العقل ويتم الرد على العقل بالنقل^(٥). وتطول نصوص القرآن كما هي العادة عند السلفيين^(٦). وتكثر في الإسراء والمعراج. حتى الهوامش مملوءة بالآيات^(٧). تكثر الأدلة النقلية بالرغم من محاولة الاعتماد على التنظير العقلي^(٨). وتتوالى الآيات تباعا كقطقات رصاص^(٩). ويظهر المنهج التاريخي في تحديد بداية فرض العبادات تاريخيا مثل الصوم في السنة الثانية للهجرة^(١٠). ويقل التنظير العقلي تباعا من الأخلاق إلى السياسة لحساب النقل، ولا يوجد نقد عقلي للنظرية ولا للممارسة يختلف الأسلوب، وينتهي الحلاس العقلي الأول.

(١) السابق ج٣/ ٨٥/ ٣١٥-٣١٦.

(٢) السابق ج٣/ ١٤٩-٢٠٤.

(٣) السابق ج٤/ ٤٤٤-٤٤٨.

(٤) السابق ج٦/ ٢٤/ ٤٢.

(٥) السابق ج٤/ ٢٨.

(٦) السابق ج٣/ ٢٨٥/ ٣١٧-٣١٩.

(٧) السابق ج٣/ ١٥٠-١٥٤.

(٨) ج١: الآيات (٥٥)، الأحاديث (٢٣)، الأشعار (٢٠).

ج٢: الأحاديث (١٨٥)، الآيات (١٤٠)، الأشعار (٧).

ج٣: الآيات (٤٨٣)، الأحاديث (١٥٠)، الأشعار (٢).

ج٤: الآيات (٩٧٧)، الأحاديث (١٨٣)، الأشعار (٣٦).

ج٥: الآيات (٥٥٠)، الأحاديث (١١٦)، الأشعار (٦).

ج٦: الآيات (٧٤٥)، الأحاديث (٢٢٦)، الأشعار (٥).

ج٧: الآيات (١٨٥)، الأحاديث (٦٦)، الأشعار (١).

المجموع: الآيات (٣٦٣٥)، الأحاديث (٩٤٩)، الأشعار (٧٧).

(٩) السابق ج٦/ ٩٨-٩٩/ ٢٣٥-٢٣٦/ ٢٨٨/ ٢٩١/ ٢٩٨/ ٣٦٥/ ٣٩٤/ ٤٢٧ ج٧/ ٣٤-٣٥.

(١٠) السابق ج٥/ ٢٨٨-٢٩٢/ ١٦٠/ ١٦٢-١٦٦/ ١٧١-١٧٢/ ١٨٠/ ١٨٢/ ١٨٧.

ويظل حتى السيرة الإصلاحية المتأخرة الاعتماد على علم الحديث. فنقد المصادر يتجه أولا إلى علم الحديث وكيفية تدوينه. ثم دخلت علوم التفسير مع تدوين الحديث باسم السيرة. فالتدوين ظاهرة عامة وليس في السيرة فقط. ويظل الاعتماد على ثلاثة مصادر، القرآن والحديث والتاريخ. وصورة الرسول في الحديث تتضخم عن صورتها في القرآن. والمطلوب العودة بالسيرة من الحديث إلى القرآن، ومن كتب التاريخ إلى الحديث إلى القرآن بحثا عن نواة الصورة قبل تضخمها حتى تبلغ الحقيقة المحمدية عند الصوفية. كلها أحاديث، والأحاديث حكايات. والحديث يصف الرسالة أكثر مما يرسم الرسول، وتحول الحديث إلى السيرة هو درجة من درجات التشخيص. لذلك جاءت الموسوعة أقرب إلى الرسالة منها إلى الرسول، ورد فعل على الغزوات التي كانت للدفاع وليست للهجوم مما يخرج عن موضوع السيرة^(١).

ولا يظهر التراث العقلاني الكلامي الفلسفي فحسب بل يظهر أيضا التراث الصوفي خاصة فيما يتعلق بالتحول من الرسالة إلى الرسول. فيظهر الغزالي وابن عربي وجلال الدين الرومي لإثبات المعجزات^(٢). ويحال إلى الفلاسفة الكندي والفارابي والرازي. وتظهر السيرة موضوعا ميتافيزيقيا خالصا أقرب إلى نظرية النبوة عند المتكلمين والفلاسفة.

ويخصص الجزء الرابع كله للنبوة، النبوة وعلومها مضمونها الغيب. ويدخل موضوع غريب عليها، أحوال العرب قبل الإسلام. وربما الهدف منها بيان الحاجة إلى النبوة أي واقع النبوة. وهي مادة خارج علم السيرة وأدخل في علم الكلام. تتداخل مع الجزء السابق في النبوات. ويظهر في النبوة مدى الجانب العقلي الذي وصلت إليه العلوم العقلية النقية. تستعمل أحيانا القسمة العقلية الخالصة^(٣). وتتطابق القسمة العقلية مع النص^(٤).

(١) السابق ج١/٩٦-٩٧.

(٢) السابق ج٣/١٤/٣٦/٤٨.

(٣) ثلاث طرق في ثبوت النبوة تفصيليا طبقا لقوى الإنسان وحركانه الاختيارية والفكرية، والقولية والعملية، السابق ج٤/٦-٨.

(٤) الكلام بالوحي أو من وراء حجاب أو إرسال ملك، السابق ج٤/٤٦.

وكما تتم الإحالة إلى الموروث العريض الكلامي والفلسفي والصوفي تتم الإحالة إلى كتب التاريخ والتفسير والفقه^(١). ويحال إلى المعتزلة والماتريدية^(٢). يظهر التراث القديم عند الغزالي والشافعي وابن القيم، ومن المفسرين ابن كثير والشوكاني والألوسي مع اقتباسات منهم^(٣).

وتظهر فيها روح المودودي وسيد قطب والشوق إلى إنشاء الدولة الإسلامية، المودودي كرد فعل على الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند، وسيد قطب رد فعل على اضطهاد الإخوان المسلمين في مصر وتعذيب قادتهم في السجون. وتتم مقارنتها بالدولة العبرية بالرغم من اختلاف الظروف، اضطهاد المسلمين في الهند ومصر واضطهاد اليهود لغيرهم من القبائل السامية^(٤). كما تظهر روح التشيع أحيانا في الربط بين الإمامة والنبوة والإلهام والوحي^(٥).

ولم تغب عن الموسوعة نية الدفاع ودفع الشبهات مثل القول بخلود جهنم وخلود الكافرين فيها^(٦). كما تعتمد الموسوعة على بعض كتابات الدعاة المعاصرين دفاعا عن الرسول وأخذ اقتباسات منهم^(٧). فالأجته نحو العقل ظاهر^(٨). والدعوة إلى الإصلاح واضحة. والإحالة مستمرة إلى المعتزلة والخوارج الذين يؤسسون عقائدهم على التوحيد والعدل^(٩). والقسمة العقلية لقوى النفس الثلاثية أقرب إلى البداة منها إلى أفلاطون^(١٠).

(١) الغزالي (الإحياء)، السابق ج٦/ ١٢/ ٣١٢، الرازي ج٦/ ٢٣٥/ ٢١٦/ ٢٦٦، صاحب الكشاف ج٦/ ٢٦٩، الطبري ج٦/ ٣٤٧، السهروردي ج٦/ ٢٦٦، كتب الفقه وكتب التفسير ج٦/ ١٣٩-١٤٠، الخراج لأبي يوسف ج٦/ ١٧٧، البيضاوي، الكشاف ج٧/ ١٦٨-١٦٩، روح المعاني ج٧/ ١٦٩.

(٢) السابق ج٧/ ٢١٤-٢١٥.

(٣) السابق، الغزالي ج٤/ ٣/ ١١٠، الشافعي ص ٦٠/ ١١٥/ ١٢١/ ٢٩٢، ابن القيم ص ٦٢٩. ابن كثير، الشوكاني، الألوسي ص ٥٥٧.

(٤) السابق ج٢/ ٤٥-٤٦، ج٧/ ٢٩.

(٥) السابق ج٧/ ٢١.

(٦) السابق ج٤/ ٦٥٠-٦٥٥.

(٧) مثل د. البوطي، السابق ج١/ ١ وذلك مثل أستاذه «ولي الدين شاه» في حجة الله البالغة، وحيد الدين «نظم القرآن»، السابق ج٢٧٩/ ٢٨٩. أستاذي ص ٣٩٨/ ٤٨٥/ ٥١٤، ج٤/ ٦٧٩.

(٨) السابق ج٤/ ٦٥٢.

(٩) السابق ج٦/ ١٨٥.

(١٠) شاه عبد القادر محمد الدهلوي، السابق ج٦/ ٤٢٨.

وتقارن السيرة بالسيرة الأخرى، ليس فقط، سير الأنبياء في العهدين القديم والجديد بل أيضا السير الفارسية كالشاهنامة والسير الهندية^(١). فكتاب السيرة الأسويون لهم ثقافة أسوية بالإضافة إلى الثقافة العربية، وتوضع نصوص الكتب المقدسة، العهد القديم بالعبرية، دون العهد الجديد باليونانية^(٢). فتظهر السيرة في إطار تاريخ الأديان المقارن كعلم حديث^(٣). وتتم المقارنات مع اليهودية والمسيحية^(٤). ولا تخلو المقارنة من الدفاع، الدفاع عن الأخلاق الوسيطة في الإسلام، ونقد أخلاق الضعف في المسيحية اعتمادا على نيتشه وبعض مفكري الغرب^(٥). وهو ما قد يقوم على منهج انتقائي في الحالتين، انتقاء ما هو عرضة للنقد في المسيحية، وما هو أولى بالدفاع في الإسلام. ففي المسيحية أيضا «ما جئت لألقي سلاما بل سيفا». وفي الإسلام «وَحَدِّ لَّهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ومع ذلك تظل السيرة في إطار تاريخ الأديان المقارن^(٦).

وتعتمد الموسوعة على الوافد، الاستشراق السلبي الذي ينقد السيرة أو الإيجابي الذي يمدحها، والتاريخ المنصف الغربي لتاريخ الإسلام وشهادات مفكري الغرب وشعرائهم مثل كارلايل في كتابه الشهير «الأبطال والبطولة»، واعتباره محمدا بطلا من أبطال التاريخ^(٧). وتبع كتاباتهم في العصور الحديثة من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين، ورصدها في قوائم، وكشف ما بها من إنصاف أو تعصب، وقصرها من حيث المصادر، واعتمادها على كتب السيرة والتاريخ دون الرجوع للحديث^(٨).

(١) السابق ج١/٣٦.

(٢) الكتب المقدسة، السابق ج ١/١١٧-١٣٢/٣/١٦٩/٢١٦/٢٢٢/٢٥١-٢٥٢/٢٥٣-٥٤١/٥٢٤ ج ٤/٢٩٨-٢٩٩ ج ٥/٩٣-١٠٦/١١٤-٢٠٦/٢٠٧-٢٣٠/٢٤٨-٢٤٩/٢٥٣-٢٨٠/٢٨٣/٢٩٧/٣٠٢/٣١٦/٣١٨/٣٢٠/٣٢٢.

(٣) السابق ج ٢ / ٢٤٠ ج ٤ / ١٧٢-١٧٧/١٧٧/٤٣٧/٤٣٨/٥٣١/٥٩٨-٥٩٩/٦٠٢/٦١٥/٦٧١/٧٠٦/٦٧١/٤٨٧، ج ٥/١٠٥، ج ٦/٢١/٤٧/٦٤-٦٦.

(٤) السابق ج ٦/٤٢/٥١/٥٤/٧٥/٨٠/٨٥/٨٧-٨٨/٩٣/١١٦/١٢٢/١٤٨/١٥٠/٢٤٧.

(٥) السابق ج ٦/٧٥-٧٨.

(٦) السابق ج ٦/١٥٤، ج ٧/٢٢، فراعنة مصر ج ٧/١٩٥.

(٧) السابق ج ١/٨٧-٩٦.

(٨) الدفاع ضد المستشرقين، السابق ج ١/٣٨.

لذلك أسرعوا بإصدار أحكام على السيرة تجانب العقل والتاريخ^(١). ويستعمل الوافد الفلسفي عند هيوم في تحليله للعلية وتوظيفها لإثبات المعجزات^(٢). ويحال إلى العديد من المراجع الغربية خاصة المصادر الرومانسية مثل «الأبطال والبطولة» لكارلايل^(٣). ويبدو أثر الثقافة الإنجليزية على المصلحين الهنود^(٤). وقد يشار إلى الغرب وعلمائه على وجه العموم^(٥).

وبالرغم من المنهج العقلي والتزعة الإصلاحية إلا أن المنهج التاريخي أحيانا يتحول إلى تاريخانية، مجرد رصد أسماء أو وقائع^(٦). تروى الأخبار دون دلالات فكرية، وتروى حوادث متكررة دون استخراج دلالات جديدة منها مثل إرسال معاذ قاضيا إلى السجن ومصادر حكمه. ومع ذلك يحاول صاحب السيرة تجاوز التاريخانية في «الخلاصة» أي الدرس المستفاد^(٧).

وتستعمل الموسوعة بعض التعبيرات الحديثة مثل «المخاطر الخارجية»^(٨). كما يظهر تعبير «التغير الاجتماعي» و«الإصلاح». فالنبي مصلح حكيم^(٩). والسيرة مكتوبة لأيماننا هذه وليس للقدماء^(١٠). كما تعتمد الموسوعة على المادة الصحفية باعتبارها كاشفة عن الواقع الذي يتعامل المصلح معه^(١١). وما زال بالسير الإصلاحية النبرة الخطابية الدفاعية عن النبي والنبوة، والرسول والرسالة^(١٢).

(١) منها: النبوة في مكة فقط في حين أن المدينة سياسة، كثرة الزواج والميل إلى النساء، نشر الدعوة بالقوة، استباحة استعباد الجارية، السياسة والحيلة والدهاء كمعظم القادة السياسيين، السابق ج١/ ٩٦.

(٢) السابق ج٣/ ٨٨-٩٨.

(٣) السابق ج٤/ ١٦٣-١٦٥.

(٤) السابق ج٤/ ٣٥٦/ ٢٩٧، ج٦/ ٢٠/ ٢٩-٣٠/ ٧٨.

(٥) السابق ج٧/ ١٩٨.

(٦) السابق ج٢/ ٢١-٢٣/ ٥٦/ ٥٩-٦٠، أسماء الأصنام، ج٤/ ١٩٥-١٩٧.

(٧) السابق ج٣/ ٣١٩-٣٢٤.

(٨) السابق ج٢/ ٨.

(٩) السابق ج٤/ ٢.

(١٠) السابق ج٦/ ١٥٤.

(١١) جريدة أخبار الوطن ١٩١١، دائرة معارف ج٤/ ٣٥٤.

(١٢) مثل افهذه البراعم التي تدبيل قبل أن تفتح في حديقة الحياة في نظر الإسلام زهور الجنة، دائرة معارف ج٤/ ٤١.

ب- «محمد، الرسالة والرسول» لنظمي لوقا (١٩٨٧م)^(١)

وقد ساهم الأقباط في كتابة سيرة محمد كما ساهم المسلمون في كتابة سير للمسيح. فعند الأقباط للرسول رسالة إنسانية عامة لكافة الناس^(٢). تدافع عن حقوق الإنسان والحرية والمساواة وحقوق الأقليات «من آذى ذميا فقد آذاني». فالرسالة والرسول موضوع لا يخص المسلمين وحدهم بل أي كاتب يدرس الرسائل والأيديولوجيات وأصحابها وكيفية انتشارها. وكما عرف ورقة بن نوفل الحق في البداية عرفه نظمي لوقا في النهاية. جعلته الفلسفة قادرا على الحكم المتجرد عن الأهواء الدينية والتزعات العاطفية. ومن العنوان يضع الأولوية للرسالة عودًا إلى السير الأولى قبل أن تتحول من الرسالة إلى الرسول. فالرسول تجسيد للرسالة، وليست الرسالة تجسيدا للرسول. ووضع المحورين معا يعني نهاية التقابل بينهما. ومع ذلك يوجد بينهما محمد اسم العلم الذي يجمع بين المحورين. وهي بقايا تشخيص الرسالة في الرسول في المراحل المتأخرة.

ليس من الضروري أن يكون كاتب السيرة مسلما. فقد كتبها عديد من المستشرقين بأهوائهم، تحنيا أو إنصافا، ظلما أو عدلا. فقد يكتب سيرة المسيح غير مسيحي، وسيرة موسى غير يهودي. ولا يتطلب الأمر في حالة الإنصاف التحول إلى الإسلام. يكفي العدل والإنصاف واكتشاف الدين الطبيعي الذي يقوم على البداهة العقلية والوجدانية والمصالح العامة، العقل والواقع^(٣). ومعرفة الحق أولى من مصدره. لا فرق في ذلك بين القرآن وأرسطو^(٤). فالإسلام يجمع بين المثال والواقع، بين السماء والأرض، بين

(١) الدكتور نظمي لوقا: محمد، الرسالة والرسول، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٥٩، ط ٢، ٢٠٠٥.

(٢) ويدافع من حب البشرية، أقدمت على تسطير هذه الصفحات، وسيان بعد هذا أن يقول عنها القائلون إنها شهادة حق أو رسالة حب أو تحية توفير وتبجيل. فما كان كأحاد الناس في خلاله ومزاياء وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل وهمة البطل فكان حقا على النصف أن يكرم فيه المثل، ويحيي فيه الرجل، السابق ص ١١.

(٣) «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَتَّبِعُوا» محمد، ص ٩.

(٤) لذلك تصدر الكتاب آية «وَلَا يَنْفَعُ الْكُفْرَ الْإِيمَانُ إِذَا كُنْتُمْ كُفْرًا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ لَا يَشْرَوْنَ بِقَاتِلِي اللَّهِ فَتَنًا قَلِيلًا أَوْلَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ»، كذلك يتصدر الكتاب قول أرسطو الشهير «أفلاطون حبيب إلى نفسي بيد أن الحقيقة أحب إلى نفسي من أفلاطون»، السابق ص ٣.

الله والبشر، بين النفس والبدن. وهو التطور الطبيعي للدين، من اليهودية (الأرض) إلى المسيحية (السماء) إلى الإسلام (الاستخلاف)^(١). فالإسلام يعترف بالواقع والبدن وبالطاقة على غير ما هو مألوف من التصور الشائع للدين في آسيا وفي المسيحية^(٢). لا يتعارض الدين مع الدنيا وطبيعتها^(٣).

والمنهج ليس تاريخيا كما جرت العادة في وصف الرسالة أو تحليلا نفسيا كما جرت العادة في وصف الرسول بل هو منهج أدبي انطباعي مثل معظم السير المعاصرة. يبدأ بالسيرة الذاتية للكاتب عندما كان صبيا ويستمتع إلى الشيخ في المسجد ويتأثر بسيرة الرسول^(٤). يستعمل الشعر كما يفعل القدماء للتعبير عن انطباعاته. فلا فرق بين الشعر والدين^(٥). والأدب موروث عن الوالد^(٦). ويشير إلى الكاتب باعتباره «هو» يصف نفسه باعتباره مؤلفا.

ولما كان المؤلف قبطيا ظهرت السيرة في إطار التاريخ المقارن للأديان. فقد تكون قراءة مسيحية إنسانية للإسلام خاصة وأنه كثيرا ما يذكر المسيح، قراءة للرسول بعين المسيح قراءة روحية أقرب إلى التصوف^(٧)، لذلك يحال إلى ابن عربي. كما يحال إلى الكتب المقدسة الأخرى، الإنجيل والتوراة والبراهماوترا، دون استعمال نصوص مباشرة منها^(٨). وفي المقارنة تبدو اليهودية دين شعب، والمسيحية دين قلب، والإسلام دين البشر أي دين الإنسانية جمعاء^(٩).

(١) «لم يبق شك في أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور البشرية الطبيعي»، السابق ص ١٤٣.
(٢) «وَبَنَّا وَلَا تُحَيِّلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ»، «لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»، «يسر ولا تُعسر»، «إن هذا

الدين متين فأوغل فيه برفق»، السابق ص ١٤٣-١٤٤.
(٣) «يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا وَمَتَا فِي الْأَرْضِ حَنَكَا طَلِبَا»، «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنِفُوا مِنْ طَلِبَتِ مَا كَسَبْتُمْ»، «لَا تُحَرِّمُوا طَلِبَتِ مَا أَمَلَ اللَّهُ»، «وَبَنِيَّةٌ مَادَمَ حُدُّوا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا»، السابق ص ١٤٥-١٤٦.

(٤) صبي في المسجد، محمد ص ١٣-٣٢.
(٥) السابق ص ٢٠/٢٢/٢٤/١٨٢.
(٦) «وكان والد الفتى.. شديد الولوع بالفصاحة والفصحاء»، السابق ص ١٨. «واشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن، وتهذب نفسه بالمعلقات وعيون الشعر»، السابق ص ١٩.
(٧) السابق ص ٢٢/٢٥/٢٨/٤٤-٤٥.
(٨) السابق ص ٢٧.
(٩) السابق ص ٣٦-٥٠.

ولم يعتمد الفيلسوف على البدهة العقلية والوجدانية فقط بل اعتمد على نصوص متقاة من الكتاب والسنة تدعيا لها مثل أي مؤرخ للسيرة^(١). واستعمل المتون دون الأسانيد. فما يهم هو المعاني. ولم يستعمل نصوصا من التوراة والإنجيل وهي له أقرب. بل معانيها ودلالاتها إلا نادرا^(٢).

وفي مشروع ثلاثي «نحو تأصيل الخطاب الديني» تظهر السيرة كجزء ثان «محمد رسول الله، صفات الكمال البشري»^(٣). وتسرد هذه الصفات من القرآن، سورة سورة، ونصا نصا والإهداء «إلى الأمة الإسلامية.. أمتي لماذا تخلفت وأنت تملكين مقومات الحضارة؟»، مجرد سرد نصوص دون تحليل أو تصنيف لهذه الصفات كما هو الحال في كتب الشائيل. فهي من حيث الشكل تدخل في «السيرة والحديث» ولكنها هذه المرة مع القرآن وليس مع الحديث. ومن حيث المضمون كما يظهر في الإهداء. يدخل مع السيرة الحضارية التي تحت الأمة على النهوض. من حيث أشكال التعبير. هي سيرة «نصية»، ومن حيث القصد والنية نهضة حضارية.

٧- السيرة الأدبية:

أ- «على هامش السيرة» لطف حسين (١٩٧٣م)^(٤)

وهو نموذج السيرة الأدبية الانفعالية التي يحول فيها كاتب السيرة الحوارات التاريخية إلى مواقف إنسانية مع تخيل حوارات بين الأشخاص لم تقع تاريخيا ولكنها تصور الموقف كتجربة إنسانية عامة. تحول التاريخ الميت إلى أدب حي خاصة وأن السيرة مازالت حية في قلوب الناس باعتبارها موضوعا مقدسا. تحولت السيرة التاريخية إلى فن أدبي وهي أقرب إلى تاريخ الأدب. وقد شاع هذا النوع الأدبي لسهولة وتأثيره على

(١) الآيات (١٨٨)، الأحاديث (٢٤)، الشعر (٤).

(٢) مثل قول المسيح، «أبت، أغفر لهم فإنهم لا يدرون ما يفعلون»، محمد ص ٢٢.

(٣) الأول «لا إله إلا الله، عقيدة وشرعة» والثالث، «إشكالية الخطاب الديني» لمحمد السعيد، القاهرة ٢٠٠٣.

(٤) استعملنا الطبعة الثالثة والثلاثين في ثلاثة أجزاء. كما أعيد نشره في سلسلة «قراءة للجميع» للكتب الشعبية بسعر زهيد.

الناس^(١). وتم تقريره في المدارس كنصوص أدبية. وهي أقرب إلى المقالات الصحفية التي تم جمعها فيما بعد. وهذا هو معنى العنوان «على هامش السيرة» وليست السيرة أي انفعال بها وليس تقريراً عنها. كتبت في الفترة ١٩٣٣-١٩٣٦. وهي نفس فترة «مستقبل الثقافة في مصر». وتظل «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل أفضل لأنها تجمع بين التاريخ والأدب. ولا تضحي بالتاريخ لصالح الأدب كما ضحى القدماء بالأدب لصالح التاريخ. والأدب هنا يتجاوز الإصلاح المباشر. يكتفي بمجرد التأثير وجدانياً في الناس لإثارة الذاكرة الدينية كدرس للحاضر واستفادة من الماضي وتختلف اللقطات كما طبقاً لدرجة الانفعال بالمواقف والإحساس بها.

والغاية المتعة الأدبية. فقد أطل القدماء في الأسانيد. واستطردوا في الأخبار. وغرقوا في اللغة القديمة صعبة الفهم والتذوق^(٢). والأدب يتغير بتغير العصور، ولا يبقى على حال. السيرة جزء من الأدب الحي وليس الأدب الميت^(٣). والسيرة موجهة إلى الشباب لتذوق الأدب العربي القديم ويعرف كيفية إعادة كتابته في أدب عربي حديث^(٤).

ويغلب التحليل النفسي للشخصيات وللعلاقات الاجتماعية كما هو معروف في التيار النفسي لتحليل الأدب، خاصة في تحليل العلاقة بين الرجل والمرأة، بين السيد والعبد، بين القوي والضعيف، بين الأب والابن^(٥).

(١) هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا المؤرخين لأنني لم أرد بها إلى العلم، ولم أقصد بها إلى التاريخ. وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعاً ثم لم أر بنشرها بأساً. ولعلي رأيت في نشرها شيئاً من الخير. فهي ترد على الناس أطرافاً من الأدب القديم قد أفلتت منهم، وامتنعت عليهم. فليس يقرأها منهم إلا أولئك الذين أتاحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم وإنك لتلتبس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم، جـ١/ هـ.

(٢) فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسراً، وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد الطويلة والأخبار التي يلتوي بها الاستطراء، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والتذوق الهين الذي لا يكلف شقة ولا عناء، السابق ص هـ.

(٣) هذا هو الأدب الحي، هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام. فأما ذلك الأدب الذي ينتهي أثره عند قراءته فقد تكون له قيمته، وقد يكون له غناؤه، ولكنه أدب موقوت، يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه، السابق ص و.

(٤) السابق ص ي.

(٥) السابق جـ١/ ٢٦.

ويُقارن فن كتابة السيرة مع الأدب الغربي خاصة اليوناني في مصادره الأصلية، الإلياذة والأوديسة لهوميروس أو كتاب المسرح اليوناني، سوفوكليس وأيسخيلوس ويوريديس^(١). وقد أحياء الأدباء الأورييون المحدثون طبقا لظروف عصورهم. وقد يصل الاستطراد إلى حد الخروج عن موضوع السيرة لصالح استثمار ثقافة كاتبها اليونانية التي حصل عليها أثناء وجوده في فرنسا. وتُسْتعمل كمادة لنسج الخيال^(٢).

لا تحتوي على بنية خاصة طبقا لأي نموذج، البداية والوسط والنهاية. ولا تتضمن أبوابا أو فصولا بل تضم ثلاثا وثلاثين قصة قصيرة غير مرقمة تكون مناظر من السيرة ومواقف منها^(٣). وهي مناظر متقاة تطيل فيما قبل البعثة. ولا تركز على البعثة أو الهجرة أو الغزوات في المدينة. كل لقطة لها اسم مفرد أو مضاف أو موصوف. ليس منها أسماء أعلام بل كلها مواقف إنسانية مثل: الفداء، الإغراء، الطاغية، البشير، اليتيم، الشهادة، اليأس، الوفاء، الشوق، الحب، وأحيانا الرحمة... الخ. الحوار فيها متخيل^(٤). والتعبير بضمير المتكلم المفرد كما يفعل القاصي والراوي^(٥). كما تتم مخاطبة القارئ للتقرب إليه^(٦). وتتم مخاطبة الطبيعة وتشخيصها كما هو الحال في الأدب اليوناني القديم والأدب الحديث عند شكسبير. وتتم مخاطبة الناس ممثلين عن الإنسانية كلها^(٧).

(١) السابق جـ ١/ ٩٩-١١٨.

(٢) الفيلسوف الحائر جـ ١/ ٦-٧٠.

(٣) هي: حفر زمزم، التحكيم، الفداء، الإغراء، البين، القضاء، الردة، الطاغية، البشير، راهب الإسكندرية، اليتيم، المراضع، البئر، نادي الشياطين، صريع الجسد، سيد الشهداء، ذو الجناحين، حديث عداس، مصعب بن عمير، طريد اليأس، نزول حصص، الوفاء المر، طيب النفوس، شوق الحبيب إلى الحبيب، القلب الرحيم..

(٤) السابق جـ ١/ ١١٨، جـ ٨/ ٨ «وأحب أن يعلم الناس أيضا أنني وسعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجده بأسا إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي أو بنحو من أنحاء الدين. فإني لم أبع لنفسي في ذلك حرية ولا سعة. وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين»، السابق جـ ١/ ١١/ ك، ومثل شخصية الأمير، السابق جـ ٣/ ١١١-١٢١.

(٥) السابق جـ ١/ ١٢٦/ ١٧٧/ ١٨٤.

(٦) السابق جـ ٢/ ١٩١

(٧) السابق جـ ١/ ٩/ ٦

لا يعتمد على القرآن والحديث والشعر كثيرا قدر اعتماده على تحليل التجارب الإنسانية^(١). وأحيانا يتم التعبير عن القرآن نثرا وليس نصا. فقد كان القرآن نوعا أدبيا شائعا^(٢). ومع ذلك الشعر أكثر كما هو الحال عند بعض القدماء. بعضه شعر من القدماء وبعضه من تأليف صاحب السيرة لأنه كاتب وشاعر. وأحيانا تؤخذ آيات القرآن والتعبير عن مضمونها نثرا في قرآن مشور. ويحال إلى بعض المؤرخين في الهامش الذين انفعل الكاتب بالوقائع التي يرونها وفي مقدمتهم طبقات ابن سعد^(٣). كما تشرح بعض الألفاظ لغويا لتوضيح معانيها وللإيحاء بالجو العربي القديم^(٤). ويحال أحيانا إلى مصادر الشرح مثل «الكشاف»، كما يتم التحقق من الشخصيات^(٥). وبعض الأسماء متخيلة مثل «سمراء» زوجة جد الرسول^(٦). وتطول بعض الأحاديث دون نقدها مثل رواية نزول الوحي أول مرة^(٧). في حين لا تظهر رواية الإسراء والمعراج.

والأهم في السيرة الإصلاحية هو تأسيسها على جانب الخبرات الإنسانية الحية والمسار الطبيعي للأشياء. فالوحي هو الطبيعة وليس مفروضا عليها. والعلاقة بين الرسول كشاب يافع وخديجة كامرأة ناضجة علاقة إنسانية تقوم على حاجة الشاب إلى الحماية الاجتماعية وحاجة المرأة إلى الشاب القوي والأنس الرجولي^(٨). قد يقع هذا الأسلوب في التحليل في القول الخطابي ومع ذلك فهو أفضل من الأسلوب التاريخي

(١) الشعر (١٦)، الحديث (٩)، القرآن (٦).

(٢) على هامش السيرة جـ ١/١٥٧ مثل «وأنا لا أدري أشر أريد بالناس أم خيرا»، جـ ١/١٥٧، جـ ٣/١٥٩-١٦٠/٢٢٦/٢٢٨/٢٤٣.

(٣) مثل طبقات ابن سعد، السابق جـ ١/٢٩/١٦٩/١٩٢-١٩٣ جـ ٢/١٧٨، تاريخ الطبري جـ ١/١٨٣، الإصابة جـ ١/١٨٤ «ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله، الجديد في صورته وشكله إلى مصادره القديمة التي أخذ منها. فهذه المصادر قليلة جدا لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري»، السابق جـ ١/ك، تفسير الطبري جـ ١/١٩٤.

(٤) السابق جـ ١/١١/٣٧/٣٩/٤٦/٤٣/٥٨/٥٣/٦١/٧٥/٧٦/٨٤/١٠٤/١١٧/١٢٣-١٢٤/١٣٤/١٤٠/١٤٦/١٤٨/١٥٢/١٥٩/١٦١/١٦٣/١٦٤/١٧٢/١٧٦/١٧٩-١٨٢/١٨٥/١٩١، جـ ٣/١٠٦/١٣٩/١٥٨/١٧١/١٨٢/٢٠٧.

(٥) السابق جـ ٣/١٦.

(٦) السابق جـ ١/٢٤.

(٧) السابق جـ ٣/٤٩-٥٠.

(٨) السابق ص ١١١.

الفقهي^(١). ويحيل صاحب السيرة إلى أحد رواد الإصلاح، محمد عبده. فقد كتبت السيرة بعد وفاته بثلاثين عاما. لذلك أصبحت السيرة وجدانية عاطفية مؤثرة فعالة.

وتروى المعجزات بالرغم من الاتجاه العقلاني لصاحب السيرة عن إيمان أو عن ضرورة الأدب للتشويق وجذب انتباه القارئ. وقد يكون هربا من التاريخ الدقيق الذي يتطلب استقصاء ومراجع ومقارنة بين الروايات وحل التعارض بينها. وكاتب السيرة على وعي بأن المعجزات مضادة للعقل. ويرد بأن العقل ليس كل شيء. فهناك الشعور والعواطف والخيال حتى وإن لم تتفق مع العلم والتاريخ^(٢). ففي أثناء حفر بئر زمزم خرج ذهب وسلاح قبل الماء^(٣).

وهناك تواصل بين الجاهلية والإسلام في بعض الفضائل مثل نصره المظلوم، «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»، ومركزية قریش وسيادة العرب^(٤). وكان الحجاب عادة جاهلية^(٥). وكان تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف عقابا جاهليا^(٦).

(١) «وأي شيء خبر عما يدعو إليه محمد! أليس هو يدعو إلى الحرية، إلى الحرية المطلقة التي لا حدود لها! إلى الحرية العزيزة على نفس العربي عزة حياته عليه! أليس يطلق الناس من التقيد بأية عبادة غير عبادة الله وحده! أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال...»، السابق ص ١٢٦.

(٢) «وأنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمثون إلا إليه. وهم لذلك يضيّقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسبقها العقل ولا يرضاها. وهم يشكون ويلحون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار وجده في طلبها، وحرصه على قراءتها والاستماع لها. وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث واستفادته من سلطانها الخطر المفسد للعقول... وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن العقل ولم يرضها المنطق ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخواهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ما يجب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ويدفعهم إلى أن يتلمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الغير، صارقة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتفال الحياة وتكاليف العيش»، السابق ص، ي ر ك.

(٣) السابق ج ١/ ١٥/ ٢٣.

(٤) السابق ج ١/ ١٩.

(٥) السابق ج ١/ ٣٩.

(٦) السابق ج ١/ ٧٤.

ويظهر الدين الطبيعي حتى قبل الحنيفية. وهو ما استند إليه الإسلام في دعوته الجديدة، وما كان يتطلع إليه المتحققون الذين كانوا يبحثون عن الحقيقة، ولا تكفيهم اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية. كانوا يمجون الشرك وعبادة الأصنام. يرفضون أخلاق الجاهلية ومعاملاتهم من ربا وظلم. وهو الدين الذي جسده حلف الفضول، نصرة المظلوم من الظالم والذي أخبر الرسول أنه لو كان موجودا لكان أحد موقعيه^(١). وهناك من رفض السجود للأصنام أو تقبيل يد الملوك^(٢).

ظهر الإسلام في بيئة يهودية نصرانية. لذلك تم التركيز على علاقة الدعوة الجديدة بالدينين السابقين ومعتنقيهما باعتبارهما سلطة في شبه الجزيرة العربية، خاصة اليهود. وكان يحال إلى كتبها المقدسة، التوراة والإنجيل^(٣).

ب- «محمد رسول الله» لأحمد تيمور (١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م)^(٤)

وهي أيضا سيرة أدبية من أحد أعلام الأدب خاصة الأدب الشعبي. لا تضم أبوابا أو فصولا أو أقساما مرقمة بل تتضمن خمسة وثلاثين موضوعا يمكن ضم أكثر من موضوع في بند واحد^(٥). ويكون مجموعها ستة بنود أحوال العرب قبل الإسلام، الميلاد، مكة، المدينة، الفتح، المكاتبات، الشائيل. تجمع بين الرسالة والرسول، ولكنها

(١) السابق ج٢/ ١٣٨-١٥٠.

(٢) السابق ج١/ ٦٩-٧٣ ومنهم راهب الإسكندرية، وبحيرا، والنجاشي، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وأمّية بن أبي الصلت، ج١/ ١١٩. ج٢/ ١٣٢-١٣٧/ ١٧٢-١٧٩.

(٣) السابق ج١/ ٧٧-٨١.

(٤) أحمد تيمور باشا (العلامة المحقق المغفور له): محمد رسول الله قدم له العلامة المهندس أحمد عبده الشرباصي، عضو مجمع اللغة العربية، راجعه وأعدّه للنشر عبد الصبور مرزوق، مدير إدارة التراث بدار الكتاب العربي، لجنة المؤلفات التيمورية، القاهرة ج١/ ٣ (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

(٥) هي: أ- أنساب العرب وطبقاتهم، عماليك العرب قبل الإسلام، أخلاق العرب وعاداتهم ب- الفجر الصادق، نسبه، أدوار حياته، بناء المسجد النبوي ج- مشروعية القتال، بدأ الغزوات، مجمل الغزوات د- فتح مكة، حجة الوداع هـ- الكتب الصادرة عنه، الكتاب بيده، المكاتب الواردة إليه وتقبيل يده، صفته، عمامته، أشباهه، أسماؤه، دعاؤه، جوامع كلمه، قيامه لأي سهل، إهداء برده إلى كعب بن زهير، دعاؤه لحسان، طريق الهجرة، الأسراء والمعراج، وصفه لأصحابه، زيارة قبره، مولده، الكتاب المزور عنه، الكوكب الدرّي، إهداء لوح ذهب من السلطنة عادلة، مدح الرسول، الشعر الديني على نهج البردة.

إلى الرسالة أقرب^(١). قدمه أربعة نظرا لأهميته^(٢). وطبعته الثالثة بعد أن نفذت الأولى في أشهر.

ومصادره القرآن والحديث والشعر، الحديث أكثر من القرآن، والقرآن أكثر من الشعر^(٣). كما يعتمد على كثير من مقتبسات القدماء والمحدثين، شعراء وكتاب. ومنها ثلاث قصائد طويلة^(٤). ومن العبارات ما يقع بين القرآن والحديث مثل «إن الباطل كان زهوقاً»^(٥). وتوضع آية في أول كل موضوع كعنوان له. وتشرح الألفاظ لغويا في الهامش^(٦). وتبرز مكاتيب الرسول ورسائله لأن صاحب السيرة كاتب وأديب^(٧). ويُشار إلى الكتب المزورة على النبي^(٨).

ويبدأ التشخيص والتقديس والتعظيم والتبجيل قبل التأليه بأوصاف مثل «يده الشريفة»، «النبي الشريف»^(٩). وتدخل في موضوعات لا دخل لها بنبوته مثل «العمامة» وألوانها الصفراء والخضراء والسوداء^(١٠). ولوح ذهب هدية من السلطنة عادلة^(١١). وزيارة قبره ومولده تدل على بداية التعظيم بعد وفاته^(١٢). وهناك أشباه الرسول وأسمائه في الجاهلية بعد أن أصبح نموذجا يقاس عليه^(١٣). وجوامع كلمه وأدعيته أصبحت نماذج بلاغية^(١٤). وسلوكه مع أصحابه نموذج في حسن المعاملة والأدب مثل قيامه لعدوه

(١) الرسالة ص ١٧-٢٣ (١٠٧)، الرسول ص ١٢٤-١٨٠ (٥٧).

(٢) العلامة المهندس أحمد عبده الشرباصي، عضو مجمع اللغة العربية، محمد شوقي أمين عضو اللجنة والمحرر الأول بمجمع اللغة العربية، محمد فتحي عبد المنعم، عبد الصبور مرزوق.

(٣) الحديث (٤٦)، القرآن (٣٨)، الشعر (١٤).

(٤) السابق ص ١٦٩-١٨٠.

(٥) السابق ص ٤٠.

(٦) السابق ص ٥٢-٥٣.

(٧) السابق ص ٩٧-١٢٣.

(٨) السابق ص ١٦٥-١٦٦.

(٩) السابق ص ١١٦-١١٨ / ١٦١-١٦٤.

(١٠) السابق ص ١٣٢-١٣٧.

(١١) السابق ص ١٦٨.

(١٢) السابق ص ١٥٨-١٦٤.

(١٣) السابق ص ١٣٩-١٤١.

(١٤) السابق ص ٤٢-١٤٦.

أبي جهل، وإهداء بردته لكعب بن زهير، ودعائه لحسان بن ثابت^(١). وتظهر الهجرة مع الإسرائء والمعراج وكأنها من صفاته وخصائصه مع أن الهجرة من مقتضيات الدعوة^(٢). وتنتهي الشئائل بقصائد المديح على نهج البردة^(٣).

جـ- «النبي» لجبران خليل جبران (١٩٣١)^(٤)

وفيه تبلغ السيرة الأدبية التي تضحى بالتاريخ كلية ذروتها. فالنبي هو المصطفى ولكنه ليس بالضرورة محمدا بل قد يكون عيسى أو أي نبي. وليس الزواج زوج محمد بخديجة بل أي زواج. فالنبي هو المعلم الذي يسأله الناس الهدى في حياتهم اليومية كما سأل الناس يسوع ومحمد. لا زمان له ولا مكان إلا مدينة خيالية ذات صوت عبري عربي يوناني «أورفالس» دون أن تكون بالضرورة مكة أو القدس، وإلا بعض العلامات التي تؤشر إلى النبي محمد مثل المصطفى، والزواج، ودخول المدينة، والوداع عن السيرة والمأكل والمشرب، والثياب، والصلاة من الشئائل^(٥). السيرة أدب فلسفي أو فلسفة أدبية. و«النبي» جزء من مشروع خماسي يشمل «حديقة النبي»، «عيسى بن الإنسان»، «أرباب الأرض»، «رمل وزيد» للتعبير عن هذا الدين الجديد دين الإنسان والطبيعة والفن والجمال والحياة والخلود. فحديقة النبي عالمه وهو الطبيعة. وعيسى ابن الإنسان أي أن الإنسان مركز هذا الدين. وأرباب الأرض أي أن الرب هو العالم في وحدة للوجود، ورمل وزيد أي أن الصحراء خصب ونماء. وهي فلسفة الحياة مثل أبي القاسم الشابي وبرجسون. تجمع بين الدين والأخلاق والتصوف. وهو دين واحد لا فرق بين نبي ونبي، عقيدة وعقيدة. ليست سيرة نبي بعينه في التاريخ أو خصائص وشئائل فردية يتميز بها. حجمه صغير ولكن دلالاته كبيرة. كتب بالعربية ثلاث مرات ثم تمت الصياغة الأخيرة بالإنجليزية على غير عادة أدباء المهجر. هو النبي في الخيال،

(١) السابق ص ١٤٧-١٥٢.

(٢) السابق ص ١٥٣-١٥٦.

(٣) السابق ص ١٦٩-١٨٠.

(٤) جبران خليل جبران: النبي، ترجمة موازية للنصين الإنجليزي والعربي، ترجمة ثروت عكاشة، دار الشروق، ١٩٩٨.

(٥) السابق ص ١٤-١٦ / ٩٠-١٠٦ / ٢٢-٢٥ / ٣٦-٣٧ / ٧٣-٧٥.

النبي كما ينبغي أن يكون، النبي الذي يعبر عن المثال في الإنسان. هو الإنسان الكامل الذي تحدث عنه الصوفية. نبي البحر وليس نبي الصحراء. فالماء هو سبب الري والاختضار.

وكاتب السيرة أديب، والنبي أديب. وفي كليهما روح الشعر. أديب يكتب عن أديب، وشاعر يصف شاعرا. توحد بين الذات والموضوع، والأنا والآخر. يصف النبي وكأنه يصف نفسه. الكاتب حامل رسالة النبي، والنبي حامل رسالة الكاتب. يحلل الآخر بتحليل ذاته. يكشف عالم الذاتية. عربي يكتب عن عربي. صاحب السيرة فيلسوف وشاعر، مفكر وفنان. النبي قابع في النفس العربي بصرف النظر عن دينه، ليس النبي محمدا بل هو العبقري القابع في العربي. حوارات النبي إبداع خالص لم تحدث تاريخيا، من وضع أديب.

والأنبياء كلهم لهم رسالة روحية واحدة وفي مقدمتهم عيسى ومحمد. والإيمان داخل النفس وليس خارجها ضد الكهنة ورجال الدين. هو صوت الضمير في الإنسان. الرسالة ليست المسيحية ولا الإسلام بل هي رسالة الإنسان والطبيعة. هي أقرب إلى وحدة الوجود عند الصوفية. الزمن فيه توتر بين الموت والخلود، وليس مسافة زمنية كمية للقياس^(١).

وقد تحول الدين الطبيعي الفطري إلى دين الطبيعة ذاتها كما هو الحال عند روسو. الطبيعة خيرة. تبعث على الحب وإدراك الجمال^(٢). الطبيعة إله والإله طبيعة^(٣). الطبيعة جمال وفن. والحب أحد مظاهرها مثل التحرر والحنين إلى الأوطان. وهو دين الشابي وإقبال وبرجسون. يخلو من المعجزات. فلا حاجة لتشخيص قوي الطبيعة في فرد أو في إله. «ربنا» نادرا، والطبيعة دائما^(٤). لا يعتمد على قرآن أو حديث أو شعر. ولا يستشهد بنص من التوراة أو الإنجيل. فالطبيعة خير شاهد على الدين، ومصدق الوحي في

(١) النبي ص ٦٧-٦٨.

(٢) النبي ص ٦٩-٧٢.

(٣) السابق ص ٢٢.

(٤) السابق ص ٧٥/٨٥.

الطبيعة، لا فرق بين ما ينزل من أعلى وبين ما يصعد من أسفل، بين التنزيل والتأويل.

كل السيرة تعاليم ووصايا مثل المواعظ على الجبل لعيسى بناء على سؤال من كل صاحب مهنة أو جنس، امرأة أو رجل أو شاب أو شيخ^(١). والبعض يسأل أكثر من سؤال. والثروة مهنة. والرجل الثري كما هو الحال في الإنجيل عندما سأل يسوع هل له حظ في الحياة الأبدية. وكل صاحب مهنة يسأل عما يهمه، الفلاح عن الأرض، والبناء عن البيوت، والنساج عن الثياب، والتاجر عن البيع والشراء، والقاضي عن الجريمة والعقاب، والمحام عن القوانين، والخطيب عن الحرية، والكاهنة عن العقل والعاطفة وعن الصلاة، والمرأة عن الألم، فالمرأة ميدان العواطف، والرجل عن معرفة النفس، فالرجل غايته المعرفة، والمعلم عن التعليم، والشاب عن الصداقة، والعالم عن الكلام، والفلكي عن الزمن، والشيخ عن الخير والشر، والناسك عن الصلاة والمتعة، والشاعر عن الجمال، والكاهن الشيخ عن الدين، والعرافة عن الموت وهي أكبر الخطب. ثمانية وعشرون موضوعا تلتقي عليها كل الديانات والمذاهب والفلسفات. وتتوالى الموضوعات تباعا طبقا للسائلين دون أبواب أو فصول. وكلها معالم لدين إنساني واحد. هي تعاليم المسيحية والإسلام بلغة الكاتب. والعطاء مقولة مسيحية وإسلامية في آن واحد. والرب والمذبح ليسا بالضرورة مسيحيين بل الألوهية والعبادة في أي دين. الدين كله وصايا ومواعظ وآداب، لا عقائد ولا شعائر فيه. وليس له رجال دين. ويخلو من الثواب والعقاب والحياة الأخروية. لا يهتم إلا بشيء من الدنيا والحياة الفاضلة الصادقة. هو خطاب توجه إلى الناس جميعا كما فعل المسيح ضد أحبار اليهود.

د- «محمد» لفتححي رضوان (١٩٨٨م)^(٢)

وهي سيرة من النوع الذي يجمع بين التاريخ والأدب مثل «على هامش السيرة» لطف حسين. وفي نفس الفترة التاريخية ١٩٣٧م. والغاية التأثير في الناس بوقائع مختارة من

(١) أصحاب المهن هم: العرافة (المطرا)، رجل ثري، شيخ صاحب نزل، فلاح، بناء، نساج، تاجر، قاض، محام، خطيب، كاهنة وكاهن، معلم، عالم، فلكي، ناسك، شاعر، ومن الجنس والعمر، امرأة تضم رضيعها إلى صدرها، امرأة، رجل، شاب، شيخ من أهل المدينة.

(٢) فتححي رضوان: محمد، دار الهلال، القاهرة ١٩٣٩.

سيرة الرسول لتربيتهم الفكرية والسياسية مثل إسلام عمر، واستشهاد حمزة، وإيمان خديجة. والمؤلف رئيس الحزب الوطني الذي أبقت عليه ثورة يوليو ١٩٥٢م اعترافاً بفضل حزب مصطفى كامل ومحمد فريد. ومع ذلك لا يظهر الجانب السياسي في السيرة، ولا تظهر الحياة الوطنية. الأسلوب أدبي، والحوار متخيل^(١). لم تهتم بالمعجزات كثيراً. فالهم هو الجانب الإنساني فيها. وتبدو عناصر الدين الطبيعي بتسميته «الصادق الأمين» قبل نزول الوحي.

والكتاب يخلو من الأبواب والفصول، إنما ينقسم إلى قسمين غير مرقمين طبقاً لعبارة أبي بكر عندما وجد الرسول ملقى في بيت عائشة «ما أطيبك حياً، وما أطيبك ميتاً»^(٢). فالقسم الأول «ما أطيبك ميتاً»، والثاني «ما أطيبك حياً». فالموت يسبق الحياة. والثاني أكبر من الأول، والأول ثلث الثاني تقريباً^(٣). وهي سيرة عكس التطور الزمني. فالموت يسبق الحياة. الموت فيه إثارة نفسية أكثر. تشجع الناس على القراءة، وتوقظ انتباههم. وهو جزء من مشروع ثلاثي. والثالث أم المؤمنين خديجة^(٤). ويتبع القسم الثاني من الحياة منهجاً تاريخياً من الميلاد والرضاعة والتجارة والزواج من خديجة حتى قبل الهجرة أي في الفترة المكية دون التعرض للفترة المدنية في فترة الغزوات. فالسيرة عمل جماعي. تتفق في الروح والقصد.

والمصادر ثلاثة: كالعادة: القرآن والحديث. ويغيب الشعر. والحديث أكثر من القرآن^(٥). ومع ذلك الأساس هو التصوير الفني، والتعبير الأدبي، والتأثير النفسي. النص تدعيم للموقف الإنساني وليس بديلاً عنه.

(١) مثل الحوار مع مويبة، السابق ص ٦-٩.

(٢) «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أطيبك حياً، وما أطيبك ميتاً»، وفي هذا الكتيب تفصيل سريع لهذه الكلمة التي أحاطها الخلود بإطار من عنده، السابق ص ٣.

(٣) «ما أطيبك ميتاً» ص ٦-٣٥ (ص ٣٠)، ما أطيبك حياً ص ٣٨-١٦٠ (ص ١٢٣).

(٤) الأول هو هذه السيرة بقلم فتحي رضوان، والثاني تأليف محمد صبيح، والثالث تأليف مصطفى الوكيل، السابق ص ٩٨/٣٦.

(٥) الحديث (١١)، القرآن (٥).

٨- السير الليبرالية:

لم يخل كل عصر من سير تعبر عن ثقافته ومستوى تعظيمه للرسول ويعكس أيديولوجيته. ولما كانت هناك ثلاثة تيارات في الفكر العربي الحديث، ظهرت ثلاثة أنواع من السير، يعكس كل منها تياراً. الأول التيار الليبرالي الذي أكثر من كتابة سيرة ليبرالية للرسول. يقرأ فيها معاني الحرية والمساواة والعدل والعقل والتقدم. والثاني التيار الماركسي أو الاجتماعي التقدمي بوجه عام، ولم يكتب أحد من التيار العلمي العلماني سيرة للرسول لأنه يبدأ بالمعارف الطبيعية وليس الإلهية. كما أنه يفصل بين الدين والمجتمع. والمجتمع له نظامه المدني وليس الشرعي.

أ- «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» للطهطاوي (١٨٧٣هـ)^(١)

وهي سيرة معاصرة تحول محورها من الرسالة والرسول إلى الرسالة والدولة. فالرسول ليس الشئال والخصائص بل الدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية. لها بنية محدودة، اثنا عشر باباً. وكل باب له فصول طبقاً للمنهج التاريخي ونموذج ابن هشام البداية والوسط والنهاية. الخمسة الأولى عن الرسالة من خلال حياة الرسول^(٢). والسبعة الثانية عن الدولة. الأول المولد وزواجه من خديجة وولادة فاطمة. والثاني البعثة والهجرة إلى الحبشة الأولى والثانية والهجرة إلى الطائف والإسراء. والثالث الهجرة إلى المدينة وأسبابها وابتداء التاريخ الإسلامي. والرابع ما حدث بعد الهجرة إلى وفاته أي الغزوات عاماً وراء عام، من الأول حتى التاسع وحجة الوداع وهو أكبر الأبواب. والخامس وفاته وبعض أخلاقه وخصائصه ومعجزاته وأزواجه وأعمامه وعماته وأخواله ومواليه وخدمه وحشمه وهو ما يعادل الشئال.

والجديد هي الأبواب السبعة التالية في بنية الدولة كما بينها في «مناهج الأبواب»

(١) الطهطاوي (رفاعة رافع): نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، ج١، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة ١٢٩١هـ.

(٢) وهي أ- المولد ب- البعثة ج- الهجرة د- ما بعد الهجرة (المدينة) هـ- الوفاة، السابق ٣-٣٥٠ ص (٣٤٧).

منظر الدولة محمد علي^(١). الأول الوظائف والعمالات البلدية خصوصية وعمومية أهلية داخلية وجهادية التي هي عبارة عن نظام السلطنة الإسلامية وما يتعلق بها من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، والثاني العمالات المتعلقة بالأحكام وهو ما يعادل وزارة العدل^(٢). والثالث العمالات الجهادية وهو ما يعادل وزارة الدفاع^(٣). والرابع العمالات الجبائية وهو ما يعادل وزارة الأوقاف^(٤). والخامس العمالات الاختزانية وهو ما يعادل وزارة المالية^(٥). والسادس عمالات مختلفة تتعلق أيضا بالمالية والضيافة والفود والطب والمارستان. وهو ما يعادل وزارة الصحة^(٦). والسابع الحرف والصناعات وتعادل وزارات التجارة والصناعة والعمل^(٧). ولا توجد ما يعادل وزارات التربة والتعليم العالي، والإسكان والتموين والخارجية والداخلية والزراعة والصناعة والطاقة والشباب والرياضة والحكم المحلي وغيرها من الوزارات المستحدثة.

ولا تحتفي ألفاظ التبجيل والتعظيم مثل المولد الشريف، النسب المنيف، خديجة أم المؤمنين، الصحابة رضي الله عنهم، الرسول صلى الله عليه وسلم، عليه الصلاة والسلام^(٨). كما يستعمل السجع للتأثير على القارئ طبقا للمحسنات البديعية عند القدماء والمحدثين.

(١) وتضم الخدم وما يضاف إلى الإمامة العظمى من الأعمال الأولية كالوزارة والحجاية وولاية البدن والسقاية والكتابة، والعمالات الفقهية والدعوة إلى الإسلام أو الصلح أو الأمان، والسفارات الأجنبية والترجمة، وكتابة الجيش والعتاء والديوان والزام، والعرفاء والمحاسبين.

(٢) وتتضمن الإمارة والقضاء وشهادة الشهود وكتابة الشروط والعقود، وفرض الموارث والنفقات والقسم وناظر البناء، والمحاسب والمناادي وصاحب العسس ومتولي حراسة المدينة والجاسوس والسجان ومقيمي الحدود.

(٣) وتتضمن الإمارة على الجهاد واستخلاف الإمام على المدينة، وصاحب اللواء، وانقسام الجيش خمسة أقسام، وصاحب الخيل والمسابقة، وسلاح النبي، والسفر للغزو، ومتاع المسافرين، والمحاصرات كالمناجيد والدبابات والخنادق، وصاحب الغانم، والبشير، والسفن.

(٤) وتضم صاحب الجزية والأعشار والمزاج والمساحة والزكاة والصدقات والموارث.

(٥) وتتضمن بيت المال وخازن الطعام والوزان والكيال، وضرب السكة والإبل والغنم والدواب والمراعي.

(٦) وتشمل أيضا الرقية والفصد والكي ومكان إيواء الفقراء.

(٧) وتضم احترام النساء مثل الماشطة والقابلة والخافضة والغاسلة والمغنية، السابق ص ٣٥٠-٥٣١ (١٨٢ ص).

(٨) السابق ص ٣/٣١/٤٨/٩٣/١٠٨/١٣٣/١٥٢/١٩٣/٢١٤/٢٧٣/٣١٧/٣٥٠/٤٠١/٤١٥/٤٨٢ ص ٤٩٣/٤٧١/٢٠.

والسيرة جزء من تاريخ أعم، ابتداء الجزء الثاني من «تاريخ توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل» كما هو الحال في سيرة البستي وابن خلدون تتويجا لها، وتبركا بها^(١). والأسلوب بسيط، والغاية نفع الوطن بالرغم من أن الجزء الأول في السيرة عن حياة الرسول تقليدي.

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر، والشعر أكثر ثم الحديث^(٢). وتظهر مناسبات النزول لبعض الآيات^(٣). وقد تطول القصائد، وتشرح بعض الألفاظ لغويا في الهامش^(٤). كما يعتمد على التراث القديم في التاريخ والتفسير^(٥). كما يشير إلى بعض الفرق الكلامية مثل المعتزلة^(٦). ويقتبس منها. ويوضع الاقتباس بين علامتين^(٧). كما يعتمد على التراث الأصولي ومقولاته في الأحكام الشرعية الخمسة^(٨).

ولا تختفي المعجزات كلية بل يقل حجمها. ويبقى البعض مثل الإسراء والمعراج^(٩). ويتجاوز التاريخ الرصدي إلى الدروس المستفادة «الظواهر الإسلامية والظواهر التعليمية»^(١٠).

ب- «معجز محمد رسول الله» للثعالبي (١٩٤٤م)^(١١)

وهي سيرة حديثة على نموذج قديم، نموذج ابن هشام، البداية والوسط والنهاية،

(١) السابق ص ١ فلما صار الشروع في الجزء الثاني من كتاب توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل عنّي أنه لا غنى عن توجيهه بالسيرة النبوية. فانتقيت ذلك من صحيح كتبه المصطفوية. فجاءت بحمد الله جيدة الأسلوب. تنفع أهل الوطن وتسطع في غرة ولي المتن خديو مصر إسماعيل المجدد في مصر أحسن زمن...، السابق ص ٢.

(٢) الشعر (٣٧٥)، القرآن (٨٤)، الحديث (٥٣).

(٣) السابق ص ٢١٣/١٩٤.

(٤) نهاية الإيجاز ص ٤٣-٤٨.

(٥) السابق ص ١٨.

(٦) السابق، القرطبي ص ٢٣، ابن المنير ص ٢٣، ابن كثير ص ٢٦، ابن الجوزي ص ٤٠.

(٧) هي كلمة «انتهى»، السابق ص ٣٩/٣٤/٢٤.

(٨) السابق ص ٣٩.

(٩) السابق ص ٨٧-١٠٨.

(١٠) السابق ص ١٠٨-١٣٣.

(١١) الثعالبي (الشيخ عبد العزيز): معجز محمد رسول الله، تقديم ومراجعة د. محمد البعلاوي (جزءان)، دار الغرب الإسلامي، بيروت ج ٣/١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

المحور الأول للسيرة، الرسالة دون المحور الثاني، الرسول. العنوان نفسه غامض لأنه لا معجز في رسالة محمد رسول الله بل تطور طبيعي للتاريخ خاصة في شبه الجزيرة العربية. لذلك يُحال إلى ابن إسحق واضع هذا النموذج^(١). وهو أقرب إلى «حياة محمد» لهيكل. وتذهب خصائص الرسول إلى خصائص الرسالة^(٢). وقد صدر الثعالبي سيرته على الغلاف بعبارة دالة على التركيز على الرسالة وليس الرسول^(٣).

وهو دفاع مستنير عن السيرة طبقاً لأهداف الحركة الإصلاحية التي تحولت إلى حركة تحرر ضد الاستعمار الفرنسي في تونس. فالرسالة حركة تحرر وطني للعرب عن الاستعمار الشمالي للرومان، والشرقي لفارس، والجنوب للحبشة لشبه الجزيرة العربية وامتدادها في صحراء الشام كما فعل الشرقاوي في «محمد رسول الحرية». فالسيرة مملوءة بالألفاظ الكفاح وتعبيراته، والنضال ضد تأمر الأعداء، والكفاح ضد العرب المتهودين وضد مؤامرات قريش. كما يشمل الإصلاح الاجتماعي في الداخل وإعادة توزيع الثروة بين الأغنياء والفقراء، وتحرر العبيد من السادة، وإعطاء المظلوم حقه من الظالم^(٤). ويتحدث لأول مرة عن «الإسلام السياسي» مصطلح المعاصرين^(٥). الدين حركة وطنية^(٦).

ومع ذلك مازالت بقايا المنهج التاريخي باقية في رصد أسماء الشهداء من المسلمين أو المشركين أسماء القتلى في أحد أو أسماء الجنود والأسرى من قريش بلا دلالة ظاهرة^(٧).

وينقسم إلى جزأين كل جزء له بنيتة الخاصة. الأول ستة وأربعون فصلاً صغاراً تشير إلى حياة الرسول في مكة، دون أحوال العرب قبل الإسلام والميلاد والرضاعة ونزول الوحي، فالتركيز في السيرة على ما كان له دلالة، ويتعلق بكفاح الرسول. وكلها تدور حول نقاط محورية في حياته، الإعلان عن الدعوة، معارضة قريش، محاولة غواية النبي

(١) السابق ص ٢١.

(٢) السابق ص ٢١.

(٣) وهي: «أن المجتمع الإسلامي هو نسيج الرسالة المحمدية فأروني ماذا صنع غيرها من الرسالات»، السابق ص ٣.

(٤) السابق ج ٢/ ٢٨١-٢٨٢.

(٥) السابق ج ١/ ٣٦-١٦٦-١٧٥-١٧٩-١٨٠/ ٢٨٦.

(٦) السابق ص ١٢٥.

(٧) السابق ج ١/ ٢٤٣-٢٤٤/ ٢٥٠-٢٥٤، ج ٢/ ٤٣-٤٥.

بالمال والنساء والملك، تأمر اليهود مع المشركين، مقاومة الرسول، الهجرة إلى الحبشة، زواجه من خديجة وعائشة، الهجرة إلى المدينة، ومشروعية القتال^(١).

ويشمل الجزء الثاني ثلاثة عشر موضوعا بلا فصول أو أبواب أو ترقيم. معظمها غزوات أو سرايا بعد الهجرة إلى المدينة. وهي سبعة: العمرة إلى مكة وصلاح الحديبية والوفود والرسائل وهي أربعة. ولا يوجد ذكر لغزوة أحد ربما لذكرها السيئة^(٢). ولا تنتهي السير بوفاته لأنها أقل دلالة عليها من حياته.

ويعتمد على القرآن أكثر مما يعتمد على الحديث حتى يطمئن إلى يقين المصادر والبعد عن المرويات الظنية. ويأتي الشعر في الدرجة الثالثة^(٣). والآيات تبين أسباب نزولها وتفاعلها مع الواقع وجدلها معه سؤالا وجوابا، نقدا وإثباتا. والأحاديث متون دون أسانيد، وقصيرة حتى يكون تأثيرها أقوى من الأحاديث الطويلة. وأحيانا يدخل في كلام المؤلف ولا يوضع بين معقوفتين. ويختلط أحيانا كلام الوحي مع كلام الرسول والبشر^(٤). فمن مظاهر بلاغته إعادة صياغة كلام البشر في رده عليهم مستعملا أقوالهم. وهناك هوامش كثيرة لشرح الألفاظ. فالمقصود من السيرة فهمها تأثيرها على الناس وليس مجرد تسجيل وقائعها. وتتعدد الروايات بل وتتناقض أحيانا. والمؤلف يخاطب المؤرخ كي يكتشف الوقائع الموضوعية وراءها^(٥). ويبحث عن القضية وراء الرواية، والأشكال وراء القصة^(٦). وأحيانا تطول الحوارات كما هو الحال عند القدماء^(٧).

(١) السابق ج١/٦-٧.

(٢) الغزوات: الخندق، السابق ج٢/٩١-١٠٦، بني قريظة ص١٠٧-١٢٦، خيبر ص١٦٣-٢٦٠، الطائف ص٢٦١-٢٧٩، تبوك ص٢٨٣-٢٦٩، سرايا زبيدي حارثة ص١٢٧-١٣٨، صلح الحديبية ص١٥٠-١٦٢.

(٣) القرآن (١٨٥)، الحديث (١١٤)، الشعر (١٣).

(٤) مثل قول أبي بكر «أقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربهم». ومثل قول الرسول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» معجز محمد ج١/٤١ ج٢/٢٣٠، وقول عبد الله بن أبي سرح كاتب الرحي، «تبارك الله أحسن الخالقين» ج٢/٢٣٤، قول الرسول «اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أفعالكم شيئا» ج٢/٣٢٣.

(٥) السابق ج٢/١٠٣/١٤٣/٢٥١.

(٦) السابق ج٢/١٥٩-١٦١.

(٧) السابق ج٢/٢١٣-٢٢٥/٢٤٠-٢٣٨/٢٤٤-٣٤٨.

وبالرغم من قلة الحجج الثقيلة خاصة الحديث وسيادة التحليل العقلي إلا أن بعض روايات المعجزات مازالت واردة مثل إسلام الجن^(١). المعجزات قليلة وخفيفة، ويمكن فهمها علمياً^(٢). ولا تذكر رواية الإسراء والمعراج الطويلة وما بها من خيالات في شك البراق وحوارات الرسول مع جبريل وملائكة السموات السبعة والأنبياء وما نرض فيها من شرائع^(٣).

وبالرغم من إسقاط موضوع الشئال ومحور الرسول والإبقاء على محور الرسالة وحدها مازالت بعض ألفاظ التفخيم والتعظيم والتبجيل مثل يده الشريفة وخديجة وعائشة أم المؤمنين، ألقاباً مجازية وليست حقيقة تاريخية^(٤).

جـ - «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م)^(٥)

هو نموذج السيرة الليبرالية الحديثة التي يختفي فيها الرسول كلية لصالح الرسالة، ويوضع محله خاتمة في مبحثين: الأول الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن والثاني «المستشرقون والحضارة الإسلامية». وهما العنصران الجديدان في السيرة. ولا يظهران في الخاتمة فحسب بل أيضاً في ثنايا الكتاب^(٦). كما تظهر المتارنة بين الإسلام والمسيحية دفاعاً عن الإسلام. يضرب المستشرقون بعضهم ببعض، انتعصين بالمتصنين، والمغالين بالمعتدلين دفاعاً عن الصحة التاريخية للنص القرآني ضد فرية التحريف، والجبرية، وانتشار الإسلام بالسيف. ويرتبط بالحركة الإصلاحية الحديثة عند محمد عبده، ويحيل

(١) السابق ج١/ ١٠٥.

(٢) السابق ج٢/ ٦٨.

(٣) السابق ج١/ ١١٤-١١٦.

(٤) يده الشريفة، السابق ج١/ ١٨/ ١٥٧/ ١٦٢، أم المؤمنين ج١/ ٢٢/ ١٠٤/ ٢٠٢.

(٥) محمد حسين هيكل، حياة محمد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ، الخاتمة ص ٤١٩-٤٦٨.

(٦) أنصار المستشرقين والرد عليهم وما يؤخذونني به، أسباب أخطاء المستشرقين، المستشرقون والمقررات الدينية، فرية تحريف القرآن، موير ينكر هذه الفرية، السابق ص ٣٦-٤٠، بحوث المستشرقين، المسلمون وهذه البحوث ص ٦٢-٦٤، جدال المستشرقين ص ٢٢٨، زينب بنت جحش كما يصورها المستشرقون، فساد تصوير المستشرقين، والآن ما رأي المستشرقين في قصة بنت جحش ص ٢٦٥-٢٧١، المستشرقون والحضارة الإسلامية، اعتراض المستشرقين، إيرفنج والجبرية الإسلامية، ص ٤٤٢-٤٦٨.

إليه^(١). وقد يعتبرها البعض أفضل ما كتب في السيرة الإصلاحية الحديثة طبقا للنموذج الليبرالي.

وتتكون السيرة من واحد وثلاثين فصلا كلها في السيرة طبقا لنموذج ابن إسحق وابن هشام، البداية والوسط والنهاية بالرغم من ارتباط بعض الفصول بعضها ببعض بحيث تصبح الفصول أقل في بنية أوضح^(٢). وهناك فصول عرضية مثل قصة الغرانيق وأزواج النبي. البداية في البعثة حتى الهجرة، والوسط في المدينة، والنهاية في فتح مكة حتى الوفاة. يتضح المنهج التاريخي دون الوقوع في الرصد والتسجيل كما فعل المؤرخون القدماء. وتقتصر السيرة على حدودها دون غيرها، وترك كل ما لا يدخل فيها كما هو الحال في سيرة القدماء^(٣).

وتقل الحجج النقلية إلى الحد الأدنى، ويزداد التحليل الإنساني الحي والخبرات الطبيعية ليظهر الإسلام باعتباره دين الفطرة. والقرآن أكثر من الحديث نظرا لنقل الحديث عن طريق الروايات المختلفة التي تجعلها ظنية في حين أن النقل القرآني يقيني. وطريقة طباعة القرآن باللون الأحمر تدل على أهميته في حين أن الحديث مطبوع بالحروف العادية. والشعر أقل من الحديث لأن الشعر يقوم بدلا عنه، تحليل التجربة الإنسانية مباشرة فصاحب السيرة أيضا أديب، مؤلف أول رواية في الأدب العربي

(١) أقوال الشيخ محمد عبده، السابق ص ٢٨-٢٧، ص ٤٦٠-٤٦٢.

(٢) أ- البداية: ١- بلاد العرب قبل الإسلام ٢- مكة والكعبة وقريش ٣- من الميلاد إلى الزواج ٤- من الزواج إلى البعث

ب- البعثة: ٥- من البعث إلى إسلام عمر ٦- قصة الغرانيق ٧- مسارات قريش ٨- من نقض الصحيفة إلى الأسراء ٩- بيعتنا العقبة ١٠- الهجرة

ج- المدينة: ١١- أول العهد يشرب ١٢- السرايا والمناوشات الأولى ١٣- غزوة بدر الكبرى ١٤- بين بدر وأحد ١٥- غزوة أحد ١٦- آثار أحد ١٧- أزواج النبي ١٨- غزوات الخندق وبني قريظة ١٩- من الغزوتين إلى الحديبية ٢٠- عهد الحديبية ٢١- خيبر والرسول إلى الملوك ٢٢- عمرة القضاء ٢٣- غزوة مؤتة.

د- فتح مكة: ٢٥- حنين والطائف ٢٦- إبراهيم ونساء النبي ٢٧- تبوك وموت إبراهيم ٢٨- عام الوفود وحج ابن بكر بالناس ٢٩- حجة الوداع ٣٠- مرض النبي ووفاته ٣١- دفن الرسول.

(٣) حياة محمد، ص ٣٢-٣٣.

الحديث «زنب»^(١). وفي الخاتمة: الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن، والمستشرقون والحضارة الإسلامية لا يوجد إلا ستون آية دون حديث أو شعر. وهو وعي منهجي مقصود بالعودة إلى القرآن. فالقرآن أصدق مرجع^(٢). ومن كثير من آياته تُعرف أسباب النزول لمعرفة ارتباطه بالواقع. وقد بنى المنهج العلمي في التغير الاجتماعي وهو ما سماه القدماء «أسباب النزول» و«الناسخ والمنسوخ»^(٣). والرجوع إلى النبي فقط حين الخلاف^(٤). ولا يُروى الحديث بل يعبر عن أثره النفسي. فمصدق السند في المتن^(٥). تتجاوز السيرة الخلاف في الروايات، وتعود إلى الأشياء ذاتها. تبحث عن الحد الأدنى من الاتفاق بينها عليه. فالتاريخ رواية. والرواية قصة، والقصة إبداع أدبي. وصاحب السيرة أديب يناقش القصة كناقذ أدبي^(٦).

لذلك تقل المعجزات إلى الحد الأدنى. فالمعجزة رواية. والرواية خيال. تنقد السيرة رواية شق الصدر لمسا دون عمقا. فالرواية عرضة للنقد. والمتن أيضا عرضة لنقد العقل لأن الإعداد للنبوة لا يحتاج إلى هذا العمل الحسي^(٧). وقصة الغرائق العلي تقوم على أسانيد ضعيفة. القصة ظاهرة الكذب ينفيها التمهيص العلمي^(٨). وتشير إلى رغبة الرسول في الإعلان عن بعثته بكل الوسائل وإيجاء التوسط بالغرائق للمشركون. فالقصة تصوير، والشيطان رمز. ولم تخل السيرة من الأحاديث الطويلة التي لا تستطيع

(١) القرآن (٢٠٠)، الحديث (٣٧)، الشعر (٧).

(٢) حياة محمد ص ٣٠.

(٣) انظر دراستنا «الوحي والواقع»، دراسة أسباب النزول، هموم الفكر والوطن ج١، التراث والعصر والحداثة ص ١٧-٥٦، وأيضا من النص إلى الواقع ج٢ ص ١١٨-١٣٥.

(٤) حياة محمد ص ٤٠-٤١.

(٥) من النقل إلى العقل ج٢، علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

(٦) حياة محمد ص ٨٣-٨٥.

(٧) لا يطمئن المستشرقون، ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند. فالذي رأى الرجلين في رواية كتاب السيرة إنها هو طفل لا يزيد على ستين إلا قليلا.. والروايات تجمع على أن محمدا أقام بنى سعد إلى الخامسة من عمره. فلو كان هذا الحادث قد وقع وسنه ستان ونصف سنة ورجعت حليلة وزوجها إذ ذلك به إلى أمه لكان في الروايتين تناقض مقبول... السابق ص ١٠١.

(٨) السابق ص ١٤٠-١٤٦.

أي ذاكرة استيعابها^(١). وتتعدد الروايات في الإسماء والمعراج وتفسيرهما. هل كانا بالروح أم بالجسد؟ وهل يمكن تفسيرهما اعتمادا على العلم الحديث؟^(٢). وهل تضعضع المسلمون بعدهما بين إثبات وإنكار؟

والمنهج التاريخي هو الذي يؤدي إلى تمحيص الروايات^(٣). فالرواية إدراك وخيال، واقع وافترض. لذلك يقبل حكم النقد التاريخي النزيه^(٤). وهناك وعي منهجي بالسيرة الحديثة في مقدمة الطبعين الأولين^(٥). يكشف عن ضرورة التجديد في الدراسات الإسلامية مثل مقدمة «في الشعر الجاهلي» لطف حسين التي تبين ضرورة تبني علوم النقد التاريخي الحديثة. الطريقة الصحيحة في البحث هي الطريقة العلمية، البحث عن الأدلة وتمحيصها^(٦).

ومنهج البحث علمي خالص^(٧). ينبغي الحق وحده. وقد وجه إهداء الكتاب إلى الذين يبتغون الحق لوجه الحق وحده^(٨). الكتابة بحث وليست تعبيرا عن إيمان مسبق وعقائد غيبية ينقصها الدليل^(٩). والمنهج النفسي الاجتماعي هو أفضل المناهج. فالدين ظاهرة نفسية اجتماعية. اعتمد عليه القرآن للتخويف بالبعث والحساب وتصويره^(١٠).

(١) مثل ما كتب محمد بين المهاجرين والأنصار، وأعد فيه اليهود وعاهدكم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط عليهم، السابق ص ١٩٢-١٩٣.

(٢) السابق ص ١٦٣-١٦٩.

(٣) السابق ص ٢٦٨-٢٧١.

(٤) السابق ص ٣٦٧.

(٥) السابق ص ١٧-٦٥.

(٦) «إن واجب الباحث ألا يثبت مسألة من المسائل وألا ينفيها قبل أن يصل من تمحيصه وبحثه إلى الإقناع الذاتي الصحيح بأنه قد اطمأن كل الطمأنينة إلى الوقوف فيها على الحقيقة كاملة غير مشوبة بشائبة. وشأن المؤرخ في ذلك شأن العالم في الأمور الطبيعية وفي غيرها من العلوم جميعا...» السابق ص ٤٦.

(٧) «إنما أردتها دراسة علمية على الطريقة الحديثة خالصة لوجه الحق، ولوجه الحق وحده... أن يكون البحث قد تم بحثا علميا لوجه الحقيقة العلمية وحدها...» السابق ص ٦١.

(٨) السابق ص ٥.

(٩) «هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة، وإن ما بذلت في هذا السبيل من مجهود لا يُخرج هذا الكتاب عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع... فحياة محمد جدية بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها...» السابق ص ٣٣.

(١٠) السابق ص ١٥٣-١٥٤.

وفي الإنسان نزوع نحو الكمال^(١). وبعد هزيمة أحد كان لابد للنصر للمسلمين لاسترداد هيتهم في عيون الآخرين واسترجاع ثقتهم بالنفس^(٢).

ولا يكفي الاعتماد على سير القدماء في الموروث دون الاعتماد على سير المحدثين في الوافد. فالثقافة الآن لها مصدران الموروث والوافد. الموروث وحده يوقع في السلفية والتكرار، والوافد وحده يوقع في الاستشراق والتغريب. ولولا الثقافة الأوربية كمرآة تعكس الثقافة الإسلامية لما كتبت هذه السيرة. فيحال إلى حوادث فارقة في تاريخ الغرب مثل مجزرة سانت بارتليمي كمرآة لرؤية أسرى بدر وضالكتهم. والمرأة في أوروبا مرآة تكشف وضع المرأة في الشرق والعكس بالعكس. فالمرأة مزدوجة، مرة رائية ومرة مرئي^(٣). والخاتمة الأولى «الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن» في مرآة الحضارة الغربية سواء في علاقة الدين بالدولة أو بأساس الدولة الاقتصادي في الغرب والمعنوي في الإسلام^(٤). والخاتمة الثانية «المستشرقون والحضارة الإسلامية» رد على أخطاء المستشرقين بالنسبة للجبرية في الإسلام. وهي ما تسمى عقيدة القضاء والقدر والعنف والتعصب والقسوة. وهو ما يسمى اليوم الإرهاب بالرغم من التسامح في الإسلام، والإيمان بالحوار بالرغم من مكانة العقل في الإسلام^(٥).

والعلم الغربي هو النموذج، العلم الواقعي الوضعي البعيد عن الخيال والأسطورة والغيبيات. يفصل بين الكنيسة والدولة، بين السلطتين الدينية والسياسية. فحرر الفكر من الجمود. وهو النموذج للشرق ضد الجمود والتعصب^(٦). والحقيقة أن هذا العلم

(١) السابق ص ١٥١-١٥٢.

(٢) السابق ص ١٥١.

(٣) السابق ص ٣٧-٣٨.

(٤) السابق ص ٢٨٦.

(٥) السابق ص ٤١٩-٤٤١.

(٦) «انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها. وزادهم انصرافا ما رأوا العلم الواقعي والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقرر أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيز التفكير العلمي، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي (المتافيزيقي) ليس هو أيضا من الطريقة العلمية في شيء. ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحا صريحا في البلاد الغربية ورأوا البلاد التي تقرر في دساتيرها أن ملكها هو حامي البروتستنتية أو الكاثوليكية أو تقرر أن دين الدولة الرسمي المسيحية لا تنقص من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها. فازدادوا انخراطا في هذا

الغربي النموذج إنما هو حصيلة العلم الإسلامي الأول وثمرته بعد عصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية في أسبانيا وجنوب إيطاليا وشمالها وبيزنطة وعبر عنه ابن خلدون. فالعلم الإسلامي إنما يسترد ذاته قبل أن يأخذ العلم الغربي نموذجاً^(١).

وكثيراً ما يستعمل أيضاً لفظ «التجديد» والدعوة إلى الاجتهاد ونقد الجمود عند المسلمين^(٢). وقد أثر الجمود في الشباب في عزوفهم عن الفكر والعلم. واتهم محمد عبده بالإلحاد والكفر والزندقة فأضعف موقفه تجاه الغرب. واتجه الشباب إلى الغرب يأخذ من علمه. وقد بدأ الغرب يجدد في الدراسات الإسلامية بمناهج نفسية واجتماعية وتاريخية يمهّد الطريق للباحثين المسلمين^(٣). والجمود لا يساعد على رد اتهامات التبشير والاستشراق ومن ورائهما الاستعمار.

التفكير العلمي وحرصاً على الأخذ منه وما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب. فلما أن لهم أن يتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية شغلته هذه الحياة عن التفكير في المسائل التي انصرفوا من قبل عن التفكير فيها. وظل انجذابهم الفكري في تياره الأول. ينظر إلى الجمود العقلي شفقة مزدرياً. وينهل من ورد التفكير الغربي والفلسفة الغربية فيجد فيها لذة، ويزداد بها إعجاباً وعلى ما نهل صدر شبابه منها حرصاً، السابق ص ٢٨-٢٩

(١) «وليس ريب في أن الشرق اليوم في حاجة أشد الحاجة إلى النهل من ورد الغرب في التفكير وفي الأدب والفن. فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامي وماضيه قرون من الجمود والتعصب عُثت على تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد. فلا مفر لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحي وثروة الماضي وراثته العظيم»، السابق ص ٢٩.

(٢) «ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين والشيخ محمد عبده في مقدمتهم قد اهتموا بالإلحاد والكفر والزندقة فأضعف ذلك من حججهم أمام خصوم الإسلام. ولقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر في نفوس شباب المسلمين المتعلمين. شعر هؤلاء الشباب بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين، وإن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد كما أن الإيمان قرين الجمود. لذلك جزعت نفوسهم. وانصرفوا يقرأون كتب الغرب يتلمسون فيها الحقيقة اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين...»، السابق ص ٢٨..

(٣) «ومن الحق علينا للغرب أن نقول للغرب: إن ما يقوم به علماء اليوم من بحوث نفسية في تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية قد مهد لأنباء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزيدوا من هذه البحوث في تلك الدراسات، وأن يكونوا أكبر رجاء في الاهتداء إلى الحق. فهم أقرب بطبعهم إلى حسن إدراك الروح الإسلامي والروح الشرقي. وما دام التوجيه الجديد قد بدأ في الغرب فواجب عليهم أن يتابعوه، وأن يصححوا أغلاطه، وأن يثبوا فيه الروح الصحيح الذي يعيده إلى الحياة، ويصله بالحاضر، لا على أنه مجرد دراسة ويبحث بل على أنه ميراث روحي وعقلي يجب أن يمثلته الوارثون، وأن يضيفوا إليه، وأن يزيّدوا سنا ضيائه بما يزيّد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونورا»، السابق ص ٢٩.

والسيرة موجهة إلى الإنسانية كلها وليس إلى المسلمين وحدهم^(١). فالرسول إنسان. سيرته مثل سيرة معظم أصحاب الدعاوي الكبار. لذلك كانت ترجمتها إلى اللغات الأجنبية خير مدافع عن الإسلام ضد متقديه^(٢). ويمكن أن يقوم تحليل التجربة الإنسانية كبديل عن التحليل اللغوي للآيات القرآنية^(٣). فالزواج من خديجة لحاجة الرسول إلى الأم الحنون، ومن عائشة لحاجته إلى الطفل الأنيس، ومن زينب بنت جحش لحاجته إلى الأنثى. فمحمد إنسان قبل أن يكون نبيا. وهو كثير التركيز على أنه بشر مثل باقي البشر، إنما يوحى إليه فقط.

وتقرأ السيرة من خلال مفهومين يحتاجهما الإنسان المعاصر الحرية والعدالة، الليبرالية والاشتراكية دون وهم التعارض بينهما كما هو الحال في الغرب بين الرأسمالية والشيوعية^(٤). وتتغير الألفاظ والمعنى واحد مثل الإخاء فمحمد كان يسعى إلى الإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي^(٥).

وتستعمل بعض الألفاظ الحديثة المعبرة مثل امبراطورية^(٦). كما تذكر مصطلحات أجنبية أخرى بلغتها الأصلية الفرنسية^(٧). وتستعمل وسائل الدعاية الحديثة لنشر الدعوة الجديدة كما تفعل أساليب الدعاية الحديثة^(٨). وتتكون من التخلص من الأفكار السابقة عن موضوع البحث، والبداية بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم

(١) «من أجل ذلك كان خليقا بكل من يتصدى للبحث في مثل هذا الموضوع أن يترجم به إلى الإنسانية كلها لا إلى المسلمين وحدهم. فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة كما قد يظن بعضهم بل الغاية الصحيحة منه أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال... وإدراك هذه الغاية غير ميسور إذا لم يتد الإنسان إلى هذه السبيل بمنطق عقله ونور قلبه...» السابق ص ٦١.

(٢) قام بذلك المرحوم د. إسحاق القاروقي.

(٣) حياة محمد ص ١٩٤.

(٤) الإسلام والحرية، السابق ص ١٢٦-١٢٧.

(٥) الإخاء أساس الحضارة الإسلامية، إخاء محمد والمسلمين، إخاء وعدل ورحمة، السابق، ص ١٩٥-١٩٦، محمد والإصلاح الاجتماعي ص ٨٧، الاشتراكية الإسلامية لا تلغي التملك إطلاقا، قاعدة اشتراكية مقررة ص ٤٣٨.

(٦) الإمبراطورية الإسلامية الأولى، السابق ص ١٧.

(٧) مثل Psychique، السابق ص ٤٠٤.

(٨) السابق ص ١٣٢-١٣٣/١٤٧-١٤٨.

بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية. وهي الطريقة لتحرير الفكر^(١). وقد لجأ الرسول أيضا إلى سحر البيان باعتباره سلاح دعاية لدى قوم يؤثر فيهم البيان، «وإن من البيان لسحرا»^(٢). وتقل ألفاظ التعظيم والتفخيم إلى الحد الأدنى مثل المدينة المنورة، على الأمكنة وليس على الأشخاص^(٣).

ولما كان التعصب الديني في الغرب تعصبا مسيحيا كثرت المقارنات بين الإسلام والمسيحية اعتمادا على المصادر المسيحية أو رواية القرآن لها، سواء في النشأة أو في العصر الحديث^(٤). فالإسلام لا يفهم إلا في تاريخ الأديان المقارن ومصادره الرئيسية، اليهودية والمسيحية والحنيفية. ولا خير من استعمال بعض المقولات المسيحية مثل الخلاص^(٥). وتصف السيرة باستفاضة الصراع بين الإسلام والمسيحية إلى حد الاقتتال الذي بلغ الذروة في العصور الصليبية وفي الاستعمار الحديث^(٦). ولم تظهر المسيحية فقط في الغرب بل ظهر أيضا الاستعمار والتبشير مما سبب العداء المتبادل بين الإسلام والغرب^(٧).

وبالرغم من أن القضية الفلسطينية كانت في بدايتها كان التركيز على اليهودية أقل من التركيز على المسيحية بالرغم من يهودية بعض المستشرقين. وصراع المسلمين مع

(١) «ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوي. فهذه الطريقة العلمية، تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة لك في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية. فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر»، السابق ص ١٣٢.

(٢) السابق ص ١٤٩.

(٣) السابق ص ١٨٦.

(٤) الإسلام والمسيحية، والمسلمون وعيسى، المسيحيون المتعصبون ومحمد المبادئ الأولى في الدينين، الخلاف بينهما، التوحيد والثلاث، مجادلة النصارى للنبي، مسألة صلب المسيح، الروم والمسلمون، كتاب المسيحية ومحمد، سبب الخصومة بين الإسلام والمسيحية، الجهل والتعصب، المسيحية لا تلائم طبيعة الغرب، حياة محمد ص ١٨-٢٦. المسيحية والمجوسية بيزنطة وارثة رومية، الفرق المسيحية ص ٦٧-٦٨ نشاط المسيحية، المسيحية واليهودية، تناحر الفرق المسيحية ص ٧٧-٧٨.

(٥) السابق ص ١٥٦.

(٦) السابق ص ٢١٢-٢١٣.

(٧) السابق ص ٢٧/٢٩.

اليهودية منذ انتشار الرسالة كان صراعاً بين محمد وسلطة اليهود السياسية حتى انهارت في خيبر^(١). وأسس سلطة جديدة على أساس ديمقراطي وليس على أساس مذهبي أو طائفي أو قبلي^(٢).

ومن علامات الإصلاح عودة الأمة إلى مسارها في التاريخ، والتحول من عبادة الأصنام في الوثنية ومن النصرانية التي حرفت عقائدها واليهودية التي عصبت أنبياءها إلى الإسلام دين الفطرة^(٣). فالإسلام تطور طبيعي لمسار التاريخ في شبه الجزيرة العربية.

وبالرغم من تبني النموذج الليبرالي إلا أنه يُخرق بما لا يتفق مع مبادئه. فكيف لا يخضع العظماء للقانون باسم الليبرالية؟ وكيف يكون التشريع لقمع حرية الرأي له ما يسوغه؟ ولماذا تستثنى من الليبرالية بعض نتائجها وهي الحرية الجنسية وضرورة محاربة محلات العري؟ ولماذا يتضمن الانتساب لليبرالية محاربة البلشفية بالضرورة من الناحية الاقتصادية وبها مبادئ الإخاء والعدالة الاجتماعية وهي مبادئ إسلامية؟ ولماذا استثناء حرية الرأي من النموذج الليبرالي وهي أساسه؟^(٤).

٩- السيرة النضالية:

أ- «محمد رسول الحرية» لعبد الرحمن الشراكوي (١٩٨٧م)^(٥)

وهو نوع أدبي جديد مثل «على هامش السيرة» لطلح حسين. يحول السيرة إلى مجموعة من القصص القصيرة المتتالية، كل منها دراما مستقلة. ومجموعها تمثل دراما عامة هي حياة الرسول أي سيرته. تصور في مواقف إنسانية من أديب اعتماداً على تحليل التجربة

(١) السابق ص ٣١٦-٣٢٢.

(٢) السابق ص ٣٨٥.

(٣) السابق ص ١٢٩.

(٤) السابق ص ٢٦٤-٢٦٥/٢٨٦-٣٨٧.

(٥) عبد الرحمن الشراكوي: محمد رسول الحرية، دار الهلال، القاهرة (د.ت.).

الإنسانية^(١). ونادرا ما يستعمل القرآن أو الحديث أو الشعر، والحديث أكثر^(٢). فلا حاجة إلى حجة نقلية. وهو ليس مكتوبا للمسلمين وحدهم بل للمسلمين ولغير المسلمين. فالإنسان إنسان قبل أن يكون مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، مؤمنا أو كافرا^(٣). هو كتاب محبة أي كتاب وجداني وليس سيرة تاريخية أو مجموعة أحاديث أو مغازي وسير^(٤). يعرض الرسالة من خلال الرسول، والرسالة كجزء من تطور البشرية ويقظة الوعي الإنساني. هي حياة تكشف عن المصير والقدر^(٥). توضع في إطار تاريخ الأديان والأنبياء السابقين^(٦).

يتكون من تسع وعشرين قصة قصيرة. يجمعها خيط واحد، سيرة محمد منذ الميلاد حتى الوفاة^(٧). تتساوى في الكبر دون تركيز على الغزوات. الأسلوب أدبي مشوق. يساعد على الاستمرار في القراءة. ويخاطب الكاتب الشخصية التي يصفها ويعيدها إلى الحياة وفي مقدمتها الرسول وصحابته وبناجيه^(٨). فالغاية التأثير في القارئ وجدانيا. قراءة السيرة مشوقة. فكل قارئ يتحد معها. فهي ليست تاريخا قديما ميتا بل تجربة حية

(١) «أنا لا أقدم كتابا جديدا في السيرة، فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة والحديثة، ولكنني أردت أن أصور قصة إنسان اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم وأحلامهم، وكونت تعاليمه حضارة زاهرة خصبة أغنت وجدان العالم كله لقرون طوال». السابق (كلمة الغلاف).

(٢) الحديث (١١٣)، القرآن (٣٠)، الشعر (١).

(٣) «لسنا في حاجة إلى كتاب جديد عن الدين يقرؤه المسلمون وحدهم ولكننا في حاجة إلى مئات من الكتب عن التطور الذي يمثل الإسلام، كتب يقرؤها المسلمون وغير المسلمين. إنها محاولة أقدمها أولا إلى غير المؤمنين بمحمد راجيا أن يتناول القارئ مهما تكن عقيدته هذا الكتاب بنفس الروح التي كتبه بها»، السابق (ظهر الغلاف).

(٤) إهداء... إلى أبي الذي غرس في قلبي منذ الطفولة حب محمد، السابق ص ٦.

(٥) السابق ص ٧.

(٦) السابق ص ٨.

(٧) هي: ولد الهدى، هذا اليتيم، إلى بيت الطاهرة، قم فأندرت، تلك الليلة من رمضان، طريق الخلاص، عصر العذاب، وبشر الصابرين، إلى بلاد الأعناب، قاتلوا الذين يقاتلونكم، رحلة المصير، نحو العزلة، متاعب جديدة، يوم التقى الجمعان، أول الانتصارات، صراع من الداخل، غنمي العصيان، ولا تنهوا ولا تحزنوا، بدلا من الكراهية، والمتفقون أيضا، نحو معركة فاصلة، وهزم الأحزاب وحده، الصلح خير، تعالوا إلى كلمة سواء، قبل انقضاء المعركة، الفتح المبين، إذ أعجبتكم كثرتكم، نحو أمة واحدة، قال كلمته ومضى.

(٨) السابق ص ٢١/٤٥/٩٤/١١٨/١٨٧.

معاصرة. ومع ذلك يقع أحيانا في النزعة التاريخية. سرد الحوادث بلا دلالة خاصة في الغزوات^(١). لا توجد فيه خلفاء بعد وفاة النبي ولا شياكل وخصائص تشخيصا للرسالة في الرسول.

وهناك أنماط من قصة المسيح وغيره من الأنبياء نسجت عليها حكايات الرسول مثل متابعة الرسول أبيه رافضا دعوة امرأة، كما أخبر المسيح أمه أنه عند أبيه في المعبد بعد أن قلقت عليه^(٢). والرسول ابن الذبيحين. ففي الذهن إبراهيم وإسماعيل أولاً ودخول الرسول المدينة على بغلة مثل دخول المسيح القدس على حمار^(٣). وشهداء المسلمين مثل شهداء المسيحية الأوائل^(٤). ولم تكن ديانات مصر بعيدة، وقتل الكهان هيباثيا الحكيم^(٥). وتبدو الثقافة الغربية في الخلفية الشعورية لكتابة السيرة. فالتاريخ الميلادي وصف مكة كمركز للتجارة في القرن السابع الميلادي^(٦). وعام الفتح مؤرخ بالميلادي^(٧).

ويبدو التحليل الاقتصادي للأوضاع في شبه الجزيرة العربية، مكة مركز القوافل بين الشرق والغرب. كما يحلل أوضاع اليهود وممتلكاتهم وحرفهم التي كانوا بها يسيطرون على جزء كبير من الدخل، الربا، وتجارة الخمور ولحم الخنزير. وهو ما حرمه الإسلام تقويضا لسلطتهم الاقتصادية^(٨). ويظهر التحليل الطبقي للمجتمع المكي، ويتم التركيز على المستضعفين الذين أول ما نصرروا الدعوة الجديدة^(٩). فقد كان يقتلهم الأسياد ويعذبونهم. وكانوا يستغلون الفقراء والعيبد^(١٠). يعاملونهم كقطعان الأغنام. وكان

(١) السابق ص ٢٥٧-٢٦٦.

(٢) السابق ص ٣٢/١٢.

(٣) السابق ص ١٥٢.

(٤) السابق ص ٨٦.

(٥) السابق ص ٥٤.

(٦) السابق ص ١٣.

(٧) عام ٦٣٠ م، السابق ص ٣٠٥.

(٨) السابق ص ١٤.

(٩) السابق ص ١٣٨-١٤٠/١٤٥-١٥٢.

(١٠) السابق ص ١٦/١٩-٢٨/٢٩-٣٨/١٢٠.

الربا مصدر ثروة لأغنياء مكة^(١). والرسول فقير يدافع عن الفقراء، إفراز طبقتة. سمي العبيد موالى أو خدما أو فتيان^(٢). ودافع عن حلف الفضول لنصرة المظلوم على الظالم وأخذ حقه منه^(٣). بدأت الدعوة صراعا بين الأغنياء والفقراء، بين السادة والعبيد، بين الأشراف والمستضعفين^(٤).

أتى الرسول بدين اجتماعي يساوي بين الناس^(٥). كان يريد تقريب الفوارق بين الطبقات^(٦). يشاركون في الماء والكلأ والنار أي في الزراعة والصناعة^(٧). والعمل مصدر القيمة. فمن يعمل لإطعام آخر أعبد ممن يعبد الله في مسجد. يرفض الاحتكار^(٨). ورسالة الإسلام هي الحرية والمساواة^(٩).

وتظهر الدعوة الجديدة وسط الدعوات المتشابهة عند الشعراء والكهان والرهبان. فقد كانت الحاجة إليها قد نضجت. والعرب يبحثون عن طريق للخلاص^(١٠). وربما

(١) السابق ص ٣٩.

(٢) مثل زيد بن حارثة ص ٥٢/٦٢.

(٣) السابق ص ٥٥.

(٤) السابق ص ٨١، يقود الأغنياء أبي لهبة بو سفيان ص ٨٥.

(٥) «من يسر على معسر في الدنيا يسر عليه في الدنيا والآخرة»، الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، «من يفرج عن معسر تستجاب دعوته وتفرج كربته»، رسول الحرية ص ١٦١، «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالقاتل بالليل الصائم بالنهار»، السابق ص ٢٢٩.

(٦) «كان يريد أن يقرب الفوارق بين الأغنياء والفقراء فلا يصحح المال للأغنياء وحدهم» «وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذوي القربى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»، السابق ص ٢٤٣.

(٧) «الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»، السابق ص ٢٨٢، «ما آمن بي من بات شبعان وجاءه طاو» ص ٢٩٠ «أي رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله»، «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له»، «من كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له فلا حق لأحد منهم في فضل»، «من أصبح لا يهتم بآمر المسلمين فليس منهم»، السابق ص ٢٩١.

(٨) «المحتكر ملعون»، السابق ص ٣٤٣.

(٩) السابق ص ٣٥٢.

(١٠) السابق ص ١٦/٢٢/٢٩ ومنهم ورقة بن نوفل، عبد الله بن جحش، عثمان بن الحويرث، زيد بن عمرو ص ٣٤-٣٧. لذلك قال الرسول «زيد بن عمرو كان أمة واحدة» ص ٣٨. ومنهم أبو بكر ص ٤٧-٤٩، وخالد بن سنان ص ٥٠. قال الرسول لخديجة «يا خديجة، لقد خشيت أن أكون كاهنا أو يكون بن جن»، ص ٦٤-٦٥.

هو دين إبراهيم، الحنيفية. والملائكة والجن من عقائد العرب. كان الرسول يحلم بأن يعيش في عالم أفضل. تكشف عن الدين الطبيعي وحياة الفطرة مثل رفض ذبح الابن وإلا لما بقي من البشرية أحد^(١). ورفض البعض عبادة الأصنام وظلم الآلهة^(٢). وكان بعض الشيوخ يرفضون الخمر وواد البنات^(٣). ولا تحتاج السيرة إلى معجزات، شق الصدر في الطفولة مرة أو مرتين أو نزول الحجر الأسود من السماء^(٤). ويظهر الرسول إنسانا بشرا لا يجب الإطراء «لا تطروني»^(٥).

وظهر الإسلام على أنه دين قومي للعرب. يوحدهم ويحررهم من سيطرة الفرس شرقا والروم شمالا. فمكة لا تدين للملك^(٦). ويُعبر عن ذلك حتى بلغة الغزو والغنائم. ويظهر لفظ الوطن والمواطنين^(٧). كما يظهر لفظ الدولة^(٨). وتظهر الرسالة في آخر عنوانين «الناس أمة واحدة»، «قال كلمة ومضى»^(٩). ووحدة الدين هو الطريق إلى وحدة الوطن^(١٠).

(١) السابق ص ٩.

(٢) مثل أمة بن أبي الصلت، السابق ص ٢٩ / ٥٠.

(٣) السابق ص ٦٣ / ٧٦.

(٤) السابق ص ٥٦.

(٥) السابق ص ١٥٦ «هون عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في مكة»، السابق ص ٢١٣، «إنما أنا بشر مثلكم»، ص ٣٤٦-٣٤٧، «يا أيها الناس لا ترقعوني فوق مكاني، لا تطروني، إنما أنا بشر مثلكم، وإنني لأكره أن أتميز عليكم»، ص ٣٤٥.

(٦) السابق ص ٣٥، «لو أنه وجد قوما ينصرونه ويؤيدونه فمن الممكن أن تتحرر هذه الجزيرة كلها من سيطرة الأغراب، ويصبح العرب كلهم أمة واحدة. يؤمنون بنفس الأشياء، ويفرضون وجودهم ومستقبلهم على الأكاسرة والقيصرة»، «أرايتم أن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يؤتكم الله أرضهم وأمواهم ويفرشكم نساءهم»، السابق ص ١٢٥.

(٧) «سته أعوام بأسرها لم ير خلاها أرض الوطن... لم يتصل بينه وبين مواطنيه في مكة»، «هذا»، الغريان الصغيران (الحسن والحسين) ولدا ونقلا أول الخطوات بعيدا عن أرض الوطن»، السبع ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٨) «وضم الهدايا إلى خزانة الدولة»، السابق ص ٢٨٨.

(٩) السابق ص ٣٢٨-٢٥٤.

(١٠) «لا يبقى في الجزيرة دينان»، السابق ص ٣٤٩، «وقهروا كل الحاميات الرومانية. وحرروا القبائل العربية هناك من حكم الرومان. وأعلنت تلك القبائل إسلامها»، السابق ص ٣٣٧.

ب - «محمد الثائر الأعظم» لفتحي رضوان (١٩٨٨م)^(١)

وهو الطبعة الثانية من «محمد» مع مقدمة جديدة حول دور الدين في تطور المجتمعات. تشمل ثلاثة موضوعات: حاجة الناس إلى الدين، كيف نشأ الدين، الدين ثورة وكفاح^(٢). وتضاف خاتمة جديدة تشمل الوحي والرسالة سلاح الحب، هجرتان، صحابة الرسول، الشباب المقدس^(٣). والموضوعان الرئيسيان اللذان في الطبعتين الأولى والثانية: «ما أطيبك ميتاً»، و«ما أطيبك حياً»^(٤). والكتاب تفسير صغير لهاتين العبارتين ولما تثيره في النفس من خواطر حول الدين وطبيعة التدين^(٥). فالإنسان في حاجة إلى التدين لرفع معنوياته ومساعدته على التقدم. وهو ما صرح به نهرو أيضاً في سيرته الذاتية. واعترف بذلك باحثون غربيون. إنها العيب في السلطة الدينية كالكنيسة وفي رجال الدين. لذلك فشلت الكنيسة في الغرب وثار المفكرون الأحرار عليها. وكما يحيل إلى بعض الكتاب الغربيين يستشهد أيضاً بسيد قطب في «معركة الإسلام والرأسمالية» على دور الدين في نهضة الأمم^(٦). لم ينشأ الدين بدافع الخوف كما يقول بعض العلماء الغربيين أو من عجز اللغة وضرورة استعمال المجاز أو من المحرمات. إنها الدين ثورة وكفاح ضد الحكومة الدينية، والتزام بقضايا الحياة دون القعود عنها^(٧). لذلك كره الشيوعيون الدين لأنه أفيون الشعوب، وإحدى وسائل الاستغلال. الإنسان في حاجة إلى قوة تساعد على تحقيق مصالحه. يجدها في الدين. فالدين إحدى ضرورات الحياة، أشبه بالالتزام السياسي. والمؤلف مفكر وطني من أبناء ثورة ١٩١٩. يأخذ لحظات من تاريخ الرسول ويتفعل بها ويعبر عنها على نحو إنساني، بلا عقائد أو عبادات. لذلك يسهل ضم «محمد الثائر الأعظم» إلى السيرة الأدبية أيضاً. يعتمد على القرآن والحديث والشعر، والحديث أكثر.

(١) فتحي رضوان: محمد الثائر الأعظم، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

(٢) السابق ص ٩-٦٨.

(٣) السابق ص ١١١-١٨٦.

(٤) السابق ص ٦٩-١١٠.

(٥) السابق ص ٧.

(٦) السابق ص ٢٣.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، السابق ص ٥١-٥٢.

هي رؤية عصرية للسيرة، الرسول في خضم معاركه ضد القوى المضادة. وقد كان في الأصل رسالة ماجستير بديلة قدمت لآداب القاهرة عام ١٩٤٢م بعنوان «جدل القرآن» بدلا من رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» تحت إشراف أمين الخولي والتي رفضتها السلطات الجامعية التي كانت ترى أن النص تطابقه أشياء، ويفسر حرفيا طبقا للمحافظين وليس نصا بلاغيا يعتمد على الصورة الفنية والتمثيل وفن القصص وهي فنون البلاغة العربية. ويحال أحيانا إلى الرسالة الأولى^(٢). وتغيرت مواقع فصول الكتاب والعرض وأسلوب تناول^(٣). كما تغير محور العصر من الاهتمام بالحقائق العلمية إلى الاهتمام بالحقائق الاجتماعية. فتغير العنوان يدل على وعي اجتماعي أكثر عند المؤلف وعلى ازدواجية روح الأربعينيات، الثورة الأدبية والثورة الاجتماعية. نشر في السبعينيات في نهاية العصر القومي الاشتراكي. وهي قراءة عصرية حديثة للسيرة تكشف عن الأوضاع الاجتماعية للعصر وتطلعه نحو الوحدة والاشتراكية والوحدة. تنظر إلى السيرة كصراع اجتماعي بين قوتين اجتماعيتين، التقدم التي تمثلها النبوة والبيئة الجاهلية التي تمثل التخلف^(٤).

ويتضمن الكتاب ثلاثة أقسام. الأول «مشكلات ثلاث»: النبوة والتوحيد والبعث. وهي مشكلات عقائدية تقليدية كانت مهمة في عصرها في الحوار، موضع خلاف.

(١) الدكتور محمد أحمد خلف الله: محمد والقوى المضادة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣م.

(٢) السابق ص ٣٠٧/٣٤٧.

(٣) «هذا الكتاب هو البحث الذي قدمته لكلية الآداب لنيل درجة الماجستير، ونلت به الدرجة المذكورة برتبة الامتياز من مرتبة الشرف من الطبقة الأولى. وكان ذلك في عام ١٩٤٢. وهأنذا أقدمه للناس بعد ثلاثين عاما من كتابته. لقد حدث فيه تغيير طفيف. لقد كان اسمه «جدل القرآن». وهأنذا أقدمه للناس تحت اسم جديد هو «محمد والقوى المضادة». إن المعنى واحد، فالقوى المضادة ليست إلا الطرف الثاني في الجدل. إنهم الذين كانوا يجادلون محمدا عليه الصلاة والسلام. والسر في تغيير العنوان هو أن العنوان الجديد أبقى لهذا العصر الذي نعيش فيه، ذلك العصر الذي يعني بالقوى البشرية عنائه بالحقائق العلمية. إن العنوان الأول يحقق قيمة منطقية أو فلسفية. والعنوان التالي يحقق قيمة اجتماعية في عصر تعني فيه كل العناية بالظواهر الاجتماعية والقوى البشرية»، السابق ص ٧.

(٤) السابق ص ٦١.

وقد استقرت الآن. ولم يعد أحد يشك أو يشكك فيها. لذلك قد تتغير موضوعات الحوار إذا أخذ المنهج القرآني ليطبق في عصر آخر^(١). والنبوة بالمعنى الحديث هي القيادة الشعبية. وهي اختيار إلهي أكثر منها تلبية لواقع تاريخي بالرغم من التفسير الواقعي الاجتماعي التاريخي^(٢). ومع ذلك يظهر التفسير الواقعي الاجتماعي التاريخي بين الحين والآخر. فالدعوة لها بعد اجتماعي^(٣). وهو القضاء على المجتمع القبلي القائم على الحرب، غالب ومغلوب إلى مجتمع موحد إنساني. والذين يعتقدون بالشفاعات هم أصحاب الامتيازات الطبقية^(٤). وليست المعجزات دليلا على صدق النبوة لا يعتمد النبي على معجزة بل على قدرته لتحقيق الصالح العام^(٥). مهمتها القضاء على النفوذ والسلطان للقيادات الحديثة والدينية في المجتمع العربي عامة والمكي خاصة^(٦). فالقوى المدنية نسبية زائلة، بالرغم من فتنتها للناس «لا قيمة لها عند الله». والقوى الدينية يؤمن الناس بها ويمتزلتها الخاصة وقدرتهم على توجيه حياة الناس. والنبوة بنت عصرها. والنبي ابن ظروفه، اليتيم والفقر، والرجولة بنت الطفولة^(٧). تظهر لأبناء الكادحين وعن يولدون في الأزقة والحارات^(٨). فالناس سواء في إمكانية النبوة واستعمال المنطق والحجة لا بسلطة القوة والقانون. ليسوا من قوم بعينهم كبنو إسرائيل.

والثاني في الفرقاء في الجدل والحوار هم المنافقون وأهل الكتاب وهو أصغر الأقسام. المنافقون من داخل الدين، والمشركون من خارج الدين، وأهل الكتاب من خارج الإسلام. وتتفاوت درجات العداوة. الأولى المنافقون، والثانية اليهود، والثالثة المشركون، والرابعة النصارى أقلهم^(٩).

(١) السابق ص ١٣-١١٧.

(٢) السابق ص ١٠٧/٧٥/٥.

(٣) «إن هذه الآيات القرآنية تدعو إلى إحداث تغيرات جذرية في الكيانات الاجتماعية، التي يقوم عليها أساس النظام العشائري أو القبلي»، السابق ص ٧٥.

(٤) السابق ص ٩٩.

(٥) السابق ص ١٥-١٧.

(٦) السابق ص ٥٣-٦٧.

(٧) «أما أبناء الكادحين ممن يولدون في الأزقة والحارات أو على رمال الصحراء أو في أية بيئة شعبية فليس من منطق التاريخ أن يعنى بهم وينظر إليهم على أنهم أهل لرعايته وعمل لاهتمامه»، السابق ص ١٤.

(٨) السابق ص ٤٤-٤٦.

(٩) السابق ص ١٢١-١٥٦.

والثالث الغايات والوسائل وهو أكبر الأقسام، وسائل المشركين، ووسائل أهل الكتاب، ووسائل الرسول الدينية والعلمية والأدبية^(١). ومنها الجهاد والاستنفار^(٢). وأهم الوسائل الظواهر الاجتماعية أو التجربة التاريخية أي سنن الله في خلقه. فهذا الكون يجري على سنن مضطردة منها نهاية المعارضة للحق وانتصار الحق على الباطل. فهو مشاهد بالتجربة والاختبار. وثبت بالاستقراء، تعلم الإنسان الشئون العامة^(٣).

والموضوع ليس الرسالة ولا الرسول بل القرآن، الرابط بينهما وكيفية الحوار مع الخصوم. فالقرآن يحاور الخصوم أقرب إلى الرسالة من الرسول^(٤). ومع ذلك فالقرآن يركز على الرسول أيضاً، ليس فقط بشخصه بل برسائله وضرورية طاعته. ويعتمد على ثقافة البطل في الثقافة العربية. ومع ذلك فالقرآن ليس سيرة للرسول بل وصفا لبداية الرسالة وتطورها واكتمالها^(٥).

تكتب السيرة أولاً كمقدمة^(٦). وأهم علامتين في الطفولة اليتيم ورعي الغنم والاشتغال بالتجارة^(٧). فالتبوة دفاع عن اليتامى وأقربهم. ورعي الغنم رعاية أمة^(٨). ومازال التشخيص في الرسول «محمد والقوى المضادة» مع أن العنوان الأول «جدل القرآن» كان يحقق وحدة الرسالة والرسول. والرسول ليس إلهاً ولا ملاكاً ولا روحاً خفية ولا هو بشر مؤيد بالآيات والمعجزات بل هو بشر مثل باقي البشر^(٩). يأكل الطعام ويمشي في الأسواق^(١٠). وتكتب سيرة الرسول طبقاً لمراحل حياته من الطفولة

(١) السابق ص ١٦١-٣٤٨.

(٢) «لا هجرة بعد الفتح لكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»، السابق ص ٢٠٣.

(٣) السابق ص ٢٨٩-٣٠٧.

(٤) السابق ص ١٦٢.

(٥) السابق ص ١٥.

(٦) السابق ص ١٦.

(٧) «ما من نبي إلا ورعي الغنم»، السابق ص ٢١.

(٨) «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته. وكلكم راع ومسئول عن رعيته»، السابق ص ٢٢.

(٩) السابق ص ٣٤-٣٦.

(١٠) ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا، أَوْ

إلى الشباب إلى اكتمال الرجولة طبقا للتخطيط الأول لابن إسحق وابن هشام. وهو التاريخ المختار لكتابة السير الذاتية عند علماء النفس خاصة علم النفس التربوي^(١).

وقد يقال إن العنوان القديم به لفظ «جدل» أو الجديد به تعبير «القوى المضادة» يوحي بالانتساب إلى أيديولوجية معينة مثل الماركسية التي تبرز أهمية الجدل الاجتماعي. وهو غير صحيح فلم تذكر الماركسية بل ذكرت الرأسمالية. كما أن الجدل أو القوى المضادة لا يحتاجان إلى الماركسية لإدراكهما لواقع في المجتمعات. ويتميز برؤية اجتماعية اشتراكية بحديثه عن الكادحين^(٢). فهذا هو قانون التاريخ^(٣). وتظهر المصطلحات الاجتماعية التي تدل على الانتساب الاجتماعي مثل اليتيم ودلالة كون الرسول يتيما. والقصة مع المعارضة موجودة في كل مكان لدى كل أصحاب الدعوات الجديدة، سنة الله في الخلق، في الماضي والحاضر، دينيا أم دنيويا^(٤). وتفسر الأخلاق على أسس تجارية في المكسب والخسارة. وتظهر مصطلحات الاقتصاد مثل «رأس المال». وقد وثق أصحاب رأس المال بالدين الجديد وفي تصور آخر عارضوه لأنه ألب عليهم العبيد^(٥). وكان

يُلْقَى إِلَيْهِ كَثْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا، انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا، تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْمَعُ لَكَ فِيهَا كُلَّ صُورَةٍ، ﴿٤٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، ﴿٤١﴾

ص ٤٠-٤١.

(١) السابق ص ١٤-١٥.

(٢) «أما أبناء الكادحين ممن يولدون في الأزقة والحارات أو على رمال الصحراء أو في أي بيئة شعبية وليس من منطق التاريخ أن يعنى بهم وينظر إليهم على أنهم أهل لرعايته وكل لاهتمامه»، السابق ص ١٤.

(٣) «التاريخ أنا يترك هؤلاء ونشأتهم، ويدعهم يضيعون في زحمة الحياة ظنا منه بأنه لن يكون بينه وبينهم أي لقاء، ولكن هؤلاء قد يجربون التاريخ على العناية بهم، ويدفعونه راضيا أو كارها إلى تسجيل كل وقائع حياتهم»، السابق ص ١٤.

(٤) «لقد عرف عليه السلام ببعض الخصائص التي أكسبته ثقة الناس بما فيهم أصحاب رؤوس الأموال»، السابق ص ٣٣.

(٥) «هذه هي قصة محمد عليه السلام مع القوى المضادة. وهي قصة توجد في كل زمان وفي كل مكان. توجد هذه القصة كلما دعا الدعاة الصادقون العاملون في سبيل الصالح العام، المدركون لما في المجتمع الذي يعيشون فيه من فساد، والعاملون بإخلاص بالسبل الموصلة إلى التخلص من هذا الفساد، والمحققة للحياة الأفضل في هذا المجتمع. إنها توجد كلما كانت هناك مرحلة حضارية جديدة تستلزم تغيرات جذرية وتستهدف غايات كبرى أهمها أن يعيش الناس في يسر ورخاء، وأن يمارسوا الحياة اليومية على أسس من قيم أخلاقية ودينية. وهذا الذي صورناه من موقف محمد بن عبد الله عليه السلام من المعارضة ليس إلا

أهل الكتاب من سكان المدينة من الطبقة الرأسمالية وهي طبعة الأقليات النشطة^(١). وجاءت الدعوة للقضاء على النفوذ والسلطان للقيادات الدينية والمدينة في المجتمع العربي بوجه عام، والمكي بوجه خاص^(٢). لذلك عادت الدعوة الجديدة المؤسسات الدينية، علماء الدين من الأحرار والرهبان والقساوسة والكهان والمؤسسات الرأسمالية من الأغنياء الأقوياء من التجار^(٣). وما يمنع الإنسان من قبول الأفكار الجديدة الثروة الطائلة والغنى الفاحش والقوة المفرطة وسلطان العادات والتقاليد^(٤).

وتوضع الدعوة في خضم الصراع التاريخي بين القديم والجديد دفاعاً عن الجديد ضد القديم^(٥). للرسالة غايات بالرغم من المعارضة. وهي غايات اجتماعية أو الإصلاح، الإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، الأسرة والأمة والأخوة والحرية، والإصلاح السياسي في مسائل الأمن والخوف والحرب والسلام، وعلاقة المسلمين بغيرهم، والسياسة الدولية، والإصلاح المالي، أحوال الفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل، وتقديم دين يقوم على الفطرة والعلم والحكمة والحجة والبرهان، والحرية في الاستدلال وتحطى الرجعية وتضرب التقليد^(٦). ويواكب التغير الاجتماعي التغير الثقافي. وقد يخرج الصراع من حالة الحوار إلى حالة الحرب^(٧). فليس الصراع سلمياً دائماً.

سنة الله في خلقه، ليس إلا الظواهر الاجتماعية التي تحدث مع كل قائد روحي عظيم في كل مكان تهيأت له فيه القيادة، وكانت التغيرات الجذرية ضرورة حياة. وما أشبه الليلة بالبارحة. فما نحن فيه اليوم ليس إلا مرحلة تغيرات جذرية في المجتمعات العربية. وما أعرضه اليوم من قصة لمحمد بن عبد الله عليه السلام من المعارضة ليس إلا التراث التاريخي المقدس الذي يجب أن نستلهمه في هذا المقام. إنه الصورة الصادقة للكيفية التي تمر فيها الدعوة الجديدة منذ أن تبدأ حركة سرية إلى أن تصبح حقيقة قائمة تشاهد بالعيان، ويؤمن بها كل إنسان^(٨)، السابق ص ٣٤٩-٣٥٠.

(١) «ولقد كان أهل الكتاب من سكان المدينة من الطبقة الرأسمالية أيضاً»، السابق ص ٢٢٩.

(٢) السابق ص ٥٣.

(٣) السابق ص ٢٩٨.

(٤) السابق ص ١٤١-١٤٥.

(٥) «وانتصار الجديد على القديم، الجديد الذي يحقق الصالح العام على القديم الذي أصبح غير صالح للحياة سنة أخرى من سنن الله في خلقه. ولا يكون إلا بعد جهد ومشقة وبأس ومعاناة»، السابق ص ٣٠٥.

(٦) السابق ص ١٦٢-١٦٤.

(٧) السابق ص ٢٣٨ «كان لابد من الحرب للقضاء على هذه الصراعات القائمة في أرض الجزيرة»، السابق ص ٢٤١.

ويتسبب المؤلف إلى المدرسة الإصلاحية، الأفغاني ومحمد عبده ورشيد طه. ويعطي للأخيرين لقييها، الأستاذ الإمام، وصاحب المنار^(١). ويستعمل أيضا منهج النص. ويستشهد بأقوالهما ليبين استمرار المدرسة وعدم انقطاعها في مواجهة الاتجاهات المحافظة. ويشار إلى تفسير المنار^(٢).

هي قراءة عصرية للسيرة لما كان الصراع من حولنا وفي داخل أوطاننا وفي داخل أنفسنا^(٣). ولما كانت الحرية مطمع العصر فقد أتت الرسالة لتحرر الإنسان والبشر^(٤). ولا حرج من قراءة سياسية للسيرة في عصر تدعي فيه نظم الحكم أنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. هناك ثوابت ومتغيرات في الدين. وإعطاء الأولوية للثوابت على المتغيرات تقليد وتزمت. وإطلاق الأولوية للمتغيرات على الثوابت كرد فعل تحرر. الثوابت المبادئ العامة التي تسمى العقائد وهي ثلاثة التوحيد، والبعث، والعمل الصالح. والخلق متضمن في البعث. وما دون ذلك فمن المتغيرات^(٥). ويتم التعبير عن السيرة بمصطلحات الفكر السياسي الحديث. فالهجرة هو اللجوء السياسي^(٦).

وبالرغم من طابعه التقدمي إلا أن الكتاب مازال تقليديا في جوهره، كاتبه شيخ ودرعني. الغاية منه الوعظ والإرشاد، وبيان حسن منطق القرآن، وتهافت منطق الخصوم. ويغيب الحس النقدي أحيانا في الموقف من الشفاعة. ويكتفى بوصف تحولها

(١) محمد عبده، السابق ص ٢٠ / ٢٥ / ٤٨ / ٨٢ / ١٤٨ / ١٥٠ / ١٦٥ - ١٦٦ / ١٩٨ - ١٩٩ / ٢٢١ / ٢٢٣ / ٢٣٣ / ٢٣٥ / ٢٤٤ - ٢٤٥ / ٢٨١ / ٢٩٠ / ٢٩٥ / ٣٠٤ / ٣٠٦، رشيد رضا، السابق ص ٢١. ٦١ / ٢٤٢ / ٢١٩.

(٢) السابق ص ٢٨٤ - ٢٩٠.

(٣) السابق ص ١٧٤.

(٤) والمعنى بتعبير هذا العصر: ويكون الدين حرا أي يكون الناس أحرارًا في الدين لا يكره أحد على تركه إكراهًا ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيبًا، السابق ص ٢٤١.

(٥) السابق ص ٢٦١ أما غير هذه الثلاثة فيصح فيه الاختلاف، ويقع فيه التغير والتبدل من حيث إنه مرتبط بحياة الجماعة ونحن نعلم جميعا أن المجتمعات في حالات تغير مستمرة. والمولى سبحانه وتعالى قد أحدث تغيرات في الأديان المتعاقبة. ومنها تغيرات وقعت في ميدان العبادات وفي ميدان الحلال والحرام، السابق ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٦) السابق ص ١٩٥ - ٢٠٣.

من الآلهة المتعددة إلى الإله الواحد^(١). وهناك موقف المعتزلة القدماء أكثر تقدما في نقد الشفاعة والبشارة دفاعا عن قانون الاستحقاق.

وبالرغم من المنهج الإصلاحي التجديدي إلا أن منهج النص هو الغالب، النص يتحدث عن نفسه دون ما حاجة إلى تحليله لغويا أو معنويا أو سياقيا اجتماعيا فيما يتعلق بأسباب النزول. وأحيانا يطول النص فيتقطع كل جزء على سطر مع ألفاظ «قل»، «قال» لبيان منطق الجدل في القرآن. وتتوالى الآيات تباعا، واحدة تلو الأخرى كما هو الحال في المؤلفات السلفية مثل ابن تيمية دون تنظير. فالنص كاف ومكتف بذاته^(٢). في كل مشكلة تبدأ بآيات القرآن وكأنها موضوع، وآيات طويلة وكأنها مستفادة من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. يبدأ بالقرآن كمسلمة دون تأسيسها في العقل أو في الواقع أولا. لذلك يغيب أحيانا الجانب العلمي العقلي التاريخي. وتبدو الدراسة وكأنها مجرد شرح لنصوص. ويغلب القرآن على الحديث. ويغيب الشعر^(٣). في القرآن حياة محمد وسجل لمعاركه. والحديث لا يمكن استعماله لأنه لا تكتب سيرة من أقوال صاحبها. فذلك وقوع في الدور. وقد يكون المنهج النصي جزءا من آليات التخفي كدرع لحماية المؤلف من اتهام المجتمعات المحافظة بالتكفير كما حدث في «الفن القصصي» هو وأستاذه. وتعتمد السيرة على كتب التفسير مادامت تعتمد على المنهج النصي، وعلم التفسير هو الموكول به تفسير النصوص. فيحال إلى الزنجشري صاحب الكشف والرازي والقرطبي وصاحب فتح البيان^(٤). وأحيانا يحال إلى مجموع المفسرين على العموم^(٥). ويجمع كتاب السيرة من المفسرين. ويحضر الموروث ولكن على نحو خافت مثل إخوان الصفا باستثناء المفسرين^(٦). وبالإضافة إلى المنهج اللغوي البلاغي يضاف المنهج النفسي في تحليل عواطف الأطراف في الجدل أو في الحوار. وهو ما يسمى

(١) «وأثبت القرآن الكريم أن الشفاعة لله جميعا. ولا يشفع عنده أحد إلا بعد إذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له، ص ٨٥-٨٩، السابق ص ٨٥-٨٩.

(٢) الآيات حوالي ألفين، والحديث ثلاث مرات والشعر مرة واحدة.

(٣) محمد والقوى المضادة ص ٢٩-٣٠ / ٨٧-٨٨ / ١٢٤ / ٢٨٥-٢٨٧ / ٣٢٥-٣٢٦.

(٤) السابق، الرازي ص ٣٤ / ٤١ / ٣١٤ / ٣٢٥ / ٣٣٩، الزنجشري ص ٣١٥ / ٣٣٩، الطبري ص ٣٦ / ٤٨ / ٣١٧، القرطبي ص ٣٤٤، صاحب فتح البيان ص ٣٤٣.

(٥) السابق ص ١١٥ / ١٨٨.

(٦) السابق ص ١٤٠ / ٢١٥.

في المناهج الحديثة المنهج اللغوي النفسي أو النفسي اللغوي^(١). فالخوف له بعد نفسي^(٢).
يحلل القرآن الانفعالات، ويصف الطبيعة البشرية. الخوف مع التخويف، والوعد مع
الوعيد، والاستسلام لشواهد الحس، والسيادة أو السيطرة والتهكم والتفجير، وإثارة
الانفعالات السارة أو المؤلمة، والتوكيد والتكرار، واستعمال القصة وضرب المثل^(٣).

ولا يظهر الوافد الغربي ظهوراً مباشراً إلا نادراً في موضوع واحد وهو التفسير
النفسي للشخصية، والاعتماد على التحليلات النفسية، والكشف عن البواعث والدوافع
في السلوك الإنساني اعتماداً على جوستاف لابون (لوبون). فمن العوامل النفسية المؤثرة
في السلوك الإنساني المصلحة الشخصية، والحسد، والغضب والكبر أو الاستكبار
والعناد. كما يحلل أثر الانفعالات السارة أو المؤلمة والأساليب النفسية في الإقناع مثل
التوكيد والإقناع وضرب المثل والقصة. وهي موضوعات الفن القصصي في القرآن
الكريم. وصلة العواطف والانفعالات بالأفكار صلة قوية. وهناك عالم الغرائز عند
ماكدوجال ومنها غريزة التدين التي تقوم على ثلاث غرائز أخرى الإعجاب والرعب
والاحترام^(٤). ويقارن الإسلام بالبروتستانتية^(٥).

و يخاطب الكاتب القارئ لإبلاغه الرسالة مباشرة^(٦). وأحياناً يتحول التحليل العلمي
إلى خطابة ووعظ^(٧). كما يتحول إلى شعارات ومبادئ أخلاقية وتوصيات وتمنيات^(٨).

(١) Psycho-linguistic.

(٢) والقرآن يصور من هذه الظواهر النفسية (الخوف) الشيء الكثير، السابق ص ٣١٢ / ٣٣٨، «لقد سجل
القرآن الكريم كل شيء حتى هذه الخواطر التي عمل القرآن نفسه على القضاء عليها وهي لا تزال في
المهد»، السابق ص ١.

(٣) السابق ص ٣١٢-٣٤٨.

(٤) السابق ١٤٦-١٥٦ / ٢٣٢ / ٢٣٣ / ٣٤٨.

(٥) السابق ص ٣٠٩ «ومن الغلو في هذه المسألة نبتت مسألة الإصلاح الديني، إذ قام البروتستانت وقالوا:
هلم بنا نترك هؤلاء الأرباب من دون الله ونأخذ الدين من كتابه ولا نشرك معه في ذلك قول أحد»، السابق
ص ١٦٦.

(٦) «ثم انظر إلى قوله تعالى...»، السابق ص ٣٣٨.

(٧) «إنها دعوة إنسانية، وما أحوج الناس إلى تحقيق هذه الدعوة اليوم قبل الغد»، السابق ص ٨٤.

(٨) «إن القوة بدون عدل ظلم، وأن العدل بدون قوة عجز، ولا بد من العمل على أن يصبح العادل قوياً،
والقوي عادلاً»، السابق ص ١١٦ «إن ما نراه في حياتنا الدنيا ليس إلا القوة التي تفوق حاجة العدل، وإلا

١٠ - السيرة النقدية التاريخية:

أ - «فترة التكوين في حياة الصادق الأمين» لخليل عبد الكريم (٢٠٠٢)^(١)

ومن ضمن السير الحديثة مع السير الحضارية الشاملة، والسيرة الأدبية، والسيرة الليبرالية، والسيرة النضالية هناك السيرة النقدية التاريخية التي تعتمد على نقد الروايات والمصادر التاريخية القديمة لتكشف عن الدوافع وراء روايتها من أجل تكوين تاريخ مصطنع كما هو الحال في معظم روايات الكتب المقدسة السابقة، التوراة والإنجيل. فالتاريخ عمل إنساني، وصياغات من صنع الخيال أو تدوين من أجل تحقيق أهداف سياسية. لذلك يكثر ذكر المصادر في كل فصل وفي آخر الكتاب. فلا سيرة دون تاريخ. ولا تاريخ دون نقد للمصادر. بل أحيانا تتم المغالاة في نقد المصادر بحيث تصبح السيرة نتيجة لها وليست علما مستقلا بذاته^(٢).

والمنهج النقدي التاريخي لا يهدف فقط إلى نقد المصادر بل أيضا بيان مراحل التطور أو «فترة التكوين» في حياة «الصادق الأمين» كما يدل على ذلك العنوان. فالتكوين في مرحلة الشباب قبل البعثة والرسول في سن الخامسة عشرة حتى سن الأربعين دون ولادة ورضاعة، ودون رعي أو تجارة، ودون هجرة أو غزوة، ودون فتح أو موت، تضخمت خمسة وعشرون عاما على حساب باقي مراحل السيرة. وكان يمكن للأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام أن تساعد على كشف بداية السيرة وردها إلى التاريخ. ويتضح ذلك من الفصل السادس بعنوان

العدل الذي لا يزال دون القوة المستمرة في عارسة الحياة. وأما أنه السراج المنير فلأنه الذي يهدي الناس بأقواله وأعماله إلى الطريق المستقيم. إنه كالضوء الذي يبتدي الناس به في ظلمات الحياة. لقد جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. وهذا يكفي في الحديث عنه على أنه السراج المنير، السابق ص ١١٦-١١٧.

(١) خليل عبد الكريم: فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ٢٠٠١.

(٢) فترة التكوين هوامش الفصول، ص ٣١-٣٢/٧٩-٨٥/١٠٤-١٠٦/١٠٦-١٠٦/١٦٥-١٩٧-٢٠٢/٢٦٥-٢٧١/٣٩٦-٤١١، آخر الكتاب ص ٤١٣-٤١٩.

«أطوار التجربة الكبرى»^(١). وكما ركزت بعض سير القدماء على المغازي والسير أو على المعجزات أو على الوفاة تركز هذه السيرة على فترة التكوين من الصبا إلى ما قبل البعثة خمسة وعشرين عاما. تحلل السيرة في العمق وليس في السطح، طوليا وليس عرضيا، جزئيا وليس كليا. وقد كثر الاعتماد على نقد نصوص التوراة والإنجيل، وهو شائع في الثقافة الغربية منذ عصر النهضة حتى الآن على مدى خمسة قرون. والتشابه في المصادر بين الكتب المقدسة السابقة ومصادر السيرة، القرآن والحديث، يدل على التواصل بين مراحل الوحي، السابقة واللاحقة. وليس الانقطاع على ما يدعو كتاب السيرة القدماء بين الجاهلية والإسلام، بين الشرك والتوحيد، بين الانحراف والصدق. والسؤال هو: هل الكتب المقدسة السابقة، التوراة والإنجيل، مصادر للسيرة، أم أن القرآن والحديث مصدران للتعرف على اليهودية والنصرانية قبل أن يصيها التحريف؟

ويعتمد منهج النقد التاريخي على عديد من العلوم الإنسانية: التاريخ والسياسة والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس. فالظاهرة الإنسانية ظاهرة مركبة وليست بسيطة. تتداخل فيها عوامل إنسانية عديدة وليس عاملا واحدا. الخطورة هو رد الظاهرة إلى عامل إنساني واحد أو إعطائه الأولوية على باقي العوامل مثل علاقة محمد بخديجة، أو خديجة بابن عمها ورقة أو علاقاته النسائية بوجه عام خاصة عائشة أو مركزية قريش أو طرق التجارة، وتطويله والتفصيل فيه. فيرد الكل إلى أحد أجزائه. والمنهج التاريخي التحليلي اللغوي هو أيضا منهج عقلي ولكنه قائم على العقل التاريخي وليس العقل النظري الخالص بمقاييسه في البدهة والاتساق.

ويمثل النقد التاريخي للمصادر شجاعة أدبية وفكرية لم تعود عليها الثقافة العربية بعد: فما ظنته تنزيلا من السماء هو في الحقيقة تأويل من الأرض. ما تصورته نازلا من السماء إلى الأرض هو في الحقيقة صاعد من الأرض إلى السماء. وإن حدث ذلك في بعض السير فإنها تستبعد بدعوى الإنكار، وتلصق بها تهم التكفير. فكل شيء نازل من السماء، ولا شيء صاعد من الأرض. مع أنه لا سماء بلا أرض، ولا تنزيل بلا تأويل، ولا نزول بلا صعود، ولا وحي بلا زمان ومكان ومجتمع ولغة وفهم وتفسير وجغرافيا وتاريخ^(٢).

(١) السابق ص ٢٧٥-٤١١.

(٢) من النقل إلى العقل ج١/ علوم القرآن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩، فترة التكوين ص ١٠٢.

وفي نفس الوقت الذي يستعمل فيه كاتب السيرة المنهج النقدي التاريخي الذي أفاض فيه علماء تاريخ الأديان والمستشرقون محللين الإسلام كظاهرة تاريخية سواء في مصادره أو في تطوره ينقد الاستشراق للدلالة على أصالة الكاتب واستقلاله^(١). ويغفل المنهج التاريخي الدور الذي يقع فيه كتاب السيرة من أحاديث الرسول، وكأنه يكتب سيرته الذاتية أو حتى من القرآن الذي بلغه الرسول. فالسيرة يكتبها آخرون، من مصادر غير صاحب السيرة.

ومن حيث الموضوع تتكون السيرة من ستة فصول: الأول زواجه بخديجة، والثاني خديجة الأم، والثالث الهندوز وهو الرئيس الجديد للعرب، والرابع التفرس في اليعسوب وهو الرئيس الكبير، والخامس موجبات الاختيار وهي قصص علامات وروايات مثل شق الصدر، وأخيرا السادس أطوار التجربة الكبرى وهي جدل الرسول مع قومه في بداية نشر الدعوة. وهو أكبر الفصول^(٢).

والهدف النهائي بيان أن النبوة من صنع ثلاثي قرشي، خديجة وابن عمها ورقة ومحمد من أجل تحول العرب من القبيلة إلى الدولة المركزية. هدفها سياسي. والدين مجرد وسيلة لتحقيقه. فالتاريخ يقوم على تأمر الأفراد، وما سماه الفلاسفة الخداع في التاريخ^(٣). وقد استدعى ذلك إحاطة خديجة بهالة من القداسة. فهي الطاهرة. يذكرها محمد حتى وهو مع عائشة مما استدعى غيرها. وهي أم أولاده. أم فاطمة سيدة نساء العالمين، وزوجة علي، ولي الله^(٤). وتغفل السيرة دور محمد في البحث عن الحقيقة، وتحثه في غار حراء، واستنكافه الطبيعي من عبادة الأصنام أو ذكر اللات والعزى وهبل، هو

(١) فترة التكوين ص ١٨.

(٢) أ- هذا الشاب لا بد أن أباعله ص ٣٣-٨٦

ب- الأم الرؤوم ص ٨٧-١٠٦

ج- التحديق في الهندوز ص ١٠٧-١٦٦

د- التفرس في اليعسوب ص ١٦٧-٢٠٢

هـ- موجبات الاختيار ص ٢٠٣-٢٧٢

و- أطوار التجربة الكبرى ص ٢٧٣-٤١٢.

(٣) هو تعبير هيجل La Ruse dans l'histoire.

(٤) فترة التكوين ص ١٠.

وغيره من الخنفاء في هذه الفترة. وهو ما كان يعبر موضوعيا عن بحث شبه الجزيرة العربية عن دين جديد غير اليهودية التي كانت دينا لليهود وحدهم، وغير النصرانية التي اختلطت عقائدها وشابها تأليه الأنبياء والتجسيم والتشبيه، ولا المجوسية التي كانت دينا قوميا لفارس. تغفل إمكانية تدخل الوحي في التاريخ منذ نوح حتى محمد بصرف النظر عن كيفية التصوير.

وتظهر الرغبة في الجدة في اللغة على مستوى الألفاظ غير المألوفة بالرغم من أنها ألفاظ عربية أصيلة. حداثة في المنهج و«قدامة» في اللغة. ويظهر ذلك حتى في عناوين الفصول وليس فقط في أسلوب التعبير. فالمقدمة «قيدام»، وجزء أو قسم «طية»، والتمهيد «فرشة» والرئيس «هندوز»، ورقة بن نوفل الذي تعرف على نبوة محمد «يعسوب»، يقوم بمهمته في التشييك والترابط. واشتق فعل من اسم «بعل» أي زوج وهو «أباعل» أي أتزوج، وهو ما أرادته خديجة من محمد حتى تكتمل الحلقة الثلاثية. وهناك فعل «فلج» الذي يعني بدأ^(١).

وتستعمل أحيانا بعض الألفاظ المعربة إمعانا في الإيحاء بالجدية مثل «ثيولوجي»، «انتلجنسيا»^(٢). وقد أصبحت شائعة في لغة اليسار العلماني. ويراجع السير الحديثة ومواقفها. وينقد أسسها اللاهوتية أي العقائدية من أجل تجاوزها إلى سير نقدية تاريخية، وتحويلها من سير أسطورية إلى سير علمية. ويضعها كلها في صنف واحد، السير اللاتاريخية^(٣). ونحسب الدراسة على مواقف العلمانيين أو التقدميين أو اليساريين الذين يرفضون السير العقائدية الأسطورية التقليدية^(٤). فهي سيرة أيديولوجية مضادة لسير المؤرخين القدماء أو الإصلاحيين المحدثين تعبر عن إيمان كاتبها^(٥). يحلل المجتمعات

(١) السابق ص ١٠-١١/٦٣، يؤيد ص ٣٥.

(٢) «ثيولوجي»، السابق ص ٩-١٠/٩٧، «انتلجنسيا»، السابق ص ١١/٣٨.

(٣) وهي سير طه حسين، محمد حسين هيكل، الخضري، بنت الشاطئ، عبد الوهاب حمودة، فترة التكوين ص ٥٠.

(٤) المؤلف عضو بحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي.

(٥) فترة التكوين ص ١٥.

الراسمالية دون أن يقارن الإسلام بالاشتراكية في نشأته^(١). ويدعو كاتب السيرة لمشاركة القارئ معه. ويوجه له الخطاب^(٢).

والسيرة جزء من مشروع كبير عن إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بطريقة علمية نقدية تاريخية دون حرج حتى ولو وقع الصدام بينه وبين الدوائر التقليدية المحافظة في المؤسسات الدينية الرسمية^(٣). يظهر في جميع الأجزاء المنهج التاريخي سواء في دراسة الشريعة الإسلامية أو في تحول قريش من القبيلة إلى المركزية كما أستدعته الظروف التاريخية، أو في العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يثرب أو في العرب والمرأة في الأساطير القديمة أو في دولة يثرب في فترة الوفود أو في دراسة مجتمع الصحابة الواقعي وليس المثالي^(٤). ولم يشذ عن ذلك إلا «الأسس الفكرية ليسار الإسلامي»^(٥). وكلها لا تدور حول شخصية الرسول بل حول مجتمعه وبيئته.

ب- «قريش، من القبيلة إلى الدولة المركزية» لخليل عبد الكريم (٢٠٠٢م)^(٦)

وهي محاولة حديثة تتجاوز محوري الرسالة والرسول إلى الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي نشأ فيه هذان المحوران مثل قريش أو يثرب أو شبه الجزيرة العربية، وتجاوز نسب الفرد إلى نسب القبيلة. فالسيرة لا شخصية سواء من حيث الرسالة أو الرسول. فالرسالة كانت محاولة ناجحة لمحاولات سبقتها من اليهودية والنصرانية

(١) السابق ص ٢٦.

(٢) «من له أذنان فليسمع، من له عينان فليصر، ومن له عقل فليتدبر، ومن له فهم فليفقه، ومن له بصيرة فليدرك»، فترة التكوين ص ٩٢.

(٣) فترة التكوين ص ١٨.

(٤) أ- الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، سيناء للنشر، القاهرة ١٩٩٠

ب- قريش، من القبيلة إلى الدولة المركزية، سيناء للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٢ م
ج- الأسس الفكرية ليسار الإسلامي، القاهرة ١٩٩٥. مجتمع يثرب، العلاقة بين الرجل والمرأة في المهددين المحدثين والخليفي، سيناء للنشر. القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٧.

د- العرب والمرأة، حفرية في الأساطير المخيم، الانتشار العربي، بيروت، سيناء للنشر، القاهرة ١٩٩٨.
هـ- دولة يثرب، بصائر في علم الوفود. سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٩. وله أيضا «شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة»، فترة التكوين ص ٦٣.

(٥) فترة التكوين ص ٩.

(٦) خليل عبد الكريم: قريش، من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ج ١/٢، ١٩٩٧.

لتكون ديانة للعرب ولتوحيد شبه الجزيرة العربية، ولكنها لم تنجح. وكان الرسول أحد الحنفاء الذين يتحشون في غار حراء باحثا عن دين جديد غير ما تعود عليه العرب مثل غيره من طلاب الحكمة والباحثين عن الحقيقة وهو الدين الطبيعي، التوحيد والبداهة العقلية والفضيلة الذي تمثل في حلف الفضول وفي صلح الحديبية فيما بعد^(١). فالوحي لا يأتي إلا إذا كان الواقع الاجتماعي مستعدا لاستقباله. كما لا يهبط المطر إلا في أرض خصبة وليس في أرض جرداء. أتى الدين كعامل مساعد على مساعدة مركزية قريش وتحويلها من قبيلة إلى دولة مركزية. بدأ بمعاداة مصالح صناديد قريش^(٢).

والمنهج النقدي التاريخي هو المتبع كالعادة بها له وما عليه. إيجابياته أنه يبين التواصل الاجتماعي والسياسي والثقافي في شبه الجزيرة العربية بين الجاهلية والإسلام، وأن لا شيء يأتي من فراغ. وسليباته أنه قد يقع في التاريخانية أي رصد الوقائع بلا دلالة كما يفعل القدماء منذ «سيرة ابن هشام» إذ كانت السيرة إما جزءا من علم التاريخ أو من علم الحديث. والكتاب مهدي «إلى هؤلاء الذين يمارسون النقد التاريخي في أرجاء الوطن العربي بعيدا عن الأساطير وبروح موضوعية وإلى الأكاديميين الذين لا يخشون على مكاسبهم الشخصية أو على ما قد يصيبهم من متاعب، وإلى القلة الشجاعة التي لا تخشى من ممارسة هذا المنهج». ولا يستبعد المنهج التأمر في التاريخ ولا يثبت بل هو جزء من مكوناته^(٣).

(١) السابق ص ٦٩-٧٠/١٥٦-١٦٣.

(٢) هم التجار الكبار والمرابون والنخاسون ومستغلو عرق العبيد والإماء، السابق ص ٣٧٧.

(٣) «إلى الذين يؤرقهم الشوق إلى قراءة التاريخ العربي الإسلامي وهو مكتوب كتابة موضوعية بعيدة عن الحواجب التي تحجب العقل مثل العواطف الفجة والأساطير واللاما ورائيات... الخ وإلى الأكاديميين الذين ينادون بضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي ولكنهم لا يفعلون إما حرصا على مكاسبهم التي هي في آخر المطاف عرض من الدنيا قليل وإما تحرزا من المتاعب التي سوف تلاحقهم لو أقدموا على ذلك، وأخيرا إلى القلة الشجاعة القابعة في مصر وعدن ودمشق وبيروت والجزائر وتونس التي بدأت تمشي في هذا الطريق الوعر الخطر غير عابئة بما فيه من أشواك بل إلغام والتي تصر على حمل مشاعل التنوير مهما كلفها ذلك من تمن والتي تؤمن بأن الفجر حتما سوف يطلع مهما طال أمد الظلام، ومهما تحترس خلق ترسانات الثروات الأسطورية وسلطات الطواغيت الحاكمة التي تدرك أن بقاءها على عروشها رهن باستمرار الظلاميات»، قريش ص ١٣/٧-٣١.

ويعتمد على الشعر أولاً باعتباره تاريخ العرب وثقافتهم دون الاعتماد على القرآن والحديث إلا فيما ندر. وقد تُذكر أرقام الآيات دون الآيات نفسها اعتزازاً بالمنهج التاريخي ورد فعل على الإيغال في المنهج النصي. فالمصدران النصيان كاشفان للتاريخ، والتاريخ مصدر لهما. وليساهما مصدران للتاريخ. ويعتمد على بعض المصادر القديمة والحديثة. وقد يكثر الاعتماد على بعض ممثلي هذا الاتجاه النقدي التاريخي^(١). ويعتمد من التراث الغربي من بعض الكتب المترجمة^(٢).

وينقسم الكتاب إلى ثمانية أبواب. تبين عوامل تحول قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية. الأول المقدمات الذاتية الخاصة بتاريخ قريش منذ تأسيسها على يد قصي ابن كلاب حتى حكومة ملأ قريش مرورا بخلفاء قصي، هاشم وعبد المطلب، مرورا بحلف الفضول. وهو أكبر الأبواب^(٣). والثاني المقدمات الدينية وهي المحاولات التي تمت قبل الإسلام لتحقيق نفس أهدافه من اليهودية والنصرانية التي فشلت في قبائل إياد وغميم وحنيفة والصائب والحنيفية^(٤). والثالث المقدمات السياسية وسيادة فارس وبيزنطة على أجزاء من شبه الجزيرة العربية واستقلال الحجاز التي لم يغزها أحد من الإمبراطوريات المجاورة^(٥). والرابع المقدمات الاجتماعية التي تشمل التحليل الطبقي للمجتمع العربي إلى أغنياء وفقراء، والأعراب والموالي والصعاليك. وتبين سلطة شيخ القبيلة^(٦). والخامس المقدمات الاقتصادية ومصادر الثروة كالمراعي والغنائم والحبال، ومنها العشور والتجارة^(٧). والسادس المقدمات الثقافية وما يكون الوجدان العربي كالشعر والخطابة^(٨).

(١) الشعر (٢٨)، القرآن (١).

(٢) مثل د. سيد القمني.

(٣) السابق ص ٣٣-١٣٦.

(٤) السابق ص ١٣٧-٢٣٨.

(٥) السابق ص ٢٣٩-٢٨٠.

(٦) السابق ص ٢٨١-٣١٨.

(٧) السابق ص ٢١٨-٣٥٠.

(٨) السابق ص ٣٥١-٣٧٤.

ج- «دولة يثرب، بصائر في عام الوفود» لخليل عبد الكريم (٢٠٠٢م)^(١)

وهو استمرار لنفس المشروع لكتابة تاريخ الرسالة والرسول وتجاوزهما إلى الواقع الاجتماعي والسياسي. ويستمر في تحول قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية إلى هذه الدولة نفسها في المدينة، واستقبال الرسول الوفود، ونشر الإسلام سلمًا لا حربًا في الغزوات والسرايا. لا يذهب إلى الناس مقاتلاً بل يأتي إليه الناس طالبيين الهداية. ويقارن بعام فتح مكة، أي رضا واستسلام الناس، يقدم وفود إليه تمثل قبائل العرب أو يذهب مجموع المسلمين إلى مكة للحج والطواف. ومع ذلك تركز المقدمة على الرسول كشخص، سيرة ثرية شخصية معطاءة، ناثراً قام بثورة من أهم ثورات العصور الوسطى. وهو مسار تاريخي غربي لا يتفق مع المسار الإسلامي، بنى دولة حكمت بعده طويلاً، أربعة عشر قرناً، قائد محنك على رأس الجند، شخصية كاريزمية تؤثر في الناس، سياسي من طراز فريد ودبلوماسي، رجل واسع التجارب وعميق الخبرات، زوج لعديد من الزوجات من أعمار مختلفة. وهذا لا ينفي من دراسة موضوعية للسيرة من خلال الدين والثورة والدولة والتاريخ^(٢).

ويستمر المنهج التاريخي في رصد الوفود، سبعين وفداً، حيث تظهر عيوب السرد بلا دلالة بطريقة القدماء عندما كانت السيرة جزءاً من علم التاريخ. ويتم شرح أسماء الوفود لغوياً. ويشق اسم الوفود من اسم رئيسه أو من اسم جماعته. وعام الوفود من أهم معالم السيرة. فهو يغطي نصف المدة التي قضاها الرسول في يثرب، حوالي خمس سنوات، قمتها العام التاسع. يكشف عن عادات العرب وثقافتهم من خلال حوار الرسول مع الوفود. كانت وفوداً سياسية قبل أن تكون دينية. وكان الرسول يلبي مطالبهم حتى يروا في الدين الجديد مصالحهم^(٣). وقد يغضب هذا المنهج الإسلاميين (الإسلاميين) والتقدميين (التقدميين). يراه الفريق الأول خارجاً عن السير التقليدية. ويراه الفريق الثاني غير رافض للمعجزات^(٤).

(١) خليل عبد الكريم: دولة يثرب، بصائر في علم الوفود، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٩م.

(٢) السابق ص ٧-٩.

(٣) السابق ص ١٠-١٢.

(٤) السابق ص ٣٩٥-٤٠٢.

ويعتمد على الشواهد الثقيلة القرآن والشعر والحديث^(١). القرآن أولاً على غير العادة. ومع الحديث هناك بعض الرسائل المدونة^(٢). كما يعتمد على بعض الحالات في الفلسفة الغربية للدلالة على الانفتاح الثقافي والمنهجي^(٣). يأتي بالنص القديم ثم يشرحه ويقرؤه ويؤوله. وتثار بعض التساؤلات حول دلالات بعض الوفود^(٤). وتستعمل بعض المصطلحات الحديثة مثل الاستعمار والاستيطان للشعوب المجاورة أو بعض الوحدات السياسية الحالية مثل: الجامعة العربية، السوق العربية المشتركة، الوحدة السورية المصرية، مجلس التعاون الخليجي، الاتحاد المغاربي^(٥).

ينقسم الكتاب إلى بابين. الأول «البصائر الرأسية». وفيه سرد لأسماء ووقائع سبعين وفداً. وهو الأكبر^(٦). والثاني «البصائر الأفقية» وهي الغزوات التي تمت في عام الوفود من أجل تصفية جيوب المقاومة أو الانسياح نحو الخارج حيث تتجلى المعجزات، وهو ما يتناقض مع المنهج التاريخي باعتباره منهجاً علمياً^(٧). وهي بصائر أي رؤى وحدوس وربما وجهات نظر أو قراءة^(٨). تحيل إلى بعض السير القديمة والحديثة^(٩).

والمحاولات الثلاث جزء من مشروع أعم يطبق فيه نفس المنهج التاريخي النقدي في «الجدور التاريخية للشريعة الإسلامية» لبيان التواصل بين الجاهلية والإسلام ضد افتراض الفضيلة بينهما سواء في الشعائر التعبدية الموروثة من القبائل العربية أو الخيفية أو الاجتماعية مثل الرقي والتعاويد والعناية بالإبل وتعدد الزوجات والتفرقة بين العرب والعجم، والتمييز بين العرب والأعراب، والنظرة إلى الزراعة وأهلها أو أصل العشور

(١) القرآن (٣٢)، الشعر (٣)، الحديث (٢).

(٢) السابق ص ١٠٢/١٣٧/١٥٦/١٦٦/١٧٥/٢٥٠/٢٨٨/٢٩١-٢٩٢/٢٩٣.

(٣) مثل كاسير في كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية»، دولة يثرب ص ٣٨٥.

(٤) السابق ص ١٠٩-١١٨/١٢٢-١٢٥/١٥٤/٥٦/٦٤-٦٥/١٦٥/٢٥١-٢٩٦-٣٠٤.

(٥) السابق ص ١٣٥-١٣٧.

(٦) دولة يثرب ص ٣٥-٣٢٨.

(٧) السابق ص ٣٢٩-٣٩٤/٣٦٦-٣٩٤.

(٨) السابق ص ١٣-٢٨.

(٩) وهي خمسة: القديمة مثل: «الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر، «الروض الأنف» للسبيلي.

«تاريخ الطبري»، «السيرة الحلبية». ومن المحدثين «خاتم النبیین» لأبي زهرة، السابق ص ٢٦.

والاستجارة والجوار، وحرمة النسب، والاسترقاق أو الجزائية في العاقلة والقسامة أو الحرية في خمس الغنائم والسلب والصفى أو السياسية في الخلافة والشورى^(١). وفي «مجتمع يثرب، العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخلفي» يظهر المجتمع الإسلامي كغيره من المجتمعات في علاقة الرجل بالمرأة وحاجة كل منهما إلى الآخر خاصة لو غاب الأزواج عن الزوجات، والنظر والحب والعشق^(٢). يهدف المنهج التاريخي إلى خلع لباس القدسية عن المجتمع الإسلامي، فالبشر بشر، صحابة أو تابعين. يتم التلاعب في تطبيق الحدود، وحق المرأة والرجل المتساوي في النكاح^(٣). وطبقا لنفس موجة الحركة النسوية والاهتمام بالمرأة كتب أيضا «العرب والمرأة، حفرة في الأسطير المخيم» لبيان أن تصور المرأة باعتبارها ناقة وفرصة للركوب لم يتغير من العصر الجاهلي إلى الإسلام. صاحبة حركة عنيفة، ومظهر من مظاهر الطبيعة^(٤). ويعتمد على اللغة العربية القديمة أكثر من علم الأساطير. فالمرأة للمتعة الجنسية وللخصوبة ولرعاية الأطفال^(٥).

د- «الحزب الهاشمي وتأسيس دولة الرسول» لسيد القمني^(٦)

وهو على نفس المنوال، تجاوز محوري علم السيرة، الرسالة والرسول إلى الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي نشأ فيه المحوران. فالرسالة والرسول لم ينشأ في فراغ، ولم يأتي من فراغ. يبين المنهج التاريخي النقدي نشأة الرسالة بالتوازي مع مرحلة تاريخية لقريش وتأسيس حزب جديد فيها استطاع أن يحولها من قبيلة إلى دولة. وبالتالي

(١) خليل عبد الكريم: «الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية»، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٠ م.

(٢) خليل عبد الكريم: «مجتمع يثرب، العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخلفي»، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٧.

(٣) ونفس الشيء في «شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة».

(٤) خليل عبد الكريم: العرب والمرأة، حفرة في الأسطير المخيم، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٨.

(٥) وله أيضا «الأسس الفكرية لليسار الإسلامي»، كتاب الأهالي، القاهرة ١٩٩٠. وهو خارج المنهج التاريخي كما يدل العنوان، مجرد تجميع لعدة مقالات صحفية جدلية مع باقي التيارات الأخرى خاصة الإسلاميين (الإسلاميين).

(٦) سيد محمود القمني: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٦٦.

تهتز القناعات الشائعة عن التاريخ «المقدس»، وتدخل الإرادة الإلهية في مسار التاريخ. ويظهر التاريخ «البشري» بعوامله المادية. فالمقدس له حامل بشري.

والاعتماد على علم تاريخ الأديان المقارن الذي ازدهر في الغرب وفي بعض الجامعات والمعاهد الدينية المسيحية المتصلة بالغرب^(١). وكما فعل طه حسين في نقل المدرسة الأسطورية في النقد التاريخي والتي نشأت في ألمانيا عند شتراوس تحت تأثير هيجل في القرن التاسع عشر، وامتدت إلى فرنسا في أوائل القرن العشرين، وتطبيقها على الشعر الجاهلي. هي دراسات معروفة في الغرب نتيجة للبحث العلمي وتقدم المنهج التاريخي، وجديدة في الوطن العربي الذي ينظر إلى التاريخ باعتباره مقدسا من صنع الله وتخطيطه^(٢). كما يعتمد على بعض المحدثين الذين حاولوا إعادة كتابة تاريخ الثقافة الإسلامية مثل «أحمد أمين» والعقاد وجواد علي. ويحيل إلى بعض مؤلفاتهم^(٣). ويحال إلى بعض المفكرين الأوربيين مثل ديكرت وهو ما يفعله طه حسين أيضا لتبرير منهج الشك من أجل الوصول إلى اليقين^(٤). ويحيل إلى كارلايل في «الأبطال والبطولة» وما قاله إعجابا بمحمد البطل.

والعناوين طويلة «دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية». تشير إلى العقيدة والسياسة أو الدين والدولة. وكذلك «مدخل لقراءة الواقع الاجتماعي لعرب الجاهلية وإفرازاته الأيديولوجية»^(٥). ويشير إلى الصلة بين الأيديولوجيا والمجتمع على ما هو معروف في علم اجتماع الثقافة.

والكتاب يخلو من القسمة إلى أبواب وفصول. ينقل مادة بلا بنية مقسمة إلى عدة موضوعات صغيرة غير مرقمة. تبين وجود عدة كعبات وليست كعبة واحدة^(٦). وحلمت مكة من خلال كعبتها بحلم السيادة. ويظهر تاريخ العرب منذ قصي بن

(١) مثل الجامعة اليسوعية، جامعة القديس يوسف في بيروت التي درس فيها المؤلف.

(٢) الحزب الهاشمي ص ١٦.

(٣) السابق ص ٥٨.

(٤) السابق ص ٢٨.

(٥) السابق ص ٣.

(٦) الحزب الهاشمي ص ٦٣-٧٨.

كلاب والصراع على السلطة بعده ثم وصولها إلى بني هاشم وحاجتهم إلى أيديولوجيا جديدة لفرض زعامتها على العرب غير التحالفات والمصاهرات القبلية. وظهرت هذه الأيديولوجيا الحنيفية وليست الحنفية الممتدة جذورها إلى إبراهيم حتى أحيائها محمد والحنفاء المتحشون في عصره^(١). وهي الدين الطبيعي الذي أكدّه إبراهيم.

وتعتمد الدراسة على القرآن والحديث والشعر، والشعر أكثر^(٢). فالشعر ديوان العرب. كما يعتمد على بعض الفقرات المتقاة من كتب التاريخ القديمة لتأويلها وقراءتها على نحو حديث بحيث تبدو مصدرا لتناج الكتاب. ولا يعتمد المنهج التاريخي على النصوص التي هي تدوين للتاريخ. فالمنهج التاريخي في المجتمعات التقليدية مازال أسير المنهج النصي^(٣). المصادر قليلة في الهوامش. وتستعمل بعض المصطلحات الحديثة مثل «الحزب»، «الدولة»، «الأيديولوجيا» لنقل الماضي إلى الحاضر. كما تستعمل بعض الألفاظ التي تند عن البحث العلمي الرصين مثل «مزيلة التاريخ» أو بعض الأساليب الإنشائية الخطائية مثل التاريخ المثائب المسترخي والتي تبين أن الكاتب صاحب دعوة وليس فقط باحثا علميا. يخاطب الكاتب القراء ويستعمل ألفاظهم في «السيرة النبوية العطرة» و«سيد الخلق»^(٤).

ويصنّف الكتاب ببعض مراجعات الكتاب في الصحف^(٥). وهي مراجعات سلبية من الاتجاه الإسلامي المحافظ أو الإسلامي والعلماني التقدمي مما يدل على شجاعة

(١) السابق ص ٤٦/٩٥/١٥٦.

(٢) القرآن (١٧)، الحديث (٢)، الشعر (٤٤).

(٣) السابق ص ٨.

(٤) السابق ص ٢٩/٥٧. والكتاب مهدي «إلى ينبوع الحنان» سلوى (نفرتاري) ابتي، ص ٥، كما أهدى كتاب «النبى إبراهيم والتاريخ المجهول» إلى نفس ابنته الرضية نفرتاري «كي تعرف رقي زمانها- أننا قد أهدنا الثقب في جدار الظلمة... كي تعرف أننا أعطينا العمر لتمرر إلى جيلها خيط النور. كي لا تشك أنه لم يكن في زماننا رجال. لها أهدى هذا الكتاب، النبى إبراهيم ص ٥.

(٥) «نماذج من الكتابات التي تناولت هذا العمل حال ظهوره أول مرة من: خليل عبد الكريم، فريدة النقاش، عصام الدين أبو العزيم، فهمي هويدي، محمد أحمد المسير، الحزب الهاشمي ص ١٣-٤٧. وإهداء الجزء الثاني إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جوارى في عتني الصعبة من وزير الثقافة والأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ورئيس أكاديمية الفنون وصحف المعارضة وكبار الأدباء وإلى العاملين بمستشفى الهرم، السابق ج ٢/٥.

المؤلف بإبراز أقوال معارضية^(١). وقد يدل أيضا على اتجاه إعلامي عند الكاتب لا يقتصر على البحث العلمي المقصور على المتخصصين في حلقات البحث الجامعية. والكاتب يرفض الإسلام المستنير على أنه غير كاف لإجراء مثل هذه البحوث التاريخية.

هـ- «حروب دولة الرسول» لسيد القمني^(٢)

وبالرغم من أن الموضوع يدخل في «المغازي والسير» إلا أنه نظرا لتميزه المنهجي النقدي التاريخي الحديث فإنه وضع هنا في هذا النوع من السير والحروب لدولة الرسول وليس للرسول أي أنها حروب سياسية بالأصالة لإقامة الدولة في بدر وأحد (الجزء الأول) ثم للدفاع عنها (الجزء الثاني). وهي «حروب» وليست غزوات بالمعنى الحديث وليس بالمعنى القديم. والسؤال هو: لم التركيز على الحروب؟ ألا يدل ذلك على أن الإسلام قد انتشر بالسيف على ما يقول بعض المستشرقين؟ والمنهج التاريخي أقرب إلى المنهج الاجتماعي الذي يقوم بتحليل الطبقات وبيان كيف أن الإسلام أتى تعبيرا عن طبقة المضطهدين والفقراء والعيبد أي المستضعفين بلغة القرآن. كما يركز على التاريخ السياسي لدولة الوحدة^(٣).

ويعتمد في الجزء الأول كالعادة على القرآن والحديث والشعر، والقرآن أكثر. وفي الجزء الثاني يعتمد أيضا على القرآن والحديث والشعر ولكن الحديث أكثر. ويضم الشعر الرجز^(٤). مما يقلل من استعمال المنهج التاريخي النقدي لحساب منهج النص الفقهي الكلامي التقليدي. بل تتوالى الآيات وتطول وكأنها هي الحجة الوحيدة دون عقل بديهي أو تجربة إنسانية أو واقع اجتماعي أو تحليل تاريخي^(٥). حتى الأبواب مصدرة بآيات وكأنها حجج بذاتها مع أنه من الصعب الجمع بين المنهج التاريخي والنقدي والمنهج النصي. ويشمل الحديث الشفاهي والمدون أي الرسائل. ويغيب نقد الروايات

(١) السابق ص ٧.

(٢) سيد محمود القمني: حروب دولة الرسول (جزءان)، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٦ م، والإهداء «لقاح الخصب في رحم الأيام بعد سنوات عجاج» إلى نصر حامد أبو زيد.

(٣) السابق ج ١/ ٧-١٣.

(٤) ج ١ القرآن (٦٤)، الحديث (٢٧)، الشعر (٢٦)، ج ٢/ القرآن (٥٤)، الحديث (١٠٠)، الشعر (١٧).

(٥) مثل أحمد إبراهيم الشريف، أحمد عباس صالح، حسين مروة.

وهو ما يتطلبه المنهج التاريخي النقدي. والسؤال بالنسبة للحديث: هل الحديث قبل البعثة يُعد حديثاً؟ الوحي لم يأت بعد، إلا إذا كان الدين الطبيعي حجة. كما يُحال إلى نصوص التوراة وهي محرفة في علم النقد التاريخي للكتب المقدسة. كما يُعتمد على بعض المؤرخين السابقين، واقتباس بعض الفقرات منها على نحو موجه وتأويلها بحيث تتفق مع الرؤية العام للكتاب. كما يُعتمد على بعض كتابات المحدثين^(١). ولا تنتفى من القدماء إلا روايات يسهل تأويلها. وقد تغلب المنهج النصي على المنهج التاريخي النقدي لدرجة صعوبة رؤية الفرق بين المنهج الجديد ومنهج المؤرخين القدماء للسيرة.

وعلى غير العادة ينقسم الجزء الأول إلى باين. الأول في بدر، والثاني في أحد. وتقدم بدر الكبرى قراءة جديدة، تحليلاً نفسياً اجتماعياً للآثار النفسية للنصر الأول مثل هيبة المسلمين، وضعف ثقة المشركين، والآثار الاقتصادية في قطع طرق التجارة، وقوة المسلمين في ثورة الأنصار، والصراع بين الحكمة والتوتر، والمشاكل الجديدة مثل الأسرى والغنائم. والثاني في أحد، ثار قريش، وهزيمة المسلمين وشهداؤهم ومنهم أسد الله^(٢). وينقسم الجزء الثاني إلى أربعة أبواب: الأول من أحد إلى الخندق، الاعتراف بقيام الدولة. ويضم غزوة بني المصطلق والحديبية وخيبر. والثالث فتح الفتوح. ويضم فتح مكة، وسرايا خالد، وغزوة هوازن، وحصار الطائف. والرابع قيام دولة العرب الموحدة ويشمل إعلان البراءة وعام الوفود. وهما صغيرا الحجم على غير العادة في المغازي والسير^(٣).

وتظهر الرغبة في حداثة في اللغة في استعمال بعض الألفاظ الجديدة مثل التقريش (من قريش) والإيلاف^(٤). كما تستعمل بعض الألفاظ الحديثة مثل: جمهورية، إمبراطورية، عسكرياً، حظر التجول، المعارضة^(٥).

(١) حروب الرسول ج٢/ ١٩٦-١٩٧.

(٢) السابق ج١/ ٤٣-١١٨.

(٣) السابق ج١/ ١١٩-١٧٩.

(٤) السابق ج١/ ٩-١٤.

(٥) السابق ج٢/ ٢٦/ ١٥٩/ ١٩٦.

والسؤال هو: ما الهدف من «حروب الرسول»؟ هل ممارسة قواعد المنهج التاريخي النقدي وهو ما لا يظهر كثيرا نظرا لسيادة المنهج النصي؟ هل بيان أن الرسول مؤسس دولة تحارب وتسلم؟ وتحرق قواعد المنهج التاريخي بالحديث عن معجزات الرسول وتدخل الملائكة وتأييدها بالقرآن، واستعمال ألفاظ التفخيم والتعظيم للرسول مثل «سيد الخلق»^(١). وهكذا تفعل السير والمغازي القديمة^(٢). وأحيانا يقع المنهج التاريخي في التاريخية أي مجرد رصد الحوادث. ويخف الرصد الحديث ببعض الدروس المستفادة من الغزوات مثل غزوة أحد^(٣). ومع ذلك لم تبلغ حدها الأقصى مثل تركيز الجزء الأول على بدر وأحد أي على جدل النصر والهزيمة. ولا يتضح الهدف من «حروب الرسول» أيضا من حيث الموضوع إلا إذا كان المقصود هو بيان قسوة الإسلام في ضرب الأعناق، وتصوير مذبحة بني قريظة، وتبرير القرآن لها، والتعارض بين قسوة الرسول ورحمته. وربما كان القصد هو انتقاء المواقف الحرجة المتشابهة في تاريخ انتشار الإسلام التي يمكن تفسيرها على وجهين من الأصدقاء والأعداء على حد سواء. وهو ما يتفق مع تفصيل وضع السبايا والإماء و«قوانين السبي العربية التقليدية» بما يحمل ذلك من سخرة^(٤). هل الهدف بيان وسطية الإسلام بين التناقض على ما يفعل الخطباء والوعاظ، وهو ما يعارض المنهج التاريخي النقدي؟^(٥). هل الهدف هو جمع الأمم والديانات كلها على كلمة سواء كما تم قبل الإسلام في «حلف الفضول» أو قبل الفتح في صلح الحديبية في الصحيفة، وهو ما يريده العلمانيون؟^(٦).

وبالرغم من أن «حروب الرسول» من أضعف الكتب فيما يتعلق بتطبيق المنهج التاريخي النقدي إلا أنه جزء من مشروع أعم لإعادة كتابة تاريخ الإسلام منذ النشأة مقارنة بباقي أجزاء المشروع. يشمل «النبى إبراهيم والتاريخ والمجهول»^(٧). وهي

(١) السابق ج١ ص ١٥٣-١٦٣.

(٢) السابق ج٢ / ٣١ / ٧٠ / ١٤٨.

(٣) السابق ج٢ / ٨٧-٩٠ / ٩٣ / ١٠٥ / ١٢٩.

(٤) السابق ج٢ / ١٩٢.

(٥) السابق ج٢ / ٢١-٢٨.

(٦) السابق ج٢ / ٢٩-٣٧.

(٧) سيد القمني: النبى إبراهيم والتاريخ والمجهول، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٦.

مادة علمية مستقاة من تاريخ الأديان المقارن. والبحوث المعروفة في الغرب. وهي بلا أبواب إلا فصولاً لم يتعود العرب عليها إلا النخبة من المتخصصين في الدراسات السامية^(١). فغلبت عليه النزعة التاريخية-المصادر التوراتية والإنجيلية والقرآنية بالرغم من اختلاف درجة الصحة في روايتها. والاعتماد الأكثر على سفر التكوين تاريخياً وجغرافياً بنصوص طويلة^(٢). يقع أحياناً في التاريخية أي في السرد التاريخي دون دلالة ومعناه، ومشفع بالخرائط من رحلات إبراهيم من الشمال إلى الجنوب كما هو الحال في الدراسات الأجنبية بالرغم من قلتها ورد بعض ترجماتها. وفي نفس الوقت يتم الاعتماد على الآيات القرآنية دون الأحاديث والأشعار^(٣). ويحيل إلى القدماء مثل الثعلبي والمسعودي. ويقتبس منهم بعض الروايات ويأولها بما يتفق مع مضمون الكتاب. كما يحيل إلى بعض المحدثين مثل طه حسين^(٤). وما زال الهدف غير واضح. ولم تتضح صورة إبراهيم في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن ولا أوجه التشابه والاختلاف بينهما. صحيح أن تحرير التاريخ من المقدس والأسطورة مهمة المنهج التاريخي النقدي، ولكن ما البديل؟ لقد أدت المدرسة النقدية التاريخية في الغرب إلى المدرسة الأسطورية وإنكار الوجود التاريخي لإبراهيم موسى وعيسى. ومن ثم يتحول التاريخ المجهول إلى التاريخ المصنوع المركب.

وتبلغ ذروة المشروع في «النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة»^(٥). ويصل المنهج التاريخي إلى حده الأقصى بالإغراق في الساميات والعبريات والمصريات كما تدل على ذلك الصور على أغلفة المجلدات الأربعة. يتحول التاريخ إلى غاية في ذاته بكافة تفاصيله. ويتحول المنهج من وسيلة للكشف إلى غاية في ذاته في أوضح صور التاريخية. وهي مادة معروفة عند المتخصصين في العهد القديم، أقسامه، ومصادره،

(١) وقد عرفها المؤلف أثناء دراسته في الجامعة اليسوعية (القديس يوسف في بيروت).

(٢) السابق ص ٧٥-٧٨.

(٣) القرآن (٢٥).

(٤) النبي إبراهيم ص ١٧.

(٥) سيد القمني: النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (أربعة أجزاء)، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة

وتدوينه، ورواياته. وكلها معلومات مترجمة وموفورة في دوائر المعارف والقواميس والموسوعات والدراسات المتخصصة، كلها اقتراحات وافتراضات مضادة لم يجمع عليها المؤرخون^(١). لذلك لا تؤخذ روايات التوراة كمصدر للتاريخ إلا بحذر. ولا توجد مصادر إسلامية من القرآن أو الحديث أو الشعر أو كتب المؤرخين القدماء.

ويغيب الهدف الواضح، هل المقصود القضاء على الصورة الشائعة لموسى اعتماداً على الدراسات التاريخية النقدية؟ هل المقصود هز صورة موسى بعد أن ربط محمد نفسه به ورأى فيه صورته؟ هل المقصود بيان أن حضارة مصر القديمة أصل الحضارة العبرية، وأن موسى هو ابنها البار أو غير البار؟^(٢). الجزء الأول تمهيد تاريخي عن التوراة شعباً وكتابة ورباً، والتاريخ النبوي لإسرائيل، وعلاقة مصر بالتوراة، ونظريات الخروج. والثاني وهو أكبرها عن أُلغاز لم يحلها التاريخ بعد^(٣). كما يبين علاقة مصر بالعبرانيين^(٤). لا أبواب ولا فصول بل مجرد مادة مترجمة ومجمعة ومعروفة عند أهل الاختصاص دون نتيجة محددة. والأفضل ترجمة كتاب أو موسوعة في الموضوع. ينقل نتائج حفريات الآخرين، غربيين وشرقيين، قدماء ومحدثين^(٥). وهو مملوء بالتفصيلات اللغوية والأثرية، بالعبرية والمصرية القديمة. وكلها افتراضات مثل غيرها، نموذج التاريخانية، ومشفوع بصور وخرائط توضيحية. يعتمد على الشعر مرة واحدة دون القرآن والحديث. ولا توجد نتيجة عامة واحدة بعد هذا السرد الطويل لعلاقة المصريين بالعبرانيين. والثالث «آخر أيام تل العمارنة» عن موسى وإخنتاتون وأوديب والعلاقة بين حضارات ثلاث: المصرية والعبرية واليونانية لدرجة أن موسى أصبح هامشياً. يعتمد

(١) السابق جـ ١/٩-١٥.

(٢) السابق جـ ١/١٣٣-١٤٠.

(٣) هي سبعة: لغز بلاد بونت، لغز بلاد الحور، لغز بلاد موصري، بعل صفون لغز آخر، لغز آرام النحاسية، لغز البليست، لغز الخابرو، السابق جـ ٢٢/٢٠٣-٢٢٠/٢٧٥-٢٨٤/٤٠٤-٤٤٩/٥٩٦-٦٢٨.

(٤) بلاد آدم وبلاد أدم، سالع والتبراء، حملة تحتمس الثالث على بلاد الفتيق، ميتاني وميدياني، المريانين والإسماعيليون والعماليق، سر المملكة السوداء، الرب الأحمر، معان المصرية، أين تقع حويلة التوراتية، العامر أو العموريون اسم الأحلاف، الجامع، الشاسو والكاشود والحاثو، عاد وثمود، إسحق، بقرة بني إسرائيل، تجليات الرب في سيناء، ريج يوسف، إسرائيل ويهوذا، قاطعوا الرقاب.

(٥) «منهم علي فهمي خشيم في آلهة مصر العربية»، ومن القدماء السهيلي والهمداني جـ ٢/٢٨٥/٣١٥/٣١٧/٣٤٠.

على بعض الهواة والمحدثين مثل العقاد. يقدم معلومات ولا يستتج ما بين السطور. والرابع جغرافيا الخروج ولغز مدينة رعمسيس مع خرائط وملاحق توضيحية. ولا توجد محاولات للخروج من التاريخانية إلى التشريعات المقارنة بين الحضارات الثلاث. ولا يُحال إلى القرآن أو الحديث. ويُحال إلى الشعر مرتين^(١). وقد بدأ المشروع فكريا فلسفيا قبل أن يتحول إلى مشروع تاريخي نقدي. ربما حددت البداية ظروف تدريس الفلسفة بالخليج ثم التحول إلى التاريخ بداية بحضارة مصر القديمة^(٢). ثم بدأ الطرح النظري في «الأسطورة والتراث» و«رب الزمان». الأول لفهم العلاقة بين الواقع ونشأة الأسطورة^(٣). والثاني عدة مقالات صحفية في معارك فكرية دون تفرقة بين البحث العلمي والإعلام^(٤). وهو ما يتضح أيضا في الطبعة الثانية وزيادة «ملف القضية».

(١) النبي موسى ج٤/ ١٠٢٩-١٠٣٠.

(٢) الموجز الفلسفي، دار السياسة الكويت. مشكلات فلسفية (بالمشاركة)، الكويت ١٩٨٣، «أوزيريس وعقيدة الخلود القديمة» دار فكر، القاهرة ١٩٨٨.

(٣) الأسطورة والتراث، سينا للنشر، القاهرة، الصقر العربي للإبداع، قبرص ١٩٩٢. ويشمل عدة موضوعات متفرقة: زهرة الحب، أضحية للذكر، القمر الأب، الملوك الأربعة، نماذج من الأساطير التوراتية. ومن التراث موضوع النسخ.

(٤) رب الزمان ودواست أخرى، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٦.

الباب الثاني

تأسيس الرسالة

الفصل الأول

جذور الرسالة

١ - شبه الجزيرة العربية

كانت شبه الجزيرة العربية مهد الحضارة الأولى وليست مصر وحدها، كانت متصلة بالحضارات البابلية والآشورية بالعراق، والكنعانية والفينيقية بالشام. وكلاهما امتداد لها في الشمال، وبالحضارة الحميرية باليمن وهي امتداد لها في الجنوب، وبالمجوسية في فارس، وبالمسيحية في الشمال والغرب. ونشأ ذلك كله حول حوضي بحري الروم، البحر الأبيض المتوسط، والقلزم، البحر الأسود. وفيها انتشرت عقائد الإله وخلود النفس ونشأة العالم. وهي العقائد الثلاث في الديانات التوحيدية الإبراهيمية. ونشأت منها وفي إطارها. كما انتشرت المجوسية من فارس. تساندها حضارة الهند مع أن انتصار فارس على الروم في مصر والشام لم يؤد إلى انتشار المجوسية احتراماً لديانات الشعوب المغلوبة. أخذوا فقط الصليب الأعظم حتى استرده الروم بعد انتصارهم على الفرس. احتاج العرب إلى دين جديد يحميهم من ثقافات الشرق والغرب، يوحدهم، ويحسن أوضاعهم الخلقية والسياسية والاجتماعية وإلى نهضة شاملة يبدأ معها العرب مسار تاريخ جديد^(١).

وقد ساعد على ذلك توسط شبه الجزيرة العربية بين الشرق والغرب. يحميها من الشرق الخليج العربي، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب بحر عمان، ومن الشمال صحراء الشام. لم تخضع لمستعمر بسبب هذه المناعة الجغرافية. كان الحمل هو وسيلة

(١) حياة محمد ص ٦٦-٦٨، السيرة النبوية ص ٥٥-٦٠، صحيح السيرة ص ٤٣-٤٤.

الاتصال بين مدنها. ولم يكن للمطر فيها فصول معروفة. فمراعيها متقلبة. تنفجر فيها العيون. فتنشأ حولها التجمعات السكانية. ظلت شبه الجزيرة مجهولة معزولة باستثناء اليمن المفتحة على البحر للتجارة مع الشرق والغرب، مع الهند وروما عن طريق مصر وفارس. لذلك سماها الرومان اليمن السعيد. وأصبحت طرق التجارة في الصحراء مثل طرق السفن في البحر وسيلة اتصال بين القبائل. كان هناك طريقان للقوافل: الأول طريق الشرق، يتأخم الخليج الفارسي ودجلة إلى الشام وفلسطين. والثاني طريق الغرب، البحر الأحمر إلى مصر والشام. ولا يوجد نظام سياسي واحد لها، بل لكل قبيلة عاداتها وتقاليدها في إطار العصبية أو الحلف أو الجوار أو تطبيقا للقصاص، ودفع العدوان بالعدوان^(١).

كانت شبه الجزيرة خمسة أقسام: الحجاز، تهامة، اليمن، نجد، العروض بين البحرين شرقا والحجاز غربا. وتسمى أيضا اليامة. صحراؤها قاسية. حياتها الماء. القبيلة وحدتها الاجتماعية. مدنها مراكز عمران وحضارة. طبقاتها عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة. قبائلها قحطانية في اليمن، وعدنانية في الحجاز. تنقسم إلى ربيعة ومضر. بينهما منافسة وعداء. لغتها واحدة بالرغم من تعدد مخارج الأصوات. فاللغة مظهر من مظاهر وحدتها. أكدها الدين الجديد من خلال القرآن. كانت على صلة بالنبوات والأديان السماوية. إسماعيل في مكة، وتراثه في قريش^(٢).

وبلاد العرب غنية بمواردها الطبيعية مثل، الذهب. وبها العيون والآبار والأودية. تقوم ثروتها على التجارة والزراعة والصناعة، دبغ الجلود، وغزل الصوف، والبناء^(٣). فيها العناصر المادية المكونة للحضارة وقيام المجتمعات.

وفي القرن السادس الميلادي اشتدت المنافسة بين روما وبيزنطة. امتد سلطان روما في ربوع الغرب ثم ورثها بيزنطة بعد أن أغار الفندال على روما. وانتشرت الفرق المسيحية المتناحرة حول طبيعة المسيح وأمه. وامتد الجدل إلى القبائل العربية في الشمال.

(١) حياة محمد ص ٧٠-٧٢.

(٢) السيرة النبوية ص ٦٣-٧٣، خاتم الأنبياء ص ٤-٥، مواقع العرب وأقوامها، الرحيق المختوم ص ١٥-٢٢.

(٣) خاتم الأنبياء ص ١٢-١٤.

وفي نفس الوقت ضعفت المجوسية. وحوصرت شبه الجزيرة بين قوتين: المسيحية والمجوسية، الشرق والغرب. ومع كل منهما أنصارهما من القبائل في شمال شبه الجزيرة العربية، شرقا وغربا^(١). مسخت الديانات في الإمبراطوريتين الشرقية والغربية، وفقدت أصالتها وقوتها. فقد المصلحون، غاب المعلمون.

ازدادت الإتاوات في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتضاعفت الضرائب. وقامت الثروات والاضطرابات للتخلص من الحكم وتفضيل الغرباء عليهم. وقد هلك في ثورة واحدة في عصر جستنيان الأول ثلاثون ألف شخص. أصبح المهم كسب المال وإنفاقه على الترف. ووقعت بيزنطة في تناقض بين الدين والدنيا، بين المال والرهبة، بين أهل الظاهر وأهل الباطن. وعمت الرياضة الجسدية المصارعة بين الرجال أو بين الرجال والسباع. واضطهدت مصر والمصريون دينيا وسياسيا، وعمها الشقاء وهي من أغنى البلدان. استغلها الروم كما استغلوا سوريا. كثرت المظالم. وعمت العبودية، وشراء الرقيق، وبيع الأبناء^(٢).

كان العرب على عدة أنواع في شبه الجزيرة العربية. الأول أهل الكتاب، اليهود والنصارى. وكان كل منهم فرقا. والثاني العرب البائدة، عبدة الأوثان. والثالث العرب الذين بقوا من عهد إسماعيل، وكانت قريش تظن أنها منهم. وقد انخرط العرب عن ملة إبراهيم، وعبدوا الطواغيت في الكعبة^(٣).

كانت في ذلك الوقت قوتان محليتان: اليمن والأحباش، وقوتان دوليتان الفرس والروم، كل منهما يريد غزو اليمن، باب شبه الجزيرة العربية. وكان للفرس والروم أتباع في شبه جزيرة العرب، المناذرة للفرس في الشرق، والغساسنة للروم في الشمال. فجاء الإسلام في منطقة وسطى بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، الحجاز لتوحيد

(١) حياة محمد ص ٦٨-٧٠، السيرة النبوية ص ٣١.

(٢) السيرة النبوية ص ٣١-٣٣. ويتم الاعتماد على كتاب جيون: انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ص ٣-٥، وفتح العرب لمصر لألفرد بتلر، وأيضا:

- Historians history of the World vol. VII. p.73.

- T. Walter Wallbank & Alastair M. Taylor: Civilization. Past and Present. pp. 26162-

(٣) سيد الأنام ص ٤٠-٤٥.

شبه الجزيرة أطرافها حول وسطها كمركز قوة جديد. جاء الإسلام، العقيدة الدينية والسياسية للعرب، لتحرير أطرافها الأربعة من احتلال القوى الجارية. بدأ الإسلام ديناً قومياً للعرب وفي نفس الوقت رسالة عالمية لكل البشر^(١).

٢- المصاهرة والنسب

وتحلل السيرة أجناس العرب وأنسابهم في ثقافة تقوم على الأجناس والأنساب. فالعرب من ولد إسماعيل وقحطان. ومن عدنان تفرقت القبائل. وأبو بكر وعمر من أنساب العرب. فالخلافة عربية كما أن النبوة عربية. ولا يضير الوحي أن ينزل على العرب المستعربة وليس فقط العرب العاربة. فكل من تكلم العربية فهو عربي. ولا يضير العرب من أي جنس أتوا خاصة لو اختلف علماء الأجناس في ذلك. وهو أشبه بما يقوم به اليهود لإثبات أنهم من نسل إسحق بن إبراهيم، وأنهم شعب متجانس عبر العصور حتى اليهود الحاليين من روسيا وأوروبا الشرقية والولايات المتحدة المهاجرين من أوروبا في عصر الاضطهاد والفارين من أسبانيا إلى العالم العربي وقت سقوط الأندلس. وقصي بن كلاب هو أب العرب، ولد من أولاد فهر. وكانت مكة في يد جرهم حتى غلبتهم خزاعة. أخذت سدانة البيت حتى أخذها قصي وانضمت له قريش. وظلت في أولاده عبد مناف، وهاشم وأكبرهم. لديه السقاية والرفادة وهو والد عبد المطلب جد الرسول. واستمرت في بني هاشم^(٢).

وفي روايات أن قحطان وعدنان ولدا إسماعيل أبي العرب. ومن عدنان تفرقت القبائل. وكان له معد وعك. وعاش عك في اليمن حيث عاش الأوس والخزرج وأمرئ القيس. وتفرق أولادهم حتى خراسان. وعاش أولاد معد في اليمن أيضاً. ومنه خرج النعمان بن المنذر ملك الحيرة، ومنه أتى أبو بكر الصديق. ومن هنا جاء ارتباط الإسلام باليمن. فالرسول يمني، والحكمة يمانية، والقضاء يمني، والزيدية يمانية تجمع بين المعتزلة في التوحيد والعدل والثورة في الإمامية بالرغم من الاقتتال الدائر حالياً بين الزيدية

(١) الحكم والإمارات في العرب: اليمن، الحيرة، الشام، الحجاز، الرحيق المختوم ص ٢٣-٣٤.

(٢) ابن هشام ج ١/ ٣٠-٣٥، ابن خلدون ص ٣٩-٥٥، السيرة النبوية ص ٧٣-٧٤.

والشوافع، بين الخوئين والسلطة السياسية^(١). وتروى قصة هاجر وإسماعيل وسكنهما بقعة بيت الله الحرام وهي لا تزال خلاء^(٢). وبدأ إعمار أم القرى أي بناء البيت.

ويكون النسب من خلال الأمهات أكثر من خلال الآباء، والأولاد أكثر من البنات^(٣). وهو التصور الدموي للنسب كما هو الحال في اليهودية. فاليهودي من كانت أمه يهودية، وتنتقل السلالة من خلال الذكور. وهو صراع في تحديد النسب بين الأم والأب.

وتظهر أهمية مصر في «الأنساب»^(٤). فقد أوصى النبي بأهل مصر، ربما لأن إسماعيل من هاجر، وهاجر مصرية^(٥). فهم أهل ذمة وأهل البلاد السود، السمر الشداد يُعتقدو الشعور كما تقول إحدى الأغاني المصرية المعاصرة^(٦). كما أن مارية القبطية التي تسرى بها الرسول، هدية المقوقس من مصر. والتوصية بأهل مصر ليس فقط من أجل النسب والجوار والمصاهرة والتجارة بل لصفات في شعب مصر، جندھا خير أجناد الأرض، وشعبھا مرابط إلى يوم القيامة، بالرغم من وصف مصر في القرآن بأنها أرض الفراعنة، أرض الطغيان^(٧).

وكان الصراع بين المصاهرة والدين الجديد. فكل قبيلة كان لها اتصال بأخرى عن طريق المصاهرة أي عن طريق النسب^(٨). فجاء الدين الجديد وجعل العلاقة بين القبائل

(١) ابن هشام ج١/ ٣١-٣٥.

(٢) سيد الأنام ص ٤٦-٥٠.

(٣) أنساب خزاعة، أولاد مدركة وخزيمة، أولاد كنانة وأمها، أولاد النضر وأمها، ولد مالك بن النضر وأمّه، أولاد فهر وأمها، أولاد غالب وأمها، أولاد لؤي وأمها، ابن هشام ج١/ ١٠٣-١٠٨، ابن خلدون ص ٥٧-٧٢.

(٤) «أنكم ستفتحون مصر: وهي أرض يسمى فيها القبراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما»، وفي رواية «ذمة وصهرا»، الجوهر ج١/ ٣١١.

(٥) وهو قول الرسول «الله الله في أهل الذمة، أهل المودة السوداء، الشحم الجعاد فإن لهم نسبا وصهرا». وأيضا «إذا افتتحت مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما»، ابن هشام ج١/ ٢٩-٣٠.

(٦) هي أغنية «أصله ما عداش على مصر».

(٧) انظر مقالنا: مصر بين الأمان والطغيان، الدين والثورة في مصر ج٧، مدبولي، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٦٨-١٧٠.

(٨) غاية الرسول ص ١٩١.

علاقة فكر وعقيدة حتى ولو تفرقت الأنساب. وفي نفس الوقت كان النسب قوة للعقيدة. وكان تحول أعمام الرسول إلى الإسلام مثل حمزة قوة له. فالدين الجديد يُعيد إقامة العلاقة في الأنساب على أساس العقيدة وليس على أساس رابطة الدم. فالقبيلة مظهر ضعف لو قامت على رابطة الدم، ومظهر قوة لو قامت على أساس العقيدة.

وتتضمن هذه المرحلة بعض الحكايات عن شعراء العرب. فالأنبياء شعراء، والشعراء أنبياء مجازاً. والشعر أحد مصادر الثقافة العربية مثل الوحي. فقد خرج أسامة ابن لؤي إلى عمان بعد أن أخرجه أخوه عامر. فقاً أسامة عين أخيه. ثم نهشت حية ناقته ثم هو نفسه فقتلته. وأتى الرسول بعض أولاده يتسبون إلى أسامة فسأل الرسول: الشاعر. وذكر أحد الصحابة بيتاً له. وكان الرسول على علم به^(١). وخرج عوف بن لؤي فحبسه أخوه في النسب وزوجه وألحقه به وآخاه. وانتسب إلى بني ذبيان. وكان محط تقدير من عمر بن الخطاب. وتستمر أنساب العرب^(٢). والغاية من هذه الأنساب الوصول إلى نسب عبد مناف وبني هاشم وبني عبد المطلب^(٣)، ثم الوصول إلى نسب الرسول^(٤). وهي طريقة عربية في تحديد شرف النسب، قضى عليها الإسلام. فالبشر جميعاً متساوون. يتفاضلون بأعمالهم وليس بأنسابهم.

٣- ديانات العرب

يعني «تأسيس الرسالة» اكتشاف أسسها وجذورها قبل نزول الوحي سواء قبل ميلاد الرسول في «جذور الرسالة» أو منذ ميلاده حتى نزول الوحي في «نشأة الرسالة». وكلها ألفاظ متداخلة «التأسيس» و«الجذور» و«النشأة». فالرسالة لم تأت من فراغ إلى فراغ بل كان لها أسسها فيما يسمى بالعصر الجاهلي، ديانات العرب قبل الإسلام. كانت

(١) ابن هشام ج١/ ١٠٩.

(٢) نسب مرة، سادات مرة، نسب زهير الشاعر، أولاد كعب وأمهم، أولاد مرة وأمها، نسب بارق، ولدا كلاب وأمها، نسب جثمة بنية أولاد كلاب، أولاد قصي وأمهم، السابق ج١/ ١٠٩-١١٦.

(٣) أولاد عبد مناف وأمها، أولاد هاشم وأمها، أولاد عبد المطلب وبني هاشم، السابق ج١/ ١١٦-١١٩.

(٤) رسول الله وأمها، السابق ج١/ ١١٩-١٢٠.

هناك اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية وعبادة الأوثان. وكانت شبه الجزيرة العربية ملتقى أديان الشرق والغرب، والشمال والجنوب، تتعايش فيها بينها دون صراع أو حروب. الإسلام فقط عندما أتى جعل الإسلام هو الدين الشامل، وتسامح مع اليهودية والنصرانية ولكن أبطل عبادة الأوثان وكل مظاهر الشرك كالمجوسية، أو عبادة الكواكب عند الصابئة.

ولا تعني ديانات العرب «أنساب» العرب. فالأنساب مفهوم بيولوجي عرقي. ولم تأت الرسالة للعرب بهذا المفهوم الشائع في اليهودية باعتبارهم عرقا. وهو ما أكدته الصهيونية. بل تحولت الرسالة من بني إسرائيل إلى العرب لأسباب عقائدية: عبادة العجل، التجسيم، التشبيه، إنكار المعاد أو أخلاقية: عدم تطبيق الشريعة، عصيان الأنبياء وقتلهم، الأنانية، العدوان على الغير.

وهو من أضعف الأجزاء عند القدماء لأنه ما قبل الميلاد. والمحدثون نقلوا المنهج عن الغرب، تاريخ الأديان المقارن والدراسات السامية. ولا يبدو مرتبطا ارتباطا طبيعيا بالميلاد والبعثة والرسالة^(١).

تعني «جذور» الرسالة ما قبل الرسالة فيما يسمى بالعصر الجاهلي. وهو ليس جاهليا لأن كثيرا من عبادات الإسلام خاصة الحج ومناسكه كانت موجودة في هذا العصر منذ إبراهيم. والهدف منه إثبات التواصل بين مظاهر التدين والعبادات قبل الإسلام وبعده، وليس الانقطاع كما يقول الدعاة والتعارض الشديد بين الجاهلية والإسلام، سواء الجاهلية القديمة أو جاهلية القرن العشرين^(٢). التواصل والانقطاع قرينان وهناك اتصال بين ما يسمى بالجاهلية والإسلام. والناس معادن، «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام». فالإسلام دين طبيعي قبل الوحي، ودين موحى به بعد

(١) حياة محمد ص ٦٦-٨٠، حالة سكان جزيرة العرب وما حولها قبل مبعثه، سيد الأنام ص ٤٠-٤٥ / ٧٤-٧٦، الرحيق المختوم ص ٣٥-٤٢.

(٢) هو تعبير محمد قطب في كتاب له بنفس العنوان. وهناك حديث «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، ودماء الجاهلية موضوعة، ورأى الجاهلية موضوع». «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن تمسكتم به: كتاب الله»، سيرة النبي ص ٣٨٠.

الوحي^(١). وما من مولود إلا ويولد على الفطرة قبل أن يتبنى ديناً اجتماعياً، اليهودية أو النصرانية أو الإسلام^(٢). وأحياناً تكون العلاقة انقطاعاً لا تواصلًا. فالإسلام يهدم ما قبله في الشرك. والهجرة تهدم ما كان قبلها في بقاء الإسلام سرا. والحج يهدم ما قبله في عبادة الأصنام^(٣). كما يأتي الإسلام غريباً ويعود غريباً كما بدأ. ويأتي زمان يجب الإنسان أن يرى فيه الرسول أكثر مما يرى ولده.

لذلك من المهم دراسة الديانات في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لمعرفة عناصر التواصل والانقطاع بينها وبين الإسلام. فالإسلام أحد الديانات التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية وتطور لما كان موجوداً قبله، اليهودية والنصرانية والحنيفية التي كانت في اللاوعي العربي. كانت عبادة الأصنام مجرد ظاهر لتعدد القبائل، كل قبيلة لها صنمها كما أن لها سيدها ومضاربها وشعراءها^(٤). وتطلعاتها إلى السيادة والسيطرة وأنسابها التي تعطيها العزة والأصالة.

أتى الدين الجديد بعد أن أصبحت اليهودية مجموعة من الطقوس والعبادات، أشكال دون مضامين، وحركة دون روح. وعادت إلى وثنيها الأولى التي طالما حاربها الأنبياء، من عبادة الله إلى عبادة العجل الذهبي تأثراً بالدين المصري القديم، عجل أبيس، وتعبيراً عن حب الدنيا. ويشهد التلمود أن الوثنية كان لها جاذبية خاصة لهم. ويكشف «تلمود بابل» الذي يقدسه اليهود أكثر من التوراة عن مستوى اليهودية في هذا العصر^(٥). وتم تحريف المسيحية. ووقعت في المغالاة والتأويل البعيد عن الذوق ووثنية

(١) «أسلمت على ما أسلفت من خير»، بمناسبة حكيم من أشرف قريش الذي كان يفعل المعروف في الجاهلية، ويعتق الرقاب تحتاً، الجوهرة جـ ١/ ٦٨.

(٢) «ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»، السابق ص ٢٥١. «والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام. وليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله»، شاتل الرسول ص ٢٤٣.

(٣) «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»، بهجة المحافل ص ٢٧٠.

(٤) اعتمدنا فقط على المادة الموجودة في كتب السيرة دون كتب تاريخ الأديان التي درست هذه المرحلة في حد ذاتها. وقد كتب فيها الكثير من علماء الساميات.

(٥) «من خفة العقل، وسخف القول، والاجترأ على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل... على

روما المنتصرة. وأصبحت ركاما فوق تعاليم المسيح البسيطة. واختفى نور التوحيد والإخلاص لعبادة الله. وتحولت من الرسالة إلى الرسول، ومن المبدأ إلى الشخص. وتحول المسيح من إنسان إلى إله. وانقلب التوحيد الذي طالما بشر به الأنبياء إلى تثليث، والعقل إلى سر. وعادت الوثنية إلى الإيمان المسيحي من الأمم المجاورة. لم تنته الوثنية بل تغلغلت في النفوس، وأله الشهداء، وصنعت لهم التماثيل. وأصبحوا وسطاء بين الله والإنسان. وتحول عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح. وتقاتل نصارى الشام والعراق من ناحية ونصارى مصر من ناحية أخرى حول حقيقة المسيح. وتحولت المدارس اللاهوتية إلى معسكرات متنافسة، يكفر بعضها بعضا. وانشغل المسيحيون بحرب العقائد عن محاربة الفساد وإصلاح الحال وصلاح الإنسانية^(١).

والسؤال هو: ما هي مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام بالإضافة إلى القرآن والحديث وبعض روايات الصحابة؟ ربما لا توجد مصادر مستقلة مدونة إلا بعض الروايات الشفهية المتداولة قبل ظهور الإسلام وبعده. وغالبها تحيط به الأساطير من الإسرائيليات أو من الثقافة العربية قبل الإسلام. فما هو الحد الفاصل بين التاريخ الأسطوري والتاريخ الفعلي؟ لم تركز عليها كتب السيرة كثيرا إما لصعوبة الحصول على المادة العلمية أو لأنها تعتمد على المصادر الشفهية التي كانت موجودة في الثقافة العربية قبل مولد الرسول. وقليل ما أشار القرآن أو الحديث إشارات بعدية بعد نزول الوحي إلى ما كان عند العرب قبل الإسلام.

٤ - دين إبراهيم

وكان دين إبراهيم، الحنيفية، ذائعا في مكة وعليه كثير من الخنفاء. والرسول

ما وصل إليه المجتمع اليهودي في هذا القرن من الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني، السيرة النبوية ص ٢٤.

(١) السيرة النبوية ص ٢٤-٢٦، وأيضا: «ظاهريات التأويل». ويعتمد التدوي على مقال «التثليث المقدس» في «دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة» و«العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» لمحمد طاهر التنير. وأيضا «فتح العرب لمصر» لألفرد بتلر، و«حرب الكنائس» لأسدرستم. كما يعتمد على مؤلف غربي:

Rev. James Houston Baxter: The history of Christianity in the light of modern knowledge, Glasgow, ١٩٠٩, p.٤٠٧.

أحدهم. يارس شعائر إبراهيم. وهو الذي أقام القواعد، وبنى الكعبة، وحفر زمزم. وقد رأى عبد المطلب رؤية تأمره بحفر زمزم، الذي دفن بين صنمي قريش، وهي بشر إسماعيل التي شرب منها وهو صغير بعد أن التمس له أمه الماء فلم تجده. وسعت بين الصفا والمروة تدعو الله. فبعث جبريل وهمز الأرض بحفره فظهر الماء. وخافت أمه السباع عليه فجرت إليه فوجدته يشرب الماء بيده من تحت خده^(١). فكانت ولاية البئر لعبد المطلب. ووقعت آيات في حفر عبد المطلب زمزم. وفي رواية ثانية ركب عبد المطلب مع نفر من أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة قريش نفر. وفي الطريق فني ماء عبد المطلب وأصحابه. وأبت قريش استسقاءه. والهلاك ينتظر الجميع. فاقترح أن يحفر كل رجل حفرة لنفسه. فإذا مات وُوري فيها، فضياع واحد خير من ضياع الجميع. ولما لم يظهر الماء أمر بالارتحال. ثم انفجرت من تحت أقدامها عين ماء عذب. فكبر عبد المطلب وأصحابه. وأنقذ الجميع. وسقى أصحابه وقريش. ثم تراجعت قريش عن مخاصمته اعترافا بفضلها، وأن الله الذي أسقاه أمامهم أسقاه أيضا في زمزم. وهي رواية أخرى أحدث من رواية إبراهيم وإسماعيل وهاجر في العهد القديم. وفي رواية ثالثة سميت زمزم لأنها لا تنزف أبدا ولا تئذم، تسقي الحجيج الأعظم وتروي العطش، وتحبي الممات في الإنسان والحيوان والنبات. والإسلام دين الحياة، والحياة أحد مقاصد الشريعة. والماء من السماء على الأرض السوداء يُحيلها إلى خضرة ونماء. وهو دليل على وجود الله وقدرته. ومن كان بيده فسيلة قبل أن يموت فليغرسها. وعودان أخضران على قبر الميت يرحمانه ويخففان عذابه. وهي عادات أيضا من قدماء المصريين في تقاليد الموت والعزاء. وما زالت مستمرة حتى الآن في زيارة المقابر وإحضار الخوص الأخضر والورود الزاهية ونثرها على قبر الميت رمزا للحياة المستمرة التي تقهر الموت.

وقد أثنى الصوت أربع مرات أولا بلفظ طيبة ثم بـره ثم المضمونة ثم زمزم. وأصبحت زمزم نموذجا لأبار أخرى تحت وطأة العطش^(٢). فبعد أن نازعت قريش

(١) ابن هشام ج١/ ١٢٠-١٢١/ ١٤٨-١٥٢، صحيح السيرة ص ٣٤، ابن خلدون ص ١٥-٢٠، حياة محمد ص ٨١-٩٧، مختصر سيرة (١) ص ٨-١٨، السيرة النبوية ص ٢٩/ ٥٤-٥٥، صحيح السيرة ص ٤٤-٤٦، الخصائص الكبرى ج١/ ١١٢-١١٥.

(٢) وتعني زمزم «لا تنزف أبدا ولا تئذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل»، ابن هشام ج١/ ١٤٨-١٤٩.

عبد المطلب في زمزم ذهبوا جميعا إلى كاهنة بني سعد للحكم بينهم. فلما عطشوا في الطريق انفرجت تحت راحلة بن عبد المطلب عين من ماء عذب فكبر عبد المطلب. وقررت قريش عدم مخاصمة عبد المطلب في زمزم بعد ذلك. واستدعى حفر البثر ذكر بنار قريش بمكة، أسمها ومن حفرها^(١). وفي رواية أخرى ذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى وادي مكة. وبنى الكعبة وبدأ تحديد المناصب فيها. وتغلبت قريش عليها. وبنيت فيها المنازل. وحفرت زمزم. وأراد أبرهة الاستيلاء عليها^(٢).

وكان البيت الحرام بمكة مقدسا قبل الإسلام. واستمر كذلك بعده. تتولى ولايته القبائل حتى آلت إلى قريش. وأكد الإسلام هذه الولاية بظهور محمد. وكانت مناسك الحج: صعود عرفة، السعي بين الصفا والمروة، رمي الجمار وإفاضة المزدلفة، والسقاية موجودة قبل الإسلام يارسها العرب بصرف النظر عن دياناتهم وعقائدهم^(٣).

وكان أولاد إسماعيل وجرهم بمكة. واستولى قوم كنانة وخزاعة على البيت. وبقي جرهم بمكة وطرد بني بكر لهم. واستبد قوم من خزاعة بولاية البيت. وكان الغوث بن مريلي الإجازة للناس بالحج. وكانت صوفة ترمي الجمار. ثم تولى بنو سعد أمر البيت بعد صوفة. ثم تولى صفوان وكرب الإجازة في الحج. ثم تولت عدوان إفاضة المزدلفة. ثم غلب قصي على أمر مكة. وجمع أمر قريش. وعاونته قضاة. ثم أصبح قصي أميرا على مكة. واختلقت قريش بعد قصي. وعقد حلف المطيين، ثم حلف الأحلاف. ثم وزعت القبائل في الحرب. ثم تصالح القوم على السقاية والرفادة والحجابة واللواء^(٤). ثم تولى هاشم الرفادة والسقاية وخدمة الحاج. ثم تولاهما عبد المطلب. وجاء الإسلام فأكد ولاية بني عبد المطلب. ف الإسلام مرحلة من تاريخ الولاية على مكة مركز العرب

(١) السابق ج١/١٤٩-١٥٤.

(٢) زعماء قريش: قصي بن كلاب، هاشم، عبد المطلب، حياة محمد ص ٨٤-٩٧، السيرة النبوية ص ٥٢-٥٣، خاتم الأنبياء ص ١٥-٢٣.

(٣) ابن هشام ج١/١٢٥-١٣٠، حياة محمد ص ٨١-٩٠.

(٤) لذلك قال الرسول وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزد إلا شدة، ابن هشام ج١/١٣٩-١٤٣.

ومزاره الأول. كان للعرب قبل الإسلام قبلة هي مكة^(١). وحج هو المسجد الحرام، وشعائره هي شعائر الحج التي أكد الإسلام استمرارها. فالإسلام ليس غربيا على شبه الجزيرة العربية ولا طارئا على دياناتها ولا وافدا على شعائرها بل هو الذي وجهها فقط نحو عبادة الله الواحد بدلا من الأصنام المتعددة. وهو الذي هذبها بلا عري أو تصفيق أو تزمير. وجعل العري إحراما، والتصفيق والتزمير إهلالا وتكبيرا. فالإسلام حركة تهذيب وتنقية لما هو قائم وليس إحلالا له أو بديلا عنه.

وانتهت النزاعات حول البيت الحرام بحلف المطيين والمصالحة بين القبائل^(٢). وأصبح للعرب مركز هي مكة، ومعبد هي الكعبة. تجمع أطراف شبه الجزيرة العربية كما تجمع القدس صحراء الشام. فللعرب قبلتان مكة والقدس. الأولى تجمع عرب الجنوب، والثانية تجمع عرب الشمال.

ولمكة أسماء عديدة مثل الرسول: بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، والناسه أو الباسه والرأس، وصلاح، وأم القرى، والحاطمة، والعرش، وطيبة^(٣). وكثرة أسماؤها تدل على صفاتها ومركزيتها وأولويتها وأثرها في شبه الجزيرة العربية.

٥- حلف الفضول

وكان حلف الفضول نموذج الإسلام قبل الإسلام، حلفا أن تنصر فيه القبائل المظلوم، وتأخذ حقه من الظالم. وقد أشاد الرسول به. ولو كان حاضرا لكان أحد موقعيه. فالإسلام هو العدل. لا فرق بين مسلم ونصراني ويهودي. وإمام كافر عادل خير عند الله من إمام مسلم ظالم. وعلى العدل قامت السماوات والأرض. ومن وصايا الإسلام عدم الطغيان في الميزان، والوفاء بالكيل^(٤). وقد حول الحلف الخلاف بين القبائل إلى تعاون بينها، والحرب بينها إلى سلام، وروح الجاهلية إلى روح الإسلام قبل

(١) السابق ج١/ ١٣١-١٣٩.

(٢) السابق ج١/ ١٣٧-١٣٩.

(٣) وتسمى أيضا أم رُحْم، كوثي، الإشارة ص ٥٥-٥٧.

(٤) ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَلِّقِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى الْآثَنِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

أن يظهر. فالإسلام دين طبيعي قبل أن يكون ديناً سماوياً للتأكيد عليه. وقد عقد الحلف في قريش. وحضره بنو هاشم وبنو عبد المطلب وغيرهم من القبائل. وقد استمر الحلف نموذجاً للعدل حتى بعد ظهور الإسلام. يهابه الناس ويحترمون ويلجأون إليه كحكم ومرجع^(١). يفرح به المسيحيون العرب لأنه يؤكد القيم الإسلامية دون ذكر للدين. ويسر به العلمانيون العرب لأنه أحد أشكال العلمانية، التأكيد على القيم الإنسانية دون ربطها بالدين^(٢).

وسمي «الفضول» إما لأن الداعين له كانت أسماؤهم «الفضل» أو لرد الفضول إلى أهلها. وكان قبل البعثة بعشرين عاماً. وكان الدافع إليه منع أحد العرب دفع ثمن ما اشتراه الآخر. فاستصرخ المظلوم العرب^(٣). فاجتمع الفضلاء من العرب، وعقدوا الحلف، وردوا للمظلوم حقه. وقد استمر ذلك الحلف لأخذ حق المظلوم من الظالم بعد الإسلام. فقد نازع الحسين الوليد في حق. وهدد بالدعوة إلى حلف الفضول.

كان الوعي العربي ناضجاً تاريخياً لاستقبال الدين الجديد. وكان ممهداً لتبني الرسالة بعد أن لم تستطع ديانات العرب وأحلافهم جذب كل العرب وتوحيدهم. فالإسلام مرحلة في تطور الوعي الأخلاقي العربي، وتقدم الوعي التاريخي البشري. فأصبح من

(١) ابن هشام ج١/ ١٣٩-١٤١، «تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجذبا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه. وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلماً». وقول الرسول «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو ادعى به في الإسلام لأجبت»، السابق ج١/ ١٤٠، الإشارة ص ٧٩، السيرة النبوية ص ٢٨-٣٢، ٣١-٣٣، ١١٢-١١٣، صحيح السيرة ص ٣٥-٣٧، الرحيق المختوم ص ٥٩. «شهدت مع عمومي في دار ابن جدعان من حلف الفضول ما لو دعيت إليه اليوم لأجبت»، سيرة النبي ص ١١٦، السيرة الحليمية ج١/ ١٨٨-١٩٢، حياة محمد ص ١٠٦، نور اليقين ص ١٦، الأسوة الحسنة ج١/ ١٣٤-١٣٥، مختصرة سيرة (٢) ص ٢٠.

(٢) ويركز جورج جبور من سوريا كل جهوده على إبراز دور هذا الحلف في تاريخ العرب الماضي والحاضر. (٣)

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ∴ بطن مكة نائي الدار والنفر

وعمر أشعث لم يقضي عمرته ∴ يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت كرامته ∴ ولا حرام لثوب الفاجر القدر

ابن هشام ج١/ ١٣٩-١٤١.

السهل إقامة الدين الجديد على الأخلاق بدليل خلف الفضول، ونصرة المظلوم على الظالم. وتبدو الأسس الأخلاقية في بيعة العقبة الأولى^(١). كما عقد الرسول ميثاق مؤاخاة بين المؤمنين بعد الهجرة إلى المدينة. فالتاس أمة واحدة، يتعاملون بالقسط والمعروف، دون ظلم أو عدوان، ودماؤهم حرام فيما بينهم^(٢). والعقل البديهي والأخلاق الطبيعية ما يلتقي عليه البشر بصرف النظر عن دين الوحي. وهو ما سماه المعتزلة «الحسن والقبح العقلين». كما يقوم الدين على الاقتناع الشخصي لدرجة البكاء مثل خطبة الرسول في الأنصار عندما بدأت بعض المهممات على قسمة الغنائم بأنه فضل لهم الآخرة على الدنيا^(٣).

٦ - عقائد العرب وعاداتهم

وقد ارتبطت الرسالة الجديدة بتاريخ العرب قبلها وتكوينهم اجتماعيا، وعقائدهم وعاداتهم مثل القبلية وزيارة المسجد الحرام والمعجزات والجن والشياطين، والرؤى والأحلام والنبوءات. فالوحي لم ينزل في فراغ بل خاطب ثقافة معينة هي الثقافة العربية. الوحي ليس فقط محمولا بل له حوامله الافتراضية: اللوح المحفوظ الذي دون فيه العلم الإلهي قبل أن يأخذ منه جبريل، وينزل به على الأنبياء والرسل، جبريل الوسيط بين اللوح المحفوظ والنبي، والنبي الوسيط بين جبريل والمرسل إليهم. والمرسل إليهم العرب وغير العرب، البشر جميعا وقدرتهم على الفهم^(٤). هناك الحوامل المعرفية، ثقافات العرب ودياناتهم التي من خلالها خاطبهم الوحي لتغييرها مثل الشرك ووأد البنات أو لتأكيدهما مثل بعض القيم العربية «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» مثل الشجاعة والوفاء والإجارة والشرف والشهامة والكرم. وقد بعث النبي في شبه

(١) «تعالوا، بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف»، السيرة النبوية ص ١٤٣-١٤٤/٤٠٩.

(٢) السابق ص ١٨٧-١٨٨.

(٣) السابق ص ٤٢١.

(٤) من النقل إلى العقل جدا علوم القرآن، من المحمول إلى الخامل، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩. صور من المجتمع العربي الجاهلي: الحالة الاجتماعية، الحالة الاقتصادية، الأخلاق، الرقيق المختوم ص ٤٣-٤٧.

الجزيرة العربية للعرب لفطرتهم وصفاء قلوبهم وإرادتهم القوية وصراحتهم وصراحتهم وواقعيتهم وعزمهم والجد في العمل وروح الامثال للحق. وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة. يكرهون النفاق. يهيمنون بالحرية والمساواة وحب الطبيعة. يعبرون عن الرأي دون خوف^(١).

ومن عقائد العرب قبل الإسلام وبعده الكهانة. لذلك اتهم الرسول بعد البعثة أنه كاهن كما تعود العرب. وقد احتكم عبد المطلب وابن الحارث إلى كاهنة بني سعد هُزيم عندما خاصمتها قريش في ولاية زمزم بأطراف الشام بالرغم من بعدها عن مكة مما يدل على اتصال جنوب شبه الجزيرة العربية بشمالها^(٢). وهناك عرافة الحجاز التي أشارت على عبد المطلب أن يضرب الأقداح فدية لولده عبد الله وزيادة عشرة إبل حتى ينجو عبد الله ففعل حتى مائة من الإبل أي عشر مرات^(٣). وكان شق وسطيح كاهنين مع ملك اليمن، ربيعة بن نصر. قص عليهما رؤيته بعد أن جمع السحرة والمنجمين. فقد أجمعوا على نهاية ملكه وقدوم نبي^(٤). وكان هناك جران قادران على احتمال النار التي تحرق الظالم ولا تضر المظلوم. وكان الكهان والعرافون والمنجمون يقومون بدور الأطباء^(٥). وقد انقطع ذلك بعد الإسلام وحلت محله النبوة.

وكان الإيوان بالملائكة أيضا من عقائد العرب استمر بعد الإسلام. يظهر في الشعر. وكانوا موضوع حديث وحوار مع الملهمين مثل الشعراء والكهنة والعرافين. يحملون العلم، ويقدرون على ما لا يقدر عليه البشر. وكان الإيوان بالجن أيضا من عقائد العرب يفسرون به ما لا يستطيعون تفسيره. أكدده القرآن. وهم أقل من الملائكة من حيث الصفاء الجسدي والأخلاقي، قادرون على الاستماع إلى الوحي والتلصص على ما يقوله

(١) السيرة النبوية ص ٤٥-٥٢.

(٢) ابن هشام ج ١/ ٦٠/ ١٤٩-١٥٢/ ١٥٧، ابن خلدون ص ٧٥-٨٠.

(٣) السابق ص ١٥٨.

(٤) «أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل»، السابق ص ٣٧-٤٠/ ٦٠.

(٥) السابق ص ٤٧-٤٨.

الناس^(١). والشياطين من الجن كانت تأتي الكهان من العرب بأمر الرسول. وهم أقرب إلى الشر منهم إلى الخير، نقيض الملائكة، والجن وسط بينهما.

ومن عقائد العرب قبل الإسلام الشيطان. ففي رواية أخرى لحفر زمزم أخبر عبد المطلب قريشا أنه أمر بحفر زمزم. فسألوه أين؟ فقال إنه لم يُخبر. فطلبوه بالعودة والسؤال، إن كانت الرؤية من الله أخبره، وإن كانت من الشيطان لن يعود. فعاد عبد المطلب وأخبره الله بمكان الحفر، قرية النمل. ولم تتخوف حليلة على الرضيع من الشيطان لأنه ليس عليه سبيل، وقالت أمه إنه عندما حملت به أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام. وضع يديه إلى الأرض ورفع رأسه إلى السماء حين الولادة. وفسر حبران ما يحدث في العين بوجود شيطان يفتن القوم^(٢). والشيطان موجود في كل الديانات الشعبية تجسيدا للشر.

والشورى عادة قبلية أصبحت في الإسلام نمط حكم. فكان العربي لا يأخذ قرارا إلا بعد أن يستشير صحبه أو قومه. وتتعدد الآراء. ويأخذها بأقربها إلى نفسه. كان العرب «ديمقراطيين» بالطبيعة. لا يقررون من تلقاء أنفسهم دون استشارة الأقرباء^(٣). وكان العربي يسمع الرأي الآخر ويقبله أو لا يقبله عن طيب خاطر من الآخر. وقد تعددت أشكالها الآن في الديمقراطية المباشرة أو الديمقراطية البرلمانية أو الديمقراطية الرئاسية. المهم الهدف وليس الشكل وهو موضع الاستبداد بالرأي والتفرد به والتسلط والتحكم والانفراد بالقرار. فهل حدث انقطاع في الوعي العربي بين الماضي والحاضر، بين الشعور والتفرد بالرأي؟

وكانت السبايا والغنائم عادات في الحروب العربية، استمرت بعد ظهور الإسلام وانتشاره وغزواته، وقتنها الفقه. وقد أصبحت عنصرا مهما في الغزوات والحروب لدرجة الاختلاف حول قسمتها، ونزول القرآن لحل الخلاف بين المقاتلين. وقد خاصمت فاطمة أبا بكر لأنه لم يعطها نصيبها في فذك. وكان الدافع على غزوة بدر

(١) صحيح السيرة ص ٥٦-٥٧.

(٢) ابن هشام ج ١/٤٨/١٥٠-١٥٢/١٦٧.

(٣) التشاور حول وضع الحجر في الكعبة، ابن هشام ج ١/١٩٤.

الأولى قطع الطرق على تجارة قريش وهي عائدة من الشام، لنشر الدعوة، إضعاف الخصم اقتصاديا. وأحيانا يكون الدافع على الغزوة أو من نتائجها الغنائم والأسلاب لنشر الإسلام. فالجند جند بصرف النظر عن قادتهم العظام من المهاجرين والأنصار. وقبل زواج عبد الله تذكر أنكحة الجاهلية الأربعة^(١).

وكان من عادات العرب الاستكاح كدليل تحالف وتعاون بين القبائل وعلامة مصاهرة ونسب^(٢). وقد طبق على الرسول في مكة أيام الاضطهاد. فالمجتمع كله مجتمع مصاهرة ونسب وقرابة في الزواج والمعاهدات والحرب. وكان الرسول يبقي عقد النكاح الأول بعد أن يسلم الزوجان تخفيفا لهما وبيان للتواصل بين ما قبل الإسلام وبعده^(٣). فالإسلام لا يبدأ من فراغ بل يبنى على ما هو موجود، ويطوره لما هو أفضل.

والرجم والصلب عادات جاهلية استمرت في الحدود الإسلامية. لذلك تقبلها الناس بسهولة^(٤). ولم تعد عادات الآن. لذلك يصعب تقبلها. ويشدد النقد لها باسم حقوق الإنسان. واستمرت من اليهودية والقانون الروماني. لذلك حكم على مارية المجدلية في فلسطين بالرجم لولا أن يسوع المسيح عفا عنها بعبارة الشهيرة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر». كما حكم على يسوع المسيح بالصلب. وكان من عادة الرومان إطلاق سراح أحد المحكوم عليهم الثلاثة لولا أن الحكم نفذ على يسوع. ظل الرجم حتى الآن في بعض النظم السياسية المحافظة سياسيا أو التقدمية سياسيا والمحافظة تشريعيا. وأصبحت محط هجوم ونقد وتشويه لصورة الإسلام في الحضارات الأخرى. وما زال الشنق عادة تمارس منذ الحروب القديمة حتى العصر الحاضر سواء في قانون العقوبات في معظم الدول العربية أو بعد العدوان الأجنبي على الدول والقبض على قادتها كما حدث في العراق.

(١) الأول، نكاح الناس اليوم عن طريق الخطية. والثاني نكاح الاستضعاف وهو إرسال المرأة كي تستضعف من آخر رغبة في الأولاد. والثالث نكاح الرهط وهو اجتماع عشرة على امرأة فإذا ولدت اختارت أباه منهم.

والرابع نكاح البغاء وهو اجتماع الرجال على امرأة ذنية، بهجة المحافل ص ٤٣-٤٤.

(٢) قال الرسول «إنها هو أبو هند امرؤ من الأنصار فانكحوه وانكحوا إليه»، ابن هشام ج ١/ ٥٦٩.

(٣) السابق ج ٢/ ٣٥٤.

(٤) السابق ج ١/ ١٦٢.

وكان قطع اليد عقاباً للسلار في عادة في قرش مثل الذي حدث لمن سرق الكنز في جوف الكعبة^(١). وكان عادة في فارس وعند الرومان وفي مصر القديمة. وما زالت موجودة في البلدان التي تدعي تطبيق الشريعة الإسلامية، وتطبيقها على الفقراء دون الأغنياء، وعلى الضعفاء دون الأقوياء، وعلى المهاجرين دون رعايا البلاد الأصليين، في القليل دون الكثير، دون عمل بقول الرسول «إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف طبقوا عليه الحد».

وكان الشارب واللحية عادة عربية استمرت بعد الإسلام في شبه الجزيرة العربية^(٢). تبناها الرسول لأنه عربي، وليس لأنه رسول. وظلت علامة مميزة للعربي المسلم داخل الجزيرة العربية وخارجها. ولا ترتبط بالإسلام في شيء. وقد انتشر الإسلام الآن خارج شبه الجزيرة العربية. وأصبح عدد المسلمين غير العرب أضعاف المسلمين العرب. كل يظهر بمظهر قومه، ويلبس لباسها.

المهم هو تأكيد التواصل بين الجاهلية والإسلام وليس التقابل الوعظي بينهما مثل تحريم نكاح الأمهات والبنات والجمع بين الأختين أو الزواج بامرأة الأب وغيرها من العادات مثل الاغتسال من الجنابة والمداومة على المضمضة والاستنشاق وعزق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان وقطع يد السارق اليمنى والحج والعمرة^(٣). وتتواصل أخلاق الجاهلية في الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشبهة بالأعداء. وكان الإسلام قد زاد خمس عقائد: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. كما زاد الأركان الخمسة ثم زاد بعض قيم الزهد في الدنيا^(٤). وعلى هذا النحو تكتمل النبوة^(٥).

(١) السابق جـ ١/ ١٩١.

(٢) ابن خلدون ص ١٥٧.

(٣) خلاصة سيرة الرسول ص ٣٦ / ٤٣٥.

(٤) «لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبتوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا في ما عليه تقدمون وفيه تخلصون»، السابق ص ٤٣٥.

(٥) «كادوا من فقهم أن يكونوا أنبياء»، السابق ص ٤٣٥.

جاء الدين الجديد بعد أن ساءت أخلاق العرب. فشي الخمر والقمار ووأد البنات وقطع الطرق والغارات. وكانت المرأة تُورث كالمُتاع. وتعدد الزوجات بلا حدود. وفرق بين الرجل والمرأة حتى في الطعام. سادت العصبية القبلية. وعم الربا بين العرب اليهود. يصل إلى درجة الضعف. وكان للرجل خليلات كما يشاء، وإكراه النساء على الزنا، تؤكل حقوق المرأة، وتؤخذ أموالها، ويحرم إرثها، وتورث كالمُتاع، ويقتل الأولاد خشية الفقر^(١).

٧- عبادة الأصنام

والقوة الثالثة في شبه الجزيرة العربية ولها دينها هم العرب، عبدة الأصنام^(٢). وكان عمرو بن لُحى هو أول من غير دين إسماعيل وعبد الأصنام طبقا لقول لرسول^(٣). جلب الأصنام من الشام إلى مكة ومنها هبل بالإضافة إلى بقايا دين إبراهيم من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة والتلبية^(٤). وقد كان لقوم نوح أصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا^(٥). وعبدت كل قبيلة صنمًا شركا مع الله^(٦). وإساف ونائلة عند زمزم ينحرون عندهما رجلا وامرأة مسخهما الله حجرا عندما وقع الأول على الثاني. وكان للعزى سدنتها لقريش وبني كنانة. وكان لللات أيضا سدنتها لثقيف بالطائف. وكانت عناة سدنتها للأوس والخزرج. وهدم الرسول ذي الخلصة وفلس. ومن الأصنام أيضا رثام والمستوفر وذو الكعبات، ولكل سدنته.

(١) السيرة النبوية ص ٣٩-٤٤، خاتم الأنبياء ص ٦-٩.

(٢) ابن هشام ج١/ ٩٠-١٠١، ابن خلدون ص ٢٠. وقد تنبأ الرسول بهلاكه بقوله «رايت عمرو بن لُحى يمر قصبه في النار فسألت عمن بيني وبينه من الناس فقال هلكوا»، ابن هشام ج١/ ٩٠.

(٣) «إنه كان أول من غير دين إسماعيل. فنصب الأوثان وبحر البحيرة، وسبب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمل الحامي»، السابق ص ٩٠.

(٤) لذلك قال القرآن ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

(٥) ﴿وَقَالُوا لَا تَنْدِرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

(٦) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. الأسوة الحسنة ج١/ ١٤٥-١٤٧.

مختصر السيرة (١) ص ٤٧-٥٠، الوثنية في مكة، تاريخها ومصادرها، السيرة النبوية ص ٧٤-٧٧.

خرج محمد بن لحى من مكة إلى الشام. فلما قدم مآب وبها العماليق ولد عملاق من ذرية نوح رآهم يعبدون الأصنام تمطر وتنصر. فأخذ منهم هبل إلى أرض العرب. ونصبه في مكة. وأمر الناس بعبادته وتعظيمه^(١). وكانت هذه أول عبادة للحجر في ذرية إسماعيل كما كانت قبل إبراهيم. وكانوا يدعون له. واستمر هذا الدعاء بعد ظهور الإسلام مع حذف الشرك منه^(٢). وقد تعجب العرب من جعل الآلهة إلهًا واحدًا في تعبير لهم تحول إلى آية قرآنية^(٣). كانت الاتصالات بين الحجاز والشام قبل الإسلام. واستمرت بعده في عصر الفتوحات. وكانت التجارة تربط بينهما ثم الديانات الوثنية والنصرانية^(٤). وكان الاعتقاد مشاركة الآلهة في تدبير الكون، وقدرتها على النفع والضرر والوجود والفناء^(٥).

كان العرب يقدسون من الحيوان البحرية والسائية والوصيلة والحامي ويفرقون بين الذكر والأنثى^(٦). فنزل القرآن كي ينظم التعامل معها ويقتنها. وربما انتهى الواقع وبقت الدلالة. ولم تعد هذه الحيوانات مركزية في حياة العرب، وبالتالي أصبحت قوانينها قديمة عفى عليها الزمن^(٧). وكان في جوف الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا. وكانت الآلهة من الحجر. وآلهة أخرى من الملائكة والجن والكواكب. الملائكة بنات الله، والجن شركاء الله. يشاركونه في القدرة^(٨).

(١) ابن هشام ج١/ ٩٠-١٠١.

(٢) «ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك»، السابق ص ٩١.

(٣) «أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ»، السابق ص ٩٦.

(٤) ابن خلدون ص ١٦.

(٥) السيرة النبوية ص ٢٩.

(٦) البحرية بنت السائبة، والسائبة الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سييت، لم يركب ظهرها ولم يجز دبرها ولم يشرب لبنها إلا حنيف. وما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنًا ثم خلى سبيلها مع أمها. والوصيلة الشاة إذا أتامت عشر إناث متابعات في خمسة أبطن ليس بينهم ذكر. وجعلت وصيلة. والحامي الفحل إذا نتج له عشر إناث متابعات ليس بينهم ذكر حتى ظهره لم يركب ولم يجز دبره وخلي في إبله يضرب فيها. وإليها أشار القرآن «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»، «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَحْرُومٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُ قِطَّةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ»، ابن هشام ج١/ ١٠١-١٠٣.

(٧) عفى عليها الزمن Obsolete.

(٨) السيرة النبوية ص ٢٩.

وبدا انحلال السلطة في مكة ونقد الوثنية. فكان الزمن مواليا لظهور دين جديد يعيد السلطة إلى مكة، ويعطيها عقيدة جديدة للحفاظ على هذه السلطة^(١). مكة مدينة لا قرية. تجددت عدة مرات، منها مرة على يد قصي بن كلاب. بها حياة منتظمة، ومناصب ومستوليات موزعة. كانت مركزا للنشاط التجاري وحركتي الاستيراد والتصدير. وكانت مزدهرة اقتصاديا ولها نظمها في العملة والمكايل. وكان في قريش أثرياؤها ومترفوها. وكانت مزدهرة بالصناعات والثقافة والآداب. لا تخلو من قوة حربية على عكس نواحيها الخلقية والدينية. وكانت كبرى مدن شبه الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية. من مظاهر الرئاسة فيها: دار الندوة، اللواء، الحجابة، السقاية، والرفادة.

٨- عقائد اليمن

وكانت مراكز العمران في شبه الجزيرة العربية قبل الرسالة مكة حيث بيت الله الحرام، واليمن مركز العمران الثاني. وكانت الغزوات باستمرار للجنوب من الأحباش ومن الفرس^(٢). لذلك كانت اليمن تضارع مكة في عمرانها وحضارتها. هي اليمن المدخل إلى شبه الجزيرة العربية لغزو الأحباش أو الفرس. وكانت مصدر خطر على الحجاز، مكة والمدينة كما حدث مع أبرهة. تمثل الخاصرة الضعيفة في الدفاع عن شبه الجزيرة العربية من البحر. وكانت مصدر قلق وتقلبات سياسية يختلط فيها الدين بالسياسة، والكهانة بالسلطة، والرؤية بالحكم. نشأ الإسلام ضمن هذه الحركات والتقلبات السياسية في شبه الجزيرة العربية وعلى نفس النمط وكجزء منها، أضعفها مرة، وأقواها مرة أخرى. لم يكن للعرب نظام سياسي خاص بل كانوا يخضعون لنظام قبلي باستثناء اليمن التي كان يحكمها ملوك مثل سبأ. وكانت مطمع الأحباش والفرس^(٣).

كان لليمن موقع متميز داخل شبه الجزيرة العربية وامتدادها على الخليج خلال حضرموت وعمان. فصول أمطارها منتظمة جعلت أرضها وجبالها خضراء. فاستقر

(١) حياة محمد ص ١١٣-١١٤، السيرة النبوية ص ٨٣-٩٥، خاتم الأنبياء ص ١١-١٢.

(٢) ابن هشام ج ١/ ٨٣-٨٤.

(٣) خاتم الأنبياء ص ٧-١٢.

فيها البدو. ونشأت التجمعات السكانية في عدن وصنعاء. ونشأت الحضارات كما حدث قديماً حول سد مأرب والملكة سبأ. انتشرت فيها اليهودية والنصرانية. وكانت على علاقة بالحبشة وحضارتها خلال مضيق عدن. حكمتها فارس والحبشة على التوالي. فنشأ صراع بين آسيا وإفريقيا على أرض اليمن. ثم انهار سد مأرب. وظلت العادات البدوية هي السائدة بالرغم من توالي الحضارات الفارسية والرومية عليها. وظلت الوثنية سائدة بالرغم من انتشار المجوسية واليهودية والمسيحية. وقويت الوثنية لتناصر الفرق المسيحية وجعلها العقائدي. وظلت عبادة الأصنام قوية، ديناً وطنياً لليمن، وليس ديناً وافداً من الشرق أو الغرب. كان أول ملوكهم يعرب بن قحطان انتزعه من بقى من قوم عاد^(١). وقد أشار القرآن إلى سد مأرب. وكان موجوداً باليمن أيام سبأ في عصر سليمان^(٢). وشيد السد لحماية الناس من السيل مما يدل على مدى التقدم العمراني في اليمن، وعلى مدى الصلة بين وسط الجزيرة العربية في الحجاز وجنوبها في اليمن.

كانت اليهودية أيضاً في اليمن. فقد سار ذو نواس بجنوده ودعا الناس إلى اليهودية، وخيرهم بين الدين والقتل فاخترأوا القتل فخذلهم الأخدود. وحرقت من حرق بالنار. وقتل بالسيف، ومثل بهم، وقتل منهم الآلاف. وهو ما وصفه القرآن بعد ذلك^(٣). وقتل ذو نواس إمام اليهود ابن الثامر ودفن. فوجده رجلاً قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه وإلا انبعثت منها الدماء وفي يده خاتم مكتوب عليه «ربي الله». وكان ذلك في عصر عمر الذي أمر بدفنه من جديد. فالجو كله إيمان وكفر وشهادة ومعجزات. وهو الجو الذي خرج منه الإسلام. فالإسلام ليس غريباً عن البيئة التي نشأ فيها. لم يأت من خارجها مثل النصرانية من الشمال أو المجوسية من الشرق بل أتى من قلب شبه الجزيرة العربية تطويراً لثقافتها ودياناتها وعاداتها وأعرافها.

وأراد تبان ملك اليمن قتال أهل المدينة فمنعه يهوديان من بني قريظة لوجود من

(١) حياة محمد ص ٧٢-٨٠، سيد الأنام ص ٤٣-٤٥.

(٢) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾، ابن هشام ج ١ / ٣٥-٣٧.

(٣) ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارَ ذَاتَ الرُّقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُعُودٌ. وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، ابن هشام ج ١ / ٥٤-٥٥.

يخرج من الحرم من قريش، تكون المدينة داره وقراره. فرجع عما نواه. واعتنق النصرانية. وكسى البيت وعظمه. فاليهود هنا يعرفون بقدوم النبي. والرؤى كانت شائعة عند الملوك. والبيت كان محط تعظيم وتقديس واحترام، يظاف به، وتحلق الرؤوس. وهو بيت إبراهيم الذي نجسه أهله بالأوثان. وينحر غنده. نهى عن البغي فيه. رجع له بابا ومفتاحا. وعاد إلى اليمن داعيا قومه إلى النصرانية. واحتكم إلى النار التي تحرق الظالم ولا تحرق المظلوم مثل نار إبراهيم التي كانت برذا وسلاما عليه. فأكلت النار الأوثان دون تباين وقومه. ودنا منها حبران يتلوان التوراة حتى عادت إلى مكانها. وكان هذا بداية دخول النصرانية واليهودية إلى اليمن. وهو تاريخ أسطوري خيالي يقوم على المعجزات على نمط إبراهيم. وقد وجد في اليمن حجر نقش عليه أجزاء من الزبور^(١).

ودخلت النصرانية نجران. وكان أهلها أهل فضل واستقامة^(٢). وكان فيمانيون يصلي. فخرج عليه تين فدعا عليه فمات. فرآه صالح قد دخل النصرانية. واستمر في شفاء الناس كما فعل المسيح. فعطف إلى نجران. وكان الناس يعبدون نخلة. فدعا عليها فيمانيون فاقتلعوها الريح. وكان أهل نجران مشركين لهم ساحر من قبل. يعلمون أهلها السحر. وكان وهب بن منبه في خيمة يصلي ويعبد الله. فأعجب أحدهم به حتى أسلم. ووحد الله، وآمن بشريعته. وضربت الأقداح، بعد كتابة كل اسم من أسماء الله على قدح وأضرمت النيران. وقذفت الأقداح واحدا تلو الآخر إلا القدح الذي عليه الاسم الأعظم فخرج من النار. جذور الإسلام إذن في النصرانية، وجذور النصرانية في الشرك. هو دين واحد يتجلى وينكشف تدريجيا. وكان النصراني يشفي المرضى. ولم تنفع معه عذابات قومه له من طرحه من على الجبل أو قذفه في الماء. ثم دخل أهل نجران النصرانية. فنفس الظروف التي ولدت اليهودية والنصرانية كدينين في اليمن هي التي ولدت الإسلام.

(١) ابن هشام ج١/ ٤٢-٤٨.

(٢) السابق ج١/ ٥١-٥٤.

وقد ذكر القرآن قصة الفيل^(١). رواها بحيث أبرز دلالتها وهو استحالة العدوان على بيت الله الحرام وأمنت قريش على مالها، ونزع منها الخوف^(٢). وأعطائها الثقة بنفسها على أنها قادرة على الدفاع عن البيت الحرام، وأن الإسلام وسيلة ناجعة لذلك بعد أن أصبح مركزه وأحد شعائره. والقصة أن فردوس استنصر قيصر الروم على ذي نواس. فاستنصر القيصر ملك الحبشة وهو على دين النصرانية. فأرسل أرياط ومعه أبرهة. فانهمز ذو نواس. ودخل أرياط اليمن وملكها. ثم غلب أبرهة. وقتل أرياط وملك اليمن. وغضب النجاشي على أبرهة ثم رضي عنه^(٣). ثم بنى أبرهة كنيسة ليس على الأرض مثله ليحج العرب إليها. فغضب رجل من النساء وهم الذين كانوا يخلطون الأشهر الحرم بالأشهر الحل، وقد أشار إليها القرآن^(٤). ثم حمل أبرهة على الكعبة ليهدمها. وهزم ذي نفر الذي أراد الدفاع عنها. ثم هزم نفيل وابن معقب. واستسلم أهل الطائف له. وخان أبو رغال، ومات، ومازال قبره يُرجم. واعتدى الأسود من رجال أبرهة على مكة وممتلكات قريش. واستنصر عبد المطلب في الكعبة بالله على أبرهة. وطلب أبرهة الاتفاق مع سيد قريش عبد المطلب على تركهم آمنين بشرط هدم الكعبة. طلب عبد المطلب إيله. وقال قوله المشهورة «إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه». ثم استنصر عبد المطلب العرب. ودخل أبرهة مكة. وبرك فيله ولم يتحرك. وأرسل الله عليهم طيرا من البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار، واحد في المنقار واثنين في الرجلين مثل الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك. وأصيب أبرهة تتساقط أنامله. وانصدع صدره وخرج قلبه ومات «فيا يزعمون» أي أن الرواية فيها شك. ورؤي قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس. واستعظم العرب قريش بعد حادثة الفيل.

(١) «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ»، السابق جـ ١ / ٧١.

(٢) «إِذَا يَلَفَ قَرَيْشٌ . بِإِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»، السابق جـ ١ / ٧١، الإشارة ص ٥٨-٥٩، السيرة النبوية ص ٧٧-٨٠، خاتم الأنبياء ص ٢٣-٢٩.

(٣) ابن هشام جـ ١ / ٥٦-٧٨.

(٤) «وَإِنَّا النَّاسُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَمَّا وَتَعَزَّوْهُ عَمَّا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»، السابق ص ٦١، مختصرة سيرة (١) ص ٣٥-٣٧.

ثم خرج سيف بن ذي يزن وملك وهرز على اليمن. وطلب مساعدة قيصر الروم الذي لم يقدم شيئاً له. فاشتكى إلى كسرى عن طريق النعمان بن المنذر عامله على الحيرة فعاونوه بالجند الذين كانوا في السجن والمال على هزيمة الأحباش. فرفض كسرى توريط جيشه في بلاد العرب لبعدها وقلّة خيرها. وأخيراً بعث مساجينه حوالي ثمانمائة معه للحرب في سفيتين إلى عدن غرقت واحدة. وانتصر الباقي على مسروق بن أبرهة. وكان سطيج وشق الكاهنين قد تنبأ من قبل بهزيمتهم. وظل ملوك الفرس باليمن حتى بعثة الرسول^(١).

اليمن إذن مصدر الأديان في شبه الجزيرة العربية، اليهودية والنصرانية^(٢). فقد كان فيها حجر أو كتاب، الزبور، دُون في الزمان الأول كتب فيه لمن الملك؟ لحمير الأخيار أو للحبشة الأشرار أو لفارس الأحرار أو لقريش التجار؟ وهو خليط من اليهودية وكتاب سليمان ومن توالى من الحكام على اليمن، الحبشة الأشرار أو الفرس الأحرار الذين حرروها من الأحباش؟^(٣). أما صورة قريش فإنهم تجار. وإليها ينتسب الرسول. وفيها قال «الحكمة يمانية». وبمسجدها مازال أقدم المصاحف. وعلماؤها حملة الحضارة الإسلامية. وثوارها من الزيدية التي تجمع بين التشيع والاعتزال. حافظوا على نقاء الإسلام الأول من التسلط الأموي في الدين وفي السياسة، في الفرقة الناجية وطاعة الإمام.

٩- ديانات فارس والهند

والمدخل الثاني لشبه الجزيرة العربية في الأهمية هو الشمال الشرقي من ناحية الخليج والعراق حيث كان يعيش ملك الحضرة، النعمان بن المنذر تحت ولاية كسرى. وقد غزى كسرى سابور ساطرون ملك الحضرة بخديعة من ابنته ثم قتلها كسرى هي الأخرى فيما

(١) ابن هشام ج١/ ٧٨-٨٢.

(٢) السابق ج١/ ٨٥.

(٣) «لن ملك ذمار؟ لحمير الأخيار. لن ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار. لن ملك ذمار؟ لفارس الأحرار. لن ملك ذمار؟ لقريش التجار»، السابق ج١/ ٨٥.

بعد^(١). ولم تنتشر ديانات فارس الزرادشتية أو المزدكية أو المانوية كما انتشرت النصرانية واليهودية في شبه الجزيرة العربية. كانت الثقافة في شبه الجزيرة العربية أقرب إلى التوحيد، والثقافة في فارس أقرب إلى الثنوية. وكانت القومية العربية الحالة في اللاوعي العربي، وحدة العرب، اللغوية والثقافية والسياسية، مانعا من التغلغل الفارسي الذي كان أيضا حريصا على اللغة الفارسية والثقافة الفارسية والقومية الفارسية. ومازالت بقايا ذلك حتى الآن في الحضور الفارسي على الضفة الغربية للخليج، والحضور العربي على الضفة الشرقية له. ولم يخف تماما حتى بعد الثورة الإسلامية الأخيرة في إيران والخلاف على تسمية الخليج، عربي أم فارسي، وعلى هوية الخليج، وعلى السيادة على الجزر الثلاث في مدخل الخليج بالرغم من تشابك المصالح والأخطار بين العرب وإيران حاليا، المصالح في الأمن القومي والتنمية، والأخطار من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. وقد انقسمت الأنظمة العربية تجاهها قسمين، الأول يعاديا مفضلا التحالف مع أمريكا وإسرائيل، والثاني يصادفها باعتبارها الظهير المساند للقضايا العربية ضد العدوان الأمريكي الإسرائيلي.

وفيما بعد أرسل كسرى رسولا يستتيب الرسول وإلا فرأسه. فرد عليه الرسول «إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا»^(٢). وقتل كسرى في اليوم الذي حدده النبي. فنبوءة النبي حق. واعتبر الرسول الفرس منه وهو منهم^(٣). وهو أيضا تحقيق نبوءة سطيح وشق^(٤). وقد أنشد الأعشى فيها شعرا لصدقها. فلا يوجد خلاف جذري قومي بين العرب والفرس على صفتي الخليج أو في اليمن.

وعبد المجوس العناصر الطبيعية، وأولها النار. يبنون لها الهياكل والمعابد. وانتشرت بيوت النار، وكان لها آداب وشرائع كما تحولت إلى مجموعة من الشرائع والطقوس في

(١) السابق ج١/ ٨٥-٩٠.

(٢) السابق ج١/ ٨٤-٨٥.

(٣) «أنتم منا وإنا أهل البيت»، «سلمان منا أهل البيت»، السابق ج١/ ٨٤.

(٤) قال سطيح «نبي زكي يأتي بالحق والعدل من أهل الدين والفضل يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل»، السابق ج١/ ٨٥.

المعابد أو خارجها طبقاً للأهواء دون التزام بمبدأ أو خلق^(١). يعبدون الشمس أربع مرات في اليوم، والقمر والنار والماء. ولهم أدعية خاصة عند النوم والانتباه والغتسال ولبس الزنار وحلق الشعر وقلم الأظافر وقضاء الحاجة وإيقاد السراج. لا تنطفئ النار، ولا يصدأ المعدن. يستقبلون النار في صلاتهم. ومنهم من كان ثنويا وآمن بإلهين، النور والظلمة، الخير والشر، آهور مزدا أو يزدان وأهرمن. والصراع بينهما قائم إلى آخر الزمان دون أن يتغلب أحدهما على الآخر. ولا تختلف أساطيرهم عن الأساطير الهندية واليونانية القديمة.

وعمت الزرادشتية الإمبراطورية الساسانية. خلفت المزدكية. تقوم على الصراع بين النور والظلمة، والخير والشر، والروح والجسد. وجودها ماني مضياف حياة العزوبة من أجل الخلاص. ثم تلاه مزدك لسيح الأموال والنساء واشترك الناس فيهما. ثم تلتها ثورات الفلاحين، واستولى الفقراء على قصور الأغنياء. حكم الملوك بالوراثة. واعتبروا أنفسهم آلهة فوق البشر. ثروة الدولة لهم يتمتعون بها كما يشاءون. لهم إيوان وتاج وقصر وجوار وغلمان وخدم ومغنون وطهارة. ولما هرب يزدجرد من الفتح الإسلامي أخذ معه ألفاً منهم. وساء حال الناس من الضرائب والخدمة العسكرية^(٢). فكان الجو مهيباً لظهور دين جديد.

وتحولت البوذية في الهند وآسيا الوسطى إلى وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت. وتبني الهياكل وتقيم تماثيل بوذا حيث حلت دون إيمان واضح بإله خالق^(٣). برزت الهند في الرياضة والفلك والفلسفة، لكنها كانت في القرن السادس الهجري في عصر انحطاط، لا قيمة للمرأة ولا عصمة لها. يخسر الرجل في القمار. لا تتزوج بعد أن تصبح أرملة. وتفضل حرق نفسها بعد وفاة زوجها. تفاوتت فيها الطبقات. وتمايزت

(١) السيرة النبوية ص ٢٦-٢٧. ويعتمد على كتاب «إيران في عصر الساسانيين» لأرثر كرستنسن، و«تاريخ إيران» لشاهين مكاربوس.

(٢) السيرة النبوية ص ٣٣-٣٦. ويعتمد على كتاب: «خطط الشام» لمحمد كرد علي، «إيران في عهد الساسانيين» لأرثر كرستنسن، و«تاريخ الطبري».

(٣) السيرة النبوية ص ٢٧. ويحال إلى «الهند القديمة» لايشورا توبا، و«اكتشاف الهند» لنهرو، ومقال «بوذا» في دائرة المعارف البريطانية.

أربع: الكهنة ورجال الدين وهم البراهمة، رجال الحرب والجند وهم الشترى، رجال الفلاحة والتجارة وهم الويش، رجال الخدمة وهم الشودور، أقل الطبقات. ليس لهم الحق في اقتناء المال أو مجالسة الطبقات الأخرى. سادت الهند الحروب والتمزق وسوء الإدارة والاضطراب واختلال الأمن، وإهمال شئون الناس. تعيش في عزلة عن العالم. يسيطر عليها الجمود والتخلف والتطرف والتعصب. وهرب المنبوذون خارج مدنهم وقراهم^(١).

والبرهية دين الهند الأصيل. امتلأت بالمعبودات والإلهات. وصل عددها إلى ثلاثمائة وثلاثين مليوناً. كانت وثنية. وتحول بوذا إلى إله أكبر^(٢).

وكانت أوروبا في الشمال والغرب غارقة في الجهل والامية والحروب بعيدة عن مسار الحضارة. لا شأن لها بالعلم. كانت أجسامهم قذرة، ورءوسهم مملوءة بالأوهام. يغالي الرهبان في تعذيب الأجسام من أجل خلاص الإنسان. يبحثون سؤال إذا كانت المرأة حيواناً أم إنساناً؟ هل لها روح خالدة أم فانية؟ هل لها حق البيع والشراء؟^(٣). فجاء الدين الجديد لينقذ العالم القديم حول البحر الأبيض المتوسط وبحر قزوين من الجهل والتخلف والطغيان.

(١) السيرة النبوية ص ٣٦-٣٨. ويعتمد على كتاب:

Vidya Dhar Mahajan: Muslim Rule in India, New Delhi, ١٩٧١, p.٣٣.

(٢) السيرة النبوية ص ٢٨-٢٩. ويحال إلى كتاب «الهند القديمة» لآر. سي. دوت، «الهندوكية السائدة» لـ: L.S.S. Omalley C.V. Vaid: History of Mediaeval, Popular Hinduism, Hindu, Poona, 1921, p.101.

(٣) السيرة النبوية ص ٣٨-٣٩. ويعتمد على «تاريخ الفلسفة» لثيلي Thilly، و«تاريخ الأخلاق الأوروبية» لليكي I.cky، وكتاب لروبرت بريفو: R. Briffault: Making of Humanity, p.64.

الفصل الثاني

نشأة الرسالة

١ - الميلاد والرضاعة

تعني «نشأة الرسالة» المرحلة منذ ولادة الرسول حتى بداية الوحي. ولا يقال ولادة الرسول حتى يستبعد تشخيص الرسالة في الرسول. بل يقال هي مرحلة الإعداد لتزول الوحي، واختيار الوسيلة بين المرسل والمرسل إليهم. فالوحي في السماء لا يحتاج إلى إعداد، إما في الذهن الإلهي كجزء من العلم أو في اللوح المحفوظ كأول تدوين له أو في ذهن جبريل قبل أن يبلغه للرسول أو في ذهن الرسول قبل أن يبلغه للناس «دثروني... دثروني...»، «زملوني... زملوني»، «أَقْرَأْ بِأَسِيرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»^(١).

وتبدأ هذه الفترة بمولد والد الرسول عبد الله بن عبد المطلب وكيف أن ميلاده أيضا كان معجزة، وحياته معجزة، فداؤه بالإبل بعد ضرب الأقداح وخروجها عاشر مرة على الإبل كما هو الحال في الإنجيل في مولد الیصابات والدة مريم عندما بشرتها الملائكة بها قبل ولادتها يسوع المسيح. فالمعجزة ممتدة إلى ما قبلها، المعجزة تولد بمعجزة، والمعجزة تتولد من معجزة. المعجزة سنة وقانون في التاريخ المقدس. وهم أهل الفترة بين عيسى ومحمد.

(١) السيرة النبوية ج١/ ٣٢-٣٨، عيون الأثر ج١/ ٧٥-٧٩، خير العباد ص ١٧-٢٠، ألفية السيرة ص ٣٥-٣٨، نور الإبصار ص ١٣-١٤، إسعاف الراغبين ص ٧-١٢، حياة محمد ص ٩٨، مختصر سيرة (١) ص ١٨، مختصر سيرة (٢) ص ٤١-٥٥، السيرة النبوية ص ١٥-١٩، خاتم الأنبياء ص ٧٥-٨٢، خاتم الأنبياء ص ٣٠-٣١، خير الوری ص ٧٥٨، الرحيق المختوم ص ٥٤-٦٤، عبقرية محمد ص ١١-٢٢، رسول الحرية ص ٧-٢٠، الصادق الأمين ص ٥.

وقد ندر عبد المطلب ذبح ولده إن بلغوا عشرة ليؤزروه شكرا لله على حفر زمزم وانتصاره على قريش في منازعته إياه^(١). واتفقوا على ضرب الأقداح بعد كتابة اسم كل ابن على قدح أمام هبل في جوف الكعبة. وكان يكتب على كل قدح على عادة العرب «الفعل»، «نعم»، «لا»، «منكم»، «من غيركم»، «ملصق»، «الحياة». وخرجت على عبد الله. وشرع أبوه في ذبحه وهو أحب ولد له. وخرجت القداح على عبد الله والد الرسول. فنصحته قريش استشارة عرافة الحجاز. فنصحته ضرب الأقداح عشر مرات، وفي كل مرة عشرا من الإبل حتى يرضى الرب. ونجى عبد الله في المرة العاشرة، فكانت تكلفته مائة من الإبل. وتدل كل هذه الروايات على مدى تدخل العناية الإلهية في التاريخ ومسار حوادثه قبل نزول الوحي في إنقاذ والد الرسول. وفي رواية سابقة في الإنجيل نبأ الملاك الیصابات بولادة مريم أم المسيح.

وفي رواية أخرى، عرضت امرأة نفسها على عبد الله بن عبد المطلب أن يقع عليها وكان مع أبيه قبل أن يزوج أمته أفضل امرأة في قريش. ولم تعرض المرأة الأولى نفسها عليه مرة أخرى، وقالت: «فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة». وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنه سيكون في هذه الأمة نبي. وهو تصوير فني يجمع بين حياة العرب قبل الإسلام وبعده، بين النكاح الحر والزواج. فليس الرسول وليد نكاح حر. ولا يدعو أب الرسول إلى نكاح حر بعد زواجه بأمته. وكانت المرأة أشبه بالمومس الفاضلة التي تحدث عنها الفلاسفة المعاصرون، اضطرتها الظروف لحياتها ولكنها فاضلة تعرف الحق وتدافع عنه. وهي روايات تدل على مدى طهارة والد الرسول. فتصديق ورقة لأخته رواية عن والد الرسول مقدمة لتصديقه لخديجة زوجة محمد عندما أتى إليه الوحي أول مرة.

وفي رواية أخرى أنه دخل على امرأة مع أمته وعليه طين فدعاها إلى نفسه فتباطأت. فخرج واغتسل وتوضأ فدعته المرأة فأبى. ودخل على أمته فحملت محمد. فلما دعا المرأة امتنعت وقال «مررت بي وبين عينك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت على ودخلت على أمته

(١) ابن هشام ج١/ ١٥٥-١٦١، السيرة الحلبية ج١/ ٤٨-٦٩، نور الإبصار ص ١٤، سيد الأنام ص ٥٧-٥٨، على هامش السيرة ج١/ ١-٣٤، استسقاء أهل مكة بعجده وهو معه وسقياهم وما ظهر فيه من الآيات، الخصائص الكبرى ج١/ ١٨٨-١٩٠، استسقاء أبي طالب به ج١/ ٢٠١-٢٠٢.

فذهبت بها^(١). وهنا يبدو عبد الله على الدين الطبيعي الذي يأنف من العلاقة الحرة ويفضل الزواج.

وقد حدثت آمنة أي أتاها ملك يخبرها أنها حملت بسيد هذه الأمة. فإذا وقع على الأرض فقولني أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمدا. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام. ثم توفي عبد الله وأمه حامل به^(٢). وتتدخل الملائكة منذ البداية في حمل أم الرسول. وتباركه حين الولادة وتعطيه اسما. خرج منها نور أضاء به المستقبل، الشام وقصور الروم وليس الفرس. فالفرس أقرب إلى العرب من الروم. وتوفي الأب والأم حامل مما يمهد للتعاطف مع اليتيم قبل الولادة. وهو هاتف باطني يحدث لبعض الأمهات لنذر وليلدها لمهام عظام في مجتمع يقدر البطولة، ويعشق الأبطال، ويخلدهم الشعر، ويتناقل سيرهم الشعراء والرواة. وحملها تكريما لها وتعظيمها للرسول. كان الطفل خاليا من الوَحْم والوهن وكل ما تعاني منه المرأة من ثقل وآلام للوضع. وهو شيء إنساني خالص لا عيب فيه ولا حرج منه. إنها هو تكريم وتعظيم وتبجيل، وتحويل الواقع إلى مثال، وما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون. وتوفت أمه بعد ولادته^(٣).

ويختص بطهارة نسبه أنه لم يخرج من سفاح من لدن آدم^(٤). وعشرات الروايات في ذلك. ويذكر نسب الرسول الأرضي قبيلة قبيلة على طريقة أنساب العرب^(٥). يذكر اسم الأب أو اسم القبيلة بداية بلفظ «بنو» أو «بطون» إلى وما يفوق الخمسين جيلا. وتذكر

(١) ابن هشام ج١/١٥٩-١٦٠، السيرة الحلبية ج١/٦٩-٧٤، نور اليقين ص١١-١٢، خير الوري ص٧٥٨، على هامش السيرة ج١/٣٥-٥٣.

(٢) ابن هشام ج١/١٦٠-١٦١، عيون الأثر ج١/٧٧-٧٩، الإشارة ص٥٤-٦٤، صحيح السيرة ص١٣-٣١/٥٢. «ورأت أُمِّي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»، «ذكر مولده الشريف ورضاعته ونشأته إلى حين أوان بعثته»، سيرة النبي ص١٠٥-١٢٢، السيرة الحلبية ج١/٧٨-١١٥.

(٣) السيرة الحلبية ج١/١٥٤-١٧١، حياة محمد ص٩٩، الأسوة الحسنة ج١/١١٤-١١٥، سيد الأنام ص٥٩-٦٥، السيرة النبوية ص٢٥-٢٦/٩٩، صحيح السيرة ص٤٧-٤٩/٥٥. ما وقع في حمله من الآيات، الخصائص الكبرى ص١٠٣-١٠٩.

(٤) الخصائص الكبرى ج١/٩٧-١٠٢. «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»، ص٩٧.

(٥) الجوهر ج١. هم ٥٤ جيل، قبيلة (٣٤)، أفراد (١٩)، بطون (٢).

قريش مع مناقبها لأنها قبيلة الرسول^(١). لم يأت على عادة الجاهلية بل ببنكاح إسلامي شرعي، قراءة للماضي في الحاضر. أتى طاهرا من أصل طاهر. خرج من رحم الأنبياء ومن خير الأصلاب. اصطفى الله إبراهيم ثم إسماعيل ثم بني كنانة ثم قريشا ثم بني هاشم ثم النبي. هو من خير قبيلة، ومن خير نفس، ومن خير بيت. اختار الله من الخلق بني آدم، والعرب من بني آدم، ومضر من العرب، وقريش من مضر، وبني هاشم من قريش، والنبي من بني هاشم. فالنبي خيار من خيار. هو أول وآخر. وأول شافع^(٢). رآه عبد المطلب في المنام مثل الولادة^(٣).

ويسرد النسب «الزكي» من محمد إلى آدم عن طريق أجيال افتراضية^(٤). فليس من المعروف على وجه الدقة متى عاش آدم. هو قبل نوح، ونوح على وجه التقريب في القرن الأربعين قبل الميلاد. وكيف تعرف الأنساب من مصادر شفاهية؟ وما هي المصادر المدونة؟ وحتى الآن لم تستطع علوم البرديات والحفائر والنقوش الوصول إلى سلسلة متصلة لأنساب العرب. لذلك يُكتفى بذكر أنساب العرب ابتداء من إسماعيل ومستبعدا بعض الروايات التي لا تؤيدها أقوال الرسول أو آيات القرآن أو الأشعار التي لا مصدر لها. كما تم استبعاد بعض الروايات المقصود منها التشنيع أو إساءة ذكر الناس أو لا تُعرف روايته. وما يمكن البداية به هو نسب العرب ابتداء من إسماعيل لذلك يقول صاحب السيرة: «فالله أعلم»^(٥). اختار الله الخلق ثم اختار منهم بني آدم ثم

(١) السابق ص ١٣٩-١٥٥.

(٢) الخصائص الكبرى ج١/ ٩٧-١٠٢. «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»، ص ٩٧. «ما زال النبي يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه»، «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»، ص ٩٨، «ما ولدني سفاح الجاهلية شيء وما ولدني إلا النكاح كنكاح الإسلام»، ص ٩٧.

(٣) السابق ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) «إن الله اصطفى ولد إبراهيم إسماعيل...»، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، صحيح السيرة ص ١١، خصائص الرسول ص ١٦٧، أقرىء الرسول ج١/ ٤٠٩. «لما خلق الله آدم قال... هؤلاء خمسة من ولدك لولا هم ما خلقتك»، النبي الأعظم ص ٢٧.

(٥) ابن هشام ج١/ ٢٥-٢٩/ ٣٥، السيرة النبوية ج١/ ٣٩-٥٧/ ٦٣، عيون الأثر ج١/ ٧٣-٧٥، خير العباد ص ١٧، الإشارة ص ٤٧-٥٤، الفصول ص ٣٤-٣٩، صحيح السيرة ص ٩-١٢، أنفة السيرة ص ٣٢-٣٥، مختصر سيرة (١) ص ٥-٨/ ٣٥، مختصر سيرة (٢) ص ٨-١٢.

اختار منهم العرب ثم اختار منهم قريشا ثم بني هاشم ثم الرسول. وهو تصور يهودي قديم في الاختيار اجتمع إلى تصور عربي في النسب. فالخلق قسبان. والرسول من خير القسمين^(١). ويضاف «ولا فخر» أي دون تطاول أو تفاخر. وتعدد الأنبياء رجوعا من الرسول حتى آدم^(٢). ومن مزايا الرسول على باقي الأنبياء أنه ابن الذبيحين^(٣). ولما اقترف آدم الخطيئة سأل الله أن يغفر له شفاعته بمحمد^(٤).

وتبرز كتب الشئال اختيار الرسول لنسبه وليس رسالته. فهو المصطفى من بني هاشم من قريش من بني كنانة من إسماعيل^(٥). ومن خصائصه شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه^(٦). وهي كلها من أحاديث الأنا، الأنا الجمعي، القبلي^(٧). ويظهر التقديس في تعبيرات مثل «النسب الشريف»، «الوحي الشريف». وبالتالي تتحول الولادة إلى تعظيم وتشريف قبل أن تصبح خيالا وأسطورة في «محمد الكوفي»^(٨).

(١) «إن الله عز وجل اختار خلقه فاختر منهم بني آدم. ثم اختار منهم العرب. ثم اختار العرب فاختر منهم قريشا، ثم اختار قريشا فاختر منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاخترني منهم. فلم أزل خيارا من خيار. ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»، بهجة المحافل ص ٤٥، «إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني من خيرهم قسما»، ص ٤٥-٤٦، «أقرباء الرسول جـ ١/ ٢٦٠-٢٦١»، «قال لي جبريل: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد بني أب خيرا من بني هاشم»، «أقرباء الرسول ص ٢٦١»، «إننا بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»، «إن بني عبد المطلب لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»، «أقرباء الرسول جـ ١/ ٢٧٦-٢٧٧».

(٢) بهجة المحافل ص ٥٦-٥٧.

(٣) السابق ص ٥٧-٦٠.

(٤) «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي»، النبي الأعظم ص ٢٦.

(٥) «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، الأنوار جـ ١/ ٤-٥.

(٦) الشفا جـ ١/ ١٠٧-١٠٩.

(٧) «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة. ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم. فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا»، «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفني من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، «إن قريشا كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بالثاني عام. يسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه. فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه. فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح. وقذف بي في صلب إبراهيم. ثم لم يزل الله تعالى يتقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من صلب أبيي. لم يلتقيا على سفاح قط»، السابق ص ١٠٨-١٠٩.

(٨) الإشارة ص ٤٧/ ٨٨-٩٠. في نسب الرسول وأسمائه، شئال الرسول ص ٤٥-٥٦، في نسبه الشريف،

وقد رأى عبد المطلب رؤية بمولده. ووقعت عدة آيات في حمله. وقد رغبت امرأة في الزواج من عبد الله قبل أمانة^(١). ويقال إنها أخت ورقة بن نوفل. وفي بعض السير الحديثة بداية التآمر^(٢). وقد أمرت أمانة بتعليق تعويذة مما يكشف عن جو السحر الذي ولد فيه الرسول. وقد دُحر أبرهة عام الفيل، عام ولادة الرسول تشريفاً له ولبلده. وقد وقعت في حفر عبد المطلب زمزم عدة آيات. وظهرت ليلة مولد الرسول عدة معجزات مثل صراخ يهودي، ونور أضواء قصور الشام، وعدة آيات أخرى من صنع الخيال^(٣). لذلك يعلق عليها السيوطي بأن هذه الآيات فيها «نكارة شديدة»، وأحاديث غريبة وتدخل العفاريات والجن، وشق بصره إلى السماء، وركض جبريل من أراد الاطلاع عليه إلى عدن، وحجب إبليس من السماوات السبع في حين حجب ثلاث سنوات في حالة عيسى، واهتزاز ديوان كسرى، وسقوط الأصنام من أعلى الكعبة^(٤). ويبدأ تعظيم المولد والنسب منذ البداية^(٥). ثم يأتي شرف قومه ونسبه ومآثر آبائه وحسبه كما هي عادة العرب في الفخر بالآباء والأجداد، وبالحسب والنسب^(٦). وعام الفيل هو عام ولادته. والانتصار على أبرهة تشريف له ولبلده^(٧). كما ظهرت في ليلة مولده معجزات وخصائص^(٨). فرأت أمه حين وضعت نورا أضواء قصور بصرى من أراضى الشام.

ومن آياته ولادته مختونا مقطوع السر^(٩). ورواية ولادته مختنا تكريهاً له لأنه لا يجوز

شمال الرسول ص ٤٧-٤٩، النسب الشريف والقرابة الطاهرة، معين الشائل ص ١٣-١١٠، النسب الشريف والمولد والأسماء ص ١٣-٢١، النسب الشريف ص ١٣.

(١) السابق ص ١٠٢-١٠٩.

(٢) الصادق الأمين ص ١٦٩-١٩٦.

(٣) الخصائص الكبرى ص ١١٠-١٣٠.

(٤) نسبة الشريف، السيرة الحلبية ج ١/ ٩-٤٨، نور الإبصار ص ١٣، نور اليقين ص ٩-١١، سيد الأنام ص ٥٠-٥٧. «في فضل مسقط رأسه الشريف، وحمايته من أراد به السوء، وفضل قومه، وطهارة أصله، ونسبه الذكي»، الأسوة الحسنة ج ١/ ٩٢-١١٣، السيرة النبوية ص ٩٩-١٠٠، صحيح الرسالة ص ٢٥-٢٨، الرحيق المختوم ص ٤٨-٥٣.

(٥) «في التعريف بمولده الشريف، وقدره العلي المنيف»، سيرة النبي ص ٥٣-٥٨.

(٦) «وشرف قومه ونسبه ومآثر آبائه وحسبه»، السابق ص ٨١.

(٧) الخصائص الكبرى ج ١/ ١١٠-١١١.

(٨) السابق ج ١/ ١١٥-١٣٠.

(٩) الخصائص الكبرى ج ١/ ١٣٠-١٣٢، «من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سوائي»، «أنى كنت أحدثه ومجدني ويلهني عن البكاء وسمع وجبته حين يسجد تحت العرش».

إخضاع الرسول لعمليات جراحية أو انتقاص من جسده أو تعرية أعضاء حساسة فيه مثل باقي البشر. وناغى القمر وهو في مهده، وتكلم في المهد مثل المسيح^(١). وتكلم عند فطامه. وظهرت في زمان الرضاعة آيات ومعجزات. وهي روايات مشكوك فيها تحتاج إلى نقد السند ونقد المتن على حد سواء^(٢). وولادته مقبوضة أصابع يده مشيراً بالسبابة كالمسيح بها صورة فنية للتوحيد^(٣). وهي خيالات شعبية للشهادة، شهادة الأطفال أو الطبيعة. وكان حملها خفيفاً. وعندما وقع على الأرض وكأنه واضع يديه بالأرض رافعا رأسه إلى السماء. وهي صورة متتابعة، طرد الشيطان منه، خفة الحمل، وضع يدي الطفل بالأرض ورأسه مرفوعة إلى السماء. كل ذلك توجيه الواقع طبقاً للدلالات، وخلق النموذج للوقائع التي تحمله. فالفكر يخلق الواقع من خلال التصور والرؤية ثم الرواية والخبر. وهو خاتم الأنبياء وختم النبوة. ونقش على ظهره خاتم، شعرات مجتمعات ينضج منها مسك. وهو تصور حسي لمعنى تاريخي، نهاية تطور الوحي في التاريخ. وتذكر الرواية في ولادته وفي شوائله^(٤). لم تروه حليلة مرضعته.

حمله جده عبد المطلب إلى الكعبة ودعا الله شاكرًا^(٥). فسلوك عبد المطلب سلوك إسلامي خالص. ذهب إلى بيت الله الحرام. ودعا الله شاكرًا له حتى قبل ظهور الإسلام. كان هناك الإسلام الطبيعي، الإسلام الحنيفي الذي لم يكن في حاجة في عقائده وشعائره، في توحيده وحجه إلى الدين الرسمي. فالكعبة المركز الديني والاجتماعي للعرب والطبيعة خير هاد كالوحي. وينزل الوحي تأكيداً لها.

ورواية إعتاق أول من أخبر بولادة الرسول واقعة إنسانية خالصة، بشرى حسنة^(٦).

(١) السابق ص ١٣٢-١٤٤، الأسوة الحسنة ج ١/ ١١٥-١١٦.

(٢) من النقل إلى العقل (٢) علم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن. الخصائص الكبرى ج ١/ ١٣٢، كلامه في المهد، السابق ج ١/ ١٣٢، الله أكبر والحمد لله كثيراً.

(٣) الإشارة ص ٦٠-٦١.

(٤) الأنوار ج ١/ ١٥٤-١٥٧، الخصائص الكبرى ج ١/ ١٤٥-١٤٨، الإشارة ص ٦٨-٧٢، بهجة المحافل ص ٤٣٨-٤٣٩.

(٥) ابن هشام ج ١/ ١٦٢، عيون الأثر ج ١/ ٧٩-٩٠، ابن خلدون ص ٨١-٨٤، السيرة الحلبية ج ١/ ٧٤-٧٨.

(٦) إعتاق أبي لهب نوبة لأنها أول من أخبره بولادة ابن أخيه، صحيح السيرة ص ١٨.

وقد كان الرسول ييشر الناس، ويحب الفأل الحسن. فروح الإسلام عند كاتب السيرة تخلق وقائع لتعبّر عنها. لذلك يصعب قبول رواية أن الأبوين في النار ولم تبلغها الرسالة. على الأقل ينطبق عليها حكم أهل الفترة. وقد كانت عائلة عبد المطلب على الحنيفية التي أحيها الإسلام. ونظرا لما في ذلك من قسوة على الأبوين تظهر روايات أخرى أنها في الجنة^(١). وفي رواية أنه ذهب لزيارة قبر أمه فسأل الله أن يحيها له فأحيها فأمنت به. وهي رواية تدل على مدى القرب بين الابن والأم وحرص الابن على نجاة الأم^(٢). وفي رواية أخرى أن الله أذن له برؤيتها دون الاستغفار لها أو يحيها. كل ذلك ضد قسوة رواية أن أبويه في النار. وهو ما يعارض روح الإسلام، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ومن إمارات خارقة للعادة في ولادته البشارة بعالم جديد، وبعث للإنسانية جديد، ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته. غاصت بحيرة ساوا، وخذت نيران فارس، ولم تحمد منذ ألف عام^(٣). وكلها رموز على نهاية نظام وبداية نظام وتحول جذري في مسار التاريخ.

ولم تقبل المرضعات إرضاع الطفل لأنه يتيم لا أجر له إلا حليلة. كما لم يقبل موصي الرضاع إلا من أمه. فعاد إليها كي تفر عينا مع المفارقة، الطفل محمد أبته المرضعات لفقره والطفل موسى أبى المرضعات لأنهن لسن أمه^(٤). فتاريخ النبوة الجديد موجه بتاريخ النبوة القديم فعلا أو عند الراوي أو عند كاتب السيرة. فلما أخذته حليلة حتى لا ترجع بلا أطفال حتى ولو كان يتيما أقبل عليها نديها من لبن فشرب الطفل حتى روى. وشرب بعده أخوه ثم ناما. وامتألت راحلتها أيضا باللبن فشرب الزوجان. فالإسلام أخوة وأبوة وأمومة. ينعكس على الحيوان، ويستجيب الحيوان له. وقيل لها «تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة»^(٥). فالمعجزة مستمرة منذ رضاعة

(١) رد الشيخ أبي زهرة حديث «إن أبي وأباك في النار»، صحيح السيرة ص ٢٤-٢٨.

(٢) «ذهبت لقبر أمي فسألت الله أن يحيها لي فأحيها فأمنت بي وردها»، «استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي. فاستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي»، سيرة النبي ص ١١٣-١١٤، السيرة النبوية ص ٢٥-٢٦، صحيح السيرة ص ٥٥، المعجزات اللامعة ص ٩.

(٣) السيرة النبوية ص ١٠٠.

(٤) ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَرَاضِعَ﴾، ابن هشام ج ١/ ١٦٣، الخصائص الكبرى ج ١/ ١٣٢-١٣٥.

(٥) ابن هشام ج ١/ ١٦٤-١٦٦، البستي ج ١/ ٣٩-٥٨، عيون الأثر ج ١/ ٩٠-١٠٣، خير العباد

الطفل من ثديين امتلاً باللبن بعد أن كانا جافين وعلى بعير امتلاً باللبن بعد أن كان جافاً. فالرخاء رمز الإسلام، والجفاف نقيضه. وهو إحساس داخلي بالوفرة والغنى في حالة الكرم والعطاء. وتستمر المبالغات بإسلام حليلة قبل أن تبدأ البعثة^(١). ولم يأخذ الرسول إلا الثدي الأيمن لحليمة ليترك الأيسر لأخيه في الرضاعة، ربما لأن اليمين أفضل من اليسار بناء على قول الرسول «تيامنوا» وحته على البدء باليمين، اليد اليمنى والقدم اليمنى^(٢).

وعندما قدم مع أمه لزيارة أخواله في المدينة ظهرت آيات منها تعرف أحد اليهود عليه. كما نعت آمنة عندما حان أجلها نفسها إلى محمد. واستسقى أهل مكة بجده وهو معه. وظهرت الآيات. وما كان النبي يذهب إلى جده في حاجة إلا نجح فيها. وقد عرف عبد المطلب النبي في قصته مع ابن ذي يزن. وظهرت العديد من الآيات وهو في كفالة عمه أبي طالب^(٣).

كان الرسول فخوراً بعروبته وقرشيته، عروبته في اللغة فهو أفصح العرب، وأوتي جوامع الكلم، وأرضع في بني سعد، قبيلة عربية أصيلة^(٤). وليست العروبة بأب أو أم إنما العروبة هي اللسان. فكل من تحدث العربية فهو عربي. لا تعني العروبة العرق، ولا القرشية القبيلة والنسب. فقد أتى الإسلام لتغييرهما والقضاء عليهما باسم المساواة في البشرية والأخوة في الإنسانية. الرسول عربي. يمارس عادات العرب مثل وضع الملاءة على المرأة كدليل على اختيارها كما فعل في صفية بعد قتل زوجها اليهودي. ولا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن شخصه وقومه وبيئته وعاداته وتقاليده حتى ولو أتاه الوحي

ص ٢٢-٢٣، الإشارة ص ٦٤-٦٧، الفصول ص ٤٠-٥٢، صحيح السيرة ص ١٩-٢٣، السيرة الحلبية ج١/١٢٤-١٥٤، حياة محمد ص ١٠٠-١٠١، مختصر سيرة (٢) ص ١٣، السيرة النبوية ص ١٩-٢٥/١٠١-١٠٣.

(١) الأسوة الحسنة ج٣/١٢١-١٢٢، خاتم الأنبياء ص ٣٢-٣٣، صحيح السيرة ص ٤٩-٥٣، على هامش السيرة ج١/١٥٩-١٨٤. شعر حليلة التي كانت ترقص به النبي في زمن صباه، الخصائص الكبرى ج١/١٤٤.

(٢) الخصائص الكبرى ج١/١٤٤.

(٣) السابق ج١/١٨٦-١٩٥.

(٤) «أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر»، ابن هشام ج١/١٦٨.

وهو في سن الأربعين بعلم جديد، ورؤية جديدة، وسلوك جديد، وشرائع جديدة. لم ينزع نفسه عن بيئته ولا عن ثقافته. أصيل في شخصيته. لم يتبن ثقافة وافدة من الشرق كالمجوسية أو من الغرب كالنصرانية أو من الشمال كاليهودية أو دين الصابئة أو من الجنوب من عقائد اليمن. انتسب إلى الوسط إلى مكة والبيت الحرام دين إبراهيم.

الرسول عربي تجري عليه عادات العرب، وله نصيبه من الغنائم والسبايا. فقد اختلف مسلمان على سبية، جويرية بنت الحارث، في غاية الجمال والحلاوة والملاحة، كل يريد لها لنفسه. فذهب الرسول للحكم بينهما. فما رأتها عائشة على الباب حتى كرهتها وعرفت أن لها شأنًا. فعرض عليها الرسول خيرا منهما، فوافقت. وأعتق بزواجها مائة من أهل بيت بني المصطلق^(١). وبني الرسول بصفية نصيبه من السبايا. وحرسه أحد الصحابة واقفا أمام قبائه خوفا عليه بعد أن قُتل أبو المرأة وزوجها وقومها. فدعا الرسول بأن يحفظه الله كما حفظه^(٢). وكان الرسول عربيا في قتاله وحصاره. أخذ غنما من أحد خصومه اليهود ليطعم بها هو والمسلمون^(٣).

٢- الصبا والشباب

وتحدث الرسول بطريقة غير مباشرة عن نبوته كما تحدث المسيح في المعبد وهو ابن اثني عشر عاما^(٤). فهو دعوة أبيه إبراهيم وبشرى أخيه عيسى. نور خرج من أمه أضاء قصور الشام. أتاه رجلان في ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا وشقا بطنه واستخرجا قلبه فشقا واستخرجا منه علقة سوداء ثم غسلوا قلبه وبطنه بالثلج فأنقياه. هو سليل الأنبياء. وتتعد صياغات رواية شق بطنه. وتزيد هنا الطست من الذهب

(١) ابن هشام ج٢/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني، السابق ج٢/ ٢٨٨.

(٣) من رجل يطعمنا من هذه الغنم... اللهم امتعنا به، السابق ج٢/ ٢٨٥.

(٤) نعم، أنا دعوة إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينما أنا مع أخ لي خلف ييوتنا ترعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا. ثم أخذاني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فشقا، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها. ثم غسلوا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، السابق ج١/ ١٦٨، السيرة النبوية ج١/ ٥٨-٦٣.

المملوء ثلجا، واستخراج العلقة السوداء. وهو حديث كبير لطفل صغير. وربما عبر عن هذا الوصف بعد النبوة. وتتعدد روايات شق الصدر مع اختلاف في التصوير، شق ملكان بطنه بعد أن أضجعه^(١). تمثلا في رجلين عليهما ثياب بيض. وهو تصوير شعبي لنقاء الرسول وخلوه من الشر. واللون الأبيض رمز الصفاء. لم يعد للشيطان عليه سبيل، وإن له لشأنا. وهي قصة تصويرية بالصوت والصورة. فالخير أبيض وذهب والشر أسود، وكأن الرسول ما كان يمكن أن يولد دون هذه العلقة السوداء في القلب وفي حاجة إلى كل هذه العملية للتنقية. وفي رواية أخرى مع شق الصدر أن الرسول قال «فما هو إلا أن وليا عني فكأننا أرى الأمر معاناة» تأكيداً للرؤية الحسية واستبعادا للخيال^(٢). والرواية تمهيد لرواية الإسراء والمعراج. ثم يأتي الصوت حديث الرجلين وأن محمدا لا يزن فقط عشر أو مائة أو ألف بل يزن أمة كلها، والميزان مقياس عند التجار، وتكررت صورته في القرآن عدة مرات بالمعنى الحرفي في التجارة، والمعنى المجازي كرمز للعدل وهو مرسوم على دور القضاء، وللعدل في قيام السماوات والأرض^(٣). يأتي المثقال والوزن في التصور. فالثقل أفضل من الخفيف. مع أنه في الطيران الخفيف أفضل من الثقيل^(٤). وهو يطابق التصور الشعبي لولادة القديسين والأولياء والصالحين ولفهم في ثياب بيضاء منيرة مذهبة دليلا على القداسة والولاية والعمل الصالح.

(١) ابن هشام ج١/ ١٦٦-١٦٧، الإشارة ص ٦٧-٦٨، صحيح السيرة ص ١٨-١٩.

(٢) بهجة المحافل ص ٦٣، سيرة النبي ص ١١١، صحيح السيرة ص ٥٣-٥٥.

(٣) المعنى الحرفي: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ»، «وَلَا تَقْصُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ»، «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ»، «أَلَا تَطْفَعُوا فِي الْمِيزَانِ». المعنى المجازي: «وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ»، «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». والمعنى الكوني: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ»، «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ».

(٤) ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنتي بهم فوزنتهم. ثم قال زنه بيانة من أمته فوزنتي بهم فوزنتهم. ثم قال زنه بألف من أمته فوزنتي بهم فوزنتهم. فقال دعه عنك فوالله لو وزنته بأمة لوزنها، السابق ج١/ ١٦٦-١٦٧. ويشكك أبو زهرة في الرواية، صحيح السيرة ص ١٨-١٩/ ٥٣-٥٥، نور الإبصار ص ٢٠-٢٢، حياة محمد ص ١٠١، نور اليقين ص ١٣، سيد الأنام ص ٦٥-٦٦، مختصر سيرة (٢) ص ١٣، السيرة النبوية ص ٢٢-٢٣، خاتم الأنبياء ص ٣٣-٣٥، خير الورى ص ٧٥٨، الخصائص الكبرى ج١/ ١٣٥-١٤٤.

وقد حفظه الله من عيوب الجاهلية ونقائصها^(١). حمى نفسه من العري أثناء نقل الحجارة. ولم يفعل قبائحها. وتراوح الروايات في عصمته في طفولته. الأولى الرواية النواة السابقة، قول مباشر للرسول إنه كان يحمل حجارة يلعب بها كما يلعب الغلمان، والكل تعرى وأخذ إزاره على رقبته ليحمل الحجارة عليها. فلكمه لاكم لم يره لكمة وجيعة طالبا أن يشد عليه أزاره حاملا الحجارة على رقبته فقط^(٢). وهو أشد. وقد وردت هذه الرواية حين بناء الكعبة، وسقوط الغلام من التعب. فنودي من السماء بشد الأزار عليه. وتجمع رواية ثالثة بين الروایتين، وأنها حادثان منفصلتان، مرة في اللعب، ومرة في بناء الكعبة. وهي الصورة الشعبية للتشهير عن الساعد للتعبير عن المهمة في العمل وعدم إعاقة الأكماء للمساعدین في حالة العمل والرداء للسائقين في حالة السباق والعدو كما يحدث في فنون الأدب والتصوير والرسم والسينما. والخطورة أن تقوم عليها تشريعات الغطاء والستر والحجاب كما حدث فيما بعد. ويصبح الإسلام دين غطاء وليس دين كشف، مما دفع الصوفية فيما بعد أن يُعروا هذا الدين ويرفعوا عنه الحجاب ويكتبون «كشف الغطاء».

ولم يخل فقط من النقائص والعيوب بل تحلى بالفضائل والكمالات. فقد تعلم العوم والسباحة منذ الصغر استعدادا للنزال فيما بعد، واستكمالا لأساليب الدفاع أو الهجوم. ولهذا يروى حديث، ضرورة تعليم الأولاد السباحة والرمية وركوب الخيل^(٣).

وبعد وفاة أمه وهو ابن ست سنين كفله جده عبد المطلب الذي كان له فراش في ظل الكعبة يجلس حوله بنوه إجلالا له إلا الرسول فقد كان يجلس عليه وهو غلام. وبقية جده ضد رغبة أعمامه في تأخير عنه قائلا «دعوا ابني، فوالله إن له لشأنا». ثم

(١) السيرة الحلبية ج١/ ١٧٨-١٨٣.

(٢) «لقد رأيتني في غلام قريش تنقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان. كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة. فإني لأقبل معهم كذلك وأدير إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك. قال: فأخذته وشدته علي. ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي»، ابن هشام ج١/ ١٨٣. والنقائص مثل: كشف العورة، الاستماع إلى آيات الله، مس الأصنام، عبادة الأوثان، أكل ما أهل به لغير الله، حفظ جوفه من الطعام الحرام، الكذب، الحلف باللات والعزى، شرب الخمر، الأسوة الحسنة ج١/ ١٣٠-١٣٣، السيرة النبوية ص ٢٧-٣٣، سيرة الرسول ص ٨-٩.

(٣) «أحسن العوم والسباحة في بئر بني عدي بن النجار»، بهجة المحافل ص ٦٣، سيرة النبي ص ١١٢.

يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع^(١). فالجد هنا أحن على الحفيد من الأب على الابن وطبقا للمثل الشعبي «ما أعز على الولد إلا ولد الولد». فالطفل سيد من خلال جده، وله مكانة في قريش من خلال أسرته. وله في الكعبة مكان الصدارة مثل أهل قريش. فالطفولة تكشف عن زعامته، والحاضر ينبئ بالمستقبل. والدافع للرواية التكريم والتشريف.

وتوفي الجد والغلام ابن ثمان سنين. وطلب رثاءه من بناته ليسمعه بنفسه. فحياة العربي الشعر والحب. وكلاهما مظهران للجمال، بدلا من صراخ بناته وعويلهن عليه، ولطم الحدود، وشتى الجيوب، وشد الشعور. وكفله عمه أبو طالب. وعرضه على رجل من هب يتعرف على الأطفال. فتعرف على محمد «فوالله ليكون له شأن»^(٢). فقراءة المستقبل عادة عربية مثل الكهانة والعرافة. وقد حسب العرب الرسول بعد البعثة أنه واحد منهم. فالنبوة مستقبلها فقط وليس ماضيها. قرأ فيها العرب مستقبلهم مع كسرى وقيصر وليس ماضيهم مع موسى وعيسى. فالعرب مولعون بالسيادة. ينافسون الفرس شرقا، والروم غربا. وبدلا من أن يكونوا تابعين لهم مثل الغساسنة والمناذرة فإنهم كانوا يتوقون إلى الاستقلال عنهم في كيان عربي مستقل يحفظ لشبه الجزيرة استقلالها ووسطيتها عن الشرق الفارسي والغرب الرومي، وليس ميلها بل وتحالفها مع الغرب كما هو حادث الآن.

وما كان النبي يذهب في حاجة لجدّه إلا أنجح فيها^(٣). وقد عُرف عبد المطلب بشأن النبي^(٤). وكانت قد ظهرت عليه آيات عند قدومه مع أمه المدينة لزيارة أخواله^(٥).

-
- (١) ابن هشام ج١/ ١٦٩-١٧٠، خير العباد ص ٢٣، حياة محمد ص ١٠٣-١٠٤، نور اليقين ص ١٣، الأسوة الحسنة ج١/ ١٢٥، مختصر سيرة (١) ص ٣٨-٤٠، مختصر سيرة (٢) ص ١٤، السيرة النبوية ص ١٠٣-١٠٤، صحيح السيرة ص ٥٥، خير الوري ص ٧٥٨، على هامش السيرة ج١/ ١٤٧-١٥٨، رسول الحرية ص ٢٠-٣١، ما وقع عند وفاة أمه من الآيات، الخصائص الكبرى ج١/ ١٨٧-١٨٨.
- (٢) ابن هشام ج١/ ١٧٩-١٨٠، عيون الأثر ج١/ ١٠٣-١٠٥، الإشارة ص ٧٤-٧٥، صحيح السيرة ص ٣١-٣٣، ألفية السيرة ص ٣٨-٤٠، السيرة النبوية ص ٢٦-٢٧.
- (٣) الخصائص الكبرى ج١/ ١٩١.
- (٤) السابق ج١/ ١٩١-١٩٤.
- (٥) السابق ج١/ ١٨٦-١٨٧.

وكان الرسول فخوراً بمهنته قبل البعثة، رعي الغنم، وهي مهنة الأنبياء. وهي صورة لقيادة أمة وزعايته لها^(١). يتعلم منها المسئولية والرعاية والقيادة والجمع والحرص. وما من نبي إلا وقد رعى الغنم. وهي صورة قيادة الأمة، والسهر عليها، والحفاظ عليها من الذئاب^(٢). فأقرب مهنة للنبي رعاية الغنم في التصور العربي، مع الطبيعة والشعر والتجوال وكسب المعارف. وقد يخالف التاريخ المروي ذلك. فعمسى لم يكن راعي غنم بل كان نجاراً مثل زكريا الذي كفله، وموسى لم يكن راعي غنم بل نشأ في بيت فرعون ابناً متبنياً، وربما فرعوناً في المستقبل. ولا تُعرف حرف الأنبياء السابقين إلا استنباطاً. فأدم لم تكن له حرفة معروفة لأنه لم يكن في حاجة إليها. كان يعيش على الطبيعة، يسد منها حاجته هو وزوجته وأولاده، ويصنع كل شيء بيده في بناء السكن وإعداد الأسلحة التي يدافع بها عن نفسه ضد مخاطر الحيوانات وأدوات قطع الأشجار وقطف الثمار. وربما كان نوح نجاراً لأنه استطاع أن يبني فلكا يحميه من الطوفان. وربما كان إبراهيم أقرب الصنائع للرسول، راعي أمة، ومؤسس قبيلة. وإسحق ويعقوب كانا مشايخ قبائل تكفيهما القبيلة حاجاتها. ويوسف كان وزيراً للخزانة له مرتبة من فرعون مصر.

ثم انتقل من رعي الغنم إلى التجارة، من قيادة قطيع إلى تسويق بضائع، من حرفة البدو إلى حرفة الحضر. خرج إلى الشام فيما سماه القرآن ﴿رِحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ مرتين. وبدلاً من التعامل مع الأغنام يأتي التعامل مع التجار، وبدلاً من التعامل مع الحيوان يأتي التعامل مع الإنسان^(٣). وظهرت عليه آيات وهو في كفالة عمه أبي طالب^(٤). سافر معه إلى الشام وظهرت عليه آيات. وأخبر بحيري عنه.

وحضر الرسول حرب الفجار وهو ابن العشرين. وكان يرد النبال عن أعماقه

(١) ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، ابن هشام ج١/ ١٦٨، عيون الأثر ج١/ ١١٢-١١٢، الإشارة ص ٧٥-٧٧، السيرة الحلبية ج١/ ١٨٣-١٨٤، السيرة النبوية ص ٣٤، على هامش السيرة ج٢/ ١٣٨-١٨١.

(٢) ابن هشام ج١/ ١٦٨، ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم، صحيح السيرة ص ٣٠-٣١/ ٣٨-٥٦، ٥٧، السيرة الحلبية ج١/ ١٧١-١٧٨.

(٣) الرسالة النبوية ج١/ ٥٨-٦٣، عيون الأثر ج١/ ١٠٥-١١٢، السيرة الحلبية ج١/ ١٩٣-١٩٨، حياة محمد ص ١٠٤، نور اليقين ص ١٤/ ١٦، الأسوة الحسنة ج١/ ١٢٦-١٢٩، مختصر سيرة (١) ص ٤٤، مختصر سيرة (٢) ص ١٦، خاتم الأنبياء ص ٣٦-٣٨.

(٤) الخصائص الكبرى ج١/ ١٩٤-٢٠١.

«وكنْتُ أنبل على أعمامي»^(١). وهي حرب بين القبائل ليس هدفها نشر التوحيد ونقد الشرك. كما أصبح الهدف في مرحلة انتشار الرسالة، الفترة المدنية. وإذا كان اشتراكه في حرب الفجار هي التجربة العسكرية الوحيدة فإنها لا تكفي لقيادة حرب جبهات كتلك التي تمت فيما بعد منذ غزوة بدر حتى غزوة تبوك. ومهمة مساعد محارب تختلف عن مهمة قائد جبهة. إنما تدل على الجمع بين التجارة والحرب أهم عملين في المجتمع البدوي. فالرسول ذو خبرة في السلم والحرب، في العمل المدني والعمل العسكري، في السوق وفي ميدان القتال.

٣- الزواج والبشارة

وتزوج محمد خديجة وهو ابن خمسة وعشرين عاما^(٢). فقد عرضت عليه أن يخرج في تجارتها إلى الشام بعد أن سمعت عن أمانته. وعرضت أن تعطيه أكثر مما تعطي الآخرين. وتعرف عليه راهب والركب في الطريق إلى الشام مع غلامها ميسرة. استراح محمد تحت شجرة. وسأل الراهب عنه وقال: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي». وهي نفس قصة بحيري الراهب مع زيادة المكان بدلا من الغنام، الأرض بدلا من السماء. وكان الذين يتعرفون عليه هم النصارى، أهل صدق وإخلاص. يقرءون ما يجدون عندهم في الكتاب. ثم عرضت نفسها عليه «إني قد رغبت فيك لقرابتك وسمعتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك». فالمرأة في الجاهلية كانت تطلب الرجل كما كان الرجل يطلب المرأة. ولم يكن في ذلك عيب أو خجل أو قلة حياء. ولم تكن تستحي وراء خباء، لها وكيل ينوب عنها فيما يخصها كما يقال هذه الأيام في وضع المرأة في الإسلام من أنصار حقوق المرأة. وتزوجها الرسول، ولم يتزوج عليها أحد حتى توفت. وكل أولاده منها إلا إبراهيم من مارية القبطية^(٣). وبه كان يُكنى. وهلك ولدان

(١) ابن هشام ج١/ ١٨٥-١٨٦، عيون الأثر ج١/ ١١٣-١١٥، الإشارة ص ٧٨، السيرة الحلبية ج١/ ١٨٥-١٨٧، حياة محمد ص ١٠٥، نور اليقين ص ١٤.

(٢) ابن هشام ج١/ ١٨٦-١٩٠، عيون الأثر ج١/ ١١٥-١٢١، خير العباد ص ٢٣-٢٤.

(٣) وهم: الطاهر، الطيب، زينب، رؤبة، أم كلثوم، فاطمة، ولدان وأربعة بنات. الإشارة ص ٨١، صحيح السيرة ص ٣٨، ابن خلدون ص ٨٤-٨٥، السيرة الحلبية ج١/ ١٩٩-٢٠٣، إسعاف الراغبين ص ١٢-١٥.

في الجاهلية لحكمة عدم المنافسة على الزعامة على وراثته الأب في مجتمع ذكوري لا خوف فيه من الأنثى في شياخة القبيلة. وبقت البنات بعد الإسلام. وأسلمن وهاجرن معه.

وأثناء الطريق إذا اشتد الحر كان ملكان يظلان محمد من الشمس. وهي نفس الواقعة السابقة مع الغمامة^(١). والملكان أكثر إيغالا في الخيال من الغمامة. فليس من المعقول أن يبقى الرسول بلا حماية إلهية عن طريق الطبيعة. فالشاب النبي ليس كغيره من الشبان. له رعاية خاصة من الطبيعة بفضل الله. فالله حارسه قبل البعثة وبعدها. وأخبرت خديجة ابن عمها النصراني ورقة بن نوفل بتظليل الملكين. واعترف لها بأن ذلك إن كان صحيحا فمحمد نبي هذه الأمة. خاصة وأن لهذه الأمة نبيا يُنتظر. وكانت خديجة على الدين الطبيعي الفطري دين الحنفاء، دين إبراهيم. لذلك كانت سريعة التصديق بالإسلام بعد سؤال ابن عمها النصراني الذي كان هو أيضا صادقا مع النفس مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل^(٢). كان ورقة بن نوفل مع أصحاب له يبحثون في الأديان^(٣). ثم تفرقوا للبحث عن الحنيفية دين إبراهيم. فكان الإسلام مطلبًا للنصارى واليهود الأتقياء والوثنيين الطبيعيين معا. توصل ورقة إلى النصرانية، وهاجر إلى الحبشة. وتوفي نصرانيا. وكان ابن جحش يقابل المسلمين في الحبشة وفي رواية أن الرسول تزوج امرأته بعد وفاته بعد أن خطبها النجاشي. وهو خبر غير معروف. وتنصر ابن الحويرث وذهب إلى قيصر الروم. أما زيد بن عمرو فلم يدخل يهودية ولا نصرانية. واعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح للأوثان. ونهى عن قتل الموءودة عبادة لرب إبراهيم. وهو الإسلام الطبيعي والإيمان الفطري. ضرب في الأرض طلبًا للحنيفية السمحة. وذهب إلى الشام. يسأل الرهبان والأخبار عن دين إبراهيم. فأجابه أحدهم بأنه يخرج نبي من بلاده يبعث بهذا الدين. وقتل في طريق العودة. فالبحث كان جار عن الإسلام كما كان يبحث الرسول

حياة محمد ص ١٠٨-١١٠، نور اليقين ص ١٧، سيد الأنام ص ٦٩-٧٣، مختصر سيرة (١) ص ١٩/٤٤-٤٥، مختصر سيرة (٢) ص ١٦، السيرة النبوية ص ٣٣-٣٤، السيرة النبوية ص ١١٠-١١١/١٢٠، خاتم الأنبياء ص ٣٩-٤٣، صحيح السيرة ص ٦٠-٦٢، الرحيق المختوم ص ٦٠، رسول الحرية ص ٣٢-٤٤.

(١) ابن هشام ج ١/١٨٧-١٨٨.

(٢) السابق ج ١/١٨٩-١٩٠.

(٣) السابق ج ١/٢١٦-٢٢٥.

عنه وهو في غار حراء. كان الإسلام مطلباً في شبه الجزيرة العربية لكثير من الباحثين عن الحقيقة ومنهم محمد. وجاء ملياً لأشواق العرب وتطلعاتهم إلى نظام أخلاقي جديد يتجاوز به العرب عبادة الأوثان وأوسع من اليهودية والنصرانية. كان البعض يبحث عن الحنيفية^(١).

واجتمعت قريش لبنيان الكعبة والرسول في سن الخامسة والثلاثين. وكانت حية تخرج من بئر الكعبة يخافها الناس فأرسل الله طائراً التقطها. فالطائر في السماء أكثر قدرة من الزاحف على الأرض. والحر الطليق أكثر قوة من المختبئ في الفجوات. فاستبشرت قريش خيراً، أن الله رضى عنها لإعادة بناء الكعبة. وعزموا ألا يدخل في بنائها إلا الكسب الطيب دون مهر البغايا، ولا يبيع الربا، ولا مظالم أحد من الناس. فالكعبة رمز للعدل. وقسمت قريش الكعبة بينها حتى حجارة يُظن أنها أساس إبراهيم. ووُجد كتاب مكتوب عليه بالسريانية قرأها أحد اليهود «أنا الله ذو بكة»، خلقت يوم خلق الله السموات والأرض وصور الشمس والقمر. وصفها بسبعة أملاك حنفاء. لا تزول حتى تزول أخشابها «مبارك لأهلها في الماء واللبن»^(٢). ثم اختصموا في رفع الحجر إلى حد القتال. وتشاوروا. وأشار أبو أمية بتحكيم أول داخل. فكان الرسول. فوضع الحجر في ثوب. وأخذت كل قبيلة بطرف. ثم رفعه هو بيده. ثم بنى عليه^(٣). وكان يسمى الأمين. وكان سلوكه فاضلاً قبل البعثة حتى أطلق عليه الأمين وتحكيمه فيها

(١) ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل بعد أن قتل «يُبعث أمة وحده». وقد قيل مثلها في أبي ذر، وعثمان بن الحويرة، وعبيد الله بن جحش، وورقة ابن نوفل، بهجة المحافل ص ٦٩-٧٢، مختصر سيرة (١) ص ٢٠-٢١، مختصر سيرة (٢) ص ٤١-٥١، خاتم الأنبياء ص ٤٣-٤٧.

(٢) ابن هشام ج ١/ ١٩١-١٩٦، وفي رواية أخرى «مكة بيت الله الحرام يأتيها رزقها من ثلاثة سبل. لا يجلها أول من أهلها». وفي رواية ثالثة «من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة. تعملون السيئات وتحجزون الحسنات أجل. كما لا يُجتنى من الشوك العنب»، السابق ج ١/ ١٩٤.

(٣) «هلم إلى ثوبا... لتأخذ كل قبيلة بتاحية من الثوب»، السابق ج ١/ ١٩٥، عيون الأثر ج ١/ ١٢١-١٢٥، الإشارة ص ٨٤-٨٧، صحيح السيرة ص ٣٩-٤٧، ألفية السيرة ص ٤٠-٤١، السيرة الخلية ج ١/ ٢٠٤-٢٦٤، نور الإبصار ص ١٤، حياة محمد ص ١١٢-١١٣، نور اليقين ص ١٧-٢١، سيد الأنام ص ٦٨-٦٩/ ٧٣-٧٤، مختصر سيرة (١) ص ٤٤-٤٦، مختصر سيرة (٢) ص ٢١-٢٤، السيرة النبوية ص ٣٥-٣٨، السيرة النبوية ص ١١١-١١٢، صحيح السيرة ص ٦٢-٦٤، خير الورى ص ٧٦٠، الرحيق المختوم ص ٦١.

يشجر بين قومه من خلاف مثل وضع الحجر الأسود في جدار الكعبة^(١). وهي قصة رمزية على قدرة الرسول على توحيد القبائل، ونزع الخلاف بينها. وما قام به الرسول في واقعة بعينها دون الرسالة سيقوم بذلك في حياة العرب بفضل الرسالة. وهي في نفس الوقت من بقايا الجاهلية. ولولا حداثة العرب بالكفر لهدمها^(٢). إنها هي رمز للتجميع والتوحيد. أصبحت زيارتها الركن الخامس في العبادات، قادرة على تجميع الملايين في وقت واحد معلوم، بلباس واحد أبيض غير مخيط، عودا إلى الطبيعة، وإعلانا لمساواة البشر جميعا، ورفضاً لطبقاتهم الاجتماعية. تناقش فيه أوضاع الأمة، وتعلم «البراءة» من أعداء الله ورسوله ومن يعتدي على حرياتنا، ويحتل أرضها، ويستغل ثرواتها، ويقتل نساءها وأطفالها وشيوخها، ويهود القدس، ويحتل فلسطين والعراق وجنوب لبنان، ويقيم القواعد العسكرية على أراضيها في الخليج وفي شبه الجزيرة العربية، موطن الإسلام^(٣).

٤ - تنبؤ اليهود والنصارى

وقد استمرت العلاقة بين اليهود والنصارى وباقي القبائل العربية قبل الإسلام وبعده بالإضافة إلى المسلمين. فقد كانوا عربا، وكانت اليهودية والنصرانية ديانات عربية^(٤). وكانوا هم التربة الطبيعية التي يظهر فيها الإسلام. يلقونه بالترحاب. وقد بشر علماء أهل الكتاب بمبعث النبي^(٥). سواء كانت في كتبهم أو في مآثوراتهم الشعبية. وكثير من هذه الحوادث متخيلة^(٦). يكفي نواتها التي على أساسها نسجت التخيلات الأخرى.

(١) الخصائص الكبرى ج١/ ٢١٠-٢١١.

(٢) «ولولا خدثان قومك بكفر لتقضت الكعبة وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا، وأدخلت فيها الحجر»، السيرة النبوية ص ٣٨.

(٣) خواطر حاج، أخبار الأدب، يناير ٢٠٠٦.

(٤) ابن هشام ص ٤٤-٤٩/ ٥١-٥٤، عيون الأثر ج١/ ١٢٥، المبشرات بمبعثه، سيد الأنام ص ٣٠-٤٥.

(٥) صحيح السيرة ص ٥٧-٦٢/ ٧٧-٨٠، السيرة النبوية ص ٤٣-٥٢، «في ذكر من بشر به قبل ظهوره وما أسفر قبل بزوغ شمس نبوته من صبح نوره»، سيرة النبي ص ٩٦-١٠٤.

(٦) «ما جاء من أمر الرسول عن أحبار اليهود وعن الرهبان من النصارى وعن الكهان من العرب على ألسنة اللجان وعلى غير ألسنتهم، وما سمع من المواتف ومن بعض الوحوش ومن بعض الأشجار، وطرد الشياطين

فيوم ولادته صرخ يهودي بأعلى صوته على حصن بيت «يا معشر يهود، طلع الليلة نجم أحمد الذي وُلد به»^(١). كان اليهود يعلمون ما هو مدون لديهم في كتبهم المقدسة، ظهور نبي اسمه أحمد. وكان بعض الأنقياء منهم ذوي البصيرة قادرين على التنبؤ به. فقد كان التنبؤ وظيفه النبي في اليهودية. ومنه اشتق فعل «تنبأ». ويعني قرأ المستقبل بالعبرية. وكان الدين قد اختلط بعلم أحكام النجوم. وهو علم التنجيم في شبه الجزيرة العربية. فقد تنبأ ثلاثة من المجوس بظهور يسوع المسيح بظهور نجم في السماء.

وجد اليهود أوصاف الرسول في كتبهم وتوعده شرا^(٢). بشرت الكتب السماوية بمقدم الرسول. وأشير إليه في التوراة والإنجيل. وهو مذكور في الزبور^(٣). وهو موصوف في التوراة. وأتمه سبعون ألفا^(٤). وأخبر به الأحبار والرهبان قبل بعثته في روايات متعددة دون أقوال مباشرة. كما أخبر به المتحشون ومن سموا بمحمد وأمية ابن أبي الصلت. وظل بنو إسرائيل يترقبون ظهور النبي^(٥). وقد ذكر أصحابه في الكتب السابقة ووعدهم بوراثه الأرض وراثته لليهود^(٦). وذكر في الزبور. كما أخبر به الكهان قبل البعثة^(٧). وقد أعلم موسى بقدوم النبي. إذ لما بلغ ولد معد بن عدنان أربعين رجلا

من استرقاق السمع عند بعثته بكثرة تساقط النجوم، وما وجد من ذكره مكتوبا من النبات والأحجار وغيرهما، السيرة الخلية ج١/ ٢٦٥-٣٠٩، نور اليقين ص ٢٢-٢٤، الأسوة الحسنة ج١/ ١٤٨-١٤٩، مختصر سيرة (٢) ص ٧٠، صحيح السيرة ص ٢٩-٣٣، خير الوري ص ٧٦٠. صفاته في كتب الأولين، السيرة النبوية (٢) ص ٤٣٧-٤٣٨.

(١) ابن هشام ج١/ ١٦٢، هروب اليهود حين رأوه، الخصائص الكبرى ج١/ ٢٠٢.
(٢) وفي ذلك نزل القرآن ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْخِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، ابن هشام ج١/ ٢٠٧-٢٠٨، المغازي ص ٩٠-٩١.

(٣) الفصول ص ٢٩٣-٢٩٧، سيد الأنام ص ٣٨-٣٩.

(٤) الخصائص الكبرى ج١/ ٢٦-٥٢.

(٥) السابق ص ٥٣-٧٩. وأخبر به أيضا كعب بن لؤي جد النبي، وقس بن ساعدة وجد الأوس، وسعد بن زرارة، وعمر بن حبيب، والفضل وربيع أبو بكر الحنيفة أتيت بها بيضاء نقية أين ما كان يخبرك الأحبار من اليهود والنصارى من حقيقي...، ص ٧٤.

(٦) السابق ص ٧٩-٨٧. وعلامات أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والإخبار بمقتل عثمان، وعلامات النبي، وخبر صفين، وابن الزبير وهدم الكعبة، وخامس الخلفاء الراشدين، ومقتل حجر بن عدي وأصحابه، وخبر عن العباسيين.

(٧) السابق ص ٨٨-٩٤. مثل رؤيا ربيعة بن نصر ص ٩٢-٩٤، وخبر طفيل بن زيد ص ٩٤.

وقعوا في معسكر موسى فانتهبوه. فدعى عليهم موسى. فأوحى الله إليه ألا يفعل فإن منهم النبي الأمي النذير البشير، وأمة محمد الذين يرضون باليسير من الرزق ويرضى الله منهم بالقليل من العمل فيدخلهم الله بالشهادتين. والنبي متواضع في هيئته، اللب في سكوته، حكيم حلیم، من خير جيل من قريش وصفوتها، من خير إلى خير إلى خير، هو وأمتة^(١). وقد أوحى الله إلى عيسى أن يؤمن بمحمد. فالإسلام هو رسالة الأنبياء جميعا. كل نبي سابق يخبر بقدومه حتى تتحقق غاية التاريخ، وتكتمل النبوة، عودا إلى الدين الطبيعي، دين إبراهيم^(٢).

وتنبأ به يهودي حدث العرب عن القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار. يحمله نبي من ناحية مكة واليمن في هذا الجليل. وبدلا من تصديقه ماداموا يصدقون بكتابهم فإنهم كذبوه. ولم يكن على خلاف في العقيدة، فكل الدينين يدعوان إلى التوحيد وعدم الشرك بالله أو في الشريعة. فبعض شرائع الإسلام امتداد لليهودية في صوم عاشوراء، والرجم، وتحريم لحم الخنزير، ولكن الخلاف كان صراعا على السلطة في المدينة. فقد كان اليهود يكونون سلطة. وكانوا يسكنون حصونا، وليس مجرد بيوت يخزنون فيها ثرواتهم. وإليها أشار القرآن^(٣). وكان بهم نوع من الحسد والغيرة والحقد بسبب تحول النبوة عن بني إسرائيل إلى العرب. فيسوع المسيح في النهاية يهودي أتى إلى بني إسرائيل. والنصرانية لم تخرج عن اليهودية. أما الإسلام فقد خرج عنهم إلى قوم آخرين، العرب، بدلا من بني إسرائيل.

وكان ابن الهيثيان يهوديا من الشام يصلي الخمس، فاضلا، يستسقي فينزل المطر. فلما حضرته الوفاة اعترف بأنه انتقل من الشام حيث الرزق إلى الجنوب حيث الجفاف لخروج نبي يرجو اتباعه. ودعا اليهود إلى اتباعه لأنه يسفك الدماء ويسبي الذراري والنساء من مخالفته خوفا وليس اقتناعا. فلما جاء الرسول وحاصر بني قريظة نزل

(١) الخصائص الكبرى ج١/ ٣٥.

(٢) «أوحى الله إلى عيسى: يا عيسى آمن بمحمد»، النبي الأعظم ص ٢٦.

(٣) «وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ»، وفي سبق ذكره في التوراة والإنجيل والزيور وأخبار الأحبار والكهان وصفاته المميزة، الأسوة الحسنة ج١/ ١٣-٢٧، مختصر سيرة (٢) ص ٥٦-٦٤، السيرة النبوية ص ٤٨-٥٢.

فريق وأسلموا وعصموا دماءهم وأموالهم وأهليهم. وهي صورة الإسلام عن طريق الخوف. والرسول لا يسفك دما ولا يسبي امرأة إلا بعد إعطاء الأمان والتخير بين الإسلام أو الجزية أو القتال. كان بعض الأتقياء اليهود يعلمون الحق، ويقرءون ما هو مدون عندهم بالكتاب بظهور نبي جديد من العرب. وكان لأحدهم كرامات في الاستسقاء ونزول المطر. ودعا اليهود ساعة وفاته إلى إيمانهم بالنبي الجديد. واستعمل معهم الوسائل الحسية التي تقنع اليهود، الخطورة على دمائهم وأموالهم وأولادهم. فهم يعشقون الحياة والذرية والأموال^(١). بل لقد ذكر أصحابه بالكتب السابقة ووعدهم بوراثه الأرض في الزبور^(٢). وكلها قراءات للحاضر في الماضي وتنميط للحاضر طبقا لنماذج الماضي^(٣). فالإدراك في الشعوب الدينية يتم بناء على تصورات سابقة. الماضي يفسر الحاضر. والحاضر يُرى من خلال الماضي.

وقد تعرّف عليه النصارى أيضا كما تعرّف عليه اليهود. فقد رأى نفر من نصارى الحبشة الطفل مع مرضعته وتعرفوا عليه، وطلبوا أخذه إلى ملكهم لأن سيكون له شأن. فخافت عليه حليلة وأرجعته إلى أمه^(٤). وهذا يدل على ولاء النصارى الأحباش للمسيح، وأنه لا تعارض بين الدين والسياسة. تعرف عليه العديد من النصارى والرهبان. كما ورد ذكره في الإنجيل. وكان خبره عند رؤساء نجران وملك الروم^(٥).

ولما خرج أبو طالب إلى الشام في تجارته تعلق به الرسول فرق له أبو طالب وصحبه معه. فلما نزل بصرى بالشام كان بها راهب يسمى بحيري في صومعة له انتهى إليه علم النصرانية، لهم كتاب يتوارثونه. وكان لا يكلم أحدا. وفي هذه المرة صنع لهما طعاما كثيرا لأنه رأى الرسول في الركب وعليه غمامة تظله. ثم أظلت الشجرة التي نزل تحتها

(١) ابن هشام ج١/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) الخصائص الكبرى ج١/ ٧٩. علامات أبي بكر وعمر، وصفات عثمان وعلي ومقتل عثمان، وعلامات النبي، وخبر صفين، وابن الزبير وهدم الكعبة، وخامس الخلفاء الراشدين، ومقتل حجر بن عدي، وخبر عن العباسيين.

(٣) ما يسمى في الدراسات التاريخية Stereotypes.

(٤) ابن هشام ج١/ ١٦٩، مختصر سيرة (١) ص ٢١.

(٥) أخباره من نعيم الداري، قس بن ساعدة، زيد بن نفل، سواد بن قارب، مازن بن الغضوية، زمل بن عمرو، عباس بن مرواس، عيون الأثر ج١/ ١٢٥-١٦٣.

الرسول. وأدرك الراهب تخلف الصبي عن دعوته للطعام. وأصر على دعوة الجميع^(١). ورفض الرسول أن يجيبه عن أي سؤال باسم اللات والعزى^(٢). وأجابه عن جميع أسئلته فوجدها توافق ما لديه في كتبهم. ووجد خاتم النبوة بين كتفيه. فأوصى عمه بالحرص عليه من اليهود لأنهم لو عرفوه لابتغوا به شرا. فعاد أبو طالب بسرعة إلى مكة. فشب الرسول وهو على أخلاق كريمة «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ». فالأخلاق أساس الدين، وشرط النبوة^(٣). الماضي يتبأ بالحاضر. والنبوة مستمرة في التاريخ في ثقافة العرافين والكهنة وقارئ المستقبل. وتحدث أبو سفيان عنه.

وفي رواية أخرى تعرف على الغلام بحيري الراهب في الشام عندما أقبل الركب، ورأى غمامة تظله من بين القوم. فدعاهم إلى الطعام على غير عادته جميعهم. وأدرك أن هناك غائبا لحدائث سنه. ثم حضر الغلام. واستجوبه بحيري. واستحلفه باللات والعزى. فرفض الغلام. ووافق كل ما أبلغه الغلام ما وجد بحيري في كتابه حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه في ظهره. وعرف أن أباه ليس حيا. فأوصى بأن يعود إلى بلده، وأن يخشى عليه من اليهود «فارجع بابن أخيك إلى بلده»، واحذر عليه يهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبيغينه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فالنصارى مع الدين الجديد، واليهود ضده. لم يشعر النصارى أن الإسلام ضدهم كما شعر اليهود لأن النصارى لم يكونوا قوة سياسية واقتصادية واجتماعية منعزلة عن باقي العرب. بل كانت النصرانية أقرب إلى الدين العربي في حين أن اليهودية بقت دين آبائهم وأجدادهم. وظل اليهود لا يختلطون بالعرب، يعيشون في عزلة، «جيتو» يهودي في الطائف وخبير. يدافعون عن عزلتهم وعدم اختلاطهم وتكوينهم كيانا صغيرا داخل الكيان الكبير الذي هم جزء منه. ييغون سلطة مستقلة لهم، دولة داخل دولة. تمتد حتى

(١) ابن هشام ج١/ ١٨٠-١٨٣، سيد الأنام ص ٦٧-٦٨، المغازي ص ٩١، مختصر سيرة (١) ص ١٨.

(٢) «لا تسألني باسم اللات والعزى شيئا. فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضها»، ابن هشام ج١/ ١٨٢.

(٣) «كان رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما حتى ما أسماه قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة»، السابق ج١/ ١٨٣، ويشكك الندوي في صحة الرواية، السيرة النبوية ص ١٠٤-١٠٦، صحيح السيرة ص ٥٧-٥٩، الرحيق المختوم ص ٥٨، مختصر سيرة (٢) ص ٨٠.

تبتلع الدولة الصغرى الدولة الكبرى، ويحتوي الكيان الأصغر الكيان الأكبر كما يحدث الآن في فلسطين. وكما حدث من قبل عبر تاريخهم في كل وطن سكنوا فيه شرقاً وغرباً. لا يتدجون فيه مما أدى إلى ما حدث لهم داخل ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. وأخبر به أيضاً الكاهن خطر بن مالك^(١).

ولما سافر النبي مع عمه أبي طالب إلى الشام ظهرت الآيات عليه. وأخبر بحيري الراهب عنه. واستسقى أبو طالب به. وهرب اليهود حين رأوه. وعاداه أبو لهب. وأوصى أبو طالب قومه باتباع محمد. وتجراً المشركون على النبي بعد موت عمه. وقد اختص بحفظ الله له في شبابه عما كان عليه أهل الجاهلية. كما اختص بتعظيم قومه له في شبابه، وتحكيمهم إياه، والتماسهم دعاءه، وتسميته بالأمين. وظهرت الآيات في سفره إلى خديجة مع ميسرة. ورفض الحلف باللات والعزى. وقد تزوج خديجة ربما بنداء جبريل لحث النساء على ذلك^(٢). وتعرف زهير النصراني وصاحبه على الغلام أيضاً، الموصوف عندهم في الكتاب. وسمعوا ما قال له بحيري. فشب الغلام والله يحفظه ويحوطه من أدران الجاهلية لكرامته ورسالته. وكان أفضل قومه مروءة وأخلاقاً. فالنبوة أخلاق. وكانت صفة الرسول مدونة في الإنجيل. يبشر بقدومه يحسن الحوار في فهو المنحمن؟ وتعني بالسريانية محمد، ويعني بالرومية البرقليطس^(٣). فالتنبؤ بقدوم الرسول بالاسم وليس فقط بالرسم أو بالوعد أو البشارة. لذلك آمن به النصاري أكثر مما آمن به اليهود، وعلى نحو أسرع ودون مقاومة. لم يقاوم النصاري المسلمين كما قاومهم اليهود. ولم يغدروا به أو يخونوه. لذلك مدحهم القرآن^(٤). أخبر به الأخبار والرهبان قبل مبعثه^(٥). لذلك أسلم سلمان الفارسي بالرغم من تعدد الروايات، ورؤيته لعيسى.

(١) ابن هشام ج١/ ١٨٠-١٨٢، سيد الأنام ص ٣٢-٣٥.

(٢) الخصائص الكبرى ج١/ ١٩٥-٢١٢.

(٣) ابن هشام ج١/ ٢٢٥، الفصول ص ٢٩٣-٢٩٧.

(٤) وَلَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيحِينَ وَرُهَتَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠٠﴾

(٥) الخصائص الكبرى ج١/ ٥٣-٧٩/ ٨٨-٩٤ ومنها تعرف أمية بن أبي الصلت عليه، رؤيا بختصر، المتخثون العرب، ترقب اليهود، أخبار كعب بن لؤي، قس بن ساعدة، جد الأوس، رؤيا سعد بن زرارة، قصة عمير بن حبيب، إسلام أبي بكر.

وكان سلمان الفارسي مجوسيا مر بكنيسة فتنصر. وذهب إلى الشام. وقابل أسقف النصارى السبي الذي يكتنز الصدقات لنفسه. وعندما مات وعرف الناس رجهو بالحجارة وصلبوه. وخلفه رجل أفضل وأزهدي الدنيا وأرغب في الآخرة. ولما مات أوصى بالذهاب إلى صاحب له في الموصل وكان مثله في الخير. فلما حانت وفاته أوصى بالذهاب إلى نصيين وكان بها فاضلا مثل سابقه. فلما دناه الموت أوصى له بالذهاب إلى رجل بعمورية بأرض الروم. فلما قاربت الوفاة أوصاه بالذهاب إلى نبي جديد مبعوث بدين إبراهيم في أرض العرب. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كنفه خاتم النبوة. ثم أعطى بقراته وغنميته إلى ركب ليحملوه إلى أرض العرب. ثم باعوه إلى يهودي عبد. ثم ابتاعه رجل من بني قريظة وحمله إلى المدينة. واستوثق من الرسول بأنه لم يأكل من الصدقة بل من الهدية. ورأى خاتم النبوة في ظهره. فاعتنق الإسلام وأعانه الصحابة لشراء نفسه من الرق. وطلب منه الذهاب إلى الشام ليلقى رجلا. فذهب ووجده يشفي المرضى. وعاد فقال له الرسول «لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى ابن مريم»^(١). وهو إخراج مسرحي جيد، بالانتقال من مدينة إلى مدينة والاشتياق إلى رسالة محمد بعد لقاء المسيح. وطبق على مكتنز الصدقات حد الرجم. وُصِّل مثل يسوع المسيح. وقد تعرى النبي أمام اليهودي ليرى كنفه. وهل من معجزات الرسول شفاء المرضى أم أنه قياس على يسوع المسيح؟ وهي روايات مركبة من وضع الخيال. فالرسول والمسيح ليسا متعاصرين. تفرق بينهما ستة قرون.

وأخبر ملك اليمى سيف بن ذي يزن بمبعث الرسول. وتنبأ هرقل ملك الروم بظهور ملك الحثان^(٢). وارتج إيوان كسرى. فالملوك وعروشهم أحسوا بمولد الرسول وبعثه. فالنبوة قانون تاريخي، مؤشر على مرحلة جديدة في مساره.

٥- تنبؤ الكهان العرب

وكانت الكهانة عامة بين النصارى واليهود والعرب عبدة الأوثان^(٣). فالكهانة عادة عربية بصرف النظر عن الدين، نصرانية أم يهودية أو وثنية. وكان الثلاثة، الأحبار

(١) ابن هشام ج١/ ٢٠٩-٢١٥، عيون الأثر ج١/ ١٣٤-١٤٢، سيد الأنام ص ٣١-٣٢، مختصر سيرة (١) ص ٢٠-٢١، مختصر سيرة (٢) ص ٥١، السيرة النبوية ص ١٢١.

(٢) سيد الأنام ص ٣٥-٣٨، مختصر سيرة (٢) ص ٨٠.

(٣) ابن هشام ج١/ ٢٠١-٢٠٧، صحيح السيرة ص ٥٦-٥٧/ ٨٢-٨٤/ ١٠٠-١٠٤.

والرهبان والكهان، يتحدثون عن الرسول قبل بعثته. إذ وجد الأخبار والرهبان أوصافه في كتبهم. والكهان العرب أخبروا بها أنت به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع مهما قذفت بالنجوم. وقد قص القرآن ذلك^(١). وآمن بعض الجن وأبلغ قومه^(٢). لا فرق بين الواقع والأسطورة، بين الحقيقة والخيال، بين التاريخ والقصص. ولقد أدان القرآن الكهانة والعرافة كمصادر للمعرفة. فكيف تثبت النبوة بها؟ وكانت الغنيطة كاهنة في الجاهلية يأتيها صاحبها حتى وقعت بدر وأحد فعرفت قريش أنها المقصودان بكهانتها^(٣). لذلك قارنت قريش القرآن بسجع الكهان مما نفاه القرآن. كانت ثقافة الكهانة جزءا من الثقافة العربية قبل الإسلام، واستمرت بعدها. وإليها أشار القرآن^(٤). وكان لأحد البطون كاهن في اليمن. فلما ذاع خبر احتمال قيام نبي في العرب نزل لهم من أعلى الجبل حين طلعت الشمس. ووقف متكئا على قوس. ورفع رأسه إلى السماء في حركة مسرحية وقال «أيها الناس إن الله أكرم محمدا واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه، ومكثه فيكم أيها الناس قليل». ثم رجع من حيث جاء^(٥). مع أنه لا يطلع على الغيب إلا الله^(٦). وكان السجع منتشرا قبل نزول القرآن عند الكهان. وهو أقل قيمة من الشعر^(٧). يمجّه الذوق

(١) «قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ سَفِهَاتٍ عَلَىٰ اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَىٰ وَالْجِنُّ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلَكُوتَ خَرَسٍ شَدِيدًا وَشَهَبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ سِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِعَنِّي فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا .» ابن هشام ج١/ ٢٠١.

(٢) «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ»، «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا». السابق ج١/ ٢٠٢، سجع كحلية الذهب، الشعر، جوامع الكلم، الأسلوب المعصري، عبقرية محمد ص ١١١-١١٩.

(٣) قال صاحبها «أدر ما أدر، يوم عقر ونحر.. شعوب ما شعوب، تصرع فيه كعب لجوب...»، ابن هشام ج١/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٤) «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ».

(٥) ابن هشام ج١/ ٢٠٥.

(٦) «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُم عَلَى الْغَيْبِ»، «عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا»، «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَلْمِزُهَا إِلَّا هُوَ»، «فَقُلْ إِنَّا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ»، «أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى»، «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ».

(٧) مثل قول بعض الأنصار في رمي النجوم للشياطين: «مات ملك، ملك ملك، ولد مولود، مات مولود»،

العربي، وترفضه الأذن العربية. وقد سجع الكهان بظهور النبي قبل بعثته^(١).

ولم يتحرج علماء السيرة من نقد روايات الطفولة كما هو الحال في «إنجيل الطفولة» عن طفولة المسيح، والحكم على درجة صحتها فيما استقر في الذهن الشعبي بصحته لما به من تفخيم وتعظيم وإجلال للرسول. فمثلاً يُضعف حديث «أول الرسول آدم». ويستبعد صحة حديث «ولدت مسرورا مختونا». ويضعف حديث «إني أتيت قبر أم محمد». وتضعف قصة خروج النبي مع ميسرة إلى الشام. ويضعف حديث «ما هممت بقبيح»^(٢). فالسيرة روايات. والروايات رؤى. والرؤى مستوى ثقافي لمجتمع في عصر معين، يعيش مرحلة تاريخية معينة. تجمع السيرة بين الواقع والأسطورة، بين الرواية والأدب، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

ابن هشام ج ١/ ٢٠٣: وقول سواد بن قارب لعمر «أم تر إلى الجن وإبلاسها، وإياسها عن دينها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها»، وعلق ابن هشام على ذلك بقوله «هذا الكلام سجع وليس بشعر» السابق ج ١/ ٢٠٦. وسجع عمر صوت من جوف عجل ذبح لوثن «يا ذريح، أمر نجيح، رجل يصيح، بلسان فصيح»، السابق ج ١/ ٢٠٦، مختصر سيرة (٢) ص ٦٥-٦٨.

(١) الخصائص الكبرى ج ١/ ١٣٢.

(٢) الفصول ص ٣٦/ ٤٠/ ٤٧/ ٥٠-٥١.

الباب الثالث

بداية الرسالة

الفصل الأول

إعلان الرسالة

١ - دخول الوحي في التاريخ

وتعني «بداية الرسالة» بداية الإسلام منذ الإعلان عنها في الفترة المكية ثم انتشارها بعد الهجرة في الفترة المدنية. وهي ذروة الرسالة بين التأسيس، في الجاهلية وبعد الميلاد حتى سن الأربعين، وبداية الرسالة منذ الإعلان عنها في مكة وانتشارها في المدينة، ونهاية الرسالة منذ وفاة الرسول ثم عصر الخلافة طبقاً لمنطق الأحداث ومسار التاريخ، البداية والوسط والنهاية. وبعد البداية في تأسيس الرسالة في الجذور والنشأة، وقبل النهاية في اكتمال الرسالة ومصيرها ثم في تشخيص الرسالة وتغير محورها من الرسالة إلى الرسول. وهي أكبر مرحلة زمنية في الرسالة، تقريبا كلها على مدى ثلاثة عشر عاما والرسول منذ الأربعين، وقت الإعلان حتى الثالثة والخمسين، وقت الهجرة من مكة إلى المدينة من الفترة السرية إلى الفترة العلنية^(١).

ويعني إعلان الرسالة بداية عودة تدخل الوحي في التاريخ واستئناف مساره منذ آدم حتى محمد بعد ستة قرون من مولد يسوع المسيح بدفعة جديدة من النبوة بعد أن طغى اللاهوت عليها في عصر آباء الكنيسة، اليونان واللاتين. فقد اختلف المسيحيون حول صُلب العقائد، التوحيد، حول طبيعة يسوع المسيح، إلها أم إنسانا أم إلها وإنسانا ولكن الألوهية أكبر، أم إنسانا وإلها ولكن الإنسانية فيه أكبر، والتوصل في القرن الرابع إلى حل وسط يرضي كل الأطراف في مجمع نيقية الأول عام ٣١٤م في شعار «واحد في

(١) «من بعض سيرته مما لاقاه من حيث بعثه الله إلى أن هاجر إلى الله»، سيرة النبي ص ١٧٣-٢١٥.

ثلاثة، وثلاثة في واحد». يعني إعلان الرسالة أن الواقع في شبه الجزيرة العربية قد نضج بما فيه الكفاية من أجل تقبل دعوة جديدة تستأنف دعوة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى يقوم بها محمد، أولو العزم من الرسل.

وأول علامة البعثة الرؤى الصادقة^(١). وقد كانت الرؤى أمراً شائعاً عند العرب. فلم ير الرسول رؤية إلا وقعت. الرؤية وحي غير مباشر من طبيعة النفس البشرية لهما الذي تحمله، هم الحقيقة، وهم المعرفة، وهم الأمة. وعند علماء النفس تفسيرات متعددة لها. وتتم الرؤية في اليقظة مثل أحلام اليقظة أو في النوم. ويقال في العادات الشعبية بعد اليقظة مباشرة وفرك العيون «اللهم اجعله خيراً». الرؤية الصادقة تمهيد للوحي وتمرين للنفس على استقباله. إذ تتضمن معرفة بالغيب، غير مألوفة. تجعل النفس مرآة ناصعة تعكس ما تراه من حوادث مستقبلية وتحوله إلى معارف. تجعلها أكثر قدرة على الاطلاع على أكبر قدر ممكن من الزمن في المستقبل ولا تجعله فقط لحظة ممدودة بين الماضي والمستقبل، اليوم بين الأمس والغد. والرؤية لا ترتبط بالموضوع بل بالذات، قدرة الذات على المعرفة بصرف النظر عن موضوع المعرفة. فالرؤية في كل الديانات والمذاهب بصرف النظر عن موضوعاتها. وكان الرائي أو العارف موجوداً في كل الحضارات القديمة، اليونانية والمسيحية واليهودية والفارسية والرومانية والحبشية والعربية. تعرض لها الصوفية باعتبارهم أصحاب النفوس الصافية. وعرفها الأولياء والصديقون و«أحباب» الله، اتصال مباشر بمصدر المعارف دون وسيط إلا النفس الصافية. وقد تكون رواية شخص في الجنة.

وكان من عاداته التحنث في غار حراء كل سنة شهراً^(٢). وكان يعني أيضاً التحنف بالفناء أي الحنيفية. وجاءه طبقاً للرواية جبريل وهو في الغار وطالبه بأن يقرأ ثلاث مرات. فنزلت الآية. وفي قول الرسول بعض التفصيلات عما هو معروف، أن جبريل آتاه بنمط من ديباج فيه كتاب وهو تشبيهه حسي للقرآن، وبعد المرة الثالثة يبين الرسول

(١) ابن هشام جـ١/٢٢٦، حياة محمد ص١١٧، نور اليقين ص٢٥، مختصر سيرة ص٥٣، خير الورى ص٢٤٦-٢٤٨/٣٠٩/٥٣٥.

(٢) ابن هشام جـ١/٢٢٧-٢٣٠، المغازي ص١٠١-١٠٦، نور الإبصار ص١٥، حياة محمد ص١٠٨.

أنه قال «ما أنا بقارئ» خشية أن يعود من جديد بعد أن كان يغته كالموت^(١). ثم خرج من الغار فسمع صوتا في السماء يقول له إنه جبريل طبقا للرواية فرفع رأسه فوجد رجلا ينادي عليه بأنه رسول الله، وأنه طبقا للرواية جبريل حتى جاء رسل خديجة يبحثون عنه فأخبرها بما حدث فبشرته ورجت له أن يكون نبي هذه الأمة. ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر. قرأ الكتب، التوراة والإنجيل. وقصص عليه ما سمعت. فقدس الله. وأخبرها بأنه الناموس الذي كان ينزل على موسى، وأنه نبي هذه الأمة، وعليه أن يثبت. فقام الرسول، وطاف بالكعبة كما كان يفعل. وقابل ورقة وأخبره بها سمع ورأى. وكرر له ورقة أنه نبي هذه الأمة، وأن الأمة ستكذبه وتؤذيه وتخرجه وتقاتله. ولو عاش لنصره. وقد اعترف ورقة بن نوفل النصراني بما أخبرته به خديجة وأبو بكر. وأنشد شعرا يتعجل بالبعثة. وتعددت الروايات^(٢). وطالبت خديجة بالثبوت. فأثابه طبقا للرواية جبريل فجلس الرسول على فخذه الأيمن ثم الأيسر ثم في حجرها ثم رفعت خمارها فلم يأت. فعرفت أنه ليس شيطانا. فكان الخمار عادة عربية قبل الإسلام للاحتجاب من الغريب وليس من القريب. وهو درس تصويري في الفرق بين أخلاق الملائكة وأخلاق البشر، وغطاء النساء وسترهن.

كان الرسول أميا، لا يقرأ ولا يكتب حتى لا يُقال إنه تعلم الوحي وقرأه في الكتب

(١) «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب. فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغطني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغطني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغطني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتراء منه أن يعود لي بمثل ما صنع فقال فقرأتها ثم انتهى. فانصرف عني وهببت من نومي فكأنها كتبت في قلبي كتابا. «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم».

جدا/٢٨، السيرة النبوية جدا/٦٣-٦٩، خبر العباد ص٢٤-٢٥، الفصول ص٥٣-٥٦، صحيح السيرة ص١٠٦-١١٥، ألفية السيرة ص٤١-٤٣، بهجة المحافل ص٧٤-٧٦، سيرة النبي ص١٧٣-١٧٦، السيرة الحلبية جدا/٣٣٤-٣٧٤، نور الأبصار ص١٥، إسعاف الراغبين ص١٥-١٦، حياة محمد ص١١٦-١١٩، محمد ص٣٣-٣٨، نور اليقين ص٢٦-٢٨، سيد الأنام ص٧٦-٧٩، مختصر سيرة (١) ص٢١-٢٢/٤٦، السيرة النبوية ص٥٢-٥٨، سيرة الرسول ص٧-١٠، صحيح السيرة ص٦٥-٧١/٢٧١، الرحيق المختوم ص٦٥-٧٧، رسول الحرية ص٥٨-٦٧، حياة محمد ص١٢١-١٢٢، صحيح السيرة ص٧١.

(٢) الخصائص الكبرى جدا/٢١٩-٢٢٤.

المنزلة السابقة. لذلك اعتذر بأنه ليس بقارئ بالمعنى الحرفي أي «فك الخط» كما يقال في التعبير الشعبي. والقراءة بمعنى جبريل هي المعرفة والفهم والإدراك والتبصر والرؤية. وهذه ليست مرتبطة بالقراءة والكتابة بالمعنى المدرسي. وفي الثقافة الشعبية قد يكون الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة أكثر وعياً من المتعلم الذي يعرف القراءة والكتابة^(١). ولم يكن شاعراً حتى لا يقال إنه ألف القرآن من نوع شعري جديد. والأبيات الشعرية القليلة المروية عنه في كتب الحديث أقرب إلى السجع منها إلى الشعر^(٢).

وظهور جبريل له أول مرة ليس بخصوصية ولا معجزة بل هو شيء طبيعي لإبلاغ النبي الرسالة. وثبتت خديجة من الأمر. وانطلق النبي مع أبي بكر إلى ورقة^(٣). ورؤيته جبريل ليس معجزة. والسماع لا يحتاج إلى رؤية. وقد لعب الخيال دوراً في تصويره: ستائة جناح من لؤلؤ ينشرها كالطاووس^(٤).

وبعد البعثة كان إذا خرج لحاجته وابتعد عن بيوت مكة وشعابها ويطون أوديتها لا يمر بحجر ولا شجر إلا أقرأه السلام^(٥). وهذا إحساس بالوحدة وإيجاد قصد آخر يحدثه في شعور متبادل كما يحدث عند الشاعر والفنان الملهم عندما تحدثه الطبيعة. فعند الموسيقي الطبيعة تغني. وعند الفيلسوف الملهم العالم يتكلم. وعند الصوفي صاحب الكرامات الأشياء تتحدث. فكل شيء في هذا العالم لغة لا يفهمها كل الناس. وقد كان سليمان يفهم لغة الطير والنمل^(٦). ولا يوجد شيء في هذا العالم إلا ويسبح ولكن البشر لا يفقهون تسبيحه^(٧). كان يتمنى أن يأتيه الملك ويسمع صوته. فسمع صوت كل شيء طبقاً لما يتمنى. الطبيعة تحدثه نيابة عن الملاك.

(١) وهو ما سماه سيد قطب «الجهل الذي يعمل الدكتور». وهي التفرقة التي أقامها بترارك (+١٣٧٤) في «حول جهلي وجهل كثيرين آخرين»، ونقول الكورزي (+١٤٦٤) في أواخر العصر الوسيط وقبل بدايات العصر الوسيط بين «العلم الجاهل» و«الجهل العالم». مقدمة في علم الاستغراب ص ١٦٦-١٧٢.

(٢) من النقل إلى العقل ج ٢ علم الحديث، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

(٣) الخصائص الكبرى ج ١/ ٢١٣-٢٢٤.

(٤) السابق ص ٢٧٠.

(٥) ابن هشام ج ١/ ٢٢٦-٢٢٧، ألفية السيرة ص ٤٣-٤٥. «إن بمكة حجراً كان يسلم علي ليالي بعثت، إني لأعرفه الآن»، سيرة الرسول ص ٨.

(٦) «فَقَهَّمَنَاهَا سُلَيْمَانُ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَمًا».

(٧) «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ».

بُعث الرسول وهو في سن الأربعين لكافة الناس^(١). وقد أخذ ميثاقا على كل النبيين السابقين عليه بالإيمان به وتصديقه ونصره على من خالفه، وأن يكون ذلك لكل من آمن بهم وصدقهم. وهي قراءة بعدية للحاضر في الماضي، وشهادة الأنبياء السابقين على النبي الحالي نظرا لوحدة النبوة وتعدد مراحلها. كل نبي يبشر بالنبي القادم وهي شهادة الماضي في الحاضر. شهادة فعلية بظهور نبي بعده. فمن الطبيعي أن يصدق من صدق بالأنبياء السابقين بالنبي الحالي. ومن الطبيعي أن يصدق من يصدق بالنبي الحالي بالأنبياء السابقين. فالرسالة الحالية تأكيد للرسالات السابقة. والرسالات السابقة تكتمل في الرسالة الحالية كآخر حلقاتها. واليهود لا يصدقون بنبو محمد لأنها تخرج النبوة من بني إسرائيل في قوم آخرين. والنصارى لا يصدقون بنبو محمد لأنه لا يوجد أعظم من يسوع المسيح، ميلادًا وحياة ووفاة ورفعا^(٢). فالإسلام ليس دين شعب بعينه مثل اليهودية ولا دين قلب مثل التصوف بل هو دين للبشر جميعا^(٣).

وتأخر الوحي في معاودة النزول مما أقلق الرسول. والرواية التي تشير إلى أن الرسول كان يريد التردى من فوق الجبال ضعيفة عند انقطاع الوحي، وكان الرسول قد جُن وأنه كان حريصا على أن يكون الرسول. ويضعف حديث «رأيت القس على ثياب أبيض». فالبياض لون يفضلته الخيال الشعبي. ويضعف كل ما ورد في أساليب المقاطعة مع ثبوت أصل الحادثة. وأحاديث الإسراء مضطربة. ويصحح حديث «من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني...»، وحديث ذر التراب على رؤوس المشركين ضعيف^(٤).

(١) ابن هشام ج ١/ ٢٢٥، عيون الأثر ج ١/ ١٦٤-١٧٧، المغازي ص ٩٥-١٠١.
(٢) «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ». ابن خلدون ص ٨٦-٩٨، السيرة الحلبية ص ٣٢٢-٣٣٣، مختصر سيرة (١) ص ٢١، مختصر سيرة (٢) ص ٧١-٧٤، على هامش السيرة ج ٣/ ٥-١٠٨.

(٣) محمد ص ٣٩-٥٠.

(٤) الفصول ص ٥٤/ ٥٦/ ٦٢/ ٦٦/ ٦٨. «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثت منه حتى هويت إلى الأرض فجثت أهلي فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله (يا أيها المزمّل)....» السيرة النبوية ص ٥٩، سيرة الرسول ص ١٣، الرحيق المختوم ص ٦٩.

وتتضخم رواية جبريل وتخبر بجلوس الرسول على الآن فوق درنوك. وهو بساط ذو خمل يشبه القروة وعليه ثوبان أخضران. ثم ضرب جبريل برجله الأرض فنبعت عين ماء^(١). وفي رواية ثالثة «كان جبريل يأتيه مثل صلصلة الجرس، وهو الأشد وأحياناً يترتل كرجل يتكلم»^(٢). يأتي الوحي إما بالرؤية الصادقة أو بما يلقيه الملك في الروح أو يتمثل الملك رجلاً وربما يراه الصحابة أو يأتي مثل صلصلة الجرس أو رؤية الملك في الصورة التي خلق عليها أو ما أوحى إليه من فوق السماوات ليلة المعراج أو كلام الله له بلا واسطة كما حدث لموسى. أما كلام الله له من غير حجاب فعليه خلاف^(٣).

وابتدأت نزول القرآن في شهر رمضان^(٤). نزل في ليلة القدر ويوم لقاء الرسول والمشركون في بدر^(٥). وكلها أيام مفترجة جعلت الدين الشعبي يحتفل بها مع الدين الرسمي الحكومي لتأكيد إسلامية الدولة وإيمانية النظام. وغاب الوحي حتى شق على الرسول وأحزنه فنزلت سورة الضحى^(٦). فالقرآن أتى مرة ثانية بناء على شوق وطلب وانتظار وليس

(١) «نزلت معه إلى قرار الأرض، فأجلسني على درنوك وعلي ثوبان أخضران. ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء»، هجة المحافل ص ٧٥.

(٢) «أحياناً يأتيه مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما أقول»، السابق ص ٧٦، أنواع الوحي: الرؤيا، ما كان الملك يلقيه في روعه، تمثل الملك له رجلاً لمخاطبته، صلصلة الجرس، الملك في الصورة التي خلق عليها، ما أوحاه الله فوق السماوات ليلة المعراج، مختصر سيرة (١) ص ٥٣، السيرة النبوية ص ٦٢-٦٩.

(٣) الرحيق المختوم ص ٧٠.

(٤) «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ»، «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ». ابن هشام ج ١ / ٢٣٠، «حسم. والكتاب المبين. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»، «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ». ابن هشام ج ١ / ٢٣١.

(٥) «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ»، «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ»، «حسم. والكتاب المبين. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»، «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ». ابن هشام ج ١ / ٢٣٠-٢٣١، خير العباد ص ٢٥-٢٨.

(٦) «وَالضُّحَى. وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيماً فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى». ابن هشام ج ١ / ٢٣٢، صحيح السيرة ص ٨٤-١٠٠.

كالمرة الأولى خوفاً وارتعاشاً. ومن شب على شيء شاب عليه. ومن تعود على شيء افتقده.

وابتدأ فرض الصلاة ركعتين ركعتين. ثم زيدت طبقاً لمبدأ التدرج في الإسلام. وظلت في السفر ركعتين. وعلم جبريل طبقاً للرواية الرسول الوضوء والصلاة وهو في الوادي بعد أن هز بعقبه فانفجرت منه عين. وهي الصورة الشائعة للمعجزة قبل الإسلام^(١). ثم علم الرسول خديجة الصلاة. ثم عين جبريل أوقاتها. كان جبريل يصنع كل شيء. ولم يترك للرسول أن يعلم شيئاً بفطرته، والإسلام دين الفطرة خاصة في مسائل الوضوء^(٢).

٢- إبلاغ الرسالة

وأسلمت خديجة. وبشرها الرسول ببيت من قصب في الجنة. لا صخب فيه ولا نصب^(٣). وطبقاً للرواية «أقرأها جبريل السلام»^(٤). فهي أول من أسلم من النساء. وكان لديها استعداد طبيعي للإسلام عن طريق معرفتها بالنصرانية من ابن عمها، وعن طريق مشاهدتها أمانة زوجها في التجارة وفضائله. وماتت بعد إسلامها بمدة قصيرة. ولم يتزوج الرسول عليها على مدى خمسة عشر عاماً. وكل أولاده منها باستثناء إبراهيم الذي توفي وهو صغير. وظل الرسول يتذكر مساندتها له، ويذكر فضائلها حتى غارت عائشة منها وهي متوفاة. وعاتب الرسول. وأقر الرسول بفضائلها وفضلها الذي لا ينساه. وتعرض أبو جهل لغلām كان يحمل قمحا لخديجة فمنعه وضربه أبو البختري بفك بعير فشجه. فلا أحد كان يجزؤ على خديجة شريفة قومها^(٥).

(١) ابن هشام ج١/٢٣٣-٢٣٥، عيون الأثر ج١/١٧٧-١٧٨، الإشارة ص ٩٠-٩٣، السيرة الحلبية ج١/٣٧٥-٣٨٠، حياة محمد ص ١٢٣، الأسوة الحسنة ج١/١٦٧، مختصر السيرة (٢) ص ٨٨، الرحيق المختوم ص ٧٦.

(٢) وقد اضطر ذلك أحد المشركين إلى القول ما هذا الرسول الذي يعلم قومه كل شيء، حتى الخراء.

(٣) «أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب»، ابن هشام ج١/٢٣١.

(٤) «يا خديجة، هذا جبريل يقرؤك السلام من ربك»، السابق ج١/٢٣٢، بهجة المحافل ص ٦٧.

(٥) ابن هشام ج١/٣٢٨. وهذا ما يعنيه المثل الشعبي «اللي ما يقدر على الحمار يقدرع البردعة»، البستي ج١/٦٩-٩٣، عيون الأثر ج١/١٧٨-٢٠٧، خير العباد ص ٢٢-٣١، الإشارة ص ١٠٦-١١٥.

وأسلم بعض الصحابة في هذه الفترة. وأصبحت السيرة مرجعا لإسلامهم^(١). فأول من أسلم من المذكور علي وهو ابن عشر سنين. وكان قد نشأ في حجر الرسول للتخفيف على أبي طالب شئون عياله الكثيرة. وقد خرج علي مع الرسول إلى شعاب مكة ليصليا. ووقف أبو طالب على أمرهما^(٢). ولما رأهما وسألها عن هذا الدين الجديد أجابه الرسول بأنه دين الله وملائكته ورسله وأبيننا إبراهيم. بعثه الله به للعباد، وعمه أحق به. وعز على أبي طالب هجرة دين آبائه ولكن وعد الرسول بألا يصيبه أذى. وفي رواية أخرى أجاب علي بأنه آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به. وصلى معه واتبعه. فرد عليه أبو طالب بأنه لم يدعه إلا إلى الخير وعليه اتباعه.

ثم أسلم زيد بن حارثة وخيّر الرسول بين المكوث عنده أو عند أبيه^(٣). ثم أسلم أبو بكر، وأظهر إسلامه، ودعا إلى الله ورسوله. وفي رواية أخرى شهيرة أنه أول من أسلم من الرجال. وأسلم على يديه عدد من الصحابة. وكان الرسول ما دعا أحد إلى الإسلام إلا كان عنده نظر وتردد إلا أبا بكر^(٤). وكان يبشر الواحد منهم بالجنة واعداهم بالهناء والسعادة في المستقبل بعد الموت والبعث وهو ما يخشاه الإنسان^(٥). وأسلم سلمان الفارسي^(٦). وكان سبب إسلام عروة وضع النبي يده على صدره حتى يخرج الشيطان خنزب منه والبصق ثلاثا على اليسار أو المسح باليمين سبع مرات^(٧). وأسلم

السيرة الحلبية جـ ١/ ٣٨١-٤٠١، حياة محمد ص ١٣٣/ ١٣٨/ ١٤٢، الأسوة الحسنة جـ ١/ ١٥٠-١٥٢/ ١٦٩-١٧٧، المغازي ص ١٢٥-١٤٣/ ٦٢-٦٤، مختصر سيرة (٢) ص ٨٣، السيرة النبوية ص ١٢٠-١٢١، صحيح السيرة ص ٧٢-٧٥، الرحيق المختوم ص ٧١-٧٤.

(١) ابن هشام جـ ١/ ٢٣٥-٢٥٠.

(٢) «أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أينا إبراهيم... بعثني الله به رسولا إلى العباد وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانتني عليه»، السابق جـ ١/ ٢٣٧.

(٣) وفيه نزلت ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ﴾، السابق جـ ١/ ٢٣٨.

(٤) «ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا وكانت فيه عنده كبره ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه»، السابق جـ ١/ ٢٤١.

(٥) «لقد سمعت نحيه في الجنة»، السابق جـ ١/ ٢٤٧.

(٦) صحيح السيرة ص ٧٢-٧٣/ ١١٥-١٣٤، ألفية السيرة ص ٤٥-٤٨، حياة محمد ص ١٢٣-١٢٦/ ١٣٣، السيرة النبوية ص ٦٤-٦٩، صحيح السيرة ص ٨٢-٨٧/ ١٠٩-١١٣.

(٧) «ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتقل عن يسارك ثلاثا»، الخصائص الكبرى ص ٤-٥.

الصحابة، كل بدوافعه الخاصة^(١). إما بسؤال الرهبان أو بحوار بينهم أو بأخبار عن النبي أو بسماع أخبار من الكهان بظهور نبي أو بظهور الجن لبعضهم حين يتدخل الخيال في القصص. وقد أسلم بعض الصحابة بناء على رؤى^(٢). وظهر جبريل لبعضهم^(٣). كما صرع الرسول البعض الآخر وكأنه في مصارعة^(٤). وإسلام الخلفاء مثل عمر وعثمان له وضع خاص^(٥). وكان الرسول يتوق إلى إسلام عمر أو حمزة. فالأفراد إضافة إلى الجماعة. وقد كان الرسول يدعو لهداية من ينصرون دعوته وكان الجن يدخلون الإسلام أيضا بصرف النظر عن صدق الرواية وعدم تطابقها مع شروط الصحة. وأولها التطابق مع الحس ورؤيتهم^(٦). وقد علم جبريل النبي تعويذة تقيه من الجن الذي لم يسلم بعد. أما الملائكة فهم مسلمون حتى من قبل أن يبعث. وقد أسلم خالد^(٧).

وأسلم الطفيل وهو شاعر لبيب ورجل شريف بعد تحذير قريش له من الاستماع إلى النبي الذي كان قوله أقرب إلى السحر. يفرق الجماعة، ويشتت الأمور، ويفرق بين الرجل وأبيه وأخيه وزوجه. ومع ذلك استحسن قول الرسول وعدله فأسلم. وشهد بالحق. وطلب آية حتى يدعو قومه إلى الإسلام. وكانت نورا بين عينيه مثل المصباح. ثم تحول إلى الرأس كالقنديل المعلق. فأسلم أبوه ثم زوجه ثم قومه بعد الغسل والتطهر من الأصنام. ودعا الرسول أن يهدي الله قومه، وحرق ذا الكفين الصنم الذي كان يعبد، وهي صورة فنية طبقا للتصور الشعبي للنور الذي يشع من العينين لصاحب الحق ثم يتحول إلى قنديل معلق فوق الرأس إذا ما زاد التشبيه، وتطورت الصورة الفنية،

(١) السابق جـ ١/ ٢٢٥-٢٤٧.

(٢) السابق جـ ١/ ٢٧٤-٢٧٦.

(٣) هو حمزة، السابق ص ٢٨٠.

(٤) السابق ص ٢٨٩-٢٩٢.

(٥) السابق ص ٢٩٢-٣٠٤ وآخرون مثل هناء وعمر بن عبد القيس، والطفيل بن عمر الدوسي وعثمان بن مظعون.

(٦) السابق ص ٣٠٤-٣١٤، إسلام رفاعة ص ٣٩٤.

(٧) السابق جـ ١/ ٥٣٤-٥٣٨. إسلام عمرو بن العاص جـ ٢/ ١١-١٣، فروة بن عمرو جـ ٢/ ٣٠، إسلام ضافر بن التوأم الحميري جـ ٢/ ٤٢، إسلام الحجاج بن علاط جـ ٢/ ٤٥-٤٦، إسلام رافع بن عمير جـ ٢/ ٤٦، إسلام الحكم بن كيسان مولى بني مخزوم جـ ٢/ ٤٧.

وأصبحت أكثر حسية. ومثلها كثير في الأدب الشعبي. وجاهد مع المسلمين بعد وفاة الرسول. ورأى رؤية أن رأسه حلق، وخرج من فمه طائر، ودخل فرج امرأة، وابنه يطلبه حثيثاً ثم حُبس عنه. وأول نفسه ذلك بأنه سيستشهد وأن روحه ستفارقه، ويدفن في الأرض، وابنه يلحق به. وقد صدقت رؤياه. وهي الصورة الشعبية للروح وهي تغادر الجسد لحظة الموت منذ قدماء المصريين كالطائر الذي يغادر فم الميت^(١). وقد مدح أعشى بن قيس بن تعلبة الرسول حين قدم على الرسول للإسلام. فلما قيل له إنه يحرم الزنا لم يهتم، ويحرم الخمر أراد الارتواء منها هذا العام ويسلم العام القادم فتوفى^(٢). لذلك جعل الصوفية التوبة ترك الزلة في الحال. وابتاع أبو جهل إبل الأراشي وماطل في دفع ثمنها فذهب معه الرسول وأمره بإعطائه حقه فأعطاه. وسبب خوفه أنه رأى فوق كتفه فحلا من الإبل لم ير مثل هامته ولا عنقه ولا أنيابه فخشي أن يأكله^(٣). وهو إحساس من يأكل حقوق الناس بالباطل خاصة عندما يرى صاحب الحق ومن يحمي حقوق المستضعفين. وقد صارع الرسول ركابة المطليبي ثلاث مرات لإقناعه بالإسلام. وأضاف آية أمر الشجرة بالقدوم إليه ومغادرتها. وهما سبيان خارقان للعادة. الأول لم يُعرف عن الرسول أنه ضليع في المصارعة. والثاني لم يعرف عن الأشجار أنها تتحرك ثم تعود مكانها بمجرد دعوتها لذلك. وهما طريقان غير مألوفين لدعوة حجتها الأولى بلاغة القرآن لقوم يشعرون بالبلاغة كما تجلت في الشعر. أما الآيات الحسية المادية فهي بقايا من اليهودية والإسرائيليات^(٤).

والتركيز في السيرة على إسلام الأفراد تقدير للنزعة البطولية الموجودة عند العربي مثل عمر وحزمة^(٥). أسلم عمر بصرف النظر عن الروايات في إسلامه. وبالإضافة إلى رواية

(١) ابن هشام ج١/ ٣٥٢-٣٥٥.

(٢) السابق ج١/ ٣٥٥-٣٥٧.

(٣) السابق ج١/ ٣٥٧-٣٥٩.

(٤) السابق ج١/ ٣٥٩، عيون الأثر ج١/ ٢٣٩-٢٤١، الإشارة ص ١٢٨-١٢٩، صحيح الرسالة ص ٢١٦-٢٢٥، السيرة الحلبية ج١/ ٥١٣، حياة محمد ص ١٥٠، مختصر سيرة (٢) ص ١٤٤، السيرة النبوية ص ٧٨-٨١، سيرة الرسول ص ٤٥.

(٥) قال الرسول «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب»، ابن هشام ج١/ ٣٢١، بهجة المحافل ص ٩٨.

أخته وزوجها الشهيرة، هناك رواية أنه كان يريد شرب الخمر فلم يجد الخمار. ثم أراد الطواف بالكعبة فوجد الرسول قائماً يصلي. فاستمع إليه فرق قلبه. وما أن فرغ الرسول حتى تابعه عمر وأحس به الرسول ظاناً أنه يريد به شراً إلا أن عمر أعلن إسلامه^(١). وأعلن أحدهم في نادي قريش أن عمر قد صبأ. وصححه عمر أنه قد أسلم. وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقاتله القوم وقتلهم حتى أقبل شيخ وأوقف القتال لأن أهل عمر لن يتركوهم لو قتلوه. وفي السيرة موضوعات متكررة مثل إسلام كل صحابي بلا دلالة خاصة، الإيمان أو الشجاعة. فتحولت السيرة إلى مجرد رصد تاريخي وسجل لأسماء المسلمين الأوائل^(٢). ويمدح الرسول إسلام أبي بكر^(٣).

وكانت الدعوة تبلغ للأفراد وللجماعات، للأفراد بالافتتاح الشخصي، وللجماعات بالنسب والمصاهرة، فهازالت القبيلة أو العشيرة و البطن هي الوحدة الاجتماعية والثقافية. كما دخل الإسلام فيما بعد القبائل الإفريقية والآسيوية في جنوب شرق آسيا بروح القبيلة. يدخل رئيسها فيتبعه قومه خاصة بعد أن يصاهر الداعية المسلم ابنة شيخ القبيلة. وكان المسلمون يجتمعون بدار الأرقم سرا^(٤).

ثم بدأ توجيه الرسالة إلى عشيرة الرسول وقومه الأقربين علناً دون خفاء^(٥). فالأسرة تأتي قبل المجتمع بناء على نسق القرابة. والأقربون أولى بالشفعة. فبعد إسلام خديجة بقي الأعمام والأخوال وأولاد العم. فالأسرة دعامة للدين. والعشيرة أسرة كبيرة. والقبيلة عشيرة أكبر.

(١) ابن هشام ج١/٣٢٢-٣٢٥، الإشارة ص١١٤-١١٥، صحيح السيرة ص١٨٨-١٩٤، نور اليقين ص٤٠/٤٧، سيد الأنام ص٨٤-٨٥، مختصر سيرة (٢) ص١٠٠-١٠٥، السيرة النبوية ص٦٩-٨١/١٢٨-١٣٠/١٣٥-١٣٨، خاتم الأنبياء ص٥٨-٦٣، الرحيق المختوم ص٧٨-١٠٨، على هامش السيرة ص١٠٩-١٢٢.

(٢) خلاصة ابن كثير ص٦٩، ٢٠٥، ألفية السيرة ص٤٥-٤٨.

(٣) «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق. وواساني بنفسه وماله. فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟»، السيرة النبوية ص٦٧.

(٤) ابن هشام ج١/٢٤١-٢٥٠، البستي ج١/٩٣-١٠٥، ألفية السيرة ص٤٩-٥٠، مختصر السيرة (١) ص٥٤-٥٧.

(٥) «فأصدع بها تؤمراً وأعرض عن المشركين»، «وأنذر عشيرتكَ الْأَقْرَبِينَ. وَانْخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، «وقل إني أنا النذير المبين». ابن هشام ج١/٢٥٠، إسعاف الراغبين ص١٨-٣٠، مختصر سيرة (٢) ص٩٠-٩١، الرحيق المختوم ص٧٨، رسول الحرية ص٤٥-٥٧.

والرسالة الجديدة تأكيد لزعامة قريش في مكة وعلى بيت الله الحرام. فكان لمكة السلطة الدينية والسياسية والاجتماعية. ولو أن الرسالة ظهرت في قبيلة أخرى لما تمت لأنها غير مؤهلة لذلك. فالرئاسة الدينية والسياسية والاجتماعية كانت تمهيدا للرسالة الدينية الجديدة وإبقاء على سيادة قريش السياسية وريادتها الاجتماعية. ومعارضتها كانت خوفا من نزع الزعامة. فلما عرفت قريش أن الزعامة باقية خفت معارضتها. «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»^(١).

٣- معارضة الرسالة

وكان الرسول يخرج إلى شعاب مكة للصلاة مع أصحابه خشية من قومهم فقابلهم المشركون بالعداء وقاتلوهم. فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا من المشركين بعظمة فخذ فشجه^(٢). فكان أول دم أريق في الإسلام دفاعا عن النفس دون أمر من الرسول. فالدفاع عن النفس طبيعي عند الأفراد. ويأتي تلقائيا. أما عن الأقوام فيحتاج إلى تخطيط جماعي كما حدث في الغزوات. وأظهر قومه العداوة له. وحماه عمه أبو طالب. وكونت قريش وفدا لمقابلته فردهم بركة. واستمر الرسول في دعوته. وعاد وفد قريش إلى أبي طالب ثانية ليكيف الرسول عن شتم الآباء وتسفيه الأحلام وعيب الآلهة وإلا نازلوه. ولم يشأ أبو طالب فراق قومه ولا خذلان ابن أخيه. وطلب من الرسول الكف عن الدعوة فقال قولته الشهيرة «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». وبكى الرسول فتأثر العم وأخذه بجانبه. ثم مشى قريش إلى أبي طالب مرة ثالثة ومعهم عمارة بن الوليد ابن المغيرة أقوى فتى في قريش لمبادلته مع الرسول. فرفض أبو طالب. فكيف يعطي ابنه

(١) إنذار قريش لأبي طالب، سيد الأنام ص ٨٥-٨٧. منافسة السيادة في قريش بين بني عبد مناف وبني مخزوم ص ٨٧-٨٨.

(٢) ابن هشام ج ١/ ٢٥١-٢٥٥، الفصول ص ٥٧-٥٨، صحيح السيرة ص ١٤٦-١٦٣، بهجة المحافل ص ٨١، نور الأبصار ص ١٦، نور اليقين ص ٢٩-٣٥، سيد الأنام ص ٧٩-٨٤، مختصر سيرة ص ٥٧، معجز محمد ج ١/ ٣١-٧٢، سيرة الرسول ص ١٤-٢٤، السيرة النبوية ص ١٢٣-١٢٤، خاتم الأنبياء ص ٤٧-٥٧/ ٦٥-٦٩، صحيح الرسالة ص ٧٨-٨١، الرحيق المختوم ص ١٠٩-١١٢.

ليقتلوه ويأخذ ابنهم ليغذيه؟ وقد أوصى أبو طالب قومه باتباع محمد، ولكنه هو نفسه لم يتبعه وإن كان قد دافع عنه. والدفاع عنه وتأنيده نوع من الدفاع العملي. ومع ذلك نهى النبي عن الاستغفار له لأنه يريد التحول إلى الدين الجديد وكان حلف الفضول وميثاق المدينة والصحيفة لا تكفي. ولقد تجرأ المشركون على النبي بعد موت أبي طالب مما تدل على أهمية التأييد العملي قبل الاقتناع النظري^(١).

ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ليعذبوهم. وظل أبو طالب يمنع قريش من محمد. ويمدحهم على توقفهم عن إيذائه إلا أبا لهب. وقد عادى أبو لهب النبي ليس كراهية في دعوته الجديدة بل غيرة وحسدا من تفضيله أبي طالب عليه، وكلاهما عمان له^(٢). وقد ظهرت عديد من الآيات لحماية الرسول من أذى المشركين^(٣). ودعا على ابن أبي لهب. فالعداوة الشخصية أحيانا تتغلب على القرارات الجماعية. فالفرد في النهاية بشر. ثم اجتمع نفر من قريش ليسيئوا ضد النبي. واتفقوا على وصفه بالساحر. وتخبر الوليد بن المغيرة في كيفية الرد عليه قبل الوفود العربية القادمة. واقترحوا أن يوصف بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو شاعر^(٤). والساحر أفضل لأنه فرق القوم بين المرء وأبيه وأخيه وزوجه وعشيرته^(٥). ونزل القرآن في النفر الذي معه^(٦). وتفرق نفر من قريش يشوهون رسالة الرسول. ونظم أبو طالب قصيدة يوضح فيها موقفه. وانتشر اسم الرسول في القبائل. ودافع عنه الشعراء^(٧). رماه سفهاء قريش بالسحر والجنون. واستمر أذى الرسول من قومه والرسول يواجههم بالقول. وعاد إلى المنزل من شدة

(١) الخصائص الكبرى ج١/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) سبب عداة أبي لهب للنبي، السابق ج١/ ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) السابق ص ٣١٨-٣٢٨.

(٤) ابن هشام ج١/ ٢٥٥-٢٥٨، المغازي ص ١٠٧-١١٤.

(٥) ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَيْنَ شُهُودًا. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهْنِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾، ﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، السابق ج١/ ٢٥٧.

(٦) ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، السابق ج١/ ٢٥٨.

(٧) السابق ج١/ ٢٦٨-٢٧٠/ ٢٧٣.

ما أصابه^(١). وامتد الإيذاء من الرسول إلى الصحابة. وحذرهم الرسول أنه جاءهم بالذبح أي بالهلاك^(٢). فأصاب أبا بكر بعض الأذى. ولما علم حمزة عم الرسول بإيذاء أبي جهل لابن أخيه ذهب وشج رأسه بقوسه اعترافا من أبي جهل بشتيم الرسول ثم تحول حمزة إلى الإسلام^(٣). وعُذِب المسلمون الأوائل. وطالبهم الرسول بالصبر. ووعدهم بالجنة^(٤).

وطبقا للرواية دعا الرسول للناس عندما أقحطوا فنزل المطر^(٥). فالحجة العينية أفضل من الحجة النظرية. والفائدة الحسية خير من الجدل العقلي. الطبيعة تستجيب لدعوة الرسول أكثر من البشر. وتحسها أكثر منهم. وتلبي حاجاتهم، وأكثر كرما معهم منهم مع الرسول. والرسالة خير مثل الطبيعة. كلاهما ري ونماء وزرع وحياة. لذلك كثر في القرآن تشبيه الوحي بالماء الذي ينزل على الأرض القاحلة فيحيلها إلى أرض خضراء، وإلا كانت هشيما تذروه الرياح. ليست القضية معجزة تخرق قوانين الطبيعة، استجابتها لدعاء الرسول حتى يؤمن من لا يؤمن به، بل القضية شعرية لقوم الشعر حياتهم. الطبيعة تحس أكثر مما يحس البشر. فلعل من لا يؤمن بعد بالرسالة يناجي الطبيعة ويمجدها، ويرق لها كما رقت هي للرسول. التركيز على القلب يخلق موضوعه كما يروي الصوفية. ليس الموضوع نقيضا للذات بل هو من خلقها ومستجيبا لها. وشدة الحاجة تأتي بالفرج.

وقد اقترح عتبة بن ربيعة على الرسول المال لجمعه له أو الشرف لجعله سيدا عليهم أو الملك لتمليكه. وإن كان الذي يأتيه رثيا عرضوه على الأطباء. فرد القرآن عليه^(٦).

(١) وفي هذا السياق نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، السابق ج١/ ٢٧٥.

(٢) «أسمعون يا معشر قريش. أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح»، السابق ج١/ ٢٧٤، خير العباد ص٣٢-٣٣، السيرة النبوية ص٨٣-٨٩/ ١٢٤-١٢٩، صحيح السيرة ص٩٠-١٠٠، رسول الحرية ص٨٠-٩٢.

(٣) ابن هشام ج١/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٤) «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، سيرة النبي ص١٨٣، رسول الحرية ص٩٨-١٠٥.

(٥) «اللهم حولنا ولا علينا»، ابن هشام ج١/ ٢٦٦.

(٦) ﴿حَم : تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا أَتُورِثُونَا فِي أَكْتِنَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.

واعترف أخيرا بأنه استمع إلى شيء فريد ما سمع مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. وطلب أن يتركوا الرسول لأنه سيكون له شأن عظيم. فإن ينتصر العرب عليه فقد كفوه. وإن انتصر عليهم فهو عزة للعرب. يظن أن كل شيء خاضع للتجارة والمساومة بالمال والسيادة إلا الإبداع الشعري الذي يختلف كيفا ونوعا عن أساليب التجار^(١). هذا هو الفرق بين الدعوة والتجارة، بين القضية والمنفعة.

واستمر الحوار بين الرسول ورؤساء قريش. فقد ظل الإسلام ينتشر في القبائل. فاجتمعوا وأسرع الرسول إليهم وعرضوا عليه ما عرضوه سابقا^(٢). فرفض الرسول فرسالته حظهم في الدنيا والآخرة. وإن ردوها صبر حتى يحكم الله بينهم وبينه. وطلبوا منه أن يأتيهم بالله والملائكة قبلا^(٣). وعرض عبد الله بن أمية على الرسول نفس الشيء فرفض. وتركهم حزيننا أسفا. فقد كان يطمع أن يدخل قومه الإسلام. وتوعد أبو جهل باللقاء حجر على رأسه أثناء صلاته. وارقب ولم يستطع. فقد عرض له فحل من الإبل ما رأى مثل هامته وعنقه وأنيابه يريد أن يلتهمه. وفسر ذلك الرسول بأنه جبريل. لو دنا لأخذه. وربما هي حالة نفسية للمعتدي الذي يشعر بأنه على غير حق. فينقصه الدافع. ويأتي بفعل وهو غير مقتنع به. فيتردد أو يتوقف. وهو نفس ما حدث عندما سلب حق الضعيف. فقررت قريش التدبر. وكان النضر بن الحارث يؤذي الرسول. وتعلم من أساطير الفرس رستم واسفنيار. ورد عليه القرآن^(٤). فالقرآن مازال هو التحدي الأكبر لهم كنوع أدبي عند قوم خبروا الأنواع الأدبية. وأبدعوا في أحدها وهو الشعر. وقد

(١) ابن هشام ج١/ ٢٧٦-٢٧٨.

(٢) «ما بي ما تقولون. ما جئت بها جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة. وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»، «ما بهذا بعثت إليكم. إنما جئتكم من الله بها بعثني به. وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم. فإن تقبلوه فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم»، السابق ج١/ ٢٧٩، «ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا. وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا»، «ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل»، السابق ج١/ ٢٨٠.

(٣) السابق ج١/ ٢٧٨-٢٨٠.

(٤) ﴿إِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. السابق ج١/ ٢٨٣.

طلبت قريش المستحيل، تفجير ينبوع من الأرض أو جنة من نخيل وأعناب وعنب، يفجر الأرض من خلالها تفجيرا أو يسقط السماء كسفا أو أن يأتي الله والملائكة قبلا، وأن يكون له بيت من زخرف أو يرقى إلى السماء أو ينزل عليهم كتابا يقرئونه.

وقد منع الحسد والتنافس قريشا من اتباع محمد. كل منهم يريد الحفاظ على مكانته الاجتماعية. خشوا من الفزع من البعث والحساب وتصوير القرآن ليوم الحساب. وطمعوا في الجنة ونعيمها^(١).

وكان الجوار أشبه بكلمة شرف عربية للحماية. فمن يدخل في جوار أحد يكون في حمايته. وكان بعض المسلمين في جوار بعض المشركين فردوا إليهم جوارهم واستبدلوا به جوار الله^(٢). وتحملوا الأذى من المشركين بعد رد جوارهم. وقد ضجر المشركون بإجارة أبي طالب بعض المسلمين ولا فرق بين ابن أخته وابن أخيه. وقد دخل أبو بكر في جوار مشرك. ثم رد جواره إليه، ثم خرج منه لمطالبته بالصلاة داخل منزله وليس خارجه حتى لا يفتن به أحد وهو يبكي. فرد إليه أبو بكر جواره، ورضي بجوار الله وقبل أن يلقي على رأسه التراب وهو داخل مكة بعد أن رُفع الجوار. فالجوار حماية اجتماعية للأفراد. وتحمي الملائكة الرسول. فلو آذاه أحد من قريش لأخذته الملائكة عيانا عضوا عضوا^(٣). ويعني ذلك أن القائد محفوظ، وأن الزعيم لا يمسه، وأن النبي محروس من الأذى.

وفي هذه الآونة نزلت آية (عبس وتولى) ردا على واقعة ابتعاد الرسول عن الأعمى توجهها إلى وجهاء قريش وساداتهم^(٤). فهداية فرد خير من الدنيا وما فيها. والوعي مستقل عن طبقة. قد يكون الوعي عند الفقير أذكى وأحد من الوعي عند الغني. والدعوة تُوجه إليهما على حد سواء.

(١) حياة محمد ص ١٥٢-١٥٦.

(٢) ابن هشام ج ١/ ٣٤١-٣٤٥.

(٣) «لو فعل ذلك لأخذته الملائكة عيانا»، «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا»، السيرة النبوية ص ٨٥.

(٤) حياة محمد ص ١٥١، صحيح السيرة ص ١١٦-١١٧.

وتضعف بعض الروايات بالرغم من شهرتها^(١). فهي تبين صلابة الرسول ورفض المساومات أو أنصاف الحلول. وكان الرسول يدعو على الأعداء كما يفعل المسلمون اليوم. يطالب قومه بالصبر كما عذب الأنبياء من قبل بالنشر. وفي رواية أخرى يرفض الرسول إطباق الملائكة على أعدائه لأنه يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده^(٢). وتناقض الروايات مدعاة للشك فيها.

٤- رد القرآن

ثم أرسلت قريش نفرا منها إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد طلبوا منهم أن يسألونه عن ثلاثة أشياء: الأول عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، والثاني عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، والثالث عن الروح. فإن أجاب فهو نبي. وإن لم يجب فهو متقول^(٣). فسألوا الرسول. وطلب مهلة حتى الغد. فطبقا للرواية جاءه جبريل بعد خمس عشرة ليلة حاملا الجواب بعد أن حزن الرسول لتأخره مطمئنا إياه وحاملا سورة الكهف^(٤). فهو لاء الفتية هم أصحاب الكهف^(٥). فقد أروا إلى الكهف

(١) مثل «يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني»، صحيح السيرة ص ٧٦، ١٤٣.

(٢) بهجة المحافل ص ٨٥، ٨٧.

(٣) ابن هشام ج ١ / ٢٨٣-٢٩٠.

(٤) «وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»، ابن هشام ج ١ / ٢٨٤. «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. فَيَا نَذِيرٌ بِنَاسٍ شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهِ وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَعَمَّلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أُجْرًا حَسَنًا. مَا كُنَّ فِيهِ أَيْدٍ. وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابْنِهِمْ كِبَرٌ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا. إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا»، ج ١ / ٢٨٤-٢٨٥.

(٥) «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا»، ابن هشام ج ١ / ٢٨٥. «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رِزْقًا وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لِمَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا. هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَمِينٍ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا. وَإِذْ اغْتَرَفْتُمُوهُمْ وَمَا يُغِيدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَادْعُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَبِمْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرَفَقًا. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرُّ عَنِ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا».

ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟^(١). وقد أخبر جبريل أيضا الرسول. فمن أشرط الساعة نار تحشر الناس شرقا وغربا. وأول طعام أهل الجنة كبد الحوت. وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ينزع إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إلى أمه. وهو رجم بالظن. فأشرط الساعة كثيرة يدخل فيها خيال الرعب والخوف. وأول طعام أهل الجنة إسقاط لما يحبه العرب ويندر عندهم. أما نزوع الولد إلى أبيه أو أمه فإنه محض خيال. وقد أجاب الرسول على أسئلة اليهود حين أرادوا امتحانه بأسئلتهم الثلاثة^(٢).

وقد رد القرآن على طلب اليهود معجزات من الرسول بأنه مجرد رسول مثل باقي البشر، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق^(٣). لماذا لا يكون له ملك يسير معه أو كثر يصرف منه أو جنة يأكل منها؟ لا يقوم الرسول بمعجزات. فقد أرسلت من قبل ولم يؤمن بها الناس مثل تسيير الجبال وتقطيع الأرض^(٤). كما طلب اليهود أن يفجر الرسول لهم من الأرض ينبوعا أو تكون له جنة من نخيل وأعناب وأن يفجر من خلالها الأنهار أو يسقط عليهم من السماء الأمطار أو يأتي بالله والملائكة معا أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى إلى السماء أو ينزل عليهم كتابا يقرئونه^(٥). فاليهود يريدون أدلة حسية

(١) «أخبرني بهم جبريل أنفا. أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه»، السيرة النبوية ص ٤٥-٤٦.

(٢) الخصائص الكبرى ج١/ ٣١٦-٣١٨/ ٤١٢-٤١٨.

(٣) «وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُنْفَخِ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا. تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا». ألفية السيرة ص ٥٠-٥٣، السيرة الحلبية ج١/ ٤٠٢-٤٢٧، حياة محمد ص ١٢٧، «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا إِيَّاهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضَرُّونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا». ابن هشام ج١/ ٢٩٠.

(٤) «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتُفَجِّرَ». أو تُسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قِيلًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تُزْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا». ابن هشام ج١/ ٢٩٠.

(٥) «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَى بَلَى اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا». السابق ج١/ ٢٩٠.

نفعية مادية. ولا يكفيهم الدليل الشعري. فهم يهود وعرب ولكن اليهودية فيهم تغلبت على العروبة، والمادة سيطرت على الروح. فالمعجزة طريق مسدود طبقاً لتجربة الأنبياء السابقين. وآخر معجزة المسيح، ولادة وحياة ومات، ولم يؤمن اليهود به. فتحول طريق الإيمان من المعجزة إلى العقل والملاحظة. وادعت قريش أنه يعلمه رجل باليامة يُدعى الرحمن فرد عليهم القرآن^(١).

وقد تكفل القرآن بالرد على قريش. فالقرآن هو سلاح النبي. فنزل في أبي جهل وعدائه غير المعقول للنبي^(٢). ينهاء عن الصلاة، ويعجب من هدايته وتقواه. يكذب به، ولا يفكر في نهايته وعقابه، وأنه لن يشفع له أنصاره. ورد على تهكم أبي جهل على الرسول بأنهم سيحبسون في النار من تسعة عشر في حين تستطيع قريش هزيمتهم إذا جمعت لكل واحد مائة منهم^(٣). لا يعرف الفرق بين معارك الدنيا ومعارك الآخرة. معارك الدنيا بفعل البشر، ومعارك الآخرة بفعل الله. كما رد على قريش فيما عرضوه على الرسول من مال^(٤). فهناك أعمال لا تقدر بهال، لا تباع ولا تشتري. هناك قضايا مصيرية وجودية تتعلق بحياة الإنسان. واستكبرت قريش على الإيمان بالقرآن^(٥)، أو مجرد الاستماع إليه وأرادت تزييفه بالزيادة أو النقصان فيه حتى يمحي أثره من النفوس.

وكانت قريش تتفرق عن الرسول إذا أعلى صوته بالقرآن، ويسترقون السمع إن هو أخفضه. فنزل القرآن بالتوسط^(٦). وكان عبد الله بن مسعود هو أول من جهر بالقرآن

(١) «كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ». السابق جـ ١/ ٢٩٢.

(٢) «أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى. أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى. أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ. كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ. كَلَّا لَا تَطَعُهُ وَإِنْ يَتَّبِعْ أَفْرِيقٌ وَقَارٌ». السابق جـ ٢/ ٢٩٢.

(٣) «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدِيَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا». السابق جـ ١/ ٢٩٤.

(٤) «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». السابق جـ ١/ ٢٩٣.

(٥) «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». السابق جـ ١/ ٢٩٤، ألفية السيرة ص ٥٠-٥٣، الأسوة الحسنة جـ ١/ ١٧٧-١٩٥، مختصر سيرة (١) ص ٦٩. اعتراض المشركين وتعتهم

في أسئلتهم، السيرة النبوية ص ٨٩-٩١. تكذيب المشركين بالقرآن ص ٩١-١٠٤.

(٦) «وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا». ابن هشام جـ ١/ ٢٩٤.

بالرغم من إيذاء قريش له. وكان نفر من قريش يستمعون سرا إلى الرسول ثم يتفرون^(١). ويتواعدون على أن لا يعودوا ثم يعودون. ثم تعنتت قريش لعدم استماعهم إلى القرآن متحججين بأن قلوبهم موصودة، وأن في آذانهم وقر، وأن بينهم وبينه حجاب، وأنهم ينفرون منهم ويولون الأدبار، وأنه سحر^(٢). تعرف قريش أثره في النفوس ولكنها تعاند حرصا على مصالحها أو خوفا من المجهول. يعلمون أنه الحق دون الاعتراف به. وليس لديهم الشجاعة الأدبية للاعتراف بأثره بدلا من أن يتظاهروا برفضه إن علا حديث القارئ أو يسترقون السمع إليه إن انخفض صوته. يعرفون بطريق غير مباشر بأنه الحق ولكن العيب فيهم في حواسهم المغلقة وقلوبهم الموصودة وكأنهم يقولون: إذا انفتحت آمنا. فالعيب ليس في الموضوع بل في الذات.

وظلت قريش تعتدي على المستضعفين بالأذى والفتنة، بالحبس والتعذيب، بالجوع والعطش وبرمضاء مكة. وقد لقي بلال مولى أبي بكر من العذاب ما دفع أبا بكر لتخليصه منه. فكانوا يأخذونه في الرمضاء ويضعون الحجر الكبير على صدره فإما الكفر بمحمد أو الموت وهو يقول: «أحد، أحد». فاستبدل به أبو بكر غلاما أسود وأعطاه لهم وأعتق بلال^(٣). وأعتق معه ست رقاب قبل أن يهاجر إلى المدينة. وقد ذهب بصر امرأة منهم. وكان معظمهم من الجواري والعبيد. وكان ابنه يعتق الضعاف وأبوه يطالبه بعق الأقوياء منعة له. فأتى القرآن تصديقا للابن^(٤). فالضعيف في حاجة إلى أن يتحرر قبل القوي. وكان الرسول يعزي المعذبين بالصبر فلهم الجنة مع أن الخلاص

(١) وهم أبو سفيان وأبو جهل والأخنس، السابق ج١/ ١٩٥.

(٢) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي آذَانِنَا وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ لَنُدَّبَهُ عَلَى قُلُوبِنَا﴾ (٢) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَنُورًا. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ فِي آذَانِهِمْ وَقَدْ قَرَأُوا وَقَدْ كَرَّرْنَا وَجَدَهُ عَلَى آذَانِهِمْ نَفُورًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا. وَقَالُوا أَنَا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا نَسْتَعْتِفُ عَنْ خَلْقٍ جَدِيدًا. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ السابق ج١/ ٢٩٦-٣٩٧.

(٣) ابن هشام ج١/ ٢٩٧-٣٠٠، حياة محمد ص ١٢٩-١٣٢، صحيح السيرة ص ١١٥-١١٦.

(٤) ﴿فَأَنَّا مَن آغَطِي وَآتَقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى... وَمَا لَاحِدٍ عَنْهُ مِنْ نِعْمَةٍ تَحْزَى. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ابن هشام ج١/ ٢٩٩.

القريب أفضل من البعيد^(١). وكان أبو جهل يعذب من أسلم بتسفيه حلمه، وتقييح رأيه، وتضعيف شرفه، وكساد تجارته، وهلاك ماله، وضربه. جمعا بين المخاسر المادية والعذاب النفسي. وقد أجاز ابن عباس للمعذبين الامتناع عن الإسلام طبقا لواقعته، وحل المشاكل على المدى الطويل وليس في الأمد القريب. وقد رفض هشام تسليم أخيه لقريش ليقتلوه على إسلامه. فالأخوة تجب الخلاف في الرأي. والقربة في المجتمع القبلي أكثر حضورا من العقيدة.

وقد تكفل القرآن بالرد على قريش دفاعا عن محمد. فحمل قرشي سيفا له عند صاحبه للرسول. وطلب أن يدفع له يوم القيامة فرد القرآن^(٢). فقد خلط القرشي بين الدنيا والآخرة. الدنيا لها قوانينها في البيع والشراء. والآخرة لها قوانينها في تحقيق العدل الذي لم يتحقق في الدنيا. الدنيا دار حقوق وواجبات. والآخرة دار تعويض جزاء. وكان أبو جهل يهدد الرسول بأنه إن لم يتوقف عن سب آلهته فسيسب أبو جهل إله الرسول^(٣). وهي مساواة ظالمة بين الإله الواحد والآلهة المتعددة. ومن الأفضل عدم سب الآلهة المتعددة حتى لا يُسب الإله الواحد، احتراما لمفهوم الألوهية سواء كان الإله واحدا أم متعدد^(٤). وكان النضر بن الحارث يتهم أحاديث الرسول بأنها أساطير الأول. ويحدث نيابة عنه بتقصص رستم واسفنديار وملوك فارس^(٥). وفرق بين قصص الأنبياء

(١) «صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة»، السابق ج١/ ٢٩٩.
(٢) «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا. كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا. وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا». السابق ج١/ ٣٣١.

(٣) «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ». السابق ج١/ ٣٣١.
(٤) «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَكَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ»، «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ». السابق ج١/ ٣٣٣.

(٥) «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا». ابن هشام ج١/ ٣٣١، «إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، «وَيَقُلْ لِكُلِّ آفَاكٍ أَنِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُّ مُسْتَكَرًّا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَيَشْرُهُ بِعَذَابِ الْيَمِّ»، «أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهَمَ لَيَقُولُونَ. وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»، «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ. لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ»، السابق ج١/ ٢٣٢. «إِنْ كُلٌّ مِنْ آبِدٍ أَنْ يَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ عِبْدِهِ. إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَمِنْ أَقْرَبِهِمْ عِبَادَتُهُ»، السابق ج١/ ٣٣٣.

الذي هو حق في دلالاته حتى وإن كان متخيلا في واقعه، وقصص الأساطير الذي هو متخيل في دلالاته وفي واقعه على حد سواء. وكلاهما تعبير عن رغبة إنسانية في القص أي تدوين الماضي عن طريق الذكريات. فالذكريات تاريخ قصصي، والقصص تاريخ مروي. وعجبت قريش من أن كل ما يُعبد من دون الله، الملائكة، وعزيز، والمسيح في حطب جهنم فأكد القرآن ذلك^(١). فالله وحده هو الخالق، وما دونه مخلوق. والخالق هو الدائم، والمخلوق هو الفاني^(٢). ورد القرآن على كل من أشار إلى الرسول بسوء^(٣). يحلفون بالباطل، ويسخرون من الرسول، ويمشون بالنميمة بين الناس. فالإسلام سلوك أخلاقي، وحياة فاضلة. وقد دعى محمد قومه إلى الإسلام، ولحق منهم البعض بالرسول^(٤). والرسول قادر على مصارعة الخصوم وغلبتهم، يأمر الشجرة بالحركة فتتحرك^(٥). وهو دليل على الثقة بالنفس، وقوة الإرادة، وشدة العزيمة. وهو ما يوحد بين التمني والواقع، بين الرغبة والتحقيق، بين الذات والموضوع.

واستعجبت قريش كيف ينزل القرآن على محمد وليس على سيدين فيها وكان المهم هو الرسول وليس الرسالة، الواسطة وليس القضية^(٦). فالشرف للأشخاص طبقا لعادات العرب. وشرف الشخص يحتم عليه النظر إلى القضية، وموقفه منها بناء على درجة شرفه ومكانته بين أسياد العرب. وكان نفر من قريش يستمع إلى الرسول ويخاف من قومه طبقا لازدواجية الشخصية^(٧). يعرف الحق كفرد، ويتضامن مع القبيلة

(١) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ بَنِينَ سُبحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْيَنْكُرْ جِهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، السابق جـ ١/ ٣٣٣.

(٢) ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا آلَهُنَّآ خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيصُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَأْنَاهُ فِي الْأَرْضِ مُخْلِفُونَ . وَإِنَّ لَعَلْمَ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، السابق جـ ١/ ٣٣٣.

(٣) ﴿وَلَا تَطْغِ كُلَّ خِلَافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٌ مَّشَاءٌ يَمْيِمٌ﴾، السابق جـ ١/ ٣٣٤.

(٤) «اللهم اهد دوسا، ارجع إلى قومك فادعهم وأرفق بهم» السابق جـ ١/ ٣٥٤.

(٥) «يا ركانة ألا تنقي الله وتقبل ما أَدْعُوكَ إليه... أفرأيت إن صرعتك أنعلم أن ما أقوله حق؟... فقم حتى أصارعك... وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري... أدعوك هذه الشجرة

التي ترى فتأنيبي... ارجعي إلى مكانك...»، السابق جـ ١/ ٣٥٩.

(٦) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولٍ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٌ﴾، السابق جـ ١/ ٣٣٤.

(٧) ﴿وَيَوْمَ يَغْضُ الزَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، السابق جـ ١/ ٣٣٤.

كجماعة. يعرف الحق في الباطن، والباطل في الظاهر. الصدق في الباطن، والرياء في الظاهر. ولما سأل أحدهم كيف يحيي الله العظام وهي رميم وفرك عظمة بيده ونفخها في وجه الرسول نزل القرآن للرد عليه^(١). فالقادر على الخلق من عدم أقدر على إعادة الخلق من شيء. ومنه استمد المنطقة المسلمون قياس الأولى. ولما عرضت قريش المشاركة في عبادة آلهتهم وإلهه نزلت سورة «الكافرون»^(٢). رفض القرآن المساومة في الحق، التوحيد. فلا مساومة بين التوحيد والشرك. ولما سخر أبو جهل من شجرة الزقوم التي توعدها الرسول قريش بأنها عجوة بالزبد يسهل أكلها جاء رد القرآن بأنها كالماء المغلي في البطون مثل ماء الحديد المغلي^(٣). وليس من الحكمة الاستخفاف بالمتوقع من العقاب في المستقبل. وعاتب القرآن الرسول بعدم إعطاء الاهتمام الكافي للأعمى الذي جاء يطلب الهداية لصالح أحد وجهاء قريش يرجو الرسول هدايته^(٤). وساوى في طلب الهداية بين البشر بصرف النظر عن طبقاتهم الاجتماعية.

ولما دعا أحد القرشيين إلى ترك الرسول وشأنه فإنه أبتري ينقطع ذكره بوفاته نزلت سورة الكوثر للدفاع عن الرسول برد التهمة إلى صاحبها وتعويض الرسول عن ذلك بنهر في الجنة والشكر له بالصلاة والنحر^(٥). والكوثر طبقاً للراوية نهر مثل ما بين صنعاء والعقبة، أنيته كعدد نجوم السماء، ترده طيور لها أعناق الإبل، لا يوجد أنعم منها في الأكل. من شرب منه لا يظمأ أبداً^(٦). وهو رد على الواقعة بالصورة، وعلى القليل بالكثير، وعلى الواقع بالخيال، وعلى الحاضر بالمستقبل، وعلى الحرمان بالإشباع، وعلى

(١) «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي يَجْعَلُ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ»، وقال الرسول «نعم أنا أقول ذلك يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكئنا ثم يدخلك الله النار»، السابق ج١/ ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ». السابق ج١/ ٣٣٥.

(٣) «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأُنِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ». السابق ج١/ ٣٣٥، (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُورُهُمْ فَمَا يُزِيدُهُمْ إِلَّا طَعْنًا كَبِيرًا). السابق ج١/ ٣٣٦.

(٤) «عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى. أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى. أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى». السابق ج١/ ٣٣٦.

(٥) «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ». السابق ج١/ ٣٦١-٣٦٣.

(٦) «نهر كما بين صنعاء وإيلا. أنيته كعدد نجوم السماء، ترده طيور لها أعناق كاعناق الإبل، أكلها أنعم منها»، السابق ج١/ ٣٦٢.

نقص الحياة الدنيا بكمال الحياة الأخرى. فأيهما أفضل: ابن في الدنيا يموت هو أيضا أم نهر خالد في الجنة طوله ما بين صنعاء والعقبة أي من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شأها، وآنيته كنجوم السماء بلا عدد محدد، وأعناق طيوره كالإبل؟ فما بال حجم طيوره وكأن الطيور بالحجم، في حين أنه كلما زاد حجم الطير لم يعد طيرا، ولا يمكن ذبحه، ولا يستساغ طعم اللحم العجوز. وطلب منه نفر من قريش أن ينزل مع الرسول ملك لتأييده فيما يقول ورد عليهم القرآن بأن لو نزل عليه ملك لقضي الأمر، وانتهت الرسالة. والأفضل أن يكون رجلا ليلتبس عليهم الأمر، ولفت في عضدهم، يعاندون رجلا وهو ملك^(١). ولما استهزوا به نزل القرآن دفاعا عنه باللجوء إلى تاريخ الأنبياء، وأنه طالما استهزئ بالأنبياء السابقين. فحاق الهزؤ بالمستهزين. ولم يضر استهزاؤهم الأنبياء^(٢). كان القرآن في جدل مع الواقع وفي حوار معه، يرد على أسئلته، ويصحح مفاهيمه. فلا وحي بلا واقع، ولا واقع بلا وحي. وواضح جدل القرآن والواقع مباشرة حتى دون توسط الرسول. فالرسول ينتظر الرد من جبريل. والقرآن هو سلاحه الأول وحجته القاطعة.

٥- الهجرة إلى الحبشة

وهاجر المسلمون إلى الحبشة حماية بملكها من ظلم قريش^(٣). وهم ثلاثة وثمانون^(٤).

(١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبُسُونَ﴾. السابق جـ ١/ ٣٦٣.

(٢) ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. السابق جـ ١/ ٣٦٣.

(٣) قال الرسول: ﴿لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنْ بِهَا مَلَكٌ لَا يُظْلَمُ عَنْدهُ أَحَدٌ. وَهِيَ أَرْضٌ صَدَقَ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِرَاجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ﴾، السابق جـ ١/ ٣٠٠، خير العباد ص ٣٣-٣٨، الإشارة ص ١١٦-١٢٧، الفصول ص ٥٨-٦٠، صحيح السيرة ص ١٦٤-١٨٧/ ٢١٢-٢١٦.

(٤) ابن هشام جـ ١/ ٣٠٠-٣٠٨، ابن خلدون ص ٩٣-٩٧، ألفية السيرة ص ٦٠-٦٣، السيرة الحلبية جـ ١/ ٤٥٦-٤٧٤، حياة محمد ص ١٣٥-١٣٨، نور اليقين ص ٤٦-٤٩، سيد الأنام ص ٩٥-١٠٢، المغازي ص ١٦٥-١٦٨، مختصر سيرة (١) ص ٥٧-٦٠، مختصر سيرة (٢) ص ٩٢-٩٩/ ١٤٩، معجزة محمد جـ ١/ ٧٣-٧٥/ ٨٧-٩٢، السيرة النبوية ص ١٠٤-١١٠/ ١٣٤-١٣٥، سيرة الرسول ص ٣٠-٣٧، خاتم الأنبياء ص ٥٧/ ٦٣-٦٥، صحيح السيرة ص ١٠١-١٠٨، الرحيق المختوم ص ٩٢-٩٧.

فأمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا الله دون خوف. وقد أحسن النجاشي استقبالهم. ثم أرسلت قريش وراءهم تطلب المهاجرين إليها. وبعثوا له ولبطارقتة الهدايا. وكان منهم عمرو بن العاص. وأخبروا الملك أن من أتاه قوم سفهاء. فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في النصرانية، وجاءوا بدين مبتدع غير معروف. ويرجون باسم أشرف قومهم تسليمهم دون الحديث معهم. ووافق البطارقة على طلب قريش كعادة رجال الدين. فغضب النجاشي ورفض تسليم من أتوا في حمايته قبل أن يسمعونهم. فإن كانوا كما يقولون ردهم إلى أهلهم. وإن كانوا خلاف ذلك أبقاهم في حمايته. واستمع الملك إلى المهاجرين بعد أن سألهم عن دينهم. فقالوا إنهم كانوا أهل جاهلية يعبدون الأصنام. يأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسبئون الجوار، ويأكل القوي منهم الضعيف. فبعث الله لهم نبيا يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأوثان والحجارة، والصلاة والزكاة والصيام. وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، والنهي عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. فطلب النجاشي البرهان. فقرأ عليه صدرا من سورة مريم ﴿كهيعص﴾ فبكى حتى ابتلت لحيته وبكت أساقفته حتى ابتلت مصاحفهم. وقد أفتوا من قبل برد المهاجرين إلى قومهم. وقال النجاشي إن ما استمع إليه هو ما جاء به عيسى. فكلاهما يخرجان من مشكاة واحدة. وقرر عدم تسليم المهاجرين. ووضح التغير الجذري في أخلاق العرب، من الجاهلية إلى الإسلام. يدركه العقل، وتشعر به النفس، ويؤيده الواقع. وقد دعاه الرسول بعد ذلك إلى الإسلام في رسائل مشهورة^(١). وصلى الرسول على النجاشي اعترافا بنصرته للمسلمين. وصلى على قبره وهو في مكة^(٢). فالصلاة لا مكان لها وتتجاوز البعد المكاني.

وفي اليوم التالي قررت قريش استعمال حجة حاسمة ضد المهاجرين وهو أن عيسى

(١) السيرة النبوية ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) الإشارة ص ١٢٢/١٢٥-١٢٦، فقد توفي اليوم رجل صالح من الحبشة، فلهم فصلوا عليه، بهجة المحافل ص ٣٥٤، السيرة النبوية ص ١٠٧، السيرة الحلبية ج ١/ ٤٧٧-٤٨٧، نور اليقين ص ٤٩-٥٠.

ابن مريم عبد، فرد المسلمون بأن المسيح عبد الله ورسوله وروحه وكلمته. ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فاستحسن النجاشي القول. وقال إن عيسى ابن مريم هو ما قاله المهاجرون في حين تناحرت البطارقة كعادة رجال الدين واختلاف اللاهوتيين حول طبيعة يسوع المسيح. وأعطى النجاشي الأمان للضيوف، وأن من سبهم غرم، وأنه لن يؤذي أحدا منهم ولو أعطى له جبلا من ذهب. ورد على قريش هداياهم. وطالب البطارقة بنفس الشيء. فهو لا يأخذ رشوة لأن الله لم يأخذ رشوة عندما رد عليه ملكه. فلا يوجد كتاب عظم المسيح وأمه وحواريه كما فعل القرآن^(١). وفرح المهاجرون بنصرة النجاشي على عدوه الذي نازعه الملك. وكان أبو النجاشي قد قتل وتولى عمه. ثم غلب النجاشي على عمه. وسعى الأحباش إلى إبعاده. ثم تولى الملك برضاهم. فالخير لا يتغير، إما العدل بين المسلمين وقريش وإما رضا الناس على الحكم. وكان عمه قد باعه لتاجر. رد إليه النجاشي الثمن بعد اعتلائه العرش. ثم خرجت الحبشة على النجاشي لأنه فارق دينهم. وطلب النجاشي من المهاجرين المغادرة إذا هزم والثبوت إذا انتصر مع كتاب يعلن فيه دخوله في الإسلام، وأن عيسى كلمة الله وروح منه. فلما مات النجاشي طلب الرسول الصلاة عليه والاستغفار له^(٢).

وبعد نصرته النجاشي للمسلمين، وإسلام عمر وحزمة خشيت قريش القوة المتصاعدة لهم. فتعاقدوا على كتابة صحيفة على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب في المصاهرة والتجارة. وقاطعت قريش بني هاشم وبني عبد المطلب^(٣). فلما عرف الرسول دعا على كاتب الصحيفة فشلت بعض أصابعه بقوة النبوة. وإذا كانت النبوة قادرة على حماية نفسها فلماذا لم تحم المسلمين من الأساس، ومنعت التعذيب، ونصرت الرسول؟ ربما هي فقط عامل مساعد حتى لا تهمش الجهد البشري كما هو الحال في الحدس المعرفي، والقوة غير المتوقعة للبطل وهو في حموة النضال. وكان أبو لهب يفرق يديه ويقول: ما أرى فيكما شيئا مما يعد محمد. كانت امرأته تحطب الشوك وتضعه في طريق محمد فتزل

(١) ابن هشام ج١/ ٣١٤-٣١٥.

(٢) السابق ج١/ ٣١٥-٣١٨.

(٣) السابق ج١/ ٣٢٥-٣٣٦، الإشارة ص ١٢٤-١٢٥/ ١٢٨، الفصول ص ٦٠-٦٢.

القرآن ردًا عليها^(١). وقد تعجب من عدم تعجب قريش من صرف الأذى عنه^(٢). ثم أرادت امرأة أبي لهب الانتقام من الرسول لنزول القرآن فيها. أرادت أن تقذف الرسول بكف من حجارة وهو يصلي في الكعبة فأخذ الله ببصرها فلم تر إلا أبا بكر. فمعجزات الرسول ليست فقط تلك التي يقوم بها هو نفسه فعلا أو دعاء بل أيضا هي التي يقوم بها الله دفاعا عنه. وبالتالي يكون السؤال متى يكون الفعل المعجز لله ومتى يكون للرسول؟ ومتى يتدخل الفعل المعجز لله أو للرسول ومتى يُترك الأمر للفعل الإنساني للدفاع عن الرسول والمؤمنين أو للهجوم على المشركين؟ وكان البعض إذا رأى الرسول همزه ولمزه فرد عليهم القرآن^(٣). فهل هو أبلغ من رد الرسول أم أن القصد من رد القرآن هو تخليد هذا النموذج من السخرية من الحق والرد عليه، فوقائعه متكررة عبر الزمان والمكان؟

ثم حاول بعض الفضلاء نقض الصحيفة التي عقدتها قريش لمقاطعة الرسول وبني عبد المطلب وبني هاشم^(٤). فالقراءة لها الأولوية على العقيدة. فالأحوال لا تطعم ولا تلبس الثياب ولا تنكح ولا يباع منهم ولا يشتري. وبدأت الدعوة برجل واحد ثم اثنين حتى خمسة. وذهبوا للحديث مع أبي جهل فوجدوا طبقا للرواية أن الأرضة قد أكلت الصحيفة إلا «باسمك اللهم» بعد أن شلت يد كاتبها. معجزتان: الأولى في العقد، والثانية الخرق. وأخبرا الرسول طبقا للرواية أن الله هو الذي سلط الأرضة على الصحيفة ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان وأثبتت اسم الله. وأجار المطعم الرسول لأن الحليف لا يجير. فالحشرات على وعي بها يُكتب أكثر من الإنسان. والظلم والقطيعة

(١) ﴿بَيَّنَّا يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾. ابن هشام ج١/٣٢٦/٣٢٩.

(٢) السابق ج١/٣٣٠، «ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذي قريش يسبون ويهجون مذمعا وأنا محمد».

(٣) ﴿وَنَزَّلْنَا لَكُمُ الْهُزْءَ لَمُزَةٍ ۚ الَّذِي جَمَعْنَا مَالًا وَعَدَدَهُ . نَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . أَكَلَا لُيْبُذَنَ فِي الْخَطْمَةِ . وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ . إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾. السابق ج١/٣٣٠، خير العباد ص ٤٠-٤٣، بهجة المحافل ص ٩٤-٩٥.

(٤) هم: هشام بن عمرو، زهير بن أبي أمية، المطعم بن عدي، أبو البخترى، زمعة. ابن هشام ج١/٣٤٥-٣٥٢، السيرة الحلبية ج١/٤٧٥-٤٧٦، حياة محمد ص ١٥٧-١٦٢، سيد الأنام ص ٨٨-٩٢، مختصر سيرة (١) ص ٦٦، مختصر سيرة (٢) ص ١٠٩، السيرة النبوية ص ١١٠-١٢٠/١٣٩، الرحيق المختوم ص ١٠٩-١١٢، رسول الحرية ص ١٠٦-١١٧.

والبهتان لا تجتمع طبقا للرواية مع اسم الله لأن الله يعني العدل وصلة الرحم والصدق. واليد التي تكتب لا تكتب إلا الخير وإلا توقفت عن أن تؤدي مهمتها في العمل. وإذا كان الحليف لا يجير فقد وجد الرسول من يجيره لأن الحق لا يضيع، ويجد باستمرار سنداً إنسانياً له. هنا لا يوجد فرق بين الواقع والخيال، بين الحرف والصورة، بين الحس والتصور، بين المرئي والتمني. فالدعوة الجديدة تؤسس عالماً من المعاني، وتقيم نسفاً ثنائياً من القيم. الأدنى يزول، والأعلى يبقى.

وتظهر الرسالة في مبادئ الصحيفة وهي أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس^(١). وأن المؤمنين أخوة^(٢)، وأن القبائل متساوية^(٣)، وأن اليهود متآخية^(٤)، وأن المبادئ الأخلاقية تجمع الجميع^(٥). وتشبه حلف الفضول.

وأناه وفد من نصارى الحبشة أو نجران للإسلام. واستمعوا للرسول وللقرآن. وفاضت أعينهم من الدمع. وصدقوه. وعرفوا أنه من يوصف في كتابهم. فاعترضهم أبو جهل وعنفهم^(٦). فنزل القرآن دفاعاً عنهم^(٧). فالنصارى كانوا أكثر استجابة للإسلام من اليهود، وأكثر اعترافاً بالدين الجديد وبالنبي الجديد الموصوف لديهم في الإنجيل. وقد اتهمت قريش الرسول بأنه يتعلم ما يقول من جبر النصراني غلام بني الحضرمي فرد عليهم القرآن بحجة اللغة، بأن جبر الرومي لسانه رومي في حين أن

(١) ويضم هذه المبدأ، الغزو المشترك، والنصر المشترك، ورد الاختلاف إلى الله والرسول، ونهاية النار، وحرمة الجوار.

(٢) ويضم هذا المبدأ: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الخلف والموالي فيما بينهم، يد واحدة ضد العدوان، الجميع في ذمة الله.

(٣) ويضم هذا المبدأ: المساواة بين المهاجرين من قريش، بنو عوف، وبنو الحارث، وبنو ساعدة، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس.

(٤) الخلف مع اليهود حرباً أم سلباً، أمة مثل المسلمين. ولكل نفقته.

(٥) مثل حرمة مكة، حرمة الجار، الصلح بين الناس، المساواة بين الجميع، السيرة النبوية ص ٤٨٨-٤٩١.

(٦) ابن هشام ج ١/ ٣٥٩-٣٦١.

(٧) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا بُنِيَ عَلَيْهِمْ قَالَوا أَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾، ﴿ذَلِكَ بِأَنْ مِنْهُمْ قَسِيْبٌ وَرُهَيْبَانَا وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. السابق ج ١/ ٣٦٠.

القرآن لسان عربي مبين^(١). وأتاه المستضعفون للاستماع إليه، وتهكمت قريش عليهم. فرد القرآن^(٢). فالهداية مستقلة عن الوضع الاجتماعي والمستوى الاقتصادي. بل قد يكون المستضعفون أكثر إحساسا بالإسلام باعتباره دين المستضعفين.

ولا ضير في قصة الغرائيق التي تروى بعد عودة المسلمين من الحبشة. فالرسول حريص على تحول العرب إلى الإسلام، وتحول تعدد الآلهة إلى إله واحد، وجذبهم تدريجيا من الوثنية إلى الإسلام^(٣). فبدلا من تكذيب الرواية وهي مذكورة في القرآن يمكن تفسيرها نفسيا، حرص الرسول على إيمان المشركين ودخولهم إلى الإسلام حتى ولو تم ذلك تدريجيا مع أنصاف الحلول مرحليا كما يحدث الآن في الخلاف بين فتح وحماس.

وقد أذت قريش الرسول كما فعلت حمالة الخطب^(٤). ومع ذلك استمر الحوار بينهما. وقد هدد أبو جهل برضخ رأس الرسول فأصيب بالذعر لاستحالة انتصار الشر على الخير، وتغلب الباطل على الحق.

٦- الإسراء والمعراج

وحدثت واقعة الإسراء والمعراج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بعد أن انتشر الإسلام بمكة وفي معظم القبائل العربية. وكانت بلاء وتمحيصا للرسول، ودليلا على قدرة الله، وعبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة لمن آمن وصدق، وآية للرسول حتى يعاين ما سمع به. هي المعجزة الكبرى حتى يشاهد الرسول ما سمع. وثبتت الرؤية

(١) «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّا لَا يُعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ». السابق ج١/ ٣٦١.

(٢) «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». السابق ج١/ ٣٦٠-٣٦١.

(٣) حياة محمد ص ١٤٠-١٤٦، معجز محمد ج١/ ٧٥-٧٧.

(٤) سيد الأنام ص ٩٢-٩٥.

ما تخبر به الأذن^(١). والسؤال هو هل هي واقعة أم رؤية؟ هل حَدَث أم حلم؟ هل تمت في اليقظة أم في المنام؟ هل تمت بالجدس أم بالروح؟^(٢) اختلف السلف والعلماء. هل كان إسرائ بروحه أو جسده على ثلاث مقالات^(٣). الأولى رواية معاوية أنه إسرائ بالروح، وأنه رؤيا منام، ورؤية الأنبياء حق روعي ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. ورواية عائشة وقول الرسول «بينما أنا نائم»، وقول أنس «وهو نائم في المسجد الحرام». وفي آخر القصة «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام». والثانية أن الإسرائ بالجدس وفي اليقظة عند معظم السلف والمسلمين وأكثر المتأخرين بين الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين. وهو الرأي المحافظ. والثالثة الإسرائ بالجدس يقظة إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماء بالروح ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾. ويتم الحجاج ضد من قال إنها نوم^(٤). واختلفوا في رؤية الرسول لربه. أنكرتها عائشة ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿لَنْ تَرَانِي﴾^(٥). ومناجاته وكلامه مع الله مع جبريل ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾^(٦). والدنو والقرب من الله تصور مكاني ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾^(٧).

(١) ابن هشام ج١/٣٦٣-٣٧٣، الإشارة ص ١٣٥-١٣٩، البستي ج٢/١١٢-١١٧.
(٢) في رأي عائشة أنه إسرائ بالروح «ما فقد جدس رسول الله ولكن الله أسرى بروحه». وفي رأي معاوية أنها رؤيا من الله صادقة. وفي رأي الحسن بأنها رؤيا، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، وحديث الرسول «تنام عيني وقلبي يقظان»، ابن هشام ج١/٣٦٦-٣٦٧، البستي ج٢/١١٢-١١٨، ابن خلدون ص ٩٨-١٠١، عيون الأثر ج١/٢٤١-٢٤٧، خير العباد ص ٤٤-٥١، الفصول ص ٦٥-٦٩، صحيح السيرة ص ٢٣٤، بهجة المحافل ص ١١٨-١٢٠، سيرة النبي ص ١٦-٢٣، السيرة الحلية ج١/٥١٤-٥٨٦، نور الإبصار ص ١٩، حياة محمد ص ١٦٢-١٦٨، نور اليقين ص ٥٦-٥٨، الأسوة الحسنة ج١/١٩٩-٢٢١، سيد الأنام ص ١٠٢-١١٠، المغازي ص ١١٥-١٢٣، مختصر سيرة (١) ص ٧٧-٧٨، سيرة الرسول ص ٤٦، السيرة النبوية ص ١٤٧-١٥٢، خاتم الأنبياء ص ٧٠-٧٤، صحيح السيرة ص ١٢٨-١٣٣، الرحيق المختوم ص ١٣٧-١٤٢، الخصائص الكبرى ج١/٣٣٥-٣٩٢.

(٣) الشفا ج١/٢٤٥-٢٥٢.

(٤) السابق ج١/٢٥٢-٢٥٦.

(٥) السابق ج١/٢٥٧-٢٦٦.

(٦) السابق ج١/٢٦٧-٢٦٩.

(٧) السابق ج١/٢٦٩-٢٧٣.

هناك عدة روايات، منها ما هو غير مباشر، ومنها ما هو مباشر. ومجموعها يكوّن القصة. منها القصة الكلية الشاملة المركزة، ومنها التفصيلية بالمرحل، والمكان والزمان، والحوار. هي روايات عدة تختلف في درجة تصويرها للمشاهد، وفي حجمها، طولاً أو قصراً، وفي صحتها، مرسلة أو غير ذلك. وتشهد صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومرتزته وما خصه بها في الدارين من كرامته. هو أكرم البشر، وسيد ولد آدم، أفضل الناس منزلة عند الله، وأعلاهم درجة وأقربهم زلفى^(١). له مكانته عند ربه والاصطفاء ورفعة الذكر والتفضيل وسيادة ولد آدم وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب. ومن تفضيله الإسراء والمناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج إلى سدرة المنتهى، وما رأى من آيات ربه الكبرى. وتدخل شخصيات في الحوار، الله، الملائكة، جبريل، الأنبياء، البراق. فكيف تعرض الروايات؟ تجميعها حول وقائع تفصيلية مثل البراق، الصلاة في بيت المقدس مع الأنبياء، حوار مع موسى، مشاهدته الأنبياء ومنهم آدم، مشاهدة من يعذبون... الخ أم تبقى وحدة الرواية لتناسقها في الرؤية حتى ولو تكررت الموضوعات؟ ربما الثانية هي الأفضل. وتتقطع الرواية وتدخل فيها روايات أخرى مما يدل على تركيبها^(٢). وبين الروايات خلاقات عديدة. لذلك لا تذكر بطولها بل متقطعة من أجل شرحها وتوضيحها. وهي على صلة برواية شق الصدر حتى يصعد النبي إلى السماوات العلا صافياً شفافاً. وحملتها ليلاً وراكباً وقبل الوحي حتى إذا أعلن عنه صدقه الناس. وهي فرصة للخيال كي ينشط في التصوير من أجل التأثير. وقد عرف القدماء تأويلاتها المختلفة بما في ذلك التأويل الإشاري^(٣). وتعتمد على القرآن أكثر من الأحاديث لأن القرآن مصدر أكثر يقيناً من الحديث. بها دلالات كالنواة في الرواية قبل أن ينسج حولها الخيال القصص مثل اختيار الفطرة أي اللبن دون الخمر وبعض الروايات ضعيفة. ومن حكمتها فرض الصلاة.

صدقها أبو بكر بمجرد سماعها. لذلك سُمي الصديق وليس لتصديقه لمجموع

(١) السابق ج١/ ٢١٥-٣٤٥.

(٢) عود إلى حديث الخدري عن المعراج، ابن هشام ج١/ ٣٧٢-٣٧٣، المواهب اللدنية ج٣/ ١١٥.

(٣) المواهب اللدنية ج٣/ ٩٥.

رسالته وهو الإسلام. وفي رأي أم هانئ «أن الرسول كان عندها هذه الليلة ولم يغادرها. وأخبرها أنه صلى العشاء معهم ثم ذهب إلى بيت المقدس فصلى فيه وهو الآن يصلي الغذاء معهم». وحذرته من إخبار الناس ولكنه أصر على إخبارهم. وحدث الناس بها شاهده وهو في طريقه إلى الشام بعير الأقوام التي مر بهم وهم نيام. فوجد الناس أنه وصفه صادق^(١). وعند الشيعة في ليلة الإسراء والمعراج خلف الرسول وراءه علي^(٢).

وتركز الرواية على البراق. والبراق هي الدابة التي كانت تحمل الأنبياء من قبل، حافرها في منتهى طرفها. حمل عليها. يرى الآيات بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس فصلى بالأنبياء، إبراهيم وموسى وعيسى. وأعطى ثلاثة آنية بها لبن، وخمر، وماء. وسمع الرسول من يقول إنه إذا أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإذا أخذ اللبن هدى وهديت أمته. فأخذ اللبن وشرب منه وأيده جبريل بقوله «هديت وهديت أمتك يا محمد». وقد كان يمكن للفطرة أن تدفع الرسول إلى شرب اللبن دون مساعدة خارجية، ولماذا اللبن أفضل من الماء، والماء أقرب إلى الفطرة؟ وفي الحياة العربية الماء لا يقل أهمية عن اللبن. إنما اللبن في الثقافة العامة أكثر قيمة وغذاء ونفعا وندرة من الماء^(٣). ولا توجد فيها رواية المعراج. إذ عاد الرسول إلى مكة وأخبر قريشا فارتد البعض لعدم التصديق بالذهاب إلى المقدس في ليلة واحدة، والرحلة تستغرق شهرا من مكة إلى الشام ذهابا وشهرا إيابا.

وفي رواية أخرى، جاء جبريل الرسول وهو نائم فهمزه بقدمه فجلس ولم ير شيئا.

(١) وفي حديث أم هانئ «ما أسرى برسول الله إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة في بيتي. فصل العشاء الآخرة. ثم نام ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله. فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الراوي. ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم قد صليت صلاة الغذاء معكم الآن كما ترين»، ابن هشام ج١/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) «قال لي ربي ليلة أسرى بي: من خلقت على أمتك يا محمد»، النبي الأعظم ص ٢٩.

(٣) رواية عبد الله بن مسعود تجمع بين الرواية والقول المباشر، ابن هشام ج١/ ٣٦٤-٣٦٥. وهي أيضا رواية الحسن ج١/ ٣٦٥-٣٦٦، سيرة النبي ص ٢١٧، مختصر سيرة (٢) ص ١٤٥-١٤٨، معجز محمد ج١/ ١١٤-١١٦، السيرة النبوية ص ١٢٦-١٣٧. «فسمعت قائلا يقول حين عُرِضت علي: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته. وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته. وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته... فأخذت إناء اللبن فشربت منه.. فقال: هُديت وهُديت أمتك يا محمد»، ابن هشام ج١/ ٣٦٤-٣٦٥.

فعاد ونام. ثم جاءه للمرة الثانية وحدث نفس الشيء. ثم جاء في المرة الثالثة، وأخذ بيده وخرج إلى باب المسجد فوجد دابة بيضاء، بين البغل والحمار، تنتظره في فخذه جناحان يدفع بهما رجله. يضع يده في منتهى طرفه وحمله عليه. والزيادة هنا المرات الثلاث ووصف الدابة^(١). وفي رواية أخرى لم يستطع الرسول ركوبه فساعدته جبريل بوضع يده على رقبته وعتابه بأنه لم يركبه أحد أكرم من محمد. فاستحي ونبض عرقا واستقر حتى ركبته. وهو تصوير فني لصعوبة ركوبه وطاعته ومدح الرسول^(٢). وفي رواية أخرى أن الرسول بات الليلة بعد أن صلى العشاء ثم قام قبل الفجر. وأخبرها أنه ذهب إلى بيت المقدس فصلى فيه. فخافت عليه أن يحدث الناس بما حدثها. فأصر على الخروج. ووصف الرسول لهم الطريق من مكة إلى بيت المقدس، قوافلا وركبانا، وعيرا وماء فصدقه الناس^(٣).

وتصف رواية السمات البدنية للأنبياء. فإبراهيم أشبه بمحمد كناية عن أن الإسلام دين إبراهيم. وموسى طويل، خفيف اللحم، متكسر الشعر، مرتفع قصبه الأنف كأنه أحد من قبائل الأزد. وهي أوصاف ما عرفه العرب من سمات القبائل. وعيسى لونه أحمر بين القصر والطول، سبط الشعر، أسمر الوجه كأنه خرج من الحمام. رأسه يقطر ماء، أشبه بعروة بن مسعود الثقفي^(٤). فالصفات الجسدية إسقاط على الأنبياء مما تعود عليه العرب وهو على خلاف ما تصوره الفنانون الغربيون لصور الأنبياء^(٥).

(١) هي رواية الحسن، «بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت إلى مضجعي. فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا. فعدت إلى مضجعي. فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقامت معه. فخرج بي إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، في فخذه جناحان يحفز بهما رجله. يضع يده في منتهى طرفه فحملني عليه. ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته»، ابن هشام ج ١/ ٣٦٥.

(٢) هي رواية قتادة، «لما دنوت منه لأركبه شمس. فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: ألا تستحي يا براق مما تصنع؟ فوالله ما ركبك عبد الله قبل محمد أكرم عليه منه. فاستحيا حتى أرفض عرقا. ثم قر حتى ركبته»، السابق ج ١/ ٣٦٥.

(٣) هي رواية أم هانئ، السابق ج ١/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٤) هي رواية الزهري، «أما إبراهيم فلم أر رجلا أشبه قط بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه منه. وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أفتى وكأنه من رجال شنوءة. وأما عيسى ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه، كأنه خرج من ديباس. نخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي»، ابن هشام ج ١/ ٣٦٧.

(٥) مثل موسى لما بكل انجلو، ورافيل للمسيح في العشاء الأخير.

وقصة المعراج منفصلة عن الإسراء^(١). من الأرض إلى الأرض شيء، ومن الأرض إلى السماء شيء آخر. ففي رواية عن الرسول مباشرة أنه لما انتهى من بيت المقدس أتى بالمعراج وهو يعادل البراق في الإسراء ولم يكن هناك أحسن منه رؤية. فصعد فيه الرسول حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء، باب الحفظة. عليه ملاك يسمى إسماعيل. تحت يديه اثنا عشر ألف ملك. وتحت يد كل منهم اثنا عشر ألفا وكان الرسول قد عد هؤلاء وأولئك حوالي مائة وأربعة وأربعين مليوناً. ويغطي العدد آية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. وسأل جبريل عمن معه وكان الملاك لا يعلم. فلما علم أنه محمد لم يكن يعلم أنه بُعث وهو نقص في علم الملاك. ثم دخل الرسول السماء الدنيا وتلقته الملائكة ضاحكة إلا واحداً. وهو مالك خازن النار. وتطعم الرواية بآية ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ﴾، فطلب الرسول رؤية النار. فكشف غطاءها ففارت وارتفعت. فطلب محمد من خازنها ردها فعاد الظل^(٢).

وتستمر الرواية في أن الرسول لما دخل السماء الدنيا وجد آدم فعرض عليه أرواح بني آدم، منها ما يسر، الأرواح الطيبة، ومنها ما يحزن، الأرواح الخبيثة. فكم من الوقت استغرق عرض أرواح بني آدم؟ وهل هي الأرواح الماضية التي فارقت أجسادها

(١) «فلما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى المعراج. ولم أر شيئاً قط أحسن منه. وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر. فأصعدني صاحبه فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة. عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل. تحت يديه اثنا عشر عشر ملك. تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ملك ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾. فلما دخل بي قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا محمد. قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم. قال: فدعالي بخير وقاله»، ابن هشام ج ١/ ٣٦٩-٣٧٣، ألفية السيرة ص ٦٥-٦٦.

(٢) هو رواية أبي سعيد الخدري: «تلقنتي الملائكة حين دخلت السماء الدنيا. فلم يلقيني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً يقول خيراً ويدعو به. حين لقيني ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا، ودعا بمثل ما دعوا به إلا أنه لم يضحك. ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره. فقلت لجبريل: يا جبريل، من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك لي؟ ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيت منهم؟ فقال جبريل: أما أنه لو ضحك لي أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك ولكنه لا يضحك. هذا مالك خازن النار. فقلت لجبريل: وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم ﴿مطاع ثم آمين﴾. ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال: بلى. يا مالك أر محمداً النار. فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى. فقلت لجبريل: يا جبريل مره فليردها إلى مكانها فأمره فقال لها اخبي فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه. فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل حتى إذا فضلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها»، ابن هشام ج ١/ ٣٧٠.

أم هي الأرواح القادمة التي مازالت في أجسادها أو الأرواح التي لم تولد أجسادها بعد؟^(١)

وتظهر الأوضاع الاجتماعية في رواية المعراج. أكلة أموال اليتامى لهم شفاه مثل الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأحجار على الكف تقذف في أفواههم فتخرج من أديبارهم^(٢). وهي صورة كريمة تنفر الناس من أكل أموال اليتامى بما تعود عليه بدو الصحراء من صور كريمة للإبل والنار والأحجار، والأفواه والأديبار. فالصورة الفنية بنت واقعها الاجتماعي. وأكلة الربا لهم بطون مثل بطون آل فرعون كالإبل العطاش يعرضون على النار، يوطنون ولا يقدرّون على التحول من مكانهم لثقل الذنب. وغياب الروح التي تبعث على حركة الأجساد. وهي صورة شعبية مازالت حتى الآن أصحاب الكروش الكبيرة في الآداب وفي الفنون^(٣). والزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جوار لحم غث متّن. يأكلون من الثاني ويتركون الأول. وهي صورة تدل على الألفة والغربة. في حين أن ما يأتي أحيانا في تاريخ الأدب هو إغراء الجديد على رتبة القديم. ونساء معلقات بثديين هم الذين أدخلن على رجال من غير أولادهم. ويساند ذلك حديث^(٤). وهو نقيض كل أدب الإغراء والغواية وفن العري وميتافيزيقا الجسد وجماليات المرأة.

(١) «لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويُسِر به ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أف ويعبس بوجهه ويقول روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته. فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب. وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها وكرهها وساء ذلك وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث»، السابق ج١/ ٣٧١.

(٢) «ثم رأيت رجلا لهم مشاخر كمشاخر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأنهار يقذفونها في أفواههم فتخرج من أديبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما»، السابق ج١/ ٣٧١.

(٣) «ثم رأيت رجلا لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون، يعرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار، يطأونهم، لا يقدرّون على أن يتحولوا عن مكانهم ذلك، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا»، السابق ج١/ ٣٧١. «ثم رأيت رجلا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث متّن يأكلون من الغث المتّن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن»، مثل رواية «أناكارينينا» لدستوفسكي.

(٤) «ثم رأيت نساء معلقات بثديين فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم»، السابق ج١/ ٣٧٢. «اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فأكل جرائنهم واطلع على عوراتهم»، السابق ج١/ ٣٧٢.

ثم صعد إلى السماء الثانية فإذا بها أبناء الخالة عيسى ويحيى. وفي الثالثة أخوه يوسف كالقمر ليلة البدر. وفي الرابعة إدريس، وتطعم الرواية بآية ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. وفي الخامسة كهل أبيض الرأس وطويل اللحية هو هارون. وفي السادسة رجل أسود طويل، أنفه إلى أعلى هو أخوه موسى، وفي السابعة رجل جالس على كرسي إلى جانب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك شبيه بمحمد هو إبراهيم، مما يدل على استئناف الإسلام رسالة إبراهيم الحنيفية. ثم دخل إلى الجنة فوجد فيها جارية حمراء تضرب إلى السواد أعجبت الرسول ولكنها كانت لزيد بن حارثة^(١). فالرسول لم يتخل عن طبعه وهو الإعجاب بالنساء وإيثارهن لنفسه. وهل في السماء جوازي أم أن في السماء أحرارا وأن الجوازي نظام اجتماعي في الدنيا فقط؟

وفي العودة مر بموسى. فلما عرف أن الصلاة المفروضة على المسلمين خمسون صلاة كل يوم طلب أن يراجع ربه للتخفيف فأصبحت أربعين. فطلب موسى التخفيف ثانية إلى ثلاثين. وظل موسى يطلب التخفيف والرسول يعود إلى الله أربع مرات حتى أصبحت الصلوات خسا ولم يستطع الرسول العودة للتخفيف من جديد استحياء من الله. وهي رواية تدل على واقعية الإسلام والاستفادة من تجارب الأنبياء السابقة خاصة من شريعة موسى التي غلب عليها التشدد فأزاحها اليهود جانباً أو حولها إلى شريعة صورية خالصة خالية من أي مضمون روحي يدل على طاعة الله أو أخلاقي يدل على حسن السلوك الفردي والجماعي.

(١) «ثم أصعدني إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا. ثم أصعدني إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف ابن يعقوب. ثم أصعدني إلى السماء الرابعة فإذا بها رجل فسألته من هو؟ فقال: هذا إدريس ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. ثم أصعدني إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية عظيم المثنون لم أر كهلاً أجمل منه. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا المحبب في قومه هارون بن عمران. ثم أصعدني إلى السماء السادسة. فإذا فيها رجل آدم طويل أفتى كان من رجال شئوة فقلت له: من هذا يا جبريل. قال: هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أصعدني إلى السماء السابعة فإذا فيها كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة. لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. ثم دخل بي إلى الجنة. فرأيت فيها جارية لعناء فسألتها: لمن أنت؟ وقد أعجبتني حين رأيته. فقالت: لزيد بن حارثة فبشر بها الرسول، السابق ج ١/ ٣٧٢-٣٧٣، سيرة النبي ص ٢١٩-٢٢٠.

وتختلف روايات الإسراء والمعراج وتتضخم من النواة التي ذكرها القرآن إلى دوائر متداخلة في الحديث طبقا لدرجة الخيال في التصوير والتزويق والإخراج^(١). فتختلف الروايات في وقت حدوثها^(٢). وهل تمت في اليقظة أم في المنام. واليقظة أكثر تأثيرا من المنام وأيهما أولا؟ والإسراء أولا وفي رحلة واحدة أوقع وأكثر تأثيرا. وكلها كان الوقت مبكرا كان أوقع وأكثر تأثيرا. واختلف في شهر وقوعها ربيع الأول أم الثاني أم رجب؟ وهناك رواية قصيرة تطول تدريجيا وتزداد تفصيلا حتى تبلغ عدة صفحات^(٣). وترتبط برواية شق الصدر لأنه لا يصعد إلى السماء إلا نقيا صافيا. وقد انجبت الشمس وكادت تغرب حتى أتى الركب كما احتبست ليوشع بن النون ولداود مما يدل على وجود نمط سابق. وفي رواية أنها ردت له في بيت أو في الخندق حتى شغل عن الصلاة^(٤).

وتستمر المعجزات في كل السير. وتأخذ قصة «الإسراء والمعراج» مكانا مميزا^(٥). ومهما تعددت رواياتها واختلفت بين الإجمال والتفصيل فلأنها تظل خارج مجال النقد. وتطول الروايات مما يستحيل على الذاكرة استيعابها ونقلها. هي لحظات إبداعية من خيال بدوي يعشق الأحجار الكريمة وحياة البذخ. وتحضر المسجد الأقصى للرسول وهو في مكة، فيصفها بناء على طلب المنكرين. وهو وصف بالذاكرة وليس بالضرورة بالعين المجردة^(٦). وتتوالى المعجزات الأخرى: رد العين، آيات النبوة أثناء حفر الخندق،

(١) الإشارة ص ١٣٥-١٤١.

(٢) قبل الهجرة بثلاث سنين أو بسنة أو بستة أشهر أو بعد النبوة بخمسة أعوام أو عام ونصف أو بخمسين عشر شهرا أو بسنة ونصف بعد رجوعه من الطائف، السابق ص ١٣٥-١٣٧.

(٣) هي «بينما أنا نائم في الحطيم، وربما في الحجر، بين النائم واليقظان إذ أتاني آت، فشق ما بين هذه إلى هذه يعني من ثغرة غره إلى مراهه فاستخرج قلبه ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي ثم مشى ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، وهو البراق، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل إلى السماء». وذكر البخاري الأنبياء الذين رأهم في بيت المقدس والسماء وذكر الجنة والنار وسدرة المنتهى والأنهار الأربعة والآنية الثلاث: الماء والخمر واللبن وفرض الصلوات، السابق ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) السابق ص ١٣٩-١٤١.

(٥) «الإسراء والمعراج»، محمد رسول الله ص ٢٠٦-٢٢١، باقي المعجزات ج١- ٢٨٢ / ٣٦٠ / ٤١٤-٤٢٣ / ٤٤٦ / ٥٠٤، ج٢- ١٣٠-١٤٣.

(٦) السابق ج٢- ٥ / ٢٤٠.

المعجزات أثناء الغزوات. ويخصص باب بأكمله وهو أكبر باب للمعجزات، معجزات عصمته وحمايته الأخبار عن الأمم السابقة، خوارق العادات لتثبت أصحابه، وأخرى أخبر بها أصحابه دون رؤيتها. وآخرها معجزة القرآن. وهي أدخل في الإعجاز البلاغي والتشريعي منها في خوارق العادات. ومعظم المعجزات قصص وروايات، وبعضها طويل يتضح فيها التركيب والتأليف والإخراج أي الصنعة. وتكثر المعجزات بالملثات^(١). كما تحدث الكرامات للصحابة مثل عمل وسعد بن أبي وقاص وغيرهم وكما تقول الصوفية لهم دون تحديد دقيق للفرق بين المعجزة والكرامة والآية وخوارق العادات^(٢).

ويتحول الإسراء والمعراج إلى خاصية للرسول في عدة روايات. تفيد كلها تفرده. وتخضع لمنطق الإبداع القصصي. والرؤية الروحية تحل سيرا من مشاكل الرواية التي يتم الجدل فيها لإثبات الانتقال الجسدي.

٧- جدل السلم والحرب

وقد دعا الرسول على المستهزئين به بعمى البصر وثكل الولد^(٣). ورد عليهم بالقرآن^(٤). وعاقبهم جبريل طبقا للرواية والرسول بجواره وهم يطوفون البيت. ورمى في وجه واحد بورقة خضراء فعمى. ومرة بآخر فانتفخت بطنه ومات. ومر بثالث فتوفي إثر جرح في كعبه. ورابع دخلت في رجله شوكة فمات. وخامس أشار إلى رأسه فامتخض قيحا فمات. ويبدو هنا الصراع القصصي بين العلة الأولى، جبريل والعلة الثانية، انتفاخ البطن، الجرح في الكعب، الشوكة في القدم، القيح في الرأس^(٥).

(١) في الجزء الثاني وحده حوالي ٢٣٠ معجزة.

(٢) محمد رسول الله ج٢/ ١٢٣-١٢٩.

(٣) اللهم اعم بصره، وأنكله ولده، ابن هشام ج١/ ٣٧٤.

(٤) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. السابق ج١/ ٣٧٥.

(٥) ابن هشام ج١/ ٣٧٥، ألفية السيرة ص ٥٣-٥٤، مختصر سيرة (٢) ص ١١٤-١٤٤، صحيح السيرة ص ١١٥-١١٦، رسول الخيرية ص ١١٨-٢٢٩، عبقرية محمد ص ٢٣-٣٦.

فالرسول يقابل الإيذاء بإيذاء مماثل، والعدوان بعدوان شبيه. ويضيف إليه جبريل لمزيد من القوة والثقة بالنفس ودرء العدوان.

وصبر الرسول على إيذاء المشركين. وكانوا يقذفون عليه الأوساخ. وتستر دونهم بالحائط. والرسول في جوار بني عبد مناف. وأثناء ذلك توفي أبو طالب وخديجة في عام واحد. وطمعت قريش في الرسول بعد وفاة الاثنين. وكان ييث هم وحزنه إلى خديجة^(١). وكان أبو طالب حاميا له. وظل كذلك ثلاث سنوات حتى الهجرة. وقد نثر أحد سفهاء قريش التراب على رأسه. ولما ثقل على أبي طالب المرض ذهبت قريش يطلبون عهدا بينهم وبين الرسول. فطلب منهم الرسول كلمة واحدة يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم، لا إله إلا الله، وترك ما يعبدون من دونه^(٢). وتعجبوا من محمد يريد أن يجعل الآلهة لها واحدا^(٣). ووافق أبو طالب ابن أخيه على ما طلب من قريش. حيثئذ طمع الرسول في إسلام عمه حتى يشفع له بها يوم القيامة ولكنه رفض خشية أن تقول قريش إنه قالها خشية من الموت. وحرك شفتيه ظن العباس أنه قالها ولكن الرسول لم يسمعها^(٤).

وقد خرج الرسول إلى الطائف سرا. وقابل من اعترف بنبوته عندما أخبره بأمر يونس الرجل الصالح من نينوي^(٥). وفي رواية أخرى سعى الرسول إلى ثقيف يطلب

(١) «لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك... ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب»، ابن هشام جـ ١/ ٣٨١.

(٢) «نعم كلمة واحدة تعطونهاها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم... تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه»، السابق جـ ١/ ٣٨٠-٣٨٢.

(٣) «لذلك نزلت آية ﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحْمِلْ بِنَا غَيْرَ مَنَاصٍ . وَتَعَجَّبُوا أَنْ يَجَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ . وَأَنْظِرِ الْمَلَائِكَةَ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ اهْتِكَمِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأُولَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا خِلْقَانٌ﴾».

(٤) «أي عم، فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة»، السابق جـ ١/ ٣٨١-٣٨٢، عيون الأثر جـ ١/ ١٩٢-١٩٥، السيرة الحلبية جـ ١/ ٤٨٨-٥١٢، السيرة النبوية ص ١٢٠-١٢٣.

(٥) سيرة الرسول ص ٤٢-٤٤.

النصرة، ولكنهم خذلوه بل حرضوا عليه^(١). وتوجه إلى ربه بالشكوى^(٢). وهي حيلة الضعيف مؤقنا إلى أن يستعد للمواجهة مع الخصوم. ووسط هذا العداء يظهر الاحترام والتقدير من نصراني. وأرسل غلام يقطف عنب للرسول بدافع القرابة فأكل باسم الله. وهو كلام الأنبياء. ولما عرف أنه من نينوي وأنه نصراني أبلغه الرسول أنها قرية أخيه الرجل الصالح يونس^(٣). فأقبل الغلام يقبّل يديه وقدميه. فالنصرانية أقرب إلى العقائد إلى الإسلام. ولا صراع على السلطة بين النصارى والمسلمين في اليمن أو في نجران. ولما ينس الرسول من الطائف وهو في طريقه إلى مكة حط بواد ليصلي جوف الليل فمر به سبعة نفر من الجن من أهل نصيبين فاستمعوا إليه وذهبوا إلى قومهم منذرين، وأنهم آمنوا بما سمعوا كما روى القرآن^(٤). استمع منه الجن القرآن. وأسلم بعضهم. وإذا كان الجن قد آمن بالرسول فالأولى أن يؤمن الإنسان. فالجن هنا صورة من أجل شحذ همة الإنسان.

واستمر الرسول في عرض نفسه على القبائل في المواسم ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركن به أحدا. وطلب منه بنو عامر على أن يكون لهم الأمر من بعده وجواب الرسول «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء». وعرض عليه آخران ما معه أيضا في صحيفته مثل الذي مع الرسول. وجاء آخرون فاستمع إليهم الرسول وقبله غلام. وتردد في قبوله

(١) ابن هشام ج ١/ ٣٨٢-٣٨٥، البستاني ج ٢/ ١١٨-١٤٠.

(٢) وهو قول مشهور لليانسين «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين. وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك. لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»، ابن هشام ج ١/ ٣٨٤.

(٣) «ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ ... من قرية الرجل الصالح يونس بن متى... ذلك أخي. كان نبيا وأنا نبي...»، السابق ج ١/ ٣٨٤، المغازي ص ١٢٤.

(٤) «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»، «قل أوحى إلي أنه أستمع نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ». السابق ج ١/ ٣٨٥، الفصول ص ٢٦١-٢٦٤، سيرة النبي ج ٣/ ٣٣٧-٣٤٣.

الآخرون^(١). الكل يبغى الشراكة والمناصفة وكان الأمر تجارة، تتساوى فيها البضائع. وكان الرسول يتلطف مع من يدعوهم مثل بني كلب بأن الله أحسن اسم أبيهم^(٢). وقرأ الرسول صحيفة لقمان التي كانت مع يهودي ولكن القرآن أفضل منه. فخرج اليهودي إلى الخزرج فقتلوه. وقد مات مسلماً^(٣).

وبدأ الأنصار يدخلون في الإسلام^(٤). فقد خرج الرسول للقاء نفر منهم في المواسم. لقي رهطاً من الخزرج عند العقبة من موالي اليهود. فقبلوا دعوته لأنهم وجدوه كما يوصف في كتبهم. وفي العقبة الأولى خرج نفر من الأنصار للقاء الرسول فبايعوه على بيعه النساء سلماً قبل فرض الحرب. وكانت البيعة على عدم الإشراك بالله، وعدم السرقة والزنا وقتل الأولاد، ولا الإتيان بيهتان يُفترى، وعدم عصيانه في معروف. فإن فعلوا فلهم الجنة. وإن عصوا إن شاء الله عذب، وإن شاء غفر. وصلى بهم أحد الصحابة لأن الأوس والخزرج كانوا يكرهون بعضهم البعض. ولم يستطع الدين الجديد تحقيق المواخاة المطلقة بينهما في الإمارة والإمامة.

ثم أقيمت أول جمعة بالمدينة. وكان المصلون أربعين رجلاً. وكان المسلمون يحسنون الدعوة بوجوههم السمحة وإشراقهم وكلامهم السهل. فلم يعد في بيت من بيوت الأنصار إلا مسلماً أو مسلمة مما شجع الرسول على الهجرة إليها، ويشجعه إلى الانتقال إلى مرحلة المواجهة بعد أن أذن الله له بها في بدر وأحد والخندق^(٥).

(١) «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى آيين عن الله ما يعثني به»، ابن هشام ج١/ ٣٨٥-٣٩٠، السيرة النبوية ج١/ ٩٣-١٠٥، الإشارة ص ١٤٢-١٥٠، الفصول ص ٧٠-٧٤، السيرة الحلبية ج٢/ ٣-٥٦، نور اليقين ص ٥٨-٦٠، مختصر سيرة (٢) ص ١٥٢-١٥٧، معجز محمد ج١/ ١١٧-١٢٢، السيرة النبوية ص ١٣٨-١٤١، سيرة الرسول ص ٤٧، الرحيق المختوم ص ١٣٠-١٤٢.

(٢) «يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم»، ابن هشام ج١/ ٣٨٧.

(٣) السابق ج١/ ٣٨٩، ألفية السيرة ص ٥٥-٥٦.

(٤) «هل لكم في خير مما جئتم له؟ ... أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب»، ابن هشام ج١/ ٣٩٠-٣٩٦، السيرة النبوية ج١/ ١٠٥-١١١، ابن خلدون ص ١٠١-١٠٤، ألفية السيرة ص ٦٦-٦٧، حياة محمد ص ١٦٩-١٧٩، نور اليقين ص ٦٠-٦١، سيد الأنام ص ١٥٥-١٥٨، مختصر سيرة (٢) ص ١٥٧، السيرة النبوية ص ١٤١-١٤٩، خاتم الأنبياء ص ٧٥-٨٢، صحيح السيرة ص ١٤٥-١٤٧.

(٥) ابن هشام ج١/ ٣٩٦-٣٩٩، السيرة النبوية ج١/ ١١١-١١٢.

ثم تواعدت قريش في العقبة الثانية بعد أن خرج الأنصار إلى الحج. وقد اقترح أحدهم الصلاة إلى الكعبة قبل أن تتحول فيما بعد القبلة من القدس. وكان الرسول قبل خروجه من مكة يصلي، والكعبة وبيت المقدس في نفس الاتجاه. وكان الحاضرون في العقبة الثانية ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين. وعاهدوا الرسول^(١). واختاروا اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس كفلاء على قومهم مثل كفالة الحوارين لعيسى ابن مريم وكفالة الرسول لصحبه^(٢). وكانت المبايعة على الحرب والسلام، والبيعة على نقص الأموال وهلاك الأشراف. والوفاء بالعهد جزاؤه الجنة، وعدم الوفاء به جزاؤه الخزي والعار. وخرج الشيطان بأعلى صوت يحذر قريش من هذا الصابي الذي اجتمع على حربهم. فتوعدده الرسول بالانتقام منه^(٣). فالشر لا يستسلم للخير. يقاوم الغدر والخديعة والإثارة. وقد استعجل المبايعون الإذن بالحرب ولكن الرسول طلب الانتظار حتى يأتيه الأمر. وبعد عودة المبايعين من قريش غضبت عليهم لزرع فتيل الحرب بينهم. وأوثقوا واحدا منهم. وأدخلوه مكة. وأوسعوه ضربا. فخلصه مجاوره^(٤).

وكانت شروط البيعة في العقبة الأخيرة غير شروط النساء في العقبة الأولى على السلم لأن الله لم يكن قد أذن بالحرب بعد. فلما أذن الله بها كانت الشروط الجديدة على حرب الأحمر والأسود في مقابل الجنة. كانت البيعة الأولى على السلم، السمع والطاعة في العسر واليسر والكراهة والأثرة، وعدم منازعة الأمر أهله، وقول الحق أينما كان، وعدم الخوف في الله لومة لائم^(٥).

(١) قال لهم الرسول «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، ابن هشام ج١/٤٠٢، «بل الدم الدم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني. أحارب من حاربتكم، وأسلم من سلمتكم»، «اخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم»، ابن هشام ج١/٤٠٢-٤٠٣.

(٢) «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى ابن مريم. وأنا كفيل على قومي». السابق ج١/٤٠٥.

(٣) وقال له «أستمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك»، السابق ج١/٤٠٦، البستي ج١/١١٨-١٣٧.

(٤) «ارفضوا إلى رجالكم. لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رجالكم»، ابن هشام ج١/٤٠٧-٤١٠، السيرة النبوية ص ١٥٠-١٥٦، صحيح السيرة ص ١٤٧-١٥٧، الرحيق المختوم ص ١٤٣-١٥٧.

(٥) ابن هشام ج١/٤١٠-٤١٢.

وكان أحد مشركي قريش يعبد صنما من خشب. ويأتي المسلمون ليلا ويضعونه في إحدى مقالب القاذورات مقلوباً رأساً على عقب ثلاث مرات. والمشرِك يغسله ويظهره. وفي المرة الرابعة علق على رأسه سيفاً للدفاع عن نفسه. فأخذهُ المسلمون ووضعوه في مقلب القاذورات وعلقوا عليه بـدَل السيف كلباً ميتاً. فأسلم بعد ذلك بعدما شاهد بالتجربة أنه صنم لا ينفع ولا يضر كما فعل إبراهيم مع أصنام قومه وعلق الفأس على رقبة كبيرها. وكان الرسول يبايع النساء دون مصافحتهن^(١). وحذر الرسول من داء البخل أحد المتحولين إلى الإسلام^(٢).

وفي هذا الوقت المبكر تنبأ الرسول بحرب الفرس والروم. فالبداية التاريخية تنتهي بنهاية تاريخية. كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم نصارى على فارس لأنهم مشركون. وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس لأنهم مشركون على الروم^(٣).

وقد دخل القرآن في حوار عقائدي مع المشركين. فقد حاججهم حول الأسباب الموجبة إلى إرسال الرسل: تسلط إبليس على بني آدم، إقامة دين الله في الأرض، إقامة الحجّة على الناس. وكانت عبادات العرب تقوم على الشرك. ووصفت قريش الرسول بالساحر. وصدقت الجن بالرسالة. ويعطي القرآن أدلة إثبات البعث. فإنكار البعث يتطلب إنكار النشأة الأولى، والله خير من الشرك. وهناك براهين على قدرة الله. ويناقش القرآن الموانع والأعذار التي يحجب بها الملأ من قريش عن قبول الدعوة منها تعطيلهم وسائل الإدراك عن قبول الحق، وتدارس الدين^(٤).

(١) قال الرسول لمن «اذهبن فقد بايعتكن»، السابق جـ ١/ ٤٢٢.

(٢) السابق جـ ١/ ٤١٨، مختصر سيرة (١) ص ٨٢، سيرة الرسول ص ٤٧-٥٧.

(٣) «الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ تَحْتِ غَلَبِهِمْ سَيَوَلُّونَ». صحيح الرسالة ص ٢٣٢.

(٤) «محور الدعوة الإسلامية، مبحث لما دار بين قريش ودعوة الإسلام»، سيد الأنام ص ١١١-١٥٣.

الفصل الثاني

انتشار الرسالة

١ - الهجرة

يعني «انتشار الرسالة» خروجها من السر إلى العلن، من تحت الأرض إلى فوق الأرض، من المرحلة المكية إلى المرحلة المدنية، من العقيدة إلى الدولة، مرحلة الغزوات والمواجهة وانتشار الإسلام في كل أرجاء الجزيرة العربية، وانتقاله إلى الشام شمالاً واليمن جنوباً. وقد تكون هذه هي كل المراحل، من الهجرة حتى الوفاة، وهو تاريخ المجاهدين في سبيل الله^(١). انتظر الرسول بمكة حتى يؤذن له بالخروج^(٢). وكان قوم قد ارتدوا عن الدين الجديد لما أصابهم من عذاب فنزل القرآن عاذراً إليهم^(٣). فالإيمان لا يكون إلا عن اقتناع واختيار. وقد يكون الإذن من الله في المنام^(٤). وكانت الهجرة قرابة

(١) ما اشتهر من سيرته إلى وفاته، سيرة النبي ص ٢٥٣-٣٩٤، السيرة الحلبية ح ٢/٥٧-١٢٨، نور الأبصار ص ٢٢، إسعاف الراغبين ص ٣٠-٣٧، حياة محمد ص ١٨٠-١٨٦، نور اليقين ص ٦٢-٧٢، الأسوة الحسنة ح ١/٢٢٢-٢٤٨، سيد الأنام ص ١٥٤-١٧٩، المغازي ص ١١٤، مختصر سيرة (١) ص ٧٩-٨٠، مختصر سيرة (٢) ص ١٦٠-١٧٦، معجز محمد ح ١/٧٣-٩٥، السيرة النبوية ص ١٥٩-١٦٥، سيرة الرسول ص ٢٥-٢٩/٥٨-٦٣، السيرة النبوية ص ١٥٣-١٧٠، خاتم الأنبياء ص ٨٣-٩٦، صحيح السيرة ص ١٥٩-١٨٢، خير الوري ص ٧٦٠، رسول الحرية ص ١٣٠-١٤٢، الرحيق المختوم ص ١٥٥-١٧٤، محمد ص ٢٦٢-٢٧٦.

(٢) قال الرسول «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمنون بها». ابن هشام ح ١٤٢٤، البستي ح ١/١٢٧-١٣٩، ح ٢/١٤٧-١٥٠.

(٣) «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، ح ٤٣٠، ابن خلدون ص ٣٠-٣٨، ١٠٧-١١٠، عيون الأثر ص ٢٨٦-٣٧٧، خير العباد ص ٥٢-٦٤، الإشارة ص ١٥١-١٧٥، الفصول ص ٧٥-٧٨، ألفية السيرة ص ٦٧-٦٨، السيرة النبوية ص ١٦٨-١٧٨، عبقرية محمد الإدارية، عبقرية محمد ص ٩٥-١٠٣.

(٤) «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وحلي إلى أنها اليمامة فإذا هي المدينة يثرب»، سيرة النبي ص ٢٠٦-٢٠٧.

ودعوة. فبنو النجار أخوال عبد المطلب^(١). والهجرة مؤقتة. خطوة إلى الوراء من أجل خطوة إلى الأمام. فلا هجرة بعد الفتح^(٢). ليست دائمة كما هو الحال في هجرات اليوم الشرعية وغير الشرعية، هجرة الأوطان. ولا يهيم المهاجرون بل الهجرة، لا يهيم الأفراد بل القضية^(٣). لا يهيم أول من مات في المدينة ولا أول من ولد^(٤).

وقد تأخر علي وأبو بكر في الهجرة حتى يؤذن لهما مع الرسول بالهجرة. وكان الرسول يرجو أبا بكر بعدم العجلة. ربما يجعل الله له صاحباً^(٥). واجتمع الملا من قريش وتشاوروا في أمر الرسول. وطبقا للرواية اعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ودعوه للتشاور معهم. فرفض اقتراح حبسه في الحديد لأن قومه سيخرجونه. ورفض النفي من البلاد فلعله يعود بمنطقة وحلاوة حديثة مع بعض أحياء العرب. وقبل ما اقترحه أبو جهل بأن تجيء العرب من كل قبيلة بفتى بيده سيف ونزلوا نزلة رجل واحد عليه وهو نائم. وطبقا للرواية أخبر جبريل الرسول بما عقد العزم عليه وطلب منه عدم البيات الليلة في منزله. فطلب من علي أن ينام في فراشه بدلا منه. ولما خرج الرسول عليهم قذفهم بحفنه من تراب. وفي ذلك نزل القرآن^(٦). فلما أدركوا ذهبوا إلى الفراش فوجدوا عليا. وفي تربص المشركين بالرسول نزل القرآن^(٧). إبليس يساعد قريش، وجبريل يساعد الرسول، واحدة بواحدة. الشر يساعد الشر، والخير يساعد الخير.

وأتى الإذن للرسول بالهجرة مع صاحبه ووصلا إلى غار ثور. وكانت ابنة أبي بكر أسماء تأتيها بالطعام في نطاقها فسميت ذات النطاقين. ومكثا ثلاث ليال. وكان ابنا أبي بكر يرعيان الغنم بالنهار ويأتیان بأخبار قريش للرسول وصاحبه بالليل. وركبا بعيرين. وضرب أبو جهل أسماء ضربتين أوقعت قرطياها عندما أنكرت أنها تعرف أين

(١) وأنزل على بني النجار أخوال عبد المطلب. أكرمهم بذلك، سيرة النبي ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) هجرة المحافل ص ١٣٩-١٤١.

(٣) في ذكر أول من هاجر وبعض مشاهير المهاجرين، السابق ص ١٣٦-١٣٩.

(٤) السيرة النبوية ص ٢١٣-٢١٤.

(٥) ابن هشام ح ١/ ٤٣٤-٤٣٨.

(٦) ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، السابق ح ١/ ٤٣٧.

(٧) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُجْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، السابق ح ١/ ٤٣٧.

أبوها. وسأل جدها إذا كان أبو بكر قد ترك شيئاً من ماله بعد أن أدرك أنه أخذه كله معه فوضعت له أسماء حجارة في كيس وأوهمته. فضحكت الصغيرة على الكبير، ونادى هاتف من الجن فيما تقول الرواية ينشد أصدقاء الرسول وصاحبه أين هما. ويدل على مكانهما شعرا. فالجن شعراء. تعرف الرمز والإشارة^(١). والجن وسيط بين الخير والشر، بين إبليس وجبريل. لم يدل على مكان الرسول وصاحبه ولم يخفه بل رمز إليهما^(٢).

وركب سراقه إثر الرسول ليحصل على الجائزة، مائة ناقة. وعثر فرسه مرة فضرب القداح، ومرة ثانية. وفي المرة الثالثة سقط وغرزت يده في الأرض فعرف أنه لن يصل إليهما^(٣). فأسلم سراقه وكتب له أبو بكر كتاباً ظل معه حتى يوم دخول مكة. فأوفى الرسول بوعده. وانتظره أهل المدينة كل يوم من الصباح إلى المساء في القبط حتى ظهر وحط في قباء مع صحبه. وبنى أول مسجد في قباء حيث ناخت الناقة حيث اختارت لأنها مأمورة^(٤). وبنى مسجد المدينة بتعاون الرسول والمسلمين. وتنبأ بقتل عمار من الفئة الباغية. وهو أول من بنى في الإسلام، وارتجز عليّ وهو يمني. وتلاحق المهاجرون إلى الرسول بالمدينة. وانتشر الإسلام فيها. وألقى الرسول عدة خطب له. الأولى حث فيها المسلمين على الحرص على الجماعة كالراعي على غنمه، والعمل الصالح. وقد أتاه الرسول وحذره. فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمره فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فالحسنة بعشر أمثالها حتى سبعمائة ضعف. والثانية حث فيها على خير الأعمال كتعبير عن عبادة الله وتقواه وعدم الشرك به، وتصديق القول باللسان في العمل بالجوارح، والحرص على عهد الله وميثاقه. فالله لا ينتقض عهده. فالإيمان هو العمل الصالح. والثالثة كتابه لتوحيد المهاجرين والأنصار، وموادعة اليهود ومهادنتهم بإقرارهم على دينهم وأموالهم. فهم أمة واحدة. يتعاملون بالقسط فيما بينهم، طائفة

(١) السابق ١/ ٤٤٠-٤٤١.

(٢) بهجة المحافل ص ١٢٨-١٣١، سيرة النبي ص ٢١٠-٢١١، حياة محمد ص ١٨٠، سيد الأنام ص ١٥٨-١٦٢، مختصر سيرة (١) ص ٨٦-٨٧، سيرة الرسول ص ٦٤-٧٥، الرحيق المختوم ص ١٦٤-١٦٦.

(٣) ابن هشام ١/ ٤٤١-٤٥٢.

(٤) «اتركوها فإنها مأمورة» عدة مرات، السابق ١/ ٤٤٦-٤٤٧، سيرة النبي ص ٢٥٤-٢٥٥، حياة محمد ص ١٨٣، سيد الأنام ص ١٦٢-١٦٨، مختصر سيرة (١) ص ٨٨، السيرة النبوية ص ١٦٨-١٦٩، صحيح السيرة ص ١٧٦.

طائفة. ويتكرر النداء عدة مرات بنفس الألفاظ والعبارات، «وكل طائفة تفدي عانيها (أسيرها) بالمعروف والقسط بين المؤمنين». وأهم شيء هو أداء الأمانات إلى أهلها، دية أو فداء والتخفيف عن المثلث بالدين الكثير العيال. فالإسلام أتى لإقامة العلاقات بين الناس على أساس من العدل، وتعود روح حلف الفضول. فالمؤمنون جماعة لحماية العدل ضد الظلم. بعضهم مولى بعض. بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. والجار كالنفس غير مضار ولا آثم^(١). وتحققت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار «تآخوا في الله أخوين أخوين». وأخى الرسول عليا. والغائب أوصى بديونه للحاضر.

وفي المدينة تأسس الإسلام، وبُني أول مسجد. وأقيمت الصلاة. وفرضت الزكاة والصيام. وطبقت الحدود. ونفذ الحلال والحرام. وقد اقترح أن يقام للصلاة بيق كاليهود أو بناقوس كالنصارى. ورأى أحد المسلمين رؤية الأذان، وقبلها الرسول. وعلمها بلال. وفي رواية أخرى عمر هو الذي اقترح الأذان بعد أن سبقه الوحي إليه. وكان بلال يزيد من عنده «اللهم إني أحمدك وأستعينك على قریش أن يقيموا على دينك» إحساسا بأن الصراع بين الإسلام وقریش لم ينته بعد، بعد الهجرة، بل هو دائم ومستمر.

ودخل الإسلام من كان ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وهم بالنصرانية، واتخذ لنفسه في بيته مسجداً لعبادة رب إبراهيم بعد أن كره الأوثان وفارقها حتى أتى الإسلام فاعتنقه. فقد كان هناك استعداد طبيعي لقبوله حين ظهوره. النصرانية أفضل من اليهودية لطائفتها، والإسلام لعدالته الاجتماعية أفضل من النصرانية لترهبها^(٢).

(١) ابن هشام ج١/ ٤٥٢-٤٥٤، ابن خلدون ص ١١٠-١١١.

(٢) السابق ج١/ ٤٥٥-٤٦٢، البستي ج١/ ١٤٠-١٥١، خير العباد ص ٦٧-٧٣، الإشارة ص ١٧٧-١٧٨، الفصول ص ٨١، بهجة المحافل ص ١٣٥-١٣٦ «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو يسلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم»، «أوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم كرشي وعبتي. قد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم. فاقبلوا بحسنهم وتحابزوا عن مسيئهم»، سيرة النبي ص ٢٠٦، السيرة الحلبية ج٢/ ١٢٩-١٦٨، حياة محمد ص ١٨٤-١٨٧/ ١٩٥-١٩٦، نور اليقين ص ٧٠، سيد الأنعام ص ١٦٧-١٧١، مختصر سيرة (١) ص ٩١-٩٤، مختصر سيرة (٢) ص ١٧٦-١٧٨، السيرة النبوية ص ١٧٨-١٩٢. فضل المسجد النبوي ومسجد قباء، السيرة النبوية ص ١٩٣-١٩٥/ ٢٠٠-٢٠٢، خاتم الأنبياء ص ٩٧-١٠٢، صحيح السيرة ص ١٩٠-١٩١/ ١٩٤، الرحيق المختوم ١٨٤.

وقد اعتل أصحاب الرسول بعد الهجرة إلى المدينة. أصابتهم الحمى. فدعا الرسول إلى إخراجها من المدينة ونقلها بعيدا عنها إلى أقاصي الشام وليس إلى القضاء عليها كلية. وبسببها جاءت صلاة القاعد تخفيفا على صلاة القائم^(١). وهو ما يسمى هذه الأيام الحجر الصحي «الكارنتينة»، وإبعاد المرضى في مناطق العزل. كان ذلك يسمى عند القدماء الدعاء، وعند المحدثين قرار وزارة الصحة.

٢- عداء اليهود ونفاقهم

وبالرغم من ذلك، بدأت معادة اليهود إما نفاقا أو جهرا. فلما مات أحد المسلمين وهو يبنى المسجد بالذبحة أو الشهقة قالت اليهود لو كان الرسول نبيا لما مات صاحبه، وكلاهما لا يملكان من الله شيئا^(٢). ونصب أحبار اليهود الرسول العداوة بغيا وحسدا وضغنا لما خص الله العرب ما أخذ منهم بسهولة. وكانوا يسألون الرسول ليتعتونه، ويلبسون الحق بالباطل^(٣). وكان القرآن يرد عليهم فيما يسألون فيه إلا مسائل قليلة كان المسلمون يسألون عنها. ومع ذلك أسلم منهم الأتقياء^(٤). حبر عالم سمع عن الرسول وعرف صنعته واسمه وزمانه. كبر هو وأسرته لأخذ موسى ودينه، ولإثبات أن اليهود قوم بهت طلب من الرسول إخفاءه وسؤالهم عنه. فلما فعل مدحوه. ولما ظهر عابوه^(٥). وشهدت أخرى على أنه الرسول بعد أن شهد أبوها وعمها بين أنفسهما أنه الرسول ولكنهما يعادانه طيلة حياتهما^(٦).

(١) السابق حـ ١/ ٥٢١-٥٢٣، البستي حـ ١/ ١٥١-١٥٧، بهجة المحافل ص ١٤٢-١٤٣، نور اليقين ص ٧١، مختصر سيرة (٢) ص ١٩٤، السيرة النبوية ص ١٩٥-١٩٧، صحيح السيرة ص ١٩٣.

(٢) ابن هشام حـ ١/ ٤٥٧.

(٣) السابق حـ ١/ ٤٦٢-٤٦٤.

(٤) مثل عبد الله بن سلام، السابق حـ ١/ ٤٦٤-٤٦٧.

(٥) هو مخبرق الذي قال عنه الرسول «مخبروق خير يهود»، السابق حـ ١/ ٤٦٦.

(٦) هي صفية بنت حيي بن أخطب، السابق حـ ١/ ٤٦٦-٤٦٧، عيون الأثر ص ٣٣٥-٣٥١، الإشارة ص ١٨٣-١٨٤، فيما لقي النبي وأصحابه من أذى اليهود والمنافقين، بهجة المحافل ص ١٤١-١٤٢/ ١٥٨-١٦٢، حياة محمد ص ١٩١/ ١٩٨-٢٠٠، نور اليقين ص ٧٥-٧٩، الأسوة الحسنة حـ ٢/ ٢٥١-٢٧٨، مختصر سيرة (٢) ص ١٨٧-١٩٤، السيرة النبوية ص ١٩٧-١٩٩/ ١٧٣-١٩٢/ ٢٠١-٢٠٥، خاتم الأنبياء ص ١٠٢-١٠٩، الرحيق المختوم ص ١٩٢-١٩٥، محمد والقرى المضادة ص ١١٩-١٣٠/ ٢٤٦-٢٧٧.

ومن الأخبار من أسلم نفاقاً^(١). وعاب على الرسول كيف لا يستطيع إرجاع ناقته وهو يدعي أنه يأتيه خبر من السماء. ورد عليه الرسول أنه لا يعلم إلا ما علمه الله. وقد دله الله عليها، حبستها شجرة بين الشعب^(٢). مع أنها واقعة محددة يستطيع الرسول البحث عنها دون تدخل العلم الإلهي. ويستطيع اليهودي الاعتماد على نفسه في البحث عنها دون سؤال الرسول. وقد نزلت سورة بأكملها في المنافقين اليهود مثل أول سورة البقرة. كما نزل الوحي في منافقي الأوس والخزرج^(٣).

وقد اجتمع نفر من اليهود للإيمان بالرسول صباحا والكفر به مساء حتى يلبسوا عليه الدين، ويرتد المسلمون مثلهم. فرد عليهم القرآن بأنه لا داعي للبس الحق بالباطل بالحق وهم يعلمون^(٤). وطلبوا ألا يؤمنوا إلا لمن اتبع دينهم. فاليهودية لليهود، والنصرانية للنصارى، ولا تحول من دين لآخر، والدين كله لله. يحاسب كل أهل دين بدينهم.

وعرض أهل الكتاب، يهودا ونصارى، على الرسول عبادته. كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم. فرفض الرسول لأنه لا يعبد إلا الله. ونزل القرآن داحضا العرض^(٥). فلا يوجد دين من عند الله يأمر الناس بعبادة غير الله بل بعبادة الله وحده. ولا يوجد ذلك في

(١) ابن هشام ج١/٤٧٣-٤٧٤.

(٢) وعندما مات قال الرسول «لقد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين»، السابق ج١/٤٧٤.

(٣) «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْإِزْهَادِ فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَهَا رَبِّحْتُمْ نَجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»، السابق ج١/٤٧٥-٤٧٨.

(٤) «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَآخَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ يَتَّبِعِ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»، السابق ج١/٤٩٤.

(٥) «مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ»، ابن هشام ج١/٤٩٥.

كتاب أو في نبوة أو حتى في الحكمة الإنسانية. ثم عرضوا عبادة الملائكة. ورفض القرآن أيضاً، لا الملائكة ولا الأنبياء، لأن الدين يأمر بالإيمان بالله الواحد وليس بالشرك وتأليه الملائكة والأنبياء^(١). وقد ذكرهم الرسول بالميثاق الذي أخذ مع أنبيائهم لتصديقه^(٢). فالوحي وحدة واحدة، سلسلة متصلة. السابق منها يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، وقد أخذ الله ميثاقاً من أهل الكتاب لبيانهم للناس وعدم كتمانهم فتركوه لأنهم يحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا^(٣). والإيمان بحلقة توجب الإيمان بكل الحلقات، ومع ذلك جحد اليهود ما عرفوا. وأنكروا ما لديهم. وأصروا على الكفر^(٤). وحصروا اليهودية في اليهود. وجعلوها ديناً قومياً لهم مع أنها حلقة من حلقات وحي واحد متصل.

واجتمع منافقو الأنصار مع اليهود. لذلك هاجم القرآن المنافقين قدر هجومه على اليهود، وانتهى معظمهم إما بالتوبة أو بالقتل. وكان جبريل حسب الرواية أحياناً هو الذي يبلغ الرسول بما يقوله المنافقون أو اليهود. وهم الذين ساهموا في بناء مسجد الضرار الذي قام على النفاق وليس على التقوى^(٥). فالنفاق هو السلوك الجامع بين بعض الأنصار واليهود بصرف النظر عن دين كل فريق. وقام الرسول بطرد المنافقين من المسجد الذي كانوا يتآمرون فيه بصوت منخفض^(٦). وحدث ذلك عنوة. واحداً

(١) ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَوْلِيَاءَ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، السابق

٤٩٥/١ حـ
(٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾،

السابق ٤٩٦/١ حـ
(٣) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ فَبَدَّلُوا وَرَاءَهُ ظُهُورَهُمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ، لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، السابق ٤٩٩/١ حـ.

(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهَافِرْدَهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، السابق ٥٠٠/١ حـ.

(٥) السابق ٤٦٧-٤٧٣ حـ.

(٦) نزل في جلاس ﴿يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ. (وفي الحارث بن سويد) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، وفي بتل بن الحارث

تلو الآخر^(١).

ويأتي نقد المنافقين بنفس قوة فضح اليهود. وكان السبب في التفاق دخول الإسلام اضطرابا من علية القوم بعد أن دخل عامة الناس، وسلب سيادتهم وسلطانهم. والبعض أثر البقاء على كفره. وكان يلقب بالراهب. والأولى أن يلقب بالفاسق. واختلف مع الرسول على الحنيفية التي اعتنقها الراهب والحنيفية التي جاء بها الرسول. واختصم هو وبعض من قومه في الميراث. واحتكم إلى قيس الروم الذي حكم بأن يرث أهل المدر أهل المدر، وأهل الوبر أهل الوبر. أما المنافق فقد طلب من الرسول أن يدعو بحديثه الحلو في بيته وليس على الملأ. وعذره المسلمون لأنه كان على وشك أن يكون سيد قومه^(٢).

وحذر القرآن اليهود من إنكار ما يجدونه عندهم في التوراة مصدقا لما معهم^(٣).

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلٍّ أَدْنَىٰ خَيْرٍ لَّكُمْ يَوْمَ اللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال فيه الرسول «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فليُنظر إلى بئس بن الحارث». وفي أبي حنيفة بن الأزعر «وطائفة قد أحببتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هلم لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما فعلنا ما هنا»، «إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا»، وفي وداعة بنت ثابت «ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون»، وفي عمرو بن مالك بن الأوس «يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا»، وقال فيه الرسول «دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصرة». وفي أبي طعمه سارق الدرعين «ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيبا»، وفيمن أراد الاحتكام إلى الكهين «الم تر إلى الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا»، وفي الجدي بن قيس «ومنهم من يقول أئذني لا فتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين»، وفي عبد الله ابن أبي راس المنافقين «الم تر إلى الذين نافقوا يقولون لم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجنكم لتخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قولنكم لننصرفنكم والله يشهد إنهم لكاذبون».

(١) ابن هشام ١/ ٤٧٥-٤٧٥.

(٢) مثل: ابن أبي، السابق ١/ ٥٢٨-٥٢١.

(٣) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْجِعُون، وَأَمُوا بِيَا أَنْزَلْتُ مَصَدَقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَبُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُون، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ، أَنْتُمْ وَالنَّاسُ بِالْبَاطِلِ وَتَسْتَوْنِ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، السابق ١/ ٤٧٩-٤٨٠.

وكانوا ماديين مع إبراهيم، طلبوا منه أكثر من طعام^(١). تركوا الأعلى وطلبوا الأدنى. لا يمكن أن يؤمنوا للمسلمين لأنهم كانوا يؤمنون بما أوتوا أول النهار ثم يكفرون به آخره. ويحرفون الكلم عن مواضعه. يتعاملون مع المسلمين كمسلمين فإذا خلوا إلى أنفسهم تعاملوا كيهود. ينكرون ما أرسل الله إليهم. وتمنوا أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة. ولم يتخذوا عند الله عهدا بذلك. والله لا يخلف وعده. لقد أخذ الله معهم عهدا بعدم عبادة أحد إلا إياه وبالوالدين إحسانا. فعبادة الله تظهر في احترام الأقرباء مثل الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، ومعاملة الجميع معاملة طيبة. وعقد الله معهم ميثاقا ألا يسفكوا دماء أحد أو إخراج أحد من دياره أو العدوان على أحد، ولكنهم يؤمنون ببعض الكتاب الذي يعطيهم الحقوق، ويكفرون ببعض الآخر الذي يضع عليهم الواجبات.

وقد كتم اليهود ما هو مكتوب عندهم في التوراة بالرغم مما فيها من تحريف^(٢).
فالحقيقة ناصعة البياض يصعب تحريفها أو طمسها في دين يعتمد على الخلاص في

(١) ﴿لَنْ نَضْرِبَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَغْلَيْهَا وَقَتَائِهَا وَقَوْمِهَا وَعَدَسِهَا وَيَصْلِيهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾، ﴿أَتَنْتَضِمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُحَدِّثُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَتَطَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْمُذْنِبِينَ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ إِسْرَارٌ فَمَا دُونُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ﴾،

السابق ح ١/ ٤٨١-٤٨٤.

(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، السابق ح ١/ ٤٩٣.

المستقبل. وإذا دعاهم النبي يقولون إنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم حتى ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. فالتقليد ليس طريقا للإيمان^(١). يلجأون إلى الماضي هربا من المستقبل، وذريعة لعدم الإيمان بالحاضر. ولما سأل اليهود الرسول على أي ملة هو وأجابهم ملة إبراهيم وقالوا إن إبراهيم كان يهوديا طلب الرسول الاحتكام إلى التوراة فرفضوا. ونزل القرآن فاضحا لهم، إن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا بل حنيفا مسلما. فالدين الطبيعي أساس ديانات الوحي، اليهودية والمسيحية والإسلام^(٢). واختلف اليهود والنصارى على ملة إبراهيم. تدعي كل فرقة أن إبراهيم كان من ملتها يهوديا أو نصرانيا. فرد عليهم القرآن بأنه كان حنيفا مسلما. وإن أولى الناس به من يتبعه مثل الرسول والمسلمين^(٣). فالاتباع بالفعل وليس بالقول.

ولقد أتى موسى بالبينات، وتوالت من بعده الرسل حتى عيسى ابن مريم. فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه أو قتلوه. وقالوا إن قلوبهم غلظ موصودة. وقد لعنهم الله بكفرهم وقلة إيمانهم. وقد جاءهم الآن كتاب مصدقا لما معهم. وكانوا من قبل يطالبون به. وهم الآن يكفرون به. والله ينزل على من يشاء من عباده ولكن حقدوا وحسدوا أن ينزل الوحي على غيرهم. ويدعون أن الآخرة لهم. ولا يتمنون الموت للحصول عليها خوفا مما قدمت أيديهم. والواقع أنهم أحرص الناس على هذه الحياة الدنيا. ويرد كل منهم أن يُعمر ألف سنة. ولن يرحمه ذلك من العذاب. وهم أعداء جبريل. وسيظل جبريل ينزل على الرسول^(٤).

(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾، السابق حـ/ ٤٩٣.

(٢) ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، السابق حـ/ ٤٩٤.

(٣) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، هَآتَمَ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيهَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيهَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق حـ/ ٤٩٤.

(٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ النَّبِيَّاتِ وَآتَيْنَاهُ بَرُوحَ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذِبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ، وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

وادعى اليهود أن الله ما أنزل شيئا على بشر بعد موسى. فرد عليهم القرآن. وأخبر جماعة أخرى أنهم يشهدون على أنه رسول الله^(١). فاليهود قسمان: قومي يجعل النبوة قاصرة عليهم، وإنساني يجعل النبوة فيهم وفي غيرهم، خاصة وعامة. وكان اليهود يذكرون الرسول لقريش قبل بعثته ثم أنكروه بعدها لأن الله لم يرسل نبيا بعد موسى^(٢). في حين أن الله أرسل عيسى بعد موسى ومحمدا بعد عيسى. فموسى ليس خاتم الأنبياء. النبوة مستمرة بعده، ولما زنى أحد اليهود أرادوا أن يختبروا الرسول بتطبيق حد الرجم عليه. فإن طلب الجلد بحبل من ليف مطلي بقار ثم تسود الوجوه ثم الحمل على حارين بالخلف فهو ملك، وإن حكم بالرجم فهو نبي. فطلب الرسول إحضار علماءهم وسأل أحدهم فقال بالرجم فأمن بمحمد ثم كفر به فتزل القرآن يروي الحادثة^(٣). ثم اعترف اليهود بأن رجلا منهم زنى فأخفوا آية الرجم. ثم زنى آخر فحرفوها. فكان الرسول أول من أحيا آية الرجم وعمل بها بعد أن أوقفها اليهود.

وجحدوا نبوة عيسى في حين أن الرسول يؤمن بها أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون بهم دون تفريق بين أحد منهم^(٤). فالإسلام يصدق بجميع الرسل السابقين بالرغم من أنهم

يَسْتَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، بَشَرًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَرْزُلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءً وَبَغْضًا عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ»، السابق حـ ٤٨٥/١-٤٨٦.

(١) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ إِلَهِكَ يَعْلَمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»، السابق حـ ٥٠٢.

(٢) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، السابق حـ ٥٠٣.

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَجْزِيكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَبَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَبَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكُفْرٍ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلْيَضْحَكُوا هَلْ فِي الذَّنْبِ حَزَنٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»، السابق حـ ٥٠٤.

(٤) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّبِعُونَ مَثَلًا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ»، السابق حـ ٥٠٥-٥٠٦.

أرسلوا إلى بني إسرائيل. فكلهم من عند الله. وادعى اليهود أنهم وحدهم على حق مع أن الرسول على ملة إبراهيم. ويؤمن بأنبياء بني إسرائيل السابقين وبما في التوراة ولكن اليهود جحدوا ما بها من ميثاق، وكنتموا ما أمروا ببيانه للناس^(١). فالميثاق خاص بهم. وما زال صالحا في حين أن اليهود نقضوه من طرفهم، بقتل الأنبياء، وتكذيبهم، وعصيان التوراة. وسأل اليهود الرسول إذا كان يعبد إلها غير الله فنزل القرآن نافيا ذلك^(٢). فقد تصور اليهود الله يهوه، خاصا بهم، إذ أن لكل قوم إلها، وإن الله هو إله بني إسرائيل. وادعوا أن عزيز ابن الله فرد القرآن نافيا ذلك^(٣). كما ادعى النصارى فيما بعد أن المسيح ابن الله. والله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. وتهجموا على ذات الله عندما سألوا الرسول أن الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ وغضب الرسول وجاءه جبريل ليهدئ غضبه ونزل القرآن^(٤). وعندما طلب اليهود وصف ذراعه وعضده غضب الرسول ثانية فجاءه جبريل لتهديته ونزل القرآن^(٥). فاليهود بطبعهم مجسمون مشبهون منذ عبادة العجل الذهبي بعد مغادرة موسى لهم من آثار دين المصريين.

وقد سأل اليهود عن أربعة أشياء إن صدق في الإجابة عنها صدقوه وإن لم يعرفها كذبوه. الأولى كيف يشبه الولد أمه والنطفة من الرجل؟ ورد الرسول بأن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة. فأياها علت الأخرى كان لها الشبه. وهو تفسير علمي عليّ دون اللجوء إلى إرادة الله. والثانية كيفية النوم؟ فقال الرسول إن عينه تنام وقلبه يقظان. والثالثة ما الذي حرم إسرائيل على نفسه. فأجاب الرسول لحوم الإبل

(١) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَٰكِن كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكَ طُفْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَرُ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، السابق حـ/٥٠٦.

(٢) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ أَنتَهُمُ لَنَشْهَدَنَّهُ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلَهُ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، الَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابُ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ/٥٠٦.

(٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، السابق حـ/٥٠٧-٥٠٨.

(٤) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، السابق، حـ/٥٠٩.

(٥) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَّمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، السابق حـ/٥٠٩.

والبأنها مع أنها كانت أحب الطعام له لأنه اشتكى منها مرة وعُفي منها فحرمها على نفسه شكرا لله. والرابعة ماذا عن الروح؟ فأجاب الرسول جبريل. فرفض اليهود لأن جبريل عدو لهم، ملك يأتي بالشدة ويسفك الدماء ولولا ذلك لاتبعوا الرسول. فأنزل الله القرآن تأييدا له^(١). وكان الرسول قد كتب إلى يهود خيبر يخبرهم بأنه جاء مصدقا لما أتى به موسى وأخوه وأنهم يجدون ذلك في التوراة^(٢).

وقد تحدى اليهود الرسول بحساب الحروف في القرآن في أوائل السور. ورد عليهم القرآن بأن هذه متشابهات وأخرى محكمات^(٣). واليهود قد برعوا في حساب الحروف، ويريدون إحراج المسلمين، وإثبات جهلهم. وكانوا يستفتحون على قريش بمحمد قبل مجيئه. فلما جاء كفروا به^(٤). يقولون ما لا يفعلون. وهي سمة المنافقين الذين يقولون بالسستهم ما ليس في قلوبهم. ونبذوا عهد الله معهم، الإيوان بمحمد لما ظهر بينهم^(٥). وقال أحدهم للرسول إنه ما جاء بشيء يعرفه، وما أنزل الله عليه آية لاتباعه. فرد عليهم القرآن^(٦). يخالفون الحق الذي يعرفونه بعدم الاعتراف به علنا. وينكرون ما يؤمنون به. وقد سأله أحد اليهود بأن ينزل عليهم كتابا من السماء ليقروه، ويفجر لهم أنهارا

(١) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ... أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلْطَانٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ...﴾، السابق حـ ٤٨٦/١-٤٨٧.

(٢) ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مُنْجَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهم فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، السابق حـ ٤٨٧.

(٣) مثل ﴿الم﴾، ﴿المص﴾، ﴿الكر﴾، ﴿مِنهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، السابق حـ ٤٨٨-٤٨٩.

(٤) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، السابق حـ ٩٠/١.

(٥) ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ ٩٠/١.

(٦) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، السابق حـ ٩٠/١.

ليصدقته. فرد القرآن^(١). فطالما سألوا الأنبياء أكثر من ذلك حتى أرسل الله لهم يسوع المسيح، معجزة في ميلاده وحياته وموته ورفعته.

وطلبت اليهود من الرسول أن يطلب من الله أن يكلمهم حتى يسمعون كلامه فرد القرآن عليهم^(٢). وأشار إليهم مع الذين لا يعلمون حديثا وقديما. وقد كان مطلب اليهود دائما مطلبا حسيا لأنهم لا يؤمنون إلا بالبينات الحسية، ولم يتغيروا عبر التاريخ. ولم يتعلموا من التجارب السابقة. وظلوا على طبيعتهم الأولى. وسألوا الرسول ما الذي ولاه عن القبلية التي كان عليها وهو على دين إبراهيم؟ فلو عاد إليها لآمنوا به. ويشير القرآن إليهم باسم السفهاء. وقد جاء التحول بناء على بحث الرسول عن قبله واتجاه^(٣). ورغب في التميز عن اليهود، وتوجيه العرب نحو مكة، داخل شبه الجزيرة العربية من أجل الإعلان عن وحدتها واستقلالها^(٤). وليس الموضوع هو تغيير القبلية ولكن هو تمسك كل طائفة بدينها. وقبلتها ورفضها قبله ودين الطائفة الأخرى اتباعا لأهوائهم وليس للعلم. وهم يعلمون الحق الذي أتاهم من ربهم^(٥).

وطلبت اليهود من الرسول أن ينزل عليهم كتابا من السماء لأن ما معه ليس متسقا مع التوراة. فرد الرسول إن ما معه متسق لما معهم. ولئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به^(٦). ومقياس الاتساق عند اليهود هو التصديق بأن النبوة لم

(١) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، السابق حـ ٤٩٠/١.

(٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، السابق حـ ٤٩١/١.

(٣) ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَتَدَيَّ مِنْ يَشَاءِ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، السابق حـ ٤٩٢/١.

(٤) ﴿قَدْ نَرَىٰ تَوَلَّيَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتُوَلِّينَا قَبْلَةَ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، السابق حـ ٤٩٢/١.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ﴾، السابق حـ ٤٩٣/١.

(٦) ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، السابق حـ ٥٠٨/١.

تخرج منهم، وأن موسى آخر أنبيائهم. واستمرارا السؤال اليهود الرسول عن المستحيل، سألوا الرسول عن قيام الساعة. فرد عليهم القرآن بأن علمها عند الله^(١). ولا تأتي إلا بغتة، وعلى الإنسان أن يستعد لها طبقا للقول المشهور «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». بل إن أشرط الساعة كلها ظنية. هناك علامات ما مثل انشقاق القمر وهو ما يعني نهاية الكون كله والبشر جميعا، وأن لا يبقى على الأرض إنسان واحد يعبد الله. فقد انتهى الزمن، وانقضى العمل.

كان القرآن يذكر أهل الكتاب عامة واليهود خاصة. فقد كان اليهود أشد حسدا للمسلمين. يريدون ردهم عن الإسلام قدر استطاعتهم حتى لا يبقى في الميدان إلا اليهود وحدهم، عن ذرية إبراهيم، ولشعب الله المختار دون أن تتحول النبوة إلى شعب آخر حتى ولو كان من ذرية إبراهيم^(٢).

كان اليهود ينكرون دين النصارى، والنصارى تنكر دين اليهود، والنصرانية تطوير لليهودية، واليهودية تكتمل في النصرانية. وموسى مقدمة لعيسى، وعيسى اكتمال وتحقيق لموسى. والإسلام يعترف بالاثنتين^(٣). ويظل العداء بينهما في الاعتراف المتبادل وليس في نقل النبوة إلى شعب آخر. فالمسيح يهودي. أتى لبني إسرائيل. لم يأت لإلغاء الشريعة بل ليكملها بإبراز جوانبها الأخلاقية والروحية. ومع ذلك يشترك كلاهما في رد المسلمين إلى أحد الدينين السابقين. فهم أعداء فيما بينهم، أصدقاء حين معاداة المسلمين^(٤)، طبقا للمثل العربي الشهير «أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب». وقد

(١) «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، السابق حـ/٥٠٧.

(٢) «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْلَمُوا وَاصْضَعُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، السابق حـ/٤٩٠-٤٩١.

(٣) «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، السابق حـ/٤٩١.

(٤) «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، السابق حـ/٤٩١.

كشف القرآن عن هذه الموالاة المتبادلة بين اليهود والنصارى وعداوتهم للمسلمين وكما هو مشاهد الآن في التحالف بين الغرب وإسرائيل.

ولم تكن اليهود فقط ديناً ضمن أديان الجاهلية في شبه الجزيرة العربية، بل كان اليهود يمثلون قوة فيها، في الجنوب والشمال. عادوا الدين الجديد خوفاً على قوتهم وسلطانهم وإن كانوا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة. كانوا يحلمون بملك من الفرات إلى النيل ومازالوا حتى وضعوا الشعار كخريطة على مدخل الكنيسة الإسرائيلية. وكانت الحرب بين العرب واليهود سابقة على الإسلام. كان الصراع حول السلطة في شبه الجزيرة العربية بين قوتين في الداخل، العرب واليهود، وقوتين في الخارج الفرس والروم^(١).

وبوقعة من اليهود تناحر فريقان من المسلمين، وتواعدوا على القتال. فخرج الرسول إليهم معاتباً إياهم عودتهم إلى الجاهلية بعد أن هداهم الله إلى الإسلام، وأكرمهم به، وأنقذهم من الكفر، وألف بين قلوبهم^(٢). والمؤمنون من أي دين لا يحقدون على المؤمنين من دين آخر. فكلاهما شركاء في الإيمان. لذلك على المسلمين الحذر من اليهود، وعدم طاعتهم حفاظاً على وحدتهم من مؤامراتهم وغدرهم وبغيتهم الشر بالمسلمين. وادعى اليهود أنه ما آمن منهم بالإسلام إلا شرارهم. فرد القرآن عليهم بأنهم هم الأشرار، وأن من آمن بالإسلام منهم هم الأخيار^(٣). فمقياس الخير والشر عند اليهود هو الانتماء للقوم وليس الخير والشر في ذاته أي الأنانية وحب الذات وكرهية الآخر. ونهى القرآن عن

(١) ابن خلدون ص ١٥-١٧/٢٣/٢٨-٢٩.

(٢) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ، قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنِ آمَنَ تَتَّبِعْتَهَا بَعْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ آوَتْهُمُ الْكِتَابُ يُرِيدُواكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ابن هشام ج ١/٤٩٧.

(٣) ﴿لَيْسُوا بِسَوَاءٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، السابق ج ١/٤٩٨.

مباغطة اليهود لما كان بينهم وبين المسلمين من حلف وجوار^(١). كما نهى عن موادتهم^(٢). لأنهم يكرهون المسلمين، ويبيتون لهم الغدر. فالمودة لا تكون من جانب واحد، بل تكون متبادلة بين الجانبين. ومن ثم لا يجوز الاعتراف بهم والصلح معهم وهم مازالوا محتلين لأراضي المسلمين. يعتدون عليهم، ويقتلون أطفالهم ونساءهم وشيوخهم، ويسجنون شبابهم في فلسطين وسوريا وجنوب لبنان منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن. وإذا لقي اليهود المؤمنين قالوا آمنا. وإذا خلوا بعضهم لبعض أنكروا ما آمنوا به^(٣). يعيشون بشخصية مزدوجة، ظاهرها غير باطنها، ولسانها غير قلبها، وقلبها غير فعلها.

وقد ألب بعض اليهود الأحزاب من قريش ضد محمد. وادعوا أنهم أحبار اليهود وأهل العلم. وأفتوا بأن دينهم خير من دينه، وأن قريشا أهدى مما أتى به. فجاء رد القرآن^(٤). يوقعون بين الرسول وقريش. ويصدون قريشا عن الدين الجديد. وهم أنفسهم لا يؤمنون بآلهة قريش ولا عباداتهم. وتأمروا على الرسول بالقاء صخرة عليه. وعلم الرسول، ونزل القرآن كاشفا لهم ومخبرا الرسول بما عقدوا العزم عليه^(٥). لا يعرف اليهود إلا التآمر والغدر والاغتيال. ويحشون المواجهة المباشرة. فهم إلى النفاق أقرب منهم إلى الإيمان. وادعوا أنهم لا يخافون الرسول لأنهم أبناء الله وأحباؤه،

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَاسِتُمْ أَوْلَاءِ مُجِبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾، السابق حـ/١/٤٩٨.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُورًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرِ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ... وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾، السابق حـ/١/٥٠٦.

(٣) ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَهْدَكُمْ عَلَيْهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي قُلُوبِهِمْ كِبَارًا يَغْتَظِقُونَ﴾، السابق حـ/١/٤٩٨.

(٤) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَئِكَ هُمُ الرُّسُلُ أُولَئِكَ عَلَى الدُّنْيَا أَوْلَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْيُنُكُمْ﴾، السابق حـ/١/٥٠١.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْكَرُوا كَيْفَ إِتَيْنَاهُمْ كِتَابَهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ/١/٥٠٢.

ومن صفات اليهود البخل وأمر الناس به أو الإنفاق رياء^(٢). ومن صفاتهم حجب الحق، ولي اللسان به، والطعن فيه، والعيب عليه^(٣). وأسقطوا تصورهم هذا على الله فادعى أحدهم أن الله فقير واليهود أغنياء. فنزلت الآية ردا عليه^(٤). إذ يتم تصور الله طبقا لتصور الإنسان لنفسه وللعالَم.

أما بالنسبة للنصارى فقد أسلم بعض نصارى نجران. ومن بقي منهم على النصرانية

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَفْضُلُوا السَّبِيلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَانِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا، مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعَتْنَا لَكِ بِالْمَسْمُوعِ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْرَبَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، السابق ح/١/٥٠٠.

(٤) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَرِيقٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكُفُّ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُورُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، السابق ح/١/٤٩٩.

(٥) ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْزِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، السابق ٥٠/١.

(٦) ﴿وَأَن آتٰكُم مِّنْهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنِ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا بِيَاسِمِهِمْ بَعْضٌ فَوَهِيمٌ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، السابق ١/ ٥٠٥.

صلوا في مسجد الرسول نحو الشرق^(١). ومع ذلك ظل مجموعهم على عقائد النصرانية التاريخية اللاهوتية فيما يتعلق بطبيعة المسيح الإلهية أو الإلهية الإنسانية. وقد احتجوا على أن المسيح هو الله بأنه كان يجي الموتى، ويرى الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيثة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا. ويحتجون بأنه ابن الله لأنه لم يكن له أب، وتكلم في المهد. ويحتجون بأنه ثالث ثلاثة باستعماله ضمير التكلم الجمع «فعلنا»، «أمرنا»، «قضينا». ومع ذلك لا يصح إسلامهم وهم يدعون الله ولدا، وعبادتهم الصليب، وأكل الخنزير. ونزل القرآن كاشفا هذا الحوار. فعيى آية للناس^(٢). ووضح خلق عيسى ابتداء من اصطفاء مريم. وقد قص القرآن ولادة عيسى وحديثه في المهد طفلا وكهلا. ولا يعرف أنه عاش كهلا. ويعلم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وينفخ في هيثة الطير فيكون طيرا. ويرى الأكمه والأبرص، ويجي الموتى، وينبأ بما يدخر الناس في بيوتهم، وماذا يأكلون. ويصدق ما بين يديه من التوراة وليل بعض الذي حرم على اليهود^(٣). ولما أحس منهم عيسى الكفر انضم إليه الحواريون. وشهدوا بأنهم مسلمون. وآمنوا بما أنزل. واتبعوا الرسل^(٤). ورفع الله عيسى إلى السماء تطهيرا له من الذين كفروا، وناصرنا من اتبعوه^(٥). ومثل عيسى مثل آدم خلقه من تراب من غير

(١) «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدَوْا مِنْ نَفْسِهِمْ فَإِنِ افْتَدَوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ»، السابق ح ١/ ٥١٠-٥١٣.

(٢) «وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ»، السابق ح ١/ ٥١٢.

(٣) «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْنَيْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَاحِلَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، السابق ح ١/ ٥١٥-٥١٦.

(٤) «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَكَفَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»، السابق ح ١/ ٥١٦.

(٥) «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى مَوْتُوكَ وَارْأَعُكَ إِلَى مَوْطِئِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، السابق ح ١/ ٥١٧.

أب أو أم. وخلق عيسى من غير أب^(١).

ومع ذلك، فبدلاً من الحاجة في العلم يمكن الاجتماع على كلمة سواء، وترك الخلاف إلى الله دون حكم البشر فيه، عبادة الله وعدم الشرك به، وعدم اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وإسلام الجميع له^(٢). وطلب النصارى حكماً من المسلمين فيما اختلفوا فيه من أموال. فبعث الرسول معهم القوي الأمين^(٣). كانوا يؤمنون مثل اليهود بعدالة المسلمين في القضاء وكانوا يلجأون إليهم في الخصومات بينهم لأنهم لا يثقون في عدالة قضائهم. وبالرغم من نقد عقائد النصارى إلا أن فضح اليهود كان هو الغالب، كان نقد النصارى في العقائد. وكان فضح اليهود في السلوك.

أما بالنسبة للمشركون فلم يكن الصراع معهم في المدينة حاداً كما كان في مكة. لذلك لا يُحَال إليهم إلا نادراً. لما خشي المسلمون على أحد الكفار من هبوب الريح طمأنهم الرسول، وكان الريح ليس لها قانون طبيعي، ولا تهب طبقاً لأغراض خاصة. فتشخيص مظاهر الطبيعة فكر ديني في حين أن خضوعها لقانون فكر علمي^(٤). وكيف تغضب الريح وتهب لموت عظيم من عظماء الكفار؟ قد تكون فرحها أكثر اتساقاً أو غضبها لموت عظيم من عظماء المسلمين أو الصادقين من اليهود كورقة بن نوفل أو النصارى كالنجاشي. وإسقاط الانفعالات الإنسانية على الطبيعة أساس الشعر والفن وجميع فنون الأدب.

ودعا القرآن المسلمين بالصبر على أذى أهل الكتاب والمشركون^(٥). فالنصر للحق على الأمد الطويل. والغدر والتآمر والحقد والحسد والخيانة لها حدود. وواضح أن

(١) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، السابق حـ/١٥٧
(٢) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، ابن هشام حـ/٥١٧، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، السابق حـ/٥١٧.

(٣) هو أبو عبيدة بن الجراح، السابق حـ/٥١٨.

(٤) ولا تخافوا فإنها هيت لموت عظيم من عظماء الكفار، السابق حـ/٤٧٧.

(٥) ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، السابق حـ/٤٩٩.

القرآن هو الذي يدخل مباشرة في جدل مع الواقع دون تدخل الرسول. القرآن فاعل بنفسه. وهو سلاح الرسول. فالمعركة ليست شخصية بين الرسول واليهود بل معركة مبدئية بين المثال والواقع، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن. ومواقف اليهود، العداوة والنفاق، ليست فقط ظرفية آنية في عصر الرسول بل هي مستمرة في كل عصر كما يشاهد الآن في الصراع العربي الإسرائيلي.

٣- الإذن بالقتال

وقد جاء الأمر بقتال الكفار صريحا في القرآن، والتحول من السلم إلى الحرب، ومن الدعوة إلى المقاومة، ومن الدفاع إلى الهجوم^(١). وهو أحد معاني الجهاد. ونزل القرآن في الحث على الجهاد في سبيل الله وبيان فضله^(٢). نزل القرآن في خروج المسلمين مع الرسول للملاقاة قريش، يريدون العير طمعا في الغنيمة، وخروج قريش للملاقاتهم^(٣). فالجهاد مشروع. وقد تدرجت أحكام القتال. واستكملت كل أنواع الجهاد، الجهاد في الداخل والجهاد في الخارج، جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار والمنافقين،

(١) ﴿قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، السابق حـ ١٥٩١-٥٩٢. وهو بتعبير المعاصرين «من السلطة الوطنية الفلسطينية إلى حماس»، ابن خلدون ص ١٠٤-١٠٦/١١٣-١١٧، عيون الأثر حـ ٣٥٣-٣٧٧، خير العباد ص ٧٤-٩٨، فرض الجهاد، الفصول ص ٨١، حياة محمد ص ٢٠٤-٢١٣، محمد ص ١٧٧-١٩٠، الأسوة الحسنة حـ ١/٢٨١-٣٢٨، سيد الأئمة ص ١٧٣-١٧٩، المغازي ص ١٦٩-١٧١، مختصر سيرة (٢) ص ١٨٣-١٨٦، السيرة النبوية ص ٢٠٧-٢١٢، خير الوري ص ٤٢-٩٥، الرحيق المختوم ص ١٩٦، الجانب الجهادي في شخصية الرسول، محمد ص ٢٦-٣٤.

(٢) «الغزوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها»، «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما تملكها»، «من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا». ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا. سيرة النبي ص ٢٣٧-٢٥٢، خير الوري ص ٤٢-٤٦.

(٣) ﴿كَيْفَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِخْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرْكَاءِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّطَ الْحَقَّ بِكُلِّلَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُطْلِلَ الْبَاطِلَ وَلِيُذْكَرَ الْمُجْرِمُونَ، إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، ابن هشام حـ ١٥٨٧-٥٨٨.

وجهاد الظلمة. ويتلازم الجهاد والهجرة. وجهاد الشيطان أقرب إلى مقاومة النفس، والتمكين لا يكون إلا بعد الابتلاء، وتحمل الألم في سبيل القضية^(١).

والغزوات جزء رئيسي من السيرة حتى ليدو الرسول غازيا وقائد جيش. وقد نزل الأمر للرسول بالقتال، ولكن لم يبدأ على الفور. هاجر من مكة إلى المدينة. واستعد بتجارب غزوات لم تتم حتى أتت غزوة بدر الكبرى. كانت هناك بدر الأولى والثانية والثالثة. ولم يؤذن للرسول بالقتال حتى بيعة العقبة الأولى، بيعة النساء. بل اكتفى بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجهلاء. وكانت قريش قد عذبت المسلمين، فمنهم من هاجر إلى الحبشة، ومنهم من غادر إلى المدينة، ومنهم من تحمل الفتنة في دينه، وبقي في مكة. أذن للرسول في القتال ضد من ظلموه وأخرجوه من الديار. فكانت أول آية نزلت تبيح القتال^(٢). وتوالت آيات القتال منذ هذه الفترة^(٣). وتهايا الرسول لقتال المشركين بعد أن بُعث بثلاث عشرة سنة^(٤). ولم تكن المدة بين إعلان الوحي والأمر بالقتال طويلة^(٥). ونزل القرآن للتأكيد على القتال حتى ولو كان في الشهر الحرام. فقد كان الرسول قد منع القتال فيه «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». ثم نزل

(١) خير العباد ص ٧٤-٧٨.

(٢) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرَاعُ وَيَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، ابن هشام حـ ١/ ٤٢٣-٤٢٤.

(٣) ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، السابق حـ ١/ ٤٢٤.

(٤) السابق حـ ١/ ٥٢٣.

(٥) الأولى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾، والثانية ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا، إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، السابق حـ ١/ ٥٩١.

القرآن بإباحته^(١). وكان من المسلمين من يتوق إلى الجهاد في سبيل الله لينال أجرهم^(٢).

لم تكن الغزوات فقط تنفيذا لأمر القتال بل كانت رغبة المسلمين الأوائل^(٣). فقد ساندوا الرسول وشجعوه على الجهاد بعد أن استشارهم ووافقوا على نقيض ما قاله قوم موسى لنبيهم ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون. واستوثق الرسول من أمر الأنصار فعرف صدقهم^(٤).

وتعرف الرسول وأبو بكر أخبار قريش. وظفر المسلمون برجلين من قريش يعرفانهم على أخبارهم. وعرف الرسول عن طريق كم ينحرون كل يوم من الإبل لطعام الجند، حوالي تسعمائة أو ألف لأنهم ينحرون كل يوم ما بين تسعة أو عشرة من الإبل. وهي وسيلة قديمة للاستخبارات^(٥). وعرف أن فيهم كل أشرف قريش^(٦). وذهب اثنان لتسقط الأخبار. وهرب أبو سفيان بالعر حذرا^(٧). ووجه رسالة إلى قريش بالرجوع^(٨). ونزلت قريش بالعدوة، والمسلمون بيدرو. واستمع الرسول إلى ما أشار به أحد المسلمين بالتزول بجوار الماء حتى يشربوا ولا تشرب قريش^(٩). وبنى عريش أي خيمة للرسول

(١) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدَّوَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنَّ اسْتِظَاعَكُمْ السَّابِقُ ١/٥٣٥، سيرة النبي ٢٨٦-٢٨٧، حياة محمد ص ٢١٤-٢٣١، نور اليقين ص ٨١-٩٦، الأسوة الحسنة ١/٢٨٧-٣٢٨، سيد الأنام ص ١٨٠-١٨٦، المغازي ص ١٧٤-٢٤٥، مختصر سيرة (١) ص ٢٣-٢٤/١٠٢-١٠٨، مختصر سيرة (٢) ص ٢٠٢-٢٣٦، سيرة الرسول ص ٨١/٨٧-١٢١/٥٧، السيرة النبوية ٢١٣-٢٢٦، خاتم الأنبياء ص ١٠٩-١٣١، صحيح السيرة ١٨٣-٢٧٣، خير الوري ص ٤٩-٩٥/١٠٢-٢١٧، الرجيق المختوم ص ٢٠٤-٢٣٣، رسول الحرية ص ١٤٣-١٩٧.

(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، السابق ١/٥٣٦.

(٣) مثل أبي بكر وعمر والمقداد وكلبات كل منهم في الجهاد، السابق ١/٥٤٤.

(٤) قال الرسول للأنصار «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين. والله وكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، السابق ١/٥٤٥.

(٥) السابق ١/٥٤٥.

(٦) وقال الرسول «هذه مكة فقد ألفت إليكم أفلاذ كبدها»، السابق ١/٥٤٦.

(٧) هما بيس وعدي، السابق ١/٥٤٦-٥٤٧.

(٨) ورجع الأخنس ببني زهرة، السابق ١/٥٤٧.

(٩) هو الحياض. وسؤاله الرسول عن ما اقترح. هل هو وحي من الله أم الرأي والحرب والمكيدة، السابق ١/٥٤٨.

للدفاع عنه. وارتحلت قريش للحرب. ودعا الرسول الله بالنصر^(١). وفي هذه الأثناء أسلم نفر من قريش^(٢). وتشاورت قريش في الرجوع من القتال بعد أن استطلعت قوة محمد حوالي ثلاثمائة رجل.

والغزوات منها ما هو معروف مثل بدر وأحد وحنين والخيندق، وأخرى غير معروف. منها ما كان فيها قتال ومنها لم يكن فيها قتال^(٣). فنية القتال إرهاب للعدو وتحوله من فريق إلى فريق كما يسمى حاليا في التسليح قوي الردع^(٤). ولم يكن في كل الغزوات حرب. والتعبير هو «ولم يلق كيدا». كأن القصد هو التخويف أو الردع بالمعنى المعاصر. ففي غزوة ذات الرقاع لم تقع حرب. إذ كان الناس يخاف بعضهم بعضا، حتى أن الرسول صلى بالناس صلاة الخوف، ركعتان مع طائفة ثم التسليم، وركعتان مع طائفة أخرى ثم التسليم^(٥). وكانت الغزوتان الكبيرتان بدر وأحد، النصر والهزيمة، حرب تشرين ١٩٧٣، وهزيمة يونيو ١٩٦٧. والباقي مناوشات ومحاولات ونوايا مثل حرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٦٩. وربما كان القصد من هذه الغزوات عدم نسيان القتال بعد غزوة بدر واستمرار الجهاد. ووقعت غزوات وسرايا قبل بدر^(٦). ووقعت غزوات بين بدر وأحد^(٧). والغزوة الأولى هي قطع القوافل أي القضاء على القوة

(١) اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أخفهم، السابق حـ/٥٤٩.

(٢) هو ابن حزام، السابق حـ/٥٤٩-٥٥٠.

(٣) من الغزوات التي لم يقع فيها قتال: غزوة ودان، غزوة بواط، غزوة العشرة، غزوة صفوان، وهي غزوة بدر الأولى، غزوة بني سليم، غزوة السوق، غزوة ذي أمر، غزوة الفزع، حـ/٤١-٤٣، خير الوري ص ٩٨-١٠٠، السابق حـ/٥٣٢.

(٤) Force de dissuasion. خير الوري ص ٩٦-٩٨.

(٥) ابن هشام حـ/١٧٦-١٧٧ غزوة بدر الأخيرة حـ/١٨٠-١٨١ غزوة دومة الجندل حـ/١٨٤، غزوة بني لحيان حـ/٢٣٨-٢٤٠، بهران، ودومة الجندل، سيرة الرسول ص ٧٦-٨٠/٨٦-١٢٢-١٥٨/١٢٦.

(٦) قال الرسول «هذه عبر قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يتكفلكم» حـ/٥٣٧، خير الوري ص ١٠٠-١٠٢، البستاني حـ/١٥٧-٢٠٨.

(٧) مثل غزوات الإيواء، طلب كرز الفهري، وسرايا حمزة، وعبيدة بن الحارث وسعيد وعبد الله، خير العباد ص ٩٩-١٠٦ غزوة بدر الكبرى، الإشارة ص ١٩٧-٢٢٩، نور اليقين ص ٨٠-٨١.

الاقتصادية لقريش وتوزيع الأسلاب على المسلمين^(١). فالإقتصاد هو المدخل للحرب أي القضاء على القوة المادية للخصم.

وكانت غزوة السويق لرد العدوان على المسلمين وقتل الأبرياء. فقد اعتدى أبو سفيان على المدينة وحرق في نخلها وقتل اثنين من الأنصار. فخرج الرسول في طلبه هو وأصحابه فلم يجدهم. ورأوا أزوادا تركوها لسرعة الهرب. وسماها الرسول غزوة لاستيلاء المسلمين على الأزواد^(٢).

وفي الغزوات أحيانا يبدأ الرسول بالهجوم كما هو الحال في بدر، ولكن في معظم الأحيان تكون الغزوة للدفاع مثل غزوة بني المصطلق. فقد سمع الرسول أن بني المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث أبو جويرية هو الرسول. فخرج لهم قبل أن يأتوه. واقتلوا على ماء. وهزم بنو المصطلق وقتل منهم من قتل. وأخذت أموالهم ونسأؤهم غنائم وسبايا. وقد قتل أحد المسلمين خطأ. واقتل أنصار ومهاجرين على الماء. وأشعل المنافق عبد الله بن سلول النار في الاثنين، واستصرخ القريرين. وأراد عمر أن يقتله. ورفض الرسول خشية أن يقال إن محمدا يقتل أصحابه. وأذن بالرحيل. ثم اعتذر المنافق للرسول بعد ذلك. ثم زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وأنه مازال حاقدا على الرسول لأن قومه كانوا سينصبونه ملكا قبل ظهوره. وسار الرسول بالناس حتى لا تشتعل الفتنة، وطلب ابنه أن يقتل هو أباه. ورفض الرسول وأثر الترفق به وحسن صحبته. فأنقلب قومه عليه يعنفونه على ما بدر منه

(١) مثل غزوات غطفان، بن قينقاع، قتل كعب بن الأشرف، خير العباد ص ١٢٤-١٢٧، السرايا مثل حمزة، وعبيدة، وسعد، الإشارة ص ١٨٦-١٩٦. أول المغازي والبعوث، بعث عبد الله بن جحش، تحويل القبلة، وفرض الصوم، الفضول ص ٨١-٨٩. غزوة بدر الكبرى، السابق ص ٨٩-١٠٧، بهجة المحافل ص ١٥١-١٦٢، السيرة الحلبية ح ٢/١٦٩-٤٥٧ (حوالي ٢٨ غزوة)، غرة أول بدر ص ١٠٧-١٠٩، غزوة بني سليم ص ١٠٩، غزوة السويق ص ١٠٩-١١٠، غزوة ذي أمر ص ١١٠-١١١، غزوة بحران ص ١١١، قتل كعب بن الأشرف اليهودي ص ١١١-١١٣، الرحيق المختوم ص ١٩٧-٢٠٣.

(٢) ابن هشام ح ١/٤١-٤٣، خير العباد ص ١٢٢-١٢٥، السيرة الحلبية ح ٢/٢٨٧-٢٨٨، حياة محمد ص ٢٣٥، نور البقین ص ٩٨، مختصر سيرة (٢) ص ٢٣٦، السيرة النبوية ص ٢٢٧، خير الوری ص ٢٣٢-٢٣٤.

للرسول. وظهر صحة رأي الرسول بعدم قتله كما اقترح عمر^(١).

وكان للمسلمين في كل غزوة شعار يتحمسون له ويحشدن الجند تحته. وكان شعار المسلمين في بدر «أحد، أحد» ما أطلقت بلال وهو تحت التعذيب في الرمضاء وعلى صدره الحجر الثقيل^(٢). وفي أحد «أمت، أمت»، وفي الخندق «هم لا ينصرون»، وفي بني المصطلق وخيبر «يا منصور، أمت أمت»، وكان شعار المهاجرين يوم فتح مكة وحنين والطائف «يا بني عبد الرحمن»، وشعار الخزرج «يا بني عبد الله»، وشعار الأوس «يا بني عبيد الله».

٤- هل تتدخل قوى خارجية؟

وقد كشفت غزوة بدر الكبرى عن مقومات النصر. إذ دار القتال اعتمادا على القوى الداخلية والمساعدة الخارجية، القوى الذاتية وما قد ينتج عنها من قوى غير متوقعة، شجاعة، توفيق، صدف، روح معنوية. وهو ما يسمى بلغة الفقه الجهاد أو الشهادة أو بلغة الأخلاق التضحية والولاء والوطنية.

وفي مسار الغزوات بالإضافة إلى الاستعداد الداخلي في التخطيط والتنفيذ تتدخل قوى خارجية متنوعة يُعبر عنها بلغة تصويرية مثل الله، الملائكة، جبريل، إبليس، معجزة، رؤية، علم، بشارة، حديث الطبيعة، الحيوان والطير والآلات. وكلها لغة تشخيصية لسرعة التعبير عنها بدلا من تحليلها تحليلا علميا لمعرفة أسبابها المادية مما يتطلب وقتا طويلا. وهو ما يتفق مع لغة الحياة اليومية في استعمال عبارات مثل «بتوفيق من الله»، أو «معجزة» إذا ما حدث نجاح غير متوقع. وربما تكون المساعدة الخارجية مرئية، مثل مساعدات الدول الكبرى للدول الصغرى بالسلاح والخبراء كما حدث في حرب أكتوبر - تشرين ١٩٧٣، وكما يحدث في كل حروب إسرائيل ضد العرب منذ ١٩٤٨ حتى العدوان على غزة في ديسمبر - يناير ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

(١) فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن عمدا يقتل أصحابه؟ ابن هشام ح- ٢٤٨/٢، عيون الأثر

ح- ٣٧٨/٤٥٨، خير العباد ص ١٠٧-١٢٣، الإشارة ص ١٩٧-٢٢٩، السيرة الخلية ح- ٣٧٧-

٤١٤، نور اليقين ص ١١٥-١٦٦، المغازي ص ٢٦٨-٣٦٩، خير الوري ص ٤٤٦-٤٨١.

(٢) ابن هشام ح- ٥٦٠، ح- ٦١/١٩٤/٢٥٢/٢٨٣/٣٤٦/٥١٥، ابن خلدون ص ١١٧-١٢٥.

وقد نزل القرآن مبينا لطف الله بالرسول من خلال منامه ورؤية الكثير قليلا حتى يتشجع في الحرب ولا يخشى الخصم، ورؤية الخصم أيضا الكثير قليلا حتى يقع المشركون في الوهم بأن المسلمين قليلون مع أن التقابل يقتضي أن يرى المشركون المسلمين كثيرين حتى يهابونهم ويهربونهم بالكثرة العددية. فالكثرة مقولة المشركين، والقلة المؤمنة مقولة المسلمين^(١). ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وقذف الله في قلوب يهود بن النضير الرعب بعد أن كانوا يستعدون لقتال بتعاون بعض المنافقين والمشركين. فطلبوا الصلح، وترك أموالهم، والرحيل إما إلى خيبر أو إلى الشام^(٢). وهو إحساس باطني بالخوف عند من يشعر بأنه على باطل أو أن خصمه على حق. وأراد أحد أعضاء وفود بني عامر قتل الرسول فبعث الله بالطاعون في عنقه. فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول^(٣). وهي إما مصادفة أو بداية تفشي الطاعون في قومه. وتم الربط بين ظاهرتين لا علاقة بينهما، نية قتل الرسول، وواقعة الطاعون. ومات أربد بصاعقة. أرسل الله عليها صاعقة فأحرقتهما. ونزل القرآن^(٤). والصاعقة ظاهرة جغرافية يعرفها الجغرافيون، احتكاك السحب بعضها البعض الآخر فتولد منها شحنة كهربائية، وفي الطريق إلى تبوك شكى الناس الجفاف فأرسل الله سحابة أمطرت فارتوى الناس وحلوا حاجتهم من الماء^(٥). وقد تكون السحابة قد أسقطت مطرها طبقا لقوانين سقوط الأمطار المفاجئة في البيئة الصحراوية. وهو أمر شائع في شبه الجزيرة العربية، وقد وعد الرسول أبا سفيان أنه إذا عاد وكر عليهم بعد أحد لأصابته حجارة من الله أهلكتهم^(٦). ولم يخش الرسول

(١) ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَتَسْتَعِثُّمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَتُّنِمْ فِي أَغْنِيَكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَغْنِيَهُمْ لِيَتَفَقَّيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مُفْعُولًا﴾، ابن مشام حـ ١/ ٥٩٢-٥٩٣.

(٢) السابق حـ ٢/ ١٦٥-١٦٦.

(٣) السابق حـ ٢/ ٤٨٠-٤٨١.

(٤) ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ.... مَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْإِلَهِ﴾، ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ.... شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾، السابق حـ ٢/ ٤٨١.

(٥) السابق حـ ٢/ ٤٤٣.

(٦) (والذي نفسي بيده لقد سئمت لهم حجارة لو صاحبوها لكانوا كأس الذاهب)، السابق حـ ٢/ ٩٠.

من استل سيفه المرصع بالفضة وهدده به. فالرسول لا يخاف لأن الله يمنع القاتل منه^(١). وفي حنين عجز شعبة عن قتل الرسول بعد أن هم به. فقد تغشى فواده، وعلم أنه ممنوع منه^(٢). وقد استمرت المعجزات في صالح المسلمين حتى في غياب الرسول، فقد أرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء من غير سحابة ولا مطر. فأتى بشيء لا يقوى عليه أحد. ولم يستطع المشركون تجاوزه. والمسلمون يسوقون نعمهم. وغادر المسلمون ولم يستطع المشركون اللحاق بهم^(٣). وقد تكون المعجزة الإلهية بمبادرة من الرسول. فقد دعا الرسول الله أن يمن عليه حتى يستطيع أن يقسم على بعض من أسلم. ففتح الله عليه^(٤). فالدعاء المستجاب تركيز على الذات يخلق موضوعه^(٥). ورأى الرسول عن بعد أن أكيدر ملك كندة النصراني سيجده خالد وهو يصيد البقر، وحكت البقر قرونها بباب القصر وهو ما لم يحدث قبل ذلك. فخرج بفرسه مع نفر من أهل بيته وأخ له فتلقته خيل الرسول. فأسره المسلمون وقتل أخاه. واستلب خالد قباء الدياج المخصوص بالذهب وبعث به إلى الرسول^(٦). فالمهموم بشيء يقع له. وقد لا يتدخل الله بذاته وأفعاله ولكن بعرضه. وفي هذه الحالة يكون منفعلا ولا فاعلا. وهل يهتز عرش الرحمن لموت أحد كما تقول الرواية في اهتزازه لموت سعد بن معاذ؟ هو تصوير إنساني، أدبي بلاغة عن مدى أثر ما يحدث على الأرض في السماء. فليست السماء وحدها هي التي تؤثر في الأرض.

ب- الملائكة

وقد شهدت الملائكة وقعة بدر في حممة خيل من وراء سحابة وصوت «إقدم

(١) لذلك نزلت آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ ١٧٧/٢-١٧٨.

(٢) السابق حـ ٣٧٦/٢.

(٣) غزوة غالب بن عبد الله الليثي لبني الملوحة، السابق حـ ٥١٣-٥١٥.

(٤) «اللهم إني قد عرفت ما لهم وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنا، وأكثرهم طعاما وودكا»، السابق حـ ٢٨٢/٢.

(٥) وهو معنى المثل الشعبي «اللي يخاف من عفريت يطلع له»، ولكن في الخير.

(٦) موت سعد وتشجيع الرسول والمسلمين له واهتزاز العرش فرحا بقدومه، السابق حـ ٤٤٦/٢.

حيزوم». وهو اسم ملاك أو فرس^(١). فصعق نفر، وتمالك آخر. وكان المسلم يضرب عنق المشرك فتقع رأسه قبل أن يصل إليها سيفه وكأن آخر قد ضربه. فقد خرجت من الشعب على رؤوسهم عائم بيضاء يوم بدر، وحمراء يوم حنين، البياض رمز للنصر، والأحمر رمز للهزيمة، إلا جبريل فقد كانت عليه عمامة صفراء إشارة لتمييزه ورثاسته على الملائكة. ومعظمها روايات باستثناء القليل منها أقوال مباشرة من أحد الصحابة^(٢). ولم تقاتل الملائكة إلى يوم بدر. وفي الغزوات الأخرى كانت حاضرة فقط بعددها دون مشاركة، ربما لأن بدر أول معركة يحتاج المسلمون فيها إلى عون وتشجيع. وترك المسلمون على حالهم في أحد وفي حنين. وقد كان بإمكانهم تحذير المسلمين في أحد لمن يلتف وراءهم بعد أن ترك النبالون مواقعهم أو تحذيرهم في حنين، أن الكم لا يغني عن الكيف. وهي أمور خلافية يصدقها البعض ولا يصدقها البعض الآخر^(٣).

وإذا كان المؤمنون لم يكفهم أن ينزل الله لهم ثلاثة آلاف من الملائكة، يرسل لهم خمسة آلاف عليها علامات الملائكة أو مرعية حتى يطمئن المسلمون. فالأمر نفسي للتشجيع، وليعلم المشركون أن العزة لله وليس لأمر من خلقه ولا حتى لرسوله بل إلى الله يتوب عليهم أو يعذبهم^(٤). لذلك يستعمل القرآن ألفاظاً نفسية مثل البشرى والاطمئنان. وفي غزوة حنين ذهب بعض الرقباء من المشركين لاستطلاع أحوال المسلمين. فعادوا وقد تفرقت أوصالهم لأنهم رأوا رجالا بيضا على خيل بلق، وهي الملائكة^(٥). فإما أنهم

(١) ابن هشام ح١/ ٥٥٨-٥٥٩، خير العباد ص١١١-١١٣/ ١١٦، الرحيق المختوم ص٢١٨.

(٢) هذا قول علي بن أبي طالب ح١/ ٥٥٩، قتال الملائكة ص١٣٧، غزوة أحد، الأموة الحسنة ح١/ ٣٠٥-٣١٠/ ٣٥٦-٣٥٧، انهزام المشركين بالبرد والريح والملائكة، السابق ح١/ ٤٣١-٤٣٤، قتال الملائكة دفاعا عن الرسول يوم أحد، صحيح السيرة ص٣٠٢. الإمداد بالملائكة في بدر، خير الوري ص١٣٢، قتال الملائكة لمساعدة المسلمين، ص١٣٥/ ٤٠٧/ ٤٢١.

(٣) لا خلاف في قتال الملائكة، خير الوري ص١٣٥/ ١٣٨، مدد الملائكة للمسلمين، خير الوري ص٦٧٤.

(٤) ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكَ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ، بَلَىٰ إِنَّ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِتُحْمِلُنَّ أَثْقَالَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، لَيَقَطَعَنَّ طَرْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُغْلِبُوا فَخَائِبِينَ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ بِلِقَائِهِ لَأُنَاسُ هَادِدُونَ﴾، ابن هشام ح٢/ ٩٢-٩٣.

(٥) السابق ح٢/ ٣٧٢.

أتوا متأخرين بعد الهزيمة أو أنهم لم يستطيعوا فعل شيء لإنقاذ المسلمين من الهزيمة. وقد تكون الرواية قد أرادت تغطية الهزيمة الفعلية بغطاء خيالي للتخفيف من وقعها والتذكير بأن الله لن يترك المسلمين في المستقبل. وغسلت الملائكة حنظله الذي ركب أبا سفيان فأصابه أحد المشركين لتشجيع المسلمين على الجهاد^(١). ويُدخل الخيال الملائكة في تفصيل الشهداء^(٢). وتدخلت الملائكة في غزوة حنين بالرغم من عدم تدخلها في أحد، والسياق واحد، الهزيمة. إذ أقبل من السماء نمل أسود مبثوث ملء الوادي، هي الملائكة، ثم هُزم القوم^(٣). والنمل القادم من السماء أكثر استدعاء للخيال من النمل الزاحف على الأرض كما هو الحال في قصة سليمان. وقد أعان ملك في صورة رجل قصير من أسر العباس^(٤). فكيف يأسر رجل قصير رجلا طويلا ضخما؟ وتتدخل بعض الخيالات لإعطاء مزيد من التأثير مثل مشاورة الملائكة في المعركة^(٥). وتفصيل أنواع الملائكة وأجناسها يثير الخلاف أكثر ما يدعو إلى الاتفاق. وكله رجم بالظن، واعتماد على السماع دون المشاهدة والتجربة، وتشجيع المواقف الانفعالية على إطلاق الخيال حتى تكون شدة التصوير تعادل شدة الانفعال.

ح- جبريل

ولا يكفي الملائكة في مجموعهم بل يخص جبريل بالذكر مع أن دوره في نزول الوحي، وليس في ميدان القتال. وطبقا لقول الرسول كان جبريل يشارك مع الرسول والمسلمين في الحرب. فقد رمى المشركين بالحصباء استفتاحا لغزوة بدر قائلا «شاهدت الوجوه». وهو فعل رمزي لتشجيع المسلمين على بدء القتال كالطلقة الأولى في القتال. وأحيانا تنسب العبارة إلى الرسول وهو خارج من الغار حتى لا يراه المشركون أثناء الهجرة مع

(١) قال الرسول «إن صاحبكم حنظله لتغسله الملائكة»، «خير الناس رجل أمسك بعنق فرسه كلما سمع هبة طار إليها»، ابن هشام ح١/٦٦-٦٨.

(٢) الجوهرة ح١/١٠٦ «لا تبكه (ما تبكه)، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»، بهجة المحافل ص ١٧١، سيرة النبي ص ٢٨٥.

(٣) ابن هشام ح٢/٣٨٠.

(٤) «لقد أعانك عليه ملك كريم»، الجوهرة ح٢/١٤.

(٥) خير العباد ص ١١٦.

أبي بكر أو في غزوة بدر وهو يشارك المسلمين في القتال^(١).

وحزن الرسول على عمه، وتوعد المشركين بالمثل. ولولا حزن صفيه أخته لترك الجثة تأكلها الطيور والسباع حتى يكون في كل مكان كما يذرى الهنود تراب حرق أجسادهم في النهر حتى يعود إلى الطبيعة التي خرج منها. ولو أظهره الله على قريش ليمثلن بثلاثين رجل منهم، واحدة بواحدة^(٢). وتابعه المسلمون في ذلك. ثم ظهر جبريل وأخبره أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع أسد الله وأسد رسوله. ولماذا يكتفي جبريل بالذهاب ولم يتدخل لإبعاد الرمح عن حمزة وصدّه؟ والتمثيل ليس من آداب الحرب في الإسلام وكما قالت أم عبد الله الزبير وهو يقاتل أنصار معاوية «وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟» ظهر جبريل للتخفيف من حزن الرسول. فجبريل رمز للاعتدال إذا ما وقع الإنسان فريسة التطرف.

وحين توفي سعد بن معاذ من جراحه أتى جبريل الرسول في جوف الليل وعليه عمامة من إستبرق سائلا إياه عن هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش وكأن جبريل لا يعلم وهو الذي يحمل الوحي إلى الرسول، ويعلم كل شيء. فقام الرسول سريعا يجر ثوبه فرأى أن سعدا قد مات. وعابت عائشة على أسيد بن حضير حزنه على امرأة ولم يحزن على ابن عمه الذي اهتز له العرش تثبيتا للرواية السابقة. وأثناء جنازته وحمل الناس له وتشيعه إلى مثواه الأخير قال الرسول إن له حملة غيرهم. فقد استبشرت الملائكة به. واهتز له العرش في صورة ثلاثة لتثبيت الصورتين الأولى والثانية. وبعد الدفن سبّح الرسول على القبر وكبر، فسبّح الناس معه وكبروا لأن القبر يتضايق على العبد الصالح حتى يفرج الله عنه. فإن للقبر ضمه لو كان أحد منها ناجيا لكان سعد ابن معاذ. وكل نائمة تكذب إلا نائمة سعد. وكل هذه الصور تعظيم لسعد في الحياة وفي الممات، في الدنيا وفي الآخرة، تكريما للشهداء، ونموذجا للمسلمين^(٣).

(١) مثل قول الرسول «أبشرا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثنياه النقع»، ابن هشام ح١/٥٥٤/٥٥٥، وفي رواية «عليه أداة الحرب»، بهجة المحافل ص ١٥٥، سيرة النبي ص ٢٧٢، الخلاف في نزول جبريل بعد الرسول، خير الوری ص ١٣٨.

(٢) ابن هشام ح٢/٨٣.

(٣) السابق ح٢/٢١٣-٢١٥.

وقد أمر الله الرسول على لسان جبريل بحرب بني قريظة فقد أتى جبريل الرسول وعليه عمامة من إستبرق على بغلة عليها سرج عليه قطيفة من ديباج سائلا الرسول هل وضع السلاح؟ فلما أجاب الرسول بالإيجاب أخبره جبريل بأن الملائكة لم تضع السلاح بعد، ولم ترجع عن مطالبة القوم. فأمر الرسول المسلمين بالقتال وألا يصلي أحد منهم العصر إلا في بني قريظة. فالأمر من السماء وليس من الأرض، من جبريل إلى الرسول، وليس فقط من الرسول إلى المسلمين. وبالتالي يتشجع المسلمون لتطبيق أمر الله بالسير إلى بني قريظة^(١). كما بشر جبريل الرسول بفتح مكة دون تحديد عام بعينه. واستعجل المسلمون الرسول^(٢). فجبريل يأتي بالخير، الوحي والبشارة. وإذا كان جبريل والملائكة يتدخلون في النصر كما فعلوا في بدر فلماذا توقفوا في أحد ولم يمنعوا الهزيمة وقتل حمزة سيد الشهداء، وعمار بن ياسر بالرغم من تنبؤ الرسول بمقتله؟ وقد عاتب جبريل الرسول مرة بأنه وضع السلاح وأن لا بد من الاستمرار في قتال اليهود.

ويتدخل جبريل دائما في حوار الرسول مع من حوله وليس فقط لتبليغ الوحي. وقد يكون المقصود أن رأي الرسول وفعله موجهان من الوحي وليسا من لديه. فأخبره جبريل أن حمزة في السموات السبع^(٣). وأخبره أن عمرو سيفقد بصره^(٤). ويقرأ عائشة السلام تقوية لمعنوياتها بعد حديث الإفك^(٥). ونزل لمراجعة الرسول تردده من الزواج بحفصة ابنة عمر رحمة به^(٦). فجبريل ينزل في حالة السلم والحرب معا.

وعلى النقيض من جبريل يغري إبليس قريش بالخروج بعد أن تبدى لقريش في صورة سراقة بن مالك. وكان من الأشراف. وأوعز إليهم بالخروج خشية أن تأتي كنانة

(١) السابق حـ ٢/ ٢٠٠-٢٠٢، أمر جبريل النبي بالخروج إلى بني قريظة، مشاركة جبريل في عارية بني قريظة، صحيح السيرة ص ٣٧٠-٣٧١.

(٢) السابق حـ ٢/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله، الجوهرة حـ ٢/ ١١.

(٤) السابق ص ٢٢.

(٥) هذا جبريل يقرأ عليك السلام، «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، السابق ص ٦٥.

(٦) السابق ص ٦٧.

من خلفهم^(١). وقد نكص على عقبيه يوم بدر فنزل القرآن فيه^(٢). فإبليس مخادع، يعد ويخلف. وهو مثل الشيطان إن لم يكونا مترادفين. ففي إحدى الغزوات وصف الرسول المطلوب رأسه بالشيطان والشعور بالقشعريرة عند رؤيته^(٣). فالشيطان صورة من خلق الذات تبعث على الاشتزاز وليس موضوعا في الخارج. وصراخ الشيطان أن محمدا قد قتل تصوير لفرح العدو^(٤). وقد كشف الشيطان بنود معاهدة العقبة الثانية وهدده الرسول بالتفرغ له^(٥). وقد كثر رجم الشيطان وقت نزول الوحي لإفساح المجال لجبريل^(٦). وكان الجن يتدخل في الموضوع. البعض آمن به ويشر برسالته^(٧). ومنع الجن من استراق السمع تصور بشري لمنع التجسس، تجسس قوى الشر على أفعال الخير^(٨). وقد تحدث الرسول فيما بعد مع الأنصار عن رمي الجن بالنجوم، عقيدة الجاهلية وفرحها بأن الله كان إذا قضى شيئا سمعه حملة العرش فسبحوا وسبح من تحتهم حتى السماء الدنيا دون معرفة السبب حتى يصل إلى سمع الشيطان فتسرقه. ثم يخبرون به الكهان من أهل الأرض، يخطئون ويصيبون. ثم حجب الله الشيطان بهذه النجوم. فانقطعت الكهانة. فلا كهانة بعد اليوم^(٩). وهو قطع لكهانة بكهانة بديلة، وكان يمكن أن يُمنع استراق السمع منذ البداية ألا يستمع إليه حملة العرش، ولا يصل إلى سمع الشياطين، ولا تتحدث به الشياطين إلى الكهان. وإذا كان الله كما تقول الرواية قد حجب الشياطين بهذه النجوم فكأنه غير قادر على منعهم من استراق السمع مباشرة دون ما حاجة إلى

(١) وربما رآه عمر بن وهب أو الجارث، ابن هشام حـ ١/ ٥٤١-٥٨٤.

(٢) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، السابق حـ ١/ ٥٨٤.

(٣) «إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة»، السابق حـ ٢/ ٥٢١، خير العابد ص ١١٤-١١٥، إبليس ينسحب من ميدان القتال، الرحيق المختوم ص ٢١٩.

(٤) فصول ص ١٢٥-١٢٦، سيرة النبي ص ٢٧٩.

(٥) «هذا أذب العتبة، أما والله يا عدو الله لا تفرغن لك»، الرحيق المختوم ص ١٥٢.

(٦) نور الإبصار ص ١٨.

(٧) «ذلكم عفريت من الجن يقال له «سمحج» سميت عبد الله، آمن بي فأخبرني أنه في طلبه منذ أيام»، الخصائص الكبرى حـ ١/ ٢٣٩.

(٨) السيرة النبوية ص ٦٠-٦٢.

(٩) كان يقال في الجاهلية «مات ملك، مُلك ملك، ولد مولود، مات مولود»، ابن هشام حـ ١/ ٢٠٣.

وسيلة. والشيطان في النهاية شيطان وإلا لما كان شيطانا. ينفذ من وراء النجوم ومن خلفهم. مع أن النجوم تهدي السائر في الطريق. وطالما تغنى بنورها الشعراء. ويسطع جماها في الليل البهيم^(١).

وقد أتى له وفد من الجن وأسلم، تعويضا عن كفر الإنس به^(٢). وإذا كان الجن قد آمن بالرسول فكيف بالإنس؟ لقد تحول الجن إلى إنس، والإنس إلى جن. يراه الرسول ولا يراه أحد غيره. أعطاهم حكما، والعظم لهم، والروث علف لدوابهم. وفي رواية أخرى أسلم الجن، سبعة منهم تقوية لعزيمة الرسول، وحث الناس على الإيمان به بعد أن آمنوا به. فقد استمع لقراءته واهتدى. فما بال الإنسان يستمعون لقراءته ولا يهتدون؟^(٣).

وقد اختلف في أصل الجن، هل هم والشياطين ولد إبليس أم هل هم ولد الجان، والشياطين ولد إبليس؟ ولهم أجساد وفي حاجة إلى غذاء كالإنس. وينكر وجودهم الأطباء والفلاسفة. ولهم صور مختلفة أشهرها الجان^(٤). وفي الحديث أنهم ثلاثة أصناف، صنف يطير في الهواء بأجنحة، وثاني حيات وكلاب، وثالث يحلون ويظعنون. وكان الرسول قادرا على الحديث معهم حتى ولو أتوا متكرين.

(١) ليس ذلك كذلك، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعه حملة العرش فسبحوا. فسبح من تحتهم، فسبح لتسبيحهم من تحت ذلك. فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فسبحوا. ثم يقول بعضهم لبعض مم سبحتم؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم. فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيقولون مثل ذلك حتى يتنهدوا إلى حملة العرش فيقال لهم: مم سبحتم. فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا للأمر الذي كان. فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف. ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم به. فيخبطون ويصييون. فيتحدث به الكهان فيصييون بعضا ويخبطون بعضا. ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقدفون بها فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة، السابق حـ/٢٠٣.

(٢) ألفية السيرة ص ٦٤-٦٥ «من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفع»، «إني أمرت أن أقرأ على إخوانكم من الجن فليقم معي رجل ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من غش»، «العظم مباح لكم والروث علف لدوابكم»، سيرة الرسول ص ٣٨-٤١.

(٣) عيون الأثر حـ/١-٢٣٩-٢٣٩ «إني قد أمرت أن أقرأ على إخوانكم من الجن فليقم معي رجل منكم، ولا يقيم رجل في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»، اعتيادا على آية ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، خير العباد ص ٤٣، الإشارة ص ١٣٤.

(٤) بهجة المحافل ص ١١٣-١١٤.

وبالرغم من السيرة الحديثة إلا أن روايات المعجزات لا تخضع للنقد مثل شق الصدر، وتدخل الشيطان في كشف بيعة العقبة الثانية، وتدخل الملائكة في الغزوات بجانب المسلمين، وإرسال السحب محملة بالماء، وانسحاب إبليس من ميدان القتال^(١).

د- معجزات الرسول

وتستمر معجزات الرسول مع تصديق كامل برواياتها مثل هبوب الريح وانشقاق القمر، والإسراء والمعراج^(٢).

وتعني المعجزات بالمعنى الشائع أي انكسار في قوانين الطبيعة أو بالتنبؤ بالنصر في المستقبل^(٣). كما تعني أيضا الفضائل^(٤). فقد أعطي كرامات خلقية ومكارم خلقية^(٥). وغلب المعنى الأول على المعنى الثاني أي ما يخرج من قدرة الإنسان على ما يدخل تحتها. والكرامة هي المعجزة على غير النبي. كما أن المعجزة كرامة للنبي - حذره. الكرامة للأولياء، والمعجزات للأنبياء^(٦). وإذا كانت الكرامة هي مجرد الاستقامة فهي عامة للناس جميعا وليس فقط للأولياء الذين قد ينقص البعض منهم الاستقامة.

ومعجزات النبي كثيرة قبل البعثة^(٧). روايات أكثر منها أقوالا مباشرة^(٨). فكيف

(١) السيرة النبوية ص ٥٧/١٥٢-٢١٨/٢١٩-٣١٨/٤٣٤.

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٦٩/٥٧-٧٦/١٥٥-١٥٦، نور البقين ص ٢١٥-٢٢٤، ما وقع في فتح مكة من الغرائب، الأسوة الحسنة ١/٤٨٣-٤٨٤، المعجزات التي حدثت في الطريق إلى تبوك، السابق ١/٥٠٤، ما وقع الآيات في الحجر، السابق ١/٤٠٥.

(٣) مثل: انشقاق القمر، الكوثر، كلام الضب له، إنفاق كنوز كسرى في سبيل الله، بفتح خزائن فارس والروم، تصوير سراقه بسواري كسرى، مقاتلة المسلمين قوم صفار الأعين غراض الوجوه، فتح اليمن والشام ومصر، هبوب الريح لموت منافق، تحريك الجبل، الإشارة ص ٤٢٤-٤٢٨.

(٤) «اسكن إنما عليك نبي أو صديق أو شهيد»، السابق ص ٨٢٨.

(٥) مثل: أعطي الرضا وإتمام النعمة، والعفو، وشرح الصدر، ورجحان العقل، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإتياء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، وصلاة الله وملائكته عليه، وإحکم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإصر والأغلال عنهم، والتسم باسمه، وإجابة دعوته، وإحياء الموتى، وإسراع الصم، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والاطلاع بإذن الله على الغيب، وظل الغمام، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، السابق ص ٤٢٩-٤٣١.

(٦) سيرة النبي ص ١٣٦-١٣٨.

(٧) مثل: إثارة النخل، زيادة وزن الذهب، الخصائص الكبرى ١/٦١-٦٢.

(٨) السيرة الحلبية ٣/٣٩٤، خير الوري ص ٣٦٧/٣٨٤/٣٩٥-٤١٧/٤١٨/٥٠، تعارض الروايات ص ٥٧٤/٤٢٨.

يمكن التوفيق بين الروايات أو الترجيح بينها، كيف يمكن التحقق من اختلافاتها؟ وقد تصل الروايات إلى أكثر من مائة ليست فيها أقوال مباشرة إلا ربعها^(١). وقد ذكرت فقط المعجزات التي في الروايات التي بها الأقوال المباشرة للرسول وتدعمها وليست في الروايات التي تصف أفعالا دون أقوال. وذكر البعض منها نظرا لأنها لا تعد ولا تحصى، وترتبط بصدق الروايات^(٢). وزادت المعجزات وتكررت: در الضرع الجاف الحليب بمجرد مسك الرسول له، تكثير الطعام في بيئة صحراوية يندر فيها الطعام، وتكثير السمن لما للسمن من قيمة غذائية عند العرب، تكثير التمر فالتمر هو الغذاء الرئيسي في الصحراء، تكثير الماء، وتكثير اللبن، فالماء حياة البدو في الصحراء، نبع الماء بين أصابعه^(٣). وكلها تلبية لحاجات البدو في البيئة الصحراوية ضد الجفاف والجوع، شح المياه وجفاف أضرع الحيوان.

وتذكر معجزاته تباعا منذ الولادة حتى الوفاة. كما تجمع في كتب الشرائع لأنها من خصائصه. ويمكن عرضها بعدة طرق: الطريقة الأولى تبين ملابس كل معجزة، ظروفها ودوافعها وأهدافها. والطريقة الثانية تبين بنيتها ومنطقها الداخلي وصياغاتها وعناصر الواقع والخيال فيها^(٤). وقد تستغرق المعجزات جزءا بأكمله بمفردها أو كأدلة على النبوة وأولها الإسراء والمعراج^(٥). وتأتي قبل الوحي في ترتيب الأقسام. ويقوم اليقين فيها على مبدأ نفسي^(٦). وتتعدد الروايات بين الإجمال والتفصيل مما يدل على تدخل الخيال الشعبي بها^(٧). والمعجزات روايات أكثر منها أقوال مباشرة. وقد تتحول إلى قول غير مباشر مما يدل على التخوف من روايتها قولاً مباشراً. إذ يصعب رواية حوار في السماء بين جبريل والرسول والأنبياء، وكل مجموعة من المعجزات تستند إلى

(١) محمد بن يوسف أطفيش: السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة.

(٢) خير الوري ص ١٥٢.

(٣) الأنوار ح ١/ ٣٤٠-٣٤١، الوفا ح ١/ ٢٧٤-٢٨٠ / ٢٨١-٢٨٢ / ٢٨٤-٢٩٠ / ٢٩١-٢٩٣ / ٢٩٣-٢٩٤.

٢٩٥.

(٤) ألفية السيرة ص ٩٢-٩٧.

(٥) سيرة النبي ح ٣/ ٦-٥٥٣.

(٦) السابق ح ٣/ ٦٤-٧٠.

(٧) السابق ح ٣/ ٢٥٥-٢٥٦ / ٢٦٠-٢٦١ / ٣٦٧-٢٩٧ / ٣٠١-٤٩٨، معجزات الحبيب ص ١٥-٢٠.

آية. وتفصل عليها كما هو الحال في الاستنباط ولكن بفعل الخيال وليس بفعل العقل. وتضعف بعض رواياتها مثل شق الصدر. ونظرا لتعدد الروايات واختلافاتها فإنه يشار إلى أنها نقلت بالمعنى وليس باللفظ. وفرق بين سماع المعجزة ومشاهدتها. الأولى تخضع لمنطق الرواية، والثانية لمنطق الإدراك الحسي. وفي النهاية لا شأن ذلك كله بقضايا الإصلاح بل إن الإصلاح. يقوم على العقلانية والعلم.

وتعتمد السيرة على فن التشويق وعناصره ومنها المعجزات وتدخل الملائكة. ودخول جبريل محاورا، ومجيبا على أسئلة حتى تفوق سير سائر الأنبياء، وما تثيره في النفس من خيال. وهناك سياق في المعجزات بين الرسول وباقي الأنبياء. فالرسول تكلم في المهدي صبيا مثل المسيح^(١). ويقارن بين الأنبياء السابقين حتى يبرزهم.

فهي أقرب إلى الرسول منها إلى الرسالة لأن الرسالة واضحة بذاتها لاتفاقها مع العقل والواقع دون ما حاجة إلى معجزات. بل إن الإسراء والمعراج الذي اختلف القدماء والمحدثون في كفيته ليس شرطا للإيمان بالرسالة. وشق الصدر كمقدمة للإسراء والمعراج ليس شرطا لصحة الرسالة وتطابق الشريعة مع البداة والمصلحة العامة^(٢). والصلاة الآن في القدس وبيان أهميتها أفضل نظرا لاحتلالها وتهويدها^(٣). المعجزات المعنوية وفي مقدمتها القرآن، النظم والتشريع، أكثر قبولا من المعجزات الحسية. وهي نفس القسمة في الذات الإلهية بين الصفات المعنوية والصفات التشبيهية. وإثبات أن القرآن معجزة بالقرآن دور. ومعجزات القرآن بالنسبة للأخبار عن الماضي أو التنبؤ بالمستقبل غير أقوال الرسول^(٤).

ولم يتم التعرض لروايات المعجزات بالنقد والتحليل والحكم على درجة صحتها^(٥). كما لم يتم تحليل أقوال جبريل ونسبتها إليه لإعطائها مزيدا من القوة والأثر والفاعلية^(٦).

(١) «جلال ربي الرفيع» الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا»، السيرة الحلبية ج١/ ٨٤.

(٢) خلاصة ابن كثير ص ١٢٨-١٣٤.

(٣) السابق ص ١٩٣.

(٤) السابق ص ٤٨٧-٤٩٦.

(٥) عيون الأثر ج١/ ٨٤/ ١٠٦/ ٢٠٧/ ٢٣٤/ ٣٧٥.

(٦) السابق ص ٢٢١.

وهناك موضوع خاص بالمعجزات داخل حجة الوداع^(١). وأعظمها القرآن. ومنها ما يزيد على الخمسين معجزة حسية^(٢). يمكن تصنيفها طبقاً لمعجزات النبات والحيوان والإنسان والطبيعة^(٣).

يضعف بعض كتاب السيرة روايات كثيرة من المعجزات^(٤). ولم يستبعد الإصحاح المعجزات بمن فيهم طه حسين الذي ينتسب إلى ديكاارت والديكارتيين. والرسول لا يطالب الناس طلب آيات لأن الناس سألوها من قبل الأنبياء ولم يؤمنوا بهم^(٥).

(١) نبذة عن معجزاته، السابق جـ ٢/ ص ٣٧٥-٣٧٧.

(٢) ومعجزاته أكثر من أن يجمعها كتاب أو يحصرها ديوان، جـ ٢/ ٣٧٧.

(٣) أ- معجزات النبات: دعاء تمر حائط بالبكة، شهود الشجرة للرسول بالنبوة، تسليم الشجر والحجر عليه، حنين الجذع له.

ب- معجزات الحيوان: نسج العنكبوت في الغار، غرس قوائم فرس سراقه في الرمال، مسح درع ناقة فدرت دون فحل، وكذلك ضرع شاه أم معبد، الدعاء لجمل جابر فأصبح سابقاً، الدعاء على عبه فأكله الأسد، أعلمته الشاة بسمها. شكوى البعير له قلة العلف وكثرة العمل، سؤال الظبية لخلاصها من الحبل لترضع ولديها وتلفظها بالشهادتين، شهود الضب بنيوته.

ج- معجزات الإنسان: شق الصدر، رمي الأعداء بالتراب فأعماهم وقتلوا يوم بدر. ونفس الشيء في غزوة حنين، الدعوة لعمر بعز الإسلام، ولعلي ليقية الحر والبرد، شفاء عين بتفلة فيها، والدعاء لابن عباس بالتأويل والتفقه في الدين، الدعاء لأنس بطول العمر وكثرة المال والولد، تسبيح الطعام بين يديه، الإخبار عن مصارع المشركين يوم بدر، إخبار أن طائفة من أمته يغزون في البحر، التنبؤ بيلوى عثمان، التنبؤ بيلوى الأنصار، وبواسطة الحسن، الإخبار بقتل الأسود العنسي، استشهاد ثابت بن قيس، رفض الأرض جثة أحد المشركين، تحريك يد أشول إلى فمه للطعام، إطعام ألف من صاع شعير، مباركة الطعام فزاد، نبع الماء بين أصابعه فشرب وتوضأ ألف وأربعمائة، وضوء سبعين أو ثمانين من قدح، غرس رأسهم في الماء ففار وارتوى ثلاثون ألفاً، تحويل الماء المالح إلى عذب بتقل الرسول، ظهور شعر صبي أقرع بمسح رأسه، تحويل عود الحطاب إلى سيف في يد عكاشة، ضرب حجر فأصبح كتيبا، شفاء رجل مكسورة.

د- معجزات الطبيعة: انشقاق القمر، الاستسقاء وهطول المطر أسبوعاً، تسبيح الحصى بين يديه، تكسير الأصنام أثناء دخول مكة.

(٤) مثل إطعام الجمل الغفير من سخلة وصاع شعير يبيت جابر، إطعام نحو من ثمانين من طعام كادت لا تواريه يد الرسول، إطعام الناس يوم دخل بزينب، إطعام المسلمين يوم تبوك من قدر صغير، إعطاء أبي هريرة مزوداً فأكل منه دهره، دعاء الله للمسلمين لما قحطوا وهو على المنبر فلم يتزل حتى أمطرت السماء، دعاؤه على قريش فأصابهم الجهد، ذكر الإناء الذي وضع يده فيه ودعا فنبع الماء من بين أصابعه، نبع الماء يوم الحديبية حتى شرب الجيش، إرساله السهم إلى عين الحديبية فوضعت فيها فجاشت بالماء حتى كتفهم، ذكر المراتين اللتين للمرأة صبت توضأوا وشربوا واغتسل بعضهم ورجعت كما كانت فأسلمت وأسلم قومها، الفصول ص ٢٨٥-٢٨٨.

(٥) «يا أيها الناس لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح»، الجوهرة جـ ١/ ٣٩٥.

والجدل حولها الآن لا يأتي من ورائه نفع كبير. والقرآن نفسه يتشكك في أن تكون أداة للتصديق^(١).

هـ- المعجزات الحسية

ويمكن تصنيف المعجزات إلى معجزات حسية في الجماد والنبات والحيوان والإنسان. وتدخل الطبيعة مع الجماد، ومعنوية يدخل فيها الإعجاز العلمي في القرآن. وإذا كان العلم يعتمد على التجربة فماذا لو ناقضت المعجزة حكم التجربة؟^(٢). فقد وصف الرسول لداواة الإسهال شرب العسل فزاد. وكرر التجربة أكثر من مرة، فحكم على وصفه بالصدق وعلى البطن بالكذب. والقرآن كمعجزة، وفرق بين المعجزة والإعجاز. الأولى خرق لقوانين الطبيعة، والثاني تحد بشري بلاغي وتشريعي. وإثبات معجزة القرآن بالقرآن دور منطقي^(٣). وقد يجتمع في المعجزة الله والملائكة والحيوان^(٤). فهي عوامل متداخلة بين العلل الأولى والعلل الثانية. المهم وقوع المعجزة طبقاً لدرجة التصورات ومستوى الخيال.

وفي تصنيف آخر، المعجزات على أنواع: الأول معجزات العصمة والمنعة والحماية والرد على قريش^(٥). والثاني الإخبار عن الأمم السابقة. والثالث خوارق العادات التي تمت على يديه وتثبيتاً لأصحابه^(٦). والرابع الإخبار عن خوارق العادات دون مشاهدتها بل الإيمان بها تفويضاً^(٧). والخامس تكثير الطعام والشراب وإبراء المرضى وبركة يده

(١) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾.

(٢) «إسقه عسلاً..... صدق الله وكذب بطن أخيك»، محمد رسول الله حـ ٢١٦/٢.

(٣) السابق ص ٢٢٧-٢٤٠.

(٤) إن الله أبدعها لي، والبعير نطق بعذرك، والملائكة قد سدوا الأفق، المعجزات اللامعة ص ٩٧.

(٥) وهي حوالي تسع معجزات، الأسوة الحسنة حـ ٢٧/٢-٢٧.

(٦) السابق حـ ٢٨/١-٤٦.

(٧) السابق حـ ٤٧/٢-١٢٩.

الشريفة^(١). والسادس القرآن الكريم. والأغلب هو تقسيمها إلى حسية ومعنوية^(٢).

الحسية مثل انشقاق القمر، ورد الشمس وجسها، نبع الماء بين أصابعه، تكثير الطعام بين يديه، كلام الشجر والحجر وشهادتهما له بالنبوة، شهادات الحيوانات له بالرسالة، وشفاء العلل بريقه وكفه، وإجابة دعائه، وصلاح ما كان فاسدا بلمسه، والإخبار بالغيب، وتشمل ما فوق الأرض وما على الأرض، ظواهر السماء وظواهر الأرض^(٣).

أما المعجزات الحسية التسعة عشر فيمكن تصنيفها في أربعة أنواع: الطبيعة، الجماد والنبات والحيوان، الإنسان بما في ذلك الطعام والشراب وهي الأكثر، والتاريخ، الإخبار بالماضي والتنبؤ بالمستقبل^(٤).

وقد ظهر عديد من المعجزات للرسول في غزوة الخندق لتصديق رسول الله وتحقيق نبوته ومعاينة المسلمين لها. فقد صعب على المسلمين حفر صخرة في الخندق فتفل الرسول في إناء به ماء ودعا ببعض الأدعية ثم صب عليها الماء فتحولت إلى كتيب

(١) السابق ح-٢/ ١٣٠-١٧٩، وفيها الفتن خلال البيوت، العجوة في الجنة، العمى في المدينة، الطاعون في الشام، الشيطان في السحب، حراسة المدينة من الدجال، حال الشمس يوم القيامة، خراب الكعبة، ومنها أشراف الساعة: نزول عيسى، قتل الدجال، تقليد اليهود والنصارى، تحلي الأمة بالذهب، قبض العلم، أئمة الجهل، أمراء الترك، حال العمال، فتح ردم يأجوج ومأجوج، ظهور الخوارج، قلة الرجال وكثرة النساء، استئصال الخمر، قتال الترك والمغول واليهود، السابق ح-٢/ ١٨٠-٢٢٦.

(٢) السابق ح-٢/ ٢٢٧-٢٤٠.

(٣) «في ذكر بعض من اشتهر من معجزاته، وظهر من علامات نبوته في حياته»، سيرة النبي ص ١٣٩-١٧٢، «اذهي فإننا لم نأخذ من مائك شيئا، ولكن الله سقانا»، السابق ص ١٤٣، «اثبت أحد فإننا عليك نبي أو صديق»، السابق ص ١٥٠، «والذي نفسي بيده ما من شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله ما خلا عصاة الأنس والجن»، السابق ص ٥٢، «إنه شكّا كثرة العمل وقلة العلف، إنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه في العمل الشاق من صغره»، السابق ص ١٥٢، «نعم تطلق هذه الظنية»، السابق ص ١٥٢-١٥٣، «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»، السابق ص ١٥٣.

(٤) أ- الطبيعة: انشقاق القمر، الاستسقاء، نبع الماء بين أصابعه.

ب- الجماد والنبات والحيوان: تسليم الحجر عليه، وانقياد الشجر له، حنين الجذع إليه، شكوى البعير إليه.

ح- الإنسان: تكثير الأطعمة والأشربة، تكثير الطعام في السفر، البركة في طعام السلم، الشاة المسمومة، رده عين قتاده، دعاؤه لبعض الصحابة، دعاؤه على بعضهم.

د- التاريخ: ما أخبر به من الكائنات، المستقبلية، ما أخبر به عما وقع من الحوادث الماضية، ذكر صفاته في كتب الأولين، السابق ص ٤٣٧-٤٣٨/ ٤٥٩-٤٩٦، نور اليقين ص ٢١٨.

تحت الفؤوس. وأخذ حفنة من التمر أرسلتها مسلمة مع ابنتها إلى أبيها وخالها لغذائهما فأخذها الرسول بكفه، وأمر بثوب وبسطها فيه فملأه وأمر بأهل الخندق أن يأتوا للغذاء. وكلما أكلوا زادت حتى امتلأت البطون، وفاض التمر من الثوب، أسوة بتكاثر الخبز والسّمك في معجزات السيد المسيح. ومرة ثالثة دعا أحد المسلمين الرسول وحده إلى الطعام على شاة مشوية وبعض الخبز فدعا الرسول جميع أهل الخندق للحضور معه. فأكل الجميع وفاض. ومرة رابعة أخذ الرسول المعول لمساعدة أحد المسلمين في حفر الخندق وكسر صخرة عاصية. فلمعت الصخرة من أثر المعول ثلاثا. الأولى فتح الله عليه بها اليمن، والثانية الشام والمغرب، والثالثة المشرق. ولما دخل الرسول مكة فاتحا وكانوا يتلون ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، كان يشير إلى الصنم بعصاه في وجهه، فيقع الصنم على قفاه، وإذا أشار إلى قفاه وقع على وجهه حتى وقعت الأصنام كلها^(١). وكلها حالات نفسية للشعب من الأكل مع الرسول أو حفر الخندق في المناطق الصعبة الصخرية مع الرسول. ونتيجة هذا الجهد أمل في فتح الشام والمغرب ضد الروم، والشرق ضد الفرس، ووقوع الأصنام بمجرد الإشارة إليها دليل على هشاشة الآلهة الخشبية وعجزها عن الدفاع عن نفسها، ووقوعها على قفاه مزيدا من الاحتقار لها.

وقاتل عكاشة بسيفه حتى انقطع. فأعطاه الرسول عودا من حطب فانقلب في يده سيفا طويلا شديد المتن أبيض الحديد يسمى العون، قاتل به حتى فتح الله على المسلمين. وقتل وهو معه. وهي واقعة من صنع الخيال على مدى قدرة الرسول على المساعدة في الحرب بالعتاد والسلاح. وصفات السيف تدل على الصورة الفنية: البياض، والطول، والشدة، والاسم. وعكاشة هو الذي بشره الرسول بدخول الجنة مع سبعين ألفا على صورة القمر ليلة البدر واستبعاد آخر لأن عكاشة سبقه، وكأن الجنة لا تتسع لسبعين ألف وواحد. والبشارة أو الدعوة تظل قائمة لا ترد إلا في الخيال الشعبي. وهو خير فارس في العرب. وهم من العرب وإن لم يكن العرب منه^(٢).

(١) ابن هشام ج٢/١٨٧-١٨٨/٣٥٢-٣٥٣.

(٢) السابق ج١/٥٦٢-٥٦٣، الجوهرة ج١/١٨١.

وتقتضي رومانسية القتال مخاطبة السيوف وما عليها من دماء الأعداء^(١). وأثنى الرسول على سيوف الصحابة التي صدقت أيضا في القتال. فالقتال شعر. لذلك كان المقاتل يرتجل شعرا على إيقاع السيوف وهو يقاتل. وكان الشعر والقتال خاصيتين رئيسيتين في حياة العرب. ويشعر المقاتل بتعاطف متبادل مع الجبل^(٢). فعليه نصره، ووراءه يختبئ العدو. وتساهم الأرض في حمل الدلالات. إذ لفظت الأرض دفن مشرك مرتين حتى وضع بين جبلين وعليه الحجارة. والأرض تبلع أكثر منه شرا^(٣). فالطبيعة تشعر بالتوحيد والشرك.

وتنفعل ظواهر الطبيعة بما يحدث من ظواهر إنسانية. فالطبيعة إنسان كبير، والإنسان طبيعة صغيرة. فقد هبت ريح قوية خافها المسلمون وطمأنهم الرسول بأنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار، وهو رفاعة بن زيد من عظماء اليهود والمتحالفين مع المنافقين وجده المسلمون في التابوت في ذلك اليوم^(٤). فالطبيعة تغضب من الكفر وتزجر.

ولم تكتف الرواية بقول الرسول: نصرت يا عمر بن سالم بل عرض الله له عانا من السماء فقال «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بن كعب»، فالطبيعة تشهد على الإنسان^(٥). وفي غزوة الطائف عندما بنى المسلمون مسجدا مكان السارية التي أقامها الرسول بين القبتين لزوجتيه كان لا تطلع عليها شمس يوما إلا سُمع لها صوت^(٦). وهو إحساس باطني بعظمة المكان بالصوت والصورة. والرسول قادر على حبس البرد عن الصحابة وحمائهم من الطقس^(٧). وفي رواية انشق القمر فوق الجبل مرتين. وقيل إن الرسول

(١) قول الرسول «اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم»، وقال لعلي بعد أن طلب نفس الشيء «لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو رجانة»، وقال لعلي «ألا يصيب المشركون منا مثلهما حتى يفتح الله علينا»، ح٢/ ٨٧.

(٢) «هذا جبل يحبنا ونحبه»، سيرة النبي ص ٣٤١.

(٣) «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم بما أراكم منه»، ابن هشام ح٢/ ٥٢٨-٥٢٩.

(٤) السابق ح٢/ ٢٥٠.

(٥) السابق ح٢/ ٣٣٥.

(٦) السابق ح٢/ ٤١٠، بهجة المحافل ص ٢٨٤.

(٧) «اللهم احبس عنهم البرد»، معجزات الامة ص ٩٢.

سحره^(١). وتعارض رواية انشقاق القمر أحاديث الرسول نفسه^(٢). إنها نشأت المعجزة من هز اعتقاد الصابئة بالوهية الكواكب. وفي رواية انجست الشمس ليلة الإسراء والمعراج تكريماً للضيف القادم بعد أن دعاها الله أن تفعل، كما حدث ليوشع بن نون وبناء على نموذج توراني وربما للداود^(٣). وهي أكبر من القمر وأعظم منه، فعظم المعجزة من عظم كمها.

وبالنسبة للنبات وحنين الجذع إلى الرسول بعد اعتلائه المنبر، إسقاط نفسي من قوة جذب الرسول ليس فقط البشر بل أيضاً الجماد^(٤). ومن المعجزات إحياء الجماد والدخول معه في حوار مثل تسليم الأحجار والأشجار عليه^(٥). وقد سعت الشجرة إليه ثم عادت إلى موضعها، وكان الحجر يسلم عليه قبل النبوة^(٦). ورمي الرسول وجوه المشركين بالحصباء^(٧). ودرت الجزعة باللبن لما لمس الرسول ضرعها فشرب هو وأبو بكر ثم تقلص الضرع^(٨). ومن معجزاته تكثير التمر والطعام ونيع الماء بين أصابعه^(٩).

وبالنسبة للحيوان الرسول قادر على الحديث مع عظام الحيوانات^(١٠). كما استطاع الرسول إناخة الجمل بنخسة من عصي أو من فرع شجرة حتى ركبها صاحبه وأصبح

-
- (١) عيون الأثر حـ ٢٠٧/١-٢٠٨، ألفية السيرة ص ٥٩-٦٠.
(٢) «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يتكفنان لموت أحد ولا لحياته»، سيرة النبي ص ٣٦٥/٧٥، مختصر سيرة (١) ص ٦٩، صحيح السيرة ص ٨٩-٩٠.
(٣) الإشارة ص ١٣٩-١٤١.
(٤) السابق ص ١٧٦، سيرة النبي ص ٣٤٢، «إن دعوت هذا العنق من النخلة فجاء أشهد أني رسول الله»، المعجزات اللامعة ص ٥٥.
(٥) «لما أوحى الله إلي جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله»، الخصائص الكبرى حـ ٢٢٥/١.
(٦) «أنني لأعرف حجراً بمكة، كان يسلم علي قبل أن أبعث. إنني لأعرفه الآن»، بهجة المحافل ص ٧٢، سيرة النبي ١٢٠، سلام الحجر والشجر عليه قبل بعثه، السيرة الحلبية حـ ٣٢٠-٣٢١، صحيح السيرة ص ٦٤.
(٧) خير الوري ص ٦٧٥-٦٧٦.
(٨) الخصائص الكبرى حـ ٧٣-٢٧٤، بهجة المحافل ص ١٣١.
(٩) خير الوري ص ٣٥٨-٣٥٩/٣٨٨، ٤٩١-٤٩٢/٥٤٠، استسقاء الرسول ربه لأمته، استسقاء النبي واستجابة المولى لدعائه، خير الوري ص ٧٤٤-٧٤٥.
(١٠) «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، سيرة النبي ص ٣٤٠.

الجمل أحسن الجمال ركضا. وقد أراد الرسول شراء الجمل وأراد صاحبه أن يهبه للرسول فعرض درهما أو اثنين حتى أوقية والرسول يرفض إلا السعر الحقيقي^(١). والرسول توجه إلى الكعبة قبل صلح الحديبية أناخت ناقته في مكان للإقامة وكان تفسير الرسول أنها ما تعبت بل حبسها حابس الفيل عن مكة^(٢). وهو استدعاء الذكريات. الناقة تستدعي الفيل وناقة الرسول تستدعي فيل أبرهة. الناقة لا تتذكر حادثة مرَّ عليها مئات السنين ولكن الإنسان هو الذي يربط بين الأحداث. وسارت ناقة الرسول وهو داخل المدينة تعرف طريقها، خلوا سبيلها فإنها مأمورة^(٣).

وبالنسبة للإنسان المعجزات عديدة مثل: تكثير الطعام والشراب، وإبراء المرضى ببركة يده الشريفة^(٤). وفي تكثير الماء والطعام يشتد الخيال فيزداد عدد الشاربين والآكلين. وإذا ضعف الخيال يقل العدد^(٥). ونفذ قوت المسلمين وهم في طريقهم إلى اليمن بعد أن كان طعام كل جندي ثمرة. فخرجت دابة من البحر، وأصابوا لحمها وشحمها، وطعموا منها عشرين ليلة. وأخذ الأمير ضلعاً من أضلاعها. وأمر بأجسم بعير وحمل عليه أجسم رجل فجلس عليه فخرج من تحتها وما مست رأسه^(٦). ومعجزة إطعام الجوعى معجزة نمطية في تاريخ النبوة، مرة بأصغر طعام مثل السمك ومرة بأضخمه مثل دابة البحر كما تصف الرواية. وقد رمى أحد المسلمين بخشبة في جرف فيخفيه الله عن المشركين ولم يقدروا عليه^(٧). فالمسلم محروس من الشرك بفضل فعله والفضل الإلهي مجتمعين. وبعد أن سمت يهودية شاة مشوية للرسول وأكثر السم في الذراع التي يجبها، وبعد أن أكلها ولم يستسغها أخبره العظم أن الشاة مسمومة. واعترفت اليهودية بأنه لو مات استراح قومها منه بعد أن أمعن فيهم قتلاً. ولو عرف لكان نبيا. فعفا الرسول عنها.

(١) ابن هشام حـ ١٧٨ / ٢.

(٢) السابق حـ ٢٦٥ / ٢.

(٣) بهجة المحافل ص ١٣٣.

(٤) الأسوة الحسنة حـ ٢ / ١٨٠ - ٢٢٦.

(٥) السيرة الحلبية حـ ٣ / ٤١٠ - ٤١١.

(٦) ابن هشام حـ ٢ / ٥٣١ - ٥٣٢.

(٧) السابق حـ ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣.

ومات صاحبه الذي أكل منها^(١). وقد ظل الرسول يعاني من هذه الأكلة حتى مرضه ووفاته. وهو إحساس طبيعي عند أصفياء النفوس، حاسة سادسة تترى لديهم من دوام ممارسة الفضيلة. وأعطى الرسول فدية مائة ناقة لأهل قتيل من المسلمين فلم تضرب أيا منها صاحبها. ربما لأنه لا يوجد سبب لذلك. فالناقة تضرب لوجود سبب^(٢). وفي خيبر حوصر حصن به غلام يرعى غنم صاحبه فأسلم ولم يعرف ماذا يفعل بالغنم، أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه. فأمره الرسول بأن يضرب في وجوهها فإنها سترجع إلى ربها. ثم استشهد الغلام وقال عنه الرسول «إن معه الآن زوجته من حور العين في الجنة»^(٣). وكان الرسول لا يحقر أحدا.

والطب النبوي يقوم كله على المعجزات، شفاء الأمراض بالدعاء مثل وجع الضرس^(٤). وقد أجرى الرسول عديدا من المعجزات أثناء الحرب وفي لحظات الخطر ومنها العلم بالمجهول، والتنبؤ بالمستقبل، والبشارة الطبية، ولما أصيبت عين قتادة ووقعت على وجته ردها الرسول بيده فكانت أحسن عين وأحدها. فالرسول يجري المعجزات وسط الحرب^(٥).

والرسول قادر على نشر العلم بالدعاء كما فعل مع ابن عباس^(٦). وهو قادر على هداية الناس كما فعل مع أبي هريرة^(٧). ولما قتل أحد المسلمين ظلما من قاتله رآه يرفع بين السماء والأرض حتى رأى السماء من دونه^(٨). وهو إحساس بضرورة التعويض عن الظلم في الأرض بعدالة السماء، ورفع الشهداء الثلاثة قادة غزوة مؤتة مع الروم ورآهم الرسول وقد رفعوا إلى الجنة، فيما يرى النائم، على سرر من ذهب. ورأى في سرر أحدهم

(١) «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، السابق حـ ٢/ ٢٨٧.

(٢) السابق حـ ٢/ ٣٠١.

(٣) السابق حـ ٢/ ٥٣٣.

(٤) «أذن مني، فو الذي يقيني بالحق لأدعون لك بدعوة لا يدعو بها مؤمن مكروب إلا كشف الله كربته... اللهم اذهب عنه سوء ما يجيد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المتين عندك»، المعجزات اللامعة ص ٢٦.

(٥) ابن هشام حـ ٢/ ٧٢.

(٦) «اللهم بارك فيه وأنتشر منه»، «اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين»، المعجزات اللامعة ص ٩٤.

(٧) «اللهم أهد أم أبي هريرة للإسلام»، السابق ص ٩٥.

(٨) السابق حـ ٢/ ١٦١.

إزورارا عن سريري صاحبيه لتردده^(١). وحزن الرسول على صخر وأوصى به له. ورؤية الرسول الشهيد في الجنة تصديق ذاتي لما يقوله حتى يتأكد القوم صحة قوله ومعانيته. وخاطب الرسول الموتى، شهداء القلب^(٢). فالموتى أحياء عند ربهم يرزقون. ويصل الأمر ليس فقط إلى كلام الموتى بل إلى أحيائهم^(٣).

وقد غشي المسلمين النعاس يوم أحد لتفسير هزيمتهم^(٤). وهل تكون المعجزة لصالح المسلمين أم للإضرار بهم؟ وماذا عن التفسير الحربي بالتفاف خالد بن الوليد من وراء الجبل، وترك الرماة مواقعهم للنهب والسلب؟

و- المعجزات المعنوية

وقد تكون المعجزات معرفية وليست فعلية، فقد أخبر الرسول من السماء بكتاب حاطب الذي أرسله إلى قريش مع امرأة يبلغها فيه بقدم الرسول إلى مكة^(٥). وهي رواية وليست قولاً مباشراً للرسول. ولا يوجد طريق آخر علم الرسول به الخبر. لذلك استسهلت الرواية طريق السماء، وأثناء الغسل لما اختلف المسلمون في كفيته، مجرداً من الثياب أم بالثياب ألقى الله عليهم النوم. فما كان أحد منهم إلا وذقنه في صدره. ثم سمعوا صوتاً من ناحية البيت أن غسلوا النبي وعليه ثيابه^(٦). فالقرار من فوق وليس من مشاورة الصحابة، وأتى الرسول خبر من السماء يعلمه بقدر اليهود ونيتهم في قتله بإلقاء حجر من أعلى البيت وهو جالس تحته^(٧). فالحماية من الله.

وقد علم الرسول بما قاله متاجيان لا يسمعهما أحد، مما يدل على أن له مصدراً خاصاً

(١) ابن هشام ح ٢/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً... والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، سيرة النبي ص ٢٧٢، بهجة المحافل ص ١٥٦.

(٣) «أرني قبرها... يا فلانة أتمنين أن ترجعي إلى الدنيا... يا فلانة أجيبني بإذن الله.... إن أبوك قد أسلم فإن أجبت أن أردك عليهما»، المعجزات اللامعة ص ٢٤-٥.

(٤) صحيح السيرة ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٥) «وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب»، ابن هشام ح ٢/ ٣٣٨.

(٦) السابق ح ٢/ ٥٥٦.

(٧) السابق ح ٢/ ١٦٤-١٦٥.

للمعرفة^(١). وعرف بها تحدث أحدهما به نفسه ليقته. ثم وضع يده على قلبه فاستغفر الله^(٢). فهل هي البصيرة التي يدرك بها صاحبها ما لا يدركه غيره؟ ولما ضاعت ناقة الرسول سخر أحد المشركين منه كيف لا يعلم مكانها وهو نبي يأتيه الخبر من السماء؟ وأجاب الرسول بأنه لا يعلم إلا ما علمه الله. وقد دله الله عليها أمام استغراب الناس^(٣). ويمكن بالحدس أو معرفة طبيعة المكان وطبيعة الحيوان معرفة أين ذهبت الناقة. وقد وصل التشبيه في المعرفة إلى درجة الامتداد إلى يوم القيامة. فقد أعطى الرسول أحد المسلمين عصاه حتى يعرفه يوم القيامة. فأخذها من أعطيت له وظلت معه بجوار سيفه ودفنت معه^(٤). وقد آمن الرسول أحد المشركين لثلاثة أيام على أن يختفي بعدها ولكن الرسول عرف مكانه فبعث إليه من يقتله^(٥). وهو عقاب شديد على من يخلف الوعد. ولما جاء أبو جويرية بنت الحارث بفداء ابنته حجز بعيرين فسأله الرسول أين البعيران؟ فأسرع الحارث وأسلم، وعرف أنه رسول الله بإطلاعه على ما لا يعرفه أحد. ودفع فداء ابنته فأسلمت. ثم خطبها الرسول من أبيها ودفع صداقها^(٦).

وكان الرسول يعرف ما هو مجهول وهي سمة الأنبياء. كان يعرف حياة عدي بن حاتم السابقة قبل قدومه للإسلام مما أقنعه أن الرسول نبي^(٧). ويمكن معرفة ذلك أيضا عن طريق الأخبار والسماع. كما أنبأ الرسول وفد جرش بأن بُدن الله تنحر هناك الآن بعد انتصار المسلمين. ثم دعا الله أن يرفع الغم عنهم. فعندما رجع الوفد إلى بلده أدرك صدق الرسول فأمن القوم^(٨). وقد تحدث علماء النفس عن قدرة البعض على الرؤية عن بعد بسبب حدة الحواس، وتوسيع مدى علمها. وفي إحدى الغزوات عرف الرسول

(١) هما الحارث وعُتاب «لقد علمت الذي قلت»، السابق حـ ٢/ ٣٥.

(٢) السابق حـ ٢/ ٣٥٣.

(٣) السابق حـ ٢/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٤) «أمسك هذه العصا عندك... آية بيني وبينك يوم القيامة»، السابق حـ ٢/ ٥٢٢.

(٥) «إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا»، ابن هشام حـ ٢/ ٩٠-٩١.

(٦) لذلك نزلت آية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»، السابق حـ ٢/ ١٧٧-١٧٨.

(٧) السابق حـ ٢/ ٤٩٠.

(٨) السابق حـ ٢/ ٤٩٦.

أن القائد قتل المطلوب رأسه قبل أن يخبره القائد^(١). وهو إحساس طبيعي ناتج عن هم المعركة والإحساس بضرورة النصر وموت القائد الذي يعني هزيمة جنده. وعرف الرسول مباشرة تقسيم الجزور بين قوم قبل أن يخبر بها وهو ما يقوله الصوفية^(٢).

وسمع أحد المتخلفين الثلاثة عن غزوة تبوك بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت صوتا صارخا يقول: يا كعب بن مالك أبشر، فخر ساجدا وعرف أن الفرج قد جاءه. وكان الصوت يسبق فرسه وهو متوجه إلى الرسول^(٣). وهو إحساس نفسي بالفرج بعد الشدة، وبالبسط بعد القبض بمصطلحات الصوفية، وسمع معاذ بن جبل صوتا يهتف به وهو في اليمن يبلغه بوفاة الرسول نتيجة للقلق عليه. والتوهم أحد الحواس الخمس الداخلية عند الفلاسفة^(٤).

وقد تتحول الرؤية الحسية البصرية إلى رؤية حدسية روحية. فقبل غزوة أحد رأى الرسول رؤية. رأى بقرا، وفي ذباب سيفه ثلما، وأنه أدخل يده في درع حصينة أولاها أنها المدينة. فالبقر الذي يذبح أصحابه يقتلون، والثلثم في ذباب سيفه رجل من أهل بيته يقتل^(٥). وهو حمزة. وطلب الرسول في غزوة ذي قرد من أبي عياش إعطاء فرسه لمن هو أفرس منه، فقفز عليه وغمز الفرس حتى طار ثم طرحه على الأرض، وأعطاه الرسول لغيره^(٦). ويعلم الرسول الحوادث وهو بعيد عنها ولديه أخبارها، كما حدث في غزوة بني قرد عندما علم أن باقي إبلهم ترعى في غطفان، ولا داعي للاستيلاء عليها^(٧).

وقبل غزو ثقيف رأى الرسول رؤية أنه قد أهديت له قدح مملوءة زيدا فنقرها ديك

(١) السابق حـ ٥٢٢/٢.

(٢) «تقسيم عوف الأشجعي الجزور بين قوم»، السابق حـ ٥٢٦/٢.

(٣) السابق حـ ٤٥٣-٤٥٤.

(٤) البستي حـ ٤٢٧/٢.

(٥) ابن هشام حـ ٢٥٦/٢، «إني رأيت في منامي أن في سيفي ثلثم وأن بقرة لي تذبح وإني أدخلت يدي في درع حصينة»، بهجة المحافل ص ١٦٤، «بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنها فأوص إلي في المنام أن أنفخها. فنفختها فطارا فأولتهما كذايين يخرجان بعدي، أحدهما العنسي والآخر سليمة»، السابق ص ٣٢٤.

(٦) السابق حـ ٢٤٢/٢.

(٧) السابق حـ ٢٤٤/٢.

فأراق ما فيها. فنصحها أبو بكر بأن يرجع عن غزوه اليوم ووافقه الرسول. وطلبت منه إحدى النساء أن يعطيها حلي بعض النساء فعاتبها الرسول بأنه قد لا يؤذن له بالخروج. ونصحها عمر أيضا بعدم الغزو^(١). ورأى الرسول رؤية أخرى ليلة القدر ثم نسيها ورأى في ذراعه سوارين من ذهب كرههما، فنفعهما فطارا فأولها هذين الكذابين سليمة الحنفي والأسود بن العنسي، صاحب اليمين وصاحب اليمين^(٢).

وحدثت رؤيا لعاتكة بنت عبد المطلب وليس فقط للرسول أن راكب بعير يصرخ بأعلى صوته على مصارع قريش فلا يوجد منزل في قريش إلا انتابه جزء منها. وذاعت الرؤيا في قريش. واتهمت قريش بني عبد المطلب بالكذب. ولم يدافع العباس. وكان لنا مع أبي جهل. ولأتمه نساء عبد المطلب. وأراد العباس النيل من أبي جهل فتحققت الرؤيا^(٣). فاهم بالليل يتحول إلى فعل بالنهار، كما حدثت رؤيا جهيم بن الصلت في مصارع قريش^(٤). وأطلع أحدهم على أسير في يده قطف من عنب مثل رأس الرجل يؤكل منه. ولا يوجد في الأرض عنب. ويعني أنه يقتل^(٥). فقطف العنب مثل قطع الرأس. ورأت صفية نفسها في المنام عروسا أن قمرا وقع في حجرها. وعرضت رؤياها على زوجها ففسرها أنها تتمنى أن تكون زوجة ملك الحجاز محمد. ولطم وجهها وعلم الرسول بها حدث^(٦). فالزوج المشتاق إليه هو القمر. وحصول المرأة عليه وقوع القمر في حجرها. وتنبأت كاهنة من حدس، وأندرت قومها بتقهقر جيش الرسول. وهي أمنية عند المشركين كما أن تقدمه أمنية عند المؤمنين^(٧). وإذا رأى أحد المسلمين الرسول في المنام فرؤيته صادقة لأن الشيطان لا يتمثل به^(٨). ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة^(٩).

(١) السابق حـ ٤١١/٢.

(٢) السابق حـ ٥٠٥/٢.

(٣) السابق حـ ٥٣٩/١-٥٤٠.

(٤) السابق حـ ٥٤٧/١.

(٥) السابق حـ ١٤٩/٢.

(٦) السابق حـ ٢٨٥-٢٨٦.

(٧) «أندركم قوما خُزرا، ينظرون سُذرا، ويقودون الخيل تترئ ويهريقون دما عكرا»، السابق حـ ٣٢٤/٢.

(٨) «من رأى في المنام فسيرا في اليقظة (كأنه رأى في اليقظة)، لا يتمثل الشيطان بي»، شائل النبي ص ٢٢١-

٢٢٤، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، بهجة المحافل ص ٣٩٤-٣٩٦.

(٩) «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»، سيرة النبي ص ٢١٢، بهجة المحافل ص ٧٢.

وقد تتحول الرؤية الصادقة إلى تنبؤ بالمستقبل. فقد تنبأ الرسول بانتصار علي في خيبر^(١). وتنبأ باستشهاد زيد بن حارثة ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحه^(٢). وقد تنبأ بمقتل قزمان المنافق الذي قتل في أحد^(٣). وهو إحساس طبيعي بأن الشر لا يبقى في العالم، وأنه يلقي جزاءه في الدنيا قبل الآخرة. وتنبأ بقتل الزبير بن العوام ياسرا في مرحب اليهودي في خيبر. وهو إحساس طبيعي بتغلب الخير على الشر، والصدق على الكذب، والإيمان على النفاق، وقد تنبأ بارتداد مسيلمة وبتنبؤه. وهو إحساس بطبيعة العرب التجارية التي تريد أن تبقى على الإيمان دون الزكاة. كما تنبأ بموت زيد الخيل الذي حسن إسلامه بحمي المدينة^(٤). وهو إحساس طبيعي بجزاء الشهداء.

ويعرف الرسول ما بالطبيعة من خير أو شر. فقد منع المسلمين وهو في طريقة إلى تبوك ألا يشربوا من ماء الحجر ولا يتوضأوا منه أو يعجنوا منه وألا يخرج أحد بمفرده إلا ومعه صاحبه. ولم يسمع اثنان النصيحة، الأول لقضاء حاجته فمرض. والثاني خرج للبحث عن بعيره فحملته الريح. ثم عاد. شفي الأول. وعاد الثاني في تبادل السبايا بالمدينة. كما أوصاهم بعدم دخول بيوت الذين ظلموا إلا وهم باكون خوفا من أن يصيبهم مثل ما أصابهم^(٥).

وإخبار الرسول بالغيوب المستقبلية كثيرة^(٦). وكلها تنبؤات حسنة بالنسبة للمستقبل،

(١) قل «الأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس فرازا..... خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»، ابن هشام ح٢/ ٢٨٤.

(٢) السابق ح٢/ ٣٢٢.

(٣) قال الرسول «إنه لمن أهل النار»، السابق ح٢/ ٧٧.

(٤) السابق ح٢/ ٤٨٤-٤٨٨.

(٥) السابق ح٢/ ٤٤٢.

(٦) مثل: استخلاف المسلمين في الأرض، غلبة الروم على فارس، تسلط الله الأرض على الصحيفة لتأكلها إلا ذكر الله، مصارع القول يوم بدر بمصارعهم واحدا واحدا، إنفاق كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله، امتداد ملك أمته في طول الأرض، قتال قوم صغار الأعين ذلف الأنوف وهم التار، إصلاح الحسن بن علي بين فتيين عظيمين من المسلمين، قتل الخوارج، قتل عمار في فتنه، خروج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، الفصول ص٢٨٨-٢٩٢، إخبار الله الرسول بها قاله الأنصار بعد الفتح، خير الوري ص٦٤٩-٦٥٠، إخبار الله الرسول بها تحدث به قریش عند أذان بلال، ص٦٥١، إخبار الله الرسول بها قاله فضاله ابن عمير، ص٦٥٤.

وقد يكون التنبؤ بمظاهر الطبيعة مثل هبوب الرياح^(١). وقد يصل مدى التنبؤ ليس فقط إلى ما يحدث في الأرض في الحياة الدنيا، بل أيضا إلى ما يحدث في السماء بعد الموت في الحياة الآخرة، من في الجنة، ومن في النار. فتنبأ لبعض المنافقين أنهم في النار^(٢). ومنهم من تحط عنه الخطايا كما حطت عن بني إسرائيل.

وقد تحول قاتل مشرك إلى الإسلام عندما طعن مسلما بالرمح بين كتفيه وأخرج سنان الرمح من صدره قائلا «فزت والله»، فكيف فاز وقد قتل الرجل؟ فلما علم أن الفوز بسبب الشهادة أسلم من قوة اعتقاد المسلم الشهيد^(٣). ولا فرق بين حيوان الأرض وطيء السماء، فقد أنبأت الطير التي تحوم حول المعسكر بمقتل مسلمين غدرا^(٤). فالطير بموقعه في السماء قادر على أن يرى عن بعد، ويقابل الروح الطائر من جسد الشهيد صاعدا إلى أعلى. ويقوي الصورة حديث مشابه يرى أن الأرواح في حواصل طيور خضر^(٥). ومن ضمنها تدخل أشراف الساعة. فلا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، وتغرب من مشرقها أي اضطراب قوانين الطبيعة، وسير الطبيعة ضد القانون^(٦).

وأحيانا يتفائل الرسول بالحوادث. فقد ذب فرس بذنبه فأصاب كلاب سيف فاستله فرأى في ذلك فألا بالنصر^(٧). وكان الرسول يحب الفأل ولا يتطير، الفأل الحسن وليس التطير السيئ. كما تنبأ بأنه قاتل رأس الشوك بقرش الذي كان يتوعده بالقتل^(٨).

(١) «سهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقيم فيها أحد. فمن كان له بعير فليشد عقاله»، الأنوار حـ ٩٣/١، «هبت هذه الرياح لموت منافق مات بالمدينة»، الرفا حـ ٣١٠/١.

(٢) الأنوار حـ ٩١-٩٢.

(٣) ابن هشام حـ ١٦١/٢.

(٤) السابق حـ ١٦٠.

(٥) وهو ما يسمى باللغة الإنجليزية Eye-Bird View.

(٦) وهي عشر آيات: الدخان، الدجال، الدابة، طلوع الشمس من مغربها، نزول عيسى ابن مريم، يأجوج ومأجوج. وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، الأنوار حـ ١٠٣-١٠٤.

(٧) «شم سيفك، فأني أرى السيوف تسهل اليوم»، ابن هشام حـ ٥٨/٢.

(٨) «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، السابق حـ ٧٤-٧٥.

وقد بشر الرسول بأن قريشا لن تغزو المسلمين بعد الخندق ولكن المسلمين هم الذين يغزونهم حتى فتح مكة^(١). وأعطى الرسول المعجزات كما أعطى الأنبياء السابقون ومنها القرآن العظيم^(٢).

المعجزة الكبرى إعجاز القرآن. وقد اعترفت مكة به، وأنه لا يشبه شيئا من كلام البشر. وكان سبب دخول الكثير إلى الإسلام^(٣). ووجوه الإعجاز كثيرة: حسن التأليف وبلاغته ونظمه وأسلوبه وإخباره بما لم يقع، والرواية بما وقع، أثره على السامع، عدم الملل من سماعه، جمعه للعلوم والمعارف. فهي صفات أدبية وعلمية قد توجد فرادى في الشعر أو في أي نسق فلسفي أو علمي. ومنها الإيجاز وبلاغته، خروجه من جنس كلام العرب، إخبار بالمغيبات، كشف الأسرار، الروعة والهيبه التي تحل بالقلوب، الجمع بين الدليل والمدلول^(٤). القرآن معجز بنظمه وتشريعته، وهو ليس إعجازا علميا لأن العلم متغير أو رياضيا لأن الرياضه حسابات عقلية^(٥). والرسول نفسه صاحب بيان^(٦). وقد اتهم بسحر البيان من قوم يتذقون الشعر وبلاغة اللغة. أدركوا

(١) «ولن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»، السابق حـ ٢/٢١٧، الإخبار بالغيوب المستقبلية، الفصول ص ٢٨٨-٢٩٢، «إني رأيت في منامي كأن في سيفي ثلمه، وأن بقرا تذبح، وتأولتها أن نفرا من أصحابي يقتلون، وأن رجلا من أهل بيتي يصاب»، سيرة النبي ص ٢٧٨.

(٢) «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغارها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»، الإشارة ص ٤٣٢، ومنها: نبع الماء بين أصابعه فتوضأ وشرب منه ألف وخمسمائة، وفي روايات ثلاثائة وأخرى سبعين إلى ثمانين. عدم نقص المزادين بعد أن شرب منها حوالي أربعين، تسبيح الحصى والطعام في كفه، تسليم الشجر والحجر عليه، شهادة الذئب بنبوته، شكوى البعير به كثرة العمل وقلة العلف، وشكوى آخر بتجويعه واستعباده، وسجود بعيرين آخرين له، شق شجرة الأرض حتى قامت عنده وهو نائم وسلمت عليه، واجتماع شجرتين حوله حتى يقضي حاجته ثم تفرقتا، أمر العذق أن يأتيه وأن يغادره ففعل، أمر بنحرس بدنان فظلت يزدلفن إليه بأيتن يبدأ، إرجاع العين إلى مكانها. تفل في عين فلم ترمد، برء رجل بمسحته له، أخبر يقتل أبي بن خلف، التنبؤ بأماكن مصارع المشركين، غزو البحر كالمملوك على الأسيرة، تنبؤ بمقتل عثمان، وبإصلاح الحسن للأمة، والإخبار بمقتل الكذاب وكسرى، وأن أحدا من أهل النار، وهبوط المطر بعد شكوى الناس القحط، وإطعام أهل الخندق، وازدياد الطعام من شعير وتمر، وإطعام أربعمائة راكب ولم ينقص التمر، وإطعام جيش كبير من زاد قليل، السابق ص ٤٣٢-٤٤٣.

(٣) الخصائص الكبرى حـ ١/ ٢٥٤-٢٧٠.

(٤) محمد ص ١٥-٢٠.

(٥) نور اليقين ص ٢٢٠.

(٦) عبقرية محمد، محمد، عبد البليغ، ص ١٠٣.

سحر القرآن دون الوعي بمضمونه^(١). ومن دلائل المعجزات سمعته وعقله وصدقه وأمانته. فالأخلاق علامة النبوة وشرطها^(٢). وهي معجزات أكثر قبولاً من إمداده بالملائكة ونصره بالريح وبالرعب، وهي عوامل نفسية مؤثرة في الحروب مثل الحرب العادلة والدفاع عن النفس، معجزة في البلاغة والتشريع، ومعجزة في السلوك القويم.

٥- الرسول القائد

وكان الرسول لا يقوم فقط بدور النبي، بل أيضاً بدور القائد والزعيم. فهو الذي يبلغ الوحي، وينظم المجتمع، ويقود المعركة، ويؤسس الدولة، وكان العرب يستجيبون لذلك بسهولة نظراً لحاجتهم إلى دين جديد يوحدهم، وقانون جديد ينظمهم، وقائد جديد لمعاركهم، ومؤسس جديد لدولتهم، فهو قائد عسكري^(٣).

وكان في كل مرة يخرج الرسول غازياً يستخلف أحداً وراءه بالمدينة، وهي بداية نشأة السلطة السياسية في المجتمع الجديد أو الدولة، وكان الاستخلاف في البداية كإمام في إقامة الصلاة ليس إلا، لا توريثاً لسلطة ولا توصية بخلافة، ولا تعييناً لثابت^(٤). وكان

(١) حياة محمد ص ١٤٧-١٤٩.

(٢) الوفا ح ١/ ٢٦٤، صعب ضم قسم المعجزات هنا مع قسم المعجزات في الشرائع في الفصل الثاني «شخص الرسول»، من الباب الخامس «تشخيص الرسالة»، هنا على نطاق ضيق بمناسبة غزوة بدر. وهناك على نطاق أوسع بمناسبة شخص الرسول ومع ذلك صعب تفادي التكرار هنا وهناك.

(٣) ابن خلدون ص ١٢٩.

(٤) ابن هشام ح ١/ ٥٣٠، عمرو ابن أم كلثوم في غزوة بدر ح ١/ ٥٤٢- سباع بن عرفة الغفاري أو ابن أم مكتوم في غزوة بني سليم، بشير بن عبد المنذر في غزوة السوق، عثمان ابن عفان في غزوة ذي أمر، ابن أم كلثوم في غزوة الفزع ح ١/ ٤١-٤٣، ابن أم مكتوم وعلى المدينة في أحد ح ٢/ ٥٨٨، ابن أم مكتوم على المدينة في بني النضير ح ٢/ ١٦٥، أبو ذر الغفاري في غزوة ذات الرقاع ح ٢/ ١٧٦، عبد الله بن عبد الله ابن أبي سلول في غزوة بدر الآخرة ح ٢/ ١٨٠، سباع الغفاري في غزوة دومة الجندل ح ٢/ ١٨٤، ابن أم مكتوم في الخندق ح ٢/ ١٨٩، وفي بني قريظة، أبو ذر الغفاري في غزوة بني المصطلق ح ٢/ ٢٤٨، نحيلة ابن عبد الله الليثي في الذهاب إلى مكة معتمراً ح ٢/ ٢٦٣، نحيلة بن عبد الله الليثي في خيبر ح ٢/ ٢٧٩. ابن الاضطرب في عمرة القضاء ح ٢/ ٣١٤، زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ح ٢/ ٣١٦، أبو رحم في المدينة عند فتح مكة ح ٢/ ٣٣٨، عتاب بن أسيد في هوازن ح ٢/ ٣٧٣٧، وفي مكة بعد عمرة الرسول ح ٢/ ٤٢٤، ومعه معاذ بن جبل ليفقه الناس في الدين، ومحمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة، وربيع سباع بن عرفة في غزوة تبوك ح ٢/ ٤٤٠، أبو دجانة في حجة الوداع ح ٢/ ٥٠٧، عبقرية محمد ص ٣٧-٨٤.

كل فريق يرفع لواء ذا لون خاص أو لواءين^(١). وكان للرسول لواءان. الأول مع علي، والثاني مع بعض الأنصار. ووظيفة اللواء الراية المرفوعة التي يتجمع الجيش حولها. وما دامت مرفوعة فإن حاملها أو بديله مازال يقاتل، وأن الجيش مازال يحارب، وأن المعركة مازالت مستمرة، وكان إذا قطعت يد حامل اللواء يمسكه بالثانية فإذا اقتطعت محتضنه^(٢). فإذا وقع من على فرسه حمل البديل. وكان على كل جيش قائد أو أكثر. فإن أصيب واحد بقي الثاني أو الثالث. وأحيانا يأمر الرسول بالقتل أو يعطي الإذن به أو يعفو بمفرده. فقد استأذن الخزرج الرسول في قتل ابن أبي حقيق الذي كان يحرض ضد المسلمين في الخندق. كما قتلت الأوس كعب بن الأشرف فأذن لهم نظرا للمنافسة بين الأوس والخزرج في خدمة الإسلام بعد أن كانت العداوة بينهما قبل الهجرة. فذهب إليه نفر من المسلمين وهو نائم. وأزاحوا امرأته بعد أن أحس بالشر وطعنوه بأسيا فمهم وهو نائم. وأنفذ فيه أحدهم السيف في بطنه وهو يقول حسبي حسبي، وأخبروا الرسول بموته وكل يدعيه. فطلب أسيا فمهم، وعرف أن من كان عليه أثر من طعام القتل هو الذي قتله دون قتال أو مبارزة أو نزال كما تقتضي بذلك أعراف العرب^(٣). ولقد أمر الرسول بمقتل اثنين من المشركين في أحد بعد أسر واحد منهم في بدر ثم العفو عنه حتى لا يخدع الرسول مرتين^(٤). وهنا يستعمل الرسول أساليب القوة حتى لا يخدع أحد صاحب الرسالة الجديدة، كما أمّن الرسول مشركا على ألا يوجد بعد ثلاثة أيام. وتظاهر بالاختفاء فأمر الرسول بقتله حتى يعرف الناس صدق الرسول في وعده وأنه لا يقبل الخداع^(٥).

وكان الرسول يعتمد على الكيف دون الكم، على صدق الإيثار أكثر من كثرة العدد،

(١) دفع اللواء في بدر إلى مصعب بن عمير وكان أبيض، ابن هشام ح١/٥٤٢، لواء أحد لمصعب بن عمير ح٢/٥٩.

(٢) مثل غزوة مؤتة التي استعمل عليها الرسول زيد بن حارثة. فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب. فإن أصيب فعباد الله بن رواحة، السابق ح٢/٣١٦.

(٣) السابق ح٢/٢٣٤-٢٣٧.

(٤) «والله لا تسمع عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدا مرتين. أضرب عنقه يا زبير»، «إن المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين، أضرب عنقه يا عاصم بن ثابت»، السابق ح٢/٩٠.

(٥) السابق ح٢/٩٠-٩١.

عشرون صابرون يغلبون مائتين، الواحد بعشرة. فاشتد الأمر على المسلمين فنزلت آية أخرى للتخفيف، مائة يغلبون مائتين واحد بائتين^(١). وهو ما يعرف باسم واقعية الإسلام. وكان الرسول يحرص المسلمين على القتال بوعدهم بالجنة في ثقافة لم تكن تعرف أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وأن هناك ثوابا وعقابا طبقا للأعمال في الدنيا. وحكم على أصيرم الذي أسلم يوم أحد، واستشهد في القتال بأن له الجنة^(٢). فالوعد لا يتأخر حتى لو أتاها الإنسان متأخرا. الوعد في صالح الإنسان مهما كانت ظروفه في الدنيا في الاعتراف به مبكرا أو متأخرا.

وكان الرسول كثير الدعاء للمسلمين بالنصر^(٣). فالدعاء تعبير عن رغبة حارة لتحقيق الفعل. هو قول يتحول إلى عمل. لذلك كان لا يكتفي بالدعاء بالنصر بل كان يشارك بنفسه في القتال^(٤). كما رمى المشركين بالحصباء. وفي ذلك نزل القرآن^(٥). بل إنه نفسه دخل بشخصه المعركة نصرا أو هزيمة. ففي أحد عز عليه أن يسيل الدم من وجهه فحرص المسلمين على القتال لأنه لا يفلح قوم غضبوا وجه نبيهم، وكرر نفس الشيء مع زيادة غضب الله على من تركوا يغضبون وجه نبيهم وهو يمسح وجهه بالماء. وقد رد القرآن^(٦). ومص أحد المسلمين دم رسول الله فأثنى عليه^(٧). بأن من مس دمه دم الرسول فلن تصبه النار. فالتار لا تحرق شيئا من جسد الرسول. وهو تصور طبيعي لكمال النبوة.

(١) «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل يقاتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، ابن هشام ج ١/ ٥٥٤، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَبِّبْكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ج ١/ ٥٩٤-٥٩٥، ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ج ١/ ٥٩٤-٥٩٥.

(٢) «قَالَ إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، السابق ج ٢/ ٧٩.

(٣) مثل «اللهم أن هلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»، السابق ج ١/ ٥٥٣-٥٥٤.

(٤) ضرب الرسول ابن غزية في بطنه بالقدح، السابق ج ١/ ٥٥٣.

(٥) ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَيُبَلِّغَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾، السابق ج ١/ ٥٨٨.

(٦) «كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ غَضِبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يُدْعُوهُمْ إِلَى رِبِّهِمْ»، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، السابق ج ٢/ ٧٠، «أَشْدَدُ غَضَبِ اللَّهِ عَلَى مَنْ دُمِيَ وَجْهَ نَبِيِّهِ»، ابن هشام ج ٢/ ٧٥.

(٧) «مَنْ مَسَّ دَمِي دَمَهُ لَمْ تَصْبِهِ النَّارُ»، السابق ج ٢/ ٧١.

ومات شهيد آخر بعد أن وسد رأسه على قدم الرسول «أدنوه مني»، وتشجيعا للمقاتلين بشرهم الرسول بالشهادة، بل والشهادة الحاضرة. فالمقاتل هو شهيد يمشي أو مشروع شهيد^(١). ودافع مقاتلان آخران عن الرسول، وهو يشجعهم على الرمي^(٢). ولم يشأ الرسول أن يعلن أنه حتى في أحد بعد أن اعتقد المشركون أنهم أصابوه حتى يباغتهم^(٣). وقذف رأس الشرك بحربة في عنقه فقتل عليه. وكان قد تنبأ من قبل أنه قاتله^(٤). وكان الإيوان بالدين الجديد يصل إلى حد التشدد أحيانا. فقد وضع الرسول حارسين على معسكر المسلمين. أصيب أحدهم ولكنه لم يستنجد بأخيه لأنه كان يقرأ القرآن ولم يشأ قطع السورة^(٥). فالجهاد في الدين والجهاد في القتال جهاد واحد.

وكان الرسول يعامل أصحابه كما يعامل أسرته الأولى. ويوصي دائما بهم. وكان يكتفي أصحابه كما كنى عليا بأبي تراب عندما وجده نائما والتراب على رأسه^(٦). والكنية دليل على الألفة والصداقة والقرب^(٧). ويعتبر أصحابه من أهل البيت^(٨). وكان يرفض أن يفحش أحد أصحابه مع أي سائل للرسول^(٩). كان يعلمهم ويهذب آداءهم، كان الرسول بهم رحيمًا. ولو كان فظا أو غليظ القلب لانفصوا من حوله. يشاورهم في الأمر^(١٠). والرسول رفيق بالحيوان. فقد أتت امرأة أبي ذر للرسول على إحدى نوقه تريد نحرها لتدر عليها إذا ما نجت فتبسم الرسول، وسأل: كيف تكافأ الناقة الخير

(١) من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فليتنظر إلى طلحة بن عبيد الله، السابق حـ ٧١/٢.

(٢) هما أبو دجانة وابن أبي وقاص، «إرم فذاك أبي وأمي»، السابق حـ ٧٢/٢.

(٣) السابق حـ ٧٣/٢.

(٤) هو أبي بن خلف «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، السابق حـ ٧٣-٧٥.

(٥) السابق حـ ١٨٠/٢.

(٦) السابق حـ ٥٣١-٥٣٢.

(٧) وهو ما يقال باللغة الشعبية «يدلّع».

(٨) «سلمان منا أهل البيت»، السابق حـ ١٩٣.

(٩) «أنحشت على الرجل»، السابق حـ ٥٤٣.

(١٠) «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ، إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ»، السابق، حـ ١٠٠/٢.

بالشر، والنجاة بالذبح؟ فلا نذر في معصية ولا في ما لا يملك الناذر^(١). فالحيوان له قيمة مثل الإنسان، وله حقوق مثل الإنسان. وقد يشارك الإنسان في حقوقه مثل حق الحياة، وحق المعاملة الكريمة.

علامتان بارزتان في شخص القائد: المرأة والقتال. وفي نفس الوقت يمكن أن يقال نقيضاهما: الإنسان والعفو. فالمرأة في حياة البدوي جزء لا يتجزأ من حياته. طالما تغزل فيها وأنشد الكثير من القصائد بحيث أصبح الغزل نوعاً أدبياً شائعاً في الشعر العربي. والقتال والشجاعة أيضاً في شخصية العربي. لذلك كان القتال أحد فنون الشعر العربي. الفارس فارس في ميدان قتاله، وفي عالم الغزل. والتركيز على الغزوات فقط تجعل الرسول محارباً. ويتبع الغزوات توزيع الغنائم وكأنها جزاء على الجهاد^(٢). والتركيز على المرأة فقط تجعل الرسول عاشقاً للنساء خاصة لو كان في بعض الروايات ما يوحي بذلك^(٣). وهو ما يدعيه كتاب السيرة من المستشرقين.

٦ - قواعد النزال

والحرب معارك شخصية بين اثنين، نزال بين مقاتلين، تعتمد على الشجاعة الفردية ليتحول المنتصر إلى بطل^(٤). فالسيرة مرجع للمقاتل والمقتول. وأحياناً يخرج القتال عن قواعد المبارزة الفردية بعد أن يكر اثنان على واحد^(٥). والقتل حتى التقطيع إصراف في القتل. وألقيت جثث المشركين في القليب^(٦). وناحت قريش على قتلاها^(٧). وقد سأل

(١) السابق حـ ٢ / ٢٤٤.

(٢) مختصر سيرة الرسول (٢) ص ٣٦٤-٣٦٩.

(٣) وهو حديث لحب إلي من دنيكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرعة عيني في الصلاة.

(٤) ابن هشام حـ ٢ / ٧٢ مقتل الأسود المخزومي حـ ١ / ٥٥٢. دعاء عتبة إلى المبارزة وقتله حـ ١ / ٥٥٢.

(٥) قتل حمزة شبيه، وقتل علي الوليد. و تساوي عبيدة وعتبة. و كر علي و حمزة على عتبة فقتلاه. وهذا ضد

مبدأ المبارزة الفردية، السابق حـ ١ / ٥٥٢-٥٥٣، مقتل أمية بن خلف حـ ١ / ٥٥٧، مقتل أبي جهل

حـ ١ / ٥٥٩-٥٦٢، مقتل النضر وعتبة حـ ١ / ٥٦٨، قتال أبي عامر الفاسق حـ ٢ / ٦٠، قتل علي لعمر بن

عبدود حـ ٢ / ١٩٣-١٩٤.

(٦) السابق حـ ١ / ٥٦٤-٥٦٥.

(٧) السابق حـ ١ / ٥٧١-٥٧٢.

الرسول في غزوة أحد من يأخذ سيفه بحقه وهو الشرب من دماء العدو حتى ينحني. فتقدم أبو دجانة وهو يتمختر به. وأبلى بلاء حسنا. وتوقف عندما اكتشف أن السيف يعلو امرأة لأن سيف الرسول لا يقتل امرأة^(١). وقتل حمزة من وحشي الحبشي برمح في ثنيته لاسترداد حرته^(٢). وأسلم أمام الرسول ولم يستطع الرسول رؤيته ولا أحد من المسلمين. فهاجر إلى حدود الشام. فتوفي هناك في عهد عمر. مع أنه قتل مسيلمة الكذاب بنفس الطريقة وخلعه عمر من الديوان لأنه لم يستطع إعطاء قاتل عم الرسول. ولما سمع شيخان مسلمان ما حدث للرسول وهما بالمدينة لحقابه وقتلا واستشهد الأول، وقتل المسلمون الثاني وهم لا يعرفونه^(٣).

وكان الأفراد أبطالا. فأشرف قريش وسادتهم بأنفسهم غزوات وسرايا ومعارك^(٤). فقد استنكر أحد المشركين خبر رسول الله بقتل أناس من المشركين أرسلهما الرسول إلى المدينة بعد غزوة بدر. واستعظم قتل كل هؤلاء من أشرف العرب وسادتهم. وقام بالتحريض ضد الرسول، يبكي أصحاب القليب، وينشد الأشعار. وشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم حتى طلب الرسول من يقتله. فتأمر عليه بعض المسلمين، واستدرجوه في الحديث ونقدوا الرسول، وما فعله في تفريق العرب حتى اطمأن إليهم. وجاءه مرة ثانية ليلا وأنزلوه وامراته تحرضه من أن صوت النداء يحمل شرا. ومشوا به في الشباب ساعات ثم انقضوا عليه بسيوفهم ثم بسكين في ثنيته بعد أن لم تقو السيوف عليه. ومظاهر القسوة أحيانا كثيرة^(٥). وأصيب أحد المسلمين فتفل عليه الرسول فشفاه، واستشهد حاطب وكان غلاما ولكن أباه ظن أن المسلمين قد غرروا به^(٦). وقتل قزمان منافقا كما تنبأ الرسول^(٧). واستشهد آخر مع أنه كان أعرج ولا جهاد

(١) «إنها مشية يغضها الله إلا في هذا الوطن»، السابق ح٢/ ٥٩-٦٢، وقد كان الزبير بن العوام يريد بها.

(٢) «ويحك، غيب عن وجهي فلا أرينك»، السابق ح٢/ ٦٢-٦٥.

(٣) الأول البيان، والثاني ابن رقص، السابق ح٢/ ٧٦-٧٧.

(٤) مثل كعب بن الأشرف ومقتله، السابق ح٢/ ٤٧-٥٢.

(٥) السابق ح٢/ ٧٧.

(٦) «إنه لمن أهل النار»، السابق ح٢/ ٧٧.

(٧) هو عمرو بن الجموح وقول الرسول «أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك»، «ما عليكم ألا تتمعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة»، السابق ح٢/ ٧٩.

عليه^(١). وكانت الحرب بدائية في ذلك الوقت، فردا لفرد، أو جماعة لجماعة بالمواجهة المباشرة، بالسيف والدرع. تعتمد على القوة الفعلية وعلى المهارة الشخصية. تقوم على قطع الطريق^(٢). لذلك تسمى حروب النبي «غزوات» وليست معارك. وفي الفتوح في عصر الخلافة تطورت الغزوات إلى حروب مع الفرس والروم نظرا لتطور أساليب القتال لديهم وآلاته مثل المنجنيق. وتبدأ الغزوات بمبارزات فردية^(٣). كان عليّ بطلها. وتاريخ المعارك هو تاريخ مقتل الأفراد^(٤). وأحيانا يقتل الابن الأب في سبيل الله^(٥). ويتدخل الثأر أحيانا مع الحمية الدينية. فالجاهلية مازالت قريبة تتداخل مع الإسلام

(١) تشييب كعب بنسأه المسلمين والحيلة في قتله حـ ٤٩/٤٩، الرسول يحل دم هبار حـ ٥٧٩/١، من قتل يبدر من المشركين حـ ٦٢٣-٦٢٩، ابن خلدون ص ١٢٢/١٤٥.

(٢) كان عدد إبل المسلمين في بدر سبعين بعيرا، ابن هشام حـ ٥٤٢/١، وكانوا في أحد سبعمائة رجل، والمشركون ثلاثة آلاف، حـ ٥٩/٢، وفي الخندق كان المشركون عشرة آلاف والمسلمون ثلاثة آلاف، حـ ١٨٩/٢، وفي الذهاب إلى مكة معتمرا كان مع الرسول سبعون بدنة والناس سبعمائة رجل، وكانت قريش أربع عشرة مائة أي الضعف، حـ ٢٦٤/٢، غزوة مؤتة ثلاثة آلاف، حـ ٣١٦/٢، دخل الرسول مكة مع عشرة آلاف، حـ ٣٥٦/٢، وفي هوازن اثنا عشر ألفا، حـ ٣٧٣/٢.

(٣) مقتل مرحب اليهودي، السابق حـ ٢٨٢-٢٨٤. مقتل ياسر أخى مرحب، حـ ٢٨٤/٢، مقتل غلام رفاعه الذي أهداه الرسول، حـ ٢٨٧/٢.

(٤) مقتل الأسود المخزومي، السابق حـ ٥٥٢/١، مهجع دابر سراقه حـ ٥٥٤/٢، أمية بن خلف حـ ٥٥٧/٢، أبو جهل حـ ٥٥٩-٥٦٠، النضر وعنه حـ ٥٦٨/١، حمزة حـ ٦٢/٢، قتل وحشي لمسلمة حـ ٦٤/٢، مصعب بن عمير حـ ٦٥/٢، أبي بن خلف حـ ٧٣/٢، اليمان وابن وقش حـ ٧٦/٢، حاطب حـ ٧٧/٢، قزمان حـ ٧٧/٢، مخبرق حـ ٧٧/٢، عمرو بن الجموح حـ ٧٩/٢، القتل بأحد حـ ٨٢/٢، أبو عزة ومعاوية بن المغيرة حـ ٩٠/٢، مصر قتل أحد حـ ١٠٢/٢، من استشهد بأحد من المهاجرين حـ ١٠٤-١٠٩، من قتل من المشركين يوم أحد حـ ١٠٩-١١١، مرتد وابن الكبير وعاصم حـ ٢٤٧/٢، ابن طارق حـ ١٤٨/٢، ابن الدثنة حـ ١٤٩/٢، حبيب حـ ٢٤٩/٢، قتل العامرين حـ ١٦٠/٢، ابن الورقاء حـ ١٦٢/٢، قتل علي لعمر بن عبد حـ ١٩٣/٢، قاتل سعد حـ ١٩٦/٢، مقتل بن قريظة حـ ٢٠٥/٢، ابن أقطب حـ ٢٠٦/٢، قتل من نسايتهم امرأة واحدة حـ ٢٠٧/٢، قتل المشركين حـ ٢١٦/٢، إسلام بن أبي الحقيق حـ ٢٣٤/٢، القتل من المشركين حـ ٢٤٣/٢، موت ابن حبابه حـ ٢٤٨/٢، قتل بني المصطلق حـ ٢١٢/٢، مرحب اليهودي حـ ٢٨٢/٢، ياسر أخو مرحب حـ ٢٨٤/٢، غلام رفاعه حـ ٢٨٧/٢، ابن السهيل حـ ٣٠٠/٢، ابن حارثة حـ ٣٢٠/٢، أول قنديل يوم الفتح حـ ٣٥٢/٢، دريد بن الصحم حـ ٣٨٣/٢، أبو عامر الأشعري حـ ٣٨٥/٢، نهي الرسول عن قتل الضعفاء حـ ٣٨٧/٢، ابن الأضيظ حـ ٥٢٧/٢، أبو سفيان حـ ٥٣٢/٢، بكري حـ ٥٣٣/٢، ابن عمير حـ ٥٣٤/٢، قتل اليميلين حـ ٥٣٨/٢.

(٥) ابن خلدون ص ١٤٨.

في وعي العرب المقاتلين. لم تحتف تماما حتى عصر الخلافة. وتتدخل القرابة في القتل، الابن والأب إيجابا أم سلبا^(١). أحيانا يتغلب الدين الجديد عليها، وأحيانا تبقى عاملا مؤثرا مع الدين الجديد^(٢). وقد قتل أبو عامر الأشعري تسعة من المشركين، واحدا تلو الآخر، وفلت منه العاشر^(٣). وسماه الرسول «هذا شريد بني عامر».

وقتل مصعب بن عمير دفاعا عن الرسول الذي أعطى الراية لعلي ليقاتل دفاعا عنه. وطلب منه الرسول رفع الراية وتقديم صاحب لواء المشركين طالبا المبارزة، فتقدم علي وصرعه ولم يجهز عليه لأنه استقبله بعورته^(٤). وخرج آخر متحديا المسلمين الذين يزعمون أن قتلاهم في الجنة وأن قتل المشركين في النار ومقسما باللات. فخرج إليه علي فصصره. وكان أحد المسلمين حريصا على قتل من اعتدى على الرسول^(٥). واستمات المسلمون في الدفاع عن الرسول، أخ يحمل أخاه الجريح من أجل التوجه إلى القتال^(٦). ويذكر من استشهد بأحد من المهاجرين ومن قتل من المشركين، من قتل من، وكان المعركة شخصية بين اثنين، وما قيل في الاثنين من أشعار^(٧). ومعظم غزوة أحد مبارزات بين أفراد، وقتل فرد آخر، واحد من المشركين بواحد من المسلمين، حاملين اللواءات، وكأنها معارك شخصية أو بطولات فردية، طمع في الشهادة من المسلم، ودفاع عن

(١) قتل محمد بن سلمه مرحب اليهودي لأن أخاه قتل بالأمس، ابن هشام حـ ١٨٣ / ٢.

(٢) خرج الزبير بن العوام إلى ياسر لمبارزته واعتزضت صنعة بنت عبد المطلب «يقتل ابني يا رسول الله» فقال «بل ابنك يقتله إن شاء الله»، السابق حـ ٢٨٤ / ٢.

(٣) السابق حـ ٣٨٧ / ٢.

(٤) وفعل ذلك علي يوم صفين، وقتل عاصم بن ثابت مسافح بن طلحة وأخاه الجلاس. وقتل حمزة عثمان بن طلحة حامل لواء المشركين، وشجاعة الزبير وبطول صواب، ورفعت عمرة الحارثية اللواء، وجهاد أم سعد، وبلاء ابن السكن يوم أحد، وإنشاد حسان الشعر في عتبة، ودفاع أبي دجانة وابن أبي وقاص عن الرسول، وبلاء قتادة، واستشهاد أنس بن النضر، وجراحات ابن عوف، وحرص ابن أبي وقاص على قتل عتبة، وقتال عمر المشركين وهم يصعدون الجبل خلف المسلمين في أحد، ومعاونة طلحة الرسول حين وقع، واستشهاد البيان وابن وقش، ومقتل حاطب، وغريق من اليهود الذين أسلموا، وأصيرم، عمرو بن الجموح، ابن هشام حـ ٩١-٦٥ / ٢.

(٥) هو ابن أبي وقاص وحرصه على قتل عتبة السابق حـ ٧٥ / ٢.

(٦) السابق حـ ٨٨ / ٢.

(٧) السابق حـ ١٠٤-١٤٦ / ٢.

سيادة قريش وشرفها من المشرك^(١). والجسد له ضرورته. فقد طلب الرسول من أحد أصحابه اليقظة للحراسة لعل القوم ينام. فتطوع بلال. ثم أخذ النومة حتى أصبح فلما استجابه الرسول قال إن الذي أنام الرسول هو الذي أنامه، وأمر بالصلاة بعد أن فات وقتها^(٢). وفي نفس الوقت يظهر الرسول احتراماً كبيراً للجسد، وأنه ليس للتبادل ولا للبيع. فقد عرض المشركون على الرسول شراء جسد نوفل بعد قتله في الخندق فرفض الرسول «لا حاجة لنا في جسده ولا بثمنه»^(٣).

كانت الشهادة مطمح المقاتل يناها في الدنيا قبل الآخرة^(٤). وهو ما كان يدفع إلى القتال والشجاعة في الميدان، والسباق في المبارزة، والمنافسة عليها. وقد ظن أحد المقاتلين أن الرسول قد قتل في أحد. فقام وقاتل. واستشهد. فماذا يصنع بالحياة بعد موت الرسول؟^(٥). كان حضور الرسول وسط المعركة عاملاً محفزاً للمسلمين على القتال للدفاع عن النبي وحمائته. ومن يبلي بلاء حسناً أو يُعذَّب في موته يكون له أجر شهيد^(٦). فالشهادة على درجات طبقاً لطريقتها ومدى معاناة الشهيد فيها من أجل التشجيع على الشهادة وعدم الخوف منها حتى لو حُفَّتْها المكاره والصعاب. وقد سجد قتيل أبي قتادة في برده فظن الناس أنه هو. فنبه الرسول أن هو قتيله^(٧). فالمعركة شخصية، والموت فردي، القاتل والمقتول. ولا يوجد شيء اسمه «الجندي المجهول» كما هو الحال في العصر الحاضر. وتتلخص غزوة بني المصطلق في قتل على رجلين وعبد الرحمن بن عوف رجلاً منهم^(٨). فالغزوات تبدأ بقتل أفراد أو انتقاماً لأفراد أو بسبب أفراد.

(١) ومن المشركين مقتل أبي بن خلف، والمجذر، هند وتمثيلها مع أبي سفيان بحمزة أبو عزة، معاوية بن المغيرة، ومن المنافقين قزمان، والحارث بن سويد، شيانة عبد الله بن أبي.

(٢) «إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها. فإن الله تبارك وتعالى يقول ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»، ابن هشام حـ ٢٨٩/٢.

(٣) السابق حـ ٢١٦/٢.

(٤) «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»، السابق حـ ٧١/٢.

(٥) هو أنس بن النضر، ووجد بجسده سبعون ضربة، السابق حـ ٧٣/٢.

(٦) هو خلاد بن سويد عندما طرحت عليه الرحي، السابق حـ ٢١٧/٢.

(٧) «ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة وضع عليه بردة لتعرفوا أنه صاحبه»، السابق حـ ٢٤٣/٢.

(٨) السابق حـ ٢٥٢/٢.

وقد يخرج أحد على آداب القتال وأعرافه. فقد جاء مسلم من مكة إلى الرسول بالمدينة طالبا دية أخيه الذي قتل خطأ. فأمر له الرسول بدية أخيه. وبعد مدة قتل قاتل أخيه وعاد إلى مكة مرتدا^(١). فالمصلحة الشخصية هنا تتغلب على الأعراف والعادات والتقاليد القبلية. ونهى الرسول عن قتل الضعفاء بعد أن رأى امرأة مسجاة قتلها خالد ابن الوليد والناس مزدحمون عليها بالرغم من اشتراك المرأة في الحرب اشتراكا فعليا أو تحريضها على الحرب كما فعلت هند لقتل حمزة عم الرسول^(٢). وفي نفس الوقت الذي أمر فيه بالإمساك برجل من بني سعد فإنه يعفي عن الشياء أخته في الرضاعة بعد أن عنفوها في الطريق. ورأى الرسول علامة ذلك عضته في ظهره وهي حاملة له على وركها. وخيرها الرسول بين أن تبقى معه معززة مكرمة أو أن تعود إلى أهلها فاختارت العودة إلى أهلها^(٣). فالأخت في الرضاعة قيمة أعلى من الخلاف الديني. والنزعة الإنسانية تحب الخلاف العقائدي. فالإنسان إنسان وإن اختلفت عقائده مع إنسان آخر.

وقتل عامريان وهما في جور الرسول ومعهما عقد لم يعلم به القاتل حين نزلا. أمهلها ليلا حتى إذا ناما انتقض عليهما ظانا أنه ثار من بني عامر بمن أصابوا من أصحاب الرسول. فحزن الرسول^(٤). وكان كارها ومتخوفا من هذا العمل. فالعهد والجوار يعطيان الأمان بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف في العقائد أو حتى في ميادين القتال. وكان العهد والجوار قيمتين كبيرتين في الحياة العربية. وكان نقض العهد والنيل من الجوار أحد أسباب الحروب بين القبائل. وكان الرسول يحزن لنقض العهود ولا يبلغ به المسلمين حتى لا يفش ذلك في عضدهم، ويفرح لبقائه، ويشير به المسلمين^(٥). كانا

(١) هو مقيس بن صابة، السابق حـ ٢/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢) «أدرك خالدًا قتل له، إن رسول الله ينهك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيقا (أجيرا)»، السابق حـ ٢/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٣) «إن قدرتم على بجاد، رجل من بني سعد بن بكر فلا»، «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا»، بهجة المحافل ص ٢٤٦.

(٤) وقال «لقد قتلت قتيلين لأدينتهما»، «هذا عمل أبي براء. قد كنت لهذا كارها متخوفا»، ابن هشام حـ ٢/ ١٦١.

(٥) نقض حبي بن أخطب على نقض عهد الرسول، السابق حـ ٢/ ١٩٠-١٩١.

ميثاق شرف عربي، من إنسان لإنسان بصرف النظر عن موقفه الاجتماعي أو السياسي أو الديني أو القانوني. وبقدر ما كان الرسول يأمر بالقتل كان يعطي الأمان والجوار. وإذا طلب المستجير أمان شهرين أعطاه الرسول أربعة^(١). وإذا اقتتل مسلم ومشرِك وأراد مشرك أن يعين صاحبه على المسلم فضربه المسلم وقطع يده فأمسك به باليد الأخرى ولولا ضعفه من نزيف الدم لقتله، فقتله المسلم. وهو مسلم من مكة فسلبه بالرغم من قول الرسول، «من قتل قتيلا فله سلبه». وأمر برد السلب إلى القاتل^(٢).

وبعث الرسول نفرا من أصحابه لتعليم أهل نجد الإسلام بناء على طلب أحد المؤلفة قلوبهم، مشرك متعاطف مع الإسلام. ثم غدر بهم بعد أن لم ينفع استصراخهم بالجيرة^(٣). ولم يعرف المؤلفة قلوبهم أن الإسلام دين وفاء وكلمة شرف وعهد وجيرة. وكانت قلوبهم أقرب إلى الشرك منهم إلى الإيمان، لذلك ألغى عمر نصيبهم من بيت المال عندما قوي الإسلام ولم يعد ضعيفا.

وقد عم المسلمون الخوف من ظهور نفاق المنافقين. فقد قال أحدهم إن الرسول يعدهم بأن يأكلوا من كنوز كسرى وقصر وهو لا يأمن الذهاب إلى الغائط^(٤). وخلط بين العاجل والآجل، بين اليوم والغد، بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة، وأراد الرسول الصلح مع غطفان. رأى شدتها في رمي النبأ وأراد التخفيف على المسلمين، ورأى العرب قد رموهم عن قوس واحدة، ثم عاتبه المسلمون وفضلوا الجهاد. أراد الرسول إعطاء المسلمين الرخصة وهم آثروا العزيمة. أبرز الرسول لهم الواقع وأرادوا التمسك بالمثال^(٥).

وبتدخل في الغزوات الثأر بين القبائل والتحالفات والمعاهدات. ويقتل الأبرياء أخذا بالثأر كما قتل غلام بدم في قريش^(٦). وبعد ظهور الإسلام أصبحت قضايا

(١) مثل أمان الرسول لصفوان بن أمية، السابق حـ ٢/ ٣٥٣.

(٢) أي بالمعنى الشعبي «موت وخراب ديار»، السابق حـ ٢/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٣) السابق حـ ٢/ ١٥٩-١٦١.

(٤) هو معتب بن قشير، السابق حـ ٢/ ١٩١.

(٥) السابق حـ ٢/ ١٩٢.

(٦) السابق حـ ١/ ٥٤٠-٥٤١، ابن خلدون ص ١٦٧.

صغرى. ودخلت في القضية الكبرى دون أن تحتفي تماما. ومنع الرسول في غزوة بدر قتل ناس من المشركين من بني هاشم والعباس. فالقراية مازالت حاضرة. ربما لطمع في إسلامهم. في حين أراد عمر قتل الجميع بلا استثناء، مشركا كان أم منافقا^(١). وبغض قريش مقياس القتال. فقد قتل رجل كان يبغض قريشا^(٢).

والقتل من القاتل أو المقتول فن إبداعي. ففي مقتل دريد بن الصلبة لما ضرب بالسيف ولم يمت نصح قاتله بأن يأخذ سيفه ويرفع عن العظام ويخفض عن الدماغ ويضرب ضربة الرجال ثم إخبار أمه حتى لا تمنع عنه نساءه. فإتيان النساء دليل على الرجولة. فلما وقع كانت بطون فخذه مثل القرطاس عند ركوب الخيل بيضاء. وأخبرته أمه أن المقتول قد أعتق أمهات ثلاثا له^(٣). واستمر القتل بين القبائل وكأن حمية الجاهلية لم تهدأ بعد^(٤). وقد لاحظ القرآن ما يحدث في دوافع لقتال أحيانا من ثار وغل وتمثل مما ينافي آداب النزال. فنبه عليه^(٥). فالنبي عربي يمارس عادات العرب في القتال.

ومنظر الأسير ويداه إلى عنقه يثير النفس بصرف النظر عن الإيثار والشر، من ربط من، ومن أسر من. فقد قامت امرأة من المؤمنين تخاطب أحد الأسارى أنه كان من الأفضل له أن يموت كريما من أن يعود أسيرا^(٦). وهذا لا يمنع من الاستوصاء بالأسير خيرا^(٧). فالأسير أسير حتى لو حسنت معاملته. فلا يوجد ما يعوض عن الحرية. وكان فداء الأسرى عند العرب طريقة تجارية لكسب المال وزيادة الدخل، الحرية في مقابل المال^(٨). ويرفض الرسول التمثيل بالأسرى أو تعذيبهم، كسر أسنانه أو قطع لسانه حتى

(١) ابن هشام حـ ١/ ٥٥٥-٥٥٦.

(٢) «أبعده الله فإنه كان يبغض قريشا»، السابق حـ ٢/ ٣٨١.

(٣) السابق حـ ٢/ ٣٨٣-٣٨٤.

(٤) «واستمر القتل من بني نصر في بني رثاب»، السابق حـ ٢/ ٣٨٥.

(٥) «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِغُلٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوْفِي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، فَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَشَسَّ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِهَا يَعْمَلُونَ»، السابق حـ ٢/ ١٠٠-١٠١.

(٦) قال لها الرسول «يا سودة أعل الله ورسوله تحرضين؟»، السابق حـ ١/ ٥٦٩.

(٧) قول الرسول «استوصوا بالأسارى خيرا»، السابق حـ ١/ ٥٦٩.

(٨) قول الرسول «إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال وكانكم به قد جاءكم في طلب فداء أبيه»، السابق حـ ١/ ٥٧٢.

لا يهجو الرسول. فمن يمثل بأحد يمثل به^(١). ولربما أصبح من يهجو من يمدح في ثقافة يسهل فيها التكسب بالشعر^(٢).

٧- نزول القرآن

نزلت كثير من آيات القرآن بل سور بأكملها في فترة انتشار الإسلام وبمناسبة الغزوات والوقائع الجديدة التي ظهرت للمسلمين بمناسبة الحروب الداخلية والخارجية. وقد كانت غزوة بدر مناسبة لحدوث وقائع جديدة استدعت نزول آيات من القرآن مثل كيفية تقسيم الأنفال، واختلاف المسلمين فيه، وحكم الرسول بتقسيمه بالتساوي بين الجامعين والمقاتلين^(٣).

أ- توزيع الأسلاب

نزل القرآن لتسوية موضوع الأسرى والمغانم. وقد خص الرسول بخمس لم يؤتمن نبي قبله، نصر بالربح، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطى جوامع الكلم، وأُحلت له المغانم، وأعطيت له الشفاعة^(٤).

الأرض للصلاة، والنصر على الأعداء وأخذ الأسلاب للمكاسب، وحسن الكلام للتأثير، والشفاعة يوم الحساب. وافتدى الرسول جل أسرى قريش أثناء إقامته في غزوة بني سليم^(٥). فالأسر ليس في ذاته بل لمنع الأسرى من الاشتراك في الحرب من جديد، وتطويع إرادتهم، وجعلهم أقرب إلى الإسلام إن لم يكن سلماً فحرباً.

(١) «لا أمثل به فيمثل بي وإن كنت نبياً»، السابق حـ ١/ ٥٧٢.

(٢) «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه»، السابق حـ ١/ ٥٧٣.

(٣) «يَسْأَلُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»، السابق حـ ١/ ٥٨٧.

(٤) «مَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْ لَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمْ فِيهَا أَهْدَبُ عَذَابٍ عَظِيمٍ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، السابق حـ ١/ ٥٩٥.

(٥) السابق حـ ٢/ ٤١، مختصر سيرة (١) ص ٢٣-٢٤.

واختلف المسلمون في تقسيم الغنائم كعادة القبائل العربية بين من جمعها ومن قاتل. فلم يكن الجهاد فقط هو الدافع. وهو سبب هزيمتهم في أحد عندما ترك النبالون مواقعهم لحماية ظهر المسلمين للإسراع في الاستيلاء على الغنائم. فقسمها الرسول بينهم على السواء^(١).

وقد نزل القرآن بتقسيم الفئ^(٢). فبعد الخمس لله والرسول يأتي ذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأقرباء وغرباء، وقسم الفئ بين المسلمين في غزوة ذي قرد^(٣). ولما أصاب سهم طائش غلام الرسول، هدية له من أحد أصحابه، وظن الناس أنه شهيد في الجنة أبلغهم الرسول أنه في النار يحترق عليه كساؤه الغليظ الذي أخذه من فيء المسلمين يوم خيبر. ثم اعترف واحد من المسلمين أنه أصاب شراكين لنعلين. وأخبره الرسول أنه يقد له مثلها في النار. وتعني النار هنا أخذ الشيء بدون وجه حق حتى لو كان سلباً لأن تقسيم السلب يخضع لقانون المساواة. وحمل أحد المسلمين فيئة جراب شحم فوق كتفه إلى رحاله. فجاذبه صاحب المغنم ظاناً أنه ليس فيثاله. وضحك الرسول لحرص واحد على حقه، وآخر على أداء واجبه^(٤).

وقد اعترضت النساء على عدم القسمة لهن في الفئ. فرفض لهن الرسول وأعطاهن النصف. فاعترضت امرأة بأنها تقاتل مثل الرجال، تسير إلى الحرب، وتداوي الجرحى، وتعين المسلمين قدر المستطاع. فأعطاهما سهماً «على بركة الله». ورأى ما عليها من دماء نفاس فطلب منها التطهر والعودة إلى الركاب. وأعطاهما قلادة من فئ خيبر ظلت معها إلى وفاتها، ودفنت معها^(٥). ويعني اعتراض النساء أن واقع المرأة قد تغير. وأصبحت

(١) السابق حـ ٥٦٦-٥٦٧.

(٢) «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْسَتم بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّبَيُّ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، إِذْ أَتٰم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِهِ وَيَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ»، السابق حـ ٥٩٢/١.

(٣) السابق حـ ٢٤٤.

(٤) السابق حـ ٢٨٨.

(٥) السابق حـ ٢٩٠-٢٩١.

تطالب بحقها مثل الرجل وكما يحدث الآن في الحركة النسوية. وعهد الرسول إلى نسائه بنصبيهن من المغنم كتابة من عباس وشهادة من عثمان^(١). فقد تطور وضع المرأة الآن في السلم وفي الحرب. وأصبح لديها نفس الحقوق وعليها نفس الواجبات التي للرجل.

وقد سمى الرسول نفرا من الدارين. وأوصى لهم بنصيب من خير. ثم قتل أحد المسلمين. وأنكر اليهود أنهم قتلوه. ولا يعلمون من قتله، وطفوا على ذلك خمسين يمينا. فأعطى الرسول أهل القتل مائة ناقة من عنده لهم^(٢). فليست الأسلاب طريقا واحداً من الخصوم إلى المسلمين بل قد تكون فداء للمسلمين إلى أهله، لم يقتل ظلماً أو خطأ. ليست دائماً أخذاً بل قد تكون عطاء.

وقد صالح الرسول أهل فذك. وفي خير قُذِف في قلوبهم الرعب. فطلبوا الصلح مناصفة. فقبل الرسول. وكانت فذك للرسول وحده لأنه لم يستول عليها بخيل ولا ركاب^(٣). فالصلح سلب عن طيب خاطر، سلماً لا حرباً. ويمكن المساومة في المقدار كعادة اليهود والعرب. وبعض السلب قد يكون خالصاً للرسول وحده لأنه استولى عليه سلماً. والحقيقة أن قوة الردع التي أصابت العدو اشترك في صنعها كل المسلمين، مقاتلين وغير مقاتلين. فسلب الرسول بفضل الجماعة وباسم المسلمين. ويخشى أن يسبب حجز السلب خاصاً بالرسول على الأمد الطويل وبعد وفاته حسداً من باقي المقاتلين، وأن تكون مصدر ثروة رئيساً للخليفة أو إرثاً شخصياً له.

وكان بلال قد أخذ يهوديتين ليمر بهما على زوجيهما القتلى. فصاحت إحداهما ونثرت على وجهها التراب. فطلب الرسول إبعاد هذه الشيطانة. وألقى على صفية رداءه اصطفاً لها لنفسه. وعذر بلال كيف يمر بامرأتين على زوجيهما لقتيلين؟^(٤). وبنفس المنطق كيف تقبل صفية أن تكون سبية لقائد جيوش من قتل زوجها؟ عدم إمرار الزوجة على زوجها موقف إنساني مهما كانت الهزيمة وكانت الأسلاب، ولكن رمي الرداء على

(١) فاطمة، أسامة بن زيد، مقداد بن الأسود، أم ربيعة، السابق حـ ٢/ ٢٩٩.

(٢) السابق حـ ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

(٣) السابق حـ ٢/ ٢٩٩-٣٠٠.

(٤) «أنزعت منك الرحمة يا بلال. كيف تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»، السابق حـ ٢/ ٢٨٥.

زوجة أخرى وزوجها قتيل لم يوار التراب بعد هو أمر أيضا فيه عجلة. فهي أيضا حزينة على زوجها القتيل، وتحتاج حتى طبقا للشرعية في الدين الجديد أربعة أشهر عدة ليس فقط للاطمئنان على أنها ليست حاملا، بل أيضا حتى تخف مشاعر الحزن على الزوج القتيل، وتبدأ مشاعر الفرح بالزوج الجديد الذي هو سيدها ومالكها بعد أن أصبحت جزءا من أسلابه ودون استشارتها وأخذ رأيها حتى ولو كان قائد جيوش المسلمين.

ب- نصر المؤمنين

وقد نزل القرآن في فتيه أسلموا بمكة، وحبسهم أهلهم لعدم الهجرة إلى المدينة، وفتنهم عن دينهم، ثم أصيبوا جميعا مع قومهم في بدر^(١). فالهجرة قانون طبيعي من الاضطهاد إلى التحرر، ومن الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن الهزيمة إلى النصر. ولا يستطيع أحد منعها حتى لو كان في ذلك عصيان الوالدين.

كما نزل القرآن في الاستفتاح^(٢). كل شيء بأدائه، في وقته وزمانه، والنتيجة بعد المقدمة، والحصاد بعد الغرس، ولا يمكن القفز فوق المراحل. ونزل القرآن فيمن عاونوا أبا سفيان بالمال أو بالسلاح أو بالقول^(٣). فمعاونة المشرِك شرك. ليس الإيمان فقط فعلا فرديا بل هو فعل جماعي، مساعدة المؤمنين، ومعاونة المشرِكين

ونزل القرآن في تبشير المسلمين بالمساعدة والنصر وتحريضهم على القتال كنوع من

(١) «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَكَ مَا أَوَّاهُمْ وَحَبَّاهُمْ وَبَاءَتْ مَصِيرًا»، السابق حـ ٥٦٦/١.

(٢) «إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تُعْودُوا تُعْذَرُونَ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ»، السابق حـ ٥٨٩/١. «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِمَاةَ مِنَ السَّيِّئَةِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِئِهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَلَوْ قُتِلُوا لَكُنْتُمْ تُكْفُرُونَ»، السابق حـ ٥٩٠/١.

(٣) «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَهُنَّ إِثْمَهُمْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْمَرُونَ، لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُعْودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ»، السابق حـ ٥٩١/١.

المساهمة في المعركة في جانبها المعنوي من أجل الثقة بالنفس، والثقة بالنصر، وتخريضهم على الجهاد، وعدم اليأس من صعوبة المعركة أو الإحباط من عداوة المشركين وتأمر بعض المسلمين^(١). وحض القرآن المسلمين على طاعة الرسول^(٢). فالرسول صادق في وعده في العاجل وفي الآجل. والسماع بالفعل وليس مجرد بالأذن، بالتصديق وليس بمجرد القول، وقد نزل القرآن في ذكر نعمة الله على الرسول^(٣). ومهما كانت عداوة المشركين وتأمر المنافقين فإن المسلمين غالبون على أمرهم، والشرك والتفاق دائما خاسران.

وقد نزل القرآن لوعظ المسلمين وتعليمهم خطط الحرب: الثبات في القتال، تشتيت العدو، الإعداد للقوة، والاستعداد للسلم^(٤). ويتطلب ذلك الثبات أمام العدو، وعدم التنازع، وعدم الرياء والتفاخر بالحرب. فالحرب ليست غاية بل وسيلة. فإن طلب

(١) ﴿إِذْ يُرْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيَّ مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، ذَلِكَمْ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْيَارَ، وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنِشْءُ الْمَصِيرِ﴾، السابق ج ١/ ٥٨٨.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُّوا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌ مُنْشِرُونَ، وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَتَكُمْ النَّاسُ فَاوْكَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصَرِهِ وَزَادَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، السابق ج ١/ ٥٨٩.

(٣) ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ﴾، السابق ج ١/ ٥٨٩.

(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاقْبَلُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رَاجِعًا وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَطْرَأُ وَرَاءَهُ النَّاسُ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ، وَإِذْ زَيْنُ لَمْ الشَّيْطَانُ أَغْوَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾، السابق ج ١/ ٥٩٣. ﴿فَإِنَّمَا تَتَفَقَّهُنَّ فِي الْحَرْبِ فَفَرَدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ، وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ، وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ، وَأَعَدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ، وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِبْهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، السابق ج ١/ ٥٩٣.

الخصم الصلح فالصلح واجب. ولا ينخدع المسلمون بخطط الأعداء. فقد ألف الله بين قلوبهم^(١). ليس على مصلحة أو هوى بل على مبدأ وقضية. لذلك تظل الألفة قائمة لأنها لا تتغير بتغير الأهواء والمصالح. وزاد عدد المتحولين إلى الإسلام بعد غزوة بدر. فقد عرف المشركون أن الإسلام قادر سلماً أم حرباً على الانتشار سرا أو علناً، وعلى الانتصار عاجلاً أم آجلاً^(٢). فالحرب كانت وسيلة للمسلم وليست غاية في ذاتها. ومع ذلك استمرت الغزوات بعد بدر. فقد كانت بدر أول الحروب وليست آخرها. ولم تعقد معاهدة سلام بين المسلمين والمشركين^(٣).

ج- هزيمة المسلمين

وقد كان البادئ في غزوة أحد المشركون انتقاماً لما حدث لهم في بدر، فقاموا بالتحريض على غزو الرسول^(٤). وقد نزل القرآن في ذلك^(٥). واجتمعت قريش للحرب. وانضم إليهم من من الرسول عليهم في بدر طمعا في أن يكون عتيقا إن قتل حمزة عم الرسول. فالقتل عتقا للحرية. وخرجت قريش مع نساءها دون استشارتهم بل تضامنا مع أزواجهن وقبيلتهن. وطلبت هند بنت عتبة من وحشي عبدها نفس الشيء، قتل حمزة عم الرسول ثمن حريته، وكان حبشيا يحسن رمي الرمح^(٦). واستشار الرسول

(١) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، السابق حـ ١/٥٩٤.

(٢) إسلام عمير بن دهب بعد أن حرّضه صفوان على قتل الرسول بسيف قاطع مسموم بعد أن أخبره الرسول ببايت بينه وبين صفوان، السابق حـ ١/٥٨٢-٥٨٤.

(٣) وهو ما يقال حاليا إن حرب أكتوبر آخر الحروب بعدها عقدت معاهدة الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل.

(٤) «إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكْمَ وَقَتْلَ خِيَارِكُمْ فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرَبِهِ فَلَعَلَّنَا نَدْرِكُ مِنْهُ ثَأْرَنَا بِمَنْ أَصَابَنَا»، ابن هشام حـ ٢/٥٤٥، البستاني حـ ١/٢١٨-٢٣١، جـ ٢/٢١٨-٢٣٠، ابن خلدون ص ١٢٨-١٣٧.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْقُضُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، ابن هشام حـ ٢/٥٤، غزوة أحد، الإشارة ص ٢٣٠-٢٥٨، الفصول ص ١١٣-١٣٤، بهجة المحافل ص ١٦٢-١٦٨، نور اليقين ص ١٠٢-١٠٨، مختصر سيرة (١) ص ١٠٩-١١٣، مختصر سيرة (٢) ص ٢٥٤٢٥٦.

(٦) غزوة حراء الأسد الفصول ص ١٣٤-١٣٥، بعث الرجيع ص ١٣٥-١٣٨، بعث بئر معونة ص ١٣٨-١٤٢، سيرة النبي ص ٢٧٧-٢٨٥، السيرة الحلبية حـ ٢/٢٩٤-٣٤٨، حياة محمد ص ٢٤٠-٢٥٢، الأسوة الحسنة حـ ١/٣٢٩-٣٨٢/٣٨٢-٣٨٢، سيد الأنام ص ١٨٨-١٩٦، معجزة محمد حـ ٢/٥٠-٥٠٠، سيرة

أصحابه. كان من رأيه البقاء في المدينة، وترك المشركين يأتون إليه ليقاتلهم على أرضه. وكان الرسول وبعض الصحابة يكرهون الخروج. ورأى آخرون ممن فاتهم بدر يريدون الاستشهاد، الخروج للقاء المشركين، ربما تعويضا عما نقصهم، وإثباتا لشجاعتهم. ودافع أنصار الرأي الأول بالتجارب السابقة التي أثبتت نصر المؤمنين داخل المدينة وهزيمتهم خارجها، وأن بالداخل يشارك الأطفال والنساء والشيوخ كل حسب قدراته، ويكون العدو حبيسا لا يستطيع الفرار. ولما تكاثرت أنصار الرأي الثاني على الرسول دخل منزله، وليس لامته، وخرج للناس. فخشي الناس أن يكونوا قد استكروا الرسول على شيء لم يروه. فاستمر على قراره بناء على رأيهم^(١). مع أن مراجعة الرأي بعد المشورة لا حرج فيها. وتراجع المنافقون مع ثلث الناس^(٢). ورفض الرسول اقتراح الاستعانة بحلفائهم من اليهود. وكان أبو سفيان يحرض قريشا ضد الرسول انتقاما لما حدث لهم في بدر وكذلك هند والنسوة معها^(٣). وأثناء سلوك الرسول حائط أعمى منافق ابتعاده عن طريق قريش ظل يقذفهم بالتراب لمنع الرسول من دخول حائطه. وأراد قذف الرسول في وجهه فهم أصحابه بقتله فمنعهم الرسول لأنه أعمى القلب وأعمى البصر، وضرب فقط بالقوس فشجت رأسه^(٤). وضرب أعمى لا يستطيع الدفاع عن نفسه مما لا تحميه آداب الحرب. أما إذا شارك الأعمى في أعمال حربية كالتجسس أو القتال أو الغدر فإنه يعتبر محاربا. وقتل أحد المنافقين اثنين من المسلمين في أحد، وهرب إلى مكة، وكان الرسول قد أمر عمر بقتله ثم طلب التوبة فنزل فيه القرآن^(٥). فلما رآه الرسول خارجا من حوائط المدينة أمر عثمان بقتله فضرب عنقه. وأتى القرآن مؤيدا لحكم الرسول دون تخفيف له أو تشديد عليه.

الرسول ص ١٣٢-١٤٥، السيرة النبوية ص ٢٣١-٢٤٤، خاتم الأنبياء ص ١٢٦-١٣٤، صحيح السيرة ص ٢٧٤-٣١٥، خير الزورى ص ٢٤٢-٣١٧، الرحيق المختوم ص ٢٤٨-٢٨٩، رسول الحرية ص ١٩٨-٢٣٢.

(١) وقال قوله الشهيرة «ما يتبقى لني إذا لبس لامته أن يضعه حتى يقاتل»، ابن هشام ح ٥٧/٢.

(٢) برئاسة عبد الله بن سلول، السابق ح ٥٧/٢.

(٣) السابق ح ٢/٦٠-٦١، البستي ح ١٥٧-١٨٥.

(٤) ابن هشام ح ٥٨/٢.

(٥) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، السابق ح ٧٨/٢.

ووضع الرسول خمسين من الرماة خلف المسلمين حتى يصدوا الخيل لو جاءتهم من الخلف دون أن يتزحزحوا من أماكنهم سواء كانت النتيجة لهم أم عليهم، وكانوا جميعاً أبناء الخمسة عشر ربيعاً^(١). كان المشركون ثلاثة آلاف رجل ومائتي فرس^(٢). وفي أحد أمر الرسول ألا يبدأ أحد بالقتال إلا بأمر منه^(٣). كان النصر أولاً للمسلمين. فقد صدق الوعد. وحش المسلمون المشركين بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر. وكانت الهزيمة التي لا شك فيها^(٤). وهربت النساء وفي مقدمتهم هند بنت عتبة وصاحباتها. وتركوا كل شيء وراءهم. إلا أن الرماة انضموا إلى العسكر، وكشف ظهر المسلمين للخيل. فجاء المشركون من الخلف. وأذيع أن محمداً قد قتل لإحباط الروح المعنوية. فانكفأ المسلمون. وانكفأ عليهم المشركون. وقد نبه الرسول على عدم وجوب أن يعلوا المشركون المسلمين أي يكونون أعلاهم. فقاتل عمر ومعه فريق من المهاجرين حتى أحبطوهم من أعلى الجبل. ووقع الرسول. ولم يستطع النهوض، وعاونته طلحة^(٥). وصلى الرسول قاعداً. ومن لم يستشهد ثخن جسده بالجراح^(٦).

ومثل أبو سفيان بحمزة وهو يضربه برمح في شدة ثم استحي من أن يفعل ذلك بسيد قريش. وأرسل إلى الرسول على لسان ركب بأنه قادم هو وأصحابه ليستأصلوه. فرد عليه الرسول «حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٧). وشتت بالمسلمين بعد أحد، وأنها انتقام لبدر. فالجرب سجال. ودعا لعظمة هبل. فطلب الرسول من عمر أن يرد عليه بأن الله أعلى وأجل، وأن قتل المسلمين في الجنة وقتل المشركين في النار^(٨). وتوعد المسلمين وقبل الرسول الموعد^(٩).

(١) انضح الخيل عنا بالنبل. لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فأثبت مكانك لا تؤتين من قبلك»، السابق حـ ٥٩/٢.

(٢) كان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، السابق حـ ٥٩/٢.

(٣) «لا يقاتلن أحدكم حتى تأمره بالقتال»، السابق حـ ٥٨-٥٩.

(٤) السابق حـ ٦٨-٦٩.

(٥) «اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا»، السابق حـ ٥٧/٢، قال الرسول له «أوجب طلحة»، السابق حـ ٧٦/٢.

(٦) أصيب ابن عوف وجرح عشرين جرحاً، منها ما أصاب رجله فخرج، السابق حـ ٧٣/٢.

(٧) السابق حـ ٨٩-٩٠.

(٨) السابق حـ ٨١-٨٢.

(٩) «قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد»، السابق حـ ٨٢/٢.

وعندما توعّد الرسول لحزنه على عمه حمزة أن يمثل بثلاثين رجلاً من المشركين نهاه القرآن عن ذلك. فالقصاص لا يكون بناء على عاطفة الانتقام بل على قانون موضوعي^(١). والتمثيل عدم احترام لجلال الموت أو لكرامة الجثة التي لم يعد صاحبها قادراً على الدفاع عن نفسه، وقد عزى القرآن المسلمين على شهدائهم^(٢). وذكر ما أصاب المسلمين وعزاهم فيه بالرجوع إلى سنن التاريخ^(٣). وهو الدرس المستفاد منه، العظة والعبرة. وإن يكن أصاب المسلمين جرح فقد أصاب المشركين جرح مثله. وهذه سنة التاريخ، وجدل النصر والهزيمة، وامتحان للناس^(٤). ولا يحزن المسلمون ولا يهنون وهم الأعلى والأسمى والأرفع.

وحزن الرسول على عمه حمزة وتوعّد المشركين بالمثل. وصلى عليه وعلى باقي القتلى. كما حزنّت صفية أخته. وحرص الرسول على ألا ترى جثة أخيها وهي ممثلة بها. ومع ذلك أصرت فخلّى الرسول سبيلها^(٥). ورجع الرسول عن رأيه الأول لما رأى إصرارها مقدراً عواطف الأخوة وحزنها على أخيها. ودفن عبد الله بن جحش مع حمزة. وأمر النبي بدفن الشهداء حين صرّعوا. إذ يبعث كل شهيد يوم القيامة وجرحه يدمي. اللون لون الدم، والريح ريح المسك^(٦). وهي صورة فنية تدل على شهادة واقعية واستحقاق وبطاقة دخول حية إلى الجنة. وترتيب الشهداء في القبر أقرأهم للقرآن في المقدمة إماماً

(١) ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَمَاتُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلٰٓئِقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، السابق حـ ٨٤ / ٢.

(٢) ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، السابق حـ ٩٤ / ٢.

(٣) ﴿وَلَا أَصَابَكُمْ مُمْصِيَةٌ قَدْ أَصَابَكُمْ مِثْلُهَا﴾.

(٤) ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا تَحْزَنْوْا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، السابق حـ ٩٥ / ٢.

(٥) «ألقها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها»، داخل سبيلها، السابق حـ ٨٤-٨٥.

(٦) «أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمي جرحه. اللون لون الدم، والريح ريح مسك»، السابق حـ ٨٥ / ٢.

لهم اثنان أو ثلاثة في قبر واحد. والصديقان معا في قبر واحد^(١). وهو تقدير لقيمة قراءة القرآن ليس فقط في الحياة بل أيضا في الممات.

وبالرغم من هزيمة المسلمين أمر الرسول عليا بالخروج في آثار المشركين إذ كانوا عادوا إلى مكة راجعين أم إذا كانوا عادوا لمحمد في المدينة لاستئناف القتال وقبول الرسول التزال من جديد واستئناف القتال^(٢). فالهزيمة في معركة لا تعني الهزيمة في الحرب. والهزيمة اليوم لا تعني الهزيمة إلى الأبد بل قد تعني النصر غدا. الهزيمة طارئة والنصر دائم^(٣). وكان يسأل عن سعد بن الربيع أفي الأحياء أم في الأموات؟ وكان الرجل في الرمق الأخير. واستشهد وهو يبلغ الرسول إيمانه وتصديقه به^(٤). كان أحد يوم محنة وبلاء ومصيبة وتمحيص. اختبر الله به المؤمنين وامتنحن به المنافقين، من كان يظهر الإيمان بلسانه والكفر في قلبه وأكرم من أراد بالشهادة^(٥). ويصف القرآن ما أصاب المسلمين، ويرجع المصائب إلى النفس^(٦). فأسباب الهزيمة في الداخل قبل أن تكون في الخارج، في النفس قبل أن تكون في الواقع^(٧). والنصر يبدأ في النفس أيضا قبل أن يتحقق في الواقع، بالثقة والتخطيط والعلم والقيادة خاصة لو كانت أرض المعركة معروفة وليست بها مفاجآت، وكانت خطط العدو أيضا معروفة من تاريخ الحروب العسكرية. نزلت في أحد ستون آية من آل عمران. فالرسول يعد العدة ويرتب الصفوف^(٨). فالقرآن في

(١) «انظروا أكثر هؤلاء جمع للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر»، انظروا إلى عمرو بن الجموح وعبد الله ابن عمرو بن حزام فإنهما كانا متصادقين في الدنيا فاجعلوهما في قبر واحد، السابق ح ٨٥ / ٢.

(٢) «والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأنجزنهم»، ابن هشام ح ٨٢ / ٢.

(٣) وهذا ما كان يقال في هزيمة يونيو ١٩٦٧ إنها خسارة معركة وليست خسارة الحرب. وهو ما أثبتته بعد ذلك نصر أكتوبر ١٩٧٣، سيد الأنام ص ١٩٦-٢٠٦.

(٤) ابن هشام ح ٨٢ / ٢-٨٣.

(٥) من المنافقين عبد الله بن أبي الذي دعا إلى نصره الرسول في المسجد والمسلمون يعلمون أنه منافق، السابق ح ٩١ / ٢.

(٦) «أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيُذِنُ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ»، السابق ح ١٠١ / ٢.

(٧) وهو معنى ما قاله الشاعر نزار قباني بعد هزيمة يونيو، حزيران ١٩٦٧ في «هوامش على دفتر النكسة»: «ما دخل اليهود من حدودنا، بل دخلوا من عيوبنا».

(٨) «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَفْجَاكَ تُبْرِئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، ابن هشام ح ٩١ / ٢-٩٢.

جدل مع الواقع، وتنظير للحوادث، وتعليم للمسلمين عن طريق التجارب. فتجربة الهزيمة لدعوة حقه يقودها نبي تجربة أليمة ليس فقط للمحاربين بل لخطورتها على مستقبل الدعوة، تهيئ عزيمة المسلمين وزعزة ثقتهم بالنفس، وتشجيع المشركين على التمسك بدين آبائهم، وإيهاهم بأنهم على حق. ويعد أحد عاد النصر حليف المسلمين، فقد أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وذهب عمرو مع آخرين إلى النجاشي. فإذا ظهر رسول المشركين عليهم ظلوا عنده. وإذا ظهروا عليه عادوا إليهم. ويعد أن رأى أحدهم عمرو الغمري رسول الله خارجا من عنده سأل النجاشي أن يعطيه إياه ليقتله. فغضب النجاشي وضربه على أنفه كيف يسلم رسولاً نبياً يأتيه الناموس الذي كان يأتي على موسى وسيظهر على قومه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده؟ وتبايعا على الإسلام. ثم أخبر خالد بيا وقع فأسلم خالد معه. والإسلام يجب ما كان قبله، والهجرة تجب ما قبلها، ثم أسلم معها ابن طلحة^(١). وبدأت غزوة ذي قرد بعدوان أحد المشركين على إبل الرسول الحوامل ذوات الألبان. فقتلوا الرجل وأسروا المرأة. وبلي ابن الأكوع، وكان يطارد القوم بالنبال. فلما سمع الرسول صراخه نادى على المسلمين بالمدينة^(٢). وقد سبق محرز القوم واستشهد. وهي غزوة محدودة ليست بحجم بدر أو أحد. ويشجع القرآن فرق المؤمنين^(٣). وكما نصرهم بيدر وهم قلة لن يتخلى الله عنهم^(٤). فالنصر للمؤمنين سنة تاريخية بشرط الالتزام بمقتضيات الإيمان وشروط النصر. النصر هو القاعدة، والهزيمة الاستثناء، لم يشأ القرآن ترك المؤمنين في حالة من الإحباط. وذكرهم بالنصر السابق في بدر. فالحاضر لا يمحو الماضي، والواقع لا يطعن في المبدأ.

والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. ينعمون بآثارهم الله من فضله^(٥). فالهزيمة المؤقتة

(١) السابق ٢٣٦-٢٣٨.

(٢) السابق ٢٤٠-٢٤٢.

(٣) ﴿إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ هَبُوا شِبْهَ الْقَوْمِ﴾ السابق ٩١/٢.

(٤) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ السابق ٩٢/٢.

(٥) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عند ربهم يرزقون، فَرِحَ بِنِصَابِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ السابق ١٠٢/٢، «الشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في

على الأرض يعوضها النصر الدائم في السماء، والخسارة المؤقتة في الأرض يعوضها الكسب الدائم في السماء. في حين أن المشركين كسب مؤقت في الأرض وخسارة دائمة في السماء. وهذه سنة السابقين واللاحقين. وشهداء أحد أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكّل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش. ويتمنون أن ليت إخوانهم يعلمون ما صنع الله بهم لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب. فأخبرهم الله أنه سيبلغهم وأنزل (وَلَا تَحْسَبَنَّ...)، وهو مصداق لقول الرسول. ولا يريدون إلا أن يعودوا إلى الدنيا فيقاتلون ويستشهدون في سبيل الله مرة أخرى لينالوا الخلود وينصحبوا به. وقد أحيا الله أحد الشهداء وسأله عما يجب فأجابه بأن يردّه إلى الدنيا فيقاتل مرة أخرى^(١). والجنة جزاء المجاهدين بعد امتحان المؤمنين. فالدنيا دار امتحان والآخرة دار جزاء^(٢). والشهادة نية وإن لم تتحقق. ومن لم ينو فإنه يموت منافقاً^(٣). وليس الشهيد فقط من مات في ميدان القتال وإلا كان الشهداء قليلين بل من مات في سبيل الله، ومن مات في الطاعون، ومن مات في بطن أمه، ومن غرق في البحر، هو من مات بإرادته أو بغير إرادته^(٤).

أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويحار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه، بهجة المحافل ص ١٦٩-١٧٠، في أعيان من أكرم بالشهادة يوم أحد، ص ١٧٠-١٨٢. (١) «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا»، ابن هشام ح ١٠٢-١٠٣. وهو ما تنمّاه أيضا سميّر قنطار بعد خروجه من السجن الإسرائيلي بعد أكثر من ربع قرن، يتمنى أن يعود للمقاومة ليسجن مرة أخرى. «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»، والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من أمّتي لا تطيب أنفسهم أن يتخلقوا عني ولا أجد ما أحلهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله. والذي نفسي بيده لو ددت أن أقتل في سبيل الله ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ، بهجة المحافل ص ١٨٢-١٨٣. (٢) «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ، وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفُتُوهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»، ابن هشام ح ١٩٥/٢، في فضل شهداء بئر معونة، بهجة المحافل ص ١٨٢-١٨٣.

(٣) «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»، «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق».

(٤) «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد»، «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله»، بهجة المحافل ص ١٨٣.

د- النقد الذاتي

ويدعو القرآن المسلمين إلى الوحدة وعدم التنازع وابتغاء الآخرة دون الدنيا^(١). وهو داء المسلمين حتى اليوم الذي يُنسب به ضاع ملكهم منذ سقوط الأندلس حتى سقوط الخلافة واحتلال فلسطين. كما نزل القرآن لحث المسلمين على التواصل، وجعل المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين، وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض^(٢). ويخشى من الولاية في الدين أن تكون ولاية في السياسة. وهو ما حدث بالفعل بعد وفاة الرسول، ولم يوار جسده التراب بعد، أيها أولى بالحكم، المهاجرون الذين نصروا الرسول أولاً أم الأنصار الذين نصره ثانياً؟ مسلمو مكة أم مسلمو المدينة؟

وقد جاهد المؤمنون من قبل مع أنبيائهم وأبلوا بلاء حسناً^(٣). فلا غرور أن يكون ذلك أيضاً مع آخر الأنبياء، بصرف النظر عن نتائج الجهاد، نصراً أم هزيمة. ويؤنب القرآن المسلمين لفرارهم عن نبيهم، وخروجهم على السنة، وإلا ما كان الرسول نبياً، وما كانوا هم مؤمنين^(٤). ويحذرهم القرآن من أن يكونوا ممن يخشون الموت في سبيل الله أو يسمعون لأقوال المنافقين الذين يجعلون سبب موتهم الانضمام إلى النبي، والموت مصير الجميع بصرف النظر عن إيمانه بالنبي أو دونه. فمن الأفضل الموت مع الإيمان

(١) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَسَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرْأَيْتُمْ مَا يُحْيِيَنَّكُمْ مِّنْ يَّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يَّرِيدُ الْآخِرَةِ﴾، ابن هشام ج ٢/ ٢٩٨، الأحكام المستفادة من أحد، خير العباد ص ١٤٦-١٧١.

(٢) ﴿لَا تَقْعَلُوهُ لَكِنَّ فَتَنَةً فِي الْأَرْضِ وَفِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ابن هشام ج ١/ ٥٩٥-٥٩٦.

(٣) ﴿كَأَيُّنَ مِنْ نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، السابق ج ٢/ ٩٦-٩٧.

(٤) ﴿إِذْ تَضَعُدُونَ وَلَا تُلَاحِظُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَائِكُمْ فَأَتَانِيكُمُ غَيًّا بَعَثَ لَكُمْ لَكَيْلًا تَحْزِنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ تُيُودِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، السابق ج ٢/ ٩٨-٩٩.

ولا يقوم الأساس الصلب على الأساس الهش. ويتنقد القرآن المنافقين، وتحلفهم عن القتال. فقد أصبحوا مثل المشركين، وحاولوا إقناع إخوانهم بالكوص معهم حتى لا يقتلوا. يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويكتمون الحق وهو يعلمون^(١). وقد تحاذل المنافقون في حفر الخندق، ونشط المؤمنون. ونزل القرآن فيهم. ويعمل المؤمنون. وإذا أرادوا التغييب لأمر ما استأذنوا الرسول. أما المنافقون فإنهم يغادرون دون استئذان لأنهم لا يؤدون العمل من قلوبهم. ويتناجى المنافقون فيما بينهم وهي غير مناجاة الرسول للمؤمنين^(٢).

وقد طلب نفر من المسلمين أن يعلموهم. فلديهم إسلام لكن لا يفقهون فيه كثيرا. يريدون التفقه وقراءة القرآن، وتعلم الشرائع. فبعث الرسول معهم ستة من أصحابه. وفي الطريق غدروا بهم فاستصرخوا، واستلوا السيوف ليس لقتلهم ولكن لفدائهم بشيء من أهل مكة. قتلوا واحدا بالحجارة. وبيع اثنان منهم أسيران في مكة لقتل أحدهما جزاء قتل أبيه. وصلب الثالث بعد أن صلى ركعتين ودعا على قاتليه وهو على الصليب^(٣). وآخر قتل بالحربة. والأخير بقى في أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم فقتلوه. وقد نزل فيهم القرآن.

ولما أرسل الرسول الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق بعد إسلامهم أخبره قوم أنهم سيقتلونه. فعاد إلى الرسول، وهم بغزوهم. ثم علم الرسول أنهم خرجوا لإكرام وفده

(١) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَاقَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبِغْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبُهُمْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، السابق ٢/١٠١-

١٠٢
(٢) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَاقَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبِغْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبُهُمْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، السابق ٢/١٠١-

١٠٢
(٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، السابق ٢/١٤٧-١٥٠.

وليس لقتله. فنزل القرآن بضرورة التثبت من الأخبار قبل تصديقها^(١). وقد وقع حديث الإفك في غزوة بني المصطلق. فقد كان الرسول يقترح بين نسائه إذا ما خرج في غزوة. ووقعت القرعة على عائشة. وأثناء العودة سقط قرطها. وتخلفت في البحث عنه. وفاتها البعير. ومر ابن المعطل بها. وحملها على بعيره بعد أن تعرف عليها قبل أن يضرب الحجاب. فبدأت الشائعات، وأعرض الرسول عنها وقاطعها. وكان يسأل عنها «كيف تيكمن؟». وانتقلت إلى بيت أبيها. وعلمت بما قيل فيها. وفهمت سبب جفاء الرسول معها. وقد خطب الرسول يذكر إيذاء قوم له في غرضه وهو لم يعلم منهم إلا خيرا، وأن الرجل المتهم لا يعلم عنه إلا خيرا. وقد ساهم في نشر الحديث اثنان من المنافقين، وكاد النزاع يعود بين الأوس والخزرج إذا كان المتهم منهم. وأشار عليه أسامة بأنه لم يسمع عن أهله إلا كل خير. وأشار عليه على بتطليقها، فالتساء كثيرات. ثم نزل القرآن ببراءة عائشة بعد أن ظنت أنها أقل من أن ينزل قرآن بشأنها بعد أن أخبرها الرسول بأن تتقي الله فيما يقول الناس أو تتوب إلى الله لو كان ما يقولونه صحيحا^(٢). وبعد أن وضع الرسول رأسه على وسادة جاءه جبريل مبرئا عائشة: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك». وقد هم أبو بكر بعدم الإنفاق على سطيح لاشتراكه في الشائعة. ثم عدل عن ذلك بعد نزول القرآن. وقد هم ابن المعطل بقتل حسان شاعر الرسول بالسيف. وعاتب الرسول حسان على ما قال شعرا في نقد ابن المعطل. وكان ابن المعطل رجلا حصورا لا يأتي النساء. ثم قتل بعد ذلك شهيدا. وبمناسبتة شرعت أحكام القذف^(٣). ويقتل على

(١) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ»، السابق ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) «وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُمْ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ، لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ جَبْرًا»، «إِذْ تَلَقَوْهُ بِاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ تَلَقَوْهُ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ»، «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّيِّئَةُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَغْفِرُوا وَلْيَصْغَحُوا أَلَا نَجْزِيكَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، «وَيُسْكَ السَّمَاءُ أَنْ تُقَعَّ عَلَى الْأَرْضِ»، السابق ٢٥٤-٢٦٣. بهجة المحافل ص ٢٠٣-٢١٦، سيرة النبي ص ٢٩٨-٣٠٧، حياة محمد ص ٢٩٠-٢٩٥، مختصر سيرة (٢) ص ٢٦٧-٢٧٩، معجز محمد ح ٨٤-٩٠، السيرة النبوية ص ٢٦٩-٢٧٤، الرحيق المختوم ص ٣٣١-٣٣٣.

(٣) بهجة المحافل ص ٢٠٤-٢٠٥.

التأويل من أقر بالتنزيل. والتأويل اجتهاد وقراءة لا تخطئ أو تصيب. ولا يقتل صاحبها أو يكفر^(١). صحيح أن أسباب النزول تساعد على الفهم الصحيح للآية ولكن لا يخطئ من يؤولها عن حسن نية. والتأويل هو مَبْتَنٍ تَأْسِيسُ الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا: وهو لأولي العلم فحسب. وهو الذي يكشف عن أعماق الشعور ودرجاته المتتالية. ويرجع النص إلى أصله الأول في التجربة الإنسانية.

٨- مشاركة المرأة

وتشارك المرأة في الحرب^(٢). فلم تكن المرأة في العصر الجاهلي كما صورتها كتب الدعاية الساذجة للإسلام الذي أتى فقلب الباطل حقاً، والحق باطلا. تشارك بالسلام أو بالمساندة، بالخروج أو بالشعر. شاركت أم سليم في غزوة حنين مع زوجها أبي طلحة وهي حامل بعبد الله، ومعها جمل أبي طلحة، تريد قتل من ينهزم عن الرسول مثل قتل من يقاتلونه، فلا فرق بينهما. وأخذت خنجراً للدفاع عن نفسها إذا دنى منها أحد المشركين. والرسول يكتفي بحماية الله له^(٣).

ولا تحارب المرأة فقط بل تظهر قسوتها أكثر من الرجل. إذ قامت هند بالتمثيل بحمزة، وصاحبها بالتمثيل بجثث المسلمين. يجدهن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند منها القلائد والخلخال. وأعطت قلائدها وقرطها وخلخالها إلى وحشية. وبقرت كبده حمزة ولاكته فلم تستسغه فلفظته. وأنشدت الشعر من أعلى الصخر. فردت عليها النساء المسلمات. وحرص عمر حسان على الدخول في معركة الشعر^(٤). وفي نفس الوقت كانت المرأة أيضاً ضحية الحروب. فقد سعت قريش إلى تطليق بنات الرسول من أزواجهن

(١) ابن هشام ح ٢/ ٣١٥.

(٢) السابق ح ٢/ ٦٠-٦٤. وفي أحد هند بنت عتبة، أم سعد، هند بنت أناة، هنة بنت جحش ح ٢/ ٢٥٩، خروج قريش مع نساءهم ح ٢/ ٥٥-٨٧، نساء الأنصار، المرأة الدينارية، قتل صفية اليهودي الذي كان يحوم بجيش المسلمين يعود من الشجر ح ٢/ ١٦٣.

(٣) «أو يكفي الله يا أم سليم»، السابق ح ٢/ ٣٧٨، مشاركة النساء في المعركة، خير العباد ص ١٣٤.

(٤) ابن هشام ح ٢/ ٧٩-٨١.

بعد بدر^(١). فرفض واحد أن يطلقها أو يستبدل بها امرأة أخرى حتى ولو كانت من كريمة قريش. كان الرسول يشي عليه خيرا^(٢). أما الثاني فقبل واشترط تزويجه البديل من أشرف قريش. وكان لم يدخل عليها بعد. وخلفه عليها عثمان بن عفان^(٣). وقد أبقى الرسول ابنته زينب بعد أن أسلمت مع أبي العاص على شركه إيثارا لرابطة الأسرة على رابطة الدين. فلما جاء زوجها أسيرا رق لها وطلب فداءه^(٤). وعادت زينب إلى المدينة. وترصدها أحد المشركين وروعها فسقطت من على المودج وهي حامل وفقدت جنينها. ثم توفت في المدينة. وأراد الرسول الانتقام ممن روع ابنته بحرقه بالنار. ثم غير رأيه لأنه لا يحرق بالنار إلا الله. واكتفى بقتله^(٥). ثم أسلم أبو العاص بعد استيلاء المسلمين على تجارتها، وإجازة زينب له، وطلب الرسول من زينب إكرام مثواه، ولا يقربها إلا بعد إسلامه. ومنهم من طلقوا من غير فداء.

وقد قبل الرسول بصياح وعويل المرأة على زوجها وتماسكها عند سماعها باستشهاد أخيها وخاليها واستغفرت لهما^(٦). فالزوج أقرب إلى المرأة من الأخ والخال. وبكت نساء الأنصار على حمزة لما رأى الرسول أن حمزة لا ناثحات عليه^(٧). ثم بعد ذلك أرجعنهن وهن يبكين على باب مسجده^(٨). فالنوح على الميت يأتي بالطبيعة على العزيز وليس بالنداء لأداء الوظيفة، وقد تماسكت المرأة الدينارية بعد أن علمت بإصابة أبيها وأخيها وزوجها ونجاة رسول الله^(٩). هنا يبدو الرسول أعز من الأب والأخ والزوج. وهو صراع إنساني في جدل العواطف بين القريب والنموذج، بين القرابة الدموية والقرابة

(١) زوجت خديجة زوجة الرسول أبا العاص ابن أختها إلى زينب ابنتها وابنة الرسول قبل البعثة، السابق حـ ٥٧٤/١.

(٢) زوج الرسول عتبة بن أبي لهب رقية أو أم كلثوم، السابق حـ ٥٧٥.

(٣) السابق حـ ٥٧٥/١.

(٤) «إن رأيت أن تطلقوها أسيرها، وتردوا عليها ما لها فافعلوا»، السابق حـ ٥٧٥.

(٥) السابق حـ ٥٧٨-٥٨١.

(٦) «إن زوج المرأة منها لمكان»، السابق حـ ٨٥-٨٦.

(٧) «لكن حمزة لا يأكلي له»، السابق حـ ٨٦.

(٨) «ارجعن برحمن الله. فقد أسيتن بأنفسكن»، «رحم الله الأنصار فإن المراساة منهم ما عنمت لتقدمية، مروهن فلينصرفن»، السابق حـ ٨٦.

(٩) السابق حـ ٨٦-٨٧.

الروحية. وبالرغم من أن المرأة كانت فيها وراء ستار، غنيمة وسلبا وفداء وموضوعا جنسيا فإنها كان لها شخصيتها المستقلة كامرأة لها حقوقها، وعليها واجباتها الجنسية. وتعتز أيضا بانتسابها القومي^(١). إلا أن المجتمع لم يكن يسمح بظهورها العلني. فكانت تظهر في دائرتها الصغيرة في المنزل مع الزوج والأولاد أو مع الأب والأم أو مع الأقارب والأصهار^(٢).

ودعا الرسول إحدى زوجاته فقالت «إنا قوم نؤتى ولا نأتي» فردها إلى أهلها. مع أنه رد فعل طبيعي عند المرأة أن يأتيها الرجل ولا تأتيه، وأن يكون للرجل زمام المبادرة. والدعوة حياء من المرأة واستنفارا للرجل^(٣). والرجل أيضا، خاصة إذا كان نبيا، يجب أن تأتيه المرأة، ولا خلاف بين الرأيين. فالحب متبادل بين الاثنين، الرجل والمرأة، في العواطف وفي الحركات. فالعلاقة بين الحبسين ليست علاقة سيد بمسود ولكن علاقة طرفين متساويين، يطلب كل منهما الآخر.

واستغاثت إحداهن من الرسول. وقد كانت حديثة عهد بالكفر. فردها إلى أهلها. وهو رد فعل طبيعي عند امرأة لم تتعود على مجالسة مسلم^(٤). وكانت في حاجة إلى صبر أكثر حتى تتعود عليه وتألفه وتعرف أن الخلاف في العقيدة لا يؤثر في الاتفاق في الحب. ورفضت ريحانة التي اصطفاها الرسول لنفسه من غزوة بني قريظة أن تتحجب وأن تسلم وأن تتزوج الرسول. وبقيت على يهوديتها حتى أسلمت فيها بعد^(٥). فالاعتزاز بالعقيدة جزء من الاعتزاز بالنفس. وتغيير العقائد ليس بالسهولة مثل تغيير الأزواج.

وقد توفي الرسول وهو في حجر إحدى نسائه، بين سحرها ونحرها، ما بين الرقبة والصدر، أصغرن، وأجهن إلى قلبه حتى يفارق الدنيا مع أحب شيء له فيها،

(١) هذا موضوع رسالة جامعية عن «المرأة في سيرة ابن هشام»..

(٢) «أخذ الرسول في غزوة خيبر صفية بنت حيي بن أخطب سبيه وأعطى دحية ابنتي عمته»، ابن هشام ح٢/٢٨٢.

(٣) السابق ح٢/٥٤٤.

(٤) السابق ح٢/٥٤٤.

(٥) السابق ح٢/٢٠٦-٢٠٩.

عائشة^(١). وهو ما لا يعيب المرأة ولا الرجل. ولا تعارض بين الهناء في الدنيا والسعادة في الآخرة. ولماذا تكون السعادة في الآخرة عوضاً عن الشقاء في الدنيا؟ وتخرج بعض الأحاديث عن سياقها. تقول في وضع خاص ثم يعمم الحكم مثل حديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(٢). فقد قيل بمناسبة تولية الفرس أمورهم لامرأة، والقاعدة الأصولية خصوص السبب وعموم الحكم لا تنطبق على هذه الحالة لأن السياق كان نقد الآخر وليس تشريع الذات.

٩- قتال اليهود

ولليهود وضع خاص في انتشار الدعوة الإسلامية، إيجاباً وسلباً. فمن اليهود من عرف الحق. وبالرغم من أنه كان في السبي إلا أنه قاتل مع الرسول واستشهد^(٣). فاليهودي المؤمن برسائله كالمسلم المؤمن برسائله وبالرسالات السابقة. ومنهم من عرض على الرسول خدماته فأمره الرسول بأن يخدع قومه. فالحرب خدعة^(٤). فأقنع اليهود بأن قريشا تخلت عن حربه، فتفرق الحلف بين قريش واليهود. وأرسل الرسول رجلاً ليعرف ماذا حل بالمشركين فوجد أن أبا سفيان يناديهم بالرحيل. وعلم الرسول بتخاذل المشركين وانصرافهم. فساهم اليهودي في إبعاد قريش عن الحرب إثارة للسلام. ويستعمل الرسول لفظ «يهود» نكرة يهود وليس معرفة «اليهود» إمعاناً في إذلالهم بأنهم نكرة على عكس النصاري الذين يستعملهم لمعرفة «النصاري» وليس نكرة «نصاري». والنكرة لا يبقى في شبه جزيرة العرب في حين أن المعرفة يبقى. يستعمل لفظ «يهود نكرة لأنهم غرباء عن شبه الجزيرة العربية»^(٥).

وبعد غزوة بدر دعا الرسول اليهود للإسلام حتى لا يصيبهم ما أصاب قريشا.

(١) السابق حـ ٢/ ٥٤٥.

(٢) بهجة المحافل ص ٢٥٢.

(٣) قال الرسول فيه «مخبر خير يهود»، ابن هشام حـ ٧٧/ ٢.

(٤) السابق حـ ٢/ ١٩٧-٢٠٠، ابن خلدون ص ١٣٧-١٤٩، حياة محمد ص ٢٥٣-٢٦٢، رسول الحرية

ص ٢٤٢-٢٤٥.

(٥) وفاة الوفا حـ ١/ ٢٨٣.

فرفضوا مدعين أن ما قتلوا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون أساليب القتال. أما هم فإنهم هم المقاتلون بحق. فنزل القرآن ردا عليهم بأنهم سيلقون مصير قريش^(١). وأن القضية ليست فقط في فنون الحرب ووسائله بل أيضا في غاياته وأهدافه، وفرق بين غاية المسلمين في نشر الحق وغاية اليهود في نشر الباطل. وكانوا قد تفاءلوا بمنع الرسول القتال في الشهر الحرام^(٢). وهي عادة عربية سابقة على الإسلام. استمرت بعده احتراماً للمسجد الحرام وتأكيذاً للسلام. وصرفت القبلة إلى الكعبة حتى يتمايز المسلمون عن غيرهم^(٣). وكانت الكعبة والقدس على اتجاها جغرافي واحد. فلم يتغير شيء في حقيقة الأمر، من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب. ودلالة تحويل القبلة من الشام إلى شبه الجزيرة العربية هو التحول بخاتم الوحي من الشام إلى الحجاز، ومن اليهود إلى العرب^(٤).

ولم تُسم كيفية التعامل مع بني قينقاع غزوة بل أمراً^(٥). فقد جمعهم الرسول لدعوتهم إلى الإسلام لأنهم يعلمون أنه نبي مرسل كما هو موجود عندهم في الكتاب. فرفضوا وهم مستعدون للقتال. وهم أهل خبرة أكثر من قريش. انتصر المسلمون في بدر لأن قريشا لا تعرف فنون القتال كما يعرفها اليهود. ورد عليهم القرآن^(٦). وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد مع الرسول. وحاربوه بين بدر وأحد. وكان سبب الحرب أن امرأة عربية

(١) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ يَوْمَئِذٍ وَأَمْثَلُهُمْ خُيُوتٌ مُّشْرَبُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ، قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصَارَةِ فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، ابن هشام حـ/١/٤٩٣.

(٢) السابق حـ/١/٥٣٥.

(٣) السابق حـ/١/٥٣٦.

(٤) «وددت لو حولني ربي إلى الكعبة فإنها قبله أبي إبراهيم عليه السلام»، سيرة النبي ص ٢٦٥-٢٦٩، السيرة الحلبية حـ/٢/١٧٧-١٩٦، مختصر سيرة (٢) ص ١٩٩-٢٠٠.

(٥) ابن هشام حـ/٢/٤٤-٤٦، البستاني حـ/٢/٢٠٩-٢١١.

(٦) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ يَوْمَئِذٍ وَأَمْثَلُهُمْ خُيُوتٌ مُّشْرَبُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ، قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصَارَةِ فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، السابق حـ/٢/٤٤، خير العباد ص ١٢٥، سيرة النبي ص ٢٧٧، السيرة الحلبية حـ/٢/٢٨٤-٢٨٦.

٢٨٦، نور اليقين ص ٩٧، الأسوة الحسنة حـ/١/٣٣٠، مختصر السيرة (١) ص ١٠٩، مختصر السيرة (٢) ص ٢٣٩-٢٤٢، سيرة الرسول ص ١٢٧-١٣١، السيرة النبوية ص ٢٢٧-٢٣٠، خير الورى ص ٢١٨-٢٣١، الرحيق المختون ص ٢٣٦-٢٣٩.

بسوق بني قينقاع تباع ما عندها إلى صائغ يهودي فأرادوا كشف وجهها فالت فرفع الصائغ طرف ثوبها إلى رأسها فانكشفت سوءتها فضحكوا فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. وحاصرهم الرسول حتى نزلوا على حكمه. فطلب عبد الله بن أبي ابن سلول أن يحسن الرسول في معاملة مواليه. وبعد أن أعرض عنه الرسول أدخل يده في جيب درعه ولم يشأ إخراجها بعد أن طلب الرسول ذلك منه مرتين. وطلب اليهودي أن يحسن في أربعمئة رجل بلا درع وثلاثمئة بدرع. فوافق الرسول. ثم حاصرهم خمس عشرة ليلة. وتبرأ منهم حلفاؤهم من العرب. وفيهم نزل القرآن^(١).

وقد طلب الرسول من المسلمين أن من ظفر يهودي فليقتله^(٢). فقد كان العداء بين المسلمين واليهود قد وصل إلى حد العداء المبدئي الجماعي وليس العقاب الفردي على عمل معين. وهو أقرب إلى روح الشريعة الإسلامية^(٣). فتقدم أحد المسلمين فقتل تاجرا يهوديا فضربه أخوه المشرك مستنكرا فعلته. وربما يكون شحم بطنه من ماله. ودافع القاتل عن نفسه بأنه أمر من الرسول الذي إن كان قد أمره بقتل أخيه لفعل. فاستعجب الأخ من قدرة هذا الدين على الولاء له ضد الأخوة «والله إن ديننا بلغ بك هذا لعجب» ثم أسلم. فالرابطة الدينية تجب رابطة الأخوة. وفي رواية أخرى لما ظفر الرسول ببني قريظة أخذ منهم أربعمئة رجل. وكانوا حلفاء الأوس على الخزرج. وأمر

(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ يَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوا عَلَى مَا اسْتَرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ، وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْيَانُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، ابن هشام ح ٤٥-٤٦.

(٢) مَنْ ظَفَرْتُمْ مِنْ رِجَالِ يَهُودٍ فَاقْتُلُوهُ، السابق ح ٥٢.

(٣) سيرة النبي ص ٣١٠-٣٢٣، المغازي ص ٢٦٣-٢٦٧، الرحيق المختوم ص ٣١٤-٣١٨.

بضرب أعناقهم. وبدأت الخزرج في التنفيذ وهم مسرورون. فرأى الرسول وجوههم مستبشرة. ورأى وجوه الأوس عابسة. فظن أن الحلف بين الأوس وبني قريظة هو السبب. ولم يكن بقي من بني قريظة إلا اثنا عشر رجلاً فدفعهم إلى الأوس، لكل رجل من الأوس رجل من بني قريظة. «لضرب فلان وليذفف فلان». وكان منهم كعب بن يهودا عظيم بني قريظة. فدفعه إلى اثنين من الأخوة. الأول بضربته لم تكن كافية. فأجهز عليه الثاني، وكان مشركاً، فاستعجب كيف يتم هذا القتل بأمر الرسول «والله إن هذا لدين» وفي الصباح أسلم^(١). فالدين قبل الإخوة، والقبلية متداخلة مع الدين. وفي كلتا الحالتين القتل مبني على الهوية، دون جريمة محددة من فرد معين.

وأمر الرسول بإجلاء بني النضير في سنة أربع من الهجرة^(٢). فقد خرج الرسول إليهم يستعينهم في دية قتلى بني عامر ثم الغدر به بعد أن وافقوا عندما خلا بعضهم إلى بعض. وقرروا إلقاء صخرة على الرسول من أعلى البيت وهو جالس تحته. ولما علم الرسول رجع إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. فحاصروهم الرسول لما تحصنوا منه في الحصون. وأمر بقطع النخيل والتحريق فيها. فعابوا عليه الفساد في الأرض وهو محرم في الإسلام. والغدر حتى على مستوى النية جريمة يعاقب عليها صاحبها دون قطع النخيل والتحريق فيها طبقاً لوصية الرسول فيما بعد في آداب القتال، عدم قتل امرأة، ولا شيخ، ولا وليد، ولا قطع شجرة. وقد حرضهم رهط من قريش، منافقين ومشركين، على مقاتلة الرسول، ولكنهم عرضوا عليه الصلح. الجلاء عن مواقعهم في مقابل ترك أموالهم وممتلكاتهم التي تفوق حمل البعير. وانطلق بعضهم إلى الشام. والبعض الآخر إلى خيبر. وقسم الرسول أموالهم بين المهاجرين الأولين دون الأنصار باستثناء فقيرين من الأنصار. ومنهم من فضل الإسلام والاحتفاظ بأمواله. وفي رواية حرض الرسول يامين على قتل ابن جحاش. فاستأجر يامين رجلاً يقتل ابن عمه وهو

(١) السابق ح٢/٥٢-٥٤.

(٢) السابق ح٢/١٦٤-١٦٦، البستي ح٢/٢٣٤-٢٣٧، الفصول ص١٤٢-١٥٢، ابن خلدون ص١٢٦-١٢٨، سيرة النبي ص٢٩٠-٢٩٢، السيرة الحلبية ح٢/٣٥٦-٣٦٥.

ما يتنافى مع أخلاق الرسول خاصة وأن الرواية تنتهي بعبارة فيما يزعمون^(١). والرسول لا يحرض على القتل غيلة بل يواجه علنا^(٢).

وقد نزلت سورة الحشر بأسرها في بني النضير تذكر ما أصابهم الله من نقمة عليهم، وما سلط عليهم رسوله، وما عمل فيهم، وما أفاء الله على رسوله منهم^(٣). فقد أخرجوا من ديارهم. ولم تمنعهم حصونهم من الخوف والرعب. فهجروها وخربوا بيوتهم بأيديهم، وأصبحت أموالهم فينا للمسلمين. كما بين القرآن كيفية تقسيم الفئ الذي غنمه الرسول من اليهود، وتوزيعه على اليتامى والفقراء والمساكين، وتقسيمه بين الناس حتى لا يبقى متراكما في أيدي الأغنياء^(٤). ويكشف نفاق المسلمين الذين حالفوا اليهود ثم تبرءوا منهم^(٥). وكان الدافع

(١) قال له ألم تر ما لقيت من ابن عمك، وما هم به من شائي؟ حـ ١٦٦/٢.

(٢) بدر الموعد، الفصول ص ١٥٢-١٥٣، غزوة دومة الجندل، ص ١٥٣، نور اليقين ص ١١١-١١٢، الأسوة الحسنة حـ ١/٢٨٣-٢٩١، مختصر سيرة (٢) ص ٢٦١-٢٦٣، سيرة الرسول ص ١٥٣-١٥٤، السيرة النبوية ص ٢٤٥-٢٤٨، خاتم الأنبياء ص ١٣٤-١٣٦، صحيح السيرة ص ٣٢٤-٣٢٨، خير الوري ص ٣٢٨-٣٣٩.

(٣) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ حَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ يَخْرَبُونَ بِيُوتِهِمْ بِيَدَيْهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ، وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخِلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِبَنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ، وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ابن هشام حـ ١٦٦-١٦٧.

(٤) ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، السابق حـ ١٦٨/٢.

(٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطْمَعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ، أَلَسْتُمْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ، لَا يَتَنَالَوْنَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرَى مُخَصَّةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ، كَمَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَيَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، كَمَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، السابق حـ ١٦٨/٢.

على غزوة الخندق تحريض اليهود لقريش. وقد نزل القرآن في ذلك^(١). والتحريض على القتال قتال. ويؤيدون المشركين على المؤمنين. وسبقها ثمان وعشرون سرية.

وأمر الرسول المسلمين بالقتال، وألا يصلي أحد منهم العصر إلا في بني قريظة^(٢١).
وقدم تقدم عليّ برأيه، وسمع من المشركين مقالة قبيحة. ولو رأوا الرسول ما نجروا
على قول ذلك^(٢٢). وتلاحق المسلمون بالرسول. وقد حاصرهم الرسول خمساً وعشرين
ليلة. وقد عُرض عليهم ثلاثة أمور إما التصديق بالرسول كما هو موجود عندهم
بالتوراة، فرفضوا مفارقة حكم التوراة. وإما قتل الأبناء والنساء والخروج إلى محمد
وأصحابه مسلطين السيوف. فإما النصر ويتزوجون ويتناسلون من جديد وإما الهزيمة
فلا يبقى بعدهم أحد يخافون عليه، وهي قسوة على أبرياء. وإما القدوم إلى المسلمين يوم
السبت حيث لا يتوقع المسلمون. وهو خروج على الشريعة. وطلب اليهود أن يبعث
لهم الرسول أحد أصحابه للمشاورة. فبكت إليه النساء والأطفال. وأشار إليهم بقبول
حكم محمد وإلا فالذبح، فشعر أنه خان الرسول. ودعا إلى الرسول وربط نفسه في
عمود المسجد حتى يتوب الله عليه. ووعد أنه لن يأتي بني قريظة أبداً، وألا يكون في
بلد خان فيه الرسول. ونزل القرآن في شأنه. فلو كان قد عاد إلى الرسول لكان قد غفر
له. وما دام قد ربط نفسه فلن يطلقه حتى يتوب عليه الله. فنزلت توبته وأطلق الرسول

(١) ﴿أَلَمْ يَأْتِ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالْطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا..... أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، قَدْ أَتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، السابق جـ ٢/ ١٨٥، البسي جـ ١/ ٢٥٤-٢٦٢، خير العباد ص ١٩١-٢٠٠، الإشارة ص ٢٥٩-٣٠٥، الفصول ص ١٥٣-١٦٢، بهجة المحافل ص ٢٠٥-٢١٦، سيرة النبي ص ٣٠٧-٣١٠، السيرة الحلبية جـ ٢/ ٤١٥-٤٣٩، حياة محمد ص ٢٧٢-٢٨٣، نور اليقين ص ١٢٠-١٢١، الأسوة الحسنة جـ ١/ ٤١٢-٤٣٠، سيد الأنام ص ٢٠٨-٢٠٩، المغازي ص ٢٤٦-٢٦٢، مختصر سيرة (٢) ص ٢٧٩-٢٨٧، معجز محمد جـ ٢/ ٩١-١٠٦، سيرة الرسول ص ١٥٩-١٦٧، السيرة النبوية ص ٢٤٩-٢٥٨، خاتم الأنبياء ص ١٣٧-١٦٥، صحيح السيرة ٣٥١-٣٦٩، رسول الحرية ص ٢٥٧-٢٦٦.

(٢) ابن هشام ح٢/ ٢٠٠-٢٠٢، البصري ح١/ ٢٦٢-٢٦٦، المغازي ص ٢٦٣-٢٦٧.

(۳) رد عليهم الرسول قائلا: يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟.

صراحة^(١). وأسلم نفر من اليهود هذه الليلة. وآخر تاب من عنده وعاد إلى وفائه^(٢). وقد نزلت بنو قريظة على حكم الرسول وتحكيم سعد. واعترض الأوس أولاً ثم قبلوا بناء على رجاء الرسول. ورضي الرسول بحكم سعد. ونزلت بنو قريظة على حكمه وهو قتل الرجال، وفيء الأموال، وسبي الذراري والنساء. واعتبر الرسول هذا الحكم حكم الله من فوق سبع سموات. وهو من عادات العرب في القتال بين القبائل والتي قصتها كتب الفقه بعد ذلك، باعتباره فقها للعصر.

وقد قتل الرسول بني قريظة بعد حبسهم في إحدى دور المدينة وخندق في سوقها. وضرب في أعناقهم طائفة وراء طائفة، ما بين ستائة وسبعائة. وهو ما يتعارض مع رحمة الإسلام وسماحة الرسول والجزاء الفردي^(٣). وقتلت من النساء امرأة واحدة قتلت أحد المسلمين من قبل، وقبلت أن تقتل وهي تضحك عن طيب خاطر. وقتل الزبير ابن باطا بعد أن أعطاه الرسول لأحد المسلمين. وكان قد من عليه من قبل. ووهبه ماله وأهله، امرأته وولده. ثم قتله ليلحق برفاقه في جهنم. وأمر الرسول أن يقتل كل من أنبت من بني قريظة. وعفى الرسول عن آخر كرامة لإحدى خالاته صلت معه القبليتين، وبايعته بيعة النساء. وقسم فئ بني قريظة على المسلمين. واصطفى لنفسه ريحانة التي رفضت أن تتحجب وأن تدخل الإسلام وأن يتزوجها الرسول وفضلت بقاءها على اليهودية. ثم أسلمت بعد ذلك.

وقد نزل القرآن في غزوة الخندق وبني قريظة في سورة الأحزاب يذكر ما نزل من البلاء ونعمته عليهم وكفايته إياهم حين فرج عنهم بعد مقالة أهل النفاق. فالجنود هم

(١) هو أبو لبابة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، «وَأَخْرَجُوا عَنْ دِينِهِمْ خِلَافًا مَخَالِفًا وَآخَرُ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، ابن هشام حـ ٢٠٢/٢-٢٠٤.

(٢) هو عمرو بن سعد حـ ٢٠٤-٢٠٥، الفصول ص ١٦٢-١٧٤، سيرة النبي ص ٣١٠-٣٦٢، السيرة الحلبية حـ ٤٤٠-٤٥٧، حياة محمد ص ٢٨٠-٢٨٣، الأسوة الحسنة حـ ٤٣٤-٤٤٤، سيد الأنام ص ٢١٧، مختصر سيرة (٢) ص ٢٨٧-٢٩١، السيرة النبوية ص ٢٥٩-٢٦٨، صحيح قتل أبي رافع بن أبي الحقيق، الفصول ص ١٧٤، غزوة بني لحيان ص ١٧٥، غزوة ذي قرد ص ١٧٦، غزوة بني المصطلق أو المربع ص ١٧٨-١٨٦، السيرة ٣٧٠-٣٨٩، خير الورى ص ٣٨٦-٤٠٩.

(٣) بمن فيهم مجي بن أخطب، ابن هشام حـ ٢٠٦-٢٠٩، البستاني حـ ٢٦٢-٢٦٨، نور اليقين ص ١٢٣، سيد الأنام ص ٢١٠، معجزة محمد حـ ١٠٧-١٢٦.

قريش وبنو قريظة وغطفان من كل الجوانب^(١). نقضوا العهود، وفروا من المعركة، وكانوا يدعون الناس إلى الفرار معهم. يخافون المسلمين أو ينتقدونهم بالسنة حداد. وكانوا يرون أن وعد الله غير صادق. ويتحججون بالعودة عن القتال لأن بيوتهم عورة. والسبب الحقيقي هو أنهم يريدون الفرار من المعركة. وكانوا مستعدين للفتنة. ويخافون من الموت، ويهربون منه، وهو ملاحقهم^(٢).

وبعد الرجوع من الحديبية سار الرسول إلى خيبر. وارتجز ابن الأكوخ. ودعا الرسول له. واستشهد برجوع سيفه إليه. ودعا الرسول قبل دخول القرية أن يهديه الله خير القرية وكأن الدافع كما كان في بدر هو الغنائم^(٣). وكان يقول هذا الدعاء لكل قرية دخلها. وهرب أهل خيبر بمجرد ما سمعوا بقدوم الرسول. فكبر الرسول^(٤). وقد حاولت غطفان مساعدة أهل خيبر ولكنها خذلتهم. وخافوا من الرسول على أموالهم ونسائهم وأولادهم. وتدني الرسول الأموال، مالا مالا. ويفتح حصونها حصنا حصنا. وأصاب الرسول سبايا من كل حصن منهن صفية بنت حيي بن أخطب. فاصطفأها لنفسه. وأعطى دحية ابنتي عمتها. وأكل المسلمون من لحوم حمرها الأهلية. ثم نهى

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَرَقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَّغْتَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾، ﴿هَٰذَا الَّذِي آتَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا، وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾، ابن هشام ج ٢/ ٢١٠، البستي ج ٢/ ٢٦٢-٢٦٧.

(٢) ﴿ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ لَأَنزِلْنَاهَا بِمَا تَلْبِسُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤَلِّقُوا الْأَذْيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسْتَوْلاً، قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَعْتَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا، قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا، أَشْجَعُ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِسُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّنةِ حَدَادًا﴾، ﴿يَحْسِبُونَ الْأَخْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَخْزَابُ يُوقِدُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، ابن هشام ج ٢/ ٢١٠-٢١١.

(٣) قال الرسول «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقتلن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإننا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها. أقدموا باسم الله»، السابق ج ٢/ ٢٨٠، الفصول ص ١٩٥-١٩٩.

(٤) هو التكبير الشهير «الله أكبر، خرجت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم نساء صباح المنذرين»، ج ٢/ ٢٨٠، البستي ج ٢/ ٣٠٠-٣١٤، سيرة النبي ص ٣٣٦.

الرسول عنها. فقلبوا القدور عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغنم حتى تقسم، ومن سقى زرع غيره من مائه أي إتيان الحبالى من السبايا، وأن يصيب امرأة من السبايا حتى يستبرئها، وأن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا ضعفت أو هزلت، وأن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى ولو لم يكن لديه غيره^(١). والدافع هو الإيمان بالله واليوم الآخر أي استعمال العقائد وأمور الآخرة لضبط أمور الدنيا^(٢).

وفي خيبر كان اليهود يسكنون حصونا أي بيوتا محصنة للدفاع. وإلى ذلك أشار القرآن ﴿وَطَنُّوا أَنفُسَهُمْ مَّا نَعَتْهُمْ حُصُونُهُمْ﴾، طائنين أنها ما نعتهم من المسلمين^(٣). وأمر الرسول بتعذيب أحد اليهود الذي كان يعرف مكان كثر يهودي آخر وأنكر. وقد رُوي يحوم حول مكان. فشك الرسول فيه وهدده بالقتل إن كان كاذبا. وطلب من الزبير ابن العوام تعذيبه حتى يعترف بما لديه. فكان الزبير يقدح بزند في صدره. ثم دفعه إلى الرسول إلى آخر فضرب عنقه^(٤). وهو ما يتعارض مع آداب الحرب، ومنع التعذيب والقتل دون محاكمة وقضاء.

وصالح الرسول أهل خيبر بعد أن حاصر آخر حصنين لهم، وأيقنوا بالهلكة بناء على طلبهم، وبعد أن أخذ الرسول الأموال كلها. ولما سمع أهل فذك ذلك طلبوا الصلح في مقابل التنازل عن أموالهم، فتم ذلك. وطلب أهل خيبر أن يعاملهم الرسول بالمثل على

(١) لا يحمل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره، ولا يحمل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها. ولا يحمل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم. ولا يحمل لامرئ بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجنفها ردها فيه. ولا يحمل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى إذا أخلفه رده فيه، ابن هشام حـ/٢٨٢.

(٢) «ابتاعوا بئر الذهب بالورق العين، وبئر الفضة بالذهب العين»، السابق حـ/٢٨٢، خير العباد ص ٢٣٠-٢٤٤، الفصول ص ١٩٥-١٩٩، معجزة محمد حـ/٢٦٣-٢٦٠، غزوة الحديبية، الفصول ص ١٨٦-١٩٤، بهجة المحافل ص ٢٥٣-٢٧٨، حياة محمد ص ٣١٧-٣٤٥، نور اليقين ص ١٤٨-١٥٤، الأسوة الحسنة حـ/٤٥٨-٤٦٣، المغازي ص ٣٠١-٣١٦، مختصر سيرة (١) ص ١٢٦-١٢٧، مختصر سيرة (٢) ص ٣٠٦-٣١٤، سيرة الرسول ص ١٩١-٢٠١، السيرة النبوية ص ٣١٥-٣١٦، خاتم الأنبياء ص ١٨٣-١٨٦، صحيح السيرة ص ٤٣٧-٤٠٤، خير الورى ص ٥٣٦-٥٥٣، الرحيق المختوم ص ٣٦٤-٣٧٨.

(٣) وهو ما تفعله إسرائيل الآن في المستوطنات كقرى عسكرية محصنة، «الله أكبر خربت خيبر»، بهجة المحافل ص ٢٥٣.

(٤) «أرأيت إن وجدناه عندك أأنتلك؟»، «عذبه حتى تستأصل ما عنده»، ابن هشام حـ/٢٨٦.

أن يتركوا نصف أموالهم فقبل الرسول إلا إذا شاء إخراجهم. وصالحه أهل فدك على ذلك. فكانت خير فينا بين المسلمين. وفدك خاصة للرسول لأنها لم يتم الحصول عليها بخيل وحرب^(١). والأحكام الفقهية المستفادة من خير: قتال الكفار في الأشهر الحرم، أمر متعة النكاح، جواز إجلاء أهل الذمة، جواز جعل العتق صداقا، جواز الكذب للمصلحة المشروعة^(٢).

ولما كانت الحرب خدعة فقد أراد أحد المسلمين استرداد ماله من مكة وهو في المدينة مع الرسول. فذهب إلى مكة وأخبر قريشا أن محمدا هزم شر هزيمة في خير، وقتل أصحابه. وأنه قادم إليهم أسيرا. ورجاهم بجمع ماله حتى يعود إلى خير، ويصيب من محمد وأصحابه قبل أن يأتي إليه التجار. ولما فعلوا أراد العباس أن يستوثق فصرح له الرجل بالحقيقة أنها «لعبة» على قريش ليسترد أمواله، وأن محمدا قد انتصر على خير ويؤلف إلى ابنة ملكهم^(٣). فالحرب لم تكن فقط بدافع عقائدي عام بل بدافع اقتصادي خاص، وفي خير تمت محاولة سم الرسول^(٤).

ثم وقعت عدة غزوات بعد خير، ذات الرقاع. كما وقعت عدة سرايا، حوالي عشر^(٥). ثم اعتمر الرسول^(٦). ووقعت غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل^(٧). ولم تستطع السيرة أن تقرأ سيرة اليهود السابقة، بني قينقاع، بني قريظة، وخير من غدر ونفاق ومعاداة ما يحدث حاليا في فلسطين وطريقة الاستيطان التي نقدها القرآن. ويبن أنها لن تحميهم من

(١) السابق حـ ٢/ ٢٨٦.

(٢) خير العباد ص ٢٤٨-٢٨٨، سيرة النبي ص ٣٣٧-٣٤٥.

(٣) ابن هشام حـ ٢/ ٢٩٣.

(٤) «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير. فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»، بهجة المحافل ص ٢٥٧.

(٥) خير العباد ص ٢٩٣-٢٩٩، السيرة الحلبية حـ ٢/ ٣٦٦-٣٧٢، حياة محمد ص ٣٣٥، نور اليقين ص ١١٣-١١٤، مختصر سيرة (٢) ص ٢٦٣/ ٣٣٠، معجزة محمد حـ ٢/ ٦٧-٦٩، سيرة الرسول ص ١٥٥-١٥٦،

السيرة النبوية ص ٢٤٦، الرحيق المختوم ص ٣٨٠-٣٨٣/ ٣٩٢.

(٦) السابق ص ٣٠٢-٣١١.

(٧) السابق ص ٣١٢-٣١٩، فتح فدك، الفصول ص ١٩٩، فتح وادي القرى ص ١٩٩، بعث مؤتة ص ٢٠١-٢٠٥.

نتائج الظلم والعدوان^(١). أما المسلمون فلهم في رسول الله أسوة حسنة. ورأوا صدق ما وعد الله به. فصدقوا الله ما وعده. فازدادوا إيماناً. وانتصروا على المشركين المنافقين بالرعب قبل السلاح. وتم أسرهم والاستيلاء على أموالهم وأرضهم وديارهم^(٢).

ولا توجد نهاية حاسمة لنهاية مرحلة الانتشار. فقد استمرت الغزوات والسرايا حتى وفاة الرسول ولكن رمزا يمكن أن تكون حديث الإفك وبراءة عائشة، وحل القضية الداخلية قبل التوجه من جديد إلى استمرار انتشار الرسالة واكتهاها خارج شبه الجزيرة العربية في الشام ضد الرومان في غزوة مؤتة^(٣). فقد بدأ الانطلاق إلى الشام في غزوة مؤتة في السنة الثامنة. ويكي قائد الحملة لفراق رسول الله وخافة النار بعد أن نزل القرآن^(٤). وقد تخوف الناس من لقاء هرقل الذي قالت الشائعات إنه نزل الشام في مائة ألف من الروم. وانضمت إليه بعض القبائل العربية. وشجع القادة الناس على القتال. فالنصر ليس بالعدد والعدة بل بالدين الجديد، إما النصر وإما الشهادة. فقتل أحد القادة الثلاث، ثم الثاني، وقطع ساعد جعفر بن أبي طالب التي كان يحمل بها اللواء. فأسكه بالثانية فقطعت. فاحتضنه. ثم ضرب وقطع نصفين وهو شهيد في الجنة، يطير بجناحين حيث يشاء. ولما استشهد الثلاثة نصبت الجند خالد بن الوليد فأخذ الراية. ثم عادوا إلى

(١) ﴿وَوَظَرُوا أَنَّهُمْ مَانَعَتْهُمْ حُصُونُهُمْ﴾، السيرة الحلبية حـ ٢/ ٢٨٤-٢٨٦، نور البقين ص ٩٦-٩٧، مختصر سيرة (١) ص ١٠٩، السيرة النبوية ص ٢٢٧.

(٢) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَلَمْ يَأْوَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ الْآخِرِينَ﴾ قالوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا، وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَغَارَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْرُقْهَا﴾، ابن هشام حـ ٢/ ٢١١-٢١٣، ابن خلدون ص ١٣٤.

(٣) سيرة النبي ص ٣٤٣-٣٤٥، حياة محمد ص ٣٣١-٣٣٤، المغازي ص ٣٦٦-٣٧٧، مختصر سيرة (١) ص ١٣٠-١٣١، مختصر سيرة (٢) ص ٣٢٧-٣٣٠، سيرة الرسول ص ٢٠٦-٢٠٨، السيرة النبوية ص ٣٢٧-٣٣٤، خاتم الأنبياء ص ١٩٢-١٩٦، خير الورى ص ٥٥٧-٥٩٣، الرحيق المختوم ص ٣٨٧-٣٩١.

(٤) ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، حـ ٢/ ٣١٧-٣٢٣، مختصر سيرة (١) ص ١٣٠-١٣١، خير الورى ص ٥٥٧-٥٩٣، الرحيق المختوم ص ٣٨٧-٣٩١.

المدينة. وغضب المسلمون منهم. ولقيهم الصبيان بالتقريع، والناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله. ويدافع الرسول عنهم «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى». لم يتعود العرب على مواجهة الروم عددا وعدة وأساليب القتال. ولما تعودوا عليها فتحوا مستعمرات الروم كلها في الشام وفي المغرب العربي وفي جزر البحر الأبيض المتوسط، قبرص ومالطة. وينقد بعض كتاب السيرة رواياتهما ولا حرج. ويضعف أحاديثها مثل ذر الرسول التراب على رؤوس المشركين، وخبر الحمامتين والعنكبوت^(١). وقصة كتابة كتاب المودعة مع اليهود، وروايات اتهام المشركين الرسول باستحلال الشهر الحرام، ونشوب حلقتين في وجه الرسول وإخراج أبي عبيدة لهما وقد سقطت ثنياه، وقتل الرسول لأبي بن خلف، وقصة غزوة بني لحيان ورجوع المسلمين دون قتال، وأحاديث وصايا الرسول أثناء وفاته، وكثير من أحاديث زواج الرسول، وتحول الخطب إلى سيف. وكذلك يضعف كاتب السيرة أقوالا أخرى^(٢). فالوضع شامل لأقوال الرسول وغيره من أجل حبك القصة، وإحكام الخبر^(٣).

(١) فصول ص ٧٥-٧٦/ ٨١/ ٨٨/ ١٢٣-١٢٤/ ١٢٨/ ١٧٦/ ٢٦٤-٢٦٧/ ٢٧٩/ ٣١١-٣١٦.

(٢) وكذلك أحاديث «دعوا فإنها مأمورة»، فصول ص ٨٠، حديث «سبروا وأبشروا» لسعد ص ٩٣، «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة»، ص ٩٧، «اللهم هذه قريش قد أقبلت»، ص ٩٩، «بش عشيرة النبي كتنم»، ص ١٠٤-١٠٥، «لو سمعتها قبل لم أقتله»، ص ١٠٦، «أظمأك الله»، ص ١٢٢، «أبشروا هذا رسول الله»، ص ١٢٦-١٢٧، «الحرب خدعة»، ص ١٥٩-١٦٠.

(٣) مثل قول أبي سفيان خبيب «أيسرك أن محمدا»، فصول ص ١٣٧-١٣٨، قصة ملاعب الأسنة ومطلبة أن يرسل الرسول إلى أهل نجد من يدعوهم إلى الإسلام، ص ١٣٨-١٣٩.

الباب الرابع

نهاية الرسالة

الفصل الأول

اكتمال الرسالة

١ - بيعة الرضوان وصلح الحديبية

وتعني نهاية «الرسالة» تطور الرسالة بعد بدايتها. وتنقسم قسمين. اكتمال الرسالة منذ الفتح حتى وفاة الرسول، ومصير الرسالة منذ وفاة الرسول حتى عصرنا الحاضر^(١). ويعني «اكتمال الرسالة» حالها منذ الفتح حتى وفاة الرسول كما تنبأت به آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ بعد انتشارها. وقد تم التنبؤ بفتح مكة والإعلان عن ذلك بنزول القرآن قبل فتحها بالفعل ثم بعد فتحها في ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وهذا يعني أن الإسلام قد انتشر سلماً في معظمه. ففي هذه المرحلة لم تقع إلا غزوتان، حنين وتبوك. حينئذ انهزم فيها المسلمون من العرب. وتبوك ضد الروم في الشمال^(٢).

(١) ابن هشام ج ٢/ ٢٧٣، الفصول ص ١٨٦-١٩٥، بهجة المحافل ص ٢٣٩-٢٤٥، سيرة النبي ص ٣٢٢-٣٣١، المغازي ص ٢٧٠-٢٩٤.

(٢) والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها، «إننا لم نجىء لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد أضرت بهم الحرب. فإن شاءوا ما دونهم على أن يخلوا بيني وبين الناس. فإن أظهر فإن شاءوا على أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جئوا من الحرب مدة»، سيرة النبي ص ٣٢٤-٣٢٥، السيرة الحلبية ج ٣/ ١٢-٤٤، حياة محمد ص ٢٩٩-٣١١، نور اليقين ص ١٣٧-١٤٠، الأسوة الحسنة ج ١/ ٤٤٥-٤٥٧، سيد الأنام ص ٢١٨-٢٣٨، سيرة الرسول ص ١٨٦-١٩٠، السيرة النبوية ص ٢٧٥-٢٨٦، خاتم النبيين ص ٢٧٥-٢٨٦، خاتم الأنبياء ص ١٦٦-١٨٢، صحيح السيرة ص ٣٩٠-٤٠٢، خير الورى ص ٤٨٢-٥٣٥، المعاهدات والمواثيق، عبقرية محمد ص ١٠٨-١١١، رسول الحرية ص ٢٦٧-٢٩٧.

بدأ اكتمال الرسالة بالتحول من الحرب إلى السلم كما بدأت مرحلة الانتشار من السلم إلى الحرب. وقد بدأت مرحلة السلم الجديدة بصلح الحديبية وبيعة الرضوان. وكان الصلح بين الرسول وسهيل بن عمرو^(١). فقد خرج الرسول من المدينة معتمرا لا يريد حربا. واجتمع العرب حوله من المهاجرين والأنصار. وخاف البعض الآخر. وساق معه الهدى ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له. وأقسمت قريش ألا يدخلها الرسول وخالد بن الوليد على رأس الخيل. واستعجب الرسول من قريش التي أكلتها الحرب. ماذا لو تركوه يدخل البيت الحرام مثل سائر العرب؟ فإن أصابوه كاف لهم ما أرادوا. وإن أظهره الله عليهم دخلوا الإسلام. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. وأصر على القتال حتى الموت. وتجنب لقاء قريش. وذهب من طريق غير التي خرجت قريش إليها. وطلب الرسول من المسلمين الاستغفار وقول حطة أي أن يحط الله عنهم ذنوبهم كما قال بنو إسرائيل. وأقام حيث بركت ناقته وهو مستعد لأن يغفر لقريش ما فعلته به لو استغفروا عن ذنوبهم، وقد نزل حامل سهم الرسول في طلب الماء. وتدخلت الرسل والوسطاء بين الرسول وقريش. وخشي الرسول الغدر. وأرسلت قريش رسولا وصفه الرسول بأنه من قوم يتألهون. فأراه الهدى حتى يراه. ورسول آخر من قريش شد لحية الرسول عدة مرات وهو يخاطبه. وعاد وأبلغ قريش أنه رأى قوما يعظمون سيدهم مثل كسرى في ملكه وقيصر في حكمه، والنجاشي في وطنه. وحاولت قريش قتل رسول الله، وعقروا جملة. ثم أرسلت نفرا منهم للعدوان على الرسول حتى عفا عنهم. ثم أرسل الرسول عثمان إلى قريش. وقد سمحوا له بأن يطوف بالبيت فأبى إلا والرسول معه. وأشيع عن مقتل عثمان. وقرر الرسول ألا يبرح إلا بعد منازلة قريش. وبدأ الناس يبايعون الرسول على الموت، وهذهبيعة الرضوان. ثم أرسلت قريش رسولا للصلح. وعرف الرسول أن قريشا جادة هذه المرة. واعترض عمر على شروط الصلح المهيئة للمسلمين. وأبى أن يكتبه. وكتبه علي أن من أتى الرسول من قريش أرجعه لهم. ومن أتى قريشا من المسلمين أبقوهم. ورفضت قريش أن تفتح المعاهدة بالبسملة التي لا تعترف بها. وقبل الرسول باسمك اللهم. كما رفضت قريش أن يكون الصلح مع محمد رسول الله. فقبل الرسول محمد بن عبد الله. واشترطت وضع

(١) ابن هشام ج ٢/ ٢٦٣-٢٧٣، البستي ج ١/ ٢٨٠-٢٨٨، ابن خلدون ص ٢٦-٣٠/ ١٥٠-١٥٢.

وتكون فريق من المستضعفين الذين تحولوا إلى الإسلام من المشركين ولم يقبلهم الرسول عنده وردهم إلى مكة^(١). والرسول لا يتقصد اتفاقاً، ولا يغدر بقوم. وسيجد الله لهم مخرجاً. ثم قتل أحدهم صاحبه. وعاد إلى الرسول حتى لا يسلمه إلى قريش. وكبر عدد المستضعفين حتى صاروا سبعين رجلاً يقطعون قوافل قريش إلى الشام من ناحية البحر حتى رجت قريش الرسول إيواءهم لديه. فقدموا إلى المدينة، وعلم عمر أن اعتراضه «لم نقبل الدنية في دينتنا؟»، «ألسنا على حق وهم على باطل؟»، كان محدود الأفق، وأن الرسول كان أبعد نظراً في الصلح الذي في ظاهره غبن للمسلمين وفي باطنه نصر لهم.

وما تم للرجال تم أيضاً للنساء المهاجرات بعد الهدنة. ورفض الرسول ردهن بعد أن نزل القرآن في الأمر بعدم ردهن بل وتزويجهن بصرف النظر عن طلاقهن من أزواجهن المشركين في مكة أو تطبيق قواعد العدة عليهن، وتطبيق قواعد النفقة والإنفاق فحسب وكان الأموال أهم من الأشخاص^(٢). أمسك الرسول النساء، ورد الرجال. وهي تفرقة لصالح النساء. فالواقع الاجتماعي والسياسي يفرض نفسه على قانون الأحوال الشخصية. والكل له الأولوية على الجزء^(٣).

وخرج الرسول معتمراً عمرة القضاء في العام السابع. وسميت عمرة القصاص لأنهم صدوا الرسول فاقتص منهم. ودخل مكة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه. وقد نزل القرآن في ذلك^(٤). وخرج المسلمون معه. وقالت قريش إن محمداً في عسرة وجهه وشدة. ودخل المسجد قائلاً «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة». هروا ثلاث طواف ومشى سائرها. وتزوج الرسول بميمونة وهو محرم. زوجها العباس بمكة

(١) مثل أبي البصير، ابن هشام ج ٢/ ٢٧٥-٢٧٣.

(٢) مثل أم كلثوم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ وَلَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾، ابن هشام ج ٢/ ٢٧٧ ﴿وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكِمُ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ج ٢/ ٢٧٨.

(٣) ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَقَبْتُمْ فَأَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، ج ٢/ ٢٧٨، ابن خلدون ص ١٥٣.

(٤) ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، ابن هشام ج ٢/ ٣١٤، الفصول ص ٢٠٠-٢٠١، حياة محمد ص ٣٢٦-٣٣٠.

وأصدقها أربعمائة درهم. وأراد الرسول الاستمرار بمكة. وأرادت قريش إخراجها. فخرج الرسول. وبني ميمونة في الطريق إلى المدينة^(١). وفي ذلك نزل القرآن^(٢).

وفرّح الرسول بعودة جعفر بن أبي طالب من الحبشة مثل فرحه بفتح خيبر، فرحه بالسلم قدر فرحه بالحرب، باستثناء واحد تنصر وبقي بالحبشة^(٣). وخلف الرسول على امرأته حتى لا تترك بمفردها، والرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

٢- فتح مكة

كانت هناك أسباب موجبة للمسير إلى مكة. وقد فتحت بالفعل في شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة. فقد حدث قتال بين قبيلتين، بكر وخزاعة. قتلت كل واحدة واحدا من الأخرى. وقد حجز الإسلام بينهما. وبعد صلح الحديبية الذي نص على أن كل قبيلة حرة في أن تدخل حلفا مع قريش أو مع الرسول دخلت خزاعة في عقد مع الرسول وعهده. وأرادت خزاعة بهذه المناسبة الثأر لقتلاها فقتلوا واحدا من بكر. ثم اشتعل القتال بينهما. وشاركت قريش مع بكر. فقدم الطرفان إلى الرسول في المدينة. وقد دفع ذلك الرسول إلى الإسراع بفتح مكة التي مازالت قريش تثير فيها القلاقل، وتبث النزاع بينها. ثم أتى نفر من خزاعة إلى الرسول يسألون مظاهرة بني بكر عليهم. فلم يبق للرسول إلا فتح مكة، والقضاء على مركز التآمر، وبث الشقاق والخلاف بين العرب^(٤). أصبحت القوة الجديدة مركز ثقة وحكم بين الناس. وبدأ النظام القبلي القديم في التهاوي وتطهير مكة منه لتصبح مركزا للنظام الجديد.

(١) «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه»، ابن هشام ج ٢/ ٣١٥-٣١٦.

(٢) السابق ج ٢/ ٣١٦.

(٣) السابق ج ٢/ ٣٠٤-٣٠٧.

(٤) ابن هشام ج ٢/ ٣٣٠-٣٣٩، خير العباد ص ٣٢٠-٣٣٩، الإشارة ص ٣٠٦-٣١٧، الفصول ص ٢٠٦-٢٢٨، بهجة المحافل ص ٢٨٩-٢٩٦، سيرة النبي ص ٣٤٥-٣٥٣، السيرة الحلبية ج ٣/ ١٠٢-١٥٠، حياة محمد ص ٣٣٦-٣٤٨، نور اليقين ص ١٥٩-١٦٧، الأسوة الحسنة ج ١/ ٤٧٠-٤٩٧، سيد الأنام ص ٢٤٠-٢٥٢، المغازي ص ٣١٧-٣٥٨، مختصر سيرة (١) ص ١٣٢-١٤٠/١٤٧، مختصر سيرة (٢) ص ٣٤٩-٣٥١، سيرة الرسول ص ٢٠٩-٢٢٠، السيرة النبوية ص ٣٣٥-٣٥٢، خاتم الأنبياء ص ١٩٧-٢٠٦، صحيح السيرة ص ٥١١-٥٨٠، خير الورد ص ٥٩٤-٦٦١، عبقرية محمد السياسية، عبقرية محمد ص ٨٥-٩٤، رسول الحرية ص ٢٩٨-٣١٣.

وظن الرسول أن أبا سفيان أتى من مكة، ليشد العقد، ويزيد في المدة، فقد خرج أبو سفيان إلى المدينة للصالح مع الرسول ولكنه أخفق. ورفضت ابنته أن يجلس على فراش الرسول لأنه لا يجلس عليه إلا طاهر. ولم يشأ الرسول وأبو بكر أن يكلماه. وامتنع عمر أن يتشفع له عند الرسول. ولم يرد عليّ التوسط. ولم ترحب فاطمة أن يجير ابنها الحسن وهو غلام، وأن يكون من سيد العرب إلى آخر الدهر لأنه لا يجير أحد على الرسول. ونصحه علي أن يذهب إلى الناس في المسجد ويخبرهم أنه قد أجار. وعاد إلى قريش يخبر الناس بما وجد. ولم يستحسنوا ما فعل. وأخبروه أنه قد لُعب به^(١).

وجهاز الرسول لفتح مكة بغتة، وأن يمنع عنها العيون والأخبار. وخانه حاطب الذي كتب إلى قريش بما أزمع عليه الرسول. وأرسله مع امرأة ووضعت الكتاب في رأسها. وعلم الرسول. وأرسل في طلبها. فوجد الكتاب. وادعى حاطب المؤمن بالله ورسوله أن له لدى قريش ولدًا وأهلًا. وهو ليس صاحب أهل ولا عشيرة. وطلب عمر دق عنقه. ورفض الرسول لأنه ممن شهد بدرا^(٢). ونزل القرآن مؤيدًا قول عمر^(٣). فالخيانة غير مقبولة، والغدر ليس من شيمة المسلمين، والمغفرة قيمة من قيم الدين الجديد.

وخرج الرسول في رمضان صائماً. وصام الناس معهم. ونزلوا منطقة في الطريق، وقريش تتبع أخبارهم. وقد هجر العباس قريشاً إلى المدينة. وأسلم أبو سفيان وعبد الله بن أمية. ولا حاجة للرسول بهما. فقد هتك الأول عرضه. وقال له الثاني ما قال في مكة^(٤). وهو على غير عادة الرسول بفرحه بكل من دخل الإسلام بصرف النظر عن مدى صدقه. ثم رق لها الرسول بعد ذلك. فدخلها عليه فأسلمها. واعتذر أبو سليمان عما

(١) ابن هشام ج ٢/ ٣٣٥-٣٣٨.

(٢) وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، السابق ج ٢/ ٣٣٨.

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسُوءَ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْكَدَّاءُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَلَدُهُ﴾، السابق ج ٢/ ٣٣٨.

(٤) «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي. وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال»، السابق ج ٢/ ٣٣٩.

بدر منه تجاه الرسول وصحبه. وسامحه الرسول^(١). فقد حمّله العباس عم الرسول على بغلة الرسول ودخل به عليه والناس في عجب. وكان الرسول يعجب كيف لم يعرف أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وحتى يكرم الرسول أبا سفيان. وأمر بوضعه بمضيق الوادي حتى يرى جنود المسلمين. وعرضت الجيوش أمامه. وعاد إلى أهل مكة يحذرهم. وأعلن إسلامه وما قال له الرسول^(٢). وقد استثنى البعض من العفو. وقطعت يد سارقه. وسبقتها أربع سريا^(٣).

وغادر النبي إلى مكة شاكرا الله. ولما دخل البيت أتى أبو بكر بأبيه يقوده. فرفض الرسول إلا أن يأتيه هو في منزله إكراما لأبي بكر^(٤). ودخلت جيوش المسلمين مكة. وتحوف المهاجرون على قريش من سعد وما أمر به الرسول. فأمر الرسول أن يدخل عليّ بالراية بدلا منه. وتعرض صفوان في نفر معه للمسلمين. فقتل منهم من قتل. وكان القتل متبادلا بين الفريقين على عادة القبائل، ثارا وانتقاما. وتحول في الإسلام إلى قتل باسم الدين والخصومة فيه. ونظرا لخطورة الأمر فإن النبي لا يقتل إلا بالإشارة بل بأمر صريح. وعهد الرسول إلى امرأته ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم باستثناء نفر سباهم. أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة^(٥). والقتال للدفاع عن النفس وليس أمرا على الإطلاق بصرف النظر عن الأسباب والدوافع والظروف. وتشفع في عثمان. وكان أخاه في الرضاعة. فصمت الرسول لعل أحدا يتطوع بضرب عنقه. ولم يشر على أحد لأن النبي لا يقتل بالإشارة. والتشفع في القتلى في الدنيا أوجب من الشفاعة من النبيين في الآخرة.

وأمر الرسول بقتل قنيتين كانتا تتغنيان بهجائه وهو عكس ما أوحى به من عدم

(١) قال الرسول «ونالني مع الله من طردت كل مطرد»، «وضرب الرسول أبا سفيان في صدره قائلا»، «أنت طردتني كل مطرد»، السابق ج٢/ ٣٤٠.

(٢) قال الرسول «نعم»، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابيه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، السابق ج٢/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) الإشارة ص ٣٠٦-٣١٦.

(٤) «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه»، ابن هشام ج٢/ ٣٤٣.

(٥) منهم عبد الله بن سعد، السابق ج٢/ ٣٤٦.

قتل النساء. وإذا كان الهجاء هو السبب فإن مدحه كان يقوم به شاعر الرسول ولم تقتله قريش. والشعر هجاء أو مدح ليس سببا للقتل. وقتل الحويرث لأنه أوقع ابنتي الرسول على الأرض وهو ليس سببا للقتل بل لعقاب آخر لسوء معاملته النساء بوجه عام، ابنتي الرسول أو غيرهما. وقتل من قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركا. وهو تطبيق عادل للقصاص بعد استيفاء شروطه من الولي. وقتل اثنان مشركا واشتركا في دمه. ولا يجوز قتل اثنين واحدا لأنه ضد آداب القتال، والمبارزة واحدا لواحد. وقتل أحدهما رجلا من قومه. فما زالت القبلية أحد دوافع القتال. ولم تختف تماما بظهور الدين. وقتلت إحدى قيتي ابن حنظل. واستؤمنت الأخرى ثم وقعت من على فرس فقتلت. وقتل علي بن أبي طالب الحويرث دون محاكمة أو قصاص. وفر رجلان بعد دخول الرسول مكة وأراد عليّ قتلها^(١). وطلبت أم هاني الأمان لها. فأعطاهما^(٢). وقتل فراش الأحمر، وضع السيف في صدره ثم تمايل القاتل عليه حتى قتله. ثم قتله آخر بطعنه بالسيف في بطنه حتى سالت أحشاؤه منها حتى أمر الرسول بالتوقف عن القتل لأنه لا نفع فيه. وفرق بين القتل والإمعان في القتل أو الإسراف في القتل أو التقتيل. فالرحمة بالمقتول أيضا واجبة حتى لو كان من المخالفين. وأول قتيل داواه الله يوم الفتح بمثابة ناقة^(٣). فهذه سنة الإسلام منذ فداء إسماعيل، فداء الإنسان وليس قتله.

وطاف الرسول بالبيت. دخل الكعبة فوجد فيها حمامة رمزا للطمأنينة والأمان. ووقف على بابها. وخطب في الناس. وحد الله وحمده على صدق وعده، ونصر عبده، وهزيمة الأحزاب. وأقر الديات، وخدمة البيت، والقتيل الخطأ. وحمد الله على أنه أذهب عنهم نخوة الجاهلية، والانتساب إلى الآباء. فالكل لأدم وآدم من تراب. ثم قال قولته الشهيرة بعد سؤاله قريش «ما ترون أني فاعل بكم؟». «وردوها عليه» أخ كريم وابن أخ كريم» وقول الرسول «أذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٤). وأقر الرسول ابن طلحة على السدانة.

(١) السابق ج٢/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) «قد أجرنا من أجرت، وأما من أمنت. فلا يقتلها»، السابق ج٢/ ٣٤٨.

(٣) «يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل. إن نفع لقد قتلتم قليلا لا دينه»، ج٢/ ٣٥٠-

٣٥١ «إن خدasha لقتال»، السابق ج٢/ ٣٥١-٣٥٢.

(٤) «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم

وأمر بطمس ما بالبيت من صور. وإلغاء الاستقسام بالالزام وادعاء أنها من إبراهيم، وصلى الرسول بالبيت^(١).

وأعلن الرسول حرمة مكة منذ أن خلق الله السموات والأرض حتى يوم القيامة أي من بداية الزمن إلى نهايته لتقوية حرمتها بلا استثناء. فلا يُسفك فيها دم، ولا تقطع شجرة. ولا تحل لأحد قبل الرسول أو بعده. ولا تحل إلى الآن، لحظة واحدة ينقسم فيها الزمان إلى ما قبل وما بعد، غضبا على أهلها، ولكنه غضب مؤقت. وهذه رسالة للحاضر والغائب. وإذا كان الرسول قد قاتل فيها فقد انتهى ذلك العصر. ونادى على القبائل بأن توقف القتل بعد أن كثر. وهو ما لا نفع فيه. فأبي قتل عليه فداء إما دم القاتل أو فدية له^(٢). وقد خشي الأنصار أن يبقى الرسول بمكة فطمأنهم أنه معهم في الحياة والممات^(٣). وبعد فتح مكة لا يقتل قرشي إلى يوم القيامة^(٤). ومع ذلك وقعت الفتنة الكبرى.

ومن الأحكام المستفادة من الفتح جواز صلح أهل الحرب، عدم قتل رسول الكفار، تكفير الحسنة والسيئة، دخول مكة بغير إحرام، عدم دخول الأرض، الغنائم المقسمة،

أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج. إلا وقتل الخطأ يشبه العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة، مائة من الأبل، أربعون منها في بطونها أو لادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالأباء، الناس من آدم وآدم من تراب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، يا معشر قريش ما ترون أبي فاعل بكم؟، قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، السابق جـ ٢/٣٤٨-٣٥٠.

(١) ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، جـ ٢/٣٤٩، خير العباد ص ٣٣٤.

(٢) «يا أيها الناس إن الله حرم عليكم مكة يوم خلق السموات والأرض. فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة. فلا يحل لا مرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، ولا يعصد فيها شجرا، لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضبا على أهلها. ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس. فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم. يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل. فلقد كثر القتل إن نفع. لقد قتلتم قتيلا لأذنيه. فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير الناظرين: إن شاءوا قدم قاتله، وإن شاءوا فعقله»، ابن هشام جـ ٢/٣٥١-٣٥٢، وكان أول قتيل قتله بنو كعب فواداه الرسول بيانة ناقة، جـ ٢/٣٥٢.

(٣) «المعاذ معاذكم، والممات مماتكم»، جـ ٢/٣٥٢، خير العباد ص ٣٦٦-٣٦٩.

(٤) «لا يقتل قرشي صبورا بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»، الجوهرة جـ ١/١٠٥.

عدم تقسيم مكة، عدم بيعها أو تأجير دورها، تحريم سفك الدم بمكة، عدم قطع شجرها، عدم نفر صيدها^(١). وهناك أحكام أخرى ربما يجوز مراجعتها لتغيير الزمان^(٢).

٣- غزوة حنين

لم تنقطع الغزوات بعد الفتح بل استمرت، غزوة حنين، غزوة تبوك، وعشرات أخرى من الغزوات نسبة لقوادها أو لأماكن وقوعها^(٣). بعضها لقتل شخص بعينه^(٤). ومن المقتولين نساء. ففتح مكة سلماً لا يعني توقف الغزوات حرباً. لم تتوقف الغزوات والسرايا بل استمرت خارج المركز الجديد، مكة والمدينة، إلى الشام شمالاً، واليمن جنوباً، ثم بعد ذلك في عصر الخلفاء إلى مصر غرباً وإلى فارس شرقاً. فقد سار خالد ابن الوليد بعد فتح مكة إلى بني جذيمة من كنانة. وسار علي لتلافي خطأ خالد. وقد بعث الرسول خالدًا داعياً وليس مقاتلاً. فأمر خالد بوضع السلاح لأن الناس قد أسلموا. ثم حاربهم خالد وأمعن فيهم القتل حتى بلغ الرسول أمره وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»^(٥). وشبه الرسول ما فعله خالد وكأنه أكل لقمة من طعام

(١) خير العباد ص ٣٤٠-٣٥٩ / ٣٦٠-٣٧٠.

(٢) مثل جواز قتل الجاسوس، قتل من سب النبي، خير العباد ص ٣٤٢/٣٥٧، الصلاة في مكان فيه صور، تحريم متعة النساء، قتل المرأة والمرد ص ٣٧٤-٣٩٠.

(٣) مثل غزوة غالب بن عبد الله الليثي بن الملح، غزوة زيد بن حارثة إلى جذام، غزوة زيد بن حارثة بن فزارة، غزوة عينة بن حصن، غزوة غالب بن عبد الله، أرض بني مرة، غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل، غزوة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، غزوة أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر، غزوة علي بن أبي طالب إلى اليمن، ابن هشام ج ٢ / ٥١٣-٥٢٠ / ٥٢٣-٥٢٦ / ٥٣٠-٥٣٢ / ٥٣٩.

(٤) مثل غزوة عبد الله بن رواحة لقتل السير بن رزام، غزوة عبد الله بن أنيس لقتل خالد بن سفيان، غزوة ابن أبي حدرد وقتل عامر بن الأضبط، غزوة ابن أبي حدرد لقتل رفاعة بن قيس، غزوة عمير بن عدي لقتل عصيان بنت مروان، ابن هشام ج ٢ / ٥٢٠-٥٢٣ / ٥٢٦-٥٣٠ / ٥٣٢-٥٣٦، خير العباد ص ٣٨١-٣٩١، الإشارة ص ٣١٧-٣٣٣، الفصول ص ٢٢٩-٢٤٢، بهجة المحافل ص ٣٠١-٣١٨، سيرة النبي ص ٣٥٣-٣٥٧، السيرة الحلبية ج ٣ / ١٥١-١٦٢، حياة محمد ص ٣٤٩-٣٥٨، نور اليقين ص ١٦٧-١٦٩، سيد الأنام ص ٢٥٢-٢٥٨، مختصر سيرة (١) ص ١٤١-١٤٥، مختصر سيرة (٢) ص ٣٥١-٣٥٨، معجزة محمد ج ٢ / ٢٥١-٢٥٨، سيرة الرسول ص ٢٢١-٢٢٦ / ٢٢٩-٢٣٤، السيرة النبوية ص ٣٥٣-٣٥٨، خاتم الأنبياء ص ٢٠٧-٢١٤، خير الوري ص ٦٦٢-٧٠٤، الرحيق المختوم ص ٤١٣-٤١٧، رسول الخرية ص ٣١٤-٣٢٦.

(٥) تعرف هذه السيرة بغزوة الغميط وهو اسم ماء لبني جذيمة، ابن هشام ج ٢ / ٣٦٣-٣٦٤.

فالتذ طعمها ثم وقفت في حلقه فأدخل عليّ يده فانتزعها. وقد اعترض عليه شابان ابن عمر، ومولى حذيفة. وخرج عليّ ليصحح ما صنع خالد^(١). فأرجع لهم عليّ أموالهم، وأدى فداءهم، ووزع عليهم ما بقى. واستحسن الرسول ما قام به. وقد عذر خالد في قتال القوم لأنهم امتنعوا عن الإسلام وقالوا «صبأنا صبأنا». ثم وقع خلاف بين خالد وعبد الرحمن. وزجر الرسول خالد. إذ اتهمه عبد الرحمن بن عوف بأنه عمل بالجاهلية وليس بالإسلام. فرد عليه خالد أنه ثار لأبيه. فكذبه عبد الرحمن بن عوف بأنه قتل قاتل أبيه ولكنه ثار لعمه. وبلغ الرسول حدة النقاش فأمر خالد أصحابه^(٢). واستعدت جذيمة وقريش للحرب. ثم تم الصلح بينهما. ووقع القتال على المال. واتفق الطرفان على فدية الدم والمال. وأوقفوا الحرب^(٣). وسار خالد بن الوليد لهدم العُزى. وعلق عليها صاحبها سيفه. وهدمها خالد^(٤).

واستمرت الغزوات بعد فتح مكة لتأمين ظهور المسلمين وتصفية جيوب الشرك. ف وقعت غزوة حنين في السنة الثامنة بعد الفتح أي بعد أن استقرت الدعوة في قلب قريش. فقد اجتمعت هوازن بعد أن سمعت بفتح الرسول مكة. فقررت النزول إلى الرسول مع أولادهم ونسائهم وأموالهم للقتال عنهم^(٥). وأرسل المسلمون عينا إلى هوازن ليعرف أخبارهم. فعرف إجماعهم على حرب الرسول. فأخبر الرسول وعمر. صدق الرسول وكذب عمر. وعاتبه الرسول لعدم تصديقه^(٦). وسأل الرسول صفوان أذراعه وسلاحه فقبل. وسلمها له صفوان طواعية واختيارا وليس غصبا. وتخللت غزوة حنين تسع سرايا^(٧).

ولما انهزم الناس في حنين شمت أبو سفيان وغيره بالمسلمين. ومع ذلك عجز شيبة

(١) «يا عليّ أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»، السابق جـ ٢/ ٣٦٤.

(٢) «مهلا يا خالد دع عنك أصحابي. فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقت في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»، جـ ٢/ ٣٦٥، الرحيق المختوم ص ٤٠٩-٤١١.

(٣) ابن هشام جـ ٢/ ٣٦٥.

(٤) السابق ص ٣٧٠.

(٥) السابق جـ ٢/ ٣٧٠-٣٧٣.

(٦) «لقد كنت ضالا فهداك الله يا عمر»، السابق جـ ٢/ ٣٧٣.

(٧) السابق جـ ٢/ ٣٧٦.

عن قتل الرسول بعد أن هم به. ثم عاد الناس بعد نداء العباس. وكان صوته جهوريا بعد أن لم يفلح نداء الرسول^(١). ويترك المسلم بغيره، ويلبس درعه، ويأخذ سيفه، ويؤم الصوت حتى يصل إلى الرسول. فاجتمع مائة حول الرسول بعد نداء «يا للأنصار» ثم «يا للخزرج». فحمى الوطيس. وأبلى عليّ وأنصاري في الحرب. وانقضوا على حامل الراية. وأبلى أبو سفيان بلاءً حسنا، وهو ابن عم الرسول. وتحولت الهزيمة إلى نصر، وانقلب الإحجام إلى إقدام. وقتل في المعركة «غلام نصراني غير مختن». وبينما رجل من الأنصار يسلب قتلى بن ثقيف كشف العبد يسلبه فوجده غير مختن. فصاح في العرب أن بني ثقيف غير مختنين. فدافعت ثقيف عن نفسها بأنه غلام نصراني. وكشف عن باقي القتلى لإثبات أنهم مختنون. وهو موضوع جانبي، الختان أو الموت. وهل يجوز الكشف عن عورات القتلى، مختنين أو غير مختنين؟ وهل شرف العرب في الختان، الذكورة أم الرجولة؟^(٢). فالختان عادة عربية قبل الإسلام. وتأكدت بعده، مما يدل على التواصل وليس الانقطاع.

وظلت حين تطالب الرسول برد سباياها من الإبل والغنم حتى خطف رداء الرسول عند شجرة. فطلب رد رداءه إليه وأنه يقسم عليهم الفىء مهما عظم، وأنه ليس بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً. وأخبرهم أنه ليس له من فيئهم إلا الخمس كما نص الكتاب. وسرده لهم. فعليهم إرجاع رداءه وإلا سيكون عليهم عارا ونارا وشنارا يوم القيامة. وهي رواية تجعل الرسول يخضع للتهديد والابتزاز عن طريق خطف رداءه. وهو قليل بالنسبة للمطلوب. فالفىء له قوانينه في الشريعة أو الاجتهاد فيه طبقا للظروف وليس طبقا لموازين القوى^(٣). واعترف أحدهم أنه أخذ لفة من خيوط شعر لعمله بردعة لبعيره. فتنازل الرسول له عن نصيبه فيها. إلى هذا الحد بلغت الحساسية بالنسبة للفىء والمساواة في التقسيم إلى حد الشعرة. وسمع أحد المسلمين وسيفه ملطخ بدعاء المشركين نداء برد الغنائم. وكان قد أخذ إبرة لحيط الثياب فردها. وإلى هذا الحد بلغت الحساسية بالنسبة

(١) «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السحرة»، السابق جـ ٢/ ٣٧٧.

(٢) السابق جـ ٢/ ٣٨١.

(٣) خير العباد ص ٣٨٨-٣٩١/ ٣٩٩.

إلى الغنائم وتقسيمها من الرسول بالتساوي بين الجميع إلى حد الإبرة. وأعطى الرسول المؤلفه قلوبهم. وكانوا من أشرف الناس^(١). كل منهم مائة بعير، والبعض الآخر دون المائة، والبعض خمسين^(٢). ويختلف سهم المؤلفه قلوبهم طبقا لدرجة التأليف عكسيا، الذي قارب على الإسلام سهم صغير والذي مازال بعيدا سهم كبير. واستقل شاعر ما أخذ من الرسول. فعاتبه شعرا فأزاده الرسول كي يقطع لسانه. ويتم التعامل مع الشعراء التعامل مع الأجراء. يزداد سهمهم في المدح ويقل في الهجاء. وقل في المدح على عادة العرب. ووزعت غنائم حنين على المبايعين ولم يعط الرسول أحد الناس مع أنه من خير أهل الأرض ولكن كان راغبا في إسلامه. فالإسلام لا تعادله غنيمة ولا يعطي من الفئء والأنقياء الراغبين في الإسلام من أجل الإسلام وليس من أجل السبايا والغنائم. ويرفض مساواة الآخرة بالدنيا. واعتراض آخر في الكعبة بأن الرسول لم يعدل، وأراد عمر قتله، ورفض الرسول لأنه سيكون له شيعته يتعمقون في الدين ولكنهم يخرجون منه كما يخرج السهم من الرمية. وقد يثور واحد من المسلمين إحساسا بالغبن لأنه لم يُعط حقه في القسمة واتهام الرسول بعدم العدل ورغبة عمر في قتله جزاء الجراءة على هذا الاتهام. واسترضى الرسول بعض الأنصار. جمعهم في حظيرة وأخبرهم أنهم كانوا في ضلالة فهداهم الله، وعالة فأغناهم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبهم. أتاهاهم الرسول مكذبا وهم صدقوه، ومخذولا وهم نصروه، وطريدا وهم آووه، وعائلا فواسوه، ذهب الناس بالشاة والبعير، والأنصار عادوا بالرسول. فلولا الهجرة لكان الرسول واحدا منهم. ولو سلك الأنصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلك الرسول شعبة الأنصار. وترحم على الأنصار وأبناءهم وأبناءهم. يقدم الرسول أحيانا الواقع والحقيقة وأحيانا أخرى المثال. فالأنصار هم أصحاب الدعوة وحماها. ولا يعادل ذلك مال الدنيا ولا غنائمها.

ودلالات حنين متعددة، أن النصر ليس بالكثرة، وأن من التوكل الأخذ بالأسباب، وأن عقر مركوب العدو جائز أي تدمير وسائل قوته^(٣).

(١) ابن هشام ج ٢/ ٤١٧-٤٢٣، خير العباد ص ٣٩٠-٣٩١.

(٢) منهم سفيان بن حرب، وابنه معاوية.

(٣) خير العباد ص ٣٩٢-٣٩٨.

وخرج الرسول بجيشه إلى هوازن. وكانت قريش تعلق أسلحتها على شجرة عظيمة تسمى ذات أنواط، يذبحون عندها. وطلب المسلمون من الرسول شيئا مشابهاً فالعادات العربية لم تمنح بعد من القلوب، وتقليد الخصوم فيما يظن، أحد وسائل الانتصار عليه. فرفض الرسول. فهو نفس المطلب الذي طلبه قوم موسى منه أن يجعل لهم إلهاً كآلهة فرعون تقليداً له^(١). والتقى الرسول بهوازن وثبت بعد أن نزلوا عليه نزلة رجل واحد. فتراجع المسلمون. وحملت الإبل بعضها على بعض. ونادى الرسول على الناس أنه محمد رسول الله فليأتوا إليه ولكن تفرق الناس^(٢). وبقي مع الرسول نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وهل يتفرق اثنا عشر ألفاً؟ وأين الجهاد والاستشهاد؟ ألم يكف المسلمين أحد؟ وهل يحدث ذلك بعد فتح مكة؟ ولما أحس الرسول بكثرة العدد اطمأن^(٣). وهرب قارب كان يحمل الراية وقومه. ووضعها على شجرة. ولم يقتل منهم في الحرب إلا رجلين. ومدح الرسول أحدهما ووصفه بأنه «سيد شباب ثقيف» وكانت هداية قريش خيراً من سييهم. فقد دعا الرسول لهوازن. ومع ذلك أخذ الرسول منها ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشيء ما لا يحسب عدته. وأسلمت هوازن. ورحبت أنها أهل وعشيرة. يكفي ما أصابها من بلاء. وطلبوا الأمان. والسبي عमत الرسول وخالاته وحواضنه اللاتي كن يكفلنه. وهو خير من يكفلنهن. ولو كان الرجاء لغيره لفعل. وخيرهم الرسول بين أموالهم أو نسائهم. فاخاروا نساءهم وأبناءهم. فرضي الرسول برد الأموال لهم. وعليهم أن يعلنوا ذلك للمسلمين في المسجد بعد صلاة الظهر أن يستشفعوا بالرسول في أبنائهم ونسائهم. فتم ما طلب مع اعتراض بعض القبائل طمعاً في المال. وقبل الرسول الاعتراض وأرضى من تمسك بحقه وله تعويض من المال عن كل سبي أصابه. وأعلن الرسول أن مالك بن عوف لو أسلم رد

(١) «الله أكبر، والذي نفس محمد بيده، كما قال قوم موسى لموسى، أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون أنها السنن، لتركين سنن من كان قبلكم»، ابن هشام ج ٢/ ٣٧٤-٣٧٥.
(٢) «أين أيها الناس، هلموا إلى. أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، ج ٢/ ٣٧٥.
(٣) «لم تغلب اليوم من قلة»، ج ٢/ ٣٧٦/ ٣٨١. ونزل القرآن ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، ج ٢/ ٣٨٨، نور اليقين ص ١٧٢-١٧٣، مختصر سيرة (١) ص ١٤٦.

إليه ماله وأهله ومائة من الإبل زيادة. واستعمله الرسول على قومه. وكان يقدر قيمة السبية بسننها وجسدها، فمها وثديها وبطنها ولبنها^(١).

وبعد حنين أعادت ثقيف ترتيب صفوفها. وأغلقت أبواب الطائف. وأعدوا العدة للقتال. وتخلف بعض المسلمين عن حنين والطائف. وفي الطريق قابل الرسول رجلا من ثقيف فهدده إما أن يخرج وإما أن يخرب عليه حائطه. وأصيب نفر من المسلمين بنبال المشركين لأنهم اقتربوا من الحائط. وكانت أبوابه قد أغلقت. وخرج الرسول مع زوجتين له. وضرب لهما قبتين. ثم صلى بينهما. ثم بنى عليهما مسجدا فيما بعد. ثم حاصرهم الرسول وقتلهم بالنبال، ورماهم بالمنجنق. وكان الرسول أول من استعمل هذه الآلة الحديثة. ودخل نفر من الصحابة تحتها ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك حديد بحماة بالنار. فخرجوا من تحتها. فرمتهم ثقيف بالنبال. فأمر الرسول بقطع أعنان ثقيف. وتقدم أبو سفيان والمغيرة إلى الطائف مناديا بتأمينهم للاتفاق على الصلح. ودعوا نساء من قريش للخروج وهم يخشون عليهن السبي فأبين. واقترحوا على الرسول مال بني الأسود بالقرب مما ينزل فيه الرسول. فإن استولى عليه الرسول لم يعمر. وإن تركه فللرحم والقربة بينه وبين قريش. فتركه الرسول لهم. وأسلم عبيدا كانوا محاصرين بالطائف، وأعتقهم الرسول. ورفض أن يردهم إلى الطائف «أولئك عتقاء الله»^(٢).

ومن دلالات الطائف جواز القتال في الأشهر الحرم، وعدم ترك مواضع الشرك عند القدرة، وصرف أموال الطواغيت لصالح المسلمين، وأهمية الصلاة في الدين^(٣). والصلاة مؤثر على إنجاز الأعمال في الأوقات، والالتزام بواجبات الدين. فالصلاة من الواجبات، أول حكم من الأحكام الشرعية الخمسة. ومن الواجبات أيضا هدم جميع الطغاة^(٤). والطاغية ليست فقط صنما بل هو رمز لجميع طغاة البشر.

(١) «اللهم أهد ثقيفا وآت بهم»، ابن هشام ج٢/ ٤١٤-٤١٧.

(٢) السابق ج٢/ ٤٠٥-٤١٢، سيد الأنام ص ٢٥٨، مختصر سيرة (١) ص ١٥٠، مختصر سيرة (٢) ص ٣٦١-

٣٦٧، سيرة الرسول ص ٢٢٧-٢٢٨، سيرة الرسول ص ٢٤٧-٢٤٩، السيرة النبوية ص ٣٥٩-٣٧٥،

خير الوري ص ٧٠٥-٧١٣، الرحيق المختوم ص ٤١٧-٤٢٣.

(٣) خير العباد ص ٤١٥-٤٢٠.

(٤) السابق ص ٤١١-٤١٤، سيرة النبي ص ٣٥٨-٣٦٤، نور اليقين ص ١٧٠-١٧٢.

لم يكن الدافع على القتال مع الرسول دائما الاستشهاد والقتال في سبيل الله. ففي غزوة الطائف مدح عيينة وهو أحد المسلمين المشركين بالامتناع عن الرسول. وقد جاء لنصرته. فأعلمه أنه ما جاء لقتال ثقيف مع المسلمين ولكنه أراد للرسول أن يفتح الطائف فيحل على جارية يطؤها لعلها تلد له رجلا^(١). ومع ذلك اعتمر الرسول. واحتفظ ببقايا الفئ في مكان خاص ثم أحضره إلى المدينة. وجعل درهما كل يوم لمن أقام بدلا عنه في مكة. واكتفى به. وقد كتب آخر كعب بن زهير إليه يخبره أن الرسول قتل شعراء بمكة كانوا يهجونه ويؤذونه، وأما باقي الشعراء فقد هربوا. ورجاه أن يطير إلى الرسول لأنه لا يقتل تائبا وإلا فالنجاة. وكان يعلق على شعره، مدى صدقه وكذبه. فالشاعر صادق في وصف المأمون وكاذب أنه لم ير أن الرسول هو المأمون، وصادق عندما اعتبر خلق الرسول مغيرا لخلق الأب والأم أي السابقين^(٢). فصاغ كعب قصيدته الشهيرة في مدح الرسول «بانت سعاد»^(٣). وأراد أحد الأنصار قتله فمنعه الرسول لأنه أتى تائبا. واختلف النقاد هل سعاد امرأته أو رمز للرسول. وفي كلتا الحالتين هي قصيدة في الغزل^(٤). ولما مدح المهاجرين غضبت الأنصار فمدحهم أيضا وبلاءهم مع الرسول^(٥). وهي رواية تجعل الرسول قاتلا للشعراء أو مهددا لهم إذا هجوه. وهو على غير عادة

(١) ابن هشام ج٢/ ٤١١، خير العباد ص ٤٠٩-٤١٤، السيرة الحلبية ج٣/ ١٦٣-١٨٢.

(٢) ابن هشام ج٢/ ٤٢٤-٤٣٧.

(٣)

نسيم أثرها لم يعد مكبول

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول

وأشدها في المسجد، السابق ج٢/ ٤٢٦.

(٤)

مهند من سيوف الله مسلول

إن الرسول لنور يستضاء به

السابق ج٢/ ٤٣٥

والعفو عند رسول الله مأول

نبئت أن رسول الله أوعدني

السابق ج٢/ ٤٣٣.

(٥)

إن الخيار هم بنو الأخيار

ورثوا المكارم كابرا عن كابر

للموت يوم تمنق وكرار

والبائعين نفوسهم لنبيهم

السابق ج٢/ ٤٣٦.

العرب الذين يقدرّون الشعر والشعراء بصرف النظر عن فنون الشعر. والرسول يتذوق الشعر، وينقده نقداً جمالياً. فهو أفصح العرب. وأوتي جوامع الكلم. وتجعل الشاعر خادماً للقوى الاجتماعية والسياسية، تحركه عواطف الخوف.

٤ - غزوة تبوك

ثم أمر الرسول للتهيؤ لغزوة تبوك والتوجه لملاقاة الروم خروجاً من شبه الجزيرة العربية شمالاً إلى بلاد الشام في زمن عسرة وجذب، والثمار قد طابت^(١). والناس تريد اقتطافها، وأخبر بها الرسول الناس صراحة بدلاً من الكنية عنها. وتحلف الجدد خشية افتتاحه بنساء الشمال فنزل القرآن مديناً هذا الغدر^(٢). واعتذر آخرون بالحر. فنزل القرآن أيضاً مديناً هذا الاعتذار^(٣). وأمر الرسول بتحريق بيت سويلم اليهودي الذي كان يبيط الناس عن الرسول في غزوة تبوك^(٤). وحث الرسول على النفقة للتجهيز للحرب. وأنفق عثمان الكثير في ذلك^(٥). وطلب رضا الله عنه لأن الرسول راض عنه معطياً الأولوية للفعل الإنساني على الفعل الإلهي. وبكى نفر من المسلمين لأنهم يودون الجهاد ولكن ليس لدى الرسول ما يحملهم عليه. ففاضت أعينهم من الدمع أنهم لا يجدون ما ينفقون. ومع ذلك لم يقبل الله عذر المتخلفين. فقد تحلف المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي. وتحلف عليّ بناء على أمر الرسول ليحرس الأهل. كما خلف هارون موسى بعد أن تقول المنافقون عليه ونشروا الشائعات^(٦). وعاد أبو خثيمة إلى أهله بعد أن سار مع الرسول. ووجدوا امرأتين في عريشين رشا بالماء وبه طعام. فجاءه إحساس بالذنب.

(١) ابن هشام ج ٢/ ٤٣٧ - البستاني ج ١/ ٣٦٦-٣٨٤، خير العباد ص ٤٣٦-٤٦٣، الفصول ص ٢٤٢-

٢٥١، المغازي ص ٣٩٦-٤٠٣.

(٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَفَذَّنِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، ابن هشام ج ٢/ ٤٣٨.

(٣) ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، السابق ج ٢/ ٣٤٨.

(٤) السابق ج ٢/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٥) يقال إنه أنفق لغزوة تبوك ألف دينار وقال «اللهم أرض عن عثمان فأني عنه راض»، السابق ج ٢/ ٤٣٩.

(٦) ج ٢/ ٤٣٩-٤٤٠، الإشارة ص ٣٣٤-٣٤٨، بهجة المحافل ص ٣٣٣-٣٣٥، سيرة النبي ٣٧١-٣٧٩، السيرة الحلبية ج ٣/ ١٨٣-٢١٢، حياة محمد ص ٣٦٩-٣٧٦، نور اليقين ص ١٧٧-١٨٠.

وخرج إلى الرسول من جديد فاستقبله استقبالا حسنا^(١). وقد نزل القرآن في المنافقين الذين كانوا يهبطون عزيمة المسلمين بأن قتال العرب بعضهم بغضا غير قتال الروم. فاعتذروا للرسول وقالوا إنهم كانوا يلعبون ويخرون^(٢).

وكلما علم الرسول بتخلف أحد المسلمين في الطريق إلى مؤتة أمر بتركه. فالله سيرجعه إن كان فيه خيرا وإلا فقد استراح المسلمون منه^(٣). كما حدث ذلك لأبي ذر. وأثنى عليه الرسول أنه يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده. وبالفعل مات أبو ذر وهو في الطريق بمفرده، ودفن بمفرده. وفي طريق العودة من مؤتة كان الرسول يسأل عمن تخلف، جماعة جماعة إما وصفا لألوانهم وأحجامهم أو أماكنهم استنكارا لهم. وإن كان أحد لا يستطيع الخروج فكان عليه على الأقل أن يحمل أحد القادرين على بعيره في سبيل الله. وعز على الرسول أن يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار وهم أهله^(٤). وقد تخلف ثلاثة في غزوة تبوك مع باقي المعذرين^(٥). ولم يعاقب الله أحدا ممن تخلف عن غزوة بدر، إنما عاقب الذين تعذروا بطول السفر وشدة الحر أو عدم الاستعداد بعد. وقبل الرسول الاعتذار. وانتظر قضاء الله فيهم^(٦). وجاء كتاب من ملك غسان يطلب منه الحضور إليه بدلا من الجفاء والهوان. وأمره الرسول باعتزال امرأته دون طلاقها. كما طالب ذلك من الشيخ الكبير. ورفض تشفع امرأته فيه. فلما ضاقت الأرض عليهم بما رحبت سمع أحدهم صوت البشارة وأن الفرج قد أتاه وسبقه بالصوت أسرع من الفرس إلى الرسول. وبشره بالخبر بأن الله تاب عليه على أن يمسك بعض ما له دون

(١) ابن هشام ج٢/ ٤٤١، الأسوة الحسنة ج١/ ٤٩٨-٥١٥، سيد الأنام ص ٢٥٩-٢٦٦، مختصر سيرة (١)

ص ١٤٩
(٢) ﴿وَكَيْفَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، ابن هشام ج٢/ ٤٤٥، خير العباد ص ٤١٦-٤٣٧، مختصر سيرة (٢) ص ٣٩١-٤١٢، سيرة الرسول ص ٢٣٧-٣٤٦، السيرة النبوية ص ٣٧٦-٣٨٢، صحيح السيرة ٥٨١-٦٠٧، خير الوري ص ٧١٤-٧٤٠، الرحيق المختوم ص ٤٢٩-٤٣٩.

(٣) «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، ابن هشام ج٢/ ٤٤٤، خير العباد ص ٤٣٨، بهجة المحافل ص ٣٣٦-٣٤٦، سيد الأنام ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٤) «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، ابن هشام ج٢/ ٤٤٤.

(٥) السابق ج٢/ ٤٤٨.

(٦) والمعذرون حوالي بضعة وثمانين رجلا ج٢/ ٤٥١.

التصدق به كله. ونزل القرآن^(١).

وصالح الرسول ويحنة (يوحنا) صاحب آيلة. وأعطاه الجزية، وكذلك القرى المحيطة بها. وأمنهم على أهل الشام واليمن على سفنهم وسياراتهم في البر والبحر. ومن أحدث منهم حدثا فإن ماله لا يحول دون نفسه. ولا يحل لهم منع ماء أو طريق^(٢). ثم أسر خالد اكيدر ملك كندة النصراني وقتل أخاه. وأرسل إلى الرسول عليه قباء من ديباج بخوص بالذهب استلبه خالد منه تعجب منه المسلمون، ولكن الرسول اعتبر مناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل منه^(٣). وتصالح خالد معه على أن يدفع الجزية ويعود إلى أهله. وترك الرسول تبوك بعد عدة ليال بلا معركة. وعندما أمر ألا يشرب أحد من الوادي حتى يصله الجميع تشجيعا على الوصول عصاه بعض المنافقين وشربوا منه. وتوفي ذو البجادين في الطريق. فدفنه الرسول مع أبي بكر وعمر داعيا له بأن يرضى الله عنه بعد أن رضي الرسول عنه معطيا الأولوية للفعل الإنساني على الفعل الإلهي^(٤).

ونزل القرآن معييا على المسلمين التخاذل في غزوة تبوك ونفاق البعض الآخر حين دعوا إلى الجهاد^(٥). وقد رفض عمر أن يصلي الرسول على ابن أبي رأس النفاق لأن الله

(١) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَخُوفُونَ رَحِيمَ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ﴿سَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، يَخْلُقُونَ لَكُمْ لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾، جـ ٢/٤٥٤.

(٢) «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه آمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليمنة ابن ربيعة وأهل أرملة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر»، ابن هشام جـ ٢/٤٤٥-٤٤٦.

(٣) «أتمجبون من هذا. فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»، السابق جـ ٢/٤٤٦.

(٤) السابق جـ ٢/٤٤٧، خير العباد ص ٤٤٥، الإشارة ص ٣٣٩.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْتُمْ تُنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾،

خيره بين الاستغفار أو عدم الاستغفار. وقد اختار الاستغفار، وسيزيد على سبعين مرة^(١). ومشى معه وأقام على قبره. ثم نزلت الآية مؤيدة لموقف عمر.

وكان الرسول قد رفض أن يصلي في مسجد الضرار وهو ذاهب إلى تبوك لأنه على سفر ومشغول ووعد بفعل ذلك في طريق العودة. وفي طريق العود أمر الرسول اثنين من المسلمين بهدمه وحرقه لأنه مسجد ظالم لم يقم على التقوى كما نزل القرآن^(٢).

وكان يمكن تصحيح بعض أحكام القدمات بالنسبة إلى غزوة الروم. فلم تكن فتوحات الشمال غزوا للروم بل كانت تحريراً للقبائل العربية، الإغساسنة من سيطرة الرومان، وتأمين لشمال شبه الجزيرة العربية من غزو الرومان^(٣).

ومن الدلالات الإيجابية لتبوك، جواز القتال في الشهر الحرام، ولزوم النفي للجميع إذا خرج الإمام، والجهاد بالمال، وإعلام الرعية بما ينبغي الاستعداد له، واستحباب التبشير وإعطاء البشارة، والتهتة عند حصول النعم^(٤). ومن الدلالات السلبية استخلاف الإمام عندما يتحول إلى وصية أو وراثته، وتحريق أماكن المعاصي، واعتزال النساء، واجتنابهم زمن العبادات^(٥). وتضعف بعض الروايات مثل قصة الرجل المقعد الذي دعا الرسول عليه لأنه قطع صلاته ماراً بينه وبين القبلة، نخلة أو حماراً^(٦).

٥- الغدر والنفاق

ولم تمنع هذه الغزوات ولا المعاهدات المشركين من الغدر وبعض المؤمنين من النفاق.

ابن هشام ج٢/ ٤٦٤.
(١) «يا عمر أخر عني. أنا قد خبرت فاخترت. قد قيل لي ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفِرَ له زدت، ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾»، السابق ج٢/ ٤٦٦-٤٦٧.

(٢) ابن هشام «انطلقنا إلى هذا المسجد الظالم أهلته فاهدماه وحرقاه»، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ج٢/ ٤٤٨-٤٤٩، خير العباد ص ٤٥٥-٤٥٦، الإشارة ص ٣٤٠، نور اليقين ص ١٨٠، سيد الأنام ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) الرحيق المختوم ص ٤٣٥-٤٣٦.

(٤) خير العباد ص ٤٦٤/ ٤٨٦.

(٥) السابق ص ٤٦٥/ ٤٧٤/ ٤٨٤-٤٨٥.

(٦) السابق ص ٤٥٠.

فقد استأذن الرسول للتخلف عن القتال فريقان، القادرون نفاقا، وغير القادرين إيمانا^(١).
الأول يعتبر ما ينفق غرما وخسارة. والثاني يعتبر ما ينفق قربة من الله^(٢).

وأسلم من ثقيف عروة بن مسعود ثم عاد إلى قومه بالرغم من تحذيره أنهم قد يقتلون. فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبال فقتلوه. وشبهه الرسول بصدیق النبی^(٣). ومع ذلك أصرت ثقيف على إرسال نفر للرسول. وسألوه أشياء أبأها عليهم. وأصروا على كتابة ذلك. حيوه بتحية الجاهلية. وطلبوا أن يدع لهم الطاغية اللات، ولا يهدمها ثلاث سنوات ثم سنة فقط، حتى يأنس القوم الإسلام. فرفض الرسول. وأرسل اثنين من المسلمين لهدمها. ثم طلبوا إعفاءهم من الصلاة، وكسر أوثانهم بأيديهم. فرفض الإعفاء من الصلاة لأنه لا خير في دين لا صلاة فيه. وأمر عليهم حدث السن لأنه أحرص على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن. وأوحى بعدم الإطالة في الصلاة، وقضاء الدين عن المدين من مال الوثن. وعقاب من يخرج على هذا الاتفاق الجلد أو نزع الثياب^(٤). وإن زاد فليرسل المخالف إلى الرسول^(٥). فالإسلام واقع يقدر مشاغل الناس، ومشاكلهم الاجتماعية مثل الدين.

وعلاوة النفاق أن يقول اللسان ما ليس في القلب. والمنافقون اشتروا بآيات الله

(١) ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نْكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلِكُمْ عَلَيْهِ قَوْلُوا وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَارْضَوْا بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ وَارْضَوْا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَابْتَغُوا الْوَعْدَ الْحَقَّ﴾، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَنتَظِرُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ﴿فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ﴾، ﴿فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ابن هشام جـ ٢/ ٤٦٧.

(٢) ﴿وَمِنَ الْأَغْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، وَمِنَ الْأَغْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾، جـ ٢/ ٤٦٧، سيد الأنام ص ٢٧٠-٢٧٢.

(٣) «إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه»، ابن هشام جـ ٢/ ٤٥٥.

(٤) «يا عثمان، تجاوز في الصلاة، وأقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذو الحاجة»، السابق جـ ٢/ ٤٥٨.

(٥) السابق جـ ٢/ ٤٥٨-٤٥٩.

ثمنا قليلا، وصدوا عن سبيله. لا يرقبون إلا ولا ذمة. يظهرون وجها ويبطنون وجها آخر^(١). وطريق الرجعة مفتوح: التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويسخطون إذا لم ينالوا من الصدقات. وقد نزل القرآن في أهل النفاق^(٢). يرخص أعداءهم في عدم الخروج. ويعاقب الرسول لإعطائهم الإذن في التخلف مع أنهم لو خرجوا لبثوا الفتنة بين المسلمين^(٣). ويحذر القرآن المسلمين من سماع المنافقين.

وقد رد القرآن على قريش في ادعائهم عمارة البيت دون أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وعدم خشية أحد إلا الله. فالإسلام كل لا يتجزأ في أركانه الخمسة^(٤).

كما نزل القرآن بجهاد المشركين ممن نقضوا العهد. فمن اعتدى منهم يُعتدى عليه. وهم الذين فرضوا الجهاد بالاعتداء على المسلمين لأنهم لا يخشون أحدا في حين أن المسلمين يخشون الله. فالله يعذب المشركين بأيدي المسلمين ويخزهم، وينصر المسلمين عليهم. الجهاد هو محك صدق الإيمان^(٥). والمشركون نجس لا يقربون المسجد الحرام.

(١) ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، السابق ج ٢/ ٤٦٢، ﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ، اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَلِإِخْرَاجِكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقُصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ج ٢/ ٤٦١.

(٢) ﴿وَفِيكُمْ سَاعُونَ هُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، لَقَدْ انْتَبَهَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُم كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَنْفُتْنِي يَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمَحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَخَارِجًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ، وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، ﴿إِنَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، السابق ج ٢/ ٤٦٥.

(٣) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَكَ الدِّينَ صَدَقُوا وَيَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾، ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَاعُونَ هُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، السابق ج ٢/ ٤٦٤.

(٤) ﴿إِنَّا يَصْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ نَعَىٰ أَوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُتَكِبِينَ، أَجْمَعْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَنْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، السابق ج ٢/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٥) ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن

والقتال واجب ضد من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون بدين الحق من أهل الكتاب حتى يرضخوا ويعطوا الجزية^(١).

ونزلت براءة لنقض ما بين الرسول والمشركون بل والتوبة عن هذا العهد المجحف. أما من أبقى على العهد من المشركون فيبقى حتى تنتهي مدته. فبعد الأشهر الحرم محل قتال المشركون كافة ومحاصرتهم والتربص لهم إلا إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة. وأن استجار أحد منهم الرسول فليجره وليؤمنه^(٢). وليس للمشركون عهد عند الله ورسوله إلا العهد الذي عقد عند المسجد الحرام المشروط باستقامة المشركون. أما إذا ظاهر على المسلمين ولم يراعوا شرط العهد فإنه يصبح منقوضا^(٣). وخص الرسول عليا بتأدية براءة عنه لأنه لا يؤدي عنه إلا رجل من أهل بيته، ألا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو قائم إلى مدته.

تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، السابق ج٢/٤٦٢.

(١) ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، السابق ج٢/٤٦٣.

(٢) ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِخُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ خَازِنُ الْكَاذِبِينَ، وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ بِوَمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَلَا يظهروا عَلَيْكُمْ أَحِدًا فَأَقَامُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ، السابق ج٢/٤٦٠.

(٣) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا دِمَةً، السابق ج٢، ٤٦٠/٤٦٢.

وقد نزل القرآن فيمن آذى الرسول وغشه. يتهمه المشركون بأنه يسمع كلام الساعين بالوشايات وهو لا يسمع إلا الخير. ومن يؤذي الرسول له عذاب أليم. يرضون أولئك ويرضون هؤلاء والله أحق أن يرضوه. ويعتذرون بأنهم كانوا يلعبون ويخرون وبالله ورسوله يستهزئون. ولكل طائفة عذاب أليم^(١). ويدعو القرآن النبي إلى مجاهدة الكفار والمنافقين وأن يغلظ عليهم. فمأواهم جهنم. يحلفون أنهم ما قالوا وهم قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهما بالإيذاء دون أن يحققوا نواياهم، ونقموا على من أغناهم الله من فضله^(٢). ومنهم من عاهد الله لئن آتاهم الله من فضله يتصدقون، ويكونون من الصالحين. وهم في نفس الوقت يسخرون من المتصدقين^(٣). والله يقبل كل الصدقات بصرف النظر عن مقدارها. كل حسب طاقته^(٤). واعتذروا بالحر عن الخروج وجهنم أشد حرا. يضحكون قليلا، ويكون كثيرا. ولا يعجب أحد من كثرة أموالهم وأولادهم.

كما نزل القرآن في أهل الكتاب يكشف عن أعمالهم، أكل أموال الناس بالباطل، والصدع عن سبيل الله، وكثر الذهب والفضة، وعدم إنفاقها في سبيل الله^(٥). يحللون عاما

(١) ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرِضَاكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَخَوْضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ طَائِفَةً مِنْهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، السابق جـ ٢/ ٤٦٥-٤٦٦.

(٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَبِئْسَ مَا يَفْعَلُونَ إِلَّا أَنْ أَعْتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ﴿مَنْ وَلِيَ وَلَا نَصْرَ﴾، السابق جـ ٢/ ٤٦٥-٤٦٦.

(٣) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَاهَا مِنْ فَضْلِهِ لَيَتصدقْنَ وَلَكِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، السابق جـ ٢/ ٤٦٦.

(٤) ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَافِرِينَ﴾، ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَافِرِينَ﴾، السابق جـ ٢/ ٤٦٦.

(٥) ﴿إِنْ كَثُرَ مِنَ الْخَبَرِ وَالْخَبَرَانِ لَيَأْكُلْنَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، السابق جـ ٢/ ٤٦٣.

ويجرمون عاما حتى يجللوا ما حرم الله، ويجرمون ما أحل الله^(١). وهو نوع من النفاق، فالإيمان بلا عمل نفاق.

وأخيرا نزل القرآن في السابقين من المهاجرين والأنصار وفضلهم وما وعدوا به من حسن الثواب، والتابعين لهم بإحسان في مقابل المنافقين الذين سيعذبهم الله مرتين^(٢). فريق الصدقة للتطهير، وفريق آخر متروك لله إن يشأ أن يعذبهم أو يتوب عليهم. الأول اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. والثاني مثل من بنى مسجد الضرار الذي هدمه الرسول القائم على النفاق والرياء^(٣).

٦- الغزوات، والسرايا، والبعوث

وبالرغم من تتابع الغزوات، واحدة تلو الأخرى، بمنهج تاريخي صرف هناك جمع لها في آخر السيرة لمعرفة بنيتها^(٤). فقد غزا الرسول بنفسه سبعا وعشرين غزوة منها ما تم بقتال ومنها ما لم يتم فيه قتال. قاتل الرسول في تسع منها^(٥). وتسمى الغزوات بأسماء قوادها أو من أرسلوا لها، أسماء شخصية وليست مواقع مثل بدر وأحد وحنين والطائف. وهناك غزوات أخرى أصغر على الإجمال دون التفصيل^(٦). وهناك غزوة كان الرسول قد وعد عائشة بإعطائها سببا لعتقه^(٧). فأهداف الغزوات متعددة، منها

(١) ﴿إِنَّ أَعْدَاءَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيَرْإِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ هُمْ سُوءٌ أَفْعَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، السابق ج ٢/ ٤٦٣-٤٦٤.

(٢) ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا نَفَعْلُهُمْ سَتَعْلَمُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَيْهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرُ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، السابق ج ٢/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٣) ﴿خِذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً يُطَهِّرُ بِهَا﴾، ﴿وَأَخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةُ﴾، السابق ج ٢/ ٤٦٨، بهجة المحافل ص ٣٣٥.

(٤) ابن هشام ج ٢/ ٥١٢.

(٥) وهي: بدر، أحد، الخندق، قريظة، المصطلق، خيبر، الفتح، حنين، الطائف، السابق ج ٢/ ٥١٣. ابن خلدون ص ١٤٧-١٥٢.

(٦) ابن هشام ج ٢/ ٥٢٣.

(٧) غزوة عينة بن حصن بني العنبر من بني غنيم «هذا سبي بني العنبر يقدم الآن فنعطيك منهم إنسانا فتعتقيه»، ج ٢/ ٥٢٣-٥٢٤، ألفية السيرة ص ١٠١-١٠٥، بهجة المحافل ص ٣١٨-٣٢٣، الرسائل (٤)، الرفود (٢٤)،

قطع طريق المواصلات مثل بدر. ومن ثم تحدد الغزوات بأهدافها وليس بأسماء المواقع أو القبائل.

والدافع على بعض هذه الغزوات إما الثأر والانتقام بسبب الغدر أو السلب بالإضافة إلى صد الشرك ونشر الإسلام. وكثير منها قتل فردي وقسوة مثل وضع طرف القوس في عين القتيل، والطرف الثاني في العين الأخرى حتى العظم أو تقطيع اليدين والرجلين أو إطلاق سهمين الأول في الجنب والثاني في المنكب. وقد قتل المسلمون فريقا من المشركين سلما وهو في طريقه إلى الرسول بعد أن اطمأنوا وناموا واستاقوا النعم^(١). ففي كل غزوة يذكر سببها أي الدافع عليها، وتمكن المسلمون من الكفار، ومن قتل فيها وما قيل فيها من شعر. وكان الهدف من غزوة قتل أحد المشركين بعد أن بلغ الرسول أنه يجمع الناس ليغزوه «فإنه قاتله». وهو مثل الشيطان إذا رآه المسلم أصيب بقشعريرة. وحدث كما وصف الرسول^(٢).

وفي غزوة عاد المسلم برسالة من الرسول إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا. وقدم آخر من عند قيصر الروم أرسله النبي في تجارة له فأغار الثاني على الأول. فقام أهله بالقتال وتمكن المسلمون من الكفار، وقتلوا الغادرين. وأعطى الرسول سيفه إلى علي لنصرة المسلمين^(٣). وفي غزوة أخرى قتل المشركون، وأسر البعض الآخر، وأطلق الرسول سراح إحدى السبايا وقيل فيها الشعر^(٤). وكان يهود قد عاونوا المشركين،

السرائيا (٣١)، الغزوات (٢٨)، نور اليقين ص ١٨٤-١٨٥/١٨٧-١٩٥، الأسوة الحسنة ج ٢/٥٨٨-٦٢٠، مختصر سيرة (٢) ص ٣٨٤-٣٩١/٤١٣-٤٤٢، كتاب الجهاد والمغازي والسيرة، المستصفى ص ٤٥٨-٥١٩، الرحيق المختوم ص ٤٢٤-٤٢٨، توجيه الأمراء والولاة، عبقرية محمد ص ١٠٦-١٠٧، كتاب الجهاد والمغازي والسير، سنن المصطفى ص ٤٥٨-٥١٩، عدد الغزوات والسرائيا، بهجة المحافل، ص ٤٢٤-٤٢٥، عبقرية محمد العسكرية، عبقرية محمد ص ٣٧-٨٤.

(١) مثل غزوة غالب بن عبد الله الليثي لبني الملوحة، ابن هشام ج ٢/٥١٣-٥١٥.
(٢) غزوة عبد الله بن أنيس لقتل خالد بن سفيان بن قبيح الهذلي، السابق ج ٢/٥٢٢-٥٢٣. غزوة ابن أبي حدر لقتل رفاعة بن قيس الجشمي، ج ٢/٥٢٩-٥٣٠. غزوة عمير بن عدي الخطمي لقتل عصماء بنت مروان، ج ٢/٥٣٥-٥٣٦.

(٣) غزوة زيد بن حارثة إلى جذام، السابق ج ٢/٥١٦-٥١٩.

(٤) غزوة زيد بن حارثة بني فزارة، السابق ج ٢/٥١٩-٥٢٠.

وقتل المشرك بقطع رجله أولا، وشج رأسه ثانيا^(١). وغزيت خيبر من جديد لإصابة يهودي^(٢).

وفي غزوة قتل قائد المسلمين مشركا. فعندما أشهر عليه السلاح قال «أشهد أن لا إله إلا الله»، ومع ذلك قتل. فحزن الرسول^(٣). ورفض عذر أنه أعلن الشهادة خوفا من القتل. وتروى نفس الحادثة مع خالد بن الوليد وتعليق الرسول «ألا شققت على قلبه»، وتستعمل ضد الجماعات الإسلامية الحالية التي يسهل عليها تكفير الناس.

وكان على أحد الغزوات أكثر من أمير. فقد أرسل عمرو بن العاص على إحداها ثم أرسل له الإمداد برئاسة أبي عبيدة الجراح بشرط عدم الاختلاف مع الأمير الأول «لا تختلفا». وكان الرسول على علم بما يحدث في النفس البشرية من طلب للإمارة. وقد وقع الخلاف بالفعل، أيها الأمير؟ واتفقا على أن يكون الأمير هو الأول، والثاني مدد له. وفي نفس المعنى أرسل أبو بكر وصية بتوحيد الله، وعدم الشرك به، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والغسل من الجنابة، والحج إن استطاع إليه سبيلا دون تقلد الإمارة. أما الإمارة فإنها شرف عند الرسول. وأثر أبو بكر للجهد في الدين، وإدخال الناس فيه طوعا أو كرها، والحفظ على حقوق الجار ودون إضراره في بعيده وشيائه لأن الله يغضب للمساس بحقوق الجار. فلما أصبح أبو بكر خليفة سأل الرجل عن إمارته فبررها أبو بكر بأنه كان يخشى على الأمة الفرقة^(٤). وقد أرسل النبي عليا على رأس غزوة إلى اليمن ونصبه عليها أميرا^(٥).

وقد تتحول الغزوة عن مقصدها ويقتل قائدها أحد المسلمين كان بينه وبينه ثار، أخذ بعيده وسلب أمواله حتى علم الرسول ونزلت الآية^(٦). وقد يختصم اثنان في

(١) غزوة عبد الله بن رواحة لقتل السير بن رزام، السابق ج٢/ ٥٢٠-٥٢١.

(٢) خيبر غزوة ابن عتيك، السابق ج٢/ ٥٢١.

(٣) غزوة غالب بن عبد الله أرضى بني مرة ومقتل مرداس، قول الرسول «يا أسامة من لك بلا إله إلا الله»، السابق ج٢/ ٥٢٤.

(٤) هي غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل، السابق ج٢/ ٥٢٥-٥٢٦.

(٥) السابق ج٢/ ٥٣٩، ابن خلدون ص ١٦٣.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، ابن هشام ج٢/ ٥٢٧.

الاختصاص من مشرك لأن بينه وبين أحدهما ثأر، وحكم الرسول بالدية لهما مناصفة. وإذا ما أخطأ مسلم في قتل أحد خطأ فقد لا يغفر له^(١). فلا يجوز تأمين أحد ثم قتله. فالأمثلة عديدة على تحول المقصد الكلي للغزوة، الجهاد في سبيل الله، إلى مقاصد فرعية من بقايا الجاهلية مثل الثأر.

وقد تكون الغزوة أحد طرق زيادة الكسب والمال بعد توزيع الغنائم. فقد طلب أحد المسلمين بعض المال لزيادة صدقة عروسه، والرسول لا يملك. ثم أرسله للخلاص من رجل أراد شراء بالرسول وبالمسلمين. فانتصر المسلمون. ونال السائل من الفئ ما استعان به على الزواج. فقد وضع سهمه في فؤاد العدو ثم اجتز رأسه. وكسب إبلا عظيمة وغنما كثيرة، وجاء برأسه يحمله إلى الرسول، وإعطاء الرسول ثلاثة عشر بعيرا لصداقه^(٢). وهو كسب في مقابل قتل.

وقد تكون الغزوة خالصة لله^(٣). ويكون الجو العام للغزوة جوا أخلاقيا. فعندما سئل الرسول عن أي المؤمنين أفضل؟ أجاب أحسنهم خلقا. وأي المؤمنين أكيس؟ أكثرهم ذكرا للموت، وأحسنهم استعدادا له. ثم وعظ الرسول المهاجرين. وحذرهم من خمس خصال حتى لا يقعوا فيها: ظهور الفاحشة والإعلان عن ذلك فيظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في إسلامهم، وإنقاص الكيل والميزان فيصيبهم الجذب، وشدة المؤمن وجور السلطان، ومنع الزكاة عن الأموال فيمنع عنهم القطر من السماء، ولولا البهائم ما وقع المطر، ونقض عهد الله ورسوله فيسلط عليهم عدوا من غيرهم فيأخذ بعض ما بأيديهم. وإذا لم يحكم أنمتهم بكتاب الله وتجبروا فيجعل الله بأسهم بينهم شديدا. ووجه نصائح للقائد بعدم الغلو والغدر والتمثيل وقتل الوليد^(٤).

ومع أنه لا يجوز قتل امرأة إلا أن هدف إحدى الغزوات كان قتل امرأة^(٥). وكانت

(١) «لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحرقه مثل ما أذاق نسائي، وأمته بالله ثم قتله»، السابق ج٢/ ٥٢٧.

(٢) غزوة ابن أبي حدرد لقتل رفاعه بن قيس الجشمي، السابق ج٢/ ٥٢٩-٥٣٠.

(٣) غزوة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، السابق ج٢/ ٥٣٠-٥٣١.

(٤) «أغزوا جميعا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا، ولا تقتلوا وليدا»، السابق ج٢/ ٥٣١.

(٥) «ألا أخذني من ابنة رضوان»، غزوة عمير بن عدي الخطمي لقتل عصاء بنت مروان، السابق ج٢/ ٥٣٥-٥٣٦.

تحت رجل من بني خطمة. وهي صورة مكانية لعلاقة الزوج بزوجه في النكاح قد تتغير من ثقافة إلى أخرى. وقد طلب ذلك الرسول. ولما تم ذلك كأن القاتل نصر الله ورسوله ولا وزر عليه، لا ثأر ولا اختلاف^(١). فالحرب هي الحرب. لها منطقها الداخلي، مهما كان هناك من أخلاق وآداب.

وبالإضافة إلى الغزوات هناك السرايا. وهي مجرد بداية غزوات واستكشاف إمكانيتها دون القيام بها بالفعل. وقد دفع ذلك بعض المشركين إلى الانضمام إلى المسلمين^(٢). كانت السرية الأولى التي أرسلها الرسول إلى غير قريش بعد أن غيرت طريقها إلى الشام من وقعة بدر إلى طريق العراق، ومعهم فضة كثيرة. ونزلوا عند ماء. فأصابتهم السرية، واستولوا على ما فيها، وأحضروها إلى الرسول^(٣). فالهدف كان المال أي الحرب الاقتصادية. وقد طلب الرسول من سرية رأس أحد المشركين وكأن الأمر معركة شخصية وكأن الحرب غاية شخصية^(٤). ومن آداب السرايا عدم تفريق السبايا وبيعهم جميعاً للإبقاء على صلة الرحم^(٥).

وأسرت سرية أحد المشركين ثم أسلم^(٦). وطلب الرسول بعد أسره الإحسان إليه وإرسال الطعام له مع رجاء الرسول أن يسلم. وعز عليه الإسلام وعرض الفداء أو قتل ذي دم. فطلب الرسول إطلاق سراحه ثم أسلم. وأذهب الرسول عن الناس العجب لأن الرجل أكل معه كافراً في أول النهار وأصبح مسلماً في آخره. الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمسلم في معي واحد. وخرج إلى مكة. فأراد المشركون ضرب عنقه، وقد كان أبغض الوجوه إلى الرسول قبل الإسلام. ثم أصبح أحب الوجوه إليه بعد إسلامه.

(١) «نصرت الله ورسوله يا عمير»، «لا يتناطح فيها غفران»، السابق ج٢/ ٥٣٦.

(٢) مثل سرية عبيدة بن الحارث وهي أول راية عقدتها الرسول رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهم. وكان أول سهم رمى به في الإسلام، السابق ج٢/ ٥٢٧، سرية حمزة إلى سيف البحر وكانت رايته أول راية في الإسلام، ج١/ ٥٢٧-٥٣٠، سرية سعد بن أبي وقاص، سرية عبد الله بن جحش ج١/ ٥٣٢-٥٣٦.

(٣) سرية زيد بن حارثة إلى اليمن، وكان فيها أبو سفيان، السابق ج٢/ ٤٦-٤٧.

(٤) «من لي بهذا الخبيث»، سرية سالم بن عمير لقتل أبي علفك، السابق ج٢/ ٥٣٤-٥٣٥.

(٥) سرية زيد بن حارثة إلى اليمن، السابق ج٢/ ٥٣٣-٥٣٤، البستي ج١/ ٢١٦-٢١٨/ ٢٦٧، ألفية السيرة ص ١٠٥-١٢٢، السيرة الحلبية، ج٣/ ٢١٣-٢٩٠ (حوالي ٥٦ سرية).

(٦) هي السرية التي أسرت ثمانية بن آثال الحنفي، ابن هشام، ج٢/ ٥٣٦-٥٣٧.

ومنع المشركين أن يحملوا إلى مكة شيئا. وشكوا إلى الرسول أنه يأمر بصلة الرحم مع أنه قطع الأرحام، وقتل الأبناء بالسيف، والأبناء بالجوع. فأمر الرسول بتركهم. وكان الهدف من السرية الأخذ بالتأثر، وكان أميرها يحب الدعابة. فأمر أصحابه باللقاء أنفسهم في النار. فلما استعدوا أعلن لهم أنه كان يضحك عليهم. فقال الرسول «من أمركم بمعصية منهم فلا تطيعوه»^(١). ولم يحدث فيها قتال. وأرسل النبي سرية للانتقام من البجليين والتنكيل بهم، قطع أيديهم وأرجلهم وسحل أعينهم لأنهم قتلوا غلامه يسارا راعي الغنم مع أن الرسول داواهم بشرب اللبن والأبوال من الأوجاع التي لديهم^(٢).

ومع الغزوات والسرايا هناك البعوث. ليست للحرب كالغزوات والسرايا بل للدعوة إلى الإسلام كما هو المعنى الحالي للبعوث الإسلامية، وكانت السرايا والبعوث ثمانية وثلاثين بين بعثة وسرية^(٣). وتسمى بعثة أو بعث^(٤). أرسلت بعثة لقتل أحد المشركين^(٥). فضربه أحد أعضاء السرية بخنجر في صدره صاح بعدها حتى سمعه كل أهل مكة دون مطالبته بالتزال العلني للدفاع عن نفسه. وقد بُعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين في آخر البعوث^(٦).

٧- الوفود، والرسائل، والوداع

أ- استقبال الوفود

وقد استمر اكتمال الرسالة حتى العام التاسع، عام الوفود ونزول سورة الفتح. فبعد فتح مكة، والفراغ من تبوك، وإسلام ثقيف ومبايعتها آتته وفود العرب من كل وجه. ودخلوا في دين الله أفواجا. فنزلت الآية^(٧). وقد همت الوفود على الرسول

(١) هي سرية علقمة بن مجزر، السابق جـ ٥٣٨.

(٢) هي سرية كرز بن جابر لقتل البجليين الذين قتلوا يسارا، السابق جـ ٥٣٨/٢.

(٣) مثل بعثة أسامة إلى أرض فلسطين، السابق جـ ٥١١/٢/٥١٣.

(٤) السابق، جـ ٥٣٢-٥٣٣.

(٥) «بعث عمرو بن أمية الضمري لقتال أبي سفيان بن حرب، السابق جـ ٥٣٢-٥٣٣».

(٦) السابق جـ ٥٣٩/٢.

(٧) «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»، السابق جـ ٤٧٣/٢.

ولتعلن إسلامها. وكان رئيس الوفد يلقي خطاباً أمام الرسول ليعلن ولاء قومه له. وكان الرسول يرد عليه بخطاب ترحيب أو يطلب من أحد أصحابه أن يفعل ذلك بدلا عنه^(١). وكان يُلقى الشعر في الفخر بقوم الوفد ويرد حسان، شاعر الرسول عليه بشعر آخر يبين فضل الرسول مع مراعاة الآداب العربية مثل عدم نداء الرسول من وراء الحجرات^(٢). وبعض رجال الوفود أضمر الغدر للرسول، وكانت بعض الوفود تسأل عن الإسلام ويحيب الرسول بأنه رسول الله يأمر بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به، والصلاة خمس مرات، والزكاة، والصيام، والحج، وباقي الشرائع. إن صدق المؤمن دخل الجنة. ويضمن الرسول أن الدين الجديد أفضل من القديم، وأنه ليس لديه ما يحمل الناس عليه ويحذرهم من الأصنام ومن الردة^(٣). فبعد الفتح تأتي الناس إلى الرسول ولا يذهب الرسول إليهم، أصبح الإسلام نقطة جذب وليس نقطة طرد^(٤).

وقد قدم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب. وستره الوفد لأنه كان عاريا. وعرفه الرسول وأبلغه أنه لو سأله هذا السعف من النخل ما أعطاه. وفي رواية أخرى أنه بقي في رجال القوم. فلما استدعوه أبلغهم الرسول أنه ليس بشرهم مكانا. وقد تنبأ الرسول بارتداده وتنبؤه. إذ لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالا كلهم يدعون النبوة، وقد كتب مسيلمة إلى الرسول يطالبه بالاشترار معه في الأمر، له نصف الأرض ولقريش نصفها بالرغم من عدوان قريش. وأرسل الكتاب مع رسولين. ولولا أن الرسل لا تقتل لدق الرسول عنقيهما. وكتب الرسول إلى مسيلمة الكذاب أن الأرض يورثها الله لمن يشاء من عباده، وأحل للناس الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة. وكان

(١) «قم فأجب الرجل في خطبته»، السابق جـ ٢/ ٤٧٥.

(٢) «إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»، السابق جـ ٢/ ٤٧٩.

(٣) وهو عامر بن الطفيل في وفد بني نعيم، السابق جـ ٢/ ٤٧٩-٤٨٦.

(٤) ابن خلدون ص ١٨٦-١٩١، خير العباد ص ٤٩٧-٥٧٥ (حوالي ٣٣ وفدا)، السيرة ص ١٤٨-١٥٠، بهجة المحافل ص ٢٧٤-٢٧٥/ ٣٢٣-٣٣٣، سيرة النبي ص ٣٦٥-٣٧٠، السيرة الحلبية جـ ٣/ ٢٩٨-٣٣٦، حياة محمد ص ٣٧٩-٣٩٠، المغازي ص ١٥٤-١٦٤، مختصر سيرة (١) ص ١٦٠-١٦٤، مختصر سيرة (٢) ص ٤١٣-٤٤٣، معجز محمد جـ ٢/ ٣٠٠-٣٢١/ ٣٣٤، سيرة الرسول ص ٢٥٠-٢٥٨، السيرة النبوية ص ٣٨٣-٣٩٢، صحيح السيرة ص ٦١٩-٦٥٧، خير الوري ص ٧٦٧، الرحيق المختوم ص ٤٤٥.

يسبح لهم مقلدا القرآن^(١). في حين حسن إسلام البعض. ومهما قيل في فضله فإنه لن يوفيه حقه. وتمنى الرسول أن ينجو من همى المدينة^(٢).

وهرب البعض من الرسول لاجئا إلى نصارى الشام. وأسر الرسول ابنته ثم أطلقها. وكانت في حظيرة في باب المسجد كانت السبايا تحبس فيها. وأطلق سراحها بالرغم من أن أبيها فر من الله ورسوله. ثم أشارت على أبيها بالإسلام. وعلم الرسول أنه كان ركوسيا جامعا بين النصرانية والصابئة، وكان يأخذ الربيع من قومه. فعرف أنه نبي لأنه أخبره بها لا يعلمه أحد. وربما ما يمنعه من الدخول في الإسلام الحاجة إلى المال، وأنه سيفيض على المسلمين فوق الحاجة، وربما كثرة عدوهم وقلة عددهم مع أن المرأة قد تخرج من القادسية لزيارة البيت وهي في أمان، وربما أن الملك والسلطان في غيرهم، وستفتح القصور البيض من بابل عليهم. وقدم آخر للإسلام وسأله الرسول عما إذا كان أساء ما أصاب قومه فأنكر. ولدى الرسول أن ما أصاب قومه لم يزد لهم إلا خيرا بقدمهم إلى الإسلام. فحسب أن يكرهوا شيئا وهو خير لهم^(٣). والإسلام يتطلب نزع الحرير من الأعناق^(٤). وكانت القراية عاملا في الدخول إلى الدين الجديد. وبعد أن أتاه وفد من اليمن وأعلن إسلامه طلب من الرسول أن يجاهد معهم أهل الشرك في اليمن في حبرش فحاصرهم وعاد. ثم خرجوا إليه وقاتلهم وهزمهم. وعلم الرسول بما حدث فغير اسم المكان من كشر إلى شكر. وأسلم أهلها تطيرا بالأساء^(٥).

وقدم رسول ملوك حمير من أرض الروم بكتابهم بإسلامهم وقتلهم المشركين. فرد عليهم الرسول بكتاب يبدأ بالبسملة والحمدلة على أن الله قد هداهم، فعليهم طاعة الله ورسوله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإعطاء خمس الغنائم لله ورسوله، وسهم الرسول وصفيه، وله ذمة الله ورسوله، ومن أسلم من يهودي أو نصراني فإنه أيضا منهم، ومن ظل على دينه عليه الجزية، دينارا واحدا من قيمة المعافر (ثياب اليمن) أو عوضه ثيابا.

(١) مثل «لقد أنعم الله على الحبل، أخرج منها نسمة تسمى، من بين صفاق وحشى»، ابن هشام ج٢/ ٤٨٧.

(٢) مثل زيد الخيل في وفد طي، السابق ج٢/ ٤٨٨.

(٣) السابق ج٢/ ٤٨٨-٤٩٢.

(٤) السابق، ج٢/ ٤٩٤.

(٥) السابق ج٢/ ٤٩٥-٤٩٧.

ومن منع ذلك فإنه عدو لله ورسوله. ويستمر الجزء الثاني من الخطاب للملوك آخرين، يجمع الصدقة والجزية من مخالفيهم وعودة وفد المسلمين راضيا. إذا كانوا أسلموا وقتلوا المشركين فالبشرى بالخير. وعليهم عدم الخيانة أو التخاذل. والرسول ولي الغني والفقير، والصدقة لا تحل لمحمد ولا إلى آل بيته، إنما هي زكاة لفقراء المسلمين وابن السبيل. ويلاحظ أن الشريعة نتيجة طبيعية للعقيدة، وأن المعاملات جزء من العبادات، وأن توزيع الغنائم جزء رئيسي منها. والآن لم تعد هناك جمال ولا شياه، والجزية على اليهود والنصارى، ومظاهرة المؤمنين وقتل المشركين^(١). وهو ما يتطلب قراءة جديدة نظرا لتغير ظروف العصر التي لم تعد فيها الثروة الحيوانية هي الثروة الرئيسية، ولم يعد قتل المخالفين في العقيدة مقبولا في القوانين المحلية والإقليمية والدولية^(٢).

وهناك دروس مستفادة من استقبال كل وفد، ففي قصة استقبال وفد ثقيف أن المشرك إذا عذر بقومه وأخذ أموالهم ثم أرسلهم لا يتعرض له الإمام ولا لما أخذه من مال قومه. والخوف أن يكون الغدر شيمة الرجل قبل الإسلام وبعده. ويجوز إنزال المشرك في المسجد، وحسن سياسة الوفد. والمستحق لإمرة القوم وإمامتهم أفضلهم وأعلمهم وأفقههم، هدم مواضع الشرك حتى لا تؤخذ بيوتنا للطواغيت، وجواز تحويلها إلى مساجد. وبعضها سلبي مثل حماية من يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(٣).

ومن فوائد مقدم وفد بني حنيفة جواز مكاتبة الإمام لأهل الردة، وعدم قتل الرسول ولو كان مرتدا، وقدم الإمام بنفسه للقاء من قدم لقاؤه من الكفار، واستعانة الإمام برجل من أهل العلم ليجيب أهل الاعتراض والعناد أي المستشار، وتوكيل العالم ببعض أصحابه للإجابة عنه أي مستشار للمستشار. ومنها الأوهام مثل النبي نفخ السوارين بروح الصديق فطارا. وكان الصديق هو الذي نفخ مسيلمة فأطاره^(٤).

(١) ابن هشام ج ٢/ ٤٩٧-٤٩٨، معجز الرسول ج ٢/ ٣٣٥-٣٤٨.

(٢) الصفي هو ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة لنفسه قبل أن تقسم الغنائم، ج ٢/ ٤٩٧، وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار، عشر ما سقت العين والساء وعلى ما سقى الغرب. (الدلوم نصف العشر وفي الإبل الأربعين ابنة ليون، وفي ثلاثين من الإبل ابن ليون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع، وفي كل أربعين من الغنم سائمة، ومن زاد فهو خير له. ومن ظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم. وعليه ما عليهم).

(٣) خير العباد ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٤) السابق ص ٥١٢-٥١٣.

ومن دروس وفد دوس وجوب الغسل من الكفر، وعدم تقليد العاقل الناس في المدح والذم القائمين على الأهواء، وإسهام المدد للجيش وإن لم يحارب لأن الأعمال بالنيات، والتأني والصبر في الدعوة. ومن الدلالات السلبية وقوع كرامات الأولياء لحاجة الدين أو لمنفعة المسلمين لإظهار الحق وكسر الباطل، تشبيه المرأة بالأرض. يخرج منها الإنسان ويعود: فكلاهما محل الوطأ^(١).

ومن فوائد وفد نجران جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين وليس كما هو حادث في عصرنا باعتبارهم نجسًا إلا إذا وضعوا الخف في الأقدام، دخول الكاهن الإسلام بإقرار أن الرسول نبي وإن لم يتبعه، جواز مناظرة أهل الكتاب، تعظيم أحد فوق ما يستحق شرك وهو ما يحدث في هذا العصر من تعظيم الرؤساء بل تعظيم الرسول نفسه، جواز إهانة رسل الكفار إذا ما تعاضموا، جواز مجادلة أهل الباطل وإقامة الحجة عليهم، جواز صلح أهل الكتاب، جواز ثبوت الحلل في الذمة والدية، جواز تعويضهم، اشتراط الإمام على الكفار إيواء رسله وإكرامهم واستضافتهم عدة أيام، اشتراطه عليهم إمداد المسلمين بما يحتاجونه، عدم إقرار أهل الكتاب المعاملات الربوية، عدم أخذ ظلم أحد الكفار بآخر، اشتراط عقد العهد والذمة بالنصح والصلاح، أمانة من يبعثه الإمام إلى أهل الذمة، مناظرة أهل الكتاب عما سألوه، حمل الكلام المطلق على ظاهره^(٢).

ومن فوائد وفد بلي حقوق الضيف على من نزل عليه، جواز التقاط الغنم، عدم جواز التقاط البعير^(٣). ومن فوائد وفد صُداء، استحباب عقد الألوية والرايات للجيش، الألوية بيضاء، والرايات سوداء، قبول خبر الواحد مع أنه ظني عند الأصوليين، جواز سفر الليل كله، جواز الأذان على الراحلة، طلب الإمام من أحد رعيته الماء للوضوء، عدم جواز التيمم حتى ينقض الماء، تولى الإقامة من يتولى الأذان، جواز تأمير الإمام لمن سأل الإمامة، جواز شكاية العمال الظلمة ورفقيهم إلى الإمام والقدح فيهم بظلمهم، جواز أن

(١) السابق ص ٥٢٣-٥٢٥.

(٢) السابق ص ٥٣٣-٥٤٠.

(٣) السابق ص ٥٥٠.

يكون الشخص الواحد ضيفا تأكيداً للفردية، جواز إقالة الإمام، جواز استشارة الإمام لأصحابه، جواز الوضوء بالماء المبارك، وهي أشياء قديمة وأشياء يمكن تحديثها^(١).

ومن فوائد وفد بني المنتفق سؤال الرسول على ما يرد على المسلمين من أسئلة، وإثبات القياس في أدلة التوحيد والمعاد، وحكم الشيء حكم نظيره، خلو أحاديث الرسول من التعارض والتناقض^(٢).

ولم تكن الوفود تأتي الرسول فقط بل كان الرسول يرسل الوفود. فقد أوصى الرسول مبعوثاً إلى اليمن بالتيسير وليس بالتعسير، بالتبشير وليس بالتنفير، وإن مفتاح الجنة لأهل الكتاب هو الشهادة^(٣).

ولما أتت امرأة إلى معاذ وهو في طريقه إلى اليمن تسأله ما حق زوج المرأة عليها فقال لها إن المرأة مهما فعلت لن تستطيع أن توفي زوجها حقه، فعلها أن تجهد نفسها في أداء حقه ما استطاعت. فلما طلبت مزيداً من الدقة أعطاها صورة فنية للتشبيه أنها لو وجدت منخراه يسيلان قيحا ودما ومصت ذلك حتى تذهبها ما أدت حقه^(٤).

وكان الوفد يعلن عن نيته كتابة وليس انتقالاً نظراً لظروفه قومه. فقد كان البعض إذا ما أسلم عذبه الروم وقتلوه. فقد كان الروم قوة احتلال للعرب وعلى دين مخالف، النصرانية، وكان الإسلام دين تحرر لهم، دين وطني، فقد أرسل أحدهم إلى الرسول يبلغه بإسلامه. وأهدى له بغلة بيضاء. وكان عاملاً للروم على العرب في أرض الشام. فأخذه الروم وحبسوه وصلبوه بفلسطين بعد ضرب عنقه^(٥).

وقد أسلم البعض على يد خالد بن الوليد لما بعثه الرسول إلى نجران ليدعوهم إلى

(١) السابق ص ٥٥٧-٥٥٩.

(٢) السابق ص ٥٦٧-٥٧٤.

(٣) «يسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر، وإنك تستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة؟ قل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، ابن هشام ج ٢/ ٤٩٨.

(٤) السابق ج ٢/ ٤٩٨.

(٥) مثل ما حدث لعروة بن عمرو الجذامي، ابن هشام ج ٢/ ٤٩٩-٥٠٠، وفيما قال: يبلغ سراة المسلمين بأنني يسلم لربي أعظمي ومقامي

الإسلام قبل قتالهم. ففعل على غير عادته. فكتب الرسول إلى خالد بالرجوع ومعهم وفد منهم. فلاحظ الرسول أنهم أشبه برجال الهند، وأنهم إذا زجروا استفدوا، وأنه لو لا إسلامهم وعدم قتالهم لألقيت رؤوسهم تحت أقدامهم. وكانوا يغلبون من يقاتلون في الجاهلية بالجماعة وليس بالفرقة. ولا يبدأون بظلم أحد. وهذا على غير العادة، ويبدو الوفد مستسلماً لا يرد. وقد كان الوفد أقرب إلى الإسلام الطبيعي مثل حلف الفضول الذي كان يتمنى الرسول لو كان أحد موقعيه. وأرسل النبي رسولا إليهم يعلمهم الدين في كتاب، ومطالبتهم بالوفاء بالعقود وتقوى الله، والأخذ بالحق وتبشير الناس بالخير، والأمر به، وتعلم القرآن والتفقه في الدين، وعدم مس القرآن إلا بعد طهور، وتعليم الناس واجباتهم وحقوقهم، والشدة عليهم في الظلم، فإن الله يكره الظلم وينهي عنه، وتبشير الناس بالجنة وإنذارهم بالنار، واستتلاف الناس وتعليمهم معالم الحج الأكبر والأصغر، وكيف يكون الثوب وقص الشعر، والنهي عن الدعاء للقبائل والعشائر بل الدعاء لله، والوضوء والصلاة والركوع والسجود والخشوع، وأخذ خمس الغنائم، واتفاق الصدقة المفروضة، ومن أسلم من النصارى أو اليهود فهو مساو للمسلمين في الحقوق والواجبات. ومن بقى على دينه فعليه الجزية، دينار على كل فرد بالغ أو ثياب. من أدى ذلك له ذمة الله ورسوله ومن منع ذلك فإنه عدو الله ورسوله والمؤمنين^(١). وهنا يظهر الانتقال من العقيدة إلى الشريعة، ومن الإيمان إلى الواقع البدوي، ومن المثال إلى الواقع، ومن النصر إلى تقسيم الغنائم. وعبر هذا الإعلام للقبائل وساداتها تظهر الرسالة في أحاديث الرسول وروايتها.

ب- الرسائل

ورسائل الرسول كثيرة، وليس فقط الرسالة الشهيرة إلى المقوقس عظيم الروم^(٢).

(١) السابق ج٢/ ٥٠٠ - ٥٠٣ وهي: عشر ما سقت العين، وما سقى الدلو نصف العشر، وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل عشرين أربع، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة، ومن زاد فمن لديه.

(٢) مثل: رسالة الرسول مع ابن حجاج التي لا يفتحها إلا في الطريق «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم»، ابن هشام ج١/ ٥٣٣، وهي رسائله إلى هرقل، وكسرى، والنجاشي، والمقوقس، والمنذر بن ساوى، وملك عمان، وصاحب اليمامة، والحارث بن

وما زالت عقلية السيرة الأولى مستمرة، عقلية كتابة رسائل للملوك لدعوتها إلى الإسلام^(١). وهي رسائل قصيرة وواضحة. تهدف إلى المقصود مباشرة. وتبين علم الرسول بتاريخ الديانات مثل الأريسيين الذين اضطهدتهم الكنيسة الرومانية. وهم شيعة أريوس التي تقول بالتوحيد.

وقدم آخر إلى الرسول وأهدى إليه غلاما، في وقت كان التعامل فيه مع البشر مثل التعامل مع الأشياء، وأسلم وكتب له الرسول كتابا إلى قومه ليسلموا. ومن لم يرغب يعطيهم الأمان شهرين^(٢). ثم قدم وفد همدان وأعطاهم الرسول كتابا يعطيهم عهد الله وذمة رسوله وشهادة المهاجرين والأنصار على التمتع بخيرات الأرض في مقابل إقامة الصلاة وأداء الزكاة. وقد خرج بعض الأمراء والعمال على الصدقات رافضين الربط بين العقيدة والشرعة^(٣).

ج- حجة الوداع

وفد على الرسول من اليمن وفد في حجة الوداع، وطلب منه الرسول الطواف بالبيت والحل بعد أن أشركه الرسول في هديه. وقد يكون غرض الرسول من مشاركة علي في حجة الوداع وإشراكه معه في الهدى له دلالة. وكل عرفة موقف، والمزدلفة موقف، والموقف للجبل الذي عليه الرسول^(٤). والموقف الآن شهادة للقدس المحتلة التي يجري تهويدها والمسجد الأقصى مهدد بالانهيار من جراء الجفائر تحته^(٥). وقد شكّا عليا جنده إلى الرسول لاتنزاعه منهم حلالا من بز اليمن. فقد أسرع علي لملاقاة الرسول

أبي شمر، خير العباد ص ٥٧٦-٥٨٨، بهجة المحافل ص ٢٤٨-٢٥٢، سيرة النبي ص ٣٣١-٣٣٧، السيرة الحلبية، ج ٣/ ٣٣٧-٣٥٩، السيرة النبوية ص ٢٨٧-٢٥٤، صحيح السيرة ص ٤٨٥-٤٩٥.

(١) وهذا ما فعله الحميني برسالته إلى جورياتشوف يدعوه فيها إلى الإسلام، الرحيق المختوم ص ٣٥١، خاتم الأنبياء ص ١٨٧-١٩٢.

(٢) هو رفاعة زيد الجذامي، ابن هشام ج ٢/ ٥٠٣.

(٣) السابق ج ٢/ ٥٠٤-٥٠٦.

(٤) السابق ج ٢/ ٥٠٨/ ٥١٠، السيرة الحلبية ج ٣/ ٣٦٠-٣٨٨، سيرة خاتم الأنبياء ص ٢١٥-٢٢٥،

صحيح السيرة ص ٦٥٧-٦٩٠، سيرة الرسول ص ٢٣٥-٢٣٦، سيرة الرسول ص ٢٥٩-٢٦٦، السيرة النبوية ص ٣٩٣-٤٠٠.

(٥) خواطر حاج، أخبار الأدب، ٢٢ يناير ٢٠٠٦.

في مكة قبل حجة الوداع. واستخلف على المنبر أحد أصحابه. فكسى كل رجل حلة من البز. ودخل الجيش وعلى كل جندي منهم حلة. فأمر عليّ بخلعها وردها إلى الأسلاب. فشكا الجند عليا إلى الرسول. فخطب الرسول في الجند مطالباً إياهم بعدم شكوى علي لأنه خشن في الحق^(١).

وأرادت عائشة الخروج مع الرسول في حجة الوداع وهي حائض. فسمح لها بأن تقضي كل ما يقضي الحاج إلا الطواف بالبيت. وذبح الرسول عن نسائه البقر^(٢). مع أنه لا فرق بين مناسك الحاج في أدائها بين رجل وامرأة، بين حائض وغير حائض، بين الطواف من ناحية، والسعي والهدي ورمي الجمرات من ناحية أخرى.

وتحليل خطبة الرسول في حجة الوداع أشبه بوصية له. وهي خطبة طويلة نسبياً يصعب على الذاكرة استيعابها وعلى الرواة نقلها. وتتضمن سبع نقاط تشريعية رئيسية بصرف النظر عن أسسها العقائدية وهي:

- ١ - حرمة دماء المسلمين وأموالهم، وتادية الأمانات، وترك الربا مع ردء وس الأموال دون ظلم.
- ٢ - دماء الجاهلية موضوعة. فالإسلام يجب ما قبله، وبالتالي الثأر والفدية موضوعان. والرسول يبدأ بنفسه، ببني عبد المطلب.
- ٣ - النسيء زيادة في الكفر وهو ما نص القرآن عليه، يحلله الكفار عاماً، ويحرمونه عاماً، وبالتالي يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله.
- ٤ - مراعاة الأشهر الحرم الأربعة، منها ثلاثة متتالية.
- ٥ - الحق المتبادل بين الرجل والمرأة، حق المرأة على الرجل ألا يطأ فرشهن أحد وألا يأتين بفاحشة وإلا فاهجر في المضاجع، والضرب غير المبرح. ولهن على الرجال الرزق والكسوة. والوصية بهن خير لأنهن في المنزل كالأسيرات لا يملكن لأنفسهن شيئاً. أخذهن الرجال بأمانة الله واستحلوا فروجهن بكلماته.

(١) ابن هشام ج ٢/ ٥٠٨.

(٢) السابق ج ٢/ ٥٠٧.

- ٦- ترك الرسول شيئين إن اعتصم المسلمون بها لن يضلوا، كتاب الله وسنة رسوله.
- ٧- كل مسلم أخ للمسلم، والمسلمون إخوة، فلا يحل لأحد من أخيه إلا ما يعطيه له عن طيب خاطر^(١).

وفي رواية زيادة أخرى بها نقطتان. لا وصية لوارث تأدية لكل ذي حق حقه، والولد للفراش وللعاهر الحجر. ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يُقبل منه صدق ولا عدل.

ويمكن قسمة موضوعات حجة الوداع إلى أربع مجموعات: الأولى هديه في أحكام الجهاد وآدابه^(٢). والثانية هديه بشأن الغنائم والأسرى^(٣). والثالثة هديه في عقد الذمة وأخذ الجزية^(٤). والرابعة هديه في عقود الصلح^(٥).

٨- وفاة الرسول

وفاة الرسول يمكن أن تكون نهاية فترة الانتشار أو بداية فترة المصير خاصة وأن بدايات الخلاف السياسي كانت بعد وفاة الرسول قبل أن يوارى الثرى، في سقيفة بني ساعدة. وكان من الأفضل أن تكون في نهاية فترة الانتشار لأنه كان مازال يوحى بإرسال بعثة أسامة إلى الروم. وقد تكون في الرحلتين، ووفاته في نهاية مرحلة الانتشار،

(١) السابق ج٢/ ٥٠٩-٥١٠، الفصول ص ٢٥٣-٢٥٨، ابن خلدون ص ٢٠٠-٢٠٢، خير العباد ص ٥٨٩-٦١٤، بهجة المحافل ص ٣٦٣-٣٧٠، سيرة النبي ص ٣٨٠-٣٨٥، حياة محمد ص ٣٩١-٣٩٩، نور اليقين ص ١٨٥-١٨٧، الأسوة الحسنة ج١/ ٥١٥-٥١٨، السيرة النبوية ص ٢١٩-٢٨٣، الرحيق المختوم ص ٤٥٨-٤٦٢، رسول الحرية ص ٣٢٧-٣٣٨، الجوهرة ج٢/ ٩٩-١٠٥.

(٢) وتشمل: البيعة، والشورى، والوصية بتقوى الله، والأدعية عند اللقاء، والترتيبات بشأن المعركة، والوفاء بالعهد، والرسول، وعدم إقامة المسلم بين المشركين، خير العباد ص ٥٩٢-٥٩٧.

(٣) وتشمل: توزيع الغنمة والتجارة في الغنائم، واستئجار الأجراء للغزو، والاشتراك في الغنمة، وعدم جواز إعطاء سهم لمن قدم بعد الفتح، وسهم ذوي القربى، والطعام في الغنمة، والنهي عن النهبة والمثلة، ومن أسلم عن شيء في يده فهو له، هديه في الأرض المغنومة، هديه في الأسرى، السابق ص ٥٩٨-٦٠٤.

(٤) وتشمل: أخذ الجزية، الطوائف التي تأخذ منها، الجزية غير مقدرة الجنس، الجزية من العرب، هل تؤخذ الجزية عن الصبي والمرأة، السابق ص ٦٠٥-٦١٠.

(٥) وتشمل: هل يسري نقض العهد من بعض على الجميع؟ من انضم إلى عقد صلح صار له حكم الأصل، من يسري عليهم العقد، السابق ص ٦١١-٦١٤. وأيضاً مختصر سيرة (٢) ص ٤٤٣-٤٦٢.

والخلاف في سقيفة، بني ساعدة في بداية مرحلة المصير^(١).

وقد شعر يذنبو أجله من سورة النصر. فأكثر الاستغفار. وعرف ذلك عمر بفراسته^(٢). وبدأ الرسول يشتكي. ذهب أولاً إلى أهل البقيع حيث الشهداء يوارون الثرى. وأمر بالاستغفار^(٣). فذهب مع مولاة يهتدون بها هم فيه لأن الفتن أقبلت تتوالى، والآخرة ستر من الأولى. وقد يكون ذلك من أثر الشاة المسمومة التي قدمها له يهودي^(٤).

وبما أنه بشر ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فليست وفاته مصيبة الأولين والآخرين مادام قد أتم رسالته ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. وقد نعي الرسول إلى نفسه فبكى بعد سماع آيات النهاية والنصر^(٥). وقد خير بين أن يبقى في الدنيا أو أن يرحل إلى الآخرة فأثر الرحيل حتى ينعم بحوار ربه حتى لو فارق بناته مثل فاطمة وأصحابه مثل أبي بكر. وزيارة البقيع كانت للسلام على الشهداء للحاق بهم. كان يود البقاء حتى يرى الفتوح وانتصارات الأمة. أعطي مفاتيح خزائن الأرض والسماء. وهو الأول على الحوض.

(١) البستي ج٢/ ٣٩٧-٤٠٩، الإشارة ص ٣٤٩-٣٦٠. يخلو زاد المعاد "من مرض النبي ووفاته"، الفصول ص ٢٥٩-٢٦٧، ألفية الرسالة ص ١٥٣-١٥٧، بهجة المحافل ص ٣٧١-٣٩٦، سيرة النبي ص ٣٨٦-٣٩٤، حياة محمد ص ٤٠٠-٤٠٩، نور البقيع ص ١٩٧-١٩٨، سيد الأنام ص ٣٤٩-٣٦٧، المغازي ص ٤٠٩-٤٢٠، مختصر سيرة (١) ص ١٦٧-١٦٨، مختصر سيرة الرسول (٢) ص ٤٦١-٤٦٥، السيرة النبوية ص ٢٨٥-٣٢٩، سيرة الرسول ص ٢٦٧-٢٧٠، السيرة النبوية ص ٤٠١-٤١٤، خاتم الأنبياء ص ٢٢٦-٢٣١، صحيح السيرة ص ٦٩١-٧٣٤، خير الوري ص ٧٧٠، الرحيق المختوم ٤٦٤-٤٧٢، محمد ص ٥١-٦١، رسول الحرية ص ٣٣٩-٣٥٤، شمائل النبي ص ٢١١-٢١٨.

(٢) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وفاة الحبيب ص ٩٤-٩٩.

(٣) «السلام عليكم يا أهل المقابر. لهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن تقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها. الآخرة شر من الأولى»، ابن هشام ج٢/ ٥٣٩، البستي ج٣/ ٣٩٧-٤١٠، وفاة الحبيب ص ١٠٠-١٠٧، السيرة النبوية ص ٢٨٩-٢٩٤.

(٤) وفاة الحبيب ص ١١٨-١٢٠ «إن هذه خبرتني أنها مسمومة»، «ما زالت من الأكلة التي أكلت بخير. فهذا أوان انقطاع أبيري»، «كفوا أيديكم فإن عضوا من أعضائها يخبرني أنها مسمومة»، بهجة المحافل ص ٣٧٣. «نعم إني أوعك كما يوعك رجل منكم»، بهجة المحافل ص ٣٧٣، مدة مرضه وما وقع فيه ووفاته التي هي مصيبة الأولين والآخرين، السيرة الحلبية ج٣/ ٤٨٤-٥١٨.

(٥) «مثل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، إنه قد نعت إلى نفسي»، السابق ج٢/ ٥٧٠-٥٧١. «ما من نبي يقبض إلى دفن تحت مضجعه الذي مات فيه»، النبي الأعظم ص ٦٥٢-٦٥٩.

ورجع من البقيع إلى منزل عائشة فوجدها ولديها وجع بالرأس. وكان هو الذي لديه وجع بالرأس. ولا يضرها أن تموت قبله فيقوم عليها ويصلي عليها ويدفنها^(١). فمزحت معه عائشة بأنه لا يضره أن يقوم الآن ويلف على نسائه ويعرس بهن. فتبسم الرسول. وعاد إليه الوجع وهو يدور على نسائه حتى اشتد عليه وهو في بيت ميمونة. فدعا نساءه واستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة^(٢). وقد رغب أبو بكر في تمريض الرسول ولكن الرسول أراد أن تمرضه أزواجه وبناته حتى لا يشتد الكرب عليهن، وأجر أبي بكر على الله^(٣). ومُترَض الرسول في بيت عائشة. واشتد المرض عليه. وطلب صب الماء عليه، سبع قرب من آبار شتى حتى يخرج إلى الناس فيعهد إليهم. وأشار إلى أن الله خير عبدا من عباده بين الدنيا وما عنده فاختر ما عند الله. ففهمها أبو بكر عليه. وقد يكون الرسول نفسه لما تكرر الشاهد في سياق آخر. وطلب سد الأبواب الثلاثة في المسجد إلا باب أبي بكر. فقد كان أفضل صاحب للرسول. ولو كان متخذاً خليلاً لكان أبا بكر^(٤). وأصر الرسول على أن يصلي أبو بكر بالناس خمس مرات دون عمر^(٥). ولما رأى أبو بكر الرسول وقد استرد عافيته استأذنه في المغادرة. فهذا يوم بنت خارجه من نسائه. ورقته عائشة^(٦). ودخلت فاطمة عليه فبكت ثم ضحكت. وقال الرسول لها «ليس على أهلك كرب بعد اليوم»، «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة». وأراد أن يكتب كتاباً لن يضل المسلمون بعده. فاكتمى عمر بالكتاب والسنة. وخشي أن يكون هذا الطلب من وجع الرسول، وخف الرسول من

(١) وهو إحساس عام بين الأصدقاء، وما قاله شوقي في رثاء حافظ.

قد كنت أوتر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء

(٢) ج٢/ ٥٤٠، وفاة الحبيب ص ١٠٨-١١١، بهجة المحافل ص ٣٧٢.

(٣) «يا أبا بكر إن لم تجعل أزواجي وبناتي علاجي ازدادت مصيبي عليهن عظيماً. وقد وقع أجرك على الله»، وفاة الحبيب ص ١٠٨، بهجة المحافل ص ٣٧٦-٣٧٥، صحيح السيرة ص ٦٩٣-٦٩٨.

(٤) «إني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صحبة إخواني حتى يجمع الله بيننا عنده»، ابن هشام ج٢/ ٥٤٥/ ٥٤٩، وفاة الحبيب ص ١٠٩-١١٠.

(٥) «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون»، ابن هشام ج٢/ ٥٤٧-٥٤٨، وفاة الحبيب ص ١١٥-١٢٠، «إن الله جعل قرة عيني في الصلاة»، السابق ص ١٢٤.

(٦) «هلموا أكتب لكم كتاباً بالآ تفضلوا بعده»، «إني يكتف أو لوح حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه»، «أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر»، وفاة الحبيب ص ١١١-١١٦.

مرضه قليلا. وقام وصلى بالناس واقتدى أبو بكر به. واستأذن أبو بكر بالخروج بعد تماثل النبي للشفاء^(١).

ورفض أن يأخذ دواء وضعه عمه العباس في فمه لأنه أتت به نساء من أرض وأشار بيده إلى الحبشة. فهو داء لا يأخذ الله به كل الناس إلا عمه. فقد أخذته ميمونة وهي صائمة^(٢). فهو من الشيطان أو من عمل النساء. وقد أسر العباس لعلي وهو خارج من عند الرسول في مرض أنه قد عرف الموت في وجه الرسول. فمن الأفضل الذهاب معا إليه لسؤاله عن هذا الأمر أي الخلافة هل هي فيهم أو في غيرهم حتى يطلبوا منه توضيح ذلك للناس. فرفض عليّ. فلو منعوا عن هذا الأمر فلن يأخذه أحد بعده. وهو إحساس بتحول النبوة إلى خلافة، والدين إلى دولة^(٣). ورفض الرسول أخذ عريش يكلم الناس منه^(٤). ويضاعف البلاء للأنبياء كما يضاعف لهم الأجر. فالنبي يتلى بالقمل ويقتله، وبالفقر فيستر نفسه بالعبادة. وفرح الأنبياء بالبلاء مثل فرحهم بالرخاء^(٥).

وتصدق الرسول بالدنانير التي لديه. فالأنبياء لا يتركون وراءهم من غنم الدنيا شيئا. لا يرثون ولا يُورثون^(٦). وأمر الرسول وهو في مرضه بإنفاذ بعثة أسامة بالرغم من أنه حدث السن. وتأمر على كبار الصحابة. فهو خليف للأمانة. والطعن فيه كما

(١) السابق ص ١٢٢-١٢٤/١٢٧، بهجة المحافل ص ٣٧٨، وفاة الحبيب ص ١١١-١١٣، السيرة النبوية ص ٢٩٤-٢٩٩.

(٢) ابن هشام ج ٢/٥٤٦-٥٤٧ إنها من الشيطان. ولم يكن الله ليلسطه عليّ، ولا ليرمني بها، ولكن هذا عمل النساء. لا يبقى في البيت أحد الألد إلا عمي العباس فإن يميني لا تناله، وفاة الحبيب ص ١٠٥.

(٣) السابق ج ٢/٥٤٩.

(٤) «لا أزال بين أظهرهم يطنون عقيي وينازعونني ردائي حتى يكون الله هو الذي يخرجني منهم»، بهجة المحافل ص ٣٧٢.

(٥) «إننا معشر الأنبياء يُضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر. وإن كان النبي من الأنبياء ليتلى بالقمل حتى يقتله. وإن النبي من الأنبياء ليتلى بالفقر حتى يأخذ العباءة فيجوبها. وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء»، وفاة الحبيب ص ١٠٧، بهجة المحافل ص ٣٧٤.

(٦) وفاة الحبيب ص ١٢١ «يا عائشة ابني بالذهب إلى عليّ»، «لا تقسم ورثتي ديناراً. ما تركت بعد نفقة نسائي ومثونة عاملي فهو صدقة»، السابق ص ١٧٨.

حدث الطعن في أبيه^(١). في حين استأذن أسامة أن يبقى في المدينة^(٢). وأوصى الرسول المهاجرين بالأنصار. فالناس تزيد، والأنصار لا يزدون. وقد كانوا موضع ثقة الرسول وسره. فالإحسان إلى محسنهم والتجاوز في مسيئهم^(٣). وحذر الرسول الأمة من الفتنة^(٤). وكل بعمله طبقا لقانون الاستحقاق. ولم يخش الرسول على المسلمين الشرك بل المنافسة في الدنيا^(٥). كما عاهد الرسول أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان. فوحدة الله من وحدة الأمة^(٦). ووحدة الأمة من وحدة الدين. لذلك كانت أحد عوامل تفريق الأمة تقسيمها إلى طوائف ومذاهب في لبنان والعراق والخليج والسودان والصومال ومصر والمغرب العربي، وتوحيد اليهود في أمة واحدة بالرغم من طوائفهم ومللهم ونحلهم، سفارديم وأشكنازي، واحتلال فلسطين. وقد أوحى الرسول عند موته بثلاثة أشياء. قسمة للرهاويين، وقسمة للداريين، وقسمة للسبائين وللأشعرين. وأوصى بتزويد بعثة أسامة ابن زيد، وأن لا يترك بجزيرة العرب دينان^(٧). وذلك يعني أن الوصية تشمل ثلاثة موضوعات: قسمة الفيء، استمرار الفتح وبعثة البعوث، توحيد شبه جزيرة العرب من خلال الدين.

وقد سئل الرسول أيهما يختار البقاء في الدنيا أم الانتقال إلى الزفير الأعلى والعيش في الجنة. فاختار الثانية منذ زيارته للبقيع^(٨). وتكرر الأمر مرة ثانية بعد سؤال الرسول

(١) «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة. فلعمري لئن قلت في إمارته فلقد قلت في إماره أبيه من قبله. وأنه خليق للإمارة. وإن كان أبوه خليقا لها»، ابن هشام ج٢/٥٤٦، البستي ج٢/٤٢٦-٤٢٧، ابن خلدون ص ٢٠٥.

(٢) وفاة الحبيب ص ١٢٨، «أغد على بركة الله والنصر والعافية ثم أغر حيث أمرتك أن تغير»، بهجة المحافل ص ٣٧١، حياة محمد ص ٤٠٢، مختصر سيرة (١) ص ١٦٦، محمد ص ٨٣-١٠٢.

(٣) «يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا فإن الناس يزدون، وأن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عييتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»، ابن هشام ج٢/٥٤٦.

(٤) وفاة الحبيب ص ١٢٥-١٢٦، «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله اعلا لما عند الله فأني لا أغن عنكما من الله شيئا»، بهجة المحافل ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٥) «وأنني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»، بهجة المحافل ص ٣٧٤.

(٦) «لا يترك بجزيرة العرب دينان»، ج٢/٥٥٨، ابن خلدون ص ١٥٩.

(٧) ابن هشام ج٢/٢٩٩.

(٨) «إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة...»

قبيل الوفاة بعد أن (حل رجل من آل بكر به عليه. فوافق الرسول. أمضغته عائشة السواك حتى تليته، من فم إلى فم، ومن ريق إلى ريق آخر. ثم ثقل في حجرها وقال «بل إلى الرفيق الأعلى من الجنة». فمات الرسول بين سحرها ونحرها وفي دولتها. لم تظلم أحدا، ولم تأخذ حق أحد. فمن سنّها وحدثها سنّها أن الرسول قبض وهو في حجرها. ثم وضعت رأسه على وسادة. وقامت تضرب صدرها ووجهها مع النساء. فالمرأة هي المرأة. وصاحت فاطمة «واكرباه» وكان الرسول قد أخبرها أنه لا كرب عليه بعد اليوم^(١). وقد أعطي الرسول مع النبوة فضيلة الشهادة. فهازال الوجع يأتيه من الطعام المسموم يوم خير^(٢). وقد مرض مثل باقي البشر^(٣). ووقعت عند احتضاره عدة آيات^(٤). ومنها تخيره بين الحياة والموت، ويتدخل الخيال في وصف ما وقع للنبي عند خروج روحه الشريفة^(٥). وكلها روايات دون أقوال مباشرة. وذلك مثل إخبار أهل الكتاب بوفاته كدليل على التواصل بين الأنبياء^(٦). وأيضا ما وقع في غسله من الآيات^(٧).

ولا يهم متى توفي ولا كم عمره، فهو مبلغ الرسالة^(٨). فليست السيرة سجلا مدنيا ولا طلب شهادة ميلاد لوظيفة. ولا أحد يقيم العزاء له في يوم معلوم كما تفعل الشيعة في الحسين. والمولد النبوي بدعة، وما يحيط به من عرائس المولد فنون شعبية. وأحيانا تجمل بعض السير في النهاية شريطا عاما لحياة الرسول وأهم ما وقع فيها من حوادث منذ الولادة حتى الوفاة^(٩). وأحيانا تظهر بعض المغارات في التواريخ. فما من نبي يأتي

لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ابن هشام جـ ١/ ٥٣٩/ ٥٤٩، بهجة المحافل ص ٣٨٠، محمد ص ٤٤-٧٢/ ٧٠-٧٢.

(١) وفاة الحبيب ص ١٣٦، بهجة المحافل ص ٣٨٠، السيرة النبوية ص ٢٩٩-٣٠٢.

(٢) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٧٤-٥٧٦.

(٣) السابق ج ٢/ ٥٧٦-٥٧٩.

(٤) السابق ج ٢/ ٥٧٩-٦٨٢.

(٥) السابق ج ٢/ ٥٨٣.

(٦) السابق ج ٢/ ٥٨٤-٥٨٦.

(٧) السابق ج ٢/ ٥٨٦-٥٨٨.

(٨) السيرة النبوية ص ٣١٠-٣١٣، صحيح الرسالة ص ٧٣٠، محمد ص ١٠٣-١٠٥، السيرة الحلبية ج ٣/ ٣٨٩-٣٩٠، شمائل النبي ص ٢٠٩-٢١١.

(٩) بيان ما وقع من الحوادث من عام ولادته إلى زمان وفاته على سبيل الإجمال وبيان زمن ولادته عاما ويوما وشهرا ومكانا، السيرة الحلبية ص ٥١٩-٥٢٥.

لاحقا إلا ويعيش نصف عمر الذي قبله، فأعمار الأنبياء تقل تدريجيا من السابقين إلى اللاحقين. فإذا كان عيسى قد عُمّر أربعين عاما فكيف يأتي بعده الرسول وقد عاش ثلاثا وستين عاما؟^(١) وقد أخبر بيوم وفاته الاثنين وهو اليوم الذي أوحى إليه فيه وخروجه مهاجرا ودخوله المدينة، وفتح مكة^(٢).

وتم تجهيز الرسول ودفنه. وحضر الغسل عليّ بناء على مناشدة الناس. فأسنده على صدره. والعباس والفضل يقبلونه معه. وأسامة وشقران يصبان الماء عليه. وعليّ يغسله وعليه قميصه. ولم ير عورة الرسول. غسلوه وعليه ثيابه. يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه، والقميص تحت أيديهم. وكفن في ثلاثة أثواب، أدرج فيها إدراجا. وحفروا للرسول قبرا. ولحد الرسول على طريقة أهل المدينة وليس على طريقة أهل مكة. ويتحول موت الرسول إلى مظاهرة اجتماعية في غسله ودفنه والصلاة عليه. أفرادا وجماعات، بإمام أو بغير إمام^(٣). ونظرا لاستحالة الخبرة والمشاهدة في ذلك فقام الخيال بالتصور مثل غسل الملائكة غير المرئيين له. وقد طلب النبي بعد غسله وتحنيطه وتكفينه وضعه على سريريه على شفير قبره والخروج من عنده ساعة حتى يصلي عليه جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود من الملائكة، ثم يصلي عليه أهل بيته. ثم يدخلون عليه بعد ذلك أفرادا وجماعات من أهله والملائكة التي ترى الناس ولا تراهم الناس، وقد تأخر دفنه أياما. ودفن في بيته حيث قبض. ووقعت عدة آيات كلها روايات دون أقوال مباشرة إلا باسترجاع ما قيل من قبل، قراءة للحاضر في الماضي. وطلب فرش قطيفة في لحده لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء^(٤). واختلف المسلمون في مكان دفنه، في مسجده أو مع أصحابه. ولما قال الرسول «ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»

(١) «يعيش كل نبي نصف عمر الذي قبله، وإن عيسى مكث في قومه أربعين عاما»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٧٢، سرائر الرسول ص ٣٤٤-٣٦٧.

(٢) السابق حـ٢/ ٥٧٣.

(٣) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٨٨-٥٩٠، رجال من أهل بيتي، الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة برونكم من حيث لا ترونهم، ص ٥٨٨-٥٨٩.

(٤) «ما مات نبي إلا دفن حيث يقبض»، «أفد شوالي قطفتي في لحدي فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء»، السابق حـ٢/ ٥٩٠-٥٩٣/ ٥٩٥، «من كلمة روح القدس لم يؤذن للأرض أن تأكل من لحمه»، «الأنبياء لا تبليها الأرض، ولا تأكل السباع»، ص ٥٩٦، «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»، ص ٥٩٧.

حُفِرَ للرسول تحت فراشه، وصلى الناس عليه أفواجا، رجالا ثم نساء ثم صبيانا دون أن يؤم أحد. ودفن في جوف الليل. وتولى إنزاله إلى القبر علي والفضل بن عباس وقثم ابن عباس وشقران موالي الرسول. وطلب أوس بن خولي حظه من الرسول فسمح له علي بالنزول، ووضع شقران قطيفة كان يلبسها الرسول معه في القبر حتى لا يلبسها أحد بعده. وقد أسقط المغيرة بن شعبه خاتمه عمدا في القبر حتى يعود ويسترده ويكون آخر من رأى الرسول ومسه وقيل إنه قثم بن عباس. وقد ذكرتهم عائشة بقول الرسول «قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وهو المقام الذي قال فيه الرسول لعمر «عسى أن يقوم مقاما لا تدمه»^(١). وأخذ قبور الأنبياء مساجد بداية التقديس، والخلط بين عبادة الله وتعظيم الرسول، وبداية الدين الشعبي «إمتى أزورك يا نبي؟» وفي الدفن، الشق عند أهل الكتاب واللحد عند المسلمين^(٢).

وتمت الصلاة عليه فرادى^(٣). وهناك ملك قائم على قبره يُسمع الرسول ويبلغه بمن يصلي عليه حتى تقوم الساعة وكأن الرسول غير قادر على سماع ذلك مباشرة^(٤). ومنذ هذه اللحظة بدأ تفخيم الرسول وتعظيمه وجعله أعلى من البشر بتنصيب ملاك على قبره ليبلغه من يصلي عليه كما يحدث في العزاء. وفي رواية أخرى أن الرسول يسمع القريب ويبلغ بالبعيد وكأن الرسول غير قادر على سماع البعيد مثل سماع القريب^(٥).

ويسر الرسول من كثرة الصلاة عليه يوم الجمعة لأنه يوم مشهود من الملائكة.

(١) ابن هشام ج ٢/ ٥٥٨-٥٥٥، الإشارة ص ٣٥٢-٣٥٥، وفاة الحبيب ص ١٥٤-١٥٥ «لن يقبر نبي إلا حيث يموت»، في تاريخ وفاته ودفنه، بهجة المحافل ص ٣٨٨-٣٨٩ «ما دفن نبي إلا حيث يموت»، ص ٣٨٩، حياة محمد ص ٤١٠-٤١٨، مختصر سيرة (٢) ص ٤٧٠، السيرة النبوية ص ٣١٤-٣١٩، صحيح السيرة ص ٧٢٣-٧٢٤، محمد ص ٧٣-١١٨.

(٢) «اللحد لنا والشق لغيرنا (أهل الكتاب)»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٣٧-٤٣٨.

(٣) وفاة الحبيب ص ١٥٠-١٥٣.

(٤) «إن الله عز وجل أعطى ملكا من الملائكة أسراع الخلاق. فهو قائم على قبري حتى تقوم الساعة. فليس لأحد من أمتي يصلي علي صلاة إلا قال: يا أحمد فلان بن فلان باسمه واسم أبيه صلى عليك بكذا وكذا، وضمن لي الرب أنه من صلى عليك صلاة صلى الله عليه عشرين. وإن زاده زاده الله»، السابق ص ١٨٨.

(٥) «من صلى علي عند قبري سمعته. ومن صلى علي من بعيد أعلمته»، السابق ص ١٩٠-١٩١.

فالرسول يسمع صوت أي إنسان يصلي عليه في أي مكان دون قرب أو بعد في المسافة^(١). والملائكة سيأخون يبلغون عن أمته السلام وكأن الملاك لا يسمع سلام المؤمنين في أي مكان ويحتاج إلى التحرك والانتقال^(٢). والرسول يرد السلام عليهم^(٣). هنا يتحول الرسول من كونه بشرا إلى أن يصبح مثل الملاك قادرا على الحديث معهم ورؤيتهم.

وتصف لحظة الوفاة أحوال الصحابة بعد علمهم بالوفاة، صدمة عمر، ورزاة أبي بكر، ومبايعته، وردة العرب بعد وفاته^(٤). ومن هو أحدث الناس بالرسول، ومن أنزله إلى قبره، وكيفية إدخاله ووضع. واعتبار موت النبي من أعظم المصائب. تشخيص للرسالة في الرسول. وفاته مصيبة الأولين والآخرين. وكيف يكون موت الرسول أعظم مصائب المسلمين وبلاويهم؟ وهل هو خالد إلى الأبد معهم؟ الموت قدر ونعمة من أجل أن يعمل الإنسان ويحصل على الخلود بجهده^(٥). فقد استمرت الفتوحات بعده. وانتشر الإسلام الآن في جميع أنحاء العالم. وبلغ المسلمون خمس سكان المعمورة، ما يفوق المليار. وما زال الإسلام يزحف في قلب البلاد المسيحية حتى خلق في أوروبا نزعة معادية للإسلام عصبية ورسولا ويشرا وآثارا^(٦).

ولم يصدق عمر أن الرسول قد توفي. وقال إنه زعم المنافقين. بل غادر إلى الله كما غادر موسى أربعين ليلة ثم يعود بعد أن ظن الناس أنه مات. وسيقطع أيدي رجال وأرجل من يزعم أن الرسول قد مات. فجاء أبو بكر بعد أن دخل على الرسول وقبلة وأنه ذاق الموت الذي كتبه الله على الناس جميعا. وخرج عمر يكلم الناس ولم ينصت. فكلم أبو بكر الناس فاستمعوا إليه، وتركوا عمر. وقال قولته الشهيرة «من كان يعبد محمدا

(١) «أكثرُوا الصلاة على يوم الجمعة فإنه يوم مشهود، تشهد الملائكة. ليس من عبد يصلي عليّ إلا بلغني صوته حيث كان»، وفاة الحبيب ص ١٩١.

(٢) «إن لله وملائكته سيّاحين، يبلغوني عن أمتي السلام»، السابق ص ١٩٢.

(٣) «نعم، وأرد عليهم»، السابق ص ١٩٣.

(٤) وفاة الحبيب ص ١٣٨-١٤٤/١٥٨-١٦٠/١٦٣-١٦٤، عيون الأثر ص ٤٤٥-٤٥٣.

(٥) «حياتي خير لكم، وموتي خير لكم»، الخصائص الكبرى ح ٥٨٩/٢، «إذا ذكر أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب».

(٦) مثل تشويه عقائد الإسلام في الاستشراق، وصورة الرسول في الرسول الدائمية، والحد من هجرات المسلمين وقانون منع بناء المآذن في سويسرا.

فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت^(١). ثم تلا آية تفيد نفس المعنى. فوقع عمر على الأرض وكأنه لم يسمع هذه الآية من قبل. وعرف أن الرسول قد مات^(٢). كما ذكر عمر الناس في خطبه له بالمدينة بطلب الرسول عدم إطرائه كما أطرته النصراري عيسى ابن مريم^(٣). وقد حمل عمر على أن يقول مقالة آية أن هذه الأمة وسط تشهد على الناس ويشهد الرسول عليها^(٤).

وحياة الرسول خير للأمة، ومماته خير لها كذلك^(٥). فحياته خير لنزول الوحي من السماء وإخبارهم بالحلال والحرام. وموته خير لعرض أعمال الأمة عليه كل خميس. فخيرها حمد الله تشيؤها يستدعي المغفرة^(٦). وهنا يأخذ الرسول مكان الله في عرض أعمال المسلمين عليه، والرسول نفسه لا يملك من أمره شيئاً.

وكثرت القصائد في وفاته وورثاته مما يشير إلى بداية التقديس للشخص، ومن الرجال والنساء، شعراء وصحابة وأقرباء وهيج أذان بلال قلوب المسلمين^(٧). ويبدأ تعظيم الرسول وإعطاء الأولوية للرسول على الرسالة برثائه ومدحه بعد وفاته^(٨). ولم يكن يجرؤ أحد أن يفعل ذلك في حياته إلا على سبيل الجدل مع الخصوم كما كان يفعل حسان ابن ثابت شاعر الرسول، ومدح حسان للرسول رداً على هجاء المشركين له وليس بداية^(٩).

(١) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، ابن هشام ج ٢/ ٥٥٠-٥٥١، بهجة المحافل ص ٣٨١-٣٨٨.

(٢) لا تطروني كما أطروني عيسى ابن مريم وقولوا عبد الله ورسوله، ابن هشام ج ٢/ ٥٥٢.
(٣) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، السابق ج ٢/ ٥٥٥.

(٤) «حياتي خير لكم، ووفاتي خير لكم»، وفاة الحبيب ص ١٨٧.
(٥) «حياتي خير لكم. ينزل علي الوحي من السماء فأخبركم بما يحل لكم وما يحرم عليكم. وموتي خير لكم تُعرض علي أعمالكم كل خميس فما كان حسن حمدت الله عز وجل عليه. وما كان من ذنب استوهبتم لكم ذنوبكم»، السابق ص ١٨٧.

(٦) وفاة الحبيب ص ٩٢-٩٤، رثاء عمر وأبي بكر، وفاطمة وكعب بن مالك وأبي ذؤيب، وعائشة وأروى وهند وأبي سفيان وحسان وصفية، السابق ص ١٩٥-١٩٦/ ١٧٢.

(٧) رثاء النبي، السيرة النبوية ص ٣٢٣-٣٢٥.

(٨) سيرة النبي ج ٢/ ٢٥٤-٢٥٥.

وبدأت المعجزات والكرامات والمناقب منذ وفاته. فمن مناقب عائشة أن الرسول توفي في بيتها وفي يومها، بين سحرها ونحرها، جمع بين ريقه وريقها عندما لينت له السواك. وهذا شيء طبيعي أن يتوفى الرسول عند إحدى أزواجه، كما دعت له بالشفاء^(١). ولم تنزل المعجزات والآيات تظهر حتى وفاة الرسول. فوفاته ليست مثل وفاة الآخرين. يتميز بخصائص^(٢). يظن المبالغون أنه من آخرهم وفاة مع أنه من أولهم^(٣). وقد تظهر وفاة الرسول وسط الشئال. أما نزول جبريل للسلام عليه وتوديعه لأنه لم ينزل إلى الأرض بعد اليوم والحوار بينه وبين الرسول يعبر عن غم الرسول وكربه فإنه لا يتفق مع شجاعة الأنبياء وسرورهم بلقاء ربهم بعد أن أدوا الرسالة وبلغوا الأمانة. وقد نزل جبريل ثلاث مرات والرسول يكرر له نفس العبارة. وفي المرة الثالثة أحضر معه ملكا ثانيا، إسماعيل يسكن الهواء ولم يصعد السماء قط أو يهبط إلى الأرض منذ أن كانت على سبعين ألف ملك. وكل منهم على سبعين ألف ملك. واستأذن عليه ملك الموت الذي لا يستأذن على أحد. فأذن له الرسول للقيام بواجبه^(٤). وهي رواية بها كثير من الخيال وقليل من الواقع. وكاتب السيرة نفسه يشكك في صحة الحديث. استمرت الآيات تقع بعد وفاة النبي في غزوات الصحابة^(٥). وكلها روايات دون أقوال مباشرة. وقد تقع لفرد أو تروى كقصة بين اثنين. وقد تكون دعاء بالاستسقاء، وإجابة الحاجات. وقد تكون حادثة غير مشخصة مثل انتقام الله عن أذى عثمان، وقد تقع لرجل أو امرأة على حد سواء. وتدخل فيها الحيات حتى الكعبة وهي أحد مصادر الخطر في مكة الصحراوية. والآيات مازالت مستمرة حتى الآن مثل آياته في حصى الجمار كما يصور الخيال الشعبي.

(١) السابق، ص ١٢٨/١٣٨.

(٢) الخصائص الكبرى ٢/٥٦٩-٥٩٩.

(٣) تزعمون أبي من آخركم وفاة إلا وأني من أولكم وفاة وتنبهون أفنادا (جماعات متفرقة)، يهلك بعضكم بعضا، ص ٥٦٩، سيرة النبي ٢/١٣٦-١٤٩.

(٤) لأجدي يا جبريل مغموما، وأخبرني يا جبريل مكروبا، السابق ص ١٣١-١٣٥.

(٥) كرامات أصحابه مثل: العلاء بن الحضرمي، سعيد بن أبي وقاص، أبو مسلم الرائي، خالد بن الوليد، فضلة مع سعد، جرير وأبو عبيدة بن الجراح، عمرو بن العاص وعظيم من انتهاء الروم، العباسي، أنس، سارية وعمر، دعوة حبيب بن مسلمة، أبو طلحة وحفص جسده بعد موته، سعد وامرأة تزوجها، الربيع بنت معوذ وحفظ الله لها ولعمرة بنت عبد الرحمن، وابنة جابر والحية التي طافت بالكعبة، عبد الله بن عمرو والحية الرقطاء، الخصائص الكبرى ٢/٦٠٠-٦٠٦.

وحفت الملائكة بقبره كما فعلوا في الأنبياء السابقين، سبعون ألفا من الملائكة حتى المساء ورجعوا. وهبط سبعون ألفا آخرون، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ثم يعودون في المساء. ويهبط بدلا عنهم سبعون ألفا آخرون، سبعون ألفا بالنهار، وسبعون ألفا بالليل. فإذا انشقت عنه الأرض خرج سبعون ألفا يزفون^(١). وقد عزت الملائكة فيه قياسا على ما يحدث في الأرض، كما عزى الأنبياء السابقين مثل الخضر^(٢). وقد حرم الرسول الصلاة على قبره وهو ما يحدث الآن مثل اليهود والنصارى الذين اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد.

وهو يحيا بالقبر ويصلي فيه. وُكل ملك بقبره لتبليغه السلام عليه ورد السلام وكان الرسول الحي غير قادر على سماع ذلك بنفسه والرد عليه^(٣). وينزل عيسى أيضا للصلاة والسلام على قبره. وقد يكون رد الروح إلى النبي دائما أو كل مرة يصلي عليه فيه أحد لرد السلام وإذا صليت عليه الملايين فكيف تعود الروح ملايين المرات؟^(٤).

وتعزية الخضر أيضا رواية عند المؤرخين عن علي أنه سمع صوتا بتعزية الخضر^(٥). تركيب الرواية يدل على وضعها لأنها حوار مصطنع بين علي ومن معه. يبدأ علي بالسؤال ثم يبادر بالإجابة. وقد يأتي موضوع وفاته بعد شأئله، وفاته، وزيارة قبره ومسجده، وتفضيله في الآخرة^(٦). وتضاف فيه بعض الروايات وأخرى واهية^(٧). وفي

(١) السابق ص ١٨٥-١٨٦، محمد ص ١١٨-١٤٢. «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»، شئائل الرسول ص ٢٩٠.

(٢) الخصائص الكبرى ح ٢/ ٥٩٣-٥٩٥، «سيعزي الناس بعضهم بعضا من بعدي التعزية بي»، ص ٥٩٥، «لعم الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ص ٥٩٥.

(٣) «من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائيا بلغته»، ص ٥٩٦، «إن لله ملكا أعطاه أسماء الخلائق قائم على قبري، فإما من أحد يصلي علي صلاة إلا أبلغنيها»، «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يلغوني عن أمتي السلام»، «صلوا علي وسلموا حيثما كنتم فسيبلغني سلامكم وصلاتكم»، ص ٥٩٦.

(٤) «ما من أحد يسلم علي إلا رده الله على روحي حتى أرد عليه السلام»، السابق ح ٢/ ٥٩٧.

(٥) وفاة الحبيب ص ١٣٥-١٣٧.

(٦) النسخ المحمدية ح ٤/ ٥١١-٦٩٦.

(٧) السابق ح ٤/ ٥٣٢/ ٥٣٤.

وفاته تتكرر نفس الوقائع^(١). وفي زيارة قبره ومسجده، تثار نفس القضايا^(٢). وفي تفضيله في الآخرة يعود محمد الكوني الذي يضم البداية والنهاية، الخلق والبعث^(٣). وبه بعض الأحاديث الموضوعة. وكثير منها يعارض قانون الاستحقاق.

٩- جوهر الرسالة

وبعد هذه الحياة الحافلة يمكن إجمال جوهر الرسالة التي بلغها الرسول في عدة عناصر، تزيد أو تنقص. فالرسول وسيلة، والرسالة هي الغاية.

أ- الدين الفطري

وتظهر عناصر الدين الفطري. ويستعمل المنهج السقراطي في استخراج الحقائق من وعي السائل. فقد عرف كل حقائق الإسلام وموافقة الرسول عليها «اللهم نعم» أربع مرات^(٤). وكل شعائر الإسلام على الفطرة مثل الأذان الذي اقترحه بلال تميزا عن النصراني واليهود، وشرب اللبن في الإسراء والمعراج، وليس الخمر اختيار فطري^(٥). لذلك لا يأتي كل شيء بالتعليم^(٦). ومن مؤشرات الدين الفطري أولوية استفتاء القلب

(١) السابق حـ ٤/ ٥١١-٥٦٩، بداية الإعلان عنه بنزول سورة النصر، ووداع الأحياء والأموات، وبيان فضل أبي بكر، وابتداء مرضه في بيت عائشة، ومسارحته لفاطمة، ونبيه عن إعطاء الدواء، والكتاب الذي لم يكتب، وصلاة أبي بكر بالناس، والوصية للأَنْصار، واختياره الرفيق الأعلى، وسكرات الموت، ونظرة وداع للناس أثناء صلاتهم.

(٢) مثل الترغيب في الزيارة، زيارة المساجد الثلاثة، حكم نذر الزيارة، وآدابها، والسلام عليه، والدعاء بعدها، السابق حـ ٤/ ٥٧٠-٦١٦.

(٣) «أول من تنشق الأرض عنه، أول من يكسى يوم القيامة، نشر لواء الحمد، الخوض، الشفاعة والمقام المحمود، الوقف، الحساب والجزاء، الجواز على الصراط، أول مع أمته من يدخل الجنة، أساء الجنة وأبوأها، تفضيله بالكوثر والوسيلة، حبة وروية الله في الآخرة»، السابق حـ ٤/ ٦١٧-٦٩٦.

(٤) سيرة النبي جـ ٢/ ٢٣٣، جـ ٧/ ١٣٣-١٣٤، المواهب اللدنية جـ ٢/ ٦١٢.

(٥) سيرة النبي جـ ٢/ ٧٤، المواهب اللدنية جـ ٢/ ١٣٢.

(٦) «قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراء»، سيرة النبي جـ ٤/ ٣٥٧.

على استفتاء الناس^(١). فبعض القيم نظرية في النفس مثل الحلم والأناة^(٢). بل إن كل القيم الإسلامية قيم فطرية. العقائد والعبادات من النبوة أو الزهد في الدنيا أيضا من النبوة، ولكن الشكر والصبر والرضا والصدق وعدم الشاة فطرية. واللبن ماء الصحراء، وطعام البدو أمر فطري^(٣).

ويظهر دين الفطرة صراحة في الآيات والأحاديث: فكل شيء في النفس، صوت الضمير. الإيمان فطري^(٤). كل الفضائل فطرية مثل الحياء وأكدها القرآن^(٥). وقد تكرر لفظ الفطرة في القرآن عدة مرات سواء فطرة الإنسان أم فطرة الطبيعة. وكلاهما فطرة الخلق^(٦) والآداب والأذواق فطرية^(٧). و«الصبغة» لفظ مرادف تعني الخلق.

الدين الفطري سابق على دين الوحي على الرغم من أن الدعاة يصورون العلاقة بين الجاهلية والإسلام علاقة أسود بأبيض، ظلام بنور، ويؤكدون على الانقطاع أكثر مما يؤكدون على التواصل، بالرغم من أن «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»^(٨). وكثير من التشريعات تدل على التواصل مع التعديل والتهديب والتخفيف. كان الزنا

(١) «استفت قلبك، واستفت نفسك... البر ما اطمأنت إليه النفس أولا ثم حاك في النفس، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك»، محمد رسول الله جد ٥٩/٢.

(٢) «إن فيك خصلتين يجيها الله ورسوله، الحلم والأناة... الله جملك عليهما»، السابق جد ٦١٣/٢.

(٣) «الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشاة بالأعداء»، السابق جد ٦٢٠/٢، المواهب اللدنية جد ٤٦/٣-٤٧.

(٤) «فَالْحَمْدُ فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»، «وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ»، «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ»، «استفت قلبك واستفت نفسك. البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس. الإثم ما حاك في القلب، وتردد في النفس وإن أفتاك الناس»، سيرة النبي جد ٣٢-٣٣.

(٥) «إذا سرتك حسنتك وساءتكَ سيئتكَ فأنت مؤمن»، «من سرتة حسنته وساءتة سيئته فهو مؤمن»، «من عمل سيئة فكرها حين يعمل، وعمل حسنة فسر فهو مؤمن»، السابق جد ٣٥، «ستبقى أمتي على الفطرة...»، السابق جد ٢٢٣/٢٢٥.

(٦) «ورد اللفظ ست عشرة مرة منها ما يجمع بين الاثنين مثل ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، السابق جد ٤٠-٤١ ورد لفظ «صبغة» مرتين ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

(٧) مثل قص الشعر والأظافر وخلق العانة، سيرة النبي جد ٣٩٢.

(٨) الليل حالك الظلام، مجوسية الفرس، مسيحية الروم، اليهود، سيرة النبي جد ١٥١-١٨٢.

علنا في الجاهلية فأصبح في حاجة إلى شهود في الشريعة كي يوقع الحد^(١). ومن أسس الدين الفطري مصادر دين الوحي في الطبيعة البشرية قبل الإسلام ونزول القرآن. فليست الجاهلية كلها جاهلية، هناك أخلاق الجاهلية، وحلف الفضول، والطبيعة العربية، تبين عناصر التواصل بين دين الطبيعة ودين الوحي^(٢). فما يتم الانقطاع معه الفخر في الأحساب والأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة. وكان عمر من أصحاب هذا الدين الفطري، فقد كان يدرك الوحي بعقله وبإحساسه بالواقع وهما عنصرا الفطرة^(٣). ومن علامات الدين الفطري الاعتدال، وعدم التطرف واستيفاء كل عنصر من عناصره، العقل والواقع، البداهة والمصلحة. وتلك هي الخنيفة السمحة، دين إبراهيم. ولا يعني التوسط ما يوظف حاليا ضد جماعات الرفض الإسلامية، واتهامها بالتطرف لغاية سياسية. فقد كان الرسول أحيانا يرفض التوسط بين الحق والباطل في العبارة الشهيرة أنه لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره على أن يترك هذا الأمر أو يهلك دونه ما تركه. وكذلك التوسط بين الله من ناحية واللات والعزى من ناحية أخرى في رواية الآيات الشيطانية وحادثة الغرانيق، وهو ما أكدته سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...﴾^(٤).

لا يحتاج الدين الحق إلى آية كبرى فالبداهة العقلية والوجدانية أساس الدين الطبيعي^(٥). الرسالة لها غايتها في ذاتها دون تدخل عوامل خارجية، والقرآن صريح في ذلك. وإنكار الأنبياء سنة في التاريخ مهما أوتي للشعوب من آيات، تفجير الينابيع

(١) السابق ج٤/ ٢٣٣/ ٢٤٣.

(٢) «أربع من الجاهلية لا يتركن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، محمد رسول الله، ابن هشام ج٢/ ١٠٠.

(٣) «إيه يا بن الخطاب. فو الله ما لتيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك»، «لقد كان قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»، «لقد كان فيمن كان قبلكم يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء. فإن يكن في أمتي أحد منهم فعمر»، سيرة النبي ص ٣٢٨.

(٤) «خير الأمور أوسطها»، «بعثت بالخنيفة السمحة»، هجة المحافل ص ٥٠٣/ ٥٣٢. «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق... فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»، ص ٥٤٥.

(٥) محمد، الرسالة والرسول ص ٣٣-٣٧، «وأما المعجزات فلا حجة لها إلا لمن شهد شهود العيان»، السابق ص ٣٣.

من الأرض أو إبراز جنات من نخيل وأعناب وشق الأنهار خلالها أو إسقاط أمطار من السماء أو حضور الله والملائكة أو تقديم بيت من زخرف أو الرقي إلى السماء أو إنزال كتاب. والرسول مجرد بشر لا يستطيع أن يفعل كل ما يطلبونه^(١). محمد رسول قد خلت من قبله الرسل. والرسالة باقية بعده وليست مرتبطة به^(٢). أتم رسالته. وأكمل دينه، وحقق نعمته، وتركها في أيدي الناس^(٣). وتظهر في السيرة عناصر الدين الطبيعي الذي يأتي الوحي للتأكيد والتأسيس عليه ومنها النفور من عبادة الأصنام^(٤). ومن ثم لا حاجة لتدخل جبريل للإخبار بما تستطيع الفترة الوصول إليه^(٥). وحرمة المزايدات والحكم على التجارة فطرية وإن صدقها الوحي^(٦). وقد يأتي الدعاء طبعيا طبقا لدين الفطرة كما استحسّن الرسول دعاء على حين مرض^(٧). وكما يتجلى الدين الفطري في رفض الرسول قتل أصحابه لأنه أمر بديهي لا يختلف عليه العرب^(٨).

(١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ. وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾. ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَعِ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرَؤُهُ قُلٌ سَبِيحَانَ رَبِّهِ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بُشْرًا رَسُولًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُحُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَرْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاءَ رَسُولًا. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، السابق ص ٧٨-٧٩.

(٢) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، السابق ص ٨٠.

(٣) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، السابق ص ٨٢.

(٤) قال الرسول قبل أن يأتي الوحي: لا تسألني باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت بغضها شيئا قط، محمد رسول الله ج ١/ ١٣٣.

(٥) السابق ج ١/ ١٨٠.

(٦) «يا جبريل أي البلدان أشرف؟ ... أسواقها»، «لا يبيع بعضكم على بيع أخيه»، «التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى وبر وصدق»، «إن الشيطان والإثم يحضران السوق»، «إن هذه السوق يخالطها اللغو والحلف فشوبه بالصدقة»، السابق ص ٢٥٥ # ٢٥٩.

(٧) قال علي «اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخرا فاشفني، وإن كان بلاء فصبرني»، وأعاده على مسمع النبي بناء على طلبه، السيرة الحلبية، ج ٣/ ٣٩٥.

(٨) معجز محمد ج ٢/ ٣٠٧.

ومع ذلك، هناك شواهد على الدين الطبيعي لم يتم استثمارها في السيرة التي هي تأكيد له. فالرسول لم يحلف باللات والعزى حتى قبل البعثة^(١). ولولا عهد القوم بالجاهلية لهدم الكعبة حتى لا تكون من بقايا تقديس الأحجار وتتحول إلى صنم جديد بالطوفان حوله وتقييل أحد أحجاره التي صيغت الأساطير حول مصدره، من السماء أم من الأرض؟ والمقاربة في النبوة بين رعي الغنم وقيادة أمة. وتلك رسالة كتاب السيرة المحدثين.

ب- الإنسان

وتنتقل السيرة إلى تاريخ العقائد المقارنة حول موضوعات الله والإنسان والنبوة والمجتمع^(٢). والطريق إلى الله هي شجاعة الإيمان^(٣). والجهاد الأكبر وهو جهاد النفس أي المسيحية أو دون ادعاء أي الأخلاق وهو طريق الإسلام^(٤). وهو طريق «لا بد مما ليس منه بد». فقد انتصر الإسلام بعد بلاء. وجاء ملبياً لحاجات الإنسان كدين طبيعي، جامعاً بين الدين والدنيا ونزاهة فوق المنافع الشخصية دون توريث لذرية أو عشيرة أو قبيلة دون هوى أو غواية. لذلك سُمي الرسول الصادق الأمين جمعاً بين الرسول والرسالة^(٥). الإسلام دين طبيعي وهو أساس دين الوحي فتقبيل الأيدي تمجده النفس ويحرمه النص^(٦). وفي شجاعة الإيمان التمسك بالمبدأ^(٧).

والاتجاه إلى الله والاتجاه نحو العالم لا يتعارضان^(٨). فالإنسان به دافعان: الأول نحو المثال، والثاني نحو الواقع. والاتجاه نحو الله ليس مستقلاً بذاته كما هو الحال عند

(١) عيون الأثر ص ١١٢/١١٧.

(٢) محمد، الرسالة والرسول ص ٥١-٨٢.

(٣) السابق ص ١٣٧-١٤٢/١٥٢-١٦٤.

(٤) السابق، مع الله ص ١٣٧-١٤٢، شجاعة الإيمان ص ١٥٢-١٦٤، الجهاد الأكبر ١٧٧-١٩٠، لا إدعاء ص ٦٥-١٧٦، لا بد مما ليس منه بد ص ١٩١-١٩٢.

(٥) السابق، برج الخفاء، السابق ص ١٤٣-١٥١.

(٦) «أَمَقَّتْ تَقْيِيلُ الْأَيْدِي»، السابق ص ١٧.

(٧) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾، السابق ص ١٥٣، «أَنْزَعَتْ مِنْكَ الرَّحْمَةُ يَا بِلَالُ حَيْثُ نَمَرُ بِأَمْرَاتَيْنِ عَلَى قَتْلِ رَجَالِهِمَا؟»، بهجة المحافل ص ٢٥٤، محمد ص ٥١-٨٢.

(٨) الرسالة والرسول ص ١٣٧-١٤٢.

الصوفية بل من أجل الكمال في الدنيا. فالله غني عن العالمين. ولا يحتاج إلى صلاة أو صيام^(١). فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر واللغو والمراعاة. الصلاة عطاء روحي ومادي، لله وللإنسان. لذلك ارتبطت الصلاة بالزكاة فكلاهما عطاء، وبالتقوى فكلاهما حفظ للنفس. الصلاة اتجاه نحو الآخر، والآخر هو الله أو الإنسان. فالمصلون هم الذين يراعون حقوق الفقراء في أموال الأغنياء. والصدقة ليست فقط عطاء مادي بل هو عطاء روحي واحترام للآخر في ذاته دون مساس بكرامته^(٢). والإيمان بالدين هو الذي يحترم اليتيم ويطعم المسكين. هذه هي العروة الوثقى التي لا انفصام لها بين الإنسان والله، وبين الإنسان والناس^(٣). لذلك نقد المسيح الكهانة لأنها تناقض عبادة الضمير الخالصة بين الله والناس.

والرسول بشر مثل باقي البشر يتلقى الوحي^(٤). فهو مجرد رسول أي أداة تبليغ. ما عليه إلا البلاغ^(٥). وليس له على الناس سلطان. لا يدعي شيئا ليس له^(٦). يذكر

(١) ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ نَحْيِكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، السابق ص ١٣٧.
(٢) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، ﴿قَوْلِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَتَذَكَّرُونَ الْمَاعُونَ﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِقُيُوسِهِمْ حَافِظُونَ﴾، ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ خَلِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ، وَلَا يُخْضِ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ، قَوْلِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَتَذَكَّرُونَ الْمَاعُونَ﴾، السابق ص ١٣٨-١٣٩.

(٣) ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، السابق ص ١٤.
(٤) محمد، الرسالة والرسول ص ٧٣ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾، ﴿إِن أَعْرَضُوا فَأَنَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾، ص ٧٤.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الدُّنْيَا، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبِّكَ فَكْبَرُ وَتَبَايَكَ فَطَهَّرْ، وَالزَّجْرُ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرْ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، «انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة. فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس، وأن أدعهم إلى الله وإلى عبادته، فمن ذا الذي أدعوا؟ ومن ذا يستجيب لي؟» «أو خرجي هم؟» «إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»، السابق ص ١٦٨-١٧٢.

(٦) لا ادعاء، السابق ص ١٦٥-١٧٦ «ليس لك من الأمر شيء»، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ

الناس دون أن تكون له السيطرة عليهم. بل لا يملك الرسول لنفسه نفعا ولا ضررا. هو مجرد بشر يخطئ ويصيب، يظن ويفترض^(١). والوحي يتنزل بأمر الله^(٢). لقد أطرت النصارى عيسى ابن مريم. وانتقلوا من التعظيم إلى التقديس إلى التأليه. وعظمت الأعاجم أكاسرتها، يقوم بعضهم لبعض^(٣). بل إن الرسول يطيع المؤمنين^(٤). الخيلاء والفخر ليسا من شيمة الرسالة ولا الرسول^(٥). لا يأكل إلا كما يأكل فقراء الناس^(٦). ولا يكتفي إلا بأقل القليل، حصير دون وسادة^(٧). فهو عبد يأكل ويلبس كالعبيد^(٨). لا يقبل يده أحد كما تفعل الأعاجم بملوكها. لا يريد أن يشعر أحد أمامه بالرهبة. فما هو إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد^(٩).

والإنسان هو الحر العاقل. يتفرد عن الله بالحرية. فمن قيم الإسلام الحرية ورفع الرأس ورفض العبودية^(١٠). والحرية هي حرية الاختيار والمسئولية وإلا لاستحال الاستحقاق. والوقت محل للفعل الحر في اختياره وتحديدته كما بعد أن تركه الوحي

بمُسْطَرٍّ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَغْلَمَ الْغَيْبَ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَبَرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَيَسِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَيْعٌ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، السابق ص ١٦٦.

(١) «أنا أنا بشر. إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به. وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر. أنتم أعلم بشئون دينكم»، «أنا ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن»، السابق ص ١٧٥.

(٢) ﴿وَمَا تَنْتَرِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْءَ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، السابق ص ١٧٣.

(٣) «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبد الله قولوا: عبد الله ورسوله»، «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا»، السابق ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) ﴿وَإِخْفُضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق ص ١٧٩.

(٥) قريشا «قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحارب وتكذب رسولك»، السابق ص ١٧٩.

(٦) «ما هذه الكسرة يا فاطمة... أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام... أما لكم سراج؟»، السابق ص ١٨٤.

(٧) «إني شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، السابق ص ١٨٦.

(٨) «إنما أنا عبد، أكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد»، السابق ص ١٨٨.

(٩) «هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم»، «هون عليك، لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»، السابق ص ١٨٩.

(١٠) «كان الرسول يقول فتاني وفتاني ولا يقول عبدي وأمتي»، الرسالة والرسول ص ٢٣.

كيفاً^(١). وبالرغم من أن الزمان محدد بالميلاد والموت، بالبداية والنهاية إلا أن هذا التوتر هو الدافع على إتيان الفعل الحر. فالحرية تنبثق من الضرورة. وحتى تكون الحرية مسئولة يساندها العقل بقدرته على التمييز بين الحسن والقيبح. فالعقل هو الذي يخرج الحرية من الضرورة. وهو قادر على الحرص على التنزيه بتأويل النصوص المتشابهة التي قد توحى بالتجسيم أو التشبيه^(٢). وأحكام النبوة صريحة ومباشرة وليست إيهاءة أو إشارة حتى لا يخطئ العقل في تأويلها^(٣).

وإذا كان الوحي يتأسس في الفعل الحر الذي يسانده العقل فإنه أيضا في جدل مع الواقع. نزلت آيات لإبطال عادة الخمس وهي ترك الوقوف على عرفة وإلا فاضت منها تقديرا للحرم فتزل القرآن مبطلا هذه العادة. وأعاد الإفاضة. وأحل ما حرم الناس^(٤). فالإسلام لم يأخذ كل شيء مما كان موجودا في قريش. ولم يبلغ كل شيء. يقوم جدل الوحي مع الواقع على التداخل، الرفع والإبقاء، والنفي والإثبات^(٥). يأتي بناء على نداء الواقع ثم يقيس نفسه على مقاسه كلما تغير الواقع بفعل التطور على ما هو معروف في «أسباب النزول» و«الناسخ والمنسوخ»^(٦). لا شأن له بالغيب ولا يعلمه. بل يهتم

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نَضِغْهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا، سِيرَةَ النَّبِيِّ جـ ١/ ١٢٢.

(٢) «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»، السابق جـ ٤/ ٦٧٥.

(٣) «إن النبي لا ينبغي أن تكون له خاتنة الأعين»، الجوهر جـ ١/ ١٣١.

(٤) ابن هشام جـ ١/ ١٩٦-٢٠٠ ﴿ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُنْتَفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، السابق جـ ١/ ٢٠٠.

(٥) وهو المعنى المزدوج للفعل الألماني Aufheben وللإسم Aufhebung عند هيجل.

(٦) من النص إلى الواقع جـ ٢، بنية النص ص ١١٨-١٣٨.

بمصالح الناس^(١). ولا يجيب على سؤال الروح^(٢). وهو ما كثر الحديث عنه هذه الأيام من الخطباء والدعاة تعبيراً عن العجز عن الدخول في قضايا الواقع أو خوفاً منه. فما أسهل الحديث الذي لا يقول شيئاً، وما أصعب الحديث الموجه نحو شيء بعينه. الأول حديث فارغ بلا مضمون، والثاني حديث له مضمون.

ج- المرأة

وفي الإنسان يتساوى آدم وحواء^(٣). وعندما اعترضت امرأة على حديث القرآن على الرجال فحسب. نزلت آية أبرز القرآن المساواة بين الرجل والمرأة حتى في الأشكال اللغوية بالإشارة إلى المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات. والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات...^(٤). فاللغة تذكير وتأنيث^(٥). وقد دعى إلى هذه المساواة في مجتمع كان يعتبر الأنثى ليس لها حق الحياة^(٦). ولا فرق بين الذكر والأنثى في الاستحقاق أي في المجازاة طبقاً للعمل الصالح^(٧). وبعد أن لم يكن لهن نصيب في

(١) «ويقولون لو لا أنزل عليه آية من ربه قلل إنا الغيب لله»، «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ»، «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَزْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَنَنِي السُّوءَ إِنَّنَا لَا نَذِيرُ وَنَبَشِيرُ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، «لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء»، الرسول والرسل ص ٧٦.

(٢) «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»، السابق ص ١٧٣.

(٣) السابق، ص ٨٣-٩٠.

(٤) «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»، محمد، الرسالة والرسول ص ٨٣.

(٥) «وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُنْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»، السابق ص ٨٤.

(٦) «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ»، السابق ص ٨٤-٨٥.

(٧) «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا»، السابق ص ٨٥.

الميراث جعل الإسلام لمن نصيباً فيه قل أو كثر^(١). والقوامه تعني النفقة المالية وضرورة التوجيه لما كانت الأسرة مجتمعاً صغيراً. كما تعني الدرجة في الفضل العلم والتقوى والعمل الصالح^(٢).

وكان تحديد تعدد الزوجات واستحالة العدل فيه تطوراً لتعدد الزوجات بلا حدود^(٣). وأصبح استثناء في حالات خاصة عند الضرورة. وكان عادة عند كل الشعوب القديمة. والآية شرطية أي قد تقع وقد لا تقع؟ وهو أمر مشروط بالعدل، والعدل مستحيل. فإذا استحال الشرط استحال المشروع. وليس الأمر مجرد الإمكانات، الحرص على العدالة، بل يتعلق بالواقع الإنساني، واستحالة تقسيم العواطف الكيفية قسمة كمية. والاستثناء زيادة عدد النساء على عدد الرجال في لحظة تاريخية مثل ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية أو المرض أو العقر كما حدث لسارة. وفي التشريع الحديث في مصر موافقة الزوجة الأولى ضرورة وإلا فلها الحق في الخلع. وفي تونس ألغي تماماً في القانون المدني. فالنفس لا تسكن إلا إلى نفس أخرى^(٤). كل لباس للآخر^(٥). أخذت على نفسها عهداً، العشرة بالمعروف أو التبريح بإحسان^(٦). والوصية بالنساء لأنهن في أمانة الله. والصلح

(١) ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَنِيَّاهُمْ عَلَى نِسَاءِهِمْ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢) ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، السابق ص ٨٨.

(٣) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ﴾، ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، السابق ص ٩٣.

(٤) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، السابق ص ٩٥.

(٥) ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾، السابق ص ١٠٤.

(٦) ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَنِيَّاهُمْ إِلَى بَعْضِهِمْ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ﴿فَإِنْ سَأَلْتُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَنْبِيْخٍ بِإِحْسَانٍ﴾، «وأستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله»، «لا ضرر ولا ضرار»، السابق ص ١٠٤-١٠٦.

قبل الفراق^(١). وأبغض الحلال عند الله الطلاق^(٢). وعادة ما تكون الزوجات الأخريات من المطلقات كما هو الحال في زوجات الرسول. فلم يتزوج بكرا إلا عائشة. والبكر أفضل من الثيب تلاعب الرجل كما يلاعبها. ومع ذلك تزوج أحد المسلمين ثيبا حتى ترعى إخوته السبع بعد أن أصيب الأب في أحد. ورضي الرسول. بل حياه بشاة تذبج ونمارق تفرش. البكر رمز الجدة. وتظل الذاكرة لأول حبيب لها. وربما مهارتها الجنسية طبيعية تلقائية. وقد يكون لجهلها الجنسي أيضا إغراؤه. وصغر السن عامل مشجع على الحب والارتباط. أما الثيب فقد يكون لها تجاربها وخبرتها ولكنها من رجل آخر سابق. تفقد براءتها الطبيعية. وتحب بعد تعلم وممارسة وليس عن طبيعة وتلقائية^(٣).

وأحيانا أخرى تظهر المرأة قوية فارضة نفسها على الرجل والمجتمع بل على الرسول نفسه، ترفض شفاعته. فقد نصح الرسول امرأة بالعودة إلى زوجها بعد أن حزن على فراقها. ورفضت المرأة أن يكون هذا أمرا منه أو شفاعته. وهو ضد ما يقال الآن من أن الطلاق سلطة مطلقة في أيدي الرجال، وأن المرأة لا كلمة لها قبل تشريع قانون الخلع الأخير.

وقد تزوج الرسول أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي بالحبيشة، تقوية لعزيمة المهاجرين ورفعاً لمعنوياتهم، واعترافاً بأن ملك الحبيشة ولي أمر المسلمين المهاجرين^(٤). وتوددوا إليه في وقت كانت المصاهرة نسبا ووسيلة للدخول في الدين الجديد، وهو زواج بالولاية. وهو الآن متروك للمرأة كي تكون ولي نفسها دون توسط ولي آخر.

ومع ذلك، طلق الرسول إحدى زوجاته قبل أن يدخل عليها لأنه وجد بها بياضا

(١) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِيهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، السابق ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) «لعن الله كل ذواق مطلق»، «لعن الله الذواقين والذواقات»، السابق ص ١١٠ و وقفة قصيرة عن تعدد الزوجات، السيرة النبوية ص ٤١٦-٤٢٠.

(٣) «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك».

(٤) معجزة محمد ج ٢/ ١٧٥-١٧٦.

أي برصا فحكم عليها من خلال جسدها^(١). ولون الجسد لا يعيب. والجسد له فضائل ومزايا أخرى غير لون الجسد الكلي أو الجزئي. ويضاف إلى الجسد شخصية المرأة وأسلوبها في التعامل مع الرجال. وهو ذوق شخصي وليس قاعدة. فالحب كما يقول المثل الشعبي أعمى. لا يعرف له منطق. والسوداء جميلة. والعوراء لها سحرها. وعيوب البدن يعوضها جمال الروح، وحلاوة الشخصية.

وبالرغم من أن المرأة العادية كانت موضوعا للنكاح قبل التعرف عليها معرفة جيدة حتى ولو كان الناكح قاتل زوجها أو أبيها أو أخيها أو ابنها إلا أن خديجة كانت تمثل المرأة المتميزة، ذات الشخصية المستقلة، صاحبة أعمال، تطلب محمدا للزواج منه بعد أن رفضت الكثير من سادة قريش. تستشير ابن عمها ورقة بن نوفل فيما حدثها به زوجها^(٢). وما زالت كثير من الأحاديث، قد تكون موضوعة، تبين أن المرأة للرجل^(٣). ويكون النكاح بأمر ولي الأمر. وهو الهدف أو مكافأة على فعل شيء خير. والنظر إلى المرأة قبل خطبتها محبب حتى تنشأ في القلب علاقة^(٤). ويبدو أحيانا النكاح وكأنه تجارة في أحكام النكاح في أعمال البدن^(٥). وأحيانا يقرر الولي نكاح المرأة دون أخذ رأيها بل بأمر الرسول أن يتزوج فلان فلانة^(٦).

ومع ذلك مازال تصور المرأة كما هو، موضوعا للنكاح. فبمجرد أن يراها أحد يقال «أنكحها»، «تنكحها». ومكانها تحت الرجل في وضع تقليدي تجاوزته أوضاع الجنس عند المحدثين. وتظهر في «الأنساب» المرأة موضوعا للنكاح لا أكثر ولا أقل حين التعرض لأقارب الرسول من النساء، عماته وأمه وأزواجه^(٧). كانت النساء ترسل

(١) ابن هشام ج ٢/ ٥٤٣، بهجة المحافل ص ٤٠١-٤٠٢.

(٢) محمد رسول الله ج ١.

(٣) «تزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء»، السابق ص ٥٢، نورت مسجدنا نور الله عليك. أما والله لو كان لي ابنة لأنكحتكها»، السابق ج ١/ ٤٥٦.

(٤) «فأذهب فانظر إليها فإن في عين الأنصار شيئا... انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»، السابق ج ٢/ ٣٥٢.

(٥) السابق ص ٢٨٦.

(٦) «إن رسول الله أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني فلانة»، السابق ٣٥٢.

(٧) الجوهرة ج ٢/ ٥٠-٥٢/ ٦٢-٨١، «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا إذن ثم لا إذن» ج ١/ ٤٧٨، «أنكحن أسامة بن زيد»، السابق ص ١٥١.

كهدايا عند الروم كما أرسل المقوقس مارية القبطية. فهل تزوجها أم سرى بها؟ وكانت ضمن الأسلاب. وقد يختلف عليها الرجال، ويحكم بينهم الرسول. وكانت هذه عادة الشعوب القديمة، الفرس والروم والأحباش والعرب. فاتبع الإسلام نفس العادة حتى قضى الرق ذاته من تاريخ البشرية وآخرها الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر، والدولة العثمانية حتى الربع الأول من القرن العشرين. والآن تحكم القوانين الدولية العلاقة بين المنتصر والمهزوم وجرائم الحروب لأي من الطرفين وقوانين حماية الأطفال والنساء والشيخ^(١).

وكان الرسول لا يصلي في لحف نسائه فقد كان لها وظيفة أخرى^(٢). وكان من عادات الحرب القديمة السبية التي يقتل زوجها وأبوها وأخوها تستسلم للمقاتل دون أي انفعال أو غضب، وإتيانها دون أي احترام لحزنها.

وبعض الأحاديث تتفق مع القدماء وليس مع المحدثين مثل تفضيل الخيل والنساء. وكلاهما طبقا للصورة الذهنية للركوب عند البدوي^(٣). ومع ذلك يظهر من «الموسوعة» بعض عناصر السيرة التي تدحض بعض الشبهات بالنسبة لقسوة الشريعة تجاه الرجل الزاني أو المرأة الزانية بمطالبهما بتوقيع الحد واتهام الرسول للأول بالجنون، وغفران الذنب بالصلاة، وإرجاع الثانية حتى عادت من نفسها مرتين بعد الولادة والفظام تطالب بالحد^(٤). ويعني الزواج المعاشرة الجنسية في طلب المسلم الزواج من مسلمة دون أن يعرفها أو يعيش معها إلى الأبد أو يكتفي بها. فالزواج يعني الجنس أي صورة شرعية له^(٥). وسجود الزوجة لزوجها بعد الله. ومع ذلك تقدير المرأة والتوصية بها عام عند الرسول، الأم والزوجة والابنة، رفقا بالقوارير. التوصية بالوالدين، والأم قبل

(١) ابن هشام ج١/١٨٩.

(٢) السابق ص ٣٨٦.

(٣) السيرة الحلبية ج١/٣٠. وهناك نكتة شهيرة قديمة عندما وجد الصعيدي بعض الركاب يبرز الاشتراك الشهري للمحصل فلا يأخذ منهم الأجرة، أبرز له الصعيدي قسيمة جوازه فقال له المحصل «دي تركيبها في البيت».

(٤) سيرة النبي ج٢/٢٥٠-٢٥١.

(٥) السابق ج٢/٣٢٦. «لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن»، السابق

ج٧/٨٢-٨٣.

الأب، فالجنة تحت أقدامهن^(١). ويصعب عدم خروجها معطرة اليوم في مجتمع تسود فيه الروائح الكريهة من القاذورات وأكوامها والنفايات ورائحتها^(٢). والعرق والملابس غير النظيفة في الأسواق والتجمعات مثل المواصلات العامة.

د- الأخلاق

ويظهر الدين كأخلاق لا كعقائد ولا كشعائر. وإن كانت هناك عقائد وشعائر فإنها وسائل للأخلاق^(٣). فالأخلاق جوهر الدين. والدين إتمام المكارم والأخلاق. وتفسر العبادات أحيانا تقسيما حدثيا مثل الحج باعتباره مركزية، والكعبة باعتبارها رمزا لها^(٤). وبصرف النظر عن أساسها الغيبي، الكعبة عرش الرحمن، ومركز رحماته وبركاته في هذه الحياة الدنيا. تظل هي المركز الذي يجتمع فيه المسلمون في وقت معلوم ومكان معلوم مرة سنويا لدراسة أحوالهم دون أي تقديس للزمان أو المكان بل ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

ولا تحتاج الفضائل إلى تعليم. بل يكفي الاعتماد على الإحساس والشعور الذاتي في السلوك الخلقي. وهي التي عرفت بمذاهب الحاسة الخلقية أو الضمير. فالأخلاق فطرية. يدركها الإنسان بطبيعته. والقيم الخلقية مثل التواضع^(٥). وهي نفس قيم المسيح عندما جلس المسيح تحت أقدام التلاميذ ليغسلها لبعضهم درسا في التواضع. لذلك كان التيه من الصفات المردولة في أخلاق العرب^(٦). وكان أكبر مانع من دخول الجنة^(٧). وترسم الشخصيات بأحاديث الرسول مثل الحياء^(٨). وأحيانا يجتمع الحلم مع الحياء أو

(١) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، السابق ج٦/١١٦-١٢٢

(٢) لا تخرج المرأة من بيتها متعطرة، السابق ج٦/٢١٣.

(٣) أبلغ الرسول اليهود أن الإسلام تسعة مبادئ هي تحريم: الشرك، الزنا، قتل النفس إلا بالحق، السرقة، السحر، المشي بيريء إلى سلطان، الربا، قذف المحصن، الفرار من الزحف، سيرة النبي ج٣/٢٩٢، محمد ص ١٦٥-١٧٦.

(٤) سيرة النبي ج٥/٣٥٩-٣٦٣.

(٥) ﴿لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، الرسالة والرسول ص ٢١/٢٥.

(٦) الجوهرة ج١/٤٧.

(٧) ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، السابق ص ٢٨٠.

(٨) لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء، السابق ج١/٣٨.

مع الأنثة^(١). لذلك يمكن الحوار بين الأديان لأن جوهرها واحد كما قال الصوفية. وهي المحبة أو العدل كما يقول الفقهاء. لذلك يُحال إلى ابن عربي^(٢).

والرحمة واجبة لكل كائن حي، نباتا أو حيوانا أو إنسانا^(٣). كان الرسول يشفق بالحيوان^(٤). وكان الرفق بالحيوان من قواعد الإسلام، عدم حرق نملة بالصدفة أو سقي كلب عطش أو التخفيف من الشفرة حين الذبح^(٥). ولا تؤذى الأحياء بسبب الأموات^(٦). فالحي أولى من الميت. يتعامل مع الموتى كأحياء بالدعاء لهم وزيارة القبور ونثر النبات الأخضر عليها. وفي التقاليد الشعبية السكنى معها حتى ولو كان اضطرارا لحل أزمة المساكن.

لم تستطع السيرة الرد على بعض الشبهات حول الحزب والغنائم والسبايا وإعادة تأويل قاعدة «من قتل قتيلًا فله سلبه». ولماذا يكون حكم سعد بن معاذ حكما صائبا في السماء والأرض، «قتل الرجل وسبي الذرية وقسمة الأموال» في بني قريظة^(٧)؟ ومن وصف بعض حوادث السيرة خاصة عصيان الرماة في غزوة أحد يظهر أحيانا أن الباعث على الغزو كان السلب وليس الجهاد في سبيل الله اعتمادا على بعض الأحاديث مثل «من قتل قتيلًا فله سلبه»^(٨). وقد تكون الغنائم والأسلاب دافعا على الحرب وليس فقط الشهادة. فالمقاتل يريد غنيمته. ويطالب بقسمة عادلة بين المحاربين^(٩). قد يفسر ذلك بالواقعية في انتشار الإسلام، ودخول البعض في الدين الجديد حبا في العطايا والغنائم

(١) «إن فيك خصلتين يجبهما الله ورسوله... الحلم والأنثة» وفي رواية أخرى «الحلم والحياء»، السابق ص ٤١٣، بهجة المحافل ص ٢٧٥.

(٢) «الدين الذي أنزله الله على أنبيائه واحد وهو الإسلام أي الاستسلام لله وحده وعبادته دون سواه، لكن أتباع الأديان حرفوا رسالات الله وكتبه فاختلف في جوهرها وحقاتقها»، الرسالة والرسول ص ٢٧.

(٣) «نعم في كل ذات كبد رطب أجر»، الجوهرة ج ١٧٥.

(٤) «إن امرأة عذبت في مرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تركها تأكل من خشاش الأرض»، السابق ج ٨٣/٢.

(٥) «اطفئها، اطفئها حتى لا تؤذى النمل أو يحترق»، سيرة النبي ج ١٨٢/٦.

(٦) لذلك بعد إسلام عكرمة لا يقال ابن أبي جهل «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات»، الجوهرة ج ٩١/١.

(٧) «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»، الرحيق المختوم ص ٣١٦.

(٨) سيرة النبي ج ١٠٧/٢ - ١٠٨.

(٩) المراهب اللدنية ج ١/٤٣٢.

والأسلاب^(١). ومع ذلك نصره الحق والعدل أيضا واقعية. والدفاع عن المظلومين أيضا ضرورة يحتملها الواقع.

هـ- الشريعة

وتظهر بعض التشريعات التي تتهم بالقسوة مثل قطع اليد في إطار التشريعات القديمة المقارنة. فقد كانت أيضا عادة عند الفرس والروم. وكان القصاص أيضا عادة متبقية عند الشعوب القديمة وأبشع الطرق رمي المدان إلى أقواه الأسود^(٢). الحكم حكم عام لا يعرف القراية. فحكم السرقة قطع اليد وليس كما كان لدى بني إسرائيل إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف طبقوا عليه الحد^(٣). وفي لحظات أخرى تظهر قوة الاعتراض على الرسول في تطبيق الحد. الآن السرقة ليست سرقة بل هي بيع مؤجل^(٤). والآن في مجتمع يسوده الفقر والبطالة والتفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، وسرقة الأغنياء الذين يجمعون بين السلطة والثروة يصبح تطبيق الحد على الفقراء موضوعا للتساؤل. وإذا كانت الخرف في الحياة البدوية القديمة سهلة ميسورة وممكنة بيد واحدة فإنها ليست كذلك في الحرف العصرية التي تتطلب يدين. وإذا كان القدماء يقبلون تطبيق الحد بسهولة ويسر فإن المحدثين يخشون من آثارها النفسية. اليد آلة تقوم بعدة أفعال. ولا يمكن مساواتها في القيمة بفعل واحد. فالكل لا يُرد إلى الجزء.

وفي الخمر جلد الرسول أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانية. ولكل سته في التخفيف والتشدد^(٥). وهو ما سمي في الفقه «التعزير» أي ترك درجة الشدة أو اللين في يد الحاكم طبقا للظروف. وهو ما يسمى الآن «الظروف المخففة»، أو «الردع» وقد انتشر الخمر بين الخاصة وفي الطبقات الحاكمة كمظهر من مظاهر الحياة العصرية. كما

(١) قال أحد العرب لقيته «يا قوم أسلموا فإن عمدا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة»، سيرة النبي ج٤/ ٣٤٣.

(٢) السابق ج٢/ ٣٨٢.

(٣) «ولو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطعت يدها»، الجوهرة ج١/ ١٠١.

(٤) سيرة النبي ج٦/ ٥٧-٥٨.

(٥) الجوهرة ج١/ ٥٥.

انتشر عند العامة في صيغة الإدمان، نسيانا لعموم الطبقة الدنيا. وتطبيق الحد مشروط بـعلة السكر. وقد يدخل الآن في عموم البلوى.

وحد الرجم يقتضي شهودا أربعة، رأى فعل الزنا رؤية العين. وهو ما يصعب تحقيقه إذ يتم سرا. إنما المقصود هو الفعل الفاضح العلني. والاعتراف به ربما قسوة الزاني أو الزانية على نفسيهما بعد إرسال الرسول لهما. فالأول لا بأس به، ويتمتع بكامل عقله. وأتى بفعل تردي. والثانية حامل ولديها طفل يحتاج إلى رعاية^(١).

والجهاد ضد الخارج وليس ضد الداخل. الجهاد ضد العدو الخارجي، وفي الداخل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢). قدم المسلم وماله وعرضه حرام لا يجوز سفكه أو سلبه أو هتكه. فكل ما يحدث حاليا من صراع دموي عن السلطة بين أحزاب سياسية كلها إسلامية في السودان والصومال واليمن وباكستان والجزائر إهدار لدماء المسلمين. والحفاظ على الحياة المقصد الأول من مقاصد الشريعة مثل المال والعرض. وفي كل السير يتواتر الأمر بالقتل وضرب العنق من الرسول أو بناء على طلب الصحابة للمشاركين أو المنافقين^(٣). وأحيانا يسرف القواد في القتل. فهم على حق دائما. تسانداهم الشريعة^(٤). وعند كلا الفريقين القتل والأمر بالقتل ودق العنق للمخالف دون محاكمة أو استماع لرأي أو حق الدفاع عن النفس. وتكرر عادة القدمات بالقتل وضرب العنق بمجرد الأمر والذي يصل أحيانا إلى حد الاغتيال^(٥).

والعقاب بالقتل في الدنيا لأنه لا يعذب بالنار إلا الله يوم القيامة وكأن غاية الدين

(١) «هل تعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا؟»، «فاذهبي حتى تلدي.. اذهبي فأرضعيه حتى تقطمي»، بهجة المحافل ص ٣٤٧.

(٢) خير العباد ص ٧٦-٧٧.

(٣) محمد رسول الله ج ١/ ٣٨٢/ ٤٠١/ ٤٠٦/ ٤٧٤/ ٤٧٧. قال الرسول «ما منعك أن تجهز عليه؟» فقال: ناشدني الله والرحم. فقال «اقتله فقتله» ص ٣٤٥. «والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمدا مرتين أضرب عنقه يا زبير» فضرب عنقه فقتله ص ٣٨٢ «لو أمرتهم بقتله فقتلوه»، ج ١/ ٤٠١ «إلا من استثناهم النبي وأمر بقتلهم» ج ١/ ٤٧٧ «فأنته فآتته»، ج ٢/ ٤٨/ ٨٤-٨٥/ السيرة الحلبية ج ٣/ ٤٠٠، الفصول ص ٤٩٥، خلاصة ابن كثير ص ٤٠١.

(٤) «اللهم أني أبرأ إليك من صنع خالد»، الجوهر ج ١/ ١٧٣.

(٥) خلاصة سيرة الرسول (٢) ص ٣٤٠-٣٤١.

القتل والحرق^(١). وكانت سرعة الأمر بالقتل عادة يتسابق إليها المؤمنون: فمن استرق العين على الرسول وجب قتله^(٢). ومن تعلق بأستار الكعبة وجب قتله بالرغم من أن من دخل المسجد فهو آمن^(٣). لم تحاول السيرة إعادة تفسير الوقائع بما يجعلها أقرب إلى عادات العصر مثل ضرب العنق والاغتيال حتى ولو كان ضرب عنق الابن لأبيه أو لقريبه^(٤).

ولم يتم التعرض لبعض البشائر القديمة أو الجديدة لمعرفة عنصر التواصل والانقطاع بين الجاهلية والإسلام مثل الحكم على أحد بالقتل حتى وهو متعلق بأستار الكعبة أو ضرب عنقه واغتياله ليلا في بيته بوخز السيوف في البطن للتأكد من القتل مع صراخه «يكفي يكفي»^(٥).

و- الاستحقاق

وبالرغم من أن الجنة والنار، والثواب والعقاب نتيجة لقانون الاستحقاق إلا أن الأحكام يصدرها الرسول وهو نفسه لا يملك لنفسه ثوابا ولا عقابا إلا إذا تغمدته الله برحمته^(٦). وإذا اختلف الناس فالعدل هو الحكم بينهم^(٧). فالعدل قانون في الدنيا وقانون في الآخرة. وظل الصراع في علم الكلام بين فرقتين أهل العدل وهم المعتزلة وأهل الرحمة وهم الأشاعرة. وكلاهما من أهل التوحيد. وقد تغفر الشهادة باقي الأعمال، باعتبارها تضحية بالذات كلها^(٨). فالعمل الكلي يُجب العمل الجزئي، والحياة تطوي أفعالها. وقد

(١) «إن وجدتم مبار فاحرقوه بالنار... اقتلوه فإنه لا يضرب بالنار إلا رب النار» وذلك عقابا لهبار على قتل امرأة وإجهاض جنينها، الجوهرة ج١/ ٦١.

(٢) «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين»، أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي كفت عن مبايعته فقتله، غاية السؤال ص ١٤٢.

(٣) «من دخل المسجد فهو آمن... اقتلوه» (ابن الأختل)، السابق ص ١٨٧.

(٤) الرحيق المختوم ص ٢٢٢/ ٢٢٩/ ٢٤٢/ ٣١٧/ ٣٣٠-٣٣١/ ٤٠٠-٤٠٦/ ٤١٠/ ٤٤٦.

(٥) عيون الأثر ج١/ ١٣٢/ ١٣٥/ ١٤٢/ ٣٩٨، ج٢/ ١٠٩/ ١١٠/ ١٢٠/ ٢٣٧.

(٦) سيرة النبي ج٣/ ٢٣٩-٢٤٨-٢٤٩ ج٤/ ٧٠٣/ ٦٩٩/ ٦٨٢، ج٦/ ١٥/ ٤١، بهجة المحافل ص ١٧٢-١٧٤/ ١٧٩.

(٧) «إذا اختلف الناس فالعدل في مضر»، الجوهرة ج١/ ٣٣٣.

(٨) «وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، السابق ج١/ ١٣٠.

ظل الرسول يستغفر للمنافقين مؤولا القرآن للاستغفار لهم أكثر من سبعين مرة. كان الرسول من أهل الرحمة على خلاف رأي عمر الذي كان من أهل العدل^(١).

وتكثر البشارة بالجنة لعمل واحد مثل بيعة الرضوان^(٢). وكذلك بشر أهل بدر بالجنة^(٣). ومنها أيضا تبشير واحد بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لأنه قام بعمل أصيل. فالحساب كلي وليس جزئيا، كفيي وليس كميا. وكان الرسول يبشر دائما بالجنة أكثر مما يحذر من النار^(٤). يحكم على بعض صحابته أنه من أهل الجنة تشجيعا وتطمينا ومكافأة^(٥). يبشر البعض بالجنة أو يتنبأ لآخر بالنار قبل الحساب تشجيعا أو تثبيطا^(٦). يدخل الجنة سبعون ألفا بلا حساب منهم عكاشة دون آخر دون سبب إلا السبق في الدعوة أو برودتها^(٧). وهي علامة على أن الرحمة تسبق العدل.

والزهد في الدنيا سنة^(٨). ولبس الحرير ليس من شيم من يتتبعون الآخرة^(٩). والتهجد ليلا والناس نيام تفرد ووحداية. ومع ذلك الطريق إلى الآخرة هو العمل الصالح^(١٠). والدنيا خضرة حلوة ضد من يصورون الإسلام على أنه ضد الحياة ومع الزهد والتقشف والبعد عن الدنيا^(١١).

(١) «إني خُبرت فاخترت. لو أعلم أي إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»، بهجة المحافل ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٢) «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»، بهجة المحافل ص ٢٤٠، «بايع فإن الإسلام يجب ما قبله، وإن الهجرة تجب ما قبلها»، ص ٢٤٢ «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة» ص ٢٤٥.

(٣) «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، سيرة النبي ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) «وفاء الوفا ج ٣/٩٤٢-٩٤٣».

(٥) «أبو سفيان سيد فتيان أهل الجنة»، الجوهرة ج ٢/٤٧.

(٦) «خير العباد ص ١٣٥/١٣٧/١٤٣».

(٧) «يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتي على صورة القمر ليلة البدر»، الجوهرة ج ١/١٨١-١٨٢.

(٨) «يا أبا هاشم، لعلك تترك أمورا يؤتاها أقوام. فإنما يكفيك من الدنيا خادم ومركب في سبيل الله»، السابق ج ١/٦٤.

(٩) «إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة»، السابق ص ٢٦٩.

(١٠) «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»، السابق ص ٣٨٧.

(١١) «الدنيا خضرة حلوة»، السابق ج ٢/٧٥.

وهناك تصورات عديدة للعلاقة بين الدنيا والآخرة. الأول التصور المعكوس في الثواب والعقاب. ما ضاع في الدنيا يسترد في الآخرة. والثاني التصور الشبيه بقدر ما يوجد في الدنيا يوجد في الآخرة. والثالث التصور النقيض، نداء الآخرة أبقي فإذا وجد الإنسان شيئا يعجبه تذكر الآخرة. ونسى الدنيا^(١). وقد ظهر من السيرة أن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

ز- المجتمع والتاريخ

وتظهر رابطة الوطن بين المسلمين عندما مات عبد معتوق وأعطى الرسول تركته لأحد من وطنه وليس لسيده^(٢). وشبه الجزيرة العربية هي بلاد العرب^(٣). فالمسلم يتسبب أيضا إلى أهله ووطنه «أهلا بأهل، وأوطانا بأوطان»^(٤). ويخطئ من يظن أن حب الأوطان مقصور على الإيديولوجيات العلمانية الحديثة. فهو جوهر الرسالة. وكان أعداء العرب الذين احتلوا أراضيتهم. العجم في الشرق، والروم في الشمال والغرب، والأحباش في الجنوب. وربما تغيرت موازين القوى الآن وأصبح العجم نصراء للعرب في فلسطين والعراق. ومازال الروم ووارثوهم وهي أوروبا الآن، أعداء العرب. وكذلك الأحباش الذين اعتدوا على الصومال مع أنهم كانوا من مؤسسي منظمة الوحدة الإفريقية ومازالوا مقرها^(٥). والدين الجديد مرحلة من مراحل تغير العرب في شبه الجزيرة. توحدتهم عن طريق توحيد الدين ثم سيادتهم على دول الجوار فارس في الشرق، والروم في الشمال والغرب، والأحباش في الجنوب^(٦). تظهر الوطنية من خلال السيرة مثل ألا يكون في دين العرب دينان. فالإسلام دين العرب، والعرب حاملو

(١) «لييك، إن العيش عيش الآخرة»، غاية الرسول ص ١٠٦.

(٢) سيرة النبي ج ٢/ ٢٤٣.

(٣) «آخر جوا المشركين من جزيرة العرب»، السابق ج ٢/ ٤٤٢.

(٤) السابق ج ٥/ ٢٤٠.

(٥) «هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم»، «وي نصرنا»، الجوهرة ج ١/ ٤٢٤.

(٦) «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا العرب، وتذل لكم العجم، وإذا أمتم كتم ملوكا في

الجنة»، محمد رسول الله ج ١/ ١٩٨، «أذهب إلى يهود بني النضير فقتلهم إن رسول الله أرسلني إليكم أن أخرجوا من بلدي»، السابق ج ١/ ٤٨٥.

الإسلام. والبنبؤ بفتح الشام متكرر وكذلك القدس^(١). وفتح بيت المقدس من أشرار الساعة^(٢). والعرب والأتراك والإيرانيون يكونون تكتلا سياسيا جديدا في مواجهة الصهيونية والاستعمار، خمسمائة مليون أي ما يقارب نصف الأمة.

وفي النظام السياسي يرفض الطاعة لقيصر والتبعية للسلطان^(٣). وكان التمييز بين ما لقيصر وما لله رد فعل على جعل اليهود كل شيء لقيصر، ما لقيصر لقيصر وما لله، فجعل الإسلام كل شيء لله^(٤). وأمر الناس شورى بينهم. وليس للرسول من الأمر شيء بل يطيع الجماعة^(٥). والمؤمنون إخوة، يتناصحون فيما بينهم. وعلماءهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ولا يفتنون للسلطان ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٦). وقد كانت تجربة أهل الكتاب أنهم اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله^(٧). يتعاونون على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان. ودون هذا المبدأ في النقد والراجعة تنهار المجتمعات^(٨). ويكون الولاة كالناس ومن نوعهم. ظلمه ظلمهم، وعدله عدلهم^(٩). والتغيير الاجتماعي مرهون بأيدي الناس، تغيير فعلي أو قولي أو شعوري^(١٠). والتغيير

(١) «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم، قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لؤاء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك.. بيت المقدس وأكناف بيت المقدس»، «سيفتح عليكم الشام وإن بها مكانا يقال له الغوطة، يعني دمشق، من خير منازل المسلمين في الملاحم»، محمد رسول الله ج ٢/ ١٥٤.

(٢) السابق ج ٢/ ١٧٥.

(٣) السابق ص ١١٣-١٢٤.

(٤) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا يَنْتَهِيَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، السابق ص ١١٦-١١٧.

(٥) ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَشَاوَرْتُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق ص ١١٧-١١٩.

(٦) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، السابق ص ١١٧-١١٨.

(٧) ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَمَىٰ يُؤَفِّكُونَ، اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، السابق ص ١١٨.

(٨) ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، السابق ص ١١٩ ﴿كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ عَنْ مُنْكَرٍ قَعْلَةً﴾، «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، ص ١١٩-١٢٠/ ١٢٣.

(٩) «كما تكونوا يول عليكم»، «لا يظلم ربك أحدا»، السابق ص ١٢٠/ ١٢٢.

(١٠) «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيذان»، السابق ص ١٢١.

يبدأ بالنفس قبل الآخر^(١). فشكوى المستضعفين. لا معنى لها لأن الأمر بأيديهم. الإيمان بالله تحرر وثورة ضد الظلم^(٢). والبداية بالوعي. والوعي مرتبط بالحواس، الرؤية والسمع^(٣). ورقة القلب شرط إدراك الحواس. والله المثل الأعلى. ولا يؤخذ بعين الاعتبار خطورة بعض الأحاديث على الحياة المعاصرة مثل طاعة الأمير من طاعة الرسول. فتعتمد السلطة السياسية على السلطة الدينية لتأكيد شرعيتها. وهو ما يعارض أيضا أحاديث أخرى مثل «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، وضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة للإمام بل والخروج عليه إن ظل عاصيا ولم يمثل لحكم قاضي القضاة. وروجت السلطة السياسية لمثل هذه الأحاديث التي تحت على طاعة السلطان. ولم تستعمل المعارضة بشكل صريح الأحاديث التي تحت على مراقبة السلطان. واتجه بعضها إلى أوجه المعارضة العلمانية التي تستبعد الدين كموروث شعبي من حسابها في حين أن الدين يمكن أن يكون أفيون الشعوب وزفرة المضطهدين بتعبير إحدى الأيديولوجيات المعاصرة^(٤).

وفي موضوع الإمارة إن أعطيت أصبح الأمير مستولا عنها إن سأل عنها، وأعين عليها لو كانت عن غير سؤال^(٥). والطاعة من جانب المحكوم، أن تكون في عنقه بيعة ولا يخرج منها كما تقول الشيعة^(٦). وكيف تكون والأئمة في قريش. ولا يتقدم أحد

(١) «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، السابق ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾، ﴿كُنَّا مُسْتَظْفِعِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُكْفِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، السابق ص ١٢٤.

(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، ﴿فَإِنَّمَا لَا تَفْعَى الْبَصَارُ وَلَكِنْ تَفْعَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، السابق ص ١٢٤/١٣٤ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْقُوْرُ الْعَظِيمُ﴾، ص ١٣٣-١٣٥، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، السابق ص ١٦٧.

(٤) «من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني»، عيون الأثر ج ٢/ ٢٠٦.

(٥) «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة. فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»، الجوهرة ج ١/ ٥٩، بهجة المحافل ج ٢٦٦.

(٦) «من خلع يدا من طاعة لقي الله عز وجل يوم القيامة لا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، السابق ص ١٠٥.

عليها؟^(١). وكيف يكون الناس تبعاً لقريش في الخير والشر؟ وهو يعارض أحاديث أخرى ترى أن الإمامة عامة «أسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشي». كما روي أن الخلفاء من قريش اثنا عشر خليفة بالتمام والكمال^(٢). وهو ما يكشف عن الصراع على السلطة بين قريش وغيرها من القبائل. وهو ما أظهر أيضاً الفرق بين الأشاعرة من جانب والمعتزلة والخوارج من جانب آخر. ويتعارض مدح قريش ونسبها مع المساواة بين القبائل والأقوام والشعوب. فشرف الرسول لنبوته وليس لقبيلته^(٣). والإمارة انتخاب وشورى وليست طلباً، انقلاباً أو وراثته^(٤). والراعي مسئول عن رعيته^(٥). وهو الناصح لها كما أنها هي الناصح له. وهو الرحيم بهم. والملي لحاجتهم. وهو الإمام العادل. والأمير لا يكون إلا قويا^(٦). وقوته في عدله وفي كونه نموذجاً للمحكومين، آخر من يأكل، وآخر من يشرب، وآخر من يسكن. إذا عثرت بغلة في العراق سئل عنها لماذا لم يسوّ لها الطريق. والإمام له وزير ناصح^(٧). وقد يكون الوزير جماعة أو هيئة

(١) «الأئمة من قريش»، «قدموا قريشاً ولا تقدموها»، «لا يقتل في شيء صبراً بعد اليوم»، السابق ص ١٤٠
«الناس تبع لقريش في الخير والشر»، السابق ص ١٤٥.

(٢) «يكون بعدني اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»، السابق ص ٣٧٧.

(٣) السيرة الحلبية ج ١ / ٣٩.

(٤) «يا عبد الرحمن بن سُمرة. لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها. وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها. فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»، بهجة المحافل ص ٢٦٦، محمد ص ١١٣-١٤٢.

(٥) «ما من عبد يسترعيه الله على رعيته يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»، بهجة المحافل ص ٢٦٦، «ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة»، «اللهم من ولي من أمّتي شيئاً فافرق بهم»، «إن شر الدعاء الخطمة»، «فإياك أن تكون منهم»، «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته. وكلكم راع ومسئول عن رعيته»، من ولاة الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وقلنتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وفقره يوم القيامة، «سبعة يكلمهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»، بهجة المحافل ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٦) «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإنّي أحب لك ما أحب لنفسيّ، فلا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»، «يا أبا ذر إنك ضعيف. وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة حسرة وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»، السابق ص ٢٦٩.

(٧) «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»، «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا

مستشارين بلغة اليوم. ليس من رجال الأعمال ولا من طلاب المناصب حتى لا تجتمع السلطة والثروة في أيدي قلة على حساب مصالح الناس.

وتستعمل بعض الألفاظ الحديثة مثل «الفدائيون» للتعبير عن المجاهدين والشهداء. وهم المعارضة للحكم الظالم^(١). وطبيعة الحكم إما المعارضة بالكراهة فبالبراءة أو بالإنكار فالسلام أو بالرضا والمتابعة. ولا تجب مقاتلتهم ماداموا يصلون. فالمعارضة بالقول أولا قبل أن تكون باليد^(٢). والقوى في المجتمع ثلاث. عليا ووسطى وسفلى. العليا هي اليد العليا وهي يد الله، والوسطى هي يد المعطي، والسفلى هي يد السائل. ولما كانت اليد العليا خير من اليد السفلى، فإن الطبقة السفلى عليها أن ترتفع إلى الطبقة الوسطى، والوسطى إلى العليا حتى ينشأ مجتمع بلا طبقات^(٣).

والإسلام دعوة إلى المساواة بين البشر. فهو دين الناس^(٤). والمساواة اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية. فالمساواة الاقتصادية في مجتمع بلا طبقات حتى لا يتسلط الأغنياء على رقاب الناس^(٥). وهم الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها لصالح الناس. فما ينفع الناس هو ما يمكن في الأرض^(٦). ليس الإيمان هو العبادات بل هو المعاملات. وفي مقدمتها الإنفاق على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين والأسرى^(٧). وبالرغم من أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا إلا أن حق

كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحض عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحض عليه. والمعصوم من عصمه الله، السابق ص ٢٦٧.

(١) سيرة النبي ج ٥/ ٣٨٦-٣٨٧.

(٢) يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون. فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، الجوهرة ج ١/ ٤١٠.

(٣) الأيدي ثلاثة: بيد الله العليا، بيد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى، السابق ج ١/ ٣٧٠-٣٧١.

(٤) الرسالة والرسول ص ١٢٥-١٣٦.

(٥) ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾، السابق ص ١٢٢، ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ص ١٢٧.

(٦) ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَدَلَّاهُمْ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَبَيِّعْهُ فِي الْأَرْضِ﴾، السابق ص ١٢٩.

(٧) ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾، ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكِينًا وَيَتَيَّمُونَ الْأَسِيرَ﴾، السابق ص ١٢٩-١٣١.

الآخرين فيها بالإنفاق والتضحية^(١). ومن يعيش تجربة اليتيم والفقر يعرف كيف يحسن معاملة اليتامى والفقراء والسائلين^(٢). والمساواة الأخلاقية هي التساوي في الحقوق والواجبات أمام القانون طبقا للعمل الصالح وليس الإيمان أو القبيلة^(٣). التفضيل في معرفة الحق مثل تفضيل الأنبياء^(٤). والتفضيل في العلم^(٥). وتفضيل في العمل^(٦). الحياة امتحان واختبار. ويكون ذلك كله في حدود الطاقة والإمكانات^(٧). والحالات الاضطرارية لا غبار عليها^(٨).

وفي النظام الاقتصادي كان الربا عادة قبل الإسلام. حرمه الإسلام. فنزلت آية لتحريم ما تبقى منه^(٩). والله هو المسعر أي أن التسعير يخضع لقانون السوق. والله هو الذي يرفع ويخفض طبقا لقوانين الجدل الاجتماعي^(١٠). وواضح تغلغل الموقف الأشعري عند كتاب السيرة. وتستعمل بعض المذاهب الحديثة مثل الاشتراكية لرؤية السيرة من خلالها. فالإسلام أتى بالاشتراكية علاجا للتفاوت الشاسع من الأغنياء

(١) ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، السابق ص ١٢٩-

(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، السابق ص ١٢٥

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾، السابق ص ١٢٦.

(٤) ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِيَاعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، السابق ص ١٢٦.

(٥) ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ عَمَلًا وَعَمَلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَلَوَّكُمْ فِيهَا أُنَافِكُمْ﴾، ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق ص ١٢٧-١٢٨.

(٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ولا ضرر ولا ضرار، «انتم أعلم بشئون دينكم»، السابق ص ١٣٣/١٣٥.

(٧) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، السابق ص ١٧٢.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ابن هشام ج ١/ ٣٧٩.

(٩) «إن الله هو المسعر، القابض الباسط الرازق، وأنا لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يظالمني بمظلمة في دم أو مال»، «بل الله يخفض ويرفع. وأنا لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة»، بهجة المحافل ص ٢٧٧.

(١٠) «علاج الاشتراكية، سيرة النبي ج ٥/ ٢٥٩-٢٦١ ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾»، ج ٥/ ٢٦٠.

والفقراء واكتناز الذهب والفضة كما تفعل الرأسمالية^(١).

ويمكن إيجاد عناصر للبيئة والحضرة ضد صفرة الصحراء لإطعام الإنسان والحيوان^(٢). ولو كان في يد أحد فسيلة وهو في اللحظة الأخيرة فليغرسها حتى يكون آخر فعل في التنمية والبناء، والحضرة والاختصار. ووضع نبتة خضراء على قبر الميت تخفف من عذاب القبر. وفي السلوك الشعبي أيضا رشه بالمياه. لذلك ازدهرت تجارة الزهور والورود على مداخل المقابر، وكانت شغلة حراسها رشها بالمياه لأخذ أكبر قدر من الأجر من عائلة المتوفى.

والقاضي هو الذي يقضي حوائج الناس وليس فقط هو الذي يقضي في الخصومات بينهم^(٣). ويمثل السلطة القضائية التي يحتكم إليها المتخاصمون بمن فيهم السلطان أو الأمير أو الوالي الذي يمكن لكل الفقراء والعاطلين والمضطهدين اختصاصه أمام القضاء. وبالرغم من أن القاضي مُعين من السلطان إلا أن السلطان لا يستطيع عزله. بل هو الذي يستطيع عزل السلطان إن لم يطبق أحكام القضاء.

والإسلام دين الناس جميعا الفرس والروم والأحباش. ورسالته عامة لكل الخلق. وهي صفة الرسالة أكثر منها صفة الرسول^(٤). انضم إليها الحر والعبد^(٥). ومع جوهر الرسالة وفضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة يظهر الإسلام إعلانا فريدا في تاريخ الرسالات والديانات. به تتمثل قيمة الرحمة كما وكيفاً. أنقذت النوع البشري من الشقاء والهلاك. وكان لها دور في الإنقاذ والإسعاد. وبشرت بعالم جديد يقوم على عقيدة التوحيد النقية الواضحة، مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة

(١) «ما من مسلم يزرع شجرة فيأكل منها إنسان أو حيوان أو طائر إلا ووجد ثوابها»، ج٦/ ١١٣.

(٢) «أبيا وال أو قاض أغلق بابيه دون ذوي الحاجة والخلّة والسكنة أغلق الله أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته»، الجوهرة ج١/ ٤٦٦.

(٣) «صهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة... من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحب صهيبا حب الوالدة ولدها»، الجوهرة ج١/ ٤١٥. «الرسالة المحمدية إلى الأمم كافة»، معجز محمد، ج١/ ٢١-٣٠.

(٤) «بعث إلى الناس كافة»، الخصائص الكبرى ج١/ ٢٣.

(٥) مثل أبي بكر وبلال، مختصرة سيرة (١) ص ١٢.

البشرية. أعلنت كرامة الإنسان وسموه، وشرف الإنسانية وعلو قدرها. حاربت اليأس والتشاؤم، وبعثت الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان. جمعت بين الدين والدنيا، ووحدت الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة، وعينت الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح^(١).

وفي العلاقات الدولية كان الرسول يدعو للقياصرة الذين يؤمنون به في حين أنكرته البطارقة. فرجال الدين سلطة قائمة، تبحث عن بقائها وليس عن الحقيقة^(٢). العيب الرئيسي لرجال الدين أنهم فقهاء السلطان أكثر مما هم فقهاء الشعب. ولما مزق كسرى كتاب الرسول الذي يدعو فيه إلى الإسلام دعا عليه لتمزيق ملكه^(٣). فهو القوة الماضية، والإسلام هو القوة القادمة.

وأحيانا يظهر الصراع بين العرب والمجوس، بين الأدب العربي والأدب المجوسي عندما غلب حسان شاعر المسلمين شاعر الفرس^(٤). وهي بقايا جاهلية وطغيان الأدب على السياسة، والشعوبية على الدين.

الإسلام آخر مرحلة في تطور الوحي منذ آدم حتى محمد^(٥). أتى على فترات طبقا لتطور الوعي البشري ومساهمته فيه. فيه اكتمل الوحي والدين الطبيعي حيث قام الوحي على العقل والواقع كما هو الحال في فلسفة التنوير في الغرب^(٦). فالشهادتان تعني التوحيد والنبوة، التوحيد الطبيعي وختم النبوة^(٧). والفعل «أشهد» يشير إلى الدين الطبيعي أي قدرة الإنسان على الإدراك والوعي الذاتي. الإسلام آخر لينة في بناء ساهم فيه كل نبي سابق بجزء حتى أكمل بآخر لينة^(٨). وحظي الرسول بخمس: النصر

(١) السيرة النبوية ص ٤٥٧-٤٨٥.

(٢) «ثبت الله ملكه»، الجوهرة ج ١/ ٤٥٤.

(٣) «مزق الله ملكه»، السابق ج ١/ ١٠٧.

(٤) «معجز محمد» ج ٢/ ٢٧٥.

(٥) «في إثبات أن دينه ناسخ كل دين، وأنه خاتم النبيين وعموم رسالته إلى الناس أجمعين، وتفضيله على جميع النبيين والمرسلين»، سيرة النبي ص ١٢٣-١٢٨.

(٦) لسنج: تربية الجنس البشري، مقدمة.

(٧) «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، سيرة النبي ص ١٢٣.

(٨) «مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لينة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع هذه اللينة. فأنا اللينة. وأنا خاتم النبيين»، السابق ص ١٣٢.

بردع الآخر، والغنائم، والشفاعة، وعموم الرسالة، وطهارة الأرض. فطهارة الأرض مثل عموم الرسالة^(١). والرسول خاتم النبيين. وهذه ليست كرامة في غير النكاح بل هو تطور طبيعي للوحي في مراحل الكبرى الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام. وأتمته خير الأمم وإجماعها حجة. وفي ذلك عصمتها. وليس للأفراد كما هو الحال في رؤساء الكنيسة. والشرعية مؤيدة وناسخة لجميع الشرائع، مثبتة ومنفية^(٢). وكتابه معجز بخلاف كتب سائر الأنبياء. والأرض له ولأتمته مسجدا طهورا طبقا للدين الطبيعي الذي لا يحتاج إلى مساجد ومعابد وكنائس ودور عبادة. وأتمته شهداء على الناس إلى يوم القيامة لأنها حاملة لواء الحق والعدل. صفوفها كصفوف الملائكة. ورسالته عامة للإنس والجن. وقد أقرت جماعة الخنفاء بنبوته قبل البعثة^(٣).

(١) أعطيت خمسا لم يعطهم أحد من قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وبعثت إلى الناس كافة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، السابق ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) وهو معنى الفعل الألماني الشهير عند هيجل Aufheben.

(٣) خصائص الرسول ص ٢٥٦-٢٦٣ / ٢٨٨٨ / ٣٠٢-٣٠٤، رسالة النبي عامة لجميع الخلق والأنبياء وأعمهم كلهم من أتمته، الخصائص الكبرى ص ٢٣-٢٤.

الفصل الثاني

مصير الرسالة

١ - النبوة والخلافة

ويعني «مصير» الرسالة انتشار الإسلام منذ وفاة الرسول حتى عصر الخلفاء قبل الفتنة. لذلك ألحق تاريخ الخلفاء بتاريخ الرسول. وألحق كلاهما بكتب التاريخ العامة حتى عصر المؤرخ. وإذا كان المؤرخ الحالي يعيش في النصف الأول من القرن الخامس عشر الهجري فإن مصير الرسالة يمتد بامتداد هذه القرون^(١). وإلحاق الخلافة بالنبوة شائع في كتب التاريخ الذي تكون فيه النبوة أحد مراحل في تاريخ طويل منذ خلق العالم حتى نهايته. ويتوقف التاريخ عند حياة المؤرخ ولكنه لا يستمر بعده استبصارا للمستقبل طبقا لتجارب الماضي خاصة وأن هناك أحاديث عن الرسول بالنسبة للمستقبل وإصدار أحكام عليه. وقد خصصت لها كتب الحديث أبوابا خاصة بعنوان «كتاب الفتنة» أو «أحاديث آخر الزمان»^(٢). مصير الرسالة يشمل استئناف الرسالة في

(١) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، وهي أجزاء من كتاب «الثقات» في التاريخ للبيهي. الإشارة ص ٤٦٥ - ٥٦٥، مختصر سيرة (١) ص ٢٨-٣٨، مختصر رسالة (١) ٢١٦٩-٢٢٥ «هذه خلافة النبوة»، «هؤلاء يكونون الخلفاء بعدي»، شياثل الرسول ص ٢٢٢.

(٢) «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، البيهي ح ١/ ٤١٥. «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي، وأنه سيكون خلفاء فيكثرون... فوا يبعة الأول فالأول. وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم»، «ما كان نبي إلا كان له حواريون يهدون بهديه ويستنون بسنته ثم يكون من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويعملون ما ينكرون»، «يكون بعد

التاريخ بعد وفاة الرسول عند الخلفاء، تم تقديس الخلفاء مثل تقديس الرسول، وعدم تشخيصهم في الفن، الرسم أو النحت أو السينما أو أي فن تشكيلي. فالداسة في التاريخ تمتد من الرسول إلى الصحابة إلى التابعين إلى تابعي التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين حسب القول المشهور^(١).

والحاق الخلافة بالنبوة عند السنة مثل إلحاق الإمامة بالنبوة عند الشيعة. فالنبوة مستمرة في التاريخ. التاريخ عند أهل السنة هو تاريخ الملوك، تاريخ ما هو كائن. والتاريخ عند الشيعة تاريخ ما ينبغي أن يكون، تاريخ الأئمة السبعة عند الإسماعيلية أو تاريخ الأئمة الاثني عشر عند الإمامية الاثني عشرية. ويعيد كلاهما قراءة التاريخ الماضي، تاريخ الأنبياء. فالأنبياء أولي العزم ستة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، حلقات التاريخ الرئيسية^(٢).

والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء للبستي (٣٥٤هـ) أقرب السير إلى ابن هشام في استكمال السيرة في أخبار الخلفاء بالرغم من أنه جزء من كتابه في التاريخ «الثقات». وتعتمد عليه معظم كتب التاريخ كما يعتمد عليه الطبري في تاريخه. أما تاريخ الخلفاء فله مصادره التاريخية: الطبري ومسكويه وابن أبي الأزرهر^(٣). وينقسم إلى ثلاث فترات:

الأنبياء خلفاء يعملون بكتاب الله، ويصلون في عباد الله، ثم يكون من بعد الخلفاء ملوك يأخذون بالثأر، ويقتلون الرجال، ويصطفون الأموال، فمغير بيده، ومغير بلسانه، ومغير بقلبه، وليس وراء ذلك من الإيمان شيء، «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائنات خلافة ورحمة، وكائنات ملكا عضوضا، وكائنات عزة وجبرية وفسادا في الأمة، يستحلون الفروج والخمر والحريز، وينصرون على ذلك، ويرزقون أبدا حتى يلقوا الله»، «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا»، شاتل الرسول ص ٢١٤-٢١٥.

(١) «انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره جالسا محتيا قتل: إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة. ثم انطلق حتى تأتي الثانية فتلقى عمر راكبا على حمار تلوح صلته قتل: إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة. ثم انصرف حتى تأتي عثمان فتجده في السوق يبيع ويتاع قتل: إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة بعد بلاء شديد»، السابق ص ٢٢٣.

(٢) الإمام الحق بعد الرسول، وجوب نصب الإمام، سيرة النبي ص ٣٩٧-٣٩٩، شروط الإمامة ص ٣٩٩-٤٠٣.

(٣) يضاف إليهم: الفسدي، خليفة، ابن قانع، الخطيب، ابن عساكر، ابن حبان، ابن الأثير، المسعودي، ابن الجزار، الديلمي، السروجي، الإشارة ص ٤٦٥-٤٦٧.

الخلفاء الراشدون، والأمويون، والعباسيون^(١). وأكبرها العباسيون^(٢). وهو تاريخ موضوعي خالص دون أي حكم تقييمي، موضوعية خالصة وحياد تام كما يفعل المؤرخ الراصد. وكل الأسماء محاطة بالتبجيل والتعظيم. فالخلفاء الراشدون رضي الله عنهم مع الحسن بن علي خمسة، بل ومعاوية نفسه سبب البلاء عند الشيعة والسنة أيضا رضي الله عنه، وعبد الله بن الزبير وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما. والأمويون خمسة عشر خليفة، ثم يظهر تأييد الدين للسلطة والسياسة في أسماء الخلفاء العباسيين وهم أربعة وأربعون خليفة. أولهم أبو العباس السفاح. ستة منهم تخلو أسماؤهم من الاقتران بالله بالرغم من الدلالة الأخلاقية الدينية لخمسة منهم: المهدي، والمهدي، والرشد، والأمين، والمأمون^(٣). وسبعة وثلاثون منهم أسماؤهم مقرونة بالله؟ البعض منها متكرر^(٤). والبعض يبين نفس الاشتقاق. ومنها الأسماء التي تطلب العون من الله على أعدائه وهم الخصوم السياسيون^(٥). مثل: المكتفي بالله، المستضيء بأمر الله، المستعين بالله، المعتمد على الله، المستنجد بالله. ومنها أسماء تدل على مدى طاعة الخليفة لله^(٦). ومنها اسم يستدعي الله القاهر لخصومه^(٧). والسؤال هو: هل إضافة الخلافة بعد الرسول تقوم على توجه أيديولوجي في الصراع بين السنة والشيعة، الخلافة بعد النبوة عند السنة، والإمامة بعد النبوة عند الشيعة؟ هل الخلافة تدل على نفس الوراثة ووراثة الرسول من ذريته في مقابل الشيعة التي تجعل الإمامة بالضرورة من ذرية النبي.

وقد توقف هذا القسم بعد كتب التاريخ القديمة. وأصبحت السيرة تنتهي بوفاة الرسول نظرا لارتباط الرسالة بالرسول، والقضية بالشخص. فلم يعد المؤرخ مهموما

(١) الخلفاء الراشدون، السابق ص ٤٦٨-٤٧٨، الأمويون ص ٤٧٩-٤٩٧، العباسيون ص ٤٩٨-٥٦٥.

(٢) الخلفاء الراشدون (١١ ص)، الأمويون (١٩)، العباسيون (٦٧).

(٣) وهم أبو جعفر المنصور، المهدي، الهادي، هارون الرشيد، الأمين، المأمون.

(٤) مثل: الراضي بالله، المستكفي بالله، المتوكل على الله، والمعتمد بالله، فضائل الخلفاء الراشدين المهديين، المستضيء ص ٧٥٥-٧٦٧.

(٥) مثل: المعتصم بالله، المستعصم بالله، المتصبر بالله، المستنصر بالله، الناصر لدين الله، المسترشد بالله، الراشد بالله، المستظهر بالله، الظاهر بالله، المطيع بالله، الطائع بالله، القادر بالله، المقتدر بالله.

(٦) مثل: المهدي بالله، الراضي بالله، المتقي لله، القائم بأمر الله، المقتدي بأمر الله، المقتضي لأمر الله.

(٧) مثل القاهر بالله.

بالرسالة قدر رغبته في مدح الرسول. والرسول لديه مستقل عن الرسالة وعن مصيرها. إذا ارتبط بماضيها فلمدح رسولها الذي حول العرب من الجاهلية إلى الإسلام. ويؤرخ للخلافة عاما وراء عام أسوة بكتب التاريخ من العام العاشر الذي توفي فيه الرسول حتى العام الأربعين الذي قتل فيه علي. ثلاثون عاما كما تنبأ الحديث «الخلافة ثلاثون سنة ثم تتحول إلى ملك عضود». ويستمر تاريخ الشعوب الإسلامية حتى العصر الذي عاش فيه المؤرخ. تُدون الرسالة بعد وفاة الرسول تاريخيا عاما وراء عام كما هو الحال في كتب السيرة أو في السيرة والخلفاء، بداية بالخلفاء الراشدين الأربعة ونهاية بإلغاء الخلافة العثمانية وبداية أنظمة قريش والجيش الحالية كما تُدون الدلالات وراء الحوادث، والتجارب الحية وراء الوقائع بصرف النظر عن التابع الزمني. التاريخ الخالص يرجع السيرة إلى التاريخ، والدلالات الخالصة ترجع السيرة إلى فلسفة إنسانية عامة. والسؤال هل يمكن الجمع بين الاثنين، التوالي الزمني دون الوقوع في التاريخانية، والمعية الزمانية دون الوقوع في الاضطراب الزمني^(١).

ويقوم التاريخ أيضا على الرواية والسند وذكر اسم الخليفة ونسبه. وفي كل خليفة من الخلفاء الأربعة يذكر نسب كل منهم حتى الوصول إلى بني هاشم أسوة بنسب الرسول الذي يصل إلى إبراهيم^(٢). ويستمر المنهج التاريخي في الخلافة بعد وفاة الرسول. يرصد أسماء الشهداء من المسلمين من قريش ومن الأنصار^(٣). وتستعمل أيضا أقوال الخلفاء مثل عمر كمصدر للسيرة^(٤). ولا تتدخل المعجزات الآن في مسار التاريخ أو في حماية أبطاله أو الانتقام من أعدائه كما تدخلت في حياة الرسول ومراحلها المختلفة منذ قبل الميلاد حتى الوفاة ومراسم الدفن. واختلفت صورة الرسول بعد موته عند الصحابة بل عند أهله. فعند معاذ من الليثامى والضعفاء بعده، أي زعيم اشتراكي. وعند آخر الناس بعده غنم بلا راع أي قائد سياسي. وعند ابنته فاطمة انقطع اتصال السماء بالأرض

(١) التاريخانية Historicism، التوالي الزمني Diachronism، المعية الزمانية Synchronism، محمد ص ٢٣٩-

٢٦١، فضل الخلفاء الأربعة، سيرة النبي ص ٤٠٧-٤١٩، أدلة فضل الخلفاء الأربعة ص ٤١٢-٤٢٢

(٢) أبو بكر، البستي ح ٤١٩، عمر ح ٤٥٢/٢، عثمان ح ٤٩٩، علي ح ٥٢١/٢، الإشارة ص ٤٦٨-

٤٧٨. فضائل الخلفاء الراشدين المهديين، سنن المصطفى ص ٧٥٥-٧٦٧.

(٣) البستي ح ٤٤٠-٤٤٢.

(٤) ابن هشام ح ٢٠٥-٢٠٦.

عن طريق جبريل، وعند آخر المدينة أضيق على أهلها من الخاتم، وعند عائشة لا حياة هائلة بعده^(١). ولم تخل القرارات من الأهواء والقبلية والنوازع البشرية. فالإيمان لا يقضي عليها بل يقللها إلى حدّها الأدنى^(٢). وتداخلت المصاهرة والصدقة والنبوة في الربط بين الجماعة الإسلامية الأولى^(٣). وكانت الغاية من الزواج الذرية^(٤). وما زالت آثار النبوة باقية في أحاديث الرسول مثل دور القرآن في رفع أقوام وخفض آخرين^(٥). فالنبوة مهمة بمصيرها بل وتنبأ به.

٢- المخاطر الداخلية والخارجية

ويتحدد مصير الخلافة بنوعين من المخاطر: المخاطر الداخلية مثل الخلاف حول السلطة السياسية وشرعيتها، والانقلابات المتتالية، وتفكك الدولة المركزية في بغداد أو في استانبول، وتحول دولة الخلافة إلى إمارات أو ولايات تقوي أو تضعف، تستقل أو ترتبط بالمركز، وتحول السلطة من البيعة إلى الوراثة. فقد استقرت دولة الأمويين على شلالات من الدم، رمزها السفاح. وجاء العباسيون بشلالات أخرى من الدم. واستمرت على مدى خمسة قرون. ثم ضعفت واستقلت أطرافها. وتحولت إلى أمصار مستقلة، الفاطميون والأيوبيون والعباسيون والطولونيون والإخشيديون والمهاليك والأتراك، حتى قضى عليها التتار واحتلوا بغداد. ثم قضى عليها العلمانيون بإلغاء الخلافة في استانبول ١٩٢٤م. والآن الحكم لقريش أو الجيش، من يتسبب إلى بني هاشم أو إلى الضباط الأحرار. ولم يعد التسلسل قائماً متصلاً إلى بني هاشم. ولو كان صحيحاً فالوراثة ليست مصدراً للسلطة وأصلاً للحكم. والضباط الأحرار قاموا بثورات لتخليص البلاد من الظلم والإقطاع والفساد ثم تمسكوا بالسلطة مدى الحياة لهم ولذريتهم^(٦).

(١) البستي ح ٢/ ٤٢٨.

(٢) اختار سعد آخر الثلاثة الذين اقترحهم عمر عليه للرئاسة لأن له فيه هوى، البستي ح ٢/ ٤٧٨.

(٣) تزوج الرسول عائشة ابنة صاحبه أبي بكر ثم حفصة ابنة صاحبه عمر للمساواة بينهما، وتزوج عمر أم كلثوم بنت علي من فاطمة وهو وسط الفترحات في العراق والشام، وتزوج عثمان ابنة الرسول، وتزوج علي فاطمة ابنة الرسول وابنة الزبير.

(٤) تزوج عمر بمكة بينت حفص بن المغيرة، ولما علم أنها عاقر طلقها قبل أن يدخل بها، البستي ح ٢٤٧٥.

(٥) «إن الله عز وجل يرفع بهذا القرآن أقواماً ويذبح به آخرين»، البستي ح ٢/ ٤٩٣.

(٦) البستي ح ٢/ ٤١٣-٤١٩، خير الوري ٧٠-٧٧.

وتفرق المسلمون بمجرد وفاة الرسول قبل تجهيزه ودفنه وهو مازال مسجياً على فراشه^(١). فقد انحاز حي من الأنصار إلى سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة. واعتزل علي والزبير وطلحة في بيت فاطمة. وانحاز بقية المهاجرين ونفر آخر إلى أبي بكر. فبلغ أبا بكر وعمر الخبر. فإن كان لهم في هذا الأمر أي الخلافة حاجة فليتحركا قبل أن يتفرق الأمر. فطلب عمر من أبي بكر التوجه إلى الأنصار. وكثر القيل والقال حتى أدرك البعض أن بيعة أبي بكر فلتة وقى بها المسلمون شراً كبيراً. وأراد عمر في المساء يحذر الناس ممن يريد غضب أمرهم. فحذره آخر بآلا يفعل لأنه في موسم الحج يجتمع الرعاع والغوغاء. فالأفضل الانتظار للعودة لمخاطبة المؤمنين. وكان أمير الحج يسمى أمير المؤمنين. فقام في المساء وحذر المسلمين من ترك آية الرجم. كما نبه إلى أن البيعة لا تتم إلا بمشورة المسلمين. وسمع ما قاله الأنصار واعتبار المهاجرين جزءاً منهم، يريدون اغتصاب الأمر. وأراد عمر الكلام. ومعروف أن فيه حدة. فمنعه أبو بكر. وتكلم بما كان يريد أن يقوله عمر وبطريقة أفضل. واعترف بفضل الأنصار، وأن هذا الأمر أي الخلافة لن تخرج عن هذا الحي من قريش، عمرو أبو عبيدة بن الجراح. فشعر عمر بالخرج، كيف يُقدم على أبي بكر؟ فاقترح أنصاري أن يكون منهم أمير. ومن المهاجرين أمير، وكثر اللغط وارتفعت الأصوات. وخاف عمر من الاختلاف فطلب من أبي بكر أن يمد يده لبياعه. ثم بايعه المهاجرون ثم الأنصار. وظن الناس أن سعد بن عباد قد قتل، والقول بأن الله هو الذي قتله إدخال الله في أمر سياسي خالص، وإعطاء الشرعية لقرار سياسي إنساني بتدخل إلهي. وكان القرآن قد نزل من قبل^(٢). وفي اليوم الثاني خطب عمر في الناس مبيناً خصال أبي بكر. فبايعه الناس البيعة العامة. وخطب أبو بكر خطبته الشهيرة التي أصبحت دستوراً للديمقراطية الإسلامية فيما بعد^(٣).

(١) ابن هشام ج ٢/ ٥٥١-٥٥٥، البستاني ج ٢/ ٤١٩-٤٢٤.

(٢) «فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا بِاللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ»، ابن هشام ج ٢/ ٥٥٤، الإمام الحق بعد الرسول، سيرة النبي ص ٤٠٣-٤٠٦.

(٣) «فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني. وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»، ابن هشام ج ٢/ ٥٥٤-٥٥٥.

ليس بمعنى خليفته أو وليه أو وصيه بل بمعنى القرابة والقربى^(١). تزوج فاطمة سيدة نساء العالمين. فضائله ومواعظه ووصاياه محفوظة في الذاكرة على مدى التاريخ حتى ولو كانت بعض الروايات غريبة^(٢). توحى بخلافته وولايته ووصيته لأنه من صلب الرسول وليس فقط لفضائله الذاتية^(٣).

ويغير الناس آراءهم وضمايرهم. ينصحونه بالراحة، ويغشونه اليوم. صحيح أن العزلة حل يحقق الدماء، ولكن الناس تطالب بدم عثمان. وأصر علي ما يجب أن يكون. فعين الأمراء في الأمصار باعتباره أميرا للمؤمنين على العراق والشام ومصر وسلطان معاوية فارض نفسه. فافتروا عليه. فقد قوي ولاية عثمان، وأصبح من الصعب خلعهم. وأصبح قميص عثمان ذريعة لتجميع الناس ضد علي إن لم ينتقم من قتلته. وحاولت أم كلثوم بنت علي وزوجة عمر بن الخطاب التوسط والنصح. واستمرت المكاتبات بين علي ومعاوية. كل منهم يتوعد الآخر. ستون ألف سيكون تحت قميص عثمان، ورسائل مشابهة بين رؤساء الأمصار المخلوعين من علي والمتعاطفين مع معاوية. ودخلت عائشة تطالب بدم المقتول ظلما من أجل الإصلاح بين الناس. وحدث اتفاق بين العراق والشام

(١) «أولكم ورودا على الخوض أولكم إسلاما علي بن أبي طالب»، الجوهرة حـ ٢/ ٢٠١، «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، ص ٢٠٦-٢٠٧/ ٢٤٢.

(٢) فضائل علي ومواعظه ووصاياه ص ٢٤٢-٢٦٥ «لا يجب علي منافق، ولا يبغضه مؤمن» ص ٢٤٢، «اللهم انتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير»، «إن الله أمرني بحب أربعة علي منهم»، «علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي»، «أنت أخي في الدنيا والآخرة» ص ١٤٣، «أنت ولي كل مؤمن من بعدي»، «يا عم رسول الله، والله أشد حبا له مني. إن الله جعل فيه كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب هذا»، ص ٢٤٤، «يا علي إن الله أمرني أن أدنك ولا أقصيك، وأعلمك ولا أجفوك»، «اللهم من أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، «من أحب عليا فقد أحبني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني، ومن آذى عليا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»، «يلك فيه رجلا نحب مطر وكذاب مفر»، «تفرق فيك أمتي كما افرقت بنو إسرائيل في عيسى» ص ٢٤٤-٢٤٥، «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لا أعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله. ليس بفرار، يفتح الله على يديه»، ص ٢٤٦-٢٤٧، «اللهم أهد قلبي وسدد لساني» ص ٢٤٨، «أنا مدينة العلم وعلي بابها. فمن أراد العلم فليأت من بابي»، «أفضاكم علي...»، «إن تولوا أبا بكر تجده ضعيفا في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا عمر تجده قويا في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا عليا ولن تفعلوا تجده هاديا مهديا فيسلك بكم المظي لله وحرامه معه»، ص ٢٤٨-٢٤٩، «لتسلمن أو لأبعثن رجلا مني، مثل نفسي فليضرين أعناقكم أو ليسبين ذرايكم وليأخذن أموالكم» ص ٢٥٠، «علي غشوشن في ذات الله» ص ٢٥١.

(٣) نقشفه في لباسه وفي طعامه، الجوهرة حـ ٢/ ٢٦٦-٢٧٩، مقتله ص ٢٧٩-٢٨٩.

على نصرة القوي معاوية^(١). وكانت حفصة بنت عمر مع رأي عائشة. وخصص يوم للنحيب على عثمان من قتلته. وما زالت السلطة في المدينة اتباعاً لقول الرسول^(٢). وبدأ القتال والاغتيال. قتل ابن الزبير بالرغم من تحذير الرسول^(٣). وقتل القاتل نفسه لأنه إذا قاتل مع علي فهو في النار وإذا قاتل ضده فهو في النار. مما اضطر علياً أن ينادي بعدم قتل مدبر ولا جريح، وأن من أغلق بابه، ومن طرح السلاح فهو آمن. ولم يقتل بعد ذلك أحداً. ومع ذلك خرج أهل الشام كلهم عليه مطالبين إياه بدم عثمان. وكتب علي إلى معاوية من جديد مذكراً إياه بموقف أبيه منه، وأنه أحق الناس بهذا الأمر، فلم يشأ علي مخافة الفرقه. ومع ذلك تهيأ معاوية للسير إلى علي. مستعملاً كل وسائل السياسة. فالحرب خدعة.

ولجأ الكل للقرآن والحديث لتبرير مواقفه السياسية^(٤). فالحرب ضرورة. واعتبر كل فريق الآخر عدواً، وليس مخالفاً في الرأي. ولم يعد العدو هم الفرس أو الروم أو الأحباش. وخير معاوية الناس إما قتال البغاة أو المطالبة بدم عثمان أو الدفاع عن النساء والذرائع. وقتل بالمبارزة نفر من الفريقين. وقتل عمار بالرغم من تحذير الرسول^(٥). وخدع عمرو بن العاص فريق علي بالتحكيم لما اشتد القتال دون غالب أو مغلوب برفع المصاحف على أسنة الرماح. فالحكم لله. واكتشف علي الخديعة، أن الفريق الآخر يقول ما لا يفعل. ووجد أصحابه يوافقون على التحكيم. ورضي كل فريق أن يبعث حكماً من عنده، وكان حكم معاوية عمرو بن العاص وحكم علي أبو موسى الأشعري^(٦). ورفضت الخوارج التحكيم مع أنهم كانوا معه في البداية. وذكر فيهم علي الآية^(٧). وكانوا حوالي خمسة آلاف. وقتل محمد بن أبي بكر الذي أراد المصريون تنصيبه والياً

(١) البني ح ٥٢٦/٢ - ٥٤٠.

(٢) «إن الإسلام ليأزر إلى المدينة كما تآزر الحية إلى جحرها»، السابق ح ٥٣٣/٢ - ٥٣٤.

(٣) «قاتل ابن صفيّة في النار»، السابق ح ٥٣٥/٢.

(٤) «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ»، «لَيَنْجِزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا»، السابق ح ٥٤٠/٢ - ٥٤١.

(٥) السابق ح ٥٤٠/٢ - ٥٥١.

(٦) «تقتلك الفئة الباغية»، السابق ح ٥٤٢/٢.

(٧) «هَلْ تَنْتَكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»،

السابق ح ٥٤٦/٢.

على مصر. أدخل في جوف حمار ميت وأحرق بالنار. وسر معاوية بقتله وحزن علي. وعين الأشر واليا على مصر. فدفن له معاوية مؤامرة. سقته امرأة عسلا مسموما وقال عبارته المشهورة «إن لله جنودا من عسل». واستعملت شعارات بدر، «شاهت الوجوه»، شاهت الوجوه»، في حرب المشركين إلى الصراع الداخلي بين المسلمين^(١). وبائع أهل المدينة معاوية بالخداع والضغط.

وقد تنبأ الرسول بفتنة علي^(٢). قاتله الزبير ظلما. وقتل بها عمار بغيا. وكما اختلفت بنو إسرائيل اختلف المسلمون، واحتكم كل فريق إلى حكمين ضلا وأضلا. وانشغل علي والأمة بأكملها بالفتنة الداخلية والصراع على السلطة. وتركوا الفتح الخارجي إلا مرة واحدة خرج قسطنطين بن هرقل بالمراتب يريد المسلمين فعصفت بهم ريح أغرقتهم. ونجا قسطنطين حتى انتهى إلى صقلية. وقتله الروم في حمام عقابا له على قتل جنده^(٣). وتنبأ الرسول بخروج الخوارج عليه وقتلهم وعلاماتهم بالرجل الناقص الخلق واليد. وقد اتهم أحدهم الرسول بأنه لم يعدل. ووصفهم الرسول بأنه تحقر الصلاة والصيام مع أحدهم. لا تتجاوز قراءتهم للقرآن ألسنتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فارغ النصل والقدح^(٤). هم حدثاء الأسنان. سفهاء الأحلام لا يجاوز الإيمان حناجرهم. جزاؤهم القتل. يقاتلون على تأويل القرآن كما كانوا يقاتلون على تنزيله. وقد لا تنطبق هذه الأحاديث على الخوارج. وإذا انطبقت فبشكل بعدي، قراءة الحاضر في الماضي، والواقع في النص^(٥). ويدفع موقف علي إلى حده الأقصى وكأنه معاد لعثمان

(١) السابق ٥٤٨/٢.

(٢) شتائل الرسول ص ٢٣١-٢٣٢ لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة»، ص ٢٣٢ «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين ضلا وأضلا، وإن هذه الأمة ستختلف فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين ضلا وأضلا من اتبعهما» ص ٢٣٤.

(٣) البستي ح ٢/ ٥٣١.

(٤) ناقص الخلق (المخرج)، ناقص اليد (ذو الثدبة)، شتائل الرسول ص ٢٣٤-٢٣٧ «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ص ٢٣٥.

(٥) «دعه فإن له أصحابا يحقر أحكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرنون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...» ص ٢٣٥. «يخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في أجورهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة» ص ٢٣٥-٢٣٦، «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» ص ٢٣٦.

مع أنه كان يحاول دفع الفتنة وتوحيد المسلمين. ووضع حراسة على باب عثمان، ابن علي ضد الخارجين عليه لولا أنهم أتوه من الخلف بعد تسليق الحائط والصعود إلى السطح والنزول منه. والاستشهاد بأقوال علي تكاد تقارب الاستشهاد بأقوال الرسول^(١). فكلاهما معصومان من الخطأ.

وقتل عبد الرحمن بن ملجم عليا بسيف مسموم جزاء له على حب امرأة أجمل أهل زمانها والزواج منها. والثمن ثلاثة آلاف وقتل علي^(٢). وفي مسجد الكوفة ترصد ابن ملجم لعلي فضربه من خلفه من قرنه إلى جبهته. واعترف ابن ملجم بأن السيف مسموم لمدة شهر، وأنه قتل فردا وليس أمير المؤمنين. وطلب علي حبسه، وتطبيب طعامه، وتلين فراشه. فإذا عاش فغفو أو قصاص وإن مات فيلحق به ليخاصمه عند رب العالمين^(٣). ودفن بالكوفة في قصر الإمارة عند مسجد الجماعة^(٤). ولم يكن له مال إلا سبعمائة درهم أراد ابتياع خادم به. وقد تنبأ الرسول بقتله، وتنبأ بمصيره بأن لحيته ستخضب بدماء رأسه، وأنه مثل عيسى ابن مريم أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه. وأحبه النصارى حتى ألوهه^(٥).

وكان المقاتلون يتصورون أنهم مازالوا في عصر النبوة، النصر من السماء، ومواقيت الصلاة في الأرض^(٦). وكان من ضمن القتلى في حروب علي المخدع تعرف عليه علي ضمن القتلى. رجل ليس له ساعد، بين جنبيه ثدي فيه شعرات، إذا مدت امتدت، وإذا تركت قلصت. فتذكر علي قول الرسول «يخرج قوم فيهم رجل مخدع اليد»^(٧). وفي رأي

(١) النبي الأعظم ص ٣٨٨-٣٩٣.

(٢) البستي ح ٢/ ٥٥١-٥٥٣، «إن الأمة ستغدر بك بعدي»، شاتل الرسول ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) «قطعت يديه ورجليه ولم يجزع ولم يتكلم، ثم كحلوا عينيه بمحلول محمي. ثم قطع لسانه ويحرق بالنار»، البستي ح ٢/ ٢٥٢.

(٤) كان له خمس وعشرون ولدا وبتا، خمس من فاطمة، السابق ح ٢/ ٥٥٣.

(٥) «إن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه»، «أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزلة التي ليس بها».

(٦) البستي ح ٢/ ٤٨٧.

(٧) السابق ح ٢/ ٥٤٦-٥٤٧.

الحسن كان علي يقاتل، وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره^(١). ورأى راهب نصراني رأس الحسين مرفوعة على رمح في طريقها من كربلاء إلى دمشق. ورأى نوراً ساطعاً من ديره إلى السماء. فاشتراها بعشرة آلاف دينار. تحولت إلى خزف في أيدي الجند بعد وصولهم إلى دمشق^(٢). لا فرق بين الخيال والتاريخ، بين التوهّم والواقع. فكلاهما حقيقة. الأولى من صنع الذات، والثانية من صنع التاريخ. والتاريخ لا يُعرف إلا من خلال الذات. وقد يضاف الحسن بن علي بالرغم من قصر مدته وانقسام المسلمين^(٣). فعلي لا ينفصل عن نبيه في اكتمال الخلافة الراشدة. ويضاف إليهم جماعة آل البيت لهم بمصر والقاهرة مزارات مشهورة ومساجد معمورة^(٤). كما يضاف ذكر مناقب الأئمة الأربعة إرضاء للشيعة والسنة على حد سواء^(٥). ويضاف إليهم الأربعة أقطاب من الصوفية. فالصوفية هم ورثة أهل البيت والشيعة والسنة^(٦). ويأتي أبو الحسن الشاذلي متمم لهم^(٧).

والشهداء من الطرفين. استشهاد الحسين بجز رأسه في كربلاء، وسم أخيه الحسن عند الشيعة، واستشهاد عمار بن ياسر «تقتلك الفئة الباغية»، وحمزة سيد الشهداء^(٨). وله مع أخيه الحسين مكانة عند الرسول^(٩). هما ريحانتاه من الدنيا. وهما سيدا شباب

(١) السابق حـ ٥٥٣/٢.

(٢) السابق حـ ٥٦١-٥٦٠/٢.

(٣) الإشارة ص ٤٧٨، مختصر سيرة (٢) ص ٥٠٣-٥٠٤، مناقب الحسن والحسين وباقي الأئمة الاثني عشر، النبي المختار ص ١٢٢-١٨٩، الجوهرة حـ ٢١٠-٢٤.

(٤) النبي المختار ص ١٨٩-٢٢٥.

(٥) السابق ص ٢٢٥-٢٥٢.

(٦) السابق ص ٢٥٢-٢٦٨ وهم: أحمد بن الرقاعي، عبد القادر الجيلاني، أحمد البدوي، إبراهيم الدسوقي.

(٧) السابق ص ٢٦٨-٢٧٣.

(٨) وذلك مثل سم إسرائيل بمفردهما أو بالتواطؤ مع بعض الفلسطينيين ياسر عرفات. الحسن بن علي، الجوهرة حـ ٢٢٤-٢٤٢ «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً. حسين سبط من الأسباط»، «اللهم أحبه فإنني أحبه» ص ٢٢٥.

(٩) «حسن مني، وحسين من علي»، «وأنه ريحانتني من الدنيا»، «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما»، «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله على يده بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، «إن ابني أستر جلني فكرهت أن أعجله»، «رأيت هذين يعثران في قميصهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما»، «إنه من لا يرحم لا يُرحم»، «اللهم أني أحبه، وأحب من يحبه»، السابق حـ ٢١١-٢١٤/٢١٦، شتائل الرسول ص ٢٣٨-٢٤١/٢٦٤، أقرباء الرسول حـ ٥٠٧.

أهل الجنة. يصلح الحسين فنتين من المسلمين. كان يكره إنهاء السجود لأن الحسن على ظهره. ونزل من المسجد لإقالتها بعد أن تعثرا في قميصهما. وكان يقبلهما. فمن لا يرحم لا يُرحم. يحبه ويدعو الله أن يحب من يحبه. وقد تنبأ الرسول بأن الحسن سيد يصلح الله به فنتين عظيمتين من المسلمين^(١). فإمكانية المصالحة قائمة بين فتح وحماس، بين الموالاتة والممانعة، بين العرب والعجم، من أجل توحيد الأمة في مواجهة أعدائها، إسرائيل وأمريكا ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. ويذكر الستة الباقيون من العشرة المبشرين بالجنة^(٢).

٧- من الخلافة إلى الملك

وخشي النبي على أمته من بعده^(٣). خشي عليها اتباع الأهواء والشهوات والغفلة، بعد المعرفة، وولاية الدين لغير أهله. وأهل البيت والكتاب طريق الخلاص. وحب آل البيت لا تجبه الصلاة بين الركن والمقام. والأثبت على الصراط أشد الناس حبا لأهل البيت وأصحاب الرسول. الرسول الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن

(١) الأنوار ح ١/ ٢١٣، الوفا ح ١/ ٣٠٩.

(٢) وهم «الزبير بن العوام، الجوهرة ح ٢٢٩٢-٣٢٢، طلحة بن عبيد الله ص ٣٢٥-٣٣٣، عبد الرحمن بن عوف ح ٢/ ٣٣٧-٣٤٦، سعد بن أبي وقاص ص ٣٤٩-٣٥٥، سعد بن زيد ح ٢/ ٣٥٩-٣٦١، عامر ابن عبد الله بن الجراح ح ٢/ ٣٦٥-٣٦٩، «أوجب طلحة، وكان شهيدا وهو حي» ص ٣٢٥. «عبد الرحمن ابن عوف من سادات المسلمين»، «أمين في السماء أمين في الأرض» ص ٣٣٨، «اللهم أجب دعوته وسدد رميته» (سعد بن أبي وقاص) ص ٣٤٩. «إن لكل أمة أمينا وإن أمينا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، «لأيقن إليكم رجلا أمينا حق أمين»، «لأرسلن معكم القوي الأمين»، «هذا أمين هذه الأمة» ص ٣٦٥-٣٦٦، «سيكون فيكم اثنا عشر خليفة: أبو بكر الصديق لا يلبث خلفي إلا قليلا، وصاحب دارة رحي العرب. يعيش حميدا ويموت شهيدا... عمر بن الخطاب... وأنت (عثمان) يسألك الناس أن تخلع قميصا كسأكه الله. والذي بعثني بالحق لنن خلعت لا تدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»، شمائل الرسول ص ٢٢٤.

(٣) «أخاف على أمتي من بعدي ضلالة الأهواء واتباع الشهوات، والغفلة بعد المعرفة»، النبي الأعظم ص ٤٨٦، «لا تيكروا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكروا على الدين إذا وليه غير أهله»، ص ٧١٣، «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعشقي أهل بيتي، وأنها لن يفترقا حتى يردا على الخوض»، «لو أن رجلا حصن بين الركن والمقام فصل وصام ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار»، ص ٧١٣-٧٢٠.

والحسين ثمرتها وشيعتنا ورقها استكمالاً للصورة بمدح الشيعة. موالاة علي وموالي علي والافتداء بأهل البيت الذين خلقوا عن طينة الرسول يحيا مثله دعوت مثله. أهل البيت مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق. ولن يعذب الله أهل البيت لأنهم يقرون بالتوحيد. يسالم الله من يسالم أهل خيمته، ويحارب من يحاربهم، ويوالي من يواليهم. والله ملائكة في الأرض. يعاونون آل البيت.

وينقسم مصير الرسالة أي تاريخ الرسالة بعد وفاة الرسول إلى قسمين: الخلفاء، والملوك، الخير والشر، الخلافة والملك العضود طبقاً لحديث الرسول^(١). وتكتفي كتب السيرة والخلافة بذكر اسم الملك وولاته على الأمصار بعد أن أصبحت السلطة هي أهم الأكبر بعد ذكر المؤسس الأول للملك معاوية.

وما زال الحديث موجهاً للتاريخ بالتحول من الخلافة الراشدة إلى الخلافة غير الراشدة، الراشدة تعمل بما تعمل وبما تؤمر، وغير الراشدة يعملون بما لا يعلمون وبما لا يؤمرون^(٢). وهو نفس المعنى في حديث «خير القرون قرني ثم الذي يلونه» في صياغاته المتعددة^(٣). فخير الناس بعد الرسول الصحابة ومع الخلفاء الراشدين العشرة المبشرون بالجنة^(٤). والخلفاء الراشدون قليلون كما كثيرون كيفاً. فهم الذين حملوا استمرار

(١) الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكاً، ذكر البيان بأن من ذكرناهم كانوا خلفاء ومن بعدهم كانوا ملوكاً، أبو بكر ستان وعمر عشر، وعثمان اثنا عشر، وعلي ست، البستي حـ ٥٥٣-٥٥٤، مختصر السيرة (١) حـ ٥٥٣-٥٥٤، شائلا الرسول ص ٢٣٩ / ٢٧٠.

«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكاً»، الجوهرة ص ٢١٥، «اللهم ارحم خلفائي الذين يأتون من بعدي يرددون أحاديثي وستي ويعلمونها الناس»، ص ٣٩، «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثون أو سبع وثلاثون. فإن يهلكوا فسيل من قد هلك، وإن يتم لهم دينهم يقيم لهم سبعين عاماً»، «ليمتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين»، شائلا الرسول ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) «يكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون، ثم يكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر عليهم فقد برئ، ولكن من رغب وتابع»، البستي حـ ٥٨٣-٥٨٤.

(٣) «خير أمتي القرن الذي بعث فيهم ثم الذين يلونهم»، السابق حـ ٥٨٣-٥٨٤، سيرة النبي ص ٨٨.

(٤) الخلفاء الأربعة ثم طلحة قتله مروان بن الحكم بسهم ومات عام ٣٦هـ يوم الجمل، والزبير بن العوام قتل عام ٣٦هـ وسعد مات في قصره عام ٥٨هـ وسعيد بن زيد عام ٥١هـ وعبد الرحمن بن عوف عام ٣١هـ وعامر بن عبد الله بن الجراح عام ١٨هـ السابق حـ ٥٨٣-٥٨٨.

الرسالة ضد الثورات المضادة في الداخل. والملوك كثيرون كما قليلون كيفا سواء في مدة الحكم أو في أثره الإيجابي على استمرار الرسالة. فقد بدأ النزاع على الحكم والصراع على السلطة بصرف النظر عن الرسالة^(١). ويكتب في الخلفاء الكثير نظرا لكثرة أعمالهم منذ بيعتهم وفتوحاتهم حتى وفاتهم. أما الملوك باستثناء معاوية وابنه يزيد فلا يكتب فيهم إلا مواليدهم ووفياتهم وعدد سنين ولايتهم^(٢). الخليفة حكم مدة طويلة في حين أن حكم الملك مدة قصيرة، انتهى بانقلاب أو قتل أو موت^(٣). وقد لا تتجاوز مدة الحكم الملك شهورا معدودة. وأكبر مدة حكم معاوية.

وقد تنبأ الرسول بخلافة معاوية^(٤). وكان شرا لا بد منه. وبالرغم من شخصيته الملوكية أوصاه الرسول بأن يحسن للناس. وتتحول الخلافة بالمدينة إلى ملك في الشام. الإيمان بالحجاز، والفتن بالشام. الخلفاء بالمدينة والأبدال بالشام. وعرف ذلك الرسول في اليقظة وفي المنام. والأبدال ينصرون الإسلام. والخوف تأويلهم بالملوك^(٥). وهو اللفظ الذي استعمله الصوفية.

وبالرغم من أهمية معاوية إلا أنه كان دائم الذكر مع علي كخصم له. لذلك لم يذكر كأول الملوك باستفاضة^(٦). وكان التجهيز والتأمر كله لتولية ابنه يزيد قاتل الحسين. الأب قاتل علي، والابن قاتل الحسين. بايعت الشام يزيد، وبايع الشيعة الحسين بعد أن استقدموه إلى الكوفة. فأرسل مسلم بن عقيل من المدينة لأخذ بيعة أهل الكوفة.

(١) يذكر البستي ستة وثلاثون ملكا، البستي حـ ٥٥٣/٢-٥٥٨.

(٢) أبو بكر (عدد الصفحات) (٣٣)، عمر (٤٧)، عثمان (٢٢)، علي (٣٢)، معاوية (٢)، يزيد (٧)، ثم (٣٦) ملكا في (٢٧) صفحة.

(٣) أبو بكر (عدد السنوات) (٢)، عمر (١٢)، عثمان (١٠)، علي (٦).

(٤) «لا تذهب الأيام والليالي حتى يجمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم (الدبر)، ضخم البلمع (الخلق)، يأكل ولا يشبع وهو معاوية»، «يا معاوية، إن ملكت فأحسن»، «يا معاوية إن وليت أمرا فائق الله وأعدل»، «أنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم»، شئائل الرسول ص ٤٣٩.

(٥) «الخلافة بالمدينة والملك بالشام»، «بينما أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهب به. فاتبعت ببصري فعمد به إلى الشام، إلا وأن الإيمان حين تقع الفتن بالشام»، «الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلا. كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا. يسقي بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم الأعداء»، السابق ص ٢٤٠-٢٤١.

(٦) البستي حـ ٥٥٣/٢-٥٥٥.

وبلغت البيعة ثمانية عشر ألف رجل. فأمر يزيد والي البصرة بقتل مسلم بن عقيل أو إرساله إليه. ودعاه مع ابن عروة إلى القصر. وهشم رأسه بقضيب وتركه محتضراً. ثم ركب مسلم بن عقيل مع ثلاثة آلاف رجل لمقاتلة عبيد الله بن زياد. فلما اقترب من القصر وجد أن أصحابه تخلفوا عنه ولم يبق منهم إلا عشرة. فرجع ولم يجد وراءه أحدا فلما استراح مسلم بن عقيل في دار امرأة وأخبر ابنها الوالي بوجود مسلم في الدار أرسل ستين رجل فقاتلهم حتى كل ومل وقبضوا عليه وأمنوه وأخذوه. فصعد إلى القصر وهو يسبح ويكبر، وهو يدعو الله على من خذلوه وكذبوه. فضربت رأسه وسقطت جثته ثم رأسه. وأخرج هانيء بن عروة الذي آواه في داره إلى السوق وضربت رقبتة. وأرسلت الرأسان إلى يزيد^(١). هذا هو حال الملك بعد الخلافة، والخلافة بعد النبوة.

وسيلقى أهل البيت بعد الرسول القتل والتشريد على يدي بني أمية وغيرهم^(٢). وتبرز الأحاديث الموضوعة في فضائل معاوية. فالأمناء سبعة: اللوح، والقلم، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، ومحمد، ومعاوية. ولقد ائتمن الله على وحيه جبريل والرسول ومعاوية. وكاد يُبعث معاوية نبيا من كثرة علمه. ويحشر معاوية وعليه حلة من نور ظاهرها الرحمة، وباطنها الرضا. يفتخر به الجميع لكتابة الوحي. وهو رجل من أهل الجنة، يزاحم الرسول على بابها. دعا الرسول أن يملأ بطنه علما وحلما، في مقابل حديث «لا أشبع الله بطنه بدلا من الطعام». يحبه الله وكأنه على رفارف الجنة. يحبه الله ورسوله، الرسول مدينة العلم وعلى بابها ومعاوية حلقتها^(٣).

تكشف الأحاديث عن صراع بين فئتين^(٤). أبو بكر وعمر وعثمان في ناحية وعلى

(١) السابق حـ ٥٥٥/٢-٥٥٧.

(٢) «إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وأن أشد قومنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»، «إذا بلغت بنو أمية أربعين اتخذوا عباد الله حولا...»، النبي الأعظم ص ٢٤٣.

(٣) السابق ص ٥٥١-٥٥٦، «إذا رأيتم معاوية وعمر بن العاص مجتمعين ففرقوا بينهما فإنهما لن يجتمعا على خير»، وفي مروان بن الحكم «هو الملعون بن الملعون». وفي معاوية «اللهم العن القائد والسائق والراكب»، «يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي»، «اللهم العنه ولا تشيعه إلا بالتراب»، «است معاوية في النار»، «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»، النبي الأعظم ص ٧٦٢-٧٦٨.

(٤) «يا معشر بني هاشم، والذي بعثني بالحق نبيا لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم»، النبي الأعظم ص ٢٧١، «إن الله يتجلى يوم القيامة للخلائق عامة ويتجلى لك خاصة»، «إن الله سيفا مغمودا» في غمده ما

والحسن والحسين في ناحية أخرى. فالله يتجلى للخلائق عامة يوم القيامة ويتجلى لأبي بكر خاصة. ودليل الوضع أن الله لا يتجلى لأحد. وعثمان هو سيف الله الحلي. والأمناء عند الله ثلاثة، الرسول وجبريل ومعاوية. وإذا أحب علي أبا بكر وعمر دخل الجنة. وفضل عمر كبير لن يبلغ مقدار ما جلس جبريل مع نوح. وأبو بكر تاج الإسلام وعمر حلقته. وخلق الله محمداً من نوره. وخلق الله أبا بكر من نور محمد ولو لم يُبعث الرسول لُبِعث عمر. وما يقال من منزلة علي من الرسول مثل منزلة هارون من موسى يقال على أبي بكر. وما قيل عن الحسن والحسين بأنها سيدا شباب أهل الجنة يقال على أبي بكر وعمر. وقد خلق الرسول وأبو بكر من تربة واحدة وفيها يدفنان. وكلها أحاديث مرفوعة لا يعرف من أول راويها. ولو ذكرت أحاديث فيها فضل علي تذكر أيضاً فضائل أبي بكر وعمر، وبنفس التشبيه علي الباب وعمر الأساس وأبو بكر الحيطان، وكل أبواب فضل معاوية ليس فيها أحاديث صحيحة مثل أحاديث مناقب الخلفاء. ولكل صحابي فضل. فمناصرة الخليفين كانت من أوائل الصحابة. أبو بكر أرحم، وعمر أشد، وأبي أقرأ، وعثمان أصدق، ومعاذ أعلم بالحلل والحرام، وزيد بن ثابت أقرض، وأبو عبيدة الجراح أمين الأمة. الخلفاء الأربعة كلهم في الجنة، ولا يدخل الجنة مبغض لأبي بكر ولو عَمِلَ عَمَلَ سبعين نبياً. وقد تاب الله على آدم بحرمة الرسول وخلفائه الأربعة، لقد أمن أبو بكر الرسول على صحبته وماله. ولو كان الرسول متخذاً خليلاً لكان أبا بكر. ولكل نبي رفيق في الجنة ورفيق الرسول عثمان. وهو وليه في الدنيا والآخرة، أسر له الرسول كل شيء. وزوجه أم كلثوم بوحي من السماء.

دام عثمان بن عفان حياً، «الأمناء عند الله ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية»، «إن الله ائتمن على وصيه جبريل وأنا ومعاوية وكاد أن يبعث معاوية نبياً من كثرة علمه»، «أبو بكر تاج الإسلام وعمر حلة الإسلام»، «خلقني الله من نوره، وخلق أبا بكر من نوري»، «لو لم أبعث لبعث يا عمر»، «أنا مع عمر وعمر معي حيث حللت، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني»، «أبو بكر مني بمنزلة هارون من موسى»، «يا علي لا تكتب جوازاً لمن سب أبا بكر وعمر فإنهما سيدا كهول أهل الجنة بعد النبيين»، «إني وأبا بكر وعمر خلقنا من تربة واحدة وفيها ندفن»، «أنا مدينة العلم وعلي بابها، وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها»، «أرحمكم أبو بكر، وأشدكم في الدين عمر، وأقرؤكم أبي، وأصدقكم حياء عثمان، وأعلمكم بالحلل والحرام معاذ بن جبل، وأفرضكم زيد بن ثابت، وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة الجراح»، ص ٤٧٣-٤٨٢، «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة»، ص ٤٩٤.

وقد استمرت الفتن بعد معاوية من أغيلمة بن هاشم^(١). وهم سفهاؤهم وحدثت أمور منكرة بسبب الأثرة. ويهلك حي من قريش. والأفضل العزلة^(٢). وبعد ستين سنة يضيعون الصلوات، ويتبعون الشهوات. لا يتجاوز القرآن ألسنتهم بين منافق وفاجر. فالأخبار مع بني أمية^(٣).

ثم خرج الحسين بنفسه إلى الكوفة. وقاتل عبيد الله بن زياد بكربلاء حتى قتل عطشا بسهم في حلقه يوم عاشوراء ومعه كبار الصحابة. وضرب رأسه. وأرسلها عبيد الله بن زياد إلى الشام مع أسارى النساء والصبيان من آل البيت. وفي كل منزل يخرج الرأس من الصندوق على رمح حتى يراه الناس. فخرج راهب واشترى الرأس وغسلها وناجها وأسلم. ثم وجد الجند الدنانير التي باعوا بها الرأس تحولت إلى خزف ومكتوب على جانبها آيتان قرآنيان^(٤). وبعث يزيد جيشا إلى المدينة فقتل أولاد المهاجرين والأنصار واستباحها ثلاثة أيام وسميت واقعة البحر. ومات يزيد وعمره ثمان وثلاثون. سكر ورقص فسقط على رأسه وتناثر دماغه^(٥). ويقُدسه آل البيت المدفونون في مصر رجالا ونساء، سنة وشيعة^(٦). وقد تنبأ الرسول بمقتل الحسين عن طريق الملاك وليس

(١) شمائل الرسول ص ٢٤٧-٢٤٩، «ستكون أثرة وأمر تنكرونها»، «هالك أمتي على يدي غلمة من قريش»، «إن فساد أمتي على يد غلمة سفهاء من قريش».

(٢) «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسالون الله الذي لكم»، «لو أن الناس اعتزلوهم»، السابق ص ٢٤٧.
(٣) «يكون خلف من بعد الستين سنة أضعاف الصلاة، واتباعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن، لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر. لا يزال هذا الأمر معتدلا قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية»، «إن أول من يبذل ستي رجل من بني أمية»، السابق ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٤) «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ»، «سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»، البستي ح ٥٦١/٢.

(٥) السابق ح ٥٥٧/٢، الجوهرة ح ٢٢٤-٢٤٢. الأمويون خمسة عشر خليفة، الإشارة ص ٤٧٩-٤٩٧: معاوية، يزيد، معاوية، عبد الله بن الزبير، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد. ومعاوية، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز وحدهم هم الذين يضاف إليهم «رضي الله عنهم».

(٦) فاطمة الزهراء، الحسن بن علي، الحسين بن علي، السيدة زينب، السيدة رقية، السيد سكينه، السيدة نفيسة، السيد حسن والد السيدة نفيسة، السيد محمد الأنور، السيد علي زين العابدين، السيد زيد بن علي زين العابدين، السيد إبراهيم ابن الإمام زيد، السيدة عائشة بنت جعفر الصادق، السيد الكاظم، السيد جعفر الصادق، السيد محمد العامر، الإمام الشافعي، سيرة المصطفى ص ١٦١-٢٧٣.

بمجرد البصرة^(١). وقد كان حبيب الرسول لأنه ثمرة فؤاده وليس فقط سبطه. وتقرظ أحاديث أخرى شهداء الفتنة الكبير^(٢).

وتمتد حياة الملوك حوالي قرنين من الزمان منذ معاوية (٦٠هـ) حتى المتقي بن المقتدر (٣٣٥هـ) أمويين وعباسيين إلى أن وصل الأمر إلى المطيع بن المقتدر «يموت أو يقتل لا محالة لأن له أسوة بمن فقدهم»^(٣). وقد قتل عديد من الملوك. فالملك إما مقتول وإما قاتل. وقد أرسل المأمون من يقتل أخاه الأمين ببغداد ثم أرسلت رأسه له^(٤). فلم تعد القرابة ولا الدين مانعا من القتل. واستمر القتل في سبيل السلطة. ولكل ملك يذكر تاريخ مولده وتاريخ وفاته، وسنة ولايته، ومدة ولايته بالسنة والشهر واليوم، ونسبه، وشعاره على خاتمه. ولا توجد أحداث أخرى في حياته إلا فيما ندر. وتعود السيرة إلى منشئها في علم التاريخ. ولم يعد للتاريخ دلالات ولا للموت والحياة معاني. ولم تكن النبوة أساس السيرة حاضرة ولا ظاهرة. وقد توفي معظم الولاة صغار السن إما لأنهم قتلوا أو خلعوا أو لأنهم تقلدوا الإمارة وهم صغار^(٥). وتختلف ولاية كل الملوك بين عشرات السنوات والليالي المعدودة. ومعظمهم ترك الولاية إما بالموت الطبيعي أو بالاغتيال أو بالعزل. ولا يوجد وال انتهت ولايته وعاد إلى الناس فردا عاديا. وهو ما زال مستمرا حتى الآن^(٦).

(١) «أخبرني جبريل أن هذا يقتل بأرض العراق قلت له: يا جبريل أرنى تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها»، وكيف لا أحبه وهو ثمرة فؤادي»، «أتاني جبريل فأخبرني أن أمي ستقتل ابني هذا»، «هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم»، شمائل الرسول ص ٢٤٩-٢٥٣.

(٢) «إن الجنة تشتا إلى أربعة: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسليمان الفارسي، والمقداد»، النبي الأعظم ص ٣١٧، «تقتلك الفتنة الباغية»، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٣) البستي ح ٥٨٢/٢-٥٩٤، قتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ وصلب على جذع منكس من الحجاج، قتل الوليد بن يزيد عام ١٢٦هـ قتل مروان بن محمد عام ١٣١هـ قتل الأمين بن الرشيد عام ١٨٩هـ المنصور قاتل أبي مسلم، قتل المتوكل عام ٢٤٧هـ، قتل المعتز بن المتوكل عام ٢٥٥، قتل المهدي بن الواثق عام ٢٥٦، قتل المقتدر بن المعتض عام ٣٢٠.

(٤) السابق ح ٥٧٤/٢.

(٥) توفي الحادي بن مهدي وعمره ٢٥ عاما، ويزيد بن معاوية ٣٨ عاما، والمكفي بن المعتض ٣١ عاما، وعمر ابن عبد العزيز ٤١ عاما، وسليمان بن عبد الملك ٤٥ عاما، والمهدي بن المنصور ٤٣ عاما، والرشيد بن المهدي ٤٩ عاما، البستي ح ٥٦٢-٥٧٩.

(٦) كانت إمارة معاوية بن يزيد أربعين ليلة، ولاية يزيد بن الوليد خمسة أشهر، إمارة مروان بن الحكم عشرة

وبالرغم من الوراثة أو الانقلاب أو القتل حرص كل ملك على البيعة لتبرير سلطته شرعياً كما يحدث في ملوك ورؤساء هذه الأيام^(١). وبالرغم من الطابع العام للملوك، أمويين وعباسيين إلا أن بعضهم مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز قد شذ عنهم، وحاول إعادة سيرة الخلفاء الراشدين. فجمع وكلاءه ونساءه وجواريه. فطلقهن وأعتقهن، وباع ثيابه كلها، وتصدق بأثائها^(٢). وقد بايع الناس المأمون قاتل أخيه الأمين ببيعة عامة^(٣). وبويع المستعين بن المعتصم. وبايع الناس بعد خلع المستعين نفسه الزبير بن جعفر. ثم قتل فلا فرق بينبيعة القاتل وبيعة المقتول^(٤). وقد يخلع الوالي نفسه إذا اشتد حوله الحصار وطلب منه ذلك أو إذا رأى أنه لا مخرج له^(٥). فبعد أن استتب الأمر للمقتدر بن الموفق وهدأت الأمور وصار الناس كأنهم نيام لا يحسون بفتنة عمرت والدته الحرميين. وأنفقت عليها في كل سنة أموالاً خطيرة. وكذلك عمرت بيت المقدس وكانت تنفق عليها وعلى الثغور في كل سنة أموالاً كثيرة. وارتفع أهل العلم في كل بلد من الدنيا. وكانت بغداد في أطيب أيامها^(٦). ثم اتفق الناس على خلعه فخلعوه. وأقعدوا أخاه القاهر بعد أن خلع المقتدر نفسه. ثم خلع القاهر نفسه بعد ثلاثة أيام. وبايع الناس المقتدر ثانياً. ثم هاج الجيش عليه وركب المقتدر وعليه بردة الرسول لحماية نفسه. ثم جاءه بربري ورماه بحربة فقتله^(٧).

وكان لكل ملك شعار على خاتمه، فمعاوية القاتل على شعاره «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، ويزيد قاتل الحسين شعاره «أمنت بالله مخلصاً»، وكلها إما الإيمان بالله

أشهر، إمارة الهادي بن مهدي أربعة عشر شهراً، إمارة الوليد بن يزيد سنة وثلاثة أشهر، ولاية القاهر بن المعتضد سنة وستة أشهر، البستي حـ ٥٦٢/٢ - ٥٨١.

(١) طلب الناس من معاوية بن يزيد لما حضرته الوفاة مبايعة رجل بعده والعهد إليه، البستي حـ ٥٦٢/٢، ولما تولى مروان بن الحكم بايعة أهل الشام، السابق حـ ٥٦٣/٢.

(٢) السابق حـ ٥٦٦/٢.

(٣) السابق حـ ٥٧٤/٢.

(٤) السابق حـ ٥٧٧/٢.

(٥) السابق حـ ٥٧٧/٢.

(٦) السابق حـ ٥٨٠/٢.

(٧) السابق حـ ٥٨١/٢.

أو الاستعانة به أو الإخلاص له أو الثقة فيه أو القصد إليه أو التوكل عليه أو الاعتزاز به أو الخوف منه يوم الحساب. والبعض الآخر يخلو من الدين والاكتفاء بالاسم مثل «يا وليد» «أحمد بن محمد»، أو اللقب «أمير المؤمنين»^(١). والسؤال هو كل هذا الاستقواء بالله على من؟ على الأعداء في الخارج الفرس والروم والأحباش أم الخصوم في الداخل صراعا على السلطة؟

وكلهم أسماء هداية وإيمان باستثناء الملوك الأمويين. المهدي، الهادي، المهدي، المنصور، الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم، الواثق، المتوكل، المتصر، المستعين، المعتز، المعتمد، المعتضد، الموفق، المكتفي، المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، المطيع. كلها تشير إلى الإيمان والطاعة والأمانة والتقوى. ولا شيء من ذلك في الواقع يتحقق. وكان البعض بالفعل يشعر بهذه المعاني إلا أن السياسة أخذته بعيدا عنها بعد أن تغلب عليه منطق القوة^(٢). وهو ما يحدث أيضا مع صفات الله وأسمائه، الصفات مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، وحال الأمة على النقيض: الجهل والعجز والموت والصم والعمى والبكم والهو. وهو أيضا حالها مع الأسماء مثل العادل، المقسط، وحياة الأمة تقوم على الظلم والجور^(٣). وكانت لبعض الملوك القاب مثل المخلوع، المجنون، الحمار. ومعظمها يدل على عدم الاستحقاق بالملك، قبل الاسم أو بعده. وهي أسماء مستقراء من الأرض، من واقع وحياة الناس وسلوك الملوك، وليست

(١) معاوية «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، يزيد بن معاوية «آمنت بالله خلاصا»، معاوية بن يزيد «بالله نستعين» معاوية، مروان بن الحكم «آمنت بالعزير الحكيم، العزة لله»، عبد الملك بن مروان «آمنت بالله»، وليد بن عبد الملك «يا وليد»، سليمان بن عبد الملك «أؤمن بالله»، عمر بن عبد العزيز «بالله خلاصا»، يزيد ابن عبد الملك «رب قني الحساب»، السفاح أبو العباس «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المنصور أبو جعفر «الله ثقة عبد الله»، المهدي بن المنصور «أستقدر الله تعالى»، الهادي بن المنصور «الله ربي»، الرشيد بن المهدي «بالله ثقتي»، الأمين بن الرشيد «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المعتصم بن الرشيد «الحمد لله الذي ليس كمثلته شيء»، المتوكل بن المعتصم «لا إله إلا الله، المتوكل على الله»، المتصر بن المتوكل «أحمد بن محمد، بالله ينتصر المستعين بن المعتصم أحمد»، المعتز بن المتوكل «المعتز بالله»، المهدي بن الواثق «محمد أمير المؤمنين»، المعتضد بن الموفق «المعتز بالله»، حـ ٥٧٩-٥٥٥.

(٢) رفض معاوية بن يزيد أن يبايع أحدا بعده قائلا «ما أصبت من دنياكم شيئا فأنتقلد مآثمها»، البستي حـ ٥٦٢/٢.

(٣) من العقيدة إلى الثورة حـ ٦٠٠-٦٦٤.

مستنبطة من السماء أو مقاسا عليها كما هو الحال في صفات الله وأسمائه^(١).

وبالرغم من ازدهار الحضارة الإسلامية وتأسيس العلوم منذ القرن الثاني الهجري إلا أن الأمراء والولاة كانوا يضيّقون بالرأي المخالف إذا تبنا رأيا خاصا. فقد ضرب المأمون بن الرشيد أحمد بن حنبل بالسياط، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي. وبقي الناس في تلك الفتنة، خلق القرآن إلى أن مات المعتصم^(٢). فالصراع على السلطة السياسية كان أيضا صراعا على السلطة الفكرية. والمتسلط في السياسة متسلط أيضا في الفكر. والدين يعطي الشرعية للسلطتين. وفي بعض السير بعض الأبواب أدخل في مصير الرسالة مثل «علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به من الغيب»^(٣). منها تحول النبوة إلى ملك، والموقف من الملوك إنكارهم. ومن أنكر فقد برئ. ومن كره فقد سلم. ومن رضي وباع فقد آثر السلامة. ولا يجوز قتالهم ما صلوا^(٤). وهو يجذب المواقف السلمية والإنكار باللسان دون القتال باليد. فالمواقف ثلاثة: الإنكار، والكراهية، والرضا والمبايعة. الإنكار باللسان، والكراهية بالقلب، والرضا والمبايعة باليد. والخير يتبعه شر، والشر يتبعه خير. والسبب قوم يهدون بغير هديه، ينكر عليهم الناس، دعاة على أبواب جهنم، يقدفون من تبعهم فيها، من بني الجلود، ويتكلمون بنفس اللسان. والحل هو الالتزام بجماعة المسلمين وإمامتهم، والعرض بأصل شجرة حتى الموت^(٥). وفي سير أخرى نقد معاوية في العبادات ليس حاسما مثل نقده في المعاملات^(٦). فقد كان لمعاوية تجربة مع العصر ضد الأصل، ونقد لبسه ليس نقدا حاسما موجهها إلى أفعاله^(٧).

(١) إبراهيم بن الوليد المخلوع، مروان بن محمد الحمار، يزيد الناقص، السفاح أبو العباس، السابق ح ٥٦٨/٢ - ٥٧١، وكما يقال حاليا على بعض الرؤساء من الجيش «البقرة الضاحكة».

(٢) السابق ح ٥٧٥/٢.

(٣) الأنوار ح ١٠٤-٨٠/١.

(٤) «تكون عليكم أمراء تعرفون وتكفون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، لكن من رضي وباع». قالوا أفلا تقتلهم؟ قال «لا ما صلوا، لا ما صلوا»، السابق ص ٨٢.

(٥) «... قوم يهدون بغير هدية، تعرف منهم وتكفر.. دعاة على أبواب جهنم، من أجاهم إليها قدفوه فيها... هم من جلدتنا، ويتكلمون بلساننا... تلزم جماعة المسلمين وإمامهم... فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»، السابق ص ١٠٠-١٠١.

(٦) النبي الأعظم ص ٣٤٢-٣٦٨.

(٧) السابق ص ٣٦٠.

وأحيانا يمتد الهجوم من الصحابة إلى الأمويين خاصة معاوية نموذج الشيطان وسبب البلاء والانحراف عن الطريق المستقيم والذي أدى إلى استشهاد الحسين وسم الحسن بتآمر زيد. ويُنقد عثمان الخليفة الرابع وتُبين عيوبه ونقائصه لمخالفاته للشرعية، ويُنقد الخليفة عمر وأخطاؤه في تطبيق الحدود. وهو شيء وارد في كل اجتهاد. كما اجتهاد في تعليق حد السرقة عام الرمادة، وفي تعليق سهم المؤلفة قلوبهم، وفي أربعة أمور وافقه عليها الوحي وصدقه القرآن فيها. واجتهاد عمر لا يعني خطأه حتى لو كان مخطئا لأن للمخطئ أجرا وللمصيب أجرين. فالنية صحيحة وهو الوصول إلى الحق وفيما ينفع الناس. والأعمال بالنيات. وليس من المعقول أن يخطئ عمر في خمس وثمانين مسألة^(١). ويُنقد الخليفة أبو بكر في منعه فاطمة من وراثته فذك لأن الرسول قال «نحن الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

والتفاضل بين الصحابة أمر طبيعي، تشخيص للتعددية النظرية ونتيجة للفردية. فالناس مختلفون بفعل الطبيعة والخلق. وقد يكون الدافع على ذلك خلق تنافس في الخير بينهم. والصحابة ليسوا أشخاصا تاريخيين بل نماذج بشرية تتكرر عبر الزمان والمكان، فأبو بكر وعمر المثال والواقع، ما يجب أن يكون وما هو كائن، العزيمة والرخصة. ولا توجد ميزة خاصة لمن عاصر الرسول. فالمعاصر بالزمان وليس بالمكان. يستطيع كل إنسان بسلوكه أن يتمثل نموذج الرسول أو الصحابة وبينهما ألف عام^(٢). ويصل حد الجدل الشيعي السني إلى حد التكفير، وتحويل الخلاف السياسي إلى خلاف عقائدي، والانتقال من الخلاف في الفروع إلى خلاف في الأصول، والتكفير من الطرفين، التكفير والتكفير المضاد^(٣). ومن النافع هز سلطة المذاهب الفقهية الأربعة ورؤسائها منعا للتقليد وتأكيذا على تغير الظروف منذ ألف عام ولكن من الضار استبدال سلطة أئمة الشيعة بسلطة فقهاء السنة. وكما يمتد التقديس من النبي إلى الصحابة إلى الفقهاء الأربعة وعلى رأسهم أبو حنيفة عند السنة كذلك يمتد التقديس من الرسول إلى علي إلى ذريته إلى درجة

(١) السابق ص ١١١-٤٥٦.

(٢) هذا هو معنى المعاصر contemporaneity عند كيركجارد.

(٣) النبي الأعظم ص ٣٧٦.

ليس بمعنى خليفته أو وليه أو وصيه بل بمعنى القرابة والقربى^(١). تزوج فاطمة سيدة نساء العالمين. فضائله ومواعظه ووصاياه محفوظة في الذاكرة على مدى التاريخ حتى ولو كانت بعض الروايات غريبة^(٢). توحى بخلافته وولايته ووصيته لأنه من صلب الرسول وليس فقط لفضائله الذاتية^(٣).

ويغير الناس آراءهم وضمايرهم. ينصحونه بالراحة، ويغشونه اليوم. صحيح أن العزلة حل يحقن الدماء، ولكن الناس تطالب بدم عثمان. وأصر علي ما يجب أن يكون. فعين الأمراء في الأمصار باعتباره أميراً للمؤمنين على العراق والشام ومصر وسلطان معاوية فارض نفسه. فافترقوا عليه. فقد قوي ولاية عثمان، وأصبح من الصعب خلعهم. وأصبح قميص عثمان ذريعة لتجميع الناس ضد علي إن لم ينتقم من قتلته. وحاولت أم كلثوم بنت علي وزوجة عمر بن الخطاب التوسط والنصح. واستمرت المكاتبات بين علي ومعاوية. كل منهم يتوعد الآخر. ستون ألف سيكون تحت قميص عثمان، ورسائل مشابهة بين رؤساء الأمصار المخلوعين من علي والمتعاطفين مع معاوية. ودخلت عائشة تطالب بدم المقتول ظلماً من أجل الإصلاح بين الناس. وحدث اتفاق بين العراق والشام

(١) «أولكم وروداً على الخوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب»، الجوهرة حـ ٢/ ٢٠١، «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، ص ٢٠٦-٢٠٧/ ٢٤٢.

(٢) فضائل علي ومواعظه ووصاياه ص ٢٤٢-٢٦٥ لا يجب علي منافق، ولا يغضه مؤمن» ص ٢٤٢، «اللهم انتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير»، «إن الله أمرني بحب أربعة علي منهم»، «علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي»، «أنت أخي في الدنيا والآخرة» ص ١٤٣، «أنت ولي كل مؤمن من بعدي»، «يا عم رسول الله، والله أشد حباله مني. إن الله جعل فيه كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب هذا»، ص ٢٤٤، «يا علي إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأعلمك ولا أجفوك»، «اللهم من أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، «من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أذى علياً فقد أذاني، ومن أذاني فقد أذى الله»، «هلك فيه رجلان حب مطر وكذاب مفتر»، «تفرق فيك أممي كما افترقت بنو إسرائيل في عيسى» ص ٢٤٤-٢٤٥، «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله. ليس بفرار، يفتح الله على يديه»، ص ٢٤٦-٢٤٧، «اللهم أهد قلبه وسدد لسانه» ص ٢٤٨، «أنا مدينة العلم وعلي بابها. فمن أراد العلم فليأتني من بابي»، «أقضاكم علي...»، «إن تولوا أبا بكر تجذوه ضعيفاً في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا عمر تجذوه قويا في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا علياً ولن تفعلوا تجذوه هادياً مهدياً فيسلك بكم المطي لله وحرامه معه»، ص ٢٤٨-٢٤٩، «لتسلمن أو لأبعثن رجلاً مني، مثل نفسي فليضربن أعناقكم أو ليسين ذرايكم وليأخذن أموالكم» ص ٢٥٠، «علي مخشوشن في ذات الله» ص ٢٥١.

(٣) نقشفه في لباسه وفي طعامه، الجوهرة حـ ٢/ ٢٦٦-٢٧٩، مقتله ص ٢٧٩-٢٨٩.

على نصره القوي معاوية^(١). وكانت حفصة بنت عمر مع رأي عائشة. وخصص يوم للنحيب على عثمان من قتلته. وما زالت السلطة في المدينة اتباعا لقول الرسول^(٢). وبدأ القتال والاغتيال. قتل ابن الزبير بالرغم من تحذير الرسول^(٣). وقتل القاتل نفسه لأنه إذا قاتل مع علي فهو في النار وإذا قاتل ضده فهو في النار. مما اضطر عليا أن ينادي بعدم قتل مدبر ولا جريح، وأن من أغلق بابه، ومن طرح السلاح فهو آمن. ولم يقتل بعد ذلك أحدا. ومع ذلك خرج أهل الشام كلهم عليه مطالبين إياه بدم عثمان. وكتب علي إلى معاوية من جديد مذكرا إياه بموقف أبيه منه، وأنه أحق الناس بهذا الأمر، فلم يشأ علي مخافة الفرقة. ومع ذلك تهيأ معاوية للسير إلى علي. مستعملا كل وسائل السياسة. فالحرب خدعة.

ولجأ الكل للقرآن والحديث لتبرير مواقفه السياسية^(٤). فالحرب ضرورية. واعتبر كل فريق الآخر عدوا، وليس مخالفا في الرأي. ولم يعد العدو هم الفرس أو الروم أو الأحباش. وخير معاوية الناس إما قتال البغاة أو المطالبة بدم عثمان أو الدفاع عن النساء والذراري. وقتل بالمبارزة نفر من الفريقين. وقتل عمار بالرغم من تحذير الرسول^(٥). وخدع عمرو بن العاص فريق علي بالتحكيم لما اشتد القتال دون غالب أو مغلوب برفع المصاحف على أسنة الرماح. فالحكم لله. واكتشف علي الخديعة، أن الفريق الآخر يقول ما لا يفعل. ووجد أصحابه يوافقون على التحكيم. ورضي كل فريق أن يبعث حكما من عنده، وكان حكم معاوية عمرو بن العاص وحكم علي أبو موسى الأشعري^(٦). ورفضت الخوارج التحكيم مع أنهم كانوا معه في البداية. وذكر فيهم علي الآية^(٧). وكانوا حوالي خمسة آلاف. وقتل محمد بن أبي بكر الذي أراد المصريون تنصيبه واليا

(١) البسني حـ ٥٢٦/٢ - ٥٤٠.

(٢) «إن الإسلام ليأزر إلى المدينة كما تآزر الحية إلى جحرها»، السابق حـ ٥٣٣/٢ - ٥٣٤.

(٣) «قاتل ابن صفية في النار»، السابق حـ ٥٣٥/٢.

(٤) «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ»، «لِتَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا»، السابق حـ ٥٤٠/٢ - ٥٤١.

(٥) السابق حـ ٥٤٠/٢ - ٥٤١.

(٦) «فتلك الفئة الباغية»، السابق حـ ٥٤٢/٢.

(٧) «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»،

السابق حـ ٥٤٦/٢.

على مصر. أدخل في جوف حمار ميت وأحرق بالنار. وسر معاوية بقتله وحزن علي. وعين الأشر واليا على مصر. فدبر له معاوية مؤامرة. سقته امرأة عسلا مسموما وقال عبارته المشهورة «إن لله جنودا من عسل». واستعملت شعارات بدر، «شاهت الوجوه»، «شاهت الوجوه»، في حرب المشركين إلى الصراع الداخلي بين المسلمين^(١). وبإيع أهل المدينة معاوية بالخداع والضغط.

وقد تنبأ الرسول بفتنة علي^(٢). قاتله الزبير ظلما. وقتل بها عمار بغيا. وكما اختلفت بنو إسرائيل اختلف المسلمون، واحتكم كل فريق إلى حكمين ضلا وأضلا. وانشغل علي والأمة بأكملها بالفتنة الداخلية والصراع على السلطة. وتركوا الفتح الخارجي إلا مرة واحدة خرج قسطنطين بن هرقل بالمراكب يريد المسلمين فعصفت بهم ريح أغرقتهم. ونجا قسطنطين حتى انتهى إلى صقلية. وقتله الروم في حمام عقابا له على قتل جنده^(٣). وتنبأ الرسول بخروج الخوارج عليه وقتلهم وعلاماتهم بالرجل الناقص الخلق واليد. وقد اتهم أحدهم الرسول بأنه لم يعدل. ووصفهم الرسول بأنه تحقر الصلاة والصيام مع أحدهم. لا تتجاوز قراءتهم للقرآن ألستهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فارغ النصل والقدح^(٤). هم حدثاء الأسنان. سفهاء الأحلام لا يجاوز الإيمان حناجرهم. جزاؤهم القتل. يقاتلون على تأويل القرآن كما كانوا يقاتلون على تنزيله. وقد لا تنطبق هذه الأحاديث على الخوارج. وإذا انطبقت فبشكل بعدي، قراءة الحاضر في الماضي، والواقع في النص^(٥). ويُدفع موقف علي إلى حده الأقصى وكأنه معاد لعثمان

(١) السابق حـ ٢/ ٥٤٨.

(٢) شبائل الرسول ص ٢٣١-٢٣٢ «لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة»، ص ٢٣٢ «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين ضلا وأضلا، وإن هذه الأمة ستختلف فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين ضلا وأضلا من اتبعهما» ص ٢٣٤.

(٣) البستي حـ ٢/ ٥٣١.

(٤) ناقص الخلق (المخرج)، ناقص اليد (ذو التذبة)، شبائل الرسول ص ٢٣٤-٢٣٧ «وليك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ص ٢٣٥.

(٥) «دعه فإن له أصحابا يحقر أحداكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرنون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...» ص ٢٣٥. «يخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في أجورهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة» ص ٢٣٥-٢٣٦، «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» ص ٢٣٦.

مع أنه كان يحاول دفع الفتنة وتوحيد المسلمين. ووضع حراسة على باب عثمان، ابن علي ضد الخارجين عليه لولا أنهم أتوه من الخلف بعد تسلق الحائط والصعود إلى السطح والنزول منه. والاستشهاد بأقوال علي تكاد تقارب الاستشهاد بأقوال الرسول^(١). فكلاهما معصومان من الخطأ.

وقتل عبد الرحمن بن ملجم عليا بسيف مسموم جزاء له على حب امرأة أجمل أهل زمانها والزواج منها. والثمان ثلاثة آلاف وقتل علي^(٢). وفي مسجد الكوفة ترصد ابن ملجم لعلي فضربه من خلفه من قرنه إلى جبهته. واعترف ابن ملجم بأن السيف مسموم لمدة شهر، وأنه قتل فردا وليس أمير المؤمنين. وطلب علي حبسه، وتطبيب طعانه، وتليين فراشه، فإذا عاش فغفو أو قصاص وإن مات فيلحق به ليخاصمه عند رب العالمين^(٣). ودفن بالكوفة في قصر الإمارة عند مسجد الجماعة^(٤). ولم يكن له مال إلا سبعمائة درهم أراد ابتياع خادم به. وقد تنبأ الرسول بقتله، وتنبأ بمصيره بأن لحيته ستخضب بدماء رأسه، وأنه مثل عيسى ابن مريم أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه. وأحبه النصارى حتى ألهوه^(٥).

وكان المقاتلون يتصورون أنهم مازالوا في عصر النبوة، النصر من السماء، ومواقيت الصلاة في الأرض^(٦). وكان من ضمن القتلى في حروب علي المخدع تعرف عليه علي ضمن القتلى. رجل ليس له ساعد، بين جنبيه ثدي فيه شعرات، إذا مدت امتدت، وإذا تركت قلصت. فتذكر علي قول الرسول «يخرج قوم فيهم رجل مخدع اليد»^(٧). وفي رأي

(١) النبي الأعظم ص ٣٨٨-٣٩٣.

(٢) البستي ح ٢/ ٥٥١-٥٥٣، «إن الأمة ستفدر بك بعدي»، شمائل الرسول ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) «قطعت يديه ورجليه ولم يجزع ولم يتكلم، ثم كحلوا عينيه بمحلول حمي. ثم قطع لسانه ويحرق بالنار»، البستي ح ٢/ ٢٥٢.

(٤) كان له خمس وعشرون ولدا وبتا، خمس من فاطمة، السابق ح ٢/ ٥٥٣.

(٥) «إن أشقاهما الذي يخضب هذه من هذه»، «أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزلة التي ليس بها».

(٦) البستي ح ٢/ ٤٨٧.

(٧) السابق ح ٢/ ٥٤٦-٥٤٧.

الحسن كان علي يقاتل، وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره^(١). ورأى راهب نصراني رأس الحسين مرفوعة على رمح في طريقها من كربلاء إلى دمشق. ورأى نورا ساطعا من ديره إلى السماء. فاشتراها بعشرة آلاف دينار. تحولت إلى خزف في أيدي الجند بعد وصولهم إلى دمشق^(٢). لا فرق بين الخيال والتاريخ، بين التوهم والواقع. فكلاهما حقيقة. الأولى من صنع الذات، والثانية من صنع التاريخ. والتاريخ لا يُعرف إلا من خلال الذات. وقد يضاف الحسن بن علي بالرغم من قصر مدته وانقسام المسلمين^(٣). فعلي لا يفصل عن نبيه في اكتمال الخلافة الراشدة. ويضاف إليهم جماعة آل البيت لهم بمصر والقاهرة مزارات مشهورة ومساجد معمورة^(٤). كما يضاف ذكر مناقب الأئمة الأربعة إرضاء للشيعة والسنة على حد سواء^(٥). ويضاف إليهم الأربعة أقطاب من الصوفية. فالصوفية هم ورثة أهل البيت والشيعة والسنة^(٦). ويأتي أبو الحسن الشاذلي متمم لهم^(٧).

والشهداء من الطرفين. استشهاد الحسين بجز رأسه في كربلاء، وسم أخيه الحسن عند الشيعة، واستشهاد عمار بن ياسر «تقتلك الفئة الباغية»، وحمزة سيد الشهداء^(٨). وله مع أخيه الحسين مكانة عند الرسول^(٩). هما ريحانتاه من الدنيا. وهما سيدا شباب

(١) السابق حـ ٥٥٣/٢.

(٢) السابق حـ ٥٦٠-٥٦١.

(٣) الإشارة ص ٤٧٨، مختصر سيرة (٢) ص ٥٠٣-٥٠٤، مناقب الحسن والحسين وباقي الأئمة الاثنى عشر، النبي المختار ص ١٢٢-١٨٩، الجوهرة حـ ٢١٠-٢٤.

(٤) النبي المختار ص ١٨٩-٢٢٥.

(٥) السابق ص ٢٢٥-٢٥٢.

(٦) السابق ص ٢٥٢-٢٦٨ وهم: أحمد بن الرفاعي، عبد القادر الجيلاني، أحمد البدوي، إبراهيم الدسوقي.

(٧) السابق ص ٢٦٨-٢٧٣.

(٨) وذلك مثل سم إسرائيل بمفردها أو بالتواطؤ مع بعض الفلسطينيين ياسر عرفات. الحسن بن علي، الجوهرة حـ ٢٢٤-٢٤٢ «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً. حسين سبط من الأسباط»، «اللهم أحبه فإني أحبه» ص ٢٢٥.

(٩) «حسن مني، وحسين من علي»، «وأنه ريحانتي من الدنيا»، «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما»، «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله على يده بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، «إن ابني استرجنني فكرهت أن أعجله»، «رأيت هذين يعثران في قميصهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما»، «إنه من لا يرحم لا يُرحم»، «اللهم أي أحبه، وأحب من يحبه»، السابق حـ ٢١١-٢١٤/٢١٦، شئان الرسول ص ٢٣٨-٢٤١/٢٦٤، أقرباء الرسول حـ ٥٠٧.

أهل الجنة. يصلح الحسين ففتين من المسلمين. كان يكره إنهاء السجود لأن الحسن على ظهره. ونزل من المسجد لإقالتها بعد أن تعثرا في قميصهما. وكان يقبلهما. فمن لا يرحم لا يُرحم. يحبه ويدعو الله أن يحب من يحبه. وقد تنبأ الرسول بأن الحسن سيد يصلح الله به ففتين عظيمتين من المسلمين^(١). فإمكانية المصالحة قائمة بين فتح وحماس، بين الموالاتة والممانعة، بين العرب والعجم، من أجل توحيد الأمة في مواجهة أعدائها، إسرائيل وأمريكا ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. ويذكر الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة^(٢).

٧- من الخلافة إلى الملك

وخشي النبي على أمته من بعده^(٣). خشي عليها اتباع الأهواء والشهوات والغفلة، بعد المعرفة، وولاية الدين لغير أهله. وأهل البيت والكتاب طريق الخلاص. وحب آل البيت لا تجبه الصلاة بين الركن والمقام. والأثبت على الصراط أشد الناس حبا لأهل البيت وأصحاب الرسول. الرسول الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن

(١) الأنوار ح ١/ ٢١٣، الوفا ح ١/ ٣٠٩.

(٢) وهم «الزبير بن العوام، الجوهرة ح ٢٢٩٢-٣٢٢، طلحة بن عبيد الله ص ٣٢٥-٣٣٣، عبد الرحمن بن عوف ح ٣٣٧-٣٤٦، سعد بن أبي وقاص ص ٣٤٩-٣٥٥، سعد بن زيد ح ٢/ ٣٥٩-٣٦١، عامر ابن عبد الله بن الجراح ح ٢/ ٣٦٥-٣٦٩، «أوجب طلحة، وكان شهيدا وهو حي» ص ٣٢٥. «عبد الرحمن ابن عوف من سادات المسلمين»، «أمين في السماء أمين في الأرض» ص ٣٣٨، «اللهم أجب دعوته وسدد رميته» (سعد بن أبي وقاص) ص ٣٤٩. «إن لكل أمة أمينا وإن أمينا أئمتنا أئمة الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، «لأيقن إليكم رجلا أمينا حق أمين»، «لأرسلن معكم القوي الأمين»، «هذا أمين هذه الأمة» ص ٣٦٥-٣٦٦، «سيكون فيكم اثنا عشر خليفة: أبو بكر الصديق لا يلبث خلفي إلا قليلا، وضاحب دارة رحي العرب. يعيش حميدا ويموت شهيدا... عمر بن الخطاب... وأنت (عثمان) يسألك الناس أن تخلع قميصا كساه الله. والذي بعثني بالحق لنن خلعت لا تدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»، شائل الرسول ص ٢٢٤.

(٣) «أخاف على أمتي من بعدي ضلالة الأهواء واتباع الشهوات، والغفلة بعد المعرفة»، النبي الأعظم ص ٤٨٦، «لا تتركوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله»، ص ٧١٣، «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتهم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعثري أهل بيتي، وأنهم لن يفترقا حتى يردا على الحوض»، «لو أن رجلا حصن بين الركن والمقام فصلى وصام ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار»، ص ٧١٣-٧٢٠.

والحسين ثمرتها وشيعتنا ورقها استكمالا للصورة بمدح الشيعة. موالاة علي وموالي علي والافتداء بأهل البيت الذين خلقوا عن طينة الرسول يحيا مثله دعوت مثله. أهل البيت مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق. ولن يعذب الله أهل البيت لأنهم يقرّون بالتوحيد. يسالم الله من يسالم أهل خيمته، ويحارب من يحاربهم، ويوالي من يواليهم. والله ملائكة في الأرض. يعاونون آل البيت.

وينقسم مصير الرسالة أي تاريخ الرسالة بعد وفاة الرسول إلى قسمين: الخلفاء، والملوك، الخير والشر، الخلافة والملك العضود طبقا لحديث الرسول^(١). وتكتفي كتب السيرة والخلافة بذكر اسم الملك وولايته على الأمصار بعد أن أصبحت السلطة هي المهم الأكبر بعد ذكر المؤسس الأول للملك معاوية.

وما زال الحديث موجها للتاريخ بالتحول من الخلافة الراشدة إلى الخلافة غير الراشدة، الراشدة تعمل بما تعمل وبما تؤمر، وغير الراشدة يعملون بما لا يعلمون وبما لا يؤمرون^(٢). وهو نفس المعنى في حديث «خير القرون قرني ثم الذي يلون» في صياغاته المتعددة^(٣). فخير الناس بعد الرسول الصحابة ومع الخلفاء الراشدين العشرة المبشرون بالجنة^(٤). والخلفاء الراشدون قليلون كما كثيرون كيفا. فهم الذين حملوا استمرار

(١) «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكا»، ذكر البيان بأن من ذكرناهم كانوا خلفاء ومن بعدهم كانوا ملوكا، أبو بكر ستان وعمر عشر، وعثمان اثنا عشر، وعلي ست، البستي ح٢/٥٥٣-٥٥٤، مختصر السيرة (١) ح٢/٥٥٣-٥٥٤، شئائل الرسول ص٢٣٩/٢٧٠.

«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكا»، الجوهرة ص٢١٥، «اللهم ارحم خلفائي الذين يأتون من بعدي يرددون أحاديثي وستي ويعلمونها الناس»، ص٣٩، «تدور رحي الإسلام خمس وثلاثين أو ست وثلاثون أو سبع وثلاثون. فإن يهلكوا فسيبيل من قد هلك، وإن يتم لهم دينهم يقيم لهم سبعين عاما»، «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين»، شئائل الرسول ص٢٢٤-٢٢٥.

(٢) «يكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون، ثم يكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر عليهم فقد برئ، ولكن من رغب وتابع»، البستي ح٢/٥٨٣-٥٨٤.

(٣) «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم»، السابق ح٢/٥٨٣-٥٨٤، سيرة النبي ص٨٨.

(٤) «الخلفاء الأربعة ثم طلحة قتله مروان بن الحكم بسهم ومات عام ٣٦هـ يوم الجمل، والزبير بن العوام قتل عام ٣٦هـ وسعد مات في قصره عام ٥٨هـ، وسعيد بن زيد عام ٥١هـ وعبد الرحمن بن عوف عام ٣١هـ وعامر بن عبد الله بن الجراح عام ١٨هـ السابق ح٢/٥٨٣-٥٨٨.

الرسالة ضد الثورات المضادة في الداخل. والملوك كثيرون كما قليلون كيفا سواء في مدة الحكم أو في أثره الإيجابي على استمرار الرسالة. فقد بدأ النزاع على الحكم والصراع على السلطة بصرف النظر عن الرسالة^(١). ويكتب في الخلفاء الكثير نظرا لكثرة أعمالهم منذ بيعتهم وفتوحاتهم حتى وفاتهم. أما الملوك باستثناء معاوية وابنه يزيد فلا يكتب فيهم إلا مواليدهم ووفياتهم وعدد سنين ولايتهم^(٢). الخليفة حكم مدة طويلة في حين أن حكم الملك مدة قصيرة، انتهى بانقلاب أو قتل أو موت^(٣). وقد لا تتجاوز مدة الحكم الملك شهورا معدودة. وأكبر مدة حكم معاوية.

وقد تنبأ الرسول بخلافة معاوية^(٤). وكان شرا لا بد منه. وبالرغم من شخصيته الملوكية أوصاه الرسول بأن يحسن للناس. وتحول الخلافة بالمدينة إلى ملك في الشام. الإيوان بالحجاز، والفتن بالشام. الخلفاء بالمدينة والأبدال بالشام. وعرف ذلك الرسول في اليقظة وفي المنام. والأبدال ينصرون الإسلام. والخوف تأويلهم بالملوك^(٥). وهو اللفظ الذي استعمله الصوفية.

وبالرغم من أهمية معاوية إلا أنه كان دائم الذكر مع علي كخصم له. لذلك لم يذكر كأول الملوك باستفاضة^(٦). وكان التجهيز والتأمر كله لتولية ابنه يزيد قاتل الحسين. الأب قاتل علي، والابن قاتل الحسين. بايعت الشام يزيد، وبايع الشيعة الحسين بعد أن استقدموه إلى الكوفة. فأرسل مسلم بن عقيل من المدينة لأخذ بيعة أهل الكوفة.

(١) يذكر البستي ستة وثلاثون ملكا، البستي ح ٥٥٣-٥٥٨.

(٢) أبو بكر (عدد الصفحات) (٣٣)، عمر (٤٧)، عثمان (٢٢)، علي (٣٢)، معاوية (٢)، يزيد (٧)، ثم (٣٦) ملكا في (٢٧) صفحة.

(٣) أبو بكر (عدد السنوات) (٢)، عمر (١٢)، عثمان (١٠)، علي (٦).

(٤) «لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم (الدبر)، ضخم البعص (الحلق)، يأكل ولا يشبع وهو معاوية»، «يا معاوية، إن ملكت فأحسن»، «يا معاوية إن وليت أمرا فائق الله وأعدل»، «أنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم»، سائل الرسول ص ٤٣٩.

(٥) «الخلافة بالمدينة والملك بالشام»، «بينما أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهب به. فاتبعت بصري فعمد به إلى الشام، إلا وأن الإيوان حين تقع الفتن بالشام»، «الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلا. كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا. يسقي بهم الغيث، ويتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم الأعداء»، السابق ص ٢٤٠-٢٤١.

(٦) البستي ح ٥٥٣-٥٥٥.

وبلغت البيعة ثمانية عشر ألف رجل. فأمر يزيد والي البصرة بقتل مسلم بن عقيل أو إرساله إليه. ودعاه مع ابن عروة إلى القصر. وهشم رأسه بقضيب وتركه محتضراً. ثم ركب مسلم بن عقيل مع ثلاثة آلاف رجل لمقاتلة عبيد الله بن زياد. فلما اقترب من القصر وجد أن أصحابه تخلفوا عنه ولم يبق منهم إلا عشرة. فرجع ولم يجد وراءه أحدا فلما استراح مسلم بن عقيل في دار امرأة وأخبر ابنها الوالي بوجود مسلم في الدار أرسل ستين رجل فقاتلهم حتى كل ومل وقبضوا عليه وأمنوه وأخذوه. فصعد إلى القصر وهو يسبح ويكبر، وهو يدعو الله على من خذله وكذبه. فضربت رأسه وسقطت جثته ثم رأسه. وأخرج هانيء بن عروة الذي آواه في داره إلى السوق وضربت رقبتة. وأرسلت الرأسان إلى يزيد^(١). هذا هو حال الملك بعد الخلافة، والخلافة بعد النبوة.

وسيلقى أهل البيت بعد الرسول القتل والتشريد على يدي بني أمية وغيرهم^(٢). وتبرز الأحاديث الموضوعة في فضائل معاوية. فالأماء سبعة: اللوح، والقلم، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، ومحمد، ومعاوية. ولقد اتّمن الله على وحيه جبريل والرسول ومعاوية. وكاد يُبعث معاوية نبيا من كثرة علمه. ويحشر معاوية وعليه حلة من نور ظاهرها الرحمة، وباطنها الرضا. يفتخر به الجميع لكتابة الوحي. وهو رجل من أهل الجنة، يزاحم الرسول على بابها. دعا الرسول أن يملأ بطنه علما وحلما، في مقابل حديث «لا أشبع الله بطنه بدلا من الطعام». يحبه الله وكأنه على رفارف الجنة. يحبه الله ورسوله، الرسول مدينة العلم وعلى بابها ومعاوية حلقتها^(٣).

تكشف الأحاديث عن صراع بين فئتين^(٤). أبو بكر وعمر وعثمان في ناحية وعلى

(١) السابق حـ/ ٥٥٥-٥٥٧.

(٢) «إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وأن أشد قومنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»، «إذا بلغت بنو أمية أربعين اتخذوا عباد الله خولا...»، النبي الأعظم ص ٢٤٣.

(٣) السابق ص ٥٥١-٥٥٦، «إذا رأيتم معاوية وعمر بن العاص مجتمعين ففرقوا بينهما فإنهما لن يجتمعا على خير»، وفي مروان بن الحكم «هو الملعون بن الملعون». وفي معاوية «اللهم العن القائد والسائق والراكب»، «يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي»، «اللهم العنه ولا تشيعه إلا بالتراب»، «إست معاوية في النار»، «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»، النبي الأعظم ص ٧٦٢-٧٦٨.

(٤) «يا معشر بني هاشم، والذي بعثني بالحق نبيا لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم»، النبي الأعظم ص ٢٧١، «إن الله يتجل يوم القيامة للخلاتن عامة ويتجل لك خاصة»، «إن لله سيفا مغموذا» في غمده ما

والحسن والحسين في ناحية أخرى. فالله يتجلى للخلائق عامة يوم القيامة ويتجلى لأبي بكر خاصة. ودليل الوضع أن الله لا يتجلى لأحد. وعثمان هو سيف الله الحي. والأمناء عند الله ثلاثة، الرسول وجبريل ومعاوية. وإذا أحب علي أبا بكر وعمر دخل الجنة. وفضل عمر كبير لن يبلغ مقدار ما جلس جبريل مع نوح. وأبو بكر تاج الإسلام وعمر حلتة. وخلق الله محمداً من نوره. وخلق الله أبا بكر من نور محمد ولو لم يُبعث الرسول لُبُعث عمر. وما يقال من منزلة علي من الرسول مثل منزلة هارون من موسى يقال على أبي بكر. وما قيل عن الحسن والحسين بأنها سيدا شباب أهل الجنة يقال على أبي بكر وعمر. وقد خلق الرسول وأبو بكر من تربة واحدة وفيها يدفنان. وكلها أحاديث مرفوعة لا يعرف من أول روايتها. ولو ذكرت أحاديث فيها فضل علي تذكر أيضاً فضائل أبي بكر وعمر، وبنفس التشبيه علي الباب وعمر الأساس وأبو بكر الحيطان، وكل أبواب فضل معاوية ليس فيها أحاديث صحيحة مثل أحاديث مناقب الخلفاء. ولكل صحابي فضل. فمناصرة الخليفين كانت من أوائل الصحابة. أبو بكر أرحم، وعمر أشد، وأبي أقرأ، وعثمان أصدق، ومعاذ أعلم بالحلال والحرام، وزيد بن ثابت أفرض، وأبو عبيدة الجراح أمين الأمة. الخلفاء الأربعة كلهم في الجنة، ولا يدخل الجنة مبغض لأبي بكر ولو عَمِلَ عَمَلُ سبعين نبياً. وقد تاب الله على آدم بحرمة الرسول وخلفائه الأربعة، لقد آمن أبو بكر الرسول على صحبته وماله. ولو كان الرسول متخذاً خليلاً لكان أبا بكر. ولكل نبي رفيق في الجنة ورفيق الرسول عثمان. وهو وليه في الدنيا والآخرة، أسر له الرسول كل شيء. وزوجه أم كلثوم بوحي من السماء.

دام عثمان بن عفان حياً، «الأمناء عند الله ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية»، «إن الله اتّمن على وصيه جبريل وأنا ومعاوية وكاد أن يبعث معاوية نبياً من كثرة علمه»، «أبو بكر تاج الإسلام وعمر حلة الإسلام»، «خلقتني الله من نوره، وخلق أبا بكر من نوري»، «لو لم أبعث لبعث يا عمر»، «أنا مع عمر وعمر معي حيث حللت، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني»، «أبو بكر مني بمنزلة هارون من موسى»، «يا علي لا تكتب جوازاً لمن سب أبا بكر وعمر فإنهما سيدا كهول أهل الجنة بعد النبيين»، «إني وأبا بكر وعمر خلقتنا من تربة واحدة وفيها ندفن»، «أنا مدينة العلم وعلي بابها، وأبو بكر أسامها وعمر حيطانها»، «أرحمكم أبو بكر، وأشدكم في الدين عمر، وأقرؤكم أبي، وأصدقكم حياء عثمان، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضكم زيد بن ثابت، وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة الجراح»، ص ٤٧٣-٤٨٢، «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة»، ص ٤٩٤.

وقد استمرت الفتن بعد معاوية من أغيلمة بن هاشم^(١). وهم سفهاؤهم وحدثت أمور منكرة بسبب الأثرة. ويهلك حي من قريش. والأفضل العزلة^(٢). وبعد ستين سنة يضيغون الصلوات، ويتبعون الشهوات. لا يتجاوز القرآن ألسنتهم بين منافق وفاجر. فالأنهار مع بني أمية^(٣).

ثم خرج الحسين بنفسه إلى الكوفة. وقاتل عبيد الله بن زياد بكر بلاء حتى قتل عطشا بسهم في حلقه يوم عاشوراء ومعه كبار الصحابة. وضرب رأسه. وأرسلها عبيد الله بن زياد إلى الشام مع أسارى النساء والصبيان من آل البيت. وفي كل منزل يخرج الرأس من الصندوق على رمح حتى يراه الناس. فخرج راهب واشترى الرأس وغسلها وناجاها وأسلم. ثم وجد الجند الدنانير التي باعوا بها الرأس تحولت إلى خزف ومكتوب على جانبها آيتان قرآنيان^(٤). وبعث يزيد جيشا إلى المدينة فقتل أولاد المهاجرين والأنصار واستباحها ثلاثة أيام وسميت واقعة البحر. ومات يزيد وعمره ثمان وثلاثون. سكر ورقص فسقط على رأسه وتناثرت دماغه^(٥). ويقُدسه آل البيت المدفونون في مصر رجالا ونساء، سنة وشيعة^(٦). وقد تنبأ الرسول بمقتل الحسين عن طريق الملاك وليس

(١) شياثل الرسول ص ٢٤٧-٢٤٩، ستكون أثره وأمر تنكرونها، «هالك أمتي على يدي غلعة من قريش»، «إن فساد أمتي على يد غلعة سفهاء من قريش».

(٢) «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسالون الله الذي لكم»، «لو أن الناس اعتزلوهم»، السابق ص ٢٤٧.
(٣) «يكون خلف من بعد الستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلغون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن، لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر. لا يزال هذا الأمر معتدلا قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية»، «إن أول من يبدل ستي رجل من بني أمية»، السابق ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٤) «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ»، «سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»، البستي ح ٥٦١/٢.

(٥) السابق ح ٥٥٧/٢-٥٦٢، الجوهر ح ٢٢٤-٢٤٢. الأمويون خمسة عشر خليفة، الإشارة ص ٤٧٩-٤٩٧: معاوية، يزيد، معاوية، عبد الله بن الزبير، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد. ومعاوية، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز وحدهم هم الذين يضاف إليهم «رضي الله عنهم».

(٦) فاطمة الزهراء، الحسن بن علي، الحسين بن علي، السيدة زينب، السيدة رقية، السيد سكونة، السيدة نفيسة، السيد حسن والد السيدة نفيسة، السيد محمد الأنور، السيد علي زين العابدين، السيد زيد بن علي زين العابدين، السيد إبراهيم ابن الإمام زيد، السيدة عائشة بنت جعفر الصادق، السيد الكاظم، السيد جعفر الصادق، السيد محمد العامر، الإمام الشافعي، سيرة المصطفى ص ١٦١-٢٧٣.

بمجرد البصرة^(١). وقد كان حبيب الرسول لأنه ثمرة فؤاده وليس فقط سبطه. وتقرظ أحاديث أخرى شهداء الفتنة الكبير^(٢).

وتمتد حياة الملوك حوالي قرنين من الزمان منذ معاوية (٦٠هـ) حتى المتقي بن المقتدر (٣٣٥هـ) أمويين وعباسيين إلى أن وصل الأمر إلى المطيع بن المقتدر «يموت أو يقتل لا محالة لأن له أسوة بمن فقدهم»^(٣). وقد قتل عديد من الملوك. فالملك إما مقتول وإما قاتل. وقد أرسل المأمون من يقتل أخاه الأمين ببغداد ثم أرسلت رأسه له^(٤). فلم تعد القرابة ولا الدين مانعا من القتل. واستمر القتل في سبيل السلطة. ولكل ملك يذكر تاريخ مولده وتاريخ وفاته، وسنة ولايته، ومدة ولايته بالسنة والشهر واليوم، ونسبه، وشعاره على خاتمه. ولا توجد أحداث أخرى في حياته إلا فيما ندر. وتعود السيرة إلى منشئها في علم التاريخ. ولم يعد للتاريخ دلالات ولا للموت والحياة معاني. ولم تكن النبوة أساس السيرة حاضرة ولا ظاهرة. وقد توفي معظم الولاة صغار السن إما لأنهم قتلوا أو خلعوا أو لأنهم تقلدوا الإمارة وهم صغار^(٥). وتختلف ولاية كل الملوك بين عشرات السنوات والليالي المعدودة. ومعظمهم ترك الولاية إما بالموت الطبيعي أو بالاغتيال أو بالعزل. ولا يوجد وال انتهت ولايته وعاد إلى الناس فردا عاديا. وهو ما زال مستمرا حتى الآن^(٦).

(١) «أخبرني جبريل أن هذا يقتل بأرض العراق قلت له: يا جبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها»، «وكيف لا أحبه وهو ثمرة فؤادي»، «أتاني جبريل فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا»، «هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألقطه منذ اليوم»، شمائل الرسول ص ٢٤٩-٢٥٣.

(٢) «إن اللجنة تشاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسليمان الفارسي، والمقداد»، النبي الأعظم ص ٣١٧، «تقتلك الفتنة الباغية»، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٣) البستي ٥٨٢/٢-٥٩٤، قتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ وصلب على جذع منكس من الحجاج، قتل الوليد بن يزيد عام ١٢٦هـ قتل مروان بن محمد عام ١٣١هـ قتل الأمين بن الرشيد عام ١٨٩هـ المنصور قاتل أبي مسلم، قتل المتوكل عام ٢٤٧هـ، قتل المعتز بن المتوكل عام ٢٥٥، قتل المهدي بن الواثق عام ٢٥٦، قتل المقتدر بن المعتضد عام ٣٢٠.

(٤) السابق ٥٧٤/٢.

(٥) توفي الهادي بن مهدي وعمره ٢٥ عاما، ويزيد بن معاوية ٣٨ عاما، والمكفي بن المعتضد ٣١ عاما، وعمر ابن عبد العزيز ٤١ عاما، وسليمان بن عبد الملك ٤٥ عاما، والمهدي بن المنصور ٤٣ عاما، والرشيد بن المهدي ٤٩ عاما، البستي ٥٦٢/٢-٥٧٩.

(٦) كانت إمارة معاوية بن يزيد أربعين ليلة، ولاية يزيد بن الوليد خمسة أشهر، إمارة مروان بن الحكم عشرة

وبالرغم من الوراثة أو الانقلاب أو القتل حرص كل ملك على البيعة لتبرير سلطته شرعيا كما يحدث في ملوك ورؤساء هذه الأيام^(١). وبالرغم من الطابع العام للملوك، أمويين وعباسيين إلا أن بعضهم مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز قد شذ عنهم، وحاول إعادة سيرة الخلفاء الراشدين. فجمع وكلاءه ونساءه وجواريه. فطلقهن وأعتقهن، وباع ثيابه كلها، وتصدق بأثائها^(٢). وقد بايع الناس المأمون قاتل أخيه الأمين ببيعة عامة^(٣). وبويع المستعين بن المعتصم. وبايع الناس بعد خلع المستعين نفسه الزبير بن جعفر. ثم قتل فلا فرق بين بيعة القاتل وبيعة المقتول^(٤). وقد يخلع الوالي نفسه إذا اشتد حوله الحصار وطلب منه ذلك أو إذا رأى أنه لا مخرج له^(٥). فبعد أن استتب الأمر للمقتدر بن الموفق وهدأت الأمور وصار الناس كأنهم نيام لا يحسون بفتنة عمرت والدته الحرميين. وأنفقت عليها في كل سنة أموالا خطيرة. وكذلك عمرت بيت المقدس وكانت تنفق عليها وعلى الثغور في كل سنة أموالا كثيرة. وارتفع أهل العلم في كل بلد من الدنيا. وكانت بغداد في أطيب أيامها^(٦). ثم اتفق الناس على خلعه فخلعوه. وأقعدوا أخاه القاهر بعد أن خلع المقتدر نفسه. ثم خلع القاهر نفسه بعد ثلاثة أيام. وبايع الناس المقتدر ثانيا. ثم هاج الجيش عليه وركب المقتدر وعليه بردة الرسول للحماية نفسه. ثم جاءه بربري ورماه بحربة فقتله^(٧).

وكان لكل ملك شعار على خاتمه، فمعاوية القاتل على شعاره «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، ويزيد قاتل الحسين شعاره «آمنت بالله مخلصا»، وكلها إما الإيمان بالله

أشهر، إمارة الهادي بن مهدي أربعة عشر شهرا، إمارة الوليد بن يزيد سنة وثلاثة أشهر، ولاية القاهر بن المعتضد سنة وستة أشهر، البستي حـ ٥٦٢-٥٨١.

(١) طلب الناس من معاوية بن يزيد لما حضرته الوفاة مبايعة رجل بعده والعهد إليه، البستي حـ ٥٦٢، ولما تولى مروان بن الحكم بايعة أهل الشام، السابق حـ ٥٦٣.

(٢) السابق حـ ٥٦٦.

(٣) السابق حـ ٥٧٤.

(٤) السابق حـ ٥٧٧.

(٥) السابق حـ ٥٧٧.

(٦) السابق حـ ٥٨٠.

(٧) السابق حـ ٥٨١.

أو الاستعانة به أو الإخلاص له أو الثقة فيه أو القصد إليه أو التوكل عليه أو الاعتزاز به أو الخوف منه يوم الحساب. والبعض الآخر يخلو من الدين والاكتفاء بالاسم مثل «يا وليد» «أحمد بن محمد»، أو اللقب «أمير المؤمنين»^(١). والسؤال هو كل هذا الاستقواء بالله على من؟ على الأعداء في الخارج الفرس والروم والأحباش أم الخصوم في الداخل صراعا على السلطة؟

وكلهم أسماء هداية وإيمان باستثناء الملوك الأمويين. المهدي، الهادي، المهدي، المنصور، الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم، الواثق، المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المعتمد، المعتضد، الموفق، المكتفي، المقندر، القاهر، الراضي، المتقي، المطيع. كلها تشير إلى الإيمان والطاعة والأمانة والتقوى. ولا شيء من ذلك في الواقع يتحقق. وكان البعض بالفعل يشعر بهذه المعاني إلا أن السياسة أخذته بعيدا عنها بعد أن تغلب عليه منطق القوة^(٢). وهو ما يحدث أيضا مع صفات الله وأسمائه، الصفات مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، وحال الأمة على النقيض: الجهل والعجز والموت والصم والعمى والبكم والهو. وهو أيضا حالها مع الأسماء مثل العادل، المقسط، وحياة الأمة تقوم على الظلم والجور^(٣). وكانت لبعض الملوك ألقاب مثل المخلوع، المجنون، الجمار. ومعظمها يدل على عدم الاستحقاق بالملك، قبل الاسم أو بعده. وهي أسماء مستقراء من الأرض، من واقع وحياة الناس وسلوك الملوك، وليست

(١) معاوية «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، يزيد بن معاوية «أمنت بالله مخلصا»، معاوية بن يزيد «بالله نستعين» معاوية، مروان بن الحكم «أمنت بالعزیز الحكيم، العزة لله»، عبد الملك بن مروان «أمنت بالله»، وليد بن عبد الملك «يا وليد»، سليمان بن عبد الملك «أؤمن بالله»، عمر بن عبد العزيز «بالله مخلصا»، يزيد ابن عبد الملك «رب قتي الحساب»، السفاح أبو العباس «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المنصور أبو جعفر «الله ثقة عبد الله»، المهدي بن المنصور «أستقدر الله تعالى»، الهادي بن المنصور «الله ربي»، الرشيد بن المهدي «بالله ثقتي»، الأمين بن الرشيد «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المعتصم بن الرشيد «الحمد لله الذي ليس كمثل شيء»، المتوكل بن المعتصم «لا إله إلا الله، المتوكل على الله»، المنتصر بن المتوكل «أحمد بن محمد، بالله يتنصر المستعين بن المعتصم أحمد»، المعتز بن المتوكل «المعتر بالله»، المهدي بن الواثق «محمد أمير المؤمنين»، المعتضد بن الموفق «المعز بالله»، حـ ٥٥٥-٥٧٩.

(٢) رفض معاوية بن يزيد أن يبايع أحدا بعده قائلا «ما أصبت من دنياكم شيئا فاتخذت مأثمها»، البستي حـ ٥٦٢/٢.

(٣) من العقيدة إلى الثورة حـ ٢ التوحيد ص ٦٠٠-٦٦٤.

مستنبطة من السماء أو مقاسا عليها كما هو الحال في صفات الله وأسائه^(١).

وبالرغم من ازدهار الحضارة الإسلامية وتأسيس العلوم منذ القرن الثاني الهجري إلا أن الأمراء والولاة كانوا يضيّقون بالرأي المخالف إذا تبنا رأيا خاصا. فقد ضرب المأمون بن الرشيد أحمد بن حنبل بالسياط، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي. وبقي الناس في تلك الفتنة، خلق القرآن إلى أن مات المعتصم^(٢). فالصراع على السلطة السياسية كان أيضا صراعا على السلطة الفكرية. والمتسلط في السياسة متسلط أيضا في الفكر. والدين يعطي الشرعية للسلطين. وفي بعض السير بعض الأبواب أدخل في مصير الرسالة مثل «علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به من الغيب»^(٣). منها تحول النبوة إلى ملك، والموقف من الملوك إنكارهم. ومن أنكر فقد برئ. ومن كره فقد سلم. ومن رضي وباع فقد أثر السلامة. ولا يجوز قتالهم ما صلوا^(٤). وهو يجذب المواقف السلمية والإنكار باللسان دون القتال باليد. فالمواقف ثلاثة: الإنكار، والكراهية، والرضا والمبايعة. الإنكار باللسان، والكراهية بالقلب، والرضا والمبايعة باليد. والخير يتبعه شر، والشر يتبعه خير. والسبب قوم يهدون بغير هدي، ينكر عليهم الناس، دعاة على أبواب جهنم، يقدفون من تبعهم فيها، من بني الجلدة، ويتكلمون بنفس اللسان. والحل هو الالتزام بجماعة المسلمين وإمامتهم، والعض بأصل شجرة حتى الموت^(٥). وفي سير أخرى نقد معاوية في العبادات ليس حاسما مثل نقده في المعاملات^(٦). فقد كان لمعاوية تجربة مع العصر ضد الأصل، ونقد لبسه ليس نقدا حاسما موجهها إلى أفعاله^(٧).

(١) إبراهيم بن الوليد المخولع، مروان بن محمد الحمار، يزيد الناقص، السفاح أبو العباس، السابق حـ ٥٦٨/٢-٥٧١، وكما يقال حاليا على بعض الرؤساء من الجيش «البقرة الضاحكة».

(٢) السابق حـ ٥٧٥/٢.

(٣) الأنوار حـ ٨٠-١٠٤.

(٤) «تكون عليكم أمراء تعرفون وتكفرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، لكن من رضي وباع؟ قالوا أفلا تقتلهم؟ قال «لا ما صلوا، لا ما صلوا»، السابق ص ٨٢.

(٥) «... قوم يهدون بغير هدية، تعرف منهم وتكفر... دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها... هم من جلدتنا، ويتكلمون بلساننا... تلزم جماعة المسلمين وإمامهم... فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»، السابق ص ١٠٠-١٠١.

(٦) النبي الأعظم ص ٣٤٢-٣٦٨.

(٧) السابق ص ٣٦٠.

وأحيانا يمتد الهجوم من الصحابة إلى الأمويين خاصة معاوية نموذج الشيطان وسبب البلاء والانحراف عن الطريق المستقيم والذي أدى إلى استشهاد الحسين وسم الحسن بتآمر زيد. ويُنقد عثمان الخليفة الرابع وتُبين عيوبه ونقائصه لمخالفاته للشريعة، ويُنقد الخليفة عمر وأخطاؤه في تطبيق الحدود. وهو شيء وارد في كل اجتهاد. كما اجتهد في تعليق حد السرقة عام الرمادة، وفي تعليق سهم المؤلفة قلوبهم، وفي أربعة أمور وافقه عليها الوحي وصدقه القرآن فيها. واجتهاد عمر لا يعني خطأه حتى لو كان مخطئا لأن للمخطئ أجرا وللمصيب أجرين. فالنية صحيحة وهو الوصول إلى الحق وفيما ينفع الناس. والأعمال بالنيات. وليس من المعقول أن يخطئ عمر في خمس وثمانين مسألة^(١). ويُنقد الخليفة أبو بكر في منعه فاطمة من وراثة فذك لأن الرسول قال «نحن الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

والتفاضل بين الصحابة أمر طبيعي، تشخيص للتعددية النظرية ونتيجة للفردية. فالتناس مختلفون بفعل الطبيعة والخلق. وقد يكون الدافع على ذلك خلق تنافس في الخير بينهم. والصحابة ليسوا أشخاصا تاريخيين بل نماذج بشرية تتكرر عبر الزمان والمكان، فأبو بكر وعمر المثال والواقع، ما يجب أن يكون وما هو كائن، العزيمة والرخصة. ولا توجد ميزة خاصة لمن عاصر الرسول. فالمعاصر بالزمان وليس بالمكان. يستطيع كل إنسان بسلوكه أن يتمثل نموذج الرسول أو الصحابة وبينهما ألف عام^(٢). ويصل حد الجدل الشيعي السني إلى حد التكفير، وتحويل الخلاف السياسي إلى خلاف عقائدي، والانتقال من الخلاف في الفروع إلى خلاف في الأصول، والتكفير من الطرفين، التكفير والتكفير المضاد^(٣). ومن النافع هز سلطة المذاهب الفقهية الأربعة ورؤسائها منعا للتقليد وتأكيذا على تغير الظروف منذ ألف عام ولكن من الضار استبدال سلطة أئمة الشيعة بسلطة فقهاء السنة. وكما يمتد التقديس من النبي إلى الصحابة إلى الفقهاء الأربعة وعلى رأسهم أبو حنيفة عند السنة كذلك يمتد التقديس من الرسول إلى علي إلى ذريته إلى درجة

(١) السابق ص ١١١-٤٥٦.

(٢) هنا هو معنى المعاصر contemporaneity عند كيركجارد.

(٣) النبي الأعظم ص ٣٧٦.

التأليه عند الشيعة، مع أن أبا حنيفة كان تلميذا لجعفر الصادق^(١). والهجوم على أبي حنيفة أكثر من الهجوم على الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل مع أن مالك وأحمد يمثلان قطبي الفكر: الواقع والنص. ويستعمل الأسلوب الخطابي الذي يصل إلى حد اللعن والسباب وكأنه خطاب شفاهي أمام الجمهور العريض^(٢). والسب واللعن ليس نقدا. والرفض المذهبي العقائدي ليس نقدا^(٣). وتُستعمل آيات القرآن كلغة لسب الخصوم ولعنهم مثل «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ»^(٤). وفي سيرة أخرى تنتهي الرسالة بسير الخلفاء الراشدين وسنواتهم ابتداء من حادث السقيفة وبيعة أبي بكر ثم قتال أهل الردة ورسائل أبي بكر وبعثات خالد ثم رصد الحوادث ابتداء من السنة الثانية عشرة، ومسيرة خالد إلى العراق، وحوادث الثالثة عشر، وموت أبي بكر، وحوادث الخامسة عشرة، وفتح القادسية، وحوادث الخامسة والثلاثين ووقعة الجمل، وموت الصحابة أو زوجات الرسول حتى الرابعة والستين، ثم بيعة معاوية بن يزيد في العام السادس والخمسين وموت معاوية في العام السادس والستين، وتأسيس دولة بن العباس^(٥). والعباسيون أربعة وأربعون خليفة^(٦). السبعة الأوائل لا يلحق بهم لقب مقرون بالله^(٧). والباقي ما يفيد معنى المعتصم به أو المتوكل عليه أو المستعين به أو المهتدي به أو الطائع له^(٨). فالخليفة تنقصه الشرعية من أدنى فيحتاج إلى شرعية من أعلى. وهو تاريخ

(١) السابق ص ٥٥٧-٥٥٩.

(٢) السابق ص ٤٦-٤٧ / ٧٧-٧٨ ومثل «وهم معي إلى أم المؤمنين»، السابق ص ٥٦٩. ويصفه البلاذري

بالمغفل ص ٢٨٥.

(٣) «اقرأ وتبصر» ص ٣٦١.

(٤) السابق ص ٣١٩.

(٥) خلاصة سيرة الرسول ص ١٦٩-٢٢٥.

(٦) الإشارة ص ٤٩٨-٥٦٦.

(٧) السابق ص ٤٩٨-٥١٠.

(٨) أ- المعتصم بالله، الائق بالله، المستعين بالله، المعتز بالله، المعتضد بالله، المكتفي بالله، القادر بالله، القائم بأمر

الله، المقتدر بأمر الله، المستظهر بالله، المسترشد بالله، المستنصر بالله، الحاكم بأمر الله، المستكفي بالله، المعتضد

بالله، الراشد بالله، الظاهر بأمر الله، المستعصم بالله.

ب- المتوكل على الله، المعتمد على الله، المقتدر بالله، الظاهر بالله، المستكفي بالله، الناصر لدين الله.

ج- المهتدي بالله، المستنجد بالله، المستيقن بأمر الله، الائق بالله.

د- الراضي بالله، المتقي بالله، المكتفي لأمر الله.

هـ- المطيع لله، الطائع لله، الإشارة ص ٥١١-٥٦٦.

خالص للولادة لا دلالة فيه، ولا استرجاع للنبوة. هو مجرد تسجيل لتاريخ الولاية بعد أن تشخصت الدولة في ولايتها. وحدثت وقعة الجرة في زمن يزيد لتأديب أهل المدينة التي قررت التخلص منه^(١). وقد استشهد فيها خيار الأمة بعد الصحابة. ويُروى أنه افتض فيها ألف بكر. وقد حذر الرسول من رأس السبعين وإمارة الصبيان. وقد يمتد الملك إلى قرن من الزمان، وهي مدة حكم بني أمية^(٢). ويستمر الانهيار من معاوية إلى ابنه يزيد إلى ابنه الوليد^(٣). وهو غير الوليد بن عبد الملك باني الجامع السعيد. وينزوي خلفاء بني أمية من على منبر الرسول كما تنزوي القردة^(٤). ووسط هذا الانهيار المستمر يظهر عمر بن عبد العزيز تاج بني أمية. فمسار التاريخ بين نهضة وسقوط، قيام وقعود. وهو خير هذه الأمة^(٥). ومعه يظهر أهل العلم والحكمة، مع أهل الضلال والزع الذين يكذبون بالقدر^(٦). وهو في رأي كاتب السيرة غيلان الدمشقي من المعتزلة الأوائل. كما يظهر

(١) «يقتل بهذه الجرة خيار أمي بعد أصحابي»، «تعوذوا بالله من رأس السبعين وإمارة الصبيان»، «عمر أمي من ستين سنة إلى سبعين سنة»، «وليرفعن جبار من جبابرة بني أمية على منبري هذا»، شمائل الرسول ص ٢٥٣-٢٥٥.

(٢) «أرايتم ليلتكم هذه؟ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»، «تسألون عن الساعة. وإنما علمها عند الله. فأقسم بالله ما على ظهر الأرض من نفس منقوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة»، «هذا الغلام يعيش قرنا»، شمائل الرسول ص ٢٦١.

(٣) «قد جعلتم تسمون بأسماء فراعنتكم، أنه سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد. هو أضر على أمي من فرعون على قومه»، «سيكون رجل اسمه الوليد يسد به ركن من أركان جهنم أو زاوية من زواياها»، «ابن الزرقاء هلاك أمي على يديه ويدي ذريته»، «انذروا له حية، أو ولد حية عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين، وقليل ما هم. يشرقون في الدنيا، ويوضعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق»، «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهم دولا، وعباد الله خولا، وكتاب الله دغلا. إذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لو ك ثمرة»، السابق ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) «رأيت في النوم بني الحكم ينزون على منبر كما تنزوي القردة»، لسابق ص ٢٦٣-٢٦٥.

(٥) «إنكم في النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون. يرفعها إذا شاء. ثم تكون جبرية ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة». «أما أنك ستلي أمر هذه الأمة وستعدل عليهم»، «تموت يا سرق بقلادة الأرض. ويدفئك خير أمي»، السابق ص ٢٥٨-٢٦٠.

(٦) «يكون في أمي رجل يقال له وهب يهب الله له الحكمة. ورجل يقال له غيلان هو أضر على أمي من إبليس»، «ينطق الشيطان بالشام نعقة. يكذب ثلثاهم بالقدر»، السابق ص ٢٦٠.

مفسرو القرآن. وحفظته وهو وهب بن منبه، صاحب التفسير الشارح^(١).

ثم أتت دولة بني العباس من خراسان بالرايات السود عام اثنين وثلاثين ومائة^(٢). وقد تنبأ الرسول بقدمهم. وأخبر عمه العباس بذلك بأنهم يجمعون بين النبوة والملك. يظهر المهدي من بينهم. وتتفاوت الحقبة الزمنية بين ثلاثين سنة وستين وسبعين وقرن وقرنين^(٣). والطبقة فترة زمنية. وقد تكون خمسا. كل طبقة أربعون عاما. وقد تكون الفترة قرنا. وينهار التاريخ قرنا وراء قرن. ثم تأتي البقرات السماء. وقد وقعت في زمانهم عدة أمور^(٤). ومنها صلب خاسر، وتربية الكلاب أفضل من أن يخرج أحد من صلبه. وينتهي العلم إلا في المدينة. كذلك لا تسب قريش. فهي حاملة العلم. وتذكر فرق المعارضة الرافضة والشيعة. فعند الشيعة الأئمة اثنا عشر كلهم من قريش^(٥).

(١) «يخرج أحد الكاهنين. رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسها أحد يكون من بعده»، «يخرج من الكاهنين رجل أعلم الناس بكتاب التوراة»، ص ٢٦٠.

(٢) «أما أنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك»، «فيكم النبوة وفيكم الملك»، «يقتل عند كنزكم هذه ثلاثة، كلهم ولد خليفة، لا يصير إلى واحد منهم، ثم تقبل الرايات السود من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم تتروا مثله». ثم يجيء خليفة الله المهدي. فإذا سمعتم فأتوه وبأيعوه، ولو جبروا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»، «نحى رايات سود من قبل المشرق، تخوض الخيل الدم إلى نبتها، يظهر العدل، ويطلبون العدل فلا يعطونه، فيظهرون فيطلب منهم العدل فلا يعطونه»، «يخرج عند انقطاع الزمان وظهور من الفتن رجل يُقال له السفاح فيكون إعطاؤه المال حشا»، «شأن الرسول ص ٢٦٥-٢٦٨.

(٣) «خيركم بعد الماتنين خفيف الحاذق»، «الآيات بعد الماتنين»، «أمتي على خمس طبقات: فأربعون سنة أهل بر وتقوى، ثم الذين يلونهم إلى عشرين ومائة سنة أهل تراحم وتواصل، ثم الذين يلونهم إلى ستين ومائة أهل تدابر وتقاطع، ثم المهرج المهرج، النجا النجا»، «أمتي على خمس طبقات. كل طبقة أربعون عاما. فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهل علم وإيمان. وأما الطبقة الثانية ما بين الأربعين إلى الثمانين فأهل بر وتقوى»، «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم يتسمنون، يجيئون السمن، يعطون الشهادة قبل أن يسألوها»، «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يأتمنون وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»، السابق ص ٢١٧-٢٧٣.

(٤) «لأن يري أحدكم بعد أربع وخسين ومائة جرّوا وكلّبا خير له من أن يربي ولدا لصلبه»، «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحد أعلم من عالم المدينة»، «لا تسبوا قريش فإن عالمها يملأ الأرض علما. اللهم إنك أذقت أولها وبالا فأذق آخرها نوالا»، السابق ص ٢٧١-٢٧٧.

(٥) «يكون اثنا عشر خليفة... كلهم من قريش»، «يكون بعدني من الخلفاء عدة من أصحاب موسى»، «لا يزال هذا الدين قائما حتى يكون عليهم اثنا عشر خليفة -أميرا- كلهم تجتمع عليهم الأمة. كلهم من قريش.. ثم يكون المهرج»، «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان»، «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديه أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، السابق ص ٢٦٨-٢٧١.

٨- الرسالة في التاريخ

أ- الرسول والرسالة

ومصير الرسالة مثل نشأة الرسالة يدل على استقلالها عن الرسول، فقد توفي الرسول واستمرت الرسالة. توفي الحامل، وبقي المحمول. وانتهى دور الرسول بانتهاء الوحي والنبوة. واستمر دور المرسل إليهم ابتداء من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. فالرسالة غاية التاريخ منذ ظهور الإنسان في العالم كظاهرة طبيعية في الخلق حتى أصبح مركز العالم في العصور الحديثة. دفعت الإنسانية إلى مزيد من التقدم والإسراع فيه والإرشاد له. تتعدد الرسل منذ آدم حتى محمد والرسالة واحدة. تفنى الرسل وتبقى الرسالة. والله يتعامل مع الرسل ويحفظهم، وتبقى الرسالة في أيدي البشر. إذ حافظوا عليها تقدمت البشرية وإذا لم يحافظوا عليها انهارت البشرية. فكل رسول يمثل دورة حضارية في مسار الحضارات. وهذا هو معنى قصص الأنبياء وأهميته لصياغة فلسفة للتاريخ في الماضي واكتشاف قانون انهاره ونهضته من أجل التنبؤ بالمستقبل ومرحلته القادمة^(١).

ما يهم في مصير الرسالة ليس الرسول بل المرسل إليهم أي من الرسالة إلى المسلمين أي حملة الرسالة كما حملها الصحابة والتابعون. وهو تاريخ سياسي بالأصالة يتمثل في الصراع على السلطة الذي بدأ منذ وفاة الرسول والملوك الذين قتل بعضهم بعضا من أجل الحكم منذ قتل الخلفاء الثلاثة، عمر، وعثمان وعلي، واستشهاد الحسين حتى

(١) السنج: تربية الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧. ١- فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة، السيرة النبوية، ص ٤٥٧-٤٨٥، فضل البعثة المحمدية. إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات، قيمة الرحمة كما وكيفا، إنقاذ النوع البشري من الشقاء وإفلاك، مهمة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد، العصر الجاهلي وتجهيزه للانقياد والانتشار، السابق ص ٤٥٩-٤٧٠، ٢- العالم الجديد في حساب البعثة المحمدية: ١- منح البعثة المحمدية السنة وأثرها في تاريخ الإنسانية. ٢- عقيدة التوحيد النقية الواضحة، مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، إعلان كرامة الإنسان وسموه وشرف الإنسانية وعلو قدرها، محاربة اليأس والتشاؤم وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان، السابق ص ٤٧١-٤٨٥، الجمع بين الدين والدنيا وتوحيد الصفوف المتنافرة والمسكرات المتحاربة، السابق ص ٤٨١-٤٨٤، تعيين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح ص ٤٨٦-٤٨٧، ولادة عالم جديد، وإنسان جديد ص ٤٨٦-٤٨٧.

الانقلابات الحالية في تاريخ العرب الحديثة منذ أكثر من نصف قرن من الزمان. أصبح تاريخ العرب الحديث يؤرخ من جديد بأسماء الملوك والولاة والحكام، بل إن دولا بأكملها تسمى بأسماء مؤسسي نظم الحكم فيها وأسماء عائلاتها. فالدولة عائلة كما كان الحال عند القدماء، الأمويون، والعباسيون، والفاطميون، والأخشيديون، والطولونيون، والساسانيون، والصفويون، والعثمانيون حتى الدولة القطرية الحديثة. الدولة قبيلة لها أشرفاها وساداتها كما كان الحال قبل ظهور الإسلام وبعده.

تضخمت شخصية الرسول بعد الوفاة في الوقت الذي ساء فيه مصير الرسالة^(١). وكلما ساء مصير الرسالة زاد البكاء على الرسول، والترحم على أيام الماضي، والحنين إليه بدلا من توجه الرسالة نحو المستقبل. وأصبح احتلال فلسطين وتهويد القدس لا يثير نائرة المسلمين قدر إثارة الصور الدنانيرية الساخرة من الرسول. وإذا كان الإسلام قادرا على تجميع الملايين فوق جبل عرفات فلماذا لا تتجمع هذه الملايين فوق جبل المكبر وتحاصر القدس وتمنع تهويدها وإيقائها عربية كما كانت عبر أربعة عشر قرنا^(٢). وإذا كانت القبلة أولا نحو بيت المقدس قبل تحويلها إلى مكة، ومكة ليست في خطر بل بيت المقدس فلماذا لا تعود القبلة مرة ثانية إلى ما كانت عليه لتوجيه عيون أكثر من مليار وربع من المسلمين نحو القدس حتى تتحرر القدس ثم يعود المسلمون إلى قبلتهم الثانية، البيت الحرام في مكة؟ هكذا فعلت الصهيونية السياسية في أول عهدها في لاهوت الأرض عندما جعلت اليهودي لا يعبد الله إلا في فلسطين، أرض الميعاد، وفي القدس، المدينة المقدسة، وفي المعبد، هيكل سليمان. وبالخفريات تحت يريدون إثبات أن المسجد الأقصى أقيم على جدار هيكل سليمان، فلا بد من هدمه وإعادة بناء الهيكل.

(١) مثل شعر حسان في مرثيته وفيها:

يكون من تبكي السموات يومه	ومن قد بكته الأرض فالتناس أكمده
وهل عدلت يوما رزية هالك	رزية يوم مات فيه محمد
وما فقد الماضون مثل محمد	ولا مثله حتى القيامة يفقد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى	حريص على أن يستقيموا ويبتدوا

ابن هشام ٥٥٨/٢-٥٦٣.

(٢) خواطر حاج، أخبار الأدب. يناير ٢٠٠٦.

وفي مصير الرسالة كلما ضعفت الرسالة تضخم الرسول حتى أصبح إلها كما هو الحال في الحقيقة المحمدية عند الصوفية. وكلما قويت الرسالة عاد الرسول إلى حجمه الطبيعي. إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. إذا عجز المسلمون عن تحقيق الرسالة في الأرض فإنهم يشخصونها في الرسول، ويبالغون في إطرائه ومدحه. وكلما بلغ العجز مداه إلى درجة الاحتلال وصل الإطراء إلى حده الأقصى إلى درجة التأليه. إذا تخلف المسلمون حولوا تخلفهم إلى تقدم في مدح الرسول. وإذا تقدموا أصبح كل منهم صحابيا جديدا للرسول وجنديا في دعوته. فهناك قانون عكسي بين الرسالة والرسول من حيث التضخيم والتكبير والتعظيم.

وفي لحظات الحزن الشديد كالموت والعزاء والدفن يكون الرسول على الألسن. وفي لحظات الفرح الشديد يكون أيضا الرسول في الأفواه. فأصبح الرسول مشجبا تعلق عليه العواطف. وأقرب إلى المسلم من الرسالة. الرسول تسهل مناجاته أما الرسالة فتحتاج إلى فهم. الرسول في حاجة إلى قلب، والرسالة في حاجة إلى عقل. يبدو الرسول مخلصا من الأحران، ومكافئا بالأفراح. ومجسدا للرسالة بشخصه. وطالما الرسول باق في الذهن فالرسالة باقية على الأرض. وطالما الرسول حي في الوجدان فالرسالة حية في التاريخ. وطالما الرسول تقام له الموالد، وترفع له البيارق، وتدق له الدفوف، وتقرع له الطبول، وتمز له الخواصر، فالرسالة بخير تملأ الشوارع والأزقة، وحاضرة في الزوايا والتكايا. تباركها نظم الحكم. فهناك قانون طردي بين حدة الانفعالات وتضخيم الرسول. كلما اشتدت الانفعالات وضقت السبل. وبلغت القلوب الحناجر، ظهر الفرح في تضخيم الرسول والتشبث به طلبا للخلاص. وكلما هدأت الانفعالات رجع الرسول إلى حجمه الطبيعي، وبدأ العقل يفكر في مسار التاريخ، ويعمل على نقله من دورة حضارية إلى دورة حضارية أخرى.

ب- أسباب الانهيار

الحديث أولا والقرآن ثانيا، مصدران لسيرة الخلفاء فيما يتعلق بآيات مصير الأمة ومستقبلها ورسالتها في التاريخ، وأحداث آخر الزمان وما يتعرض له المسلمون من فتن وتقليد وضياح. فالقرآن وضع قانونا لنهضة الشعوب وسقوطها. والحديث تنبأ

أيضا بمصير الأمة في التاريخ، انهيارها ونهضتها. ولم تتحول هذه الافتراضات بعد إلى تحليلات علمية لمسار الأمة في التاريخ لمعرفة أسباب انهيارها وشروط نهضتها. والتعرف على أسباب الانهيار أولا مقدمة لمعرفة شروط النهضة لسهولة تحول السلب إلى إيجاب، والنقص إلى كمال.

وقد يكون سبب انهيار الرسالة هو نفس سبب الهزيمة في غزوة حنين، الاعتماد على الكم دون الكيف، وعلى الكثرة العددية دون القلة النوعية. فالمسلمون اليوم قاربوا على ربع سكان المعمورة ولكنهم لا ثقل لهم في الموازين الدولية. وعدد الدول الإسلامية ثلث دول الأمم المتحدة، ولكنهم لا يؤخذون بعين الاعتبار. وإسرائيل قلة تتغلب على المسلمين كثرة، ستة ملايين في فلسطين وحوالي ثمانية ملايين خارجها يغلبون مليارا وربعا من المسلمين، يحتلون فلسطين، وبينون المستوطنات، ويهدون القدس^(١). وقد يكون هو نفس سبب هزيمة أحد، عصيان الرسول، وترك المواقع، والجري وراء المغنم والأسلاب، والتفاف الأعداء من ورائهم، واغتيال القادة المخلصين مثل حمزة. فالتعلم من هزائم الماضي طريق النصر في المستقبل. وكما حدث في تاريخ العرب الحديث التعلم من هزيمة يونيو، حزيران ١٩٦٧ أدى إلى انتصار حرب تشرين، أكتوبر ١٩٧٣.

ومصير الرسالة يتأرجح بين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة. فالتاريخ متعدد العوامل. ولا يتحكم في مساره عامل واحد. وهو ما حاولت تناوله معظم حركات الإصلاح الحديثة منذ قرنين من الزمان. وما تصوره القدماء على أنه مصير إلهي للأمة في التاريخ أو قدر إلهي هو في الحقيقة نتيجة للفعل الإنساني. فمصير الأمة بيدها سواء في مرحلة الانهيار أو في مرحلة النهضة. وقد تغلب عليها الغرب الحديث بتحليله للعوامل البشرية التي تؤدي إلى تحلف الشعوب وتقدمها، والسيطرة عليها وتوجيهها دون انتظار تدخل عوامل خارجية، يصعب السيطرة عليها. وامتلاك الأسباب جزء من ثقافتنا القديمة نسيناه في لحظة فقدان السيطرة عليها باسم الإيوان.

(١) «ستداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، أمن قلة نحن يا رسول الله؟ بل أنتم كثير كنساء النحل بل حب الحياة وكرامية الموت».

فمن الأسباب الاقتصادية عدم سيطرة الأمة على مواردها الطبيعية خاصة النفط في منطقة الخليج، ووضع ودائعه في البنوك الأجنبية، فضاعت الاستثمارات. ولم يعد معظمها يوظف في الداخل بل في الخارج. ولم تعد الأمة مكتفية بذاتها في الغذاء والسلاح. تستورد أكثر مما تصدر. ولديها كل مقومات الاستثمار، الأراضي الزراعية في العراق والسودان ومصر، والمياه في وادي النيل وفي دجلة والفرات، والأسواق الشاسعة. فقد تجاوزت الأمة المليار والربع، خمس سكان العالم. وفي طريقها إلى أن تكون رابعة. والعقول المتميزة تهاجر خارج البلاد، وتساهم في تنمية المجتمعات الغربية. والسواعد الفتية تهاجر علنا وسرا إلى الغرب، وتضحى بحياتها في البحار من أجل الهجرة اللاشعورية. فأصبحت البلاد الإسلامية طاردة لأهلها، علمائها وعماها. الطيور المهاجرة أو هجرة العقول وهو ما يعرفه أهل الاختصاص. فرغت الأمة من جهد أبنائها وتعتمد على غيرها. وأصبحت تبني وتساهم في تقدم غيرها. وتقدمت المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، وإيثار العاجل على الأجل، والدنيا على الآخرة.

ومن الأسباب السياسية التبعية وفقدان الاستقلال إما لأسباب داخلية، فقدان الإرادة الوطنية، والهوية السياسية، وضياح الثقة بالذات أو لأسباب خارجية، الاستعمار، والاحتلال^(١). وقسمت الدولة العثمانية بعد فقدانها الحرب العالمية الأولى بين القوى الغربية، وبعد سقوط الخلافة في ١٩٢٤ تم احتلال نصف فلسطين من القوى الصهيونية في ١٩٤٨، والنصف الآخر في ١٩٦٧ مع هضبة الجولان في سوريا وجنوب لبنان. وما يزال المشروع الصهيوني لم يكتمل، من الفرات إلى النيل وحتى الجنوب، الطائف والمدينة وخيبر لاسترداد أملاك اليهود الضائعة. أرض المعاد لشعب الله المختار بناء على عهد أبدي مادي في اتجاه واحد بين الله وإسرائيل^(٢). وما زال الاستعمار يأخذ أشكالا جديدة غير الاحتلال العسكري المباشر بالرغم من استمراره في العراق وأفغانستان وفلسطين.

(١) «فلتبعن سنن من كان قبلكم، باعاً وبيعاً، وذراعاً وبذراعاً، وشراً بشيراً، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قلنا لليهود والنصارى؟ قال قمن» وهو الحديث الذي أخذناه شعاراً في «مقدمة في علم الاستغراب» للاستقلال عن الغرب وتحويله بدلاً من أن يكون مصدراً للعلم إلى أن يصبح موضوعاً للعلم، مقدمة علم الاستغراب ص ٥.

(٢) ماسينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، المقدمة ص ٥٣-٥٦، الرسالة ص ١٧١-٢٠٤.

ومن الأسباب السياسية أيضا التسلط والقهر وغياب الشورى والبيعة واختيار الحاكم اختيارا حرا. وهو ما يسمى بلغة العصر غياب الديمقراطية، والاكتفاء بأشكالها ومظاهرها الخارجية من أحزاب يكون للحزب الحاكم فيها، حزب السلطة، أغلب المقاعد، وبرلمان لا يمثل مجموع الشعب، وصحافة تحت سيطرة الدولة، وتعليم وإعلام في يد النظام السياسي. فكل حاكم يريد البقاء في السلطة إلى الأبد، ورئيسا مدى الحياة له ولذريته من بعده إلى أن يتدخل الموت الطبيعي أو الاغتيال أو انقلاب الجيش عليه أو الثورة الشعبية ضده. أصبح الحكم غاية لا وسيلة. وهدفا لا أداة. وأصبح المواطن محاصرا بين المعركة الداخلية ضد التسلط والقهر والمعركة الخارجية ضد الغزو والاحتلال. يحارب في جبهتين، ولا يدري لأيهما الأولوية ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

ومن الأسباب الاجتماعية التخلف والتفكك والصراعات الداخلية التي كانت سببا في ضياع الأندلس غربا، وفقدان استقلال الجمهوريات الإسلامية في أواسط آسيا شرقا، ودولة الخلافة شمالا، والصراع الحدودي بين الدول الإسلامية في إفريقيا جنوبا. ومنها الفساد الأخلاقي والاجتماعي، الرشوة، والاحتيال، والسرقه، ونهب المال العام، والتهرب الضريبي، والوساطة، والمحسوبية والغش في الصناعة والتجارة والزراعة والبناء ومعظم قطاعات الإنتاج العام والخاص. فلا يوجد قانون لحماية المستهلك أو حقوق المواطن.

وأياضا غياب حقوق الإنسان نظرا لغياب مفهوم الإنسان الفرد في الثقافة العربية امتدادا للثقافة الإسلامية القديمة. إذ يمكن اعتقال المواطن شهورا بل سنين بلا محاكمة، وتعذيبه في السجون، وحشده في المركبات العامة، وإسكانه في العشوائيات، وتركه بلا حاجاته الأساسية في الغذاء والعلاج والتعليم والإسكان. وأصبحت ملفات حقوق الإنسان واختراقها نموذجا للملفات التي تقدم إلى المنظمات الدولية لمعاقبة الدول التي تقوم بذلك، ومحاصرتها، وتوقيع العقوبات عليها^(١). يوجد إنسان واحد

(١) ولماذا غاب مبحث الإنسان في تراثنا القديم؟، ودراسات إسلامية، القاهرة الأنجلو المصرية ١٩٨٢ ص ٣٩٣-٤١٥.

فقط هو الرئيس، الإنسان الكامل بلغة الصوفية الذي له الحق في كل شيء، وليس عليه أي واجب، وتحت الدماء. ومنها المجتمع الأبوي «البطرياركي» الذي تقوم العلاقات الاجتماعية فيه على الرئيس والمرءوس، السيد والعبد، الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، الغني والفقير، الأب والابن. يعطي الأول الأمر، ويطيع الثاني. وترجع كلها إلى نمط العلاقة بين الله والعالم. الأمر والمأمور، الخالق والمخلوق في تصور رأسي للعالم بين الأعلى والأدنى، وليس في تصور أفقي بين الأمام والخلف، حيث تكون الأطراف متساوية فيه على نفس المستوى، لا تميز بينهم إلا في درجة التقدم أي العمل الصالح بتعبير القدماء.

ومن الأسباب الثقافية العيش في عصر حديث بثقافة عصر قديم. ولكل عصر ثقافته. لقد أبدع القدماء ثقافتهم في ظروف عصرهم. ونحن نقلها ونردها وكأنها ثقافة كل العصور. وجعلناها تراثا مقدسا وعلوما إلهية مع أنها تراث تاريخي وعلوم إنسانية خالصة. فكل شيء إبداع بشري، ورؤية إنسانية حتى العلوم النقلية الخالصة، علوم القرآن والحديث والتفسير والفقه. مازلنا نتصور العالم رأسيًا بين الأعلى والأدنى، فأعطينا الأساس الثقافي للتسلط السياسي والقهر الاجتماعي ولتراكم الثروة في أيدي قلة، وليس تصورا أفقيا بين الأمام والخلف، فغاب مفهوم المساواة والتقدم. لم نستطع حتى الآن على مستوى الثقافة الشعبية أن نحول محورها من الرأسي إلى الأفقي فيصبح الأعلى هو الأمام، والأدنى هو الخلف، والتحول من مفهومي الخلود والأبدية إلى مفهومي الإنسان والتقدم. مازالت القيمة العليا خارج الزمان والمكان والتاريخ في اغتراب شامل عن الأرض والناس والحياة والطبيعة والعصر.

ج - شروط النهضة

وأول شرط للنهضة هو الإبداع الثقافي، وإعادة قراءة التراث القديم الذي مازال حيا في قلوب الناس طبقا لظروف هذا العصر حتى لا تعيش عقولهم في عصر قديم وأجسادهم في عصر آخر حديث. فينشأ صراع حضاري بين أنصار القديم وأنصار الجديد، والناس ترغب في الاثنين معا. ولا يوجد ما يملأ الفراغ بين الأصوليين والعلمانيين، ويعطي الناس ثقافة ثالثة. حاول الإصلاح ذلك، ولكنه كبا عدة مرات

حتى أصبح سلفية خالصة^(١). وحاولت الليبرالية ذلك حتى أصبحت تغريبا خالصا. والإبداع الثقافي استئناف للاجتهاد الأصولي القديم، والربط بين الأصل والفرع عن طريق العلة المشتركة. فلا اجتهاد بلا أصل وجذور، ولا اجتهاد بلا فرع وعصور. قد يتقدم الإبداع الفني الشعري والروائي والمسرحي والتشكيلي على الإبداع الفكري. ولكن ذلك لا يغني عن الإبداع الفكر كشرط للتقدم الحضاري^(٢).

والحریات العامة شرط الإبداع الذاتي. فلا إبداع في مجتمع يقوم على القهر والتسلط والمنع والخطر والرقابة. الإبداع نشاط حر قد ينمو في ظروف القهر سرا حتى يقضي عليه. وهو الصدق مع النفس ضد أوضاع الزيف والتناق، وتفرغ الطاقة وصبها في حركة التاريخ. الحرية ضد جميع صنوف القهر الديني والسياسي والتي يغذي بعضها بعضا. يقوم القهر الديني على السلطان الأصغر، ويستند القهر السياسي إلى السلطان الأكبر. وهي ليست فقط الحرية السياسية أو الاجتماعية بل التحرر من الخوف من العقاب الديني والأخروي، وقهر التقاليد، والخروج على المألوف، والأقلية في مقابل الأغلبية، والنخبة في مقابل الدماء، والبرهان في مقابل الخطابة، والعقل في مقابل تملق أذواق الجماهير.

والتعددية الفكرية والسياسية نتيجة طبيعية للحرية. فالحقيقة متعددة الجوانب، وجهات نظر تتحمل الرأي والرأي الآخر دون تكفير أو استبعاد، ودون رأي صائب وآراء خاطئة طبقا لحديث الفرقة الناجية. تمنع احتكار الرأي، وفرضه بالقوة على الآراء الأخرى «وَأَنَا أَوْ إِنَّا كُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ». وكان الصحابة يختلفون في الرأي، والرسول يستشيرهم. يقول لأبي بكر «يَا أَبَا بَكْرٍ انزل قليلا». ويقول لعمر «يا عمر اصعد قليلا»، فكان أبو بكر أقرب إلى المثال، وعمر أقرب إلى الواقع. والإسلام يجمع بين الاثنين. كما يستحيل تكفير أحد لأن من قال لأخيه أنت كافر فقد باء بها.

(١) كجوة الإصلاح، دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٧٧-١٩٠.

(٢) وهو الهدف من مشروع «التراث والتجديد». وهو ما يقوم به حزب العدالة والتنمية في تركيا على مستوى الممارسة السياسية، وفي ماليزيا على مستوى النهضة التنموية، حال المسلمين في العصر الحاضر، سيد الأنعام ص ٤٤٠-٤٩٠.

وليس لأحد الحق الدخول في قلوب الناس وإصدار الحكم عليها. الحكم بالإيمان والكفر ليس للإنسان على أخيه الإنسان. ولا يصدر في الدنيا بل في الآخرة. ويتج عن التعددية الفكرية الحوار بين وجهات النظر المختلفة. وهو ما يتطلب إعمال العقل كأداة للحوار. التعددية الفكرية تنتهي إلى الحوار وليس إلى الصراع، وإلى استعمال العقل وليس الاعتماد على القوة. الحوار لتبادل وجهات النظر وإثرائها وتعميقها وليس لاستبعادها لصالح رأي واحد. الرأي الواحد مثل الحزب الواحد والرئيس الأوحى مدى الحياة. والوحدانية من صفات الله. والحوار مع الخصوم قد يقضي على الخصومة، ويزيل سوء التفاهم كما حاور عليا خصومه الذين خرجوا على التحكيم بالآلاف، وحقت الدماء. وكلما توترت العلاقات بين الدول كان الحوار بديلا عن السلاح، والتفاهم المشترك بديلا عن سفك الدماء.

وبالبدية بالإنسان مركز الكون كما قال إخوان الصفا من قبل وكما أعلنت الحضارة الغربية في بداية العصور الحديثة. فقد اهتمت الحضارة الإسلامية بأنها مكرزة حول الله في مقابل الحضارة الغربية التي مركزها الإنسان^(١). فالإنسان خليفة الله في الأرض ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾. وكرمه الله في البر والبحر ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وما تصوره الصوفية على أنه «الإنسان الكامل» والمتكلمون والفلاسفة «على أنه الذات والصفات والأسماء والأفعال». فالإنسان المتعين على الأرض أفضل من الإنسان الكامل في السماء. والدفاع عن الأول خير من عبادة الثاني^(٢). ولا تكفي جمعيات حقوق الإنسان على النمط الغربي في الدفاع عن المهمشين، المساكين واليتامى وأبناء السبيل والفقراء والمحرومين بل إعادة تثوير، «اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين».

والتقدم هو مسار الأمة، صعودا أو هبوطا. وقد اهتمت الحضارة الإسلامية بأنها لم تعرف مفهوم التقدم المستمر لأن الزمان والمكان فانيان. في حين أن الحضارة الغربية هي

(١) التمرکز حول الله Theocentrism. التمرکز حول الإنسان La Théologie ou Anthropologie ..renaissance du Monde Theocentrism Arabe, Bruxelles 1973

(٢) من العقيدة إلى الثورة ح-٢، التوحيد ص ٣٣٩-٥٣٧.

التي صاغت فلسفة التاريخ وحاولت وضع قانون للتقدم في العصور الحديثة بعد أن تم بفضل جهد الأفراد ومساهمة الشعوب. ولولا ابن خلدون لصعب الرد على هذه التهمة مع أن التقدم عند ابن خلدون دائري أو حلزوني على أقصى تقدير. تقدم مساره الانهيار في دورة تعود من جديد إلى درجة الصفر أو إلى درجة الواحد ثم الاثنين. فالتقدم داخل الدورات التاريخية وليس خارجها. وقد وضعت الحضارة الغربية الحضارات غير الغربية في بداية تقدم البشرية التي تكتمل في الغرب، انتقالاتاً لروح الحضارة من الشرق إلى الغرب^(١).

ويساعد تحليل مصير الرسالة على وضع فلسفة التاريخ في الحضارة الإسلامية ومعرفة مراحلها بالنسبة إلى مراحل الحضارات الأخرى خاصة الحضارة الغربية التي ورثت الحضارة اليونانية. فلا يتوقف التاريخ إلا في حياة المؤرخ. وإذا كان المؤرخ في بداية القرن الخامس عشر فلهذه أربعة عشر قرناً مساراً تاريخياً طويلاً يمكن قسمته إلى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة النهضة الأولى على مدى سبعة قرون، منذ نشأة الحضارة الإسلامية حتى ابن خلدون الذي حاول وصفها ووضع قانون لها. والثانية فيما بعد ابن خلدون حتى محاولات النهضة الحالية، في العصر المملوكي العثماني الذي دام أيضاً أقل من سبعة قرون. والآن تبدأ المرحلة الثالثة من الإصلاح الديني والنهضة الثانية الذي بدأ منذ حوالي قرنين من الزمان، الطهطاوي (١٨٧٣)، والأفغاني (١٨٧٩) على مدى أربعة أو خمسة أجيال. فمرحلة حياة الرسول في السيرة من قبل الولادة إلى الولادة إلى البعثة إلى الهجرة إلى الفتح إلى الوفاة هي مراحل صغرى داخل مرحلة صغرى أخرى ظهور الرسالة. تتلوها مراحل أخرى لمصير الرسالة ابتداء من الخلفاء الأربعة حتى الملوك والأمراء والسلطين والرؤساء الاثنى والخمسين الحاليين الذين يكونون المؤتمر الإسلامي، «ثلث الأصوات في الأمم المتحدة». ولما كانت ثلاثة أرباع المسلمين في الشرق فهم جزء من نهضة الشرق الصين، واليابان، وكوريا، وسنغافورة، وماليزيا، وإندونيسيا، وإيران، وآسيا الوسطى. إنما الحية في الوطن العربي الذي حمل الإسلام أول مرة ثم انتشر بغيره في آسيا وإفريقيا. فبالرغم من بناء الدولة الحديثة في مصر وتركيا، وبالرغم من العصر الليبرالي الذي مرت به مصر في العشرينيات والثلاثينيات،

(١) من النقل إلى الإبداع مج ٢ الإبداع ٣- الحكمة العلمية، الفصل الرابع، التاريخ ص ٣٦٥-٦٤٨.

وبالرغم من حركات التحرر من الاستعمار، وبالرغم من محاولة إعادة بناء الدولة الحديثة مرة ثانية بعد الثورات العربية الأخيرة إلا أن كل ذلك انتهى إلى التبعية للخارج والقهر للداخل عكس ما كانت عليه الرسالة الأولى، التحرر للداخل والفتح للخارج. وتحولت مصر رائدة التحرر والتنمية في الوطن العربي إلى تابعة للغرب يسيطر عليها رجال الأعمال وضباط الأمن والشرطة.

كان يمكن للسيرة الحديثة أن تتوجه إلى عيوب المسلمين الآن، كثرة القول وقلة العمل كما لاحظ العديد من المصلحين^(١). ولكنها بقت أسيرة التاريخ في مرحلته الأولى، عصر الخلفاء، وكأن التاريخ قد توقف. فخرجت السيرة خارج الزمان، وما أتى بعدها خارج التاريخ. كيف تعود السيرة الآن كي تصبح مرحلة من مراحل تاريخ العرب كما كانت أول مرة. فلماذا أن تعود السيرة إلى التاريخ وإما أن تظل خارجه. ليس كما فعل المؤرخون، ابن كثير وابن خلدون ولكن كما يفعل فلاسفة التاريخ، السيرة كجزء من الوعي التاريخي. وبدأ الإسلام غربيا ويعود غربيا كما بدأ مكملًا دورة حضارية^(٢).

٩- فتن آخر الزمان

لم تستطع السيرة أن تحول بعض أحاديث آخر الزمان أو المستقبل إلى فلسفة في التاريخ خاصة وإن الوعي التاريخي عند المسلمين في حاجة إلى إعادة صياغة^(٣). مثال ذلك الحديث الذي يتنبأ والرسول يضرب بمعوله في صخرة أثناء حفر الخندق عن رؤيته قصور الشام، وقصر المدائن، ومفاتيح اليمن^(٤). وتكثر الروايات عن رؤية المستقبل

(١) الرحيق المختوم ص ٣٨٢.

(٢) «إن هذا الدين بدأ غربيا وسيعود غربيا كما بدأ قطوبى للغرباء»، سيرة النبي ص ١٧٨.

(٣) ولماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم؟ دراسات إسلامية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢، ص ٤١٦-٤٥٦.

(٤) «وأعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة.... أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن... أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء مكاني»، الرحيق المختوم ص ٣٠٥، كتاب الملاحم، المستصفى ص ٦٠٠-٦٠٨/٨٤٦-٨٥٨، كتاب الملاحم، سنن المصطفى ص ٦٠٠-٦٠٨، الفتن، سنن المصطفى ص ٨٥٠-٨٥٨.

باعتبارها تنبؤات بالغيب فيها الصحيح وفيها الضعيف^(١). ويمكن تأويل صدق ما أخبر به عن الغيب كعلامة على نبوته أو بتنبؤ بمسار التاريخ ومستقبل الأمة كما هو الحال في فلسفة التاريخ^(٢). مصادر الروايات والأقوال المباشرة وإخراجها من دائرة المعجزات، فمن معجزاته ما أطلع عليه من الغيوب^(٣). وهو ما يمكن أن يؤسس فلسفة التاريخ. بناء على تنبؤات المستقبل، تنبؤات الماضي في الحاضر مثل البشارة بنبوة الرسول أو تنبؤات الرسول بفتن آخر الزمان وتحقق بعضها حينما حان موعدها^(٤). وهو ما سماه القدماء الإخبار بالغيب أو التنبؤ. وهو ما يعني بلغة العصر معرفة قوانين التاريخ^(٥). وقد بشر الرسول المسلمين بالجنة والنصر والفتح^(٦). وتراوح التنبؤات بين شهادة بعض المسلمين مثل شهداء بدر مثل أبي صفوان وفاطمة وزينب وأم ورقة، والخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلي، وعمار والحسين أو الأحداث القريبة مثل فتح خيبر، وفتح اليمن، وفتح الشام، وفتح العراق، وفتح مصر، وفتح بيت المقدس، ومحاربة اليهود. وهي أحداث حسنة أو الفتن بعد عمر وعثمان، ومعركة الجمل، وغريب الإسلام، وتولي يزيد العرش، وقيام الحجاج، والنار في الحجاز، والانقلابات، ووقوف كل الأمم

(١) ويحسب هذا الفصل أن يكون ديوانا مفردا يشمل على أجزاء وحده. وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرنا وأكثرها في الصحيح وعند الأئمة، الشفا حـ/١/٤٨٨.

(٢) الأنوار حـ/١/٨٠-١٠٤.

(٣) الشفا حـ/١/٤٧٠-٤٨٨، الوفا حـ/١/٣٠٥-٣٢٠.

(٤) سيرة النبي حـ/٣/٤٥٤-٤٢٢-٤٥٣.

(٥) مثل: الإخبار بالفتوحات العظيمة، القضاء على كسرى وقيصر، بشرى الأئمة، بشرى الأمن والأمان، مقتل أبي صفوان، قتل بدر فردا فردا، تحديد فاتح خيبر، وفاة فاطمة، وفاة الرسول، فتح اليمن، فتح الشام، فتح العراق، فتح خوزستان وكرمان ومحاربة الأتراك، فتح مصر، غزو الهند، معارك بحر الروم، فتح بيت المقدس، فتح القسطنطينية، فتح الروم، فتح العجم، الإخبار بالمرتدين، وفاة زينب، تبشير أم ورقة بالشهادة، التبشير بالخلفاء، الخلفاء الاثنى عشر، ردة الخلافة الراشدة، خلافة الشيخين، الفتن بعد عمر، قيام الفتن من المشرق، إخبار عثمان بالفتنة، استشهاد عمر وعثمان وعلي، الإخبار بمعركة الجمل، معركة علي ومعاوية، استشهاد عمار، تصالح الحسين، تخريب الإسلام على يد حكام قريش الجدد، مصيبة تولي يزيد العرش، شهادة الحسين، الإخبار بالخوارج، الإخبار بمختار والحجاج، نار في الحجاز، انقلاب بعد قرن أو عهد، انقلاب بعد أربعة عهود، المبدعون الكذبة، منكر والحديث، كثرة التجارة ومشاركة النساء فيها، كثرة أهل أوروبا، كثرة الربا، محاربة اليهود، انقطاع الحجاز عن مصر والشام والعراق، محاربة أهل أوروبا في الشام، ووقوف كل أمم العالم ضد المسلمين، السابق حـ/٣/٤٥١-٤٨٣.

(٦) الجنة والنصر والفتح، السابق حـ/٧/٥٢.

ضد المسلمين. وهي أحداث سيئة. وقد يتطرق التنبؤ إلى الأحداث البعيدة مثل فتح القسطنطينية. وليس المقصود منها وقوعها فعلا وتحديد زمانها ومكانها بل الأمل في المستقبل وحركة التاريخ سلبا أم إيجابا.

كان يمكن لهم المستقبل عند الرسول وأحاديث آخر الزمان أن تتحول إلى فلسفة للتاريخ عند المصلحين، ولكنها ظلت مبعث الأسى والحسرة. والبعض منها يدل على انتشار الإسلام شرقا إلى فارس، وشمالا إلى الشام، وجنوبا إلى اليمن^(١). وهذا هو الذي قد يبرر استمرار السيرة في الخلافة أو الإمامة منذ سقيفة بن ساعدة^(٢). ويتشر الإسلام الآن غربا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بحيث أصبح هما عند الأوروبيين أو خوفا منه^(٣).

ويصعب معرفة هل التنبؤ من الحاضر إلى المستقبل البعيد في آخر الزمان، أم من الحاضر إلى المستقبل القريب مثل «الإمامة في قريش»، وأنها ستتحول إلى ملك عضود. فخير القرون قرنه، ولا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه. يؤخرون فيه الصلاة عن أوقاتها؟^(٤). هل التنبؤ على الأمد الطويل أم على الأمد القصير؟. هل سيخرج دجالون وكذابون ثلاثون منهم أربع نسوة أم يظهر أويس القرني أحد التابعين؟. هل التنبؤ عن طريق علامات الساعة مثل «لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان»، أو إذا وقعت حادثة في عصر والدنيا مازالت قائمة؟، كيف يحل التناقض بين الإمامة في قريش وهلاك الأمة على أيدي أغيلمة من قريش؟^(٥).

(١) الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام. والله أني لأنظر قصورها الحمر الساعة.... الله أكبر أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض... الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني، مختصر سيرة الرسول (٢) ص ٢٨٣.

(٢) السابق ص ٤٦٥.

(٣) الخوف من الإسلام أو العداء للإسلام Islamophobia.

(٤) ومثل «ولن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين». «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكا»، «إن هذا الأمر بدا بنوة ورحمة ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون ملكا عضودا، ثم يكون عتوا وجبروتا وفسادا في الأمة»، «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». ثم يأتي بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويحنون ولا يؤتمنون، ويندرون ولا يوفون»، «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه»، الشفا ح١ / ٤٧٩.

(٥) «هلاك أمي على أيدي أغيلمة من قريش»، الشفا ح١ / ٤٨٠.

هناك إخبارات عن الأمم التي سبقته كدليل وبرهان على صدق نبوته ورسالته^(١). وهناك إخبارات أخرى تثبت لأصحابه ومشاركة في رؤيتهم^(٢). وهناك معجزات ثالثة عن خوارق للعادات تمت للرسول ولم يطلع عليها أحد من أصحابه فآمنوا بها تفويضا كالإسراء والمعراج. لا تروى في صيغة إخبارات باستثناء خمسة، بل في صيغة حوادث. وبها كثير من الغيبيات وفتن آخر الزمان وعلامات الساعة^(٣). وتدخل الملائكة، ثم تأتي المعجزات الحسية مثل تكثير الطعام والشراب، وإبراء المرضى ببركة يده الشريفة^(٤). ثم تأتي المعجزة الكبرى معجزة القرآن الكريم في بلاغته وإخباره عن الغيوب وكشف الأسرار والروعة والهيبه التي تلحق القلوب عند سماعه، وعدم الملل من ترديده، واحتوائه على علوم ومعارف، وجمعه بين الدليل والمدلول، وتيسير حفظه^(٥).

وقد أخبر الرسول بالكائنات المستقبلية في حياته وبعدها فوقعت طبقا لما أخبر به. وأخبر بغيوب ماضية ومستقبلية واتفقت إجابته مع ما تشهد به الكتب المقدسة الموروثة عن الأنبياء قبله^(٦). واعترف اليهود بأنه رسول الله. وتحاكموا إليه. ورجعوا إلى ما حكم به ولكن بقصد مذموم منهم. مثل الرجم في التوراة^(٧). وقد سُئل الرسول عن مسائل أجاب فيها بما يطابق الحق والموافق لما تشهد به الكتب المتقدمة الموروثة عن الأنبياء قبله، وهي أول أشراف الساعة، وأول طعام يأكله أهل الجنة، ومتى ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه. وقد علم سؤال يهودي قبل أن يسأله^(٨). بل إنه أيضا ينجر عن الأمور السالفة، عن أخبار الأنبياء السابقين، إبراهيم وإسماعيل ويوسف وصالح ويونان وعيسى وغيرهم.

(١) الأسوة الحسنة ص ٢٨-٤٦ (حوالي ٣٢ إخبارا).

(٢) السابق ص ٤٧-١٢٩ (حوالي ٩٧ إخبارا).

(٣) السابق ص ١٣٠-١٧٩ مثل الشيطان في المسجد، والمعجزة في الجنة، وحال الشمس يوم القيامة، ونزول عيسى بن مريم، وقلة الرجال وكثرة النساء، وفتح ردم يأجوج ومأجوج، وحسر الفرات عن الذهب، ونزول الدجال، وتحلي الأمة بالذهب، وظهور المهدي، وقبض العلم، وتفرق الأمة.

(٤) السابق ص ١٨٠-٢٦ (حوالي ٤٦ معجزة).

(٥) السابق ص ٢٢٧-٢٤٠.

(٦) شئنا للرسول ص ١٩٨-٢٧٧، مثل مصارع قتلى بدر.

(٧) السابق ص ١٨٧-١٩٢، «يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجدون في التوراة نعتي وصفتي ومخرجي؟»، ص ١٩٢.

(٨) السابق ص ١٨٧-١٩٨.

فالوعي التاريخي ممتد من الماضي إلى المستقبل^(١). والحاضر كاشف لها معا. فالزمان ممتد، والوعي التاريخي متصل. والمستقبل لا ينفصل عن الماضي بل هو استمرار لتراكم تجاربه التاريخية والاستفادة منها. فالرسول خاتم الأنبياء. ويأتي من بعده خلفاء يبايعهم الناس^(٢).

وقد أجاب اليهود على مسائل لا يعلمها إلا نبي بعد أن أخبره بها جبريل آنفا^(٣). أول أشرار الساعة، وأول ما يأكل منه أهل الجنة، ومتى يشبه الولد أبيه وأمه. ويستطيع رؤية الأشياء من وراء ظهره، وكان يرى في الظلمة^(٤). وقد يتطور الإخبار بالغيب في الدنيا إلى الإخبار بالغيب في الآخرة، من في الجنة ومن في النار. وعن مصائر البشر، مؤمنين ومشركين، طائعين وعصاه. فالزمان ممتد خارج الزمان إلى الأبدية^(٥). وتنفصل صفة القيامة والنار والجنة، والعرق والنجوى والحساب والرؤيا وشهادة الجوارح، والميزان والصرار وبعث النار، ونسبة الأمة إلى سائر الأمم، والشفاعة، والنار وأصناف عذابها وأهوالها، والجنة وأوصاف نعيمها والرؤية والزيارة^(٦). وتتداخل أشرار الساعة بالفتن في آخر الزمان، ظهور الكذابين الدجالين، وقتال الروم، وقتال اليهود، وقتال الترك، ويأجوج ومأجوج، واللات والعزى^(٧).

أ- الجهل والفقر والمرض

وتختلط فتن آخر الزمان بأشراط الساعة أو علاماتها. فمنها قلة العلم وكثرة الجهل

(١) نور اليقين ص ٢١٩، شبائل الرسول ص ٥٥-٧١.

(٢) «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي. وسيكون من بعدي خلفاء كثيرون. فوا بيعة الأول، ثم أعطوهم حقهم. وأسألوا الله الذي لكم، فإن الله يسألهم عما استرعاهم»، بهجة المحافل ص ٢٦٦.

(٣) الوفا حـ ١/ ٣٣٩-٣٤٣، شبائل الرسول ص ١٨٧-١٨٨.

(٤) السابق حـ ١/ ٣٤٣-٣٤٤ «أني لأراكم من وراء ظهري». «أما أول أشرار الساعة فتار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه. وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه»، شبائل الرسول ص ١٨٧-١٨٨.

(٥) الوفا حـ ١/ ٣٠٧ «هذا من أهل النار»، «أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، «أفتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»، الوفا حـ ١/ ٣١١.

(٦) سنن المصطفى ص ٨٧٥-٨٩٦.

(٧) السابق ص ٨٥٩-٨٥٧.

كما هو الحال في الأمية الآن^(١). يقل العلماء ويكثر الخطباء^(٢). لذلك كانت محاربة الجاهل إحدى الدعوات الرئيسية في الحركات الإصلاحية المعاصرة في ثلاثي شهر «الفقر والجهل والمرض». وهو الثلاثي الذي طالما تحدث عنه الحكماء والشعوب باعتباره آفة الشعوب المتخلفة، ومعظمها من الشعوب الإسلامية. لذلك أخذ الغرب نموذجا للعمل. وأرسلت البعثات التعليمية منذ قرنين من الزمان إلى أوروبا وحتى الآن. وأنشأت الجامعات الخاصة الأمريكية والفرنسية والكندية والألمانية وغيرها في العواصم العربية والإسلامية باللغات الأجنبية. ومن علامات الساعة تحول المعروف منكرا والمنكر معروفا ليس فقط عن طريق الجاهل بهما بل معرفتهما ومخالفتهما لصالح السلطان أو المصلحة الشخصية^(٣).

وتُروى أحاديث تكشف عن التلاعب بالحدود وبالكتاب والرسول مازال خيا^(٤). وتروى أحاديث مضادة على فضائل قريش. مثل العلم في فارس^(٥). والرافضة يهود هذه الأمة. وضد الإقامة أو الخلافة في قريش يصبح الإمام أي إنسان يطبق ما جاء في الكتاب والسنة، ولو كان عبدا حبشيا^(٦). في مقابل أحاديث أخرى تطلب الطاعة للأئمة ماداموا يقولون لا إله إلا الله، ويطعمون الصلاة، ولكن أكلوا المال وضربوا الظهور وهم الخلفاء الأمويون. وتبريرا لقتالهم يروى «من قتل دون أهله فهو شهيد»^(٧). ومن يتولى

(١) «من أشرط الساعة أن قل العلم ويظهر الجاهل»، محمد رسول الله ح-٢/ ١٦٤.

(٢) «إنكم في زمن علمائه كثير، وخطباؤه قليل. من ترك فيه عُشير ما يعلم هوى (هلك). وسيأتي على الناس زمان يقل علمائه، ويكثر خطباؤه. من تمسك فيه بعشير ما يعلم نجا»، السابق ص ١٧٥.

(٣) «ولا تقوم الساعة حتى يكون المعروف منكرا، والمنكر معروفا»، بهجة المحافل ص ٥٨٠.

(٤) «يؤتى بالرجل الذي يُضرب فوق الحد فيقول: لم ضربت فوق ما أمرتك؟» النبي الأعظم ص ١٦١، «يلعب بالكتاب وأن بين أظهركم»، ص ١٦٣.

(٥) «لو كان العلم بالثريا لتناوله ناس من أبناء فارس»، النبي الأعظم ص ٧٧٤، «ليس منا من دعا إلى عصبية»، السابق ص ٧٧٧.

(٦) «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد جدع، ولو لعبد حبشي، وصلوا وراء كل ير وفاجر»، «أطعمهم وإن أكلوا مالك، وضربوا ظهره، وأطيعوا ما أقاموا الصلاة»، النبي الأعظم ص ١٤٤، «ألا لا فضل لعربي على

عجمي»، ص ١٦٦.

(٧) السابق ص ١٣٩.

إمامة المسلمين يكون أعلمهم. وتولية أقلهم على خيانة^(١). هكذا أصبحت السيرة ميدانا للسجال الطائفي منذ الفتنة الكبرى. وقد لعن الله كل من يخرج من صلب الرسول إلا المؤمنين^(٢). ولما عرج بالرسول إلى السماء دعا أن يجعل الخليفة من بعده عليا. فهتفت به الملائكة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فكان أبو بكر. ولولا أبو بكر لذهب الإسلام. وكثير من الرويات تخالف العقل والعدل والطبيعة. كذبتها الصحابة وعلى رأسهم عائشة^(٣). ويعترف رواها بوضعهم مثل أبان. فالزنا أو شرب بول الحمار خير من الرواية عنه. فالدافع عن الموضع الترفق بقلوب العامة. وآفة الدين ثلاثة: فقيه فجر، وإمام جائر، ومجتهد جاهل^(٤).

وتنبؤ الرسول بالفتن ليس معجزة بل معرفة بقوانين التاريخ ومصائر الشعوب^(٥). فسيخرج قوم يقرءون القرآن ولكنهم يخرجون من الإسلام ولا يبلغ تراقيهم. وقد عينتهم روايات أخرى بأنهم الخوارج. ويمكن إيجاد مواصفاتهم في كل عصر. وهو تيار أو اتجاه أكثر منه فرقة أو قوم. وهو الاتجاه الذي لا تطابق أعماله أقواله أو الذي يتشدد في القول والعمل. وهو أيضا اتجاه التفسير الحرفي للقرآن وعدم العلم به^(٦). وهو جهل بالتراث ومناهج التأويل الكلامية والفلسفية والصوفية. فالتنص ليس لفظا فقط. بل هو لفظ ومعنى وشيء يُحال إليه. اللغة مضمون وليس فقط شكلا. لذلك ظهرت الحركات الأصولية المتشددة التي حولت الإسلام إلى مجرد عبادات وحدود،

(١) «من تولى من أمر المسلمين شيئا فاستعمل عليهم رجلا هو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين»، السابق ص ٢٧٠/١٩١.

(٢) «لعنة الله عليه وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم، ذوو مكر وخديعة يُعطون الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق»، السابق ص ٢٤١. «يا عائشة هؤلاء الخلفاء من بعدي»، «يا بلال أذن في الناس أن الخليفة بعدي أبو بكر»، «لولا أبو بكر الصديق لذهب الإسلام»، ص ٦٦٧.

(٣) مثل «إن الميت يعذب ببكاء الحي»، النبي الأعظم ص ٤٥٧/١٥٦-٤٥٨.

(٤) السابق ص ٧٧٢.

(٥) «وسياتي قوم يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم أو لا يعدو تراقيهم. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. لا يعودون في الإسلام حتى يعود السهم على فوقه، طويى لمن قتلهم أو قتلوه»، الجوهرة ح ١٩٧/١.

(٦) «فيكم كتاب الله يتعلمه الأسود والأحمر، والأبيض. تعلموه قبل أن يأتي زمان يتعلمه ناس ولا يجاوز تراقيهم، ويقومونهم كما يقوم السهم فيتعجلون أجره ولا يتأجلونه»، محمد رسول الله ح ١٧٧/٢.

رسوم وأشكال. وكفرت الاتجاهات التي تجعله قيا ومعاملات. وقد نبه النص نفسه على أبعاده ومستويات فهمه «أنزل القرآن على سبعة أحرف». فالجهل ليس فقط الأمية بل هو الجهل المعرفي أي عدم القدرة على استعمال العقل، والوقوع في آفة الحرف.

وبالإضافة إلى الجهل هناك المرض. إذ تكثر الأمراض، الحمى في المدينة، والطاعون في الشام، وهو أخف^(١). أمراض في الجنوب وفي الشمال تحيط بشبه الجزيرة العربية. وإذا كانت الحمى تبقى في الداخل فإن الطاعون ينتقل إلى الخارج، ويصبح رحمة في الداخل ولعنة في الخارج. وهو ما يعارض مفهوم «الحجر الصحي»، ويجعل الأمة مصدر أمراض للخارج وليس مصدر علوم وحكمة وهداية. والواقع حاليا أن الأمراض تنشأ في الخارج مثل «فقدان المناعة»، «أنفلونزا الخنازير». كما أن الأمراض المستوطنة ليست في الصحراء الكبرى شمالا وجنوبا بل في حوض النيل مثل البلهارسيا.

ومن علامات الجهل النظري والعلمي، المعرفي والأخلاقي انتشار الزنا وكثرة النساء أي ضياع القيم والأخلاق. فالسياحة العربية في مصر ولبنان تقدم الخدمات لهذا الغرض. وأصبحت تجارة الجنس من أهم مصادر الثروة. وتصدر فتاوى «المسيار» و«الزواج العرفي» و«زواج المتعة» في مختلف البلدان تلبية لهذا المطلب. مع أن عدد الرجال والنساء في الوطن العربي والعالم الإسلامي يكاد يتقارب. فلا حاجة لتعدد الزوجات. إنما الذي تضاعف هي الثروة التي دفعت الأغنياء إلى الحصول على أكثر من امرأة، وعن رضا أو عن غصب، باختيار حر أو بالتهديد والقتل. كما انتشرت الأمراض الجنسية من الجنس الحر والشذوذ الجنسي. وعمت الأمراض الأخرى من عدم القدرة على جمع القاذورات والمجاري الطافحة والمياه الملوثة والطعام «المسرطن» والحبوب المستوردة الفاسدة^(٢).

ثم يكتمل ثلاث الفقر والجهل والمرض بالفقر الناتج عن عدم استثمار الثروات

(١) «أتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون فأمكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام،

فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس على الكافرين»، السابق حـ ١٦٢/٢-١٦٣.

(٢) «من أشرط الساعة.... ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال حتى يكون لحمسين امرأة القيم الواحد»،

محمد رسول الله حـ ١٦٤/٢.

الطبيعية، الكنوز التي تحت الأرض مثل النفط أو فوق الأرض وهي المياه، مياه دجلة والفرات، ومياه النيل، ومياه الهند والسند، وسيحون وجيحون^(١). وتحت الرمال كنوز أيضا مثل المعادن. وما تحت الأرض ليس ملكية خاصة بل ملكية عامة، الركاك كما سماه الفقهاء لأنه غير متحرك وغير منقول. ويشتد التفاوت الطبقي، قوم يلبسون الحرير ويستحلون المعازف ويشربون الخمر ويتحلون بالذهب، وآخرون فقراء جياع^(٢). وهو ما يحدث حاليا داخل كل قطر إسلامي وداخل الأمة كلها. نجوع وقصور. إذ تتفاوت الدخول الفردية داخل القطر الواحد من واحد إلى الألوف، معدمون ومليارديرات. كما تتفاوت الدخول من قطر إسلامي إلى قطر إسلامي آخر، من واحد إلى مئات الألوف. ويترك المعدمون للهيئات الأجنبية ومنظمات الغوث والأمم المتحدة للعون. ويموت الأطفال مع البقر والغنم من الجوع والجفاف. كما تعهد له الله ألا تجوع أمته. وهي الآن من عداد الأمم الفقيرة، الجوع والجهل والمرض من مشاكلها، وأحل كثير مما تشددت فيه الشريعة اليهودية من قبل، ورفع الحرج في الدين^(٣).

ب- تسلط الولاة

ويكون ولاية الأمور من العصاة. يأمررون بالمنكر وينهون عن المعروف^(٤). ولا طاعة لمن عصى الله. فإله ليس عذرا على المعصية. وهو النظام السياسي وعلى رأسه السلطان الذي يخالف الدستور، ويرعى رجال الأعمال، ويحمي فساد الحزب الحاكم، ويحكم بقوانين السلم المدني أو الأحكام العرفية. يتسلط أمراء المسلمين العصاة. ومع ذلك من أنكرهم برئ، ومن كره سلم، ومن رضي بايع. لا يقتلوا ما صلوا. فالخلاف السياسي لا

-
- (١) «ويوشك الفرث أن يجر من كثر من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا»، السابق حـ ١٧١/٢.
(٢) «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم يعني الفقير لحاجة فيقولون ارجع إلينا غدا...»، السابق حـ ١٧٠/٢، «غير ذلك أخوف لي عليكم حين تصب عليكم الدنيا صبا. فيأبى أمتي لا يتحلون الذهب»، ص ٧٥.
(٣) «أعطاني ربي ألا تجوع أمتي ولا تغلب. وأعطاني النصر والعزة، والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرا، وأحل لنا كثيرا بما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج»، بهجة المحافل ص ٤٤٣.
(٤) «وسيلي أموركم من بعددي رجال يعرفونكم ما تنكرون، وينكرونكم ما تعرفون. فلا طاعة لمن عصى الله ولا تعتلوا بربكم»، السابق حـ ١٧٧/٢.

يؤدي إلى قتل المخالفين^(١). فمحاربة الطغاة بالنصيحة والقول الرشيد وليس بالخروج عليهم بالسلاح وإراقة الدماء.

والتسلط إحدى علامات الساعة أي نذير بالنهاية. وهو القهر والظغيان واستعمال الحكام العصا أي أجهزة الأمن والشرطة^(٢). فأصبحت العصا رمزا للحكم والسيادة «العصا لمن عصا». العصا رمز للقهر والتعذيب والضرب والاعتقال والإرهاب، إرهاب الدولة وليس إرهاب الأفراد. وأصبحت هراوة الشرطي رمزا للسلطة بعد أن كانت رمزا للتنمية مثل عصا موسى التي يضرب بها الحجر فتنفجر منه العيون أو التي يشق بها البحر ليسير فيه كالجسور أو التي تنقلب حية كبرى تلقف الحيات الصغرى أي الهيمنة والسيادة أو للهش بها على الغنم وحراستها من الذئاب. وهو حال معظم الأنظمة العربية حاليا. ومن طول حكمها أدارت الشعوب ظهورها لها. ولم تعد رغبة فيها أو عنها، لا بالتأييد ولا بالمعارضة. أصبحت في حالة من النفور السياسي، والرفض المبدئي للمشاركة إيجابا أم سلبا. وتحول الحكم الإلهي إلى حكم عسكري لا فرق بين السلطة الدينية والسلطة العسكرية. ورسخ في أذهان بعض الناس الربط بين التسلط الديني والتسلط السياسي، بين الدكتاتورية والدين، وتصور الحل هو العلمانية المرادفة للديمقراطية كما حدث في الغرب. وقد تنبأ الرسول بأن عمار ستمتله الفئة الباغية^(٣). وهو رمز لظغيان الحكام البغاة واستشهاد المعارضين لهم. وهي آفة المسلمين اليوم مما جعل الغرب يوجه إليهم مشاريع الديمقراطية والشرق الأوسط الجديد، يحتمي وراءها لتقويض النظم الوطنية. وهو يعتدي على الشعوب بنظامه الديمقراطي، لا فرق بين محافظين وعمال أو بين جمهوريين وديمقراطيين في العدوان على العراق وأفغانستان وفي تأييد الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

ج- الحروب الأهلية

ومن علامات النهاية الاقتتال الداخلي بالرغم من أن دعواهم واحدة كما هو الحال

(١) «يكون عليكم أمراء تعرفون وتكرهون. فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم لكن من رضي وباع قالوا أفلا نقولهم قال: لا ما صلوا، لا ما صاموا» الأنوار ص ٨٢.

(٢) «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»، محمد رسول الله حـ ١٦٨/٢.

(٣) «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»، سيرة النبي ص ٥٧، نور البقين ص ٢١٨.

في الاقتتال في الصومال بين أحزاب وتيارات وقوى وجماعات وتيارات وتنظيمات كلها إسلامية. تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية^(١). والجوع والجفاف والقحط حول الجميع. والدول الكبرى كل منها يدعم فريقا من المتقاتلين بالسلاح لمزيد من الدمار أو دفاعا عن مصالحها الخاصة. الكل يريد السلطة، والقتل هو الوسيلة. والكل شهداء، لم يعد القاتل والمقتول في النار بل القاتل في الجنة والمقتول في النار. وتقع الفتن في البيوت أي الحروب الداخلية كما يحدث في السودان والصومال وباكستان وأفغانستان وفلسطين^(٢). فلم تعد الحياة مقصدا من مقاصد الشريعة بل الموت. ولم يستطع المسلمون الحفاظ على الدولة الوطنية أحد مكاسب حركات التحرر الوطني، وأحد نتائج سقوط الخلافة. ظلت القبلية والطائفية والمذهبية هي السائدة في الأعماق. تهدد الدولة الوطنية بالانقسام والتجزئة والتفتت. لم تستطع أن تغرس مفهوم «المواطنة» الذي يتساوى فيه الجميع. ولم تستطع الهوية الوطنية أن تحل محل الهويات الطائفية والعرقية والمذهبية. تفتت الأوطان بعد أن تجزأت الأمة في عالم تتوحد فيه الدول في معسكرات وأحلاف وأقطاب، وكانت العولة آخرها بقيادة الاستعمار والصهيونية^(٣).

وهنا يدخل حديث الفرقة الناجية الشهير. أن مستقبل الأمة التفرق إلى ثلاث وسبعين فرقة، بعد افتراق اليهود إلى إحدى وسبعين، والنصارى إلى اثنتين وسبعين. كلها في النار إلا واحدة. يتم تعيينها أحيانا. هم أهل السنة والجماعة، والكل إلى رسول الله منتسب. وفي صياغة أخرى الأمة كلها ضالة إلا إذا غيرت نفسها وإلا فستحمل الأمانة أمة أخرى بديلة. وكما دخل الناس أفواجا في الدين يخرجون منه^(٤). وفي صياغة

(١) «لا تقوم الساعة حتى يقتل فتان فيكون بينهم مقتلة عظيمة دعواهما واحدة»، محمد رسول الله ح ١٦٨/٢، «لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتمتدوا بأسيا فكم، ويرث ديناكم شراركم»، «إنكم ستلقون بعدي فتنة واختلافا... عليكم بالأمين والصحابة»، «إذا مشيت أمتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم، سلط الله بعضهم على بعض»، «بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم إخوان، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض»، رسائل الرسول ص ٢٧٦.

(٢) «فأني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كموقع القطر»، محمد رسول الله ح ١٦٢/٢.

(٣) انظر كتابنا «ما العولة؟» مع صادق جلال العظم، دار فكر، دمشق، بيروت ٢٠٠٢.

(٤) «وافترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»، «إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة (الأهواء)، وكلها

ثالثة حثالة الناس الذين ينقضون عهدهم وأماناتهم. والخالص بتقوى الله وأخذ المعروف وترك المنكر، والالتزام بالخاصة دون العامة^(١). ويضاف التحذير من الابتداء وسامع ما لم يسمع من قبل، والحديث بلسان لم يتم التحدث به من قبل^(٢). وهو الأساس النظري الذي يعطي الحروب الأهلية شرعيتها. وهو ضد روح التعددية في الشرع في إدراك الصواب ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ويتنبأ بظهور الفرق الكلامية القدرية والرافضة، وسبب آخر هذه الأمة أولها، وقله الأنصار، حتى يكونوا كالمالح في الطعام^(٣). فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة. وأخبر بشأن الخوارج وأنهم سيلقون بعدهم طغيانا. ويُرَى رعاة الغنم رؤوس الناس، والعراة الحفاة يتبارون في البنان، وأن تلد الأمة ربتها، وقد اتهم رجل الرسول بعدم العدل في القسمة. ومنع الرسول عمر ضرب عنقه لأن له أصحابًا يحقر الإنسان صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرئون القرآن. ولا يجاوز حناجرهم. ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية^(٤). وبعض هذه الأحاديث قد وضعت لاستبعاد الخصوم السياسيين تكفيرا بتكفير^(٥). وتحذيرهم بعض الصياغات مكانا من العراق أو تسمية بالخوارج. مثال ذلك حديث الفرقة الناجية^(٦).

في النار إلا واحدة وهي الجماعة. وأنه سيخرج في أمتي أقدام يجارى بهم تلك الأهواء كما يجارى الكلب صاحبه، لا يبقى منه عرق، ولا يفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بها جاء به نبيكم لغيركم من الناس أخرى ألا يقوم به»، «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا»، محمد رسول الله حـ ١٧٨/٢.

(١) «كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس... إذا مرجت عهدهم وأماناتهم»، «اتق الله عز وجل، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصتهم، وإياك وعوامهم»، السابق ص ١٧٩.

(٢) «وسيكون في آخر الزمان ناس من أمتي يجدثونكم ما لم تسمعوا به أنتم ولا آبؤكم، فإياكم وإياهم»، «لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بالسنتهم كما تأكل البقر بالسنتها»، السابق ص ١٧٩.

(٣) الشفا حـ ٤٨٠/١.

(٤) «دعه، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...»، الوفا حـ ٣١٢.

(٥) «يخرج منه قوم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية»، محمد رسول الله حـ ١٧١/٢.

(٦) من العقيدة إلى الثورة حـ ص ٣٩٣-٥٤٧.

ومن مظاهر الفتن الداخلية، الانكباب على الثروة أو التقاتل على السلطة^(١). ويكون ذلك بعد موته وبعد عدة مواتات، وكثرة القتل في الأمة زمن الفتنة، ثم غدر الأعداء فيتكاثرون على المسلمين^(٢). وللften الداخلية شهداء مثل عمار بن ياسر^(٣). وتقع الفتن بين البيوت موقع المطر^(٤). ومنها قتل عثمان واستشهاد حنظله^(٥)، وقيد أبو ذر وسياقه كعبد أسود^(٦). وفي عصر الفتنة تتخذ سيوف من خشب أي عدم الاشتراك فيها وكب الزيت على النار^(٧).

د- تقليد الآخرين

وبعض التنبؤات تبدو واقعة الآن ولم تقم الساعة مثل تقليد اليهود والنصارى أو فارس والروم أي الشرق والغرب^(٨). تفقد الهوية وتضيع في الآخر. ويضيع الوعي الذاتي لصالح الاغتراب في الآخر. ويظهر هذا الاغتراب في الكم الهائل من الألفاظ الأجنبية المعربة التي يتم تداولها الآن، وثقافة المولات، والنزعات الاستهلاكية، وحركات الهجرة

(١) ... ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه. وليلقن الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبين ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول بلى. ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، الأنوار حـ/ ٨٣.

(٢) «أعدد ستا بين يدي الساعة: موتى، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقصاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفا، السابق حـ/ ٩٩.

(٣) الأنوار حـ/ ٨٩، الوفا حـ/ ٣٠٨.

(٤) «إني لأرى الفتن يقع خلال بيوتكم كموقع المطر»، السابق ١٠٠، يُقتل عثمان وهو يقرأ المصحف، الشفا حـ/ ٤٧٦.

(٥) «سلوا زوجته، فإني رأيت الملائكة تغسله»، الشفا حـ/ ٤٧٧.

(٦) «عقرا بل تقاد معهم حيث قادوك وتساق معهم حيث ساقوك ولو عبد أسود»، الوفا حـ/ ٣٠٨.

(٧) «إذا كانت الفتنة فاتخذ سيفاً من خشب»، الجوهرة حـ/ ١٧٢.

(٨) «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، فقبل يا رسول الله كفارس والروم، فقال: ومن الناس إلا أولئك»، «لتبين سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: نحن»، محمد رسول الله حـ/ ١٧٤، مختصر سيرة (١) ص ١٢، وقد ذكر هذا الحديث في مقدمة «مقدمة علم الاستغراب»، كدعوة للاستقلال ضد التبعية.

الشرعية وغير الشرعية من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ومن التبعية السياسية للغرب، ومن القواعد العسكرية الغربية في الوطن العربي، ووجود عائدات النفط في البنوك الأجنبية. فالحل عند الآخر كنموذج للتحديث. وكل الاختيارات السياسية. الليبرالية والاشتراكية والقومية من الغرب، وكل اللغات الأجنبية التي يتعلمها الطلبة في المدارس من الغرب وليس من الشرق. التقليد فقدان الهوية أو مغالاة فيها، فقدانها إذا كان التقليد للآخر، وإثباتها إذا كان التقليد للقدماء. وكلاهما إنكار للاجتهاد أي القدرة على الإبداع.

ويكون التعبير بالصورة الفنية عن حصار المسلمين بنار من المشرق والمغرب، بنظامين سياسيين اشتراكي ورأسمالي، وهم لا يدرون ماذا يفعلون^(١). وقد تأتي النار من الجنوب، ترحف من الجنوب إلى الشمال تضيء قصور الروم. وستفتح مشارق الأرض ومغاربها، ولكن عما لها في النار إلا من اتقى وأدى الأمانة فليست القضية في الفتح بل في الحكم^(٢). ومن ثم تكون حركة العالم الثالث أو عدم الانحياز أو التضامن الإفريقي الآسيوي أو القارات الثلاث وعد حق لإعطاء شعوبها استقلالها بين الشرق والغرب، وتضامنها فيما بينها، ليس باسم الوسطية بل باسم إعادة التوازن لمركز الثقل في العالم. إذ تمثل هذه الكتلة الجديدة أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم.

ما زالت الأمة تشعر بأن دورها في النقل وليس في الإبداع. فهي التلميذ الأبدي، وغيرها المعلم الأبدي. دورها في الترجمة. لذلك تعددت مراكزها في عديد من العواصم العربية لمؤلفات خارج الزمان والمكان من أجل الحصول على ديكور ثقافي من مقومات الدولة الحديثة مع ناطحات السحاب في وسط المدينة وشركات الاستثمار والسياحة والنفط. لقد ترجم القدماء لمدة قرن، القرن الثاني الهجري ثم تحولوا إلى مبدعين ابتداء من القرن الثالث. فالترجمة وسيلة وليست غاية، والتلميذ لا يظل تلميذا إلى الأبد، وقد

(١) «أول أشرار الساعة نار تحترق الناس من المشرق إلى المغرب»، «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»، محمد رسول الله حـ ١٧١/٢.

(٢) «أنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عما لها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»، السابق ص ١٧٨.

كان الأوروبيون تلاميذ المسلمين في بدايات عصر النهضة قبل أن يصبحوا معلمين. ونحن مازالت مناهجنا التعليمية قائمة على الحفظ والنقل والتكرار فليس في الإمكان أبدع مما كان. وما ترك السلف للخلف شيئاً. بل إن الخلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات في تصور منهار للتاريخ، علامة من علامات الساعة. ومن ألقاب علمائنا «الحافظ» وليس المبدع.

هـ- الفوضى العارمة

ومن فتن آخر الزمان الفوضى العارمة. يشعر الناس أن الزمان قد انتهى. يقل العمل، ويزداد البخل، ويكثر الهرج، وهو القتل^(١). تغيب الرؤية، وينتهي التخطيط، وينشغل الناس بلقمة العيش، يوماً بيوم، من اليد إلى الفم. وتنتهي الآمال الكبار. ويصبح سد الرمت أكبر ما يأمل فيه الإنسان.

تنبأ الرسول بمستقبل العرب، واقترب الشر منهم، وتكاثر الخبث فيهم^(٢). وقد يكون التنبؤ للأمة كلها مثل العرب الذي اقترب الشر منها^(٣). وقد يكون تصوير الكارثة بفتح سد يأجوج ومأجوج الذي يغرق الجميع بمن فيهم الصالحون^(٤). فالأغلبية تسود الأقلية. والتيار الجارف يدفع أمامه من يقف في مواجهته. لا تقوى الأمانة على الفساد، ولا الشرف على الخسة، ولا الصدق على النفاق، ولا الكرامة على الوضاعة. ومن علامات النهاية تمنى الموت بدلاً من الحياة، وكثرة حوادث الانتحار، وغياب الأمل^(٥). فالوجود عدم، والحياة موت، والحركة سكون، والبقاء فناء، وتنتهي القبائل ولا يبقى منها أحد^(٦). ينتهي البشر، ولا يعود هناك إمكانية لدعوة أو رسالة أو عمل أو تحقق.

(١) «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج... القتل، القتل» السابق حـ ١٧٠ / ٢. «وليرتد أقوام بعد إيمانهم»، شمائل الرسول ص ٢٢٥.

(٢) «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب»، الجوهرة حـ ٧٤ / ٢، الشفا حـ ٤٧٤ / ١، شمائل الرسول ص ٢٢٦.

(٣) «ويل للعرب من شر قد اقترب»، بهجة المحافل ص ٤٨٠.

(٤) «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج... قيل: أهلك وفيما الصالحون، قال إذا كثرت الخبث»، عمدة رسول الله حـ ١٧١ / ٢.

(٥) «ولا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»، السابق حـ ١٧ / ٢.

(٦) «ولا تقوم الساعة حتى ينحسف بقبائل حتى يقال: من بقى من بني فلان»، السابق حـ ١٧٤ / ٢.

يعود العالم مصمتاً إلى ما قبل خلق الإنسان فيه لإعطائه معنى، وجعله ميدانا للفعل. فالإنسان في العالم. لا إنسان بلا عالم، ولا عالم بلا إنسان. ويظهر ثلاثون كذابا دجالا حتى نهاية الساعة، كلهم يزعم أنه نبي^(١).

لا تقوم الساعة حتى يظهر دجالون كذابون، قريبا من ثلاثين كل منهم يزعم أنه رسول الله. ولا يخلص الناس منهم إلا عيسى ابن مريم، فالخلاص له الكلمة الأخيرة على الفتنة. كما أن البعث له الكلمة الأخيرة على الموت^(٢). وأحيانا يكون دجال واحد ينزل ناحية المدينة فترجف، ويخرج إليه كل كافر ومتافق^(٣). وهو أعور والله ليس بأعور إمعانا في الكراهية كما هو الحال في الأفلام وكما يبدو موسى ديان^(٤). وقد يفصل العور بجلد من الأنف على العين، يرى الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى كالمسيح، ويدعي الألوهية. يؤمن به البعض دون البعض. ثم يأتي عيسى ابن مريم من المغرب مصدقا ويقتل الدجال والمسيح ليس بقاتل بل عفو^(٥). وهو حامل للتناقض، ماؤه نار، وناره ماء^(٦). يأتي الدجال القرية فيجد على كل باب منها ملكا ولكن أهلها لا يريدون القتال^(٧). والمسيح الدجال من أحد علامات نهاية الزمان^(٨).

-
- (١) «إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا دجالا، كلهم يزعم أنه نبي»، شاتل الرسول ص ٢٥٦-٢٥٨.
- (٢) «وليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكم عدل فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»، محمد رسول الله ص ١٦٨.
- (٣) «يجيء الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومتافق»، السابق ص ١٧٢-١٧٣.
- (٤) «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه: إنه أعور والله ليس بأعور»، السابق ص ١٧٣.
- (٥) «إن الدجال خارج وهو أعور عين الشمال عليها ظفيرة غليظة، وأنه يرى الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، ويقول للناس: أنا ربكم فمن قل: أنت ربي فقد فتن، ومن قال: ربي الله حتى يموت فقد عصم من فتنة، ولا فتنة بعده عليه ولا عذاب. فيلبث في الأرض ما شاء الله. ثم يجيء عيسى ابن مريم من قبل المغرب مصدقا بمحمد وعلى ملته فيقتل الدجال»، السابق ص ١٧٣-١٧٤، «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين، كلهم يزعمون أنهم رسول الله»، بهجة المحافل ص ٣٢٥.
- (٦) «إن معه ماء ونار، فناره ماء بارد، وماؤه نار»، السابق ص ١٧٣.
- (٧) «ويل إنها من قرية يتركها أهلها كأعمر ما تكون. يأتيها الدجال فيجد على كل باب من أبوابها ملكا مصلتا فلا يدخلها»، السابق ص ١٧٣.
- (٨) «يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين»، الجوهرة ح ١/٣٩٦، «وأنه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور، وأنه أعور العين اليمنى بأن عينه عنة طافية»، سيرة النبي ص ٣٨١.

وقد تجمع عدة عوامل تحدث انهيار الأمة في التاريخ: كثرة المال، وقبض العلم. وظهور الفتن، وكثرة المهرج، واقتراب الزمان أي نهاية دورة في التاريخ، وبداية الانهيار، والاقتيال بين فئتين عظيمتين مع أن دعواهم واحدة، وهو مثل الاقتال بين المسلمين اليوم في السودان والصومال والمغرب، وظهور دجالين كل منهم يدعي أنه الرسول، واختلاف الأمة حول الأيديولوجيات والمذاهب السياسية: بسنة وشيعة، وليبرالية، وقومية، واشتراكية، ورأسمالية^(١). وقد تجتمع معظم هذه العلامات في حديث واحد حتى يشتد تأثيرها. وواضح أن مثل هذه الأحاديث مركبة يمكن تفكيكها في أحاديث أصغر. لكل وحدتها اللغوية والتصورية: اقتتال فئتين دعوتها واحدة، دجالون كثيرون، قبض العلم، ظهور الفتن والمهرج، فيض المال ولا يأخذه أحد، تطاول الناس في البنيان، تمنى الموت، طلوع الشمس من المغرب، نهاية البيع والاستخدام للأشياء، أي عدم نفع الوفرة، رفع الطعام والشراب أي المجاعة، سبعة منها بأداة «حتى» وأربعة منها بلام التأكيد^(٢).

وكثير من هذه الأحاديث قد وضعت للتخويف والإحساس بالهلع وبضرورة المنقذ أو المخلص. ولا يستطيع ذلك إلا السلطان والنظام القائم أو الجماعة السرية أو التنظيم السياسي العلني. وهو ما يعطي الحركات السرية في الإسلام أو التنظيمات الجهادية

(١) «ولا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض وحتى ييم رب المال من يتقبل منه صدقته.... ويقبض العلم، ويقترب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر المهرج... القتل، القتل. لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان، ويكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة. لا تقوم الساعة حتى ينبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»، الأنوار حـ/ ١٠٢.

(٢) «أ- ولا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعتهما واحدة. ب- وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله. ج- وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويقتارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر المهرج وهو القتل. د- وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى ييم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا رب لي به. هـ- وحتى يتطاول الناس في البنيان. و- وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه. ز- وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعين فذلك حين لا ينفع نفس إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانه خيراً. ح- والتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتباعدان ولا يطويانه. ط- والتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ولقحته فلا يطعمه. ي- والتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقى فيه. ك- والتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»، محمد رسول الله حـ/ ١٧٢.

مشروعيتها. وقد يكون التحذير على العموم «ويل للعرب من شر قد اقترب»^(١). يخصص العرب، ويعمم الشر. فيأخذ المسلمون حذرهم. ويستدعون لعدم الوقوع في الفتن الداخلية أو في برائن الغزو الخارجي. وضعه المخلصون من فقهاء الأمة والحريصون على مستقبلها. وهي تحذيرات في كل دين في الحركات النهضوية المستقبلية التي تقوم على «لا هوت الأمل» وهو أحد جوانب «لا هوت التحرير».

«وجاء الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ». جاء في بيئة معادية من الكفار والمشركين واليهود والنصارى^(٢). واستطاع الانتشار حتى أصبح الدين الوطني الموحد لشبه الجزيرة العربية. وعاد الآن في ظرف معادين جهل أبنائه وتبعية حكامه. فقد أصبح مجرد شعائر وطقوس ورسوم ومظاهر خارجية عند الأبناء، وأداة لإضفاء الشرعية على النظام السياسي عند الحكام. وجاء في بيئة معادية في الخارج، الغرب والولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل نظرا لأنه حمل لواء حركات التحرر الوطني الأخيرة. وما زال هو الحافظ على هوية المسلمين وبقائهم في التاريخ. وهو ما يدفع الحركات الإسلامية النشطة للثورة ضد النظم السياسية في الداخل. والجهاد ضد القوى الاستعمارية في الخارج.

ويتنبأ الرسول بما سيقع للمسلمين من كوارث بعده ويطالبهم بالصبر^(٣). فالنصر قادم. وما ضاع شيئا فشيئا لا يعود إلا شيئا فشيئا. ولا يعني الصبر مجرد الانتظار. فالتاريخ لا يحرك نفسه بنفسه. بل يتحرك بفعل الشعوب. يعني الصبر ووضع خطط على الأمد الطويل وليس على الأمد القصير كي يعود من جديد. والوعي السياسي مشروط بالوعي التاريخي. ويخشى على الأمة من الفتن فيتنافس فيه فتهلك^(٤). ومن مظاهر السقوط قوم يهدون بغير هدى الرسول، من جلدة الأمة ويتكلمون بلسانها.

(١) السابق حـ ١٧١/٢، الدين والثقة والسياسة ص ١٣١-١٦٢.

(٢) «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ»، مختصر سيرة (١) ص ١٢.

(٣) «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني»، المعجزات الالامعة ص ٩٧.

(٤) «أبشروا وأملوا ما يسركم. فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بنطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها. فتهلكهم كما أهلكتهم»، شمائل الرسول ص ٢٠٨-

والحل هو لزوم الجماعة وإمامها أو اعتزال الكل حتى يدركه الموت^(١). وكيف تتفق رواية أن الشر من النساء مع أنهم قد حيين إلى الرسول من دنياه؟^(٢). وقد كانت النساء فتنة بني إسرائيل. وتنبأ الرسول بمصير أحد الصحابي بتأويل حلم له^(٣). كما تنبأ باستشهاد بعض الصحابة^(٤). وقال لسعد لعله يُخلف فينتفع به أقوام ويضر به آخرون^(٥). وقال لشهيد أن عضواً يسبقه إلى الجنة^(٦). وتنبأ بمصير عبد الله بن الزبير. ويل له من الناس، وويل للناس منه^(٧). وأخبر جماعة أن آخرهم موتاً في النار^(٨).

و- الخلاص

ومن الأحاديث ما يدعو إلى التفاؤل والأمل وسط هذا الجو الكارثي المظلم. فلن يعدم هذا الدين من يدافع عنه، ويقا تل في سبيله حتى تقوم الساعة^(٩). فالوحي نظرية في الأمل، خطوة وراء خطوة، نبي تلو نبي، من الشرك إلى التوحيد، ومن التوحيد إلى الشرك، ومن الشرك إلى التوحيد في طبقات متتالية، تربطها الباقيات الصالحات، الأقلية المؤمنة التي يستمر فيها التوحيد في تقدم مستمر. فليس التفاؤل في القمة مستمرا، ولا

(١) «قوم يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر... دعة على أبواب جهنم. من أجابهم قذفوه فيه... هم من جلدتنا، ويتكلمون بالستنا... تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.. فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»، السابق ص ٢٠٨.

(٢) «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»، «ما تركت بعدي فتنة هي أخطر على الرجال من النساء»، السابق ص ٢٠٨.

(٣) «أما الروضة فروضة الإسلام. وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى. أنت على الإسلام حتى تموت»، السابق ص ٢٤٤. «يا رافع إن شئت نزع السهم والقطبة. جميعا وإن شئت نزع السهم وتركت القطبة وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد»، السابق ص ٢٤٧.

(٤) «سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء»، «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»، السابق ص ٢٤٥.

(٥) «ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون»، بهجة المحافل ص ٤٨٠.

(٦) «يسبق عضو منه إلى الجنة»، السابق ص ٤٨٠.

(٧) «ويل لك من الناس، وويل للناس منك»، السابق ص ٤٧٩.

(٨) «آخركم موتاً في النار»، السابق ص ٤٧٩، شائتل الرسول ص ٢٠٣/٢٤٦.

(٩) «ولن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»، محمد رسول الله ص ٢١٧-١٧٥، «من نجا من ثلاث فقد نجا... موتي، ومن قتل خليفة مصطبرا بالحق يعطيه، والدجال»، شائتل الرسول ص ٢١٢/٢٢٢.

التشاؤم في القاعدة مستمرا، بل هي حلقات متصلة بين القمة والقاعدة. المهم ألا يتفائل الإنسان في لحظة الانهيار، ولا يتشائم في لحظة النهضة. ولا يزال الدين قائما طالما ظلت الخلافة في قریش، فالإمامة في قریش. وهو ما يعارض أحاديث أخرى بالسمع والطاعة ولو كان الأمير عبدا حبشيا^(١). ويتم ذلك بتنظيم الصفوف كالصلاة، وتوحيد الجهود، واعتبار الأرض ميدانا واحدا طاهرا لاستقبال دماء الشهداء. فقد فضلت الأمة بثلاث، صف الصفوف أي النظام وهو ما يعارض فوضى الواقع الآن، وطهارة الأرض وهو حاصل الآن بفرش الأرض والشوارع الرئيسية والجانبية الحصر لأداء صلاة الجمعة والعيدين لعدم كفاية المساجد، وطهارة التربة وهو لا يختلف كثيرا عن طهارة الأرض. لذلك شرع التيمم^(٢).

وتشير بعض الأحاديث إلى عقائد الفرق مثل المهدي خاصة عند الشيعة^(٣). فالمهدي هو الذي يشير إلى طريق الخلاص. لا يهم من أين يظهر، من إفريقيا أو من آسيا أم من العرب من جديد. فالمهدي ليس مكانا بل هو زمان، انفراج الوقت، ونهاية الأزمنة، وتحرك التاريخ. ولا يستطيع المهدي أن يعمل وحده دون أمة، ولا القائد دون شعب، ولا الفرد دون الجماعة. ومن علامات المستقبل ارتباط الخير بنواصي الخيل. فالأمة محاربة قائمة مجاهدة مناضلة، أقرب إلى القتال منها إلى السلم^(٤). وأعداء الأمة هم اليهود والنصارى، الصهيونية والاستعمار، والإسلام ليس الاستسلام بل هو هدنة مؤقتة مثل صلح الحديبية وبيعة الرضوان. وخروج القائم كمثل الساعة لا يأتي إلا بغتة^(٥). وبمعنى عصري تندلع الثورة دون توقع.

(١) «ولا يزال هذا الدين قائما ما كان اثنا عشر خليفة كلهم من قریش، ثم يخرج كذابون بين يدي الساعة»، السابق ص ٢١٠.

(٢) «فصلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا، وجعلت تربتها لنا طهورا»، بهجة المحافل ص ١٩٦.

(٣) «إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتتوها فإن فيها خليفة الله المهدي»، محمد رسول الله ح ١٧٦/٢، «المهدي وأنه من ولد فاطمة»، سيرة المصطفى ص ١٤٥-١٦٠.

(٤) «الخيال في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، «الخيال معقود وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، «الأجر والمغنى»، محمد رسول الله ح ١٦٦/٢.

(٥) النبي الأعظم ص ٧٦٩.

وقد يوصف أعداء الأمة بأوصاف دون تسميتهم بلباسهم مثل لبس نعال الشعر أو بأجسادهم «عراض الوجوه»، بلون وجوههم «حمر الوجوه»، أو بصفر الأعين أو بشكل الأنوف^(١). والخطورة تطبيق هذه الأوصاف على أمم غير المقصودة مثل الترك وقد حملوا لواء الخلافة، حوالي خمسة قرون أو المغول وقد أتوا مهاجمين ورجعوا مسلمين. وقد تتوحد الصورتان في قوم واحد^(٢). لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلحون الترك، وهم غير الأتراك بل حمر الوجوه، صفار العيون، صفار الأنوف، تستر وجوههم التروس^(٣). وأحيانا يسمى هؤلاء القوم أهل خوز وكرمان. وهم قوم من الأعاجم، لهم نفس صفات الترك السابقة^(٤). إنما الأعداء هم اليهود. فقاتل اليهود في المستقبل حتى يتعرف عليهم الحجر الذي يختبئ اليهودي وراءه وينادي بقتله^(٥). وهل يحتاج المسلم إلى معونة خارجية بحديث الحجر دون الاعتماد على نفسه واستخباراته؟ لا تقوم الساعة حتى يُقاتل اليهود. ولا ينفع اليهودي الاختباء وراء الحجر لأنه يتكلم ويدل عليه^(٦). ومن ثم تكون الخيارات السلمية لتحرير فلسطين وهم. ولا بديل عن المقاومة. والسلام خيار استراتيجي ضعف وعجز. فالبدل هو أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. واليهود ليسوا جماعة واحدة. فهم يمين عنصري وعدواني. وفيهم يسار أكثر إنسانية

(١) «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما يتعلون نعال الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة»، «ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صفار العيون، حمر الوجوه، ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة»، السابق ح ١٦٧/٢.

(٢) «إن أمتي يسوقها قوم عراض الأوجه صفار الأعين كأن وجوههم الجحف حتى يلحقوهم بجزيرة العرب. أما السابقة الأولى فينجو من هرب منهم. وأما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض. وأما الثالثة فيصطلون كلهم من بقى منهم.. هم الترك.. ليربطن خيولهم إلى سواربي مساجد المسلمين» السابق ص ١٧٧.

(٣) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، حمر الوجوه، صفار العيون، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة»، الأنوار ح ١١٠، الشفا ح ١٣١١.

(٤) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوز وكرمان، قوما من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف، صفار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة»، الأنوار ص ١٠٢-١٠٣.

(٥) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهودي وراني فاقلته»، «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله، هذا يهودي وراني فاقلته»، محمد رسول الله ح ١٦٦-١٧٦.

(٦) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبئ اليهودي وراء الحجر فيقول الحجر: يا عبد الله يا مسلم نعال وراني يهودي فاقلته»، الأنوار ح ١٠١-١٠٢.

وانفتاحا على الآخرين^(١).

وقد يكون الخلاص على يد ابن مريم حكما عدلا. يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقبض المال^(٢). فيأخذ الدين الجديد علامات الخلاص من الدين القديم ويمصطلحاته مثل الجزية. يقتل الدجال، وهم النصارى المحبون للحق والعدل الذين يدينون العدوان الإسرائيلي على غزة، واحتلال فلسطين، والرأسمالية العالمية^(٣). ومن طرق الخلاص تجديد الدين على رأس كل مائة سنة. ويظل قائما بفئة وجماعة^(٤).

ز- الفتوحات

وقد طويت للرسول الأرض مشارقها ومغاربها^(٥). وسيبلغ ملك أمته ما طوي له منها. لا تغزى قريش بل هي التي تغزو^(٦). فالتفاؤل ليس مجرد تمن بل هو واقع بالفعل. تحقق منه الكثير منذ مكة والمدينة حتى العالم الإسلامي من طنجة شرقا إلى بكين غربا، ومن كيب تاون جنوبا إلى أوسلو شمالا. ولا تعني الفتوحات بالضرورة الغزو بل قد يكون سلما مثل انتشار الإسلام في أوروبا بعد أن أصبح الدين الثاني هناك.

(١) وقد وضح ذلك في الفرق بين إيباك Aipac، جي ستريت J Street لدى يهود الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢) «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا. فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية فلا يقبل من أهلها الإسلام، ويقبض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»، يخرج الدجال فيتل عيسى فيقتله ثم يمكث عيسى أربعين سنة إماما عادلا وحكما مقسطا، سيرة النبي ص ١٦٥-١٦٦.

(٣) وذلك مثل جولد ستون القاضي اليهودي الذي كتب التقرير الشهير عن العدوان الإسرائيلي على غزة متبها إسرائيل بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، وكذلك مثل الصحافة الأوروبية الحرة التي تدين جرائم إسرائيل في فلسطين وبيع أعضاء أجساد الشهداء الفلسطينيين.

(٤) «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك... وهم بالشام»، يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، شاتل الرسول ص ٢٧٦.

(٥) الشفا حـ ١/ ٤٧٤ «إن الله عز وجل زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها. وإني أعطيت الكتز بين الأحمر والأبيض»، الوفا. حـ ٣٠٧، بهجة المحافل ص ١٤٣، سيرة النبي ص ١٦٣.

(٦) الوفا حـ ١/ ٤٨١ «لن تغزونا قريش بعدها أبدا، بل تغزوهم ولا يغزونا»، سيرة النبي ص ٣١٣.

وتتم الفتوحات على يد صحابة الرسول أو صحابة صحابته أو صحابة صحابة صحابته^(١). وتوالى الخلفاء مثل توالي الأنبياء^(٢). وإخباره بالغيوب كثيرة وفي اتجاهات متعددة، الانتصارات والفتوح المستقبلية^(٣).

وترتبط مدن المسلمين بعضها ببعض الآخر، عمران بيت المقدس، خراب يثرب أي أن تحرير القدس مشروط بما يحدث في الحجاز. وتبدأ الملحمة وخراب يثرب، بفتح القسطنطينية إلى عودتها إلى الإسلام. وبفتح لقسطنطينية يخرج الدجال^(٤). فالعواصم الإسلامية عواصم حضرية تدل على تاريخ وحضارة كما تدل على شعوب وآمال. وإذا كانت يثرب موطن اليهود قديما فإن تحرير القدس مشروط بالقضاء على قوة اليهود خارجها، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، يثرب الجديدة. وفي الشام تفتح بيت المقدس^(٥). وأخبر الرسول بالمرتين اللتين يتم فيهما فتح القدس^(٦). فالقدس تفتح أكثر

(١) وليأتين على الناس زمان يغزو فيه قنام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من يحب رسول الله، فيقال نعم فيفتح لهم...، شمائل الرسول ص ٢١٣-٢١٤ / ٢٨٥.

(٢) كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبي خلف نبي، وأنه لا نبي بعدي، وأنه سيكون خلفا كثيرين... فوايعة الأول فالأول. وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم، السابق ص ٢١٤.

(٣) زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها. وسيلغ ملك أمتي بما زوي لي منها، بهجة المحافل ص ٤٧٨، شمائل الرسول ص ١٩٩. «إن من كان قبلكم كان أحدهم يشق باثنين ما يصرفه عن دينه والله ليتمنى هذا الأمر ولكنكم تستعجلون»، السابق ص ٢٠٢، «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض فيها نخل فذهب وهي إلى أنها البصرة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب. ورأيت في رؤياي هذه أني هزرت نيفا فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد. ثم هزرت أخرى فعاد أحسن ما كان. فإذا هو ما جاء به من الفتح واجتماع المؤمنين. ورأيت فيها بقرًا، والله خير. فإذا هم المؤمنون يوم أحد. وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا بعد يوم بدر»، السابق ص ٢٠٢، «تفتح اليمن فيأتي قوم ييسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح الشام فيأتي قوم ييسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح العراق فيأتي قوم ييسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، «منعت الشام مديها ودينارها، ومنعت العراق درهما وقفيزها، ومنعت مصر إردنها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم»، ص ٢٠٩. «سيصير الأمر إلى أن تكون جنود مجندة. جند الشام، وجند باليمن، وجند بالعراق»، ص ٢١١.

(٤) عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال، محمد رسول الله ح ١٧٥ / ٢.

(٥) «أعد ستاين يدي الساعة، موتي، ثم فتح بيت المقدس»، شمائل الرسول ص ٢٢٠.

(٦) الشفا ح ٤٨١ / ١ «عليك بالشام فإنه خيرة الله من أرضه ينجي إليه خيره من عباده فإن أبيت فعليك بيمينكم وأسقوا من غدرة فإن الله تكفل لي بالشام وأهله»، السابق ص ٢٦١، «والذي نفسي بيده لتفتحن

من مرة. الأولى في عصر الخلفاء الراشدين، تحريرها لها من الاستعمار الروماني، والثانية في عصر صلاح الدين تحريرها لها من الاستعمار الصليبي. والثالثة قادمة في عصر المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي. والشمال والجنوب محور واحد، الشام واليمن. وتفتح فارس وبلاد الروم شرقا وغربا محور واحد.

والتنبؤ بفتح فارس والاستيلاء على إيوان كسرى وتحرير أراضي الحيرة في شبه الجزيرة العربية المتاخمة لفارس تعويضا للفاقة والحرمان وبفضل النبوة^(١). وليس فقط بالدعاء عليه. وفي لحظة انهيار يوشك أن يكسر العجم، ويستولون على ثروات العرب، ويضربون الرقاب^(٢). وهو ما يتوهمه العرب الآن. والحقيقة أن العجم ظهير العرب وسندهم الأول في مواجهة اليهود والنصارى، إسرائيل وأمريكا. فتمتلئ خزائن العرب بحيث تفيض ولا تجد أحدا يستثمرها^(٣).

ولا يعني الفتح فقط تحرير الأرض بل أيضا تحرير الشعوب من الانقسامات الطائفية والمذهبية، بين سنة وشيعة، وبقايا الشعوبية بين عرب وعجم لتوحيد الأمة وتوجيهها ضد عدوها الأول، الاستعمار والصهيونية.

وكان يستجاب دعاؤه. وكلها روايات أكثر منها أقوالا مباشرة. فقد دعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه فلم تبق له باقية ولا بقيت لفارس رياسة في أقطار الدنيا. ودعا على رجل لم يستطع أن يأكل يمينه فلم يستطع رفعها بعد ذلك^(٤). وقد رمى

عليكم فارس والروم حتى يكثر الطعام فلا يذكر عليه اسم الله»، ص ٢١٤، «إنكم ستقدمون الشام...»، ص ٢٢١.

(١) «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟.... فإن طال بك حياة فلترين الظعينة (المرأة في هودجها) ترتجل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدا إلا الله... ولئن طال به حياة ليفتح كنوزها كسرى، كسرى بن هرمز...»، الأنوار ح ١/ ٨٢-٨٣. «فرق الله ملكه»، المعجزات اللامعة ص ١٥٥.

(٢) «ويوشك أن يكسر فيكم العجم، يأكلون فيكم، ويضربون رقابكم، ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان»، الشفا ح ١/ ٤٧٩.

(٣) «وإن طال بك حياة لفتحن كنوز كسرى»، وإن طال بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه ذهباً وفضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه، الوفا ح ١/ ٣١٠.

(٤) «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده»، الشفا ح ١/ ٤٥٥-٤٦١، الوفا ح ١/ ٣٤٥-٣٤٩، شمائل الرسول ص ١٩٩.

في وجوه المشركين بكف من تراب فملاً أعينهم^(١). كان يدعو فيربط المطر ويستسقي السماء^(٢). وفتتح خراسان بعد فارس^(٣). فقد بنى ذو القرنين فيها مدينة مرو ودعا لها بالبركة.

ويستولى المسلمون أيضا على أرض قيصر وينتهي عصر القياصرة غربا. كما ينتهي عصر الكياسرة شرقا. وتتفق كنوزها في سبيل الله^(٤). وقد استمرت الإمبراطورية الرومانية القديمة في الاستعمار الأوروبي الحديث. والصراع دائم حول البحر الأبيض المتوسط، بين الشمال والجنوب أو بين الشرق والغرب. والعملة شكل جديد من أشكال الهيمنة الغربية. ويمتد الفتح إلى الجنوب إلى صنعاء، وامتلاك مفاتيح اليمن^(٥). واليمن رمز للفتى البحار والمحيطات، المدخل الجنوبي الإفريقي لشبه الجزيرة العربية. وقد دخل الإسلام إفريقيا سلما وليس حربا عن طريق الطرق الصوفية وليس عن طريق كتائب المجاهدين.

وبالإضافة إلى التنبؤ بفتح فارس في الشرق، والشام في الشمال يتم التنبؤ أيضا بفتح مصر في الغرب. يُحسن إلى أهلها فإن لهم مع العرب ذمة ورهما وصبرا. ولا يجوز التدخل في الخصومات بينهم حرصا على وحدة مصر^(٦). والصورة الشعبية لمصر أنها الشقيقة

(١) «هم لا ينصرون. فانزمت القوم. وما رمينا بسهم ولا طعنا برمح»، «ما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينه ترابا»، الوفا ح١/٣٠٤، «وليفتحن عصابة من المسلمين، كثر القيصر الأبيض، قصر كسرى»، شمائل الرسول ص ٢١٠.

(٢) «اللهم تجلنا سحابا كثيفا مغدوقا تضحك فيه الأرجاء تمطرنا منه رذاذا...»، «اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته»، «اللهم أكسر عنهم البرد»، «اللهم اشف عمي». الوفا ح١/٣٤٧-٣٤٩، «ولتفتن كنوزها في سبيل الله»، شمائل الرسول ص ١٩٨-١٩٩/٢٠٤-٢٠٥.

(٣) «ستبعث بعوث فكن في بحث خراسان، ثم اسكن مدينة مرو فإنه بناها ذو القرنين، ودعا لها بالبركة وقال: لا يصيب أهلها سوء»، السابق ص ٢١٤.

(٤) «ويلك كسرى ثم لا كسرى بعده. وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده. ولتفتن كنوزها في سبيل الله»، الأنوار ح١/٤، الوفا ح١/٣٠٦.

(٥) «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني ولأنظر إيوان صنعاء من مكاني هذا»، الوفا ح١/٣٢١.

(٦) «إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يُسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورهما أو صهرا. فإذا رأيتم رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها»، الأنوار ح١/٩٥. «ستفتح لكم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم رهما وصهرا»، المعجزات اللامعة ص ٩٩. «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق قاهرين لعدوهم حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك... بيت المقدس»، الشفا ح١/٤٧٥.

الكبرى للعرب، وكعبة الإسلام لمسلمي آسيا وإفريقيا، بجامعاتها ومعاهدها وعلمها، ومنبع نهضة العرب والمسلمين الحديثة، وموطن الإصلاح الديني. لا يمكن استبعادها أو تهيمشها أو إخراجها عن دورها التاريخي. وتفتح مصر ويوصي بأهلها خيرا لأن لهم ذمة ورحما دون الدخول في خصوماتهم^(١). وتفتح الحيرة^(٢). ويقاتل المسلمون الترك وهم التتار والمغول الآتون من الشرق وليس الأتراك غزاة الإسلام وناصره^(٣).

وليس الفتح فقط على الأرض بل أيضا في البحر ضد التخوف من أن العرب بدولا يركبون إلا الإبل دون السفن^(٤). فوعد بسكنى البصرة وأنهم يغزون في البحر كالمملوك على الأسرة^(٥). وتفتح أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط، مضيق جبل طارق في قوله الشهير، بعد عبور المضيق الذي يفصل إفريقيا عن أوروبا «البحر وراء والعدو أمامكم فسيروا على بركة الله»، وفتح أمريكا عبر المحيط الأطلسي قادم تغزوهم ولا يغزوننا^(٦). وهو فتح حضاري، والوعي الأوروبي في أزمة تجعله في حاجة إلى نموذج جديد يجده في الإسلام. وهذا ما يفسر سرعة انتشار الإسلام في الغرب بالرغم من صورة الإسلام السلبية في ذهنه منذ الحروب الصليبية حتى الاستعمار الحديث، وبالرغم من واقع المسلمين السلبى منذ سقوط الأندلس حتى احتلال فلسطين والعراق والقتال في السودان والصومال وأفغانستان وباكستان. وقد عبر الجيش المصري قناة السويس في أقل من ست ساعات في حرب أكتوبر لتحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلي. وفتح المسلمون قبرص أيام معاوية.

(١) «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما. فإذا رأيت رجلين يَخْتَصِمَانِ في موضع لبنة فَاخْرُجْ مِنْهَا»، إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما، شئنا الرسول ص ٢١٠.

(٢) مثلت لي الحيرة كأنباب الكلاب، وأنكم ستفتحونها، السابق ص ٢١١.

(٣) «ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين، حر الوجوه، ذلف (القصر والصغر) الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة، وتجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه»، السابق ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٤) «ناس من أمتي غرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة»، الأنوار ح ٨٥ / ٨٥. «يظهر الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخليل في سبيل الله»، الوفا ح ٣١٥، «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجيوا»، شئنا الرسول ص ٢٤١-٢٤٢.

(٥) السابق ح ٤٨١.

(٦) «نفزوهم ولا يغزوننا»، الوفا ح ٣١٤.

ويمتد الغزو إلى السند والهند أي الزحف شرقاً^(١). وتصبح شبه جزيرة العرب مولد
قوة عالمية جديدة تزحف شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وتزث الإمبراطوريات القديمة،
وتبشر بولادة عالم جديد^(٢).

(١) «يكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، السابق ص ٢٤٢ .
(٢) «يظهر المسلمون على جزيرة العرب، ويظهر المسلمون على فارس، ويظهر المسلمون على الروم، ويظهر
المسلمون على الأعور الدجال»، الجوهرة ح ٢ / ٣٥٥.

الباب الخامس

تشخيص الرسالة

الفصل الأول

انحراف الرسالة

يعني «انحراف الرسالة» من الرسالة إلى الرسول تحول علم السيرة من محور الرسالة نشأتها وتطورها واكتمالها، بدايتها وانتشارها ونهايتها إلى محور الرسول، خصائصه وسماته وشمائله، من القضية إلى الشخص. تتضاءل الرسالة ويتضخم الشخص. تنكمش الرسالة ويتمدد الشخص حتى الوصول إلى اللحظة الراهنة التي يتم فيها تعظيم الشخص وتقديسه بل وتأليه في الحقيقة المحمدية و«النور المحمدي» عند الصوفية. ويصبح واسطة بين العبد والرب في الدعوات والابتهالات «أغثنا يا رسول الله»، «أعنا يا رسول الله»، «حبيبي يا رسول الله»^(١).

وقد بدأ التحول من الرسالة إلى الرسول منذ القرن الخامس الهجري، بدايات الغزو الصليبي، وتوقف الرسالة عن التقدم في التاريخ وكرد فعل عليه، بدلا من بيان مسار الوحي في التاريخ سواء قبل مولد الرسول في ديانات إبراهيم أو بعد مولده حتى وفاته في مراحل الوحي في آخر مرحلة أو حتى بعد وفاته في حياة الخلفاء الراشدين أو تحول الخلافة إلى ملك عضود.

وفي كتب الشمائل هناك القليل عن وجوده في التاريخ. بعثه الله على رأس أربعين سنة، في مكة ثلاثة عشر عاما، وبالمدينة عشرة. وتوفي على رأس ثلاث وستين سنة، استغرق بناء الأفراد وقتا أكثر من بناء الدول. فالأخلاق أساس السياسة. وهو ما يبرر التحول من التاريخ إلى الأخلاق، ومن بناء الدول إلى بناء الأفراد.

(١) انظر مقالنا: محمد، الشخص أم المبدأ، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١، ج١، اليقين واليسار في الفكر الديني، مدبولي، القاهرة ١٩٨٨ ص ١٦٣-١٦٧.

وقد تمت عدة شروح على أمهات كتب السيرة والشئائل مع أنها واضحة مفهومة، تاريخية نصية، لا تحتاج إلى شروح كما تحتاجه نصوص الفلسفية والكلامية. قد يعني الشرح هنا مزيدا من المعلومات حول شخص الرسول ومزيدا من التعظيم والتبجيل والتقديس الذي قد يصل إلى حد التأليه كما هو الحال في الأدعية المتأخرة خاصة عند الصوفية. وقد تكون الشروح تعليقات على هوامش النص من القارئ وليس تذيلا لها كما هو الحال في «الأنوار»^(١). وقد ترد بعد الشروح اللغوية لا أكثر دون التطرق إلى المضمون^(٢).

١ - الشئائل:

أ- «شئائل النبي» للترمذي (٢٧٩هـ)^(٣)

وقد كان التأليف في موضوع الشئائل مبكرا منذ القرن الثالث بعد السيرة بما يقرب من قرن. فهي فرع من السيرة تركز حول الرسول. وواضح دخول الصوفية في الموضوع مثل الترمذي. ولا توجد مقدمة نظرية أو خاتمة كتبرير الموضوع أو منهجه. ويضم ستة وخمسين بابا دون تصنيف للصفات إلى خلقية أو الجسدية مثل الشعر والشيب أو عادات المشي والعطر والنوم أو العبادات كالوضوء أو الكلام كالضحك أو اللباس كالخف والعمامة أو الأخلاقية كالحياء والتواضع أو وفاته كالميراث ورؤيته في النوم أو أسماه^(٤).

(١) الأنوار ج١/ ٧٣-٧٦.

(٢) الشفا ج١/ ٢٨٢-٢٨٣ / ٣١٢ / ٣٣٤.

(٣) الترمذي (الإمام الحاكم أبو عيسى محمد بن سعيد): شئائل النبي، حققه وخرج أحاديثه الشيخ ماهر ياسين فحل، أشرف عليه وراجع د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس ج١/ ٢ / ٢٠٠٨ م.

(٤) أ- الصفات الخلقية: الخلق، الخاتم.

ب- الجسدية: الشعر، الشيب، الخضاب، الكحل.

ج- العادات: الترجل، العيش، المشية، الجلسة، التكاة، الأكل، الخبز، الأدام، الشرب، التعطر، النوم، الحجامة، العيش.

د- الأشياء: اللباس، الخاتم، السيف، الدرع، العمامة، المغفر، الإزار، القناع، القدح، الفاكهة، الشراب، القرائش.

هـ- العبادات: الرضوء، صلاة الضحى، صلاة التطوع، الصوم، القراءة، البكاء.

و- الكلام: الضحك، المزاح، الشعر، السحر، القول قبل الطعام وي بعده.

ز- الأخلاق: التواضع، الحياء.

وفي كثير منها هي وصف الآخرين له. فالرسول غالبا لا يتحدث عن ذاته كجسد إلا في قوته على الجماع.

والاعتماد الأكبر على الحديث ثم القرآن ثم الشعر^(١). وهي مجرد روايات. لذلك يبدأ الباب بعبارة «باب ما جاء في...» ويعتبر «العمدة» أو «النموذج» أو «الأصل» في كتب الشئائل مثل «الرسالة» للشافعي في علم أصول الفقه. و«الباعث الحثيث» لابن كثير في علم الحديث، و«الإتقان» للسيوطي في علوم القرآن وسيرة ابن هشام في علوم السيرة.

ب- «الأنوار في شئائل النبي المختار» للبغوي (٥١٦هـ)^(٢)

تتحول خصائص الرسالة إلى شئائل الرسول. ويصبح موضوع الرسالة ذات النبي^(٣). فالسيرة شخص الرسول وأقاربه^(٤). وهي موضوع لعلم أعم هو الرسول وليس الرسول موضوعا لعلم السيرة.

وتتفرع السيرة في عدة علوم حول شخص الرسول مثل: دلائل النبوة، خصائص الرسول، المعجزات، السيرة، المغازي، السير، الحقوق، الشئائل^(٥). والقرآن هو المعجزة، أي التحدي الأدبي والبلاغي والشعري والتشريعي، المعنى الجديد للمعجزة وهو الإعجاز وليست أفعال الرسول الخارقة للعادة والمناقضة لقوانين الطبيعة، المعنى القديم للمعجزة. وأصبحت المغازي والسير علوما مستقلة وليس انتشار الرسالة. «الأنوار» للبغوي نص يعادل سيرة ابن هشام في الرسالة نص-أم أو نص-أولي أو نموذجي أو محوري تنبني عليه النصوص الأخرى في «الشئائل» وتدور حوله^(٦).

ح- الأسماء.

ط- الوفاة، السن، الميراث، الرقية.

(١) الحديث (٤١٥)، القرآن (٤)، الشعر (٢).

(٢) بحبي السنة الحسين بن مسعود البغوي: الأنوار في شئائل النبي المختار (جزءان). حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه العلامة الشيخ إبراهيم اليعقوبي، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع ج ١ / ٣ دمشق

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

(٣) السابق ص ٢٤.

(٤) السابق ص ٢٩-٣٠.

(٥) السابق ص ٢٣-٣٧.

(٦) فقلت: «إننا أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر»، السابق ج ١ / ٢٥٩.

ويظهر التحول من خصائص الرسالة إلى خصائص الرسول في الألقاب التي أعطيت للرسول مثل «المختار»، «المصطفى» دليلاً على تفرده واختياره. فالاختيار لم يعد لشعب، مثل بني إسرائيل، بل لشخص وهو الرسول^(١). والغناوين إيقاع ثلاثي «شمائل النبي المختار»، «تعريف حقوق المصطفى». بعد لفظ واحد مثل «الأنوار»، «الشفاء» التي يغلب عليها إما الإشراق مثل «الأنوار» أو العلاج مثل «الشفاء» أو التبعية والقدوة والانتفاء مثل «الوفا». وكما يُعظم الرسول يُعظم المؤلف. فالبلغوي مؤلف الشمائل هو «محبى السنة». واليعقوبي الذي حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه هو «العلامة الشيخ»^(٢).

وفي كتب «الشمائل» الأولى ترصد كل صفة في باب حتى لو وصلت إلى مائة دون تصنيفها في أبواب أقل مثل الصفات البدنية والنفسية والأخلاقية^(٣). وفي الصفات المعنوية معظم السنن قولية. وفي الصفات البدنية معظم السنن عادية، عادات شخصية للرسول.

ويمكن فهم شمائل الرسول بطريقتين. الأولى، الجانب المعجز فيها حديث مع الله والملائكة وجبريل كما هو الحال في السيرة وتضخيمها. والثاني الجانب الإنساني فيه في جسده وعاداته وأحواله النفسية والاجتماعية. وفيها تدخل الأدعية. فكان يعوذ بالله من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال^(٤).

ومع ذلك تبرز موضوعات في الشمائل خاصة بالرسول لها دلالة على الرسالة مثل

(١) السابق جـ ١/ ٤-٧.

(٢) السابق جـ ١/ ٣ (المقدمة).

(٣) يضم «الأنوار» مائة وأثنى باباً. أكبرها علامات نبوته ومعجزاته (٣٥ ص) ثم تراضعه (٢٩)، علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به عن الغيب (٢٤)، مرضه ووصيته ووفاته وسنه (٢٣)، دعواته (٢٢)، صفة حجه (٢٠)، وصفه معراجيه (٢٠).

(٤) «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال»، السابق ص ٣٠٥.

الأخلاق كدليل على النبوة^(١). وتبدأ بالوحي والمعراج قبل رصد الشئائل^(٢). تتوارى أحكام الشئائل. فإذا كانت الشئائل جزءاً من السيرة في علوم السيرة فإن السيرة تصبح جزءاً من الشئائل في علوم الخصائص والأنساب والشئائل.

ج- «شئائل الرسول ودلائل نبوته» لابن كثير (٧٧٤هـ)^(٣)

وهي سيرة تجمع بين موضوعين: الشئائل والمعجزات. فالمعجزات هي الرابط بين السيرة والشئائل لأنها موجودة في القسمين. لذلك انقسم الكتاب إلى بابين، الأول عن الشئائل، والثاني عن المعجزات باعتبارها دلائل للنبوة. وكلها خبر أو أخبار أو قصة أو قول أو ذكر أو حديث^(٤).

وتنقسم الشئائل إلى أربعة أبواب: الأول، الحسن الباهر، اللون والوجه والشعر والمنتكبان والساعدان والإبطان والقدمان والكعبان والقوام وختم النبوة بين الكتفين. والثاني وصفات متفرقة، والثالث الأخلاق مثل الكرم والتواضع والمزاح، والزهد ويشمل العبادة والشجاعة. والرابع، صفاته في الكتب المقدسة السابقة^(٥). وصفات الجسد لا شأن لها بالنبوة لأن النبوة تتعلق بالروح. وبالكتاب مقدمة صغيرة تبين سبب تأليفه ومنهجه^(٦).

(١) الأنوار ج١/ ٢٥-٢٦ (المقدمة).

(٢) الآيات والكرامات، الوحي، دعاؤه المشركين والصبر على أذاهم، علامات النبوة، المعراج، كراماته يوم القيامة، علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به عن الغيب، علامات نبوته ومعجزاته، السابق ص ٧-١٣٨.

(٣) ابن كثير (أبو الفدا الحافظ الدمشقي): شئائل الرسول ودلائل نبوته، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٨م-١٤٢٨هـ.

(٤) شئائل الرسول: خير (١٩)، قول (٩)، قصة، ذكر (٦)، حديث (١).

(٥) السابق ص ٩-٧٥.

(٦) «فقد صنف الناس في هذا، قديماً وحديثاً، كتباً كثيرة مفردة وغير مفردة. ومن أحسن ما جمع في ذلك فأجاد وأفاد الأمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، رحمه الله. أفرد في هذا المعنى كتابه المشهور «الشئائل». ولنا به سماع متصل إليه. ونحن نورد عيون ما أورده فيه، ونزيد عليه أشياء مهمة لا يستغنى عنها المحدث والفقير. ولتذكر أولاً بيان حسنة الباهر عليه الصلاة والسلام، وجماله الجميل. ثم تشرع بعد ذلك في إيراد المجلد والتفاصيل»، السابق ص ٩.

وتصنف المعجزات طبقاً لمستوياتها: الجهاد، والنبات، والحيوان، والإنسان. فالجهاد يدل على المعجزات الحسية، الآيات السماوية والأرضية، وتسييح الحصى^(١). والنبات تشمل انقياد الشجر، وحنين الجذع^(٢). والحيوان كثيرة^(٣). والإنسان يضم تكثير الطعام والشراب وإبراء المرضى، وإحياء الموتى^(٤). أما التنبؤ بالمستقبل فالإخبار بالغيوب سواء الفتنة ومقتل الخلفاء أو الفتوحات^(٥). وتقارن معجزات الرسول بمعجزات الأنبياء السابقين^(٦).

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر، والقرآن أكثر^(٧). ويكثر القرآن في المعجزات. والأحاديث من الآخرين في وصفه وليس من الرسول خاصة الجسدية واصفاً نفسه. وتصدر أحياناً أحكاماً على الأحاديث لتقييم درجة صحتها. كما يكشف عن انتساب الرواة للمذاهب مثل التشيع^(٨). فالسيرة أقرب إلى الحديث منها إلى التاريخ.

د- «وسائل الوصول إلى شمائل الرسول» للنبهاني (١٣٥٠هـ)^(٩)

وهي سيرة في محورها الثاني «الرسول» دون ذكر للمحور الأول «الرسالة» على الإطلاق. نموذجها «شمائل» الترمذي كما أن ابن اسحق نموذج سير المحور الأول، الرسالة^(١٠). سيرة واضحة ومركزة وخالية من الاستطراد والأسانيد الطوال. يشرح

(١) معجزات الرسول، السابق ص ٨٥-١٣٥/١٤٦-١٤٨.

(٢) السابق ص ١٣٦-١٤٥.

(٣) السابق ص ١٤٩-١٧٠.

(٤) السابق ص ١١٣-١٣٥/١٧١-١٨٩/٣١٦-٣٢٢.

(٥) السابق ص ١٩٨-٢٧٧.

(٦) السابق ص ٢٧٩-٣١٥.

(٧) القرآن (٢٢٦)، الحديث (١١٠)، الشعر (٣٥).

(٨) شمائل الرسول ص ٩٢.

(٩) النبهاني (الشيخ العالم العلامة المحدث يوسف بن إسماعيل): وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، دار المنهاج، بيروت ج ٣/ ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

(١٠) «فجمعت هذا الكتاب من آثاره في شمائله الشريفة. وأدخلت فيه جميع الشمائل التي رواها الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي بعد حذف مكررها وأسانيدها. ولم أتقيد بترتيبه وتبويبه. بل سلكت أسلوباً غير أسلوبه. وأضفت إليها من كتب الأئمة الآتي ذكرهم أكثر منها بكثير. وألحقت بغريب الألفاظ ما تدعو إليه الحاجة من ضبط أو تفسير»، السابق ص ٢٩.

الألفاظ الغامضة في كل خاصية وكأن السيرة قاموس لغوي. والتوجيه من القرآن والحديث في التركيز على الرسول «إنما أوتيت لأتمم مكارم الأخلاق». ويعتمد على مصادر ثلاث عشرة سابقة^(١).

ينقسم إلى ثمانية أبواب مع مقدمة عن معنى لفظ الشئائل، والفوائد من جمعها. والخاتمة تضم خمسين حديثاً من أقوال الرسول المباشرة لأدعيته والتي أصبحت كأقوال مأثورة^(٢). كل الأدعية من القرآن أو من الحديث، سبعون دعاء، مجرد تسجيل دون أي دراسة أو تحليل أو تصنيف^(٣). الباب الأول في نسبه، والثاني في خلقه، والثالث في لباسه، والرابع في أكله، والخامس في خلقه، والسادس في عبادته. والسابع في أذكاره. والثامن في طبه^(٤). والمؤلف على علم بنية الكتاب. ويعبر عنه في المقدمة، وكل ذلك لا يدخل لا في الرسالة ولا في الرسول، لا في النبوة ولا في النبي، بل مناسبة لألفاظ التعظيم والتفخيم مثل نسبه وأسمائه الشريفة وخلقته وما يتضمنه من جمال صورته وبصره واكتماله وشعره وشبيه وعرقه ورائحته وطيبه وصوته وغضبه وسروره وضحكه وبكائه وعطسه وكلامه وقوته. وهو خليط من الأوصاف الجسدية والعادات الاجتماعية. ولباسه وفراشه، وقميصه وإزاره وردائه وقلنسوته وعمامته، وفراشه وخاتمه ونعله، وسلاحه ودوابه ومتاعه خارج عن موضوع الرسالة بل ما يحتاجه كل إنسان من أدوات. وطعامه وشربه، عيشه وخبزه، أكله وأدامه، قوله قبل الطعام وبعده، فاكهته، وشرايه وقدحه ونومه كلها عادات شخصية لا شأن لها بالرسالة. وطبق عادات العصر، وسنة وفاته يحسمها التاريخ، ورؤيته في المنام في علم تفسير الرؤيا. أما ما قد يتعلق بالنبوة فهي أخلاقه، حلمه وعشرته مع نسائه وغيرهن من الأصحاب، وأمانته وصدقه، وحيائه

(١) السابق ص ٣٠-٣١.

(٢) وسائل الوصول، المقدمة ص ٣٧-٤٤، الخاتمة ص ٣٧٣-٣٩٦.

(٣) الأدعية القرآنية، السابق ص ٣٧٣-٣٧٧، الحديث ص ٣٧٧-٣٩٥.

(٤) أ- النسب والأسماء ص ٤٥-٥٦. ب- خلقه وأوصافه ص ٥٩-١٠٤، ج- لباسه وفراشه وسلاحه ص ١٠٧-١٤٠ د- أكله وشربه ونومه، ص ١٤١-١٩٢ هـ- خلقه وحلمه وعشرته مع نسائه وأمانته وصدقه وحياته ومزاحه وتواضعه وجلوسه وكرمه وشجاعته ص ١٩٣-٢٥٢، و- عبادته وصلاته وصومه وقرآته ص ٢٥٣-٢٧٤ ز- أحواله وأذكاره وأدعيته في أوقات مخصوصة وجوامع كلمه ص ٢٧٥-٣٢٦ ح- طبه وستته ووفاته ورؤيته في المنام ص ٣٢٧-٣٧٢.

ومزاحه، وتواضعه وجلوسه، وكرمه وشجاعته، وعبادته وصومه وقراءته جزء من الشريعة له ولأمته وليست خاصة به. وأدعيته لتلبية الحاجات وقضائها طبقاً لقدرات الداعي على تحقيق ما يريد بالفعل أو الاكتفاء بالتعبير عنها وطلب المساعدة الخارجية. وجوامع الكلم مأثورات شعبية تحولت بفعل الزمن إلى أمثال عامة. وتكثر الأدعية حتى يتحقق التوحيد في الحياة العملية ضد الشرك وتعدد الآلهة، وضد اليهود باعتبارهم السلطة المعارضة^(١). وهو قاموس جيد في الأخلاق العملية الحالية من الغيبات.

ويعتمد على الحديث والقرآن والشعر^(٢). تخلو الآيات من بيان أسباب النزول. وتخلو الأحاديث من نقد الروايات. والشعر قليل وكان النص مكتفٍ بذاته. وتدخل الملائكة، خاصة جبريل في الأحاديث لتقويتها^(٣). كما تستعمل الكتب المقدسة السابقة للتنبؤ بأسائه وأوصافه^(٤).

هـ- «جواهر البحار» للنبيهاني (١٣٥٠هـ)^(٥)

وتتحول الخصائص والشئال والمعجزات في حالة ضعف تدوينها إلى مجرد نقل عن السابقين واقتباسات منهم طبقاً للأعلام. ويستعمل لفظ «الفضائل» بدلاً من الشئال و «النبي» بدلاً من الرسول. ومن صفات التعظيم أنه المختار. وكل الأنبياء والرسول مختارون. تضم ثمانية وسبعين علماً، بين صوفية وفقهاء ومتكلمين ومؤرخين، ولكن معظمهم صوفية مما يدل على سيطرة التصوف بسبب الحقيقة المحمدية على المحور الثاني للسيرة، الرسول في الشئال. هي مجرد تجميع لأقوال العلماء في عظمة الرسول مرتبين ترتيباً زمانياً مع ذكر مصادر الجمع وتواريخ وفاة العلماء وألقابهم. لذلك قدم القاضي عياض علي ابن عربي^(٦). تختفي السيرة كلية لحساب الرسول والتركيز على شخصه. ليس

(١) السابق ص ٢٩٥.

(٢) الحديث (٧٨٠)، القرآن (٤٥)، الشعر (١١).

(٣) وسائل الوصول ص ١٥٠ / ٣٢٩ / ٣٥٨ / ٣٥٨.

(٤) السابق ص ٥٢ - ٥٣ / ٢١١.

(٥) النبيهاني (الشيخ يوسف بن إسماعيل: غفر الله له ولوالديه): جواهر البحار في فضائل النبي المختار. نسخة منقحة مصححة، توزيع مكتبة الرشد، بيروت (١٤١٧هـ - ١٩٩٧) (أربعة أجزاء).

(٦) «وقد ابتدأت بها نقله الإمام المحدث المحقق أبو الفضل عياض... لكونه وحيد هذا الفن وكتابه نسيج

له هدف إلا المدح والتعظيم والتفخيم. وليس له منهج إلا التجميع والنقل والاقتباس، هو نموذج البوصيري نثرا وشعرا، جمعا ونقلا، وليس تأليفا وإبداعا، وهو ما يفعله الأستاذ الجامعي هذه الأيام في الكتب الجامعية المقررة أو حتى في الكتب العلمية المقدمة للترقية لنيل الدرجات العلمية. ليس له فكر أو موقف أو توجيه أو قراءة أو اتجاه، مثل طبيعة التأليف في هذا العصر المتأخر مثل السيوطي (٩١١هـ). اللاحق ينقل عن السابق خلطا بين المعلومات والعلم، نقل المعارف وإبداعها. لم تختف ألقاب التعظيم والتفخيم مثل سيد الخليفة^(١). الميزة هو جمع هذا المديح كله في كتاب واحد بدلا من تركه متفرقا.

والمؤلف على وعي بمنهجه النقلي عبّر عنه في المقدمة^(٢). يعترف بأنه جمع مادته من أهل الحقيقة والشرعية أي من الصوفية والفقهاء. لم يضمها كثيرا من المعجزات بل أرجعها إلى مصادرها في القرآن والحديث والمشاهدات «العرفانية» أي التجارب الروحية مع حذف ما لا يدخل في موضوع السيرة نظرا لأنها أصبحت مسببا لكثير من العلوم النقلية كالقرآن والحديث والتفسير والفقه بل والعلوم النقولية العقلية كالكلام والأصول والعلوم الإنسانية كالتاريخ^(٣). وتظل الشريعة مقياسا للحقيقة. لم يراجع

وحده.. وله فضل على كل من جاء من بعده. ثم رتبهم غالبا بحسب الزمان. ولم أنظر إلى تفاوتهم في الشهرة بالعلم والعرفان، ولا إلى كثرة أو قلة ما نقلته عنهم من الفوائد الحسان، ولو نظرت إلى ذلك لقدمت الشيخ الأكبر والغوث الدباغ الأشهر على كثير من هؤلاء الأئمة والأعيان...»، السابق ص ٧.

(١) السابق ص ٥.

(٢) السابق ص ٥-٧.

(٣) «فهذا مجموع بديع في فضائل النبي الشفيع وعلو قدره الرفيع، جمعت فيه كثيرا مما ورد في الكتاب والسنة وكلام أئمة الأمة من أهل الشريعة والحقيقة في أوصاف سيد الخليفة. ولم أكثر فيه من معجزاته مع كثرتها إلى غاية لا تُحصى. وقد نقلت ما فيه من الفوائد المهمة والفوائد الجملة عن أكابر العارفين وأئمة الدين.. فكان أعظم هدية في هذا الزمان لأهل الإيمان، جمعت جواهره الحسان من بحار العلم والعرفان مما أخذوه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمشاهدات العرفانية. فكل ما قالوه في ذلك صحيح لاستنادهم فيه إلى القرآن أو الحديث أو الكشف الصريح. ولذلك كانوا بعد النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين، أعرف خلق الله بعلو قدر رسول الله كما أنهم أعرف خلق الله بكمالاته التي لا يجوز أن يتصف بها أحد سواه. وحذفت من عباراتهم ما لا دخل له في هذا الباب، ولا يناسب هذا الكتاب إما لكونه جاريا على مصطلحات الصوفية غير مفهوم لأمثالي بالكلية وإما لكون معانيه المقصودة دقيقة، وظاهرها يخالف الشريعة وإن كان لا مخالفة في الحقيقة»، السابق ص ٥.

مكاشفاتهم ولكنه آمن بها تصديقا^(١). ومن ثم فلا حاجة إلى أدلة عقلية أو عقلية مادام الكشف ذوقيا.

والعلماء المنقول عنهم ثمانية وسبعون علما. يتفاوتون في الشهرة. من الصوفية سبعة وخمسون، ومن الفقهاء سبعة عشر، ومن المؤرخين اثنان، ومن المتكلمين واحد، ومن الفلاسفة واحد^(٢). ويتكرر البعض لأخذ أكثر من نص منهم^(٣). وأكبرهم من حيث الكم المنادي ثم السيوطي ثم الحلبي ثم السهروردي^(٤). وتتفاوت ألقابهم، الإمام ومكوناته ثم العارف ثم العلامة ثم الشيخ ثم الحافظ ثم القطب^(٥). وتتعدد المكونات للإمام في الإمام الشيخ، والإمام العلامة، والإمام المعارف بالله، والإمام العلامة السيد^(٦). وكل من المعارف والعلامة والشيخ الحافظ له مكوناته. أما القطب فواحد مثل أحد أكابر الصوفية، جامع هذا الكتاب الفقير^(٧). وتدل الألقاب على الصوفي مثل العارف بالله أو الفقيه مثل الإمام.

(١) وهي بنية على مكاشفات ومشاهدات، شاهدها أولئك السادات حينما خلصت أرواحهم من شوائب الكدورات فأدركوا ببصائرهم من الإسراء والأنوار ما لم تدركه الأبصار. ونحن وإن لم نشاهد من ذلك ما شاهده فقد شاركناهم في الإيمان بما آمنوا به، واعتقدنا ما اعتقدوه من أنه أفضل خلق الله، وأعلامهم منزلة عند الله، وأنه النور الأعظم الساري في جميع الموجودات، والأصل المقدم الذي تفرغت عنه جميع الكائنات. وسيأتي في ذلك كلامهم من الأدلة العقلية والنقلية ما تطيب به النفوس، ويفوق في ظهور البدور والشموس. وكل من نقلت عنهم بدور عرفان مقتبسون من شمس كماله، وبحور إحسان، متحدون من فضله المحيط، وفيض أفضاله، فكل ما وضعوه فهو منه وإليه وليس لهم بذلك منة عليه، السابق ص ٦.

(٢) أشهر الصوفية: الترمذي، الأصبهاني، ابن عربي، ابن الفارض، الجيلي، القونوي، الشعراني، النابلسي، الميرغني، البكري، الغزالي، عبد القادر الجزائري، الدردير.

(٣) وأشهر الفقهاء: القاضي عياض، الماوردي، العز بن عبد السلام، النووي، السيوطي، السبكي، ابن الهمام، القاري، القسطلاني، ابن حجر، الحلبي، المنادي، ابن تيمية، وأشهر المتكلمين ابن الجزار. وأشهر الفلاسفة الرازي.

(٤) مثل ابن حجر، الحلبي، النابلسي، الميرغني، السيوطي، الجيلي.

(٥) الحلبي (٨)، (٩٥)، (٨٨)، (٧٣).

(٦) الإمام (٥١)، العارف (٩)، العلامة (٥)، الشيخ (٤)، الحافظ (٣)، القطب (١).

(٧) الإمام (١٣)، الإمام الشيخ (١٠)، الإمام العلامة (٥)، الإمام العارف بالله (٤)، الإمام العلامة السيد (٢)، الإمام الكبير، الإمام الحافظ، الإمام الرباني، الإمام السيد، الإمام حجة الإسلام، الإمام العارف بالله الشيخ، الإمام الأديب، الإمام الأمير، الأمير الشهاب، الإمام الكبير الشهاب، الإمام شهاب الدين، الإمام شمس الدين، الإمام العارف بالله سيدي الشيخ الإمام الشريف السيد، الإمام العلامة الشيخ (١). مكونات العارف: العارف بالله الشيخ (١٣)، العارف بالله، العارف بالله السيد (٢)، العارف بالله القطب الكبير، العارف الكبير، سلطان العارفين (١)، مكونات العلامة: العلامة الشيخ (٢)، العلامة الشريف (السيد)، مكونات الشيخ: الشيخ الإمام (١).

ومن الشواهد الثقيلة تختار الشواهد الصوفية أو نصوصهم التي تدل على الحقيقة المحمدية والتي تعادل محمد الكوني في بدايات السيرة. ويظهر التراث بطريقة غير مباشرة عن طريق الأعلام. وكلها حكايات تثير الإعجاب والدهشة مثل حكايات الأولياء وأصحاب الكرامات مثل الخضر. ولا يوجد نقد للروايات أو تساؤلات. والنصوص حول موضوعات أخلاقية مثل الشهائل التي تعادل التصوف الخلقي أو المقامات والأحوال الصوفية وتصنيف النصوص طبقاً للأعلام وليس طبقاً للموضوعات. كلها تسير في خط واحد من التكريم والمدح والتعظيم والتفخيم. وهو الأساس الذي قام على اختيار النصوص دون نقد أو حتى تساؤل حول النصوص وروايات الإسراء والمعراج، وأحاديث جبريل والملائكة والاختلافات بينها الراجعة إلى الخيال شدة أو ضعفاً.

و- «عبقريّة محمد» لعباس محمود العقاد (١٩٦٤)^(١)

وقد استمر التأليف في الشهائل عند الكتاب الإصلاحيين بصيغة أخرى وبمصطلح آخر هو «عبقريّة» في سلسلة تضم «عبقريّة محمد» و«عبقريّة باقي الخلفاء الراشدين»، يجمع بين النبوة والخلافة. وتتغير الشهائل تحت نوع جديد من الفن الأدبي هي «العبقریات». وتطبق على الرسول والصحابه. تتحول منها الوقائع في حياة الرسول إلى مواقف إنسانية. يتم التعبير عنها بلغة أدبية من أجل إثبات خاصية واحدة هي العبقريّة. وتنفصل إلى عبقريّة في الدعوة، وعبقريّة في التبليغ. أكبرها العبقريّة العسكرية. فالرسول قائد عسكري أسوة بنابليون وهتلر بصرف النظر عن مضمون الدعوة. وهي عبقريّة إنسانية خالصة موضوعية وذاتية في الإنسان وحاله^(٢). وهو النبي العربي. هو عود من الرسالة للرسول على غير ما هو معهود في التيارات الإصلاحية ومن الرسالة إلى الشخص. صغير الحجم، وكأنه كتب في ليلة واحدة، أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ أو الحديث. العبقريّة قيمة في النفس، وأقرب إلى الفطرة^(٣).

(١) عباس محمود العقاد: عبقريّة محمد، الدار القومية للطباعة والنشر، (كتب ثقافية ٢٩)، القاهرة ١٩٥٩.
(٢) «تقدير لعبقريّة النبي العربي محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، وبالحق الذي يبيت له الحب في قلب كل إنسان» غلاف الجزء الأول.

(٣) «وحسبنا من عبقريّة محمد» أن نقيم البرهان على أن محمداً عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان القلم، وعظيم في ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد، ولا يفهم أن يختلفوا في الطوائف الأدبية...»، السابق ص ٩.

تتحول السيرة هنا إلى نوع أدبي كما هو الحال في على هامش السيرة لطف حسين. تستعمل أسلوب المتكلم المفرد، وكأنها حكاية أديب ورواية قاص. تنتقي بعض الوقائع وتحولها إلى حكايات للتعليق عليها مثل إسلام عمر، والتحول من الشرك إلى الإسلام، ومن العنف إلى الرقة. الغاية الدفاع ضد المهاجمين. والمدح طبقا للإحساس بالرسول عند المعاصرين. وتقرن حروبه بحروب التوراة. كما يقارن فتح مكة سلميا بغاندي^(١).

وقد كان الدافع على كتابة السيرة ذكرياته في الأحياء الوطنية أبطاله في الثلاثينيات. وهي الفترة التي كتب فيها طه حسين أيضا سيرته. وتسري هذه الروح الوطنية في كتابة السيرة.

وتعادل اللقطة الأولى «علامات مولد» وصف أحوال العرب قبل الإسلام. فالعالم متداع منهار، الفُرس شرقا، والروم غربا، وبيزنطة شمالا، وشرك عند العرب، وفرقة بين القبائل في الوسط^(٢). ثم تظهر عبقرية الداعي بعرويته وقرشيته وخصائصه ووسامته وثقته بنفسه، وإيمانه وغيرته^(٣). وتظهر عبقريته العسكرية في حربه الدفاعية تبرئة له من انتشار الإسلام بالسيف وبالقتال، وإثبات أن الجهاد للدفاع. يقوم على الاقتناع على عكس الحروب التوراتية. لذلك عفى عن أسرى بدر^(٤). وتتجلى عبقريته السياسية في طريقة تعامله مع الخصوم وحواره معهم حتى الفتح الكبير^(٥). وتكشف عبقريته الإدارية عن ملكات شخصية في حسن المعاملة وتدبير الشئون العامة^(٦). وأخيرا بلغ محمد الرسالة بضرب الأمثال، وتوجيه الأفراد والولاة، وعقد المعاهدات والمواثيق والأسلوب العصري^(٧).

(١) السابق ص ٨٣/ ٨٧.

(٢) السابق ص ١١- ٢٢.

(٣) السابق ص ١٣- ٣٦.

(٤) السابق ص ٣٧- ٨٤.

(٥) السابق ص ٨٥- ٩٤.

(٦) السابق ص ٩٥- ١٠٢.

(٧) السابق ص ١٠٣- ١١٩.

وتعتمد مثل باقي السير على القرآن والحديث والشعر^(١). وبدلاً من المراجع تحلل المواقف تحليلاً إنسانياً كما يفعل الأديب. ويذكر رأي النبي في الشعر، وكيف أوتي الرسول جوامع الكلم. وتقرن العبقريّة بكبار الأعمال الأدبية الكبرى^(٢). وتشارك في تحليل الأخلاق الاجتماعية والسياسية وللأبطال.

ز- «سياء محمد» لعلي شريعتي (١٩٧٧م)^(٣)

وسياء لفظ جديد يعني الشئائل والصفات والخصائص، جمع تجريد للمفرد «سمة». وهي ثلاث خصائص في محمد، الملك والفيلسوف والنبي، قيصر والحكيم والرسول، جمعاً بين السلطتين الدينية والسياسية، بين ما لقصير وما لله، بين ملكوت السماء وملكوت الأرض باسم العقل والحكمة وليس باسم السلطة والتسلط. ويقوم على التحليل الطبقي للنبوّة وظهورها تعبيراً عن صراع القوى الاجتماعية وظهور قوى اجتماعية جديدة تمثل الفقراء والمحرومين والعيبد والمضطهدين. ويحدث ذلك في أنبياء الشرق وأنبياء الغرب على حد سواء، لدى الأنبياء الساميين وغير الساميين. وينطبق على إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد قدر انطباقه على بوذا وزرادشت وكونفوشيوس ولاوتزي.

ويعتمد على التحليل التاريخي الخالص دون أي شواهد نصية من القرآن أو الحديث أو الشعر. كما يعتمد على تحليل الحضارات المقارنة الإسلامية والغربية والشرقية مما يتجاوز المركزية الأوروبية في التحليل الثقافي^(٤). ولا يظهر إلا شاهد شعري واحد.

ح- «من معين الشئائل» للشامي^(٥)

واستمر التأليف في «الشئائل»، الرسول دون الرسالة عند المحدثين. فالقصد

(١) الحديث (٢٥)، الشعر (٣)، القرآن (١).

(٢) مثل أعمال دكتور وهازليت ولي هنت وكارلايل.

(٣) علي شريعتي: سياء محمد، ترجمة جعفر سامي الدبوني، مراجعة حسين علي شعيب، حققه وحرره للنشر محمد حسين بزي، دار الأمير، بيروت ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٤) يذكر من الحضارة الإسلامية أبا ذر الغفاري (٥)، ابن سينا (٣)، ابن رشد (٢)، الكندي، مللاً صندراً، شمس التبريزي (١) ومن شخصيات التراث: علي (٣)، الزهراء، الحسين، زينب، عائشة أبو سفيان، هند، ابن أبي جهل، صفوان (١). ومن الجماعات أهل الصفة (١). ومن الأنبياء: محمد (٥)، عيسى (٤)، أو

المسيح، موسى، إبراهيم، الخضر (١). ومن أنبياء التوراة: قارون، بلعم بن باكور.

(٥) صالح أحمد الشامي: من معين الشئائل، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان ١٩٩٧.

التاريخي لم يتته. فبالرغم من تركيزه ووضوحه واعتبار الرسول أسوة حسنة للناس في السلوك والأخلاق إلا أنه تقليدي. يكرر ما قاله القدماء. مجرد تأليف يبين توقف علم السيرة. يتكون من عشرة مقاصد. كل مقصد منها عدة فصول. أكبرها في الأخلاق. الأول: النسب والقرباة في دين يساوي بين الناس، الأب والزوج، العم والأخ، خدمه وحراسه. والثاني: صفته وهيبته، خلخته وصورته، سمته وهيبته. والثالث: أخلاقه وشيئله، حسن الخلق، ضوابط الأخلاق والإخلاص، والصدق والأمانة، الشجاعة والنجدة، الجود والكرم، الحياء والتواضع، الرحمة والشفقة، الحلم والعفو، الصبر والعدل، الورع والخوف من الله، الرجاء والقصد، الحب في الله والقناعة، وتمني النفس وحسن التصديق. والرابع: طهارته من آفات اللسان والغرور والحسد. والخامس: آدابه وصدافته، الشفاعة، آداب المسجد، المجالسة، الطريق وعيادة المريض، والشكر خدمة الناس. والسادس: سيرته الزهد، طعامه وشرابه، لباسه ومسكنه، هديه. والسابع: النذير العريان، التحذير من ولاية الأمور العامة ومن الرجال والنساء والتحذيرات العامة من الشيطان والدنيا والنفس والنار والدجال وأتباع الأمم السابقة. والثامن: عبادته، التفكير والجهاد والدعاء. والتاسع: مجتمعه، الأسرة والجوار، حق المسلم على المسلم، والمجتمع الإسلامي. والعاشر: حقوق النبي على المسلمين، وجوب محبته، والصلاة عليه. وكلها تقرّظ ومدح. وكثير منها لا علاقة لها بالنبوة. وما لزوم عدد أحاديث كل زوجة. ومعروف أن عائشة أكثرهن رواية لصحبته لها آخر ثمان سنوات في عمره^(١).

ولا جديد فيه ولا اختراق. بل يعتمد على كتابات السابقين. يقتبس منهم كما يفعل الباحثون وكاتبوا الرسائل العلمية وأساتذة الجامعات. ويقلد القدماء في استعمال الشعر للتعبير عن الفكر. والناس الآن لم يعودوا يتذوقون الشعر كما كان القدماء. كان الشعر عند القدماء ثقافتهم الشعبية. واختلف الأمر الآن لصالح أجهزة الإعلام والفنون الحديثة^(٢).

(١) السابق ص ٤٧-٤٨.

(٢) السابق ص ٥٨.

وتبدأ الألقاب كوسيلة للتعظيم والتفخيم والتقديس للأمكنة والأشخاص: المدينة المنورة، مكة المكرمة، الكعبة المشرفة، النسب الشريف، القرابة الطاهرة^(١). الرسول صلى الله عليه وسلم. أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، عثمان ذو النورين، علي كرم الله وجهه. كل صحابي رضي الله عنه أو عليه السلام. ومع ذلك تظهر الروح الحديثة على استحياء في الجرأة على الإقلال من التقديس المتصاعد. فأباؤه ليسوا أنبياء، ولم يولد مختنًا^(٢).

٢- الحقوق:

أ- «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٥٤٤هـ)^(٣)

ويظهر لفظ «حقوق» وهو اللفظ المستعمل حالياً لحقوق الإنسان. فالرسول نموذج لحقوق الإنسان. وحقوق النبي نموذج تشخيصي لحقوق الإنسان.

وهي خصال الكمال والجمال التي قلما يتجلى بها واحد في كل عصر^(٤). وهي المذكورة في كتب المؤرخين دون جهلهم وجاهلة المفسرين^(٥). وتقوم حقوق المصطفى على قسمة رباعية: الأول تعظيم الله له، والثاني حقوقه على الناس بدلا من حقوق الناس عليه. والثالث تطبيق أحكام العقل الثلاثة المعروفة في علم أصول الدين الوجوب والجواز والامتناع أو الوجوب والإمكان والاستمالة في حق الرسول، فيما يجب وما يجوز وما يستحيل عليه. والرابع حكم من انتقصه أو سبه. أكبرها الأول ثم الثالث وأصغرها الرابع ثم الثاني.

ويتضمن كل قسم عدة أبواب. فيشمل الأول تعظيم الله. وله أربعة أبواب، ثناء

(١) السابق ص ١١.

(٢) السابق ص ٢١.

(٣) القاضي عياض (أبو الفضل عياض بن موسى عياض اليحصبي: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى)، تحقيق علي محمد البجاوي (جزءان) تحقيق، علي محمد البجاوي (جزءان) عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٧.

(٤) السابق ج ٢/ ٧٩.

(٥) «وأخبارهم في هذا كله مسطورة، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق وحسن الصور والشأنات معروفة ومشهورة. فلا نطول بها. ولا تلتفت إلى ما نجده في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا»، ج ١/ ١٩٧. «لكننا أتينا فيه بالمعروف منها أكثره في الصحيح والمشهور من المصنفات»، ج ١/ ١٩٨.

الله عليه، وتكميل الله له بالمحاسبة، والأخبار في تعظيم الله له، وما ظهر على يديه من المعجزات والكرامات. ويشمل الثاني حقوقه على البشر. وفيه أربعة أبواب أيضا: الإيمان به ووجوب طاعته، ولزوم محبته، ووجوب توقيره وبره، والصلاة والسلام عليه. ويضم الثالث أحكام العقل الثلاثة. فيه بابان فقط، عصمة الأنبياء والأمور الدينية، والعوارض البشرية في الأمور الدنيوية. ويشمل الرابع، عدم جواز سبه، ثلاثة أبواب، سبه والتعريض به، شتمه وانتقاصه، سب الله وملائكته وكتبه وبناته وأزواجه وصحبه^(١). وتستعمل الآيات القرآنية، تقل أو تكثر عن الأحاديث النبوية. كلها نصوص، آيات وأحاديث وروايات قد تختلف تأويلاتها حتى ولو صحت تاريخيا^(٢). والقرآن أكثر من الحديث والحديث أكثر من الشعر^(٣).

وفي الشرائع يتداخل علم السيرة مع علم الحديث^(٤). وهي مجرد تبويب للحديث طبقا لصفات النبي الجسدية والنفسية والأخلاقية. فكتب الشرائع هي كتب في علم الحديث حول الرسول، نموذجا للتداخل بين العلمين. ولا تستعمل إلا الأحاديث الصحاح خاصة من «البخاري» و«مسلم» وإثبات ذلك بعد كل حديث بلفظ «صحيح»، ونادرا بلفظ «ضعيف»^(٥). وتذكر الروايات بأسانيد مثل كتب السيرة. ولا يوجد أي تحليل نظري أو تأسيس عقلي. كل الموضوعات روايات وأحاديث. فالسيرة من الأحاديث، والأحاديث من السيرة. وهو دور. «الأنوار» مجموعة من الأحاديث حول الشرائع مع أن الأحاديث أقوال في الرسالة وليست شرائع للرسول. وتختلف الروايات في قصة

(١) - في تعظيم النبي الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وعملاً (٥٢٥ ص)

٢- فيما يجب على الأناس من حقوقه (١٥٣ ص)

٣- فيما يجب للنبي وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه وما يعتنع أو يصح من الأحوال البشرية أو يضاف إليه (٢٣٦ ص)

٤- في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه (١٩١ ص)، السابق ج١/ ٨-١٢.

(٢) السابق ج٢/ ٦٨٣.

(٣) الحديث (٤٤٠)، القرآن (٤١١)، الشعر (٢٣).

(٤) الشفا ج١/ ٢٢-٢٣ (المقدمة).

(٥) السابق ج٢/ ٥٨١.

الإسراء والمعراج^(١). والمعجزات كثيرة^(٢). اختير منها الواضح والمقنع والمختصر والمألوف. فالغامض والمشكوك فيه والطويل والغريب قد يتدخل فيه الخيال البسيط أو المركب دون إسناد نظرا لأن صحة المتن غير مشروطة دائئا بصحة السند^(٣). ومعظم الأحاديث لا توضع بين قوسين بحيث تصبح جزءا من الرواية لكثرتها واستعمالها بدلا من أسلوب التأليف فلا فرق بين الأقوال المباشرة والأقوال غير المباشرة.

وتعتمد كتب الشرائع أيضا على الشعر كمصدر للسيرة مثل القرآن والحديث^(٤). بل تظهر قراءات الرسول اللغوية والشعرية. فالرسول أفصح العرب. أوتي جوامع الكلم.

وقد أثرت العلوم الإسلامية واتجاهاتها، وفرقها ومدارسها في صياغة السيرة مثل الأشعرية والتصوف، الجويني وذو النون^(٥). إذ تذكر بعض الفرق الكلامية مثل الكرامية الذين ينكرون ذات النبي في تطويلهم وتهويلهم وليس عليه تعويل^(٦). ويذكر

(١) «واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدا. وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومتمشها» ج١/ ٢١٥. «وقد خلط فيه غيره عن أنس تخليطا كثيرا... مجيء الملك له وشق بطنه وغسله بباء زمزم. وهذا إنما كان وهو صبي وقبل الوحي»، السابق ص ٢٣٥. «تلك القصة مفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس فجود في القصتين وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدره المنتهى كان قصة واحدة.. وفيها تقديم وتأخير وزيادة ونقص وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات. وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود»، السابق ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) «قد أتينا في هذا الباب على نكت من معجزاته واضحة، وجمل من علامات نبوته مقنعة في واحد منها الكفاية والغنية. وتركنا للكثير سوى ما ذكرنا، واقتصرنا من الأحاديث الطوال على عين الفرض وخص المقصد ومن كثير الأحاديث وغريبها على ما صح واشتهر إلا يسرا من غريبه عما ذكره مشاهير الأئمة وحذفنا الإسناد في جمهورها طلبا للاختصار وبحسب هذا الباب لو تقصى أن يكون ديوانا جامعا يشتمل على مجلدات عدة، الشفا ج١/ ٥٢٣، «و الإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من قبل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج إذ هم أهل لذلك. ولا يذكر أحد منهم بسوء ولا يغمض عليه أمر بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وحيد سيرتهم ويسكت عما وراء ذلك»، ج٢/ ٦١١-٦١٢.

(٣) «من النقل إلى العقل ج٢، علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

(٤) الشفا ج١/ ٢١٥-٢١٩/ ٢٨٦/ ٣٣٥/ ٣٤٥، ج٢/ ٥٤٩/ ٥٦٩/ ٦٢١.

(٥) السابق ج١/ ٣٣٩.

(٦) السابق ص ٣٤٨.

الجويني في مذهبه الصرفة لتفسير إعجاز القرآن^(١). ويشار إلى مذهب القاضي أبي بكر في تأكيد عصمة النبي في أفعال الجوارح واللسان وإلى أبي إسحق الذي منعها بدليل العقل والإجماع^(٢). وهو مذهب جماعة المتصوفة وأصحاب علم القلوب والمقامات^(٣). وبعض المسائل في السيرة واردة من علم أصول الفقه وهي معيار السنة أو عصمة الأنبياء^(٤).

ويذكر القدري في خلق القرآن^(٥). ويذكر أبو الهذيل والجاحظ وثامة والغزالي في كتاب «التفرقة» في عدم جواز تكفير المتأولين^(٦). ويبدو الموضوع كلاميا خالصا بذكر الفرق غير الإسلامية كالدهرية والديسانية والمانوية والصائبة والنصارية والمجوس والبراهمة واليهودية والأروسية أو الإسلامية والمعتلة أو العنبرية والرافضة وغلاة المتصوفة مثل الحلاج وأصحاب الإباحة والخرمية والبزيعية والمعتزلة والمشبهة والقدريّة. ومن المتكلمين الباقلاني وسحنون والأشعري^(٧).

ب- «غاية السؤل في خصائص الرسول» لابن الملحق (٨٠٤هـ)^(٨)

وهو كتاب في الشئائل مقسمة على أحكام أصول الفقه، أحكام التكليف: الواجب والمحرم والمباح، ثلاثة من خمسة دون المكروه والمندوب، بالإضافة إلى الفضائل والكرامات لعلها تعادل المندوب مثل القسمة الرباعية لـ «الشفاء» الأقرب إلى علم أصول الدين: مدح الله له، حقوقه، أحكام العقل الثلاثة، وحكم سبه. أكبرها الفضائل والكرامات ثم المباحات ثم الواجبات وأصغرها المحرمات. فالمباح للرسول أكثر من المحرم^(٩). والسؤال هو: لماذا هي اختصاصات للرسول وهي أقرب إلى الأحكام العامة

(١) السابق ص ٥٣٠-٥٣١.

(٢) السابق ص ٧٨٥.

(٣) السابق ص ٨٠٠.

(٤) السابق ص ٨٥٠-٨٥١.

(٥) السابق ج ٢/ ١٠٥٢-١٠٥٦.

(٦) السابق ص ١٠٦٢-١٠٦٥.

(٧) السابق ص ١٠٦٦-١٠٧١/ ١٠٧٨/ ١٠٨٤-١٠٨٦/ ١٠٩١.

(٨) الإمام أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملحق: غاية السؤل في خصائص الرسول، تحقيق ونجريح عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية، بيروت ج ١/ ٢/ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٩) الفضائل والكرامات (٧٦ص)، المباحات (٦٧)، الواجبات (٥٢)، المحرمات (٣١).

لكل المسلمين؟^(١) والمباحات أشبه بالمندوب، ولا يوجد مكروه. وهو نفس موقف الصوفية من استبعاد المتوسطات والإبقاء على الأطراف الثلاثة.

والواجبات ثمانية له، وستة لغيره. منها عبادات كالصلاة صلاة الضحى والوتر، ومنها معاملات، إنكار المنكر، قضاء الدين على من مات، تخيير نسائه، مصابرة العدو. ومنها مسائل شخصية مثل التهجد، والسواك، ومشاورة ذوي الأحلام^(٢). والأحكام الخاصة قد تقلل من شرعية الأحكام العامة^(٣).

والمحرمات ثلاثة عشر^(٤). منها ما هو ذوق شخصي في الطعام. ويمكن التغلب على الرائحة الكريهة بالنعناع وغسيل الفم. ويصعب تحريم الكتابة وهي أساس العقود، والشعر، والعرب أمة الشعر، وفيه ديوانها والدين ليس جريمة يعاقب عليها صاحبه. والتسري انقضى وقته.

والمباحات تسعة وعشرون^(٥). ومنها ضد المساواة مثل اختيار ما يشاء من الغنائم

(١) «أني لست مثلكم، أني أأطعم وأسقى»، غاية السؤل ص ١٥٦.

(٢) هي: ١- صلاة الضحى ونحر الأضحى والوتر ٢- التهجد ٣- السواك ٤- مشاورة ذوي الأحلام ٥- مصابرة العدو ولو كثر عددهم ٦- إنكار المنكر وتغييره ٧- قضاء دين من مات من المسلمين معسرا ٨- إذا رأى شيئا يعجبه يقول «لييك»، «إن العيش عيش الآخرة» ٩- أداء فرض الصلاة كاملة لا خلل فيها، ١٠- كل تطوع يتدأ به، ١١- أمور ذكرها ابن القاص، ١٢- تخيير نسائه، غاية السؤل ص ٧٥-١٢٤.

(٣) مثل الوصال في الصوم، دخول مكة بغير إحرام، القتل في الحرم، أخذ الشراب والطعام من صاحبيها المحتاج، إباحة اللمس وأنه لا ينقض الوضوء، ودخول المسجد جنباً، القتل بعد الأمان، الجمع بين أكثر من أربعة، النكاح بلا ولي ولا شهود، إباحة المرأة المعتدة، الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، الخلوة بأجنبية، تزوج الصغيرة التي لم تبلغ.

(٤) مثل: ١- الزكاة عليه ٢- أكل البصل والثوم والكراث وكل ما له رائحة كريهة ٣- الأكل متكثراً ٤- الخط والشعر ٥- نزع اللامة إذا لبسها حتى يلقي العدو أو يحكم الله بينه وبين أعدائه ٦- مد العين إلى ما منع به الناس ٧- خائنة الأعين ٨- الصلاة على من عليه دين ٩- أن يمن ليستكثر ١٠- من كرهت نكاحه ورجبت عنه ١١- نكاح الحرة الكتابية ١٢- التسري بالأمة الكتابية ١٣- نكاح الأمة المسلمة.

(٥) وهي: ١- الوصال في الصوم ٢- اصطفاء ما يختاره من الغنيمة ٣- الاستبداد بخمس من خمس الفى والغنيمة بأربعة أخماس الفى منفرداً ٤- دخول مكة بغير إحرام ٥- القتل في الحرم ٦- جعل تركته صدقة لا تورث عنه ٧- القضاء بعلمه ٨- قبول شهادة من يشهد له ٩- الحمى لنفسه ١٠- أخذ الطعام والشراب من مالها المحتاج ١١- وجوب محبته على أمته أعلى درجات المحبة ١٢- الصلاة بعد النوم من غير تجديد الوضوء ١٣- اللمس لا ينقض الوضوء ١٤- دخول المسجد جنباً ١٥- اللعن للشىء من غير سبب ١٦- القتل بعد الأمان ١٧- الجمع بين أكثر من أربعة ١٨- انعقاد نكاحه بلفظ الهبة ١٩- إذعان مرغوبته لينكحها

وأخذ النسبة التي يريد، ومنها ما يضاد الرحمة مثل أخذ طعام وشراب المحتاج، ومنها بعض التساهل في العلاقات الجنسية مثل دخول المسجد جنباً، وعدم نقض اللبس للوضوء، والجمع بين أكثر من أربعة، والنكاح بالهبة وإكراها ودون ولي ولا شهود وفي الإحرام، وزواج المرأة دون وليها وبأمر الله ودون انقضاء العدة، والجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وجعل عتق المرأة صداقها، وجواز الخلوة بأجنبية، وزواج الصغيرة. فالنصف تقريبا في التسهيلات الجنسية^(١).

والفضائل والكرامات خمسة وأربعون^(٢). بعضها احترام له مثل ترميل زوجاته فلن تجد زوجاً أكرم منه. ومنها أنه متصر دائماً على العدو بالرعب قبل الحرب. وبعضها واقع أنه خاتم النبيين، وشريعته آخر الشرائع، وأمه أفضل الأمم وإجماعها حجة، وكتابه معجز، وعموم رسالته على الجن والإنس. وأمه شهداء على الناس يوم القيامة،

٢٠- انعقاد نكاحه بلا ولي ولا شهود ٢١- انعقاد نكاحه بحال الإحرام ٢٢- عدم وجوب القسم عليه في زوجاته إنما تطوعا ٢٣- تزوج المرأة بغير إذنها وإذن وليها ٢٤- تزويج الله ٢٥- المرأة المعتدة من غيره ٢٦- الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ٢٧- عتق المرأة وجعل عتقها صداقها ٢٨- الخلوة بأجنبية ٢٩- تزويج الجارية الصغيرة.

(١) إخصائصه في النكاح كثيرة... وقد منع ابن خيران من الكلام فيها في النكاح والإمامة كما حكاه الماوردي. وأطلق في الروضة الحكاية عن الصيمري لأنه أمر انقضى فلا معنى للكلام فيه، غاية السؤل ص ٦٨.

(٢) وهي: ١- تحريم أزواجه أمهات المؤمنين على غيره ٢- أفضل نساء الأمة عدا فاطمة ٣- خاتم النبيين ٤- أمته خير الأمم وإجماعها حجة ٥- شريعته مؤيدة وناسخة لجميع الشرائع ٦- كتابه معجز بخلاف كتب سائر الأنبياء ٧- الرعب على عدوه مسيرة شهر ٨- عموم رسالته على الإنس والجن ٩- له ولأمته الأرض مسجد ظهور ١٠- الغنائم له ولأمته ١١- أمته شهداء على الناس يوم القيامة ١٢- تفضيل أصحابه على سائر الأمم ١٣- صفوف أمته كصفوف الملائكة ١٤- شفاعات كثيرة وأولها الشفاعة العظمى ١٥- أول شافع وأول مشفع، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول من يقرع باب الجنة ١٦- سيد ولد آدم يوم القيامة ١٧- أكثر الأنبياء اتباعا ١٨- لا ينام قلبه ١٩- تطوعه قاعدا كتنطوعه قائما في نوافل الصلاة ٢٠- مخاطبة المصلي له بقول «السلام عليك أيها النبي» ٢١- لا يجوز لأحد رفع صوته ولا مناداته من وراء الحجرات ٢٢- عدم مناداته باسمه ٢٣- طهارة شعره ٢٤- من استهان به كفر ٢٥- إجابة المصلي له إذا دعاه ٢٦- نسب أولاد بناته إليه ٢٧- كراهية الجمع بين اسمه وكنيته ٢٨- إباحة الهدية ٢٩- عرض الأمم عليه ٣٠- التنفل بعد العصر ٣١- العصمة من الجنون ٣٢- من رآه فقد رآه حقا لأن الشيطان لا يتمثل به ٣٣- لا تأكل الأرض جسده ٣٤- الكذب عليه كبيرة ٣٥- عصمة اجتهاده من الخطأ ٣٦- جواز التوسل ٣٧- يرى في الظلمة كما يرى في النور ٣٨- ابتلاع الأرض لفضلاته ٣٩- ولد مخنونا ولم ير أحد سواته ٤٠- إقرار جماعة بنيته قبل بعثته ٤١- لا يقع عليه الذباب ٤٢- لا ينطق عن الهوى ٤٣- يرى في الثريا أحد عشر نجما ٤٤- يياض إبطيه ٤٥- إذا جلس كان أعلى من جميع الجالوس.

وصفوفها كصفوف الملائكة، وتفضيل أصحابه على الأمة، وعرض الأمم عليه. ومنها أنه الأول في كل شيء في الشفاعة وفي القيامة وفي دخول الجنة، وأنه سيد ولد آدم، وأكثر الأنبياء اتباعاً، لا ينام قلبه. ومنها وصف لجسده مثل طهارة شعره، وعدم أكل الأرض له. والأرض له مسجد طهور، والغنائم له ولأمته. والتسعة الأخيرة من وضع الخيال زيادة في التكريم: أنه يرى في الظلمة، ابتلاع الأرض فضلاته، ولادته محتوناً، عدم رؤية سواته لأن الرؤية عيب، إقرار البعض بنبوته قبل البعثة بناء على معرفة قوانين التاريخ والدين الطبيعي. عدم وقوع الذباب عليه لأن الذباب قذارة، وعدم نطقه عن الهوى لأن الأهواء ضعف بشري، رؤيته في الثريا أحد عشر نجماً، فالتأمل في النجوم من أفعال الأنبياء ومنافسة للصابئة، بياض إبطه لأن البياض أفضل من سواد الشعر، وجلسه إلى أعلى ارتفاع لقدره. ومنها آداب عامة مثل عدم رفع الصوت عليه أو مناداته باسمه، وعدم الاستهانة به، ونسبة أولاده وبناته إليه، وكراهية الجمع بين الاسم والكنية، والعصمة من الجنون، وعصمة اجتهاده، ومخاطبة المصلي له في صلاته، وعدم تمثل الشيطان به، وعدم جواز الكذب عليه، وجواز التوسل به.

وهي ليست مقدسات لا خلاف عليها بل اختلف عليها الفقهاء. لذلك يضع المؤلف بعد الموضوع «وتحقيق القول في هذه الأمور» أو «تحقيق الأمر في ذلك»^(١). وقد يكون التعبير «وفيه بحث» أي أن الموضوع لم يستقر بعد، وبعض البحوث نفسية فيما يتعلق بالأمور النسوية^(٢). وقد يكون الأمر «فيه نظر» أي في حاجة إلى إعادة تحقيق^(٣).

(١) مثل وجوب صلاة الضحى ونحر الأضحية والوتر قضاء دين من مات من المسلمين معسراً، السابق ص ١٠٣، كراهية الجمع بين اسمه الشريف وكنيته، السابق ص ٢٨١.

(٢) مثل وجوب مشاورة ذوي الأحلام، السابق ص ١٠٠، وجوب أداء فرض الصلاة كاملة لا خلل فيها، ص ١٠٧، تحريم نكاح الحرة الكتابية، ص ١٤٧، تحريم نكاح الأمة المسلمة، وفيها بحوث فقهية ص ١٥٠، إباحة انعقاد نكاحه بحال الإحرام، ص ٢٠٤، عدم وجوب القسم في زواجه وإنما كان متطوعاً بذلك، ص ٢٠٧، وفيه بحوث نفسية تتعلق بالأزواج الشريفات، من ذلك أنه لا يسألن أحد إلا من وراء حجاب، ص ٢٥٤.

(٣) مثل: بعض الأمور التي ذكرها ابن القاص، السابق ص ١٠٧، تحريم الصلاة على من عليه دين، ص ١٤٣، إباحة القتل بعد الأمان، ص ١٧٨، إباحة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، ص ٢١٤.

وقد يكون الأمر صراحة فيه خلاف^(١). وقد يكون فيه غلط مردود^(٢). وقد يكون فيه الأباطيل^(٣). ويتهم أحد المؤرخين بأنه كذاب^(٤). وهي مسائل اختلف فيها الأصحاب. وذكرها غير مفيد لأنها لا تتعلق بحكم ناجز تمس الحاجة إليه. وهو رجم بالغيب بلا فائدة. موضوع انقضى وليس فيه من دقيق العلم. ولا وجه لتضييع الزمان بالظن مع أنه مطلب الجمهور بحجة التآسي^(٥). البعض يدخل في أبواب الفقه بالرغم من أنه لا فائدة منه للتدرب ومعرفة الأدلة. وقد بلغ من إثبات الجمهور وبعض الخاصة الخصائص درجة إهداء كتاب إليها^(٦).

و«الخصائص» هي «الشئال». والمقدمات هي النتائج. فهو «أشرف المخلوقين، وأفضل السابقين واللاحقين على سائر النبيين وآل وكل وسائر الصالحين»^(٧). وهي لا تثبت بالعقل بل بالنص. وهي عكس النوازل التي يشرع فيها بالاجتهاد. والروايات متعددة، تزيد وتنقص، حسنة وغريبة^(٨). لذلك تكثر الأحاديث والآيات والأشعار^(٩). وتكثر الروايات، وتتعدد المتون. فالاختلاف في الحديث قبل الاختلاف في السيرة. ولما كانت الرؤية فقهية في تصنيف الخصائص طبقاً لأحكام الشريعة فالاختلاف في السيرة راجع إلى الاختلاف في الفقه. كما تعتمد على بعض الروايات غير المباشرة للأفعال وليس الأقوال^(١٠). ويبدو تأثير التراث الأشعري على تدوين السيرة بكثرة الإحالة إلى الغزالي.

(١) مثل جواز انعقاد نكاحه بلا ولي ولا شهود، السابق ص ٢٠١.

(٢) مثل إباحة المرأة المعتدة من غيره له، السابق ص ٢١٤.

(٣) الأخبار التي ذكر فيها وضع النبي لحجر على بطنه كلها أباطيل، غاية السؤل ص ١٥٧.

(٤) «الواقدي كذاب»، السابق ص ٢٣٧.

(٥) «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن له ساعة من نهار»، السابق ص ٧٠.

(٦) «أهدي لكل مسلم محب لسيرة رسول الله العطرة المتمثلة في جزء الخصائص والفضائل التي كونت عظمته، وجعل من خلقه العظيم مثلاً حياً يحتذى من إنسانيته الرحمة نبراساً منيراً الهدى، ومن ثم كان فضل الله عليه عظيماً... وإني إذ أهدي هذه الخصائص لكل راغب في معرفة مزايا الرسول لتعرف من خلالها ما أكرم الله نبيه من المنح والمزايا والفضائل والكرامات تعظيماً له وتكريماً»، السابق ص ٥.

(٧) السابق ص ٦٨.

(٨) السابق ص ٦٩.

(٩) الأحاديث (١٧٨)، الآيات (٥٨)، الأشعار (١).

(١٠) ظاهريات التأويل ص ١٨٦-٢١٨.

مما يكشف عن سعة حضوره في القرون التالية حتى القرن الثامن الهجري^(١).

٣- الشخص:

أ- «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي (٥٩٧هـ)^(٢)

ويأتي في نفس تيار تضخيم الرسول، وتساؤل الرسالة. التصنيف في أربع وثلاثين مجموعة من الأبواب، تسعة فقط في الرسالة في البداية وفي النهاية، وأربعة وعشرون في الرسول^(٣). والأبواب كثيرة ولكن صغيرة بلا دلالات، مجرد نقاط إخبارية. بل إن الجزء الخاص بالرسالة يتعلق بالسيرة أكثر مما يتعلق بالرسالة. الرسالة غائبة فرحا وحزنا، نصرا وهزيمة لصالح الرسول. وتغيب الدلالات من السيرة مثل دخول المدينة^(٤). بل إن التركيز على الرسول تركيز على شخصه وليس على الرسول. والمعجزات ليست متواترة. ولا توجد رؤية خاصة للسيرة مثل القاضي عياض وأركانها الأربعة بل مجرد تجميع مادة في تبويب عام كثير دون تركيزه في رؤية ذات أبعاد محددة.

وتعتمد على الآيات والأحاديث والأشعار. والآيات أكثر، والأحاديث أقل. والشعر وسط بين الآيات والأحاديث. والأحاديث روايات أكثر منها أقوال مباشرة. تستعمل الأحاديث كروايات أي كأخبار وليس كأقوال. ويعتمد على الصحيحين عامة والبخاري خاصة مع تخريج بعض الأحاديث. وأحيانا توضع الأحاديث بين قوسين

(١) غاية السؤل ص ٢١٨.

(٢) ابن الجوزي (الإمام أبو الفرج عبد الرحمن): الوفا بأحوال المصطفى، (جزءان)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٦ م.

(٣) في الرسالة: ١- بداية نبينا ٢- نبوته ٣- هجرته إلى المدينة ٤- غزواته ٥- سراياه ٦- مكاتبة الملوك ٧- الوفود عليه ٨- رجوعه بعد حجة الوداع ٩- مرضه ووفاته، وفي الرسول: ١- جسده ٢- صفاته المعنوية ٣- آدابه ٤- سمته ٥- زهده ٦- طهارته ٧- صلاته ٨- صومه ٩- حجه وعمرته ١٠- خوفه وتضرعه وحزنه وفكره وبكاؤه ودرعه وقصر أمه واستغفاره وتوبته ١١- دعاؤه ١٢- الآت بيته ١٣- لباسه ١٤- مراكبه ١٥- مواليه ١٦- خدمه ١٧- زيته ١٨- أكله ومأكولاته ١٩- شربه ومشروباته ٢٠- نومه ٢١- طبه ٢٢- نكاحه ٢٣- سفره ٢٤- آلات حربه ٢٥- بعثه وحشره.

(٤) الوفا ج ١/ ٢٤٦-٢٤٧.

وأحيانا جزءا من الرواية^(١). ويُعترف بأن المعجزات ليست متواترة^(٢). والاعتماد شبه كلي على علم الحديث. إذ يوظف علم الحديث حول شخصه وليس على أبواب الفقه. ويخصص ما ينفرد به أحد الصحيحين^(٣). والأصح روايات الرسول عن نفسه، والأقل روايات الآخرين عنه. وتتفق بعض جوانب السيرة مع الدين الشعبي، دين القديسين والأولياء. وبعثته وحشره خارج الرسول والرسالة^(٤). ويظهر أثر عقائد الأشاعرة مثل الشفاعة في تدوين السيرة. ويظل ابن هشام أفضل كتاب السيرة لتزعمته التاريخية. وربما ابن إسحق أفضل منه لأنه أساسه. في الشرائع الرسالة جزء من الرسول. وفي السيرة الشرائع جزء من السيرة. ويصعب نقد علم السيرة لقدسية الرسول.

ب- «سيرة النبي المختار» للحضرمي الشافعي (٩٣٠هـ)^(٥)

ويدل طول العنوان على التعظيم والتبجيل. ويتكون من ثلاثة أجزاء: الأول «حدائق الأنوار ومطالع الأسرار»، و«لفظ الأنوار» معروف في كتب الشرائع، و«الأسرار» لفظ صوفي أسقط على علم السيرة الذي تحول إلى حياة الرسول المليئة بالأسرار. والثاني «النبي المختار» ويشير إلى الاصطفاء لشخصه وليس لرسالته. والثالث «آله وصحبه» أي استمرار الرسالة لدى صحابته وخلفائه أي في التاريخ. وله عنوان آخر «تبصرة الحضرة الأحمدية الشاهية لسيرة الحضرة الأحمدية النبوية» مثل عناوين الصوفية^(٦). والغرض منها الحث على الجهاد. فقد كان الرسول نموذجا للمجاهدين. لذلك خصص أول فصل في القسم الثاني عن «فضل الجهاد». ويتكرر الفصل في الأقوال المقدسية^(٧). لم تعد هناك مراحل للرسالة بل مراحل لحياة الرسول.

(١) السابق ج١/٢٩١/٣٠٩-٣٦٩.

(٢) السابق ص ٣٣٩.

(٣) السابق ج٢/٤٦٩.

(٤) السابق ج٢/٨١٣-٨٢٧.

(٥) الحضرمي الشافعي: (العالم الفقيه القاضي علامة اليمن: محمد بن عمر بحرق) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار وعل آله وصحبه المصطفين الأخيار، اعتنى به محمد غسان نصوح عزقول، دار المنهاج، جدة ج١/٢/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

(٦) السابق ص ١٤٣.

(٧) السابق ص ٢٤٢-٢٥٢/٤٩٥-٤٩٧.

ويقوم على نسق ثنائي. الأول المبادئ والسوابق، والثاني المقاصد واللواحق^(١). الأول يشبه المقدمات، والثاني النتائج. التقابل بين السوابق واللواحق ظاهر، وبين المبادئ والمقاصد أقل ظهوراً. والثاني أكبر من الأول. ويضم القسم الأول ثمانية أبواب. الأول عرض مضمون الكتاب. والثاني مكة والمدينة وقومه أي المكان والبيئة الاجتماعية. والثالث من بشر به قبل ظهوره أي التنبؤ بالمستقبل. وعلامات التاريخ. والرابع مولده ورضاعته. والخامس النسخ والختم أي ختم النبوة. والسادس المعجزات في حجمها الطبيعي دون تضخيم لتبليغ الرسالة كلها وتصنيفها طبقاً لمستويات الطبيعة. والسابع سيرته، فالسيرة جزء من شخصه وهي أكبر الفصول، وأخيراً الثامن الإسرائ والمعراج^(٢).

. والثاني، المقاصد واللواحق أقل وضوحاً في الرؤية وأكثر اضطراباً في البنية موزع بين الفصول والأبواب بلا ترتيب، ومتداخلة فيما بينها وبلا ترقيم. فصل عن الجهاد ولا يرتبط ارتباطاً مباشراً بالسيرة^(٣). ثم باب ما اشتهر من سيرته إلى وفاته وهو في علم السيرة وهو أكبر الأبواب^(٤). وتكرار للباب السابع من السيرة من القسم الأول. وهو أكبر الأبواب. ثم يأتي تذييل به ستة فصول دون ترقيم، في وجوب نصيب الإمام، وشروط الإمامة، والإمام الحق بعد الرسول، وفضل الخلفاء الأربعة، وفضل الصحابة،

(١) السابق، المبادئ والسوابق ص ٥٣-٢٣٤ (١٨١ ص) الثاني: المقاصد واللواحق ص ٢٣٧-٥١٢ (٢٧٥ ص).

(٢) ١- سرد مضمون الكتاب ص ٥٩-٨٠ (٢٢ ص)

٢- شرف مكة والمدينة بلدي مولده ونشأته ووفاته وهجرته وشرف قومه، ونسبه ومآثر أبائه وحسبه ص ٨١-٩٦ (١٦ ص).

٣- من بشر به قبل ظهوره ص ٩٧-١٠٤ (٧ ص).

٤- مولده ورضاعته ونشأته إلى حين بعثته، ص ١٠٥-١٢٢ (١٧ ص).

٥- نسخ دينه لكل دين، وختم النبيين، وعموم رسالته وتفضيله على جميع النبيين والمرسلين ص ١٢٣-١٣٨ (١٥ ص).

٦- معجزاته المشهورة وعلامات نبوته في حياته ص ١٣٩-١٧٢ (٣٤ ص).

٧- سيرته من حسن بعثته إلى هجرته ص ١٧٣-٢١٥ (٤٣ ص).

٨- عجائب حديث الإسرائ وأسراره وغرائب ص ٢١٦-٢٣٤ (١٩ ص).

(٣) فصل في الجهاد، السابق ص ٢٤٢-٢٥٢ (١٠ ص).

(٤) باب في ما اشتهر من سيرته إلى وفاته، السابق ص ٢٥٣-٣٩٤ (١٤٢ ص).

وأدلة فضل الخلفاء الأربعة مما يدل على البيئة السنية الشيعية، الشافعية والزيدية في اليمن^(١). ثم يأتي بابان. الأول في أحواله النفسية حسن خلقته، وحسن خلقه ووفور عقله، وحسن عشرته، وسماحة وجوده، وشجاعته وزهده^(٢). والثاني أقواله القدسية ويضم عشرة فصول: سوابق الصلاة، والصلاة، ولواحق الصلاة، والمرضى وتوابعه، والسفر، والحج، والجهاد، والمعاش، والمعاشر، وكفارة المجلس^(٣). والثاني أكبر من الأول. فالسيرة تتأرجح من الرسالة والرسول بين القضية والشخص. ولا يوجد فصل عن الشهادة مع باقي الأركان الأربعة. والأقوال القدسية مجرد أحاديث وأدعية، نموذج للعلوم الثقلية وليس العقلية. وكثرة الأدعية هي التي تحولت إلى توكل الصوفية حتى الدعاة أو الأدعياء المحدثين^(٤).

والأسلوب حديث مثل السير الحديثة^(٥). وتلحق بها الخرائط المصورة^(٦). والأسلوب أدبي واضح يخاطب القارئ الحديث، والاقتصار على الدلالات دون الرصد التاريخي المصمت. وتبرز الدلالة في «فائدة». ويتبع أحيانا أسلوب مخاطبة القراء «إخواني». ويحيله إلى العلماء، وعلماء السير، وأهل السير، والمفسرون والمحققون^(٧).

(١) في وجوب نصب الإمام، السابق ص ٣٩٧-٣٩٨، شروط الإمامة ص ٣٩٩-٤٠٢، الإمام الحق بعد الرسول ص ٤٠٣-٤٠٦، فضل الخلفاء الأربعة ص ٤٠٧-٤٠٩، فضائل الصحابة ص ٤١٠-٤١١، أدلة فضل الخلفاء الأربعة ص ٤١٢-٤٢٢.

(٢) أحواله النفسية، السابق ص ٤٢٥-٩٣٨ (٥١٤ ص).

(٣) أقواله القدسية، السابق ص ٤٢٩-٥١٢ (٨٤ ص).

(٤) مثل عمرو وخالد وباقي مشايخ الفضائيات.

(٥) وهي سير طه حسين وعبد حسين هيكل والعقاد والشزقاوي ونظمي لوقا وخلف الله.

(٦) «بيان وضع شبه الجزيرة العربية، وتقسيماتها السياسية، ومنازل أهم القبائل قبل البعثة، وطريق هجرة النبي من مكة إلى المدينة، والسرايا والغزوات قبل غزوة بدر، وغزوة بدر الكبرى، وغزوة بني قينقاع، والسرايا والغزوات بين بدر وأحد، وغزوة أحد، والسرايا والغزوات بين أحد والخندق، وغزوة بني النضير، وغزوة الأحزاب أو الخندق وإجلاء بني قريظة، والسرايا والغزوات بين الخندق والحديبية، وغزوة بني المصطلق، وغزوة الحديبية، وفتح خيبر، والسرايا والغزوات ضد اليهود، وغزوة مؤتة، والسرايا بين الحديبية وفتح مكة، وسرايا تكسير الأصنام، والسرايا والغزوات بعد فتح مكة، وغزوة تبوك، وكتب الرسول إلى الملوك، وانتشار الإسلام عام الوفود، وحجة الوداع، ومناسك الحج، والمواقيت وأعلام الحرم، والطرق المؤدية لها، النبي المختار ص ٥٢٩-٥٥٩.

(٧) فائدة (٤٢ مرة)، فائدة أخرى، فائدة عظيمة (١) فائدتان (١)، قال العلماء (٣٧)، قال علماء السير (١٢)، قال أهل السير (٣)، قال المفسرون، قال المحققون، قال أهل السنة (١).

وللحديث الأولية على القرآن والشعر. والقرآن له الأولوية على الشعر^(١). القرآن هو المصدر الأول. وفي الشعر قصائد طويلة^(٢). وتذكر درجات صحة الحديث^(٣). والصحيحان هما المصدر الرئيسي للحديث والتاريخ^(٤). ويضاف إلى القرآن والحديث والشعر المصادر التاريخية مثل القرطبي أو الترائية مثل الغزالي^(٥). وتتناقض عديد من الروايات في الحديث أو التاريخ مثل تناقض الروايات في إيمان الأم^(٦). فالرواية تدل على الوعي الذاتي بالموضوع وليس فقط على تواصل السند أو صحة المتن^(٧). وكثرة الاختلاف في الروايات تدل على أنها روايات وليست حقائق.

وتظهر بدايات النقد العقلي في الشروح والتعليقات على الروايات. وهي بدايات التفكير والتحول من العلوم النقلية إلى العلوم العقلية والتعليق بلفظ «قلت» في مقابل «قال المفسرون» أو «المحدثون» أو «العلماء». ويدل على اختلاف الآراء. ومع ذلك تظل السيرة دفاعاً عن الرسول ضد متقديه خاصة في علاقاته النسوية، زينب وعائشة^(٨). كما يُجَال إلى قصيدة البردة لمذح الرسول.

ج- «النبى الأعظم» لأحمد الأميني النجفي^(٩)

والعنوان مازال يدل على التفخيم والتعظيم، «النبى الأعظم» مثل «النبى المختار». ويتردد مصطلح النبى الأقدس مئات المرات لوضع حالة من التقديس حول النبى. وهو جزء من كتاب «الغدير» في التاريخ من وجهة نظر الشيعة. وهو الجزء الأول من «سلسلة الغدير الموضوعية». والغدير رمز مقدس عند الشيعة، وهو المكان الذى صرح

(١) الحديث (٣٨٥)، القرآن (٣٤٩)، الشعر (١٣).

(٢) النبى المختار ص ٧٩-٨٠ / ٨٦-٨٧ / ٧٩-٩٠ / ٩٢.

(٣) السابق ص ٢٥٢.

(٤) السابق ص ١٣٩.

(٥) القرطبي، السابق ص ٢٥٩، الغزالي ص ٢٥٩.

(٦) السابق ص ١١٣-١١٥.

(٧) من النقل إلى العقل ج٢، علم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن.

(٨) النبى المختار ص ٣١٩-٣٢٠.

(٩) أحمد الأمين النجفي (العلامة الشيخ عبد الحسين): النبى الأعظم، سلسلة الغدير الموضوعية (١)، الإعداد

والتحقيق محمد حسين الشافعي الشاهرودي، مؤسسة مبرات النبوة، قم، رمضان ١٤٢٧ هـ.

فيه الرسول لعلي أنه وليه في حديث الغدير المشهور «أنت وليي وخليفتي من بعدي» والذي تعتمد عليه الشيعة في إثبات أحقية علي في الخلافة بعد الرسول بدلا من الخلفاء الثلاثة، أبي بكر وعمر وعثمان. ولا فرق في تشخيص في الرسول بين السنة والشيعة وربما الشيعة أكثر لأنها تشخص الرسالة في الرسول ثم في علي. وشاغل الرسول تمتد إلى شياغل الإمام وباقي الأئمة السبعة أو الاثنى عشر كما تمتد عند السنة في الصحابة والتابعين وآل البيت.

وفي كلتا الحالتين تغيب الرسالة ويحضر الرسول. ثم يغيب الرسول ويحضر علي وفاطمة والحسن والحسين وآل البيت بدلا من الصحابة والخلفاء الأربعة. بل يصل التعظيم والتقدس عند الشيعة إلى درجة التأليه. فالنبي الأقدس. وليس فقط تشخيص الرسالة في الرسول بل أيضا تشخيص الكون والأخرويات فيه.

ويتضمن عشرة موضوعات مرتبة أبجديا: فضله، زواجه، التسمية باسمه، الخط من مقام النبوة، الاجتهاد ضد الرسول، الكذابون الوضاعون، الموضوعات، حجة الوداع، زيارته، كلماته^(١). وكلها حول شخصه ولا شيء حول الرسالة. أكبرها الخامس، الاجتهاد ضد الرسول. وأصغرها زواجه.

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر العربي وأقلاها الفارسي^(٢). وتستعمل بطريقة انتقائية، ما يفيد نقد السنة، وما ينفع في الدفاع عن الشيعة. ويصل الأمر إلى حد التجريح

(١) أ- فضله ص ٢٥-٣٢ (ص ٨).

ب- زواجه ص ٣٤-٣٦ (ص ٣).

ج- استجاب التسمية باسم النبي الأعظم ص ٣٧-٤٢ (ص ٦).

د- كلمات وروايات تستلزم خطأ من مقام النبوة ص ٤٣-١١٠ (ص ٦٨).

هـ- الاجتهاد في مقابل رسول الله ص ١١١-٤٥٦ (ص ٣٤٦).

و- سلسلة الكذابين والوضاعين ص ٤٥٧-٤٧٢ (ص ١٦).

ز- سلسلة الموضوعات على النبي الأمين ص ٤٧٣-٤٧٦ (ص ٤).

ح- رحلته وما جرى على أهل بيته بعده ص ٥٧٧-٧٠٠ (ص ١٢٤).

ط- زيارته ص ٧٠١-٧١٦ (ص ١٦).

ي- كلماته ص ٧١٧-٧٨٠ (ص ٦٤).

(٢) الشعر العربي (٤٥)، الفارسي (١).

والسب واللعن مما يتنافى مع قواعد النقد، ويخرج عن موضوع السيرة. فالسيرة هنا مجرد مناسبة لإظهار الخلاف بين الفريقين الكبيرين عند المسلمين. وتستعمل كل مناهج التأويل، إعادة تأويل نصوص أهل السنة التي يعتمدون عليها دفاعا عن مواقف الشيعة، وإعادة استخدام شواهدهم ضدهم. كل فريق يضعف روايات الفريق الآخر، الشيعة تضعف روايات السنة، والسنة تضعف روايات الشيعة. لا تنقد روايات الشيعة في علي ولا حتى روايات أهل السنة. وتتوالى الروايات في مدحه بلا نقد^(١). كل رواية الشيعة ثقات، وكل رواية السنة ضعاف إلا ما كان يوافق التشيع^(٢). يُنقد ابن تيمية في نقده الراضية. ويقتبس منه في منهاج السنة تدعيما للشيعة فلا يوجد موقف واحد من الرواية^(٣). وتتناقض الروايات في معاوية بين الذم والمدح. ولا يأخذ الشيعة إلا الذم دون المدح^(٤).

يمدح ما يتفق مع هواه ويذم ما يخالفه. تنقد الأحاديث في فضل الخلفاء الأربعة ولا تنقد الأحاديث في فضل علي. وهو ما يفعله أهل السنة أيضا بنقد الأحاديث في فضل علي وعدم نقد الأحاديث في فضل الخلفاء الأربعة^(٥). وتكبير فضل علي عند الشيعة مثل تكبير فضل الصحابة عند السنة. وتكرر الأحاديث الموالية للشيعة أكثر من مرة لأنها هم على القلب أو الأحاديث المضادة للأمويين حتى يسهل تخليص الساحة من الخصوم. ولا يُكفى بالشعر بل يضاف إليهم شراح الدواوين^(٦).

وتُرصد الحجج الثقيلة، الآيات والأحاديث تباعا، واحدا تلو الآخر خارج سياقها وأسباب نزولها وكأنها كافية بذاتها دون إعمال للعقل في التعرف على سندها ولغتها وقصدها. ولا فرق بين الشيعة والسنة في ذلك، بين الأميني وابن تيمية^(٧). وترد

(١) النبي الأعظم ص ٣٨٤-٣٨٨.

(٢) السابق ص ٥٣٩.

(٣) السابق ص ٥٥١.

(٤) السابق ص ٥٥٥.

(٥) السابق ص ٧٢٠-٧٨٠.

(٦) مثل شرح ديوان أبي تمام، السابق ص ٥٨٠.

(٧) السابق ص ٥٨٤-٦٥٠ / ٧٠٥-٧٨٠.

الأحاديث بكل صياغتها. ويمكن أن تكون قد قيلت في مواقف مختلفة. وإذا كان موضوعها خارج نطاق الحسي مثل الإسراء والمعراج تكثر هذه الصياغات لأن أحدا لم يشاهد أو سمع وبالتالي تترك الفرصة للخيال كي يبدع صورا جديدة.

وتوضع الأحاديث من الفريقين، السنة والشيعة، السنة دفاعا عن السلطان، والشيعة دفاعا عن المعارضة، فكل فعل له رد فعل^(١). السيرة حجاجية، الشيعة ضد السنة، هجومًا على الصحابة، ودفاعا عن علي، تضعيفا لروايات السنة وتقوية لروايات الشيعة. ويفعل أهل السنة نفس الشيء، تضعيف روايات الشيعة، وتقوية روايات أهل السنة. ويتقد الشيعة روايات أهل السنة، ولا يتقدون رواياتهم الخاصة البديلة. كما يتقد أهل السنة روايات الشيعة، ولا يتقدون روايتهم الخاصة بهم. كل شيء يقوله علي صحيح، ولا تخضع رواياته للنقد. في حين يشكك من حيث المبدأ في كل روايات أهل السنة^(٢). تحولت السيرة والرسول إلى ساحة للجدال العقائدي بين الفرق الكلامية، اتهم السنة للشيعة بأنهم رافضة كما فعل ابن تيمية أو إمامية، واتهام الشيعة السنة بأنهم أموية^(٣). فالسيرة ليست سيرة موضوعية بل جدلا من الشيعة ضد السنة^(٤).

تحولت السيرة إلى تاريخ خلافي وكيفية تدوينه. وضاعت دلالة السيرة ودلالة الرسول مبلغ الرسالة وأداتها. وكل الخلاف في قراءة التاريخ أو في قراءة النص أو في فهم الواقع. وتثبت الخلافات القديمة مثل من أول من أسلم؟ أبو بكر عند السنة وعلي عند الشيعة؟ وما دلالة هذا الخلاف الآن إلا بث الفرقة بين المسلمين وإثارة النزعات القديمة. تؤجج السيرة الفتنة، وتثير الضغائن القديمة التي تحاول كل حركات الإصلاح والتقريب تجاوزها. خرجت السيرة عن مسارها، الرسالة والرسول. ودخلت في الصراع القديم الذي نشأ بعد وفاة الرسول وانتصار السيرة وانتشارها بعد فتح مكة. تحولت السيرة إلى مناسبة لإعادة الصراع بين علي ومعاوية، بين السنة والشيعة، لم تستطع تجاوز الخلافات

(١) السابق ص ٦١٥.

(٢) السابق ص ٣٢٥.

(٣) السابق ص ٣٩٦.

(٤) السابق ص ٦٤٧.

القديمة التي عمرها عمر الرسالة ذاتها. انحرفت السيرة عن موضوعها إلى موضوع الشرعية في حياة الرسول وبعده.

تحولت السيرة إلى خلاف في التأويل وفي فهم النصوص. فلكل فريق تأويله وموقفه من النص واللغة. وغير الشيعة مناط الآية، وطبقوها على واقعهم الشعوري وليس على الواقع الأول في أسباب النزول، وإيجاد دلالتها العامة وليس حكمها الخاص الأول طبقاً لقاعدة «خصوص السبب وعموم الحكم». أصبحت السيرة نموذجاً للعلوم النقلية التي تعتمد على النصوص بالإضافة إلى الجدل والمحااجة ضد الخصوم. فبدلاً من العقل مع النقل دخل الهوى من النقل. وبالرغم من استعمال أسلوب القدماء بالإعلان عن بداية الفقرة بقول المؤلف «قال أبو محمد»، «قال أبو علي» عند أهل السنة أو «قال الأميني» عند الشيعة. فإن ما يأتي بعد القول لا يعبر عن رأي خاص بل مجرد رصد للشواهد النقلية برواياتها الخاصة^(١). وتؤول الروايات طبقاً لما يريده الشيعة وقراءتهم للوقائع. ويُركب القرآن على الحوادث كما يؤولها الشيعة. فالتأويل مزدوج. تأويل النص وتأويل الواقع. وكلاهما قراءة^(٢).

وتستعمل الآيات في غير أسباب نزولها، مجرد أشكال وصور يتم تركيبها على أي موضوع طبقاً لهوى المفسر^(٣). ويتم شرح الحديث بتحقيق مناطه أي مضمونه خارج النص وواقعه المتعين. ويتم ذلك مع كل النصوص، القرآن أو الحديث. ويبقى أهل السنة النص على عموميته ودلالته بالرغم من أسباب النزول^(٤). وذلك مثل «علي في السحاب»، وتفسير المولى بالتجربة والواقع^(٥).

والخلاف في الاجتهاد لا يقل عن الاجتهاد في فهم النصوص. فالنقل مثل العقل يقوم على الاجتهاد وإعمال الرأي. ونقد الانتخابات واختيار الإمام لا يقل عن نقد النص في

(١) السابق ص ٣٨/٧٣٢.

(٢) السابق ص ٣١٥/٣٢٧.

(٣) السابق ص ٣٤٩.

(٤) السابق ص ٥٦٨/٦٠٨.

(٥) السابق ص ٦١٧-٦١٨/٦٣٥.

تعيينه حول تحقيق مناطه وتخريجيه. وهل المقصود شخص بعينه في الزمان والمكان أو شروط عامة تتوافر في شخص في أي زمان ومكان؟^(١). والتؤول الآيات طبقاً لما تريده الشيعة وقراءتهم للوقائع. فالقراءة محكومة من قبل بالأهواء والرغبات والميول^(٢). فكل الآيات التي تمدح فريقاً من المؤمنين هم. ويعاد توظيف التراث القديم كله في جدل السنة والشيعة خاصة التراث العقائدي عند الأشاعرة، الغزالي، والباقلاني، والشوكاني، والتفتازاني، والإيجي، والتراث التاريخي مثل القرطبي^(٣). ويتعامل معه انتقاء. يذكر ما يتفق مع آرائه أو مع من يخالفه^(٤).

كما يعتمد على السير الحديثة والشعر الحديث المادح والرسول وللأئمة^(٥). ويرد على سير المستشرقين والكشف عن عدواتهم وللرسول^(٦). كما يتم الاعتماد على تفسير المنار إذا كان موافقاً للهِوى^(٧). وتستعمل بعض الألفاظ الحديثة مثل «دستوري»^(٨). وبالرغم من الرغبة في التحديث والاعتماد على سير وشعر المحدثين إلا أن الإطار التاريخي العام هو الإطار القديم، إطار الفتنة الأولى والخلاف على إمامة عثمان، وشرعية الخروج عليه، والخلاف بين علي ومعاوية.

وبالرغم من الثورة ضد الظلم والدفاع عن الحق إلا أن النص موجه ضد الاجتهاد. واعتبار الشيعة أهل النص والسنة أهل اجتهاد لا يزيد من شرعية الشيعة ولا يقلل من شرعية السنة. فالاجتهاد أصل من أصول التشريع، الجماعي في الإجماع أو الفردي في الاجتهاد مثل النص سواء في القرآن أو في الحديث. صحيح أن الاجتهاد قد يخطئ، وهو أمر طبيعي لأنه جهد إنساني ولكن الصواب متعدد. وللمخطئ أجر وللمصيب أجران.

(١) السابق ص ١٢١-١٢٢.

(٢) السابق ص ٣١٥.

(٣) الغزالي في الأحياء، السابق ص ١٩٣، الباقلاني ص ١٢٣، التفتازاني ص ١٢٥، الإيجي ص ١٢٦، الشوكاني ص ٥٥/٧٥، القرطبي ص ١٢٨.

(٤) يذكر الغزالي ص ٣٥٧، الماوردي ص ٣٥٨، الجويني ص ٣٨٢، الجاحظ ص ٢٩٨.

(٥) مثل شاعر النيل، السابق ص ٦٨٥، «وظهر الإسلام» لأحمد أمين ص ٦٢٦.

(٦) مثل كتاب «محمد» أي لإميل دير منجم، النبي الأعظم ص ٤٣.

(٧) السابق ص ٧٤٦.

(٨) السابق ص ٦٨٧.

وصحيح أيضا أن الاجتهاد قد يكون لصالح السلطان ضد الصالح العام، ولكن هناك أيضا الاجتهاد لصالح الناس في مواجهة فقهاء السلطان. والخلاف في الاجتهاد جزء من الصراع السياسي: فكل اجتهاد يعبر عن قوة سياسية. المهم أن حل الخلاف يكون بالحوار، وتبادل وجهات النظر، والوصول إلى حلول مشتركة وليس الاقتتال وإسالة الدماء. وإذا كانت النية تحرير المجتمع من التسلط فإن العثمانيين أحد مظاهر السلطة^(١). لذلك دعت كل الحركات الإصلاحية إلى التحرر منها^(٢).

ونتيجة السيرة هي مقدماتها وليست نتيجة للبحث التاريخي الموضوعي المخايد بالرغم من أن اسم السلسلة «سلسلة الغدير الموضوعية» وهذه خطورة السيرة العقائدية^(٣).

د- «الأيام والساعات الأخيرة في حياة محمد» للطرشان^(٤)

وأسوة بفيلم «الأيام الأخيرة ليسوع المسيح» كتب أحد المحدثين، وفي ثقافة الشهادة والعزاء، وقد يوحي ذلك بأن التوجه شيعي بالإضافة إلى ثقافة البكاء، وطبع على أوراق بخلفية سوداء. والغلاف مجلد بلون أسود. وهي «أول موسوعة معاصرة تجمع كل ما ورد عن رسول الله من قول أو فعل أو وصية في آخر حياته» دون تبرير لماذا في آخر حياته دون أولها أو وسطها إلا لتواصلها في الخلافة عند السنة أو الإمامة عند الشيعة». وهي «دراسة توثيقية معرفية متكاملة»، وكان القدماء خاصة المؤرخين منهم لم يوثقوا شيئا في حياة الرسول قبل البعثة وبعدها، أولها ووسطها وآخرها بل واستقرارها في الخلافة.

يصدرها وزير الثقافة^(٥). والإهداء إلى دمشق الشام التي تحب محمداً وكان دمشق

(١) ترمز العثمانيين للسلطة الدينية عند الشيعة، السابق ص ٦١٧.

(٢) قال محمد عبده: إنها هو دين أردت صلاحه. : أخاف أن تقضى عليه العثمانيين.

(٣) النبي الأعظم ص ٣٣٣.

(٤) الطرشان (محمد خير): الأيام والساعات الأخيرة في حياة محمد، مركز الناشر الثقافي، دمشق ٢٠٠٨م،

١٤٢٨هـ-١٤٣٩هـ (٩) ومن منشورات «مركز الذاكرة العراقية».

(٥) هو د. رياض نعيان أغا. والطباعة فاخرة وملونة مما يدل على أنها مدعومة ماليا من السلطة السياسية، ومهداة إلى الدكتور أحمد حسون المفتي العام للجمهورية العربية السورية مما يدل على موافقة السلطات الدينية. وميزته أنه «حرك عواطف المسلمين وألهم مشاعرهم بدروسه وخطبه عن وفاة الرسول» وكان إلهام الشاعر يغني عن النقد العقلي والتحليل العلمي. وهناك مقدمة للناشر أيضا علاء الدين آل راشي، يعبر فيها عن نفس الروح وكأنه على سابق اتفاق، السابق ص ٥-١٠، فالناشر مفكر وصاحب موقف.

أكثر من القاهرة والخرطوم وتونس وفاس إلا إذا كان الهدف سياسياً، الجمع في دمشق بين السلطتين الدينية والسياسية منذ أيام معاوية. ومن المهدى إليهم الكتاب بجوار دمشق الشام ومفتي الجمهورية الإنسان، صاحب المثل الأهداف والرسالات مثل الرسول. وهي لا تتحقق في أواخر حياته فقط بل في أولها ووسطها أيضاً^(١). الهدف هو التعظيم والمدح للرسول مثل المدائح النبوية شعراً ونثراً، في أشعار أو أدعية كما هو الحال في أجهزة الإعلام في المناسبات الدينية خاصة المولد النبوي. لذلك غلب على الأسلوب التقريظ والخطابة.

ويتم التركيز على أفعال وأقوال الرسول في الأيام التسعة الأخيرة دون استنباط دلالاتها على نطاق واسع. فزيارة أحد تكريم للشهداء الذين سقطوا ساعة العسرة وفي وقت الهزيمة. والاشتياق إلى الإخوان تعني أن الصحبة الحقيقية هي استمرار صحبة الأرض في صحبة السماء. واستئذان زوجاته تعني الحنين إلى الصحبة الخاصة بعد الصحبة العامة. والخشية على تنافس الأمة تعني هم الرسالة ومستقبلها وهو ما يتفق مع شعاري الكتاب أن الرسالة أبقى من الرسول، وأن الرسول فان، والرسالة خالدة. والتأكيد على الصلاة يعني أهمية الاتصال اليومي عدة مرات بالرسالة، وعدم نسيانها، والتحقق بأفعالها. والرفيق الأعلى يعني أنه مصير كل شيء، ونهاية كل شيء، فالله هو البداية والنهاية. وهي معانٍ تقليدية لا جديد فيها، يعرفها الوعاظ من حياة الرسول ومبادئ الرسالة. كله حول شخص الرسول، شخصيته وسلوكه والأيام الأخيرة، والساعات الأخيرة، وآثاره.

والعجيب أن شعار الكتاب المطبوع في أعلى كل صفحة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ضد تشخيص الرسالة في الرسول، وآية أخرى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمَاتٌ﴾، الأولى أعلى الصفحة اليسرى، والثانية أعلى الصفحة اليمنى^(٢).

(١) «وللى الإنسان الذي يتطلع إلى مثل رسالة وهدف في حياته. تقدم وصادق محمداً، تصدق في حياتك».
(٢) «هون عليك فإنني لست بربك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»، السابق ص ١٦٣، «إني أوعك كما يوعك رجلا منكم»، ص ١٦٤ اللهم إنما عمده بشر يغضب كما يغضب البشر. وإني قد أخذت عندك عهداً لن

والفصول ستة غير متساوية. أكبرها الخامس الرسالة والرسول. وهو الموضوع الرئيسي في محوري علم السيرة^(١). الأول شخصية الرسول مع القرآن كمعجزة الإسلام الخالدة. والقرآن رسالة مستقلة عن شخص الرسول كمبلغ لها. يوصف الجسد وليس فقط صفات النفس. وتستخرج الدلالات للمسلم المعاصر، أكثرها في العرض دون الجوهر. ويذكر الإنسان عرضاً. وأهم التعاليم الجمع بين جمال الظهر والمخبر، والعقل والعضل، والتحكم في السلوك وأولوية العقائد والخلال على الملابس والفعال. والإنسان جوهر الإسلام، واللطف مع الناس، والوعي بالنفس، والثقة بالإرادة، وصلاح الذات والغير^(٢).

والثاني تساؤلات حول سلوك الرسول والجانب الجهادي في شخصيته. والتعاليم الخلقية للمسلم المعاصر هي أن الرسول رجل رسالة بامتياز، جدير بالحب. يبين أهمية الحكمة والاقتناع، وعدم اللجوء إلى الحرب إلا استثناء، وعدم السيطرة على الشعوب بل توحيدها تحت مبدأ واحد، وأهمية الإيثار، والثقة بالله والتوكل عليه، وحسن الظن به^(٣).

والثالث الأيام الأخيرة مجملة. والدروس المستفادة منها أن سكن المعرفة يطرد قلق الحيرة والجهل، وأن الرسالة روح وموقف وليست شكلاً لا يعرف، وتذكر وصايا الرسول في أحلك اللحظات، وبناء التدين على الشرع، والبداية بالنفس ثم الأسرة، وتحقيق أهداف الحياة، والاعتماد على العقل، وحسن معاملة النساء، وتمثل العزة والضراعة والتواضع والعفو والتسامح، والوفاء للفكر، واختيار أصحاب الكفاءة وليس كبر السن ولا صغره، والحوار مع الزوج، وخشية يوم الحساب من عصيان الله وإيذاء البشر^(٤).

تخلفنيه. فأيا مؤمن آذيت أو سبته أو جلده فاجعلها له كفارة وقرية، تقر به إليك يوم القيامة»، السابق ص ١٦٤.

(١) الأول (عدد الصفحات) (٥)، الثاني (١١)، الثالث (١١)، الرابع (٩٢)، الخامس (١٣٤)، السادس (٣٧).

(٢) الأيام والساعات الأخيرة ص ١٣-١٧.

(٣) السابق ص ٣٧-٤٧.

(٤) «لم يخلق النبي على نفسه صفات الألوهية بل هو عبد الله»، السابق ص ١٦٣، «رغم علو مكانه وسمو خلقه الشريف فإنه لم يتخط خصائص البشرية»، ص ١٦٤.

والرابع تفاصيل الساعات واللحظات الأخيرة في حياة الرسول: زيارة القبور، رعاية المسجد، الظهور العلني الأخير، وفاته، دفنه، إعلام الله للوفاة، مرضه، غسله، موضع قبره، زوار قبره، كيفية الصلاة عليه وثواب الزوار^(١). وهي أمور تجسد الشخص وليس الرسالة وتمهد لزيارة القبور.

والخامس، الرسالة والرسول، المحوران الرئيسيان للسيرة. يتضمن موضوعات غيبية مثل عالم الغيب، الألوهية والربوبية والنبوات، وختم النبوة وعموم الرسالة الإسلامية، ثم القرآن كمعجزة للرسول، وتكفل الله بحفظه وأثره في تبصير الإنسان، وخلوه من التعارض، ورفض الإعجاز الرياضي، وإثبات معجزات الرسول الحسية^(٢).

والسادس وهو الأخطر صور وآثار الرسول^(٣). وقد أدى ذلك إلى تقدس رفات

(١) ثم منهج الرسول في العبادة والرحمة والإيمان والنبوة، ثم فضل الصحابة ووجوب محبتهم وصفاتهم، وطاعتهم لله وتحريمهم للدعوة للإسلام وفضل الهجرة، والتعاليم المشتقة هي مساعدة التوحيد على تفتح الوعي الإنساني، والتركيز على ذات الإنسان وعالمه في الأدبيات الإنسانية، إهمال لعلاقة بالخالق، والتربية الإسلامية طبقاً لمنهج الأنبياء، رقي السلوك، التفكير التأمل، صفاء العقيدة، الوحي طريق لمعرفة الغيب وليس قوى الإنسان الداخلية، نسيان الرب، ضياع النفس، حرية الإنسان في التعرف على الله، المضامين الاجتماعية والسياسية في الإسلام، الألوهية والربوبية، العبادة شكر، الأدلة الكونية على وجود الله، الأدلة النفسية، وحدة الأديان، الرسول آخر الأنبياء، النبي ليس إلهاً، مشاوراة الصحابة، شكر الله، هداية الله وشرعه، الاعتزاز بالإسلام كحضارة إنسانية، عدم اعتراف التوحيد بالطبقية أو العنصرية، رفض الإيمان للأوضاع الظلمة، طريق السنة أقصر الطرق، تصفية المشاعر، الخلوة، الانتقال من الرواية إلى الدراية، جمع القرآن وقت الخلفاء الأربعة، أفضل كتاب للبشرية، علم النفس القرآني، الصراحة والحق، التوبة، وظيفة الرسل تبصير العباد، أتباعه السلف في طرق البحث والاستنباط في الروايات. عدم وجود الغاز في القرآن، الإعجاز في التنظيم والأسلوب، مراعاة المصلحة والتيسير ورفع الحرج ومنع التعسف والظلم، القرآن خالد كالرسالة، التسليم للوحي والنبوة، المعجزات الحسية وإيمان الصحابة بها، إقامة الفرائض، حب الله وعبادته وتأثر الرسول به وتوثيق الصلة بالله، القناعة، الاطمئنان، الاستغفار والاستقامة، التوبة، سمو المشاعر، العزم والرفض، الإحسان، تعلق الصحابة بالرسول وحيه، الحكمة والعلم، الذوق الرفيع، الالتزام بهدي الرسول، حسن معاملة الأزواج، حسن اختيارهن، الحذر من الإسراف، إكرام الضيف، التصديق، إبعاد الوسوس، البحث عن الدليل، غياب الكهنوت والتفويض الإلهي، التضحية، النية الصالحة.

(٢) السابق ص ٢٧٩-٣١٤.

(٣) بيت السيدة خديجة، مصلى الرسول في البيت، مدخل غرفة الرسول فيه، مكان مولد فاطمة، المحراب في مكان استقبال الوفود، مكان استقبال الوفود، غار حراء، غار حراء من الداخل، باب عائشة أو باب الوفود، الواجهة الشمالية للمحجرات المطللة على دكة التجهد وباب جبريل، الواجهة الغربية المطللة على الروضة الشريفة، باب فاطمة، الضبة والمفتاح، بئر غرس، بئر العهد، بئر البصة الكبرى، إناء النبي، مكحلة النبي، عمامة وبردة وعصا النبي، صندوق البردة، البردة، نعل النبي (الناسومة)، السبتية، اليمينية، راية النبي، سيف النبي (المأثور)، القضيب، قوس النبي، رسائل النبي، رسالة إلى ملك البحرين، رسالة إلى

القديسين، وتقديس كل ما ترك الرسول من سيف وعبامة ونعل وجبة وشعر. ولا يوجد في الهند مسجد أو مزار إلا وفيه أثر للرسول. وهي أربعة وثلاثون أثرا ورسما توضيحيان ومنها ما قد جُدد ولم يعد في شكله الأصلي. فقد أعيد ترميم بعضها^(١).

ويعتمد الكتاب على عديد من الآيات والأحاديث والأشعار، والأحاديث أكثر^(٢). والأشعار أقل مع أن الشعر أقرب إلى الوجدان الذي يود الكتاب إثارته، وجدان الحزن على فقدان الرسول. والأهم هو الدلالات التي تظهر في العناوين الرئيسية أعلى الصفحات وتحت الآيتين عن استمرار الرسالة بالرغم من وفاة الرسول. وهي مكتوبة في صيغة الأمر. موجهة إلى القارئ لتطبيقها في حياته العملية. وتبدأ بعض الفصول بالأشعار في حب الرسول مثل «بردة البوصيري» بل وتظهر في مقدمة الناشر^(٣). كما يُحال إلى بعض المحدثين الذين يشخصون الرسالة في الرسول^(٤). ولتجميل الطباعة الأحاديث بخط اليد وباللون الأخضر، والآيات بالحروف المطبوعة بالأبيض على الأرضية السوداء. وتضم حواشي الكتاب في آخر كل فصل^(٥). وتغيب الأحاديث من بعض الموضوعات كما تغيب أحيانا التعاليم الخلقية المعاصرة^(٦). وتختلف النسب بين الآيات والأحاديث والأشعار والتعاليم من فصل إلى فصل. النية تحقيقها كروايات، والانتقال من الرواية إلى الدراية^(٧).

الحارس الغساني، رسالة إلى مسيلمة الكذاب، والرسما التوضيحيان، الأول لمكان تجارة خديجة، والثاني لبيوت النبي.

(١) السابق ص ٢٩٠.

(٢) الأحاديث (٣١٩)، الآيات (١٩٣)، الدلالات (١٤٩)، الأشعار (٤).

(٣) الأيام والساعات الأخيرة ص ٨/ ١٠/ ١١/ ٣٥/ ٤٢.

(٤) هو الشيخ محمد الغزالي.

(٥) الأيام والساعات الأخيرة ص ٣١/ ١٣٧-١٣٩/ ٢٢٦-٢٧٣.

(٦) غياب الأحاديث، السابق ص ١٠١-١١٥، غياب التعاليم ص ٧٠-١٣٩/ ١٩٨-٢٠٤/ ٢٣٦-٢٣٩ «فمن قطعنا الصلة مع كثير من تعاليمه، وكذلك لم نقم بنشر أريج أيامه فقد اكتفينا بسرد تقليدي لسيرته أو تضخيم لجانب الغزوات على حساب دراسة جوانب أخرى مهمة في حياته المباركة. وفي الحقيقة لا يستوقفني ما يثار من قبل الآخرين حول صدق دعوة النبي، فنحن قبل أن نعمل على رد مكائد أو تحركات الخصوم لنقف قليلا مع ذاتنا كيف خدمنا سيرة ودين الحبيب المصطفى»، ص ٦.

(٧) «هل قمنا بالتمحيص للروايات ومراجعة الكثير من النصوص التي ألفنا تكرارها دون وعي لها؟ هل نخدم ديننا حقاً؟ متى نكف عن مجرد الرواية والرواية فقط إلى الدراية الواعية»، السابق ص ٦.

وبالإضافة إلى الموروث يظهر الوافد مثل تصدير الفصل الثاني بعبارة مدح لويل ديورانت^(١). وأحيانا يعتمد على الوافد فيما لا لزوم له مثل وصف واشنجطن ايرفينج مرض الرسول والساعات الأخيرة في حياته وهو ما يوجد لدى كتاب السير والتاريخ القدماء^(٢). وتستعمل ألفاظ معربة مثل «الإتيكيت» بمعنى الذوق الرفيع^(٣). ويستشهد الناشر بقول من كارلايل من كتابه «الأبطال والبطولة» على صدق الرسول^(٤).

٤ - المعجزات:

أ - «معجزات النبي» لابن كثير (٧٧٤هـ)^(٥)

والمعجزات موضوع يربط بين السيرة والشئال، إذ يدخل في كليهما. وأهم ما فيه هو البنية المحكمة وقسمة الشئال إلى حسية ومعنوية، المعنوية القرآن، خلق النبي وسيرته، والحسية السماوية والأرضية^(٦). ثم قسمتها إلى مستويات الطبيعة، الجهاد والنبات

(١) «إن عمدا هو أعظم عطاء التاريخ»، السابق ص ٢١.

(٢) السابق ص ٦٢.

(٣) السابق ص ٢٢٣.

(٤) «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث من أبناء هذا العصر إلى ما يصنع ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن عمدا خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالا خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليه هذه الملايين الفاتكة الحصر والإحصاء أكنوية وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل التصديق والقبول. فما الناس إلا به وبجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق»، السابق ص ٦-٧.

(٥) ابن كثير (الإمام الحافظ أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقي: «معجزات النبي»، تحقيق مجدي عماد الشهاوي، عالم الكتب، بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).

(٦) السماوية مثل انشقاق القمر والاستسقاء، والأرضية مثل تكثير الماء والأطعمة، والجهاد مثل تسبيح الحصى في كف، والنبات مثل انقياد الشجر للرسول وحنين الجذع، والحيوان سجود البعير والغنم للنبي، شهادة الذئب برسالته، قصص الوحش والأسد وأحاديث الغزاة والضب والحمار والحمة. والإنسان الكلام بعد الموت، وكلام الرضيع في المهد، وشفاء الصبي، واستئذان الحمى، وشهادة الأنبياء السابقين، وبشارات الكتب السابقة، وشهادة اليهود والأخبار بالغيوب، وآيات الأنبياء السابقين: نوح، هود، صالح، إبراهيم، موسى، إدريس، داود، سليمان، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية مثل الفتنة الكبرى، ومقتل الخلفاء، وغزو قبرص والمهند، وقتال الروم وترك. والإخبار عن خلفاء الأمويين والعباسيين، وظهور الأئمة.

والحيوان والإنسان. وأكبرها معجزات الإنسان وهي كرامات الأولياء^(١). والمعجزات هي الدلائل النبوية مع أن صدق النبوة في ذاته، باتفاقها مع العقل والواقع والتجربة الإنسانية.

وتعتمد على القرآن والحديث والشعر، والحديث أكثرها والقرآن أقلها^(٢). وكلها روايات وأخبار قصص وأحاديث وأقوال وأذكار مما يدل على الفارق بين الحدث وروايته^(٣). وتذكر الروايات دون نقد.

ب- «الفرج القريب في معجزات الحبيب» للأثاري (٨٢٨هـ)^(٤)

وهي قصيدة لمعارضة «الردة» للبوصيري أي على نموذجها. تركز على المعجزات، مائة معجزة في مائة وعشرين بيتاً. والعنوان دال على أن الإيمان بمعجزات الرسول يفرج الكروب ويشفي الأمراض كما هو الحال في الطب النبوي. فالرسالة والرسول كمحورين يتقلصان في المعجزات، وهي معجزات الحبيب. والحبيب دائماً قادر على إجراء المعجزات. فالحب يصنعها، والمحب يراها.

ج- «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٩١١هـ)^(٥)

وكلما تقدم التأليف في سير الخصائص والشمال وامتد الزمان زادت المعجزات على الأفعال الإنسانية، وتضخم الجانب الإلهي على الجانب الإنساني، وطفئ الجانب الأسطوري على الجانب التاريخي. فمن ستة عشر موضوعاً يضمها الكتاب ثلاثة عشر

(١) الحسية ص ٢٧-٥١، المعنوية ص ١٣-٢٤، الجهاد ص ٥٢-١١٢، الحيوان ص ١١٣-١٤٢، الإنسان ص ١٤٢-٣٣٨.

(٢) الحديث (٣٥٢)، القرآن (٢١٩)، الشعر (١٤).

(٣) خبر (٢٣)، قول (٩)، قصة (٥)، حديث (٤)، كلام، ذكر (١).

(٤) الأثاري (زين العابدين شعبان بن محمد)، خمسة نصوص إسلامية تادعة في معجزات الرسول وفضائله وفضل الصلاة والسلام عليه، حررها وقدم لها هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م ص ١٥-٢٠.

(٥) السيوطي (جلال الدين): الخصائص النبوية الكبرى المحي كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (جزءان)، تحقيق وتعليق، دكتور حمزة النشري، الشيخ عبد الحفيظ فرغلي، دكتور عبد الحميد مصطفى، المكتبة القيمة، القاهرة (د.ت).

منها في المعجزات. واثنين في فضله على سائر الأنبياء، وواحد في الواجبات والمحرمات والمباحات والكرامات على طريقة ابن الملقن^(١). والموضوع ليس بابا أو فصلا بل «ذكر». وأكبرها المعجزات في خلقه أي في شخصه ثم في غزواته أي في لب سيرته ثم في إخباره بالمستقبل. وكل موضوع يتكون من عدة أبواب^(٢). والكتاب على هذا النحو يلا هيكل أو بنية. وتتعدد أشكاله الأدبية بين «ذكر» و«باب» و«فائدة» و«قصة».

والعنوان يوحى بالتركيز على الرسول وليس على الرسالة، فقد ابتلع الرسول الرسالة. والرسول له خصائص كبرى. والعنوان الفرعي «كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب» يدل على لقب الرسول عند الصوفية، والطالب اللبيب هو المرید. والإهداء إلى الرسول اقتباسات من القرآن والحديث والشعر متقاة سلفا تدل على تعظيم الرسول وتقديسه أكثر مما تدل على إنسانيته. وهي كثيرة أيضا^(٣). منها الاصطفاء، ومنها

- ١- المعجزات والخصائص في خلقه الشريف (٢٨٠ ص).
- ٢- المعجزات الواقعة في الغزوات (٢٤٠).
- ٣- المعجزات التي وقعت عند وفادة الرفود عليه (٥٧ ص).
- ٤- بقية المعجزات (٣١).
- ٥- المعجزات في ضروب الحيوانات (٣٨).
- ٦- المعجزات في أنواع الجهادات (٢٢).
- ٧- المعجزات في رؤية المعاني بصورة الأجسام (١١).
- ٨- المعجزات في رؤية أصحابه الملائكة وسباع كلامهم (٧).
- ٩- المعجزات في رؤية أصحابه من الجن وسباع كلامهم (٨).
- ١٠- المعجزات فيما أخبر به من المغيبات (٢٠).
- ١١- المعجزات فيما أخبر به من الكوائن بعده فوقع كما أخبر (١٢٥).
- ١٢- المعجزات في إجابة الدعوات (٣٦).
- ١٣- آيات في منامه رؤيته في عهده (٧).
- ١٤- موازية الأنبياء في فضائلهم بفضائل نبينا (١١).
- ١٥- الخصائص التي فضل بها على جميع الأنبياء ولم يعطها نبي قبله (١٠٥).
- ١٦- الخصائص التي اختص بها عن أمته من واجبات ومحرمات ومباحات وكرامات (١٢٥).

(٢) في مجموعها ٣٥٢ بابا بواقع اثنين وعشرين بابا في كل موضوع.

(٣) مثل ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَأَعْيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ﴿وَكَثِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾، الخصائص الكبرى ص ٣.

العلم والحكمة. ومنها أيضا المبلغ والرسول والأداة. أما الشعر فإنه مديح يكاد يقارب بين الرسول والله^(١). ومعظم الاقتباسات تصور محمد الكوني كما هو الحال في الحقيقة المحمدية عند الصوفية، محمد الإله على حساب محمد الإنسان، محمد صاحب المعجزات وليس محمداً البشر. ويتدخل جبريل دائماً في الأحاديث محاوراً وفي الأفعال مشجعاً مؤيداً وناصراً. وروايات الإسراء والمعراج دليل على ذلك والتي تعطي للخيال مناسبة فريدة للإبداع. ولا تكاد تذكر البعثة والرسالة^(٢).

الكتاب كعادة السيوطي تجميع من الكتب السابقة. كله منقولات دون منهج أو رؤية أو هدف إلا التجميع. والتعليق نادر^(٣). والأسلوب إنشائي، مجرد تمجيدات وتحميدات وتقديسات مما يتجاوز حدود العقل والعلم والتاريخ. يضيف بعض الشروح اللغوية^(٤). ويعتمد على المؤرخين كالواقدي وغيره^(٥). ويحيل إلى عديد من المصادر التاريخية غير الحديث. كما يحيل إلى بعض مؤلفات الآخرين^(٦). وتدخل عديد من الإسرائيليات كما دخلت في باقي العلوم التقليدية خاصة الحديث والتفسير.

وبعد الخطب الإنشائية والأساليب البلاغية يحدد السيوطي منهجه بأنه منهج نقلي خالص من أئمة الحديث، أسانيد حول شخص الرسول ومعجزاته بعيداً عن الأخبار الموضوعية والأحاديث الضعيفة. وهو اعتراف بضعف بعض الروايات. أما الترتيب والقسمة والأبواب فهي شاملة للموضوع جامعة له لم تترك شاردة ولا واردة. والهدف هو شرح صدور القوم المؤمنين ضد الجاحدين والمفسدين، والطائفة المبتدعة والملحدين

(١) هو شعر حسان بن ثابت

أخبر عليه للنبوّة خاتم	من الله من نور عليه ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه	إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق من اسمه ليحمله	قدوالعرش عمود وهذا محمد

(٢) السابق ص ٦٤.

(٣) السابق ج ١/ ١٢٢.

(٤) السابق ص ١٨٢-١٨٣.

(٥) السابق ص ٢٥٠.

(٦) السابق ص ٢٦٦.

والفلاسفة المتمردين «أي كل إعمال للنظر في الروايات ونقد عقلي أو تاريخي لها»^(١).

يعتمد على الحديث والقرآن والشعر، الحديث أكثر من القرآن، والقرآن أكثر من الشعر^(٢). وتشمل الأحاديث الأقوال المباشرة والروايات، السنن القولية والسنن الفعلية. وتتعدد الروايات في الحديث الواحد مما يدل على تضخمها والزيادات فيها على مدى الزمان. والأحاديث طويلة يستحيل على الذاكرة استيعابها مما يدل على الوضع. كما تدل على أنها مركبة^(٣). القرآن سند للحديث. فالحديث هو الأصل. وتُعين درجة الحديث في الإسناد بين الصحيح والضعيف، الحسن والغريب^(٤). ومن كثرة الأحاديث يظهر التداخل بين علم الحديث وعلم السيرة، وأن علم السيرة هو تشخيص لعلم الحديث وإعادة تبويب له طبقاً لحياة الرسول.

وفي لحظات الضعف إما يتم الرجوع إلى الماضي تشبثاً به وتعويضاً عن مآسي الحاضر وإما قفزاً إلى المستقبل. فقد رُويت أحاديث آخر الزمان لتبرير ما هو قائم وانتظار ما هو أسوأ. لذلك تكثر أحاديث أشراف الساعة وعلاماتها والتنبؤ بمصير الشهداء مثل عمار ابن ياسر والحسين. وتنسج على منواله باقي التنبؤات. وقد يتطابق حديث مع حال الأمة اليوم ويكون ضعيفاً من حيث السند إلا أنه يكون قوياً من حيث تطابق المتن مع التجربة الذاتية والتاريخية^(٥).

د- «السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة» لأطفيش^(٦)

وفي السير المعاصرة قد تُقلص السيرة كلها في المعجزات وكأن الرسول ليس مبلغاً لرسالة، وكأن الرسالة لا تهدف إلى تغير اجتماعي وتحرك تاريخي، مثل أصحاب الخوارق في الديانات البدائية. وهذا ما يدل عليه العنوان «السيرة الجامعة من المعجزات

(١) السابق ج١/ ٢٠.

(٢) الحديث (٨٢٠)، القرآن (٣٠٥)، الشعر (٢٠٤).

(٣) السابق ج١/ ٤٦٢-٤٦٩.

(٤) السابق ص ٥٦٥.

(٥) من النقل إلى العقل ج٢ علوم الحديث: من نقد السند إلى نقد المتن.

(٦) الشيخ محمد بن يوسف أطفيش: السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

اللامعة». ولا فرق بين فرقة إسلامية وأخرى، بين أباضية وسنة وشيعة، وكان الرسول لم يبعث إلا لإجراء المعجزات. وتضم المعجزات الكرامات وكل خوارق العادات. وتجمع كما تجمع الغزوات والشائيل والنعال. وإذا كان الجهاد والشعبان والحيوان يشهد بالنبوة فكيف ينكرها الإنسان؟ وتختار المعجزات من كتب التاريخ. والإباضية تعتمد في عقائدها التوحيد والعدل على المعتزلة وعقلانياتها التي تستدعي أخذ موقف نقدي من المعجزات. وتتوالى المعجزات بلا تصنيف حتى الشائع، المعنوية والحسية، أو ترقيم. وكلها تلبية لحاجات المجتمع الصحراوي: الماء والغذاء، والحماية من الظواهر الطبيعية والجفاف، والنصر على القبائل، وعلاج المرضى. لذلك جاءت المعجزات تكثير الماء والطعام ومخاطبة الريح والاستسقاء والنصرة بعوامل خارجية وشفاء الجرحى. ويصل حجمها إلى ما يزيد على خمسمائة حديث كما هو الحال في السير الشعبية.

تخلو السيرة من البنية. فهي بلا أبواب ولا فصول بل أقل من ذلك «خبر» أو «حديث» أو «ذكر» أو «كلام» ودون ترقيم أو تصنيف^(١).

والسؤال هو: هل مازال أحد يكتب السيرة بهذه العقلية، تكثير المعجزات وتكثيرها بحيث تشمل كل سيرة الرسول؟ وكيف تكون سيرا معاصرة وكلها تحاول بيان الجوانب العقلانية والإنسانية والطبيعية في الإسلام، ورسالاته التي يبلغها للناس؟ ولماذا نغيب على الجماعات الإسلامية خروجها وفكرها التقليدي ومثل هذه السير تمدهم بأصولهم النظرية في ممارستها السياسية؟

كل المعجزات حسية وبعضها كونية. فليس الرسول بأقل من عيسى وموسى^(٢). ومنها الأخبار بولادته من أهل الكتاب ومعرفتهم به. وتكثر المعجزات في الغزوات تأييداً بالنصر^(٣). وتسمى خوارق أي كسر قوانين الطبيعة. وفي المعارك يصل شفاء

(١) خبر، أخبار (٥٦)، حديث (٢٧)، ذكر (١٨)، كلام (٢).

(٢) مثل أنه أول المخلوقات، الكلام في المهر، خروج النور الحسي منه يوم ولادته، ولادته مختونا، إرضاع الأبقار له، انتكاس الأصنام عند ولادته.

(٣) خوارق يوم الخندق، خوارق في غزوة أحباب الناس فيها بوع نبع الماء بين أصابعه، شفاء بعض المرضى، وإحياء معظم الموتى، ظلاله الغمام له، خوارق الهجرة، تسيحه في بطن أمه.

المرضى إلى حد إحياء الموتى^(١). وفي الطبيعة تظهر كلمة الشهادة مكتوبة في أوراق الأشجار وغيرها بقلم القدرة^(٢). وأشهرها تكثير الماء والطعام^(٣). ومنها الإخبار بالغيب^(٤). ومنها معجزات الحرب^(٥). ومنها معجزات خاصة حياء للرسول^(٦). ومنها الحديث مع الجن والملائكة^(٧). وأحيانا تظهر القدرة على الحكم بأن بعض المعجزات بدع^(٨). ويحكم على بعضها بأنها بدعة حسنة، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف^(٩).

وتعتمد السيرة كالعادة على القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ^(١٠). والحديث أكثر لأنه هو المملوء بالمعجزات من خلال روايات ضعيفة أو موضوعة وغير متواترة. والشعر تصديق للحديث أكثر ومبالغة مثله. والقرآن أقل لأنه لا يجعل المعجزة دليلا على صدق النبي في معظم آياته، باستثناء القرآن. وهو إعجاز وليس معجزة، تحد بلاغي وتشريعي. والمعجزات معظمها روايات وليست أقوالا مباشرة من الرسول. والأحاديث رواية وقولا وليس بين معقوفتين بل هو خطاب مرسل بلا بداية ولا نهاية. كلها تقوم على النقل من القدماء دون نقد للروايات الذي مارسه القدماء أنفسهم. ومن المؤرخين يأتي ابن إسحق أولا ثم الواقدي ثم النيسابوري وغيرهم من المحدثين^(١١). ويشار إلى

(١) السابق ص ٢٤.

(٢) رجوع الغنم، السابق ص ٢٦.

(٣) ومن تكثير الماء والطعام إرواء الجيش من مزادتين، أكل مائة وثلاثين رجلا من بطن شاة، عذوبة البئر ببصاقه، استسقاء قريش، أكل عامة الصحابة من ثلاث من بيض النعام، صدور الماء بتقلبه، فيضان النبع.

(٤) مثل: ذكر مصارع قريش، انهيار إمبراطوريتي فارس والروم والأحباش، الدعاء للأصدقاء وعلى الأعداء.

(٥) مثل عبور الوادي دون بلل، انهزام الكفار بحفنة من تراب، الشفاء بريقه الشريف.

(٦) مثل: ستر شجرتين له عند قضاء الحاجة، مخاطبة الجهادات، شهادة جل بين يديه، كلام الشاة المسمومة، رده عين يوم أحد.

(٧) كلام بعض الجن بالشعر، إسلام بعض الجن.

(٨) القيام عند بلوغ القراء لمولده إلى فكرة بدعة منكدة، السيرة اللامعة ص ٧.

(٩) الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بدعة حسنة، السابق ص ٧.

(١٠) الأحاديث (١٨٥) الأشعار (١٣٢)، الآيات (٢٧).

(١١) ابن إسحق، السيرة الجامعة ص ٨٤/١١٩/١٢٠/١٣٠/١٥٨/١٩٠/١٩٨، الواقدي

ص ١٠١/١١٤/١٣٢/١٣٤، النيسابوري ص ١٩٤.

الاقتراسات بحرفي «أ هـ» اختصاراً لكلمة «انتهى»^(١). وهل يجوز إعادة بناء التاريخ الماضي من روايات للرسول نقلت فيما بعد؟ هل الروايات اللاحقة مصدر للتاريخ السابق؟ ولا يتم التساؤل عن بعض الأحكام مثل الأمر بالقتل وضرب العتق^(٢).

٥- خاتم الأنبياء:

أ- «محمد خاتم النبيين» لأحمد رضا خان (١٣٤٠ هـ)^(٣)

وهي خاصية واحدة للرسول وهو أنه خاتم النبيين ضد إنكار نبوته في البداية أو استمرارها في النهاية بعد وفاته. كتبت في البيئة الهندية بالأردية في بيئة يكثر فيها ادعاء النبوة لدى عدة فرق كالكاديانية والبهائية، والديوباندية والقاسمية^(٤). البداية بفتوى بناء على سؤال حول احتمال استمرار النبوة بعد محمد^(٥). وهو ما يقوله غلاة الشيعة أيضاً بنبوة الحسن والحسين وعلي وفاطمة^(٦). وهو جو التشيع السائد لدى بعض فرق الهند في جعل الإمامة استمراراً للنبوة^(٧). ولو كانت النبوة مستمرة لكانت في علي أو عمر بن الخطاب^(٨). وهو ما يعادل «دلائل النبوة» لليهقي. والموضوع قريب من الشكائل لأنه يدخل في فضل الناس^(٩). وترصد أسماء الصحابة والتابعين الذين يمتد

(١) السابق ص ٨٨.

(٢) السابق ص ٩٨.

(٣) أحمد رضا خان (مولانا الإمام الحنفي): محمد خاتم النبيين، ترجمة نعمان الأعظمي (منظر الإسلام)، دار البيان للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٢ م.

(٤) السابق ص ١١٣-١١٥.

(٥) السابق ص ١١٥-١٢٦.

(٦) السابق ص ٩٢/٣٣.

(٧) السابق ص ١١٧-١١٨.

(٨) السابق ص ٨٠.

(٩) وهو ما عبر عنه لسنج في «تربية الجنس البشري» واكتمال النبوة في دين العقل والطبيعة، التنوير، بعد دين العقاب والثواب، اليهودية، ثم دين المحبة، المسيحية، انظر ترجمتنا لأعمال لسنج اللاهوتية لسنج: تربية الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.

إليهم الفضل^(١). ومع الشيعة يقرن الفلاسفة لقولهم إن النبوة مكتسبة^(٢). ويشار إلى أن في البهائم رسلا، وأنها تتكلم^(٣). كما يشهد الضب على نبوته^(٤).

والكتاب يخلو من الأبواب والفصول^(٥). يجمع بين أجزاء من السيرة خاصة الميلاد وبعض التقسيمات الداخلية مثل تصنيف الأحاديث في ختم النبوة. يحتوي على حوالي مائة وخمسة وأربعين موضوعا يمكن ضمها في عدد أقل^(٦). ويعتمد على المصادر الثلاثة: الحديث والقرآن والشعر^(٧). وتذكر الأحاديث مختصرة^(٨). وتتعدد الروايات. ويعتمد على أدبيات الهند في النبوة بين الإثبات والإنكار^(٩). ويؤخذ نموذج المسيح في طلوع كوكب ساعة المولد^(١٠). ومع أن هناك محاولات لاستعمال العقل والقياس إلا أن المعجزات مازالت واردة^(١١).

ب- «محمد رسول الله وخاتم النبيين» لمحمد الخضر حسين (١٩٥٨م)^(١٢)

وهي سيرة دفاعية ضد التبشير والتنصير^(١٣). كما أن الغاية إثبات نبوته وإقامة الأدلة

(١) محمد خاتم النبيين ص ١١١-١١٣.

(٢) السابق ص ١١٤.

(٣) السابق ص ١٠٥.

(٤) السابق ص ٧٥-٧٧.

(٥) أنواع الأقوال في خاتم الأنبياء، السابق ص ٥٩-٨٦، أربعة وجوه لفضيلة أبي بكر ص ٩١-٩٢. أقوال العلماء في منكري ختم النبوة ص ١١٨-١١٩، فتاوى العلماء ص ١٣٥-١٤٠.

(٦) وذلك مثل: الفتوى، خاتم النبيين والأنبياء السابقين، الشفاعة، شق الصدر، التصديق به قبل ولادته وبعدها، البشائر، أبو بكر، علي، الأنبياء الكذبة، الفرق التي تنكر ختم النبوة، أقوال العلماء في ختم النبوة.

(٧) الحديث (٤٣)، القرآن (١٦)، الشعر (٤).

(٨) محمد خاتم النبيين ص ٤٦/٤٩.

(٩) السابق ص ١١٨-١١٩.

(١٠) السابق ص ٥٦.

(١١) السابق ص ١٣١-١٣٢.

(١٢) محمد الخضر حسين: محمد رسول الله وخاتم النبيين، مطبعة المعاهد الدينية، القاهرة ١٣٥٢هـ-١٩٣٣.

(١٣) «فقد كثر ما وقع في أيدينا من صحف يضعها أولئك الذين سموا أنفسهم «المبشرين». ويتعرضون فيها لدين الإسلام بكلمات خبيثات يبتغون بها إخراج أبنائنا وبناتنا من نور الحق. وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ما أراه في تلك الصحف من زور وبهتان ثم ما أذاعته الصحف السيارة في العهد القريب من قصص محاولة تلك الطائفة لتنصير بعض الفتيان أو الفتيات قد دعاني إلى تحرير رسالة في سيرة رسول الإسلام ودلائل نبوته السنية، السابق ص ٢-٣.

عليها^(١). وتجمع السيرة بين الرسالة والرسول، المحورين الرئيسين في السيرة. لا تنقسم إلى أبواب وفصول بل تضم اثني عشر موضوعا غير مرقم تدل على المنهج التاريخي، من البداية إلى الوسط إلى النهاية من أحوال العرب قبل الإسلام حتى أثر دعوته في إصلاح العالم^(٢). يختار بعض الوقائع من السيرة ويحولها إلى دلالات عامة كي ترسم صورة الرسالة والرسول^(٣). والقرآن هو الدليل على نبوة الرسول ببلاغته وإخباره بالغيب واتفاقه مع العقل والواقع^(٤). بشرت به الأنبياء السابقين^(٥). تقلص المعجزات إلى الحد الأدنى، المعجزات محسوسة^(٦). شريعته عامة للناس ودائمة. فهو خاتم الأنبياء^(٧). ثم يبدأ محور الرسول بخلقه وآدابه مثل الصبر على البلاء، والقوة على التحمل، والتواضع، والأدب مع الآخرين، والزهد، والرفق، والحلم، والعفو، والكرم، والحياء، والهيبة، واجتهاده في العبادة^(٨). ثم تعود الرسالة وأثرها في إصلاح العالم، وتقديم التاريخ، ودفع الشعوب نحو العقل والعلم، وأثر ذلك على نهضة الغرب وتقدمه^(٩). ومصادرها الرئيسية القرآن والحديث والشعر. والقرآن أكثرها والشعر أقلها^(١٠). ومع ذلك فالاعتماد أيضا على العقل البديهي الذي خلق به الإنسان، وتم تأييده بالوحي^(١١).

(١) وإنا القصد من تأليف هذه الرسالة أن أصوغ من تلك السيرة النبوية دلائل النبوة المحمدية...، السابق

ص ٣.

(٢) هي: حال العرب قبل بعثته، نشأته وسيرته قبل البعثة، دلائل نبوته، القرآن الكريم، بشارات الأنبياء والرسول قبل بعثته: سيرته، المعجزات المحسوسة، عموم بعثته، دوام شريعته وختمه للنبوة، خلقه وآدابه، اجتهاده في عبادة ربه، أثر دعوته في إصلاح العالم.

(٣) السابق ص ١٠-١٧.

(٤) ومن وجوه دلالة القرآن على صدق الرسول ورود معانيه كلها على الوجوه المعقولة وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة...، السابق ص ١٥.

(٥) السابق ص ١٨-٢١.

(٦) السابق ص ٢٣-٢٥.

(٧) السابق ص ٢٥-٣٠.

(٨) السابق ص ٣٠-٤٢.

(٩) السابق ص ٤٢.

(١٠) القرآن (١٩)، الحديث (٩)، الشعر (١).

(١١) «خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأمتعته بنعمة العقل. وهي من أجل ما ينعم به الخالق الحكيم. أتمته بنعمة العقل ليهتدي به إلى الحياة الطيبة»، السابق ص ٣.

ج - «محمد خاتم النبيين» لعلي شريعتي (١٩٧٧م)^(١)

لم يتوقف علم السيرة، ومازال حيا في القلوب، مؤلفين وقارئين، كتابا وجمهورا، سواء عند المحافظين السلفيين لتدعيم المحافظة والسلفية أو عند التقدميين الثوريين لتدعيم التقدم والثورة. فمحمد خاتم النبيين. أعلن عن اكتمال الحقيقة بعد أن ساهم الأنبياء في تطورها نحو الكمال.

وتستعمل السيرة الجديدة المنهج التاريخي ليس بمعنى القدماء رصد الحوادث وتسجيلها ولكن بمعنى المحدثين البحث عن الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية لنشأة الرسالة. ولا يمنع ذلك من تطورها عاما وراء عام، سنة بسنة كما فعل القدماء، ولكن من أجل إثبات هدف للتطور، وغاية للرصد التاريخي. وربما يأتي التابع شهرا بشهر نظرا للدلالة الأحداث وتسارعها في وقت قصير كما حدث في تفصيل الهجرة وعشر سنوات بعدها، وتفصيل حوادث السنة الأولى شهرا بشهر، والسنة الثانية تركيزا على الشهر السادس فيها الذي وقعت فيه غزوة بدر، ومحاولة اغتيال النبي^(٢). وفي هذه السنوات العشر وقعت الغزوات أي الفتوحات الصغرى داخل شبه الجزيرة العربية. يختلط فيها العام، الغزوات، بالخاص الزواج بميمونة. وتبدأ بالهجرة التي يؤرخ بها المسلمون دون الموضوعات التقليدية عن حياة العرب قبل الإسلام، والميلاد، والرضاعة ورعى الغنم والتجارة والتحنث، ونزول الوحي وزواجه.

ويقوم المنهج التاريخي حتى يتجاوز التاريخانية التي وقع فيها القدماء على عديد من العلوم الإنسانية، الفلسفة والاجتماع والسياسة واللغة والاقتصاد وعلم النفس والتاريخ حتى يكتمل تحليل الظواهر الإنسانية ومنها ظهور الأديان وانتشارها. فأصبحت السيرة

(١) علي شريعتي: محمد خاتم النبيين، من الهجرة حتى الوفاة، ترجمة أبو علي الموسوي، تقديم د. إبراهيم دسوقي شتا، دار الأمير، بيروت ط/ ٢٠٢١ وتصديرات مما قبل في علي شريعتي من علي خامنئي، ومحمد حسين بهشتي، ومحمد الطالقني وفراز فانون.

(٢) عشر سنين من الحياة المدنية: ١- الهجرة ٢- غزوة صفوان أو بدر الأولى ٣- توجيه ضربة لليهود ٤- غزوة بني النضير، بدر الثانية. ٥- دومة الجندل، الخندق أو الأحزاب ٦- بني المصطلق ٧- صلح الحديبية، خيبر، وادي القرى، رسائل إلى قادة العالم، جواب هرقل، السرايا، عمرة القضاء، الزواج بميمونة، ٨- سرية مؤتة، ذات السلاسل، فتح مكة، حنين ٩- الوفود، تبوك، السابق ص ٧٥-١٤٤.

أقرب إلى فلسفة الحضارة والتاريخ. ويعقد مقدمة منهجية بعنوان «ملاحظات مع القارئ»، يبين فيها منهجه الذي يتلخص في عدة توجهات أو قواعد عامة:

أ- الاعتماد على الوثائق التاريخية والسير التاريخية لابن هشام والطبري ومن أقرب نقطة وهي الهجرة دون الدخول في أساطير النشأة.

ب- تجاوز الخلاف السني الشيعي. فعلم السيرة يتجاوز الخلاف الطائفي من أجل سيرة محايدة من منظور العلم وحده.

ج- توخي الجديد وعدم تكرار ما قاله المؤرخون وكتاب السير القدماء^(١).

وتعتمد السيرة على عديد من الشواهد الثقلية بالرغم من أن المؤلف غير عربي اللسان. تجمع بين القرآن والحديث والشعر^(٢). ومثل معظم السير العربية. الأسلوب أدبي مثل طه حسين والعقاد. ويذكر بعض فقهاء المسلمين مثل أبي حنيفة. ويختفي التحليل الطائفي السني الشيعي والجدل فيه.

وفي نفس الوقت يتم الاعتماد على الوافد الغربي خاصة الفلسفي فيذكر من الفلاسفة ديكارت وبرجسون، ومن علماء الاجتماع دوركهايم وهالبوكس، ومن فلاسفة العلم جاليليو ونيوتن، ومن السياسيين فرانكو، ومن المؤرخين تويني. ويحيل إلى الحروب الصليبية والاستعمار الأوروبي الحديث. وتظهر ألقاظ التحرر وعملياته قديما وحديثا^(٣).

وينفس الأسلوب الأدبي الصحفي كتب خالد محمد خالد «معا على الطريق محمد والمسيح» فقط مبينا أوجه التشابه في أقوال النبيين في موضوعات الله والإنسان والحياة عن طريق سقراط الجامع بينهما^(٤). ويعتمد على الحديث والقرآن والشعر. إلا مصدرين أجنبيين^(٥). والكتاب مُهدى إلى بطلة الجزائر جميلة بوحريد في إجلال وخشوع. والخاتمة

(١) خاتم النبيين ص ٢٧-٢٨.

(٢) القرآن (١٩)، الحديث (٤٥)، الشعر (٦).

(٣) خاتم النبيين ص ٨٦.

(٤) خالد محمد خالد: معا، على الطريق، محمد والمسيح، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٥٨.

(٥) هما ابن الإنسان لإميل لو دفيج، وقصة الحضارة لويل ديورانت.

سؤال عن الخيار بين باراباس أم المسيح أي اللص أم الشهيد؟ والثانية كلها خلقية وليست عقائدية لذلك أمكن ضم أنبياء الشرق بوذا وكونفوشيوس.

٦- الحبيب:

أ- «مسك الختام في أشعار الصلاة والسلام» للأثاري (٨٢٨هـ)^(١)

وهي أبيات على البحور الستة عشر، بيتان لكل بحر. والغرض «تنويع فضائل الممدوح بالخلق المعظم»^(٢). أطولها القصيدة الأخيرة التي ذرف فيها الناظم الدمع وهو حاف مكشوف الرأس في زيارة للنبي. منها ما يبدأ بحرف الشرط «إن» وهو النبي وغيره هو المشروط^(٣). ومنها ما يبدأ بفعل الأمر للنفس حتى تتبع النبي^(٤). ومنها ما يبدأ بحرف النداء «يا»^(٥). وكلها حث على الصلاة والسلام عليه. وهو ما اختلف عليه الفقهاء، داخل الصلاة وحدها أم داخلها وخارجها. وهنا يتحول الرسول إلى مخاطب ومنادى. وتتحول العلاقة بين المرسل إليه والمرسل إلى علاقة تراسل بين الذوات. ليس المقصود الرسالة بل العلاقة ذاتها، الوسيلة دون الغاية. ويختفي القرآن والحديث والشعر لصالح الصلاة والتسليم عليه. وتتحول السيرة إلى مديح، وصاحبها إلى مداح.

ب- «الخير الكثير في الصلاة والسلام على البشير النذير» للأثاري (٨٢٨هـ)^(٦).

وهي أربعون حديثا في فضل الصلاة والتسليم على الرسول. بركتها وفضلها وسعادة

(١) خمسة نصوص ص ٢٩-٣٢.

(٢) السابق ص ٢٩.

(٣) إن كنت تطلب بسط الرزق صلي على خير الوري وشفيع العرب والمعجم

السابق ص ٢٩.

(٤) صلى الله على خير الوري تلتقي خيرا سريعا فيه نيل المرام

(٥) السابق ص ٣٠ يا خفيف الميزان صل وسلم تشني راجحا بخير الأنام

السابق ص ٣١.

(٦) خمسة نصوص ص ٤٩-٦٠.

أهلها والثواب الجزيل عليها. والأربعون طبقاً لفضل من حفظ أربعين حديثاً. وقد تم تصنيفها في ثمانية موضوعات، في كل موضوع خمسة أحاديث ليسهل حفظها على الطلاب^(١). وتختلف الأحاديث في روايتها في متونها. بعضها حسن صحيح وبعضها الآخر حسن غريب. وبعضها يتدخل فيه الخيال والتصوير بتدخل الملاك في الحوار، جبريل أو غيره. والثواب في الآخرة والدنيا على حد سواء، معرفة الذنوب، ودخول الجنة والشفاعة. ومن لم يفعل فهو بخيل. ويختفي القرآن والحديث والشعر بعد أن تقوم الصلاة والتسليم مقامها.

ج- «شفاء السقام في نوادر الصلاة والسلام» للأثاري (٨٢٨هـ)^(٢)

وهو كما يدل عليه العنوان «شفاء السقام» بيان للنوادر الناجمة عن الصلاة والسلام أي الآثار غير المتوقعة أشبه بالمعجزات التي تحدث نتيجة الصلاة والتسليم على الرسول. أربعون نادرة، خمس وثلاثون في الصلاة، وخمس في السلام^(٣). وكلها حكايات وقصص وروايات. يقوم معظمها على ظهور الرسول في المنام، وإخباره بحسن العاقبة لمن صلى وسلم عليه أو سئوئها لمن لم يفعل، وحسن العاقبة ودخول الجنة والمغفرة. ومنها حكايات للشافعي وليس فقط لمشايخ الصوفية. وتمتد الصلاة والسلام من الرسول إلى أصحابه. وكبي يزاد الخبر تصويراً يدخل موسى في الحوار لإثبات الصلاة والسلام على النبي. ويتحول الأمر الشفاهي إلى الكتابي. فمن لم يكتب الصلاة والسلام شلت يده أو قطعت، وخرس لسانه، وعميت عينه أو عطس فمات. ويدعم ذلك آيتان^(٤). ويعتمد على بعض آيات الشعر^(٥). وهنا يتحول الرسول إلى جزء من الطب الشعبي، من رسول

(١) وهي: تضعيف أجر المصلي، فضيلة الصلاة، الإكثار منها، طلب الوسيلة مع الصلاة، تبليغ الصلاة إلى الرسول، وجوبها، كيفيتها، السلام عليه، السابق ص ٥٠.

(٢) خمسة نصوص ٣٥-٤٦.

(٣) لذلك تقسم الرسالة إلى بابين. الأول في نوادر الصلاة، السابق ص ٣٥-٤٤، والثاني في نوادر السلام ص ٤٥-٤٦.

(٤) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾، السابق ص ٤٠/٤٤.

(٥)

إن جنت بدرا فطب وانزل بندي سلم سلم على من سبنا بدرا على علم

إلى طبيب. ويمتد شفاء أمراض النفوس إلى أمراض الأجسام.

والأحاديث تتعارض مع أحاديث أخرى ضد تعظيم الرسول وتفخيمه. صاحبها أيضا مادح للسلطين والملوك، ملك اليمن^(١). وقد سُمي الناظم الآثاري لنسبته إلى الآثار الشريفة وخدمتها^(٢). تجمع بين الدين والأدب كما هو الحال في القرآن.

د- «سلوك الكتيب بوفاة الحبيب» للقيسي الدمشقي (٨٤٢هـ)^(٣)

والموضوع بين الرسالة والرسول، وهو موضوع الوفاة آخر موضوع في الرسالة، وأول موضوع في الرسول. وهو تحليل نفسي كما يدل عليه العنوان، عزاء المحزون بوفاة الرسول ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. وهو تكبير لقطة في رسالته وحياته، لحظة الموت. البداية سجعية للتأثير بالأسلوب ثم بقصيدة للتأثير بالشعر^(٤). والمعنى شائع بين شاعرين يود أحدهما أن يكون مرثيا من الآخر وليس راثيا^(٥). وهو خال من الأبواب والفصول، ولكنه يتطرق لسبعين موضوعا جزئيا يمكن جمعها في تسعة فقط^(٦). ومنها

وحياتكم وحياتكم قسا وفي عمري بغير حياتكم لا أحلف
لعمري أن روحي في يدي ووهبتها لمشري برضاكم لم أنصف

(١) السابق ص ٥-٦.

(٢)

السابق ص ٥ لأنني خادم الآثار لي نسب . أرجو به رحمة المخلوم للخدم

(٣) القيسي الدمشقي (الحافظ محمد بن عبد الله بن محمد القيسي المعروف بابن ناصر الدين الدمشقي): سلوة الكتيب بوفاة الحبيب. تحقيق ودراسة د. صالح يوسف معتوق، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ج ٢/ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٤) السابق ص ٩٢-٩٤.

(٥) وهو ما قاله شوقي في حافظ:

لقد كنت أوتر أن تكون رثائي . يا منصف الموتى من الأحياء

(٦) هي: ١- قصيدة في وفاته، سورة النصر إشارة لدنو أجله، كثرة استغفاره، فراسة عمر، مرض النبي، زيارته للبيقع، وجهه، الحمى، بلاء الأنبياء ٢- رغبة الصديق في تمريضه، تمريضه عند عائشة، ٣- الكتاب الذي أراد كتابته، استخلاف الصديق، صلاته بالناس، خبر الشاة المسومة، تصدقه بما كان عنده، خفته من مرضه. ٤- التحذير من الفتن. ٥- استئذان الصديق بالخروج، استئذان أسامة بالبقاء ٦- اللباس الذي توفي فيه ٧- ردة العرب، أحوال الصحابة بعد علمهم بالوفاة ٨- الغسل والكفن والصلاة عليه وموضع دفنه وحفر مقبرته، القطيفة في قبره، إدخال القبر، صفة القبر، رش الماء عليه، الرثاء، سنة يوم الوفاة والدفن، خصائص القبر، زيارته، ٩- زوجته، تركه، آثاره.

ما يبدأ بلفظ «خبر» أي رواية^(١). ومنها أخبار معجزات مثل زيارة جبريل له في مرضه، وتعزية الخضر، والملائكة تحف بالقبر^(٢). يعتمد على القرآن والحديث والشعر، والحديث أكثر^(٣). وهو ما قد يدخل أيضا في الرثائيات والبكائيات. والمتوفى هو الحبيب. فسلى الكتيب لموته في حبه. وهو بداية تحول الرسول من النبي والمبلغ إلى الحبيب المعشوق كما هو الحال عند الصوفية.

هـ- «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي (٩٠٢هـ)^(٤)

ويتناول المؤرخون موضوع الصلاة والسلام على الرسول، الحبيب الشفيع تجعل السيرة أدخل في الشائات أي التعظيم والتفخيم للرسول على حساب الرسالة. يتكون من خمسة أبواب. وفي آخر كل باب فصول متتالية (الأول والثاني) أو فوائد (الثالث) وهي: الصلاة عليه، ثواب الصلاة عليه، التحذير من ترك الصلاة عليه، تبليغ الإسلام ورده، والصلاة في أوقات مخصوصة^(٥). والخامس أكبرها، والثالث أصغرها. والمؤلف على وعي بينيته إذ يذكرها في المقدمة^(٦). ويعبر عن الموضوع بأسلوب السجع المقارب للتفخيم والتعظيم من حيث التأثير. ولم يخل الثواب من تصويره^(٧). وتعني الصلاة أكثر من القول بل التجربة، تجربة الدعاء والعبادة. وهي أيضا تجربة التعبير عن تحقيق الرغبات بالتمني، وعن الموقف بالشعائر^(٨).

(١) «خبر» (٣)، قصة (١).

(٢) سلوة الكتيب ص ١٣١-١٣٧ / ١٨٥-١٨٦.

(٣) الحديث (٣٦)، القرآن (١٣)، الشعر (١١).

(٤) السخاوي (الإمام الحافظ المؤرخ محمد بن عبد الرحمن): القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، النص الكامل، قابله بأصل مصنفه وبأربعة أصول أخرى محمد عوامة، دار اليسر، دار المنهاج جدة، المدينة، بيروت ج ٢ / ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٥) أ- الصلاة عليه ص ٩٩-٢٣٤ (١٣٦ ص) ب- ثواب الصلاة عليه ص ٢٣٥-٣٠١ (٦٦) ج- التحذير من ترك الصلاة عليه ص ٣٠٢-٣٢٢ (٢١ ص) د- تبليغ السلام ورده ص ٣٢٣-٣٥٥ (٤٣) هـ- الصلاة عليه في أوقات مخصوصة ص ٣٥٦-٥١٢ (١٥٧).

(٦) السابق ص ٣٩-٤٣.

(٧) السابق ص ٣٧-٣٨.

(٨) والدخول تحت ظل العرش، ورجحان الميزان، ورود الحوض، والأمان من العطش، والعنق من النار، والجواز على الطريق، وروية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت، وكثرة الأزواج في الجنة، السابق ص ٤٠.

وتستمر عبارات التعظيم مثل النسب الشريف^(١)، الاسم الشريف^(٢).

ويعتمد على المصادر الثلاثة المعروفة: القرآن، والحديث، والشعر^(٣). والحديث أكثر. فالحديث هو المصدر الأول. كما يعتمد على بعض المصادر السابقة يذكرها في آخر الكتاب كما يفعل المحدثون^(٤). فقد كثرت المصنفات في الموضوع^(٥). وهو كتاب شامل جامع في الموضوع بالرغم من عدم إطالة الإسناد مع الحكم على الرواية بدرجتها في الصحة^(٦). وفي نقد الرواية يجوز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال. فصحة الرواية ليست في سندها بل في مدى اتفاق متنها مع الفضائل أي خارج النص، في الطبيعة الإنسانية^(٧). ويتم الإحالة إلى المذاهب الفقهية لمعرفة حكم الصلاة عليه^(٨). ويتم التعرض لأمثلة تصعب الإجابة عليها^(٩). والموضوع خلافي بين الفقهاء بين الوجوب والإمكان^(١٠). ويتم التساؤل عن التناقض بين الروايات^(١١).

والخطورة في إحلال الصلاة والسلام على الرسول محل العمل لنيل الثواب. فالله يصلي عشراً على من صلى مرة واحدة على الرسول، وكذلك تفعل الملائكة. وهي سبب النجاة من الأهوال. وترجع عشرين غزوة. وتقوم مقام الصدقة للمعسر، وهي سبب نمو المال وبركته، وقضاء الحاجات، وهما أحب الأعمال إلى الله. وتمنع الفقر وضيق

(١) السابق ص ٤٥-٥١.

(٢) السابق ص ١٨٤-٤٨٢.

(٣) الحديث (٤٦٠)، القرآن (١٥٢)، الشعر (٢٨).

(٤) القول البديع ص ٥٠١-٥٠٨.

(٥) السابق ص ٥-٧.

(٦) «سألني بعض الأصدقاء أن أجمع كتاباً في الصلاة على خير البشر... يكون عمدة لمن رجع إليه... غير مطيل ذلك بالإسناد ليسهل تحصيله لأولي التوفيق والسداد، ومعقبا كل حديث بعزوه لمن رواه مبيناً غالباً صحته أو حسنه أو ضعفه لدفع الاشتباه ذكراً لنبهة يسيرة الفوائد المأثورة والنوادر المشهورة والحكايات المستورة... سالكا في ذلك كله مسلك الاختصار»، السابق ص ٣٨.

(٧) السابق ص ٤٢-٤٦٩.

(٨) السابق ص ٥٩-٦٠.

(٩) مثل أهل الملائكة الكرام مكلفون بأحكام الشريعة؟، السابق ص ٦٩.

(١٠) السابق ص ٩٢-٩٨، إن الملائكة دائمة الصلاة عليه، مهر آدم لحواء كان عشرين مرة الصلاة عليه، بكاء الصبي من أربعة أشهر إلى ثمانية، السابق ص ١٣٢-١٣٣.

(١١) مثل عثور موسى على الصندوق الذي به رفات يوسف مع أن الله حرم على الأرض أن تأكل كل أجساد الأنبياء، السابق ص ٣٥٤.

العيش. وتنصر على الأعداء. وهي أفضل من عتق الرقاب^(١). ومن لم يصل عليه فلا دين له^(٢). وكلها في الحقيقة عادات لرفع الهم والكرب^(٣).

و- «روضة المحبين في الصلاة والسلام على سيد المرسلين» للناصري^(٤)

ومنذ «البردة» وحتى نهجها توالى قصائد المديح في محمد. وأصبح أقرب إلى الحقيقة المحمدية «عند الصوفية منه إلى الرسول، كلها حول المحبة والشوق والنور والشرف والكمال كما يدل عنوان «روضة المحبين»، وكلها صلاة الله وسلامه عليه^(٥). ليس للقصيدتين موضوع محدد إلا مدح الرسول بالهادي والكمال والكفيل، والحمد، وخير الخلق، والقدر العالي، والفضل، والبشير والنذير، والحبيب، والشفيع، والنور، والتصير. ويتعدى الوصف إلى الجسد والوجه والعينين والأسنان^(٦). وتمدح معجزاته دون التحقق من روايتها^(٧). ولم تظهر الرسالة إلا نادرا باعتبار الرسول إماما لها وليس فقط مبلغا إياها. واشتكى البعير إليه المجاعة دون الإنسان، والإنسان أولى بالشكاية من

(١) السابق ص ٢٣٥-٢٨٩.

(٢) السابق ص ٣٠٢-٣١٨.

(٣) السابق ص ٤٦٥-٤٦٨.

(٤) الناصري (أحمد خضير محمود): روضة المحبين في الصلاة والسلام على سيد المرسلين، بغداد ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م ص ٢-٢٢. وقد سمع المؤلف هذه القصيدة من رجل مجهول الاسم من بلاد السودان أنشدها في روضة الرسول. وكررها الناصري في مجالس الذكر في بلدته «الحالدية» بالعراق. ومن كرامتها أنه «ما تلاها بحب إلا ووفق لزيارته عليه الصلاة والسلام»، السابق ص ٥.

(٥) «صلاة الله سلام الله»، السابق ص ٢٣-٢٨.

(٦)

أكل العينين أدعج .: نوره المحبوب أبلغ
أشب الأسنان أفلج .: فاق رسل الله محمد
وجهه يا ناس نائر .: سيدي مولى البشائر
حس للبر أخجل .: وبه غيب تنزل

(٧)

نادت المسادي غزالة .: تشكي تبدي مقالة
يا إماما للرسالة .: كن ضميني يا محمد
السابق ص ١٠-١٢.

الحيوان^(١). وجل المجاعة هي الشفاعة وليس الإطعام والقضاء على أسباب المجاعة. ومثل هذه القصائد بين علمي التصوف والسيرة.

وهي أقرب إلى العمل الفني منها إلى العمل الفكري. في «روضة المحبين» يتكرر البيت الثالث لضبط الإيقاع خمسا وستين مرة^(٢). وفي «صلاة الله سلام الله» يتكرر بيت واحد تسع عشرة مرة، كل مرة مرتان، والمرة الأخيرة خمس مرات^(٣). وهنا يتحول الرسول إلى أيقونه تدفع الشر، وتأتي بالخير.

٧- الدار:

أ- «نزهة الكرام في مدح طيبة والبيت الحرام» للأثاري (٨٢٨هـ)^(٤)

مدح في فضل المكان، طيبة والبيت الحرام. وهي تسعون بيتا. تقرب فيها صفات الرسول من صفات الله^(٥). معظم الأبيات مناجاة واستجداء. تبدأ بحرف النداء «يا»^(٦). تسلب الإنسان كل

(١)

البعير يشكو المجاعة ∴ للنبي بعد المجاعة
قال يا مولاي الشفاعة ∴ كن شفيعي يا محمد
السابق ص ١١.

(٢) وهو:

صلى الله على محمد ∴ صلى الله عليه وسلم

(٣) وهو:

صلى الله سلام الله ∴ على المهادي رسول الله

(٤) خمسة نصوص ص ٢٣-٢٦.

(٥)

يا سيد، يا أحمد، يا محمد ∴ يا منجد، يا مسعد، وسميع
يا جامع، يا قاصع، يا رافع ∴ يا نافع، يا شافع ومشفع
يا قائم، يا جازم، يا حازم ∴ يا عازم، يا هازم، يا أشجع
يا عالم، يا حاكم، يا حاتم ∴ يا هادم، يا صارم، يا ألمع
يا جابر، يا حاشر، يا ناصر ∴ يا عاطر، يا ماطر لا يقلع
يا عامر، يا غامر، يا آمر ∴ يا ظاهر، يا طاهر، يا أرفع
يا زاهر، يا باهر، يا ماهر ∴ يا ظافر، يا ساتر، يا منجع
يا عاطف، يا عارف، يا كاشف ∴ يا منصف، يا مسعف، يا مريع
يا هاشمي، يا أبطحي، يا زمزمي ∴ يا من لكل الخلق فيه مطمع
يا خير خلق الله يا علم الهدى ∴ إن لم تكن لي شافعا ما أصنع؟

السابق ص ٢٣-٢٤.

(٦) حوالي ٣٧ بيتا.

قدرة، والله كل صفة، وتعزوها للرسول. ويمتد المدح من الشخص إلى المكان حتى يتلغ الكون كله في «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية.

ب- «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسهمودي (٩١١هـ)^(١)

وهو عنوان مشابه لكتاب القاضي عياض «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» ولكن مع التركيز على المكان «دار» وليس على الشخص أو الشئ. والغاية إعطاء الأخبار أي المعلومات كما هو الحال في كتب التاريخ التي تقوم على الرصد الخاص دون إيجاد الدلالة^(٢). والسيرة عرض بمناسبة المكان. المكان هو المركز، والسيرة هو الهامش. المكان الأصل، والسيرة الفرع. ليست القضية الرسالة أو الرسول بل المكان. وربما تأتي قدسية المكان من أثر الإسرائيليات، الأرض والمدينة والحصون. والمكان بكل مكوناته قدسي، الآبار والجبال والوديان والبقاع والقصور والقبور. المكان لل عمران والحرب للهجرة والاستقرار. والغزوات أمكنة أكثر منها أزمنة بعد دخول المدينة أي تاريخ المدينة^(٣). والهجرة انتقال من مكان إلى مكان، من مكة إلى المدينة^(٤). والسيرة هو التابع الزماني بعد الهجرة إلى المدينة^(٥). ويمكن القول إن هذه السيرة تعتبر انحرافا من الوحي والرسالة وأقرب إلى البيئة المكانية بالمعنى الجغرافي العمراني الذي عاش فيها الرسول. ويستمر الأمر في رصد تاريخ المكان بعد عصر الرسول ووصف أشياء، مثل توسعات المسجد وتطور المدينة وشق الطرق التي لم تكن موجودة في حياة الرسول، ولم تعاصر نزول الوحي. فالمكان هو الموضوع وليس الرسالة أو الرسول. مع أنه في روايات أخرى يرفض تقديس قبر الرسول^(٦). بل يتم وضع جثامين الرسول وصاحبيه في أوضاع مختلفة طويلة وعرضية بالرغم من تحريم التصوير عند البعض وبالرغم من

(١) «نور الدين علي بن أحمد السهمودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (أربعة أجزاء) حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٢) وهي النزعة التاريخية Historicism، ج ٢/ ٧١٧-٧٤٣/ ٧٥٧-٧٧١.

(٣) وفاء الوفا ج ١/ ٢٧٤-٢٧٩.

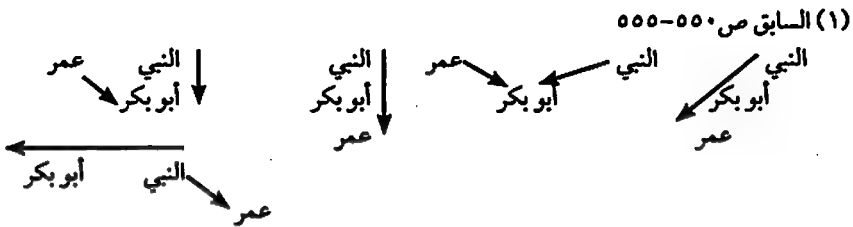
(٤) السابق ص ٢٣٥.

(٥) السابق ص ٢٧٠-٣٢١.

(٦) «قاتل الله اليهود الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، السابق ج ٢/ ٥٤٨.

أنه موضوع لا أهمية له أن تكون بالتوازي أو بالتقاطع^(١). ورسم آخر للمسجد بجهاته الأربع وفيه فاطمة الزهراء^(٢). بل وتذكر حتى الأخشاب والمسامير للنعوش. وهو موت للرسالة والرسول معا، وتحويل الحياة إلى موت، والرسالة إلى كفن، والرسول إلى نعش، وانحراف عن السيرة بمحورها الرسالة والرسول تماما. وقد احترق المسجد النبوي في المدينة، وهدمت الكعبة عدة مرات وأعيد بناؤها. وكان لمصر وسلاطينها دور مباشر في إعادة البناء والترميم. ويؤرخ للمدينتين في عصر المؤلف في «زماننا»^(٣). والآن تكتب على أبواب المسجد في المدينة أسماء الملوك والسلاطين وتسمى بأسمائهم.

ويتضمن ثمانية أبواب كلها في المكان. الأول أسماء البلدة الشريفة وهي المدينة كمكان^(٤). فضائلها وبدأ شأنها وما يتول إليه أمرها، حركة المكان. سكانها ومقدم النبي إليها، مسجدها وما حوله من دور وسور ومنازل في المكان. المصلى والمساجد أبنية في المكان، الآبار حفر في المكان. الأودية والبقاع والقصور عمران في المكان. أكبرها الرابع عن المسجد وما حوله من الدور والبلاد والمنازل والسور ثم الأودية والبقاع والقصور أي مظاهر العمران ثم سكانها وحركتهم من المكان وإليه، ثم المصلى والمساجد وهي



(٢) السابق ص ٥٦١/٥٦٣/٦٣٢.

(٣) السابق ج ٢/٦٩٧-٧٠٦.

(٤) ١- ذكر أسماء هذه البلدة الشريفة ج ١/٨-٢٧

٢- فضائلها وبدأ شأنها وما يتول إليها أمرها ج ١/٢٨-١٥٥

٣- مكانها في سالف الزمان، ومقدم النبي إليها وما كان من أمرها في سنين الهجرة ج ١/١٥٦-٣٢٢

٤- مسجدها الأعظم والحجرات المنيفات وما كان مغطيا به من الدور والبلاط وسور المدينة ومنازل المهاجرين واتخاذ السور ج ١/٣٢٣-٣٨٤ ج ٢/٣٨٧-٧٧١

٥- مصلى النبي في الأعياد وغير ذلك من المساجد التي صلى فيها ج ٣/١١٠٧-٩٤١

٦- آبارها المباركات ج ٣/٦٤١-١٠٣٧

٧- أوديتها ويقاعها وقصورها ج ٣/١٠٣٧-١١٠٦ ج ٤/١١١٥-١٣٣٦

٨- زيارة النبي ج ٤/١٣٣٦-١٤٢٣.

مركز المدينة. وأصغرها أسماؤها ثم آبارها^(١). فالموضوع هو المدينة جمعاً بين الجغرافيا الطبيعية والبشرية أي العمران بلفظ ابن خلدون الذي لا يكاد يُذكر. فهو تاريخ معماري لمعرفة تطور المدينة. والدلالة العامة لهذا التاريخ أنه لا توجد مدينة مقدسة أولى بعد أن تطورت في كل عصر. ولا يوجد مسجد نبوي أول بعد أن تطور منذ عهد الصحابة حتى العصر الحالي^(٢). والآن تكاثرت المساجد في مكة والمدينة وفي باقي المدن الإسلامية ولا يمكن وصفها.

وقد تحولت هذه الأمانة، مكة والمدينة وقبر الرسول إلى مزارات مقدسة في حد ذاتها بلغت حد الوثنية. وامتد الأمر إلى قبور الأولياء والصالحين. وقد تحول التقديس من الرسالة إلى الرسول إلى المكان ثم في الوعي العامي إلى الزمان، عصر الرسالة والخلافة الراشدة. وكما تم التحول من الزمان إلى المكان تم التحول من التاريخ إلى الفرد. وترصد القبور وكأن الهدف هو وصف المدافن ومدن الموتى والمقابر وتطورها دون دلالة على السيرة، مجرد تاريخ جغرافي أو جغرافيا تاريخية للقبور والمساجد والآبار، فغلب التاريخ على السيرة. وأصبح الرصد لمجرد الرصد، رصد المساجد، ورصد الإحياء^(٣). لذلك كبر الكتاب وامتد على أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات.

وتأخذ زيارة قبر الرسول أهمية كبيرة سواء في الأحاديث التي تشرع لها المباشرة بلفظ الزيارة أو غير المباشرة بالفاظ أخرى أو في توسل الزائر وتشفعه بالرسول إلى الله واستقباله في سلامه ودعائه أو في آداب الزيارة. وهو ما يعارض أحاديث أخرى مثل «لا تجعلوا قبري وثناً». وهو ما دعا ابن تيمية قديماً والوهابية حديثاً إلى تحريمها بعد أن

(١) الأول (٢٠ ص)، الثاني (١٢٨)، الثالث (١٦٦)، الرابع (٤٥٧)، الخامس (١٦٣)، السادس (٧٦)، السابع (٢٩٩)، الثامن (٨٧).

(٢) لذلك ينتهي الكتاب بالإشارة إلى تجديدات آل سعود وأسماء المهندسين المعماريين والإداريين والفنيين ورؤساء الأعمال والرسوم الهندسية وباقي المشاريع في المدينة من طرق وجسور ومشاريع كهرباء وعمال مصريين وسوريين وباكستانيين وسودانيين ويمنيين وحضرميين وسعوديين، وفاء الوفا ج٤/ ١٤٢٤-١٤٣٢.

(٣) السابق ج٣/ ١٠٢٢-١٠٣٧ / ١٠٨٢-١١٠٦.

تحولت في الممارسات الشعبية إلى وثنية جديدة. ويتم سرد سبعة عشر حديثاً لتحليل زيارة الرسول كما هو حادث في الممارسات الشعبية^(١).

ولم يُقل في القدس كما قيل في مكة والمدينة. كانت المدينتان مكان نزول الوحي، ولكن القدس أيضاً نهاية الإسراء وبداية المعراج، ومكان صلاة الرسول بالأنبياء في المسجد الأقصى. وقد تم تقديس المدينتين، مكة المكرمة، والمدينة المنورة. ولا يتحول التقديس الآن إلى القدس المحتلة. ولماذا تقديس مدينتين، مكة والمدينة؟ مكة لأن بها الكعبة التي هدمت عدة مرات، والمدينة لأن بها قبر الرسول وقد حرم زيارة القبور وتقديسها وعدم اتخاذ قبور الأولياء مزارات وكما نبهت الحركة الوهابية^(٢). ويذكر جبل أحد وهو مرتبط بذكرى الهزيمة حتى يتحول من هزيمة إلى نصر، ومن كراهية إلى محبة وحتى لا يخشى الجنود أو يتشاءمون منه. بل يتشجعون ويقدمون عليه^(٣).

ولو بدت بعض جوانب السيرة فإنها تبدو مظاهر للمكان. فالعقبة الصغرى والعقبة الكبرى مكانان أكثر منهما سيرة^(٤). وتحول العرب إلى الإسلام تغير في دين شبه الجزيرة العربية^(٥). وجبل أحد الذي صرح الرسول بأنه يحبه مكاناً أكثر منه دلالة^(٦). والإسلام دين قومي للعرب. يحرر شبه الجزيرة من الديانات الغريبة عنها، مجوسية فارس، ونصرانية الروم، وتوحيدها نحو مركز أصيل قديم دين الحنفاء ومكانها، والقضاء على انجذاب الأطراف نحو مراكز شرقية مثل المناذرة أو مراكز غربية مثل الغساسنة^(٧).

وإذا كانت دلالة السيرة التعرف على الرسالة في التاريخ، واستمرار الرسائل السابقة ونهاية لها في التاريخ وخلافة الإنسان للرسول فإن وصف الأمكنة قد انتهى إلا من ذكريات متخيلة وليست معاشة. أصدقاؤه وزوجاته وآلاته وخدمه أصبحت بلا

(١) السابق ج٤/ ١٣٣٦-١٤٢٣.

(٢) السابق ج٢/ ٩٠٣.

(٣) «أحد جبل يحبنا ونحبه»، السابق ج٢/ ٩٢٥-٩٤١.

(٤) السابق ج١/ ٢٢٠-٢٣٥.

(٥) السابق ص ٢٣٤.

(٦) السابق ص ٢٩٥.

(٧) السابق ص ٣٢١.

دلالات مهما حاول كاتب السيرة الانتقال من الزمان الأول إلى الزمان الثاني، من عصر الرسول إلى «زماننا»^(١).

يعتمد على الحديث فالقرآن فالشعر^(٢). وتنقد الروايات لأنها متعددة^(٣). ويدل الطول في الأحاديث على تطورها ونسجها حول النواة الأولى. ويعتمد على كتب الحديث خاصة الصحيحين ككتب تاريخية^(٤). وتذكر أسباب النزول لبعض الآيات في الأماكن والأسماء. ويُشرح الحديث في ألفاظه^(٥). وتختلف النسب طبقاً للأجزاء. فالأحاديث في الثاني أقل، والشعر في الرابع أكثر. ويقل استعمال الحديث والقرآن والشعر في الجزء المعماري التاريخي الخاص. ويكون الاعتماد على المؤرخين. وينظر إلى المسجد على أنه فرش وإيوان. كما يتم الاعتماد على المؤرخين قدر الاعتماد على المحدثين والفقهاء. وتذكر المصادر التاريخية للطبري والواقدي والمقريزي^(٦). وتؤخذ منهم الاقتباسات بلفظ «انتهى» أو بعلامة «هـ»^(٧). وتتحول السيرة إلى قاموس لغوي لضبط الأسماء اعتماداً على السابقين وتلخيص كلامهم مع حذف ما لا تدعو الحاجة إليه وزيادة ما هو أولى^(٨). ويذكر الشعراء مثل زهير وجريز^(٩). ويضاف إلى الشعر الأمثال^(١٠). ويستعمل الحديث والشعر كشواهد لغوية.

(١) السابق ج٣/ ١٠٢٢.

(٢) الحديث (١٩٦٠)، القرآن (٥٧٢)، الأشعار (٣٠٨).

(٣) وفاء الوفا ج١/ ٦٧/ ٧٣.

(٤) السابق ج٣/ ٧٨٧.

(٥) السابق ص ٥٨.

(٦) السابق ج٤/ ١٣٠٢/ ١٣٢٨.

(٧) السابق ص ٩٤ ج٣/ ٧٧٩/ ٧٨٤/ ٧٨٦.

(٨) «في بقاع المدينة وأعراضها وأعمالها ومضافاتها وأنديتها وجبالها وتلالها ومشهور ما في ذلك من الآبار والمياه والأودية وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك وبالمساجد والأطام والغزوات وشرح حال ما يتعلق بجبهات المدينة وأعمالها من ذلك على ترتيب حروف الهجاء الأول فالأول وربما اعتبرت في المركب المضاف إليه لشهرته. وهذا مما لا يستغنى عنه لعظم نفعه خصوصاً للمشتغل بالحديث واللغة»، السابق ج٤/ ١١١٦-١٣٣٦.

(٩) السابق ج٤/ ١١٨٥/ ١٢٢٥.

(١٠) السابق ص ١٢٠١.

ويمكن دراسة منطق الإبداع ابتداء من اختلاف صيغ الروايات الخاصة بالموضوعات الغيبية مثل الإسراء والمعراج الذي يسمح بإعمال الخيال أو زيارة قبر الرسول. وكان للأشعرية المستقرة أثر واضح في تدوين السيرة خاصة الغزالي^(١). وكان «الإحياء» هو أكثر الكتب انتشاراً^(٢). واستمر نقد المعتزلة^(٣).

ج- «في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م)^(٤)

وتتحول قدسية الرسالة إلى قدسية الرسول إلى قدسية المكان كجزء من الشرائع والخصائص. يتحول تقديس الزمان إلى تقديس المكان وكلاهما خارج الرسالة. فالرسالة لكل زمان ومكان. المكان يهيئ الذكريات. ولا يوجد ضمان أن هذا المكان المرثي كان هذا المكان القديم بعد تطور المدن ونمو العمران. ويتفق الحنين إلى المكان مع المنهج النفسي. فالمكان مرثي في حين أن الزمان يمضي. ولا يبقى منه إلا دورته رأس السنة الهجرية، رمضان، ليلة القدر، ليلة نزول أول سورة من القرآن. يتم الاحتفال بها كل عام في الأعياد والمواسم. والكتاب مزود بمجموعة من الصور والتخطيطات المتخيلة للمدن. تتحول قدسية الرسالة إلى قدسية الرسول إلى قدسية المكان لتزيد في قدسية المكان المتخيل^(٥). وما فائدة صور أوضاع الرسول وصاحبيه في القبر بعد الدفن، طولا وعرضا؟^(٦).

والهدف من تقديس المكان هو إهاجة الذكريات كما يفعل الشاعر العربي القديم في أول قصيدته بالبكاء على الأطلال لفراق الحبيب. فالمكان يذكره بالحبيب وبضرورة البحث عنه والعودة إليه. ويتم ذلك نثرا وليس شعرا. وصاحب السيرة كاتب وأديب ومؤسس الرواية الحديثة. فتنشأ الحركات السلفية وشعارها العود إلى الماضي. تتحول السيرة إلى جزء من أدب الرحلات وفن الكتابة وهم التوثيق. ويحال إلى «حياة محمد»

(١) السابق ج٣/ ٩٤٧/ ٤/ ١١٣٤/ ١٢٢٤/ ١٣٥٥.

(٢) السابق ج٤/ ١٣٩٦/ ١٤٠٢.

(٣) السابق ج٤/ ١٣٥٥.

(٤) محمد حسين هيكل: في منزل الوحي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ٢٠٠٦-١٤٢٧هـ.

(٥) السابق ص ١٥٤/ ٣١٧/ ٣٧١/ ٣٩٧.

(٦) السابق ص ٤٢٦.

باعتباره السيرة وليس «في منزل الوحي»^(١). والسؤال هو: ما فائدة تهيج الذكريات؟ وهي ذكريات فردية وليست جماعية، ذكريات باشا إقطاعي وليست ذكريات عبد أسود دخل الإسلام لتحريره مثل بلال؟ هي جزء من فن الكتابة الرومانسية الوجدانية الحاملة وليست التحليل العقلي الواقعي للرسالة. ولا فرق بين التعبير عن قدسية المكان في الشر الفني أو الأدب الشعبي^(٢).

والخطورة من تقديس المكان هو العودة إليه ورؤيته والحنين إليه وجعل المقدس هي الأماكن الأولى التي نزل فيها الوحي والمدينتين الرئيسيتين «منزل الوحي» كما يدل العنوان. فيصبح أعظم عمل هو زيارة النبي، العمرة والحج والقدرة على حشد الملايين في عرفات^(٣). الخطورة هو تحول الإسلام كنظام مثالي للعالم ومكارم الأخلاق إلى مكان. والمكان بشر ونظام حكم، قبيلة وتسלט وتبعية للأجنبي وقواعد عسكرية له على أرضيه. يتوقف التقدم باسم المكان. ويتحول المكان إلى زمان، والمكان والزمان نظام حكم، فيصبح مقدسا باسم قدسية المكان. يثبت التاريخ الذي يجمع بين الزمان والمكان. ويصبح التقديس للثبات في نفس المكان ونفس الزمان. يتحول الإيمان إلى علم آثار وحفريات. وفي هذه الحالة ما لزوم الحديث عن المدينة الحديثة والتطور والعمران وتوسيع المساجد وزيادة السكان والعمران؟^(٤). الخطورة التحول إلى وثنية جديدة، من وثنية الأصنام إلى وثنية المدن. والعنوان نفسه دال «في منزل الوحي» وربطه بالمكان إلا إذا كان بمعنى «أسباب النزول».

والرسول نفسه ضد قدسية المكان، زيارة قبره، بناء مسجد عليه كما فعل بنو إسرائيل ببناء المعابد على قبور الأنبياء، والنصارى أيضا بدفن أحبارهم في كنائسهم. وقد صرح الرسول بأنه لولا أن قومه حديثو عهد بالكفر لهدم الكعبة خوفا من العودة إلى الوثنية وقدسية الأماكن والأشياء أو لينفق كنزها في سبيل الله^(٥).

(١) السابق ص ١٥.

(٢) مثل «إمتى أزورك يا نبي»، السابق ص ٤٨٣.

(٣) خواطر حاج، أخبار الأدب ٢٢/١/٢٠٠٦.

(٤) في منزل الوحي ص ٣٦٤-٤٥٩، مكة الحديثة ص ٩٥-١١٢، المدينة الحديثة ص ٣٦٤-٣٨٢.

(٥) «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله»، السابق ص ٤٣٥.

ويضم «في منزل الوحي» ستة كتب طبقا لتسلسل الزيارة^(١). أكبرها مدينة الرسول لأنه فيها أنس الدولة الإسلامية الأولى. ليس فيها ذكر للوحي ولا لنزوله في مناسبات، «أسباب النزول»، ولا في تطور الأحكام في «التاسخ والمنسوخ». كلها أسماء أمكنة. وهو تصور يهودي، الوحي مرتبط بالشعب والأرض المقدسة والمدينة والهيكل.

ومع ذلك يظهر الإسلام في إطار تاريخ الأديان المقارن. فعريش الرسول بعد الهجرة يختلف عن عريش موسى^(٢). ولا تستعمل الشواهد الثقيلة، القرآن والحديث والشعر كثير^(٣). فالاعتماد الأكثر على تحليل التجارب الإنسانية. ومع ذلك القرآن أكثر من الحديث، والحديث أكثر من الشعر. فالقرآن هو المصدر اليقيني الأول. والحديث تحيط به الظنون. والنثر بديل عن الشعر. والحديث مجرد ذكريات. قيل في أماكن تهيجها. هو مناسبة لتقديس المكان، واختار لهذا الغرض^(٤). وتظهر بعض الآيات وهي تستعيد بعض الأحاديث وتعيد صياغتها^(٥). وواضح الارتباط بين مصر والحجاز قبل المد القومي الحديث منذ أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات في مصر وسوريا. وكذلك الارتباط بين النظامين السياسيين الملكيين في مصر والسعودية. فقد كتب «في منزل الوحي» بناء على دعوة رسمية لزيارة الأراضي المقدسة من الملك لأحد باشوات مصر^(٦). وشفعتها زيارة الأمراء^(٧). وهناك أقسام من فصول حول الأسرة الملكية الحاكمة^(٨).

(١) وهي: أ- فرض الحج (٦٨) ب- البلد الحرام (٣٠) ج- اللطائف وآثارها (٧٢) د- بين الحرمين (٣٦) هـ- مدينة الرسول (١٢١) و- أوبة الرضا (٣٣).

(٢) «ابن أبي عريش كعريش موسى، ثمامات وخشبات، وظلة كظلة موسى. والأمر أعجل من ذلك... كان إذا قام أصاب رأسه السقف»، في منزل الوحي ص ٣٤٧.

(٣) القرآن (٦٤)، الحديث (٢٤)، الشعر (١٥).

(٤) مثل «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»، في منزل الوحي ص ٣٤٣.

(٥) مثل قول الرسول لأبي بكر وهما في الغار «لا تحزن إن الله معنا»، السابق ص ١٩٩.

(٦) «وفي مساء اليوم الأول لقيت الملك ابن السعود فاستأذنته في مغادرة مكة، وشكرت له معونته ومعونة حكومته إياي في بحوثي»، السابق ص ٢٩٨.

(٧) «زرت الأمير عبد العزيز بن إبراهيم غير مرة، زرت في ديوان الحكم، وزرت في داره. وتناولت طعام الغداء على مائدته. وشاركته في طعام خفيف آخر الأسمية دعاني إليه ابنه إبراهيم... وإبراهيم ابن الأمير فتى لم يتجاوز الخامسة عشرة فيأ أرى. وهو وسيم الطلعة في زيه العربي، حاد النظرة عن عينين سوداوين فيها حور، عمشوق القوام، رقيق المظهر، ليس فيه شيء عن هذه الخشونة وهذا البأس اللذين يبدوان في نظر أبيه وفي حديثه... وتناولت طعام الغداء يوم سفري من المدينة على مائدة أحد أعيانها...»، السابق ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٨) ابن السعود بمكة، السابق ص ١١٣-١٢٨.

وتبدو الثقافة الغربية في الخلفية الثقافية، كمرآة تعكس صور المكان، الشعر الفرنسي وأسماء الأدباء الغربيين ومعركة ووترلو^(١). وأحياناً يوضع اللفظ أو التعبير بلغته الأصلية^(٢). كما تظهر بعض الألفاظ المعربة بالرغم من وجود مرادفها العربي مثل «الأوتيل»^(٣).

٨- النسب:

أ- «الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة» للبري (٦٨١هـ)^(٤)

وهنا تدور السيرة حول النبي، نسبه وأصحابه، بين الافتراض والواقع. فالنسب إلى آدم افتراض مثل نسب المسيح في أول الإنجيل. أصحابه العشرة واقع تاريخي معروف بالتواتر. وهو ثلاثة وخمسون نسباً، أربع وثلاثون قبيلة وبطناً وتسعة عشر جزءاً^(٥). منهم من يسمى بلفظ «بنو» ومنهم من يسمى بلفظ «بطون». ومنها من يسمى بلفظ «قبائل»^(٦). ومنها ما يسمى باسم القبيلة. ومنها ما يسمى باسم شيخها^(٧). وقريش وحدها هي التي تذكر كقبيلة ومناقب. ومنها ما يطلق عليه لفظ إجماعي مثل «القارة». وهو نسب قبلي افتراضي كلما أوغل في القدم^(٨). لا يدور لا حول الرسالة ولا حول

(١) السابق ص ٢٠٨/٩٧/٤٧٦.

(٢) مثل The empty quarter ، السابق ص ٢٢٩.

(٣) السابق ص ٤٦٣.

(٤) محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني البري: الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (جزءان)، تحقيق وشرح الدكتور محمد التونسي، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات ١٤٢١هـ-٢٠٠١م

(٥) القبائل: بنو زهرة، بنو مخزوم، بنو غفار، بنو أسد، بنو ضبة، بنو بهدلة، بنو أنف الناقة، بنو ثعلبة بن يربوع، بنو كليب بن يربوع، بنو غذافة بن يربوع، بنو رياح بن يربوع، بنو ربيعة بن مالك، بنو العنبر، بنو الهجيم، بنو ملكان بن أقصى، بنو وائل بن مغن، بنو قزاة، بنو بهثة بن ساييم، بنو جشيم، بنو قشير، بنو ربيعة بن نزار، بنو أوس بن مناة، بنو قيس بن ثعلبة.

(٦) مثل بطون قضاعة، قبائل بكر بني وائل.

(٧) مثل قريش، صاهلة، هذيل، مزينة، باهلة، ثقيف، الأراحم، المنكدر وربيعة.

(٨) عبد مناف بني قصي، قصي بن كلاب، عبد الدارين قصي، كلاب بن مرة، كعب بن لؤي، لؤي بن غالب، فهد بن مالك، الدئل بن بكر، غنم بن دودان، إلياس بن مضر، عبد مناة بن اد، مضر بن نزار عيسى بن بغيض، هوازن بن منصور، مازن بن منصور، نزار بن معد بن منصور، إياد بن نزار، معد بن عدنان.

الرسول بل حول عشيرته وقبيلته وأنصاره أي حول البشر، حوله في الماضي أو الحاضر طبقا للقرابة الشخصية للرسول. وهو ما يتعارض مع سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي. والتبويب طبقا لأسماء الأعلام والقبائل أو رؤسائها. وهي وحدات مستقلة عن بعضها البعض. المولد والحياة والوفاة. الرسول فقط نقطة إحالة في التاريخ. الرسول والحديث وسيلة لمعرفة الأنساب. يشع على الأنساب والأصحاب. ومن أقارب الرسول من مات في الحرب. كلهم مؤمنون فالأنساب ليست تاريخا بل أقارب مسلمين. ليست توالدا عرقيا بل كل من يتعلق بالرسول في الدين الجديد. فهي أنساب إسلامية عقائدية. فالتشخيص ليس فقط للرسول بل لكل بيئته الاجتماعية. وهو ما يعني الأنساب. وكلها بعد الإسلام وليس قبله في حين أن الأنساب تعني ما قبل ولادة الرسول. وكثيرا ما لا يتطابق اسم العلم والمادة المذكورة. مما يدل على أنه مجرد مناسبة لتجميع الأخبار. فالأنساب أقرب إلى التاريخ الخالص قد يتحول إلى تاريخ رسدي، مجرد رصد أسماء، معلومات بلا دلالة^(١).

وتستمر الأنساب في الصحابة العشرة كما هو الحال في السير التي هي جزء من التاريخ العام^(٢). والمصدر أقوال الرسول. ويصاب القارئ بالحزن للقتال الداخلي في الفتنة الكبرى، والتكالب على الدنيا، والصراع على السلطة.

وتعتمد الأنساب على الحديث أولا، والشعر ثانيا، والقرآن ثالثا كمصادر لها^(٣). وتكثر الأحاديث وتتضخم بصرف النظر عن درجة صحتها، أكثر مما قاله المسيح حتى مع الأخذ في الاعتبار مدى حياة كل منهما ثلاثا وعشرين سنة في مقابل ثلاث سنوات. وليست للأحاديث أي دلالة موضوعية كما هو الحال في علم الحديث إلا أن القصد منها رواية أقوال الرسول. تستعمل فقط مصدرا للتاريخ، تاريخ الرسول

(١) «ذكر نسب رسول الله للأبناء الكرام أولي الكارم والمآثورات والأمهات العقائل المحصنات، وذكر من اشترك معه النسب من القبائل، وذكر البطون منهم والأفخاذ والقصائل، وذكر من آمن به، وصحبهم من أبناء السعداء، ومن اشتهر منهم بليان أو منقبة في الجاهلية الجاهلاء وذكر من قتله الله منهم على استهزائه وكفره في غزوات أيدته الله فيها بنصره»، الجوهرية جـ ١/ ٣١، السابق جـ ٢/ ٣٣٠-٣٣٣/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) وهم: أبو بكر، عمر، عثمان، علي الزبير، طلحة، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد، أبو عبيدة بن الجراح، السابق جـ ٢/ ١٠٧-٣٧٠.

(٣) الأشعار (٥٤٥)، الأحاديث (٥٣٢)، الآيات (١١٦).

والصحابه. فالأنساب لا تعني النسب العرقي بل العلاقات بين الرسول وأصحابه وقومه. الرسول هنا مؤرخ مثل المحدث البخاري^(١). وتذكر الآيات بمناسبة أسباب النزول. فالأنساب أيضا تاريخ للقرآن. ومن الشعراء مشهورون^(٢). ومنهم مقاتلون^(٣). وبالإضافة إلى الشعر والحديث والقرآن هناك بعض المصادر التاريخية نظرا لارتباط علم السيرة بالتاريخ. فالسيرة جزء من التاريخ. هي التاريخ الخاص وسط التاريخ العام مثل الطبري والواقدي^(٤). كما تعتمد السيرة على كتب السيرة الأولى مثل ابن إسحق وابن هشام^(٥).

ويحتوي الجزء الثاني على موضوع السيرة التقليدي عن شخص الرسول، جده، وأمهاته، وعمومته، وعلمته وأمه وأزواجه وخدمه ومواليه وخيله وكتابه وشأئله وفضائله وحجة الوداع مع وفاته. تجمع بين الجانب الموضوعي في السيرة والجانب الذاتي. وكلاهما حول شخص الرسول وليس حول الرسالة وما أحلها كما فعل ابن إسحق وابن هشام من قبل.

ب- «استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف» للسخاوي (٩٠٢هـ)^(٦)

وفيه تمتد الشئائل من الرسول إلى آل البيت، وتشع الفضائل منه إلى أقربائه وأصحابه. وهو ما يجعل الفضل محصورا في أسرة أو قبيلة كما يحدث في نظم التورث في النظم السياسية الحديثة. والعنوان طويل مفتعل يحرص على القافية أكثر مما يحرص على البساطة والموضوع. وسبب التأليف هو اختصار ما توسع فيه القدماء^(٧). يضم

(١) الشعر، الجوهرة ج١/ ٢١-٢٨.

(٢) مثل كعب بن زهير، السابق ج١/ ٢٣٨.

(٣) السابق ج١/ ٣٥١.

(٤) الطبري، السابق ج١/ ٨٧، ج٢/ ٥٧-٥٨، ج٢/ ١٤٢/ ٢٩٦/ ٢٩٩/ ٣٠٣، الواقدي ج٢/ ١٥٤/ ١٦/ ٥/ ١٨٦/ ٢٠٩/ ٢٧١/ ٢٧٥/ ٣٥٩، وأيضا المبرد للكامل ج٢/ ٢٧٦، والحدائق ج٢/ ٢٠٩.

(٥) السابق ج٢/ ١٣٥-١٣٦.

(٦) السخاوي (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف، تحقيق ودراسة خالد بن أحمد الصمي بابطين (جزءان)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٧) السابق ص ٢٢٢-٢٢٦.

أحد عشر باباً: وصية النبي، الحث على حب آل البيت، الصلاة عليهم، دعاؤه بالبركة، بشارتهم بالجنة، الأمان ببقائهم والنجاة باقتنائهم، خصوصياتهم الدالة على كرامتهم، إكرام السلف لآل البيت، مكافأة الرسول لمن أحسن إليهم، الإشارة إلى الفتنة، التحذير من بعضهم. والأخير هو أكبر الأبواب^(١).

ويعتمد على الحديث والشعر والقرآن^(٢). والحديث مرويات. وكثير من الموضوعات تبدأ بلفظ «أحاديث» أو «حكاية»^(٣). وبعد بعض الأحاديث «فوائد» أو «تعليق» أو «لطيفة»^(٤). ويتم التحقق أحياناً من القول^(٥). كما يمكن نقد القدماء^(٦). فالعقل ضروري للنقل حتى يكون النقل مقبولا^(٧). والكتاب له قرين هو «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى»^(٨). كما يعتمد على كثير من القدماء^(٩).

ج- «إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل آل بيته الطاهرين» للشيخ الصبان (القرن الثاني عشر)^(١٠)

ويظهر فيه أيضاً التحول من الرسالة إلى الرسول. ويمتد الرسول تاريخياً إلى آل

(١) «وصية النبي ص ٣١٠-٣٩١ (ص ٨٢) ٢- الحث على حبهم ص ٣٩٢-٤٤٢ (ص ٥١) ٣- الصلاة عليهم ص ٤٤٣-٤٥٤ (ص ١٢) ٤- دعاؤه بالبركة لهم ص ٤٥٠-٤٥٨ (ص ٩) ٥- بشارتهم بالجنة ص ٤٥٩-٤٧٦ (ص ١٧) ٦- الأمان ببقائهم والنجاة باقتنائهم ص ٤٧٧-٤٩٣ (ص ١٧) ٧- خصوصياتهم الدالة على كرامتهم ص ٤٩٤-٥٦٢ (ص ٦٩) ٨- إكرام السلف لأهل البيت ص ٥٦٣-٥٨٥ (ص ٢٣) ٩- مكافأة الرسول لمن أحسن إليهم ص ٥٨٦-٥٩١ (ص ٦) ١٠- الإشارة إلى الفتنة ص ٥٩٢-٥٩٩ (ص ٨) ١١- التحذير من بعضهم ص ٦٠٠-٧٢٦ (ص ١٢٧) ١٢.

(٢) الحديث (٣٢٨)، الشعر (٤٥)، القرآن (٣٢).

(٣) أحاديث (١٩)، ارتقاء الغرف ص ٣٣٦-٣٩١ «حكاية» (١٠) ص ٦٧٩-٦٨٩.

(٤) فوائد الحديث ص ٣٦٤-٣٦٥ / ٣٧١. فائدة ص ٤٦٢ / ٤٩١-٥٥١ / ٦٢٠-٦٢١ / ٦٣١-٦٥٨ / ٦٦١، لطيفة ٥٢٨-٥٤٢ / ٥٥٠-٥٥٤ / ٦٦٧.

(٥) ارتقاء الغرف السابق ص ٥٦٧-٥٧٢.

(٦) السابق ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٧) السابق ص ٢٢٢.

(٨) وهو من تأليف الإمام الحافظ المحدث فقيه الحرم أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري ثم المكي الشافعي (٦٩٤هـ)، السابق ص ٢٢٣.

(٩) ذكر طائفة من الكتب التي ألقت فيها حصل على أهل البيت من القتل والشدة، السابق ص ٥٩٢-٥٩٩.

(١٠) الصبان (الشيخ محمد بن علي): إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل آل بيته الطاهرين (تأليف ١١٨٥) هامش نور الأبصار، دار الفكر (د.ت).

البيت، الأموات والأحياء. ويضم الكتاب ثلاثة أبواب: الأول سيرة الرسول، مولده وزواجه بخديجة، وتعبده، ونزول الوحي عليه. ودعوته وهجرته، ومغازيه، وحليته، ومعجزاته، وخصائصه طبقاً لأحكام التكليف الواجب والمحرم والمباح، وعباراته، وأولاده وأعمامه، وفضل أزواجه وخدمه. وهل أولاده وأزواجه وخدمه جزء من الوحي؟ والثاني فضل آل البيت ومزاياهم على العموم أو الخصوص. والثالث جماعة من أهل البيت مدفونون في مصر، وهو أكبر الفصول^(١). وينتهي «بسيدنا الإمام الشافعي» مما يدل على تقديس الشافعي كآل البيت^(٢).

ومن آل البيت رجال ونساء، أحد عشر رجلاً وست نساء^(٣). وكلهم موضع تجيل واحترام وتقديس في الثقافة الشعبية. تحولت أسماؤهم إلى مساجد وأحياء وأماكن مباركة. وتطغى علوم التصوف على علوم السيرة. وتأتي المادة من الشعراني وابن عربي والحسن البصري والشاذلي والمناوي أكثر مما تأتي من ابن إسحق وابن هشام. لا فرق بين الرسول في علوم السيرة والحقيقة المحمدية في علوم التصوف^(٤). وكرامات آل البيت مثل كرامات الصوفية.

اتحد السنة والشيعة في علوم السيرة المتأخرة. واجتمعوا على حب آل البيت. وأصبح آل البيت هم الاستمرار الطبيعي للرسول في التاريخ سواء كانوا من الصحابة أو من ذرية الرسول. وكانت مصر هي الموطن الذي اجتمع فيه الشيعة والسنة على حب آل البيت أحياء وأموات. فقد دفن معظمهم في مصر، والمصريون سنة ولكن هواهم شيعي. يتفق

(١) السابق، الباب الأول: سيرته ص ٧-١١٢ (١٠٦ ص)، الباب الثاني: في فضل آل البيت ومزاياهم على العموم أو خصوص اثنين فأكثر ص ١١٣-١٦٠ (٤٨ ص). الباب الثالث: الكلام على جماعة من أهل البيت مدفونين بمصر ص ١٦١-٢٧٣ (١١٣ ص).

(٢) السابق ٢٥١-٢٧٣.

(٣) الرجال: المهدي من ولد فاطمة، الحسن بن علي، الحسين بن علي، السيد حسن والد السيدة نفيسة، السيد محمد الأنور، علي زين العابدين، إبراهيم بن الإمام زيد، موسى الكاظم، جعفر الصادق، محمد الباقر، الإمام الشافعي. النساء: فاطمة الزهراء، السيدة زينب، السيدة رقية، السيدة سكينة، السيدة نفيسة، عائشة بنت جعفر الصادق، الباب الثالث: في الكلام على جماعة من أهل البيت مدفونين بمصر، السابق ص ١٦١-٢٧٣.

(٤) من الفناء إلى البقاء ج ٢: الوعي الموضوعي. الشعراني ص ١٥٤/٢١٨/٢٢٩/٢٣٠/٢٣٣/٢٤٤، الحسن البصري ص ٧٥. ابن عربي ص ١٥٤/١٣٧، أبو العباس المرسى ص ٢٤/١٩٢/الشاذلي ص ٢٣٤، المناوي ص ٢٣٥/٢٥٠.

كلاهما على المهدي وظهوره. ومعظم آل البيت مدفونون في مصر، بلد الراحة والسلام. أقوالهم حجة مثل أحاديث الرسول. كلها أخلاق مثل كلمات الرسول. فآل البيت استمرار للرسول في التاريخ.

وكل الأحاديث المروية عن الرسول أحاديث نمطية في أشكال أدبية مصاغة سلفا مثل الصيغ الشرطية أو الأمرية أو الخبرية في توصيات أخلاقية خالية من الغيبيات. ومع ذلك هناك إمكانية لنقد الروايات لوصف بعضها بأنه «تفسير غريب»^(١). وتعتمد على المنقولات بين قوسين بحرفي «أ هـ» أي انتهى. لا جديد فيها إلا النقل من السابقين. تجمع وتكرر^(٢). أقصى ما تعطيه هو شرح للنصوص المنقولة^(٣). وتعتمد على علم التفسير^(٤). كما تعتمد على الشعر ولو بصورة أقل كما يفعل القدماء^(٥). وبالرغم من الطابع الموضوعي للسيرة وهدوئها إلا أن الإنسان يحزن على مصير الرسالة وضياعها في التاريخ واستشهاد الأئمة.

د- «نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار» للشبلخي (القرن الثالث عشر)^(٦)
وهو كتاب في الشرائع كما يبدو من العنوان، ولكن يمتد أيضا من الرسالة إلى الرسول في الصحابة وآل البيت. فالتاريخ ممتد في ذرية الرسول، لا فرق بين سنة وشيعة بعد إن جمعهم الدين الشعبي. فالرسول جزء من التاريخ، وقائد من قواده. ويشبه «إسعاف الراغبين» و«السير المتأخرة». والمؤلف مصري، هوام مع آل البيت. وتذكر فضائل مصر. أولاد النبي وذريته جزء من النبوة^(٧). رأس الحسين جزء جوهري فيها بما تثيره من أشجان وأحزان^(٨). انحرفت السيرة مرتين الأولى من الرسالة إلى الرسول، والثانية من الرسول إلى آل البيت.

(١) السابق ص ١٤٧/١٦٩.

(٢) السابق ص ٨٢-٨٨/١٦٥-١٨٥.

(٣) السابق ص ٥٧-٦٥/٢١٧/١٩٥.

(٤) السابق ص ١١٧.

(٥) السابق ص ٢٩/٢٤٣.

(٦) الشبلخي (الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن): نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، دار الفكر (د.ت).

(٧) السابق ص ١٩٠.

(٨) السابق ص ١٤٧-١٥٢.

ويتضمن «نور الأبصار» أربعة أبواب: الأول سيرة الرسول وخلفائه الأربعة. فالرسول ممتد في التاريخ. لا فرق بين النبوة والخلافة. وهو ما يقوله الشيعة بأنه لا فرق بين النبوة والإمامة. وفي سيرة الرسول يُفضل التنبؤ به في محاورة بين عمر وعثمان، وبين أبي بكر وعلي، وحلم الشافعي. ثم يذكر نسبه وولده ورضاعته وتعبده، وتأمير قريش عليه، وإسراؤه، وشق صدره، وهجرته، وبعض خصائصه، ودلائل نبوته، وأسماءه وألقابه وكنائه، وشيئله ومعجزاته، ومزاحه وأحاديثه، وغزواته وسراياه، وبعوثه وسراريه، وأولاده وخدمه ومواليه، ونقباءه ونجبائه وخواريجه ونوابه، وأمراءه وكتابه، وحرسه ومؤذنيه وقضائه وشعرائه وإخوته، وحيواناته وسيوفه ودروع، وحرابه ومجنه وقضييه، ومرضه، ودفنه. ومعظمها خارج مهمة الرسول ووظيفة تبليغ الرسالة^(١). وما قيمة ذلك كله في حمل الرسالة وتبليغها، الذرية والخدم، والموالي وحيواناته؟ وتدخل مناقب الخلفاء الأربعة مع الرسول، أبي بكر مع بعض كلامه، وعمر وبعض كراماته ونوادره وكلامه وأولاده، وعثمان وأولاده، وعلي ومناقبه وكلامه وشجاعته، ووقعة الجمل والتحكيم والخوارج، وأولاده ومقتله. ثم إضافة محمد بن الحنفية والحسن والحسين، وبعض الغرائب والفوائد المهمة. وهو أكبر الفصول^(٢). والثاني مناقب الحسن والحسين وباقي الأئمة الاثني عشر^(٣). مناقب الحسن ومصالحة معاوية وكلامه وكرمه ومرضه مع الإفاضة في رأس الحسين ونقلها ودفنها ولعب يزيد بها لإثارة

(١) السابق ص ٦-٥٩.

(٢) السابق ص ٥٩-١٢٢.

(٣) وموت أولاده، ومناقب زيد الأبلج، الحسن المثنى لدى الحسن السبط، ومناقب الحسين السبط واستشهاده ورأسه وكراماته وأولاده، ومناقب زين العابدين بن الحسين ووفاته وأولاده وكلامه، ومحمد الباقر بن علي زين العابدين وكراماته ووفاته وأولاده، ومناقب جعفر الصادق بن محمد الباقر وكراماته ووفاته وأولاده وكلامه، ومناقب موسى الكاظم بن جعفر الصادق ووفاته وأولاده، ومناقب سيدنا علي الرضا بن موسى الكاظم ومروياته، وولاية العهد من المأمون لعلي الرضا وكراماته ووفاته وأولاده، ومناقب محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، ووفاته وأولاده، ومناقب سيدنا علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا وكراماته، ومناقب الحسن الخالص بن علي الهادي العسكري وكراماته ووفاته وولده، ومناقب سيدنا محمد ابن الحسن الخالص بن علي الهادي، وأخبار المهدي ومروياته، السابق ص ١٢٢-١٣٧، السابق ص ١٣٧-١٨٩.

العواطف. وهو ليس في حاجة إلى ذلك^(١). فالشهيد شاهد، والقاتل قاتل^(٢). وكل إمام هو «سيدنا»، ومن النساء «السيدة». والمهم هي عهودهم النيامية للخلفاء. والثالث ذكر جماعة من آل البيت لهم بمصر والقاهرة مزارات مشهورة ومساجد معمورة، سبع سيدات وخمسة رجال. وتمة على قراقة مصر^(٣). والرابع مناقب الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل^(٤). فالسيرة تجد تحقيقها في المذاهب الفقهية الأربعة. وخاتمة الكتاب في ذكر مناقب الأقطاب الأربعة الصوفية: أحمد الرفاعي، عبد القادر الجيلاني، أحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي. ثم يختتم بقطب آخر هو أبو الحسن الشاذلي. فكمال السيرة في التصوف. ويتحقق مناط النص في الصحابة والأئمة. فالدلالات والمعاني العامة للنصوص لا تكفي بل لابد من تلييسها إلى أشخاص معينين هم المراد تبجيلهم وتعظيمهم^(٥). وتطغى علوم التصوف على علوم السيرة كما هو الحال في «إسعاف الراغبين» فذكر كرامات الأئمة كما يذكر الصوفية كراماتهم. ويحال إلى الشعراني وإلى البردة. ويحال إلى «إحياء علوم الدين» للغزالي^(٦).

وتكثر معجزات النبي وآياته بحيث لا يمكن التمييز بين ما هو متواتر منها وما هو آحاد، بين رواية صحيحة ورواية موضوعة، بين الآية والأسطورة^(٧). وكثير منها منقولات خرافية من كتب التفسير. وتتوالى الخرافات والأساطير واحدة تلو الأخرى. وذلك مثل رجم الشياطين، وإيمان جن نصيين، وتعزية الأنبياء في مقتل الحسين. وتتضخم رواية الإسراء والمعراج. ويبدع الخيال تفصيلات في شكل البراق وأجنحته وأحجاره الكريمة وألوانها وأحاديث السماء. وتتناول «الكتب الصفراء» السيرة. فهي مجال خصب لإبداع الخيال وصياغة الدين الشعبي^(٨).

(١) رأس الحسين، السابق ص ١٤٧-١٥٢.

(٢) السابق ص ٢٢٣-٢٢٥.

(٣) السابق ص ٢٢٥-٢٥٢.

(٤) السابق ص ٢٥٢-٢٧٣.

(٥) السابق ص ٧.

(٦) السابق ص ٩٦، الشعراني ص ١٤٧/١٤٩/١٩١/٢٤٧/٢٥٠/٢٥٣.

(٧) السابق ص ٦.

(٨) السابق ص ١٥/١٨/١٤٩.

وفي الأحاديث لا يذكر السند بل يكتفي بالمتن ورواته الأواخر لأن المتن غير صحيح مشبع بالخرافات والأساطير. وتتوالى الأحاديث عندما تتحول علوم السيرة إلى علوم الحديث^(١). وهي أحاديث أقرب إلى الوضع لأنها كلها نفس الصياغة الشرطية أو الأمرية أو الخبرية. وأحيانا يتحول الحديث إلى غاية في ذاته وليس فقط مصدراً للسيرة. فتحولت السيرة إما إلى علم الحديث أو علم التاريخ. ويحال إلى المقرئ^(٢). ويكثر الاعتماد على الشواهد الشعرية للتأثير على العامة. فالشعر عاطفة وخيال^(٣). وتكثر الاقتباسات التي يدل عليها الحرفان «أه» اختصاراً للفظ «انتهى» مثل تأليف الأساتذة الذين ليس لديهم شيء يقولونه حالياً^(٤).

(١) السابق ص ٣٤-٤٣.

(٢) السابق ص ٢٥٤.

(٣) استعمل حوالي ٢٢٥ شاهداً شعرياً في «نور الأبصار».

(٤) السابق ص ١٤٧.

[illegible]

1. *Phragmites* (common)

11. 10. 1991

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

Journal of Management Education

الفصل الثاني

تشخيص الرسول

أولاً - مقدمة عامة:

١ - من الرسالة إلى الرسول

وهناك مسار طبيعي في التشخيص من الإنسان العادي إلى الشخص المقدس، من الرسول إلى صاحب الرسالة ومبلغها إلى الرسول الإلهي المصطفى المختار، من الرسول والمرسل إليهم إلى الرسول والمرسل، من البعد الأفقي إلى البعد الرأسي، من الرسول العادي ابن المرأة التي كانت تأكل القديد، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى الرسول الذي يضارع عيسى في ميلاده، وموسى في معجزاته.

والتشخيص مسار طبيعي للفكر الديني، وفي كل دين، في المسيحية والتحول من المسيحية دين الإنسان إلى المسيح ابن الله، وفي اليهودية من عزير الكاتب إلى عزير ابن الله، وفي البوذية، من بوذا النبي إلى بوذا الإله، وفي إحدى الديانات الصينية، تحول لاوتزي من النبي إلى الإله.

ومع ذلك قاومت ديانات أخرى هذا التحول مثل الكنفوشوسية. فقد ظل كونفوشيوس معلماً ولم يتحول إلى إله لأنه لا يوجد مفهوم الإله في الديانات الصينية. فهي ديانات أخلاقية طبيعية تحدد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، والإنسان والمجتمع، والإنسان والدولة، والإنسان والطبيعة. والسبب في ذلك غياب مفهوم

التعالى أو المفارقة، وإنزال كونفوشيوس «كتاب التغيرات» الذي يغلب عليه تعدد الآلة من السماء إلى الأرض وتحويله الدين إلى أخلاق، والأساطير إلى علاقات اجتماعية.

هناك سير همها التركيز على هذا الجانب الأسطوري في حياة الرسول كما هو الحال في السير الشعبية التي تلقى في الأفراح من المنشدين، مثل سير أبي زيد الهلالي والزناقي خليفة. تجمع بين التعظيم والتقديس والبطولة والخيال الشعبي والصور الفنية. وهي سير يفتقد عصرها إلى البطل، والقائد والرمز والمخلص مثل يسوع المسيح.

تحول علم السيرة إلى المولد النبوي والهجرة كأعياد رسمية في الميلاد والأدعية للرسول، والاستغاثة والاستعانة به على قضاء الحاجات، فأصبح الرسول واسطة بين العبد والرب. وتضخم شيئاً فشيئاً حتى أصبح كالحقيقة المحمدية عند الصوفية. هو موضوع الابتهاالات الدينية والأدعية إلى حد التأليه كما هو الحال في الدين الشعبي. ويظهر الرسول في المنام للصالحين، يرشدهم إلى الخير أو يحذرهم من الشر أو يلهمهم الصواب أو يبعدهم عن الخطأ. وفي الفن الإسلامي عند الشيعة تُرسم صورته مع صور الخلفاء والصحابة كما هو الحال في رسم صور المسيح في الفن المسيحي. ويكتب اسمه على عربات الطعام مع الله، كل اسم في ركن وبعض الخلفاء. أبو بكر أو عمر أو علي في الأركان الأخرى على الزجاج بالألوان. كما يكتب على ظهور عربات النقل والأجرة حماية لها من مخاطر الطريق. ويكتب كقطع من الباغ أو النحاس أو الفضة أو الذهب للتعليق على الأعناق لتزيين جيد النساء أو للحفاظ من العين والحسد. أصبح اسم «محمد» نوعاً من «الديكور» الذي يجمع بين الجمال والإيمان، بين البصر والبصيرة، بين البركة والخوف، بين تمني الخير وتجنب الشر، بين طلب الثواب واستبعاد العقاب. لا أحد يفكر في الرسالة بل يفكر الكل في الرسول. لا أحد يفكر في القضية بل يتحول التفكير إلى حاملها ومبلغها وأداتها. ويبلغ حد التقديس إلى تصويره حياً، وإهداء الكتب إليه مع كثير من عبارات المدح والإطراء^(١). فهو حاضر بشخصه أكثر من حضوره برسالته.

(١) «إلى خير من طلعت عليه الشمس، وسيد من أقلته الأرض وأظلمت السماء. إلى السراج المنير الذي انبثق في غياهب الجاهلية والناس يتيهون في يداوات الجهل والتعصب والتقليد. فأثار الطريق للساثرين، وكشف الله به موضحات الأعلام. إلى البشير النذير الذي من الله ببعثه على الإنسانية كلها. فدعا إلى الله بإذنه، وضرب المثل الأعلى للإنسان الكامل في قوله وصمته، وفي سره وجهه، وفي فعله وتركه، وفي أحواله كلها، إلى صاحب المقام المحمود، والخصم المورود، ومن آتاه الله الفضيلة والوسيلة والدرجة العالية الرفيعة، إلى الذي وسعت نفسه ما بين الأرض وسماها، واكتملت فيه الإنسانية بمعانيها وأسائها، وأدب الله. فكان تمام الآداب وحليتها وإنسان عينها، إلى رسول الله وخبرته من خلقه، إلى من خصه الله بختم الشرائع،

وكما كانت السيرة منبرا للدفاع عن الرسول وتعظيمه وإجلاله إلى درجة التقديس كانت أيضا منبرا للطعن عليه مثل زواجه من زينب بنت جحش طليقة مولاه زيد الذي كان بمثابة ابنه، وزواجه من عائشة قبل البلوغ. مكثت في بيته حتى البلوغ ثم بنى بها، وكثرة أزواجه. وقد وجد بعض المستشرقين في ذلك مجالا خصبا للتجريح والطعن وتشويه الإسلام بتشويه صورة الرسول حتى الرسوم الدانمركية الأخيرة التي أثارت العالم الإسلامي كله غضبا أكثر مما أثار احتلال مدينة القدس وتهويدها، واحتلال فلسطين والعراق وسوريا وأفغانستان، والحروب الأهلية في الصومال والسودان وتشاد، والخلافات بين المغرب والجزائر حول الصحراء، واضطهاد المسلمين في بورما وتايلاند والفلبين والصين.

وكان الرسول دائما يقول «الله ورسوله» في عطف واحد. وهو ما نقده بنفسه عندما جمع أعرابي بينهما وقال له «بئس خطيب القوم». وشتان ما بين الاثنين. فلا يقرنان. فإن القرن أحد أسباب التشخيص ثم التقديس ثم التأليه. ويكفي تسميته الرسول لأن «رسول الله» تجعله باستمرار مقرونا بالتأليه وهو مما يساعد على التشخيص. وهو ليس بمفرده رسول الله أو نبي الله بل كل الأنبياء والرسل السابقين من آدم حتى عيسى. رسول الله خطوة نحو «ابن الله» كما حدث في المسيحية. والرسول سمي نفسه محمد بن عبد الله عندما رفض المشركون في صلح الحديبية البداية بمحمد رسول الله، وعندما نادى الرسول في هوازن على المسلمين بأنه محمد بن عبد الله^(١). ويظهر الرسول كما يظهر الأبطال والزعماء والثوار. إذ تركز السيرة على شخصه وحكمته، وإبراز قراراته الفردية بالحكم والموت على الأعداء، خاصة في وقت يفقد فيه الناس الزعامة، وفي ثقافة مازال الزعيم فيها هو العصب المحرك.

وتشخيص النبوة مثل تشخيص التوحيد، تحويل المبدأ إلى شخص. التشخيص في التوحيد تجسيم وتشبيه. والتشخيص في النبوة تحول من الرسالة إلى الرسول، ومن المحمول إلى الحامل. وهو نوع من التجسيم والتشبيه، وعود إلى الوثنية من الباب

وزينه بالتقوى، وجعل أكبر شعاره، والعدل حليته، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد في الأمور كلها سيرته، والرشد سته. أقدم هذا الكتاب لأنه بعض أحاديث الأجيال عنه والحديث عنه، نور العين وجلاء القلب، ابن هشام، ج ١ ص ٣.

(١) السابق ج ٢ / ٢٧١ / ٣٧٥.

الخلفي، بدلا من الصنم القديم الشخص الجديد. وكلاهما يقوم بنفس الوظيفة في التوسل والاستغاثة^(١).

وقد جمعت أقواله في آخر السيرة المركزة كما والكثيرة الاستعمال كيفا. تتنوع بين الأخلاق والسياسة بعضها حقائق في صيغة خبرية، والأخرى أوامر ونواه. كثير منها موجه إلى الأنصار. وهي بديل عن شخصه. تحجرت أقواله في جزء خاص، وأصبحت جزءا صغيرا من السيرة بعد أن امتد الشخص وأصبح هو السيرة كلها^(٢).

وفي علم السيرة المتأخر يظهر أثر الفرق الكلامية ووضع الأحاديث ضد هذه الفرق أو تلك مثل الأحاديث التي وضعت ضد المعتزلة «محبوس هذه الأمة»، أو ضد الخوارج «التي تخرج من الدين كما يخرج السهم من الرمية»^(٣).

وقد أجريت عدة دراسات نقدية على سير القدماء وتصنيفها في تيارين: تيار الغلو الذي يعطى الرسول أكثر مما يستحق، ويجعله فوق رتبة البشر والتي قد تصل إلى درجة الألوهية، والوجود الكوني السابق على الخلق، كما هو الحال في نظرية الحقيقة المحمدية عند الصوفية. وتيار الجفا الذي يعطي الرسول أقل مما يستحق وينكر النبوة والمعجزة. الأول عند الشيعة والصوفية، والثاني عند المستشرقين وبعض العلمانيين. ثم يأتي الدفاع عن موقف فقهي وسط بين الغلاة والجفاة. ولما كان الموقف الوسطي أقرب إلى أحد الطرفين كان الموقف الفقهي النصي أقرب إلى موقف الغلاة. وكما يمكن نقض روايات الغلاة يمكن أيضا نقد روايات الجفاة أو إعادة تأويل متونها، وحل التعارض بينها. المفاصد في العقائد المترتبة على الأحاديث الموضوعية كثيرة. ولم يقتصر الأمر على السيرة وحدها بل امتد إلى باقي العلوم العقلية العقلية مثل الفلسفة، والعلوم الذوقية مثل التصوف، والعلوم الكلامية مثل الفرق الإسلامية. وهو موضوع مطروح في الهند وباكستان خاصة بعد ظهور القاديانية، والباية، والبهاية، التي يدعي مؤسسوها أنهم

(١) محمد، الشخصي أم المبدأ؟ الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١، ٧-اليمين واليسار في الفكر الديني ص ١٦٣-١٦٧.

(٢) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ص ٥٠٤-٥٠٦ (حوالي مائة وخمسين حديثا).

(٣) «أنه سيكون في أمي أقوام يكذبون بالقدر»، محمد رسول الله ح ١١٣/٢.

أنبياء تلقوا وحيا من عند الله^(١).

ولم يتم تحليل أعمال المستشرقين عن «السيرة» لأنها ليست جزءا من التراث. هو موضوع مستقل في الاستشراق، رؤية الغرب لأحد موضوعات التراث الإسلامي وليس تطورا له كما هو الحال في مشروع «التراث والتجديد». وهي نوعان: سيرة مباشرة، وسيرة كجزء من التاريخ^(٢). وقد قامت دراسات مستقلة حول الموضوع لنقد الاستشراق وموقفه من السيرة^(٣). وتتلخص في ثلاثة: المبالغة في الشك والافتراض والنفي الكيفي، واعتماد الضعيف الشاذ، وإسقاط الرؤية الوضعية العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة، ورد معطيات السيرة إلى أصول نصرانية أو يهودية.

كما أجريت عدة مراجعات على بعض السير الاستشراقية وبيان تحاملها وإنكارها النبوة إما لأسباب عقائدية تبين استمداده من اليهودية والنصرانية أو لأسباب منهجية وضعية تاريخية تبين استمدادها من الإسرائيليات والديانات الشائعة في شبه الجزيرة العربية. والرد على الاستشراق ليس بالعلم بل بالدين وبالقرآن كما يفعل الدعاة المحدثون حتى ولو كانوا من المفكرين والعلماء^(٤). وينقد المناهج الغربية التي تقوم على الشك والافتراض والنفي الكيفي واعتماد الضعيف الشاذ مع أن الشك رد فعل على الإيمان. كما ساهم الضعيف الشاذ في تكوين العقائد الشعبية، كما تنقد إسقاط الرؤية الوضعية العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة وهو ما لا يتعارض مع البحث العلمي، وكرد فعل على التسليم بالروايات دون نقد أو تمحيص^(٥).

(١) د. الصادق بن محمد بن إبراهيم: خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء، عرض ونقد على ضوء الكتاب والسنة، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، حـ ١٤٢٦/٢ هـ.

(٢) السيرة المباشرة مثل «حياة محمد» لإميل، ومنجم، «محمد رسول الله» لاتين دينيه «محمد في مكة ومحمد في المدينة»، لمونيجومري وات. والسيرة غير المباشرة كجزء من التاريخ العام: «الدعوة إلى الإسلام» لسير توماس أرنولد، «تاريخ الشعوب الإسلامية» لكارل بروكلمان، «تاريخ مسلمي إسبانيا» لدودي رينهارت، «الإسلام على مفترق الطرق» للويولد فايس، «تاريخ الدولة العربية» ليويس فلهاوزن، «تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية» و«صدر الإسلام» لإسرائيل ولفسون، «التطور الأول للمحمدية» لمارجوليوت، «الحلافة نشأتها وانهيارها وسقوطها» لسير ولیم مویر، وكثير من مقالات دائرة المعارف الإسلامية المتعلقة بموضوع السيرة.

(٣) مثل: عماد الدين خليل: المستشرقون والسير النبوية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥ م. نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤.

(٤) المستشرقون والسيرة النبوية ص ٢٤-٤٥.

(٥) يضرب المثل بسيرة مونتيومري وات بجزأها محمد في مكة ومحمد في المدينة.

٢- من الرسول إلى الرسالة

الهدف من هذه المحاولة لإعادة بناء علوم السيرة هو القضاء على عبادة الشخص من حياتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية. فإزلنا شخص كل شيء. الأسرة زبها «سي السيد»، والوزارة وزيرها، والجامعة مديرها، والدولة رئيسها. بل إننا نتصور الله على أنه شخص يمتلك العالم ويديره. ففضى على استقلال المؤسسات. وزاد قدر المداينة والتعلق للأشخاص، مدحهم والنيل من أعدائهم. وكثرت صورهم في حياتنا الاجتماعية. وأخذ بعضهم صفات الله: رئيسا مدى الحياة، لا يخطئ، يأمر فيطاع وإن عصى أحد يعاقب. وهو ما يحدث أيضا في الحياة السياسية فيما يسمى بعبادة الأشخاص خاصة الأيديولوجيات الشمولية^(١). كما تظهر في المجتمعات التقليدية خاصة في إفريقيا بأسماء حكامها: ملك الملوك، الإمبراطور، وكل يضع على صدره من نياشين الانتصار وهو لم يدخل حربا واحدة إلا ضد خصومه السياسيين في الداخل في حروب أهلية مدمرة، تقضي على الآلاف بل الملايين من المواطنين والإلقاء بجثثهم في البحيرات أو تركهم في الصحراء الجافة مع ما نفق من ماشية.

«من الرسول إلى الرسالة» سيرة عصرية ليس حول الرسول بل حول الرسالة، تنجبا للوقوع في عبادة الأشخاص التي تصل إلى حد التقديس بل والتأليه كما هو الحال في «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية، هي قراءة عصرية للسيرة طبقا لعيوب العصر وهو التشخيص وعبادة الأشخاص وتأليههم.

والقرآن نفسه ضد تعظيم محمد وتقديسه. لما توفي أنكر عمر وفاته وقال يبعثه فهو ليس أقل من المسيح لولا أن ذكره أبو بكر ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، وقد عاب عليه أهل الكتاب أنه ليس في عظمة موسى وعيسى. فرد عليهم القرآن ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، والحديث أيضا ضد تعظيم صاحبه. وقد وصف محمد نفسه بأنه ما هو إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد. وطلب عدم إطرائه كما أطرت النصارى عيسى

(١) عبادة الأشخاص cult Personality.

ابن مريم، وأنه لا يستطيع أن يضمن لنفسه دخول الجنة إلا برحمة ربه. ووصفه القرآن على لسانه ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١) يُوحى إليه فقط.

والتحول من الرسالة إلى الرسول يقتضي التحول من الأفعال إلى الأقوال، ومن الأقوال غير المباشرة إلى الأقوال المباشرة، ومن وصف الراوي إلى المروي كما هو الحال في علم الحديث. لذلك اعتمدت هذه السيرة على الآيات والأحاديث أكثر مما اعتمدت على روايات المؤرخين.

والسؤال هو: هل هذه خصائص الرسول أم خصائص الرسالة؟ وهو ما وضح في إحدى السير الإصلاحية^(٢). فكل خصائص الإسلام انزلت عنه وفرغت منه وتجسدت في شخص الرسول. يبدو أن العجز عن تحقيق فضائله في الحياة العملية تحول إلى مغالاة في تعظيمها وتجسيدها في شخص الرسول كما يقال في السياسة أن الزعيم يجسد روح أمة ويمثل خصائص شعب.

٣- الأسماء والكنى والألقاب

وقد تأتي الأسماء والكنى قبل الأنساب في «جذور الرسالة» قبل أن تأتي في الرسول وفي الشرائع^(٣). وهي حوالي ثلاثمائة أي أكثر من صفات الله التسع وتسعين. وتشابهها في القوة والإطلاق^(٤). وانتهى بها بعض المتصوفة إلى ألف. ويمكن تجميع أسمائه في عدة مجموعات تدل على الاصطفاء وعلاقته بالله، وبالأنبياء السابقين، وبرسالته وبهديه، وبإخلاصه وصدقه، وبشارته ونذره، ورحمته، وعفوه. وقد سمي الرسول بنيه بتسمية

(١) تأسيس الدولة الإلهية، سيرة النبي ج٢/ ٤٥-٦٩، الشؤون الدينية ج٢/ ٧٠-٧٩، تأسيس وإتمام الشريعة ج٢/ ٨٠-٨٢، الإيمان وأركان الإسلام الأساسية ج٢/ ٨٨-١٠٤.

(٢) الإشارة ص ٤٣-٤٦، انظر الباب الثاني، الفصل الأول.

(٣) ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة حقول دلالية أ- الاختيار مثل: المصطفى، المسلم، العبد، المتوكل، المبارك، عبد الله، الماحي، العاقب، المقفى، خاتم النبيين، الشهيد، المهاجر، العامل، المنصور. ب- الهداية مثل: النور، السراج المنير، الداعي، الإمام، الهادي، المصدق، الصاحب، الشفيع، المشفع، البشير، النذير، الأمر، الناهي، الذكر، المذكر، المزل، المدثر، طه، يس، ج- الرحمة مثل: رؤوف، رحيم، الطيب، الكريم، نبي التوبة، نبي الرحمة، المحلل، المحرم، الواضع، الرافع، المجير، قاسم، نبي الملحمة، أحمد، محمد، أذن خير. خير العباد ص ٦٢٣-٦٣٠.

بني هارون لبيان التواصل مع الأنبياء السابقين^(١).

ويختلف عدد الأسماء من سيرة إلى أخرى. قد تصل في إحداها إلى ثلاثمائة وخمسة وثمانين اسماً مرتبة ترتيباً أبجدياً مع الأدلة النصية عليها من القرآن أو السنة أو الكتب المقدسة السابقة. لذلك يمكن القول إنها اصطلاحية وليست توقيفية. وبالرغم من كثرة الأسماء فإن بعضها غير مستعمل في الحياة اليومية مثل: الأبطحي، الأبلج، الشمال، الأدعج، الأزحج، الأزهر، الأزكى، الأشنب. تفيد كلها التقديس والتعظيم والتفخيم والتبجيل تفيد معاني التفضيل مثل الأتقى والأصدق والأبر والأجود والأحسن والأخشى والأعلم والأدوم والأرجح عقلاً والأرحم والأصدق والأطيب، والأكرم. ومن حيث أشكالها الأدبية البعض منها عبارات شارحة وليست لفظاً والبعض الآخر ليس اسماً بل صوراً فنية أو وظائف أو أهدافاً مثل أفصح الناطقين بالضاد، أكثر الأنبياء تبعاً، أوفى الناس ذمماً، حامل لواء الحمد، راكب البراق، راكب الجمل، راكب البعير، راكب الناقة، راكب النجيب، صاحب التاج. ومعظمها أسماء مشتقة من صفاته. تدخل في تفصيلات شارحة لكل اسم. بعضها يشترك مع الله مثل «الأول» و«الآخر». وأقلها أسماء وافدة من العبرية أو اليونانية أو اللاتينية مثل مؤذ ماد، والبعض مقرون بأسماء الأنبياء السابقين مثل بشري عيسى. ولا يذكر أهم اسمين وظيفيين: النبي الذي يكثر استعماله في القرآن «النبي» و«الرسول» لأنها موضوعان محايدان خاليان من التعظيم والتفخيم والتفضيل. وفي سيرة أخرى أسماؤه حوالي اثنين وخمسين اسماً. وقد تصل إلى ثلاثمائة ومعظمها مشتق من القرآن^(٢).

وأسماء الرسول هي التي سمى بها نفسه^(٣). وهي خمسة: محمد، أحمد، الماحي،

(١) «إني سميت بني هؤلاء بتسمية بني هارون»، أقرباء الرسول ج ٢/ ٥٠٧.

(٢) «هو: المصطفى، الماحي، الحاشر، العاقب، المقفى، الشهيد، المصدق، النور، السلم، العبد، الراعي، الإمام، الهادي، المهاجر، البشير، النذير، السراج، المنير، الأمين، الذكر، المذكر، العامل، المنصور، أذن خير، المزل، المدثر، طه، يس، خاتم النبيين، ردوف، رحيم، الصاحب، الشفيق، المشفع، التوكل، المبارك، الرحمة، الأمر، الناهي، الطيب، الكريم، المحلل، المحرم، الواضع، الرافع، المجير، قاسم، نبي التوبة، نبي الرحمة، نبي الملحمة، عبد الله، أحمد، محمد، الإشارة ص ٤٣-٤٦.

(٣) «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحي الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» عيون الأثر ج ٢/ ٤١٢.

الحاشر، العاقب. محمد وأحمد من نفس الاشتقاق، والحاشر مبالغة لأن الناس تحشر تحت قدميه. وقد طورها كتاب السيرة فأصبحت سبعة وخمسين. منها ستة في صورة مزدوجة بالإضافة أو بالوصف^(١). وواحد وخمسون مفردة. منها خمسة مزدوجة الاشتقاق^(٢). ومنها ثلاثة مزدوجة على التعارض^(٣). وهي مثل بعض أسماء الله: الرافع الخافض، القابض الباسط، الأول والآخر، الظاهر والباطن^(٤). وباقي الأسماء من حيث المعنى يمكن تصنيفها في أربعة: النبوة، والعلم، والإمامة، والأمانة^(٥).

تدل أسماءه على تفرد وخصوصيته^(٦). فهو محمد وأحمد والمآحي الذي يمحو الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي. وهو نبي الرحمة والتوبة والملاحم. وفي نفس الوقت هي أسماء مشتركة بينه وبين الناس، ولكن الكنية خاصة به^(٧). وقد تفرض العقائد نفسها على الروايات فيسمح الرسول مرة واحدة لغلام أن يحكي باسمه وكنيته^(٨). وكنيته اثنتان: أبو القاسم وأبو إبراهيم. ولا يجوز تسمية أحد القاسم أو أن تكون كنيته أبا القاسم^(٩).

(١) بالإضافة إلى: خاتم النبيين، ثاني اثنين، نبي التوبة، نبي الرحمة، نبي الملحمة، وبالوصف أذن خير.

(٢) هي: الرسول والمرسل، البشير والمبشر، النذير والمنذر، الذكر والمذكر، الشفيع المشفع.

(٣) وهي: الأمر الناهي، المحلل، المحرم، الواضع الرافع.

(٤) من العقيدة إلى الثورة، ج٢/ التوحيد ص ٥٣٨-٥٩٩.

(٥) النبوة مثل: النبي، الأمي، الشهيد، الصادق، المصطفى، المزل، المدثر، العبد، الداعي، المتوكل. والعلم مثل: المعلم، النور، السراج المنير، المين الحكيم. والإمامة مثل: الإمام، الهادي، العامل، القاسم، العلي، المهاجر، المنصور، النقيب. والأمانة مثل المأمون، المجير، الطيب، الكريم، المبارك، الرحمة، المؤمن، الرؤف، الرحيم، الصاحب.

(٦) «إن لي أسماء: أنا أحمد، وأنا محمد، وأنا المآحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»، الأنوار ج١/ ١٣٩، «أنا محمد، وأنا أحمد، أنا نبي الرحمة، ونبي التوبة، وأنا المقفي، وأنا الحاشر، ونبي الملاحم»، السابق ص ١٤٠، الشفاء ج١/ ٣١١-٣٢٢، بهجة المحافل ص ٤٣٢، «اشتق الله لنا من أسمائه أسماء. فالله عز وجل محمود وأنا محمد، والله الأعلى ونفى علي»، النبي الأعظم ص ٢٩.

(٧) «سموا باسمي ولا تكونوا بكنتي فلأنا جعلت قاسما أقسم بينكم»، السابق ص ١٤٠-١٤١، سيرة النبي ص ٥١٠، خصائص الرسول ص ٢٨١-٢٨٦. «ينولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي ولا يحل لأحد من أمتي بعده...» ص ٢٨٥، «اختصاصه بفضل التسمي باسمه ووجوب توقيره وتعظيمه واحترامه»، الخصائص الكبرى ج٢/ ٤١٨.

(٨) هو محمد بن الحنفية عند الشيعة، الخصائص الكبرى ج٢/ ٥٦١.

(٩) «إننا بقيت قاسما أقسم بينكم»، «فلأنا أبو القاسم أقسم بينكم»، بهجة المحافل ص ٤٣٢، النبي المختار ص ٣١، تحريم التكني بكنيته، الخصائص الكبرى ج٢/ ٤١٧-٤١٨.

ولما كان العرب أهل بلاغة فقد أعطوا الرسول عدة صور فنية مثل: الغيث الكثير، الراعي إلى المأدبة، النذير العريان، المنقذ من الضلال، اللبنة التي يَخْتَم بها بناء الدار^(١). وبعض الأسماء مشهورة على ألسنة الناس^(٢). وهذا يدل على أنها اصطلاحية وليست توقيفية طبقاً لما يفرضه الواقع النفسي والاجتماعي. والبعض يُتفاد بها^(٣). وطلب تغيير اسم حزن إلى سهل. فالرسول يعطي الأمل ولا يبعث على اليأس. ويدعي الناس يوم القيامة بأسمائهم وأسماء آبائهم. لذلك تُختار الأسماء الحسنة. وأحسن الأسماء عبد الله، وعبد الرحمن، وأسماء الأنبياء. ولا يجوز التسمي بملك الأملاك^(٤).

وقد شرف الله الرسول بإطلاق بعض أسمائه عليه^(٥). كما سُمي من قبل عديد من الأنبياء، إسماعيل وإسحق بعليم، وإبراهيم بحليم، ونوح بشكور، وعيسى ويحيى ببر، وموسى بكريم وقوي، ويوسف بحفيظ عليم، وأيوب بصابر، وإسماعيل بصادق الوعد. وتدل بعض الأسماء على صعوبة التفرقة بين أسماء الله وأسماء الرسول وأسماء البشر. لذلك لزم التنزيه حتى لا يتم الوقوع في التشبيه^(٦). فالتشبيه ضعف في العقل وإن كان قوة في الخيال^(٧). ومن مظاهر تأليه الرسول كتابة اسمه مع اسم الله على العرش

(١) الأسوة الحسنة جـ ١/ ١٦١-١٦٤، النبي المختار ص ٣١-٣٢.

(٢) فيما اشتهر على ألسنة الأمة من أسمائه وصفاته، بهجة المحافل ص ٤٣٣.

(٣) الخصائص الكبرى جـ ١/ ٤٠٩-٤١١ جـ ٢/ ١٢٧.

(٤) «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»، «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»، «تسموا بأسماء الأنبياء»، سيرة النبي ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٥) من أسماء محمد: أحمد، محمود، حق، مبین، نور، شهيد، شاهد، كريم، أكرم، عظيم، جبار، خير، خبير، فتاح، خاتم، شكور، عليم، علام، أول، آخر، قوي، متين، صادق، ولي، عفو، هادي، مؤمن، مهيم، أمين، قدوس، عزيز، مبشر، نذير، طه، يس، الشفا جـ ١/ ٣٢٣-٣٣٦.

(٦) السابق ص ٣٣٧-٣٤٠.

(٧) «وأزيح الأشكال بها فيما تقدم عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، مخلص من مهاوي التشبيه، وتزحزحه عن شبه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته، وحسن أسمائه وعلی صفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يشبه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق، فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي. إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق. فكما أن ذاته لا تشبه الذوات كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض. وهو منزّه عن ذلك بل لم يزل بصفاته وأسمائه»، السابق ص ٣٣٧-٣٣٨.

وسائر ما في الملكوت^(١). وهو ما حكاه آدم الله، وما رآه الرسول في المعراج، ويتفطن الخيال في الكتابة بنور أبيض على العرش أو في كل شجرة في الجنة، وبين كتفي آدم، وفي خاتم سليمان. وهو مذكور في الأذان منذ آدم وفي الملكوت الأعلى. وكثير منها مذكور في القرآن وبعضها في الكتب المقدسة السابقة. ومنها ما سمي بها الرسول نفسه.

ومن خصائصه كثرة أسمائه الدالة على شرف المسمى^(٢): أحمد، محمد، الماحي، الحاشر، العاقب، الخاتم، المقفى، نبي التوبة، نبي الملحمة، نبي الرحمة، يسن، طه، بعث بالجهاد. أحيده هو اسم التوراة، كما أن أحمد اسم الإنجيل، ومحمد اسم القرآن. وكلها يطابق الاسم المسمى. ووجد نقش اسمه على الحجارة القديمة التي وجدها إبراهيم^(٣). وقد اشتق اسمه من اسم الله^(٤). واشتق من اسمه البيت^(٥). وسمي محمد لكي يُحمد في السماء وفي الأرض. وهناك إشكال في تسميته بأسماء الله وإلا تم الوقوع فيما يقوله الصوفية في الحقيقة المحمدية^(٦). وقد سمي بأسماء الله في حوالي ثلاثين اسماً^(٧). وقد يُزاد حوالي أربعين آخرين^(٨). ويمكن تصنيفها في عدة أنواع

(١) الخصائص الكبرى ج١/ ٢٧-٢٩ رأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضاف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. صدقت يا آدم ولولا محمد لما خلقتك»، ص ٢٧ «أنا الله لا إله إلا أنا ومحمد عبدي ورسولي»، ص ٣٠، في أسبغة الشريفة، شمائل الرسول ص ٥٠-٥٦، السيرة الحلبية ج١/ ١١٥-١٢٤، الأسوة الحسنة ج١/ ٢٨-٩١، شمائل النبي ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) السابق ص ١٨٣-١٨٤.

(٣) الخصائص الكبرى ج١/ ٩٥-٩٧. وقد وُجد في عمورية ص ٩٦.

(٤) السابق ج١/ ١٨٦، بهجة المحافل ص ٤٣٠، القول البدیع ص ١٧٦-١٨٥، عين الشمائل ص ١٦-١٧.

(٥) وهو شعر حسان:

أفر عليه للنبوۃ خاتم من الله من نور يلوح ويشهد

وصنم الإله اسم النبي الأسمد إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله ذو العرش محمود وهذا محمد

(٦) بهجة المحافل ص ٤٣٣-٤٣٤.

(٧) هي: الأكرم، الأمين، الأول، الآخر، البشير، الجبار، الحق، الخبير، ذو القوة، الرؤوف، الرحيم، الشهيد، الشكور، الصادق، العظيم، العفو، العالم، العزيز، الفاتح، الكريم، المين، المؤمن، المهيمن، المقدس، المولى، النور، الهادي، طه، يس، السابق ص ١٨٥.

(٨) وهي: الأحد، الأصدق، الأحسن، الأجود، الأعلى، الأمر، الناهي، الباطن، البر، البرهان، الحاشر،

طبقاً لأصولها الاشتقاقية بحيث يمكن ترتيبها طبقاً للأفضلية. ولكل منها خصائص وعجائب.

والتقديس لأسماء الرسول واحد عند السنة والشيعة وإن اختلفت الشواهد الثقلية، أحاديث الرسول وأقوال الصحابة مثل عمر عند السنة، وإضافة أقوال على أمير المؤمنين عند الشيعة. وتعظم الأسماء عند الشيعة أكثر. فمن له ثلاثة أولاد وليس اسم أحدهم محمداً فقد جهل. فحسن اختيار الاسم جزء من التربية. والله يفضل بعض الأسماء على البعض الآخر. وإذا سمي أحد باسم الرسل فلا يضرب ولا يهان إكراماً للرسول. والإنسان ينادى باسمه يوم القيامة. ويستحي الله أن يضع في النار من كان اسمه محمداً، وهو خروج عن قانون الاستحقاق. وبعض الأسماء مباركة بسببها تأتي البركة. وأسماء أخرى أسماء الشيطان مثل «حيات»^(١). وفي الثقافة الشعبية البحث عن اسم فريد أصيل أفضل من الاسم الشائع مثل محمد وأحمد ومحمود وحامد. بل تدخلت بعض الأسماء الأجنبية مثل: ميرفت، جوليا، كريستين، نيرفانا، منيرفا، نيفان إلا إذا كان البعض منها ذا أصول فارسية أو تركية أو رومية. وكلما كان الاسم فرداً له رنة أجنبية غير عربية كان محبوباً.

ولا فرق بين تأليه الله وتأليه الرسول وتأليه علي. إذ تتضخم صورة علي عند الشيعة، وتأخذ حجمها الطبيعي عند السنة. وتعظم صورة الصحابة عند السنة، وتقل عند

الحافظ، الحفيظ، الحبيب، الحكيم، الحليم، الحفي، الخليفة، الداعي، الراجع، الواضع، رفيع الدرجات، السلام، السيد، الشاكر، الصابر، الصاحب، الطيب، الطاهر، العدل، العلي، الغالب، الغفور، الغني، القائم، القريب، الماجد، المعطي، الناسخ، الناصر، الوفي، حم، نون، السابق ص ١٨٥، في الأسماء وما تضمنته من المناسبات، بهجة المحافل، ص ٤٢٩-٤٣٤، النبي المختار ص ٣٠، عيون الأثر ص ٤١٢.

(١) «من له ثلاثة أولاد فلم يسم أحدهم محمداً فقد جهل»، «من حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه وأن يحسن أدبه»، «إذا سميتم محمداً فلا تقرؤوه ولا تحرموه»، «سموا بأسماء الأنبياء»، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة»، «إن الله ليوقف العبد بين يديه يوم القيامة فيسمه أحمد أو محمد فيقول الله تعالى له: عبدي أما استحييتي وأنت تعصيتني واسمك اسم حبيبي محمداً فينكس العبد رأسه حياء ويقول: اللهم إني قد فعلت. فيقول الله: يا جبريل خذ بيد عبدي وأدخله الجنة فإني أستحي أن أعذب بالنار من اسمه اسم حبيبي»، «ما من أهل بيت فيه اسم نبي إلا ينبت الله ملكاً يقدمهم بالغداة والعشي»، «فإن الحيات من الشيطان»، استحباب التسمية باسم النبي الأعظم، النبي الأعظم ص ٣٧-٤٢.

الشيعة. ولا شك أن لعلي فضائل ولكن لا تجعل مؤلها أو إلها. ولا يدخل علي في المنافسة باسمه مع أساء الرسول مقرونا بذئ القرنين فلا يجب عليا إلا مؤمن^(١). ولكل منها بيت في الجنة.

٤- الأحاديث القدسية

وتكثر الأحاديث، القدسية التي يتحدث فيها الله أو الملائكة أو جبريل مما يتفق مع تضخيم شخصية الرسول وتعظيمه^(٢). وتسمى في سيرة أخرى «ساعاته» أي حديث الله له وساعه الوحي^(٣). فخصائص الرسول عند البعض ليست من وضعه ولا من تصور الناس بل هي وحي من الله عبر الملائكة وجبريل، اصطلاحية وليست توقيفية.

يتدخل الله أكثر في كتب الشرائع عنه في كتب السيرة. فقد أخبر الله الرسول بأن كل ما أعطاه لعباده فهو حلال. وقد خلقهم كلهم حنفاء، ثم اجتالهم الشياطين عن دينهم، وحرمت لهم ما أحله الله، وأمرتهم بالشرك. نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربا وعجما إلا بعضا من أهل الكتاب. وأمر الله الرسول بحرق قريش مع استدراك الرسول بأن قريشا قد تشق رأسه، وهو ابتلاؤهم للرسول وابتلاء الرسول بهم. وأرسل له كتابا لا يغسله الماء. يُقرأ في المنام واليقظة. والحرب سجال بينها والإنفاق متبادل بينهما. ويمده الله بخمسة أمثال جيشهم. وعليه أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه^(٤). وإدخال الملائكة وعلى رأسهم جبريل، في الحوار وفي الفعل نوع من التشجيع، وإعطاء الكلام مزيدا من السلطة والأثر^(٥). يتدخل جبريل في غير ساعات الوحي. وهو ما اعتبر فيما بعد أحاديث قدسية قد يخاطر بالخلط بينها وبين القرآن^(٦).

(١) «يا أيها الناس أوصيكم بحب ذي قرنيها أخي وابن عمي علي بن أبي طالب فإنه لا يجبه إلا مؤمن...»، «إن لك في الجنة بيتا وأنت لنزو قرنيها»، النبي الأعظم ص ٤١.

(٢) الشفا ج ١/ ١٢٦-٢٢٧.

(٣) الفصول ص ٣٤٥-٣٦١.

(٤) الأنوار ج ١/ ١٤-١٥.

(٥) «لو قلت باسم الله لرفعنك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء»، محمد رسول الله ج ١/ ٣٥٥.

(٦) السابق ج ٢/ ١٢٠.

وفي كتب الشهابي يتدخل جبريل مرارا لإضفاء نوع من القدسية بل والالوهية على شخص الرسول كوسيط بين الله والرسول، فقد خير الله على لسان جبريل الرسول بأن يكون عبدانبياء أم ملكانبياء فاختار أن يكون عبدانبياء بناء على نصيحة جبريل الذي يعرف حدود الأنبياء، وكان الرسول لا يعرف كيف يختار بنفسه، ولا بد من عون ملائكي خارجي من جبريل^(١). ويحث الله جبريل إلى الرسول ليسأله ما ييكفه وكان الله في حاجة إلى وسيلة خبرية للمعرفة، وكان جبريل أيضا لا يعرف. فقد سأل الرسول وأخبره الله، فأرسل الله ثانية جبريل إلى محمد ليخبره بأنه سيرضيه في أمته ولن يسوءه^(٢).

ويستعمل الرسول أسلوب البشارة بالجنة للمؤمنين والنذير بالنار للمشركين والمنافقين. وقد يكون ذلك أقرب إلى الإرادة الإلهية من إرادة الرسول. فلا أحد يضمن مصيره ولا الرسول إلا أن يتغمده الله برحمته^(٣). ويخطر الله الرسول بأنواع أهل الجنة وأنواع أهل النار. فأهل الجنة ثلاثة: إمام مقسط، ورجل رحيم رقيق القلب لكل قريب ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق أي العدل في السياسة والرحمة والعدالة في الثروة. وأهل النار خمسة: الضعيف والتابع والمخادع والطامع والسيئ الخلق بالبخل والكذب. ليس الرسول مطلعا فقط على أمور الدنيا في الحاضر بل أيضا على أمور الآخرة في المستقبل^(٤).

ثانيا - تصورات خيالية:

١ - محمد الكوني

ولم تشخص الرسالة الرسول فقط بل أيضا شخص الرسول عند السنة في الطبيعيات وفي الآخريات مثل محمد في نظرية الحقيقة المحمدية عند الصوفية^(٥). كما تشخص علي

(١) الأنوار ج١/ ١٣.

(٢) السابق ص ٦٧.

(٣) «إنه من أهل الجنة»، «إنه من أهل النار»، «محمد رسول الله» ج١/ ٣٦١/ ٣٦٨ ج٢/ ٥٢/ ٥٣، ٨٢.

١٤٧-١٤٨/ ١٥٠-١٥١/ ١٥٣/ ١٥٨-١٥٩/ ١٦١-١٦٢/ ١٩٦/ ٢٦٤/ ٢١٦/ ٢٢٦/ ٣٥١.

(٤) الأنوار ج١/ ١٥.

(٥) النبي الأعظم ص ٧٤٨.

عند الشيعة. فعليّ يمتد إلى الكون والتاريخ. والزعيم بعد وفاته يبقى في صيغة صورة أو تمثال يراه الناس بعد أن كانوا يسمعون. ويبقى حيا أمام الأعين وليس فقط في الذاكرة. القتال يبقى أما الذاكرة فيصيبها الضعف والسيان. وتعود عبادة الأوثان من جديد. لذلك تنشأ حركات سلفية لتهدمها وتطهر الإيمان منها، صورا أو تماثيل أو آثارا أو قبورا^(١).

ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار. ومكتوب على الجنة لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي أخو رسول الله قبل أن تخلق السموات والأرض بألفي عام. هنا يدخل التصور الشيعي لمحمد الكوني الذي يشارك فيه علي^(٢). فخلق محمد سابق على خلق الجنة والنار. ولولاه لما كان للجنة والنار أي ضرورة.

وتحول الرسول من مبلغ الرسالة إلى النبي الكوني، أول الأنبياء في الخلق، وتقدم نبوته، وأخذ ميثاق عليه. هو أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث. وهو خاتم النبيين. آدم من طيبته، وأبوه إبراهيم، وبشارة عيسى. وجبت له النبوة وآدم بين الروح والجسد. وقد يُفضل أول الخلق وخاتم الأنبياء عندما كان آدم من تراب، والتراب من الزبد، والزبد من الموج، والموج من الماء، والماء من الدرة، والدرة من الضباب. وهي من ظلال «سفر التكوين». فمحمد ليس أقل من موسى. يختلط التراب بالزبد بالموج بالماء بالضباب. خلق الله آدم ثم أهبط الرسول إلى الأرض في صلبه ثم في صلب نوح في السفينة ثم في صلب إبراهيم في النار. وهكذا من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أبوي الرسول الذين لم يلتقيا على سفاح^(٣). كان أمر النبي مشهورا مذكورا.

(١) الأسوة الحسنة ج ١/ ١٦٦ «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»، رسائل الرسول ص ٣٩، النبي الأعظم ص ٢٥-٣٣.

(٢) «لولا محمد ما خلقت الجنة والنار»، النبي الأعظم ص ٢٥-٢٨.

(٣) الخصائص الكبرى ج ١/ ٢١ «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»، «وآدم بين الروح والجسد»، «من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبيا» في شرف نسبه ومحتده، وما مهد الله له من الفضائل قبل وجوده وفضل بلدي وفاته ومولده، وعدد آبائه من لدن آدم، بهجة المحافل ص ٤٣/ ٤٧، «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه»، «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل من طيبته وعتره أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم» ص ٤٧، ص ٤٧ «وآدم من تراب والتراب من الزبد، والزبد من الموج، والموج من الماء، والماء من الدرة، والدرة من الضباب» ص ٤٨، «لما خلق الله آدم أهبطني إلى الأرض في صلبه، وجعلني في صلب نوح في السفينة. وقذف بي في النار في صلب إبراهيم. ثم لم يزل يتقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني الله من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط» ص ٤٨-

معلوما في الملائكة الأعلى من قبل خلق آدم^(١). وفي هذا التصوير صدى لسفر التكوين في التوراة.

وقد تأتي صفات محمد الكوني في حديث يبدأ بطلب الله منه أن يسأل حتى تكون الصيغة أكثر قوة. ورد الرسول بأنه ليس لديه ما يطلب. فقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم موسى تكليماً، واصطفى نوحاً، وأعطى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. فرد الله بأنه أعطى محمداً أكثر من ذلك. أعطاه الكوثر، وجعل اسمه مثل اسمه ينادى به في السماء، وجعلت الأرض له ولأمته طهوراً، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهو ضد قانون الاستحقاق. فالرسول يمشي بين الناس مغفوراً له، وجعل قلوب الأمم مصاحفها، أي التقابل بين الدين الفطري ودين الرحي، وخبأت لها الشفاعة^(٢).

وقد عقد الله معه ميثاق النبوة، دعوة إبراهيم، ويشري عيسى، ورأى قصور الشام حين ولادته. فهو يجمع بين الماضي والمستقبل. ذكر في التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة مثل بيعة الخلفاء. والسؤال هو أيها الأصل وأيها الفرع، ميثاق النبوة أم البيعة؟^(٣). كما وجد على الحجارة القديمة عدة نقوش، منها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله^(٤)».

وقد ذكر في الأذان على عهد آدم وفي الملكوت الأعلى بعد أن نزل آدم بالهند

٤٩، المغازي ص ١٠١، السيرة النبوية ص ١١-١٥، «أنا سيد الناس يوم القيامة»، بهجة المحافل ص ٤٤٠ الجوهرية ج ٣/ ٥٤، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»، الجوهرية ج ٢/ ٩٥، معين السائل ص ١٩-٢٠.

(١) صحيح السيرة ص ٥٣-٥٦، الأسوة الحسنة ج ١/ ٦٥، شمائل الرسول ص ٢٩٠.

(٢) «قال الله تعالى: سل يا محمد. فقلت: ما أسأل يا رب. اتخذ إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، واصطفيت نوحاً، وأعطيت سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. فقال الله تعالى: ما أعطيتك خيراً من ذلك. أعطيتك الكوثر، وجعلت اسمك مع اسمي يُنادى به في جوف السماء. وجعلت الأرض طهوراً لك ولأمك. وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فأنتم تمشي في الناس مغفوراً لك. ولم أصنع ذلك لأحد قبلك. وجعلت قلوب أممك مصاحفها. وخبأت لك الشفاعة ولم أخبئها لني غيرك»، بهجة المحافل ص ٤٤٣.

(٣) «أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم، ودعوة أبي إبراهيم، ويشري عيسى. ورأت أمني في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام»، الخصائص الكبرى ج ١/ ٢٥-٢٦.

(٤) مثل الحجر الذي وجده إبراهيم، وما وجد في عمورية، السابق ص ٩٥-٩٦، «كان فص خاتم سليمان بن داود سبواي ألقى إليه فوضعه في خاتمه. وكان نقشه «أنا الله لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي»، السابق ج ١/ ٣٠.

واستوحش^(١). وهو دعاء إبراهيم، وبشارة عيسى^(٢). وفي أحاديث متخيلة بين آدم وجبريل يطلب إبراهيم النزول في أرض عذبة فيرفض جبريل إلا أن تأتي مكة، حيث يخرج النبي الأمي من ذريته، خاتم الأنبياء. كما أخبرت هاجر بأن من ابنها إسماعيل يخرج النبي ساكن الحرم ومن أمته. كما أوحى الله ليعقوب بنفس الرسالة.

وفي تفضيل الأنبياء يذكر آدم وإبراهيم ويونس وموسى وعيسى دون نوح وهم أولو العزم. ويتحول تطور النبوة من حيث المضمون إلى فضائل للأنبياء كأشخاص. محمد أفضل الخلق، وبنو هاشم أفضل الأبناء^(٣). ومعهم إبراهيم وعيسى. فالرسول دعوة إبراهيم ومن ذريته. وعيسى أخوه لا يتوسط بينه وبينه نبي^(٤). وهو أشبه بالميثاق الكوني الذي عقده الله مع نوح في التوراة.

وطلب آدم من الله مغفرة ذنبه ببركة محمد. ولما سأله الله كيف عرفت أنه سيخلق محمد أجابه بأنه وجد اسمه موجودًا على العرش^(٥).

ولا فرق بين محمد وعلي في التشخيص الكوني. فقد اشتكت الملائكة حبها لعلي فخلق الله ملكا من نور علي على صورته كي تزوره الملائكة^(٦).

(١) «نزل آدم بالهند واستوحش فتزل جبريل فنأدى بالأذان: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن محمدا رسول الله مرتين، قال آدم من محمد؟. وقال: آخر ولدك من الأنبياء»، السابق ج١/ ٣١.
(٢) «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى»، السابق ج١/ ٣٣.
(٣) «أتاني جبريل فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلا أفضل من محمد، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم»، بهجة المحافل ص ٤٦.

(٤) «أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة؟ إنها في أمي يوم القيامة. أما إبراهيم... فيقول: أنت دعوتي وذريتي فاجعلني من أمتك. وأما عيسى... فالأنبياء إخوة بنو علات. أمهاتهم شتى، وأن عيسى أخي ليس ببني وبينه نبي. وأنا أولى الناس به»، بهجة المحافل ص ٤٤٢، «إن الله اصطفى قريشا من بني إسماعيل، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»، شمائل الرسول ص ٣٩/ ٤٧ - ٤٩، نسب الرسول.

(٥) «لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب ببركة محمد ألا ما غفرت لي فقال الله: كيف عرفت محمدا ولما أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني رفعت رأسي ورأيت مكتوبا على قوائم العرش «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فقلت إنك لم تصف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي. وإذا سألتني به فقد غفرت لك. ولولاه لم أخلقك»، المعجزات الالامعة ص ١٧.

(٦) النبي الأعظم ص ٣٠.

ومناقب الرسول تضعه بين محمد الكوني ومحمد الإنسان. فهو سيد ولد آدم. له أساؤه ومعجزاته. ويتمتع بخلقته وحليته. ويتميز بشجاعته وسخاوته وحياته. ويعود محمد الكوني من جديد في دوره على الخوض^(١).

وتشهد كل المخلوقات بين السماء والأرض كالملائكة والجن أنه رسول الله إلا من عصى منهم^(٢). وأعلم الوحش رسالته.

أول من تنشق عنه الأرض والثاني عليّ. وأول من يفيق من الصاعقة. يُحشر في سبعين ألف ملك، على البراق، ويؤذن باسمه في الموقف. ويكسى بحلتين في الجنة، ومقامه على يمين العرش. يختص بالمقام المحمود. وييده لواء الحمد. وآدم تحت لوائه. هو إمام النبيين وخطيئهم وقائدهم، أول شافع ومشفع، أول من ينظر إلى الله، وأول من يؤمر بالسجود، وأول من يرفع رأسه، صاحب الشفاعة العظمى^(٣). كل سبب ونسب متقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه، وهو أول من يمر على الصراط، ويقرّع باب الجنة ويدخلها ثم بته، وله في كل شعره ووجهه نور. ويأمر أهل الجمع بغض أبصارهم حتى تمر ابنته على الصراط^(٤). اختص بالكوثر والوسيلة. قوائم منبره رواتب في الجنة، ومنبره على ترعة من ترع الجنة، وما بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنة^(٥).

وهو أول من يُبعث، وقائد المبعوثين. وهو الخطيب إذا أنصت الناس. وهو أكرم ولد آدم. يطوف عليه ألف خادم^(٦). وتلك هي صورة الزعيم أو السلطان أو ملك

(١) سنن المصطفى ص ٧٤٢-٧٥٤.

(٢) بهجة المحافل ص ٤٦٨.

(٣) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٥٩-٤٧٣ «يا علي أول من تنشق عنه الأرض محمد ثم أنت. وأول من يحيي محمد ثم

أنت»، النبي الأعظم ص ٢٩.

(٤) السابق ص ٤٧٤-٤٧٥.

(٥) السابق ص ٤٧٦-٤٨٢.

(٦) «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، أنا خطيئهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا. لواء الكرم بعدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر. ويطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»، «وأكسى حلة من حلل الجنة. ثم أقوم عن يمين العرش. ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة يوم القيامة، وييدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي. وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» بهجة المحافل ص ٤٤١،

الملوك أو الإمبراطور على الأرض. يلبس حلة من حلل أهل الجنة. ويقوم على يمين العرش. يؤيده أربعة وزراء اثنان في السماء، جبريل وميكائيل، واثنان في الأرض أبو بكر وعمر^(١).

وهو الشفيع الأول، من يعطي الشفاعة ومن يتلقاها. وأول من يدخل الجنة مع فقراء المهاجرين والأنصار. هو أكرم الأولين والآخرين. وكلها بأسلوب «الأنا» الذي رفضته أحاديث أخرى. والشهادة مثل الشفاعة. فالرسول شهيد على كل الأنبياء وأممهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. فالتصورات لها صدى من القرآن وتعبير عن الأحوال النفسية.

ويظهر تشخيص الرسول حتى في السير المعاصرة من الإهداء ووصفه بسيد الكونين^(٢). فالأحوال النفسية مازالت مستمرة، العجز وتعويضه في التقديس، من السالب المطلق إلى الموجب المطلق. وكلما اشتد العجز في الممارسة الفعلية لمبادئ الرسالة زاد التعظيم والتقديس لشخص الرسول.

وخصائص الرسول هي خصائص الرسالة مجسدة في شخصه طبقاً لعملية التشخيص التي حدثت في التوحيد، تشبيه الله بالإنسان، كما حدثت في النبوة^(٣).

«أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»، «فإذا موسى بجانب العرش. فلا أدري أكان ممن صعد فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله»، خصائص الرسول ص ٢٦٦.
(١) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤١٦.

(٢) «لا أزال أشفع حتى يقول خازن النار: يا محمد ما تركت لغضب ربك في أمتك من نقمة»، «وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر. وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح لي فيدخلها معي فقراء المهاجرين ولا فخر. وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»، بهجة المحافل ص ٤٤١-٤٤٢، «أنا شهيد على هؤلاء»، خصائص الأنبياء ص ٢٦٥.

فقير جاء في حضرة سيد الكونين بإخلاص وعقيدة انظر بعينك إلى روتق وبهاء اللؤلؤ.

(٣) السابق ج ٢/ ٢٩٠، بهجة المحافل ص ٤٣-٦٠، حبيب الرحمن، سيد ولد آدم، أكرم الخلق على الله، أفضل المرسلين والملائكة، عرض أمته عليه حتى رأيهم، وعرض عليه ما هو كائن حتى تقوم الساعة، وخص بالبسملة والفاحة وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة والمفصل والسبع الطوال، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٠٦، التفارقة بينه وبين الأنبياء في الخطاب ص ٤١٢.

٢- الأنا الأول

يتحول الأنا الكوني إلى الأنا الأول. فهو خير القسمين في خلق الكون، من أصحاب اليمين. ووجبت له النبوة وآدم بين الروح والجسد^(١). ويظهر محمد الكوني في بدء الخلق وحكمة نزول آدم، وحديثه مع الأنبياء، والإسراء والمعراج، وحرب الملائكة وإيمان الجن^(٢). والربط بين الرسول وآدم مثل ربط الإنجيل بين آدم والمسيح. وتدخل المعجزات النمطية مثل التكلم في المهد^(٣). كل خاصية تتجسد. وكل معنى يتحول إلى حامل مادي. وهي قضية تجسيد المعاني أي التصوير الفني، فالصورة الفنية وسط بين المعنى المجرد والشيء المادي^(٤).

وتبدو شخصية الرسول في أحاديث «الأنا الأول»^(٥). فهو سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع^(٦). وهو أكثر الأنبياء اتباعا يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة^(٧). وتتعدد صيغ الروايات في ذلك بحوار بدلا من

(١) «إن الله قسم الخلق، من خيرهم قسما... وأنا خير السابقين. ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها قبيلة... فأنا أنقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني من خيرها بيتا... إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة. واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم... أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر... أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر... لما خلق الله آدم أمبطني في صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة. وقذف بي في النار في صلب إبراهيم. ثم لم يزل يتقلني في الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبيي. لم يلتقيا على سفاح قط»، السابق ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) المواهب اللدنية ج١، ذكر الجن، ٢٦٩، ٤٣/٥٥-٨٤.

(٣) التكلم في المهد، حادثة شق الصدر، الشق وقع أكثر من مرة، السابق ج١/١٥٥-١٥٩ ج٣/٢٦-٢٨، معين الشائل ص ١٩، إرساله إلى الجن كالإنس ج٢/٦٤٥-٦٤٧ هل أرسل إلى الملائكة؟ ج٢/٦٤٨-٦٥٠، البشر أفضل أم الملائكة؟ ج٣/١٢٩، مراتب الملائكة ج٣/١٣١، الغسل بطست من ذهب ج٣/٢٩.

(٤) هل تجسد المعاني؟ المواهب اللدنية ج٣/٣٠.

(٥) وهو ما يسمى في مدرسة تاريخ الأشكال الأدبية Wörte-Ich انظر دراستنا، مدرسة تاريخ الأشكال الأدبية، دراسات فلسفية الأنجلو المصرية ١٩٨٧ ص ٤٨٧-٥٢٢.

(٦) «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»، الأنوار ج١/٦٢، الجوهرة ج٢/٩٥، شائل الرسول ص ٢٩٠.

(٧) «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»، الأنوار ج١/٦٢/٦٥، «أنا أفرطكم على الخوض»، شائل الرسول ص ٢١٠/٢٩٠.

حديث الأنا^(١). وهو أول في كل شيء في دخول الجنة وفي البعث وفي الوفود وفي الحديث وفي الشفاعة وفي البشارة. بيده المفاتيح. وهو أكرم ولد آدم. يطوف عليه ألف خادم^(٢). كما أنه بعث من خير قرون بني آدم، وآدم هو أول البشر. والأنا الأول مثل الإنسان الأول. وإبراهيم خير البرية^(٣). والرسول تأكيد لدينه^(٤). وهو ليس خيرا من يونس بان متى. وهو أيضا لفظ الأنا سلبا، تقديرا ليونس وإبرازا لصفة التواضع، وهي من الخصائص، الفضائل الخلقية. والرسول لا يريد ملكا مثل ملك سليمان في حكاية تمثيلية ولكن يكشف عن الأولوية بالرتبة والشرف^(٥).

والرسول ابن الذبيحين. دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى. وهو قرشي أفصح العرب. يجمع بين الماضي والحاضر، بين البداية والنهاية، بين بداية النبوة وخاتمها^(٦). كما أنه خير الأنبياء والرسول بمعنى أنه هو الذي أكملهم كما قال المسيح في التوراة، «ما جئت لأنقص التاموس بل جئت لأكمله». فالإسلام إكمال للوحي في مراحل السابقة، إتمام لمحاسن الأخلاق. وإذا كان الأنبياء السابقون قد أوتوا آيات فإن الرسول قد أوتي وحي أي الغاية وليس الوسيلة، النهاية وليس البداية^(٧).

(١) «آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح. فيقول الخازن من أنت؟ فأقول محمد. فيقول بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»، السابق ص ٢٩٠ / ٦٣.

(٢) «أنا أولهم خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائلهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة، والمفاتيح يومئذ بيدي. وأنا أكرم ولد آدم، يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منشور»، السابق ص ٦٣-٦٤.

(٣) «بعث من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا حتى بعث من القرن الذي كنت منه»، الأنوار ج ١ / ٥.

(٤) «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»، السابق ص ٣٢٠-٣٢١.

(٥) «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي. فأمكنني الله منه. فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم. فذكرت دعوة أخي سليمان: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فرددته خاسئاً»، السابق ص ٣٢٢.

(٦) «أنا ابن الذبيحين»، الجوهرة ج ٢ / ٥٢، «نعم أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى.. أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر، أنا أفصح العرب...»، السابق ص ٥٤.

(٧) «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه ترك منه موضع لبنة. فطاف به النظار يتمتعون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيرون سواها. فكنت أنا. سدوت موضع تلك اللبنة. ختم بي النبيان، وختم بي الرسل»، الأنوار ج ١ / ٦ «إن الله بعثني بنوامع الأخلاق»، ج ١ / ٧ «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»، ج ١ / ٧، الجوهرة ج ٢ / ٩٥.

والمسلمون الآخرون السابقون يوم القيامة في حين أن أهل الكتاب أوتوا الكتاب من قبلهم فاختلقوا فيه وهدي الله المسلمون. اليهود تبع للمسلمين غدا والنصارى بعد غد. انتصارا على اليهود في خير وغزوا للقسطنطينية^(١).

ونصر بالرب على أعدائه مسيرة شهر^(٢). ويزيد الخيال شهرين، شهرا أمامه وشهرا خلفه، بتحويل الزمان إلى مكان. وتزداد الصياغة أكثر تفصيلا. فقد أعطى الرسول ما لم يعط نبي قبله. نُصر بالرب أي قوة الحق لديه وزعزعة الباطل عند الخصم مدة من الزمن. وجعلت له الأرض مسجدا طهورا دون ما حاجة إلى مسجد مزركش مزوق مذهب للطبقة العليا. وأحلت له الغنائم. وقد مضى عهدها بقوانين الحروب والمعاهدات الدولية لحماية الأسرى والأراضي المحتلة. وُبعث إلى الناس كافة مما يدل على انتشار الإسلام في القارات الست وليس دينا خاصا يقوم على شعب أو عرق. وأعطى الشفاعة وهو ما يُعارض قانون الاستحقاق عند المعتزلة^(٣). وأعطى ما شاء. وهو قادر على التمييز بين التابع والمتبوع إشارة إلى ضرورة الاستقلال. وأوتي جوامع الكلم. ووضعت في يده مفاتيح خزائن السموات والأرض. وهو آخر الأنبياء. وتزداد الصياغة تفصيلا في خمسة أشياء: لم يعطهن من قبل: نصر بالرب مسيرة شهر، وهو ما يقال حاليا قوة الردع مما يدل على ضرورة امتلاك السلاح النووي لردع الأعداء.

(١) «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. فهذا يومهم الذي فرض عليهم. فاختلقوا فيه. فهدانا الله. فهم لنا فيه تبع. فاليهود غدا، والنصارى بعد غد»، السابق ص ٦٤

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، الجوهرة ج ٢/ ٩٦

«أنا فرط أمتي لن يصابوا بمثلي»، الجوهرة ج ٢/ ١٠١.

(٢) «نصرت بالرب مسيرة شهر»، «نصرت بالرب شهرا أمامي وشهرا خلفي»، خصائص الرسول ص ٢٥٨.

(٣) «أعطيت خسا، (ستا) لم يعطهن نبي قبلي. نصرت بالرب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي، وُبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة وطلب منه ما يشاء «سل تعطه»، وعرض علي أمتي فلم يخف علي التابع من المتبوع»، «نصرت بالرب وأوتيت جوامع الكلم، وبيتنا أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي»، «وختم بي النبؤن»، بهجة المحافل ص ٤٤٢-٤٤٣، خصائص الرسول ص ٢٦٣-٢٦٧.

وجعلت له الأرض مسجداً طهوراً، فأيا رجل أدركته الصلاة فليصل دون ما ضرورة لبناء المساجد وزخرفتها والمباراة فيها وصرف الدولة من الخزانة العامة عليها دون المدارس والمستشفيات والنوادي والساحات الرياضية. وأحلت له الغنائم، ولم تحل لنبي قبله أي توزيع مال الآخرين على الفقراء وهو ما تنظمه المعاهدات والقوانين الدولية الآن. وبعث إلى الناس كافة، مما يدل على شمول الإسلام. وأعطى الشفاعة، فمن سأل أعطى، والشفاعة أي الرحمة والمغفرة وكسر قانون الاستحقاق وهي عقيدة الأشاعرة مما يدل على أثر العقائد المتأخرة على تدوين السيرة^(١). وله خمس أخرى: عرضت عليه أمته فعرف من التابع ومن المتبوع طبقاً لمقياس الاستقلال، إلى الأحمر والأسود. وأوتي جوامع الكلم، ووضعت في يده مفاتيح خزائن الأرض أي ثروات العالم، وزوى له مشارق الأرض ومغاربها، وألا يتصر على الأمة عدو إلا من أنفسهم، وختم به النبيون^(٢). والخوف على الأمة ليس من الشرك بل من التنافس على الدنيا. والحقيقة أن العدو الخارجي قد غزا المسلمين منذ الصليبيين إلى التتار والمغول حتى الاستعمار والصهيونية الحديثة^(٣).

وقد يكون حديث الأنا بضمير المتكلم^(٤). وهو كشف مباشر عن مضمون الأنا الأول. وهو ليس من هذا العالم وإن كان موجوداً فيه. هو في الزمان وجوهره الخلود.

(١) «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وأن أمتي سيبلغ ملكها إلى ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض وأنا سألت ربي لأمتي أن يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسىء بعضهم بعضاً»، السابق ج١/ ١٠-١٣.

(٢) السابق ص ٢٢٠-٢٢١ «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي. نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً. وأبها رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة... وعُرض علي أمتي فلم يخف علي التابع من المتبوع... بعثت إلى الأحمر والأسود... وأوتيت جوامع الكلم، وبينما أنا نائم إذ جئني بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي، وختم بي النبيون... أني فرط لكم وأنا شهيد عليكم. وأنى والله لأنظر إلى حوضي الآن... وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها... أنا محمد النبي الأمي، لا نبي بعدي، بُعثت بين يدي الساعة»، السابق ص ٢١٩-٢٢٢.

(٣) الأنوار ج١/ ٨-٩.

(٤) «ينست من الدنيا ويأست مني. إني بعثت أنا والساعة تستبق» الأنوار ج١/ ٣٢٦. «مالي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا لأكرب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»، السابق ص ٣٢٦. «لا يقتسم ورثتي ديناراً. ما تركت من نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»، السابق ص ٣٣٣.

لا يمتلك بل يوجد، وشتان بين الملكية والوجود. وقد يكون الأنا بضمير المخاطب^(١). فالأنا موجود عند الآخرين ولهم، أنا منفتح على الآخر وليس مغلقا على الذات، لذلك يحب ويعشق ويتوحد. وقد يكون الحديث عن الأنا بالمبني للمجهول^(٢). ويعادل ضمير الغائب. فالأنا بين الحضور والغيب، الأنا والآخر يتوحدان في الحاضر المطلق أو في الغائب المطلق. والأنا قد يكون فرديا أو جماعيا^(٣). قد يكون وجودا للذات أو وجودا للآخرين. لذلك يمكن الحديث عن الأنا بالجمع، بالأنا الجمعي «إنّا»^(٤). فالآخر يقع في الأنا وليس خارجا عنه. وقد تكون الإشارة إلى الأنا الجمعي بضمير الغائب «أل محمد». فله هوية اجتماعية تجمع بين الزمان والخلود^(٥).

وقصة الإسراء والمعراج مروية أيضا بضمير الأنا المتكلم^(٦). وأحاديثه كلها أحاديث الأنا، أول الناس بعثا وخطابا وتبشيرا وشفيعا، لواء الحمد بيده. وهو أكرم ولد آدم، وأعظم الأنبياء أجرا. وقد فضل بالخلعة والمحبة. لذلك يسمى في الثقافة الشعبية حبيب الله. موسى كليم الله، وعيسى كلمة الله وروحه، وآدم صفي الله. وتفضيله بالشفاعة والمقام المحمود^(٧). وفضل في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة^(٨). والوسيلة أعلى درجة في الجنة. والكوثر نهر حافته قباب اللؤلؤ، طينه مسك. والوسيلة منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله هو الرسول^(٩). وهي منزلة في الجنة وليست لأي عبد آخر ومن سأل الوسيلة نال الشفاعة^(١٠). وتتميز كتب الشائيل بأقوال الأنا،

(١) «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاث»، الأنوار ج١/ ٣٣١.

(٢) «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولد أوديت في الله وما يؤذي أحد»، الأنوار ج١/ ٣٣١.

(٣) «خير ربيعة عبد القيس ثم الحي الذي أنا منهم»، الجوهرة ج١/ ٤٣٨.

(٤) «إنّا أهل بيت اختار الله عز وجل لنا الآخرة على الدنيا»، السابق ص ٣٢٥.

(٥) «لا ينبغي لمحمد ولا آل محمد»، الأنوار ج١/ ٣٢٤. «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»، السابق ص ٣٢٣.

«ما أصبح يال محمد صاع من طعام وأنهن يومئذ تسع أهل بيوتات»، السابق ص ٢٣١.

(٦) الشفا ج١/ ٢٣١-٣٤٥.

(٧) «فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده»، السابق ص ٢٨٩-٣٠٣.

(٨) السابق ص ٣٠٣-٣٠٥.

(٩) «أرجو أن أكون أنا هو»، السابق ج١/ ٣٠٤.

(١٠) «ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله. وأنا أرجو أن أكون أنا هو.

فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»، الأنوار ج١/ ٦٥.

حديث الرسول عن نفسه وخصائصه، وميزته على باقي الأنبياء والرسل خاصة في المعاد.

ويستمر الأنا وينتقل من الدنيا إلى الآخرة. فهو أول من يحرك حلق الجنة فيدخلها ومعه فقراء المؤمنين، الأولين والآخرين. وهو أكرم ولد يطوف عليه ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون. كل الأنبياء تحت لوائه. وأعظمهم أجرا، إبراهيم وموسى وعيسى. حوض مسيرة شهر ما بين أيلة وصنعاء أو ما بين المدينة وصنعاء أو ما بين الكوفة والحجر الأسود مع وصف دقيق للحوض^(١). زواياه، ماؤه، ريحه، كيزانه، طوله. لا فرق بين وصف المثال والواقع، بين تصور الخيال وشهادة الجن. والرسول هو ولي المؤمنين في الدنيا والآخرة. هو القاضي لدينهم^(٢).

وقد يطول الحديث بحيث يستحيل تذكره وروايته مثل حديث طلب الشفاعة من الأنبياء واحدا وراء الآخر ورفضهم حتى رست على محمد^(٣). لذلك كان سيد الناس يوم القيامة حين يبلغ النعم والكرب الناس فيأتون آدم أول البشر وسجد له الملائكة. ويرفض آدم لأن الله غضب عليه لمعصيته ولأنه مشغول بنفسه. ويرفض نوح أول الرسل إلى أهل الأرض، وهو العبد الشكور. رفض لأن الله غضب عليه لدعوته على قومه ومشغول بنفسه. ويرفض إبراهيم لأنه نبي الله وخليله لأن الله غضب عليه لأنه كذب ثلاث كذبات ومشغول بنفسه. ورفض موسى صاحب الشريعة لأن الله غضب

(١) «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا. وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، ويطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»، «وأكسى حلة من حلق الجنة ثم أقوم عن يمين العرش. ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»، «وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي... أحلم أن أكون أعظم الأنبياء أجرا يوم القيامة. أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة... إنها في أمتي يوم القيامة. أما إبراهيم فيقول أنت دعوتي وذريتي فأجعلني من أمتك. وأما عيسى فالأنبياء أخوة بنو علات، أمهاتهم شتى، وإن عيسى أخي ليس بيني وبينه نبي. وأنا أولى الناس به»، «حوضي مسيرة شهر»...، الشفا ج ١/ ٢٧٣-٢٧٩.

(٢) «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة. اقرءوا إن شئتم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. فأنا مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا. ومن ترك دنيا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه»، الأنوار ج ١/ ٢١٩.

(٣) الأنوار ج ١/ ٦٧-٧١، وهو حديث يبدأ بعبار «أنا سيد الناس يوم القيامة» ج ١/ ٦٧.

عليه لأنه قتل المصري ومشغول بإنقاذ نفسه. ورفض عيسى كلمة الله إلى مريم وروح منه لأنه مشغول بنفسه. وأخيرا قبل محمد لأن الله غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر. فذهب إلى الله وسجد تحت العرش وشفع لأمته، وقبل الله شفاعته^(١). وفي الحديث إخراج روائي. وفي نهايته تشبيه حسي بطول الجنة بمقاييس شبه الجزيرة العربية من الجنوب، بين مكة واليمن، ومن الشمال بين مكة والشام. ويطلب الناس يوم القيامة شفاعة الأنبياء واحدا تلو الآخر ولكنهم يعتذرون لأن الله غاضب من خطيئة كل منهم إلا محمدا الذي غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ويقول «أنا لها» ويكون أول من يميز، ويقف على منبره بينما يجلس الأنبياء الآخرون^(٢).

وتستمر لغة الأنا وتكرر دائما. فهو خليل الله. وأبو بكر كذلك. وتفضيله في القيامة بالكرامات استمرار لحدوثها في الدنيا^(٣).

ولكل نبي دعوة مستجابة. وقد احتفظ الرسول بدعوته شفاعة لأمته وهي نائلة منها، من مات ولم يشرك بالله أحدا^(٤). وفي رواية أخرى عرضت عليه الأمم. ويمر

(١) «فانطلق فإني تحت العرش فأقما ساجدا لربي ثم يفتح الله علي من عماد وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحني على أحد قبلي. ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأقول: أمتي يارب. فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحجر وكما بين مكة وبصرى»، السابق ص ٦٩.

(٢) «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»، الشفا ج١/ ٢٨١، «أكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول»، السابق ص ٢٩٠، «خبرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة» ص ٢٩١ «أرأيت ما تلقى أمتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم، فسألت الله أن يؤتيني شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل» ص ٢٩١، «أنا أريد أن أدخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»، السابق ص ٣٠٢، «أنا أول من تشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة»، الشفا ج١/ ٣٣١، «أنا رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر وتكثروا حتى تستوفوا»، السابق ج١/ ٣٤٤.

(٣) «لو كنت متخذًا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر»، «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا»، الشفا ج١/ ٢٧٩-٢٨٩.

(٤) «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا»، الأنوار ج١/ ٦٦.

النبي مع رجل. ونبي آخر ومعه رجلان، ونبي ثالث ومعه رهط، ونبي رابع ليس معه أحد وسواد كثير رجا أن تكون أمته. فكان موسى مع قومه. ثم رأى سوادا كثيرا يسد الأفق. وكانت أمته سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. وهم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون. وكان عكاشة منهم. وطلب آخر إلا أن عكاشة سبقه دون أي مبرر لرفضه. وبصرف النظر عن الشكل الروائي نواته تحريم التطير والرقى والكي. والسبق في ذلك لأن مجرد التحريم لا يقنع^(١).

وهو أول من يدخل الجنة كالأول في المسابقة^(٢). وله ميزات خاصة في الجنة والحوض، والبيت والمنبر وله في الجنة الكوثر^(٣). وفي رواية أخرى أن الحوض هو الذي ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء. من يشرب منه لا يظمأ أبدا^(٤). وفي رواية أخرى أبعد من أيلة (العقبة) من عدن، وأشد بياضا من الثلج، وأحلى

(١) السابق ص ٧٦.

(٢) «أول من يدخل الجنة ومعني من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب. وأعطاني ألا تحب أمتي ولا تغلب، وأعطاني النصر والعزة والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرا، وطيب لي ولأمتي المغانم، وأحل لنا كثيرا مما شدد على من قبلنا. ولم يجعل علينا في الدين حرجا»، «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»، الشفا ج ١ / ٢٢٣. «إن الله قد حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وأنها لا تحمل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار... إني عبد الله وخاتم النبيين، وأن آدم لمجدل في طيته دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ابن مريم»، ج ١ / ٢٢٢-٢٢٤. «أنا دعوة أبي إبراهيم ويشري عيسى. ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بها لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض... ثلاثة رجال بطست من ذهب مملوءة ثلجا وأخذاني فشقا بطني... من نحري إلى مراقي بطني. ثم استخرجنا منه قلبي فشقا فاستخرجنا منه علقة سوداء فطرحها ثم غسل قلبي ويطني بذلك الثلج حتى أنقياه... ثم تناول أحدهما شيئا فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه. فختم به قلبي. فامتلا إيانا وحكمة ثم أعاده مكانه. وأمر الآخر يده على مفرق صدري فالتشم... ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا يا حبيب لم نرع. إنك لا تدري ما يراد بك من الخير لقرت عينك... ما أكرمك على الله. إن الله معك وملائكته... فما هو إلا أن وليا عني فكانها أرى الأمر معاينة»، السابق ص ٢٢٢-٢٢٧. «إن الله تعالى فضّلني عليكم تفضيلا وفضل نسائي على نساكنكم تفضيلا»، السابق ص ٢٣٠.

(٣) «دخلت الجنة فإذا بنهر يجري، بياضه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافته خيام اللؤلؤ. ففريت بيدي فإذا الثرى مسك أذخر. فقلت لجبريل: ما هنا قال: الكوثر الذي أعطاك الله»، الأنوار ج ١ / ٧٢.

(٤) «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب فلا يظمأ أبدا»، السابق ج ١ / ٧٢-٧٤.

من العسل، وآنيته أكثر من عدد النجوم. يصد الناس عنه كما يصد الرجل الإبل عن الحوض. يعرف أمته بسياء ليست لأحد من الأمم، غرا محجلين من أثر الوضوء. ما بين البيت والمنبر روضة من رياض الجنة، ومنبره على حوضه، على ترعة من ترع الجنة. وفي كتب الشئال توصف تركته، وقوله «أنا أفرطكم على الحوض، ووجوب محبته، ولزوم متابعتة، وإحياء سنته، وفضيلة من لقيه من أصحابه أو لقي أحدا من أصحابه، وفضيلة من أحبه ونصر دينه عن جاء بعده، وفضيلته أمته، ورؤيته في المنام. فهو مستمر بعد موته في وصيته»^(١). والشئال المذكورة حسب رواها أي أنها تصورات للراوي^(٢). تشمل صفات الجسد وتقاطيع الوجه وأسماؤه وميزاته على سائر الأنبياء في أحاديث «الأنبا»^(٣).

ومن خصائصه ما أنزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها. هي السبع المثاني والقرآن العظيم^(٤). والقرآن يشفع لأصحابه، الزهراوان والبقرة وآل عمران فإنها يأتين يوم القيامة كأنها غمامتان يحاجان عن صاحبهما. قراءة البقرة بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها السحرة^(٥). وأوتي النبي بنورين لم يؤتهما نبي قبله. خاتمة الكتاب وخواتم البقرة لن يقرأ حرفاً منها إلا أعطيته^(٦). ومن خصائصه قراءة القرآن على سبعة أحرف في شكل روائي. فقد رد الرسول قراءة القرآن على حرف واحد تهوينا على أمته ثم الثانية ثم الثالثة جاءت القراءة على سبعة أحرف. وفي كل ردة سأل الرسول المغفرة لأمته. وآخر الثالث إلى يوم يرغب الخلق كلهم حتى إبراهيم. فأمه

(١) السابق جـ ٢/ ٧٣٧-٧٨٦.

(٢) مثل مالك، مسلم، الترمذي، الجوهرة جـ ٢/ ٩٣-٩٨.

(٣) «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»، «مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى بنيانه فأحسنه وأجمله. فجعل الناس يطوفون به يقولون: ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة»، «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن»، الجوهرة جـ ٢/ ٩٣-٩٨.

(٤) «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنما السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت»، الأنوار جـ ١/ ٧٨.

(٥) السابق ص ٧٩.

(٦) «أبشر بنورين لم يؤتهما نبي قبلك: خاتمة الكتاب وخواتم سورة البقرة. لن تقرأ حرفا منها إلا أعطيته»، السابق ص ٨٠.

الرسول أمة إبراهيم^(١).

تعارض أحاديث «الأنبا» مع رفض قول «أنا.. أنا»^(٢). فلا يجوز التفضيل بين الأنبياء^(٣). وهو أكثر الأنبياء اتباعا. لا ينال قلبه وإن نامت عيناه.

٣- صاحب المعجزات

وقد وقع عند المبعث من المعجزات والخصوصيات. فقد أصبحت المعجزات جزءا من شئائل النبي. منها ظهور جبريل له حاملا الوحي^(٤). وهو ما أثبتته خديجه أيضا. ومنه تسليم الأحجار والأشجار عليه^(٥). وبعد البعثة نكست الأصنام واهتز عرش فارس^(٦). وخافت الشياطين. وحرست السماء من استرقاق السمع. وكان جبريل يأتي مثل صلصلة الجرس أو كان يغط الرسول بشدة حتى يكاد يُغشى عليه واختص الرسول برؤية جبريل في الصورة التي خلق عليها^(٧). سعت الشجرة إليه. ودربت الجذعة باللبن. وتنقل المعجزات إلى مستوى مسار التاريخ وهو انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس^(٨).

ومن معجزاته وكراماته وآياته حديثه مع الملائكة والجن وطاعة الجن له^(٩). تختلط دلائل النبوة بالمعجزات، ومنها ما توارد عن الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب

(١) «يا أيُّ أُرسل إلي القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمتي. فرد إلى الثانية أقرؤه على حرف. فرددت إليه أن هوّن على أمتي. فرد إلى الثانية أقرؤه على سبعة أحرف. ولك بكل ردة ردتها مسألة تسألنيها. فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي. وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام»، السابق ج١/ ٧٧.

(٢) مثل «أنا ابن العواتك والفواطم»، «أنا أنفسكم نسا وصهرا وحسبا»، «أنا أفصح العرب»، السيرة الحلبية ج١/ ٦٨-٦٢.

(٣) «لا تفضلوا بين الأنبياء»، «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا»، «أني خير من يونس بن متى»، خصائص الرسول ص ٢٦٨، ووصف إبراهيم بأنه خير البرية ص ٢٦٩-٢٧١.

(٤) الخصائص الكبرى ج١/ ٢١٣-٢١٩.

(٥) السابق ص ٢٢٥.

(٦) السابق ص ٢٤٨-٢٥٣.

(٧) السابق ص ٢٦٧-٢٧٤.

(٨) السابق ص ٣١٥-٣١٦.

(٩) الشفا ج١/ ٥١١-٥١٥.

من صفته وصفة أمته واسمه وعلاماته^(١). وظهرت آياته عند مولده وما روته أمه من العجائب، شاخصا بصره إلى السماء حين وضعت، خرج النور منها عند ولادته، وتدلّت النجوم في السماء، ورأى قصور الروم، وحراسة السماء بالشهب، وقطع رصد الشياطين، وإظلال الغمام في سفره، ودرور لبن حليلة وسرعة شبابه، وارتجاج ديوان كسرى وسقوط شرفاته وفيض بحيرة طبرية وخمود نار فارس بعد آلاف عام، والشيع في الأكل، وبغض الأصنام، والعفة واخضرار الياابس، وعدم وقوع الذباب عليه، واستئذان ملك الموت عليه وتعزية الخضر والملائكة أهل بيته، والتبرك ببنديته^(٢). كما ظهرت عليه الآيات في سفره لخديجة مع ميسرة^(٣). بل إن زواجه من خديجة آية. ووقعت في الهجرة إلى الحبشة عدة آيات^(٤). كما وقعت في الصحيفة آيات أخرى بعدم قرص اسم الله.

ولم تقع معجزات في غزوة بدر وحدها لتقوية المسلمين ورفع معنوياتها وتعويض نقصهم الكمي بزيادتهم الكيفية^(٥). وهنا تتم التفرقة بين الآيات والمعجزات. الآية مجرد علامة أو بشارة أو نبوة لوضع حدث مثل تدخل الملائكة في الحرب، في حين أن المعجزة حدث خارق للعادة وقع بالفعل كتكثير الطعام والشراب للجنود. وكلاهما يعتمدان على ذكرهما في القرآن. وأولها ما وقع في غزوة بدر. وقد تتم بناء على دعوة الرسول. فقد تنبأ الرسول بمواقع شهداء بدر. وتدخلت الملائكة في الحرب، في القتال والأسر. وأبرأ المرضى، وداوى الجرحى. وقد دعا النبي على ثلاثة نفر من المشركين فقتلوا. ونطق الجدي المسموم. وقاتلت الملائكة مع النبي. ووقعت معجزات تقريبا في كل الغزوات والسرايا والبعوث والرسائل^(٦). وقد تقع معجزات الأفراد داخل كل معجزة

(١) السابق حـ ١/ ٥١٥-٥١٨.

(٢) السابق ص ٥١٨-٥٢٢.

(٣) الخصائص الكبرى حـ ١/ ٢١١-٢١٢.

(٤) السابق ص ٣٢٩-٣٣٥/ ٣٩٩-٤٠٩.

(٥) ما وقع في غزوة بدر من الآيات والمعجزات، الخصائص الكبرى حـ ١/ ٤٢٥-٤٥٢، «اللهم أنهم حفاة فاحملهم، اللهم أنهم عراة فاكسهم، اللهم أنهم جياع فأشبعهم» ص ٤٢٨، «هذا جبريل معتمر بعمامة صفراء خذ بعنان فرسه بين السماء والأرض. فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة. ثم طلع على ثنياه النقع. يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته» ص ٤٣٣، «أسرك ملك من الملائكة» ص ٢٣٦، «مربي ميكائيل وعلي جناحه أثر انغيار وهو راجع من طلب القرم فضحك إلى فتيسمت إليه» ص ٤٣٧.

(٦) غزوة عطفان، الخصائص ص ٤٥٣-٤٥٤، غزوة بني النضير، وهي الجلاء الذي كان مكتوبا عليهم في التوراة ص ٤٥٤-٤٥٧، غزوة أحد ص ٤٥٨-٤٧٣، «خشيت أن تسبقنا الملائكة إلى غسله كما سبقتنا إلى غسل حنظلة» ص ٤٦٦، حمراء الأسد ص ٤٧٤. غزوة الرجيع ص ٤٧٥-٤٧٩ «عليك السلام خيب قتله

بالقتل. وقد تمت رؤية المعجزة في المنام قبل وقوعها. ومنها تغسيل الملائكة لحمزة بعد أن استشهد في أحد. وهي فرصة لظهور الطب النبوي من طبيبه الأول. وقد يكون التنبؤ بمكان الشهيد في الجنة. ومنه حديث الرسول مع الشهداء. فهو الذي يخبر عنها. وتبرأة الوحي عائشة ليس معجزة بل إخبار الوحي بحقيقة واقعة. وقد تقع المعجزات والآيات أيضا في السرايا. تعرض المسلمون للحمى. وتم شفاؤهم ببركة النبي، ومنها روايات، ومنها أقوال مباشرة. ومنها ما تدخل من الملائكة مباشرة ومنها مجرد انقلاب الأعيان. ومنها ما يتم بحديث الأنا أو بخبر من الآخرين. ومنها ما يتم مباشرة، أو بواسطة ظاهرة طبيعية كالريح، ومنها ما يكون بدعوات من النبي أو قضاء لحاجة.

أ- هل المعجزة دليل على النبوة؟

وتذكر المعجزات إما في حياته كجزء من السيرة وإما بعد مماته كجزء من الشرائع^(١).

قريشي، ص ٤٧٦ «قصة بئر معونة» ص ٤٨٠-٤٨١، غزوة ذات الرقاع ص ٤٨٢-٤٨٨، غزوة الخندق ص ٤٨٩-٤٩٩، غزوة بني قريظة ص ٤٩٩-٥٠٦، «ليس ذلك بدحيه ولكنه جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزمهم ويقذف في قلوبهم الرعب» ص ٥٠٠ «إن في أصحابي جهدا خلوا نظرتهم أياما فقال جبريل: انفض إليهم لأدخلن فرسي هذا عليهم حصونهم ثم لأضعفنها» ص ٥٠١-٥٠٦، غزوة بني المصطلق ص ٥٠٨-٥١٥ «بعثت هذه الريح لموت منافق» ص ٥٠٩، «ما وقع في العرينين» ص ٥١٥-٥١٦، «اللهم غم عليهم الطريق واجعلها عليهم أضيق من مسك جل» ص ٥١٦، سرية دومة الجندل ص ٥١٦، عام الحديبية ص ٥١٧-٥٣٨، التبشير بإسلام أهل اليمن ص ٥٢٥-٥٢٦، الماء الذي تفجر ببركته ص ٥٢٦-٥٢٨، «تكثر الطعام ببركته» ص ٥٢٨-٥٣٤، غزوة ذي قرد ص ٥٣٩-٥٤١، غزوة خيبر ص ٥٤٢-٥٥٦، تفل النبي يشفي عليا من الرمد ص ٥٤٣، حديث الشاة المسمومة ص ٥٥٣، سرية عبد الله بن رواحة ص ٥٥٦، عمرة القضاء ص ٥٥٧-٥٥٨، سرية غالب الليثي ص ٥٥٨-٥٥٩، سرية أبي موسى ص ٥٥٩، سرية زيد بن حارثة ص ٥٥٩، غزوة مؤتة ص ٥٦١-٥٦٥، غزوة ذات السلاسل ص ٥٦٥-٥٦٦، غزوة سيف البحر ص ٥٦٦، فتح مكة ص ٥٦٧-٥٧٩، غزوة حنين ص ٥٨٠-٥٨٦، غزوة الطائف ص ٥٨٧-٥٨٨، سرية قطبة ص ٥٨٩، غزوة تبوك ص ٥٩٠-٦٠٣، غزوة الأسود ص ٦٠٤، حين نفاذ كتابه إلى الملوك ص ٦٠٥، كتابه إلى قيصر ص ٦٠٥-٦١٨، كتابه إلى كسرى ص ٦١٨-٦٢٣، كتابه إلى الحارث الفسافي ص ٦٢٣-٦٢٤، كتابه إلى المقوقس ص ٦٢٤-٦٢٦، كتابه إلى حمير ص ٦٢٦-٦٢٧، عند كتابه إلى الجلندي ص ٦٢٧، إلى بني حارثة ص ٦٢٨، صاعقة من السماء أحرقت رأساً من رؤوس المشركين ص ٦٢٨.

(١) الفرج القريب في معجزات الحبيب ص ١٥-٢٠، ٣٧٥-٣٧٧، ذكر نبذة من معجزاته، السيرة الحلبية

وهي بالإضافة للقرآن تخضع لنفس تصنيف معجزات الجماد والنبات والحيوان والإنسان^(١). وتتداخل مع الطب النبوي.

كما تذكر المعجزات في إطار دلائل النبوة^(٢). فالمعجزات طريق الأنبياء السابقين. ومع ذلك الرسول أكثرهم اتباعا يوم القيامة^(٣). وتستعمل الآيات كدليل على النبوة. وتنقسم إلى سماوية مثل الاستقساء حين تأخر المطر وإجابته إلى سؤاله بحيث لم ينزل من على منبره إلا والمطر يتهاذر على لحيته، واستصحائه أي منع وقوع البلاء كما فعل يوسف. وهذا يدل على حدوث الآيات طبقا لأنباط سابقة لدى أنبياء العهد القديم^(٤).

أظهر الله على يديه المعجزات. وشرفه بالخصائص والكرامات^(٥). وكلها روايات متعددة ومختلفة. وكلها إما صحيحة أو مشهورة. والنبوة أو الرسالة ليست معجزة بل ضرورة تاريخية ومعرفة طبيعية^(٦). ولا حاجة إلى خلق المعرفة في قلبه، والعلم بذاته. النبوة من النبأ أي الخبر. والرسول من الرسالة. النبوة للاطلاع على الغيب أو التنبؤ بالمستقبل. والرسالة للإعلام بالمبدأ ونشر القضية. وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد^(٧). ويعترف بعض كتاب السيرة أن بعض الأحاديث موضوعة مثل حديث الغزاة. لذلك انقسمت معجزات الرسول إلى نوعين. ما علم قطعا ونقل متواترا، وما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع سواء المشهور المنتشر مثل نبع الماء بين أصابعه وتكثير الطعام أو ما نقله الواحد والاثنان^(٨). وروايات كثيرة منها مدعاة للشك^(٩).

ج ٣/ ٣٩٠-٤١٤، عيون الأثر ص ٣٧٥-٣٧٧.

(١) السابق ص ٣٩٩، دلائل النبوة والمعجزات، السيرة النبوية (٢) ص ٤٣٩-٤٩٦، معجزاته. الأسوة الحسنة ص ٥-٢٧، النبي المختار ص ٣١/ ٣٣-٣٤، سيرة المصطفى ص ٦٥-٧٣.

(٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته ص ٧٦-٨٤.

(٣) وما من أنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه إلي. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة، شمائل الرسول ص ٨٠.

(٤) شمائل الرسول ص ٩٨-١٠٣.

(٥) الشفا ج ١/ ٣٤١-٥٣٣.

(٦) السابق ص ٣٤٥-٣٤٩.

(٧) يقال مدد الأنبياء...، ١٢٤، والرسل ٣١٣.

(٨) فيما أيد الله به من المعجزات وخرق العادات، بهجة المحافل ص ٤٤٧-٤٤٨، تسمية المعجزة وأنواعها، السابق ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٩) سيرة النبي ج ٣/ ٤٨٤-٥٢١.

وتعني المعجزة ما لم يستطع الخلق الإتيان بمثله. وتعني الكرامات البركات وانقلاب الأعيان فيما لمسه أو باشره الرسول^(١). ومن كراماته أن من يكذب عليه ليس كالكذب على غيره، وأن من كذب عليه لن تقبل روايته وإن تاب، والكذب عليه كبيرة^(٢). وتستمر الكرامات بعده عند أولياء الله الصالحين في روايات دون أقوال مباشرة^(٣). وقد تعني كراماته ما يقع على يديه من معجزات في حين أن الكرامة تقع على يد الوالي. وإذا بلغت المعجزات حوالي الثلاثمائة فإن الكرامات تصل إلى حوالي المائة^(٤).

ومعجزات النبي أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين: الأول كثرتها وفي مقدمتها القرآن. وهو في كل لفظ له معجز. وهو حوالي سبعة وسبعين ألف كلمة. وهو معجز ببلاغته ونظمه وإخباره بالغيب. والثاني في الوضوح. فقد ارتبطت معجزات الأنبياء السابقين بفنون وعلوم عصورهم، السحر زمن موسى، والطب زمن عيسى، والبلاغة زمن الرسول في الشعر والكهانة، وصدق المشاهدة زيادة في اليقين وطمأنينة في النفس. وقد انقرضت باقي المعجزات بانقضاء أنبيائها. وثبتت معجزة الرسول بعد وفاته، تتجدد باستمرار^(٥). والقرآن خارج التأويل والتخيل. والصرقة افتراض غيبي في حين أن الإعجاز واقع تجريبي^(٦).

والعرب على جاهليتهم يعترفون بالصانع، وكانوا يعبدون الأصنام تقربا بها إلى الله زلفى. ومنهم من آمن بدليل عقله وصفاء لبه. وجاء الرسول تأكيدا لما وصلوا إليه^(٧).

-
- (١) «في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره»، بهجة المحافل ص ٤٧٥-٤٧٧.
(٢) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٣٩-٥٤٠ «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» ص ٥٣٩/ ٥٤١-٥٤٢ «إن كذبا علي ليس ككذب على أي أحد»، السابق ج ٢/ ٢٩٤-٢٩٥.
(٣) شمائل الرسول ص ١٦٨-١٧١.
(٤) سيرة النبي ج ٢/ ١١٤-١٢٠.
(٥) الشفا ج ١/ ٥٢٣-٥٣٣، الوفا ج ١/ ٢٦٥-٢٧٢.
(٦) الشفا ج ١/ ٥٢٨، الوفا ج ١/ ٢٧٠، شمائل الرسول ص ١٧٨.
(٧) «والعرب على جاهليتها أكثرها يعترف بالصانع. وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلى الله زلفى. ومنهم من آمن بالله وحده من قبل الرسول بدليل عقله وصفاء لبه. ولما جاءهم الرسول بكتاب الله فهموا حكمته وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وهلة معجزته فأمنوا به»، السابق ص ٥٣٢-٥٣٣، في إعجاز القرآن، بهجة المحافل ص ٤٤٩.

واستدعت معجزات الرسول معجزات الأنبياء السابقين قراءة للحاضر في الماضي. كما تمت صياغة معجزات الرسول في الحاضر بناء على نماذج لها في الماضي عند أنبياء بني إسرائيل: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وموسى، وإدريس، وداود، وسليمان، وعيسى^(١). فما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ليتبعه الناس. وللرسول الوحي. وهو أكثر الأنبياء تبعاً. وقد خُص الرسول بثلاث: عدم هلاكهم بسنة، عدم استباحة أي عدو لهم، وعدم اجتماعهم على ضلالة. ولم تحبس الشمس إلا ليوشع^(٢).

وفي الإسراء والمعراج خصائص كثيرة أعطيت للرسول رؤية أهل الجنة دون رؤية أهله، ورؤية باقي الأنبياء تحت سدره المنتهى: إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وداود مع الزبور، وسليمان الملك، فأخبره جبريل أنه رفع ذكر الرسول، وشهادة الأمة له، وجعل قلوبها أناجيل، وأعطى خواتيم سورة البقرة. وقد أرسل رحمة للعالمين وبشيرا ونذيرا لكافة الناس، وأنزل عليه الفرقان، فيه بيان كل شيء، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطا هم الأولون والآخرون، وشرح صدره ووضع عنه وزره، ورفع ذكره، وجعل فاتحا وخاتما^(٣).

وقد تجسدت المعاني في صور جسمية مثل رؤية الرحمة والسكينة ونزولها من السماء، ورؤية النور بالأيادي، والنور على باب أبي بكر، ورؤية الحمى، ورؤية الفتن، ورؤية الدنيا

(١) شمائل الرسول ص ٢٧٨-٣٢٢، «أجارني الله عليكم من ثلاث: أن لا يهلككم بسنة، وأن لا يستيحكم عدو. وألا تجتمعوا على ضلالة»، السابق ص ٢٩٠.

(٢) «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»، «اللهم إن كان في طاعتك وطاعة نبيك فأردد عليه الشمس»، السابق ص ٣٠٣.

(٣) «يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا كرمته، جعلت إبراهيم خليلا، وموسى كليا، وسخرت لداود الجبال، وسليمان الريح والشيطان، وحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟ قال: أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله أن لا أذكر إلا وذكرتي معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرأون القرآن ظاهرا ولم أعطها أمة، وأنزلت عليك كلمة من كنوز عرشي "لا حول ولا قوة إلا بالله"»، السابق ص ٣٠٤. «إني رفعت لك ذكرك تذكر معي إذا ذكرت، ولا تجوز لأمتك خطبة حتى يشهدوا أنك رسولي. وجعلت قلوب أمتك أناجيل، وأتيتك خواتيم سورة البقرة من تحت عرشي»، «الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيرا ونذيرا، وأنزل علي الفرقان فيه بيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطا، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون. وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحا وخاتما»، شمائل الرسول ص ٣٠٤-٣٠٥.

وسماع كلامها، ورؤية الجمعة والساعة، وتحلى ملكوت السموات والأرض له^(١). وهو تجسيد للمعاني وليس فقط تشبيها لها كما يحدث في الذات الإلهية. فالمعجزات دلالات مجسمة، ومعان مصورة من أجل التأثير والإقناع كما هو الحال في الفن القصصي.

والمعجزة الرئيسية للأنبياء وجودهم ذاته^(٢). والنبوة هو الكلام مع الله ونزول الملائكة وعالم الرؤيا^(٣). ومع ذلك، لما ظهرت المعجزات على الرسل تبعه المؤمنون عملا بالدليل لا تقليدا^(٤). وأنكر آخرون المعجزات واكتفوا بالدليل مثل الباطنية وبعض الملحدين كالراوندي وأبي العلاء المعري. والحكم عليهم بالإلحاد تسرع. فالمطالبة بالدليل جوهر الإسلام ﴿قُلْ هَآئِذَا بَرَأْنَاهُ أَنْ نَكُنْ فَرَسًا مِثْلَ الْبَاقِيَاتِ مِنَ الْإِنْعَامِ فَوَاصِرَةٌ إِلَيْنَا هُنَّ أَهْلُ عِلْمٍ فَهُمْ بِهِ سَمِيحُونَ﴾.

المعجزة ليست هي الطريق الوحيد للإيمان بالنبوة. فلم يكن يطلب متبعوا الأنبياء منهم معجزة. ولم يؤمن المعاندون حتى بعد رؤيتهم للمعجزة. ولا يستفيد منها إلا القليلون^(٥). والوحي ليس شيئا حسيا بل هو إلهام فطري نوعي خاص، لا يرتبط بالماديات. وقوة النبوة تجعل الحواس لا محدودة، قادرة على إدراك عالم المثال^(٦).

وتحاول بعض السير الإصلاحية تفسير المعجزة تفسيراً روحياً. فهناك نواميس روحية غير النواميس المادية للنبوة. وهي تعادل الآثار الفطرية. وتغلب القوانين الإنسانية^(٧). المعجزة مجرد دليل مع أدلة أخرى كثيرة منها الدلائل العقلية. وقد عرض لذلك المتكلمون

(١) الخصائص الكبرى ج٢/ ١٥١-١٥٥ «ما كنتم تقولون فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأجبت أن أشارككم فيها»، «إن هؤلاء القوم كانوا يذكرون الله... فنزلت عليهم السكينة تحملها الملائكة كالثقة. فلما دنت منهم تكلم رجل منهم بباطل فرفعت عنهم»، ج٢/ ١٥١، «ألا تدعون لي صاحبي ما شأنكم وشأنه. فوالله ما منكم رجل إلا وعلى باب بيته الظلمة إلا باب أبي بكر فإن على بابه النور»، ج٢/ ١٥٢، «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن»، ج٢/ ١٥٣.

(٢) سيرة النبي ج٢/ ٨.

(٣) السابق ج٣/ ٢٠٥-٢٥٠.

(٤) الوفا ج١/ ٣٤٩-٣٥١.

(٥) سيرة النبي ج٢/ ٨-٩.

(٦) السابق ج٣/ ١٨-٣٤، ج٤/ ٣٣-٦٨.

(٧) السابق ج٣/ ٦-٧.

والفلاسفة^(١). ولا تنفي العلية. فهناك علل خفية كالتأثيرات الفلكية والقوى الكهالية، والقوى، والتأثيرات النفسية. فالعلل متنوعة. والعلم الإنساني لا يحيط بها كلها. وقد تكون قدرة الله أحد هذه العلل الخفية كما وصف الصوفية. وهي غير العلل التجريبية المباشرة التي تقوم على المشاهدة والرواية والتاريخ. والمعجزة غير السحر لأن السحر يقوم على الإيهام في حين أن المعجزة تقوم على أنواع غير مرئية من العلل^(٢). وتعرض السير الإصلاحية الحديثة لتيار إمكانية المعجزات في الغرب في العصور الحديثة التي تقوم على نفي العلية. والحقيقة أن هذا التيار يعطي الأولوية للتجارب والمشاهدات الحسية ليس بدافع إثبات المعجزات ولكن بدافع بيان نشأة القوانين والتصورات العقلية^(٣). استبعدت المعجزات في الغرب، واستبدلت بها اختراعات العلم والتنويم المغناطيسي ومعجزات الشفاء والتجارب العامة والحدوس الفكرية والإلهام. فالقضية في كلتا الحالتين هو اليقين^(٤).

ب- أنواع المعجزات

والمعجزات على أنواع: الأول الإطلاع على الغيب. وذلك يمكن عن طريق الاستبصار ومعرفة قوانين التاريخ، ورؤية الملائكة. وهو ما يصعب ضبطه والتحقق من صدقه، والثاني خوارق العادة وهو المعنى التقليدي للمعجزة بمعنى قلب الأعيان^(٥). والإخبار بالغيب تضخم أشياء كثيرة مثل البشارات والتنبؤ مثل، التنبؤ بانتصار الروم^(٦). ومنها الإخبار بالماضي، الأنبياء السابقين وأهمهم، ليس معجزة بل إحدى وظائف النبوة. كما أن التنبؤ بالمستقبل ليس معجزة بل هي إحدى عناصر المعاد، سواء المستقبل على هذه الأرض، الهزائم أو الانتصارات أو بعد الموت حين البعث ويوم الحساب والثواب

(١) السابق جـ ٣/ ١٢.

(٢) السابق جـ ٣/ ٣٥-٨٤.

(٣) هو مذهب هيوم، السابق جـ ٣/ ٨٦-١٠٥.

(٤) السابق ص ١٠٦-٢٠٤.

(٥) الإخبار بالغيوب مثل: الإخبار بموت النجاشي، إخباره بصفة بيت المقدس، دعوته لعمر ولكثير الصحابة أن يعز الإسلام بهم، الإخبار بمصارع للمشركين، موت عثمان وكرب الأنصار ونهاية عصر الصحابة بعد المائة، والإخبار بغزو البحر، سيرة النبي جـ ٣/ ١٤-١٧ / ٥٥٤-٤٧٥.

(٦) السابق جـ ٣/ ٣٤٦-٤٥٣ / ٣٤٨-٣٥١.

والعقاب^(١). وهما علمان إنسانيان، فلسفة التاريخ وقراءة أو سيناريوهات المستقبل في علم الاجتماع. ولا يعني ذلك أن الرسول عراف أو كاهن كما هو الحال في العلوم القديمة. فقتال اليهود وفتح مصر جزء من قوانين التاريخ^(٢).

والإخبار بالمغيبات قبل وقوعها داخل النفس أو خارجها^(٣). وهو جزء من استبصار المستقبل للأفراد والجماعات، حرفيا أو رمزا، بأفعال البشر أم بمظاهر الطبيعة، بمظاهر العدل والظلم. وهناك أشياء عادية وليست معجزة مثل عدم رد السائل، مبايعة رجلين للنبي، بعثه هدية إلى عثمان واتقاء الكلام إلى النساء خشية أن ينزل فيهم القرآن.

ويتعلق كثير من الإخبار بالمغيبات بالجبهة الداخلية، الخلفاء الأربعة ومعاوية وبني أمية وبني العباس، ولبقاء السلطة في قريش حتى يسلبه الترك منهم. يأتي بنو عباس بعد بني أمية. ويستشهد عمر وعثمان وعلي، وطلحة والزبير والحسين. وأخبر بالردة كما أخبر بالكذابين وبالحجاج وبغيلان الدمشقي من المعتزلة الأوائل، وبالطاعون بالشام وفناء أمته، وبقتل عمر والفتنة^(٤).

والتاريخ كله يسير طبقا للمعجزات وليس بتخطيط بشري. فقد وقعت المعجزات عند وفادة الوفود على النبي^(٥). فقد حُفظ النبي من أن يقتل من أحد أعضاء الوفود.

(١) محمد رسل الله جـ ٢/٦٣/٦٦/٦٧.

(٢) السابق جـ ٢/٦٣-٦٤.

(٣) مثل: موت النجاشي، ما سحر به، ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج، ما حدث رجال به أنفسهم، «ويل للعرب من شر قد اقترب»، الرجل الذي قال في نفسه شعرا، الإخبار بالمنافقين ويمن نحر نفسه، وبإسلام أبي الدرداء، وسحابة أمطرت باليمن، بالشاة التي أخذت بغير حق، بشأن السارق، الصائمة المقتابة، لا تغيب الشمس حتى يأتيكم الله برزق... الخ، الخصائص الكبرى جـ ٢/١٧٧-١٩٦.

(٤) ومثل كثرة الموت، انتشار الزنا، موت أبي الدرداء، وقعة الجمل وصفين والنهران، وقاتل عائشة والزبير عليا، وبعث الحكمين، أغيلمة من قريش ورأس الستين، قتل عمار بن ياسر، قتل أهل الحرة، كذابون في الحديث، شياطين يتحدثون، تغير الناس في القرن الرابع، الموتى في النار، افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة والزنادقة، نار تخرج من الحجاز، ذهاب الأمل فالأمل، خروج الدجال، استيلاء القرامطة على الحجر الأسود، الخصائص الكبرى جـ ٢/١١٠/٢٥٠.

(٥) الخصائص الكبرى جـ ٢/٣-٥٩. وقد تقيف جـ ٢/٣-٥. وقد بني حنيفة ص ٥-٦. وقد عبد القيس جـ ٢/٧، وقد بني عامر جـ ٢/٩-١٠، وقد دوس جـ ٢/١٣-١٥، وقد سليم جـ ٢/١٥، وقد طي جـ ٢/١٨-١٩، وقد حضر موت جـ ٢/٢٠-٢١، وقد مزينة جـ ٢/٢٣-٢٤، وقد بني سحيم جـ ٢/٢٤.

وقد تكون هيئته أو عادات العرب ما منعت من ذلك. ومثل تعدد ألوان التمر وهي طبيعة التمر في شبه الجزيرة العربية بين الأحمر والأصفر والبني والأسود، والدعوة على الأعداء بالموت وإصابتهم بالمرض أو تفحم ديوان كسرى. ومن الآيات التعرف على الجن، وإخبار اليهود بأسماء أنبيائهم ومصائرهم، وإنزال المطر. وفرق بين وفد الجن ووفد الإنس، آتين من الشام، يأكلون ويشربون. يأكلون الروث. منهم المسلمون ومنهم المشركون.

وتقارن فضائل الأنبياء السابقين بفضائل آخر الأنبياء. ويذكر لكل نبي خصلة بصرف النظر عن ترتيبهم التاريخي^(١): تعليم آدم الأسماء، ورفع إدريس مكانا عليا، وإنقاذ نوح، ونصر هود بالريح، وصالح بالناقة، وإبراهيم الخليل، وإسماعيل اللسان العربي، ويعقوب الابتلاء، ويوسف الجمال، وموسى المعجزات، ويوشع القتال، وداود التسبيح، وسليمان الملك، ويحيى الحكم، وعيسى الرفع إلى السماء.

أما خصائص خاتم الأنبياء التي فُضِّل بها على سابقيه فإنها كثيرة^(٢). كما أخبر بحوادث بعد وقوعها عن بعد. وهو ما لا يمكن عده معجزة. بل قدرة على الاتصال والمعرفة، ومعظمها وقع في مستقبل الأمة سلبا أم إيجابا، فتوحات أو هزائم، قوة أو

وفد شيان ص ٢٤-٢٥، وفد عذرة جـ ٢/٢٥، وفد نجران جـ ٢/٢٦-٢٨، وفد جرش جـ ٢/٢٩، وفد فزارة جـ ٢/٣١، وفد بني مرة جـ ٢/٣٢، وفد الدارين جـ ٢/٣٣، وفد بني البكاء جـ ٢/٣٤-٣٥، وفد نجيب جـ ٢/٣٥، وفد سلامان جـ ٢/٣٥-٣٦، وفد محارب جـ ٢/٣٦، وفد الجن جـ ٢/٣٦-٣٩، «اختصم عندي الجن المسلمون والجن المشركون فسألوني أن أسكنهم» جـ ٢/٣٨، وفد بنو نعيم جـ ٢/٥١.

(١) وهم: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، إسماعيل، يعقوب، يوسف، موسى، يوشع، داود، سليمان، يحيى، عيسى، الخصائص الكبرى جـ ٢/٣٦٦-٣٧٦.

(٢) منها: هو أول النبيين خلقا ومقدم في نبوته، كتابه معجز، وعفوف من التبديل والتحريف، وجامع لكل شيء، ومستغن عن غيره، ومشتمل على ما في الكتب السابقة وليس للحفظ. نزل منجما وعلى سبعة أحرف. وهي مستمرة إلى اليوم. هو خاتم النبيين وآخرهم بعثا وناسخ لجميع الشرائع قبله. أعطي كثر العرش، رسالته عامة، عورته لم ترقط، استئذان ملك الموت عليه، تحريم نكاح أزواجه من بعده، تولى الله عنه الرد على أعدائه، جمعه بين القبلتين والهجرتين حديث الله معه في سدره المنتهى، كلام الله له بأنواع الوحي، اختصاصه بالرعب مسيرة شهر، إتيانه جوامع الكلم ومفاتيح خزائن الأرض، علم كل شيء، تسمية أحد، هبوط إسرافيل عليه، الجمع بين النبوة والملك طي الأرض له، شرح الصدر، وضع الوزر، رفع الذكر... الخ، السابق ص ٣٧٧-٤٠٦.

ضعفا، وحدة أو تفرقا. تهدد الأمة مخاطر، الفقر والنساء والفتنة، ومع ذلك يتم فتح فارس والشام وبلاد الروم ومصر^(١). وتظهر جزيرة العرب من الأصنام. ويهلك الروم مع الساعة^(٢). والحسن يصلح الله به فتنين عظيمتين، شهادة النساء.

والتعبير عن الرؤيا بين تفسير الأحلام والتنبؤ بالمستقبل^(٣). فالرؤيا الصالحة جزء من النبوة. والمرويات فيها ضعيفة، وبعضها صادق. وله آداب. وللناس فيها درجات. ولكل جانب تفسير^(٤).

ورؤيته جزء من حضوره^(٥). فمن رآه في المنام فقد رآه حقا لأن الشيطان لا يتمثل به. ورؤية المؤمن جزء من أربعين جزءا من النبوة. فمن رآه في النوم فقد رآه^(٦). الرؤيا من الله والحلم من الشيطان. ويصعب التفرقة بينهما. وكيف يمنع الإنسان الضرر من الشيطان عن طريق البصق ثلاثا على يساره والتعوذ بالله؟ وإذا كانت الرؤيا حسنة يخبر بها الصديق. وإذا كانت سيئة فليتحول الإنسان من جنبه إلى جنبه الآخر. والرؤية الصالحة جزء من ستة وأربعين أو سبعين جزءا من النبوة. وتظل الرؤيا معلقة برجل طائر فإذا حدث بها الإنسان عالما أو ناصحا أو لييبا وقعت^(٧).

(١) ما يفتح على أصحابه وأمه من الدنيا، لم أنمأط ويتحاسدون ويقتلون، فتح الحيرة، فتح اليمن والشام والعراق، فتح القدس وما حوله، فتح مصر، غزوه البحر، قتال خوز وكرمان وقوم نعالهم الشعر، غزو الهند، مصالحة الروم، فتح فارس، هلاك كسرى وقيصر وإتفاق كنوزهما وليس بعدهما أحد، مقام حسن لسهيل بن عمرو، صدق البراء بن مالك، عمر من المحدثين، أول أزواجه لحوقا به، كتابة المصاحف، أويس القرني، حال عبد الله بن سلام، شهادة رافع بن خديج، حال أبي ذر، محمد بن الحنفية، عالم المدينة، عالم قریش، المقتولون ظلما، بعدداه. شهادة الصحابة، بناء بغداد، طائفة من الأمة لا تزال على الحق، تجديد الدين على رأس كل مائة سنة، الخصائص الكبرى ج٢/ ١٩٧-٢١٠.

(٢) السابق ج٢/ ٢٤٠/ ٢٥٢.

(٣) المواهب اللدنية ج٣/ ٥١٦-٥٥٣، سيرة النبي ج٣/ ٢٢٩-٢٤٣.

(٤) مثل شرب اللبن، التعبير عن القميص بالدين، سواران من ذهب، المرأة السوء أو نائرة الرأس، درع حصينة ويقر تنحر، الرطب، رؤيته سيفاً يهزه، أنه على القلب، السابق ج٣/ ٥١٦-٥٥٣.

(٥) «من رأي في المنام فقد رأي فإن الشيطان لا يتمثل بي»، «ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»، في رؤيته، شمائل الرسول ص ٣٦٨-٣٧٠.

(٦) «إن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل بي فمن رأي في النوم فقد رأي»، شمائل الرسول ص ١٩.

(٧) «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان. فإذا حلم أحدكم حلما يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثا، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لن تضره»، «ولا يخبر بها أحد. فإذا رأى رؤيا حسنة فليبشر، ولا يخبر إلا من يحب، ويتحول

أما المعجزات بمعنى خرق قوانين الطبيعة فهي مضادة لمعنى الإعجاز، فانشقاق القمر وحبس الشمس مضاد للشرح نفسه «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد»^(١). ونيع الماء بين أصابعه وتكثيره ببركته وانبعائه بحسه ودعوته ما يتمناه المجتمع الصحراوي الذي يصارع الجفاف^(٢). وتكثير الطعام ببركته ودعائه ما يتمناه أيضا مجتمع الندرة والجوع. فقد بصق الرسول العجين والبرمة وباركهما^(٣).

وامتدت المعجزات إلى خرق القوانين الطبيعية مثل انشقاق القمر^(٤). صحيح أن انشقاق القمر مذكور في القرآن ولكن بالشبه إلى يوم القيامة وليس يوم الولادة أو ليلة الإسراء «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ»^(٥). وهو حديث ضعيف جدا. وبعضها موضوع وبعضها منكر وبعضها سياقه غريب. وله روايات عديدة^(٦). ولرد الشمس بعد مغيبها أيضا روايات عدة^(٧). ويرقت برقة للحسن والحسين^(٨). وردت الشمس بعد غروبها لعلي^(٩). ومن كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره يسرع الفرس الذي يركبه، وتشفى جبهته وقصعته المرضى، وفضل وضوئه يراق في بئر فلا يجف. وكان يتفل في أفواه الصبيان ضد العطش، ويثمر النخل^(١٠).

-
- من جنبه الذي كان عليه، «رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»، «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءا من النبوة»، «الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها. فإذا حدث بها وقعت. فلا تحدث بها إلا عالما أو ناصحا أو لييا» سيرته في الرؤيا، الأسوة الحسنة ص ٤٧٤-٤٧٥، «من رأي في المنام فقد رأي فإن الشيطان لا يتمثل بي ولا بالكعبة»، خصائص الرسول ص ٢٩٠-٢٩٣.
- (١) الشفا ج ١/ ٣٩٦-٤٠١، الرفا ج ١/ ٢٧٢-٢٧٣.
- (٢) السابق ص ٤٠٢-٤١٠.
- (٣) السابق ص ٤١٠-٤١٩.
- (٤) الخصائص الكبرى ج ١/ ٢٨٠-٢٨٢.
- (٥) السابق ج ١/ ٣٤٩-٣٥٧.
- (٦) دلائل النبوة الحسية، المشاهدة بالأبصار، سماوية أرضية، شمائل الرسول ص ٨٥-٩٧، انشقاق القمر ص ٨٥-٨٧.
- (٧) شمائل الرسول ص ٨٨-٩٠، «اللهم إن كان في طاعتك وطاعة رسولك فأردد عليه الشمس»، ص ٩٠-٩٧.
- (٨) السابق ج ٢/ ١٤٢-١٤٤.
- (٩) بهجة المحافل ص ٤٥٨-٤٥٩، شمائل الرسول ص ٩٠ «إنك مأمورة (الشمس)، وأنا مأمور، اللهم احبسها علي» ص ٨٩، «اللهم رد علي الشمس» ص ٨٨، ٩٠، سيرة النبي ج ٢/ ٣٤٤-٣٤٧، المواهب اللدنية ج ٢/ ٦٤٥.
- (١٠) الشفا ص ٤٦٢-٤٧٠.

وفي تقسيم ثنائي آخر الآيات نوعان: سماوية وأرضية، السماوية مثل استسقائه لأمته حين تأخر المطر والاستجابة له سريعا بحيث لم ينزل من المنبر إلا والمطر ينحدر على لحيته^(١). وتصنيف المعجزات الأرضية طبقا لمستويات الطبيعة: الجهاد، والنبات، والحيوان، والإنسان، تقع المعجزات أيضا في الجهادات^(٢). تسلم عليه الأشجار، ويرجف المنبر من سماع اسم الجبار. وتحرك الجبل لأعلى، وسكن بأمره. أشار إلى الأصنام فوقعت. وألين الصخر له، وسبح الحصى بين يديه. وتكلم الجدار بحضرته^(٣). وللنبي معجزات في أنواع الجهادات^(٤). مثل تسييح الطعام. وقد أتمن أسكفة الباب وحوائط البيت درءا لخطر الأعداء. وأمر الجبل بالسكون فما عليه إلا صديق فشاهدان، وتحرك المنبر. ولم تقبل الأرض جسد مشرك وقبلة غار من الفيران^(٥). وأضاء النبي العصي والسوط والأصابع. وأنار بيته ثلاث مرات. واستجيب إلى دعائه لمغفرة سائر أمته. ووضع يده على تمثال فأذهبه، وعلى شعر فلم يشب. وفي يده أثر الشفاء والبريق والطيب وبنات الشعر^(٦). وقد رؤي عن الرسول أنه تعرف على حجر بمكة كان يسلم عليه قبل أن يُبعث^(٧). وقد سبح الحصى في كفه. وقد يكون حدث احتكاكة أو إسقاط

(١) شياثل الرسول ص ٩٨-١١٢، «اللهم حولنا ولا علينا»، «اللهم على الأكمام والجبال والظراب والأودية ومناكب الشجر»، ص ٩٨، «اللهم اسقنا. غيثا مغيثا، مرتبا، سريعا، مريعا، عذقا طبقا، عاجلا غير راثت، نافعا غير ضار، تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع، وتحمي به الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون»، ص ١٠١.

(٢) الشفا ج ١/ ٤٣٠-٤٣٤، الوفا ج ١/ ٣٠٠ «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»، الوفا ج ١/ ٣٠٥، المواهب اللدنية ج ١/ ٢٠٠، شياثل الرسول ١٠٤-١١٢.

(٣) «ومنها أيضا أمطار السماء، تساقط الأصنام، تسليم الحجر عليه، تحول الخطب إلى سيف»، الوفا ج ١/ ٣٢٠-٣٢١/ ٣٢٥/ ٣٣٤.

(٤) الخصائص الكبرى ج ٢/ ١٢٩ «إن هذا الطعام يسبح» ج ٢/ ١٣٠ «اختر أن أغرسك في المكان الذي كنت فيه فتكون كما كنت، وإن شئت أن أغرسك في الجنة فتشرب من أنهارها وعبونها فيحسن بنبك وتثمر فيأكل أولياء الله من ثمرتك؟» ج ٢/ ١٣١، «لو لم احتضنه لحن إلى يوم القيامة» ج ٢/ ١٣١، «إن الأرض أبت أن تقبله فاطر حوه في غار من الفيران» ج ٢/ ١٣٥.

(٥) السابق ج ٢/ ١٤٠-١٤١.

(٦) السابق ج ٢/ ١٤٤-١٤٩.

(٧) «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»، بهجة المحافل ص ٤٦٥، سلام البشر والحجر، المواهب اللدنية ج ١/ ٢٠٠، شياثل الرسول ص ١٤٦-١٤٨.

نفسي على الحجر. ونطق الجمادات تصوير لمدى العلاقة بين الوعي والعالم. فالشعور في حالة إجماع متبادل بينه وبين الأشياء. كل شيء حي يتكلم ويخاطب ويؤثر. فقد تكلم المنبر المصنوع من خشب عندما صعد الرسول عليه. وقد يكون صوته الطبيعي «زقزقة» المنبر فرحا بصعود الرسول عليه وحزنا لمفارقه إياه. وخاطبه الرسول. وخيره بين أن يظل كما هو مردودا إلى الحائط كي تكتمل عروقه ويكتمل خلقه أو أن يغرسه في الجنة فيأكل الأولياء من ثمره^(١)؟ ورد الجذع بأنه قد فعل وأخبر الرسول أنه اختار دار البقاء وهو مازال منبرا في دار الفناء. وقد أمر بغصن شجرة بالانقياد له^(٢). ودعا فرعا من النخلة ليأتي إليه^(٣).

وهناك مجموعة من المعجزات في النبات. فقد كلمته الشجرة. وشهدت للرسول بالنبوة. واستجابت لدعوته. سلمت عليه، والتأمت لتظليله وهو بالخلاء^(٤). وحن الجذع إليه^(٥). وخيره النبي بأن يبقى في الأرض يُغرس في الجنة فيشرب ما يشاء فاختر الجنة. وهو إسقاط من الإنسان على النبات. وجاء الشجر إليه وانقاد له. وحن الجذع شوقا إليه وحزنا على فراقه. وهو تشخيص للطبيعة وأنسنة لها. وظلته الشجرتان حين كان يقضي حاجته حياء. فالرسول له خصوصيته^(٦).

وتجلى الآيات أيضا في الحيوانات^(٧). شكت البهائم له. وظهرت معجزاته في المركوب وإسراع الفرس؟ وقد كلمته الظبية كي يطلقها وترضع أولادها وتعود إليه

(١) «إن هذا بكى لما فقد من الذكر. والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»، «إن شئت أن أردك إلى الحائط الذي كنت فيه بنيت لك عروقتك ويكمل خلقك وإن شئت أغرسك في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك»، «اختار دار الفناء على دار البقاء»، بهجة المحافل ص ٤٦٤.

(٢) «إنقادي علي يا إذن الله»، «هذه الشجرة، تعالي يا شجرة»، بهجة المحافل ص ٤٦٦.

(٣) «أرايت إن دعوت هذا الغدق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟»، بهجة المحافل ص ٤٦٧.

(٤) شهادة الشجرة بنبوته، تحرك الشجرتين بأمره، أمر النخلتين، حنين الجذع، انقياد الشجرة له، الشفا ج ١/ ٤٢٠-٤٢٧. الرفا ج ١/ ٢٩٦.

(٥) السابق ص ٤٢٧-٤٣٠، ٤٢٩-٣٠٠، الرفا ج ١/ ٣٢١-٣٢٤، شمائل الرسول ص ١٠٦/ ٢٩٦.

(٦) شمائل الرسول ص ١٥-١٣٦-١٤٥-١٥٤.

(٧) الشفا ج ١/ ٤٣٤ «ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس» ص ٤٤٠، «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله عز وجل إنه اشتكى إلى أنك تحميه وتدنيه» الرفا ج ١/ ٣٠١، الرفا ج ١/ ٣٠٣، شمائل الرسول ص ١٥٧-١٦١.

ليقيدها^(١). وكلمه الضب الذي تعرف عليه بأنه رسول الله وبأنه يعبد الله الذي في السماء عرشه، وعلى الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. ثم أنشد الضب شعرا في مدح النبي، وشهد أنه الرسول كما طلب صاحبه بالرغم مما في الرواية من نكارة وغرابة. وربما سجود الغنم له دلالة على سجود المرأة لزوجها لو كان للسجود ضرورة^(٢).

وشهد له الذئب بالرسالة. واحترمه الوحش في بيته ووقره وأجله ووجد وحشا في بيت النبي يتحرك إذا خرج، ويسكن إذا دخل. وأبلغ أسد الرسول خطة الروم. وهي روايات بلا أقوال مباشرة^(٣). وساعد الأسد مولى الرسول على النجاة في البحر أو الوصول إلى جيش المسلمين في حربه مع الروم. واشتكت غزالة إلى الرسول بأنها ستذبح ووليدها لم يرضع فأمر بإطلاق سراحها وعادت فاشتراها الرسول وأطلقها^(٤). وتحدثت إليه الغزالة لترجوه أن يتركها صاحبها لترضع أولادها ويبيع ففعل واشتراها الرسول وأطلق سراحها. فشهدت أنه رسول الله^(٥). وشهد الضب والحمار على أن الرسول هو رسول الله، وما في الراويتين من غرابة^(٦). وتعرفت عليه الحيوانات مثل الضب وشهد بأنه رسول الله. واعترف بأنه يعبد الله^(٧). واشتكى الجمل صاحبه للرسول بأنه كبر ونقص علفه وزاد حمله ثم ينحروه. فأمر الرسول بحسن معاملته^(٨). وتحدثت ناقة

(١) الرفاج - ٣٣٥/٣٣٦، «يا ضب من تعبد؟ قال الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه»، السابق ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٢) «إنه لا ينبغي أن يسجد أحد لأحد. ولو كان ينبغي لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، شمائل الرسول ص ١٥٠/١٥١/١٥٥/١٥٧.

(٣) السابق ص ١٦١.

(٤) ما يتعلق بالحيوانات من دلائل النبوة، شمائل الرسول ص ١٤٩-١٧١.

(٥) السابق ص ١٦٢-١٦٣.

(٦) السابق ص ١٦٣، مثل: در الشاة الجافة، الدعوة لجمل كي يسبق، سجود البعير والغنم، تكليم الجمل والحمار، شهادة الجمل، سؤال الظبية، حديث الغزالة، شهادة الذئب والضب، ركوب الفحل، شهادة الشاة المسمومة، شكوى البعير، شكوى الطيور، أدلة حجة الحيوان والعباد له، سيد الأنام ص ٣١٢-٣٢٨.

(٧) بهجة المحافل ص ٤٦٧.

(٨) «أتدرون ما يقول؟ رغم أنه خدم مواله أربعين (عشرين) حتى كبر فتقصوا من علفه، وزادوا في عمله حتى إذا كان لهم غرض أرادوا أن ينحروه غدا»، السابق ص ٤٦٨، شمائل الرسول ص ١٥١.

بأن صاحبها ما سرقها وطلب منه الرسول ربطها حتى لا تهرب^(١). واشتكى بعير إلى الرسول لأن صاحبه يريد نحره فيشتريه الرسول منه ويطلق سراحه^(٢). وهي أحاديث غريبة. واسم الحمار يعفور وسأله الرسول عما إذا كان يشتهي النساء ولما أجاب بالنفي ركبته الرسول. ولما توفي ألقى الحمار نفسه في بئر فصار قبراً له^(٣). وأمر الرسول برد طائر للعناية بفرخيه^(٤). وطلب رد بيضة الحجرة وهو طائر مشهور. وتسخر الكرامات لأصحاب الرسول وأوليائه. وكلها تدل على الرفق بالحيوان من قسوة بني الإنسان.

ولا يهم صنف الحيوان بل نوعه، لا فرق بين الغنم والجمال في الشكوى. المهم دلالة الشكوى دفاعاً عن حقوق الحيوان في الحياة أو واجبه في رعاية ذريته. ومعجزاته في ضروب الحيوانات من طبيعة البيئة الصحراوية: الجمال والناقة والشاة والغنم، والظبية والذئب والحمرة، والوحش والفرس والحمار والدابة والضب والأسد. الكل يشهد بنبوته. ويضاف إليها الطائر والعفريت، والنبي يستجيب لشكواها من بني الإنسان كما دون إخوان الصفا في إحدى رسائلهم، وهي كرامات له. كما خنق النبي الشيطان وهو يعترضه في صلاته^(٥).

وعلى المستوى الإنساني وتكثير الطعام ونبع الماء بين أصابعه مركب من أمر واستجابة وليس حديثاً متصلاً. وهو أضعف مثل الحديث الطويل. وهو تعبير عن الحاجة إليهما فالنبوة تلبية للحاجات، السمن لربة المنزل، والطعام القليل للمضيف حتى يكفي ضيوفه الكثير، وتكثير قطعة الذهب لوفاء الدين. ومعظمها قصص وروايات، وأقلها

(١) السابق ص ٤٧٠.

(٢) سائل الرسول ص ١٥٢، «هذا بعيرهم أراد أهله نحره فهرب منهم فاستغاث بنيكم»، «لقد استغاث فلم تغيثوه وأنا أولى بالرحمة منكم لأن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين وأسكنها في قلوب المؤمنين»، «أيها البعير انطلق فانت حر لوجه الله»، السابق ص ١٥٦.

(٣) سائل الرسول ص ١٦٥.

(٤) السابق ص ١٦٦-١٦٧.

(٥) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٩١-١١٠ «ما بين لا يتبها أحد إلا ويعلم أي نبي إلا كفره الجن والإنس»، ص ٩١، «اعترض لي الشيطان في مصلاي فأخذت بحلقه حتى وجدته برد لسانه على كفي ولولا ما كان من دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً تنتظرون إليه»، ج ٢/ ١٠٩-١١٠.

أقوال مباشرة^(١). وقد أطعم من الجفنة أربعين^(٢). ونبع الماء بين أصابعه وتكثيره ببركته. ويكون بالعصر والدعك والفرك، وقد يأتي من السماء من الجنة^(٣). يذهب الجوع والعطش والتعب والغيرة والحر والبرد وحبس الدمع^(٤). ويذهب النسيان والبذاء. ويحفظ العلم والفهم والحياء.

وبعث الرسول بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقه تحت ظل رمح. والذلة والصغار على من خالف أمره^(٥). وأوتي القدرة على ربط الجن إلى سارية في المسجد^(٦). وأتاه إبليس في الصلاة فخنقه الرسول بيديه حتى خرج برد لعابه بين أصابعه. وإذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين. ولو شاء لجعلت له الجبال ذهبا. وأوتي مفاتيح خزائن الأرض.

ويحيي الرسول الموتى كالمسيح، ويكلم الصبيان والمراضع والموتى. ويشهد الكل له بالنبوة. وكلام أحد الموتى للشهادة للرسول ما هو إلا ذريعة لإعطاء الشرعية لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان^(٧). وقد أخبرته ذراع الشاة أنها مسمومة^(٨). وأبرأ المرضى وذوي

(١) بهجة المحافل ٤٥٩-٤٦٣، شمائل الرسول ١٠٦-١٣٥، تكثير اللبن والماء، انقلاب الماء لبناء، سيرة النبي ج ٣/٤٢٩-٤٣٦.

(٢) الخصائص الكبرى ج ١/٢٧٦، ج ٢/٦٠-٩٠.

(٣) السابق ج ٢/١٢٢-١٢٥.

(٤) السابق ج ٢/١٢٦، «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه»، ج ٢/١٢٦.

(٥) «بعث بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»، شمائل الرسول ص ٣٠٨.

(٦) «إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه. فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليها فذكرت دعوة أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، لم أرد أخذه والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة»، السابق ص ٣١٠، «لو رأيتموني أنا وإبليس فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت بردها به بين إصبعي هاتين...»، «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة. وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»، «ولو شئت لأجرى الله معي جبال الأرض ذهبا، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما»، «فيينا أنا نائم إذ جى بمفاتيح خزائن الأرض فجعلت في يدي»، السابق ص ٣١١.

(٧) قصة زيد بن خارجة، وكلامه بعد الموت، وشهادته بالرسالة لمحمد، وبخلافة أبي بكر الصديق ثم لعمر ثم لعثمان، شمائل الرسول ص ١٧١-١٧٤.

(٨) الشفا ج ١/٤٤٤-٤٥٠ «يا فلانة أجيبي بإذن الله تعالى، إن أبويك قد أسلما. فإن أردت أن أردك إليهما»، بهجة المحافل ص ٤٧١.

العاهات^(١). وقد أوتي قدرة على دفع من أراد أذاه من الإنس^(٢). وقد هلك بعض من أذاه. ودفع من قصد أذاه من الشياطين. وللرسول فضل على آدم أن شيطانه كان كافرا فأعانه الله عليه فأسلم. وكانت أزواجه عوناً له^(٣). وقد أعاد عين بعض أصحابه بعد أن خرجت فاستقامت^(٤).

ووقعت عدة معجزات في عرض نفسه على القبائل^(٥). وقد يكون القادمون جماعة مثل الأشعرين^(٦). وقد يكونون أفراداً، واحداً واحداً^(٧). يتنبأ النبي بالقادم وتبصيراته وجهه. وقد وقعت آيات في تزويجه بعض نسائه مثل عائشة وسودة، تزويج عائشة في السماء، ورؤية زوج سودة بوفاته وزواجها من النبي^(٨). وهناك معجزات في إجابة الدعوات^(٩). وهي مثل دعوات الشعراء ومخاطبة الطبيعة. وتكون الدعوات للأهل والأصدقاء، للمسلمين واليهود والنصارى على حد سواء، لمؤمن أو منافق. وقد تكون الدعوات لقريش. وقد تتحول الدعوات إلى رقي من الجن بفاتحة الكتاب وحين النوم^(١٠).

(١) الشفا جـ ١/ ٤٥١-٤٥٥.

(٢) «لو دنا مني لاختطفته الملائكة، عضوا عضوا»، الوفا جـ ١/ ٣٢٧-٣٢٩-٣٣١.

(٣) «فضلت على آدم بخصلتين. كان شيطاني كافرا فأعاني الله عليه فأسلم. ولكن أزواج عونا لي. وكان شيطان آدم كافرا وكانت زوجته عوناً له»، السابق جـ ١/ ٣٣٢.

(٤) السابق جـ ١/ ٣٣٣.

(٥) الخصائص الكبرى جـ ٣٩٤-٣٩٩.

(٦) السابق جـ ٢/ ٥٢١.

(٧) زياد الهلالي، الخصائص الكبرى جـ ١٦/ ١٦-١٧، جرير جـ ٢/ ١٧-١٨، طارق بن عبد الله جـ ٢/ ١٩-٢٠، عبد الرحمن بن أبي عقيل جـ ٢/ ٢٢-٢٣، ماعز بن مالك جـ ٢/ ٢٣، معاوية بن صيدة جـ ٢/ ٣٠، كعب بن مرة جـ ٢/ ٣١-٣٢، الحارث بن عبد كلال جـ ٢/ ٣٤، فريم بن فاتك جـ ٢/ ٣٩، جهاه جـ ٢/ ٤٣، راشد بن عبد ربه جـ ٢/ ٤٤، أبو صفرة جـ ٢/ ٤٧، عكرمة بن أبي جهل جـ ٢/ ٤٨، النخع جـ ٢/ ٤٩، خفاف بن نضلة جـ ٢/ ٥٠، الأعرابي جـ ٢/ ٥١-٥٢، الأعرابي من بني عامر بن صعصعة جـ ٢/ ٥٢، الأعرابي الآخر جـ ٢/ ٥٣.

(٨) السابق جـ ١/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٩) دعوات للاستسقاء، دعاء آل النبي وضيئه ولأصحابه، عمرو وعلي وسعيد ومالك ابن ربيعة والمقداد ولعمرو بن الحمق ولأولاد أبي سيرة ولضمرة بن ثعلبة، ولأبي سلمة ولأبي بن كعب ولابن العباس ولأنس بن مالك ولأبي هريرة ولعبد الرحمن بن عوف ولعروة البارقي ولعبد الله بن جعفر ولأم سليم ولعبد الله بن هشام وزهير وخالد بن أسيد.... الخ، الخصائص الكبرى جـ ٢/ ٣٢٢-٣٥٢.

(١٠) دعاء النجاة من الظلمين وتسير الحوائج، ما يتلى حين يأخذ الإنسان مضجعه، وفي المنام، السابق ص ٢٥٣-٣٦٥.

وتقع المعجزات في الحياة اليومية، فقد حكم بقتل من كذب عليه وعرف ابن أيرق المنافق. وحكم على الحكم بن أبي العاص باختلاج الوجه، ووقوع البرص في ابنة الحارث. وأمر النار بعدم حرق المؤمنين كما حدث لإبراهيم^(١). ولم تحترق المناديل التي كان النبي يسمح بها وجهه، وخرج من النار مبيضا. وقد تقع المعجزات في الحوادث الكبرى مثل حجة الوداع^(٢). وقد اطلع النبي على أحوال البرزخ والجنة والنار، واجتمع بالخضر وعيسى. ورأى رجلا من قوم عاد، رجلاه في المدينة ورأسه بذئ الحليقة كما يتصور الخيال الشعبي. وظل الشيطان يأكل مع رجل لم يسم قبل الطعام حتى سمي^(٣).

واستمرت المعجزات من النبي إلى الصحابة الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامها مثله، فرؤية الملائكة متوقفة على درجة الإيمان وصفاء النفس. يرونها وإن لم يتعرفوا عليها. ولجبريل دعاء^(٤). كما يروي أصحابه الجن المعجزات ويسمعون كلامهم. وله حرز عند أبي دجانة.

وإن لم تبلغ هذه المعجزات مبلغ التواتر فيبقى القرآن المنقول نقلا متواترا جيلا وراء جيل، شفاهة ثم كتابة^(٥). فقد دون في نفس الوقت الذي تم إعلانه دون أن يمر بفترة شفاهية تحتمل الخطأ والنسيان. ثم تم جمعه كتابة منذ الجيل الأول من الصحابة، في عصر الخليفة الرابع عثمان. وليس الإنجيل الذي مر بفترة شفاهية تتراوح بين الأربعين والمائة عام أو التوراة التي مرت بفترة شفاهية تتراوح بين ستة أو سبعة قرون منذ موسى في القرن الثالث عشر حتى عزرا في الأسر البابلي في القرن السابع قبل الميلاد. والقرآن معجز بخلاف كتب سائر الأنبياء^(٦). وإعجاز القرآن ليس معجزة بالمعنى الشائع،

(١) السابق ص ١٢٦. «ياناركوني برداوسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم. تقتلك الفئة الباغية» ج ٢/ ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) السابق ج ٢/ ٥٣ - ٥٩.

(٣) «ما زال الشيطان يأكل معي حتى سمي فما بقي في بطنه شيء إلا قاه»، السابق ج ٢/ ١٥٥ - ١٦١.

(٤) «ذاك ملك من الملائكة لم يبط إلى الأرض قبلها استأذن ربه. فسلم علي ويشرفني بالحسن والحسين أنهما سيذا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»، «إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه»، «هذا إيليس جاء يشككم في دينكم»، السابق ج ٢/ ١٦٢ - ١٧٦.

(٥) الوفا ج ١/ ٣٣٩.

(٦) خصائص الرسول ص ٢٥٨.

خرق قوانين الطبيعة بل بمعنى استحالة التحدي الأدبي والتشريعي^(١). فالإعجاز أولا في حسن تأليفه والتتام حكمته وخصائصه وإيجازه وبلاغته^(٢). وأيضا في صورة نظمه وأسلوبه^(٣). لا هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالجنون. إعجاز القرآن في بلاغته وأسلوبه وسحره للنفوس لقوم أهل بلاغة وأحباب شعر^(٤). ثانيا ليس إعجازه حسيا بمعنى عدم أكل النار لصحيفة كتب عليها. بل في مضمونه الفكري وتطابقه مع التجارب الإنسانية الحية. وتوجيهه للواقع والدخول في حركته ودفعه نحو من مزيد من الكمال^(٥). وليس فقط أن الرسول أمي^(٦). ثالثا الإخبار بالمغيبات^(٧). رابعا الإخبار عن القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة^(٨). وبالإضافة إلى ذلك هناك وجوه أخرى للإعجاز مثل تعجيز الناس على فعل شيء مثل تمنى اليهود الموت أو الدار الآخرة^(٩). وكذلك التأثير في القلوب والمشاعر^(١٠). ومنها حفظه من الضياع أو التحريف في تدوينه^(١١). ومنها أن القارئ لا يملّه، وسامعه لا يمجّه. والإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة. ولا يزال غضا طريا. وقد جمع من العلوم ما لم تألفه العرب وهو ما

(١) الشفا ج١/ ٣٥٨-٣٦٩.

(٢) السابق ص ٣٦٩-٣٧٤.

(٣) الخصائص الكبرى ج١/ ٢٥٤-٢٦٦.

(٤) السابق ص ٢٥٤-٢٦٦.

(٥) «إن الله أنزل هذا القرآن أمرا وراجرا وسنة، خاليا ومثلا مضرويا. فيه نبؤكم، وخبر ما كان قبلكم، ونبا ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلفه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الحق ليس بالهزل. من قال به... صدق، ومن حكم به... عدل. ومن خاصم به... فليخ، ومن قسم به... أقسط، ومن عمل به... أجر. ومن تمسك به... هُدى إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره... أضله الله، ومن حكم بغيره... قصمه الله. هو الذكر الحكيم، والنور المين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يموج فيقوم، ولا زيف فيستوصى، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلف على كثرة الرد، بهجة المحافل ص ٤٥٦، مسيرة النبي ج٣/ ٢٨٢-٣٣٦.

(٦) السابق ج٣/ ٣٢٥-٣٣١.

(٧) الشفا ج١ ص ٣٧٥-٣٧٨.

(٨) السابق ج١/ ٣٧٩-٣٨٢.

(٩) السابق ج١/ ٣٨٢-٣٨٤.

(١٠) السابق ج١/ ٣٨٤-٣٨٨.

(١١) السابق ج١/ ٣٨٨-٣٨٩.

يسمى الآن. الإعجاز العلمي للقرآن^(١). يأخذ علم الغرب وإسقاطه على القرآن وتأويل آيته واستخراجه منها. ولو غير الغرب علمه لغير أهل القرآن تفسيرهم. وإذا كان في القرآن هذا العلم فلماذا لم يكتشفه المسلمون قبل أن يكتشفه الغربيون؟ وهل الله سخر الغرب لنا لنستفيد من علمهم ولدينا الإيمان فنكون كاملين والغرب لديه علم بلا إيمان فيكون خاسرين؟ جمع بين جزالة اللفظ وجوامع الكلم، بين الدليل ومدلوله، في حيز المنظوم، بين الشعر والنثر، يسهل حفظه، مشاكلة بعض أجزائه بعضها بعضا، وحسن ائتلاف أنواعها وأقسامها، والخروج من قصة إلى الأخرى، والجمع بين عديد من الأشكال الأدبية، الأمر والنهي، والخبر والاستخبار، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. والوجوه لا تنتهي. وكان الرسول حساسا للقرآن الكريم إذا قرأه أو سمعه من غيره^(٢).

وكيف تتفاضل سور القرآن فيما بينها أو في أوقات قراءتها وكلها وحي من عند الله؟^(٣). ولماذا سورة أفضل من سورة مثل يس للقراءة على الموتى؟ ولماذا سورة قلب القرآن وأخرى أطرافه؟ ولماذا من قرأ سورة بعينها، الواقعة، في ليلة بعينها لم تصبه فاقة، والملايين من المسلمين فقراء جوعى ذوي حاجات؟ وهذا هو سبب التلاسم والأحجيات وكتابة بعض السور والآيات وتعليقها للحفاظ من كل شيء. وتساوي بعض السور نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه.

٤ - الطب النبوي

واستمر الطب النبوي القديم حتى العصر الحالي دون التحول إلى الطب العلمي.

(١) السابق خـ ١ / ٣٨٩-٣٩٦.

(٢) «شيتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»، شمائل الرسول ص ٦٨-٦٩.
(٣) «الأنبياء من آخر سورة البقرة من قرأها في ليلة كفتاه. لا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقر بها الشيطان»، «من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له»، «قلب القرآن يس»، «من قرأ سورة الدخان في ليلة (ليلة الجمعة) أصبح مغفورا له»، «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة»، «من قرأ آية الكرسي وأول حم غافر عصم ذلك اليوم من كل سوء»، «من قرأ خاتمة سورة التوبة كفاه الله ما أهمه من أمر آخرته ودنياه صادقا كان أو كاذبا»، «من قال حين يصبح ويمسي أدرك ما فاتته من يومه»، «تعلموا فإنها المنجية من عذاب القبر»، «اقرأ المعوذتين حين تصبح وحين تمشي ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»، بهجة المحافل، ص ٥٩٦-٥٩٨.

وأقصى شيء تحول إلى طب الأعشاب عند العشاب ذي اللحية ودخان البخور أمامه مستحضرا الرسول. ويفرد كتاب خاص في علم الحديث للطب النبوي عندما خرجت السيرة من علم الحديث. وفيه يزوى عن إباحة التداوي بالحجامة والعسل والنار، والآثار الطبية للحبة السوداء والزيت والحناء والشعير والسلق والحساء. بل تذكر فضائل الرقية، والتعوذة والدعاء، والسم والسحر. فهي معجزات الأشياء والآثار السحرية لها على المرضى^(١).

ومن معجزاته الباهرة ما جمع له من المعارف والعلوم، والإطلاع على مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بالشرائع، وما كان قبله من قصص الأنبياء وحفظ شرائعهم، والحوار مع كل فرقة، والمعرفة بلغات العرب ويفنون الطب^(٢). والتداوي ضروري^(٣). ولكل داء دواء، والتداوي بالخمير داء ليس دواء. وأفضل علاج بالحجامة^(٤). ثم شربة عسل ثم لسعة نار. والتداوي لا ينافي التوكل^(٥).

والأدوية ثلاثة أنواع: الأدوية الإلهية، والأدوية الطبيعية، والأدوية المركبة بين الأدوية الإلهية والأدوية الطبيعية^(٦). الأدوية الإلهية الاستشفاء بالقرآن وبالدعاء وبالرقى للمصاب بالعين والصداع ووجع الضرس وعسر البول والحمى، ومن كل شكوى. والاستشفاء من الفزع والأرق وجر المصيبة وداء الهم. وداء الفقر والحريق، وداء الصرع. وهناك السحر والفرق بينه وبين المعجزة وكيفية علاجه^(٧). وهناك الأدوية

(١) سنن المصطفى ص ٧٠٢-٧١٤.

(٢) «خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمشي والعود الهندي»، «أصل كل داء البردة»، «المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة»، «في العود الهندي سبعة أشقية»، «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه. فإن كان لا بد فثلك للطعام، وثلك للشراب، وثلك للنفس»، الشفا ج ١/ ٥٠٣-٥٠٤.

(٣) «إن لكل داء دواء. فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله»، «والخمير ليس بدواء ولكنه داء، بهجة المحافل ص ٤٩٨-٥٠٠، الطب النبوي، المواهب اللدنية ج ٣/ ٤٠١-٥١٥، شمائل الرسول ص ٣٢٩-٣٤٣.

(٤) «إن أفضل ما تداويتم به الحجامة»، «إن كان في شيء من أدويتكم خير فقي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذة بنار، وما أحب أن أكتوي»، السابق ص ٤٩٨-٤٩٩، حجامة الرسول، شمائل النبي ص ٢٠٠-٢٠٢.

(٥) المواهب اللدنية ج ٣/ ٣٩٩-٤١٨.

(٦) السابق ج ٣/ ٤١٩-٥١٥.

(٧) السابق ج ٣/ ٤١٩-٥٦٨.

الطبيعية^(١). أما الأدوية المركبة من الإلهية والطبيعية فهي بعض الأمراض الجسمية والنفسية^(٢).

وبعض الأدوية تصور مثل شفاء الحمى بالماء البارد. وهو ما يوحى به الطب الحديث بكماادات الماء البارد على جبهة المريض مرتفع الحرارة^(٣). والبعض الآخر يحتاج إلى إعادة نظر مثل ضرر أكل الحلو مع الرمد إلا إذا أثبت الطب العلمي أن هناك صلة بين السكر والرمد. أما أن الضرر من التمر، كنموذج للفاكهة العالية السكر فلا يحدث إذا أكله أحد وترا. فلا صلة بين العدد الزوج أو الوتر بالمرض^(٤).

والطب النبوي كله يقوم على المعجزات مثل رد بصر إحدى المسلمات إليها^(٥). ومثل رفع الرباء والحمى والطاعون عن المدينة، والدعاء لها بالبركة^(٦). ويدخل في ذلك إحياء الموتى والحديث معهم^(٧). ومنها إبراء ذوي العاهات كإبراء الأبكم والأعمى^(٨). ومنها شفاء اليد المحترقة بالتفل فيها وتلاوة بعض الأدعية تحيل النبي إلى ما يشابه أدياء الطب النبوي هذه الأيام. ومن آياته حصول القوة في الرمي. وكان يستعيز بالجن^(٩). ومن معجزات الطب النبوي مثل البردة أصل كل داء. وأفضل دواء السعوط واللدود والمشي والحجامة في يوم معلوم. وفي العود الهندي سبعة أشفية، وفي الحبة السوداء شفاء

(١) وهي لعلاج الصداق والرمد واستطلاق البطن، ويسس الطبيعة والمقوود وذات الجنب والاستسقاء وضعف العدة، وعرق النساء، والأورام، والخراجات، والعلاج بقطع العروق والكلي والسم وعلاج أمراض الطاعون والحمى وحكة القمل، المواهب اللدنية ج٣/٤٦٩-٥٠٢.

(٢) مثل القرحة ولدغة العقرب والنملة وحرق النار، والحمية من الماء والشمس، والكسل والبواسير وسم الذباب ورضاع الحمقى والبرد. وضرورة تغطية الإناء ليلا، السابق ج٣/٥٠٣-٥١٥.

(٣) الحمى من فيح جهنم فأبردها بالماء، بهجة المحافل ص ٤٩٩.

(٤) «أناكل الحلو وأنت أرمد؟ حبك، فإنه لا يضر من التمر ما أكل وترا»، السابق ص ٥٠٠.

(٥) الخصائص الكبرى ج١/٣٢٨-٣٢٩.

(٦) السابق ج١/٤١٨-٤٢١.

(٧) السابق ج٢/١١١-١١٥ «باسمك اللهم، ريق بعضنا يتربة أرضنا ليشفى سقيمنا بإذن ربنا»، ج٢/١١٦.

(٨) السابق ج٢/١١٦ «أذهب البأس رب الناس. وأشف أنت الشافي. لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما» ج٢/١١٧. «بسم الله اذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك»، ج٢/١١٨.

(٩) ج٢/١٢٧-١٢٨.

الله من كل الأسقام إلا السام، ومن تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر. والعود الهندي والعجوة أدوية، والحبة السوداء أدوية^(١).

وقد أبرأ الرسول المرضى وذوي العاهات بالدواء وبالعلاج الطبيعي^(٢). إذ لا يُكره المريض على الطعام والشراب. فالجسد له رغباته^(٣). ويجمع الطب النبوي بين الطب العضوي والطب النفسي، ومنها عيادة المريض وفضلها. والدواء ليس عضوياً فقط بل له أثر نفسي في الشفاء من الحزن. ويكون ذلك بالأدوية كما يفعل العشاب المعاصر^(٤). فكثير من أحاديث الرسول أدوية للآخرين^(٥). والدعاء يشفي المريض^(٦). وخير الرسول بين الصبر حتى يُغفر الذنوب. وطالب الشفاعة من الرسول تشفي. والمرضى يمكن شفاؤه بوضع اليد على جسد المريض والتسمية ثلاثاً، والتعوذ سبعا^(٧). كما يشفي بمجرد الدعاء.

(١) «أصل كل داء البردة»، «خير ما تداوتم به السعوط واللدود، والمشي والحجامة»، «خير الحجامة يوم سبع عشرة وتسع عشرة»، «في العود الهندي سبعة أشفية»، «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»، «من تسبح بسبع تمرات عجوة، لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر»، بهجة المحافل ص ٤٨٢-٤٨٣.
(٢) تفل ريقه في كثير من أعضاء الجسد المريضة، رد العين إلى مكانها، إبطار ضرير، إبراء الأبرص، إبراء الكسر والجراحة والجنون ووجع الضرس، السابق ص ٤٧١-٤٧٣، سيرة النبي ج ٣/ ٣٨٨-٣٩٤.
(٣) «لا تكمروا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم»، سيرة النبي ص ٤٧٠، شئائل الرسول ص ٦٨.

(٤) «التلبية نجمة لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن»، بهجة المحافل ص ٤٩٩.
(٥) في إجابة دعائه «اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل»، السابق ص ٤٧٣-٤٧٤.
(٦) شئائل الرسول ص ١٧٤-١٨٦، قصة الصبي الذي كان يُصرع فدعا له الرسول فبرأ، شئائل الرسول ص ١٧٤-١٨٦ «إن تصبري على ما أنت عليه تحيى يوم القيامة وليس عليك ذنوب ولا حساب»، «إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك»، «إن شئت دعوت لكم الله فكشفها عنكم وإن شئت تركتموها فأسقطت ذنوبكم، وإن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لأخرك وإن شئت دعوت لك اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد، نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى وتشفعني فيه وتشفعني لي إني الميضة فتوضاً ثم صل ركعتين ثم قل. اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه إلى ربي فتجلب بصري، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي»، ص ١٧٤-١٧٥.

(٧) «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثاً وقبل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، «من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً لم يصبه ذلك البلاء»، «اللهم رب الناس أذهب البأس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»، «لا شافي إلا أنت»، سيرة النبي ص ٤٦٩-٤٧٠.

وقد يكون علاج الحزن على الفقيد الصبر والاحتساب^(١). فالصبر يشفي المريض احتساباً لله^(٢). ويعني بلغة الطب المعاصر الانتظار حتى يظهر مفعول الدواء. والمرض كبيره وصغيره تكفير عن الخطايا وليس له سبب عضوي. وهو تحويل العلم إلى الدين. المرض في الدنيا له جزاؤه في الآخرة تعويضاً. البؤس في الدنيا جزاؤه الحسنه وفي الآخرة^(٣). وزياره المريض واجبة تشفيه. وعبادته تذكر بالآخرة. فالمرض له جانبه الاجتماعي لرفع الروح المعنوية للمريض^(٤).

ويلحق الموت بالمرض. فقد يكون أحد نتائجه. الرضا به يورث بيتاً في الجنة، يسمى بيت الحمد. والرواية مركبة تتكرر حواراتها وكأن الله لا يعلم أفعاله ولا يقدر عليها وفي حاجة إلى الملائكة^(٥). ويُذكر الموت دائماً^(٦). ومع ذلك لا يُتمنى الموت تجنباً لضرر وإن قبل كما هو الحال في الموت الإرادي. فقبول الموت حسن ظن بالله على عكس بعض فلاسفة الوجود المعاصرين الذين يخافون منه وينزعجون له بالرغم من أن الإنسان

(١) «مُرّها فلتصبر ولتحتسب، وأخبرها أن الله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى»، سيرة النبي ص ٤٧٤.

(٢) «أيها أحب إليك، أن أدعو لك فيكشف عنك أو تصبرين وتجب لك الجنة»، شاطئ الرسول ص ١٧٥.
(٣) المرض وتوابعه. ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن خطاياها، «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له مثل ما كان يعمل مقيماً صالحاً»، ما لعبيدي عتدي جزاء إذا قبضت صفية من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»، «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً يرثاه»، سيرة النبي ص ٤٦٩-٤٧٥.

(٤) «من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال عند سبع مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض»، «عودوا المرضى، واتبعوا الجنائز تذكركم بالآخرة»: «إن الله يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبيدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟» «من عزي مصاباً فله مثل أجره»، «من شهد الجنائز حتى يصلي عليها فله قيراط. ومن شهدتها حتى تدفن فله قيراطا مثل الجبلين العظيمين»، السابق ص ٤٧٠/٤٧٤.

(٥) «إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة: قبضتم ولد عبيدي؟ فيقولون نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم. فيقول: ماذا قال عبيدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبيدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»، السابق ص ٤٧٢-٤٧٥.

(٦) «أكثرُوا ذكرَ هادم اللذات فإنه ما كان في قليل إلا أخبر له، ولا في كثير إلا قلله»، «أكثرهم للموت ذكراً، وأكثرهم له استعداداً، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»، السابق ص ٤٧٢.

«وجود من أجل الموت» ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(١). ويُلقن الميت آخر كلام له قبل الموت، التشهد، حتى يدخل الجنة. بل يكفي أن يشعر بقلبه رجاء الله والخوف من الذنوب حتى يعطيه الله ما يشاء^(٢).

والصلاة على الميت واجبة. توجب الجنة له. والدعوة له تقيه عذاب القبر وعذاب النار. والجنة جزاء المؤمن المصاب الذي قبض صفته. وإذا كان المصلون ثلاثة صفوف، غُفر للميت المصلي عليه^(٣). وتوديع الميت في الجنائز واجب. فالودع شاهد عليه خيرا أم شرا، وداع له على قبره. يطلب له المغفرة وهو يُسأل^(٤). أما من ضرب الحدود، وشق الجيوب فإنها من دعاوي الجاهلية^(٥). وهو مازال سائدا حتى الآن خاصة في الطبقات الشعبية.

ثالثا - حقوق الرسول الإلهية:

١- الحقوق والواجبات

الحقوق والواجبات أدخل في الفقه، في المغاملات. يكفي استعمال القرينين^(٦).

(١) «لا يتمن أحدكم الموت لضر نزل به. فإن كان لابد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي»، «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»، السابق ص ٤٧٢.

(٢) «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»، «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، «لا يجتمعان في قلب عبد رجاء الله والخوف من الذنوب» في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف، السابق ص ٤٧١/٤٧٣.

(٣) «ما من مسلم يموت فيصلي عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا وجبت له الجنة»، «اللهم اغفر له وازحه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجته، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار»، «اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، وشاهدنا وغائبنا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده»، «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»، «يقول الله: ما لعبيدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»، السابق ص ٤٧٤-٤٧٥.

(٤) «أنتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أنتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»، السابق ص ٤٧٣، «استغفروا لأخيك وأسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»، السابق ص ٤٧٣-٤٧٥.

(٥) «ليس منا من ضرب الحدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»، السابق ص ٤٧١.

(٦) الحقوق مثل: حقوق الوالدين، الأولاد، الزوجين، القرابة، الجار، التامى، الأرملة، المحتاجين، المريض، العبيد، الضيف، المسلمين فيما بينهم، الأخوة الإسلامية، الحيوان، السابق ج ١/ ١١١-١٨٤.

ولفظ حق وكذلك صاحب الحق، مرة بالمفرد، ومرة بالجمع. وهي مثل مقامات الصوفية وأحوالهم وفصائل الفلاسفة. ويظهر التركيز على مفهوم «حقوق العباد وأهميته». ومضمونه وارد في الأحاديث النبوية وإن لم يرد بلفظه^(١). وتحت عنوان «فيا يجب على الأنام من حقوقه» وتركيز الحقوق على شخص الرسول أحد أسباب عدم تعميمها على حقوق الإنسان^(٢). وهي حقوق شخصية لا تتكرر للإنسان من حيث هو إنسان، وبالتالي لا يعود الرسول قدوة ونموذجاً. وهي أيضاً رباعية: الأول وجوب تصديقه واتباعه وطاعته. والثاني محبته ونصائحه والثالث توقيره وبره. والرابع الصلاة والتسليم عليه، وزيارته قبره. طاعته بالنموذج وليس بالشخص، ومحبته للإنسان وليس للفرد، وتوقيره لكرامة الإنسان وليس لكائن بعينه. والصلاة والسلام عليه بداية التأليه بعد التعظيم والتقدیس. وهناك تحول تدريجي من التشخيص إلى التأليه، من الطاعة إلى المحبة إلى التعظيم إلى الصلاة عليه.

٢- التعظيم والمحبة والطاعة

ثناء الله عليه الأصل الذي تركز عليه شياكل الرسول. فالقرآن هو مصدر التعظيم وعد المحاسن وتنويه القدر^(٣). فقد جاءت كثير من الآيات بمدحه والثناء عليه وتعداد المحاسن. حياته وموته خير للمسلمين^(٤). ووصفه الله بالشهادة وما يتعلق بها من الشاء والكرامة^(٥). فالشاهد هو الشاهد الحق. وقد أقسم الله بعظيم قدره^(٦). والقرآن لا يقسم

(١) «من كانت له عند أخيه مظلمة فليقبضها منه قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وإنما الأعمال فقط. فيؤخذ من حسنات الظالم ويعطي للمظلوم فإن نفدت حسناته أخذ من سيئات المظلوم وكتب في صحيفة الظالم»، «سيكون في صحيفة الأعمال ثلاثة أنواع من الذنوب: نوع لن يلتفت الله إليه، ونوع لن يترك الله منه حرفاً، ونوع لن يغفر الله منه شيئاً فهو الشرك. وأما الذي لن يلتفت الله إليه فهو الظلم الذي أوقعه الإنسان على نفسه، ويكون أمره بينه وبين الله كأن لم يصم أو لم يصل. فالله تعالى يغفر له، ويعفو عنه إن شاء. أما الذي لن يترك الله منه حرفاً فهو الظلم الذي يوقعه العبد بالعبد»، السابق ج١/ ٩.

(٢) الشفا ج٢/ ٥٣٧-٦٨٩.

(٣) الشفا ج١/ ١٥-٧٦، «المراهب اللدنية» ج٣/ ١١٩-٢٦٤.

(٤) «حياتي خير لكم، وموتي خير لكم»، «إذا أراد الله رحمة بأمته قبض نبيها قبلها فجعلها له فرطاً وسلفاً»، الشفا ج١/ ١٩.

(٥) الشفا ج١/ ٢٩-٣٦.

(٦) السابق ص ٤٦-٤٦، الخصائص الكبرى ج٢/ ٤١٩.

إلا بالحق. وأقسم الله به مما يبين مكانته عنده^(١). وقد ورد الخطاب القرآني فيه مورد الملاطفة والمبرة مما يدل على مدى القرب منه^(٢). كما بين القرآن في جهته مورد الشفقة والإكرام^(٣). وقد أخبر الله في كتابه عن عظيم قدره وشريف منزلته على باقي الأنبياء وحظوته ومرتبته^(٤). كما أظهر الله في كتابه من كراماته عليه ومكانته عنده^(٥). وأعلم الله خلقه بصلواته عليه، وولايته له، ورفع العذاب بسببه^(٦). ومن استهان به فقد كفر مثل الزنا بحضرته، والامتناع عن الصلاة إذا دعاه^(٧). وقد تضمنت سورة الفتح عديدا من كراماته^(٨).

وهناك عدة مظاهر من تعظيم قدره ووجوب توقيره وبره، إذ تتفاوت مراتب الرسل والنبى في أعلاها. وهنا يبرز السؤال: وماذا عن الملائكة ومراتبها، والأنبياء ومراتبهم؟ أخذ الميثاق له. وشهد الله له بالرسالة وذكره في الكتب السابقة. وأقسم الله به، بخلقه ونعمه وتصديقه وتحقيق رسالته وبحياته وعصره. ووصفه بالنور والسراج. وهناك آيات تتطلب وجوب طاعته، وضرورة الأدب معه. وقد رد الله على عدوه، وأزال الشبهات عنه^(٩). وقد تعود الصحابة على إجلاله لدرجة أخذ ماء وضوئه والاقتيال على بصاقه ونخامته، يتلقونها بكفهم يدلكون بها وجوههم وأجسادهم، ويتلقون ما يسقط من شعره، ويسارعون في تنفيذ أوامره. وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم^(١٠). وكانت صورته أنه مثل الملك في أصحابه مع أن الرسول قد منع

(١) الشفا ص ٤٦-٥٥.

(٢) السابق ج ١/ ٣٦-٤١.

(٣) السابق ص ٥٦-٥٨.

(٤) السابق ج ١/ ٥٩-٦٢.

(٥) السابق ص ٦٧-٧٢.

(٦) السابق ص ٦٣-٦٦ «أنزل الله علي أمانين لأمتي»، ص ٦٤.

(٧) خصائص الرسول ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٨) السابق ص ٧٢-٧٦.

(٩) المواهب اللدنية ج ٣/ ١١٩-٢٦٤.

(١٠) الشفا ج ٢/ ٥٨٧-٦٢٤.

ذلك^(١). ثم عظم النبي بعد موته^(٢). وقد عظم السلف رواية حديث الرسول وستة^(٣). وهي آداب عامة تحولت إلى آداب خاصة. تم التحول والتوقيع لشخصه إلى برآله وذريته وأمهات المؤمنين وأزواجه^(٤). والأزواج لأنهن رواة عنه وليس لأشخاصهن. فلا يمكن مساواة أهل بيته بالقرآن وهو ما يناقض أقوالا أخرى عن المساواة بين البشر جميعا، وقيمة الإنسان عمله وليس نسبه. ثم توقيع أصحابه وبرهم^(٥). والتوصية بالافتداء بهم. وعدم سبهم. وهم كالمالح في الطعام.

ومن تعظيمه وإكباره تعظيم جميع أسبابه وإكرام مشاهدته وأمكنته من مكة والمدينة ومعاهده وما لمسه أو عرف به^(٦). ولعن من أحدث في المدينة حدثا. ولا يرفع أحد صوته

(١) «يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وأني رأيت ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه»، السابق ص ٥٩١-٥٩٤.

(٢) السابق ص ٥٩٥-٥٩٩.

(٣) السابق ص ٥٩٩-٦٠٤.

(٤) السابق ص ٦٠٤-٦١١ «أنشدكم الله أهل بيتي»، «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. فانظروا كيف تحلفوني فيها»، «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا»، «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق» (علي) «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله. ومن أذى عمي فقد أذاني، وإنما عم الرجل صنو أبيه»، «من آهان قريشا آهان الله»، «قدموا قريشا ولا تقدموها».

(٥) «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»، «أصحابي كالنجوم. فأبهم اقتديتم اهتديتم»، «مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام. لا يصلح الطعام إلا به»، «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ حد أحدكم ولا نصيفه»، «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه حرقا ولا عدلا»، «إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعلي، فجعلهم خير أصحابي، وفي أصحابي كلهم خير»، «من أحب عمر فقد أحبني، ومن أبغض عمر فقد أبغضني»، السابق ص ٦١٣-٦١٥: «أيا الناس إني راض عن أبي بكر فاعرفوا ذلك. إني راض عن عمر وعن علي وعن عثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف فاعرفوا لهم ذلك»، «أيا الناس إن الله غفر لأهل بدر والحديبية. احفظوني في أصحابي وأطهاري وأختاني»، «كان يبغض عثمان فأبغضه الله»، «أعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم»، «احفظوني في أصحابي وأطهاري، فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة. ومن لم يحفظني فيهم تحلى الله عنه، ومن تحلى الله عنه يوشك أن يأخذه»، «من حفظني في أصحابي كنت له حافظا يوم القيامة»، «من حفظني في أصحابي ورد على الخوض، ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرد على الخوض، ولم يرن إلا من بعدي»، السابق ج ٢/ ٦١١-٦١٨.

(٦) «من أحدث فيها (المدينة) حدثا أو أوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا»، «من حلف على منبري كاذبا فليتبوأ مقعده من النار»، الشفا ج ٢/ ٦١٩-٦٢٤.

فوق صوت النبي ولا أن يناديه من وراء الحجرات. وكذلك من كراماته تحريم التقديم بين يديه والجهر بالقول والصياح به من بعيد. وهي آداب بدئية فطرية. ومن كراماته أن من استهان به كفر. ومن سبه أو هجاه قتل^(١). وهي عقوبات قد تبدو صارمة خاصة وأنه يمكن تأويل الخطاب الناقد عن حسن نية وأفضل وجه.

لا يسب الرسول أو يتقص قدره، ليس لشخصه بل لحسن الأدب في التعامل مع الشخصيات العامة والقواد العظام. فالتعريض والنص لا يجوز في حق الأنبياء. ومن يفعل يستحق القتل بلا استتابة عند القدماء^(٢). وهو مجرد رأي عند المحدثين يستوجب الرد عليه ويحسب على حق الاختلاف. ومن الجزاءات الماضية القتل والصلب منكسا بعد الطعن بالسكين والحرق بالنار، وتحويل الخشبة عن القبلة وولوج كلب في الدم لأنه لا يبلغ الكلب في دم مسلم^(٣). فلا يجب قتل من سب أو عاب احتراماً لحرية الرأي. ولا يجوز تكفير أحد. وقد طلب الرسول ذلك لمن سبه، رجلاً أو امرأة. وكيف تقطع يد وتنزع ثنية من غنت بسب الرسول، وقد رفض الرسول ضرب عنق المهجائين، بل إنه لا يجوز قتل المرتدين. كان ذلك في بداية الدعوة والمسلمون قلة، وليس الآن والمسلمون كثرة. ولم يقتل النبي اليهودي الذي قال له: السام عليكم. ولم يقتل من اتهمه بغير العدل «إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله». ولم يقتل المنافقين الذين كانوا يأذونه. ربما حدث تطور في الحكم بقتل المرتدين، من الإثبات إلى النفي. بانتشار الإسلام وانتقاله من القلة إلى الكثرة^(٤). ولا يهم إن كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد. فالسب ليس موقفا موضوعياً من العلم. وحتى لو قصد إلى التكذيب فيما قال له الرسول أو أتى به أو نفى نبوته أو وجوده أو الكفر به أو تحول إلى دين آخر يُرد عليه ولا يقتل، وإذا أتى بمجمل أو مشكل يمكن تأويله على النبي فإنه يحمل على الوجه والقصد الحسن^(٥).

(١) خصائص الرسول ص ٢٧٣-٢٧٥/ ٥٤٠-٥٤١، لا يقتل أحد بسب أحد إلا بسب النبي، ص ٥٤١، «أشهد أن فيها هدراً»، ص ٥٤١.

(٢) الشفا ج ٢/ ٩٢٦-٩٢٧.

(٣) لا يبلغ الكلب في دم مسلم، السابق ص ٩٣٢-٩٤٣.

(٤) «من سب نبياً فاقتلوه، ومن سب أصحابي فاضربوه»، «بكفرك وافترائك على الرسول»، «من يكفني عدوي»، «من غير دينه فاضربوا عنقه»، السابق ص ٩٤٤-٩٥٨.

(٥) «إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا منذرين»، «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا»، «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»، السابق ص ٩٥٨-٩٧١.

وإذا لم يقصد سبا ولا عيباً ولكن يذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله الجائزة عليه في الدنيا بضرب المثل مما ينفي التوقير وعلى سبيل الهزل والتندر فإنه أيضاً لا يقتل. فالأدب يقوم على ذلك. وقد يفيد ذلك في الإقلال من التعظيم والتقديس والتأليه. ولو قال ذلك حاكياً عن غيره، فالراوي لا يتحمل وزر ما يروي إذا كان ما يروي وزراً، والقصد هو كيفية توظيف الرواية للنقل أم الانتشار. وذكر ما يجوز على النبي وما يطرأ عليه من الأمور البشرية أو ما امتحن به فهو برىء من العقاب وذلك مثل الوصف البشري للرسول. وهو مثل ما وقع في كتاب إرميا. وإذا وقع التجريح عن طريق المذاكرة والتعليم فإن التجريح ليس أسلوباً علمياً^(١).

وحكم الساب والمتقص والمؤذي أن يستاب أو لا يورث. وهو مثل القتل والصلب لأن السب ليس أسلوباً علمياً. ويحسب على حساب النقد السيئ. وهي أحكام تختلف فيها الفقهاء. فالتنقد العلمي ليس ارتداداً. وحتى على افتراض أن النقد تبديل للدين فالعقاب ليس على التبديل بل على مفارقة الجماعة. وليس الموضوع فقهيًا في الحدود والشهادة بواحد أو أكثر بل هو موقف المخالف في الرأي حتى ولو كانت أساليب التعبير تخرج عن الآداب والقواعد العلمية. ولا فرق في ذلك بين المسلم والذمي لأن العهد ليس مع السب بل مع التقدير. وبما أنه لا يقتل فسؤال غسله والصلاة عليه وميراثه غير مطروح. فالورثة لا ذنب لهم. والغسل والصلاة واجبان لإنسانين من الجماعة تجاه الفرد بصرف النظر عن مواقفه الفكرية^(٢).

أما من سب الله وملائكته وكتبه وأنبيائه والنبي وآله وأزواجه وصحبه فهو رفض مطلق للدين في حاجة إلى حوار وتبادل الرأي خارج قانون العقوبات. ولا يقتل بظاهر كفره لأنه لم يُشق على قلوب الناس، ولا يحكم بالظاهر. أما من أضاف إلى الله ما لا يليق عن طريق التأويل والاجتهاد والخطأ الناتج عن الهوى والابتداع من تشبيه أو نعت بجارحه أو نفي صفة كمال فنية اختلاف. فالفكر الديني كله قائم على التشبيه، وقياس

(١) السابق ص ٩٧١-١٠١٤.

(٢) الشفا ج ٢/ ١٠١٥-١٠٤٦.

الغائب على الشاهد^(١). فلا يجوز إكفار المتأولين^(٢). ولا يمكن تصنيف المقالات بين ما هو كفر وما هو ليس بكفر وما يتوقف فيه لأن المقال مقال. لا يكفر صاحبه. ولا فرق بين المسلم والذمي في المواقف الفكرية داخل الحضارة الإسلامية. والخروج بالسيف على صاحب المقالة مواجهة القلم بالسيف. ولا يصل الأمر إلى ادعاء الألوهية أو الرسالة أو النفي للخلق. أما سقط القول وسخف اللفظ وإهمال اللسان مما يقتضي الاستخفاف بعظمة الله فهو ليس علما قبل أن يكون خروجاً على الدين. وفرق بين سب الأنبياء السابقين وبين علم تاريخ الأديان، بين الاستخفاف بالقرآن أو المصحف وبين دراسته كخطاب أو كنص. بين سب الرسول وسب آل بيته وأزواجه وصحبه^(٣). فالرسول نبي، والباقون ليسوا أنبياء. يأتي احترامهم من احترام النبي. والخصام الاجتماعي للمخالفين في الرأي قطيعة لا تجوز بين المسلمين^(٤). أما السب العلني فيخضع لطائلة القانون وهو حد الفرية.

كما تجب محبته واتباع سنته والافتداء بهديه وسيرته، وعلامات المحبة الاقتداء به والرضا بما شرعه، ونصر دينه، والتسلي عن المصائب، وكثرة ذكره وتعظيمه، والشوق إلى لقائه، وحب القرآن والسنة، ثم تأتي الصلاة عليه، ومحبة آله وصحبه^(٥). وتلزم محبته كما هو الحال عند الصوفية^(٦). ومحبته لشخصه وليس لنموذجه^(٧). ومحبته ثواب^(٨).

(١) السابق ج١/ ١٠٤٧-١٠٥٦، وهو رأي المخزومي ومحمد بن سلمة وابن أبي حازم.

(٢) السابق ج١/ ١٠٥٦-١٠٦٥ وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين.

(٣) السابق ص ١٠٦٥-١١٠٥.

(٤) «لا تسبوا أصحابي. فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله عنه حرفاً ولا عدلاً»، «لا تسبوا أصحابي، فإنه يحىء قوم في آخر الزمان يسبوا أصحابي فلا تصلوا عليهم، ولا تصلوا معهم، ولا تناكحوهم ولا تجالسوهم وإن مرضوا فلا تعودوهم»، «من سب أصحابي فاجلدوه»، «من قذف أم أحدهم وهي كافرة حُدد حد الفرية»، السابق ص ١١٠٦-١١١٦.

(٥) المنع الحمدي ج٣/ ٢٦٧-٣٩٦، سيرة النبي ج١/ ١١ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»، «ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف به في النار»، معين الشامل، ص ٤٨٤-٤٩٧.

(٦) الشفا ج٢/ ٥٦٣-٥٨٦، الخصائص الكبرى ج٢/ ٥٤٢.

(٧) «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده. ووالده والناس أجمعين»، «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، «ثلاث من كن فيه حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»، خصائص الرسول ص ١٧٦-١٧٧/ ١٩٧.

(٨) «أنت مع من أحببت»، «من أحبني كان معي في الجنة»، السابق ص ٥٦٥-٥٦٦.

وقد رُوي عن الأئمة والسلف كثير في ذلك^(١). وعلامة محبته رفع الغش من القلب، وعدم لعن أحد، وحب أصحابه وأهله وأحفاده، وحب العرب أي الشخص والعشيرة والقبيلة^(٢). وحب الفقر هو حب النموذج. وتعني محبة النبي اتباعه ونصرته. ودوام ذكره وإيثاره، والشوق إليه والميل له. ويعني كل ذلك اتباع النموذج والاسترشاد به^(٣). وتعني محبته مناصحته واستشارته ومشاورته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٤).

وطاعته واتباع سنته هو الاقتداء بالنموذج بالعقل وبالقلب^(٥). وطاعته منصوص عليها في القرآن والحديث، والطاعة لذاتها بصرف النظر عن نتائجها وجزائها. ويتم تصوير ذلك بالتخويف بالنذير العريان. من اتبعه نجا ومن عصاه هلك أو بالترغيب بمأدبة في الدار. من قبل الدعوة نجا ومن رفضها هلك. فاتباعه وامثال أوامره والاقتداء بهديه ليس إجباراً بل طبيعة^(٦). وسواها بدعة وضلال. فاتباع السنة اتباع للكتاب. بل أحياناً يأتي الحديث في مقدمة القرآن إذا كان صعب الفهم لدرجة تكوين جماعة «أهل السنة والحديث». ولا توجد جماعة «أهل الكتاب والقرآن». وقد ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته^(٧). ومخالفة

(١) «من أشد أمتي لي حياناً ناس يكونون بعدي، يود أ أحدهم لو رأوني بأهله وماله»، السابق ص ٥٦٧-٥٧٠.
(٢) «اللهم أني أحبها فأحبهها»، الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فيبغضني أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه، «إنها (فاطمة) بضعة مني، يغضبني ما أغضبها، أحبه (أسامة بن زيد) فإني أحبه»، آية الإيثار حب الأنصار، وآية النفاق بغضهم، «من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فيبغضني أبغضهم. فبالحقيقة من أحب شيئاً أحب كل شيء يحبه»، «إن كنت تحبني فأعد للفقر تحففاً»، السابق ص ٥٧١-٥٧٧.

(٣) السابق ج ٢/ ٥٧٨-٥٨١.

(٤) «إن الدين النصيحة... الله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم»، السابق ص ٥٨٢-٥٨٦، وجوب محبته، سيد الأنام ص ٢٩٤-٣٠٣، أدلة المحبة من الكتاب والسنة ٣١٠-٣٢٢.

(٥) الشفا ج ٢/ ٥٣٧-٥٦٢، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤١٣-٤١٥، «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»، معين الشرائع ص ٤٧٨-٤٨٣.

(٦) «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»، السابق ص ٥٤٤-٥٤٦.

(٧) السابق ص ٥٤٦-٥٥٤ «فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور. فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، «لا ألفين أحداً منكم متكناً على أريكيتين يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه يقول: لا أدرى ما وجدنا في كتاب الله ابتغاء»، «ما بال قوم ينتزهون عن الشيء أصنعه. فوالله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»، «القرآن صعب مستصعب على من كرمه. وهو الحكم. فمن استمسك بحديثه وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ومن تهاون بالقرآن وحديثه خسر الدنيا والآخرة. أمرت أمتي أن يأخذوا بقولي، ويطيعوا أمري، ويتبعوا سستي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، من اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سستي فليس مني»، «إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»، «العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل».

أمره وتبديل سنته ضلال^(١). ومع ذلك هناك فرق بين الأمر والتشفع. فلا يستطيع الرسول أن يأمر امرأة بالعودة إلى زوجها ولكن يتشفع لها عنده. والفرقة الناجية هي من يتابع الرسول وأصحابه^(٢). وإذا كانت طاعة الرسول طاعة الله فالتخوف أن تكون طاعة الحاكم من طاعة الرسول وطاعة الله. فيتخفى الحاكم وراء الله والرسول يستمد منها سلطانه وليس من الشعب مصدر السلطات. إذا كانت حقوق النبي على المسلمين الطاعة والمحبة والصلاة عليه فأين حقوق المسلمين على النبي؟^(٣).

وفي إحدى السير الإصلاحية يأخذ مفهوم الحقوق والواجبات منحنا إنسانيا خالصا، حقوق الوالدين، والأولاد، والزوجين، والقراة والجار، واليتامى، والأرامل، والمحتاجين، والمرضى، والعبيد، والضيوف والمسلمين فيما بينهم، والأخوة الإسلامية، والحيوان^(٤). ومفهوم الحق وارد في الكتاب والسنة^(٥). وهي في الغالب حقوق الآخرين.

آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة، «عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة»، «إن الله يدخل العبد الجنة بالسنة تمسكا بها»، «التمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد»، «من أحيا سنتي فقد أحياي، ومن أحياي كان معي في الجنة»، «من أحيا سنة من سنتي قد أمتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا»، السابق ص ٥٥٠-٥٥٤.

(١) السابق ج٢/ ٥٥٩-٥٥٤.

(٢) «من رغب عن سنتي فليس مني»، «من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد» «هلك المنتطعون»، السابق ص ٥٥٩-٢٦٢.

(٣) معين الشئائل ص ٤٧٧-٥٠٤.

(٤) سيرة النبي ج٦/ ١١١-١٨٤.

(٥) «إن لزوجك عليك حقا ولزواجك عليك حقا»، «إن حق الزوجة على زوجها أن يطعمها وأن يكسوها وألا يضربها على وجهها»، «إن لجسدك عليك حقا، ولعينك عليك حقا، ج٦/ ١١٢»، «لقد حرم الله عليكم معصية الأمهات ووآد البنات» ج٦/ ١٢٩، «أتزوج النساء، فمن رغب عن أمتي فليس مني»، ج٦/ ١٣٥، «لا يضرب أحد منكم زوجته كالجارية... بالسوط نهارا ويعاشرها ليلا» ج٦/ ١٤١، «من وصلها فقد وصلني، ومن قطعها قطعته» ج٦/ ١٤٣، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره»، «خيركم عند الله خيركم لأهله ولجاره» ج٦/ ١٤٦، «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» ج٦/ ١٥٠، «إن أفضل بيوت المسلمين هو البيت الذي يعول يتيما، وأسوأ بيوت المسلمين هو البيت الذي يساء فيه اليتيم»، ج٦/ ١٥٣، «الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله... كالمجاهد في سبيل الله ج٦/ ١٥٦»، «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربه»، «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»، ج٦/ ١٥٨، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل قرايبه»، ج٦/ ١٦٦ «انصر أخاك

ولها ترتيبها وأولوياتها. وفي حق الوالدين حق الأم يأتي أولا ثلاث مرات قبل حق الأب. والحالة بدليل الأم. والجنة تحت أقدام الأمهات. ويدخل الابن الجنة بخدمتها. ومن حق الأولاد والرضاعة والحضانة والتعليم والترية. وليس من المعقول أن يضرب الزوج زوجته نهارا ويعاشرها ليلا، وحق القرابة صلة الرحم. ومن حقوق الجار أمنه، وأفضل البيوت من يرعى حق اليتيم. والساعي على الأرملة كالساعي في سبيل الله. وحق المريض عدم تكليفه بما لا يطاق. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وحق المحتاج تفريج كرب، وحق العبد تحريره. وحق الضيف إكرامه. ومن حق المسلم نصرته، ومن حق الجماعة وحدتها. وقتل الحيوان بغير ضرورة ذنب عظيم. فغاية الذبح الطعام. وذبحه بطريقة حسنة دون تعذيب بعد حد الشفرة وإراحة الذبيحة. وقد عذبت امرأة في مرة ربطتها ولم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض. بل يصل الأمر إلى حد عدم إيذاء النمل. ومن أسقى كلبا عطشا من بثر بخفه يغفر الله له ذنبه.

٣- الصلاة على النبي

وتعني الصلاة لغة الدعاء والتبرك، كما تعني العبادة^(١). والدعاء نوعان دعاء عبادة، ودعاء مسألة. وتستعمل بمعان كثيرة أخرى مثل الاستغفار، والبركة، والقراءة، والرحمة، والمغفرة، والثناء^(٢). وحكمها أنها من المستحبات أو من الواجبات المتكررة أو المغفرة مرة واحدة في العمر أو فقط في القعود آخر الصلاة دون تحديد المحل أو

ظالم أو مظلوما... بأن تكف يده عن الظلم» ج٦/ ١٩٦، «المسلمون مع بعضهم مثل الرجل الواحد إن تأملت عينه تألم لما سائر بدنه، وإن تألم رأسه تألم له سائر بدنه»، «المؤمن للمؤمن كالبيان المرصوص يشد بعضه بعضا»، «المسلم أخو المسلم. لا يظلمه ولا يسلمه»، «المسلم من يسلم المسلمون من لسانه ويده»، «لا تباغضوا ولا تمنأدوا، ولا يغتب بعضكم بعضا. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام»، «أكبر الربا هو التصدي على حال المسلم»، ج٦/ ١٧٠-١٧٣، «من كفر مسلما بآء بأحدما» ج٦/ ١٧٤، «للمسلم على أخيه المسلم خمسة حقوق: أن يرد عليه السلام، وأن يشمت إذا عطس، وأن يقبل دعوته، وأن يعود إذا مرض، وأن يمشي في جنازته إذا مات»، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «المسلم مرآة المسلم والمسلم أخ المسلم يدفع عنه الضرر، ويحفظه من خلفه»، «لا تبأغضوا، ولا تمنأدوا، ولا تدأبروا، وكونوا عباد الله إخوانا»، «إن قتل حيوان بغير ضرورة يُعد ذنبا عظيما»، «أن تذبحه وتأكل لا أن تقطع رأسه وتلقى به وترميه»، ج٦/ ١٧٤-١٧٦.

(١) القول البديع ص ٤٥-٩٨.

(٢) السابق ص ٤٥-٥٨.

المتكرر على الإطلاق أو كلما ذكر اسم الرسول أو في كل مجلس مرة أو في كل دعاء^(١). والمقصود منها التقرب إلى الله^(٢). ولها عدة فوائد^(٣). والبركة هي النمو والزيادة من الخير والكرامة^(٤). ولا صلاة عليه خاصة به وليس لأحد غيره الصلاة عليه، ويخص من شاء بما شاء من الأحكام^(٥).

والنبي حبيب لله، كما أن إبراهيم خليل الله، وموسى نجي الله. ويؤثر الله حبيبه على خليله ونجيه وهو ما يتعارض مع المساواة بين الأنبياء. وتشهد الصلاة أن آدم صفوة الله وفطرته، وإبراهيم خليله، وأن موسى كلمه، وعيسى روحه، ومحمد حبيبه^(٦). وتمتد الصلاة من النبي إلى كل نبي وأبي بكر وكل ولي وجبريل وكل ملك^(٧). وتكون الرواية في المنام حيث تختلط المستويات بين الملائكة والأنبياء والصحابة.

والصلاة على النبي وسائر الأنبياء فيها خلاف^(٨). ومع ذلك المروى هو الصلاة على النبي والخلاف في كل الأنبياء أم الرسول وحده، الأنبياء وحدهم أم غيرهم من البشر. وزيارة قبر النبي والسلام عليه، والدعاء له فيها أيضا خلاف. فمن زار قبره وجبت له شفاعته. ومن زاره بعد موته فكأنما زاره في حياته. وفي نفس الوقت، لعن الله زوارات القبور، فقبر الرسول ليس وثنا يُعبد بعده^(٩). ويلزم الأدب في مسجد النبي، ويفضل

(١) السابق ص ٥٨-٨٣.

(٢) السابق ص ٨٣-٨٤.

(٣) السابق ص ٨٥-٩٨.

(٤) السابق ص ٢١١.

(٥) الخصائص الكبرى ح ٢/٥٥٧-٥٦٢، المواهب اللدنية ح ٣/٣١٩-٣٥٧، معين السائل ص ٤٩٨-٥٠٤.

(٦) «اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى نجياً، واتخذني حبيباً. ثم قال: وعزقي وجلالي لأوثرن حبيبي على خليلي ونجبي»، القول البليغ ص ٣٩٩/٤٠٣.

(٧) «إذا كنت عندي فقل: الله صل على محمد وكل نبي، وصل على أبي بكر وكل ولي، وصل على جبريل وكل ملك»، السابق ص ٤٢٤.

(٨) الشفا ح ٢/٦٥٩-٦٦٥، «صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني»، مشروعية الصلاة عليهم تبعاً للمصطفى في الصلاة، وغيرهما مما يزيدهم فخراً وشرفاً، أقرباء الرسول ح ٢/٤٤٣-٤٥٤.

(٩) «من زار قبري وجبت له شفاعتي»، «من زارني في المدينة محتسباً كان في جواردي وكنت له شفيعاً يوم القيامة»، «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي»، «لعن الله زوارات القبور»، «نهيتم عن زيارة القبور فزوروها»، «من زار قبري فقد أطلق اسم الزيارة»، «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد بعدي، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «لا تجعلوا قبري عيداً»، السابق ص ٦٦٦-٦٧٨.

الصلاة فيه وفي مسجد مكة^(١). والبيت مكان يثير الذكريات وليس مقدسا في ذاته، والحجر الأسود بصرف النظر عن مصدره، من السماء أو من الأرض، مجرد حجر لا يضر ولا ينفع، من بقايا عبادة الأصنام في الثقافة الشعبية. والصلاة علاقة ذاتية بين الإنسان والله في لحظة إيمان وليست حركة في مكان. والدعاء صدق اللحظة وليس المكان.

والصلاة على النبي والسلام عليه جزء من عملية التعظيم والتفخيم التي ذمها الرسول حتى لا يخرج عن حدود البشر كما حدث في كتب الشائيل وعند الصوفية في الحقيقة المحمدية. وقد اعترض البعض على كتاب «حياة محمد» لأنه خلا من الصلاة عليه. وهو ما حدث أثناء الدولة العباسية. لذلك خلا البخاري منها. يكفي أن يذكرها الإنسان مرة واحدة في حياته. وتعني «وصلوا عليه» أثناء الصلاة وليس خارجها. والصلاة تعني الدعاء^(٢). وبالرغم من أن الصلاة لله وسلامه على الرسول واجبة بالنص إلا أن العقل يتساءل كيف يصلي الله ويسلم على الرسول؟ من الذي يصلي ويسلم على نبي؟ هذه التحية الضرورية الواجبة وكتابتها بشكل جمالي وبخط خاص، وربما بلون خاص هي أحد مظاهر التقديس الزائد، وقد تعمل لا شعوريا في تصور المسلم للعالم فيما يتعلق بعلاقة الرسالة بالرسول.

وقد تبلغ الصلاة على النبي درجة الأمر والضرورة^(٣). ويتهم من يرفض الصلاة

(١) «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»، «صلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بماناة صلاة»، «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، «منبري على حوضي»، «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها»، «مرحبا بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك»، «ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلا استجاب الله له، وكذلك عند الميزاب»، «من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وحُشر يوم القيامة من الأمنين»، «ما دعا أحد شيئا في هذا الملتزم إلا استجيب له»، السابق ح ٦٧٨/٢-٦٨٩.

(٢) حياة محمد ص ٥٠-٥١.

(٣) «رغم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يُصل علي»، «البخيل من ذُكرت عنده فلم يصل علي»، «عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بها هو أهله وصل علي ثم ادعه»، مسك الختام في أشعار الصلاة والسلام ص ٢٩-٣٢، شفاء السقام في نوادر الصلاة والسلام ص ٣٥-٤٦، الخير الكثير في الصلاة والتسليم على البشير النذير ص ٤٩-٦٠.

عليه بالبخل. وبعد الصلاة يتلو الدعاء. ويضاعف أجر المصلي لأن الصلاة عليه فضيلة، بل هي واجبة. ويكثر منها. وتبلغ إلى الرسول. ويضاف إليها طلب الوسيلة. كما يضاف السلام عليه. ومرة يكون الحديث عن الرسول مباشرة ومرة يكون بتدخل الملاك. ويتطور الحديث من نواته الأولى^(١). والصلاة على النبي هي التي ترفع الدعاء من الأرض إلى السماء^(٢). وفي المجلس تدخل الجنة^(٣). والإكثار من الصلاة استغفار وقرية إلى الرسول^(٤).

وهو أمر على اختلاف أنواعه، أمر بتحسين الصلاة، والترغيب في حضور المجالس التي يصلي عليها فيه، والكثرة منها علامة أهل السنة، ويصلي على غيره من الرسل والأنبياء. ثم يدخل الخيال الشعبي في صلاة الملائكة عليه، وإمهارها آدم لحواء، وبكاء الصغير عليه^(٥). وهي الصلاة الموجودة في التشهد عقب كل صلاة مع الصلاة على إبراهيم. وقد تضم الصلاة على أزواجه. حيثئذ يسد الملائكة الأفق. ولا تكون

(١) «من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشرين»، «أتاني الملك فقال: يا محمد إن ربك يقرؤك السلام. أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرين، ولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشرين»، «ما صلى علي عبد من أمتي صلاة صادقا بها من قبل نفسه إلا صلى الله عليه عشر صلوات، وكتب له بها عشر حسنات، ورفعها بها عشر درجات، وعما عنه عشر سيئات»، «من صلى علي صلاة. مخلصا من قلبه صلى الله عليه»، ص ٥١، «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول....»، «من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة مادام يصلي»، ص ٥٢.

(٢) «ما من دعاء إلا بيته وبين السماء حجاب حتى يصلي على النبي. فإذا صلى على محمد انخرق الحجاب واستجيب الدعاء. وإذا لم يصل على النبي لم يستجب الله الدعاء»، ص ٥٣.

(٣) «ما جلس قوم مجلسا لا يصلون علي فيه إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب»، «ما من مسلمين يتلاقيان فيصافح أحدهما صاحبه ويصليان على النبي إلا لم يرحا حتى تغفر ذنوبهما، ما تقدم منها وما تأخر»، ص ٥٣-٥٤.

(٤) «أكثرُوا من الصلاة على نبيكم في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة»، «أكثرُوا علي من الصلاة يوم الجمعة فمن كان أكثركم علي صلاة كان أقربكم مني منزلة»، «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»، ص ٥٥.

(٥) القول البديع ص ٩٩-٢٣٤، «صلوا علي فإن صلاتكم علي زكاة لكم»، ص ١٠٠، «اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد»، ص ١٠١، «اللهم صلي على محمد وأنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، ص ١١٥، «لا تصلوا علي الصلاة البراءة»، ص ١٢٢، «لا تضربوا أطفالكم على بكتهم سنة فإن أربعة أشهر منها يشهد أن لا إله إلا الله، وأربعة أشهر يصلي علي، وأربعة أشهر يدعو لوالديه»، ص ١٣٣، «إذا صليتم علي فسلموا على المرسلين»، ص ١٣٣، «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»، ص ١٥٩.

الصلاة عليه ببراء بل تستزاد حتى تتحول إلى دعوات وابتهاالات كما هو حادث الآن. وأحيانا يتدخل جبريل لتعليم المسلمين كيفية الصلاة على الرسول ومدى الثواب عليها. ويتدخل الخيال الشعبي لمنع ضرب الطفل في السنة الأولى لأنه يقرأ التشهد في الأربعة الأولى، ويصلي على الرسول في الأربعة الثانية. والأربع الثالثة يدعو لوالديه. والصلاة على الأنبياء والمرسلين جميعا وليست خاصة لمحمد. وتكون الصلاة أيضا على الصحابة وعلى من يطلب. يشارك فيها الملائكة على أرواح المؤمنين، والسلام على الأحياء والأموات.

وإذا طنت الأذن فهو تذكير بالصلاة^(١). وحين العطس التحميد لله والصلاة على النبي يخرج من المنخر الأيسر طائرا يطلب المغفرة لقائلها. ولا ينهق الحمار إلا إذا تمثل له شيطان مما يتطلب الصلاة على النبي. وهي وصية لعلي، كثرة الصلاة على النبي بالسحر والاستغفار لأصحابه بالمغرب، فالشروق والغروب شاهدان لله على خلقه^(٢). ولم الاستعجال في الصلاة وإنهاؤها دون الصلاة على النبي؟ الصلاة كفارة وزكاة، تغفر الذنوب. وهي زينة المجالس. تربط بين الإخوة^(٣).

والصلاة على النبي في أوقات مخصوصة، حين الغسل والطهارة بوجه عام والصلاة، وفي مناسك الحج، وفي شتى المعاملات، وفي المرض وأحوال الكرب، وفي التعلم والذكر والقضاء^(٤). ويوم الجمعة له ميزة خاصة. فالصلاة يوم الجمعة مائتا مرة تغفر

(١) «إذا طنت أذن أحدكم فليصل علي وليقل: ذكر الله بخير من ذكركي»، القول البديع ص ٤٤٣، «من عطس فقال: الحمد لله على كل حال ما كان من حال، وصل الله على محمد وعلى أهل بيته أخرج الله من منخره الأيسر طائرا يقول: اللهم اغفر لقائلها»، ص ٤٤٥، «لا ينهق الحمار حتى يرى شيطانا أو يتمثل له شيطان. فإذا كان ذلك فاذكروا الله وصلوا علي» ص ٤٤٩.

(٢) «يا علي، احفظ عني خصمتين، أتاني بهما جبريل: أكثر الصلاة علي بالسحر، والاستغفار بالمغرب، والصلاة علي والاستغفار لأصحاب رسول الله، فإن السحر والمغرب شاهدان من شهود الرب على خلقه»، القول البديع ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) «إن المسافر إذا فرغ من حاجته صب في قدحه ماء. فإن كان له إليه حاجة ترضاً منه أو شربه وإلا إحراقه، اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره»، القول البديع ص ٤٣٨ / ٤٥٠ / ٤٧٢، «كل كلام لا يذكر الله فيه فيبدأ به بالصلاة علي فهو أقطع محق من كل بركة»، ص ٤٧٧.

(٤) القول البديع ص ٣٥٦-٤٩٥.

أ- الوضوء والصلاة: الفراغ من الوضوء، والتيمم والغسل من الجنابة، والحيض، والصلاة وعقبها

ذنوب مائتي عام^(١). ويبدأ العد بالمائة ثم بالثمانين، وبالأربعين ثم بالعشرين، وبالعشر للحصول على الشفاعة والمغفرة. وتنتهي بالألف. وقد يحدث ذلك يوم الخميس. وقد يزيد الخيال المصحف من فضة لتدون فيها الملائكة عدد الصلوات على النبي من أكثر صلاة على النبي وكان ذلك لا يعرف إلا بالتدوين. لذلك قد تكون الصلاة في كتاب، وقد ينشط الخيال أكثر. فالملائكة من نور بأيديهم أقلام من ذهب ودوي من فضة وقراطيس من نور. وقد يكون الوقت الليلة الغراء واليوم الأزهر، والصلاة أيضا يومي السبت والأحد لأن اليهود والنصارى يسبون الله هذين اليومين^(٢). وقد تكون الصلاة صباحا ومساء ويغفر ما بينهما^(٣).

وإقامتها وتأكيدها بعد الصبح والمغرب، والتشهد والقنوت، والقيام والتهجّد بعده، والمرور بالمساجد ورؤيتها، ودخولها والخروج منها، وبعد إجابة المؤذن، ويوم الجمعة وليلتها، والسبت والأحد، وليلة الإثنين والثلاثاء، وخطبة الجمعة والعيد والاكسوفين، وأثناء تكبيرات العيد والجنائز، وعند إدخال الميت القبر.

ب- في رجب وشعبان ورؤية الكعبة، وفوق الصفا والمروة، وعند الفراغ من التلبية واستلام الحجر، وعشية عرفة، والملتزم، ومسجد الخيف، وزيارة قبره، وعند رؤية المدينة، ورؤية آثاره الشريفة، ومواطنه ومواقفه مثل بدر، وداعه.

ج- عند الذبيحة، والبيع، وكتابة الوصية، والخطبة للتزويج، وفي طرقي النهار، وعند إرادة النوم، ولمن قل نومه، والسفر، وركوب الدابة، وعند الخروج إلى السوق أو الدعوة، ودخول المنزل وافتتاح الرسائل وبعد البسملة.

د- وعند الهم والكرب والشدائد، والفقر، والفرق، والطاعون، وأول الدعاء وأواسطه وآخره، وطنين الأذن، وخدر الرجل، والعطاس، والنسيان، واستحسان الشيء، وأكل الفجل، ونهيق الحمار، والتوبة من الذنب، وما يُعرض من الحوائج.

هـ- كل الأحوال، الاتهام عند البراءة، لقاء الإخوان، تفرق القوم واجتماعهم، ختم القرآن وحفظه، القيام من المجلس، اجتماع لذكر الله، افتتاح كل كلام، نشر العلم، الوعظ وقراءة الحديث، الإفتاء، القضاء.... الخ ص ٣٥٦-٣٥٧

(١) «من صلى على يوم الجمعة مائتي صلاة غفر له ذنب مائتي عام»، السابق ص ٣٩٥، «إذا كان يوم الخميس بعث الله ملائكة معهم صحف من فضة، وأقلام من ذهب يكتبون يوم الخميس وليلة الجمعة أكثر الناس صلاة على النبي»، السابق ص ٣٩٨.

(٢) «أكثروا من الصلاة على في يوم السبت فإن اليهود تكثر من سبي فيه. وعليكم بمخالفة الروم في يوم الأحد... في يوم يدخلون كتائبهم ويعبدون صلبانهم ويسبونني...»، السابق ص ٤٠٢-٤٠٣، «من صلى على في كتاب»، السابق ص ٤٣٣/٣٨٤-٣٨٥.

(٣) «من صلى على مساء غفر له قبل أن يصبح، ومن صلى على صباحا غفر له قبل أن يمسي»، السابق ص ٤٣١.

والصلاة على النبي بعد الظهور تفتح أبواب الجنة. فالوضوء والصلاة على النبي قرينان مثل الصلاة والمسجد لجاره^(١). والصلاة على النبي حين الأذان تجلب رضا الله وشفاعة النبي^(٢). وهي حين دخول المسجد والخروج منه تغفر الذنوب وتفتح أبواب الفضل والعصمة من الشيطان^(٣). والصلاة عليه هي المتلوة في التشهيد في آخر الصلاة^(٤). وتُقرن الصلاة عليه بإبراهيم تأكيداً للحنفية، وإن الإسلام استمرار لها^(٥). فإبراهيم أول الأنبياء وأفضلهم، أب للمؤمنين، يتبعه المسلمون في مناسك الحج، وهو الذي بنى البيت.

والصلاة على النبي مائة مرة قبل الحديث في أي شيء تقضي الحاجات حتى ولو كانت بالمئات، ثلاثون في الحال وسبعون في المآل، كل حاجة بصلاة. ويتكرر ذلك في المغرب أيضاً^(٦). فالصلاة حامل لسؤال، والاستجابة لها بالعطاء. والصلاة على النبي في الأسفار للحفاظ من المخاطر وطلب الأمان^(٧). لا فرق بين دابة وعربة وطائرة. والدابة

(١) إذا فرغ أحدكم من ظهور فليقل: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ثم ليصل علي، فإذا قال ذلك فتحت له أبواب الجنة»، السابق ص ٣٥٧.

(٢) «من قال حين ينادي المنادي: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صلي على محمد وأرض عنه رضاء لا سخط بعده، استجاب الله دعوته»، السابق ص ٣٨٥. «من قال حين يسمع المؤذن: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، صل على محمد عبدك ورسولك، وأعطه الوسيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي»، ص ٣٨٥.

(٣) «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ثم ليقُل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج من المسجد فليسلم على النبي ثم ليقُل: «اللهم افتح لي أبواب فضلك»، السابق ص ٣٨٠.

(٤) «قولوا: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، أقرئاء الرسول حـ ٤٤٣/٢، «اللهم قد جعلت صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك على إبراهيم وآل إبراهيم. اللهم إنهم مني وأنا منهم فاجعل صلواتك ورحمتك ورضوانك علي وعليهم»، حـ ٤٤٨/٢، «من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه»، حـ ٤٤٩/٢.

(٥) القول البديع ص ٢٠١-٢١٠/٣٦٥-٣٦٦.

(٦) «من صلى علي مائة صلاة حين يصلي الصبح قبل أن يتكلم قضي الله له مائة حاجة، يُعجل له منها ثلاثين، ويدخر له سبعين، وفي المغرب مثل ذلك»، السابق ص ٣٦٤، «سل تعطه... سل تعطه»، ص ٣٦٦، الخصائص الكبرى حـ ٥٥٣.

(٧) «من قال إذا ركب دابة باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء، سبحانه ليس له سمي، سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على محمد وعليه السلام،

ترد الدعاء بدعاء كما يرد المضيف في الطائفة والمسافر في العربة. تحل العقد^(١). وتكفي لهم، وتنجي من الأهوال في الدنيا والآخرة. وعند التشهد تجلب الحاجات. إِبصار الأعمى ورد البصر إليه^(٢). وهي ستر من الفضائح، وصبر على البلوى، وطلب دوام العافية.

ويحذر من ترك الصلاة على النبي. ويكون ذلك بالدعاء بالإبعاد والإخبار بحصول الشقاء، ونسيان طريق الجنة، ودخول النار، والوصف بالجفاء، وبأنه أبخل الناس، والتنفير منه، واتهامه بأنه لا دين له، وأنه لن يرى وجه الرسول^(٣). وقد يدخل جبريل في صياغة الحديث تأييداً على قول الرسول. وعدم الصلاة على الرسول نوع من البخل، ومثل عقوب الوالدين، وترك سته والدعاء الأكبر في عرفات. وتتحول السيرة إلى مجموعة من الأدعية في كل خطوة للاستجابة إلى حاجات الداعين. وقد استمر ذلك إلى الآن لدرجة الإحساس بأنه مجرد الدعاء يكفي لتحقيق المطالب دون فعل^(٤). فالدعاء وراء كل صلاة مكتوبة، تجلب الشفاعة يوم القيامة، دعاء لإعطاء محمد الوسيلة، وجعله من المصطفين والمقرين وأصحاب الدرجات. والرسول لا يحتاج إلى ذلك لأن الله قادر على أن يحققه. والوسيلة منزلة في الجنة. وتتحول الصلاة على النبي إلى كهنوت. ويظهر

قالت الدابة: بارك الله عليك من مؤمن خفت من ظهري، وأطعت ربك، وأحسنت إلى نفسك، بارك الله لك في سفرك، وأنجح حاجتك»، القول البديع ص ٤٣٢.

(١) «من عسر عليه شيء فليكثر من الصلاة علي فإنها تحل العقد وتكشف الكرب»، السابق ص ٤٣٤، «إذا تكفي همك»، «إن أنجاكم من أهوالها ومواطنها يوم القيامة أكثركم علي صلاة في الدنيا»، ص ٤٣٦.

(٢) السابق ص ٤٥١-٤٥٦/٤٥٩، دعاء قضاء الحوائج وزوال الشدائد، الخصائص الكبرى ح ٤١٦/٢، «من صلى علي صلاة واحدة قضيت له مائة حاجة»، ح ٥٥٣/٢.

(٣) القول البديع ص ٣٠٢-٣٢٢، «جاءني جبريل فقال: إنه من ذكرت عنده فلم يصل عليك دخل النار...»، ص ٣٠٦، «من نسي الصلاة علي خطي طريق الجنة»، «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»، ص ٣١٢، «لا يرى وجهي ثلاثة أنفس: العاق لوالديه، وتارك ستي ومن لم يصل علي إذا ذكرت بين يديه»، ص ٣١٨.

(٤) وذلك تحت بعض الأحاديث مثل «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم»، «من دعا بهؤلاء الدعوات في دبر كل صلاة مكتوبة حلت له الشفاعة مني يوم القيامة: اللهم أعط محمدًا الوسيلة، واجعل في المصطفين محبة، وفي العالمين درجته، وفي المقرين داره»، السابق، ص ٣٦٣/٦٨٣/٤٧٥/٤٨١/٤٨٨-٤٩٠، الخصائص الكبرى ح ٥٥٣/٢.

الرسول في المنام. كما يظهر الخضر راويا أقوال الرسول. والدعاء مشروط بالصلاة عليه وإلا رجع. ويتوسل به حتى ولو كان الحديث غريبا^(١).

والصلاة على النبي لها ثواب كبير، في الآخرة وفي الدنيا^(٢). ويتدخل جبريل أيضا في الحديث. كما يتدخل الملائكة في الصلاة مضاعفة. ويتم تفصيل الملائكة وأجنحتها، ملاك جناحه في المشرق وآخر في المغرب ورجلاه في الأرض وعنقه ملتو تحت العرش^(٣). ويتدخل الخيال ليفصل في جناح الملاك، رأسه تحت العرش، له ثمانون ألف جناح، في كل جناح ثمانون ألف ريشة، وتحت كل ريشة، ثمانون ألف زغبة، وتحت كل زغبة لسان يسبح الله ويحمده ويستغفره. ومن أول رأسه إلى بطون قدميه أفواه وألسن وريش وزغب

(١) «قل اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة»، خصائص الرسول ص ٢٩٧-٢٩٨، «وسلوا إلى الوسيلة فإن الوسيلة منزلة في الجنة ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل الله الوسيلة حلت عليه الشفاعة»، «من صلى علي أو سأل الله لي الوسيلة حقت عليه شفاعتي يوم القيامة»، الخير الكثير ص ٥٦، «ما من مسلم يقول حين يسمع النداء بالصلاة فيكبر ويشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمدا رسول الله ثم يقول: اللهم أعط محمدًا الوسيلة والفضيلة، واجعله في العليين درجته وفي المصطفين محبته، وفي المقربين ذكره وجبت له الشفاعة يوم القيامة»، «سلوا لي الوسيلة فإنه لا يسألها لي مسلم أو مؤمن إلا كتب الله له شهيدا أو شفيعا»، «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي»، «إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة. فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه»، «صلوا علي فإن الصلاة علي زكاة لكم»، وسلوا الله لي الوسيلة، ص ٥٦-٥٧.

(٢) حوالي اثنين وخمسين ثوابا في الآخرة منها: تكفير الخطايا، تزكية الأعمال، رفع الدرجات مغفرة الذنوب، استغفار قائلها، الكيل الأوفى، كفاية أمر الدنيا والآخرة، محق الخطايا، عتق الرقاب، النجاة من الأهوال، شهادة الرسول بها، وجوب الشفاعة، رضا الله ورحمته، الأمان من سخطه، الدخول تحت ظل العرش، رجاحة الميزان، ورود الخوض، الأمن من العطش، العتق من النار، الجواز على الصراط، رؤية المقصد المقرب من الجنة قبل الموت، كثرة الأزواج في الجنة، ثوابها في الصحيفة، تقرب إلى الله، نور، عدم سؤاله يوم القيامة، وفي الدنيا: رجاحتها على أكثر من عشرين غزوة، قيامها مقام الصدقة للمعسر، زكاة وطهارة، نمو المال ببركتها، قضاء الحوائج، تزين المجالس، نفي الفقر وضيق العيش، الثماس نطاق الخير بها، فاعلها أولى الناس بها، منفعة له ولولده، النصر على الأعداء، والدينية مثل: عبادة، أحب الأعمال إلى الله، إكرام النبي لصاحبها، مصافحة النبي، تطهير القلب من النفاق والصدأ، وجوب محبة الناس، رؤية النبي في المنع، تمتع من الاغتيا، أبرك الأعمال. القول البديع ص ٢٣٥-٣٠١.

(٣) «من صلى علي صلاة تعظيما لحقي جعل الله من تلك الكلمة ملكا جناح له في المشرق، وجناح له في المغرب، ورجلاه في تخوم الأرض، وعنقه ملتو تحت العرش. فيقول الله عز وجل له، صلي على عبدي كما صلي على نبي. فهو يصل عليه إلى يوم القيامة»، ح ٢/ ٢٥٥، ح ٢/ ٥٥٤.

ليس فيه موضع شبر إلا وفيه لسان يسبح الله ويحمده، ويستغفره لمن صلى على الرسول من أمته. وقد تصبح الصلاة على الرسول مزايدة من أجل الحصول على مزيد من الأجر. تغفر الذنوب. وتكفي هم الدنيا والآخرة، توجب الشفاعة، وترضي الله عنه، وتأمين من سخطه. من صلى على النبي نال الجزاء. يكون أولى بالرسول يوم القيامة، ويحيب الله له الدعاء، وينال أرفع الدرجات في الجنة، وينال الشفاعة، وكلما زادت الصلاة زاد الأجر. بل إن الصلاة تظل محجوزة حتى تكتمل بالدعاء^(١). وقد يكون المقصود من ذلك كله الأرض وليس السماء، فمن صلى عليه يكون كمن أعتق رقبة وحرر عبدا. فالأولى تحرير العبيد من كل مظاهر العبودية حتى تكتمل الصلاة. والبخيل من ذكر عنده الرسول ولم يصل عليه^(٢). وقد يكون الجزاء المغفرة أو الكفارة أو زيادة الحسنات.

ثم تتحول طاعته ومحبته وتوقيره إلى الصلاة والسلام عليه إلى درجة التأليه، كم حدث في باقي الأنبياء، بوذا كان إنسانا ثم أصبح إلها، ولاوتزي كان معلما شيخ قرية ثم أصبح إلها. والرابطة بين المرحلتين التقديس^(٣). فإذا كان الله وملائكته يصلون على النبي فكيف لا تصلي عليه الناس؟ والصلاة لا تكون إلا لله فكيف تكون واجبة للنبي؟^(٤). وتكون في الدعاء بين الصلاتين، وكل دعاء يظل واقفا في السماء لا يصعد إلا بها. وهي

(١) «إذا سمعتم المؤذن فقولوا ما يقول ثم صلوا عليّ. إنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»، بهجة المحافل ص ٦٢٨، «أيها المصلي ادع تجب»، «الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد»، «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، «من صلى على محمد وقال اللهم أنزله المقصد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، «من سلم علي عشرا فكأنها أعتق رقبة»، «صلاتكم علي محجوزة لدعائكم، ومرضاة لكم، وزكاة لأبدانكم»، «من صلى على محمد وقال: اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، «ليردن علي أقوام ما أعرفهم إلا بكثرة صلاتهم علي»، «أنجاكم يوم القيامة من مواطنها أكثركم علي صلاة»، بهجة المحافل ص ٦٢٩-٦٣١، الخير الكثير ص ٥٦.

(٢) «البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي»، السابق ص ٦٠، «أولى الناس مني أكثرهم علي صلاة»، أقرباء الرسول ح ١/ ٢٢٠.

(٣) الشفا ح ٢/ ٦٢٥-٦٨٢.

(٤) «الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد»، «كل دعاء محجوب دون السماء فإذا جاءت الصلاة علي صعد الدعاء»، «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي»، «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب»، السابق ص ٦٢٥-٦٣٢، «من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى علي»، بهجة المحافل ص ٦٢٨.

بالغضب رغم الأنف. وتستغفر الملائكة للمصلي، وتكون الصلاة عليه وعلى أزواجه وذريته أسوة بالصلاة على إبراهيم وآله فيها مضي. وهو ما قد يتنافى مع رسالة الرسول، وما قد يقع في التصور العائلي للنبوّة، تصور بني إسرائيل. وتحمي الملائكة المصلين على النبي^(١). وكان بعض الصوفية مثل الحسن البصري من رواة هذه الأحاديث^(٢).

وتبلغ الصلاة النبي مباشرة أو عن طريق الملائكة وكأن الرسول غير قادر على سماعها مباشرة. والله قادر على كل شيء. وكتابتها في صحيفة بيضاء دليل على الشفافية. ومع ذلك لا تجوز الصلاة على القبور أو اتخاذها مساجد. فإنها تصل الرسول أينما كانت. وأفضل وقت يوم الجمعة^(٣). ويبلغ النبي من يسلم عليه ويرد السلام. فله ملائكة سباحون يبلغون الرسول السلام. يسمع الصلاة على قبره، ويُحِبُّ بها إن كانت بعيدة، ولا تجعل البيوت قبورا، ولا قبر الرسول عيداً، وقد لعن الله اليهود لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وكل سلام إلى الرسول يرد الله إليه روحه حتى يرده. ويكون له يوم القيامة شفيعاً^(٤). والإكثار من الصلاة يوم الجمعة لقضاء الخوائج في الآخرة

(١) السابق ص ٦٤٦.

(٢) «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإنكم إذ قتلوها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض»، «قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، «اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد»، «اللهم صل على محمد عبدك ورسولك»، «اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد»، السابق ص ٦٤٠-٦٤١، «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقى اسمه في هذا الكتاب»، السابق ص ٦٣١.

(٣) «إن الله أعطاني ملكاً من الملائكة يقوم على قبري إذا أنا مت، فلا يصلي علي أحد إلا قال فلان بن فلان باسمه واسم أبيه يصلي عليك فيصلّي الله عليك مكانها عشراً»، «من صلى علي صلى الله عليه، وكان ملك موكل بها حتى يبلغنيها»، «إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا. ثم يوكل الله بذلك ملكاً يدخل في قبري كما تدخل عليكم الهدايا. يجبرني بمن صلى علي باسمه ونسبه وعشيرته فأثبته عندي في صحيفة بيضاء»، «صلوا في بيوتكم، ولا تتخذوا قبوراً ولا تتخذوا بيوتي عيداً، صلوا علي وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم تبلغني أينما كنتم»، ص ٥٨-٥٩، «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»، الخصائص ص ٥٥٥/٢.

(٤) القول البديع ص ٣٢٢-٣٥٥، «إن الله ملائكة سباحين يبلغوني عن أمّتي السلام»، ص ٣٢٣، «من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي من بعيد أعلمته»، ص ٣٢٥، «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً»، ص ٣٢٥، «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ص ٣٢٧، «ما من أحد يسلم علي إلا

وحمة بالأكثر، وفي الدنيا وهي الأقل. فيوم الجمعة يوم خلق آدم، ووفاته وفيه النفخة والصعقة. وقد حرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء في حين تأكل أجساد بني آدم إلا عجب الذنب^(١). والأنبياء أحياء في قبورهم يصلون حتى ينفخ في الصور، وأكرم الله ألا يترك الرسول في قبره أكثر من ثلاثة أيام مثل رفع المسيح في اليوم الثالث طبقا للعقائد المسيحية.

والصلاة على النبي طلب منه. من صلى عليه صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشاء، وقد تصل إلى سبعين، وكيف يصلي الخالق على المخلوق؟ وهل إلى هذا الحد تنقلب النسبة؟ وهل أولى الناس به يوم القيامة أكثرهم عليه صلاة أم أكثرهم له اتباعا وتحقيقا لرسالته؟^(٢) وما أسهل أن تتحول الصلاة عليه إلى أن تصبح زيارة قبره عيدا على عكس ما أوصى به. وينشط الخيال حتى يرد الرسول السلام على من يسلم عليه بأن يحيه الله ويعيد إليه روحه وكأنه لا يقدر، بإذن الله، أن يرد عليه دون بعث. وقد يدخل الملاك في الرواية لإخباره بعدد الصلوات المقابلة من الله على صلاة الإنسان. وقد تعمم الملائكة وقد تخصص بجبريل. وقد يُضاف رفع الدرجات مع عدد الصلوات. وقد تضاف الحسنات إليهم معا. ويدخل الصوفية لينضم كم الأدعية والصلوات والابتهالات له^(٣).

والصلاة والتسليم على النبي والدعاء له فضيلة^(٤). ولمن يفعل له منزلة في الجنة

رد الله إلي روعي حتى أرد عليه السلام، ص ٣٢٨-٣٢٩، «من فضل أيامكم يوم الجمعة. فيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة»، ص ٣٣١، «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»، ص ٣٥٠، «أنا أكرم على ربي من أن يتركني في قبري بعد ثلاث»، ص ٣٥٠.

(١) من العقيدة إلى الثورة حء، النبوة والمعاد، ص ٤٠٨-٤٢٢.

(٢) «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي. فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا، الأنوار ح ٦٥ / ١، الشفا ح ٣٠٤ / ١، فضل الصلاة عليه وحكمها ومواطنها، بهجة المحافل ص ٦٢٧-٦٣٥، الخصائص الكبرى ح ٥٥٠ / ٢-٥٦١.

(٣) الشفا ح ٦٤٦ / ٢، «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»، «لا تجمعوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، «إن جبريل أتاني فقال من صلى عليك صلاة صلى الله عليك عشرا ورفعته عشر درجات»، الخصائص الكبرى ح ٥٥١ / ٢.

(٤) «سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل

وتكون له الشفاعة^(١). وكيف تكون الصلاة على التعادل، صلاة الإنسان على الرسول وصلاة الله على الإنسان، وهو ما يتنافى مع التنزيه؟ وكيف يصلي الله والملائكة على من يصلي على الرسول ويتساوى فعل الله والملائكة؟ ولا يعادل تحرير رقبة أي شيء حتى ولو كان الصلاة والسلام على الرسول. فالتحرير تغيير وضع اجتماعي والصلاة والسلام مجرد قول. وكيف يأثم من لا يصلي على النبي؟ الصلاة لا تكون إلا لله. وهي مقياس الكرم أو البخل. وطريق الجنة هو العمل طبقا لقانون الاستحقاق. والجفاء قسوة القلب على الإنسان وليس عدم الصلاة على الرسول.

ويُبلغ الرسول كل من صلى عليه. ويرد عليه السلام بعد موته. ويسمعها وهو في قبره. يبلغونه الملائكة. وإذا كانت لا تجوز الصلاة على القبور بوجه عام فكيف يجوز الصلاة على قبر النبي؟ الصلاة في الزمان وليست في المكان، في أي وقت وفي أي مكان^(٢).

وبالرغم من أن الصلاة على النبي تبدأ بتحميد الله والثناء عليها إلا أنها تجعل الله والنبي قرينين. والصلاة دون الحمد والدعاء بتراء. فلم العجلة؟ الصلاة عليه تجعل الإنسان في ظل العرش^(٣). وما يدفع التقديس له الصلاة والسلام عليه وتكرار الشعار

في الوسيلة حلت عليه الشفاعة»، «من صلى علي صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات، وكتب له عشر حسنات»، بهجة المحافل ص ٦٢٨، «من قال: اللهم صل على محمد وأئزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»، «من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى علي»، «من سلم علي عشرا فكأنها أعتق رقبة»، الشفا ج ٢/ ٦٤٩-٦٥٣، خصائص الرسول ص ٢٧٣.

(١) الشفا ج ٢/ ٦٥٣-٦٥٦ «الخيال كل البخل الذي ذكرت عنده فلم يُصل علي»، «من نسى الصلاة علي نسي طريق الجنة»، «من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي علي»، «لا يجلس قوم مجلسا لا يصلون فيه علي النبي إلا كان عليهم حسرة. وإذا دخلوا الجنة لم يروا الثواب».

(٢) الشفا ج ٢/ ٦٥٦-٦٥٩ «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»، «من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائيا بلغته»، «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»، «لا تتخذوا بيوتي عبدا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا، وصلوا علي حيث كنتم، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي»، «أكثروا من الصلاة علي في الليلة الزهراء»، «اليوم الأزهر»، «فإنها يؤديان عنكم وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء. وما من مسلم يصلي علي إلا حملها ملك حتى يؤديها إلي»، الشفا ج ٢/ ٦٥٦-٦٥٩.

(٣) «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ويصلي علي النبي ثم يدعو بعد بها شاء»، «القول البديع» ص ٤٣٩/ ٣٦٩ «من أكثر الصلاة علي كان في ظل العرش»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٥٤.

الشائع «صلى الله عليه وسلم». فقراءتها تشفي وتهدي^(١). وفي التعبيرات الشعبية يقرن الرسول بلقب «سيدنا» في «سيدنا محمد» الموافدة من التراث القديم حتى من الدعاء في الصلاة. «اللهم صل على سيدنا محمد». وفي الدول الملكية يسمى الملك أيضا «سيدنا». فلا فرق بين اللقب الديني واللقب السياسي. وأحيانا يقرن لقب «سيدنا» بلقب «حبيينا» وبالتالي يخرج السيد عن دائرة النقد إلى دائرة المحبة في «يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي». وأصبح «سي السيد» رمز التسلط والقدرة والخوف والإرهاب ونموذج المجتمع الأبوي. ويقول العبد لسيد «يا سيدي».

٤- العصمة

وتدخل العصمة تحت أحكام العقل الثلاثة، الوجوب والإمكان والاستحالة، من الله إلى الرسول، وكأنه ذات مثل الذات الإلهية^(٢). كلاهما وعي ذاتي. وهو وعي جماعي، ما بين الذوات، بينه وبين أبي بكر^(٣). وعصمة الأنبياء من الأمور الواجبة، العصمة في الإيمان «أول خصائصه في الأمور الدينية». فقد عقد قلب النبي من وقت نبوته^(٤). بدأ باليقين وليس بالشك مثل إبراهيم، مع أن الشك مقدمة اليقين. والبداية باليقين قطعية. الشك خشية على النفس. قد يغان على قلبه ولكنه يستغفر الله في كل يوم مائة مرة، أما ما يخص الأمور الدنيوية فيطراً عليهم من العوارض البشرية. وتختص بأجسامهم البشرية المقصودة بها مقاومة البشر. ومعاناة بني آدم لمشكلة الجنس. أما بواطنهم فمتزهة معصومة متعلقة بالملأ الأعلى والملائكة^(٥).

(١) أشعار الصلاة والسلام ص ٢٩-٣٢، نوادر الصلاة والسلام ص ٣٥-٥٠، الصلاة والتسليم ص ٥١-٦٢.

(٢) القسم الثالث: فيما يجب للنبي وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه وما ينفع أو يضر من الأحوال البشرية أن يضاف إليه ج ٢/ ٦٩٠-٩٢٥، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٤٦-٥٤٧، ولا ينبغي أن أقول غير الرضا والغضب إلا حقا، ج ٢/ ٥٤٧.

(٣) «تام عينا ولا ينم قلبي»، «إني لست كهيتكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني»، «لو كنت متخذا من أمي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن إخوة الإسلام، لكن صاحبكم خليل الرحمن»، السابق ص ٦٩٢-٦٩٣، الفصول ص ٤٠١-٤١٦.

(٤) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٦٩٤-٨٥٩.

(٥) الشفا ج ٢/ ٨٦٠-٩٢٥ / ٨٦٤.

والأنبياء معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والشك. وعقد النبي في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية. وقد أجمعت الأمة على عصمة النبي من الشيطان تمجيذا وتعظيما له^(١). فكل إنسان له قرين من الجن، وقرين من الملائكة. ولقد جاء إبليس بشهاب من نار في وجه الرسول وهو في الصلاة وتعوذ الرسول منه ولعنه وأوثقه وجعل غلمان المدينة يتلاعبون به. وكفى عيسى من لمسه. وعلى الإنسان أن يقاتل الشيطان. الرسول معصوم في أقواله وأفعاله. وما أوحى له الشيطان في قصة الغرائق العلاشيء إنساني خالص يدل على رغبة الرسول في إيلاخ الرسالة لقومه حتى ولو آمنوا تدريجا بالتوحيد. أما فيما يتصل بأمور الدنيا وأحوال نفسه فقد يخطئ فيها مثل حادثة تأبير النخل. ويختصم الناس للرسول في أمور قد يخطئ فيها ويصيب بناء على قدرة خصم في الإقناع. وقد يسهو الرسول مثل باقي البشر^(٢). كما أن الأنبياء معصومون في الجوارح من الأعمال بما في ذلك القول باللسان^(٣). واختلف في عصمة الأنبياء قبل النبوة^(٤). قتل موسى المصري قبل النبوة. هذا إذا كان العمل عن قصد وهو المعصية ويدخل تحت التكليف. أما ما يكون من غير قصد ومتعمد كالسهو والنسيان فليس بمعصية^(٥). وقد ذكرت كثير من الأحاديث في السهو والنسيان^(٦). ويرد على من أجاز عليهم الصغائر. وبالتالي تتحول السيرة إلى علم الكلام في المحاجة مع الخصوم^(٨). كما تدفع الشبهات^(٩). وهذا لا يمنع من جريان الشيطان مجرى الدم في عروق ابن آدم^(١٠).

(١) «ما أشك ولا أسأل»، السابق ص ٦٩٥-٧١٩.

(٢) «إن الشيطان أتى ملائكة فلم يزل يدهنه كما يهدأ الصبي حتى نام»، السابق ص ٧٣٥-٧٤٥.

(٣) «أنني لأنسى أو أنسى لأسن»، السابق ص ٧٧٣-٧٨٤.

(٤) «يجل الله لرسوله ما يشاء، إني لأخشاكم لله واعلموا بحدوده»، السابق ص ٧٨٤-٧٩٢.

(٥) الشفا ج٤/ ٧٩٣-٧٩٦، سيرة النبي ج٣/ ٣٣٢-٣٣٦ ج٤/ ١٠-١١/ ٦٩-٧٤.

(٦) «إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون. فإذا نسيت فذكروني»، «لست أنسى ولكن أنسى»، «إنه ليغان على قلبي

فأستغفر الله»، السابق ص ٧٩٦-٨٠٠.

(٧) «رحم الله فلانا. لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطهم»، السابق ص ٨٠٠-٨٠٩.

(٨) السابق ص ٨٠٩-٨٤٠ «إذا هم عبدي بسية فلم يعلمها كتبت له حسنة» ص ٨٢٩-٨٣٠، «ما من أجد

إلا ألم يذنب أو كاد إلا يحيي بن زكريا»، ص ٨٣٩-٨٤٠.

(٩) «لولا كلمة يوسف ما لبث في السجن ما لبث»، «إني أخشاكم الله، أعلمكم بما أتقي»، السابق ص ٨٤٠-٨٤٨.

(١٠) «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وأني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا فتهلكا»، السابق

ص ٨٤٨-٨٥١.

ولما كانت العصمة عقيدة أكثر منها دافعا فإنها تمتد من الأنبياء إلى الملائكة^(١). وهو موضوعي قياسي، قياسا للغائب على الشاهد. والعصمة ممتدة قبل البعثة وبعدها. فقد حفظه الله في شبابه عما كان عليه أهل الجاهلية. عندما طالبه بشد الإزار عليه حين بناء الكعبة^(٢). كما حفظه الله من أن يسحر في منزل من منازل مكة بنومه حتى الضحى. ولم يأكل شيئا مما ذبح على النصب. ولم يعبد وثنا قط. وكان يظهر له فينبهم على ألا يفعل. وقد وعده الله بالعصمة من الناس مثل أبي جهل، وستره بالحجاب عن عين العوراء، وعصمته من المخزومين ومن النفر ومن الحكم.

وأحواله في الدنيا بالعقد والقول والفعل^(٣). وهي أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد^(٤). وأما أقواله الدنيوية من أخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله فالخلق فيه ممتنع عن عمد أو سهو أو صحته أو مرضه أو رضا أو غضب وأنه معصوم منه وكان صفاته ليست بشرية وكأنها عيب ونقص^(٥). ولقد منع عمر أن يعطيه ورقة ودواء يكتب كتاب وهو على فراش الموت لن يضل المسلمون بعده، اكتفاء بكتاب الله وعترته^(٦). وقد اعترف الرسول بأنه مثل باقي البشر يغضب ويحزن^(٧). بل إنه اعتذر مقدما عن أذى أحد من المسلمين واعتبرها قرينة له يوم القيامة. وقد دعا على أحد المسلمين بعدم الشيع وأفعاله الدنيوية

(١) السابق ص ٨٥١-٨٥٩.

(٢) الخصائص الكبرى ج ١/ ٢٠٥-٢٠٩ / ٢٨٣-٢٨٩

(٣) «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، «إنا أنا بشر. فما حدثكم عن الله فهو حق، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب»، «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، «أشرت بالرأي»، «إنا أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له غير ما أسمعت. فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذ منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من النار»، «فلعل بعضكم أن يكون أبغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له»، السابق ج ٢/ ٨٧٠-٨٧٣.

(٤) السابق ص ٧٧٤-٨٧٦.

(٥) السابق ص ٨٧٦-٨٨٣.

(٦) السابق ص ٨٨٣-٨٩٠.

(٧) «اللهم إن محمدا بشر يغضب كما يغضب البشر... فأيا مؤمن آذيت أو سببت أو جللته فاجعلها كفارة له وقرينة تقربه بها إليك يوم القيامة»، «فأيا رجل من المسلمين سببت أو لعتته أو جللته فاجعلها له زكاة وصلاة ورحمة، تربت يمينك، ولا أشيع الله بطنك»، السابق ص ٨٩١-٩٠٠.

مثل جواز السهو والغلط توقي المعاصي والمكروهات^(١). فلم يهدم الرسول الكعبة لحدثان العرب بالكفر لأنه يعلم أنها حجارة تأكيداً للتواصل بين الجاهلية والإسلام في ثقافة العرب. ومع ذلك تجوز على الأنبياء الأمراض ليس فقط امتحاناً واختباراً لأنهم بشر. فالؤمن المصاب كما هو الحال في الثقافة الشعبية.

وعصمة الله له من الناس وكفايته آذاهم من المعجزات^(٢). والشواهد قرآنية^(٣). وهناك روايات تتحدث عن العصمة والمتعة والحماية له. ومن مظاهر العصمة عدم جواز الخطأ عليه^(٤). ولا يجوز عليه الجنون. رؤياه وحى^(٥). وكل ما رآه فهو حق في اليقظة أو المنام^(٦).

وتمتد العصمة من الرسول إلى عليّ إلى فاطمة إلى كل ذريتهما. فالعصمة عند الشيعة ليست وقفاً على الرسول بل تمتد إلى الأئمة. ولماذا فضائل فاطمة على باقي بنات النبي؟ هل لأنها زوجة علي؟ هل لأنها أم الحسن والحسين؟ هل لأنها كانت أحب بنات الرسول إلى قلبه وهو ما قد يتنافى مع حب الأب لأولاده وبناته على قدم المساواة؟ ولماذا تفضيل بناته على زوجاته؟ ألم ينشئ ذلك غيرة بين فاطمة وعائشة؟ ولماذا تفضيل إحدى زوجاته؟ ألم ينشئ ذلك غيرة بين عائشة وخديجة المتوفاة أو بين عائشة وسائر زوجاته؟ ولماذا يؤثر الرسول صاحباً له، أبو بكر، أو صاحبيه، أبا بكر وعمر، على باقي أصحابه؟ والعصمة من الجنون. وتشاركه فيها الأنبياء، والعصمة في الاجتهاد ومن الخطأ^(٧).

(١) «لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم»، السابق ص ٩٠٠-٩١٠.
(٢) «إذا أحب الله عبداً ابتلاه لسمع تضرعه»، «إننا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء. إن كان النبي ليتلى بالقلم حتى يقتله، وإن كان ليتلى بالفقر، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء»، «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»، «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم. فمن رضي فله الرضا. ومن سخط فله السخط»، «من يرد الله به خيراً يصب منه»، «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا يكفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها»، «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم إلا كفر الله بها من خطاياها»، السابق ص ٩١١-٩٢٥.

(٣) السابق ح ١٥٠١-٥١٠.

(٤) الشفا ج ١/٤٨٨-٥٠٠، مثل عصمته من أبي جهل ومن الناس والمستهزئين والمشركين، الأسوة الحسنة ص ٧-٢٧.

(٥) الخصائص الكبرى ج ٢/٤٢١/ج ٢/٥٤٨.

(٦) السابق ج ٢/٥٤٨-٥٤٩.

(٧) النبي الأعظم ص ٦٧١، خصائص الرسول ص ٢٩٠/٢٩٥-١٩٦، «إننا أحكم بالظاهر»، ص ٢٩٦.

رابعاً - حقوق وواجبات الرسول الشرعية:

١ - حقوق الرسول الشرعية

وهي استثناءات من الأحكام الشرعية الخاصة بعامة المسلمين^(١). وهي ثلاثة: واجبات ومحرمات ومباحات، طرفان ووسط ثم كرامات تعادل المندوبات. ولا توجد المكروهات لأن النبي لا يفعل مكروها^(٢). وهي ما يسمى أيضاً «خصائص الرسول»^(٣). وهي قسمان: الأول ما اختص به عن سائر الأنبياء. والثاني ما اختص به دون أمته^(٤)، وهي ما تجعله متميزاً عن باقي المسلمين. يتأسى بها الصوفية والزهاد والعباد والنساك. ويجعلون الاستثناء قاعدة، والقاعدة استثناء. وهو ما يتناقض مع كون الرسول أسوة للاتباع حين جعلوا المندوبات من الواجبات، والمكروهات من المحرمات. وتسمى أيضاً ما اختص به من الفضائل والإكرام. وهناك بعض التساؤلات حول هذه الخصائص الشرعية أو الشرع الخاص. البعض منها أقرب إلى المندوب منه إلى الواجب مثل الضحى والوتر والتهجد والسواك. ولماذا من المحرمات الشعر والخط والزكاة وصدقة التطوع؟ والبعض عادات منها: الأكل متكئاً، وأكل الثوم والبصل والكراث. ولماذا من المباحات اصطفاء الغنيمة قبل القسمة، وإباحة القتال في مكة، والحكم لنفسه وولده، وإباحة المكوث في المسجد مع الجنابة، وأخذ الطعام والشراب ممن يحتاج إليهما، وإباحة تسع نسوة؟ وجواز أخذ الهدية دون غيره من الولاة؟ وهناك حقائق وليست فضائل أو كرامات مثل أنه خاتم النبيين وإعجاز القرآن. وهناك أخرى يناقضها الواقع مثل أن أمته أفضل الأمم، وأنه نصر بالرعب مسيرة شهر، وأحلت له الغنائم، وأعطى

(١) «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له ساعة من نهار»، خصائص الرسول ص ٧٠.

(٢) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٨٣-٤٩٢ «لا ينبغي أن أقول عند الرضا والغضب إلا حقاً»، ج ٢/ ٥٤٧-٥٤٨.

(٣) الفصول ص ٣٦٦-٣٦٨ الأول ما وجب عليه دون غيره. الثاني ما حرم عليه دون غيره. الثالث ما أبيح له دون غيره. الرابع ما اختص به من الفضائل دون غيره، السابق ص ٣٦٨.

(٤) «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي. نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم لم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، الوصول ص ٢٦٩، «أنا أول شفيع في الجنة»، ص ٣٧٦-٣٩٩.

الشفاعة. وهناك أخرى أقرب إلى الخيال الشعبي مثل أنه يرى من وراء ظهره أو أن بوله ودمه يتبرك بهما، وأن الأرض لا تأكل لحم الأنبياء، وأن كل نسب منقطع إلا نسبه^(١).

وللرسول خصائص عامة عن سائر الأنبياء، وما اختص به عن سائر الأنبياء وما اختص به عن أمته^(٢). وقد يكون واجبا أو مندوبا مثل عدم أكل الصدقة، والقبلة في الصوم، والزواج من غير مهر، والحكم بالباطن كما تقول الصوفية. وهو ما يتعارض مع عموم الشريعة. وفي السير الإصلاحيّة تعود خصائص الرسول في العبادات والمعاملات والحلال والحرام إلى خصائص الرسالة^(٣). وهي مشكلة الاستثناءات الشرعية وكأن الرسول بخصائصه المحمدية والذاتية والنبوية له شرعية خاصة، استثناء من الشريعة العامة^(٤).

وأحيانا تكون القسمة ثنائية: الضروري والمكتسب^(٥). الضروري ما ليس للإنسان فيه اختيار ولا اكتساب مثل أمور الجبلة والخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وخصائص اللسان وقوة الحواس والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزة القوم، وكرم الأرض، وما يرتبط بذلك من ضرورات الحياة من الغذاء والنوم والملبس والسكن والمال والجاه^(٦). أما المكتسب فالأخلاق العملية والآداب

(١) الواجبات مثل: الضحى، الأضحية، الوتر، التهجد، السواك، المشاورة، مصابرة العدو، قضاء الدين على من مات، تخيير نسائه. المحرمات مثل: الشعر، والخط، الأكل متكئا، أكل الثرم والبصل والكرات، عدم نزع لأمته حتى يلاقي العدو، إتمام التطوع، عدم حسد الناس، إمساك من كرهت نكاحه. المباحات الوصال في الصوم، اصطفاء ما أتبع من الغنيمة قبل القسمة، دخول مكة بلا إحرام، إباحة القتال فيها، القضاء بالعلم، الحكم والشهادة لنفسه ولولده، لا يتنقض وضوءه بالنوم، لمس المرأة، مكثه في المسجد، تسع نسوة، أخذ الطعام من مالكة إذا احتاج له، النكاح بالهبة، وبلا ولي ولا شاهد، تحريم خطبة من ينكحها. الفضائل مثل: تحريم تزوج أزواجه، زواجه أفضل النساء، نصر بالرعب، أحلت له الغنائم، أعطيت الشفاعة والمقام المحمود، أصحابه خير القرون، أمته أفضل الأمم، سيد ولد آدم، أول من يقرع باب الجنة، أعطي جوامع الكلم، صفوف أمته في الصلاة مثل الملائكة، لا ينام قلبه، يرى من وراء ظهره، لا يرفع أحد صوته عليه، لا ينادى باسمه، الإشارة ص ٤٤٤-٤٦١.

(٢) السيرة الخلية ج ٣/ ٤١٥-٤٣١.

(٣) سيرة النبي ج ٢/ ٨٨-١٢٠.

(٤) السابق ج ٣/ ٥٥٤-٥٨٢.

(٥) نور اليقين ١٩٨-٢١٤.

(٦) وتدخل فيها نظافة الجسم، وطيب ريحة العرق، وعورات الجسد، السابق ص ٢٠٠.

الشرعية مثل العلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجلود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة. وتدخل جميعها في حسن الخلق. هذا بالإضافة إلى فصاحة اللسان. وهو ما يدخل في الأذواق.

وعلى الرسول فروض أو واجبات. وثواب الفرض يزيد على النفل سبعين درجة. والحكم في الواجبات زيادة الدرجات زلفى^(١). وهي كثيرة: فقد كُلف الرسول بالعلم وحده مما كلفه الناس جميعاً^(٢). فالوحي علم، والنبوة معرفة. يقضي به لنفسه ولولده وقبول شهادة من يشهد له ولولده وقبوله الهدية بخلاف غيره من الحكام لأنه فوق شبهة تجاوز العدل. وبياح القضاء بعلم^(٣). وعليه قضاء دين من مات من المسلمين معسراً^(٤). ومشاورة ذوي الأحلام في الأمور. وهو ما انعكس أيضاً في القرآن وفي ضرورة أخذ رأي البكر^(٥). ومن واجباته الدفع بالتي هي أحسن أي الأسلوب الحسن في التغيير الاجتماعي حتى لا ينفر الناس^(٦). إذ يختص بحسن خلقه في النهي عن المنكر وتغييره دون خوف بخلاف غيره من الأمة^(٧). وفي حالة الإعجاب بشيء يقال «لييك إن العيش عيش الآخرة» حتى يحدث التوازن في الشعور بين الدنيا والآخرة، ولا يغترب في الدنيا أو في الآخرة^(٨). ومن واجباته الاستغفار لأنه كان يُغان على قلبه ويتوب في اليوم

(١) «فيما اختص به دون أمته من الواجبات والمباحات والمحرمات»، بهجة المحافل ص ٤٤٤-٤٤٦، «لن يتقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه»، «إن ثواب الفرض يزيد على النفل سبعين درجة»، السابق ص ٤٤٤.

(٢) خصائص الرسول ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥١٤، خصائص الرسول ص ١٧٢-١٧٤.

(٤) خصائص الرسول ص ١٠٣-١٠٥، «من ترك ما لا فلاهله الولي ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلى الوالي»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٨٧.

(٥) «البكر تستؤمر تطييباً لقلبها إلا أنه واجب»، خصائص الرسول ص ١٠٠، «ما رأيته أحداً من الناس أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٨٥.

(٦) خصائص الرسول ص ١٠٧.

(٧) الأسوة الحسنة ص ٤١٨، خصائص الرسول ص ١٠٢-١٠٣، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٨٧.

(٨) خصائص الرسول ص ١٠٦-١٠٧، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٩١-٤٩٢.

سبعين مرة^(١). ويختص لنفسه بالحمى وعدم نقضه^(٢). ويختص بقهر من شاء على طعامه وشرابه. وعلى المالك البذل وإن كان محتاجا. ويفدي بمهجته مهجة الرسول^(٣). فقضاء حاجته لها الأولوية على قضاء حاجات الآخرين على الرغم مما يبدو في ذلك من أثره، تفضيل النفس على الآخر. ومن الواجبات مصابرة العدو ولو كثر عدده^(٤).

وبالنسبة للمحرمات لا يجوز تحريم الصلاة على من عليه دين لأن الموت يجبه^(٥). الدين عرض، والحياة جوهر. ويباح له الصلاة بعد النوم من غير تجديد الوضوء. كما أن اللمس له لا ينقض الوضوء. ويباح له دخول المسجد جنبا^(٦). كما يباح له الصلاة بعد العصر، وحمل الصغير في الصلاة، والصلاة على الغائب، والصلاة بالناس وهو جالس، وإباحة الوصال. بالرغم من تحريمه على الآخرين^(٧). ويُحرم مد العين إلى ما متع به الناس حسدا من النفس. كما تحرم خائنة الأعين^(٨). ويحرم العطاء لأخذ أكثر منه، أي المن من أجل الاستكثار، الكرم في الظاهر، والجشع في الباطن^(٩).

وتنطبق أحكام الشرع الأربعة: الواجب والمحرم والمباح والمندوب على أحكام النكاح وحده، ما وجب عليه دون غيره، وما حرم عليه دون غيره، وما اختص به من الفضائل دون غيره^(١٠). ويحرم من كرهت نكاحه ورغبت عنه^(١١). ولا يجوز نكاح الحرة

(١) خصائص الرسول ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) «لا حمى إلا لله ورسوله»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥١٢.

(٣) «لا يقر من أحذكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين»، السابق ج ٢/ ٥١٨-٥١٩.

(٤) خصائص الرسول ص ١٠١-١٠٢، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٨٧.

(٥) خصائص الرسول ص ١٤٣-١٤٤، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٠٢.

(٦) خصائص الرسول ص ١٧٧-١٨٣، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٠٧.

(٧) «إياكم والوصال... إني لست مثلكم. إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٠٩.

(٨) خصائص الرسول ص ١٤٠-١٤٣ «إنه لا ينبغي لني أن يكون له خائنة الأعين» ص ١٤٢، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٩٣-٥٠٦. وفي القرآن ﴿وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

(٩) خصائص الرسول ص ١٤٥، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٠١.

(١٠) الفصول ص ٤٧٦-٤٩٨.

(١١) عندما قالت إحدى زوجاته «أعوذ بالله منك» قال: لقد عذت بعظيم، إلحقي بأهلك»، خصائص الرسول ص ١٤٦-١٤٧، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٠٢-٥٠٤.

الكتابية. في حين يحل التسري بالأمة الكتابية. أما نكاح الأمة المسلمة فين التحليل والتحرير^(١). ويُحرم نكاح المسلمة التي لم تهجر.

وبإباح له الجمع بين أكثر من أربع نسوة خالصة له من دون المؤمنين وهو استثناء من التشريع الجديد واستمرار لما كان سائدا قبل الإسلام. وانعقاد نكاحه بلفظ الهبة وهو ما يناقض الولاية، وجواز انعقاد النكاح بلا ولي ولا شهود فيه خلاف، وإباح تزوج المرأة بغير إذن وليها وتولي الطرفين ذلك اعترازا بشخصية المرأة المستقلة. وإباح للمرأة تزويج الله لها كما حدث لعائشة^(٢). ويجوز النكاح بغير ولي وشهود مما يدل على أن الولاية والشهادة غير ضرورية، وإذعان مرغوبته لينكحها، وهو ما يناقض استثمار البكر وإذنها، وانعقاد نكاحه بهال الإحرام وفيه روايات. ولا يجوز وجوب القسم عليه في زواجه وإنما كان الأمر تطوعا. وإباحة المرأة المعتدة، ضعف في الرواية. فالعدة لا استثناء فيها. وإباح الجمع بين المرأة أو خالتها أو عمتها وفيه اختلاف. ويجوز عتق المرأة وجعل عتقها صداقها. فالحرية أثنى من المال. ويجوز له الخلوة بأجنبية. وإباح له تزوج الجارية الصغيرة التي لم تبلغ كما حدث مع عائشة^(٣). وكانت أحب نسائه. زوجها الله له في السماء وباقي زوجاته تزوجن في الأرض. ولا يسألن أحد إلا من وراء حجاب. وزوجاته الأراامل محرمات على غيره أبدا على وجه الإكرام والتوقير والاحترام، وهن أفضل نساء الأمة^(٤). والسؤال هو: هل هذه استثناءات من القاعدة استنباطا أم تشريعا لواقع استقرار؟ والمرأة تحل له بغير عقد مما يدل على أن العقد أمر صوري محصن. ويحل له النكاح بلا مهر مما يدل على أن النكاح ليس تجارة. يكفي الرضا بالعيش المشترك

(١) «سألت ربي أن لا أزوج أحد من أمتي ولا أتزوج إلا كان معي في الجنة فأعطاني»، خصائص الرسول ص ١٤٧-١٥٣.

(٢) «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، «والبكر تستأمر»، «لا تنكح امرأة على عمتها ولا على خالتها»، خصائص الرسول ص ١٨٨-٢٢٢، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥١٩-٥٢٠.

(٣) «أريتك في المنام ثلاث ليل جاءني بك الملك في سرقة من حزير فيقول. هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي فأقول: أن يكن من عند الله يمضه»، «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

(٤) «فاطمة بضعة مني»، «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟»، «هي أفضل بناتي أصيبت في»، «إن في النساء أربع نيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم»، خصائص الرسول ص ٢٢٣-٢٥٥.

القائم على المحبة. ويباح له القسم لأزواجه. ويجوز له النكاح وهو محرم. ويختص بعق أمته، وجعل عتقها صداقها أي أن الحرية خير صداق للمرأة. ومن اختصاصه وجوب تخيير نسائه وإمساك مختاراته وتحريم طلاقها. ويباح له النظر إلى الأجنبية والخلو لأن النبي خارج الشبهة. ويباح له أن يزوج من شاء من النساء بمن شاء من الرجال بغير رضاهن ورضا آبائهن. يكفي ما معهن من القرآن وهو ما يتجاوز الاختيار الحر وما يعادل الخاطبة هذه الأيام. كما يختص بإنكاح الصغير تبريرا للزواج من عائشة. ويباح له في النكاح ما لا يباح لغيره. وهو استثناء يطعن في كون الرسول قدوة. كما لا ينحصر طلاقه في ثلاث، وأمته مارية لم تحرم عليه، ولا تلزمه كفارة لأنه مغفور له، وهو استثناء واضح. وقد ضحى عن أمته في حين لا يجوز ذلك لآخر إلا ياذن. كما أن أزواجه أمهات المؤمنين وقد كثرن. ويحرم رؤية أشخاص أزواجه في الإزار وستراهن مشافهة. ويجوز لأزواجه من بعده الجلوس في بيوتهن وتحريم خروجهن ولو لحج أو عمرة. وخير نسائه بين الدنيا والآخرة، بين أن يبقين معه في حياته وبعد مماته أو يسرحهن سراحا جميلا^(١).

وتحرم الإغارة وقت التكبير في حين أن في الإغارة تعلقو الصيحات بالتكبير. كما تحرم الاستعانة بالمشركين في حين أن الشرك قد يكون مصدر معلومات وقوة للمسلمين. والحرب خدعة. وتحرم الشهادة على الجور وهذا حكم مطلق لأن الإسلام ضد الظلم^(٢). ويباح القتال بمكة، والقتل بها، ودخولها بغير إحرام، والقتل بعد الأمان^(٣). ويباح له ما يصطفي من الغنيمة. ويباح الاستئثار بخمس من خمس الفى والغنيمة بأربعة أخماس الفى منفردا^(٤). وأيضا اصطفاء ما يختاره من الغنيمة قبل القسمة من جارية وغيرها. ولا تجب عليه الزكاة، ويباح له أخذ الطعام والشراب من مالكمها المحتاج إليها^(٥). وهو

(١) خصائص الرسول ص ١٠٩-١٢٤، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٨٨-٤٩١.

(٢) «فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٠٦.

(٣) «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس. فلا يحل لامرئ أن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها على شجرة. فإن أحدا ترخص بقتال رسول الله قولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥١٣-٥١٤.

(٤) خصائص الرسول ص ١٥٨-١٦٣، «لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم» ص ١٦٢/ ٢٦٠-٢٦١، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٠٧-٥٢٩.

(٥) «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ووالده وولده والناس أجمعين»، الخصائص الكبرى

ما يحتاج إلى مزيد من الشرعية، إباحة الحمى للنفس في إطار الشرعية، وأخذ الطعام والشراب ممن يحتاج إليه ينقصه التبرير إلا إذا كان عن إثارة وتفضيل الآخر على الذات. وأحلت له الغنائم له ولأمته. ويباح له اللعن لشيء من غير سبب يقتضيه وهو ما ينافي تعليل الأحكام^(١). وقد يصدر ذلك عن انفعال بشري. وبالرغم من أن من دخل المسجد فهو آمن إلا أنه يباح له القتل بعد الأمان^(٢). كما يجوز له أن يقتل من سبه أو هجاه^(٣).

ويباح له أن يستثني في كلامه بعد زمان منفصل نظرا لأولية تغير الزمان على ثبات القول^(٤). فأقوال الرسول تنسخ نفسها. والنسخ واقع في السنة كما هو واقع في القرآن. وهو ما يشجع المجتهد على أخذ تغير الزمن بعين الاعتبار بعد انقضاء أربعة عشر قرنا، ليس نسخا بل تأويلا واجتهادا. وليس في ذلك خروج على سنة الوحي. لذلك يجوز له الجمع في الضمير بينه وبين ربه بالرغم من رفض ذلك لغيره باعتباره إقلا من التزويه، وسوء أدب مع الله. فلا فرق بين القرآن والسنة، وكما يتوحد الرسول مع الله قد يتوحد المجتهد مع الرسول^(٥).

٢- واجبات الرسول الشرعية

إذا كانت حقوق الرسول الشرعية تمثل الاستثناءات من الشرع فإن واجبات الرسول الشرعية تمثل كيفية أدائه أركان الإسلام الخمسة^(٦). المحافظة على الصلاة، والخشوع فيها

جـ ٢/ ١٧٥-١٧٧.

(١) خصائص الرسول ص ١٨٣-١٨٧ «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه. فإنما أنا بشر. فأني المؤمنين أذيته أو شتمته أو لعنته فاجعلها له زكاة وصلاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»، «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر»، السابق جـ ٢/ ٥١٨.

(٢) «من دخل المسجد فهو آمن»، «أقتلوه»، السابق جـ ٢/ ١٨٧.

(٣) السابق جـ ٢/ ٥٢٩.

(٤) السابق جـ ٢/ ٥٠٩-٥١٠.

(٥) «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، «ومن يعصها فإنه لا يضر إلا نفسه»، «وهو ممتنع على غيره مثل: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصها فقد غوى»، وقول الرسول له: «بش الخطيب أنت. قل: ومن يعصي الله ورسوله»، السابق جـ ٢/ ٥١٠.

(٦) مثل وضوئه وغسله، ما كان يفعل قبلها، صلاته، مكثه في المصلى بعد الصلاة، السنن والرواتب وقيامه بالليل، قراءته في صلاة الليل، وتعوذه فيها، قصده في قيام الليل وذكره، تطوعه في النهار، فعله في السهو، قراءته وسجوده، صلاته في السفر والخوف، خطبته في الجمعة، فعله في العيدين، فعله في الخسوف،

هو ما اختص به دون أمته^(١). وكلها تدخل تحت العبادة. وهي العبادات المتكررات^(٢). وتدخل أحيانا ضمن أقواله القدسية^(٣). والعبادة دائما مدى الحياة والصبر عليها واجب على عكس ما يقوله الصوفية في التوكل والمقامات والأحوال. ولم يتبعه بشرع قبله إلا الحنيفية أي الدين الطبيعي والعمل الصالح هو جوهر العبادات. وتنقسم إلى عبادات وأخلاق ومعاملات^(٤). والمقصود منها كلها تأكيد الوجدانية وتحليلاتها في السلوك الإنساني دون ما حاجة إلى أشياء خارجية أو إلى وسيط أو إلى شكل خارجي أو إلى مكان، والاكتفاء بشهادة الإنسان روحا وبدنا. وقد تجاوزت العبادات القربان البشري، وأصلحت القربان الحيواني، وحرمت القرايين المشتركة كما هو الحال في الهدى وفي الأضحية في الحج. العبادة تهذيب للنفس وتجردها وترويض لها، وفي نفس الوقت عدم تكليفها بما لا يطاق، ورفض العزلة والانقطاع عن العالم. العبادة هو العمل الاجتماعي لخدمة الناس. هي زيارة المريض، وإطعام الجائع، وإسقاء العطش فالله عند المحتاجين والتقرب إلى الله من خلاهم. هو الإنفاق على الأهل، وأداء كل واجب^(٥).

ومن عاداته عيادة المريض والعزاء، وستته في لقاء الناس. وعامة أشغاله التي هي

في الاستغفار ونزول المطر، فعله بمن مرض من العيادة والدعاء، فعله بمن مات من الدعاء والصلاة عليه، صومه وفطره ووصاله، اعتكافه واجتهاده، حجه، ما كان يقوله إذا سافر، الأنوار ج ١/ ٣٦١-٤٠٤/ ٤٤٧-٤٥٦، لواحق الصلاة ص ٤٥٧-٤٦٨، سيرة المصطفى ص ٧٣-٨٢، عيادة الرسول، شمائل النبي ص ١٥٦-١٦٧، عبادته، شمائل الرسول ص ٦٧-٦٩ «حجب لي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، ص ٦٧ عبادته، المنح المحمدية ج ٤/ ٨٤-٥١، ج ٢/ ٤٠٥-٥١١، سوابق الصلاة، سيرة النبي، الصلاة، ص ٤٤١-٤٤٥.

(١) الفصول ص ٤٠٠-٤٧٥، المنح المحمدية ج ٤/ ٧-١٤، سيرة النبي ج ٢/ ٨٨-١٠٤/ ١٦٧-١٦٩.

(٢) في شمائله في العبادات المتكررات، بهجة المحافل ص ٥٣٠-٦١٢.

(٣) سيرة النبي ج ٥/ ٤٣٩-٥١٢.

(٤) السابق ج ٥/ ١٥-٢١.

(٥) «من قتل نفسه بشيء عذب به في نار جهنم»، السابق ج ٥/ ٣٦، «لا عقر في الإسلام» ج ٥/ ٣٩، «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» ج ٥/ ٤١، «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» ج ٥/ ٤٢، «يا عبد الله، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام» ج ٥/ ٤٣/ ٢٣-٦٤ «كل معروف صدقة»، «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل»، «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة...»، «إصلاح ذات البين»، ح ٥/ ٥٧-٥٨ في صفة عبادته وصلاته وصومه وقراءته، شمائل الرسول ص ٢٥٣-٢٧٤.

أقرب إلى العادات الاجتماعية، وما سماه القدماء سنة عادة^(١). ومن آداب اللقاء والزيارة إلقاء السلام^(٢). وكانت له عاداته وآدابه في السفر غير الصلاة والصوم^(٣).

أ- الطهارة

وكما هو الحال في الفقه تأتي الطهارة أولاً^(٤). وأولها الوضوء^(٥). ومنها الغسل^(٦). وكان يستعمل السواك ويتيامن في الحركة^(٧). يتهوع به ويتيامن في ظهوره وترجله وتنعله. والغربي الآن يتياسر في كل شيء مثل الأولوية للسير السريع. والمسح على الخفين أحد جوانب الوضوء^(٨). ووضوؤه وغسله تعليميان^(٩). ومنها ما قد يكون عاديين. وكانت عائشة تغتسل هي والنبى من إناء واحد، وكلاهما جنب. وكان يأمرها بأن تأتزر فيباشرها وهي حائض. وكان يخرج رأسه إليها وهو معتكف فتغسله وهي حائض. والحكم بطهر الماء لأنه لا ينجسه شيء حتى ماء بئر بضاعة التي كان يلقي فيها الحيض ولحم الكلاب والتتن^(١٠). ومن هنا تأتي أهمية الوضوء والغسل^(١١). ودخول الخلاء

(١) سيرة النبي ج٢/ ١٧٨-١٨١.

(٢) السابق ص ٤٠٨-٤١٦، «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» ص ٤١٠.

(٣) سيرته في السفر وفي الرجوع منه، الأسوة الحسنة ص ٤٩٢-٤٩٤، في آداب تتعلق بالسفر، ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٤) شمانه في طهارته ووضوئه وصلاته وزكاته وصيامه وحجه وأمره في سفره، الأسوة الحسنة ص ٤٩٦-٥٨٧، آدابه عند قضاء الحاجة ص ٤٩٨-٥٠١، إزالة النجاسة والمستقذر ص ٥٠١-٥٠٢، مسحه على الخفين والجباير ص ٥٠٤-٥٠٦، التيمم وصفة غسله ص ٥٠٦-٥٠٨، مع نسائه في الخوض ص ٥٠٨-٥٠٩، المنح المحمدية ج٤/ ١٧-٥٨، سيرة النبي ج٦/ ٣٩٤-٤٠٠.

(٥) المنح المحمدية ج٤/ ٣١-٤١، سيرة النبي ج٢/ ٨٨-٩٠.

(٦) سيرة النبي ج٤/ ٤٨-٥٨ «غسل يوم الجمعة واجب على كل مسلم»، ج٥/ ١٧٦.

(٧) الأنوار ج١/ ٢٧٦-٣٨٧، الأسوة الحسنة ص ٥٠٢-٥٠٣، خصائص الرسول ص ٩٥-٩٩، المنح المحمدية ج٤/ ١٧-٢٥ «لولا أن أشق على أمتي لأمرت بالسواك عند كل صلاة»، سيرة النبي ص ١٧٥.

(٨) المنح المحمدية ج٤/ ٣١-٤٥.

(٩) الأنوار المحمدية ج١/ ٣٦١-٣٦٧ «هكذا أمرني ربي» ج١/ ٣٦٤، المنح المحمدية، ج٤/ ٤٨-٥٨.

(١٠) السابق ص ٣٦٧، الفصول ص ٤١٧، «لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه سيتزل علي به قرآن أو نص» ص ٤١٨-٤٣٤، مازال جبريل يوصيني بالسواك حتى خشيت على أفراسي، ص ٤١٩.

(١١) بهجة المحافل ص ٥٣٠-٥٣٤.

تعليمي في بيئة بدوية تتعلم كيفية الاستنجاء والاستطابة أي تنظيف فتحة الشرج. كان الرسول لا يراه أحد. ويدعو عندما يدخل الخلاء. وإذا خرج قال «غفرانك»، يخلع خاتمته لأنه منقوش عليه «محمد رسول الله»^(١). وكانت للرسول عادات قبل الوضوء والغسل. ينام وهو جنب، ويتوضأ للصلاة^(٢). ومعظم الروايات عن عائشة، والمسلم لا ينجس حتى إذا كان جنباً. وكانت عائشة تشرب وهي حائض. وتناول القدح للنبي. تتعرق العرق ويتناوله فيضع فاه على موضع فيها^(٣). وقد طاف على نسائه في غسل واحد^(٤). يأكل بعد أن يرجع من الغائط دون وضوء لأن الطعام غير الصلاة^(٥). والتميم في الصحراء لندرة المياه. والماء اليوم وفير إلا في حالات قليلة. والتميم بدل الوضوء. فالأرض طهور^(٦). التيمم إذا لم يوجد الماء لأنه الآن طهور^(٧).

ويختص بالصلاة في النعلين. فدقء القدمين واجب مثل الصلاة خاصة في البلاد الباردة في شمال آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية. وذلك أيضاً مخالفة لليهود^(٨).

ب- أركان الصلاة

والصلاة هي الركن الأول في العبادة بعد التوحيد. هي جوهر الدين. حقيقتها التقوى. وهدفها إعلان التوحيد العملي، التطوع قبل المكتوبات وبعدها. وهي فرائض وتطوع، وهي أكبر الموضوعات في الشرائع^(٩).

وحبب إليه من الدنيا ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرعة عينه في الصلاة. فالطيب

(١) «اللهم أني أعوذ بك من الخبث والخبائث»، الأنوار ج١/ ٣٧٣-٣٧٥.

(٢) السابق ج١/ ٣٦٨.

(٣) «سبحان الله أن المسلم لا ينجس»، السابق ص ٣٧٠.

(٤) السابق ص ٣٧١.

(٥) «لم أصل فأترضاً»، السابق ص ٣٧٢، وضوؤه وصفته، الأسوة الحسنة ص ٥٠٣-٥٠٤.

(٦) جعل الأرض كلها مسجداً، والتراب طهوراً. وهو التيمم بالوضوء، الخصائص الكبرى ج٢/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٧) المنح المحمدية ج٣/ ٤٦-٤٧، بهجة المحافل ص ٥٣٠-٥٣٤.

(٨) «صلوا في نعالكم، ولا تشبهوا اليهود»، «خالقوا اليهود فإنهم لا يصلون في خفافهم ولا نعالهم»، الخصائص الكبرى ج٢/ ٤٣٠.

(٩) الأسوة الحسنة ص ٥٣٠-٥٣٣، المنح المحمدية ص ٦١-٦٣.

هو الجذب نحو الآخر. والنساء التوحد معهم جسدياً وروحياً. والصلاة قرّة العين وإكمال رغبات البدن والنفس إلى الروح^(١). ومطالب البدن والنفس في مقابل طلبات الروح، الصلاة. الصلاة إيمان وصدق وتقوى ووجود الآخر مع الأنا والأنا مع الآخر. ومع ذلك يترك ما فيه ريب وشك للابتعاد عن الشبهة طلباً للأمن وتجنباً للمخاطر^(٢).

وتبدأ الصلاة بالأذان والإقامة. الأذان للإعلان، والإقامة للنداء والصلاة لها افتتاح، قراءة البسملة والفاتحة. والقراءة بعد الفاتحة في الظهر والعصر والمغرب والعشاء. والركوع والسجود والجلوس للشهادة والتسليم، والقنوت^(٣). بداية ونهاية^(٤). وهناك آداب دخول المسجد والمكوث فيه والخروج منه. تحيته حين الدخول وكراهية تخطي الرقاب^(٥). ومن آداب المصلي عدم البصق أمامه لأن الله أمامه رمزاً^(٦). ويقال في الصلاة: ربنا لك الحمد والبشكر اعترافاً بنعمه^(٧). وهو موضوع حسد اليهود لأنهم لا يحمدون ولا يشكرون مهما أعطوا من النعم. ومن كراماته أن المصلي يخاطبه بقول سلام عليك أيها النبي. ولا يخاطب سائر الناس. وتجب عليه إجابته إذا دعاه وإلا تبطل صلاته^(٨).

وللتكبير وقراءة الفاتحة سنن. فالملائكة تؤمن لقراءة الإمام. فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وكان الأمر مصادفة لا قصد، والأعمال بالنيات^(٩). والسكته بعد التأمين ندب^(١٠). والقراءة عقب الفاتحة قصيرة لأن الناس فيهم الصغير

(١) «حب إلى الطيب والنساء جعلت قرّة عيني في الصلاة»، شمائل الرسول ص ٦٧-٦٩.

(٢) «دع ما يريك إلى ما لا يريك»، السابق ص ٦٨.

(٣) المنح المحمدية ج ٤ / ٧٠-١٤٨.

(٤) الأسوة الحسنة ص ٥١٠-٥١٢، الخصائص الكبرى ج ٢ / ٤٢٩.

(٥) «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون. عليكم السكينة. فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»، معين الشمائل ص ٣٢٥-٣٢٧.

(٦) «إذا كان أحدكم يصلي فلا يصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى»، السيرة النبوية ج ٥ / ٨٣.

(٧) «لم تحسدنا اليهود بشيء حسدنا بثلاث: التسليم، والتأمين، واللهم ربنا لك الحمد»، الخصائص الكبرى ج ٢ / ٤٣٠.

(٨) السابق ج ٢ / ٥٣٨.

(٩) «في سنن التكبير وقراءة الفاتحة»، إن الملائكة تؤمن لقراءة الإمام. فمن وافق قوله الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»، بهجة المحافل ص ٥٤٩-٥٥٠.

(١٠) السابق ص ٥٥٠.

والكبير والضعيف والمريض وذو الحاجة. أما إذا صلى الإمام وحده فليقل ما يشاء. فالصلاة باسم الجماعة^(١). في الظاهر حركات بدينية. لها أركان وترتيب^(٢). بها الركوع والسجود. وهما علامتان على التواضع والطاعة^(٣). والدعاء بعد الصلاة للطلب والاستجابة. ومن الأفضل أن تكون جماعية بين الإمام والمصلين حتى لا يستأثر الإمام بدعوة دونهم. الركوع إعلان للطاعة، والسجود تحقيق لها. وعند آية السجدة يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ماداً كل كلمة ما عدا الله^(٤). يدعو في سجود القرآن بالليل^(٥). يمكن في مصلاه. ويذكر الله بعد السلام^(٦). وله دعاؤه وأذكاره بعد الصلاة^(٧). وفي نفس الوقت يجوز له المكث في المسجد جنباً وبعد انتقاض وضوئه بالنوم مضجعاً وباللمس في أحد الوجهين^(٨). آدابه بعد السلام، الدعاء والافتداء بالإمام^(٩).

والصلاة على خمسة أنواع، صلاة الفرائض، وصلاة النوافل، والصلاة في السفر،

(١) القراءة بعد الفاتحة وما يتدب فيها، بهجة المحافل ص ٥٥٠-٥٥١، «إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض وذو الحاجة. فإذا صلى وحده فليصل كيف يشاء»، السابق ص ٥٥٠، المنح المحمدية ج ٤/ ٨٥-٨٩.

(٢) سيرة النبي ج ٥/ ٩٠-٩٩.

(٣) بهجة المحافل ص ٥٥٤-٥٦٤ «لا يؤم عبد قوماً فيخص نفسه بدعوة دونهم. فإن فعل ذلك فقد خانهم»، السابق ص ٥٦٢، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٢٩-٤٣٠، المنح المحمدية ج ٤/ ٩٨-١٠٦.

(٤) الأنوار ج ٢/ ٤٤١-٤٤٧.

(٥) «سجد وجهي للذي خلقه وثنى سمعه وبصره بحوله وقوته»، السابق ص ٤٤٦.

(٦) «كان يقول اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام». وأيضاً «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، وأيضاً «لا إله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون»، الأنوار ج ٢/ ٤٠٦-٤٠٨. سيرته في المسجد، الأسوة الحسنة ص ٥١٢-٥١٥.

(٧) الأسوة الحسنة ص ٥٢٨-٥٢٩، الدعاء بعد السلام ص ٥٢٩-٥٣٠، المنح المحمدية ج ٤/ ١٤٩-١٥٤، «الدعاء من العبادة»، سيرة النبي ج ٥/ ٨٠، سيرته في الشدة، الأسوة الحسنة ص ٥١٥-٥١٦، المنح المحمدية ج ٤/ ١٤٩-١٥٥.

(٨) «لا يجل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك (علي)»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥١٦-٥١٨.

(٩) الأسوة الحسنة ص ٥٢٦-٥٢٨، المنح المحمدية ج ٤/ ١١٧-١٣٣-١٥٤.

وصلاة الخوف، وصلاة الجنازة^(١). وهناك صلاة الوتر^(٢). وقد يكون أحب من الزوج لأن الله واحد. وكيف تتفاضل الصلوات الخمس فيما بينها؟ فصلاة بعد الظهر تفتح أبواب السموات ويرفع فيها العمل الصالح. وأربع قبله وأربع بعده تنجي من النار^(٣). ولماذا صلاة الوتر أحب صلاة إلى الله؟ هل لأن الوتر يحب الوتر؟ وماذا عن الزوجين، آدم وحواء والنبي وصاحبه، والوالدين والولين؟

وكان يصلي صلاة السهو^(٤). وهي سجدتان بعد التسليم، ومن كراماته اختصاصه بصلاة الخوف^(٥). وصلاة الاستسقاء ضرورية في الصحراء كإحدى الوسائل النفسية للحصول على الماء، والصبر على الجفاف^(٦). وقد فرد الرسول ثوب أعرابي حتى يهطل فيه المطر لأنه حديث عهد بربه^(٧). وفي صلاة العيادة والدعاء مساعدة نفسية للمريض بالإضافة إلى الدواء^(٨). والدعاء للمريض بالشفاء، وإتمام الهجرة^(٩). وكان الرسول يعوذ المريض بأقوال^(١٠). وهو مازال سائدا حتى اليوم. والصلاة للميت والدعاء له^(١١).

(١) المنح المحمدية ج٤/ ٥٩-٣١٠، كيفية الصلاة ص ٧٠-١٣٣، سيرة النبي ج٢/ ٩٠-٩٦/ ١٧٣-١٧٤، ج٥/ ٦٥-٢٠١.

(٢) المنح المحمدية ج٤/ ٢٠٢-٢٠٩ «يا أهل القرآن أوتروا فإن الله وتر يحب الوتر»، سيرة النبي ج٥/ ١٥٥، في صفة عبادته وصلاته. شئنا الرسول ص ٢٥٥-٢٦٤، «ثلاث هن علي فرائض وهي لكم تطوع: النحر، والوتر، وركعتا الضحى»، الفصول ص ٤٣٥، «ثلاثة علي فريضة وهي سنة لكم: الوتر، والسواك، وقيام الليل»، ص ٤٤٧، «صلاة الفريضة»، الأسوة الحسنة ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٣) «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السموات، وأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»، «من حافظ علي أربع قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله علي النار»، «من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بنى له بهن بيتا في الجنة»، «إن الله تعالى وتر يحب الوتر»، بهجة المحافل ص ٥٦٤-٥٦٧، الخصائص الكبرى ج٢/ ٤٢٦-٤٢٧، المنح المحمدية ج٤/ ٢٠٢-٢٠٩.

(٤) الأنوار ج٢/ ٤٣٩-٤٤١، المنح المحمدية ج٤/ ١٣٤-١٤٨.

(٥) الخصائص الكبرى ج٢/ ٥٤٥، المنح المحمدية ج٤/ ٢٩٣-٢٩٨.

(٦) الأنوار ج٢/ ٤٦٢-٤٦٤، الأسوة الحسنة ص ٥٤٢-٥٤٣، المنح المحمدية ج٤/ ٢٦١-٢٧٩.

(٧) «إنه حديث عهد بربه»، السابق ص ٤٦٤.

(٨) الأنوار ج٢/ ٤٦٤-٤٧٠، الأسوة الحسنة ص ٥٤٣-٥٤٤.

(٩) «اللهم رب الناس أشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما»، السابق ص ٤٦٨.

(١٠) كان الرسول يعوذ الحسن والحسين بقوله «أعذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة... هكذا كان أبي إبراهيم يعوذ لبنيه إسما عيل وإسحق»، السابق ص ٤٦٩.

(١١) الأنوار ج٢/ ٤٧٠-٤٧٣.

إذا قبض الروح تبعه البصر. ولا يدعي للميت إلا بالخير لأن الملائكة تؤمن على ما يقال، والدعاء بالمغفرة ورفع الدرجات، والخلف في الذرية، وإفساح القبر وإنارته^(١). وصياغة أخرى الدعوة بالمغفرة والرحمة والعافية والعفو وإكرام المنزل، وتوسيع المدخل، والغسل بالماء والثلج، والتقية من الخطايا، وإبدال الدار غير الدار، وأهلا غير الأهل، وزوجا غير الزوج، وإدخال الجنة، والعود من عذاب القبر، وعذاب النار^(٢). وهي كلها أماني يتمنى أي إنسان تحقيقها «حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت». وكان الرسول يدعو لشهداء البقيع كلما مر عليهم^(٣). وهناك صلاة الجنائز، عدد تكبيراتها والقراءة والدعاء فيها، والصلاة على القبر والصلاة على الغائب^(٤). وكان للرسول صلاته في السفر والخوف نظرا لما كان في الأسفار من مخاطر^(٥). كان يقصر الصلاة. يجمع ويقصر. ويؤجل النوافل والتطوع حين السفر على الدابة. وهناك صلاة لحفظ القرآن، وصلاة التسبيح^(٦). وهي الصلاة طبقا لموضوعها وغايتها.

ج- أوقات الصلاة

وللصلاة أوقاتها من أجل الإحساس بالزمن، واستحقاق الفعل فيه^(٧). ولها كيفيتها^(٨). فمتى فرضت الصلاة؟ ولكل صلاة وقتها للتأكيد على تحقيق الأفعال في أوقاتها خمس مرات يوميا على الأقل ارتباطا بإيقاع النهار: طلوع الشمس والشرق،

(١) «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»، «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»، «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهددين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره ونور له فيه»، السابق ص ٤٧٠.

(٢) «اللهم اغفر له وارحمه؛ وعافه واعف عنه، وأكرم نزله. ووسع مدخله، وأغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجته، وأدخله الجنة، وأعفه من عذاب القبر أو من عذاب النار»، السابق ص ٤٧٣.

(٣) «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأناكم ما توعدون غدا مؤجلون»، «وإنا وإن شاء الله بكم لاحقون. اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقدة»، السابق ص ٤٧٣.

(٤) المنح المحمدية ج٤/ ٢٩٩-٣١٠.

(٥) الأنوار ج٢/ ٤٤٧-٤٥١، الأسوة الحسنة ص ٥٣٧-٥٤٠، المنح المحمدية ج٤/ ٢٨٠-٢٩٢، سيرة النبي ج٢/ ١٧٦.

(٦) بهجة المحافل ص ٥٨٢-٥٨٤.

(٧) المنح المحمدية ج٤/ ٦٢-٦٩، سيرة النبي ج٥/ ١١٠-١٤١.

(٨) المنح المحمدية ج٤/ ٧٠-١٣٣.

والضحى والظهر، والعصر، والغروب، وفي الليل، وليس أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، وأول الليل وآخره، وأحب الأعمال أدومه وإن قل^(١). وهناك نوافل مقرونة بالآزمات مثل صلاة العيدين^(٢). واختص الرسول بالصلوات الخمس، ولم تجمع لأحد من قبل. وهو أول من صلى العشاء، ولم يصلها نبي قبله^(٣). وأفضل الصلاة يوم الجمعة، يوم العطلة الرسمية، واللييلة الزهراء واليوم الأزهر^(٤). والدعاء مستمر في حياة الإنسان في البداية والوسط والنهاية وليس مرة واحدة كشارب القدح. يشرب ما فيه ثم يضعه في الركب. وكانت له خطبته في الجمعة^(٥). وفي الخطبة يذكر بالساعة^(٦). وكلما كانت الصلاة مبكرة كان فضلها أعظم. وفرق بين فضلها في الساعة الأولى، كالبدنة وفضلها في الساعة الأخيرة، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد^(٧). واختص الرسول مع صلاة الجمعة بالتأمين، واستقبال الكعبة، والصف في الصلاة كصف الملائكة، وتحية السلام^(٨). ويمكن تأخير بعض الصلوات مثل تأخير صلاة العشاء، وتعجيل العصر

(١) إذا صليتم الفجر فإنه وقت إلى أن يطلع الشمس الأول، ثم إذا صليتم الظهر فإنه وقت إلى أن يحضر العصر. فإذا صليتم العصر فإنه وقت إلى أن تصفر الشمس. فإذا صليتم المغرب فإنه وقت إلى أن يسقط الشفق. فإذا صليتم العشاء فإنه وقت إلى نصف الليل، سيرة النبي جـ ١٣٩-١٤٠، «ليس أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء»، جـ ١٧٩/٥، «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»، جـ ١٨٥/٥.

(٢) السابق جـ ٢٢٢/٤-٢٤٨-٢٣٧.

(٣) الخصائص الكبرى جـ ٢/٤٢٦-٤٢٧.

(٤) «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، أكثر من الصلاة علي في الليلة الزهراء واليوم الأزهر. فإنهما يؤديان عنكم»، «لا تجعلوني كقدح الراكب فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه. فإن احتاج إلى شراب شربه أو الوضوء توضأ وإلا أهرقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره»، بهجة المحافل ص ٦٢٧-٦٣١، المنع المحمدية جـ ١٥٥-١٧٧.

(٥) الأنوار جـ ٢/٤٥١-٤٥٥، الأسوة الحسنة ص ٥٣٣-٥٣٧، المواهب اللدنية جـ ١٥٥-١٧٧.

(٦) «صبرتمكم أو مستكم الساعة... بعثت أنا والساعة كهاتين... خير المهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»، الأنوار جـ ٢/٤٥٣.

(٧) «وقت صلاة الجمعة واستحباب التكبير بها»، «ما من ثلاثة في قرية ولا بلدة لا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان. فعليكم بالجماعة فإننا يأكل الذئب القاصية من الغنم»، «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صام الليل كله»، بهجة المحافل ص ٥٧٠-٥٧٢.

(٨) الخصائص الكبرى جـ ٢/٤٢٧-٤٢٨.

والمغرب^(١). ويمكن أيضا الجمع بين الصلوات في السفر، جمع تقصير أو جمع تأخير^(٢). وهناك صلاة الضحى، فضلها ووقتها، وأقلها وأكثرها^(٣). وهناك صلاة الظهر التي تفتح عندها أبواب السماء حتى زوال الشمس^(٤). ويجوز التنفل بعد صلاة العصر^(٥).

وكان الرسول يتطوع بالنهار فيما لا يطيقه غيره^(٦). يصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس^(٧). وتطوعه قاعدا كتطوعه قائماً في نوافل الصلاة. ومن كراماته النافلة أي زيادة لطلب الثواب^(٨). يقرأ في صلاة الليل ويقعد فيها^(٩). له دعاء عند التسليم^(١٠). وهو القنوت^(١١). وكان يتهجّد^(١٢). يقصد قيام الله وذكر الله^(١٣). وكان ذكره أقرب إلى ذكر الصوفية^(١٤). تختلط فيه المواجهات بالأشكال الأدبية. وإذا كان الرسول يفعل ذلك

(١) الأسوة الحسنة ص ٥٠٩-٥١٠، المنح المحمدية ج٤/ ٦٧-٧٩، سيرة النبي ج٥/ ١١٠-١٣٤.

(٢) سيرة النبي ج٥/ ١٢٧-١٣٤.

(٣) «ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»، بهجة المحافل ص ٥٨٩-٥٨٧، إن صليت الضحى اتيت عشرة ركعة بنى الله لك بيتاً في الجنة، «أمرت بركعتي الضحى ولم تؤمروا بها»، خصائص الرسول ج٤/ ٢١٠-٢١٩، المواهب اللدنية ج٤/ ٢١٠-٢١٩.

(٤) «إن أبواب السماء تفتح عند زوال الشمس فلا تريح حتى تصلي الظهر. فأحب أن يصعد لي في تلك الساعة خير»، «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»، شمائل النبي ص ١٦٧-١٧٠.

(٥) «كنت أصليها قبل العصر فصليتها الآن»، خصائص الرسول ص ٢٨٨-٢٩٠.

(٦) الأنوار ج٢/ ٤٣٣-٤٣٩.

(٧) «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء. فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»، السابق ص ٤٣٤، «قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد. فلأن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة»، شمائل النبي ص ١٧٠-١٧١، خصائص الرسول ص ١٠٧-٢٧٢.

(٨) الخصائص الكبرى ج٢/ ٥٣٧.

(٩) الأنوار ج٢/ ٤٢٥-٤٣٠، خصائص الرسول ص ٨٧-٩٤.

(١٠) «سبحان الله الملك القدوس»، ثلاث مرات، الأنوار ج٢/ ٤٣٠، المنح المحمدية ج٤/ ١٧٨-٢٠١.

(١١) بهجة المحافل ص ٥٦٧.

(١٢) «يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة. فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة»، السابق ص ٥٨٥-٥٨٧.

(١٣) الأنوار ج٢/ ٤٣٠-٤٣٢.

(١٤) «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، إليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»، السابق ص ٤٣١.

فما بال عامة المسلمين؟ يفتح الصلاة من الليل بذكر آخر^(١). ويدفع الشيطان إلى النوم بأن يعقد على الإنسان كي يرقد طيلة الليل. فإذا ما استيقظ انحلت عقدة، فإن توضع انحلت ثانية، فإن صلى انحلت العقد كلها. ونشط وإلا تكاسل. ويكره قيام الليل كله. والأفضل تخصيص ليلة واحدة هي ليلة الجمعة^(٢). وصلاة خسوف الشمس إطالة القيام والركوع والسجود^(٣). وله دعاؤه^(٤). وهي ظاهرة طبيعية لا شأن لها بالخوف أو الفزع أو الأهواء البشرية. ويكره الصلاة في المحراب. فالصلاة لا مكان لها على خلاف صلاة النصارى واليهود^(٥). الصلاة في الزمان وليست في المكان.

د- صلاة الروح

والصلاة ليست كهانة. الصلاة والطيب والنساء وحدة واحدة. تبدأ بالنساء ولا حرج، فالحب رمز الوحدة. والطيب جذب وعشق. ويتم ذلك كله باسمه الروح^(٦). فالصلاة اسم موحد للعبادة^(٧). والصلاة الباطنية أي التفكير هي العبادة، عبادة أولي

(١) اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفت فيه من الحق بأمرك. إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، السابق ص ٤٣١-٤٣٢، صلاة الليل، بهجة المحافل ص ٥٧٢-٥٧٦، عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم. وهو قربه لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم، «من صلى في ليلة براءة آية لم يكتب من الغافلين. ومن صلى في ليلة بآئتي آية فإنه يكتب من القانتين المخلصين»، «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود. كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»، «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد. يضرب على كل عقدة مكاناً: عليك ليل طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلاناً»، ذلك رجلي بال الشيطان في أذنيه، السابق ص ٥٧٥.

(٢) «لم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟... فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم»، «لا تنحصر ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي. ولا تنحصر يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم»، السابق ص ٥٧٧.

(٣) الأنوار ج ٢/ ٤٦٠-٤٦٢، الأسوة الحسنة ص ٥٤٢-٥٤٣، المنح المحمدية ج ٤/ ٢٤٩-٢٦٠.

(٤) «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وتصديقاً»، السابق ص ٤٦١.

(٥) «لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمنذابح النصارى»، الخصائص الكبرى ص ٤٣١-٤٣٢.

(٦) سيرة النبي ج ٥/ ١٠٤.

(٧) السابق ج ٥/ ٨٩-٩٠.

الألبياب، التفكير مع الخشية، عبادة القلب^(١). الصلاة فعل روحي للتسبيح. والتكبير قراءة القرآن ليس فيها شيء من كلام الناس^(٢). وهي القنوت، والخشوع، والتبتل، والتضرع، والإخلاص، والذكر، والفهم، والتدبیر.

الصلاة أذان وإمام^(٣). والأذان إعلان، والإمام قيادة والتخفيف على الناس. ففيهم السقيم والضعيف والكبير وإذا صلى أحد بنفسه فليطول ما يشاء^(٤). الصلاة ميزان للتفاضل وإحساس بالعدل، وفعل جماعي بالناس، مصلين وغير مصلين، كبارا وصغارا، شيوخا وضعفاء، وأطفال، وتأديتها كاملة، كفعل شرعي وفعل روحي^(٥).

وصلاته مثل وضوئه تعليمية^(٦). تجمع بين الروايات والأقوال المباشرة. وله أقوال خاصة إذا قام إلى الصلاة أو كبر. تجمع بين القرآن والحديث^(٧). وهي طويلة لا تستطيع الذاكرة استيعابها كحديث. والسؤال هو: هل هذا وحي مباشر أو غير مباشر أو من

(١) معين الشرائع ص ٤٣٠-٤٣٩.

(٢) «إن هذه الصلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس. إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، الأنوار ج ١/ ١٩٦، المنح المحمدية ج ٤/ ٥٩-٣١٠، سيرة النبي ج ٥/ ٧٩/ ٨٨/ ١٥٧-١٧٢.

(٣) وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لهم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم، الأنوار ج ١/ ٢٠٦.

(٤) السابق ج ١/ ٢٠٧ «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٥) «الصلاة مكياج فمن أوفى به، ومن طفف فقد علمتم ما للمطففين»، سيرة النبي ج ٥/ ١٧٧، خصائص الرسول ص ١٠٧.

(٦) الأنوار ج ١/ ٣٧٨-٤٠٤، شرائع النبي ص ١١٥-١١٦.

(٧) حين القيام للصلاة: «وجهي وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»، «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت. أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي. فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق. لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك، والخير كله في يديك. أنا بك وإليك. تباركت وتعاليت. أستغفرك وأتوب إليك»، وحين الركوع «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري وخي وعظمي وعصبي»، وحين الرفع «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، ملأ السموات والأرض وما بينهما وملأ ما شئت من شيء بعد». وحين السجود «اللهم لك سجدت وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه فصوره فأحسن صورته وشق سمعه وبصره، وتبارك الله أحسن الخالقين. وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»، الأنوار ج ١/ ٣٨٦-٣٨٧.

إبداع الرسول من جوامع الكلم؟ وهي كلمات طويلة لا يقدمها أحد الآن في الصلاة، قياما وقعودا وسجودا وركوعا. وله تكبيرات أخرى حين القيام بالله^(١). وله صياغات أخرى قصيرة هي التي استمرت حتى الآن^(٢). للركوع والسجود دلالات رمزية عن التواصل. والصلاة فيها شفاء للنفس وراحة لها من الغضب وانفعالات اليوم^(٣). لذلك جعلت قرعة عينيه في الصلاة أي رضاه وسكينة^(٤). وإذا كان الجائع يشبع، والعطش يروي فإن الرسول لا يشبع من حيث الصلاة. وهي حضور القلب، وليست فقط حركات البدن.

الصلاة تطهير للقلب وعود النفس إلى حالتها الطبيعية. فالعبادة هي العبادة القلبية^(٥). هي الذكر والدعاء^(٦). وفي مقدمتها التقوى. وهي هدف كل الأوامر الشرعية. إذ يفوز المتقون بكل النعم الأخروية. وهم أحباب الله، مشرفون بحديثه، يتقبل الله منهم. وهي

(١) «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا غيرك»، «لا إله إلا الله "ثلاثا"»، «الله أكبر كبيرا، ثلاثا»، «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفته ونفخه». السابق ص ٣٨٧-٣٨٨، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»، بهجة المحافل ص ٥٤٦.

(٢) في الركوع «سبحان ربّي العظيم»، وفي السجود «سبحان ربّي الأعلى» وفي الركوع والسجود «سبح قدوس رب الملائكة والروح»، السابق ص ٣٩٧، وإذا رفع رأسه من الركوع «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجند منك الجند، السابق ص ٣٩٩، وفي السجود «اللهم اغفر لي ذنبي كله، وقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره»، السابق ص ٤٠٠، وبين السجدين «اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني»، السابق ص ٤٠٢، والدعاء في الصلاة «اللهم أني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم أني أعوذ بك من المأثم والمغثم»، السابق ص ٤٠٢.

(٣) «قم فصل، فإن في الصلاة شفاء»، «وجعلت قرعة عيني في الصلاة»، «الجائع يشبع، والظمآن يروي، وأنا لا أشبع من حب الصلاة»، «أقم الصلاة يا بلال وأرحنا بها»، «لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه»، بهجة المحافل ص ٥٣٦.

(٤) «أرايتم لو أن نهرا يباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خسا ما يقول: ماذا يبقى من وزره؟... كذلك مثل الصلاة الخمس يمحو الله بها الخطايا»، سيرة النبي ج ٨٥/٥ «ألا وإن في الجسد مضغ، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، ج ٣٩٨/٥.

(٥) السابق ج ٣٨٩/٥-٤٣٤.

(٦) «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الولد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»، معين الشائيل ص ٤٤٥-٤٤٩.

أم الفضائل. تشمل الإخلاص، والتوكل، والصبر، والعفو، والثبات، وضبط النفس، وتحمل المشاق، وأداء الواجبات، وعدم المبالاة بالصعاب، والشكر. والصلاة تنبج على الوجه الأكمل في طمأنينة واستيفاء دون تسرع واستعجال. ولا تكون مسروقة. وسرقة الصلاة سرقة. وهي لله وليست للناس^(١). تطرد الوسواس بالتعوذ منه والبصق على اليسار^(٢). وهو شيطان له اسم معين. الصلاة صلاة القلب. والتسبيح والشعور بالحضور الإلهي كما يقول الصوفية، التسبيح في الركوع والسجود^(٣). والتأكيد على سماع الله. التسبيح في الاعتدال^(٤). هي مناجاة بين الإنسان والله وليس ادعاء وطلبًا للثناء والمدح من أحد^(٥).

كانت الصلاة، كما أداها السلف الصالح، دليلاً على النظام واستواء الصفوف، والجماعة دون الاختلاف^(٦). وصلاة لا نفع منها مثل كثر يجمعه صاحبه دون إنفاقه^(٧). لها أخلاق تهذيبية للفرد والجماعة^(٨). ستر العورة، الطهارة، تنظيم الوقت، التبكير، خشية الله، الفطنة، علامة مميزة للمسلمين. دحض الباطل والدفاع عن الحق واجب على الإنسان إتمام مكارم الأخلاق، الألفة والمحبة، المواساة، الاجتماع، التنوع في الأعمال، تنسيق الجماعة، المساواة، الإطاعة، معيار الأفضلية، اجتماع عمومي يومي، أحدثت تحولاً تاماً للعرب. صلاة الجماعة إعلان عن العمل المشترك^(٩).

(١) «إن أقبح السرقة الذي يسرق صلاته»، «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها إذا خلا فذلك استهانة استهان بها ربه»، «الصلاة ميزان فمن أوفى استوفى»، «يا فلان ألا تحسن صلاتك؟» «ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي؟ فإنها يصلي لنفسه»، بهجة المحافل ص ٥٣٩-٥٤٠.

(٢) «ذلك شيطان يقال له خنزب. فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً»، السابق ص ٥٤٨، صفة صلاة الرسول، الأسوة الحسنة ص ٥١٦-٥٢٥.

(٣) «ندب السكينة عقب القراءة وما يندب في الركوع». بهجة المحافل ص ٥٥١-٥٥٢.

(٤) «ما يندب في الاعتدال»، السابق ص ٥٥٢-٥٥٣.

(٥) «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»، سيرة النبي جد ١٠٤/٥.

(٦) «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»، «عباد الله لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم»، بهجة المحافل ص ٥٤٠-٥٤٨.

(٧) «علم لا يعمل به ككثر لا يُتفق منه أنعب صاحبه نفسه في جمعه ثم لم يصل إلى نفعه»، السابق ص ٥٥١.

(٨) سيرة النبي جد ١٧٢/٥-٢٠١.

(٩) الخصائص الكبرى جد ٤٢٩-٤٣٠ «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم»، سيرة النبي جد ١٨٠/٥، «الصلاة جامعة» جد ١٨٧/٥.

ومن منهيات الصلاة التشتت والالتفات. فذلك اختلاس الشيطان من صلاة الإنسان. هذا بالإضافة إلى عدم التبرك كالبعير، والتلفت كالثعلب، والافتراش كالسبع، والوقوف كالكلب، والنقر كالغراب، ورفع الأيدي في حال السلام كأنياب الخيل^(١). ويحرم الكلام في الصلاة وليس في الصوم عكس الأمم السابقة^(٢). ومن كراماته أنه من تكلم في عهده وهو يخاطب بطلت جمعته. ولا يجوز لأحد الخروج من مجلسه إلا بإذنه^(٣). الصلاة مناجاة للرب. فلا يجهر المصلي حتى لا يشوش على الآخرين^(٤).

وللرسول عبادات إضافية، سنته ورواتبه وقيامه بالليل^(٥). وهي كثيرة للتأسي بها كلها. عيناه تمانان ولا ينام القلب^(٦). وكان يدعو أن يجعل الله نورا في بصره وسمعه وعلى لسانه وتحت ولديه^(٧). وكان يقول في الصلاة دعاء خاصا^(٨). ولما استكثرت عائشة قال «أولا أكون عبدا شكورا»^(٩). ومن اختصاصه وجوب صلاة الليل والوتر والفجر والضحي والأضحى^(١٠).

وتكشف صلاة الضر والحاجة أن الصلاة وسيلة لقضاء الحاجات إذا ما عجز الإنسان أو تشكك في قضائها بنفسه. كما أنها وسيلة نفسية لرفع الضيق إذا لم تنقص

(١) «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»، ذلك كفّل الشيطان، «لا تبركوا برك البعير، ولا تلتفتوا التفت الثعلب، ولا تفترشوا افتراش السبع، ولا تُقعوا إقعاء الكلب، ولا تنقروا نقر الغراب، ولا ترفعوا أيديكم في حال السلام كاذناب الخيل الشمس»، بهجة المحافل ص ٥٩٠-٥٩٢.

(٢) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٣) السابق ج ٢/ ٥٣٩.

(٤) «إن المصلي يناجي ربه. فليُنظر أحدكم بما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة»، سيرة النبي ج ٥/ ٨٤.

(٥) الأنوار ج ٢/ ٤٠٩-٤٢٥، المواهب اللدنية ج ٤/ ١٧٨-٢٠١.

(٦) «يا عائشة إن عيني تمانان ولا ينام قلبي»، الأنوار ج ٢/ ٤١٢.

(٧) «اللهم اجعل في بصري نورا، وفي سمعي نورا، وفي لساني نورا، ومن تحتي نورا. اللهم أعطني نورا»، السابق ص ٤١٦.

(٨) «الله أكبر، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». وفي الركوع «سبحان ربي العظيم» وبعد الركوع «لربي الحمد»، وفي السجود «سبحان ربي الأعلى»، وبين السجدين «رب اغفر لي»، السابق ص ٤١٧، وفي الركوع وفي السجود، سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ص ٤١٨.

(٩) السابق ص ٤٢٢، «أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل»، بهجة المحافل ص ٥٦٧.

(١٠) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٨٣-٤٨٥.

الحاجات. فإما الدعاء وإما الصبر. وقد يقع توسل وشفاعة تمجد كي تقضى الحاجة^(١). فالرسول لم يعد مبلغاً لرسالة بل شفيحاً لقضاء الحاجات. ويكون ذلك على نحو سري، فلو عرفه السفهاء لقاموا بدعوات مضادة، وأفسدوا الدعوة الأولى. وكيف يستجاب إلى دعوة الأشرار بدلاً من دعوة الأخيار؟ الصلاة دعاء لا يوجد مثله في الكتب المقدسة السابقة^(٢). وصلاة الاستخارة مساعدة نفسية على اتخاذ القرارات في حالة الحيرة^(٣). ويصعب الاعتماد عليها في حالة الحروب والتردد بين خطتين، تصفية الثغرة أم قبول وقف إطلاق النار كما حدث في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

كما اختص بالحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله)، والاسترجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون) عند المصيبة وافتتاح الصلاة بالتكبير. فالصلاة رفع للروح المعنوية، ومساعدة على الثبات وتجاوز الآلام، وتحمل المصائب مما قد يمنع من الثورة والغضب ضد الأوضاع الاجتماعية والسياسية المسئولة عن كوارث المواصلات وغرق العبارات وانحيار المنازل فوق الهضاب الرملية^(٤).

(١) «من كانت له حاجة إلى الله أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليش على الله وليصل على النبي، ثم ليقول لا إله إلا الله الخليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا همّاً إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين»، «إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك»... «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي، اللهم فشقه في»، «اللهم إني أسألك بمعاهد الغر من عرشك، ومتهى الرحمة من كتابك، وأسألك باسمك الأعظم، وجدك الأعلى وكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ثم سل حاجتك، ثم ارفع رأسك، وسلم عن يمينك وعن شمالك، واتق السفهاء أن يعلموها فيدعون ربهم فيستجاب لهم»، بهجة المخافل ص ٥٨٧-٥٩٠.

(٢) «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»، سيرة النبي ج ١٠٦/٥.

(٣) «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدر بقدرتك، وأسألك فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (عاجل أمري وأجله) فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (عاجل أمري وأجله) فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم ارضني به (ويسمى حاجته)، «يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ثم انظر إلى الذي سبق إلى قلبك فإن الخير فيه»، «من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما قضى الله عليه. ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، وسخط بما قضى الله»، بهجة المخافل ص ٥٨١-٥٨٢.

(٤) «أعطيت أمتي شيئاً لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٢٢-٤٢٣.

هـ- أركان الإسلام

وله أيضا سيرته في الزكاة وهي الركن الثالث في الإسلام الذي يكشف عن العدالة الاجتماعية، وتأسيس المجتمع اللاطقي، وسيولة رأس المال الاجتماعي، وعدم احتكار الثروة، وتوظيف المال استخلافا وليس ملكية. ومع ذلك يذكر أنه كان يحرم على نفسه أكل الصدقة بل كان يأكل الهدية. فالصدقة لا تحمل لمحمد ولا لآل محمد. ولا زكاة على الأنبياء. والزكاة لها تاريخ أي أنها مرتبطة بالزمان والمكان.

وقد فرضت بأشكال أخرى في الديانات السابقة. وتطبق تدريجيا أشبه بالضرائب التصاعدية. فإن كان من الصعب إيتاء الزكاة فالعمل باليد لنفع النفس أو بالصدقة أو بإعانة ذي الحاجة الملهوف أو الأمر بالخير أو الإمساك عن الشر، فكل ذلك صدقة. وهي علاج أمراض الأغنياء حاولت الاشتراكية شفاءهم. ولا فوائد اقتصادية وتجارية. إنما الهدف أساسا إصلاح الفقراء^(١).

وتتحول العبادات مثل الزكاة أحيانا إلى فقه كمي وتقنين، مقدارها على الحيوان، الجمال والبعير والإبل والغنم والبقر والثيران والجاموس. ولم تعد الثروة الحيوانية الآن هي المدخل الرئيسي للثروة. ولم يعد الحيوان وسيلة الانتقال. فهل هناك زكاة على وسائل الانتقال الحديثة ومصادر الثروة الصناعية والتجارية؟^(٢)

وتذكر الصدقات والتطوع^(٣). وتركته صدقة لا تورث^(٤). ولا يأكل من الصدقات

(١) الفصول ص ٤٥٧-٤٥٨ «إن الصدقة لا تحمل لمحمد ولا لآل محمد» ص ٤٥٧، خصائص الرسول ص ٢٨٦-٢٨٧، أقرباء الرسول ج ١/ ٣٨٨ «إنها هي (الصدقة)» أو ساخ الناس ص ٣٩٠ ج ٢/ ٥١٤-٥١٦ ج ٥/ ٢٦٦، المنح المحمدية ج ٤/ ٣١١-٣٢٥، سيرة النبي ج ٥/ ٢٠٣-٢٧٦ «أدعهم إلى الشهادة لا إله إلا الله وأني رسول الله. فإن هم أطاعوا فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم»، ج ٥/ ٢٠٨-٢٠٩/ ٢١٨/ ٢٤٧.

(٢) سيرة النبي ج ٥/ ٢٢٦-٢٣٠، خصائص الرسول ص ١٢٥-١٢٨.

(٣) الأسوة الحسنة ص ٥٧٢-٥٧٧ «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم بيمينه ما تنفق شماله»، سيرة النبي ج ٥/ ٢٦٩.

(٤) «ما تركناه صدقة»، «لا تورث، ما تركناه صدقة»، خصائص الرسول ص ١٦٦-١٧١.

بل من الهدايا^(١). فمن كراماته أنه لا يورث، وأمن ماله بعد موته قائم على نفقته^(٢). وحرمت الزكاة عليه ولا يهيم مقدارها ومدتها وأنواعها كما هو الحال في الفقه بقدر ما يهيم هدفها ونماؤها. فالزكاة وسيلة وليست غاية. الهدف منها تركية النفس^(٣). ويمكن التفكير في طرق جديدة لجمعها وإنفاقها. ويتم التفاضل بين المحتاجين. ليس المحتاج هو السائل والشحاذ الذي يطوف على الناس يُعطى أو يمنع بل الفقير الذي لا يعلمه أحد، ولا يسأل الناس. وللزكاة مصارف ثمانية حددها الفقه: مساعدة المساكين، والفقراء، والمعاقين، ومكافحة الرق، وإعانة المسافر، والأعمال الجماعية والخدمات للمصالح العام، والتدبير العملي للإعانة المشتركة.

وفي صومه كان الرسول يفطر ويوصل وينهى عن الوصال للآخرين ويسمح به لنفسه لأن الله يطعمه ويسقيه. والسحور واجب^(٤). وقد قرر صوم اليوم التاسع حتى يتميز عن العاشر عند اليهود^(٥). فإذا شق الصيام فيجوز الإفطار دون المزايدة لأن المزايدة هنا عصيان^(٦). وللرسول دعاء حين الإفطار^(٧). وإذا لم يجد الرسول شيئا يأكله

-
- (١) «لولا أني أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها»، شمائل الرسول ص ٦٨.
(٢) «لا نورث، ما تركناه صدقة. إنا يأكل آل محمد في هذا المال»، «لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهما. ما تركت بعد نفقة نسائي ومثونة عاملي فإنه صدقة»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥٣٠.
(٣) سيرة النبي ج ٥/ ٢١٩-٢٧٦ «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده للقيمة واللقمتان، والثمرة والتمرثان... (بل هو) الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يُقطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»، ج ٥/ ٣٣٥. «من يكفل لي أن يسأل الناس شيئاً وأنكفل له بالجنة» ج ٥/ ٢٧٣، «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه»، ج ٥/ ٢٧٤. الهدايا والضحايا والعقيقة، الأسوة الحسنة ص ٥٦٥-٥٦٧، سيرة النبي ج ٥/ ٢٤١، «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»، ج ٥/ ٢٤٣.
(٤) سيرة النبي ج ٢/ ٩٧-٩٩، ج ٥/ ٢٧٧-٣١٤، في صفة صومه، شمائل الرسول ص ٢٦٥-٢٧٠، الأنوار ج ٢/ ٤٧٤-٤٨٩، تُعرض الأعمال الإثنين والخميس فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم، شمائل النبي ص ١٧١-١٧٨، خصائص الرسول ص ١٥٦-١٥٨، المنح المحمدية ص ١٥٦-١٥٨، «إياكم والوصال» ثلاث مرات، السابق ص ٤٨٢ «إني لست في ذلك كأحد منكم، إني أظل عند ربي يطعمني ربي ويسقيني»، «أكفّلوا من الأعمال ما تطيقون»، السابق ص ٤٨٢.
(٥) «فإذا كان العام المقبل صمنا يوم التاسع»، السابق ص ٤٨٠.
(٦) «أولئك العصاة»، السابق ص ٤٨٤.
(٧) «اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت»، «ذهب الظما، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى».

صام. فالأكل هو الذي يحدد الصيام من عدمه وليس النية^(١). يقبل وهو صائم. ويصوم إذا لم يجد شيئا يأكله دون عقد النية مسبقا. وتزداد العبادات في شهر رمضان. كما تزداد أعمال الخير وقراءة القرآن والاستعداد لاستقبال شهر الصوم كما هو الحال في الممارسات الشعبية خاصة فيما يتعلق بالمأكولات والمشروبات والملابس واللعب والزينات^(٢). والصيام له وقت، رؤية الهلال بشهادة العدول^(٣). وفي السفر يجوز الإفطار إذا لا يجوز تكليف ما لا يطاق^(٤).

وعند الإفطار دعاء تحقيقا لمطالب الروح قبل حاجات البدن. وفي نفس الوقت التبعجل في الفطر سنة. مخاطبة البدن بعد طول جوع وعطش لها الأولوية على صلاة المغرب^(٥). وهو جانب من واقعية الإسلام. والصوم ليس فقط عن الطعام والشراب بل الكف عن جميع الرذائل. وهو موجه إلى الله وحده. وله أيضا دلالة بالنسبة للناس^(٦). والإحساس بالفقراء، وبالنسبة للصائمين، قوة الإرادة^(٧). والوضوء بركة الطعام قبله أو بعده^(٨). وما يفطر عليه قد يتغير بتغير الزمان والعادات والتقاليد، التمر واللبن في البيئة الصحراوية. أما البيئة الجبلية أو الزراعية أو الصناعية فلها عاداتها^(٩). والمشتقات اليوم قمر الدين والخشاف.

(١) «هل عندكم شيء... فإني صائم»، ثم أتاه طعام وقال: أرينيه فلقد أصبحت صائما... فأكل»، السابق ص ٤٨٩، الفصول ص ٤٥٩-٤٦٠، سيرة النبي ص ٤٧٦-٤٧٧، المنح المحمدية ج٤/ ٣٢١-٣٨٨، الأسوة الحسنة ص ٥٧٨-٥٨٣، دعاؤه في رمضان ص ٥٨٠-٥٨٢، صيام التطوع ص ٥٨٢-٥٨٤.

(٢) المنح المحمدية ص ٣٢٦-٣٣٠.

(٣) السابق ص ٣٣١-٣٣٤.

(٤) السابق ج٤/ ٣٥٤-٣٥٧.

(٥) «لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر»، بهجة المحافل ص ٥٩٢، المنح المحمدية ج٤/ ٣٤٠-٣٤٤.

(٦) «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب. فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم»، «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، السابق ص ٥٩٢.

(٧) «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجل. للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، السابق ص ٥٩٤.

(٨) «بركة الطعام الوضوء قبله وبعده»، «الوضوء قبل الطعام حسنة وبعده حستان»، الخصائص الكبرى ج٢/ ٤٣٨.

(٩) المنح المحمدية ج٤/ ٣٤٢.

ويجوز الصوم في غير رمضان، في عاشوراء الذي كان معروفا عند اليهود وفي الجاهلية، وصيام شعبان ومحرم ورجب، والعاشر من ذي الحجة وفي أيام الأسبوع والأيام البيض^(١). وكان الرسول يعتكف ويجهتد في العشر الأواخر من رمضان. وفيها ليلة القدر. والمسجد مكان الاعتكاف بعيدا عن الأسرة وارتباطا بالأسرة الأكبر، مجموع المسلمين^(٢). الهدف منه الشكر والتقوى. ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه^(٣). وخشى الرسول أن تصبح الصلاة في المسجد طيلة شهر رمضان. فلم يخرج في بعض الأيام حتى لا تُفرض على الناس. وصلى في بيته^(٤). وتجاوز له القبلة وهو ضائم مع قوة شهوته. وهو ما حُرِّم على غيره^(٥). ومع القبلة الحجامة والاحتحال والسواك.. فالاحتحال يزيد في شهر الزهد. والسواك لا داعي لأن رائحة خلوف فم الصائم أطيب عند الله من رائحة المسك. والحجامة ضد الصبر على العناء والألم.

وكان الصوم مفروضا على الأمم السابقة. واستمر في الإسلام مع تغيير الشكل، من ثلاثة أيام في الشهر إلى شهر في السنة^(٦). وقد أعطيت الأمة في رمضان خمس خصال: رائحة فم الصائم كالمسك، استغفار الملائكة لهم حتى الإفطار، تصغر مردة الشياطين، تزيين الجنة كل يوم لقبول الصائمين. والسحور والتعجيل بالفطور فرق بين صيام المسلمين وصيام أهل الكتاب.

(١) السابق ص ٣٥٨-٣٨٧.

(٢) الأنوار ج ٢/ ٤٨٩-٤٩٢. الأسوة الحسنة ص ٥٨٤-٥٨٧، المنح المحمدية ج ٤/ ٣٨٩-٣٩٨، سيرة النبي ج ٥/ ٣٠٤-٣١٤، «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، «الصيام جنة. فلا يرفث ولا يجهل. وإن أمرق قاتله أو شاعته فليقل إني صائم»، سيرة النبي ج ٥/ ٣١١-٣١٢.

(٣) «من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»، صلاة التراويح وقيام رمضان، بهجة المحافل ص ٥٧٨-٥٨٠.

(٤) «إني خشيت أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها»، السابق ص ٥٧٨.

(٥) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥١٥، المنح المحمدية ج ٤/ ٣٣٥-٤٣٩.

(٦) «كتب عليكم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر. وكان هذا صيام الناس قبل ذلك ثم فرض الله شهر رمضان»، «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»، «لا يزال هذا الدين ظاهرا ما عجل الناس دين الفطر. إن اليهود والنصارى لا يؤخرون»، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٣٦-٤٣٨، سيرة النبي ج ٥/ ٢٧٨-٢٨٣.

وحاولت بعض السير الإصلاحية الحديثة الكشف عن إصلاحات في الصوم أتى بها الإسلام بالنسبة للأمم السابقة^(١). أصبح عاما للجميع وليس خاصا بفئة من رجال الدين. وهو مرفوع عن الحامل والمرضع ومرفوع على من قاء أو احتلم. واعتبر السنة القمرية وليس السنة الشمسية. ولا يطله النسيان. كان علامة على الحزن عند اليهود فأصبح علامة على الفرح بقاء الله في الإسلام. وسمح الإسلام بالمعاشرة الزوجية ليلا. وقد كان محرما في الأمم السابقة. والصيام شهر كامل وقد كان عند الأمم السابقة عدة أيام أو أسابيع أو أربعين يوما وعن الحيوان فقط.

وكان للرسول مناسك حجه وعمرته^(٢). كان يهلل بالتوحيد^(٣). ويستقبل القبلة بالدعاء^(٤). وكانت المناسك تتغير بتغير الزمان^(٥). والحج يعني حرمة الدماء والأموال، ورفع دم الجاهلية، ووضع الربا. والوصية بالنساء بشرط عفتهم وإلا فالضرب غير المبرح، مع أن الضرب لا يرجع عفة. ولهن الرزق والكسوة وعلى المسلمين الاعتصام بالكتاب. وأشهد الله عليهم^(٦). هنا القطيعة بين الجاهلية والإسلام في الثأر والربا وحقوق المرأة. ومعظم المناسك شعائر كان بعضها سائدا قبل الإسلام مثل السعي والطواف بما في ذلك تقبيل الحجر الأسود كتواصل بين عبادة الأصنام قبل الإسلام

(١) سيرة النبي جـ ٥/ ٢٩٨-٣٠٣ إن الله وضع عن الحامل والمرضع الصوم جـ ٥/ ٣٠٠.
(٢) الأنوار جـ ٢/ ٤٩٢-٥١١، المنح المحمدية جـ ٤/ ٣٩٩-٣٧٢، سيرة النبي جـ ٢/ ١٠٠-١٠٤ جـ ٥/ ٣١٥-٣٧٦، ألفية السيرة ص ١٠٢.

(٣) «ليكن ليك لا شريك لك ليكن، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، السابق ص ٤٩٥.
(٤) «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، السابق ص ٤٩٥.

(٥) «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة. فمن كان منكم ليس معه هدي فليحلل وليجعلها عمرة»، السابق ص ٤٩٦.

(٦) «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة.... وربا الجاهلية موضوعة... فاتفقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله... اللهم اشهد»، السابق ص ٤٩٦-٤٩٧.

وتقديس الحجر بعده في الثقافة الشعبية سواء كان من قواعد إبراهيم أو هبط من السماء. وكانت سدة البيت لقريش ولبنى عبد المطلب^(١).

وبإباح له دخول مكة بغير إحرام. كما بإباح القتل في الحرم^(٢). ومعظمها مسائل فقهية عليها خلاف. وكلها أفعال رمزية لها دلالاتها. فالتطواف اجتئاع الأمة على هدف واحد، والسعي الجهاد في البحث عن الماء أي إشباع الحاجات الأساسية، ورمي الجمرات إلى التغلب على أهواء النفس التي يرمز لها بالشیطان، والنحر إنقاذ الإنسان من الذبح والاغتيال كما يحدث في الصومال والسودان وأفغانستان وباكستان والعراق وفلسطين الآن. ويجوز له استمرار الطيب بعد الإحرام^(٣).

الحج شريعة إبراهيم هذبها الإسلام. الهدف منه ذكر الله وليس فقط اتباع مناسك إبراهيم. وحرم تلطخ جدران الكعبة بدماء الأضحية. ومنع عدم التزود واعتمادا على الله في السفر إلى الحج من أماكن بعيدة. ولم يصبح لقريش أي امتيازات فيه بل كان مناسبة للمساواة المطلقة بين البشر في ملابس الإحرام. وتحولت دلالة من دينية صرفة إلى دينية اجتماعية سياسية. ومنع الإسلام الحج الصامت. ويجوز الحضور إليه ركوبا وليس فقط ترجلا. وبعد العودة يتساوى الدخول من الأبواب من الأمام أو الخلف. وحرم الإسلام تعذيب البدن للاستغفار. وأضاف العمرة إلى الحج. كما سمح بالتجارة، وشرع التطواف. وبعد إصلاح الإسلام الحج في الجاهلية جعل أركانه الإحرام، والتطواف، واستلام الحجر الأسود، وهو من بقايا الجاهلية، والسعي بين الصفا والمروة وأهدافه المركزية. رزق الثمرات. القيمة الاقتصادية للأضاحي بناء على الدعاء الإبراهيمي. والروحانية بغسل الذنوب^(٤). الحج يساعد على توفير الاكتفاء

(١) «انزعوا بني عبد المطلب. فلولوا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لتزعت معكم»، السابق ص ٤٩٨، الفصول ص ٤٦١-٤٦٢ «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم» ص ٤٦٢، ألفية السيرة ص ١٠٢ - سيرة النبي ص ٤٨٣-٤٩٤، الأسوة الحسنة ص ٥٤٤-٥٤٥.

(٢) خصائص الرسول ص ١٦٤-١٦٦.

(٣) (المالكية)، الخصائص الكبرى ج ٢/ ٥١٥.

(٤) «إن الحج والعمرة يغسلان الذنوب كما تغسل النار درن ووسخ الذهب والفضة. والمؤمن الذي يمضي يوم عرفات محرما فإن شمس عرفات تأخذ معها ذنوبه وتغرب»، سيرة النبي ج ٥/ ٣٧١-٣٧٥-٣٧٦.

للأسرة لأنه لا يصح إلا لمن استطاع إليه سبيلا. كما يساعد على تحقيق وحدة الأمة بلغاتها وقومياتها وطوائفها ومذاهبها المتعددة. يشعر الجميع فيه بالمساواة بين أبناء البشر جميعا. مصدره الكسب الحلال وبالتالي الامتناع عن المال الحرام^(١). والأضحى، وحلق الرأس، ورمي الجمرات، كل ذلك له آدابه ومنافعه. وفي العيدين كان الرسول يضحى بيده ويسمي على الذبيحتين^(٢). فلا فرق بين الإسلام والديانات السابقة في التضحية بالحيوانات أو في مراسم الصوم والإفطار مع تغير أشكالها من دين إلى دين. عند أهل الكتاب هو الذبح وعند المسلمين النحر. والذبح قسوة على الحيوان في حين أن النحر دلالة على قيمة الإنسان. ومن اختصاصه التضحية عن أمته، أكل لحم الفجاءة (عظم بطن الناقة)^(٣).

ثم تضاف مسألة الجهاد وهو الركن السادس في الإسلام في عدة أحكام منها عدم تراجع النبي عن الحرب إذا لمس لأمته، فلا يجوز للرسول نزع اللامة إذا لبسها حتى يلقي العدو أو يحكم الله بينه وبين أعدائه. والشورى، ومصابرة العدو، وليس لنبي خائنة الأعين، والحرب خدعة، وأن يصطفي من المغنم ما يشاء^(٤). من خصائصه وجوب مصابرة العدو وإن كثر عددهم. وهو على أنواع: الجهاد بالنفس، والجهاد بالعلم، والجهاد بالمال، والجهاد الدائم. الجهاد عبادة. هو رأس الإسلام، وعموده

(١) سيرة النبي جـ ٥/ ٣٣٧، في صفة قراءته، شبائل الرسول ص ٢٧١-٢٧٤.

(٢) الأنوار جـ ٢/ ٤٥٥-٤٥٩، الأسوة الحسنة ص ٥٤٠-٥٤٢، كما اختص بساعة الإجابة وليلة القدر، وشهر رمضان، وبالخصال الخمس المكفرة عنه، ويعيد الأضحى، والنحر وكان لأهل الكتاب الذبح، وباللحد وكان لأهل الكتاب الشق، وبالسحور وتعجيل الفطر، وبإباحة الأكل والشرب والجماع ليلا إلى الفجر ويوم عرفة كما هو الحال عند القنوي والصوفية، وجعل صوم عرفة كفارة ستين، والخصائص الكبرى جـ ٢/ ٤٣٥-٤٣٨ «إن الله وهب لأمتي ليلة القدر ولم يعطها من كان قبلهم» ص ٤٣٥ «أمرت بعيد الأضحى جعله الله لهذه الأمة»، ص ٤٣٧.

(٣) السابق ص ٥٢٩.

(٤) الفصول ص ٤٩٩-٥٠٤ «لا ينبغي لنبي إذا لبس لامة الحرب أن يرجع حتى يقاتل» ص ٤٩٩، «إنه لم يكن لنبي خائنة الأعين»، «الحرب خدعة» ص ٢٠٢. سيرة النبي ص ٤٩٥-٤٩٧، خصائص الرسول ص ١٣٨، الخصائص الكبرى جـ ٢/ ٤٨٧، سيرة النبي جـ ٢/ ١٧٧-١٧٨ «ألك أبوان؟ ففيها تجاهد» جـ ٥/ ٣٨٥، «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» جـ ٥/ ٣٨٥، «والذي نفسي بيده لو ددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيى»، جـ ٥/ ٣٨٧، سيرة النبي جـ ٥/ ٣٧٧-٣٨٨ «المجاهد من جاهد بنفسه» جـ ٥/ ٣٨١.

الصلاة، وذروة سنامه الجهاد. ويعني أن تكون كلمة الله هي العليا. وهو مستمر إلى يوم الدين وهو قصد الحياة والدين^(١). وتعلم فنون القتال ضرورة. واختص في شريعته بإحلال الغنائم^(٢). ولا يذكر شيء في التشهد «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله»، وهو الركن الأول في الإسلام. شهادة وإعلان وليس صمتا وجبنا. وفعلان شعوريان، نفي وإثبات، نفي الآلهة المزيفة، المال والسلطة والجنس والشهرة، وإثبات الإله الواحد الحق الذي لا شريك له^(٣).

و- المعاملات

ويدخل السفر ضمن واجبات الرسول الشرعية في مجتمع تجاري^(٤). فهناك أدعية تقال حين السفر أو وداع المسافر أو حين ركوب الرحلة أو السفينة أو إذا ضلت الدابة أو إذا رأى قرية يريد دخولها أو إذا نزل منزلا أو حين يرجع من السفر. وكلها عادات بيئية. فالرحلة أو الدابة هي القطار أو الطائرة. وكيف تكون الاستخارة في السفر بعد أن تكون المواعيد قد حددت، والمشاريع قد أعدت، والعقود قد أبرمت في التجارة الحديثة؟^(٥). وهل خير ما يترك المسافر لأهله قبل السفر لا زاد ولا مال بل ركعتين؟^(٦).

والأدعية عند السفر كثيرة، في بداية السفر هناك أدعية. ووسيلة السفر الرحلة أو

(١) معين الشائل ص ٤٤٠-٤٤٤، «ولا يزال من أمتي يقاتلون على الحق» ص ٤٤١ «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق» ص ٢٤٢، «من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصي» ص ٤٤٣.

(٢) الخصائص الكبرى ج ٢/ ٤٢٥.

(٣) انظر مقالنا «ماذا يعني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»، الدين والثورة في مصر ح ٧- اليمين واليسار في الفكر الديني، مديبولي، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٤٧-١٦٢.

(٤) سيرة النبي ج ٢/ ٤٧٨-٤٨٢، ج ٢/ ١٧٦ ج ١/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٥) «إذا هم بالأمر فليركع ركعتين ثم ليقل: اللهم أني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر آجله وعاجله خير لي في ديني ودنياي فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري آجله وعاجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»، سيرة النبي ص ٤٧٨.

(٦) «ما خلف أحد عند أهله خيرا من ركعتين يركعهما عندهم حتى يريد سفرا»، السابق ص ٤٧٨.

السفينة المعروفة وقتئذ^(١). وهناك أدعية أخرى لتوديع الأهل قبل السفر^(٢). وبعد العودة هناك أدعية ثالثة^(٣). وهناك نصائح أثناء السفر عندما تنقلب الدابة ماذا يقال^(٤). يُنادي على الناس لحبسها لأن الله حاضر في الأرض يساعد في ذلك، فإذا حل المسافر قرية فإنه يدعو^(٥). ويحذر من صحبة الكلب أو الجرس في السفر حتى تأتي الملائكة. الكلب للحراسة والجرس للتنبيه. وما التناقض بينهما؟^(٦).

ثم تضاف مسائل شرعية متفرقة^(٧). منها ما يتعلق بالأحوال الشخصية في المسائل المالية^(٨). ومن استهان به بحضرته، والتسمية باسمه دون الكنية^(٩). ونسبة أولاد بناته إليه وعدم انقطاع نسبه هو ما يستند إليه بعض أنظمة الحكم حتى الآن في الأردن والمغرب^(١٠). وعدم دخول النار أحدا مما ناسب أو صاهر قفز إلى النتائج وحكم قبل

(١) «اللهم إني إليك توجهت، وبك اعتصمت، اللهم اكفني ما أمني، وما لم أهتم له. اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير أينما توجهت، والدعاء المشهور «اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في المال والأهل والولد. اللهم إنا نعوذ بك من وعاء السفر وكآبة المنظر وسوء المقلب في المال والأهل والولد»، «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا...»، سيرة النبي ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٢) «من أراد سفرا فليقل لمن يخلف: استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»، «إن الله إذا استودع شيئا حفظه»، «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»، «زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسر لك الخير حيثما كنت»، «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»، «اللهم أطوله البعد، وهون عليه السفر»، سيرة النبي ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٣) «أيون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون»، السابق ص ٤٨٠-٤٨٢.

(٤) «إذا انفلت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا، فإن الله في الأرض حاضر سيحبسه»، السابق ص ٤٨١.

(٥) «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أظللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، نألك خير من هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها. ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها»، «اللهم ارزقنا حماها، وأعذنا من وبائها، وحبنا إلى أهلها، وحجب صالحها أهلها إلينا»، «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.. لم يضره شيء حتى يرثل من منزله ذلك»، السابق ص ٤٨١-٤٨٢.

(٦) «لا نصب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس»، السابق ص ٤٨١.

(٧) الفصول ص ٥٠٥-٥٢٣.

(٨) «خذي من ماله بالمعروف يكفيك ويكفي بنيك»، السابق ص ٥٠٥.

(٩) «تسموا باسمي، ولا تكونوا بكيتي»، السابق ص ٥٠٦، «كل بني آدم ينسبون إلى عصبتهم إلا بني فاطمة فإنهم ينسبون إلي وأنا عصبتهم»، ص ٥٢١.

(١٠) «وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسبي وصهري» ص ٥٠٨.

الحساب^(١). كان أشد أمتة بأسا. ويروى أنه كان يرى بالظلمة كما يرى في الضوء وهي رواية ضعيفة^(٢).

وفي العبادات والمعاملات عندما تأتي مادة السيرة من الفقه تذكر المذاهب الفقهية الأربعة أكثر من القرآن والحديث. والسؤال هو: ما هي أسس المعاملات، أخلاقية أم اقتصادية؟ وقد تكون عادات شائعة تم تقنينها وتهذيبها مثل شعائر الحج. قد تكون مقاصد عامة للشريعة وليست أحكاما شرعية خاصة. وقد يكون نكاحه عادات أو أذواقا أو ظروف اجتماعية خاصة أكثر منها أحكاما شرعية عامة من خصائصه. يصعب تحويلها إلى قواعد عامة لكل الناس مثل الجمع بين أكثر من أربعة أو الزواج وهو محرم أو عدم زواج أرامله بعد وفاته^(٣). وقد تشمل المعاملات الميراث والوصية والوقف والنكاح والطلاق والحدود والتعزيرات^(٤). وما زالت المعاملات أصغر من العبادات. والعقائد أصغرها. والنبوة الأكبر مما يدل على ضعف العمليات وقوة النظريات^(٥).

وتقوم المعاملات على تقسيمات القدماء^(٦). وفي إحدى السير الإصلاحية هي النظم السياسية. وهنا تبدو السيرة أحد فروع الفقه. وهي إما نواهي أو أحكام. وتشمل النظم السياسية موضوع الدولة^(٧). وهو ما يسمى عند القدماء «الأحكام السلطانية»^(٨). وفي

(١) «إني سألت ربي أن لا يدخل النار أحد من صاهري أو صاهرت»، السابق ص ٥١٩.

(٢) السابق ص ٥١٩-٥٢١.

(٣) محمد رسول الله ج ٢/٣٤٩-٤١٢، سيرة النبي ج ٢/١٠٥-١١٣.

(٤) سيرة النبي ج ٢/١٠٥-١١٣.

(٥) السابق ج ٥/٢٢٦-٢٣٠، خصائص الرسول ص ١٢٥-١٢٨.

(٦) قسمها الشاطبي في الموافقات إلى أربع: العبادات، والعادات، والمعاملات، والجنائيات، وقسمها ابن النجيم في «البحر الرائق» إلى خمس: «المعارضات المالية، النكاح، المخاصمات، الأمانات، الميراث، العقوبات»، سيرة النبي ج ٧/١٨-١٩، معاملاته مع الآخرين في بيته وخارجه، الأسوة الحسنة ص ٢٤١-٣٤٨، معاملاته في بيعه وشرائه وإجارته واستجارته وحسن وقائه ومشاركته ومضاربهته والحوالة والوكالة والرهن والهبة والهداية والعارية، والبيع، الأسوة الحسنة ص ٢٤٣-٣٤٨.

(٧) سيرة النبي ج ٧/١٧-٣١. ويضم مكانة وأهمية الحكم في الإسلام ج ٧/٣٢-٥٨، نظام الحكم في عهد النبوة، ج ٧/٥٩-١٤٤، العلاقة بين الدين والدولة، ج ٧/١٤٥-١٧٤، بعثة الأمة الإسلامية، ج ٧/١٧٥-١٩٤، القوة العاملة أو القوة الآخرة، ج ٧/١٩٥-٢٠٢، المبدأ الأساسي الثاني للحكم الإسلامي، الحاكم الحقيقي هو الله تعالى فقط، ج ٧/٢٠٣-٢٢٢.

(٨) السابق ج ٧/١٩.

الذهن حال النظم الإسلامية الآن، خاصة النظم العلمانية مثل الجمهورية التي أغرت الأمة ضد الملكية الوراثية، بالرغم من تحويلها الآن إلى جمهورية وراثية في بعض النظم. بلا أبواب ولا فصول ولا ترقيم للموضوعات الرئيسية السبعة والهدف هو نقد القانون المدني والدفاع عن القانون الإلهي كما هو الحال لدى الجماعات السلفية المعاصرة. وتتم المقارنة مع النظم السياسية المعاصرة، الجمهورية والفاشية والنازية والإمبريالية. القانون الإلهي ثابت والقانون المدني متغير، مع أن القانون الإلهي في جزئياته تغير بتغير الظروف. ويختلف في تأويلاته وتفسيراته بدليل المذاهب الفقهية المتعددة. والقانون المدني به بعض الثوابت وهي المبادئ الإنسانية العامة مثل حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية^(١). القانون الإلهي مقاصده وليس حدوده. ويبدو الموضوع مضافا إلى السيرة وخارجا عنها.

كما تغلب على المعاملات النظم السياسية الحديثة، الجمهورية والاشتراكية، والحاجة إلى القانون الإلهي الثابت والقائم على القانون الطبيعي^(٢). كما يتطرق إلى نظام الحكم في عهد النبوة، والعلاقة بين الدين والدولة وتحليل ألفاظ الفلسفة السياسية الإسلامية مثل الرعية والسلطنة والملوكية^(٣). كما يتطرق إلى موضوع بعثة الأمة الإسلامية، والقوة العاملة أو القوة الأمرة فيها وإلى مبدأ الحاكمية الذي انتشر في الفكر الإسلامي المعاصر من الهند وباكستان حتى مصر وسائر أرجاء الوطن العربي ويتنبأ بانهار إمبراطوريتي الفرس والروم الجدد كما تنبأ الرسول بانهار القدامى^(٤).

وحاكم المسلمين واحد منهم. ولا يتميز عنهم في لباس أو حق^(٥). الله هو الحاكم،

(١) السابق ج٧/ ٢٣-٢٧.

(٢) سيرة النبي ج٧/ ١٧-٣١.

(٣) السابق ج٧/ ٣٢-١٧٤.

(٤) السابق ج٧/ ١٧٥-٢٢٢. وذلك عند المودودي وسيد قطب، انظر الدين والثورة في مصر ج٥، الحركات الدينية المعاصرة، أثر أبي الأعلى المودودي على الجماعات الدينية المعاصرة ص ١٢٣-١٦٦، أثر الإمام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة ص ١٦٧-٣٠٠، «أرايتم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم؟.. تقولون لا إله إلا الله، وتحلفون ما تعبدون من دونه»، ج٧/ ٥١، «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده»، ج٧/ ٦٥.

(٥) «إنما يلبس هذه من الأخلاق له»، سيرة النبي ج٧/ ٧١. «السيد الله» ج٧/ ٧٥، «إن الشمس والقمر

والشمس والقمر ظاهران طبيعيتان لا يتأثران بموت أحد. الخطورة أن يستمد الأخير سلطانه من الله^(١). الحاكم خادم الناس ويقضي حاجاتهم. وما يزال في الأمة رجال قادرين على الفتح.

وتختص الأمة بالاستغفار، وغفر الذنوب، والندم والتوبة^(٢). وقد كتب ذلك الله قبل خلق الخلق بالفي عام أن رحمته سبقت غضبه، وعطاءه قبل سؤاله، ومغفرته قبل استغفاره. كما تختص الأمة بوضع الإسر الذي كان على الأمم السابقة عنها، وتحليل ما حرم على السابقين، ورفع الحرج في الدين، والخطأ والنسيان وما استكروهوا عليه، وحديث النفس. من هم بسيئة تكتب حسنة، ومن هم بحسنة تكتب له حسنة. فإن تمت كتبت له بعشر. ووضع عنهم قتل النفس أي الانتحار، وغسل النجاسة، والزكاة، والتخير في القصاص، والدية، ونكاح أربع، ونكاح الأمة، ومخالطة الحائض سوى الوطأ، وإتيان المرأة على أي شق شاء الرجل، وتحريم كشف العورة، والتصوير، وشرب المسكر^(٣). وكلها اختصاصات جماعية وفردية، عامة وخاصة. وفيها ردود أفعال على

آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»، «هون عليك فإنني لست بملك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد»، سيرة النبي جـ ٧/ ٧٦. «والسلطان لما على الأرض الله في إليه كل مظلوم من عباد الله» جـ ٧/ ١٠٨، «سبعة يظلهم الله في ظل يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل» جـ ٧/ ١٠٩.

(١) «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»، السابق جـ ٧/ ١٤٦، «ما من إمام يغلق بابه من ذوي الحاجة والحلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته» جـ ٧/ ١٤٨، «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر» جـ ٧/ ١٥٦ «إن الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقي به فإن أمر يتقوى الله وعدل فيه فإن له بذلك أجرا وإن أمر بغيره فإن عليه وزرا» جـ ٧/ ١٥٨، «تخلقوا بأخلاق الله» جـ ٧/ ١٧٢، «لا تزال عصاة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم. لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»، جـ ٧/ ١٨٢.

(٢) «أعطيت هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطها إلا الأنبياء»، «كتاب كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بياتي عام. ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي. أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيت منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدي ورسولي أدخلته الجنة»، الخصائص الكبرى جـ ٢/ ٤٢٣-٤٢٤.

(٣) السابق جـ ٢/ ٤٤٢-٤٤٩ «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروهوا عليه» ص ٤٤٤، «إن نبي إسرائيل كان إذا أصاب أحدهم البول قرض بالمقراض» ص ٤٤٥، «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» ص ٤٤٦، «لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» ص ٤٤٧، «إنه لما وسع الله به على هذه الأمة نكاح النصرانية والأمة» ص ٤٤٨.

الشريعة اليهودية. وأمتة لا تهلك بجوع ولا بغرق، ولا تتعذب بعذاب عذب به من قبلها، ولا يسلط عليهم عدو غيرهم، ولا تجتمع على ضلالة، إجماعها حجة، واختلافها رحمة في حين كان اختلاف من قبلها عذاباً^(١). لها الجنة، الطاعون لها رحمة وشهادة. وكان عذاباً على الأمم السابقة^(٢). وتأكل الأمة صدقاتها في بطونها، تثاب عليها في الدنيا والآخرة. وكلما دعت الله استجيب لها^(٣). وقد نودي على الأمة في القرآن بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وعلى سائر الأمم «يا أيها المساكين». يحمدون الله ويكبرونه ويسبحونه. وهي أمة وسط. تقاتل معها الملائكة. فرض عليها الوضوء والغسل والجمع والجهاد والنوافل كالأنبياء. ثوابها أكثر من ثواب باقي الأمم. وأوتيت العلم والإسناد والأنساب والأعراب وتصنيف الكتب. وعلماءهم كأنبياء إسرائيل. هم الآخرون في الدنيا، الأولون في القيامة، في وضع عال في الموقف، غر محجلون من آثار الوضوء، أثقل الناس وزناً^(٤). الأمة خير الأمم وآخرها. نقدتها ولم ينقدها أحد. ميسرة لحفظ كتبها في الصدور دون تحريفه. اسمها اسمان مشتقان من أسماء الله: المسلمون والمؤمنون. ووصف الدين باسم الإسلام والأنبياء المسلمون على غير الأمم السابقة التي لم يأخذ أنبياءها اسم الدين^(٥). ويدخل الجنة المسلمون قبل غيرهم من الأمم.

خامساً - تصورات حسية:

ويظهر وصف الرسول حديثاً في البداية منذ القرن الرابع. وهو وصف الآخرين جسده وعقله وسلوكه مع أهله ومجلسه وسيرته مع جلسائه، وسكوته. ويطلب الرسول باتباع سنته. فاتسعت السنة. وأصبحت أسلوب حياته الشخصية وعاداته^(٦). وقد انتهى هذا الوصف الكامل للجسد عند الصحابة والصوفية والنساء الشعراء إلى مدحه والتغزل فيه وفي محبته^(٧).

(١) الخصائص الكبرى ج٢/ ٤٥٠-٤٥١.

(٢) السابق ص ٤٥٢-٤٥٤ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله»، ص ٤٥٢.

(٣) السابق ج٢/ ٤٣٣-٤٣٤.

(٤) السابق ج٢/ ٤٥٥-٤٥٨/ ٤٧٧-٤٨٢.

(٥) السابق ج٢/ ٤٣٩-٤٤٠.

(٦) البستي ح٢/ ٤١٠-٤١٦، «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وعضوا عليها

بالتواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، السابق ص ٤١٥.

(٧) بهجة المحافل ص ٤٣٧-٤٣٨.

١- سمات الجسد

ويوصف شكله الخارجي من بدوية بالفاظ بدوية وصور رعوية بعد أن مسح الرسول ضرع شاة لها مجهودة، وشرب من لبنها، وسقى أصحابه. فلما سئلت من هو وصفته بأنه ظاهر الوضاعة، مشرق الوجه، حسن الخلق، ليس سمينا ولا نحिला، ورأسه لا صغيرة ولا كبيرة، وسيم حسن القسمة، سواد العينين، وعلى الجفنين شعر كثيف، وفي صوته بحة، لا قليل ولا كثير وكأنه رسم فنان لشخصية مثالية أو بطل فيلم. ويسمى في سيرة أخرى «صفته الظاهرة»^(١): الطول، واللون، ونعومة الشعر، واللحية، والوجه، والعينان، والمشي، والصوت، والخدان، والفم، والبطن، والصدر، والزندان، والمشي، والرداء^(٢). وأحيانا يعم لفظ الصفة هذه السمات الجسدية. تشمل الخصائص العامة الحسية والمعنوية^(٣). وهناك أيضا وصف لصفاته الجسدية، وتبدو فيها الوسطية والاتزان، ورفض الأطراف طبعاً، والذوق العربي^(٤).

(١) «رأيت رجلاً ظاهر الوضاعة، منبلج الوجه، حسن الخلق، لم تصبه نمله، ولم تُزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دمع، وفي الشفاه وطف، وفي صوته ضحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح، وفي لحيته كثافة. إذا صحت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكان منطق خرازات نظم يتخدرن، حلو المنطق، فصل، لا تزر ولا هذر، أجهر الناس وأجله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين. فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا. له رفاق يحنون به، إذا قال استمعوا لقوله. وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفور محشود، ولا عابس ولا مُفند، الإشارة ص ١٥٩-١٦١، شئائل الرسول ص ٣٢-٣٨، خير العباد ص ٦٣.

(٢) الفصول ص ٣٣١-٣٣٦، ألفية السيرة ص ٦٨-٨٠، في صفة خلقه الوسيم، وتناسب أعضائه واستواء أجزائه، وما جمع الله فيه من الكمالات، بهجة المحافل ص ٤٣٥-٤٣٩، سيرة النبي ص ٤٢٥، صفاته الظاهرة وإن شارك فيها غيره، السيرة الحلبية ص ٣/٤٦٦-٤٧٠، جمال الخلق، الرحيق المختوم ص ٤٧٩-٤٨٣، حسنة الباهرة، السيرة النبوية (٢) ص ٤٠٩-٤١٠، شئائل النبي ص ٣٣-٤٢، عيون الأثر ص ٤٢٤، حسنة الباهر بعد ما تقدم من حبه الطاهر، شئائل الرسول ص ٩-١٤، وجه الرسول ومحاسنه من فرقه وجينه وحاجبيه وعينييه وأنفه وفمه وثناياه، وطلعته ومجياه ص ١٤-٢٠، شعره ص ٢٠-٢٣، في منكيه وساعديه وإبطيه وقدميه وكعبيه ص ٢٣-٢٤، قوامه وطيب رائحته ص ٢٤-٢٨، «حجب إلي من ديناكم ثلاث، النساء والطيب وجعلت قرعة عيني في الصلاة»، ص ٢٨.

(٣) سيرة النبي ص ١١٤-١٢٠.

(٤) ليس طويلاً ولا قصيراً، ولا أبيض ولا أحمر ولا أسمر ولا متجعّد الشعر ولا مسترسله. وتوفى وليس في رأسه ولا لحيته عشرون شعرة بيضاء. ويقال كان شعره أحمر. كان ضخّم الرأس واللحية، خشن الكفين، ضخمة الكرادس (شعر الصدر). إذا مشى مال إلى الأمام. كان ضليع الفم، (حرة وبياض)، قليل لحم العقب. كان دقيق الساقين. وأكحل العينين. أحسن من القمر، أفلج الثنتين، مربوع المنكبين، له شعر بلغ

وصف علي للرسول بأنه لم يكون طويلا ولا قصيرا أي متوسطا مثل رسالته، ولم يكن شعره أجعد، وكان مسرح للشعر. ولم يكن ضخما أي استبعاد كل الصفات المتطرفة. وكان أبيض الوجه مما لا يتفق مع سمرة العربي بل مع رمز البياض وهو الصفاء، أسود العينين، طويل الأشعار، عظيم رءوس المفاصل وما بين الكتفين، دقيق الشعر ما بين الصدر إلى الصرة، قليل شعر الجسم، غليظ الكفين والقدمين كناية عن القوة والسعي إذا مشى لم يثبت القدمين دليلا على الخفة والارتفاع وكأنه يمشي في منحدر من الأرض. وإذا التفت التفت معاً، بين كتفيه خاتم النبوة. أجود الناس كفاً، وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة^(١). من رآه هابه، ومن خالطه أحبه. لا يوجد مثله من قبل أو من بعد^(٢). وواضح الدلالات النفسية على الصفات البدنية كما هو معروف في علم الفراسة عند العرب الذي أبدع فيه الأطباء العرب كالرازي وابن سينا.

ويوصف باقي الأنبياء وبأشكال الصحابة تقريبا للفهم، فموسى كأنه من رجال قبيلة شنوءة. وعيسى أشبه بعروة بن الورد. وإبراهيم أشبه بالنبي، وجبريل أقرب إلى دحية^(٣). وهي روايات وليست أقوالا مباشرة لأن الإنسان لا يصف جسده بل يصفه الآخرون. وهي في جبلته خِلقة غير مكتسبة^(٤). آدم ستون ذراعاً في السماء^(٥).

أذنه. كان أبيض مليحاً مقصداً (متوسطاً)، أبيض كأنها صنع من فضته، الأنوار حـ ١/ ١٤١-١٤٧.

(١) حـ ١/ ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) وهو ما يسمى بالفراسة.

(٣) «عرض على الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنها من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود. ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت شبهاً صاحبكم، ورأيت جبريل فإذا أقرب من رأيت من شبهاً دحية»، السابق ص ١٤٤-١٤٥.

(٤) الشفا حـ ١/ ٨١-٨٥.

(٥) «على صورة أبيهم آدم، طوله ستون ذراعاً في السماء»، «رأيت موسى فإذا هو رجل ضرب رجل أقرنى كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربيعة، كثير خيلان الوجه، أحر كأنها خرج من ديباس، مُبطن مثل السيف»، الشفا حـ ١/ ١٨٩، بهجة المحافل ص ٤٣٦. «وأنا أشبه ولد إبراهيم به»، «وموسى كأحسن ما أنت راء من آدم»، «ما بعث الله تعالى بعد لوط نبياً إلا في ذروة من قومه»، الشفا حـ ١/ ١٨٩. «كان موسى رجلاً حياً ستيراً، ما يُرى من جسده شيء استحياء...»، السابق ص ١٩١، صفة جسمه ولونه، السيرة النبوية ص ٤١٠-٤٦٢، شعره، شمائل الرسول ص ٢٠-٢٣، طوله، الخصائص الكبرى ص ١٦٣.

ويصف بعض المؤرخين وكتاب السيرة جسم الرسول، ودلاله الأوصاف الجسمية على الصفات النفسية كما هو معروف في علم الفراسة عند العرب. كان الرسول فخماً مفخماً يتلأأ وجهه كالقمر ليلة البدر، عظيم الهامة رجل الشعر، أزهر اللون، واسع الجبين، كث اللحية، معتدل الخلق، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر، يمشي الهويناً. وكان منطقته متواصل الأحزان، دائم الفكرة، طويل السكت، دمث لا يذم، ولا تغضبه الدنيا. قسم حياته ثلاثة أقسام، قسمة لله، وقسمة لأهله، وقسمة لنفسه. يؤثر أهل الفضل. يكرم الكريم، ويحذر الناس ويحتذر، يتفقد أصحابه، يحسن الحسن، ويقبح القبيح، لا يقصر عن الحق. كان مع جلسائه دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب. يسكت على الحلم والحذر والتقدير والتفكير^(١). وكان أكمل الناس في خلقه أي في هيئة جسده، متوسط القامة لا قصيراً ولا طويلاً، لا أسود ولا أبيض، حسن الوجه والصوت، كريم الجسد^(٢). وتسمى أحياناً حليته^(٣).

وكان بين كتفيه خاتم النبوة الذي يوصف مع ولادته في السيرة^(٤). فهو دليل حسي بدني خلقي وكأن النبوة في حاجة إلى دليل حسي وليست إعجازاً بلاغياً وعقلياً وتشريعياً. خاتم النبوة على ظهره وكأن النبوة صفه جسدية في شكل خاتم مثل الخاتم الذي في إصبع الملك والذي كان للرسول أيضاً منقوش عليه «محمد رسول الله». يجتم به رسائله إلى الملوك. وقد ولد مختوناً لم ير أحد سواته وكان رؤية سواة الأنبياء عيب كما هو الحال في رؤية سوات باقي البشر، وضرورة التغطية وعدم الكشف إلا في مواقف الألفة والمحبة بين اثنين^(٥). ولم يكن له ظل وكان الظل عيب في حين أنه نتيجة طبيعية

(١) علم الفراسة Physionomie عند الرازي مثلاً. سمته وهويته، معين الشائتل ص ١١٨-١٣١، قوامه وطيب رائحته، شائتل الرسول ص ٢٤-٢٨.

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ / ١٧١-١٨٣. اللهم كما أحسنت خلقي فأحسن خلقي، وحرّم وجهي على النار، الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله وأحسن صورتي، وزان مني ما شأن من غيري، بهجة المحافل ص ٤٩٨، «في صفة خلقه وما يناسبها في أوصافه الشريفة»، شائتل الرسول ص ٥٧-١٠٤.

(٣) سيرة المصطفى ص ٤٦-٦٥، في جمال صورته، شائتل الرسول ص ٥٩-٧٥.

(٤) السيرة النبوية ص ٤١٧-٤١٩، شائتل النبي ص ٤٢-٤٦، عيون الأثر ص ٤٣٢-٤٣٣، شائتل الرسول ص ٢٨-٣١، سيرة النبي ج ٢ / ١٦٠.

(٥) «من كرامتي أني ولدت مختوما ولم ير أحد سواتي»، خصائص الرسول ص ٣٠١-٣٠٢، «معين الشائتل ص ٢١.

لأنكسار الضوء على الأجساد^(١). وكانت له آية أخرى في قدمه^(٢). وكان إبطه أبيض بلا شعر وكان السواد عيب والشعر نقص وليس نتاجا طبيعيا للنمو البدني. تحلقه الرجال والنساء حرصا على النظافة. ويوضع مكانه الطيب^(٣).

وتشمل الصفات البدنية شعره وشيبه، طيب ريحه، فعله عند العطاس، مشيه، جلوسه، واتكائه، نومه. وهي كلها صفات أو عادات بدينة لا فضل فيها لأحد لأنها خلقية، ولا فضل فيها لأحد على أحد لأن البشر مختلفون^(٤). ونظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقدار وعورات الجسد وهي نظافة الشرع التي بنيت على الفطرة^(٥). فقد بُني الدين على النظافة، وكان الرسول يكتحل بالإثمد وهو نوع من الكحل يجلو البصر، وينبت الشعر^(٦). وهو ما يعيب الرجال حاليا، ولا يستحسن إلا من النساء، وشعره طاهر اتفاقا^(٧). وهو ما تقوم بصباغته النساء هذه الأيام.

وكان الرسول يتطيب في رأسه ولحيته بأنواع متعددة من الطيب منها العود^(٨). وكان لا يرده إذا أعطاه أحد له أو طيبه به. وكان يحب أن يلقي أصحابه متطيبا. وبالليل يخلو ويستنجي ويستاك ثم يطلب الطيب في جميع رباغ نسائه. وهناك فرق بين تطيب الرجل وتطيب المرأة. طيب الرجل ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب المرأة ما ظهر لونه وما خفي ريحه. وما الفرق بين حاستي النظر والشم في معرفة المرأة أو الرجل؟^(٩). والريحان

(١) الخصائص الكبرى حـ ١/ ١٦٤.

(٢) السابق ص ١٦٥.

(٣) السابق ص ١٥٣، خصائص الرسول ص ٣٠٦.

(٤) شعره وشيبه، الأنوار حـ ١/ ١٤٨-١٥٣، خاتم النبوة، طيب ريحه ١٥٧-١٦٠/ ١٥٤-١٥٧/ ٣٥١-٣٥٨.

(٥) شعره، السيرة النبوية ص ٤١٤-٤١٥، طيب رائحته ص ٤١٥-٤١٧.

(٦) الشفا حـ ١/ ٨٥-٩١/ ٢٠٠-٢٠٢/ ٢٠٩-٢١٤، صفة عرقه، شمائل الرسول ص ٨٤-٨٦، صفة طيبه، شمائل الرسول ص ٨٧-٨٨، عرق وطيب رائحته، معين الشمائل ص ١٢٣.

(٦) «إن خير أكلألكم الأثمد، يجلو البصر وينبت الشعر»، صفة شعره وساعديه وإبطيه، وقدمه وكعبيه، شمائل الرسول ص ٢٣-٢٤، شمائل النبي ص ٥٧-٥٩.

(٧) خصائص الرسول ص ٢٧٦.

(٨) الأنوار حـ ٢/ ٦٧٧-٦٨٠، شمائل النبي ص ١٢٩-١٣٢، عيون الأثر ص ٢٤٢، سيرة النبي حـ ٢/ ١٦٧.

(٩) «طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه»، «إذ أعطي أحدكم الريحان فلا يرده فإنه خرج من الجنة»، بهجة المحافل ص ٤٩٧، الأسوة الحسنة ص ٤٨١-٤٨٢، شمائل النبي ص ١٣١، ثلاث لا ترد: الوسائد، والدهن، واللبن، شمائل النبي ص ١٣٠.

من الجنة لا يُرد. وكان يرجل شعره ويتعهده ويدهنه^(١). فكان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. ويغسل رأسه بالسدر. وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به تأكيداً على الاستمرار بين الإسلام واليهودية والنصرانية. وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم. وكان المشركون يفرقون رؤوسهم. فسدل الرسول ناصيته ثم فرق فيما بعد. وكان يحتجم ويقص شعره وأظافره^(٢). فالحجامة دواء^(٣). وكانت له مواعيد للحجامة. وقد تكون في المسجد. ويجز شاربته مثل إبراهيم. وكان يقسم حلقة بين الناس بداية لتقديس الجسد. وكان مع قص الأظافر يتنف الإبط، ويحلق العانة ليس أكثر من أربعين ليلة. وحلق الرأس لا يكون إلا في حج أو عمرة. وقد اتهم الخوارج بالتحليق. فإما الحلق كله أو الترك كله. والنساء لا تطيلن شعورهن ولا تضعن الوشم حتى لا يغيرن خلق الله. والأمر كله مصلحة أو ضرر. إذ اشتكى أعرابي للنبي أن الهوام تؤذيه في شعره فأمره بالخلق^(٤). مع أنه من جمالات بعض النساء في الريف والحضر إطالة الشعر حتى منتصف الظهر في مقابل جمال الحضر في لم الشعر «الشنيون» الذي يقتضيه مصفف ماهر، وشعر ناعم.

وما يعتبر من الفطرة عادات اجتماعية مثل الختان، والتيمين، وحلق الرأس، والسواك، والتطيب، وإسفال الشعر، وإرخاء اللحي من أجل مخالفة المجوس^(٥). والبعض طبقاً لقواعد النظافة مثل السواك والتطيب. والبعض غير معقول مثل عدم دخول الحمام أو الحديث فيه، وضعه الخيال.

وكان وجهه يشع بنور العرش^(٦). وهي صفة جامعة بين الله والرسول، وتبدو

(١) الأنوار حـ ٢/ ٦٨١-٦٨٥، الأسوة الحسنة ص ٤٨٢-٤٨٣، استعماله المشط واكتماله ونظفه في المرأة ص ٤٨٣.

(٢) السابق حـ ٢/ ٦٩١-٦٩٧.

(٣) «إن أمثل ما تداوتم به الحجامة والقسط (بخور) لصبيانكم من العذرة (داء الحلق)، ولا تعذبوهم بالغمز (عصر الدم)، السابق ص ٦٩١.

(٤) «أحلقوه كله أو اتركوه كله»، «لن الله الواصلة والمستوصلة»، بهجة المحافل ص ٥٠٨، الأسوة الحسنة ص ٤٨٣-٤٨٥.

(٥) «قصوا الشوارب وأرخوا اللحي، خالفوا المجوس»، خير العباد ص ٦٥٧-٦٨١.

(٦) «جاءني جبريل فقال إنه يقرأ عليك السلام ويقول لك حبيبي إني كسوت حسن يوسف من نور الكرسي، وكسوت حسن وجهك من نور عرشي»، السابق ص ١٥٢-١٥٣.

الخصائص في عينيه^(١). وكان يسمع ما لا يسمعه الآخرون^(٢). وفمه وريقه وأسنانه آيات معجزات. إذا بصق في بئر زاد، وفاح منه المسك، وكانت مياهه أعذب مياه. وكان لسانه إذا مصه أحد روي كما فعل في الحسن والحسين^(٣).

وكان يرى من وراء ظهره، حتى يكون أكمل البشر الذين يرون أمامهم فقط. وهذا يعني الحس والتحفظ واليقظة والانتباه. وكان يرى في الظلمة كما يرى في النور بعين البصيرة. وكان يرى في الثريا أحد عشر نجما^(٤). وكان صوته يبلغ كل شخص في حين أن صوت كل شخص آخر لا يبلغه، وهو عدم مساواة في التراسل، فالعطاء مثل الأخذ، والتراسل متساوي الطرفين^(٥). كان لا يرفع صوته على عكس ما تعود عليه العرب هذه الأيام. وكان يستعمل لغة الجسد والإشارة وتحريك يديه حين يتكلم أو يتعجب. وطوله كان آية، وهو ما لا دخل للإنسان فيه بل يولد به، ولم يكن يُرى له ظل. وهو تصوير مضاد للنور. ولا يتزل الذباب عليه ولا على ثيابه^(٦). والذباب أمر طبيعي ونزوله على أحد ليس عيبا. وهو أمر ليس بيد أحد، وكان شعره يجمعه الناس بعد حلقه ليجلب لهم الرزق والنصر^(٧). وكان الناس يتبركون بعرقه ويجمعونه في قارورة. وهو ما يستحيل عمليا لأن العرق ليس بهذه الكثرة، ولا يخرج في صنبور^(٨). يشفي به المرضى ويتطيب به الناس. وكان الناس يشربون دمه حتى لا يذوق جسداهم النار^(٩). وكان محفوظا من الاحتلام وكان الاحتلام عيب ونقص، يعبر عن تمني ما لا يوجد، والمرأة موجودة

(١) «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون»، السابق ص ١٥٩-١٦٠، وصفه عضوا عضوا، الخصائص الكبرى ح ٤١٥/٢.

(٢) السابق ح ١٤٩-١٥٠ «إني أراكم من وراء ظهري»، صفة بصره، شمائل الرسول ص ٧٦-٧٨.

(٣) السابق ص ١٥٣، خصائص الرسول ص ٣٠٦.

(٤) خصائص الرسول ص ٢٧١/٢٩٩-٣٠٥/٣٠٦.

(٥) الخصائص الكبرى ح ١-١٥٩-١٦٠، صفة صوته، شمائل الرسول ص ٨٩-٩٠، في صفة كلامه وسكوته، ص ١٠٠-١٠١/٨٩-٩٠، الأسوة الحسنة ص ٤٥٣-٤٥٥.

(٦) الخصائص الكبرى ح ١٦٣-١٦٤.

(٧) السابق ح ١٦٤، شمائل النبي ص ٤٦-٥٢، سيرة النبي ح ٢/١٦٠.

(٨) الخصائص الكبرى ح ١٦٠-١٦٣ «أتيني بقارورة واسعة الرأس وعود شجره... مر ابتك أن تغمس هذا العود في القارورة، وتطيب به»، ص ١٦٢-١٦٣.

(٩) السابق ص ١٦٥.

دائماً^(١). وكانت الأرض تبتلع بوله وغائطه^(٢). ويستشفى ببوله إذا شربه إنسان يشتكي ببطنه^(٣). لا يتشاءب ولا يتمطى وهي من وظائف البدن البيولوجية لا عيب فيها. وكان القمل لا يؤذيه وهو ضد متطلبات النظافة^(٤). وهناك تقديس جسد الرسول وفضلاته، دمه وريقه وبوله كان يستشفى ويتبرك ببوله ودمه. وأخبر الرسول امرأة تشرب بوله بأن الوجع لن يصيب بطنها. ويضاف القيء أحياناً^(٥). ومن كراماته اختصاصه بطهارة دمه وبوله وغائطه^(٦). وقد بدأ تقديس أجزاء من جسد الرسول ومحيطه في حياته مثل القدم المباركة في إحدى روايات المعجزات والتعبير عن ذلك شعراء. فالخيال شعر، والشعر خيال^(٧). وكثير من الأمور رجم بالغيب لا دليل عقلي عليها مثل عدم أكل الأرض أجسام الأنبياء. وهو ما يعارض الحفائر وعظام الأنبياء ورفاتهم^(٨). فلا يجوز أن ينطبق عليه ما ينطبق على الآخرين بالرغم من وصفه بأنه ميت مثل الآخرين ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. فما لزوم وصف جسده، حسنة الباهر، وجسمه، ولونه، وشعره، وطيب رائحته، وخاتم النبوة بين كتفيه لو أمكن تبرير أخلاقه وشأئله، كرمه، وتواضعه، ومزاحه، وزهده، وعبادته، وشجاعته؟^(٩).

٢- العادات الجسدية

وكان لا يتشاءب^(١٠). أما العطس فممكن مع وضع اليد أو المنديل على الفم. في مشيه

-
- (١) «ما احتلم نبي قط وإنما الاحتلام من الشيطان»، السابق ص ١٦٨.
(٢) «إنا معشر الأنبياء تنبت أجسادنا على أرواح أهل الجنة. فما خرج منها من شيء ابتلعت الأرض»، السابق ص ١٦٩-١٧٠، خصائص الرسول ص ٢٩٩-٣٠٠، «يا عائشة أما علمت أن الله تعالى أمر الأرض أن تبتلع ما خرج من الأنبياء»، خصائص الرسول ص ٣٠٠،
(٣) السابق ص ١٧٠-١٧١.
(٤) خصائص الرسول ص ٣٠٣-٣٠٦، الخصائص الكبرى ح ١/ ١٦٤.
(٥) «من مس دمي دمه لم تمسه النار»، محمد رسول الله ح ١/ ٣٥٥، خصائص الرسول ص ٢٧٦، «لا يجمع بطنك» ص ٢٧٨، الخصائص الكبرى ح ١/ ١٦٥، «المعجزة في بوله وغائطه ص ١٦٩-١٧٠، الاستشفاء ببوله ص ١٧٠-١٧١.
(٦) الخصائص الكبرى ح ٢/ ٥٣٤-٥٣٧ «خالط دمي بدمه ولا تمسه النار»، ص ٥٣٦.
(٧) سيرة النبي ح ٢/ ٣٧٠.
(٨) «وبعد وفاتي إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، وفاة الحبيب ص ١٩١، بهجة المحافل ص ٦٢٧، خصائص الرسول ص ٢٩٣-٢٩٤ «وبعد الموت إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء فنبى الله حي يرزقه»، الخير الكثير ص ٥٩.
(٩) خلاصة ابن كثير ص ٤٠٧-٤٣٧.
(١٠) «ما تتشاءب النبي قط»، الخصائص الكبرى ح ١/ ١٥٨، حفظه من التناوب، ح ١/ ١٥٨-١٥٩، آداب

يطأ الأرض بقدمه كله دون أن يكون له أخمص يسرع ويهرول في مشيه^(١). يسير وراء صحبه حتى يترك ظهره للملائكة، عيناه تنامان ولا ينام قلبه^(٢).

وكان قويا في جماعه. أُعطي قوة أربعين رجلا^(٣). وفي رواية قدر فيه لحم. وفي رواية ثلاثة القوة في البطش والنكاح. وهما عاطفتان نقيضتان، البطش عداوة، والنكاح محبة. وقد فضل الرسول على سائر الناس بأربع: السماحة والشجاعة وكثرة الجماع والبطش. ويقتضي العطاس وضع اليد أو الثوب على الفم حماية للجالسين من الرذاذ واحتمال انتقال العدوى^(٤). وهذا هو معنى دخول الشيطان فيه، وإذا كان العطاس أفضل من التأثب فلأن العطاس يدل على اليقظة في حين أن التأثب مؤشر على الكسل والرغبة في النوم. وكلاهما حاجتان للجسد لا فضل لأحدهما على الآخر، فعلان بيولوجيان. ويتحول العطس إلى فعل اجتماعي بالتشميت، من فعل فردي إلى فعل اجتماعي. وعدم العطاس من آداب المجالس، والتناجي والتأثب والجشاء. ولا يقام للقدام^(٥). ولا يجوز التفريق بين اثنين أو إقامة رجل من مجلسه كي يجلس فيه آخر. ولا يجوز القيام لأحد. وإذا قام أحد من مجلس وعاد فهو أحق به. ولا يتناجي اثنان دون الثالث. ولا يجوز أن يتقدم الصغير على الكبير. وعطاس الرسول فعل عضوي محض، لا إرادي، لا شأن له

المجلس.

(١) «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»، السابق ص ١٦٦.

(٢) «أتاني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلا في الجماع»، السابق ص ١٦٧-١٦٨، «فضلت على الناس بأربع بالسماحة والشجاعة وكثرة الجماع والبطش» ص ١٦٨، في قوته، شاتل الرسول ص ١٠٢-١٠٤.

(٣) خير العباد ص ٦٧٥-٦٧٧ «دعوا ظهري للملائكة» ص ٦٧٦ «في عاداته وسجته في المباحات والمعتادات والضروريات»، بهجة المحافل ص ٤٨٧-٥١٣. «إذا تناثب أحدكم فليمسك بيده على فمه فإن الشيطان يدخله» سيرة النبي ص ٥٠٥-٥٠٦.

(٤) «إن الله يحب العطاس ويكره التأثب، فإذا عطس أحدكم حمد الله. كان حقا على كل مسلم سماعه أن يقول له يرحمك الله. وأما التأثب فإنما هو من الشيطان. فإذا تناثب أحدكم فليده ما استطاع فإن أحدكم إذا تناثب ضحك منه الشيطان»، ويقال مع التشميت «يهدبكم الله ويصلح بالكم»، بهجة المحافل ص ٥٠٩-٥١١ سيرة النبي ص ٥٠٥، صفة عطاسه، شاتل الرسول ص ٩٣-٩٩.

(٥) «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنها»، «لا يقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»، «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»، معين الشاتل ص ٣٢٨-٣٣٥.

بخصائصه النفسية أو الخلقية أو الشرعية أو الدينية^(١). إنها علاقات اجتماعية وترابط أخرى. يقابل الآخر بالتشميت^(٢).

ومن الصفات ما هو أقرب إلى العادات الشخصية والاجتماعية والتي تتغير من فرد إلى فرد، وتختلف من بيئة اجتماعية إلى بيئة اجتماعية أخرى. فالبدو غير الحضري^(٣). فالجلوس والانتكاء والقعود والقرفصاء عادات تتوقف على قدرات البدن ومثانة المفصل، لا فضل فيها لأحد على أحد كما هو الحال في المساجد عندما يجلس كبار السن والمرضى على مقاعد آخر الصفوف، وكان إذا جلس كان أعلى من الجلوس^(٤). والتوكؤ فعل العجائز على الشباب. وهي عادات لا بأس بها مثل قراءة الرسول القرآن ورأسه في حجر عائشة وهي حائض^(٥). والمشي عادة بدنية تتوقف على قدرات الجسد، بدانة أو نحافة، قصر خطوة أو طولها، قصر بدن أو طوله. وليس في النبوة منها شيء^(٦). وكلها روايات وليست أقوالا مباشرة. لا صواب فيها ولا خطأ. يمشي متكفيا، مسرعا، لا عاجزا ولا كسلانا. تمشي الملائكة وراءه. فالعادة البدنية الخالصة مناسبة للخيال. وقد يمتد المشي إلى آداب الطريق عامة، طريقة المشي، والسلام، وعدم إيذاء الناس بالحمل، وعزل الأذى عن الطريق، وآداب الجلوس فيه. والتوكؤ على عصي من أخلاق الأنبياء، ومؤشر على الكهولة وكبر السن والاحترام. وهي صورة شيخ البلد في الأدب

(١) الأنوار حـ ١/ ٢٦١-٢٦٣.

(٢) «إن هذا حمد لله وإنك لم تحمده»، السابق ص ٢٦٣.

(٣) مثل المشي، والجلوس، والانتكاء، والنوم، والأكل، والطعام، والأدام، والتمر، والفواكه، والشرب، والسقي، والشرب واستعذاب الماء، والقدح، والصحفة، والقول عند الفراغ من الأكل، والدعاء للضيف، والضيافة والوليمة، والنكاح والمعاشرة وحب النساء، والتطيب وحب الطيب، وترجيل الشعر وتعمده وتدهنه، والمشط والمرأة والمرءاة، والاكتمال، والحجامة، وقص الشعر والظفر، السابق حـ ١/ ٣٥٤-٣٦١ / ٣٧٨-٣٧٩-٥١٢-٧٠٨، خير العباد ص ٦٦٦-٦٦٨.

(٤) خصائص الرسول ص ٣٠٦-٣٠٨.

(٥) الأنوار حـ ١/ ٣٥٤-٣٥٨، خير العباد ص ٣٧٧، شمائل النبي ص ٩٠-٩٤، معين الشمائل ص ١٢٢، «أما أنا فلا لا أكل متكئا»، بهجة المحافل ص ٤٨٨، جلوسه، الأسوة الحسنة ص ٤٥٧-٤٥٨، اتكاؤه ص ٤٦٠-٤٦٤.

(٦) الأنوار حـ ١/ ٣٥٤-٣٥٨، قيامه ومشي، الأسوة الحسنة ص ٤٥٨-٤٦٠، شمائل النبي ص ٨٩-٩٠، الخصائص الكبرى ص ١٦٦، آداب الخروج والسير، سيرة النبي حـ ٢/ ٤٢٠، معين الشمائل ص ١٢٠.

الشعبي^(١). يمسك بها الزعماء طلبا للطاعة سواء استند بها على الأرض أو رفعها إلى السماء أو كلاهما^(٢).

والنوم أيضا عادة شخصية لا يتأسى فيها أحد بأحد. البعض يفضل النوم على الجنب الأيسر أو الأيمن أو الظهر أو البطن. وهناك نوم المريض ونوم الطفل^(٣). وإذا كان الرسول يستلقى في المسجد، وإحدى رجله على الأخرى فهذا ما لا يتم اليوم. وكان إذا عرس بليل اضطجع على شقة الأيمن. وإذا عرس قبل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه. يسمع غطيظه في النوم وهو الآن معاب. إذا نام نفخ. له عاداته في النكاح والوضوء والصلاة والترتيب بينها. لا يحب الفرش الوثير حتى ولو كان فرشا واحدا مثنيا ثلاثا أو أربعا لأن ذلك يمنعه من الصلاة، تنام عيناه ولا ينام قلبه^(٤). وإذا رأى أحد رؤية يكرها فإنه يستعيز^(٥). ينام مستقبلا القبلة داعيا الله أن يقيه عذابه، وأنه باسمه يموت ويحيا^(٦). وليست عاداته الشخصية نموذجا خاصا. بل هو عبد يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد^(٧).

وكان الرسول يزور متقنعا حتى لا يعرفه أحد، يضع فوقه ثوبا وكأنه ثوب زيات^(٨). هكذا أتى أبو بكر عندما أذن له في الخروج ولطلب صحبته. واليمين أحق بالزينة من

(١) «التوكؤ عليها من أخلاق الأنبياء»، بهجة المحافل ص ٥٠٩.

(٢) انظر مقالنا: «العصا لمن عصا»، العربي الناصري ٣١ مايو ٢٠٠٩.

(٣) الأنوار ح ١/ ٣٥٨-٣٦١، «ردوه إلى حاله الأول فإن وطأته منعتني من الصلاة»، بهجة المحافل ص ٤٩٤،

شئائل النبي ص ١٥٣-١٥٥، الخصائص الكبرى ح ١/ ١٦٦-١٦٧.

(٤) خير العباد ص ٦٦٨، سيرة النبي ح ٢/ ١٧٢، ح ٦/ ٤٢٣-٤٢٦.

(٥) «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليصق عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا، وليتحول عن

جنبه الذي كان عليه»، بهجة المحافل ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٦) «رب، قني عذابك يوم تبعث عبادك، اللهم باسمك أموت وأحيا»، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا،

وإليه النشور»، بهجة المحافل ص ٤٩٥. نومه وانتباهه، الأسوة الحسنة ص ٤٧٠-٤٧٢، ما كان يقرؤه عند

النوم ص ٤٧٢، ما كان يقوله ويفعله إذا استيقظ ص ٤٧٢، ما كان يقوله إذا أصبح وأمسى ص ٤٧٣، في

صفة نومه، شئائل الرسول ص ١٨٩-١٩٢.

(٧) «إنما أنا عبد، أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، بهجة المحافل ص ٤٨٨، عاداته سيرة النبي

ح ٢/ ١٧١.

(٨) الأنوار ح ٢/ ٥٣٧-٥٣٨، في صفة لباسه: الإزار، والقميص، والرداء، والعمامة، والخاتم، والنعل،

«اليمين أحق بالزينة من الشمال»، بهجة المحافل ص ٥٠٧.

الشمال طبقاً للتوجه العام بأولوية اليمين في الدنيا والآخرة. يجب الأبيض من الثياب^(١). ويجب بعض الألوان مثل الأبيض والأصفر، ويكره البعض الآخر مثل الأحمر^(٢). معظم لباسه من الصوف، رمز الخشونة والتقشف على عكس الحرير رمز لليونة والنعومة^(٣). لا يخل به على أحد إذا ما طلبه ثم يحبك لنفسه غيره. يلبس القميص والجبّة، والقميص أحب إليه، والحلة الحمراء التي لا تنتسب إلى اللون الأحمر لكرهته^(٤). يلبس الخميصة والسروال والخفين والخاتم والبيضة والبردة. ويلبس الإزار. ويطيله حتى العقين^(٥). له عمامة وقلنسوة^(٦). العمامة سوداء، والقلنسوة بيضاء. ويختص الرسول بعذبة في العمامة وانتزار في الوسط وهمامة سياء الملائكة^(٧). ويصل الأمر إلى وصف خفه ونعله، المصنوع محلياً أو المهدي من النجاشي^(٨). وقد ألف فيهما تأليف مستقلة. يصلي فيها أحياناً في حالة طهارتهما^(٩). ولبس النعل بداية باليمين وخلعة بداية بالشمال لتوحيد السلوك، وتفضيل التيامن. في حين أنه من المصطلحات السياسية المعاصرة. اليمين يعني المحافظة ورأس المال، واليسار يعني التحرر وحقوق الشعوب للفقراء في أموال الأغنياء مثل «اليسار الإسلامي»^(١٠). وكان عندما يلبس الجديد يحمّد الله عليه ويسأل الله من خيره،

(١) «البسوا البياض فإنها أظهر وأطيب، وكفّوا فيها موتاكم»، شمائل النبي ص ٥٩-٦٧/٩٠.

(٢) سيرة النبي ح ١٦٥-١٦٦.

(٣) الأنوار ح ٥٢٧-٥٣١، خير العباد ص ٦٥٤-٦٥٥.

(٤) خير العباد ص ٦٥٠-٦٥٤، ألفية السيرة ص ٨٧-٨٩، لباسه، الأسوة الحسنة ص ٤٧٥-٤٧٧، لبسه الجبّة والسراويل ص ٤٧٧-٤٧٩، سيرة النبي ح ١٦١/٢-١٦٥، ح ٤٢٦-٤٣٠، في صفة لباسه من قميص وإزار ورداء وقلنسوة وعمامة، شمائل الرسول ص ١٠٧-١١٩، في صفة لباس الرسول وقرائه، شمائل الرسول ص ١٠٥-١٤٠.

(٥) شمائل النبي ص ٨٧.

(٦) الأنوار ح ٥٣٤-٥٣٧، خير العباد ص ٦٤٩، شمائل النبي ص ٨٥-٨٧.

(٧) «رأيت الملائكة معتمين»، «عليكم بالعائم»، وأرخوها خلف ظهوركم فإنها سياء الملائكة»، انتزروا كما رأيت الملائكة تأتزر عند ربها إلى أنصاف سوقها»، الخصائص الكبرى ح ٢/٤٤١، العباس، سيرة النبي ح ١٦١/٢-١٦٥، في أمر اللباس، معين الشمائل ص ٣٦٩-٣٧٧.

(٨) الأنوار ح ٥٤٥-٥٥٢، شمائل النبي ص ٦٩-٧٣، في صفة نعله، شمائل الرسول ص ١٢٨-١٣١.

(٩) «إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قدراً (أذى). إذا جاء أحدكم المسجد فليَنْظُرْ فإن رأى في نعليه قدراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما»، السابق ص ٥٥٠، لبس النعلين، الأسوة الحسنة ص ٤٧٩-٤٨٠.

(١٠) «إذا تعل أحدكم فليبدأ باليمين. وإذا نزع فليبدأ بالشمال. فلتكن اليمن أولها تعل وآخرها تنزع»، شمائل النبي ص ٧٣.

ويتعوذ به من شره^(١). ولم يشأ أن يلبس خاتماً من ذهب فتقلده الناس. واتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه «محمد رسول الله» كل لفظ في سطر^(٢). وفي رواية من ورق مما يصعب حفظه واستخدامه في ختم الرسائل، وفي رواية يختم به ولا يلبسه. وفي رواية لم يلبس خاتماً على الإطلاق حتى لا يشغله عن العبادة^(٣).

وكلها أذواق شخصية وعادات اجتماعية تتغير بتغير الأفراد والعصور. ومن ثم فليس من الأسوة اتباع هذه الأذواق بدعوى لباس الرسول. فرضتها ظروف جغرافية وتاريخية واجتماعية. ومنها التمايز عن لبس الآخرين كما يفعل بعض الإسلاميين حالياً في التمسك باللباس العربي تمايزاً عن اللباس الغربي^(٤). وكذلك تمايزاً بين لباس الرجال عن النساء^(٥). والبياض كلون مفضل يتغير من عصر إلى عصر. كان لون الحداد عند المصريين القدماء، وهو الآن لون الفرع، وأصبح الأسود هو لون الحداد^(٦). والطيايسة لبس اليهود والمسيح الدجال^(٧). ولبس الثوب للشهرة والموضات اليوم لذلك^(٨). وجر الثوب على الأرض مظهر من مظاهر الخيلاء وهو اليوم لبس العرس^(٩). وكانت له عاداته الشخصية: سباق الآخرين وصراعهم، خصف نعله، ورقع ثوبه بيده، ورفع دلو، وحلب شاته، وخدمة أهله، وحمل الطوب لبناء المسجد، وربط الحجر على بطنه من الجوع^(١٠). واحتجم واكتوى. فأصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ

(١) الأنوار حـ ٢/ ٥٣١-٥٣٣ «اللهم لك الحمد كما كسوتني هذا أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»، السابق ص ٥٣١.

(٢) الأنوار حـ ٢/ ٥٣٩-٥٤٥ «لا ألبسه أبداً» ص ٥٣٩، في صفة خاتمة، شئنا الرسول ص ١٢٤-١٢٧.

(٣) «شغلني هذا عنكم منذ اليوم نظرة إليه وإليكم نظرة، ثم رماه»، السابق ص ٥٤٥، خير العباد ص ٤٥٣.

(٤) «إن هذه من لباس الكفار فلا تلبسها»، خير العباد ص ٦٥١، «ليس منا من تشبه بقوم غيرنا»، السابق ص ٦٥٤.

(٥) «هلا كسوتها بعض أهلك فإنه لا بأس بها للنساء»، السابق ص ٦٥١.

(٦) السابق ص ٦٥٣.

(٧) «يخرج معه سبعون ألفاً من يهود أصهبان عليهم الطيايسة»، السابق ص ٦٥٤.

(٨) «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة ثم تلهب فيه النار»، السابق ص ٦٦٧.

(٩) «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، السابق ص ٦٥٧.

(١٠) خير العباد ص ٦٨٩-٦٩٠.

المادة المضرة^(١). وكل ما يتعلق بالأطعمة والأشربة وأشكال اللباس هي أذواق خاصة يختلف الناس فيها. ولا يوجد ذوق نموذج لأذواق أخرى. والنوم والاستيقاظ والمشي والوقوف عادات شخصية يختلف فيها الناس كذلك. ولا يوجد طريقة مثلى لذلك. لذلك فرق القدماء بين سنة قولية وسنة فعلية، سنة عبادة وسنة عادة^(٢). تتداخل الحياة الخاصة مع الحياة العامة. فإذا كانت شئله ومجالسه وخطابته وعباداته وأخلاقه من حياته العامة فإن حياته مع أزواجه وأولاده من حياته الخاصة^(٣). كل ذلك عادات^(٤).

٣- الأذواق الشخصية

والتسمية على الطعام تذكير بالله حتى لا ينجرف الإنسان إلى الطعام كما ينجرف الحيوان. والأكل باليمن عادة إنسانية عامة، والأشول استثناء، وفي بعض المجتمعات مرض. والأكل من حافة الطعام وليس من وسطه ذوق طبيعي في مجتمع يأكل جماعة. وبالصورة الفنية الشيطان يأكل ممن لم يُسم عليه. فإذا سمي عليه استفرغ الشيطان. والتسمية بركة. وإذا سقطت لقمة تنظف وتؤكل حتى لا يأكلها الشيطان^(٥). وقد اتسم الرسول باعتدال الفطرة وسلامة الذوق^(٦). وهناك دعوات في نواحي المعاش في بداية

(١) الأول في آية ﴿وَأَنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَأَسْتَبَسُّمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَكَيْسُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، والثاني في ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، والثالث في ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، خير العباد ص ٦٩٠.

(٢) سيرة النبي ح ٢/١٥٩-١٨١.

(٣) شئله ح ٢/١٥٩-١٨١، مجالسه ص ١٨٨-١٩٠، خطابه ص ١٩١-١٩٨، عباداته ص ١٩٩-٢٤٠، حياته مع أزواجه ص ٣١٣-٣٢٨، وأولاده ص ٣٢٩-٣٤١.

(٤) السابق ح ٦/٤٠٩.

(٥) «سم يا غلام وكل بيمينك، وكل مما يليك»، «البركة تنزل وسط الطعام فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه»، «إن الشيطان يستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه».... «وما زال الشيطان يأكل معه. فلما ذكر اسم الله تعالى، استقاء ما في بطنه»، «أما أنه لو سمي الله.... لكفاكم»، «إذا سقطت لقمة أحدكم... فليميط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان»، بهجة المحافل ص ٤٨٨-٤٨٩، «اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»، سيرة النبي ص ٥٠٠، في صفة أكل الرسول وشربه ونومه، شئله الرسول ص ١٤١-١٩٢.

(٦) السيرة النبوية ص ٤٣٧-٤٣٨، الأسوة الحسنة ص ٤٦٤-٤٦٥، ما كان يعافه من الأطعمة ص ٤٦٦-٤٦٨، شئله النبي ص ٦٧-٦٨/٩٤-١٠٠، سيرة النبي ح ٢/١٦٣-١٦٤/٦٨-١٠٥-٤٠٥، سيرته في طعامه وشرابه، معين الشئله ص ٣٦٣-٣٦٨.

الطعام وفي تقديمه وفي نهايته. ويحاول الشيطان إقناع رب المنزل أنه لا يوجد طعام ليستثيره ويجعل كرمه مستحيلاً^(١). وبعد الطعام يقال الحمد لله. فالحمد قد يجلب المزيد، والشحط يقل البركة^(٢). والرضا النفسي إشباع. وهو سر تكاثر الطعام ونبع الماء في معجزات عديد من الأنبياء، محمد والمسيح^(٣). وكانت له عدة أقوال حين الفراغ من الطعام ودعاؤه للمضيف^(٤). منها الحمد^(٥). ويطلب رفع الطعام لأنه صائم^(٦). يدعو لمضيفه بالبركة في الرزق^(٧). والأكل باليمين وليس باليسار، ومما يلي وليس بالبعيد^(٨). فاليمين عادة الأغلبية، والشمال استثناء. وبعد الطعام تغسل اليدين من الدسم^(٩).

(١) «الله بارك لنا فيما رزقنا، وقتنا عذاب النار، باسم الله»، «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل بما يليك»، «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله. فإن نسي أن يذكر الله في أوله فليقل باسم الله أوله وآخره»، «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لا بيت لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت. وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»، سيرة النبي ص ٤٩٨-٥٠١، «إنا ذكرنا اسم الله حين أكلنا. ثم قعد من أكل ولم يسم الله فأكل معه الشيطان»، شمائل النبي ص ١١٦-١١٩/٢٠٣-٢٠٨، في ما كان يقول النبي قبل الطعام وبعده، شمائل الرسول ص ١٧٦-١٧٨، في شتى أحوال الرسول وبعض أذكار وأدعية من جوامع كلمه، شمائل الرسول ص ٢٧٥-٣٢٦، من أحواله ص ٢٧٧-٢٨٦.

(٢) «الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفئ ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا»، «من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقني من غير حول مني ولا قوة... غفر له ما تقدم من ذنبه»، بهجة المحافل ص ٤٩٠، «أدبروا طعامكم بذكر الله والصلاة ولا تناموا عليه فتقوسوا له قلوبكم»، سيرة النبي ص ٥٠١، شمائل النبي ص ١١٨-١١٩، معين الشرائع ص ٣٦٧.

(٣) «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»، «الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين»، «الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا»، «من أكل طعاما فقال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقني من غير حول مني ولا قوة غفر الله له ما تقدم من ذنبه»، «من أطعم الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعنا خيرا منه، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه. فإنه ليس شيء يجزئ عن الطعام والشراب غير اللبن»، سيرة النبي ص ٥٠٠-٥٠١، الأنوار ص ٢٦٢.

(٤) الأنوار حد ٢/٦٦١-٦٦٦.

(٥) «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا، وأطعنا وأسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله الذي أطعم الطعام، وسقى من الشراب، وكسى من العرى، وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، الحمد لله الذي فضّلني على كثير من خلقه تفضيلا، الحمد لله رب العالمين»، السابق ص ٦٦٣-٦٦٤.

(٦) «أعيدوا سمعكم في سقائه، ونحركم في وعائه فإني صائم»، السابق ص ٦٦٥.

(٧) «الله بارك لهم فيها رزقهم، واغفر لهم وارحمهم»، السابق ص ٦٦٦.

(٨) «أذن يا بني فسم الله، وكل بيمينك، وكل بما يليك»، شمائل الرسول ص ١١٧.

(٩) معين الشرائع ص ٣٦٨.

وأفضل غموس الخل. وأطيب طعام لحم الظهر. وأفضل ميزان التعادل بين الأطعمة الحارة والباردة^(١). يجب الزيت للطعام والدهان لأنه من شجرة مباركة^(٢). طعامه وإدامه الضان المشوي خاصة الكتف الذي سمته مرة يهودية^(٣). ومن شدة حبه لذراع الشاة أراد ذراعا غير التي أخذها وكان لها أكثر من ذراع، معجزة من معجزاته^(٤). وأطيب اللحم الظهر^(٥). يأكل الدجاج. وأكل رجل حمار وحشي وفخذي أرنب. يأكل الدباء، والقرع والقديد، ويجب إضافة التوابل. يأكل إذا ما وجد طعاما فإن لم يجد يصوم. يكره بعض الطعام من أجل ريحه. ويكفي الإدم (الخبز والخل)^(٦). والخبز مع التمر. ويجب الحلواء والعسل دون خوف من مرض السكر. ويكره الأضب ويجب الأقط والسمن دون أن يخشى من الكولسترول بلغة العصر. والأطعمة بين الرسول الشرعي والأذواق الشخصية، يعاف بعض اللحم وبعض التوابل. يقبل الهدية. ولا يورث. ما ترك صدقة. ويجب عائشة كما يجب الثريد، وفضلها على النساء كفضل الثريد على الطعام^(٧). يأكل التمر والفاكهة^(٨). والنخلة مثل المؤمن في النبات. ينبت التمر، تمر العجوة وهو القرن^(٩). يأكل البطيخ بالرطب، والقثاء بالملح. يجب الأسود من التمر مثل راعي الغنم. ولا يوجد نبي إلا رعاها^(١٠).

(١) «نعم الأدام الخل»، «ما أفقر بيت من آدم فدخل»، «أطيب اللحم لحم الظهر»، «برد هذا يعدل حر هذا، وحر هذا يعدل برد هذا»، «إننا نحب اللحم»، بهجة المحافل ص ٤٩٠-٤٩١، سيرة النبي ص ٤٩٩، ما كان يفعله إذا أتى بالبوأكبر، الأسوة الحسنة ص ٤٦٥-٤٦٦، شئائل النبي ص ١٠٠-١١٥، صفة عيشه وخبزه، شئائل الرسول ص ١٤٣-١٥٧.

(٢) «كلوا الزيت وادهنوا فإنه من شجرة مباركة»، شئائل النبي ص ١٠٣، في صفة عيش الرسول وخبزه، شئائل الرسول ص ١٤٣-١٥٧، في صفة أكله ص ١٥٨-١٧٥.

(٣) الأنوار ح ٢/ ٦١٤-٦٣٣، شئائل النبي ص ١٠٨.

(٤) «ناولني الذراع... والذي نفسي بيده، لو سكت لناولتني الذراع ما دعوت»، السابق ص ٦١٨، «لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع لقبلت»، سيرة النبي ص ٤٩٩.

(٥) «أطيب اللحم لحم الظهر»، السابق ص ٦١٩.

(٦) «ما أفقر بيت من آدم وخل»، السابق ص ٦٣٠، «نعم الإدام الخل»، السابق ص ٦٣١، خير العباد ص ٦٥٩-٦٦١. الفصول ص ٤٦٣-٤٧٥، ألفية السيرة ص ٨٦-٨٧.

(٧) «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، شئائل النبي ص ١١٠.

(٨) الأنوار ح ٢/ ٦٣٤-٦٤٠، شئائل النبي ص ١٢٠-١٢٣، في صفة فاكهته، شئائل الرسول ص ١٧٩-١٨٢.

(٩) «إني قد قرنت فاقرون»، السابق ص ٦٣٧.

(١٠) «عليكم بالأسود منه فإنه أطيب، وبالنسبة للغنم، وهل نبي إلا رعاها» السابق ص ٦٤٠.

ومن المحرمات أكل البصل والثوم والكرات وكل ما له رائحة كريهة. فالرسول يناجي الله ويقابل الناس^(١). ولا يأكل الضب لأن نفسه تعافه ولأنه لم يكن موجودا بأرض قومه^(٢). ومن الشراب يستعذب الماء^(٣). ويجب شرب اللبن^(٤). فليس هناك شراب أمراً منه^(٥). ومع ذلك يتمضمض بعد شرب اللبن لأن به دسماً، ويشرب من نفس القدح الماء والنيذ والعسل واللبن. ويشرب النيذ، ينبذ له صباحاً، ويشرب منه مساءً، أو ينبذ له مساءً ويشرب منه صباحاً، ولمدة ليلتين آخرين. فإن تبقى شيء شرب منه الخادم أو يراق. وكان يوضع فيه أحياناً قبضة من النيذ يلتقط حموضته.

وفي شربه كان يتنفس ثلاثاً لأنه أروى وأبرأ وأمرأ. يقطع الشراب جرعات. ويسمى في كل واحدة ويشكر. يشرب قاعداً وقائماً، ومن قرية معلقة^(٦). يسقي القوم وهو يشرب في النهاية^(٧). ثم الأيمن فالأيمن، ثم الأسن والأشيب مع اعتراض غلام على هذا النسق الأبوي ورفضه استئذان الرسول^(٨). ولا يُنفخ في الشراب حتى لإزالة القذافة بل يراق الشراب. وهي مظاهر للمروءة^(٩). وفي الشراب لا يشرب مرة واحدة كشرب البعير بل متقطعاً مثني وثلاث^(١٠). ومن الأفضل ألا يشرب أحد وهو قائم. فإذا نسي فليستفرغ

(١) «كل فإني أناجي من لا تناجي، ولكني أكرهه من أجل ربحه، يا أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي ولكم، ولكنها شجرة أكره ربحها»، خصائص الرسول ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) «لا ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»، سيرة النبي ص ٤٩٩، ما كان يعافه من الأطعمة، الأسوة الحسنة ص ٤٦٦-٤٦٨، في صفة فاكهته، شمائل الرسول ص ١٧٩-١٨٢.

(٣) الأنوار ح ٢/ ٦٥٢-٦٥٤.

(٤) السابق ح ٢/ ٦٤٧-٦٥٢، شمائل النبي ص ١٢٤.

(٥) «من أطعمه الله طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه، ومن سقاه لنا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه...»، ليس شيء يميز مكان الطعام والشراب غير اللبن، السابق ص ٦٤٨، بهجة المحافل ص ٤٩٣.

(٦) الأنوار ح ٢/ ٦٤١-٦٤٦ «إنه أروى وأبرأ وأمرأ» «هو أهنا وأبرأ وأشفي» ص ٦٤١، شمائل النبي ص ١٢٥-١٢٩.

(٧) «ساقى القوم آخرهم»، السابق ص ٦٤٥ «الأيمن فالأيمن» ص ٦٤٦.

(٨) «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء»، السابق ص ٦٤٦.

(٩) بهجة المحافل ص ٤٩٢، عيون الأثر ص ٤٤٢-٤٤٣.

(١٠) «لا تشربوا واحداً كشرب البعير، ولكن اشربوا مثني وثلاث»، بهجة المحافل ص ٤٩٢، آدابه في شربه، الأسوة الحسنة ص ٤٦٨-٤٧٠، شمائل النبي ص ١٢٣-١٢٥، في صفة شرابه، شمائل الرسول ص ١٨٣-١٨٨.

ما شرب. إلى هذا الحد بلغت ضرورة الشرب قعوداً؟^(١). وشارب القوم آخرهم شرباً نوع من الإيثار^(٢).

ولا يكون الطعام والشراب في آنية من ذهب أو فضة^(٣). ونفقته وصفة عيشه يحددهما مستواه الاقتصادي^(٤). والطعام والشراب عادات شخصية واجتماعية. وليس فيها أي سمة قدسية سواء في طريقة الأكل جلوساً أم اتكاءً أو في المأكول الحلو أو الحار^(٥). لا يأكل الرسول متكثاً حتى لا يتزل الطعام على جنب وليس في المعدة كما هو الحال في التصور الشعبي^(٦). والتسمية عادة شعبية وليس لطرده الشيطان حتى لا يشارك في الطعام^(٧). يحب التمر والعسل. ويجول بيده في التمر ويأكل مما أمامه. يأكل بثلاثة أصابع. ويلعق يده.

سادساً - تصورات معنوية:

١ - الصفات النفسية

وهناك صفاته النفسية وهي صفات البشر جميعاً مثل المحبة، والكراهية، والسرور، والغضب، والضحك، والبكاء والحزن، والفرح، وهذه لا وحي فيها ولا كسب بل هي طبيعة وجبلة. ومنها استحباب الفأل والدعاء^(٨). ولا تشمل النفسية، الخُلقة، والخلق، والعقل، والعشرة، والساحة، والشجاعة، والزهد^(٩). يعرض عما يكرهه^(١٠). ويعرف

(١) «لا يشربن أحدكم قائماً، فإن نسي فليستقم»، بهجة المحافل ص ٤٩٢.

(٢) «ساقى القوم آخرهم شرباً»، السابق ص ٤٩٣.

(٣) «الذي يأكل ويشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»، بهجة المحافل ص ٤٩٤.

(٤) الأسوة الحسنة ص ٤٤٤-٤٤٧.

(٥) الأنوار ح ٢/ ٦٠٧-٦١٤، خصائص الرسول ص ١٣٠-١٣١.

(٦) «لا أكل متكثاً»، الأنوار ح ٢/ ٦٠٧.

(٧) «إنا ذكرنا اسم الله حين أكلنا ثم قعد من أكل ولم يسم الله فأكل معه الشيطان»، السابق ص ٦١٠.

(٨) مثل إعراضه عما يكره، بكائه وحزنه، غضبه وسروره، وضحكة وفرجه، الأنوار ح ١/ ٣٠-٢٦١، في صفه

غضبه وسروره، شمائل الرسول ص ٩١-٩٢.

(٩) الأنوار ح ١/ ١٩١-١٩٤.

(١٠) «غارت أمكم»، السابق ص ٢٠٣.

غيرة النساء^(١). ويميز بين الرضا والغضب^(٢). وتحلل السيرة أسباب انشراح الصدر كما يفعل الصوفية^(٣). ولقلبه الشريف خصائص مثل استمرار رواية شق الصدر^(٤). كما يتميز بطلاقه الوجه وبشاشته أكثر من انقباضه الصدر وعبوس الوجه. يحب ويبكي، من المحبة حب الحسن والحسين^(٥). وقد بكى الرسول عندما رأى ابنة زيد تبكي لإصابته، شوق الحبيب لحبيبه^(٦).

يبكي الرسول ويحزن مثل باقي البشر^(٧). فالله يعطي، والله يأخذ، ولكل شيء أجل مسمى مثل الصبر والاحتساب^(٨). وهي رحمة يضعها الله في قلوب عباده، يرحم بها الرءاء^(٩). ولا يعذب الله بدمع العين ولا يحزن القلب ولكن يعذب أو يرحم باللسان. ويعذب الميت ببكاء أهله عليه^(١٠). واختلاف الإيثار لا يفرق بين الابن وأمه. إذ لم يأذن الله للرسول بالاستغفار لأمه بل أذن له فقط بزيارة قبرها لأنها تذكرة للآخرة^(١١). مع أن أم الرسول لم تبلغها الرسالة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾، والموت والجنس لا يجتمعان، والحزن والفرح بالرغم مما قاله الشعراء في وحدة اللحظتين^(١٢).

(١) «إني أعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبي... إذا كنت عني راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي قلت لا ورب إبراهيم»، السابق ص ٢٠٥، رضاء وسخطه، الأسوة الحسنة ص ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) خير العباد ص ٦٨٢-٦٨٦. أحواله النفسية، سيرة النبي ص ٤٢٣-٤٣٨، صفاته الباطنة وإن شارك فيها غيره، السيرة الحلية ح ٣/٤٧١-٤٨٣.

(٣) الأسوة الحسنة ص ٥٧٧-٥٧٨، طلاقه الوجه، معين الشياغل ص ١٢٨.

(٤) الخصائص الكبرى ح ١/١٥٤.

(٥) «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»، الأنوار ح ١/٢١١/٢١٣ «اللهم أحبهما فإني أحبهما» ص ٢١٢.

(٦) «هذا شوق الحبيب إلى حبيبه»، السابق ح ١/٢٢٤.

(٧) بكاءه وحزنه، السابق ح ١/٢١٩-٢٣٠.

(٨) «إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى فلتصبر ولتحتسب»، ص ٢١٩.

(٩) «هذه الرحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرءاء»، ص ٢٢٠.

(١٠) «ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين ولا يحزن القلب، ولكن يعذب بهذا اللسان أو يرحم. وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»، السابق ص ٢٢١.

(١١) «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي. واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكركم للآخرة»، السابق ص ٢٢٢.

(١٢) مثل انتحار رومي وجوليت عند شكسبير «هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة... فأنزلي في قبرها»، السابق ح ١/٢٢٢.

والرسول إنسان. يحزن لمقتل عمه والتمثيل به ولا يمنع أخته صفية من البكاء والعيول عليه^(١). يعاود المريض ويشهد الجنائز^(٢). والشهادة تبعث على الحزن والفرح في آن واحد^(٣). والخوف على هلاك هذه الفئة المؤمنة في غزوة بدر فلا يعبد في الأرض بعدها^(٤). فهو خوف مشوب بالحزن، وقد بكى الرسول عندما سمع آية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٥). كما بكى عندما رأى كسوف الشمس. وصلى وسجد ورفع رأسه وسجد خوفاً من أن يكون ذلك عذاباً من الله. ثم انجلت الشمس بعد ركعتين. فإذا حدث الكسوف فالفرع إلى ذكر الله^(٦). والكسوف ظاهرة طبيعية يعشقها عشاق الطبيعة وترصد لها آلات التصوير، ويستعد لها منذ وقت طويل. وهو معنى حديث «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد» عندما ربط الناس بين الكسوف وموت إبراهيم. وبكى الرسول على أسرى بدر عندما أفتى أبو بكر بأخذ الفداء لأنهم الأهل والعشيرة، وأفتى عمر بضرب الأعناق^(٧). ونزل القرآن تأييداً لرأي عمر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِرَ فِي الْأَرْضِ﴾، يتأثر الرسول بالقرآن. فقد شبّه سورة هود ومثيلتها الانفطار والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون^(٨).

ويغضب الرسول، ويظهر الغضب في وجهه إذا ما تطرف أحد في العبادة بما لا

(١) «ما وقتت موقفاً أغيظ عليّ من هذا، لن أصاب بمثلك أبداً»، «لولا أن تحزن صفة لتركته حتى يُحسر من حواصل الطير ويطون السباع»، الجوهره حـ/٢/١١.

(٢) خير العباد ص ٦٨٩.

(٣) «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحه فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيف الله حتى فتح الله عليهم»، الأنوار حـ/١/٢٢٣، آداب الفرح والسرور، سيرة النبي حـ/٦/٤٣٠-٤٣٦، آداب الغم والأحزان، حـ/٦/٤٣٦، بكاؤه وحزنه، معين الشائل ص ١٢٩-١٣١.

(٤) «اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آتني ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، الأنوار حـ/١/٢٢٧.

(٥) السابق ص ٢٢٥.

(٦) «رب ألم تعدي أن لا تعذبهم وأنا فيهم؟ رب ألم تعدي أن لا تعذبهم ونحن نستغفرك... إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله. فإذا انكسفتا فافزعا إلى ذكر الله عز وجل»، السابق ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٧) «أبكي للذي عُرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»، السابق ص ٢٢٩.

(٨) «شيتني هود وأخواتها»، السابق ص ٢٣٠، خوفه ويكاؤه، الأسوة الحسنة ص ٤٤٠-٤٤٣.

يطاق أو إذا اختلف المسلمون في الكتاب أو بكثرة السؤال^(١). ويغضب إذا بصق أحد في القبلة لأن الصلاة مناجاة لله، بل البصق على اليسار أو تحت القدم. والآن البصاق في المنديل الورق أو القماش^(٢). يغضب بالحديث بالصوت العالي في المسجد، فالمسجد غير البيت^(٣). ويغضب على الأعداء ويدعو عليهم بالهزيمة^(٤). ولا يخاف عليه من الغضب لأنه لا يخضع للهوى^(٥).

يشعر بالخير والشر لدرجة رؤية الجنة والنار وكأنها وراء الحائط^(٦). يمزح ويضحك ويسر مثل باقي البشر^(٧). يمزح ولا يقول إلا حقا. فقد فرح الرسول ببراءة عائشة^(٨). يعرف ذلك من وجهه. يتسم في وجه أصحابه ويدعو لهم بالهداية^(٩). وضحك يوم اتخذت أم سليم خنجرا تبقر به بطن من لمسها من المشركين^(١٠). وضحك عندما طلب أحد المسلمين المغفرة من الله وهو يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو^(١١). وكان حنوا مضحكا تبدو نواجذه. ويضحك من حوار بين آخر من يخرج من النار زحفا ولا يجد

(١) «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»، الأنوار حـ ١/ ٢٣١، «لا تسألون عن شيء إلا بيته لكم»، ص ٢٣١، «إن منكم متفرقين فأيكُم ما صل بالناس فليتجاوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذو الحاجة»، ص ٢٣٢.

(٢) «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن بيته وبين القبلة فلا ييزقن أحدكم في قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدمه»، السابق ص ٢٣٤.

(٣) «أيها الناس ما زال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه يكتب عليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة»، السابق ص ٢٣٥.

(٤) «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم»، الأنوار حـ ١/ ٢٣٩.

(٥) الخصائص الكبرى حـ ٢/ ٥١٤.

(٦) «ما رأيت في الخير والشر كالיום قط، إنه صوت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط»، السابق ص ٢٣٢.

(٧) الأنوار حـ ١/ ٢٤٢-٢٦١ «لا يمزح ولا يقول إلا حقا»، ص ٢٥٤، بهجة المحافل ص ٥١١، شمائل الرسول ص ١٣٣-١٤١، عيون الأثر ص ٤٣٨-٤٣٩.

(٨) «يا عائشة أما إن الله قد برأك... أشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك»، الأنوار حـ ١/ ٢٤٣-٢٤٤، شمائل الرسول ص ٥٢-٥٤، كلامه وتبسمه، سيرة النبي حـ ٢/ ١٦١، في صفة ضحكة ويكاته، ص ٩٣-٩٤.

(٩) «اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا»، السابق ص ٢٤٧.

(١٠) «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»، السابق ص ٢٤٨.

(١١) «إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي يعلم أن الذنوب لا يغفرها أحد غيري»، السابق ص ٢٥٠.

له مكانا في الجنة ليسأل الله متى عاش ويتمنى فيعطيه الله عشرة أضعاف. ويعجب الإنسان كيف سخر الله منه وهو الملك^(١). وضحك الرسول عن استأذن الله في الجنة في الزرع. فبذر وحصد وكان الزرع كالجبال فابن آدم لا يشبعه شيء. وعلق أعرابي بأنه قرشي أو أنصاري فهما أصحاب الزرع^(٢). وخرج مع عجوز بأنه لا يدخل الجنة عجوز. فلما حزنت أول قوله بأنها تعود بكرا، يتبسم ويضحك. بكاؤه مثل ضحكه منخفض الصوت، ييازح^(٣). يفرح ولا يقول إلا حقا^(٤). وله حسنة إذا ضحك. وجهه مثل الشمس والقمر. كفه ناعم، ورائحته طيبة^(٥). ويلهو اللهو المباح^(٦). ويجب الفأل ويكره الطيرة. فالقتال يقوم على أساس نفسي، الطبيعة البشرية والإحساس بالمستقبل بناء على تجارب الماضي وإمكانات الحاضر. أما الطيرة فهو أقرب إلى العجز والتوقف عن الحركة أو بالمعنى الأشعري، اليأس من رحمة الله. وفي كلتا الحالتين الحمد لله. وكان في كل موقف يحمد الله في صيغ متعددة^(٧).

(١) السابق ص ٢٥٢.

(٢) السابق ص ٢٥٣، «أنا الضحوك القتال»، الفصول ص ٣٣٧، في صفه ضحك الرسول، بهجة المحافل ص ٥٠٥-٥٠٦، في مزاحه ص ٥١١-٥١٣، «لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعدا فتخلفه»، ص ٥١١، مزاحه، السيرة النبوية (٢) ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٣) خبر العباد ص ٦٨٣ «تدمع العين، ويجزون القلب. وإنا بك يا إبراهيم لحزونون»، ص ٦٨٩/٦٨٤، مزاجه ومداعبته، الأسوة الحسنة ص ٤٤٨-٤٥٠، النبي المختار ص ٣٢-٣٣.

(٤) «إنني لا أقول إلا حقا»، شمائل النبي ص ١٤٠. «إني لست أبكي إنها هي رحمة. إن المؤمن بكل خبر على كل حال إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله»، بكاء الرسول، شمائل النبي ص ١٤٠.

(٥) بهجة المحافل ص ٤٣٦-٤٣٨، في صفه ضحكه وبكائه وعلامة رضاه وسخطه، السابق ص ٥٠٥-٥٠٦، ضحكه وتبسمه، الأسوة الحسنة ص ٤٥٠-٤٥٢، ضحكه وسروره، معين الشمائل ص ١٢٦-١٢٧.

(٦) بهجة المحافل ص ٥١٣.

(٧) «ما منا إلا من يمد في نفسه، ولكن الله يذهب بالتوكل»، «الحمد لله رب العالمين» في حالة وقوع ما يجب «الحمد لله على كل حال» في حالة وقوع ما يكره. «سبحان الله العظيم» إذا أمله الأمر، «يا حي يا قيوم» إذا اجتهد في الدعاء، «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا» أو «ما يمنع أحدكم إذا عسر عليه أمر معيشته أن يقول إذا خرج من بيته «باسم الله على نفسي ومالي ودينبي. اللهم ارضني بقضائك وبارك في فيما قدرت لي حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت»، إذا صعب الأمر «اللهم بارك فيه ولا تضره»، «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ومال وولد فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى آفة دون الموت»، «إذا رأى أحدكم ما يعجبه في نفسه أو في ماله فليبرك عليه فإن العين حق»، «إذا خاف أن يصيب شيئا بعينه.

٢- الفضائل الخلقية

وفي الصفات والأخلاق تأتي صفات الجسد قبل الصفات النفس^(١). جمال الوجه مع تفصيل العينين والفم والأسنان والأذنين والشعر والعنق واللحية. أما كمال النفس ومكارم الأخلاق فيتجليان في الحلم والاحتمال، والجود والكرم، والشجاعة والنجدة والبأس، والحياء والعدل، والتواضع والوفاء، وغيرها من الخصال الحميدة. والخصائص ثلاثة أنواع: محمدية وذاتية ونبوية^(٢). المحمدية هي الخصائص التي أعطيت لمحمد دون غيره. والذاتية هي التي تُخص بها مثل أمور النكاح، بعض الصلوات مثل الليل، والفجر والأضحية وبعد العصر ووصال الصوم وحرمة أكل الصدقة والزكاة. والنبوية مثل الرعب والنصرة والمسجد العام وكثرة المتبعين وعمومية الدعوة وجوامع الكلم وتكميل الدين والمعجزة الدائمة وختم النبوة والشفاعة.

وقد كمل الله له المحاسن خلقاً وخلقا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا^(٣). وهو ما يسمى بالشئائل. فالشئائل جزء من حقوق المصطفى وليست هي كل المصطفى. وهي نوعان: ضروري دنيوي تقتضيه الجبلة والحياة الدنيا، ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويُقرب إلى الله زلفى. وقد يتداخل البعض فيهما معا. الضروري المحصن ليس للمرء فيه اختيار ولا كسب، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقه وصورته، وقوه عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه، وأعضائه، واعتدال حركته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه. وما تدعو الحاجة إليه مثل غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه، وماله، وجاهه.

وقد تلحق بها الخصال الأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونه البدن على سلوك طريقها وكانت على حدود الضرورة الشرعية.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العالية والآداب الشرعية مثل الدين،

(١) الرحيق المختوم ص ٤٧٩-٤٨٨.

(٢) سيرة النبي ح ٣/ ٥٥٤-٥٨٢.

(٣) الشفا ح ١/ ٧٧-٧٩.

والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وهي التي تدخل في حسن الخلق، ومنها ما يكون غريزيا عند بعض الناس في أصل الجيلة، ومنها ما يكون مكتسبا عند البعض الآخر.

وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة، ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة وإن اختلفوا في وجوه حسناتها^(١). وتضم الحقوق والفضائل دون تصنيف واحد وعشرين^(٢). بعضها مزدوج بالعطف أو بالإضافة أو بالوصف^(٣). والردائل أكبر، تسع وعشرون مفردة أو بالإضافة أو بالعطف أو بالوصف^(٤).

والأخلاق العامة ليست شمائل للرسول فحسب بل هي أيضا أخلاق الإسلام قبل أن تتجسد في شخصه. وتنقسم إلى ثلاث مجموعات: حقوق وواجبات، فضائل وردائل، وآداب عامة^(٥). وتسبقها مقدمة نظرية عامة عن تمييز النبي عن معلمي الأخلاق، وفلسفة الأخلاق في الإسلام، واكتمال التعاليم الأخلاقية وأسلوب وطريق تعليم الأخلاق ثم أقسام التعاليم الأخلاقية. والردائل وحدها هي التي يجمعها تعليق

(١) السابق ح ١/ ٧٧-٢١٤.

(٢) هي: الصدق، السخاء، الأمانة، الحياء، الرحمة، الإحسان، التواضع، الإيثار، الاستقامة، الاستغناء.

(٣) بالعطف: العفة والطهارة، العدل والإنصاف، العفو والتسامح، الحلم والمغفرة، الرفق واللفظ، الاعتدال والوسطية، الشجاعة والإقدام. بالإضافة: الوفاء بالعهد. بالوصف: الوفاء بالعهد.

(٤) المفرد: الكذب، البهتان، النيمة، البخل، السرقة، الغلول، الرشوة، الظلم، الرياء، التذير، الحسد. بالعطف: الحيانة وعدم الأمانة، الفدر والخذاع، الغيبة ومفحش القول، النفاق والمداينة، الحرص والطمع، الغيظ والغضب، البغض والحقد، الفجر والغرور، العجب وحب الذات. بالإضافة: ذو الوجهين، سوء الظن، عدم الضمير، أكل الربا، شرب الخمر، فحش القول. بالجر: التطفيف في الميزان. بالوصف: الحلف كذبا.

(٥) الحقوق والواجبات، سيرة النبي ح ١/ ١١١-١٨٤، الفضائل والردائل ص ١٨٥-٣٩٠، الآداب العامة ص ٣٩١-٤٤٤، «إننا بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، بهجة المحافل ص ٥١٦، شمائل النبي ص ١٩١-١٩٨، عيون الأثر ص ٤٣٤، شمائل الرسول ص ٤٠ «إن من خياركم أحسنكم أخلاقا» ص ٤١.

شامل^(١). وأيضا حكمة الآداب وفلسفتها في نهاية الآداب العامة^(٢). وهي أقرب إلى الأذواق الشخصية والعادات الاجتماعية والسلوك الفطري^(٣). وتسميها سيرة «الأخلاق الطاهرة»^(٤). وهي أخلاق فطرية، ترصد الفضائل كما ينبغي أن تكون وكما تمثلت في شخص الرسول.

وتداخل الفضائل الخلقية أيضا تحت بند الأخلاق. وهي القسم الثالث من التعاليم النبوية بعد العقائد والعبادات^(٥). والإسلام هي مكارم الأخلاق^(٦). وتعني الشرائع هنا الطابع والأخلاق، والأوصاف والسمات^(٧). ليس المقصود من جمعها مجرد التاريخ بل القدوة والاقتداء بها، تلذذاً بها، وقربة إلى الله، ومكافأة الرسول لنا ومحبة^(٨).

والأركان الخمسة للإسلام تقوم على أسس خلقية. فالصلاة تواضع وخشوع ورقة وحياء. والصلاة في الحج تولد في القلب الخشوع، وتتهى عن الفحشاء والمنكر. والصوم

(١) سيرة النبي ح/٣٦١.

(٢) السابق ح/٤٤٢.

(٣) مثل: آداب الطعام والشراب، آداب المجلس، آداب اللقاء والزيارة، آداب الحديث، آداب الخروج والسير، آداب السفر، آداب النوم، آداب المجلس، آداب الفرح والسرور، آداب الغم والأحزان، السابق ص ٤٠٠-٤٤٠، كرم أخلاقه أمر جلي، بهجة المحافل ص ٤٨٥. الإشارة ص ٤١٤-٤٢٣، ألفية السيرة ص ٨٢-٨٦، في الأخلاق المعنويات، بهجة المحافل ص ٥١٤-٥٢٩، في أنه كان محمولا على الأخلاق الحميدة، بهجة المحافل ص ٥١٤-٥١٥، في اجتماع هذه الخصال في النبي، ص ٥٢٨-٥٢٩ / ٤٢٧-٤٢٩، القبس الوضاء ص ٢٤٢-٢٤٧، الأخلاق والشمائل، السيرة النبوية ص ٤٢٣-٤٥٦، بالصفات والأخلاق، الرحيق المختوم ص ٤٧٩-٤٨٨، كمال النفس ومكارم الأخلاق ص ٤٨٤-٤٨٨، أخلاقه وشمائله الطاهرة، السيرة النبوية (٢) ص ٤١٩-٤٢٤، شمائل سيد الأنام ص ٢٧٩/٣٩٣، شمائله، الأسوة الحسنة ص ٤١٣-٥٨٧، عيون الأثر ص ٤٣٤-٤٤٤، الجوهرة ح/٩٣-٩٨، أخلاقه وشمائله الطاهرة، شمائل الرسول ص ٣٩-٤٧، أخلاق النبي، سيرة النبي ح/٢٢٥-٣١٢، فضائل الأخلاق، سيرة النبي ح/١٨٥-٩٠، في صفة خلق الرسول وحلمه وعشرته مع نسائه وأمانته وصدقه وحياته ومزاجه وتواضعه وجلوسه وكرمه وشجاعته، شمائل الرسول ص ١٩٣-٢٥٢، صفة النبي وهيته، معين الشمائل ص ١١١-١٤٢، أخلاق النبي وشمائله، معين الشمائل ص ١٤٣-٢٩٠.

(٤) الفصول ص ٣٢٦-٣٣٨.

(٥) في صفة در خلقه وحلمه، شمائل الرسول ص ١٩٥-٢٢١.

(٦) «إننا بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، سيرة النبي ح/٥-١١١، معين الشمائل ص ١٤٣-١٤٧.

(٧) شمائل الرسول ص ٣٩-٤٠.

(٨) السابق ص ٤١-٤٣.

مانع للكذب والخداع^(١). والأخلاق الحسنة جوهر الإيمان والتقوى، ولأهل الإيمان صفات خلقية، تدل على شرف العبودية لله. والإسلام ليس إلا الأخلاق الحسنة^(٢). والإيمان حياة، وإمارة الأذى عن الطريق، والصدق، والتصدق، وحب الآخرين، وعفة اللسان واليد، وإحكام الجائع، وإفشاء السلام، والمروءة، والألفة، وعدم اللعن والسب، وفحش القول، والعدل والأمانة والكرم. فالأخلاق هي أساس العبادات والمعاملات بل والاعتقادات.

والأخلاق الحسنة ظل الصفات الإلهية. والصفات الإلهية فضائل وقيم خلقية إنسانية. وقد تميز النبي بين معلمي الأخلاق. جمع بين القول والعمل في حياة واضحة كاملة مكتملة^(٣). وتتنوع التعاليم الأخلاقية طبقاً للظروف الاجتماعية. والتزيه إلهي أساس التنزه من الأغراض والمصالح. والنية شرط العمل الصالح. وتؤيد مذاهب ربيية كثيرة هذا الموقف^(٤). والإيمان شرط الأخلاق حتى لا تقع في النسبية مع أن خطورة الإيمان هو استبدال التعصب بالنسبية. والأخلاق مرهونة بغاياتها. تقوم على صوت الضمير^(٥). ولا تعارض الأخلاق المسرة والانبساط. فالحسنة تسر، والسيئة تسيء. وعلى هذا النحو يتحقق الرضا إلهي. وقد يختلف كل دين في مبادئه الأخلاقية الأساسية، طاعة القانون في اليهودية، ومحبة الجار في المسيحية، والعدل في الإسلام.

(١) سيرة النبي ح/ ١٠-١١ «إن الصلاة تواضع وخشوع ورقه وحياة»، «أنا لا أقبل كل صلاة، إنما أقبل صلاة من تواضع بها خلقي، ولم يتكبر بها على خلقي، ويطعم المحتاج لأجلي»، «فرضت الصلاة، وجعلت أركان الحج لكي يذكر الله. فإن لم تتولد هذه الكيفية في القلب فلا قيمة للذكر الإلهي»، «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإن مثل هذه الصلاة تبعده عن الله»، «من لم يترك الكذب والخداع وهو صائم فليس لله حاجة في أن يترك طعامه وشرابه»، السابق ح/ ١٠-١١.

(٢) «أكمل المؤمنين أحسنهم أخلاقاً»، «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار»، «خيركم أحسنكم أخلاقاً»، «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق»، «خير ما أعطى الناس حسن الخلق»، «أحب عباد الله إلى الله أحسنهم أخلاقاً»، «إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة مجلساً أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً»، السابق ح/ ١٤-١٥.

(٣) سيرة النبي ح/ ١٧ «إنما الأعمال بالنيات»، ح/ ٢٩.

(٤) مثل: ما كنتري، كينت، السابق ح/ ٢٩-٣٠.

(٥) «استفت قلبك، استفت نفسك، البر ما أطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإنم ما حاك في القلب، وتردد في النفس وإن أفتاك الناس»، السابق ح/ ٣٣ «رفع القلم عن الطفل حتى يعقل» السابق ح/ ٤١.

وبالرغم من أن أخلاق الإسلام تقوم على العقل فإنها أيضا تستند إلى العاطفة، مثل الخوف والرجاء كما قال الصوفية دون الوقوع في الرهبانية. والمسئولية جزء من الحياة الخلقية^(١). وهي مسئولية من الآخرين، نظرية وعملية، ومن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منع التجسس والغيبة، والتوسط والاعتدال بين العدل والإحسان، والقانون والأخلاق، والعفو والانتقام. ومع ذلك أخلاق الإسلام أقرب إلى العفو والصفتح.

وقد اكتملت التعاليم الخلقية في الإسلام حتى تبدو وكأنها معجزة^(٢). إذ تجمع بين التفصيل والشمولية. وهي غير شخصية في شخص النبي. وتفصل أنواع الخمر والرشوة. وينتقد الفلاسفة الغربيون ضعف الأخلاق المسيحية في مقابل اعتدال الأخلاق الإسلامية^(٣). وبالرغم من شموله الأخلاق إلا أنها تتكيف مع اختلاف الاستعداد بين النفوس. وتصلح كل شخص حسب الحاجة،، يرفع الإسلام السلم إلى درجة السمو الخلقى^(٤). المحبة والكراهية في الله. ولا تقوم الأخلاق الإسلامية على الهوى أو المصلحة^(٥). بل تقوم على العطاء والأثرة. والغيبة حتى ولو كانت حقيقة إثما. والتعاليم الخلقية تنقسم إلى حقوق، وفضائل، ورذائل وآداب^(٦). الحقوق تجاه الإنسان

(١) «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، «إن المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على آذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم»، «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسهن، فإن لم يستطع فليقله، وذلك أضعف الإيانه»، «إذا رأى الناس ظلما ولم يمنعوه فربما يصيبهم العذاب جميعا»، السابق ح/٤٥-٤٧.

(٢) سيرة النبي ح/٦٢-٧٤ «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنها أنا عبده. فقولوا عبد الله ورسوله»، السابق ح/٦٤.

(٣) مثل «نيسته، ليكي»، السابق ح/٧٥-٧٨-٧٩.

(٤) «إن الله يحب معالي الأمور ويغض سفاستها»، «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» السابق ح/٧٩، «إن أحب العمل الصالح إلى الله أن يكون الحب في الله والبغض في الله»، السابق ح/٩٤.

(٥) «إنما هلك من قبلكم. كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، «إن من يعطي شخصا شيئا ما ثم يأخذه كمن يتبئا شيئا ثم يلحقه مرة أخرى»، «إن ما قلت في حق أخيك سوء من أكل هذه الخبثة» ح/١٠٠-١٠٣ «حتى لو كانت فيه حقيقة فهي غيبه وإثم عظيم»، السابق ح/١١٠.

(٦) السابق ح/١١١.

والحيوان وباقي الكائنات. والفضائل هي محاسن السلوك. والردائل والآداب هي طرق الآداب أو ما يسمى بالآداب العامة. والصفات الخلقية مكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة باتفاق جميع العقلاء وثناء الشرع عليها، وبأنها مظاهر للنبوة. وتسمى حُسن الخلق^(١). وجوهرها الاعتدال في قوى النفس. وأوصافها التوسط فيها دون الميل والانحراف إلى الأطراف^(٢). وهي خلق الرسول^(٣). وهي صفات جميع الأنبياء^(٤). وهم جميعا على خلق واحد^(٥). وله صفاته في الكتب الماثورة عن الأنبياء السابقين^(٦). فقد خفف على داود القرآن. ومن ضمن الأخلاق آداب الحياة^(٧). وهي فطرية أو مكتسبة، طبيعية أو عادة. وإبراز الأخلاق لبيان أثرها في رقي الأمم^(٨). فقد امتاز الرسول بركة الشعور الإنساني ونبيل العاطفة^(٩). وكان إذا أخذ موعد لقاء حدد الطرف الآخر مكانه. وهو أعقل الخلق على الإطلاق^(١٠). يتفق قوله مع العقل. ولا ينطق عن الهوى^(١١). ومن أخلاقه مداومة العمل، بل والعمل بيده. يساعد الآخرين في أعمالهم^(١٢). ويكره

(١) الشفا ١/١٢٥-١٣٢.

(٢) «بحث لأنهم مكارم الأخلاق»، كل الحلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب.

(٣) السابق ١/١٣٣-١٣٥.

(٤) الشفا ١/١٨٨-١٩٧.

(٥) «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر.. على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم»، السابق ١/١٨٨.

(٦) شمائل الرسول ص ٧١-٧٥ «خفف على داود القرآن. فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن مقدار ما يفرغ»، ص ٧٢.

(٧) سيرة النبي ١/٣٩١-٤٤٤.

(٨) السابق ١/١، معين الشمائل ص ١٤٨-١٥٤.

(٩) السيرة النبوية ص ٤٤١-٤٤٣ «لا يبلغني أحد عن أحد شيئا. إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»، «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا...»، شمائل الرسول ص ٤٣، «وَأَنَّكَ لَمَلَكٌ خَلَقْتَ عَظِيمًا»، سيرة النبي ٢/٢٢٥-٢٢٦.

(١٠) الأسوة الحسنة ص ١٥-٤٩٥، الخصائص الكبرى ١/١٦٠، من النقل إلى العقل ٢ علوم الحديث، الباب الثاني، نقد المتن، الفصل الثاني: نقد المضمون العقلي ص ٤٣١-٥١٤.

(١١) خصائص الرسول ص ٣٠٤-٣٠٥.

(١٢) «إن أحب العلم إلى الله أدومه»، سيرة النبي ٢/٢٨-٢٢٩/٢٢٦-٢٦٨، معين الشمائل ص ١٥٥-١٥٩.

الرهبانية والروحانية الفارغة^(١). تقوم الأخلاق إذن على العقل والعمل، على البدهة والفعل، على الفطرة والسلوك، أسر الرسول قومه بأخلاقه وسلوكه وفضله وأمانته ولكن ذلك لا يدعو إلى جعله تشخيصا لرسالته. والأسوة الحسنة^(٢). كان بسيطا يكره التكلف^(٣). يدعو إلى الاعتدال والوسطية^(٤). وتصنف أخلاقه إلى مجموعات في أنساق أو إلى فضائل متميزة^(٥). كما يتم إحصاء الرذائل بعد الفضائل كمضادات لها^(٦). إذا يختص بطهارته من سوء الأخلاق، اللسان وآفاته، والغيبة والنميمة، وفضول الكلام، وازدواج الوجهين، واللعن، والغرور، والحسد^(٧).

(١) سيرة النبي ح/٢-٢٥٢-٢٥٤.

(٢) في عدله وأمانته وصدق لهجته، بهجة المحافل ص ٥٢٤-٥٢٥ «أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة»، السابق ص ٥٢٥، أسوة كاملة وقدوة عامة، السيرة النبوية ص ٤٥٤-٤٥٦.

(٣) الأسوة الحسنة ص ٤١٥-٤٩٥.

(٤) سيرة النبي ح/٢-٢٥٥.

(٥) السابق ح/٢٦٢-٢٦٤.

(٦) السابق ح/ ٢٩١-٣٩٠، الكذب، الحلف كذبا ضد الصدق، خلف الوعد ضد الوفاء بالوعد، الخيانة وعدم الأمانة ضد الأمانة، الغدر والخداع ضد قول الحق، النميمة، والغيبة وفحش القول، ذو الوجهين ضد الاستقامة، سوء الظن، النفاق والمذاهمة، البخل ضد الإحسان، الحرص والطمع، عدم الضمير، السرقة، التطفيف في الميزان، الغلول، الرشوة، أكل الربا، شرب الخمر، الغيظ والغضب، البغض والحقد، الظلم ضد العدل والإنصاف، الفخر والغرور ضد التواضع، الرياء والمعجب وحب الذات، التبذير، الحسد.

(٧) «إن كل كذب ليكتب مهما كان صغيرا»، «خيانة كبيرة أن تكذب على أخيك وهو يظن أنك صادق»،

السابق ح/ ٣٠٠-٣٠١، «إن الحلف يوجب الذنب إذا لم ينفذ أو يوجب الندم والخجل» ح/ ٣٠٧،

«لا تغتابوا المسلمين ولا تبحتوا عن عيوبهم لأن من يتبع عيوب الناس يتبع الله عيوبه، ومن يتبع الله عيبه

فضحه في عقر داره»، ح/ ٣٢٠، «تجنبوا سوء الظن لأن سوء الظن أكبر من الكذب، ولا يتجسس

أحدكم على الآخر، ولا يتعدى أحدكم على الآخر أو يطعم فيه، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد

الله إخوانا» ح/ ٤٢٤، «من رفع السلاح علينا أو غشنا فليس منا» ح/ ٣٣٦، «إنما ملك من كان قبلكم

إذا سرق فيهم الضعيف عاقبه، وإذا سرق فيهم الأقوياء تركوه والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت

محمد سرت لقطع محمد يدها»، ح/ ٣٤١، «ما بال العالم نرسله فيأتي ليقول: هذا لكم وهذا لي. فليجلس

في بيت أبيه وأمه ولينظر هل يديه أحد شيئا أم لا؟» ح/ ٣٤٨ «أيها الناس لا تحاسدوا ولا تباغضوا

وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» ح/ ٣٥٨، «يا عبادي لقد حرمت

الظلم على نفسي وعليكم فلا تظلموا»، «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، «تجنب دعوة المظلوم

ومن صفاته الخلقية، حسن خلقه، وحلمه وعفوه^(١). ومعها رفعت في الأمور وكرمه واعتذاره، حياؤه وصفة كلامه وصحته، وجوده، وتواضعه^(٢). وهو ما يؤكد القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وهي صفات مجملة مع جلسائه. والعدل يمنع من التطرف الذي ألصق فيما بعد بالخوارج^(٣). ويضم إليه الإنصاف، وهو عدل في إقامة الحدود، والعدل بين الأولاد، والعدل في القسمة ضد ظلم الإنسان لنفسه ولغيره وظلم القضاة وظلم الحكام والولاية والرفق بالحيوان^(٤). ومنها المغفرة للإنسان^(٥).

وفي الرسول ست عشرة فضيلة: الكمال، الحلم، العفو، السخاء، وسع الصدر، المزاج، البدء بالسلام والمصافحة، البشاشة، صلة الرحم، التواضع، الأمانة، التطيب، المروءة^(٦). ولكل منها شواهد إما من القرآن أو من السنة.

فليس بينها وبين الله حجاب، حـ/ ٣٦١-٣٦٢. «التكبر هو أن لا تقبل الحق وتحقر الناس»، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر، حـ/ ٣٦٤-٣٦٥، «لا تقفوا تعظيما لي مث لما يفعل العجم»، حـ/ ٣٦٦، معين الشائيل ص ٢٩١-٣١٢.

(١) حسن خلقه، الأنوار حـ/ ١٩٤-٢١٩ / ٢٦٨-٢٧٩ / ٣٢٢، الشفا حـ/ ٢٠٦-٢٠٨، عيون الأثر ص ٤٤٠-٤٤٢، كمال خلقته وجمال صورته، معين الشائيل ص ١١١-١١٧، حلمه وعفوه ص ١٧٢-١٩١، سيرة النبي حـ/ ٢٢٩-٢٣٦.

(٢) «رحم الله موسى قد أودى بما هو أشد من هذا فصبر»، الأنوار حـ/ ١٧٥ «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم»، السابق ص ١٧٦ «هل أنت إلا إصبع وقيت وفي سبيل الله ما لقيت» السابق ص ١٧٦، «ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، السابق ص ١٧٧، في صفه حياته، شائيل الرسول ص ٢٢٩-٢٣٣.

(٣) «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجوز تراقيهم. يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية... ويخرجون على حين فرقة من الناس»، السابق ص ١٧٧، سيرة النبي حـ/ ٢٣٢-٢٣٥.

(٤) «مهلا يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف أو الفحش» الأنوار حـ/ ١٨٤، «إن امرأة عذبت في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تركها تأكل من خشاش الأرض»، الجوهره حـ/ ٨٣، سيرة النبي حـ/ ٢٥٢-٢٥٦.

(٥) «لو أعلم أبي إن زدت على السبعين فغفر له لزدت عليها»، السابق ص ١٨٥، في علمه وحلمه واحتiale وعفوه وصبره، بهجة المحافل ص ٥١٥-٥١٦، «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ص ٥١٦، السيرة النبوية ص ٤٥١-٤٥٤، حسن خلقته، الأسوة الحسنة ص ٤١٦-٤١٧.

(٦) عيون الأثر حـ/ ٤٣٤-٤٤٤، معين الشائيل ص ١٦٠-١٨٥.

ومن الصفات الخلقية الرحمة والشفقة^(١). الرحمة والشفقة لجميع الخلق خاصة بالأطفال وبالعبيد، فالرسول لم يبعث لعانا بل رحمة^(٢). ومن لا يرحم لا يرحم. فالرحمة هي التي جعلت عين الرسول تدمع. والقلب يحزن لموت إبراهيم^(٣). ولا يجب أن يُبلغ عن أصحابه شيئا لأنه يريد أن يخرج إليهم سليم الصدر. والأطفال ریحان الله^(٤). وكان أوصل الناس للرحم، والرحمة للعالمين^(٥). الرحمة للناس الصغار والكبار والضعفاء والبنات والأرقاء والحيوان. وتعني التيسير والستر وتفريج الكرب.

الصفات الخلقية الرفق والكرم والاعتذار^(٦). فلمن وقع على امرأته في رمضان عتق رقبة أو صيام شهرين أو إطعام ستين مسكينا أو التصديق بهذه الثمرات ولا يوجد أفقر من عياله^(٧). ومن صفاته الخلقية الشجاعة^(٨). يشجع المسلمين على القتال، ويعجب بشجاعة المقاتلين. والشجاعة والنجدة متقاربان. الشجاعة فضيلة، قوة الغضب وانقيادها للعقل. والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت^(٩). والمروءة صنو الشجاعة، والعزم والثبات قرينان للشجاعة^(١٠).

(١) في رحمة وشفقته، الأنوار ح١/ ٢٠٦-٢١٩، الشفا ح١/ ١٥٩-١٦٤، سيرة النبي ح٢/ ٢٩٦-٣٠١، ح٦/ ٢٢٨-٢٣٢. عيون الأثر ص ٤٤٠، معين الشاغل ص ٢١٩-٢٢٨.

(٢) «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»، الأنوار ح١/ ٢٠٨ «من لا يرحم لا يرحم» ص ٢٠٩، النبي الأعظم ص ٧٨.

(٣) «يا ابن عوف إنها رحمة... إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا تقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، الأنوار ح١/ ٢١٠، بهجة المحافل ص ٥٢٠-٥٢١.

(٤) أتى الرسول بصبي قبله وقال «أما إنهم مبخلة بجنة، وإنهم لمن ریحان الله عز وجل»، ص ٢١٦، الأسوة الحسنة ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٥) سيرة النبي ح٢/ ٣٠٥-٣٠٧، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، سيرة النبي ح٦/ ٢٣١.

(٦) الأنوار ح١/ ١٩٤-٢٠٥ «في جوده وكرمه وسماحته، بهجة المحافل ص ٥١٦، شامائل الرسول ص ٤٥-٤٨، يقول الله تعالى: ابن آدم أنفق أنفق عليك» ص ٤٩.

(٧) الأنوار ح١/ ١٩٨-١٩٩، كرمه وحلمه، السيرة النبوية (١) ص ٤٤٣-٤٤٦، السيرة النبوية (٢) ص ٤٢٥-٤٢٧.

(٨) الأنوار ح١/ ٢٧٩-٢٨٢، في شجاعته ونجدته، بهجة المحافل ص ٥١٧، عيون الأثر ص ٤٣٥، سيرة النبي ح٢/ ٢٧٠-٢٧١، ح٦/ ٢٧١-٢٨١، معين الشاغل ص ١٩٤-١٩٩.

(٩) الشفا ح١/ ١٤٧-١٥٢، في صفة كرمه وشجاعته، شامائل الرسول ص ٤٦-٢٥٢، «فضلت على الناس بأربع: بالساحة، والشجاعة، وكثرة الجلاء، وشدة البطش»، الإشارة ص ٤١٤، سيرة النبي ص ٤٣٤-٤٣٥، السيرة النبوية (١) ص ٤٥٠-٤٥١، شجاعته، السيرة النبوية (٢) ص ٤٣٦-٤٣٧، الأسوة الحسنة ص ٤٢٩-٤٣١، عيون الأثر ص ٤٤٢-٤٤٣، شامائل الرسول ص ٧٠.

(١٠) سيرة النبي ح٢/ ٢٦٨-٢٧٠، ح٦/ ٢٧١-٢٨١.

يكره الاستجداء والسؤال. وهو موقف الشحاذ من الناس ومن الله^(١). ويبغض الصدقة لأنها أوساخ الناس، يقبل الهدايا. ولا يقبل الإحسان^(٢). ومن صفاته الجود^(٣). فبعد أن خطف رداؤه طلب برده، فلم يكن بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً^(٤). ينفق ما لديه حتى ولو كان مثل جبل أحد ذهبا^(٥). والجود والكرم والسخا والسماحة معان متقاربة. الكرم الإنفاق بطيب النفس. والسماحة التجافي عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس. والسخاء سهولة الإنفاق، وهو الجود ضد التقير^(٦). ومن صفاته الإيثار^(٧). يعطي الجود من نفسه تحقيقاً للعدل^(٨). وليس أفضل من الاستعفاف والاستغفار والتصبر^(٩).

ومن أخلاقه التواضع^(١٠). يجلس مع البسطاء^(١١). ويقبل الدعوات. كان الرسول أشد الناس تواضعا وأقلهم كبرا^(١٢). يرفض أن يقوم له الناس كما تقوم الأعاجم، يعظم

(١) السابق حـ ٢٤٦/٢-٢٤٨.

(٢) «إن الصدقة حرام على محمد وعلى أهل محمد»، السابق حـ ٢٤٨/٢-٢٥٢. «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد. إنما هي أوساخ الناس» السابق ص ٢٩٠.

(٣) الأنوار حـ ١/٢٨٢-٢٩٢، عيون الأثر ص ٤٣٥، إكرام الضيف، سيرة النبي حـ ٢/٢٤٤-٢٤٦، في صفة كرمه وشجاعته، شمائل الرسول ص ٢٤٦-٢٥٢، معين الشائيل ص ٢٠٠-٢٠٥.

(٤) «ردوا علي ردائي. أتخشون علي البخل؟ فوالله لو كان لي عدد هذا العضة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً»، السابق ص ٢٨٤.

(٥) «والذي نفسي بيده لو أن عندي أحداً ذهباً لأحببت أن لا يأتي علي ثلاث ليالٍ وعندي منه دينار أجد من يتقبله مني ليس شيء أَرْضده في دين علي»، السابق ص ٢٩١.

(٦) الشفا حـ ١/١٤٤-١٤٧، الإشارة ص ٤١٥، الأسوة الحسنة ص ٤٣١-٤٣٣، شمائل الرسول ص ٤٨-٤٩.

(٧) سيرة النبي حـ ٢/٢٤٣-٢٤٤.

(٨) الأسوة الحسنة ص ٤٤٠-٤٤٣، عيون الأثر ص ٤٣٥، سيرة النبي حـ ٢/٢٤٠-٢٤٣، حـ ٦/٢٠٥، «لا تقترؤا ولا قتر الله عليكم»، «يا ابن آدم الإنفاق خير لك وجمع المال وتركه شر لك».

(٩) «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم. ومن يستعفف يعفه الله. ومن يستغن يغنه الله. ومن يتصبر يصبره الله. وما أعطى أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر»، السابق ٢٩٢.

(١٠) الأنوار حـ ١/٢٩٣-٣٢٢، الشفا حـ ١/١٦٨-١٧٢، شمائل النبي ص ١٨٥-١٩١، عيون الأثر ص ٤٤٠-٤٤٢ «إن الله خلقني عبداً كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً»، «لا أحب أن تنزلوني منزلة أكثر من التي أنزلنيها الله»، سيرة النبي حـ ٢/٢٦٢-٢٦٤، حـ ٦/٢٥٦-٢٥٨.

(١١) «يا أم فلان، اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك»، السابق ص ٢٩٣، الشفا حـ ١/١٦٩، «لم عنيت الشيخ؟ ألا تركته حتى أكون أن أتبه في منزله»، بهجة المحافل ص ٥٢٣.

(١٢) «لو دعيت إلى كراع لأحببت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت»، السابق ص ٢٩٨، «لا يدخل الجنة متكبر ولا

بعضهم بعضا. وقد أطرت النصارى عيسى ابن مريم وهو ليس مثله ولا المسلمون مثلهم. هو ليس بأفضل من يونس بن متى، وليس بأفضل من الأنبياء. ولا يخير على موسى، وهو أحق بالشك من إبراهيم، ولم يلبث كما لبث يوسف في السجن، وإبراهيم هو خير البرية. ولا تقبل اليد كما تفعل الأعاجم بملوكها. ويحمل الشيء لأن صاحب الشيء أحق بحمله^(١).

ويتميز بأمانته وصدق لهجته^(٢). ومن خصائصه عدله وعفته^(٣). فهو أمين في السماء أمين في الأرض^(٤). وهو أعدل الناس^(٥). وسيرته في إيمانه وعقوده وركوبه، وفي البيع

زان ولا مثان بعمله، الجوهره حـ ٨٩/٢.

(١) «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضها بعضا. إنما أنا عبد، أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، الشفا حـ ١٦٨/١، «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله»، السابق ص ١٦٩، «لا تفضلوني على يونس بنى متى. ولا تفضلوا بين الأنبياء، ولا تخيروني على موسى، ونحن أحق بالشك من إبراهيم. ولو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأحببت الداعي»، الشفا حـ ١٧٠/١، «هون عليك فأني لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»، الشفا حـ ١٧١/١، «وضد تقبيل اليد «هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها. ولست بملك، إنما أنا رجل منكم»، «صاحب الشيء أحق بحمله»، الشفا حـ ١٧٢/١، هبة المحافل ص ٥٢٢-٥٢٤، السيرة النبوية (١) ص ٤٤٨-٤٥٠، السيرة النبوية (٢) ص ٤٢٧-٤٢٩، الأسوة الحسنة ص ٤٢٥-٤٢٩، شمائل الرسول ص ٤٩-٥٢، «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهويكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعتني الله»، السابق ص ٤٩، «من تواضع لله رفعه»، «إن الله أمرنا بالتواضع حتى لا نظلم أحدا وألا يتكبر أحد على أحد»، سيرة النبي حـ ٢٥٨/٦، «الغرور أن تنكر الحق وتحقر الناس»، السابق حـ ٢٦٧/٦، في حقه وتواضعه، شمائل الرسول ص ٢٣٤-٢٤٥، معين الشمائل ص ٢١٠-٢١٨.

(٢) «إن الرجل إذا غرم حدث وكذب، ووعد فأخلف» الأنوار حـ ١/٤٠٤، الأسوة الحسنة ص ٤٣٣-٤٣٤، عيون الأثر ص ٤٤٢، سيرة النبي حـ ٢٧١-٢٧٢، حـ ٢١٨-٢٢٣ «لا يكتمل إيمان أحدكم حتى يترك كل أشكال الكذب وحتى يكون مزاحه وشجاره صادقا»، «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإن صلى وإن صام وادعى أنه مسلم»، «الصدق يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. ولا يزال الرجل يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»، حـ ١٩٢-١٩٣، في صفة أمانته وصدقه، شمائل الرسول ص ٢٢٧، معين الشمائل ص ١٨٦-١٩٣.

(٣) الشفا حـ ١٧٢-١٧٦، العدل والإنصاف، سيرة النبي حـ ٢٣٦-٢٤٠، معين الشمائل ص ١٧١-١٧٦/٢٥٧-٢٤٦.

(٤) «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض»، الشفا حـ ١٧٣.

(٥) «ويحك، فمن يعدل إن لم أعدل، أخبت وخسرت إن لم أعدل»، السابق ص ١٧٤.

والشراء وفي بقية العقود وفي السلف والقرض وفي الركوب واتخاذ الغنم والرقيق^(١).

والرسول هو الأتقى والأعلم بالله^(٢). يتصف بالحلم والاحتفال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره، فضائل متشابهة. الحلم توقر وثبات عند الأسباب والمحركات. والاحتفال حبس النفس عند الآلام والمؤذيات. ومثله الصبر. والعفو ترك المؤاخذه^(٣). ولا فرق بين الرسول وسائر المسلمين^(٤). ونموذج العفو عند المقدرة، العفو من قريش عام الفتح^(٥). كان أحلم الناس^(٦). العفو عن الأعداء والدعاء لهم سته. والحياء والإغضاء متقاربان^(٧). الحياء رقة في وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته أو يكون تركه خيرا من فعله. والإغضاء التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته. مثال ذلك ما رأى الرسول فرج زوجاته ولا رأين فرجه قط. وكان خلقه الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم^(٨). واتسم وقاره بالصمت والتؤدة والمروءة وحسن الهداية^(٩). وكله يتحقق بعزة

(١) «بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء»، «لا تقل إلا خيرا فأنا خير من تسلف»، «لا أشتري بعد هذا شيئا إلا وعندي ثمنه»، «صه يا عمر، كنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء وكان أحوج إليه أن تأمره بالصبر»، «أيا امرئ أعتق امرءا مسلما كان فكأكه من النار... وأيا امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكأكه من النار....»، «ستبقى أمتي على الفطرة طالما لم تعتبر الأمانة غنيمة»، سيرة النبي حـ/٢٢٣.

(٢) «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»، الأنوار حـ/١/٢٣٠.

(٣) الشفا حـ/١٣٥-١٤٣، عيون الأثر ص ٤٣٤، سيرة النبي حـ/٧٧-٢٨٥، حـ/٢٤٩-٢٥٢، معين الشئائل ص ٢٣٢-٢٤٠.

(٤) «أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج يا عمر. تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي»، الشفا حـ/١٤١.

(٥) «ما تقولون إني فاعل بكن.... أقول.... اذهبوا فأنتم الطلقاء»، السابق ص ١٤٢.

(٦) «إننا بعثت رحمة ولم أبعث عذابا»، الإشارة ص ٤١٥، حلمه وعفوه مع القدرة عليه، الأسوة الحسنة ص ٤١٩-٤٢٠، حلمه على المنافقين، حلمه على المشركين واليهود ص ٤٢٠-٤٢٢، «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، سيرة النبي حـ/٢٩٣-٢٩٦.

(٧) الشفا حـ/١٥٢-١٥٤، الإشارة ص ٤١٦، في حياته، بهجة المحافل ص ٥١٧-٥١٨، الأسوة الحسنة ص ٤٢٢-٤٢٣، شئائل النبي ص ١٩٩، عيون الأثر ص ٤٣٦، سيرة النبي حـ/٢٢٣-٢٢٨، «لا تغضب عليه فالحياء من الإيثار»، الحياء لا يأتي إلا بخير»، حـ/٢٢٦-٢٢٧، معين الشئائل ص ٢٠٦-٢٠٩.

(٨) الشفا حـ/١٦٤-١٦٧، «إن حسن العهد من الإيمان»، «يا فتى لقد شققت علي، أنا هنا منذ ثلاث أنتظر»، بهجة المحافل ص ٥٢١-٥٢٢، عيون الأثر ص ٤٤٠-٤٤١، سيرة النبي حـ/٢٧٢-٢٧٤، حـ/٢٣٥-٢٣٩، سيرة النبي حـ/٢٣٩، معين الشئائل ص ١٧٧-١٨٥.

(٩) الشفا حـ/١٧٦-١٧٩، بهجة المحافل ص ٥٢٥، هيئته ووقاره، الأسوة الحسنة ص ٤٤٧-٤٤٨، «إذا

النفس. والاستغناء هو غنى النفس^(١). والاستقامة هو التوحيد المباشر^(٢). وتتصف مداراته وصبره على ما يكره^(٣). كان أوسع الناس صدرا. يكره الإمارة لأن السلطة مفسدة. تدفع إلى الغرور^(٤). وينأى عن رموزها وشاراتها. وأفضل جهاد كلمة عدل عند سلطان جائر. يكره الذم والمدح على عكس ما هو جار هذه الأيام. وينهى عن التعظيم والمدح المفرط^(٥).

ويتميز بحسن العشرة والأدب وبسط الخلق^(٦). وهو ما يقتضي حسن استقبال الأخوة والتهنيؤ لهم، ومبادرتهم بالسؤال إذا لم يحسنوا استقباله. لا يدع أحدا يسير خلفه، مكان الملائكة. والمقصود التواضع والمساواة إلا إذا اقتضت ضرورة الزحام. يساهم في العمل الجماعي حتى ولو كان حمل الخطب حتى لا يتميز على أحد. وهو إحساس طبيعي والاعتماد على النفس خير من الاعتماد على الآخرين. يحسن الرسول معاملة النساء^(٧). يعود المرضى ويواسيهم^(٨). يحب الفقراء، ويشفق عليهم^(٩). سلوكه

سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تسرعوا، سيرة النبي حـ/ ٢٦٨.

(١) سيرة النبي حـ/ ٢٦٤-٢٧١، ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس، حـ/ ٢٨٩.

(٢) «قل لا إله إلا الله ثم استقم»، السابق حـ/ ٢٨٢.

(٣) الأسوة الحسنة ص ٤٢٣-٤٢٤، عيون الأثر ص ٤٣٧-٤٣٨، معين الشائيل ص ٢٤١-٢٤٥.

(٤) سيرة النبي حـ/ ٢٥٥-٢٦٢، «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، حـ/ ٢٨٦، «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيانه»، حـ/ ٢٨٧.

(٥) السابق حـ/ ٢٥٤-٢٥٥/ ٢٦٤، «المسلم ليس بطعان ولا لعان، ولا يقول إلا الطيب من القول»، حـ/ ٢٥٩.

(٦) الشفا حـ/ ١٥٤-١٥٩ «أركب أمامي، فصاحب الدابة أولى بمقدمتها»، ص ١٥٦ «في حسن عشرته لأصحابه وحسن أدبه معهم»، «إن الله يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتبها لهم ويتجمل»، «لعل فلانا وجد علينا في شيء أو رأى منا تقصيرا»، «خلوا ظهري للملائكة»، «وعلني جمع الخطب»، «قد علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم»، «لأن يستغنى أحدكم من الناس ولو في قضة من سواك»، «بهجة المحافل ص ٥١٨-٥٢٠، في صفة عشرته مع نسائه، شائيل الرسول ص ٢٢٢-٢٧٦، حسن التصرف، معين الشائيل ص ٢٨٤-٢٩٠.

(٧) سيرة النبي حـ/ ٣٠١-٣٠٣.

(٨) السابق حـ/ ٣٠٧-٣١٢.

(٩) «تأخذ من أمرانهم وترد على فقرانهم»، السابق حـ/ ٢٩٠-٢٩٢.

مع الكفار والمشركين سلوك كريماً^(١). تميز بحسن خلقه مع اليهود والنصارى^(٢). كما تميز بحسن خلقه مع الأعراب^(٣). يرفق بالحيوان^(٤). لا توجد فضيلة إلا فيه. فهو بحق الإنسان الكامل كما وصفه الصوفية. لا فرق فيه بين صفات الله وشأنه الرسول.

٣- الخصائص الدينية

وتصعب التفرقة بين الفضائل الخلقية والخصائص الدينية. فكثير من الفضائل الخلقية خصائص دينية مثل التقوى، والرحمة، والحلم، والشفقة، والجود، والعدل. وكثير من الخصائص الدينية قيم أخلاقية مثل الزهد، والإيمان، والإخلاص. ومع ذلك هناك بعض القيم أقرب إلى الفضائل الأخلاقية الخالصة مثل الشجاعة، والبعض الآخر أقرب إلى القيم الدينية الخالصة مثل الزهد، والإعراض من الدنيا، والخوف من الله، وما أعطي الرسول من شفاعاة، والاستغفار والتوبة^(٥). فمن صفاته الدينية زهده، وخوفه من الله، وهي الصفات التي كبرها وضخمها وأبرزها الصوفية وأعطوها الأولوية على الصفات الأخرى، واعتبروها أحوالاً ومقامات^(٦). وهي سنة الأنبياء السابقين^(٧). فضل

(١) السابق ح ٢/ ٢٨٥-٢٨٨.

(٢) الأسوة الحسنة ص ٤١٨-٤١٩، سيرة النبي ح ٢/ ٢٨٨-٢٩٠.

(٣) الأسوة الحسنة ص ٤١٨-٤١٩.

(٤) سيرة النبي ح ٢/ ٣٠٣-٣٠٥، معين الشرائع ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٥) «أبشروا معاشر الصعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل الاختبار بنصف يوم، وذلك خمسين عاماً»، ص ٦٦.

(٦) من الفناء إلى البقاء، ح ٢/ الوعي الذاتي، الباب الثاني، الفصل الثاني: المقامات، الفصل الثالث: الأحوال.

(٧) «يا عائشة، مالي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأكرم مأهم، وأجزل ثوابهم، لأجدي أستحي إن ترفعت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم. وما من شيء هو أحب إلي من الحقوق بأخواني وأختائي»، الشفا ح ١/ ١٨٤، «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي»، الشفا ح ١/ ١٩٥، ألفية السيرة ص ٩٧-١٠٢، سيرة النبي ص ٤٣٦-٤٣٨، السيرة النبوية ص ٤٣١-٤٣٣، الحفاظ على أصالة الدين والغيرة على روحه وتعاليمه، السيرة النبوية ص ٤٤٦-٤٤٨، السيرة النبوية ص ٥٥-٦٦، «يا عمر ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»، ص ٥٦، «لو أن لي ثقل أحد ذهباً ما سرتني أن تأتي على ثلاث ليال وعنده في شيء إلا شيء أرصده لديني»، ص ٥٧، «اللهم أحيني مسكيناً وأميتني مسكيناً واحشني في زمرة المساكين يوم القيامة»، ص ٥٧، «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام»، ص ٥٩، «رديه يا عائشة، والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»، ص ٦١.

الرسول أن يكون عبدا نبيا. وآثر الآخرة على الدنيا، ومع الزهد تأتى القناعة. ويوضع الزهد في سيرته بشأن تلبية الحاجات الضرورية^(١). فالزهد سلوك إيجابي، يفترق عن الفقر^(٢).

ويتضمن زهده إعراضه عن الدنيا^(٣). عدم الاقتداء بالفرس والروم الذين انكبوا عليها^(٤). أما رزق آل محمد فهو القوت^(٥). وقد عُرض على الرسول أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فرفض. وآثر أن يشبع يوماً ويجوع يوماً. فإذا جاع تضرع إلى الله وذكره. وإذا شبع حمده وشكره^(٦). ولا تنبغي الدنيا لمحمد ولا لآله. يكفي أولو العزم الصبر على مكروها، والصبر على محبوبها^(٧). ورفض النوم على فراش من صوف أهدى إليه بدلا من الحصير^(٨). فقد اختار الرسول وآل بيته الآخرة على الدنيا^(٩). يش الرسول من الدنيا ويشت الدنيا منه. بُعث هو والساعة يستبقان^(١٠). الرسول في هذه الدنيا مجرد راكب استظل تحت شجرة ليستريح ثم تركها^(١١).

(١) معين الشائتل ص ٣٥٥-٣٩٨.

(٢) السابق ص ٣٥٥-٣٦٢.

(٣) الأنوار ح ١/ ٢٢٢-٢٣٤.

(٤) «أولئك قوم عجلوا طياتهم في الحياة الدنيا»، السابق ص ٣٢٣.

(٥) «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»، السابق ص ٣٢٣، الشفا ح ١/ ٨٠.

(٦) عرض علي ربي ليجمع لي بطحاء مكة ذهباً. فقال لا، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً... فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك. وإذا شبعت حمدتك، وشكرتك»، السابق ص ٣٢٤.

(٧) «إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروها، والصبر على محبوبها، لم يرض إلا أن كلّفني ما كلّفهم... والله لأصبرن كما صبروا وأجهدن»، السابق ص ٣٢٤-٣٢٥، «مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»، شائتل الرسول ص ٥٧.

(٨) «رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله علي جبال الذهب والفضة»، السياق ص ٣٢٥، «ردوه بهاله فإن وطأته منعني الليلة صلاتي»، الشفا ح ١/ ١٨٣، بهجة المحافل ص ٥٢٦-٥٢٧.

(٩) «إنا أهل بيت اختار الله عز وجل لنا الآخرة على الدنيا»، الأنوار ح ١/ ٣٢٥.

(١٠) «يشت من الدنيا، ويشت مني، أي يبعث أنا والساعة فتستيق»، السابق ص ٣٢٦.

(١١) «مالي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»، السابق ص ٢٢٦، «إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له»، الشفا ح ١/ ١٨١-١٨٢، شائتل الرسول ص ٥٦-٥٧.

ويجوع الرسول هو وأهله في بيوته التسع^(١). وقد لا يدخل طعام فيه ثلاثة أيام^(٢). وقد يظل هو وبلال ثلاثين يوما وليلة لا يأكلان طعاما إلا ما يواريه إبط بلال أي كسرات خبز وشرب حليب. وطعام شاة تعين يُسأل عنه الصحابيَّان بعد أن خرجا إلى الطريق ولقيا الرسول من الجوع^(٣). ولا يترك الرسول وراءه ميراثا إلا نفقة عياله ومؤنة عامله بل صدقة للناس^(٤). وقصر الأمل نقيض التخطيط على المدى الطويل كما فعل يوسف فأنقذ مصر من المجاعة^(٥). وفي رواية أخرى ادخاره قوت سنة وعدم ادخاره للغد، والرجاء القصير في العمل^(٦). وهو قلة الطموح، وعدم الاهتمام بالغد والأفضل رزق يوم بيوم، من اليد إلى الفم. وهو ما يضاد معاني الاستثمار والإعداد وتوقع الكوارث والمجاعات والحروب.

ولا أحد يزايد على الرسول في الخوف من الله^(٧). يفعل الرسول شيئا ويمتنع عنه البعض مزيدة عليه^(٨). ولو علموا ما علم لبكوا كثيرا وضحكوا كثيرا^(٩). يخشى العذاب من الله^(١٠). وقد استيقظ ليلة خائفا مما أنزل من الخزائن ومن الفتن وأيقظ زوجته قرب

-
- (١) «ما أصبح بآل محمد صاع من طعام، وأنهن يومئذ تسع أهل بيوتات»، الأنوار حـ/١-٣٣١.
(٢) «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاث»، السابق حـ/١-٣٣١، «ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم، ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال»، ص ٣٣٢.
(٣) «والذي نفسي بيده لتستلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»، السابق حـ/١-٣٣٤.
(٤) «لا يقسم ورثتي دينارا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»، السابق حـ/١-٣٣٣.
(٥) الأسوة الحسنة ص ٤٣٩٨-٤٤٠، «ألم أنك أن تدع طعام يوم لغد»، «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا»، «ألم أنك أن ترفعي شيئا لغد، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غدة»، حـ/١-٤٤٣-٤٤٤.
(٦) معين الشئائل ص ٢٦٧-٢٧١.
(٧) الأنوار، حـ/١-٣٣٤-٣٣٨، الشفا حـ/١-١٨٤-١٨٨، معين الشئائل ص ٢٦٦-٢٦٧.
(٨) «ما بال أقوام يتزهون عن الشيء أصنعه. فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»، الأنوار حـ/١-٣٣٥.
(٩) «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتكم قليلا»، السابق ص ٣٣٦.
(١٠) «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب. قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿عَارِضٌ مُّطِرُنَا﴾»، السابق ص ٣٣٧.

كاسية في الدنيا عارية في الآخرة^(١). يستغفر الله في اليوم مائة مرة^(٢). والورع وترك الشبهات هو الخوف الزائد^(٣).

والأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم^(٤). وفي حياة داود، صيامه وصلاته ولباسه وفرشه وطعامه وسلوكه النموذج^(٥). والرسول أكرم من أن يشغل نفسه بحمار^(٦). وكان أكرم على الأنبياء الابتلاء بالفقر والقمل أحب إليهم من عطاء الدنيا^(٧). وكان دائم التفكير فيما هو أكثر دواما، وفيما هو آت.

ومن الخصائص أنواع: الشفاعة التي أعطيت للرسول^(٨). وهي: المقام المحمود للخلق جميعا، الشفاعة في عدم دخول النار، والشفاعة من تريد سيئاته على حسناته، والشفاعة لأهل الكبائر باستثناء نهي الخوارج والمعتزلة لها، والشفاعة للمؤمنين بعد تجاوز الصراط^(٩). والشفاعة في رفع درجات بعض المؤمنين. الشفاعة تعبير عن الأمل في المستقبل، وتخفيفا لقانون الاستحقاق، وإكمالا للعدل بالرحمة، وبالاكتفاء على الذات بالأمل في الآخر.

(١) «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الخزانين، وماذا أنزل من الفتن، من يوقظ صواحب الحجرات لكي يصلين. رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»، السابق ص ٣٣٨.

(٢) «إني لأستغفر في اليوم مائة مرة»، المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر رداي، والرضا غنيمي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني الصلاة، «وثمره فؤادي في ذكره، وغمي لأهل أمتي وشوقي إلى ربي»، بهجة المحافل ص ٥٢٧-٥٢٨.

(٣) معين الشمائل ص ٢٥٨-٢٦١.

(٤) «وكذلك الأنبياء، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»، الشفا ح ١/ ١٩٥.

(٥) «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود. كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما. وكان يلبس الصوف، ويفرش الشعر، ويأكل خبز الشعير بالملح، والرماد، ويخرج شرابه بالدروع. ولم يُر ضاحكا بعد الخطيئة، ولا شاخصا يبصره إلى السماء حياء من ربه، ولم يزل ياكيا على حياته كلها»، السابق ح ١/ ١٩٦.

(٦) «أنا أكرم على الله من أن يشغلني بحمار»، السابق ح ١/ ١٩٦.

(٧) «لقد كان الأنبياء قبلي يتلى أحدهم بالفقر والقمل، وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم»، السابق ح ١/ ١٩٧.

(٨) الفصول ص ٥٢٤-٥٣٠، معين الشمائل ص ٣١٩-٣٢٤.

(٩) «أنا أول شفيع في الجنة»، الفصول ص ٥٢٩.

استغفاره وتوبته من الخصائص الدينية. يستغفر دائما حتى لو غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ويتوب أكثر من مرة في اليوم الواحد تظهيرا للقلب وتصفية للنية، والحب والبغض في الله^(١). فالمحبة متبادلة بين الرسول وقومه، وبين الرسول والله، أفقية ورأسية في آن واحد^(٢).

ووصف الرسول نفسه بأنه النذير العريان^(٣). فقد حذر من الشيطان والدنيا والنفس والنار والدجال واتباع الأمم السابقة، في العقيدة والصلاة والأسرة^(٤). وحذر من ولاية الأمور العامة. حذر الأئمة والقضاة والعلماء والمستولين عن مال الأمة^(٥). لذلك لا تُسأل الإمارة فإن السؤال عنها ندامة، والكل راع، والكل مسئول عن رعيته، وحذر القضاة وصنفهم في ثلاث: من قضى بالحق فهو ناج، ومن عرف الحق ولم يقض به، ومن مهل الحق فقضى به، وكلاهما هالك^(٦). والقضاء سيف على الرقبة بغير حد. وحذر

(١) الأسوة الحسنة ص ٣٣٧-٣٣٩، «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»، «والله إني لأتقاكم الله وأعلمكم بها أنفي»، «دع ما يريك إلى ما لا يريك»، شمائل الرسول ص ٦٨.

(٢) معين الشمائل ص ٢٧٢-٢٧٩.

(٣) «إنا أنا ومثل ما يعثني الله به كمثله رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء. فأطاعته طائفة من قومه فأولجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصحبهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»، «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان من غير مريم وابنها»، «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، «إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدري كم صلى. فإذا وجد ذلك فليسجد سجدين وهو جالس»، معين الشمائل ص ٤٠٦، «فأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا، فأغلقوا قلوبكم، واذكروا اسم الله، وخمروا آيتكم واذكروا اسم الله»، ص ٣٩٩-٤٢٨، «لتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، ص ٤١١، «أنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة»، ص ٤١٣، «ما من وال يلي على رغبة من المسلمين فيموت وهو غش لهم إلا حرم الله عليه الجنة»، ص ٤١٤.

(٤) «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، السابق ص ٤٠٧، «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، ص ٤٠١-٤١٢.

(٥) السابق ص ٤١٣-٤١٨.

(٦) القضاة ثلاث: «واحد في الجنة واثان في النار. فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»، «من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين»، السابق ص ٤١٥.

العلماء، فالعلم طريق النجاة^(١). والعلم لوجه الله وليس لعرض في الدنيا، مجارة العلماء أو ممارسة السفهاء أو لجذب الانتباه إليه، وحذر المتخوضين في المال بغير حق^(٢).

وحذر الرجال من النساء^(٣). وحذر النساء^(٤). فالمرأة للرجل فتنة، خاصة إذا كانت ثيبا. وهم أكثر أهل النار كما أن الفقراء أكثر أهل الجنة، هن ناقصات عقل ودين، ناقصات عقل لأن شهادتها نصف شهادة الرجل، وناقصات دين لأنهن لا يصلين إذا حضن. يكثرن الشكاية، ويكفرون بالعشيرة، ويكثرن اللعن، ويكفرن باللسان. ويؤمرون بالصدقة والاستغفار.

٤- البيان

ومع خصائصه من وفور عقله، وذكاء لبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله أنه كان أعقل الناس وأذكاهم^(٥). كان قلبه طاهرا شريفا^(٦). حادثة شق الصدر الشهيرة وما بها من خيالات وتصويرات، عقله يزن عقول الخلق جميعا^(٧). كان أفصح الخلق، وأعذبهم كلاما، وأسرعهم أداء وأحلامهم منطقا، يأخذ عجبا مع القلوب. لا يسرع ولا يبطئ. ويفصل الكلام دون ملل. يعيد الكلام أحيانا ثلاثا ليعقله السامع، ويسكت ولا يتدخل فيما لا يعنيه. يتكلم بجوامع الكلم دون

(١) «من يسلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم»، «وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»، «وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا أو درهما وورثوا العلم»، «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليجاري به السفهاء أو يصرف به وجه الناس إليه أدخله الله النار»، السابق ص ٤١٥-٤١٦.

(٢) «إن رجالا لا يتخوضون كما قال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة»، السابق ص ٤١٧.

(٣) «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»، السابق ص ٤١٩-٤٢٨.

(٤) «واتقوا النساء فإن أول فتنة في بني إسرائيل كانت في النساء»، ص ٤١٩، «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل المزمّن من إحداكن»، «ألا لا يثن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحا أو ذا محرم»، «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء. واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»، السابق ص ٤٢١-٤٢٥.

(٥) الشفا ح/١-٩١-٩٥، شمائل النبي ص ١٣٢-١٣٣/١٤١/١٥٢.

(٦) شمائل النبي ص ١٥٤-١٥٨ «أتيت وأنا في أعلى فانطلق بي إلى زمزم فشرح صدري ثم غسل بياه زمزم ثم أتيت بطست من ذهب ممتلئ إيمانا وحكمة فحشى بها صدري»، ص ١٥٨.

(٧) السابق ص ١٦٠.

فضول أو تقصير^(١). خطبه مميزة، كان مميزا في خطابه. له طريقته وأسلوبه في البيان. لها نوعية خاصة وتأثير قوي في السامعين^(٢). له أدعية وأذكار تقال في أوقات مخصوصة^(٣). يتسم بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وسلامة الطبع، وبراعة المنزع. والأمثلة على ذلك كثيرة قولاً وكتابة، وهي مركزة، وقليلة اللفظ، عميقة المعنى. تطابق التجربة البشرية. يسهل تكرارها، ومن جوامع الكلم، وهو فن من فنون البلاغة العربية^(٤). أصله القرآن أيضا في بعض الآيات، ولسان القرآن ولسان الرسول لسان عربي مبين، وكلغة إسماعيل مهتدة بالاندثار. تعلم العرب لدى بني سعد، فمن أين يأتي اللحن؟^(٥). يتحدث بلسان العرب وفي نفس الوقت بلغات أخرى مثل الحبشية والرومية والفارسية والقبطية أو على الأقل بألفاظ منها دخلت العربية من قبل.

(١) خير العباد ص ٦٨٢-٦٨٣ / ٣٨٥، في صفة نطقه وخصائصه وسكوته، بهجة المحافل ص ٥٠٤-٥٠٥، محمد البليغ، عبقرية محمد ص ١٠٣-١١٩، نبذة من جوامع عباراته ورفائق برعائه، سيرة المصطفى ص ٨٢-٨٨، فضلت على الأنبياء يست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون، الجوهره ح ٢/ ٩٤، شمائل الرسول ص ٤٦-٤٧، خصائص الرسول ص ٢٨٧-٢٨٨، الآية في لسانه الشريف، الخصائص الكبرى ح ١/ ١٥٣-١٥٤، آداب الحديث ح ٦/ ٤١٦-٤٢٠، صفة كلام النبي، معين الشمائل ص ١٣٢-١٤٢.

(٢) سيرة النبي ح ٢/ ١٩١-١٩٨، أسلوبه في الخطبة ح ٢/ ١٧٤-١٧٦، جوامع الكلم، شمائل الرسول ص ٢٩٦-٣٢٦.

(٣) شمائل الرسول ص ٢٨٧-٢٩٥، خمسون حديثاً، أكثرها صحاح وحسان من أدعيته ص ٣٧٣-٣٩٦.

(٤) مثل «إن اليد العليا هي المنطة، واليد السفلى هي المنطاة»، «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»، «الناس كأسنان المشط»، «المرء مع من أحب»، «ولا خير في صحة من لا يرى لك ما ترى له»، «الناس معادن»، «ما هلك امرؤ عرف قدره»، «المستشار مؤمن»، «هو بالخيار ما لم يتكلم»، «رحم الله عبداً قال خيراً فغتم أو سكت فسلم»، «اسلم تسلم»، «اسلم يؤتيك الله أجرك مرتين»، «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحسانكم أخلاقاً المواطنون أكتافاً الذين يألون ويؤلفون»، «لعله كان يتكلم بها لا يعنيه، ويخجل بها لا يُغنيه»، «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً»، «النهي عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع دمعات، وعقروق الأمهات، ووأد البنات»، «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»، «خير الأمور أوسطها»، «أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوماً»، «الظلم ظلمات يوم القيامة»، «حمى الوطيس»، «مات حشف أنفه»، «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، «السعيد من وعظ بغيره»، الشفا ح ١/ ٩٥-١٠٧.

(٥) «أنا أعرب العرب، ولدت في قريش، ونشأت في بني سعد، فأني أتيني اللحن»، الخصائص الكبرى ص ١٥٤، «وما يمتعني. وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، بين أي من قريش، ونشأت في بني سعد»، السابق ح ١/ ١٠٦.

والرسول بشر مثل باقي البشر. يتأثر بالشعر. وقد يغير أحكامه طابقا لمدى لأثره فيه. ويتحول من القتل إلى العفو^(١). الرسول عربي، والشعر حياة العربي، ثقافته وقيمه وتجاربه وتاريخه. وكانت حليلة ترقصه على الشعر وهو طفل صغير^(٢). وكان يستمع إلى الشعر بالرغم من موقف القرآن من الشعر والشعراء. يسأل عن شعر أمية ابن أبي الصلت^(٣). يرتجز يوم الخندق، يرى أن أصدق كلمة قالها الشاعر لبليد^(٤). وفي نفس الوقت كان يفخر بأنه من أمة أمية. لا تكتب ولا تحسب تعد بأصابعها وبيديها، وتستعمل لغة الجسد، يحرم عليه الخط والشعر لإثبات أميته، وتفرد القرآن بالبلاغة الأدبية^(٥). ومع ذلك استشهد الرسول بشعر لبليد على التوحيد. وكان الرسول يقدر سجع الكهان^(٦).

وكلام الله استرجاع لكلام البشر. وهو سر بلاغته، كلام البشر بعد أن يتدخل في الوحي يصبح معجزا^(٧). وكثير من أقوال الرسول أو الصحابة كانت أساسا للآيات

(١) سمع الرسول شعر قتيله ورثاء لأخيها الذي حكم الرسول «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه»
«يا أبا بكر لو سمعت شعرها ما قتلت أباها»، الجوهرة حـ ١/ ٧٧.
(٢)

يسارب إذ أعطيه فأبقه .: وأعله إلى الملا وأرقه
وأدحض أباطيل المدو بحقه

الخصائص الكبرى حـ ١/ ١٩٤.

(٣) السابق ص ٢٦٨-٢٧٠.

(٤) السابق ص ٢٧٠-٢٧٨، قال يوم الخندق.

والله لولا الله ما اهتدينا .: ولا تصدقنا ولا صلينا

فأزلن سكينتنا .: وثبت الأقدام إن لاتينا

إن الأولي قد بنوا علينا .: إذ أرادو فتنة أبنينا

وأجاب الأنصار يوم الخندق

لا عيش إلا عيش الآخرة .: فأكرم الأنصار والمهاجرة

قال لبليد:

السابق ص ٢٧٢-٢٧٨.

(٥) خصائص الرسول ص ١٣٢-١٣٨.

(٦) «إنها هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع»، الجوهرة حـ ١/ ٢٢٠.

(٧) عبد الله بن أمية هو الذي قال «لن تؤمن حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا... أو يكون لك بيت من زخرف»، السابق حـ ٢/ ٦٨.

القرآنية، لا فرق بين كلام البشر وكلام الله^(١). ولا يجهر القراء على بعضهم على بعض بالقرآن لأنه تشويش^(٢). ومع ذلك يقرأ في جماعة بصوت واحد، يقرأ القرآن ويقطعه ببعض عبارات الحمد. ويجب أن يسمعه من الآخرين، ويتغنى به، ويخشع حين قراءته^(٣).

ومن أوجه البيان عند الرسول إعطاء معاني جديدة لألفاظ قديمة مثل: الغنى، الإفلاس، القوة، مال الوارث، انصر أخاك^(٤). وذلك طبقا لمنهج التواصل لا الانقطاع. وهي أيضا عبارة للمسيح، خمر جديد في أوعية قديمة. ومع ذلك كان أحيانا يستعمل ألفاظا عربية قديمة لم تعد متداولة الآن. فالألفاظ لها حياة، تحيا وتبعث من جديد^(٥). وهو ما يفعله بعض المعاصرين في «التراث والتجديد»، إعطاء ألفاظ قديمة معاني جديدة^(٦). وسمى النبي «ذا الوجه الأحمر أبا الورد»^(٧). كما سخر النبي عن يشتري العبد ويقصد أنه عند الله ليس كاسدا بل غال^(٨). وقد أخبر الرسول عجوز أن الجنة لا يدخلها عجوز. فلما حزنتم قرأ لها ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾. وكان يفهم أيضا التورية عندما وصفت امرأة لا يشبعها زوجها بأنها معه كهدمة الثوب، وعندما دعا الرسول على يتيمة أم سليم بأن سنها لا يكبر وحزنت بأنه اشترط على الله أن أي دعوة لا تروق لأهلها أن تكون لهم طهورا وزكاة وقربة^(٩).

(١) مثل قول أبي بكر دفاعا عن الرسول «أنتقلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»، السابق ح ١/ ٥١.

(٢) «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن»، السابق ح ١/ ١٢٦.

(٣) شئنا النبي ص ١٧٨-١٨١، «زينوا القرآن بأصواتكم»، «من لم يتغن بالقرآن فليس منا»، «ما أذن الله لشئ ما أذن لنبي حسن الصوت يتغن بالقرآن يجهر به»، بهجة المحافل ص ٥٩٥-٥٩٨.

(٤) «ليس الغنى كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»، «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا...»، «الصرعة من يملك نفسه عند الغضب»، «انصر أخاك ظالما أو مظلوما... تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»،

معين الشئنا ص ٣٤٧-٣٥٤.

(٥) الشفا ح ١/ ٩٨-٩٩.

(٦) التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم ص ١٠٩-١٣٢.

(٧) الأنوار ح ١/ ٢٥٧.

(٨) «لكن عند الله لست بكاسد، ولكن عند الله أنت غال»، السابق ص ٢٥٧.

(٩) السابق ص ٢٥٨-٢٦٠.

والكلام والصمت فعلان خلقيان^(١). فكان قليل الحديث كثير الصمت. وإذا تكلم كان أشد حياء من العذراء. يوضح ويعيد ويبتسم.

سابعاً - تصورات اجتماعية:

١ - الدين الشعبي

وأحيانا تتحول الشئائل إلى دين شعبي كما هو الحال في «العمل»^(٢). وهو ما كان سائدا في الجاهلية، فسخر الرسول من معجزاته ومن كرامات الصحابة، كما هو الحال في حادثة لبيد بن الأعصم بعد أن سحر الرسول وفك سحره في عمل مدفون في بئر. وكان يستحب الفأل^(٣). والفأل غير الطيرة. الفأل استبشار بعلامة، والطيرة عكسه^(٤). والطير يجري بقدر^(٥). وأحيانا يتحول الأمر إلى حدود الخرافة عندما تصبح الناقة مأمورة^(٦). الفأل بحسن الوجه والاسم^(٧). وقد يدخل الفأل في تفسير الأحلام^(٨). الرسول يتطير بالأسماء. فبدلاً من اسم سهل الذي يطلق على الحمار حزن الذي يطلق على الإنسان^(٩). وكان يخرج في السفر في يوم معلوم ويعود في يوم معلوم^(١٠). وكانت له أقوال حين السفر أو العودة^(١١). وهي دعوات مازالت قائمة حتى اليوم في الطائرات ووسائل النقل

(١) الأنوار حـ ١/ ٢٦٣-٢٦٨.

(٢) خيل إلى الرسول أنه طب، أنه صنع شيئاً وما صنعه. إذ جاءه رجلان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله. وسأل الأول عن الموضع وأجاب الثاني مطبوب من لبيد بن الأعصم، مشط مشاطه وجف طلعة ذكر في فروان، بئر بني زريق، كأن مائه فقاعة الحناء، ونخلها رؤوس الشياطين، محمد رسول الله حـ ١/ ٢٧٥.

(٣) الأنوار حـ ٢/ ٧٠٨-٧١٥.

(٤) «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل، الكلمة الطيبة، الكلمة الحسنة»، السابق ص ٧٠٨-٧٠٩.

(٥) «الطير يجري بقدر»، السابق ص ٧١١.

(٦) «إن ناقتي هذه مأمورة»، السابق ص ٧١٠.

(٧) «إذا بعثتم إليّ رسولاً فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم»، السابق ص ٧١٢.

(٨) «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا في دار عقبة بن رافع. فأتينا برطب من رطب ابن طاب فأولته الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة وأن ديتنا قد طاب»، السابق ص ٧١٤.

(٩) الجوهرة حـ ١/ ٩٥.

(١٠) الأنوار حـ ٢/ ٦٩٨-٧٠٢.

(١١) السابق ص ٧٠٣-٧٠٨.

الحديث^(١). وكان يدعو أيضا للآخرين في أسفارهم^(٢). إذا سافر وأقبل الليل دعا أيضا دعاء خاصا^(٣). وتتعدد الروايات والروح واحدة^(٤).

والتعوذ يحفظ من الشر^(٥). وكان للرسول عدة أذكار روتها كتب السيرة في أوقات ومناسبات مختلفة. هناك أذكار في الصباح والمساء، تجعل الله مركز كل شيء، وهناك أذكار أخرى كان يقولها في أمور عارضة، عند الكرب لتفريجه، وإذا راعه شيء لطمأنته، وإخراج أحد من ورطة، وإذا لقي العدو، وعند توقع البلاء، وغلبة الأمور، وإذا خرج من بيته، وإذا وجد في نفسه الوسواس، وعندما يرقى اللديغ والمعتوه، وعند عيادة المريض، ويضع يده على المريض، وعندما يبرئ عن الصالقة والحالقة والشاقة والنائمة والمستمعة، وعند زيارة القبور، وإذا عصفت الريح. وكانت له أذكار عدة في السفر في مجتمع تجاري يقوم على الأسفار. وله أذكار أخرى متفرقة عند سماع نفاق الحمير، وصياح الديكة، ونباح الكلاب. ولا حريق لأن التكبير يطفئه. وله أدعية دخول السوق وعندما تظن الأذن، وعند من تؤذيه لحيته، وإذا أتى بياكورة، وإذا أراد أن يصيب شيئا بعينه، وإذا أتى الإنسان مولود، وعند من يرى رؤية، ولمن لبس ثوبا جديدا^(٦). والعياذ بالله في كل شيء، من الكسل والهزم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر. ما في يد الإنسان ومقدورها مثل الكسل وما هو خارج عنه مثل الهزم، والعياذ بالله من الهم والحزن

(١) اللهم إنا نسألك من سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا وأطو لنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل... آييون تائبون عابدون لربنا حامدون، السابق ص ٧٠٤.

(٢) «جعل الله التقوى زادك، وغفر ذنبك، وجهك للخير حيث ما تكون»، «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»، اللهم أزوله الأرض، وهون عليه السفر، السابق ص ٧٠٥.

(٣) «يا أرض ربي وربك أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يجيب عليك، وأعوذ من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، من والد وما ولد»، السابق ص ٧٠٧.

(٤) «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آييون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، السابق ص ٧٠٧-٧٠٨.

(٥) أما لو قلت حين أمسيت «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك»، الجوهره ح ١١٦/١.

(٦) بهجة المحافل ص ٥٩٨-٦٠٩.

والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال^(١). وقد تطول العيادات إلى فتنة المحيا والممات، وشر فتنة الغنى، وشر فتنة القبر، وشر فتنة المسيح الدجال، ومن علم لا ينفع، ومن نفس لا تشيع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها، ومن قول لا يسمع^(٢). العياد به من كل ما في مقدور الإنسان عمله مثل العجز والجبن والبخل والغرم والمأثم، وما هو خارج مقدور الإنسان مع أنها نتائج الفعل في الدنيا طبقا لقانون الاستحقاق^(٣). والعياد من شر العلم وشر ما لم يُعمل يعني عدم الثقة بالفعل^(٤). والمطلوب الخشية من الله حتى تحول من المعاصي، والطاعة التي تبلغ الجنة، واليقين الذي يهون مصائب الدنيا، والتمتع بالسمع والبصر، والثأر على من ظلم، والنصرة على من عادى. ولا تقع المصيبة في الدين، ولا تكون الدنيا أكبرهم ولا مبلغ علم، ولا يسلط على الأمة من لا يرحمها^(٥). والدعاء الأخير أن يجعل الله للمسلمين في الدنيا حسنة

(١) «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال»، السابق ص ٧٢٧، «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أئنت على نفسك»، ص ٧٣١.

(٢) «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف العزم والمأثم، اللهم لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانه اللهم ويحمدك»، السابق ص ٧٢٤-٧٢٥، «رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر. رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر... أصبحنا وأصبح الملك لله»، السابق ص ٧٢٥-٧٢٦.

(٣) «اللهم أني أعوذ بك من الكسل والهم والمغرم والمأثم. اللهم أني أعوذ بك من عذاب النار، وفتنة النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشر فتنة الغنى، وشر فتنة الفقر، ومن شر فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل خطاياي بياض الثلج والبرد، وتق قلبي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»، السابق حـ ٧٢٨/٢، «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهم وعذاب القبر. اللهم آت نفسي تقواها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن نفس لا تشيع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها»، السابق ص ٧٢٩.

(٤) «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت وشر ما لم أعمل»، الأنوار ص ٧٣٢.

(٥) «اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همتنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»، حـ ٤٣٦/٢.

وفي الآخرة حسنة وأن يقيهم عذاب النار^(١). والتسليم لله والإيمان به والتوكل عليه والإنابة إليه، والخصام به، والعياذ بعزته. فلا إله إلا هو أن يضل، فهو الحي الذي لا يموت^(٢). والملك له والحمد له، لا إله إلا هو وحده لا شريك له^(٣). ومنها الخوف من زوال النعمة، وتحول العافية، ومن نزول النعمة، ومن طول السخط والغضب، والدعاء باليمن والإيمان والسلامة والإسلام^(٤)، والدعوة بالمنفعة بما علم وتعليم ما ينفع وزيادة العلم^(٥)، وبصلاح الدين والدنيا^(٦)، وبسؤال الهدى والتقوى والعفة والغنى^(٧)، وبالعون والنصر والهداية، والشكر والذكر والطاعة والهداية والسداد^(٨).

وكان الرسول كثير الدعاء^(٩). يدعو لهم بالتوبة^(١٠). ويطلبهم بالاستغفار^(١١). ويقولون سبحان الله ويحمده وأستغفر الله وأتوب إليه. فالتسبيح والحمد له والشهادة والتكبير أفضل ما طلعت الشمس. التسبيح والحمدلة تزن الخلق كله وترضي الله وتزن

-
- (١) «ربنا آتانا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، السابق ص ٧٣٧.
- (٢) «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»، السابق حـ ٧٣٢ / ٢.
- (٣) «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»، السابق حـ ٧٢٦ / ٢.
- (٤) «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمك، ومن جميع سخطك وغضبك»، السابق حـ ٧٣٢ / ٢، «اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله»، حـ ٧٢٧ / ٢.
- (٥) «اللهم انفعني بما علمتني ما ينفعني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما، الحمد لله على كل حال، رب أعوذ بك من حال النار أو حال أهل النار»، السابق ص ٧٣٤.
- (٦) «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»، السابق ص ٧٣٤.
- (٧) «اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والعفة والغنى»، السابق ص ٧٣٥.
- (٨) «رب أعني ولا تمن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وأمكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شاكرا لك، ذاكر لك، رهابا لك، مطوعا لك، مجتبا لك، أوها منيا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وأسئل سخيمة قلبي»، السابق حـ ٧٣٥ / ٢.
- (٩) الأنوار حـ ٧١٥-٧٣٧.
- (١٠) «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى ربي كل يوم مائة مرة»، السابق ص ٧١٥.
- (١١) «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»، «إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة»، السابق حـ ٧١٦، «رب اغفر لي وتب علي، أنك أنت التواب الغفور»، ص ٧١٧.

عرشه ومداد كلماته. دعاؤه في الصباح وفي المساء تسليم له^(١). الحياة والموت والنشور من الله^(٢). وفي كل لحظة دعاء في اليقظة والنوم^(٣). الاستسلام له في كل شيء^(٤). والدعاء بغفران الخطيئة، والجهل والإسراف في الأمر، ومغفرة الجذو والهزل والخطايا العمد، مغفرة ما قدم وما أخرج، وما أسر وما أعلن^(٥). يستغفر الرسول كل يوم مائة مرة وفي رواية سبعين. ويدعو الدعاء مخلصاً مثل المسيح^(٦). له أذكاره وأدعيته^(٧). ولفضيلة الدعاء إيماءاته مثل رفع اليدين ومسح الوجه وهو الذي يسميه إقبال فلسفة السؤال، أي الشحاذة بدلا من العمل^(٨). ويقرأ القرآن وقد تحولت هذه الأدعية الفردية إلى أدعية جماعية في حلقات ذكر ذاعت وانتشرت واستمرت في حلقات الصوفية، تتدخل فيها الملائكة^(٩).

(١) «خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثر من قول سبحان الله ويحمده أستغفر الله وأتوب إليه»، السابق ص ٧١٧.

(٢) «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير»، «اللهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت، وإليك المصير»، السابق ص ٧٢٠.

(٣) «اللهم باسمك أموت وأحيا»، الحمد لله الذي أحيانا بعدما أمانتنا وإليه النشور»، السابق حـ ٧٢٢/٢. (٤) «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وأوانا، وكم من لا كاف له ولا مأوى»، السابق ص ٧٢٢، الحمد لله الذي كفاني وأواني، وأطعمني وسقاني، ومن علي فأفضل وأعطاني فأجزل، الحمد لله على كل حال، اللهم رب كل شيء ومالك كل شيء، وإله كل شيء، ولك كل شيء، أعوذ بك من النار»، السابق حـ ٧٢٣/٢.

(٥) «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. من قاهر من مات تمت ليته مات على الفطرة»، السابق حـ ٧٢٣/٢، «اللهم اغفر لي وأخسأ شيطاني، وفك رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في الندى الأعلى»، السابق حـ ٧٢٤/٢، «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم أني أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم أني أعوذ بك من الكسل والهزم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر»، السابق حـ ٧٢٥/٢.

(٦) «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»، السابق حـ ٧٣٣/٢.

(٧) المنح المحمدية حـ ٤٧٣-٥١٠.

(٨) محمد إقبال: فيلسوف الذاتية.

(٩) «فيا ورد عنه من فضل خلق الذكر وما للملازميها من عظيم الثواب والغفران، وما لمجانبيها من الوبال والحرمان»، بهجة المحافل ص ٦٠٩-٦١٢.

أصبحت السيرة حبلًا بالمعجزات. وتضخمت بها وتشبعت في كل الميادين. ودخلت في الطب النبوي. وتحول الرسول إلى شافٍ مثل قدماء السحرة. يشفي بالدعاء^(١). وينافس معجزات عيسى في تكثير الماء والطعام. وأصبحت صورته كالشيخ المداوي في الأفلام^(٢). ويدعو الشائب أن يتحول شعره من البياض إلى السواد، مسلماً كان أو يهودياً، بمسح يده على رأسه^(٣). وسهل الابتداع في الطب الشعبي وهو مازال قائماً حتى الآن عند العشاب. وفيه الرسول وهو يمارس الطب الشعبي، الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية، أو مجدداً له. فالبصاق بصاق حتى ولو كان من نبي. لا يشفي بمجرد تدليك العضو المتألم به. ولا يزيد ماء بئر، ولا يرد عينا مقتلعه. والريق ريق لا يروي ظمأ عطش، والعرق عرق لا يجمع في قوارير للاستشفاء. وانتشر الطب النبوي والشفاء المعجز. فالعود الهندي به سبعة أشفية^(٤). ولا يوجد داء إلا وله دواء^(٥).

والاحتفال بالمولد النبوي ليس بدعة حسنة. فالبدعة بدعة لا حسنة فيها ولا سيئة^(٦). والقيام عند بلوغ القراء مولده بدعة منكورة.

٢- العادات الزوجية

ويظهر محيط الرسول قبل أخلاقه. وتظهر أزواجه أول حلقة في محيطه، ورصدهن اسماً اسماً تحت عنوان «البيت النبوي»^(٧). ويحال إلى الآيات التي تتعرض لزواجه بزینب طليقة زيد، وتخيير أزواجه بين الطلاق واستمرار حياتهن بعد الرسول أو البقاء طليقات الرسول حفاظاً على ذكراه. وقد يوضعن تحت باب «من ينسب إليه من أهله، وخاصته

(١) «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»، محمد رسول الله حـ ٢/ ٢٢٦.

(٢) «باسم الله، أذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك باسم الله»، «اللهم استجب له إذا دعاك»، «اللهم اشفه»، «اللهم عافه»، السابق ص ٢١٨-٢١٩.

(٣) «بارك الله فيك»، «اللهم جمه»، «اللهم جمه وأدم جماله»، السابق ص ٢٢٣.

(٤) «على ما تدخرون أولادكم بهذا العلاق؟ عليكم بهذا العود الهندي يعين به الكسب فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب»، الجوهر حـ ١/ ١٨٤.

(٥) «ما أنزل الله من داء إلا أنزل معه دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله»، السابق ص ٢٥٤.

(٦) المعجزات اللامعة ص ٦.

(٧) الرحيق المختوم ص ٤٧٣-٤٧٨، زوجاته، معين الشائل ص ٤٠-٦١.

وما يتبع ذلك». بدأ بذكر أولاده قبل أزواجه^(١). وقد يوضع تحت باب «سيرته في نكاحه»^(٢). والحجب بين الرجل والمرأة ليس تحت سطوة الرجل مثل النفقة والقسمة^(٣). وخير الرجال خيرهم لأهله^(٤). والعدل في القسمة بين النساء^(٥). وكان يأتي أهله أول الليل وآخره بغسل أو دون غسل. وكان يطوف على نسائه بغسل واحد وربما اغتسل^(٦). ومن خصائصه أنه وحده هو الذي جمع بين أكثر من أربع نسوة^(٧). وأزواجه كن ساعة وفاته تسعا. وكان جميع من تزوجهن ثلاثة عشرة أولهن خديجة^(٨). وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم. ولم يتزوج على خديجة أحدا. والبكر الوحيدة عائشة بعد خديجة^(٩). ولكل منها صداق وولي^(١٠). وقد يكون الصداق دراهم أو غفش منزل بدوي بسيط^(١١). وقد يكون الولي الأب أو الأخ أو القريب. وتزوج ابنتي صاحبيه أبي بكر وعمر حتى لا

(١) خير العباد ص ٦٣١-٦٣٨.

(٢) اعتمادا على حديث «حب إليّ من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، السابق ص ٦٦٢-٦٦٥.

(٣) «اللهم هذا قسمة فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»، السابق ص ٦٦٢.

(٤) «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، السابق ص ٦٦٣.

(٥) «إليك عني يا عائشة، فإنه ليس يومك»، السابق ص ٦٦٤.

(٦) الإشارة ص ٤٠٥-٤١٣، الفصول ص ٣٠٢-٣١٨، حياة محمد ص ٢٦٣-٢٧١/٣٥٩-٣٦٨، محمد ص ٨٣-١١٢، ذكر أزواجه، بهجة المحافل ص ٣٩٨-٤٠١، القيس الرضاء ص ٢٣١-٢٤١، أزواجه أمهات المؤمنين وأولاده وأسابطه، السيرة النبوية ص ٤١٥-٤٢٠، زوجاته السيرة النبوية (٢) ص ٣٣١-٣٣٣، أزواج النبي، سيد الأنام ص ٣٢٨-٣٤٨، سيرة المصطفى ص ٩٨-١٠٦، عيون الأثر ص ٣٩٣-٤١٦، الجوهرة ح ٢/٦٢-٨١، الآية في جماعه، الخصائص الكبرى ح ١/١٦٧، القوة والنشاط، معين الشرائع ص ١٢٣-١٢٥.

(٧) الأنوار ح ٢/ وهن: خديجة، سودة، عائشة، حفصة، زينب، أم سلمة، زينب بنت جحش، جويرية بنت الحارث، أم حبيبة بنت أبي سفيان، صفية بنت حيي، ميمونة بنت الحارث، زوجاته، معين الشرائع ص ٣٢-٦١.

(٨) الأولى خديجة مطلقة متزوجة مرتين ولها ولد وبنت من الأول، وولد وجارية من الثاني، ابن هشام ح ٢/٥٤٠.

(٩) والثانية عائشة وهي بنت سبع سنين وبني بها بالمدينة وهي بنت تسع أو عشر سنين، ونزل فيها القرآن ليرأها من حديث الإفك، السابق ح ٢/٥٤١.

(١٠) والثالثة سودة والرابعة زينب بنت جحش مطلقة الابن المتبني زيد ونزل فيها القرآن ﴿لَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، السابق ح ٢/٥٤١.

(١١) والخامسة أم سلمة وكان صداقها فراشا حشوه ليف وقدحا وصحفه ورحى، وكان لها أربعة من زوجها، السابق، ح ٢/٥٤١.

يشعر أحدهما بميزة على الآخر^(١). وقد يكون الولي خارج البلاد مثل النجاشي في الحبشة الذي أصدقها نياحة عن الرسول^(٢). وقد تكون من الأحرار أو من السبايا^(٣). ونزل فيها القرآن مثل عائشة^(٤). وتأخذ إحداهن لقب أم المساكين لرحمتها إياهم^(٥). وتزوج اثنين ولم يدخل بهما. الأولى كان بها بياضا فردها إلى أهلها وليس زهدا فيها. والثانية كانت حديثة عهد بكفر فاستعازت من الرسول أو من دخلت عليه. ودعاها الرسول فقالت: «إنا قوم نوثي ولا نتأثي»، اعتزازا بنفسها وحرصا على دور الرجل في طلب المرأة، ومغازلتها من طرفه. فردها الرسول إلى أهلها^(٦). فهن القرشيات غير عرب. وهل منهن غير عربيات؟ وهل اليهودية غير عربية؟ وأين مارية القبطية؟ هدية المقوقس حاكم مصر له؟ هل تزوجت أم سري بها^(٧).

وكان الرسول محبا للنساء^(٨). وفي رواية أخرى الطيب والنساء وقرة عينة الصلاة. كانت عائشة تغار من خديجة مع أنها توفت قبل زواجها بثلاث سنوات. فقد كان الرسول يولم لها شاة في ذكراها. وبشره الله لها بيت من قصب في الجنة. وتزوج الرسول عائشة وهي بنت ست سنين وبنى بها وهي بنت تسع سنوات، وكى يرفع معنوياتها على غيرها من النساء أخبرها بأنه تزوجها في السماء في سرقة من حرير^(٩). وقبض الرسول وتحتة تسع نسوة. وكان يقسم لثمان لأن سودة تبرعت بيومها لعائشة. وكان يقرع بين

(١) والسادسة حفصة بنت عمر بن الخطاب، والسابعة أم حبيبة التي قام النجاشي بالولاية عنها، السابق حـ ٥٤٢/٢.

(٢) والثامنة جويرة من السبايا بعد أن كاتبها أحد المسلمين على نفسها عرض الرسول عليها نفسه، واكتشف أن والدها الذي أتى بفدائها استبقى بعيرين فطالبه بها فأسلم الأب وزوجه ابنته، السابق حـ ٥٤٢/٢.

(٣) والتاسعة صفية من سبايا خيبر ووليمتها لا شحم فيها ولا لحم، السابق حـ ٥٤٢/٢.

(٤) والعاشرة ميمونة، وهي التي وهبت نفسها للنبي.

(٥) والحادية عشرة زينب بنت خزيمة وهي التي أخذت هذا اللقب، السابق حـ ٥٤٣/٢.

(٦) الأولى هي بنت النعمان الكنية، والثانية عمرة بنت يزيد الكلاية، السابق حـ ٥٤٤/٢.

(٧) وذكر السميني أزواجا أربعة أخريات: شراف بنت خليفة، العالية بنت ظبيان، وسنى بنت الصلت، وأسما بنت النعمان، السابق حـ ٥٤٤/٢.

(٨) الأنوار حـ ٣٧٠-٣٧٧، «ما أعطيت من دنياكم هذه إلا النساء»، «حب إلي من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»، حـ ٦٧٦/٢، بهجة المحافل ص ٤٩٥.

(٩) «أريتني المنام يحى بك الملك في سرقة من حرير، فقال لي: هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب، فإذا أنت هي فقلت: إن يكن هذا من عند الله فليمضه»، حـ ٦٧١/٢.

نسائه حين الخروج، يعدل بين نسائه^(١). يدور عليهن نسائه في الساعة الواحدة، من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة، فقد أعطي قوة ثلاثين. يطوف عليهن بغسل واحد، وقد أعطي الكفيت أي الجماع، ورأى امرأة فأتى امرأته زينب، وهي تدبغ الجلد فأتاها وفرغ فيها حاجته. فالنساء كلهن شبيهات^(٢). يأتي نساءه مقنعا ساترا وجهه، ولكل منهن صدقة بلغت لإحداهن نصف أوقية.

عائشة هي المفضلة، فضلها كفضل الثريد على سائر الطعام^(٣). هي الطبق الرئيسي بلغة العصر، تزوجها الرسول في السماء، ونزل فيها جبريل في حديث الإفك، شكلها مثل الحور العين، روت الكثير من الرسول بالرغم من أنها بقت معه فقط ثمانية سنوات، وهي الوحيدة التي رآها الرسول في المنام مرتين يحملها الملك في سرقة من حرير ليقدمها له ويقبلها الرسول لأنها من عند الله. وكانت عائشة تفخر بذلك وتتمنى على زوجاته بأن الله هو الذي زوجها في السماء في حين أنهن تزوجن على الأرض^(٤). ولم يأت جبريل في لحاف امرأة إلا في لحاف عائشة^(٥). ويعترف الرسول بغيرة المرأة بناء على غيرة عائشة عليه من نسائه الأخريات^(٦).

وكان لديه إحساس بالفرق بين البكر والثيب، البكر تلاعب وتلاعب، وتستأمر تطييبا لقلبها لا أنه واجب^(٧). وتناظرت عائشة وفاطمة بأن الرسول تزوجها بكرا في حين أنه تزوج أم فاطمة ثيبا، ودافع عن فاطمة بأنه أخذ عائشة بكرا كما أخذت

(١) قال لأم سلمة «ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت عندك وسبعت عندهن، وإن شئت ثلثت عندك ودرت فقلت: ثلث»، ح-٢/٦٧٣.

(٢) «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يروى ما في نفسه»، ح-٢/٦٧٥.

(٣) «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، الجوهرة ح-٢/٦٥.

(٤) «أريتك في المنام مرتين، رأيت الملك يحملك في سرقة من حرير فقال: هذه زوجتك فاكشف فإذا هي أنت فقلت: إن يكن هذا من عند الله يُمضه»، سيرة النبي ص ٢٠٣، «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وابنة مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، الجوهرة ح-٢/٦٣.

(٥) «ما أناني جبريل وأنا في لحاف امرأة منكن غير عائشة»، خير العباد ص ٦٦٦.

(٦) «غارت أمكم»، بهجة المحافل ص ٤٩٦.

(٧) «البكر تستأمر تطييبا لقلبها لا أنه واجب»، غاية الرسول ص ١٠٠، «لا تبادريني بالجواب حتى تستأمرني أبورك»، السابق ص ١١٧.

خديجة الرسول بكراً^(١). وقد تزوجت عائشة في السماء في حين تزوجت باقي زوجات الرسول على الأرض^(٢). وزينب بنت جحش أواهة وتعني لغويا الخاشع المتفرغ قياسا على إبراهيم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ وقد تعني صوتيا ما يصدر أصواتا في حالة النشوة^(٣).

والرسول يقدر جمال النساء. كلما وصف له جمال صفية بنت حيي بن أخطب اليهود يبعد أن قتل زوجها. كانت عروسا اصطفاها لنفسه وأولم لها، يحوي رداءه له بعباءة ويجلس عند بعيرة فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب^(٤). اختارها من السبايا من يهود بني قريظة بعد قتل أبيها وعمها وبعد أن تنازل له عنها أحد المسلمين لأنها سيدة قومها، والرسول أحق بها، وأعرس بها الرسول في خيبر أو في الطريق. وقد غارت عائشة وحفصة منها فواساهما الرسول بأن أبيها هارون، وعمها موسى، وزوجها محمد، مستعملا الدين لتبرير الاختيار. وقد يمتد حب النساء إلى حب الطبيعة كما قال على جبل أحد «هذا جبل يحبنا ونحبه» بالرغم مما أصاب المسلمين فيه من بلاء^(٥). فجعل المرأة وجمال الطبيعة من نفس النبع. وكان لجويرية حلاوة وملاحة لا يراها أحد إلا وقعت في نفسه فأنت الرسول لتستعينه على فك أسرها، فكرهتها عائشة بمجرد رؤيتها تطرق الباب. وعرفت مستقبلها معها. وعرضت قضيتها عليه فعرض عليها الرسول أن يفك أسارها من هو خير من سيدها الأول فقبلت. وأطلق المسلمون سراح أهلها إكراما للرسول. فكانت لها بركة على قومها. ثم أسلمت وتزوجها الرسول وغير اسمها من برة إلى جويرية^(٦).

وحفصة تزوجها الرسول إرضاء لها ورفعاً لمعنوياتها بعد أن رفضها عثمان، وتزوج

(١) «قولي لها إن كان قد أخذك بكرا فقد أخذت هي رسول الله بكرا»، غاية السؤل ص ٢٣٠.

(٢) «أريتك في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي فأقول: إن يكن من عند الله يمضه»، السابق ص ٢٣١.

(٣) الجوهرة ح ٢/ ٧٣.

(٤) الأنوار ح ١/ ٣٠٦.

(٥) السابق ص ٣٠٦.

(٦) الجوهرة ح ٢/ ٧٤-٧٥.

عثمان ابنة النبي^(١). وتزوج الرسول ميمونة وكان اسمها برة وهو محرم في عمرة القضاء وابتنى بها فيما بعد^(٢). وتزوج بمن لم يدخل بهن منها أسماء بنت النعمان بعد أن استعازت منه وأرجعها إلى أهلها، فما بهم هو دلالات ظروف الزواج، وليس رصد أسماء الزوجات وخصائصهن، فقد عرض أحدهم على الرسول ابنته وميزتها أنها لم تمرض قط لأنه لا خير في بدن لا يسقم. وهناك زوجات لم يدخل بهن، خمسا وثلاثين، مما يدل على أن الغاية من الزواج ليس الجنس بل لظروف اجتماعية وسياسية في بيئة المصاهرة فيها حلف، وأزواجه وسراريه، أزواجه اثنتا عشر دخل بهن^(٣). وسراريه اللاتي كان يتسرى بهن مثل مارية التي كانت سبب طلاقه من حفصة، وظل التسري بالنساء حتى الطهطاوي في «المرشد الأمين»^(٤).

ولد إبراهيم من مارية سرية الرسول التي أهداها له المقوقس مرضعته في الجنة^(٥). ولو عاش لكان صديقا نبيا وكان النبوة وراثته، ولأعتق كل قبطي مما يدل على إنسانية التشريعات^(٦). وحيا أهل الذمة أي المصريين الفلاحين أصحاب الأرض والطين، السمر الشداد، وكانت له ريجانه بنت شمعون، نصرانية ويهودية، تقع الغيرة بينهما كما تقع بين الحرائر. وإماؤه سبعة، والخطورة أن يأخذ بعض المتشددین الرسول أسوة في إمامته وسراريه أو في الحرب بين القبائل المسلمة في إفريقيا^(٧).

وقد عمم التشخيص أيضا زوجاته عن طريق الألقاب، فعائشة أم المؤمنين، وزينب

(١) «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة»، السابق حـ ٦٦/٢-٦٧.

(٢) السابق حـ ٧٦/٢-٧٩، القول البدیع ص ١٨٧-١٩١.

(٣) ألفية السيرة ص ١٣٢-١٣٣، السيرة الحلبية ص ٢٣٩-٤٥٤، سراريه، السيرة النبوية (٢) ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٤) وهن: مارية أم ولده إبراهيم، وريحانة، وجارية أخرى جميلة أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش، خير العباد ص ٦٣٩، الإشارة ص ٣٨١، السيرة الحلبية ص ٤٣٩-٤٥٤، النبي المختار ص ٤٩.

(٥) «إن له مرضعته في الجنة، ولو بقي لكان صديقا نبيا، ولو بقي لأعتقت كل قبطي»، الجوهرة حـ ٧٩/٢ «الله الله في أهل الذمة، أهل المدرة السوداء، السحيم الجعاد فإن لهم نساء وصهرا»، السابق ص ٥٨٠.

(٦) معين الشامل ص ٥٦، «غارت أمكم» ص ٥٧، «وسقت حفصة شربة عسل فاح ريجها من فمه وهو عند سودة»، ص ٥٩.

(٧) الإشارة ص ٣٨٠-٣٨١، السيرة النبوية (٢)، ص ٣٦٨-٣٧٢.

أم المساكين ربيا تعويضا لعائشة على أنها لم تنجب كما تسمى العاقر أم عبد الله، وقد يطلق لفظ أمهات المؤمنين عليهن جميعا، ولقب أم المساكين كان معروفا في الجاهلية^(١). ولا حرج من الحديث عن خصائصه في النكاح^(٢). فقد فضل على الناس بأربع: السخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش، وهي عادات عربية بدوية^(٣). وهي ما تدعو ضرورة الحياة إليه^(٤). وهي على ثلاثة أنواع: الأول الفضل في قلته، والثاني الفضل في كثرته، والثالث مختلف فيه. الأول مثل الغذاء والنوم. والثاني ما يتفق المدح بكثرته والفخر بوفرته كالتاج والجاه^(٥). وعدم القدرة على النكاح نقص. لذلك أبيع للرسول من الحرائر ما لم يبيع لغيره. وكان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة. أعطي قوة أربعين رجلا في الجماع. تختلف الحالات فيه والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله مثل كثرة المال. والتباهي بجودة السكن، وسعة المنزل، وكثرة آلاته وخدمه ومركوباته وملك الأرض وجبى ما فيها.

وقبل الجماع دعوة للحصول على الخير وتجنب الشر من المرأة. ولا توجد دعوة مماثلة للمرأة بالنسبة للرجل^(٦). ودعوة أخرى لتجنب الشيطان في الأولاد. وأحيانا تتمنع المرأة دلالة حتى ولو كان خشنا غير مقبول. فعندما اقترب الرسول من إحدى زوجاته

(١) سيرة النبي حـ ٢/٣٢٢، الجوهرة حـ ٢/٦٧-٦٨.

(٢) السيرة الحلبية حـ ٣/٤١٩ «القبلة في الصوم مع وجود الشهوة، فقد كان يقبل عائشة وهو صائم ويمص لسانها، ولعله لم يكن يبلغ ريقه المختلط بريقها، والخلوة بالأجنبية، وأنه إذا رغب في امرأة خلية كان له أن يدخل بها من غير لفظ نكاح أو هبة ومن غير ولي ولا شهود كما وقع له في زينب بنت جحش ومن غير رضاها، وأنه إذا رغب في أمة وجب على سيدها أن يهبها له، وله أن يتزوج المرأة لمن يشاء بغير رضاها، وله أن يتزوج في حال إحرامه، ومن ذلك نكاح ميمونة، وأن يصطفي من الغنime ما شاء قبل القسمة من جارية أو غيرها»، السابق حـ ٣/٤١٩.

(٣) «فضلت على الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش»، بهجة المحافل ص ٤٩٥.

(٤) الشفا حـ ١٠٩-١٢١.

(٥) «أفضل هذه الأمة أكثرها نساء»، «تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»، «حب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، السابق ص ١٢١.

(٦) «اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه»، «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فغضي بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبدا»، بهجة المحافل ص ٤٩٦.

ليدخل بها تعوذت بالله منه فألحقها بأهلها^(١). وقد يكون الإسناد ضعيفا، والمرأة ليست مسئولة عن لون جلدها، فيه بياضا أو سيارا، فلما رأى فيه بياضا أرسلها إلى أهلها^(٢). وفي قوة المعاشرة ليس أنبياء التوراة، داود، وسليمان مقياسا. فقد كان لسليمان ألف حرة ومملوكة، وكان لداود تسع وتسعون زوجة^(٣). وفي نفس الوقت في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم^(٤).

وفي النكاح تلقى أدعية وخطب^(٥). الرسول هو الزوج الكريم، فخير الناس خيرهم لأهله. يعدل بين زوجاته ويحبهن، ويحسن معاشرتهن، ويشارك في بيوتهن، ويصبر عليهن^(٦). والرسول مضيف معد للولائم^(٧). فلم يولم على أحد من نسائه قدر ما أولم لزينب بنت جحش، بشاة. كما أعتق صفية بتيس، وعلى بعض نسائه بمدنين من شعير. وفي العلامات تظهر أحكام النكاح والطلاق وأدبه^(٨). منذ الخطبة والنظر إلى المرأة والأولياء والشهود، وآداب النكاح وأحكام الطلاق. وفي مسائل متفرقة تظهر الأحكام الشرعية الخاصة بزوجات الرسول. فهن أفضل نساء الأمة، وكل مجاهدة هي مثلها. ويحرم نكاحهن بعد وفاته احتراماً له وبناء على اختيارهن. وقتل من قذف عائشة ومن سب الرسول ليس مباشرة بل بعد تدقيق، تطبيقاً لأحكام الشريعة في حق القذف. وفي

(١) «لقد عذت بعظيم، الحقى بأهلك»، غاية السؤل ص ١٤٦.

(٢) وامرأة من غفار رأى بكشمها رضحا. فقال «ضي إليك ثيابك والحقى بأهلك»، السابق ص ٢٤٦.

(٣) السابق ص ١٨٨-١٨٩.

(٤) إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم، السابق ص ٢٥٢.

(٥) سيرة النبي ص ٥٠٦-٥٠٨، «الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله»، «بارك الله لك وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»، «لو أن أحدكم إذا جامع أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فغضى بينهما بولد لم يضره»، «لا نكاح إلا بولي»، «السلطان ولي من لا ولي له»، «إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ولطفهم لأهله»، «من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى لم تضره أم الصبيان»، «كل غلام رهن بعقيقته، تذبح عند يوم سابعة، ويحلق ويسمي»، السابق ص ٥٠٦-٥٠٨.

(٦) الأنوار ح ٢/ ٦٢-٨٤.

(٧) السابق ح ٢/ ٦٦٦-٦٧٠.

(٨) الأسوة الحسنة ص ٣٤٩-٤١٢.

مقابل ذلك لا يقوم الرسول بإيذاء أحد^(١).

وفي أزواجه أحكام، خديجة يقرؤها جبريل السلام. ومن خير نساء العالمين. وتظل في ذكرى الرسول حتى بعد زواجه من أخريات، هي الأم والحامي والراعي، ومنها أيضا تحريم رؤية أشخاص أزواجه في الأزر وسؤالهن مشافهة، وجلس أزواجه من بعده في بيوتهن وتحريمهن خروجهن ولو لحج أو عمرة^(٢). وهو رضا بذكريات الرسول. وماضيهن معه أفضل من الحاضر ومتطلباته^(٣). وزوجاته اللاتي توفى عنهن يدخلن في أزواجه وعلاقاته الاجتماعية، الأقرباء والصحبة، وليس هن أي دلالة خاصة لا بالاسم ولا بالوصف^(٤).

٣- القرابة والصحبة

أ- القرابة

ويتضح موضوع الشائيل عندما يتحول محور السيرة من الرسالة إلى الرسول^(٥). وقد بدأ التشخيص في ذكر أولاده وأعمامه وعماته وأزواجه وخدمه ومواليه وأسمائه وكتابه وحراسه وأصحابه وحواريه وأهل الصفة وسلاحه وخيله ودوابه ونعمه^(٦).

(١) الفصول ص ٤٩١-٤٩٨، «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفه. إنا أنا بشر. فأني المؤمنين آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فأجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»، ص ٤٩٧.

(٢) خديجة «يا خديجة هذا جبريل يقرؤك من ربك السلام»، «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وابنة مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»، «لا والله ما أبدلن خيرا منها: آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء»، الجوهرة ح ٢/ ٦٢-٦٣، سيرة النبي ص ١١٨، تفضيل بناته وزوجاته على سائر نساء العالمين، وأن ثواب زوجاته وعقابين مضاعف، الخصائص الكبرى ح ١/ ٤٢١-٤٢٣.

(٣) الخصائص الكبرى ح ٢/ ٥٣١-٥٣٣، حياته مع أزواجه أمهات المؤمنين، سيرة النبي ح ٢/ ٣١٣-٣٢٨، النبي الأعظم ص ٣٤-٣٦.

(٤) هن تسعة: أم سلمة، عائشة، أم حبيبة بنت أبي سفيان، زينب، حفصة، صفية بنت حيي، جويرية بنت الحارث، ميمونة التي وهبت نفسها للنبي، وسودة، وفاة الحبيب ص ١٧٧.

(٥) عيون الأثر ح ٢/ صفته ص ٤٢٤-٤٣٣. أخلاقه ص ٤٣٤-٤٤٤، محبة آله وصحبه، المواهب اللدنية ح ٣/ ٣٥٨-٣٩٦.

(٦) عيون الأثر ص ٣٧٨-٤٢٣.

وذكر أولاده ردا على اتهامه بأنه أبت^(١). وأعمامه وأخواله هم الذين ساندوه في أول البعثة. وأزواجه وسراريه وقفوا بجانبه في حياته الخاصة والعامة، وخدمه جزء من أهل البيت^(٢). ومواليه جزء من جماعته طبقا للعقيلة البدوية، وكتابه الأمانة على رسائله^(٣). وحراسه هم الذين كانوا يضربون الأعناق بين يديه^(٤). وخيله التي كان يمتطيها في الحرب، تجمع بين المحيط الاجتماعي والأدوات للاستعمال. فما لزوم ذلك كله للنسوة، زوجاته، وسراريه، وأولاده، ومواليه، وإماؤه، وخدامه، وكتابه، وآثاره من خاتم وثياب وسلاح ومراكب؟^(٥). أصبح التركيز على ما يحيط بالرسول من بشر جزءا رئيسيا من السيرة، إبراز دور بنيه وبناته وأعمامه وعماته ومرضعاته وإخواته من الرضاع وأخواته ومواليه وخدمه وحرسه، ورسله إلى الملوك وكتابه ورفقائه العشرة النجباء، وأصحابه النقباء، وأهل الفتوى في حياته^(٦).

ولا يهم في القرابة الأشخاص بل صلة القرابة ونتائجها وفوائدها الشرعية في الخلافة والكفاءة^(٧). وهي موصولة لا تنقطع إلى يوم القيامة^(٨). وكل نسب منقطع إلا

(١) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، السابق ص ٣٧٨.

(٢) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، السابق ص ٤٠٧.

(٣) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، السابق ص ٤١٣.

(٤) ﴿وَاللَّهُ يَنْصُرُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ السابق ص ٤١٤. فضائل أهل البيت، فاطمة، الحسن، الحسين، العباس، جعفر، الأزواج، عائشة، سَنَنُ الْمُصْطَفَى ص ٧٦٨-٧٧٥. في فضل بيت الرسول وصحابته، ومن يُعظم لأجله، وفضل حديثه وعقدته، وخاتمه فضل الصلاة عليه، بهجة الحافل ص ٦١٣-٦٣٦، فضل أهل بيت الرسول ص ٦١٣-٦١٧، في منزله ومع أهله وعياله، السيرة النبوية ص ٤٣٨-٤٣٩، البيت النبوي، الرحيق المختوم ص ٤٧٣-٤٧٨.

(٥) خلاصة ابن كثير ص ٣٣١-٤٠٦، وفي أطراف القاهرة بمصر حي بأكمله اسمه «أثر النبي».

(٦) بهجة المحافل ص ٣٩٧-٤١٧، «ما شرف به أولاده وأزواجه وآل بيته وأصحابه وقيلته من أهله»، الخصائص الكبرى ص ٥٦٣-٥٦٨، الأولاد، سيرة النبي ص ٣٢٩-٣٤١.

(٧) «فيمين حضري من أقباء رسول الله المنسوبين إلى جده الأقرب عبد المطلب»، أقباء الرسول ص ٢٧/١-٢٩٦، «أخبره عنهم، أنقب لهم في مثالبهم» ص ٢٩٨، «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر»، أقباء الرسول ص ٣٠٠/١، «تعلموا أنسابكم ثم صلوا أرحامكم، والله إنه ليكون بين الرجل وأخيه الشيء ولو يعلم الذي بينه وبينه من داخل الرحم لأوزعه ذلك عن انتهاكه»، «علم النسب علم لا ينفق، وجهالة لا تنصر»، ص ٣٠٢-٣٠٣، المواهب اللدنية ص ٣٥٨-٣٥٧.

(٨) «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع. كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا سبيي ونسبي، فإنها موصولة

نسب الرسول، وتنقطع الأنساب والأسباب يوم القيامة إلا ما كان من سببه ونسبه، وقد تتعارض مع قانون الاستحقاق. فإن الرسول نفسه لا يضمن الجنة إلا برحمة من الله^(١). وتستوجب الحرمة، حرمة الدم والمال. ويستوجب ذلك الوصية بالنساء، والجار، والعبيد، والعدل والإحسان. لذلك لا يؤذى الرسول في بيته. هناك ثلاث حرمان، حرمة الإسلام، وحرمة الرسول، وحرمة رحمه^(٢). وهذا يستوجب حرمة قريش، القبيلة والنسب والمصاهرة، ثم تحولت إلى سلطة سياسية تستند إلى شرعية القرابة وهو ما يتعارض مع مصادر السلطة في الدين الجديد، الشورى وروح الجماعة^(٣).

في الدنيا والآخرة، أقرء الرسول حـ/ ١/ ٤٠٥، الخصائص الكبرى حـ/ ٢/ ٥٤٤، «ما بال أقوام يزعمون أن رحمي لا تنفع، بل حتى تبلغ ماء وحكم. إني لا أشفع فأشفع حتى إن من أشفع له ليشفع فيشفع حتى أن إبليس ليتناول طعاماً في الشفاعة»، حـ/ ١/ ٤٠٩، «اللهم كما أوجبت الليل في النهار، والنهار في الليل، أوجع علي وعلى أهل بيتي الرحمة ولا تقطعها عني ولا عنهم أبداً» حـ/ ٢/ ٤٥٤، «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي. وكل ولد أم فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم»، حـ/ ٢/ ٤٩٤-٥١١/ ٥١٤.

(١) «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سألها بيلها»، أقرء الرسول ص ٤١٣، «يا عائشة بنت أبي بكر، يا حفصة بنت عمر، ويا أم سلمة، ويا أم الزبير عمة رسول الله، اشتروا أنفسكم من النار»، حـ/ ١/ ٤١٤، «لا أغني شيئاً... إلا أن أذن الله لي في الشفاعة»، حـ/ ١/ ٤١، «الزمو مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يزدنا دخل الجنة بشفاعتنا. والذي نفسي بيده لا يتفقد عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا»، حـ/ ١/ ٤١٧.

(٢) «ألا إن دماءكم وأموالكم حرام كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا. أوصيكم بالنساء، أوصيكم بالجار، أوصيكم بالماليك، أوصيكم بالعدل والإحسان»، حـ/ ١/ ٣٤٩، «ما بال رجال يؤذوني في أهل بيتي، والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد بي حتى يحبني، ولا يحبني حتى يحب ذوي»، حـ/ ١/ ٤٠٠، «أيها الناس، مالي أودني في أهل؟ فو الله إن شفاعتي لتنال قرابتي حتى إن صداة وحكماً وسلها لتتألف يوم القيامة»، ص ٤٠١، «ما بال أقوام يؤذوني في نسبي وذوي رحمي، ألا ومن أذى نسي وذوي رحمي فقد أذاني، ومن أذاني فقد أذى الله»، ص ٤٠٢، «إن الله ثلاث حرمان، فمن حفظهن حفظ الله دينه ودينه، ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله دينه ولا آخرته: حرمة الإسلام، وحرمتي، وحرمة رحمي» حـ/ ١/ ٤٣٥، «من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهداً»، «من لم يعرف حق عثري والأنصار والعرب فهو لإحدى ثلاث: إما منافق وإما لزانة، وإما أمرؤ حلت به أمه في غير طهر»، حـ/ ١/ ٤٣٦.

(٣) «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تابع لمسلمهم، وكافرهم تابع لكافرهم. فالناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، السابق حـ/ ١/ ٣٦٩، «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، حـ/ ١/ ٣٦٩، «الناس تبع لقريش في الخير والشر»، ص ٣٧٠.

وتتمثل الدائرة الأولى للقرابة في علي وفاطمة، وما تم في محمد عند الستة من التشخيص تم في علي عند الشيعة، وضعا للخاص في العام. فلا يجوز سب علي لأنه مقارن بذاته الله ولأن سب المسلم فسوق. وقد اشتق الله أسماء الأنبياء من أسماؤه محمد لأنه محمود، وعلي لأنه مرفوع، وقد تم زواج فاطمة بعلي بوحي من السماء والأرض صداقها. وحرام أن يمشي عليها من ييغضها. وهو ابن عم الرسول وزوج ابنته وجد أحفاده. وهو وجيه. أول الناس ورودا على الحوض، وأولهم إسلاما. هو خير الأمة وأعلمهم وأفضلهم. أول من آمن بالرسول وأول من يضافحه يوم القيامة، ورفض الرسول خطبة أبي بكر وعمر لفاطمة لأنه لم يؤمر بذلك. طلب الرسول أن يجعل عليا وزيرا من أهله كما طالب موسى هارون^(١). الرسول دار الحكمة وعلي بابها. والرسول ميزان العلم وعلي كفتاه. والرسول ميزان الحكمة وعلي لسانه. علي أخوه والرسول منه. فهو باب علمه ووصيته. وهو الذي يكتب جواز كل مؤمن على الصراط. طالبه الرسول إن يصاحبه في الطعام دائما. هو خير أمته، أعلمهم وأحلمهم. هو الذي أعطاه الله الراية ليفتح به. وقد اختار الله من فوق السماء لفاطمة اثنين، أبيها وزوجها. لآدم علم، ولنوح همة، ولإبراهيم خلق، ولموسى مناجاة، ولعيسى سنة، ولمحمد هديه وعلمه. وحق علي

«الأمراء في قريش ثلاثا، ما حكموا فعدلوا، واسترحموا فرحموا، وعاهدوا فوفوا»، حـ ١/ ٣٧٠، «الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الجنة، والهجرة في المسلمين، والمهاجرين بعد»، حـ ١/ ٣٧١، «أمان لأهل الأرض من الغرق القوس، وأمان لأهله الأرض من الاختلاف المولاة لقريش، قريش أهل الله. فإذا خالفتها قبيلة من العرب صاروا حزب إبليس»، حـ ١/ ٣٧٢، «أحبوا قريشا فإن من أحبهم أحبه الله»، حـ ١/ ٣٧٢، «قدموا قريشا»، حـ ٢/ ٣٧٤-٦٦٥.

(١) «لا تسبوا عليا فإنه محسوس بذات الله، سباب المسلم فسوق»، النبي الأعظم ص ٣٥٨، «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، ص ٤٧٠، «علي يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين»، ص ٥٣٢، «من كنت مولاة فعلي مولاة»، ص ٥٨٠، «الولاية لعلي من بعدي»، ص ٥٨٠، «وسلموا على علي بأمرة المؤمنين»، ص ٦١١، «يوم غد يرسم أفضل أعياد أمتي»، ص ٦١٣، «إن عليا في السحاب»، ص ٦١٨، «الله أكبر على إكمال الدين... والولاية لعلي»، ص ٦٤٠، «إنه وليكم من بعدي»، ص ٦٤١، «هذا مولاي ومولى كل مؤمن، ومن لم يكن مولاة فليس بمؤمن»، ص ٦٤٧، «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار»، ص ٦٦١، «الضربة علي خير من عبادة الثقلين»، ص ٧٢٠-٧٥٥، «علي أخي ومني، وأنا من علي. فهو باب علمي ووصيتي»، «علي مع الحق، والحق معه يدور حيث دار. ولن يفترقا حتى يرد على الحوض»، «علي مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي»، «لحكم الحمي، ودمك دمي، والحق معك»، «أشبهت خلقي وخلقي وأنت من شجرتي التي أنا منها»، ص ٧٢٠-٧٥٥.

على الأمة كحق الوالد على ولده. هو أحب الرجال إلى الرسول، وأكرمهم عليه. هو منه بمنزلة الرأس من البدن. هو منه، وولي كل مؤمن بعده. لحمها واحد، ودمها واحد. والحق معه. علي هو الوحيد الذي يجرأ على الحديث مع الرسول إذا غضب. وهو أشبه الخلق بالرسول من شجرته. وسيجاهد قوم عليا بعد الرسول. فليقاوم معه الناس باليد أو باللسان أو بالقلب.

ومدح علي مثل مدح محمد. فهو أشبه الخلق بمحمد. هو من شجرته. وهو أول من آمن بالرسول. وأول من يصافحه يوم القيامة. وأول الناس ورودا على الحوض^(١). وهو أحب الخلق إلى الله، وأحب الرجال إلى الرسول، وأكرمهم. وهو خير من يتركه بعده. هو خير البشر فمن أبى فقد كفر. وهو الذي أعطاه النبي الراية، لرجل يحبه الله ورسوله وهو يحب الله ورسوله. وهو من الرسول بمنزلة الرأس من البدن كما تقول الكنيسة بالنسبة لرئيسها. هو من الرسول، والرسول منه، وليه وولي كل مؤمن بعده. وهو الذي بلغ سورة براءة. لحمه لحمه، ودمه دمه. والحق معه دائما. هو نظير النبي. اختار الله محمدا نبيا ثم اختار عليا زوجا لابنته ووصيا له. وقد اختار الله رجلين: محمدا وعليا. من أحب عليا فقد أحب الرسول ومن أبغضه فقد أبغض الرسول. علي وشيعته على الحوض، وأعداؤهم ظمأى الرسول. علي من قرابته وصحبه. يعظمه البعض أكثر مما هو عليه، مثل عيسى ابن مريم^(٢). ويقلل من شأنه البعض الآخر، أقل مما هو عليه، وأي رفعه لمعاوية بسبب علمه فإنه حط من شأن النبي وعلي، لأجل أموي ساقط^(٣).

وتذكر أولاده أحيانا في البداية مع بداية النبوة أو في النهاية مع الشرائع^(٤). وتنسب

(١) «ما من نبي إلا وله نظير في أمته وعلي نظيري»، «من أحب عليا فقد أحبني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني»،

«أعلم أمي من بعدي علي بن أبي طالب»، النبي الأعظم ص ٥٣-٥٧/١٠٩.

(٢) «يا علي إنك فيك مثلا من ابن مريم، أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه. وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزلة التي ليس بها»، بهجة المحافل ص ٣٦١.

(٣) النبي الأعظم ص ٦٢-٦٤.

(٤) وهم: القاسم، زينب، رقية، فاطمة، أم كلثوم، عبد الله، إبراهيم، الإشارة ص ٩٤-٩٥، أولاده، السيرة النبوية (٢)، ص ٣٥٣-٣٥٦، النبي المختار ص ٥٠، سيرة المصطفى ص ٨٨-٩٤، عيون الأثر ص ٣٧٨-٣٨٢، هؤلاء أهل بيتي، أقرباء الرسول ص ٢٥٢، في ذكر أولاده، معين الشرائع ص ٢٢-٣١ (القاسم، عبد الله، زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة، إبراهيم).

أولاد بناته إليه، ومن كراماته أن أولاد بناته ينسبون إليه وأولاد بنات غيره لا ينسبون إليه في الكفارة ولا في غيرها^(١). ومن كراماته أن بناته لا يتزوج عليهن^(٢). وهو الأب الكريم لا فرق عنده بين ذكر وأنثى. يختار الزوج المناسب للبت. ويرعاها بعد الزواج^(٣).

وفاطمة خير بناته. فهي بضعة منه^(٤). سيدة نساء المؤمنين، سيدة نساء هذه الأمة، ولكل منها مناقب، تزويجها بعلي. وسميت فاطمة لأن الله فطمها من النار وحجزها عنها. وأول من يدخل الجنة الرسول ثم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم الأزواج عن اليمين والشمال، ثم الذرية من الخلق^(٥). حتى لو كان السند ضعيفا^(٦). ولا يُعذب أولادها وهي الذرية. فاطمة بضع من الرسول، من أغضبها أغضبه^(٧). وقد اختار الله الرسول نبيا، وعليا وصيا وبعلا لابنته، والأرض كلها صداق فاطمة. وحب فاطمة من

(١) «كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسبي وصهري»، الجوهر ص ١٦٣، خصائص الرسول ص ٢٧٩-٢٨١، الخصائص الكبرى ح ٢/ ٥٤٣.

(٢) «فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها، ويسخطني ما يسخطها»، الخصائص الكبرى ح ٢/ ٥٤٣-٥٤٤.

(٣) معين الشامل ص ٣٢-٣٩.

(٤) «إن فاطمة بضعة مني»، «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين»، أو «سيدة نساء هذه الأمة»، «هي أفضل بناتي، أصيبت في»، غاية السؤل ص ٢٣٣، النبي المختار ص ٥١-٥٣، «خير نساء العالمين مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة»، أقباء الرسول ح ١/ ٢٥٠-٢٥١، «إنما سميت ابنتي فاطمة لأن الله فطمها وحجبها عن النار»، ح ١/ ٤١٦/ ٤١٨، «أنا شجرة وفاطمة حملها، وعلي لقاحها، والحسين والحسن ثمرها، والمحبون أهل بيتي ورقها»، هم في الجنة حقا حقا، ح ١/ ٤٢٨. دعاؤه بالبركة في هذا النسل المكرم ح ٢/ ٤٥٥-٤٥٨، «اللهم بارك فيها وبارك عليها وبارك لها في نسلها»، «اللهم بارك لها في شملها»، «إن الله غير معذبك ولا ولدك»، ح ٢/ ٤٦٧، «يا علي، أنت وشيعتك تردون على الحوض»، ح ٢/ ٤٦٩، «يا علي إن الله قد غفر لك ولذريتك ولولدك، ولأهلك ولشيعتك ولمحيي شيعتك فأبشر»، ح ٢/ ٤٦٨.

(٥) «أنت وشيعتك تردون على الحوض رواء مرويين مبيضة وجوهكم، وإن عدوك يردون على ظلما مقبحين»، ص ٤١٩، «إن الله قد غفر لشيعتك ولمحيي شيعتك»، ص ٤٢٠، «يا علي، إن أهل شيعتنا يخرجون من قبورهم يوم القيامة على ما بهم من الذنوب والعيوب وجوههم كالقمر ليلة البدر»، ص ٤٣٠، القول البديع ص ١٩٢-١٩٣.

(٦) «أما ترضي أن تكون (علي) رابع أربعة، أول من يدخل الجنة أنا، وأنت، والحسن والحسين وأزواجنا عن أياننا وشمائنا، وذريتنا خلف أزواجنا»، أقباء الرسول ح ٢/ ٤٦٣.

(٧) «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني»، النبي الأعظم ص ٧٥٦-٧٦١.

محمد الأب^(١). وحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار^(٢). والمهدي من ثمرتها^(٣). ويوصف المهدي جسدياً أشبه بجسد الرسول. تساعد ثلاثه من الملائكة، ويبعث ما بين الثلاثين والأربعين^(٤). يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. يختم الدين كما ختمه الرسول. يولد بالمدينة. اسمه اسم نبي، ويهاجر إلى بيت المقدس. في كفه علامة النبي، كث اللحية كحل العينين براق الوجه مثل الرسول. أجلى الجبهة، أفتى الأنف. يملك سبع سنين أو أكثر. يحبه أهل السماء والأرض. تمطر السماء، وتبت الأرض. لونه عربي، وجسمه اسرثيلي. يرضى بخلافته أهل السماء والأرض. والطير في الجو. وفي رواية، يملك عشرين سنة. الرسول خير الأنبياء، وحزرة خير الشهداء. وجعفر له جناحان يطير بهما في الجنة. وسبطا هذه الأمة الحسن والحسين ابنا الرسول، والمهدي. والعباس أبو الخلفاء أجود قريش. من ولده السفاح والمنصور والمهدي. بدأ الرسول الرسالة واختتمها رجل من ولد عم الرسول^(٥). وفي رواية لا مهدي إلا عيسى ابن مريم^(٦). ومدح فاطمة لأنها بنت الرسول، وزوجة علي، وأم الشهيدان الحسن والحسين. ومعجزاتها وهي في

(١) «إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبري منها. إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها ليهون عليها»، الجوهرية ح٢/ ٤٠-٤١.

(٢) «إن فاطمة حصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار»، أقرباء الرسول ح٢/ ٤٦٠.

(٣) «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»، السابق ح٢/ ٥١٨، «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»، ح٢/ ٥٢٢، «المهدي منا أهل البيت يصلّي الله في ليلة»، «المهدي منا يختم الدنيا بنا كما فتح بنا»، ح٢/ ٥٢٤-٥٢٥.

(٤) «المهدي مولده بالمدينة، من أهل بيت النبي، اسمه اسم نبي، ومهاجره بيت المقدس، كث اللحية، كحل العينين، براق الشايبا، في وجهه ظال، أفتى أجلى، في كفه علامة النبي، يخرج براية النبي.... يمدّه بثلاثة من الملائكة يضربون وجوه من خالفه وأديارهم. يُبعث وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين»، ح٢/ ٥٢٦-٥٢٧، «المهدي مني، أجلى الجبهة، أفتى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين»، ح٢/ ٥٢٩، «ينزل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم، لم يسمع ببلاء أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يحبه ساكن السماء وساكن الأرض، وترسل السماء مطرها، وتخرج الأرض نباتها، لا تمسك منه شيئاً، يعيش فيهم سبع سنين أو ثمان أو تسع. يتمنى الأحياء الأموات مما صنع الله بأهل الأرض من خيره»، السابق ح٢/ ٥٣٠-٥٣٥.

(٥) أقرباء الرسول ح٢/ ٥٤٢.

(٦) «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا الناس إلا شحاً، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولا مهدي إلا عيسى ابن مريم»، السابق ح٢/ ٥٤٤.

بطن أمها مثل مريم في بطن أمها أليصابات^(١). وقد تتدخل الملائكة لمزيد من التأكيد على خصوصية فاطمة. وتمر في الجنة وينادي على الآخرين بغض أبصارهن حتى تمر فاطمة. يغضب الله لغضبها ويرضى لرضائها، هي سيدة نساء العالمين وسيدة نساء هذه الأمة، وأحيانا تنافسها مريم بنت عمران^(٢). وتتدخل معها خديجة وآسية بنت مزاحم^(٣). علي وفاطمة هما لب آل البيت^(٤). أنجبا الحسن والحسين، وعندما رأى الرسول حفيديه وهو على المنبر يتعثران نزل وساعدهما على الوقوف كسلوك طيعي تجاه الأطفال^(٥). وكان يعوذ الحسن والحسين^(٦). يشبهان الجد^(٧).

ويمكن أن يوضع الثلاثة علي والحسن والحسين في مصير الأمة، قبل التحول من الخلافة إلى الملك، ويكون في عائلة الرسول في القرابة. وقد أخبر جبريل الرسول بأن ابنه الحسين سيقول، وأنه سيد شباب أهل الجنة، وكما قتل بدم يحيى سبعون ألفا في التوراة يقتل بدم الحسين أيضا سبعون ألفا قياسا على الواقعة الأولى. يحبها الرسول، ويجب من يحبها. ومن صلب الحسين يخرج زيد يتخطى هو وأصحابه رقاب الناس، ويدخلون الجنة بغير حساب^(٨).

(١) «فاطمة حوراء إنسية كلما اشتقت إلى الجنة قبلتها»، «فاطمة هي الزهرة»، «كانت فاطمة تحدث في بطن أمها. ولما ولدت وقعت حين وقعت على الأرض ساجدة رافعة أصبعها»، «إن الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك»، «هي قلبي وروحي الذي بين جنبي. فمن أذاها فقد أذاني»، النبي الأعظم ٥٠-٥١/٥٣-٥٤.
(٢) «نزل ملك من السماء فاستأذن الله أن يسلم علي فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»، الخصائص الكبرى ٥٦٣/٢.

(٣) «فاطمة. سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران»، السابق ص ٥٦٣، «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم»، ص ٥٦٥.

(٤) «يرحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويظهركم تطهيرا»، النبي الأعظم ص ٥٨.
(٥) «صدق الله تعالى ﴿أَنَا أَوْلَاكُمْ وَأَوْلَاكُمْ فَتَنَّهُ﴾ لم أملك نفسي حين رأيت هذين الولدين يتعثران ويقومان حتى فعلته بهما الذي رأيتم»، بهجة المحافل ص ٥٠٣.

(٦) «أعذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، «إن أبائكم (إبراهيم)، كان يعوذ بها إسماعيل وإسحق»، بهجة المحافل ص ٥١٠. «اللهم إني أحبهما فأحبهما»، «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»، السابق ص ٦١٥.

(٧) «شبهت خلقي وخلقي»، ح ٥٥٢/٢.

(٨) النبي الأعظم ص ٧٧١/١١٤.

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة^(١). وهما نموذجان للشهداء، الأول بالمواجهة بالسيف، والثاني بالاغتيال بالسسم، والمهدي من ولد الرسول. وجهه كالكوب الدري. واسمه كاسم الرسول^(٢). والمهدية عند السنة والشيعة على حد سواء، عند السنة كامل في الخلاص، وعند الشيعة كثورة فعلية قادمة إذا ما واتت الظروف، ورفعت التقية، وانتهى الانتظار. وإبراهيم صديق شهيد. له مريض في الجنة، لو عاش لكان صديقا نبيا، ولأعنت الرسول أخواله القبط، ورفع الجزية عن كل قبطي^(٣). فالقراية كالشريع، والمصاهرة كالعقيدة.

وقد ترك الرسول في الأمة شيئين، كتاب الله وأهل بيته، وأوصى بهم. مما يعطي الشيعة بعض السند في التورث من النبوة إلى الإمامة^(٤). والبداية بعلي. فمن كان الرسول مولاه

(١) الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، الخصائص الكبرى ح ٢/ ٤٦٥-٥٦٤.

(٢) النبي الأعظم ح ٢/ ١١٤-١١٥.

(٣) ولو عاش لكان صديقا نبيا، ولأعنت أخواله القبطي، وما استرق قبطي، الخصائص الكبرى ح ٢/ ٥٦٤.

(٤) «ألا أيها الناس، إنا أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»، «معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»، «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»، «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق»، «بهجة المحافل ص ٦١٣-٦١٥، أولاده، السيرة الحلبية ح ٣/ ٤٣٢-٤٣٨، وصية النبي وخليفة بأهل بيت المشرق كل منهم باتتائه إليه ونسبه، أقرباء الرسول ح ١/ ٣١٠-٣٩١، «ألا أن عيني التي آوى إليها أهل بيتي، وإن كرشي الأنصار، فأعفوا عن مسيئتهم، واقبلوا من محبتهم»، ح ١/ ٣١٠، «كرشي باطني، وعيبي ظاهري وجالي»، «أقبلوا ذوى عثراتهم إلا حدود»، ح ١/ ٣١٢، «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني في نفس لقاربي منكم وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم»، «يا قوم إذ أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصري منكم»، ح ١/ ٣١٨-٣١٩، «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي»، ح ١/ ٣٢٥، «ألا إن لكل نبي تركة وضيعة، وإن تركتي وضيعتي الأنصار فاحفظوني فيهم»، ح ١/ ٣٢٩، «إن الله جعل أجري عليكم المودة في أهل بيتي، وإن سألكم غدا عنهم»، ح ١/ ٣٣٣، «لا أسألكم على ما آتيتكم به من الكتاب والهدى أجرا إلا أن توادوا الله وتقربوا إليه بطاعته»، ح ١/ ٣٣٥، «صالح المؤمنين علي»، ح ٢/ ٦٦٩، «يا علي يدخل النار فيك رجلان: عيب مفرط، ومبغض مفرط، كلاهما في النار»، ح ٢/ ٧٠، «يا علي سيكون في امتي قوم يتحلون حينا أهل البيت، لهم نبر، يسمون بالرافضة، فاقتلهم فإنهم مشركون»، ح ٢/ ٧٠٥.

فعلي مولاه. وعلي صالح المؤمنين. ويهلك فيه اثنان محب مفرط ومبغض مفرط. ويتنبأ الرسول بخروج الرافضة. ويدعو إلى قتلهم. وهي حديث سياسي وضع بعد خروج الرافضة عليه لتشريع حرب الأمويين ضدهم. كتاب الله وعثرة نبيه نص وجماعة. ومساواتها معا تجعل الجماعة أمينة على النص أو متسلطة عليه ومحتكرة لتفسيره^(١). فلا يوجد نص خارج سلطة الناقل أو المفسر، وقد يكون التركيز على أهل البيت وحدهم استمرازا للحامل^(٢). حبهم من حب الرسول، وحب الرسول من حب الله^(٣). وتكثر الأحاديث في مدح آل البيت أي في تبرير السلطة.

(١) «أني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله، جبل حدود من الساء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفرقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، السابق حـ ١/ ٣٣٦، «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول الله ربي فأجيب، وأني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، حـ ١/ ٣٣٩.

(٢) «استوصوا بأهل بيتي خيرا فإنني أخاصمكم غدا، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار»، «احفظوه فيهم فلا تؤذوهم، ولا تسيئوا إليهم»، السابق حـ ١/ ٣٩٠-٣٩١، «الخصائص الكبرى حـ ٢/ ٥٦٥، معين الشرائع ص ٨٩-٩٩».

(٣) «الحث على حبهم والقيام بواجب حقهم»، أقرباء الرسول حـ ١/ ٣٩٢-٤٤٢، «أحبوا الله لا يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»، حـ ١/ ٣٩٢، «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتي أحب إليه من عترته، ويكون أهلي أحب إليه من أهله، وتكون ذاتي أحب إليه من ذاته»، حـ ١/ ٣٩٣، «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله»، حـ ١/ ٣٩٤، «لا يحبنا أهل البيت إلا مؤمن تقي، ولا يبغضنا إلا منافق شقي»، حـ ١/ ٤٢٤، «من أحب الله أحب القرآن، ومن أحب القرآن أحبني، ومن أحبني أحب أصحابي وقربائي»، حـ ١/ ٤٢٤، «حب آل محمد يوما خيرا من عبادة سنة»، حـ ١/ ٤٢٦، «حبي وحب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن أهواهن عظيمة»، حـ ١/ ٤٢٧، «معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»، حـ ١/ ٤٢٧، «يرد الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمتي كهاتين السابيتين»، حـ ١/ ٤٢٧، «خس من أوتيهم لم يقدر على ترك عمل الآخرة... حب آل محمد»، حـ ١/ ٤٢٧، «من أحبنا فنع الله بحبنا ولو أنه بالدليل»، حـ ١/ ٤٢٨، «من مات على حب آل محمد مات شهيدا، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات ثانيا»، حـ ١/ ٤٣١، «مات مؤمنا مستكمل الإيمان»، «بشره ملك الموت بالجنة، ومنكر ونكير»، «يُرف إلى الجنة كما ترف العروس إلى بيت زوجها»، «فتح له في قبره بابان إلى الجنة»، «مات على السنة والجماعة»، «من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه، آيس من رحمة الله»، حـ ١/ ٤٣١، «من أحبنا بقلبه وأعاننا بيده ولسانه كتب أنا وهو في عليين، ومن أحبنا بقلبه وأعاننا بلسانه وكف يده فهو في الدرجة التي تليها. ومن أحبنا بقلبه وكف عنا لسانه ويده فهو في الدرجة التي تليها»، حـ ١/ ٤٣٢، «خيركم خيركم لأهلي من بعدي»، حـ ١/ ٤٣٣.

وقد يخصص آل البيت في بيتين، بني هاشم وبني عبد المطلب^(١). تبدأ اللجنة ببني هاشم^(٢). ولا يقوم بنو هاشم لأحد^(٣). وهم مثل غيرهم: لا يأتون الرسول بالأنساب وغيرهم يأتون بالأعمال. وكذلك بنو عبد المطلب عليهم إنقاذ أنفسهم من النار. وقد يخصص أهل البيت في علي أو سلمان أو أسامة^(٤). كما قد يخصص بحمزة سيد الشهداء^(٥). والرسول يستحي من عثمان كما تستحي منه الملائكة^(٦).

ويكرم السلف أهل البيت من الصحابة والمقتفين طريقهم في الإصابة^(٧). ويكافئ الرسول من أحسن إليهم في يوم القيامة^(٨). ويشفع يوم القيامة لأربعة: المكرم لذريته، والقاضي حوائجهم، والساعي في أمورهم، والمحِب لهم^(٩). وقد يكون السند ضعيفا إلا أنه يعبر عن حالة نفسه اجتماعية عند المسلمين الأوائل. واللائق بمحاسن أهل البيت

(١) «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد»، السابق حـ ٣٨٨/١، «لا تبلغوا الخير حتى يمجوكم الله ولقرايتي، أترجو سلبي شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب»، حـ ٣٩٨/١، «يا بني هاشم، إني قد سألت الله عز وجل لكم أن يجعلكم بخياء رحماء، وسألت أن يهدي ضالكم، ويؤمن خائفكم، ويشيع جائعكم»، حـ ٣٩٩/١، «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحبكم بحبي، أيرجون أن يدخلوا الجنة بشفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب؟»، حـ ٣٩٩/١، «يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار»، حـ ٦٦٤/٢.

(٢) «يا معشر بني هاشم، والذي بعثني بالحق نبيا لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم»، السابق حـ ٤٦٩/٢.

(٣) «يقوم الرجل لأخيه عن مقعده إلا بني هاشم، فإنهم لا يقومون لأحد»، السابق حـ ٥٥٩/٢، «يا بني هاشم لا يمتنيني الناس بالأعمال وتجتبوني بالأنساب»، حـ ٦٦٤/٢، آل البيت أو أهل البيت، القول البديع حـ ١٩٤-٢٠٠.

(٤) «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»، حـ ٣٧٦/١، «أنت (علي) من أهلي»، «سلمان منا أهل البيت، وهو ناصح فاتخذ لك»، حـ ٣٧٨/١، «أسامة منا أهل البيت ظهر البطن»، حـ ٣٨١/١، «أحبوا أهلي، وأحبوا عليا. من أبغض أحدا من أهل بيتي فقد حرم شفاعتي»، حـ ٤٢٥/١.

(٥) «سيد الشهداء حمزة»، «سيد قتيان أهل الجنة أبو سفيان ابن الحارث»، الخصائص الكبرى حـ ٥٦٦.

(٦) «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»، النبي الأعظم ص ٧٩-٨٠.

(٧) «أقرباء الرسول حـ ٥٦٣-٥٨٥».

(٨) السابق حـ ٥٨٦-٥٩١، «من اصطنع إلى أحد من أهل بيتي يدا كافأته عنها يوم القيامة»، «وحرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وأذاني في عترتي»، حـ ٥٨٧/٢.

(٩) «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحِب بقلبه ولسانه»، السابق حـ ٥٩٠/٢.

اقتفاء آثارهم، والمشي على سنتهم، في سكونهم وتصرفهم^(١). وأكرمهم عند الله أنقاهم، مثال يوسف. وخيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا أي إذا استمر الدين الطبيعي. الله واحد، والجنس البشري أصله واحد، والمعيار الأخلاقي واحد، الناس لآدم وآدم من تراب. والافتخار بآباء قد يكونون في جهنم. والله لا ينظر إلى الصور والأموال بل إلى القلوب والأعمال. فالأنساب ليست معياراً للحكم على الناس، بل الأخلاق. والناس سواسية يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح. وخير الناس أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم أي فعل في الخارج واتصال في الداخل. وكرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه. فضل الإنسان في عقله، ومروءته في خلقته، وحسبه في ماله، وتقواه في دينه. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه. أولياء الرسول المتقون، أصحاب الأعمال، الصالحون المؤمنون. آل محمد كل تقي. ومن أقر بالتوحيد من أهل البيت لا يعذبون لاستحقاقهم بالتوحيد وليس لقرابتهم للرسول^(٢). من أطاع الله نال الاستحقاق، وأهل البيت في الجنة. وهم ليسوا القرابة الدموية بل أيضاً

(١) «أكرمهم عند الله أنقاهم»، «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أحر إلا بالتقوى»، «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيب الجاهلية وتعظمها بآبائها. فالناس رجلان، رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله»، «والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب»، «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم... ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى. فكفى بالرجل أن يكون بذياً بخيلاً فاحشاً»، «الناس لآدم وحواء... إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة إلا عن أعمالكم...»، «الناس كلهم كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية...»، «خير الناس أكرمهم وأنقاهم لله، وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم»، «كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»، «إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك دين فلك تقي»، «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، «إن أوليائي منكم المتقون... لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالأنفال»، «لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتونني بالدنيا تحملونها على رقابكم»، «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما ولي الله وصالح المؤمنين»، «آل محمد كل تقي»، السابق حـ ٦٣٦-٦٩٤.

(٢) «وعندي ربي في أهل البيت من أقر منهم بالتوحيد، ولي بالبلاغ أن لا يعذبهم»، أقارب الرسول حـ ٤٦٦/٢، «من أطاع الله من ولدي وأتبع كتاب الله وجبت طاعته»، حـ ٤٨٤/٢، «إنها شيعتنا من أطاع الله وعمل مثل أعمالنا»، حـ ٤٨٥/٢، «أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة، وأغصانها في الدنيا، فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلاً»، «في كل خلق من أمتي عدول من أهل بيتي يتفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإن أنتمكم وقدكم إلى الله، فانظروا ممن توفدون»، حـ ٤٨٥/٢.

القربة الأخوية مثل المهاجرين^(١).

وأحيانا تتحول السيرة إلى علاقات اجتماعية دينية. القربة للرسول، أجداده وأعمامه وأخواله وعماته في تصور عشائري قبلي بالرغم من عمومية الرسالة، والتأكيد على أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، والطاعة حتى ولو أُمّر عبد حبشي^(٢). وقد تذكر تحت باب «أعمامه وعماته» وإخوته من الرضاعة^(٣). وقد يسبق أولاده زوجاته، بعد أعمامه وعماته، ذكورا وإناثا، ما قبل النبوة وما بعدها^(٤). والحكمة في توفي الذكر، لمنع قضية الخلافة في مجتمع ذكوري، كما يذكر جده مع عمه وأمهاتهم^(٥). وتذكر أمه^(٦). وكان الرسول إنسانا يحب الشخص كما يحب القضية. فقد سر بقدم جعفر من الحبشة وفتح خير^(٧). وأحيانا تغلب القربة على الرسالة. فالرسول يسهر الأنين العباس وهو أسير بدر. فقد خرج مكرها على الحرب. وطلب بإرخاء وثائق

(١) بشارتهم بالجنة ورفع منزلتهم بالوقوف عندما أوجبه الشارع وسنه، السابق حـ ٢/ ٤٥٩-٤٧٦، «سألت ربي أن لا يدخل النار أحدا من أهل بيتي فأعطاني ذلك»، حـ ٢/ ٤٦٨، «أول من يرد على حوضي أهل بيتي، ومن أحبني من أمتي» حـ ٢/ ٤٧٠، «أول الناس يرد على الحوض فقراء المهاجرين، الشعث رؤوسا»، حـ ٢/ ٤٧١.

(٢) وفاء الوفا حـ ٣/ ١٠٧٩.

(٣) خير العباد ص ٦٣٨، ألفية السيرة ص ١٣١، الأعمام والعمات، بهجة المحافل ص ٤٠٢-٤٠٤، تقديم الأقربين في المخاوف والمغارب وتأخيرهم في الرخاء والمغانم، السيرة النبوية ص ٤٣٩-٤٤١، سيرة المصطفى ص ٩٤-٩٨، معين الشئائل ص ٨٥-٩٩.

(٤) الفصول ص ٢٩٨-٣٠١، ألفية السيرة ص ١٣٠، «إنها رحمة جعلها الله في قلوب عباده... إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، سيرة النبي ص ٣٦٤، ذكر أولاده، بهجة المحافل ص ٣٩٧-٣٩٨، «ابن عمي وحبي»، الجوهرة حـ ٢/ ١٣٨، «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله»، «من أذى عمي فقد أذاني، وإنا عم الرجل صنو أبيه»، السابق ص ٦١٥، السيرة الحلبية حـ ٣/ ٤٣٩-٤٣٨، عيون الأثر ص ٣٨٣-٣٩٢، الجوهرة حـ ١/ ٥٠-٥١/ ١٧/ ١٤/ ٥١.

(٥) الجوهرة حـ ٢/ ٧-٤٩.

(٦) «جاءني جبريل وأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله»، الجوهرة حـ ٢/ ١١/ ٥٠-٦٢، «اللهم اغفر للعباس وولده ولبن أحبيهم»، أقرىء الرسول ص ٤٢١، «اللهم اغفر للعباس ولولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا. اللهم اخلفه في ولده»، ص ٤٣.

(٧) «ما أدري بأي الأمرين أنا أسر، بقدم جعفر أم بفتح خير»، الجوهرة حـ ٢/ ٤٣.

الأسرى كلهم بمن فيهم العباس. فالعم صنو الأب وأجود قريش كفا وأوصلها^(١).
ويصف الزبير بأنه ابن عمه وحبه^(٢). وكان يحب أيضا عقيل بن أبي طالب^(٣).

والشفاعة لأهل البيت، ثم الأقرب فالأقرب من قريش، ثم الأنصار، ثم من أنس
به واتبعه من اليمن، ثم من سائر العرب، ثم الأعاجم^(٤). ومن حيث سكان المدن أول
من يشفع لهم أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف. قريش أهل أمانة. فمن بغى
عليهم كبه الله لمنخريه مرتين. ومن يرد هوان قريش أهانه الله. ولعل شفاعته تنفع عمه
أبا طالب^(٥). وبنو عبد المطلب سادات أهل الجنة^(٦). سأل الرسول لهم ثلاثا: تثبيت
قائمهم، وهدايته ضالهم، وتعليم جاهلهم. وسأل الله أن يجعلهم كرماء رحماء نجباء.
فلو أن أحدا منهم صلى وصام ثم لقي الله وهو مبغض لآل البيت دخل النار، والله
غير معذب العباس ولا ولده^(٧). ومن توفي ولد له في الإسلام دخل الجنة. فالأبوة خير

(١) «من لقي منكم العباس فلا يقتله فإن قريشا إنما أجبرته في قتال بدر كرها»، «أسهر لأنين العباس»، «هذا
عمي وصنو أبي. هذا عمي وصنو أبي»، «هذا عمي العباس أجود قريش كفا وأوصلها»، «ردوا عليّ أبي،
أما والله لئن فعلت به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود لأضرمها عليهم نارا»، الجوهرية حـ ١٤ / ٢،
«يا أيها الناس من أذى عمي فقد أذاني»، السابق ص ١٧.

(٢) «ابن عمي وحيي»، السابق ص ٣٨.

(٣) «يا أبا يزيد، إني أحبك حبين، حبا لقربائك مني، وحبا لما كنت أعلم من حب عمي إياك»، السابق
ص ٤٢.

(٤) «أول من أشفع له من أمتي أهل بيتي ثم الأقرب فالأقرب من قريش، ثم الأنصار ثم من آمن بي واتبعني
من اليمن، ثم من سائر العرب، ثم الأعاجم. وأول من أشفع له أفضل»، «أقرباء الرسول حـ ٤٧٢ / ٢»، «إن
أول من أشفع له من أمتي أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف»، حـ ٤٧٤ / ٢، «يا أيها الناس إن قريشا
أهل أمانة. فمن بغاهم العوائر (العترات) كبه الله لمنخريه مرتين»، ص ٦١٣، «من يرد هوان قريش أهانه
الله»، ص ٦١٤، معين الشائل ص ٨٩-٩٩.

(٥) «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة»، الجوهرية حـ ٥٧ / ٢، «إن لبني أبي طالب عندي رحما سابلها بيلابلها»،
أقرباء الرسول حـ ٦٦٨ / ٢.

(٦) «نحن بنو عبد المطلب سادات أهل الجنة: أنا، وحمة، وعلي، وجعفر بن أبي طالب، والحسن، والحسين،
والمهدي»، «أقرباء الرسول حـ ٤٦٥ / ٢»، «يا بني عبد المطلب إني سألت الله لكم ثلاثا: أن يثبت قائمكم،
وأن يهدي ضالكم، وأن يعلم جاهلكم، وسألت الله أن يجعلكم جودا نجباء رحماء. فلو أن رجلا صنف بين
الركن والمقام فصلى وصام ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار»، حـ ٦١٠ / ٢.

(٧) «يا عباس، إن الله غير معذبك، ولا أحد من ولدك»، السابق حـ ٤٦٧ / ٢، «يا عم سترك الله وذريتك من
النار»، حـ ٤٦٨ / ٢.

شفيع^(١). وكانت الشفاعة أيضا عادة عربية بين القبائل. استمرت في الإسلام لصالح الدعوة الجديدة^(٢).

وقد أقام النبي ثلاثة مجتمعات «الأسرة، والجوار، وحق المسلم على المسلم أينما كان»^(٣). فخير الناس خيرهم لأهله، وقد وصفت خديجة الرسول عندما جاء لخطبتها بأنه يصل الرحم، ويحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق. وأوصى بالنساء خيرا بالرغم من وصفهن بأنهن خلقن من ضلع أعوج يمكن كسره إذا ما حاول أحدا استقامته أو تركه معوجا.

فلا يجوز الانتساب إلى الرسول إلا بالحق كما تدعي نظم الحكم الهاشمية^(٤). وهو مثل ادعاء الرجل غير أبيه أو شهادة الزور. ومن فعل ذلك فإنه في النار، تحرم عليه الجنة، ويلعنه الله والملائكة والناس أجمعين، ويتساوى في ذلك النساء والرجال في ادعاء نسبتهم لقوم ليسوا منهم. والشاعر الذي يهجو قبيلة بأكملها افتراء، وكذلك الرجل الذي ينكر ولده، ومن آثار الجاهلية الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة.

(١) «يا عمه، من توفي له ولد في الإسلام فصبر بنى الله له بيتا في الجنة»، أقرباء الرسول ص ٤٠٤.

(٢) الجوهرة ح ١/ ٤١.

(٣) معين الشمائيل ص ٤٥٣-٤٧٤، «خيركم خيركم لأهله»، «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»، «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته. وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»، ص ٤٥٨، «لا يكون لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة»، ص ٤٦٠، «لا يدخل الجنة قاطع رحم»، ص ٢٦٢، «تعلم من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر»، ص ٤٦٢، «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم بالنهار»، ص ٤٦٣.

(٤) «إن من أعظم الفرى أن يُدعى الرجل إلى غير أبيه أو يُرى عينه ما لم تر أو يقول على الرسول ما لم يقل»، «ليس من رجل أدعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر. وإن أدعى قوما ليس لهم فيه نسب فليتبوا مقعده من النار»، «من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، «أيا امرأة ألحقت بقوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها جنته. وأيا رجل أنكر ولده وقد عرفه احتجب الله منه يوم القيامة وخصمه على رؤوس الإشهاد»، «إن أعظم الناس فريا إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها، ورجل ينفي من ولده»، «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن» الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، أقرباء الرسول ح ٢/ ٦٢١-٦٣٥.

واللائق بمحبتهم أن ينزلهم منزلتهم. فمن كان منهم موصوفاً بالعلم قدمه على غيره. فالعلم بعد التقوى والعمل الصالح. العلم للخاصة، والتقوى والعمل الصالح للعام^(١). والعلم والحكمة سنان. تزيد الشريف شرفاً، وترفع العبد الملوك إلى مصاف الملوك، لا فرق بين الجاهلية والإسلام. فخير الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. ويحذر من بغضهم وعداوتهم والتنفير عن سبهم ومساءتهم^(٢). ومن بغض أهل البيت يحرّم من الشفاعة، آيس من رحمة الله. وهو منافق شقي، مصيره إلى النار. قد يهبه الله المال فيطول حسابه. والعيال لتكثر شياطينه. يُحشر يوم القيامة يهوديا حتى ولو شهد أن لا إله إلا الله. ولا ينتسب إلى الرسول من يبغض علياً وينصب أهل بيته ومن اعتبر أن الإيمان مجرد كلام. والرسول مع من يحبهم وهم معه في الحرب والسلام. وسب آل البيت هو سب الله وللإسلام. ومن آذى الرسول في عثرته عليه لعنة الله. وقد حرم الله الجنة على من ظلم آل البيت أو قاتلهم أو أعان عليهم أو سبهم، لا خلاق لهم في الآخرة. ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم، ولهم عذاب أليم، والمستحل من عثرة الرسول ما حرم الله واحداً من خمسة يلعنهم النبي. والمسيئون يوهبون للمحسنين^(٣). والعفو عند المقدرة. وقد تجلّى ذلك في عفو الرسول عن قريش بعد فتح مكة^(٤). الأمان

(١) «إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع العبد الملوك حتى تجلسه مجالس الملوك»، «الناس معادن في الخير والشّر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، السابق ٢/ ٦٩٥-٧١١.

(٢) «من أبغض أحداً من أهل بيتي فقد حُرّم شفاعتي»، «لا يبغضنا إلا منافق شقي»، «من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله»، «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار»، «اللهم ارزق من أبغضني وأهل بيتي كثرة المال والعيال، كفاهم بذلك أن يكثر ما لهم فيطول حسابهم، وأن تكثر عيالهم فيكثر شياطينهم»، «من أبغضنا أهل البيت حشره الله يوم القيامة يهودياً وإن شهد أن لا إله إلا الله»، «ثلاث من كن فيه فليس مني ولا أنا منه: بغض علي، ونصب أهل بيتي، ومن قال الإيمان كلام»، «أنا حرب لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم»، «من سب أهل بيتي فإنما يريد الله والإسلام»، «من آذاني في عترتي فعليه لعنة الله»، «إن الله حرم الجنة على من ظلم أهل بيتي أو قاتلهم أو أعان عليهم أو سبهم»، «أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزيكهم ولهم عذاب عظيم»، «خسة لعنتهم وكل نبي محاب»، «الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمستحل محارم الله، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والتارك السنة»، السابق ص ٦٠٠-٦٢٠.

(٣) «اللهم إنهم عثرة رسولك، فهب مسيئهم لمحسنهم، وهبهم لي ففعل وهو فاعل... فعله ريكم بكم، ويفعله بمن بعدكم»، أقرباء الرسول ٢/ ٤٦٨.

(٤) «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم.... اذهبوا فأنتم الطلقاء». «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب

ببقائهم، والنجاة في اقتنائهم^(١). وهم مثل النجوم في السماء أمان لأهل الأرض من الغرق والاختلاف. هم مثل سفينة نوح من ركبها نجا. وفي نفس الوقت يشير النبي إلى ما حصل بعده عليهم من القتل والشدة أيام الفتنة الكبرى^(٢). وهم أول الناس فناء في صراع بين البقاء والفناء، بين الأمل واليأس، بين النهضة والسقوط، بين فتن آخر الزمان والمهدي المنتظر.

وكما ركزت بعض السير على أجزاء من السيرة، المغازي، والسير أو الوفاة فقد ركز البعض الآخر حول محيطه النسائي، أمه، وأزواجه، وبناته في تاريخ مثالي لا عيب فيه ولا نقص بالرغم من بشرية الرسول^(٣). والتاريخ لا عيوب فيه ولا نقص. هو أقرب إلى التاريخ المقدس. الأسلوب أدبي رومانسي ساذج لتعليم التلاميذ كمقرر مدرسي. وتقرن أم النبي بأمهات باقي الأنبياء. تعتمد على المصادر القديمة مثل السهيلي والحديث مثل هيكل. وشهادة بعض المستشرقين مثل بودلي. وتعتمد على كثير من الشعر ثم القرآن والحديث أقل^(٤). وكما كتبت «أم النبي» كتبت أيضا «بنات النبي بنفس المنهج»، اتبعت سيرتها من البداية إلى النهاية^(٥).

عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»، سيرة النبي ص ٣٥٢-٣٥٣..
(١) أقرباء الرسول ٤٧٧/٢-٤٩٣ «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي» ح-٤٧٧/٢، «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا إليس»، ح-٤٧٨/٢، «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح في قومه من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق ومثل حطة لبني إسرائيل»، ح-٤٧٩/٢.

(٢) أقرباء الرسول ٥٩٢-٥٩٩، «إن أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وإن أشد قوما لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»، ح-٥٩٢/٢-٥٩٣، «أنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير ولا يعطونه. فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يرفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطا»، «كما ملئوها جورا فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج»، ح-٥٩٤/٢، «إن أول الناس فناء قريش أو نحو هذا من أهل بيتي»، ح-٥٩٥/٢، «أول الناس هلاكا قريش، وأول قريش هلاكا أهل بيتي»، ح-٥٩٦/٢.

(٣) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): أم النبي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٨.

(٤) الشعر (٤٢)، القرآن (١١٨)، الحديث (١٤).

(٥) وذلك في سبعة كتب: سيدة الأمهات، بيته ووراثته، زهرة قريش، العروس الأرملة، أم اليتيم، الرحيل، الخالدة.

وعم تسليط الضوء على «نساء النبي» نظرا لأهميتهن في حياة الرسول. وكتب بنفس الأسلوب الرومانسي الساذج الذي يؤثر في العامة، ويمكن تربية التلاميذ عليه في دروس الدين بالمدارس. والرسول في بيته غير الرسول في نبوته. الأول حياته الخاصة، والثاني حياته العامة. والمؤلفة امرأة تكتب عن النساء، الأم والبنات والنساء. ويبلغن درجة التقديس بالرغم من غيرتهن. وتدل ألقابهن على ذلك: «أم المؤمنين»، «أم المساكين»، ومحمد الصادق الأمين، ومكة أم القرى، وخديجة الطاهرة^(١). يقوم على تبرير كل شيء: تعدد الزوجات، الزواج بالمرأة الناضجة التي تلعب دور الأم، وبالفئة الصغرى التي ترضي الشيخ، وبالمراة الأنثى التي ترضي الرجل^(٢). وتعتمد على الحديث، والقرآن، والشعر، والحديث أكثر^(٣). مع أنه منهجيا لا يُدرس الشخص من أقواله بل من مصدر آخر. كما تعتمد على بعض المستشرقين إما للهجوم أو للدفاع^(٤). ويشار أيضا إلى محاولات المحدثين خاصة هيكمل. وتغيب كل الأسئلة النقدية حول تعدد الزوجات، والزواج من الصغيرات، وتسريح المستعينة بالله، وعدد الزوجات والسرايا، واشتراك عائشة في الحروب ضد علي، والاستعجال على الزواج من أم حبيبته وهي بالحبشة مع النجاشي ولياها، واللغة التي كان يتكلم بها مع مارية القبطية، ونزول القرآن في حياته الخاصة، وحرب النصوص.

ب- الصحابة

والصحابة مثل القرابة^(٥). هم مثل الملح في الطعام لا يصلح إلا به^(٦). هم كالنجوم

(١) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): نساء النبي، دار المعارف، القاهرة حـ ١/٦، ١٤٢٨ هـ ١٩٩٨.

(٢) الأولى خديجة، والثانية عائشة، والثالثة زينب بنت جحش.

(٣) الحديث (٩٨)، القرآن (٤٣)، الشعر (٢).

(٤) مثل برطلي، مرجوليوت، درمنجهم، موير.

(٥) «لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصفه»، «لا يُبلغني أحد عن أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر»، «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»، بهجة المحافل ص ٢٧٠-٢٧١، الخصائص الكبرى ص ٥٦٦-٥٦٧، سيرة النبي ص ٣٠٧، «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، السابق ص ٣٤٩، «إني لأعطي رجلا حديثي عهد بكفر أئالفهم. أما ترضون أن يذهب الناس بالآموال وتذهبوا برسول الله إلى رحالكم»، سيرة النبي ص ٣٦٢، «فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سيهم»، السابق ص ٣٦٣، فضائل الصحابة، سنن المصطفى ص ٧٧٦-٧٩٤، «رفاق العشرة النجباء الذين في الجنة»، بهجة المحافل ص ٤١٦- أنصاره الاثنى عشر النقباء، فضل أصحاب الرسول، السابق ص ٤١٦.

(٦) «مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام، لا يصلح إلا به»، «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، «الله الله

يهتدي الناس بهم. ثم تحول الصحابة في الثقافة الشعبية إلى شخصيات مقدسة، عليها هالة من التكريم، لا تخطئ، كاملة، في حين أن الشيعة يضعونهم موضع النقد السياسي، ولا يصوبون قراراتهم دائما. وتوحي بعض الأحاديث بدرجة عالية من التوحيد بين الرسول وصحابته، في المحبة والكرامية. ثم التوحيد بين الرسول والصحابة من ناحية والله من ناحية أخرى. ومن ثم أصبح لا يجوز التعرض للصحابة بالنقد أو التصوير مع أنهم بشر. والرسول بشر أيضا. وإذا كان فضلهم في نقل الحديث وروايته فإنه فضل التبليغ. كما أن فضل الرسول هو التبليغ. ولا يوجد صحابي إلا ومدحه الرسول وبين فضله وإعطاء لقبه. فأبو عبيدة بن الجراح مثلا أمين هذه الأمة^(١).

وقد تمتد الصحبة عبر قرن من الزمان^(٢). بل تمتد إلى نهايته بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معهم، وبفضل الصحابة على سائر الأمة^(٣). وكل نبي له نظير في أمته. أبو بكر مثل إبراهيم، وعمر مثل موسى، وعثمان مثل هارون، وعلي مثل النبي، وأبو ذر مثل عيسى. وكل صحابي هو إمام أي بلدة يحل فيها وقائدها. وقد أعطيت قريش ما لم يعطه الناس وأصحابه عدول^(٤).

في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي. فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»، «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»، «أيها الناس إن الله تعالى غفر لأهل بدر والحديبية. أيها الناس احفظوني في أصحابي وأصهاري واختاني، لا يطالبنيكم أحد منهم بمظلمة فأنا مظلمة لا توهب في القيامة غدا»، بهجة المحافل ص ٦١٨-٦٢٠، تعظيم أصحاب الرسول لما أعظمه وعبتهم لما أحبه، السابق ص ٣٢١-٣٢٢، فضل حديث الرسول وعديته وما نقل عن السلف من تعظيمهم لذلك، السابق ص ٦٢٣، أدلة فضل الصحابة، سيرة النبي ص ٤١٧-٤٢٢، «لو أن لرجل مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله وفي الأراذل والمساكين والأيتام ليدرك فضل رجل من أصحابي ساعة من النهار ما أدركه أبدا»، الخصائص الكبرى ح ٢/ ٥٦٦، المواهب اللدنية ح ٣/ ٣٧٥-٣٩٦، قرينة من أصحابه، معين الشرائع ص ٣١٣-٣١٨.

- (١) «لأبشئ معكم رجلا أمينا حق أمين»، «هذا أمين هذه الأمة»، سيرة النبي ص ٧٦.
- (٢) «خيركم قرني»، بهجة المحافل ص ٢٧١، «لا يزال من أمي أمه قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، السابق ص ٦٢٤.
- (٣) خصائص الرسول ص ٢٦٢، تفضيل الصحابة على جميع العالمين سوى النبيين، الخصائص الكبرى ح ٢/ ٤٢٣-٤٢٤.
- (٤) «اللهم ارحم خلفائي... الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي وستي ويعلمونها الناس»، السابق ص ٥٦٨.

وللصحابة كل منهم شخصيته المستقلة عن الأخرى. وهو ما سُمي في الفكر الإسلامي المعاصر «المفتاح». فأبو ذر يعيش وحيدا ويموت وحيدا. وهو على زهد عيسى ابن مريم^(١). وعمار شهيد تقتله الفئة الباغية، وأبو عبيدة أمين الأمة. وعلي ولي الأمة ووصيها. ومن آذى عليا فقد آذى الرسول^(٢). وتتناغم كل هذه السمات في شخصيات الصحابة طبقا للمشورة. فالكل على صواب، وهم رمز التعددية في الرأي والاتفاق في الاختلاف^(٣).

والعشرة المبشرون بالجنة أقرب الصحابة إليه^(٤). ويذكر معهم الحواريون من أهل الصفة. فلكل نبي حوار. والمبشرون بالجنة قد لا يتفق مع قانون الاستحقاق الذي يخضع له الرسول نفسه الذي لا يضمن لنفسه الجنة إلا إذا تغمدته الله برحمته. فالحواريون أقرب دائرة إليه مثل الخلفاء الأربعة على نموذج حواربي المسيح^(٥).

وكان الرسول يتبع عادات الجاهلية في الإجارة^(٦). وتقوم الإجارة على احترام القبلة. ويجير الرسول من تحبزه إحدى زوجاته^(٧). والإجارة هي الدائرة الأوسع من القرابة والصحبة، وتحولت الإجارة إلى شفاعة، وكان يؤاخي من شاء وثبت بينهم التوارث دون غيره^(٨). وكانت له طرقة الخاصة في الهدى والإرشاد. يلقي الناس بالبشائر. وتؤثر صحبته فيمن صحبه^(٩).

(١) «ما أظلت الخضراء، ولا أفلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»، «أبو ذر في أمتي على زهد عيسى ابن مريم»، الجوهرة حـ ١ / ١٧٠.

(٢) «من آذى عليا فقد آذاني»، السابق ص ١٨٧.

(٣) «مثل أصحابي في أمتي مثل النجوم تُتدى بها وإذا غابت تحيروا»، الخصائص الكبرى حـ ٢ / ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٤) السيرة الحلبية ص ٤٦٠، عيون الأثر ص ٤١٥ - ٤١٨.

(٥) السيرة الحلبية حـ ٣ / ٤٦٠، النبي المختار ص ٥٥.

(٦) «هل أنت مجبري حتى أبلغ رسالات ربي»، الجوهرة حـ ١ / ٤٠ - ٤١.

(٧) «قد أجرنا ما أجرنا يا أم هانئ»، السابق حـ ٢ / ٤٥.

(٨) الخصائص الكبرى حـ ٢ / ٥٦٢.

(٩) سيرة النبي حـ ٢ / ١٨٦ - ١٩٠.

وحدث النبي على حسن الجوار^(١). وما زال جبريل يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيورثه. وخير الأصحاب خيرهم لجاره. وعلى الجار أن يعطي جاره من طعامه. فلا يشبع مؤمن وجاره جائع أو يغلق بابه دونه. ولا يؤمن من لا يأمن جاره غوائله، ولا يؤذي جاره، وفي المجتمع الأكبر، للمسلم حق على المسلم^(٢). لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. لا يظلمه، ويسعى في حاجته، ويفرج كربه، ويستر عورته. حقه عليه رد السلام وعيادته إذا مرض، ويسير في جنازته وإجابة دعوته، وتشميته إذا عطس، وإسداء النصيحة له. لا يبيع ولا يخطب عليه، ولا يسلبه حقه ويتسم في وجهه، ولا يحقره، ولا يهجره^(٣). وهذه بنية المجتمع الإسلامي. بنية واحدة.

وتضييق الحلقات الاجتماعية للصحة حول الرسول وتوسع، والرسول في مركزها كلها، فتذكر مرضعاته وإخوته في الرضاعة^(٤). كان للرسول موال^(٥). منهم سلمان الذي

(١) مقصد الشئائل ص ٤٦٤-٤٦٧، «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»، «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»، ص ٤٦٥.

(٢) «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فرج عن مسلم كربه فرج الله عنه كربه من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»، «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعبادة المريض، وإتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»، مقصد الشئائل ص ٤٦٨-٤٧٠.

(٣) «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، «تري المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»، «المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى يمينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»، ص ٤٧٢، «من نفس عن مؤمن كرب من كرب الدنيا، نفس الله عنه كرب من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه»، معين الشئائل ص ٤٧١-٤٧٤.

(٤) بهجة المحافل ص ٤٠٥.

(٥) وهم أربع وعشرون «زيد بن حارثة، ثوبان، شقران من أصل حبشي، أبو رافع، أبو بكرة، أبو الحمراء، سلمان الفارسي، هشام، راقد، أبو صفية، سفيانة، أبو كبشة سليم، أنسة، رباح الأسود، أبو سلام الهاشمي، أبو عبيد، إيد، يسار، أبو ضميرة، ضميرة، مدغم، فضالة، أبو مويبة، النيه، أبو عسيب، أبو سلمى»، الجوهرة ٢/ ٨٣-٩١. خير العباد ص ٦٣٩-٦٤٠، الإشارة ص ٣٦٧-٣٨٠، الفصول ص ٣١٩-٣٢٠، ألفية السيرة ص ١٣٧-١٣٩، مواله من الرجال والنساء، بهجة المحافل ص ٤٠٦-٤٠٨، السيرة الخلية ص ٤٥٦-٤٥٧، السيرة النبوية (٢) ص ٣٥٦-٣٦٧، النبي المختار ص ٥٤-٥٥، سيرة المصطفى ص ١٠٧-١١٢، عيون الأثر ص ٤١٠-٤١١، الجوهرة ٢/ ٨٣-٩١، «حليف القوم منهم، وابن أخت القوم منهم، وموالي القوم منهم»، السابق ص ٩١.

وصفه الرسول بأنه من آل البيت، وأنه لو كان العلم في الثريا لناله. وفي رواية أخرى الدين، حوالي واحد وستين. ولا يكفي رصد أسمائهم بل الكشف عن دلائلهم، وهل الموالي جزء من الوحي وأدواته؟ وكان للرسول كتابه للوحي وللرسائل^(١).

ومؤذنه أربعة، لكل منهم طريقته في الأفراد والتثنية. وكان الرسول يؤم ولا يؤذن^(٢). وكان له قضاته^(٣). وأمرأؤه حوالي ثلاثة عشر. منهم من أسلم من ملوك العجم، ومنهم ولاية الصدقات والحج. وتختلف الفرق فيهم بين أبي بكر وعلي. وأمناءه من كان يستشيرهم، أشبه بوزراء اليوم^(٤). ومن ولي السوق في زمانه هو ما سمي فيما بعد المحتسب. ويختص بالمسائل المالية والاقتصادية، أشبه بوزير التموين اليوم^(٥). ورسله إلى الملوك والآفاق أشبه بالسفراء^(٦). وحراسه في غزواته أشبه بوزارة الدفاع^(٧). وسيافه من كان يضرب الأعناق بين يديه بالرغم مما في ذلك من قسوة لا دخل لها في النبوة من

(١) الجوهرة ح-٢/٩٢، بينهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وعمر بن العاص، وأبي بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت وكان أخصهم، وخالد بن سعيد بن العاصي وقيل إنه أول من كتب، خير العباد ص ٦٤٠، الإشارة ص ٤٠٢-٤٠٤، الفصول ص ٣٢١-٣٢٥، ألفية السيرة ص ١٢٣-١٢٥، بهجة المحافل ص ٤١٥، السيرة الحلبية ص ٤٥٧-٤٥٨، السيرة النبوية (٢)، ص ٣٨١٠-٣٩٦، النبي المختار ص ٥٥، عيون الأثر ص ٤١٣-٤١٤، معين الشرائع ص ١٠٥.

(٢) وهم أربعة: اثنان بالمدينة، بلال وعمر بن كلثوم، وبقية سعد القرط، ويمكة أبو محذورة، خير العباد ص ٦٤٠-٦٤١، الفصول ص ٢٢٥، السيرة الحلبية ص ٤٦٠، النبي المختار ص ٥٥، معين الشرائع ص ١٠٥.

(٣) النبي المختار ص ٥٦.

(٤) وكانت الولاية على اليمن وصنعاء وحضر موت وعدن والساحل ونجران وعمان وغيرها من الأقاليم، خير العباد ص ٦٤١-٦٤٢، ألفية السيرة ص ١٥١-١٥٢، نقبأوه ونجباؤه وحواريه ونوابه وأمرأؤه وكتابه، ومن جمع القرآن حفظا على عهده، النبي المختار ص ٥٥-٥٦.

(٥) السيرة النبوية ص ٤٥٩.

(٦) الفصول ص ٣٢٦-٣٢٨، ألفية السيرة ص ١٢٦-١٢٩، بهجة المحافل ص ٤١٢-٤١٥.

(٧) ومنهم سعد بن معاذ حرسه يوم بدر حين نام في العريش، وعمر بن مسلمة حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام حرسه يوم الخندق، وعبد الله بن بشر قائد الحرس، ثم صرفهم الرسول بعد نزول آية ﴿وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُنَاصِرُ النَّاسَ﴾، بهجة المحافل ص ٤١١، السيرة الحلبية ص ٤٥٨-٤٥٩، النبي المختار ص ٥٦، عيون الأثر ص ٤١٤، معين الشرائع ص ١٠٢.

خير العباد. وكان أحدهم بمنزلة صاحب الشرطة من الأخير أي وزير الداخلية^(١).

وشعراؤه وخطباؤه يبينون دور الشعر والخطابة في المعركة. بعضهم كان أشد من بعض على الكفار. وكان أحدهم يعيرهم بالكفر والشرك^(٢). وله حداته في السفر. فالفن عامة والغناء خاصة، في حياة الرسول كان له دور في نشر الدعوة والدفاع عنها على عكس من يجرمون الفن هذه الأيام. وكانوا مختلفين في حسن الصوت الذي كان يؤثر جماله في النساء^(٣). ومن كان يضحكه أشبه بالسامر فقد كان الرسول يضحك ويمزح مع أصحابه^(٤). وخدامه كانوا يقضون حاجته، حوالي ثمانية وثلاثون^(٥). وكانوا من الأحرار والعبيد على حد سواء. ومعظمهم من النساء، ومن غير مواليه. بعضهم من رواة أحاديثه. ومع ذلك هل خدم الرسول من الوحي أو أدواته؟ وكان له صاحب النفقة والخاتم والسواك والنعل ومن كان يأذن عليه أي الحاجب^(٦).

وقد تعني الصحبة المعاصرة^(٧). وتتضمن السلام واللقاء وتشميت العاطس، والدعاء للمتزوج وللمولود، وتسمية المولود، وإكرام الضيف. ولا تشمل الصحبة

-
- (١) خير العباد ص ٦٤٣، السيرة الحلبية ص ٤٦٠، النبي المختار ص ٥٦.
(٢) من الشعراء كعب بن مالك؛ عبد الله بن رواحه، حسان بن ثابت، خير العباد ص ٦٤٣، السيرة الحلبية ص ٤٥٩، النبي المختار ص ٥٦، معين الشائيل ص ١٠٦.
(٣) وقال الرسول لأحدهم وكان حسن الصوت: «أنجشة رويدا لا تكسر القوارير»، خير العباد ص ٦٤٣-٦٤٤، معين للشائيل ص ١٠٧.
(٤) السيرة الحلبية ص ٤٥٩.
(٥) ومنهم: أنس بن مالك وكان يقضي حوائجه، وعبد الله بن مسعود صاحب نعله وسواكه، وعقبة بن عامر الجهني، صاحب بغلته، وأسلم بن شريك صاحب راحلته، وأيمن بن عبيد على مطهرته وحاجته، خير العباد ص ٦٤٠، معين الشائيل ص ١٠٠-١١٠، الإشارة ص ٣٦١-٣٦٧، الفصول ص ٣٢٠-٣٢١، ألفية السيرة ص ١٣٤-١٣٦، خدمه من الأحرار، بهجة المحافل ص ٤٠٩-٤١٠، السيرة الحلبية ص ٤٥٥/٣، السيرة النبوية (٢) ص ٣٧٢-٣٨١، حسن خلقه مع الخدم، الأسوة الحسنة ص ٤١٧-٤١٨، النبي المختار ص ٥٤، سيرة المصطفى ص ١٠٧-١١٢، عيون الأثر ص ٤٠٧-٤٠٩، وكانوا عشرة من النساء: أميمة، بركة بنت ثعلبة، خولة، رزينة، ميمونة، بنت أبي عتبة، ميمونة بنت سعد، مارية جدة المثنى، مارية أم رباب، سلمى، الجوهرة ص ٨١/٢-٨٣.

- (٦) كان بلال على نفقته، وآخر على خاتمه، وابن مسعود على سواكه ونعله، خير العباد ص ٦٤٣.
(٧) «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيه فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»، «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»، سيرة النبي ص ٥٠١-٥١١.

جماعة اللقط والثروة وما سماه المعاصرون الرغي الذي يبعث على القبيء، ويث روح
العدم في النفس^(١). وبداية المجلس بالسلام، وسلام الراكب على الماشي، والماشي على
القاعد، والقليل على الكثير^(٢). والاستئذان واجب^(٣). والمصافحة ضرورية^(٤). وتجب
عيادة المريض، وشكر المعروف ومكافأته، وخدمة كل إنسان نفسه وغيره^(٥). وكان عدد
المسلمين حين وفاة الرسول ستين ألفاً، ثلاثون ألفاً في المدينة، وثلاثون ألفاً في غيرها.
وفي رواية مائة ألف، منهم أربعة آلاف صحابي^(٦).

ثامناً - أدوات المحيط:

١ - أشياء للاستعمال

وأول ما يحتاجه الرسول هو المسكن^(٧). وهو مسكن متواضع في بنائه وأساسه لا
زهر فيه. يستأذن داخله. فليلبوت حرمتها. أثاثه بسيط. لا يفرق عن بيوت الصحابة.
فشر ما يذهب فيه المال هو البنيان الضخم كما يحدث في مدن الخليج تأسيا بمانهاتن،

(١) «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال له قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد
أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر ما كان في مجلسه ذلك»، السابق ص ٥١١.

(٢) «إن أولى الناس بالله من يدؤهم بالسلام»، «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على
الكثير»، «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم. فإذا أراد أن يقوم فليسلم. فليست الأولى بأحق من
الآخرة»، عيون الأثر ص ١٣٨.

(٣) «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك ولا FARJع»، «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، «ارجع فقل السلام
عليكم أَدْخَلَ؟»، سيرة النبي ص ٥٠٤، أدبه في الاستئذان على الناس، الأسوة الحسنة ص ٤٥٥-٤٥٧،
«لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينيك»، «إنما جعل الإذن قبل الإبصار»، معين الشرائع ص ٣٧٨-٣٩٨.

(٤) «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبل أن يتفرقا»، «تصافحوا يذهب الغل من قلوبكم،
وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء»، «إذا التقا المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفرا غفر الله تعالى لهما»، سيرة
النبي ص ٥٠٤-٥٠٥.

(٥) «من عادى مريضاً نادى من السماء طبت وطاب ممشاك، وتبوات من الجنة منزلاً»، «من لم يشكر الناس
لم يشكر الله»، «من صُنِعَ إليه معروف فليجزه فإن لم يجد ما يجزه فليش عليه فإنه إذا أنى عليه فقد شكره،
وإن كتمه فقد كفره»، معين الشرائع ص ٣٤٠-٣٤٦.

(٦) الفصول ص ٣٦٤.

(٧) «إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان»، «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير»، «نظفوا فتيكم،
ولا تشبهوا اليهود»، «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين»، معين الشرائع ص ٣٧٨-٣٩٨.

وإنفاقاً لأموال النفط. وتعويضاً عن نقص الصحراء المنبسطة الممتدة في الأفق. فالسواء خير من الأرض. والمغالة في الإنفاق في الواجهات معارض للبناء بالحجارة والطين. ولا توضع تصاوير في المساكن خشية من العودة إلى عبادة الأوثان أو الوقوع في التجسيم والتشبيه كما يفعل اليهود والنصارى.

وكان فراشه ووساده ولحافه وقطيفته من جلد حشوه ليف^(١). ينام عليه راقاً واحداً دون ثنيه حتى لا يشعر به وثيراً. له ملحف يدور بين نسائه. وجعلت في قبره قطيفة حمراء. وله خمرة وحصير للصلاة عليه^(٢). تناوله إياه عائشة وهي حائض. فالحيض ليس في اليد. وطلب من الناس أخذ ما يطبقون من الأعمال^(٣). وكان الحصير يعلم في جنب الرسول وعمر يبكي^(٤).

وكان قدح الرسول من خشب غليظ مضرب بحديد. يشرب ويتوضأ فيه. شرب فيه الماء واللبن والنبيد والعسل والسويق. وبعد أن انكسر لم يتم استبداله بآخر من فضة حتى ولو كان هدية من حاكم الإسكندرية. وكان أحياناً ينبذ له في حلبه شاة بعد دبغه. وكان هو وعائشة يغتسلان من إناء واحد، قدح يقال له الغرق. ويستعملان معاً المكن. له قصدة يحملها أربعة رجال يقال لها الغراء. وله جفنة لها أربع حلق^(٥).

ومن أدوات تزيينه المشط والمرآة والسواك والمقص والمكحلة^(٦). ينظر في المرآة وهو محرم ويحمد الله على حسن خلقه^(٧). ويسأل تحسين الخلق بعد تحسين الخلق مما يدل على

(١) الأنوار حـ ٢/ ٥٥٣-٥٦٠، خير العباد ص ٦٥٦، في صفة فراشة وما يناسبه، شمائل الرسول ص ١٢٠-١٢٣.

(٢) الأنوار حـ ٢/ ٥٦٠-٥٦٥.

(٣) «يأبى الناس، خذوا من الأعمال ما تطبقون فإن الله لا يعمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»، السابق ص ٥٦٣-٥٦٤.

(٤) «ما يبكيك يا ابن الخطاب... ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا»، السابق ص ٥٦٤-٥٦٥.

(٥) الأنوار حـ ٢/ ٦٥٤-٦٦١، ألفية السيرة ص ١٤٧، بهجة المحافل ص ٤٢٤، شمائل النبي ص ١٢٠، «إن الشيطان لا يعمل سقاء، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء»، «ولا تشربوا في آنية من الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»، معين الشمائل ص ٣٧٨-٣٩٨.

(٦) الأنوار حـ ٢/ ٦٨٥-٦٨٨.

(٧) «الحمد لله الذي حسن خلقي وخلقي وزان مني ما شأن من غيري»، «الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله،

العلاقة بين الخلق والأخلاق. يكره أن يتلصص عليه أحد من الباب ليراه ومن يفعل ذلك يستحق الطعن في عينيه. فالأذن قبل البصر^(١). وللرسول مكحلة يكتحل منه^(٢). فالاحتحال يحلو البصر وينبت الشعر^(٣). ثلاث مرات في كل عين قبل النوم. وفي رواية ثلاثا في اليمين واثنين في اليسرى.

وكان للرسول خفافه وجبابه^(٤). الخفاف أربعة أزواج من نوع، وخفان من نوع آخر، وأقداح متنوعة، وركوة، وقصعة، وسرير، وعمامة، ورداء، وفراش حشوه ليف، وصاع وكساء وقصب، وله ملبوساته^(٥). والبياض أفضل لون، ومع ذلك في الحفلات المسائية الآن السواد أفضل لون على الجسد الأبيض، وعليه اللؤلؤ الساطع في الأذنين والجديد والمعصمين وتحت الأنوار الخاطفة أو العاكسة أو الخافتة.

وللرسول قبة تركية من جلد على بابها حصير لتحميه من المطر^(٦). تحتها يقسم بين الناس. وقد شعر الأنصار بالغبن^(٧). فالرسول يُعطى حديثي العهد بالكفر، أما الأنصار فلهم الله ورسوله. موعدهم معه على الحوض، نصف أهل الجنة. وليس ثلثها أو نصفها^(٨). والمنبر والكرسي والسرير تتعلق أيضا بالرسول. وهو كل ميراثه. تم التعامل معها وكأنها مقدسة تستحق التقييل واللمس وأخذ البركة. وتذكر رواية شفقة

وكرم صدره وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين، السابق ص ٦٨٧، اللهم حسنت خلقي فحسن خلقي، السابق ص ٦٨٨.

(١) «لو أعلم أنك تنظر في لطعت به في عينك... إنها جعل الأذن من قبل البصر»، السابق ص ٦٨٨.

(٢) السابق ص ٦٨٩-٦٩٠.

(٣) «اكتحلوا بالاثمد فإنه يحلو البصر وينبت الشعر»، السابق ص ٦٨٩، ألفية السيرة ص ٩١-٩٢.

(٤) الإشارة ص ٣٩٥-٣٠١.

(٥) «ألبسوا البياض فإنها أكبر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم»، بهجة المحافل ص ٤٢٣، «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج»، معين الشئائل ص ٣٧٨-٣٩٨.

(٦) الأنوار ح ٥٦٩/٢-٥٧٢.

(٧) «ما كان من حديث بلغني عنكم... إني أعطي رجلا حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رجالكم يرسلو الله؟. فو الله ما تنقلبون به خير ما ينقلبون به... إنكم سترون بعدي أثره شديدة.. فاصبرو حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض»، السابق ص ٥٧١.

(٨) «أترضون أن تكونوا ربيع أهل الجنة... ثلث أهل الجنة... والذي نفس محمد بيده إني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»، السابق ص ٥٧٢، ألفية السيرة ص ٩٠-٩١.

عمر بالرسول من أثر الحصار في جنبه ورد الرسول عليه بالرضا بالآخرة وللآخرين الدنيا^(١).

وله رمحه وسيفه وقوسه ونبله جزءاً من شخصيته. وقد تناقلتها الأجيال باعتبارها بركات من الرسول. ويوجد في كل مسجد في الهند وباكستان نماذج منها. يحيط بها المصلون وكأنهم في متحف. وسيف الرسول من فضة. والرسول يرفض التعامل مع الفضة والذهب. وهل السيف من فضة في مثل قوة السيف من الصلب أو الفولاذ^(٢)؟ وهل كان في نبله التي رميت في أحد قوة خاصة^(٣)؟ وله تسعة أسياف، ولكل اسم يدل على وظيفته مثل البتار. منها ما ورثه عن أبيه. ومنها ما كان تصنيعه من فضة. ومنها ما رأى فيه رؤية. ودخل مكة متقلداً سيفاً ذهباً وفضة وهو يدل أيضاً على طريقة تقلده. وله ست قس لكل منها اسم، وله جعبة، ومنطقة وترس وخمسة أرماع، ومغفر من حديد، وثلاث جباب يلبسها للحرب، وراية سوداء، وألوية بيضاء. وله فسطاط، وقدر وقصعة^(٤). ومن آياته الدفاعية المغفر (الخوذة)، والدرع والترس^(٥). فدخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر مثل القواد القدامى. وأمر بقتل من تعلق بأستار الكعبة. وبأخذ المقاتلون من هذه الآلات الدفاعية للدفاع عنه بها إذا ما حمى الوطيس واقترب القتال منه لأن بها قوة زائدة. ويذهب الخيال الشعبي إلى أن درع الرسول كانت به حلقتان من فضة حتى تتميز عن باقي الدروع. وكانت له راية ولواء مثل باقي القواد، الراية سوداء واللواء أبيض. وعليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وهو مازال الشعار في بعض

(١) الأنوار ٢/ ٥٦٥-٥٦٨، بهجة المحافل ص ٤٢٤، أثنائه، الأسوة الحسنة ص ٤٨٥، سيرته في سائر البيوت ص ٤٨٦، فراش الرسول، شمائل النبي ص ١٨٤-١٨٥، الخصائص الكبرى ٢/ ١٥٠.
(٢) الأنوار ٢/ ٥٨١-٥٨٦، في صفة سلاحه، شمائل الرسول ص ١٣٢-١٣٥، تسمية سلاحه ودوابه ومتاعه، ص ١٣٦-١٤٠.

(٣) «أرم فداك أبي وأمي»، السابق ص ٨٥.
(٤) خير العباد ص ٦٤٤-٦٤٧، آياته الحربية، الرماح، القس، الأسياف، الأدرع، الإشارة ص ٣٩٠-٣٩٤، ألفية السيرة ص ١٤٤-١٤٦، سلاحه، بهجة المحافل ص ٤٢١، سلاحه، السيرة الحلبية ٣/ ٤٦١-٤٦٢، آثاره من خاتم وثياب وسلاح ومراكب، السيرة النبوية (٢) ص ٣٩٧-٤٠٦، النبي المختار ص ٥٦-٥٧، سيرة المصطفى ص ١٠٧-١١٢، شمائل النبي ص ٨٠-٨٣.

(٥) الأنوار ٢/ ٥٨٦-٥٨٩، خير العباد ص ٦٤٤، شمائل النبي ص ٨٣-٨٤، سيرة النبي ٢/ ١٦٣.

الأعلام للدول المعاصرة^(١). وخاتمه كان يختم به رسائل القياصرة والملوك. ويوصف نوعه ونقشه والأصبع الذي فيه^(٢). النقش بنقش خاتمه^(٣).

وله أيضا خيله وسرجه^(٤). والخيل ليست خاصة به بل الخيل في الحرب^(٥). وأحب شيء للرسول بعد النساء الخيل خاصة الأشقر الأغر الأدهم المحجل في الشق الأيمن. وكره الشكال (ثلاث قوائم) اللحيث. واسم فرسه المرتجز. وبغلة البيضاء دلدل، وحماره عفيز. ودرعه ذات الفضول. وهل خيل الرسول جزء من الوحي؟ ألم يكن له من البقر شيئا؟^(٦). بل له بغلة وحمار^(٧). وقد رمي الكفار بحصيات وهو على بغلته وقال «انهمزوا ورب محمد»، وكان يبلغ رسالته وهو على حمار كما فعل المسيح داخل القدس^(٨). وحمار الرسول أطيّب ريحا عند أحد الأنصار دفاعا عنه. وللرسول ناقة وهي العُضباء^(٩). وهي لا تسبق. ولما سبقها أعراي أخذها الرسول مناسبة للإعلان عن قانون النهضة والسقوط^(١٠). وله مائة شاة كلها ولدت شاة ذبيح مكانها شاة حتى

-
- (١) الأنوار حد ٢/ ٥٨٩-٥٩٢، خير العباد ص ٦٤٥.
(٢) ألفية السيرة ص ٨٩-٩٠، بهجة المحافل ص ٤٢٣، الأسوة الحسنة ص ٤٨٠-٤٨١، شمائل النبي ص ٧٤-٨٠، الخصائص الكبرى حد ٢/ ١٤٩-١٥٠، في صفة خاتمة، شمائل الرسول ص ١٢٤-١٢٧.
(٣) «إننا قد اصطنعنا خاتما، ونقشنا فيه نقشا فلا ينقش عليه أحد»، الخصائص الكبرى حد ٢/ ٥٤٥.
(٤) الأنوار حد ٢/ ٥٩٤-٥٩٩، خير العباد ص ٦٤٧-٦٤٨، الجوهرة حد ٢/ ٩١-٩٢.
(٥) «الخيل معقود في نواصيها الخير»، السابق ص ٥٩٤، الجوهرة حد ٢/ ٩١-٩٢، خير العباد ص ٦٤٧-٦٤٨، الفصول ص ٣٢٨-٣٢٩، دوابه وما كان له من الخيل والإبل والغنم، الإشارة ص ٣٨٣-٣٨٥، ألفية السيرة ص ١٤٠، في ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير، بهجة المحافل ص ٤١٨.
(٦) في ذكر نعمه، بهجة المحافل ص ٤٢٠-٤٢١، خيله ويقاله وحميره، السيرة الخلية حد ٣/ ٤٦٣-٤٦٥، الأسوة الحسنة ص ٤٨٧-٤٩٠، سباق الخيل ص ٤٩٠-٤٩١، حيواناته، سيرة المصطفى ص ١٠٧-١١٢، عيون الأثر ص ٤٢٠-٤٢٣، سيرة النبي حد ٢/ ١٦٩-١٧٠.
(٧) الأنوار حد ٢/ ٥٩٩-٦٠٣، خير العباد ص ٦٤٧.
(٨) «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟... فإن من حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا»، فقلت أفلا أبشر الناس فقال «لا تبشرهم فيتكلموا»، السابق ص ٦٠١، الإشارة ص ٣٨٨-٣٨٥، الفصول ص ٣٢٩، ألفية السيرة ص ١٤١.
(٩) الأنوار حد ٢/ ٦٠٣-٦٠٧، خير العباد ص ٣٤٨، الإشارة ص ٣٨٩، الفصول ص ٣٢٨-٣٣١.
(١٠) «إنه حق على الله عز وجل أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»، الأنوار ص ٦٠٤، الفصول ص ٣٢١، ألفية السيرة ص ١٤٢، بهجة المحافل ص ٤٢٠، الغنم، الأسوة الحسنة ص ٤٩٢.

لا يزيد عددهن ولا ينقص. وله عترة وربما سبع، وحرية وعصا وقضيب^(١). ينكت بالعترة الأرض. ويتحدث على ضرورة العمل دون الاتكال^(٢). يوصي بالسكينة دون إثارة الإبل للإسراع^(٣). حك نخامة عرجون. ونبه على عدم البزق في القبلة لأنها وجه الله^(٤). وفي يده قطعة جريد عندما طالبه مسيلمة بنصف ملكه فأجابه الرسول أنه لن يعطيه حتى هذه القطعة من الجريد^(٥). وفي يده عود وهو يبشر بعض أصحابه بالجنة مثل أبي بكر، وعثمان، مع بلوى تصيبه^(٦). وله دوابه من الخيل والبغال والحمير ونعمه، وغنمه. وله ديك ومنايح^(٧).

وقد بدأ تقديس الأشياء في حياة الرسول عندما أخذ أحد المسلمين عصا أعطاها إياه وتبرك بها وطلب أن تدفن معه لأن الرسول أخبره أن يتخصر بها في الجنة^(٨). وقد يفرد قسم خاص لتركته بعد وفاته: الأرض، والدواب، والأسلحة، والآثار المباركة، ومسكنه الشريف، والحاضنة، والخدم. وتظهر الأدوات للاستعمال أيضا في الشئائل: الحلبي، وخاتم النبوة، واللباس، والخاتم، والمغفر، والدرع، والخيل^(٩). وظهرت عناصر التبرك بالأشياء في حياة الرسول عندما أهدت امرأة إلى النبي رداء فأعجب به أحد الجالسين فأعطاه الرسول له. ولما عاب الناس سلوكا أفصح لهم أنه أخذه تبركا ليدفن

(١) الأنوار حـ ٥٧٢/٢-٥٨١.

(٢) «ما من نفس مثفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتب شقية أو سعيدة»، فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال «لا، ولكن اعملوا فكل ميسر، أما أهل الشقاء فيسيرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فيسيرون لعمل أهل السعادة»، السابق ص ٥٧٤.

(٣) «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع»، السابق ص ٥٧٦.

(٤) «أيكم يحب أن يُعرض الله عنه؟ إن أحدكم إذا قام يصلي فإن الله قبل وجهه فلا يبصق قبل جهة، ولا عن يمينه، ولا يبصق عن يساره تحت رجله اليسرى، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هكذا»، السابق ص ٥٧٦، بهجة المحافل ص ٤١٨-٤٢٠، حيواته، النبي المختار ص ٥٦.

(٥) «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها». ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله»، السابق ص ٥٧٨.

(٦) «افتح وبشره بالجنة»، «افتح وبشره بالجنة على بلوى تصيبه أو تكون»، السابق ص ٥٧٩.

(٧) ألفية السيرة ص ١٤٣.

(٨) محمد رسول الله حـ ٤٩/٢.

(٩) سيرة النبي حـ ١٥٠/٢-١٨١.

فيه^(١). آثاره مباركة، وشعره مبارك^(٢). ويبدأ تقديس أشياءه التي تركها في موضوع ميراثه^(٣). وأصبحت أدواته التي يستعملها جزءاً من شخصه. تتحول بعدها في الدين الشعبي إلى مقدسات، يتبرك بها كما هو الحال مع رفات القديسين، ولباسه، وقميصه، وجبته، وإزاره ورداؤه، وبردته، وحبرته. وهي عادات عربية مازالت مستمرة حتى الآن وميزة للباس العربي وللشخصية العربية. تظهر في الفن الشعبي كجزء من خصائص الشعوب، وكلها روايات. وليس من مصادرها أقوال مباشرة. منها ما هو مصنوع في شبه الجزيرة العربية، ومنها ما هو هدايا من الشام أو من اليمن. منها ما هو بسيط ومنها ما هو مكشوف بالديباج. ليس منها الحرير^(٤). منها ما هو لون واحد ومنها ما هو مزركش بأعلام^(٥). منها ما هو خفيف ومنها ما هو ثقيل بالرغم من حرارة الطقس^(٦). بدأ التبرك بالحديث عن لباسه الذي مات فيه وكفته وموضع دفنه وحفر قبره، والقטיפه التي وُضع فيها، وصفة القبر^(٧) ورش الماء عليه كما هو جار حالياً في زيارة المقابر من «التربية» لكسب المال من أهال المتوفي^(٨).

وتركة النبي هي الأشياء التي تركها وراءه لاستعماله الخاص. بدأ التبرك بها وكأن لها دلالة أو قيمة خاصة. وتنوعها من الشام واليمن وعُمان تدل على وحدة اللباس العربي. وهي التي تتناثر في كل مسجد خاصة بالهند وأواسط آسيا، بما في ذلك شعر الرسول.

(١) السابق حـ ٢/ ٢٤٤، حـ ٦/ ٢٦١.

(٢) السابق حـ ٢/ ١٥٤ / ١٦٠.

(٣) «ميراثه، السيرة النبوية ص ٣٢٥-٣٢٩، كل مال نبي صدقة إلا ما أطعمه، إنما لا يورث»، «لا يقسم ورثتي ديناراً ولا درهما، ما تركت بعد نفقته نسائي ومؤونة عاملي فهو صدقة»، شئائل النبي ص ٢١٨-٢٢١.

(٤) الأنوار حـ ٢/ ٥١٢ / ٥٢٧.

(٥) «لا ينبغي هذا للمؤمنين»، السابق ص ٥٢٠.

(٦) «اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانية أبي جهم فإنها أهدتني أنفاً عن صلاتي»، السابق ص ٥٢٠.

(٧) «إذا وزنت فأرجح»، السابق ص ٥٢٢، ومن الأدوات اللباس والقميص والجبة والإزار، والرداء والبردة، وليس الصوف، وليس الجديده، والعمامة، والقنصوة، والخاتم، والخف، والنعل، والفراش، والوسادة، واللحاف، والقטיפه، والخمير، والحصيرة، والمنبر والكرسي والسري، والقبه، والعنزة، والحربة والعصا، والقضيب، والرمح والسيف والقوس والنبل، والمغفر والدرع والترس، والراية واللواء، والشعار في الحرب، والنخيل والسرّج، والبغلة، والحمار، والناقة، والقدح..... الخ، خير العباد ص ٦٤٩-٦٥٨.

(٨) وفاة الحبيب، ص ١٣٧-١٣٨ / ١٤٨ / ١٥٤ - ١٦٢.

في كل مسجد شعرة دون سؤال كيف خرج شعره من الكفن وتناثر في كل مكان، مع سيف علي «البتار»^(١). وفي بيت عمر بن عبد العزيز آثار أخرى^(٢). ولا يراعى وصف الأشياء ولا الرسول في القطيفة التي بها وسخ شعر الرسول. والرسول على ما هو معروف يراعى النظافة. وكلها صدقة وليست للتبرك كأوثان جديدة، وكلها روايات قد تصح وقد تخطئ، ويحكم على بعض الأحاديث بأنها غريب، وبعضها أحاديث غريبة ومشكلة^(٣).

٢- تقديس الأمكنة

ومع تقديس الأزمنة وتناقلها، البداية بالهجرة ثم خير القرون قرنه حتى تقع الفتن آخر الزمان، هناك أيضا قدسية الأماكن تبدأ من الحديث^(٤). وهي الرحلات النبوية. قدم الشام مرتين. وهاجر من مكة إلى المدينة. فمكة المكرمة، والمدينة المنورة^(٥). وتتفاضل الأمكنة مثل مكة كما تتفاضل الأزمنة. فمكة خير أرض الله وأحبها إليه. ولولا أن أخرج منها الرسول ما خرج. حرما الله. وأول بقعة وضعت في الأرض، موضع البيت. وأول جبل أبو قبيس^(٦).

(١) السابق ص ١٧٨-١٨٢، هي: بغلته البيضاء، سلاحه، أرض جعلها صدقة لابن السبيل، عمامة، ثلاث قلانس صغار دون طيه وربما أربع، أحدهما بيضاء مضرية شامية، وثوب حيرة، والقطيفة التي وضعت في القبر، وبردة يمنية صحراء، وإزار من نسج عمان، شبر، البردة يوم الجمعة والعيدين، ثوبان صحراويان، وقميص صحاري، والقميص الذي غسل فيه، وجبة خمر اونية، وخيصة بيانية، وكساء أبيض، وملحقة مورسة، وخاتمه، وسريره، ويردتان، وجبة صوف، ودرع من حديد مرهونة عند يهودي، نعلاه، قلع غليظ، وقضيب من شمع.

(٢) سرير مرمول بشريط، قعب لشرب الماء، جرة مكسورة من الرأس، وسادة من آدم عجشوة بليف، قطيفة غراء فيها من وسخ شعر الرسول، وفاة الحبيب ص ١٨٣-١٨٤، «ما تركته فهو صدقة».

(٣) قص شاربه وظفره وأخذ من لحيته الشريفة إذا صح الخبر وحلق رأسه، الأسوة الحسنة ص ٤٨٣-٤٨٥، شمائل النبي ص ١٣٤، عيون الأثر ص ٤٢٧-٤٣١، ذكر الأسانيد التي وقعت من المصدقين التي أخرجت من كتبهم في هذا المجموع ما أخرجه، عيون الأثر ص ٤٥٥-٤٦٠.

(٤) «بعثت من خير قرن بني آدم، قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»، السيرة النبوية ص ٢٠٣-٢٠٥ في شمائل الرسول ص ٣٩، النبي الأعظم ص ٢٥-٣٣.

(٥) «لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد»، الجوهرة ح ١/ ١٧٢، الفصول ص ٣٣٨-٣٤٥، «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى»، سيرة النبي ص ٢٥٧.

(٦) «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»، «إن مكة حرما الله، ولم يجرمها الناس، فلا يحمل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة»،

والمدينة مثل مكة^(١). فالمدينة تأكل كل القرى أي تفوقها. تنفي الخبث من الناس. هي خير المدن. غبارها يشفي من الجزام. افتتحت سلما في حين افتتحت باقي المدن حربا. والموت بها لمن استطاع فضل عظيم. من مات فيها معتمرا أو حاجا دخل الجنة بلا حساب أو عقاب، ويشفع له الرسول، وهو من الأمنين يوم القيامة^(٢). لا يكبد فيها أحد. تحرسها الملائكة حتى لا يدخلها الطاعون أو الدجال، المدينة فيها البركة، كأثر لها. ووقعت آيات أخرى عند بناء المسجد فيها مثل رفع الكعبة للرسول كنموذج له^(٣). وصرف القبلة ووضع الأذان آيتان. إن شرف مكة والمدينة أنهما مهبط الوحي والتنزيل. في مكة ولد المصطفى، وفي المدينة وفاته^(٤).

وقد يكون المكان مسجدا بعينه مثل المسجد النبوي أو الحرم أو المسجد الأقصى^(٥). ولا فرق بين مسجده وبيته، وقد تكون مجالس الوعظ والإرشاد، آدابها وأوقاتها، والمجالس

أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مُدت من الأرض، وأن أول جبل وضعه الله عز وجل على وجه الأرض، أبو قيس ثم مدت منه الجبال، محمد رسول الله ح-٩٢/٩٣، مدح طيبة ص ٢٣-٢٦، بهجة المحافل ص ٥٠، «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس»، ص ٢٥١، ص ٢٩٠، سيرة النبي ص ٨٢-٩٥، «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض. فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يُعصد شوكة ولا يُنفر صيده»، السابق ص ٨٣، سيرة النبي ص ٣٥٣-٣٥٧، نزهة الكرام في مدح طيبة والبيت الحرام، ص ٢٣-٢٦، تفصيل بلديه على سائر البلاد وأن الدجال والطاعون لا يدخلهما، ويفضل مسجده على سائر المساجد، وبأن البقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة والعرش، الخصائص الكبرى ح-٢/٤٢٤-٤٢٥.

(١) «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون: يثرب، وهي المدينة تنفي الناس كما تنفي الكبر خبث الحديد»، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، «غبار المدينة شفاء من الجزام»، «كل البلاد افتتحت بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن»، «ما على الأرض بقعة أحب إلي من أن يكون قبر بها منها»، «من مات في أحد الحرمين حاجا أو معتمرا بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب»، «بعث من الأمنين يوم القيامة»، بهجة المحافل ص ٥٢-٥٤.

(٢) «إن الإيمان ليأزر كما تآزر الحية إلى حجرها»، «عل أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون أو الدجال»، سيرة النبي ص ٨٣-٨٥، فضل المدينة المنورة، السيرة النبوية ص ٢٠٢-٢٠٣، خصائص الرسول ص ٢٦٥.

(٣) «إن إبراهيم حرم مكة وأني حرمت المدينة ودعوت لها في مدحا وصاعها مثل ما دعى إبراهيم لمكة»، ص ٤٢٠، «ما وضعت قبلة مسجدي هذا حتى رُفعت لي الكعبة فوضعتها أمها»، اخصائص الكبرى ح-١/٤٢٠-٤٢٤.

(٤) في شرف مكة، والمدينة لد مولده ونشأته ووفاته وهجرته، سيرة النبي ص ٨١-٩٥.

(٥) بهجة المحافل ص ٩٧، سيرة النبي ص ٨٥، بهجة المحافل ص ٤٢٢.

الخاصة بالنساء، وطريقة هديه وإرشاده ولقاؤه الناس بالبشاشة والبشر وتأثير صحبته على من يصحبه^(١). وقد يكون جبلا حتى ولو أثار في الذاكرة آلاما وأحزانا مثل جبل أحد. قد يكون الدافع تحويل التجربة من الحزن إلى الفرح، ومن الألم إلى السعادة ومن الكراهية إلى المحبة، ومن الهزيمة إلى النصر^(٢).

وهل صفة القبر من عناصر النبوة^(٣)؟ وهل زيارته توجب الشفاعة؟^(٤). وكيف يتم التوفيق بين ذلك وعذاب القبر؟^(٥). وكيف أن من زار قبر الرسول بعد وفاته فكأنها زاره في حياته، وأن ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة^(٦)؟ ألم يحرم الرسول اتخاذ قبور الأنبياء مساجد؟^(٧). وهنا تظهر أهمية الوهابية التي حرمت زيارة قبور الأنبياء والأولياء بعد أن تحولت إلى أوثان قديمة وإلى أصنام جديدة. وتناقض كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية توجهات السيرة مثل النهي عن جعل القبور مساجد وفي نفس الوقت زيارة قبر النبي وتفصيل من دفن فيه وأوضاعهم^(٨). فلا يتميز الرسول عن غيره من المسلمين. يخفر الخندق ويجمع الخطب مثلهم^(٩). وقد يتحول تقديس المكان إلى زيارته، كحاج أو سائح أو بحب الاستطلاع. وتتحول إلى رحلة مسجلة كما هو الحال في

(١) سيرة النبي ح ١٨٢/٢ - ١٩٠.

(٢) «إن أحدا جبل يحبنا ونحبه»، محمد رسول الله ح ١/٣٣٤.

(٣) نموذج (١)

قبر النبي
قبر الصديق
قبر عمر

نموذج (٢) قبر النبي

قبر الصديق

قبر عمر

السيرة النبوية ص ٣١٩-٣٢٢.

(٤) «من زار قبري، وجبت له شفاعتي»، وفاة الحبيب ص ١٩٣، فيما ورد من الفضائل والبركات لقبره، بهجة المحافل ص ٣٩١.

(٥) «عندما ماتت فاطمة أم علي قال الرسول بعد أن قام بدفنها: اضطجعت في قبرها لأخفف عنها من ضغطة القبر، وألبستها لتلبس من ثياب الجنة»، السابق ص ١٨٧.

(٦) «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»، وفاة الحبيب ص ٩٤، «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، «ما بين حجرتي إلى منبري روضة من رياض الجنة»، وإن منبري على ترعة من ترع الجنة»، «قوائم منبري رواتب في الجنة»، بهجة المحافل ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٧) «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، السابق ص ٣٧٩.

(٨) «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «لا تتخذوا قبوري وثنا يعبد»، الرحيق المختوم ص ٤٦٥، سيرة النبي ح ٢/١٤٣.

(٩) «قد علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه»، السابق ص ٤٨٦.

أدب الرحلات. وتقارن المدن القديمة بالمدن الحديثة، وتشهد بفضل آل سعود، تجمع بين قبر حمزة والمدينة الحديثة، وتسجل آثار مكة، غار حراء، وغار ثور، وطريق الطائف، وتستخرج دلالة، ضرورة الجمع بين الحياة المادية والحياة الروحية^(١).

٣- الرسول بشر

وفي نفس الوقت تظهر بشرية النبي^(٢). فهو بشر يبلغ رسالة^(٣). لا يقوم بمعجزات يطلبها المشركون، تفجير ينبوع من الأرض أو تفجير أنهار في أرض بها جنة من نخيل وعنب أو إسقاط كسف من السماء، أو إحضار الله والملائكة تباعا أو وجود بيت من زخرف أو الرقي إلى السماء أو إنزال كتاب مقروء^(٤). ورفض الرسول أن يُطلق عليه لقب السيد. فلا سيد إلا الله^(٥). ورفض أن يسجد له كما يسجد للأعاجم فلا ملك إلا الله. والشمس والقمر آيتان من آيات الله. لا ينخسفان لموت أحد. والرسول ليس ملكا بل ابن امرأة كانت تأكل القديد^(٦). ولا يجوز السجود لقبره^(٧). ويؤكد الرسول بشريته، ويرفض إطراءه كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم^(٨). وكان الرسول يذكر

(١) وهو ما حدث في «مotel الوحي» لمحمد حسين هيكل، ص ١١٣-١٢٨/٣٦٤-٤٢٢/١٦٠-

٣٠٠/٤٨٩-٤٩٨..

(٢) «أَيُّتَ اللَّهِ بَشَرًا رُسُولًا»، «مَنْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رُسُولًا»، «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا»، «مَنْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ»، «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ»، «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا»، «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ»، دائرة معارف حـ/٨٣-٨٤.

(٣) «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ»، «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ»، السابق حـ/٨٦-٨٧.
(٤) «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُنْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعْخَمَتْ عَلَيْنَا مَقِطًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تُنَزَّلَ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه».

(٥) وأنا في السنة الرابعة بقسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، أكتب طلبا للعميد عام ١٩٥٦ لأعترض على إعطائي امتحان اللغة الألمانية من قسم الآثار وليس من قسم الفلسفة رفضت أن أكتب «السيد العميد» بل كتبت «الأخ الفاضل»، وأنا في ذروة انتسابي إلى الإخوان واضطهادهم منذ ١٩٥٤ بعد حل الجماعة. فحولت إلى مجلس تأديب تحت القبة من خمسة أساتذة. وصدر حكمي بالبراءة.

(٦) «السيد لله»، «الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»، سيرة النبي حـ/٧٥-٧٦.

(٧) «أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟»، السابق ص ٨٢.

(٨) «لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم. فإنما أنا عبده. فقولوا عبد الله ورسوله»، السابق جـ/٦٤/٨٢-٨٩، بهجة المحافل ص ٣٥٠-٣٥٤.

أصحابه دائما بأنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد حتى لا يخافوا منه ويعتبرونه ملكا مثل قيصر الروم أو كسرى فارس^(١). وقد خير الرسول بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا، فاختار أن يكون نبيا عبدا، دون ما حاجة إلى استشارة من جبريل^(٢). وفضل أن يأكل كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد^(٣). ولا يريد الرسول تجربة عيسى ابن مريم في إطرانه ثم عبادته ثم تأليه^(٤). ويرخص أن يجلس الملوك والناس وقوفا في الصلاة، وقوفا بوقوف الإمام، وقعودا بقعوده^(٥). ورزق آل محمد مجرد قوت^(٦). وهو خاتم الأنبياء وإن كان أقل من يونس بن متى^(٧).

الرسول مجرد شاهد ومبلغ ونذير وداع إلى الحق^(٨). هو بشر مثل باقي البشر، يغضب ويؤذي. وقد يشتم ويلعن ويسب^(٩). الرسول بشر يموت كما يموت سائر البشر وليس كما أراد أحد الصحابة تخليده أو بعثه كما بُعث عيسى ابن مريم أو لوراثته الإمام له^(١٠). وفي النهاية علم السيرة في التاريخ من الرسالة إلى الرسول من المولد والنشأة والجذور والإعلان والانتشار، والاكتمال والمصير، من النهاية إلى البداية حتى تشخيص الرسالة

(١) «هَوْنٌ عَلَيْكَ فَلَسْتُ بِمَلِكٍ. إِنَّا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»، الأنوار حـ ١/ ٣١٦.

(٢) «إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا... قُلْتُ نَبِيًّا عَبْدًا»، السابق ص ٣١٧.

(٣) «أَكَلَ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلَسَ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»، السابق ص ٣١٨.

(٤) «لَا تَطْرُقُنِي كَمَا أَطْرَقَ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ. إِنَّا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، السابق ص ٣٢٠.

(٥) «إِنْ كُذِّمْتَ أَنْفًا تَفْعَلُونَ فَعَلِ الْفَارِسَ وَالرُّومَ، يَقُومُونَ عَلَى مَلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ فَلَا تَفْعَلُوا. ائْتَمُوا بِأَتَمَّتِكُمْ، إِنْ صُلِّ قَانًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وَإِنْ صُلِّ قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا»، السابق ص ٣٢١.

(٦) «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قَوْتًا»، السابق ص ٢٢٣.

(٧) «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»، «وَلَا أَقُولُ إِنْ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، «مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»، «لَا يَقُولُنَّ أَحَدُكُمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، الشفا حـ ١/ ٣٠٦-٣٠٧.

(٨) «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ».

(٩) «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبَ كَمَا يَغْضِبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَيْتَهُ أَوْ لَعَنْتَهُ أَوْ جَلَدْتَهُ فَأَجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَزَكَاةً، وَقَرْبَةً تَقْرِبُهُ لَهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَجْعَلْ ذَلِكَ كَفَّارَةً لِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، «اللَّهُمَّ أَنِّي اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تَخْلِفَنِي. فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. فَأَيُّمَا الْمُؤْمِنِينَ أَذَيْتَهُ أَوْ شَتَمْتَهُ أَوْ لَعَنْتَهُ فَأَجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً...»، غايه الرسول ص ١٨٣-١٨٤.

(١٠) وذلك طبقا لقول أبي بكر الشهير «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ. وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ»، تذكرة بآية «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَرَأْنِ تَمَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ».

في شخص الرسول^(١). ويكون التحدي الآن في علم السيرة هو العودة من الرسول إلى الرسالة، ومن الشخص إلى المبدأ، ومن القاضي إلى القضية. وقد تكون أيضا محاولة للقضاء على عبادة الأشخاص من حياتنا الاجتماعية والسياسية.

٤- خاتمة:

النقد الذاتي جرت العادة البداية بالنقد الذاتي للجزء الأول الذي صدر على التو «علوم السيرة» وعنوانه الفرعي «من الرسول إلى الرسالة» من أجل العودة إلى الرسالة ضد تشخيصها في الرسول من أجل القضاء على «عبادة الأشخاص» في حياتنا، والالتزام بالمبادئ، «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». ولا يستطيع الباحث أن يدرك حدود عمله إلا بعد أن يتم مهما حاول طلب الكمال في البداية. فالكمال النظري قبل التحقق شيء والتحقق الفعلي بعد التصور النظري شيء آخر. وتتصور الأم أن وليدها في رحمها أكمل الأبناء جمالا وصحة. وبعد أن يولد تتضح عيوبه. وتم ذلك في نقد «من العقيدة إلى الثورة» في مقدمة «من النص إلى الواقع»، و«نقد النقل إلى الإبداع» في مقدمة «من النص إلى الواقع»، ونقد «من النص إلى الواقع» في مقدمة «من الفناء إلى البقاء»، ونقد «من الفناء إلى البقاء» في مقدمة «من النقل إلى العقل»، الجزء الأول «علوم القرآن» من المحمول إلى الحامل، ونقد الجزء الأول «علوم القرآن» في مقدمة الجزء الثاني «علوم الحديث»^(٢). ومع ذلك جرت العادة أيضا ولو على أقل نقد العمل في نهايته كما حدث في «مقدمة علوم الاستغراب»^(٣). وفي هذا الجزء الثالث «من النقل إلى العقل» عن علوم السيرة، «من الرسول إلى الرسالة»

(١) ويتضح ذلك من عدد صفحات الفصول، الأول: جذور الرسالة (٢٢)، الثاني: نشأة الرسالة (٢٢)، الثالث: إعلان الرسالة (٢٢)، الرابع: انتشار الرسالة (٢٢)، الخامس: اكتمال الرسالة (٢٢)، السادس: مصير الرسالة (٢٢)، السابع: تشخيص الرسالة (٢٢).

(٢) من النقل إلى الإبداع ص ١، ح ١ التدوين ص ٧-١٩، من النص إلى الواقع ح ١، من النقل إلى الإبداع إلى «النص والواقع» ص ٥-١٧، من «الفناء إلى البقاء ح ١»، «من النص إلى الواقع» إلى «من الفناء والبقاء» من النقل إلى العقل ح ١، علوم القرآن من المحمول إلى الحامل، «من الفناء إلى البقاء إلى النقل والعقل»، ص ٩-١٧. من النقل إلى العقل ح ٢ علوم الحديث «من نقد السند إلى نقد المتن»، من علوم القرآن إلى علوم الحديث ص ٧-١٦.

(٣) مقدمة في علم الاستغراب، «النقد الذاتي وحدود العمر»، ص ٧٧٨-٧٩١.

يأتي النقد الذاتي في نهايته أسوة بمقدمة في «علم الاستغراب» لصعوبة وجود خاتمة له لا تكرر ما قيل في المقدمة. ويمكن إيجاز حدود «علم السيرة» في الآتي:

١ - مازال القديم فيه طاعيا على الجديد كما هو الحال في الجزأين الأولين من «النقل إلى العقل»، «علوم القرآن»، «علوم الحديث». إذ يبدو أنه لا يمكن التخلص من سيطرة القديم. فالمشروع هو «التراث والتجديد»، أي كيف يخرج الجديد من القديم، والجنين من رحم الأم، والعصير من الفاكهة؟ فالقديم هو موضوع التحليل والحفر والاستقصاء. فلا نطف بلا حفر، ولا بئر في صحراء. ليست مهمة التراث والتجديد استخراج الجديد من لا شيء. فهذا أقرب إلى المقال الإعلامي لإثارة الانتباه، أو البحث العلمي، لإجراء النقاش بين متخصصين وغير متخصصين. الغاية منه وقتية وليست تاريخية، وربما أيضا إعلامية وليست علمية. إنما الغاية هو نفخ الغبار عن القديم، وإجلاء صدئه عن معدنه البراق، وجمع حديدته في النار حتى يُعاد طرده طبقا لحاجات العصر حتى لا يترك وحده ويأتي بريق من الخارج فوق القديم لا يحركه ويقشع تحت ظله. «التراث والتجديد» هو الجمع بين الاثنين إضاءة المصباح المنطفئ الذي تركه القدماء إصلاحه أو تعديله أو إضافة الزيت إليه. الانشغال بالقديم بالتحليل والاستقصاء مجرد وسيلة لا غاية حتى يسهل إعادة التركيب على أسس عصرية جديدة. وربما يظل هذا العيب ملازما لجميع أجزاء «التراث والتجديد»، يصغر أو يكبر. يصغر كما هو الحال في «من العقيدة إلى الثورة» حيث لم يأخذ إلا فصلا واحدا عن «تاريخ العلم» أو يكبر كما هو الحال في «من الفناء إلى البقاء» حيث شمل الجزء الأول كله عن «الوعي الموضوعي» و«من النص إلى الواقع» حيث ضم أيضا الجزء الأول كله «تكوين النص» في مقابل «بنية النص». كما استمر منهج مراجعة تراث القدماء في «من النقل إلى العقل»، الجزء الأول «علوم القرآن»، «من المحمول إلى الحامل» والثاني «علوم الحديث»، «من نقد السند إلى نقد المتن»، وعلوم السيرة «من الرسول إلى الرسالة» مرتين الأولى مراجعة أدبيات علم السيرة، والثانية مراجعة أدبيات علم الشرائع. كلها مصنفة في أنواع أدبية وليست في أعمال فلسفية للكشف عن جوانب الإبداع في التراث^(١). أليس من الأجدر دراسة العلم

(١) «من العقيدة إلى الثورة» ح١، ٢، «بناء العلم»، ص ١٤١-٢٢٧.

بدلاً من كتابة رسالة فيه مستمرة مع رسائل القدماء ومتجاوزة لها؟^(١)،^(٢)،^(٣) أليس من الأفضل تجاوز عرض الأدبيات السابقة ومراجعة القدماء والإحالة إليهم أثناء الدراسة الجديدة بدلاً من عقد فصل خاص لهم يطول أو يقصر، يكمل أو ينقص، يفيد أو يضر؟ لماذا لا يتم التركيز على الجديد مباشرة، وتدوين كل ما يخطر بالذهن من ملاحظات على كتابات القدماء دون التعرض لها مباشرة وعرضها عرضاً نقدياً كمادة في ذاتها؟ حينئذ يقل حجم الدراسة. ويتحرر الجديد من سطوة القديم، ولا يتوه القراء ويتأرجحون بين القديم والجديد. يهتمون بالثمرة وليس بتطورها من البذرة حتى نضجها.

٢- آليات التخفي زائدة تمنع من رؤية الجديد بعد أن أثقله القديم، فالقارئ الحديث لم يعد لديه الوقت الكافي للقراءة الفاحصة، المتأنية الصابرة على رؤية التأويلات والتحديات والتفسيرات والقراءات الجديدة للقديم. يحتاج النص إلى القارئ الفاحص المتأنى القادر على قراءة ما بين السطور بعيداً عن الفرقعات الإعلامية والشهرة الزائفة في وقت تهود فيه القدس، ويُعتدى فيه على غرة، وتبنى فيه المستوطنات بحيث تبتلع أرض فلسطين كلها. فالثقافة العامة غير مستعدة بعد لتقبل الجديد نظراً لطغيان القديم عليها وتجزره فيها وإعطاء بنيتها لها فأصبحت طاردة لكل جديد، ونافرة من كل بديل. والحقيقة أنه مهما كانت آليات التخفي زائدة، لا يظهر الجديد إلا بصعوبة فإن ذلك يؤدي إلى تفكيك القديم أكثر فأكثر حتى تعظم نسبة ظهور الجديد. وكلما زاد فك قيود الطير أمكن طيره بخفة أكثر وبسرعة أكثر. يكفي طرح السؤال، واستنفاد الإمكانية حتى ولو لم تكن هناك إجابة واضحة أو موقف جهوري صريح. فقد يحتاج إعادة بناء العلوم الثقيلة عدة أجيال. لا يكفي فيها صراخ إعلامي واحد بضرورة القبض على المتهم فتضييع القضية. ويُعزل صاحبها في الداخل أو في الخارج. وقد كان ديكاوت متخفياً بأخلاقه المؤقتة ورسالته إلى علماء أصول الدين في بداية «التأملات» حتى

(١) «من الفناء إلى البقاء»، ح١ «الوعي الموضوعي».

(٢) «من النص إلى الواقع»، ح١ «تكوين النص»، ص ٤١-٣٤٦.

(٣) «من النقل إلى العقل»، ح١ «علوم القرآن» ص ٣٧-٦٢، ح٢ «علوم الحديث» ص ١٦-١٣٢، ح٣

«علوم السيرة»، الباب الأول: علم السيرة، الفصل الثاني: تدوين السيرة، الباب الخامس: تشخيص الرسالة، الفصل الأول: انحراف الرسالة.

أزاح اسبينوزا القناع وأسقط الأخلاق المؤقتة. فلا فرق بين اليقين في الرياضيات وفي الطبيعيات أي اليقين العلمي من ناحية واليقين في الحياة العملية، في الموضوعات التي تركها ديكرت خارج دائرة الشك، الدين والسياسة، الإيمان ونظم الحكم^(١). أليس من الأفضل الحديث بشجاعة أكبر وبوضوح أكثر خاصة وأن الكتابات غير المباشرة على مدى نصف قرن لم تنتج الكثير. إيقاعها بطيء. وسبقته دراسات أكثر جرأة ووضوحاً فتشير الأذهان خارج الجامعات وبالتالي يتحول العلم إلى نهضة، والبحث إلى تقدم، وتنتقل هموم الخاصة إلى هموم العامة^(٢).

٣- بالرغم من أن الهدف من إعادة بناء علوم السيرة هو التحول من الرسول إلى الرسالة إلا أن الرسالة ظهرت كما هو الحال عند القدماء من خلال حياة الرسول. هكذا كان الحال في نموذج ابن إسحق وابن هشام، الرسالة من خلال حياة الرسول بدايةً ووسطاً ونهايةً، من أحوال العرب قبل الإسلام والميلاد ثم البعثة ومكة ثم الهجرة إلى المدينة والغزوات ثم العودة إلى مكة والوفاة. حياة الرسول ليست مقصودة بذاتها بل مجرد حامل للرسالة وكاشف عنها. الرسول وسيلة والرسالة غاية وليس العكس كما هو الحال في الشائتل، الرسالة وسيلة والرسول غاية. أعلن عن الرسالة وانتشرت من خلال حياة الرسول. ونزل الوحي على الرسول. والهجرة من مكة إلى المدينة قام بها الرسول. والغزوات قادها الرسول. والفتح أتمه الرسول. إنما السؤال على أي محور يتم التركيز الرسالة أم الرسول؟ في الشائتل انقلب المحور كلية من الرسالة إلى الرسول. وأصبح جماله، ووجهه، وشعره، وجبينه، وباقي أجزاء جسده جزءاً من الرسالة. كما أصبح طعامه، وشرابه، وآتيته، وقدره، ونومه، واتكاؤه جزءاً من الرسالة. بل إن لباسه عمامته، وجبته، ونعله، وركبه من فرس، ويغال، وحمير جزءاً من الرسالة. وأصبحت أزواجه ومواليه وخدمه أجزاء من الرسالة. فتضخم الرسول حتى شمل الرسالة واحتواها كما هو حادث حتى اليوم في أدعيته وذكره والاستغاثة به. ألا يوجد خوف من خروج القديم والجديد معا من هيكل لدى تلاميذه الهيجليين، ومن هو سرل عند

(١) اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٨-١٢.

(٢) وهذا ما فعله نصر حامد أبو زيد، خليل عبد الكريم، سيد القمني.

تلاميذه الوجوديين، ومن إقبال عند تلاميذه الرجعيين والتقدميين؟ ألا يحتاج الجديد إلى قطعة مع القديم أكثر مما يحتاج إلى تواصل؟ الرهبة من القديم لسلطوته، والخوف من الجديد لرهبته؟ وهل تؤدي الحلول الوسطية إلى نفس الدرجة من التقدم والنهضة كما تؤديها الحلول الجذرية. لم تنجح وسطية الأشاعرة في إحداث نهضة في حين نجحت جذرية ابن رشد في إحداث تقدم. فإلى أي حد يمكن الآن تجاوز تخطيط القدماء إلى تخطيط جديد حتى ولو كان الثمن هو الانقطاع والتضحية بالتواصل؟ ألا يوجد منطق طبيعي للأحداث وبناء عقلي للعلوم؟

٤- عدم الدقة في رصد الوقائع التاريخية والتعرف على الشخصيات ودقة الحوار بينها كما هو حادث في كتب التاريخ أو في تسجيل الأحاديث كما هو واقع في كتب الحديث. فهذه السيرة ليست فرعاً أو جزءاً من علم التاريخ. وليست صحيحاً أو مسنداً من كتب الأحاديث. هي تبدأ من التاريخ ولا تتوقف عنده. كما تعتمد على الحديث ولا تكفي به. فالصدق ليس في المطابقة بين الرواية والوقائع التي تروى بل في المطابقة بين متنها والتجربة المعاشة التي هي مصداق لها. فالوقائع حاملة لدلالات وليست الدلالات نفسها. فلا يهم اسم الشخص، ولا زمانه، ولا مكانه، أو اسم الواقعة، زمانها أو مكانها أو ترتيبها بل الدلالة المحمولة عليها. فالمنهج يتجاوز المنهج التاريخي الذي يرصد الوقائع، ويسجل أسماء الأشخاص، الأخبار والأموات، بل هو المنهج الشعوري الذي يعيش الواقعة كي يقتنص معناها. وقد خلطت السير القديمة إلا فيما ندر التي حاولت البحث عن المعاني والفوائد والدروس المستفادة بين المستويين. وتحولت السيرة إلى فرع من علم التاريخ الذي صدقه في مطابقة الرواية مع الواقع أو مع علم الحديث الذي صدق متنه في صحة سنده. ما هي العلاقة بين التاريخ والبنية، بين الواقع والدلالة؟ هل يمكن الإقلال من التاريخ إلى الحد الأقصى فالعلم في النهاية هو نسق نظري مكثف بذاته، له بنيته الداخلية؟

٥- عدم اقتناص الدلالات بما فيه الكفاية واستحالة تجنب الوقوع في بعض جوانب النزعة التاريخية. فالسيرة في النهاية تاريخ حتى وإن كان تاريخاً حياً لأشخاص عظام كالأنبياء. والدلالات بلا تاريخ فلسفة نظرية خالصة ومذهب فكري خارج

الزمان والمكان. ومهما حاول كاتب السيرة الحديث تجاوز السير التاريخية عند القدماء والذهاب إلى دلالاتها تظل تفرض نفسها. فلا نهاية بلا بداية، ولا تجاوز بلا شيء يتم تجاوزه. ويصعب الأمر إذا كانت الوقائع الدالة معروفة إلى أقصى حد منذ نعومة الأظفار، من المدارس والمساجد والبرامج التليفزيونية والصحف والمجلات الدينية، مثل نزول الوحي أول مرة، وإسلام عمر، واستشهاد حمزة، والهجرة، والغزوات، والفتح. فقد أصبحت السيرة معروفة عند الجميع، القاصي والداني، الصغير والكبير، المتعلم والامي. ومع ذلك يكفي الروح، والمنهج والغاية. تكفي النية والقصد، وهو التحول من الرسول إلى الرسالة من أجل القضاء على عبادة الأشخاص في حياتنا اليومية، الاجتماعية والسياسية. يكفي الكل حتى ولو غابت بعض الأجزاء أو طغى البعض الآخر. فالحفاظ على النسبة المتعادلة بين الوقائع والدلالات صعب للغاية. وربما لا وجود لمثل هذه النسبة. فالشعور يتردد بينهما، مرة في عالم الوقائع ومرة في عالم الدلالات. والآن ألا يمكن استنباط دلالات أخرى ودفعها إلى حدها الأقصى حتى ولو أدى ذلك إلى إصدار أحكام؟

٦- ربما كان يستحق «مصير الرسالة» مساحة أكبر. فكيف تغطي الرسالة خمسة فصول: جذور الرسالة، نشأة الرسالة، إعلان الرسالة، انتشار الرسالة، اكتمال الرسالة، على مدى نصف قرن أو يزيد هي حياة الرسول، ويغطي مصير الرسالة أربعة عشر قرناً منذ وفاة الرسول حتى الآن؟ والحقيقة أنه لو تم تشعيب مصير الرسالة لضم تاريخ الإسلام كله أو تاريخ الشعوب الإسلامية كما هو حادث في بعض كتب التاريخ العام حيث تبدو السيرة أحد فصولها الأولى^(١). يهدف مصير الرسالة فقط إلى بث روح الحزن عليها وعلى مآلها مقارنة بدايتها بنهايتها كما يفعل المصلحون، من الوحدة إلى التجزئة، ومن الشورى إلى الطغيان، ومن الخلافة إلى الملك، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الفتح إلى الاحتلال، ومن تحرير القدس إلى تهويدها، ومن الثراء إلى الفقر، ومن إبداع العلم

(١) وذلك مثل ابن الأثير: «الكامل في التاريخ»، البلاذري: «أنساب الأشراف»، ابن سعد: «كتاب الطبقات الكبير»، الطبري: «تاريخ الرسل والملوك»، علي جواد: «تاريخ العرب في الإسلام»، صالح أحمد العلي: «محاضرات في تاريخ الإسلام»... إلخ.

إلى نقله، ومن الاعتماد على الذات إلى الاعتماد على الغير. فالهدف ليس هو التاريخ بل مقارنة مرحلتين، الماضي والحاضر، القدماء والمحدثين، السلف والخلف، أما إذا كانت الغاية البنية فإن التاريخ يبدو مكررا إذا ما تم كشفها، فالمعية الزمانية المحدودة قادرة على احتواء التوالي الزماني اللامحدود.

٧- الاعتماد على نموذج ابن إسحق، وابن هشام أكثر من اللازم. فما هو إلا نموذج ضمن نماذج كثيرة، بل ويمكن القول إن هذه السيرة ما هي إلا قراءة وتعليق وشرح لسيرة ابن هشام مع إضافات في الهوامش وإحالات إلى مصادر أخرى. والحقيقة أنه أقدم النماذج وأكثرها ثباتا على مسار التاريخ حتى ولو تجددت النماذج إلى نماذج أخرى. فتطور حياة الرسول، البداية والوسط والنهاية، تطور طبيعي يتفق مع أي سيرة. وهي سيرة موضوعية تتجنب وجهات النظر العقائدية، سنية أو شيعية. هي سيرة كلية شاملة تعتمد على الروايات والأحاديث. دخلت في معظم السير اللاحقة: ويحال إليها من جميع أصحاب السيرة، قدماء ومحدثين، مثل «أسباب النزول» للواحدي، و«الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي في علوم القرآن، و«الرسالة» للشافعي في علم أصول الفقه، و«إحياء علوم الدين» للغزالي في التصوف، و«الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي في علم الكلام، و«الشفاء» لابن سينا في الفلسفة. هو النص - العمدة، النص - النموذج، النص - الأصل الذي تعتمد عليه جميع السير الأخرى. ولا تعيب السيرة الجديدة أن تكون قراءة لابن هشام. فقد قدم ابن هشام الوقائع. وقرأت هذه السيرة الدلالات. والوقائع ليست لأحد، لا لابن هشام ولا لغيره. يرويها الرواة، كل بطريقته، اختصارا أم تطويلا، موضوعيا أم ذاتيا. أقدمها هو الأقرب لها قبل تدخل الأهواء والميول الشخصية. السؤال الآن. هل يمكن الخروج على بنية المؤسسين الأوائل لعلوم «الرسالة» للشافعي في علم أصول الفقه، و«الإبانة» أو «اللمع» للأشعري في علم أصول الدين، و«الشفاء» لابن سينا في علوم الحكمة، و«إحياء علوم الدين» للغزالي في التصوف، و«الإتقان» في علوم القرآن للسيوطي، و«الباعث الحثيث» في علم الحديث لابن كثير، و«سيرة» ابن هشام في علم السيرة؟ هل هناك نص مؤسس عمدة للعلم أم هناك عدة نصوص؟

٨- قلت تغطية السير المعاصرة إلى حد كبير على تنوعها قطريا ولغويا والتزاما بكتابة سير جديدة مخالفة لما كتب القدماء، والحقيقة أنه لا يمكن استيعاب كل السير المعاصرة منذ الحركة الإصلاحية الحديثة. فهذا ما ينوء به الحمل ذاتيا. وما يستحيل إحصاؤه موضوعيا. ومع ذلك تتكرر الدلالات مثل الرغبة في تحديث المناهج، وكثرة استعمال منهج التحليل النفسي لتحليل الشخصيات وعلاقات الصداقة والعداوة بينها. كما يكثر استعمال المنهج الأدبي. فالسيرة وسيلة للتعبير الأدبي بعد الانفعال بوقائعها، وبطبيعة شخصياتها، والرغبة في التأثير على القارئ، عن طريق الأسلوب. فكتاب السيرة أدباء ومنهم الشعراء. ومنها المنهج الاجتماعي، وضع السيرة في بيئتها الاجتماعية، والشخصيات في بيئتهم القبلية حتى يمكن فهم تحولاتهم العقائدية. وفي أحوال العرب قبل الإسلام يستعمل المنهج التاريخي لمعرفة وضع الحجاز قبل البعثة. وكيف أنها كانت ملتقى طريق القبائل، وكيف ظهرت الدعوة في قريش لما لها من سيادة وشرف على باقي القبائل، ومنها سنده الكعبة، رعايتها وحمايتها. كانت كتابة السيرة إحدى وسائل الجهاد للإعلان عنه من خلال الرسول. فينضم إليه الناس، ويخشى منه الاستعمار. ومع ذلك فما تم تحليله من نماذج قد يكفي في بيان أهداف الإصلاح وطرق التعبير عنه. والعينة المختارة تدل على الكل الإحصائي وتغني عنه. والسؤال الآن: هل يمكن إعطاء عناية أكثر لاجتهادات المعاصرين وبحوثهم التي حاولت القيام بنفس الجهد لتحقيق نفس الهدف؟ أليس من الأفضل مراجعة الأدبيات الحديثة التي يعرفها القلة مراجعة نقدية من مراجعة الأدبيات القديمة التي يعرفها الجميع حتى لو انتهت إلى رؤى جديدة تمهد لإعادة البناء؟

٩- ومع ذلك يظل السؤال قائما: هل تنفع هذه السيرة الجديدة في تحقيق أهدافها؟ هل تكفي إعادة كتابة السيرة للقضاء على عبادة الأشخاص في حياتنا العامة، والتحول من الشخص إلى المبدأ؟ ألا تثير غضبا عند الناس لأنهم قد تعودوا على تحويل الرسالة إلى الرسول، وأصبح الرسول مركز حياتهم، يعطي ويغيث ويشفع، ويشفي ويصل الأرحام، بكمية الأدعية التي تقال له؟ أليس أسهل على الناس تقديس الأشخاص وتعظيمهم وتبجيلهم بل وتأليههم من تمثيل مبادئهم، واستئناف دعواتهم، والاستمرار في تحقيق رسالتهم؟ لقد مات ماركس ولم تمت الماركسية، ومات هيجل ولم تمت

المهيجلية. لقد توفي مؤسسو المذاهب الكبرى وبقيت مذاهبهم حية على ممر التاريخ. وهو معنى القول المشهور «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». الشخص يجسد المبدأ ولا يتجسد المبدأ في الشخص. ومع ذلك يحتاج الأمر إلى وقت طويل وعدة أجيال حتى يُعاد بناء الثقافة الشعبية من الشخص إلى المبدأ. ويتعود الناس على أن الأشخاص زائلون، والمبادئ باقية. يحتاج الأمر إلى جهد منذ التعليم في أوائل الصبا وعدم تقبيل الأيدي حتى لو كان للآباء أو للامهات، وعدم القيام لأحد حتى لو كان للمدرسين والنظار، «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم للموكهم»، والدعوات صغيرة في البداية، كبيرة في النهاية.

١٠- بالرغم من تسارع الإيقاع في إخراج أجزاء مشروع «التراث والتجديد»، من عشرات السنوات في الجزء الواحد إلى سنة واحدة إلا أن العمر أيضا يضيق ولم يعد فيه الكثير. وبمات أكثر مما هو آت. وما انقضى أقل بكثير مما قد يهل. «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» ومازالت باقي أجزاء العلوم النقلية لم يتم بناؤها بعد، علوم التفسير، وعلوم الفقه. ومازالت الجبهة الثانية «الموقف من الغرب» أو علم الاستغراب لم يتم تفصيلها بعد^(١). فالعقد قائم ولكن أحجاره الكريمة مازالت ناقصة^(٢). والجبهة الثالثة لم تتم صباغتها بعد. «الموقف من الواقع» أو «نظرية التفسير». فلربما التركيز على الدلالات وحدها دون الوقائع، والجديد فقط دون القديم، والنفط فقط دون آليات الحفر وركامه ومخلفاته. ربما يضيق الملل من عرض القدماء بالاكتماء بدلالات المحدثين فيتم الاستفادة بأكبر قدر ممكن في أصغر زمان متبقى في هذه المرحلة من العمر، المرحلة الماسية^(٣).

(١) استغرق «من العقيدة إلى الثورة» سبعة عشر عاما، و«من النقل إلى الإبداع» اثني عشر عاما، و«من النص إلى الواقع» أربعة أعوام، و«من الفناء إلى البقاء» عامين، و«من النقل إلى العقل» الجزء الأول «علوم القرآن» عاما واحدا، والثاني «علوم الحديث» عاما آخر، والثالث «علوم السيرة» عاما واحدا.

(٢) وُضعت في العقد عدة أحجار مثل هوسرل، في «تأويل الظاهريات»، وبرجسون فيلسوف الحياة، وفشته فيلسوف المقاومة، ومازالت باقي الأحجار الكريمة من «هيجل والمهيجليين» وبعض فلاسفة الوجود الظاهريتين حتى يكتمل العقد، وتوضح الصورة.

(٣) ١٩٣٥-٢٠١٠.

المصادر والمراجع

١. ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن إسحاق الحميري) (٢١٨هـ): سيرة النبي، حقق أصلها وضبط غرائبها وعلق عليها محمد محيي الدين عبد الحميد، في جزأين، مكتبة صبيح، مصر، (د. ت).
٢. ابن سعد (الحافظ محمد بن سعد بن منيع)، (٢٣٠هـ): سيرة النبي وأيامه، استخرجها، ورتبها وترجمها وضبط متنها أبو عبد الله، عبد السلام بن حمد بن عمر علوش، في جزأين، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٥ م.
٣. ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد) (٢٣٥هـ): كتاب المغازي، درسه وحققه وخرج آثاره عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيلية، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١ م.
٤. البخاري (ابن عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن الأحنف الجعفي مولا هم) (٢٥٦هـ): المتقى، رواه أبي عبد الله محمد بن يوسف. عنه رواية إلى محمد عبد الله بن أحمد حمويه الحموي السرطي. عنه رواية الإمام أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي. عنه رواية أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب الهروي. عنه انتقاء ابن العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن عبد السلام ابن تيمية الحمرا في الحنبلي، تحقيق عبد العزيز فيصل الراجحي، أضواء السلف، طبعة أولى، المملكة العربية السعودية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩ م.

٥. الترمذي (الإمام الحافظ ابن عيسى محمد بن عيسى) (٢٧٩هـ): شمائل النبي. حققه وخرج أحاديثه ماهر ياسين فحل، أشرف عليه وراجعه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس ٢٠٠٨م.
٦. الباقر والصادق والرضا والعسكري (٣٢٩هـ): تاريخ أهل البيت. تحقيق السيد محمد رضا الحسيني، الطبعة الأولى، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
٧. البستي (ابن حاتم محمد بن أحمد التميمي) (٣٥٤هـ): السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الفكر، في جزأين، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٨. ابن عبد البر النمري (الإمام الحافظ يوسف بن عبد الله) (٤٦٣هـ): سيرة الرسول المسمى الدرر في اختصار المغازي والسير، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٩. البغوي (الحسين بن مسعود البغوي) (٥١٦هـ): الأنوار في شمائل النبي المختار، حققه إبراهيم اليعقوبي، قدمه له محمد اليعقوبي، في جزأين، دار المكني، الطبعة الثالثة، سوريا ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٠. ابن عياض (القاضي عياض أبي الفضل بن موسى اليحصبي) (٥٤٤هـ): الشفا بتعريف حقوق المصطفى. تحقيق علي محمد البجاوي، في جزأين، مطبعة الحلبي، مصر، (د.ت).
١١. المقرئ (محمد بن سعيد بن معن اللحجي) (٥٧٦هـ): المستصفى في سنن المصطفى. عني به عبد اللطيف أحمد عبد اللطيف، قاسم محمد سعيد الحلبي، دار المنهاج، جدة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
١٢. ابن الجوزي (الإمام أبي الفرج عبد الرحمن) (٥٩٧هـ): الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى، في جزأين، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.

١٣. البرِّي (محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني) (٦٨١هـ): الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، تحقيق وشرح محمد التونجي، الطبعة الأولى، في جزأين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٤. اليعمري (ابن الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس) (٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغاري والشمال والسير. حققه نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد العيد الخطراوي، محيى الدين مستر، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، جزآن، مكتبة دار التراث، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٥. ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ): سيرة خير العباد، إعداد صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، طبعة أولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٦. ابن قليج (الحافظ مغلطاي) (٧٦٢هـ): الإشارة إلى سيرة المصطفى، حقق نصوصها وخرجها وعلق عليها محمد نظام الدين الضنيح، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، طبعة أولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٧. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): صحيح السيرة النبوية، بقلم محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧.

١٨. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): الفصول في سيرة الرسول، حققه وضبط أصوله، خرج أحاديثه وآثاره وعلق عليه أبو أسامة سليم بن عبد الهلالي السليقي، الطبعة العلمية الكاملة المحققة على ثلاث نسخ خطية، إحداها منقولة عن نسخه المصنف رحمه الله، جزأين في مجلد واحد، دار غراس، الكويت، طبعة ثانية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

١٩. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): معجزات النبي، تحقيق مجدي محمد الشهاوي، عالم الكتب، طبعة أولى، بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٠. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): شائل الرسول، المكتبة العصرية ٢٠٠٩م.
٢١. ابن الملقن (ابن حفص عمر بن علي الأنصاري) (٨٠٤هـ): غاية السؤل في خصائص الرسول، تحقيق وتخريج عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية، طبعة ثانية، بيروت ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٢٢. العراقي (زيد الدين عبد الرحيم بن الحسين) (٨٠٦هـ): ألفة السيرة النبوية، تحقيق وتعليق السيد محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار المنهاج، طبعة أولى، جدة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢٣. ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحيم الحضري الأشيلي المالكي) (٨٠٨هـ): السيرة النبوية، صححه وخرج أحاديثه أحمد البزرة، مكتبة المعارف، رياض، طبعة أولى، ١٩٩٨م.
٢٤. الآثاري (زين الدين شعبان بن محمد) (٨٢٨هـ): خمسة نصوص إسلامية نادرة في معجزات الرسول وفضائله وفضل الصلاة عليه، حررها وقدم لها هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، طبعة أولى، بيروت ١٩٩٠م.
٢٥. الدمشقي (ابن ناصر الدين) (محمد بن عبد الله بن محمد القيسي) (٨٤٢هـ): سلوة الكتيب بوفاه الحبيب، تحقيق ودراسه صالح يوسف معتوق، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ٢٠٠٢م.
٢٦. العامري (يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى الحضري الياني الشافعي) (٨٩٣هـ): بهجة المحافل وبغية الأماثل، عني به أبو حمزة أنور بن أبي بكر الشيعي، طبعة أولى، دار المنهاج، بيروت ٢٠٠٩م.
٢٧. السخاوي (محمد عبد الرحمن) (٩٠٢هـ): القول البديع. النص الكامل، قابله بأصل مصنفه وبأربعة أصول أخرى محمد عوان، دار اليسر، دار المنهاج، جدة ٢٠٠٧م.

٢٨. السخاوي (محمد عبد الرحمن) (٩٠٢هـ): استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف. دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠٠٩م.

٢٩. السهمودي (نور الدين علي بن أحمد) (٩١١هـ): وفاء الوفا. حققه ومفصله وعلق على حواش محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٥٥م.

٣٠. السيوطي (جلال الدين) (٩١١هـ): الخصائص النبوية الكبرى. تحقيق وتعليق حمزة النشقي، الشيخ عبد الحفيظ فرغلي، عبد الحميد مصطفى. المكتبة القيمة، القاهرة ١٩٩٦م.

٣١. القسطلاني (أحمد بن محمد) (٩٢٣هـ): المواهب اللدنية، تحقيق صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ثانية، مزيدة ومنقحة، أربع أجزاء، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣٢. الحضري (محمد بن عربحرق الشافعي) (٩٣٠هـ): سيرة النبي المختار، اعتنى بها، محمد غسان نصوح عزقول، دار المنهاج، طبعة ثانية، جدة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٣. الحلبي (أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد الشافعي) (١٠٤٤هـ): السيرة الحلبية، ضبطه وصححه عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، أربعة أجزاء، بيروت ٢٠٠٨م.

٣٤. الصبان (الشيخ) (القرن الثاني عشر): إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل آل بيته الطاهرين (هامش نور الأبصار). دار الفكر، القاهرة ١١٨٥هـ.

٣٥. ابن عبد الوهاب (شيخ الإسلام محمد) (١٢٠٦هـ): مختصر سيرة الرسول. الفيصلية. (د.ت)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ح١ / ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

٣٦. الشنقيطي (أحمد البدوي الجلسي) (١٢٢٠هـ): إنارة الدجى في مغازي خير الورى. شرح القاضي حسن بن محمد المشاط، قدم له بدراسة عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، دار المنهاج، جدة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
٣٧. ابن عبد الوهاب (عبد الله الشيخ) (١٢٤٢هـ): خلاصة سيرة الرسول. الفيصلية (د.ت)، المطبعة السلفية ومكبتها، الروضة بمصر ١٣٧٩هـ.
٣٨. الشبلجي (مؤمن بن حسن مؤن) (١٢٩٠هـ): نور الأبصار. دار الفكر، القاهرة ١١٨٥هـ..
٣٩. الطهطاوي (رفاعة رافع) (١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م): نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز. ح١، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة ١٢٩١هـ.
٤٠. شبلي النعماني (١٣٣٣هـ - ١٩١٤م): دائرة المعارف في سيرة النبي. أكمله سيد سليمان الندوي، قدم له علي جمعة، ترجمة وكتب حواشيه يوسف عامر، طبع على نفقة حسن عباس زكي، في سبعة أجزاء ٢٠٠٥.
٤١. خان (مولانا الإمام الحنفي أحمد رضا) (١٣٤٠هـ - ١٩٢١م): محمد خاتم النبيين. ترجمة نعمان الأعظمي (منظر الإسلام)، دار البيان للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٢م.
٤٢. الحنفي (أحمد بطاطان) (١٣٤٠هـ): محمد خاتم النبيين. ترجمة منظر الإسلام نعمان الأعظمي، دار البيان ٢٠٠٢م.
٤٣. الخضري (محمد) (١٣٤٥هـ): نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. تحقيق وشرح نواف الجراح، دار صادر، بيروت ٢٠٠٥م.
٤٤. النجار (محمد الطيب) (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م): القيس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء. معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٤٥. أحمد تيمور باشا (العلامة المحقق المغفور له) (١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م): محمد رسول الله. قدم له العلامة المهندس أحمد عبده الشرباصي. عضو مجمع

اللغة العربية. راجعه وأعدّه للنشر عبد الصبور مرزوق، مدير إدارة التراث
بدار الكتاب العربي، لجنة المؤلفات التيمورية، القاهرة حـ ١/٣، ١٣٨٩ هـ -
١٩٦٩ م.

٤٦. النبهاني (يوسف بن إسماعيل) (١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م): وسائل الوصول إلى
شئائل الرسول. عني به محمد نور عبد الرحمن كنجور، محمد غسان نصوح
عزقول الحيني، دار المنهاج، جدة، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٤٧. جبران خليل جبران (١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م): النبي. ترجمة موازية للنصين
الإنجليزي والعربي، ثروت عكاشة، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٨ م.

٤٨. محمد حسين هيكل (١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م): في منزل الوحي، المكتبة العصرية،
بيروت ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

٤٩. محمد حسين هيكل (١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م): حياة محمد. المكتبة العصرية،
بيروت ١٤٣٥ هـ، ٢٠٠٩ م.

٥٠. حسين (محمد الخضر) (١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م): محمد رسول الله وخاتم
النبيين.

٥١. العقاد (عباس محمود) (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م): عبقرية محمد. كتب ثقافية،
الدار القومية، القاهرة ١٩٥٩ م.

٥٢. الأمين النجفي (عبد الحسين أحمد) (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م): النبي الأعظم،
الإعداد والتحقيق محمد حسن الشفيعي الشاهرودي، مؤسسة ميراث النبوة.

٥٣. طه حسين (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣): على هامش السيرة. دار المعارف، ثلاثة
أجزاء، القاهرة ٢٠٠٤ م.

٥٤. علي شريعتي (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م): سياء محمد. دار الأمير، بيروت.

٥٥. علي شريعتي (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م): محمد خاتم النبيين، دار الأمير، بيروت.

٥٦. الندوي (أبو الحسن علي الحسيني) (١٤٢٠هـ): السيرة النبوية، تقديم يوسف القرضاوي، دار القلم، دمشق ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٥٧. الشرقاوي (عبد الرحمن) (١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م): محمد رسول الحرية. دار الهلال، القاهرة ١٩٦٩.

٥٨. الألباني (١٤٢٠هـ): صحيح السيرة النبوية. ما صحح من سيرة رسول الله وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه للحافظ بن كثير، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد، الرياض ح١/ ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٥٩. الصاغرجي (أسعد محمد سعيد): الأسوة الحسنة، دار الكلم الطيب، دمشق، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦٠. الثعالبي (عبد العزيز) (١٣٦٤هـ - ١٩٤٤م): معجز محمد رسول الله. تقديم ومراجعة محمد اليعلاوي، في جزأين، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦١. لوقا(نظمي) (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م): محمد الرسالة والرسول. الطبعة الأولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع ٢٠٠٦م.

٦٢. فتحي رضوان (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م): محمد الثائر الأعظم. كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩٤م.

٦٣. محمد أحمد خلف الله (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م): محمد والقوى المضادة، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٧٣.

٦٤. محمد السعيد: محمد رسول الله صفات الكمال البشري، نحو تأصيل الخطاب الديني، الكتاب الثاني، الدار الهندسية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦٥. خليل عبد الكريم (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م): فترة التكوين في حياة الصادق الأمين. ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ٢٠٠١م.

٦٦. خليل عبد الكريم (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م): قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية. الانتشار العربي، بيروت ح-١/٢/١٩٩٧م.
٦٧. خليل عبد الكريم (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م): دولة يثرب، بصائر في علم الوفود. سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٩م.
٦٨. الناصري (أحمد خضير محمود): روضة المحبين في الصلاة على سيد المرسلين، دار الحرية، بغداد، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
٦٩. خالد محمد خالد: معا على الطريق محمد والمسيح. دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٥٨م.
٧٠. الشامي (صالح أحمد): من معين الشرائع. المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٧١. عائشة عبد الرحمن: نساء النبي. دار المعارف، القاهرة ١٩٩٨م.
٧٢. عائشة عبد الرحمن: أم النبي. الشركة العربية، القاهرة ١٩٥٨م.
٧٣. العلي (إبراهيم): صحيح السيرة النبوية. تقديم عمر سليمان الأشقر، مراجعة همام سعيد، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧.
٧٤. النمري (يوسف بن عبد الله بن عبد البر): سيرة الرسول. تحقيق رضى فرج الهمامي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٧٥. الشنقيطي (عبد الله محمد بابا): محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام. دار عبد الله الشنقيطي، بيروت ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٧٦. أطفيش (الشيخ محمد بن يوسف): السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، المطابع العالمية، عمان ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٧٧. كنعان (محمد بن أحمد): السيرة النبوية والمعجزات. خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، بيروت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٧٨. كفوري (صفي الرحمن): الرحيق المختوم. دار المؤيد، جدة، ١٤٢٥هـ ،
٢٠٠٤م.
٧٩. الطرشان (محمد خير): الأيام والساعات الأخيرة في حياة الرسول محمد،
كتاب دمشق عاصمة الثقافة العربية، دراسة توثيقية معرفية متكاملة، مركز
الناقد الثقافي، دمشق، ١٤٣٩هـ - ٢٠٠٨م.
٨٠. سيد القمني: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية: مدبولي الصغير،
القاهرة ١٩٦٦م.
٨١. سيد القمني: حروب دولة الرسول. (جزءان)، مدبولي الصغير، القاهرة
١٩٩٦م.
٨٢. الصادق بن محمد بن إبراهيم: خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء، مكتبة
دار المنهاج، جدة، ١٤٢٦هـ. (دراسة).
٨٣. ٨٣. عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير، بيروت،
١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥، (دراسة).

صدر المؤلف

أولاً - تحقيق وتقديم وتعليق:

١. أبو الحسين البصرى: المعتمد في أصول الفقه، جزءان: المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.

٢. الحكومة الإسلامية للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩.

٣. جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠.

ثانياً - إعداد وإشراف ونشر:

١. اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثاً - ترجمة وتقديم وتعليق:

١. نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين، الإيهان باحثاً عن العقل لانسلیم، الوجود والماهية لتوما الاكوينى)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢. اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

٣. لسنج: تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٤. جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

رابعاً - مؤلفات بالعربية:

١. قضايا معاصرة، الجزء الأول، في فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٧.

٢. قضايا معاصرة، الجزء الثانى، في الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٨.

٣. التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧، مجد، بيروت ٢٠٠٠، ٢٠٠٢.

٤. دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

٥. من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات)، الطبعة الأولى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الثانية، المركز الثقافى العربى، بيروت ١٩٨٨.

٦. دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨، دار التنوير (قرطبة)، بيروت ١٩٩٠.

٧. الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢-١٩٨١)، (ثمانية أجزاء)، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩.

٨. حوار المشرق والمغرب، توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٠ (بالاشتراك مع محمد عابد الجابري)، مدبولي، القاهرة ١٩٩١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥.
٩. مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١، مجد، بيروت ١٩٩٤، ٢٠٠٠، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٩.
١٠. هموم الفكر والوطن (جزءان)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، ج١ التراث والعصر والحداثة، ج٢ الفكر العربي المعاصر.
١١. الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.
١٢. جمال الدين الأفغاني، المائوية الأولى (١٨٩٧-١٩٩٧)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.
١٣. حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.
١٤. من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء)، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠-٢٠٠٢.
١٥. ما العولمة؟ دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٢.
١٦. النظر والعمل والمآزق الحضاري العربي والإسلامي الراهن، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٣.
١٧. فشته، فيلسوف المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة ٢٠٠٣.
١٨. من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، ج١ تكوين النص، ج٢ بنية النص، دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٥.
١٩. حصار الزمن، الحاضر (إشكالات)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤.
٢٠. حصار الزمن، الحاضر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤.

٢١. من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٤.
٢٢. جذور التسلسل وأفاق الحرية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥.
٢٣. حصار الزمن، الماضي والمستقبل (علوم)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٥.
٢٤. برجسون، فيلسوف الحياة، المركز المصرى للمطبوعات، القاهرة ٢٠٠٨.
٢٥. نظرية الدوائر الثلاث، قراءة معاصرة بعد نصف قرن (جزءان)، دار العين للنشر ٢٠٠٨.
٢٦. عرب هذا الزمان، وطن بلا صاحب، دار الناقد الثقافي، دمشق ٢٠٠٨.
٢٧. الوحي والواقع، دار الناقد الثقافي، دمشق ٢٠٠٩.
٢٨. من الفناء إلى البقاء، محاولة لإعادة بناء علوم التصوف، ج١ الوعي الموضوعي، ج٢ الوعي الذاتي، دار المدار الإسلامى، بيروت ٢٠٠٩.
٢٩. محمد إقبال، فيلسوف الذاتية، دار المدار الإسلامى، بيروت ٢٠٠٩.
٣٠. من النقل إلى العقل، ج١ علوم القرآن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.
٣١. من النقل إلى العقل، ج٢ علوم الحديث، دار الأمير، بيروت ٢٠١٠.

خامسا - مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

1. L'es Méthodes d'Exégèse, essai sur La science des Fondements de la Compréhension, 'ilm usul al-Fiqh, le Caire, 1965.
2. L'Exégèse de la Phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique, et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980. (Arabic Translation, Dar Al

Amer, Lebanon, 2010).

3. **La Phénoménologie de L'Exégèse**, essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966).
Le Caire, 1988. (Arabic Translation, Dar Al Amer, Lebanon, 2010).
4. **Religious Dialogue and Revolution**, essays on Judaism, Christianity and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.
5. **Islam in the Modern World**, 2 vols, I- Religion, Ideology and Development, II- Tradition, Revolution and Culture, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1995, Dar Keba', Cairo 2000.
6. **Cultures and Civilizations, conflict or Dialogue?** 2 vols, I- The Meridian Thought, II- Cultural Creativity & Religious Dialogue Cairo, Book Center for Publishing, 2006.

د. حسن حنفى - الأعمال الكاملة

من النقل إلى العقل الجزء الثالث - علوم السيرة

- ٦ الإهداء
- ٧ تصدير
- ٩ المقدمة: من نقد السند والمتن إلى الرسول والرسالة

الباب الأول - علم السيرة الفصل الأول - تعريف السيرة

- ١٥ ١ - السيرة كعلم نقلي
- ١٧ ٢ - السيرة وعلم التاريخ
- ٢١ ٣ - السيرة وعلوم القرآن والحديث
- ٢٤ ٤ - السيرة والشعر العربي
- ٢٦ ٥ - السيرة وقصص الأنبياء
- ٢٨ ٦ - تعدد السير
- ٣٢ ٧ - مراحل السيرة
- ٣٤ ٨ - الكم والكيف

الفصل الثاني - تدوين السيرة

- ٣٧ ١ - نموذج ابن هشام
- ٥٤ ٢ - السيرة والتاريخ
- ٦٧ ٣ - المغازي والسير

٧٤	٤- السيرة والحديث
٧٧	٥- الرسالة والرسول
٩٨	٦- السيرة الحضارية الشاملة معارف
١٠٩	٧- السيرة الأدبية
١٢٠	٨- السيرة الليبرالية
١٣٣	٩- السيرة النضالية
١٤٧	١٠- السيرة النقدية التاريخية

الباب الثاني - تأسيس الرسالة

الفصل الأول - جذور الرسالة

١٦٧	١- شبه الجزيرة العربية
١٧٠	٢- المصاهرة والنسب
١٧٢	٣- ديانات العرب
١٧٥	٤- دين إبراهيم
١٧٨	٥- حلف الفضول
١٨٠	٦- عقائد العرب وعاداتهم
١٨٥	٧- عبادة الأصنام
١٨٧	٨- عقائد اليمن
١٩١	٩- ديانات فارس والهند

الفصل الثاني - نشأة الرسالة

١٩٥	١- الميلاد والرضاعة
٢٠٤	٢- الصبا والشباب
٢٠٩	٣- الزواج والبشارة
٢١٢	٤- تنبؤ اليهود والنصارى
٢١٨	٥- تنبؤ الكهان العرب

الباب الثالث - بداية الرسالة

الفصل الأول - إعلان الرسالة

- ١ - دخول الوحي في التاريخ ٢٢٣
- ٢ - إبلاغ الرسالة ٢٢٩
- ٣ - معارضة الرسالة ٢٣٤
- ٤ - رد القرآن ٢٣٩
- ٥ - الهجرة إلى الحبشة ٢٤٧
- ٦ - الإسراء والمعراج ٢٥٢
- ٧ - جدل السلم والحرب ٢٦١

الفصل الثاني - انتشار الرسالة

- ١ - الهجرة ٢٦٧
- ٢ - عداء اليهود ونفاقهم ٢٧١
- ٣ - الإذن بالقتال ٢٨٧
- ٤ - هل تتدخل قوى خارجية؟ ٢٩٢
- ٥ - الرسول والقائد ٣١٩
- ٦ - قواعد النزال ٣٢٣
- ٧ - نزول القرآن ٣٣١
- ٨ - مشاركة المرأة ٣٤٧
- ٩ - قتال اليهود ٣٥٠

الباب الرابع - نهاية الرسالة

الفصل الأول - اكتمال الرسالة

- ١ - بيعة الرضوان وصلاح الحديبية ٣٦٥
- ٢ - فتح مكة ٣٦٩
- ٣ - غزوة حنين ٣٧٤

٣٨١	٤- غزوة تبوك
٣٨٤	٥- الغدر والنفاق
٣٨٩	٦- الغزوات، والسرايا، والبعوث
٣٩٤	٧- الوفود، والرسائل، والوداع
٤٠٣	٨- وفاة الرسول
٤١٥	٩- جوهر الرسالة

الفصل الثاني - مصير الرسالة

٤٤٣	١- النبوة والخلافة
٤٤٧	٢- المخاطر الداخلية والخارجية
٤٥١	٣- أبو بكر والمخاطر الداخلية
٤٥٤	٤- عمر والمخاطر الخارجية
٤٥٩	٥- عثمان والفتنة الكبرى
٤٦٣	٦- علي والشهادة
٤٧٠	٧- من الخلافة إلى الملك
٤٨٤	٨- الرسالة في التاريخ
٤٩٤	٩- فتن آخر الزمان

الباب الخامس - تشخيص الرسالة

الفصل الأول - انحراف الرسالة

٥٢٤	١- الشرائع
٥٣٧	٢- الحقوق
٥٤٥	٣- الشخص
٥٦٠	٤- المعجزات

٥٦٧ ٥- خاتم الأنبياء
٥٧٢ ٦- الحبيب
٥٧٨ ٧- الدار
٥٨٧ ٨- النسب

الفصل الثاني - تشخيص الرسول

٥٩٧ أولا - مقدمة عامة
٥٩٧ ١- من الرسالة إلى الرسول
٦٠٢ ٢- من الرسول إلى الرسالة
٦٠٣ ٣- الأسماء والكنى والألقاب
٦٠٩ ٤- الأحاديث القدسية
٦١٠ ثانيا - تصورات خيالية
٦١٠ ١- محمد الكوني
٦١٦ ٢- الأنا الأول
٦٢٥ ٣- صاحب المعجزات
٦٤٥ ٤- الطب النبوي
٦٥٠ ثالثا - حقوق الرسول الإلهية
٦٥٠ ١- الحقوق والواجبات
٦٥١ ٢- التعظيم والمحبة والطاعة
٦٥٩ ٣- الصلاة على النبي
٦٧٢ ٤- العصمة
٦٧٦ رابعا - حقوق وواجبات الرسول الشرعية
٦٧٦ ١- حقوق الرسول الشرعية
٦٨٢ ٢- واجبات الرسول الشرعية
٧١٠ خامسا - تصورات حسية

٧١١	١- سمات الجسد
٧١٧	٢- العادات الجسدية
٧٢٣	٣- الأذواق الشخصية
٧٢٧	سادسا- تصورات معنوية
٧٢٧	١- الصفات النفسية
٧٣٢	٢- الفضائل الخلقية
٧٤٥	٣- الخصائص الدينية
٧٥٠	٤- البيان
٧٥٤	سابعا- تصورات اجتماعية
٧٥٤	١- الدين الشعبي
٧٥٩	٢- العادات الزوجية
٧٦٧	٣- القرابة والصحة
٧٩٠	ثامنا- أدوات المحيط
٧٩٠	١- أشياء للاستعمال
٧٩٧	٢- تقديس الأمكنة
٨٠٠	٣- الرسول بشر
٨٠٢	٤- خاتمة: النقد الذاتي
٨١١	المصــــــــادر
٨٢١	صدر للمؤلف
٨٢٧	فهرس الموضوعات